عبد الرحمن مُنيف



أرض السواد

مكتبة
Telegram Network 2020

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(أرض السواد)

ل «عبد الرحمن منيف **2004-1933**»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

قام بهذا العمل الجليل كلٌ من:

سعدي إلياس – الجَزائِر

أريج محمد – المملكة العربية السعودية

حسين – المملكة العربية السعودية

تيسير عثمان – جُمهورِيّةُ مِصرَ العَرَبيّةِ

حسين احمد – جُمْهُوريَّة العِرَاق

علياء عثمان – جُمهورِيّةُ مِصرَ العَرَبيّةِ

حذيفة مُحمد – الجُمهُورِيّةُ العَرَبِيّةُ السُورِيّةُ

غدير الجهني – المملكة العربية السعودية

محمد المقداد – الجُمهُورِيّةُ العَرَبِيّةُ السُورِيّةُ

شمس الحياة – جُمهورِيّةُ مِصرَ العَرَبيّةِ

محمد ماهر – جُمهورِيّةُ مِصرَ العَرَبيّةِ

دعاء عبدالله – المملكة العربية السعودية

جُمانة المدهون – فلسطين

رشيد تاديست – المَمْلَكَةُ المَغْرِبِيَّة

ايات علي – جُمْهُوريَّة العِرَاق

مراجعة وتنسيق:

منصور التميمي - دَوْلَةُ الْكُوَيْت

أعلام الدول المشاركة





قام بعمل استثنائي كلٌ من:

«سعدي إلياس - الجَزائِر»[1]

«أريج محمد – المملكة العربية السعودية»[2]

«حسين – المملكة العربية السعودية»[3]

«تيسير عثمان – جُمهورِيّةُ مِصرَ العَرَبيّةِ»[4]

«حسين احمد – جُمْهُوريَّة العِرَاق»[5]

«علياء عثمان – جُمهورِيّةُ مِصرَ العَرَبيّةِ»[6]

«حذيفة مُحمد – الجُمهُورِيّةُ العَرَبِيّةُ السُورِيّةُ»[7]

«غدير الجهني – المملكة العربية السعودية»[8]

لولا هؤلاء المتطوعين؛ لما كان يمكن أن يولد هذا العمل نهائياً!

أرض السواد
ا

عَبدالرّحمَن مُنيف

أرضُ السَّوادُ

I

* أرض السواد (رواية)
* تأليف : عبد الرحمٰن منيف
* الطبعة الثانية ، 2000

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي :
بيروت ، ساقية الجنزير ، بناية برج الكارلتون ، ص . ب : 5460 ـ 11
تلفاكس : 807900/ 807901

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع :
عمّان ، ص . ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، فاكس : 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية .
الدار البيضاء : 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص . ب : 4006 (سيدنا)
هاتف : 303339 ـ فاكس : 305726

لبنان
بيروت : شارع جاندارك ـ بناية المقدسي . ص . ب : 5158/ 113
هاتف/ فاكس : 343701/ 352826

الإهداء

إلى نورة، أمي، التي أرضعتني مع الحليبِ حبّ العراق.

إلى جبرا إبراهيم جبرا، إذ كان يُفترض أن نكتب معاً هذه الرواية.

إلى فيصل حبيب الخيزران، نيابة عن أصدقاء كُثر، كان لهم الفضل فِي معرفة العراق، الأرض والناس.

إشارة

لهجة بغداد مليئة بالكثافة والظلال، وقد استعملتها فِي الحوار للضرورة، دون محاولة لإظهار براعة لغوية. أتمنى على القارئ أن يبذل جهداً مِنْ أجل التمتع بجمال هذه اللهجة.

يقول شاعر إحدى الملاحم السومرية:
يا سومر، أيها البلد العظيم بين جميع بلدان العالم
أنت مغمورة بالنور الثابت الراسخ الذي ينشر
مِنْ مطلع الشمس إلى مغربها النواميس الإلهية بين جميع الناس
إن نواميسك المقدسة، نواميس سامية لا يمكن إدراكها
قلبك عميق لا يسبر غوره
المعرفة الصحيحة التي تأتين بها، كالسماء لا يمكن أن تمس.........
فيا بيت سومر عسى أن تتكاثر حظائرك وتتضاعف أبقارك
عسى أن تكون حظائر أغنامك وفيرة، وماشيتك لا عدّ لها
عسى أن ترتفع معابدك، وترتفع الأيدي الثابتة نحو السماء.
وبعد سومر وآكاد جاء البابليون، وقال أحد شعرائهم بعد أن دهمت البلايا:
إني، يا إلهي، عبدك المنيب
أدعوك دعوة مِنْ أثقلته الذنوب
وقلبه يخفق أسى وحسرة
نظرة منك بها حياة المرء
فانظر إليّ وهبني منك عطفاً
واقبل دعواتي
وخذ بيد عبدك
مِنْ هذه الحماة التي تورط فيها
وقربه منك
وأبدلني بالذنب رحمة
وسخِّر الرياح بأن تحمل عني
ما حملت أنا مِنْ إثم
وجردني مِنْ ذنوبي كلها
كما تُجرِد عني ثيابي
واصفح عني أنا الضارع الذليل

لكي يمتلئ قلبي غبطة
كتلك التي تملأ بها قلب الأم حين تضع
وقلب الأب بابنه.

وجاء الغرباء ودمروا أور، فقال أحد شعرائها:
أيها الرب، أنانا، لقد دمرت المدينة
كقطع الخزف المهشمة ملأ أهلوها جنباتها
هدمت أسوارها وناح الناس
ناحوا عند البوابات العالية، حيث كانوا يتنزهون،
وفِي الشوارع، حيث أقاموا الأعياد، نثرت أجسادهم
فِي كُلّ الدروب، حيث كانوا يتنزهون، تناثرت الأجساد
وفِي ساحاتها، حيث احتفلوا، تراكمت أكوام القتلى
إيه يا أور… إن ضعفاءك وأقوياءك قد قضى عليهم الجوع
الأمهات والآباء الذين لم يغادروا منازلهم، التهمتهم النيران
الأطفال فِي أحضان الأمهات جرفتهم المياه كالأسماك
وفِي المدينة، الزوجة تُركت، والابن أُهمل، والممتلكات نُهبت
إيه أنانا، إن أور قد خُربت وأهلوها قد شُتتوا.

أما نشيد نرجال عن المدينة حين تنهض مِنْ جديد فيقول:
ترتدي النور
وتحني رؤوس المتكبرين
قوية هي أياديك، ورحب هو صدرك
وما أن تشع عظمتك الرهيبة
فإن المسيء والشرير لا بد أن يرتميا
فِي أصداع الأرض
قال جوديا يبتهل لنانشي: «سأطرح هذه الكلمات، يا أمي، سأسرد لك حلمي، فهل ترغب مفسرة الأحلام أن تُفسره لي؟»

حديث بعض ما جرى

لما حضرت سليمان الكبير الوفاة، بعد أن ظل والياً لبغداد اثنتين وعشرين سنة، جمع أولاده الثلاثة: سعيد وصالح وصادق، وجمع معهم أصهاره الأربعة: علي باشا وسليم آغا وداود آغا ونصيف آغا، واستدعى أيضاً محمد بك الشاوي، وزير باب العرب، ليكون شاهداً. كان الجو، حين اجتمعوا حوله، مشحوناً بالرهبة والحزن. نظر كُلّ واحد منهم إلى الآخرين نظرة سريعة مضطربة، ثم تركزت العيون على سليمان باشا. بدا شاحباً مملوءاً بالأسى وهو ينقل نظراته فِي الوجوه. لم يتكلم أحد، خيم صمت واسع وقاس. فِي لحظة ما بدأ سليمان باشا كلامه، خرج صوته حزيناً مختنقاً «إن الله حق، والموت حق، ولا بد لكل إنسان أن يموت» أغمض عينيه، كأنه يستريح أو يحاول تذكر ما يريد أن يقوله، وتابع بعد فترة صمت ثقيلة: لقد حانت نهايتي. سأترككم وأترك الأمانة بين أيديكم.

صمت وطال صمته، حتى ظن الذين حوله أن لم يعد لديه ما يقوله.

لكن فجأة استعاد أنفاسه، تحرك فِي سريره أكثر مِنْ مرة، وتكلم باضطراب. تكلم عن قوة الجماعة وضرورة ترابطها، ثم أوصاهم جميعاً، وهو ينقل نظراته بينهم، أن يولوا بعده صهره علي باشا، الأكبر سناً والأكثر تمرساً بالحكم. طلب منهم ذلك بطريقة تقع بين الأمر والرجاء. وألح عليهم ألا يختلفوا حوله، وحذرهم مِنْ مغبة التنازع فيما بينهم. وقال، كما روي حامل الأختام: «إذا كُنتُم قلباً واحداً، وبينكم محبة لا يتسلط الغريب وتحوزوا الدولة التي اقتنيتها، وإلا متى تفخذتم عن بعضكم يأتي الغرباء مِنْ الوزراء ويبدلون الدولة والعائلة»..

لم يَكد سليمان باشا يلفظ أنفاسه ـ وقيل أن ذلك تم قبل ساعة مِنْ الوفاة ـ حتى جمع رئيس الانكشارية، أحمد آغا، مَنْ استطاع جمعهم مِنْ الرعاع والسّوقة، واستولى على القلعة. تحصن داخلها وأخذ يضرب السراي بالقنابل. لما سمع الناس الدويّ أسرعوا فأغلقوا دكاكينهم، وامتلأت شوارع بغداد بالمسلحين مِنْ الأهالي، وبقيت الحالة متقلقلة والأمور مُضطربة.

كان رئيس الانكشارية، أحمد آغا، يريد الصهر الثاني، سليم آغا، والياً، فِي الوقت الذي وقف محمد بك الشاوي مع علي باشا.

أما داود آغا، الصهر الذي تزوج أصغر بنات سليمان باشا قد أدرك أن فرصته لم تحن بعد، لذلك حزم أمتعته وسافر إلى البصرة، وبعد أن قضى هناك فترة يدرس ويتفقه بشؤون الدين، عاد إلى بغداد واستقر بجانب مرقد

الشيخ عبد القادر الكيلاني، حيث يستطيع هناك أن يواصل تلقي الدروس، وأن يدرس.

فِي اليوم الذي تلا وفاة سليمان الكبير نودي فِي بغداد باسم علي باشا والياً، فأعطى الباشا الجديد الأمان، وطلب مِنْ كُلّ فرد أن يلزم حده فِي صناعته، لكن الانكشارية، ومعهم الرعاع، أخذوا يدورون فِي الشوارع وهم تحت السلاح، وأغلبهم سكارى، فِي الوقت الذي لم ير فِي شوارع بغداد سكران أيام سليمان. وتبع أحمد آغا أرباب النهب والسلب مِنْ محلتي الميدان والشورجة، وأسافل المحلات الأخرى. أما أهالي باب الشيخ ومحلة الباب الوسطاني فلم يتبعوه، إذ مضى هؤلاء بالآلاف إلى السراي، وأقاموا المتاريس هناك.

ونهار السبت أخرج أحمد آغا المنادين داعياً إلى قتل علي باشا ومحمد بك الشاوي. وعصر ذلك اليوم «بدأ الطوب يشتغل مِنْ القلعة على السراي» وبدأ نهب الدكاكين، ولم يبق دكان فِي جميع أسواق المتاجر والعطاطير والبقاقيل، التي لا عد لها، إلا وفتحوها ونهبوها، ونهبوا حتى الأقفال»..

حين رأى محمد بك الشاوي الحال تسوء ساعة بعد أخرى، وكان مسيطراً فِي جانب الكرخ، أرسل يستدعي الوالي علي باشا، ليكون فِي مأمن مِنْ المخاطر والفوضى. وما أن عبر الباشا الشط إلى الضفة الثانية حتى هنأه الشاوي بسلامة الوصول، وطلب منه أن يتماسك وأن يتفاءل، لأن الأمور ستعود إلى طبيعتها، وستعود إليه السلطة بكل تأكيد.

ولم يتأخر محمد بك الشاوي لكي يأمر العقيل وعرب الجبور بالقضاء على الفتنة، فعبر هؤلاء النهر ليلاً وهم يصرخون: لعينك يا علي باشا، وهجموا على المتاريس، وأحرقوا جانباً مِنْ السوق المواجه للميدان، تحسباً مِنْ وجود الكمائن، وواصلوا الهجوم والنار مشتعلة، فهرب الذين كانوا فِي الكمائن مِنْ النار، والعقيل والجبور وراءهم، وهم يصيحون بالهاربين حتى قطعوا قلوبهم، فتبددت جموعهم، وعلى رأسهم الآغا إذ انهزم وتواري.

وبعد الظهر قام المفتي ومعه العلماء، أخذوا سنجق الشيخ عبد القادر، ومضوا إلى القلعة وعسكروا هناك، وقالوا: كُلّ مِنْ أعان الآغا على غيه فقد كفر، لأن الطاعة واجبة لولي الأمر، علي باشا.

وضرب العقيل والجبور باب القلعة، ضربوا الباب الصغير، فتحوا فيه ثغرة ودخلوا. فلما رأى المحاصرون ذلك رموا بأنفسهم مِنْ أعالي الأسوار إلى الأرض أو إلى الشط، ومن نجا وهرب منهم ذهب إلى نهب البيوت؟

أما علي باشا فقد رجع مِنْ جانب الكرخ وجلس فِي السراي، وأمر أن يمضي رجاله لينهبوا بيت أحمد آغا. وفِي ظرف ساعة صار ذلك البيت خراباً،

وأخرجت نساؤه سبايا، وضبط العسكر الكثير مِنْ الجواري ومعهن جملة مِنْ الأموال خرجن بها مِنْ البيت.

ونادي المنادي: كُلّ مِنْ وجد الظالم، أحمد آغا، وجاء به أو أخبر عنه، له جائزة ألف ليرة ذهبية.

وفِي اليوم التالي، والمنادي ينادي، قبض على مملوك لأحمد آغا، ولما ضرب أقر أن سيده فِي بيت بمحلة رأس القرية، فجاءوا إلى البيت وأخرجوه، وفِي ذلك اعتبار كاف لكل ظالم، لأنهم حملوه كأنه حمل:

كان حافي الأرجل، مكشوف الرأس، وبهيئة الموت. وكان أمامه ووراءه خلق لا عد لهم. ولما وصلوا به إلى السراي ورآه علي باشا ضربه على رأسه بغدارته، وأمر بتقطيعه، فسحبوه إلى وسط الميدان، وكُلّ يضربه ضربة. كانوا يضربونه بالسيوف والخناجر، وحلت نهايته، وكانت نهاية تعيسة. ثم صدر الأمر بالتفتيش علي موجوداته وعلى كُلّ مِنْ يمت له بصلة. وهكذا كانت نهاية مِنْ لا يحفظ وداً، وكُلّ مِنْ يقوم فِي وجه الوالي، أو لا يطيع له أمراً!

ما كادت هذه الغمة تنقضي، وقبل أن يستقر الوضع لعلي باشا، حتى بدأ الغزو الوهابي، مرة أخرى، كما يروي التاريخ. وإذا كانت لكل حرب أسبابها وذرائعها، فقد اعتبر الملا عثمان الذريعة. فهذا الرجل الذي قتلت زوجته وأولاده أمام عينيه فِي أثناء غزو كربلاء، قرر أن ينتقم. ذهب إلى الدرعية بزي درويش، واختلط بالناس هنالك إلى أن ألفوه وأطمأنوا إليه، وكان يصلي فِي الجامع الذي يصلي فيه الأمير عبد العزيز. وفِي يوم جمعة، انتهز الملا عثمان الفرصة أثناء الركوع، فألقى بنفسه على الأمير وطعنه بمدية اخترقت بطنه مِنْ الخلف، وطعن شقيقه، الذي كان يصلي إلى جانبه، لكن الأخير هوى على القاتل بسيفه وقتله.

وجاء بعد عبد العزيز ابنه سعود، وكان مصمماً على الانتقام مِنْ حاكم بغداد، إذ اعتبره مسؤولاً عن اغتيال أبيه، فتوجه على رأس قواته إلى البصرة وقتلوا فيها الكثيرين، ثم أغاروا على جماعة مِنْ المنتفق، كانوا قرب البصرة، برئاسة منصور بن تامر، فقتلوا عدداً منهم وأسروا رئيسهم. وذهبوا بعد ذلك إلى مشرب ماء الزبير فقتلوا عدداً كبيراً وهدموا مشرب. الماء، ثم حاصروا المدينة. استمر الحصار اثني عشر يوماً، حصدوا. خلالها المحاصيل الزراعية التي كانت ناضجة آنذاك، وهدموا القبور والمشاهد الموجودة خارج السور، ثم عادوا مِنْ حيث أتوا.

وأشيع خلال تلك الفترة أن محمد بك الشاوي، وأخاه عبد العزيز، ميلان إلى العقيدة الوهابية، فأمر علي باشا بقتلهما، فقُتِلا.

وفِي السنة التالية حاصر الوهابيون النجف، وكادت المدينة تسقط بأيديهم، لكن تجلت فِي اللحظة المناسبة المعجزات الظاهرة والكرامات الباهرة لأمير المؤمنين، فتصدى مع المدافعين للغزاة وكسرهم، وردهم خائبين.

أما مدد بك، وكان مِنْ المقربين لعلي باشا، فقد حمل فِي قلبه الحقد، وكان يضمر الشر للوالي. وأثناء صلاة الصبح فِي المسجد هجم مدد بك وأغمد خنجره فِي خاصرة علي باشا فقتله. وهرب مِنْ المسجد متوجهاً إلى دار سعيد بك ابن سليمان باشا، ولكن هذا طرده، فلجأ إلى بيت نصيف آغا، فاستقبله، واغتنم الفرصة ليطالب لنفسه بالولاية، إذ أرسل مدد بك ومن معه إلى دار النقيب، متولي أوقاف عبد القادر، ليقنعه بتولية نصيف آغا، لكن سليمان، ابن أخت علي باشا، كان أسرع منه، إذ حظي بمباركة الأعيان والعلماء، بمن فيهم النقيب، فقد سبقه إليهم، فبايعوه بدل الوالي القتيل، فوقف سليمان فِي وجه العصاة وطاردهم، فلجأ نصيف آغا إلى جانب الكرخ لعله يجد أنصاراً وحماة، لكن الناس هناك أنكروه ثم قتلوه، وشدوا فِي رجله حبلاً وسحلوه، وعبروا بجثته إلى جانب الرصافة.

كان سليمان الصغير - وقد سمى كذلك تمييزاً له عن سليمان الكبير - ويطلق عليه العامة كوجوك سليمان، حين تولى السلطة، حديث السن، مغروراً، وما كانت اسطنبول لتوافق على تعيينه والياً لولا تدخل فرنسا، إذ أصر سفير نابليون لدى السلطان على تثبيته «لأن أحوال بغداد فِي حالة الاختلال، وقوة سليمان باشا فِي غاية الكمال، فيكون مِنْ مصلحة الدولة توجيه الولاية إليه، ومن واجبه أن يبلغ هذا إلى الباب العالي بصورة ودية».

عينت إسطنبول سليمان الصغير والياً، لكن على مضض، وأخذت تتحين الفرص لعزله مِنْ ولاية بغداد. وحين جاءت الشكاوى ضده مِنْ الموصل وماردين، تذكرت إسطنبول أيضاً أن سليمان الصغير لم يرسل الأموال المقررة عليه، فأوفدت إلى بغداد خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر، كما يطلق عليه محبوه ومبغضوه فِي إسطنبول، والذي يعرف أحوال العراق كما يعرف باطن يده، كي يتولى أمر سليمان الصغير.

لما وصل خالد أفندي إلى بغداد خير سليمان باشا بين أمرين: إما أن يدفع ما عليه مِنْ الأموال ويستمر فِي الدفع مستقبلاً، أو أن يتخلى عن الولاية.

كان ردَّ سليمان باشا: ابتسامة صغيرة ساخرة، وهزات رأس رافضة، ثم قال: لا هذا ولا ذاك.

رجع خالد أفندي إلى الموصل، ومن هناك بدأ يُهيئ لمعركته مع سليمان. جهز حملة كبيرة، ثم زحف باتجاه بغداد، وعند خرنابات تقابل الجيشان. كان النصر، فِي البداية، لسليمان الصغير، لكن جاءت الأِخبار مِنْ بغداد أن أحد

الأغوات استولى على القلعة، فعاد سليمان مُسرعاً ليقمع التمرد، ويسترد القلعة.

انتهز خالد أفندي الفرصة، بعد أن رمم جيشه، وواصل الزحف، وبالقرب مِنْ الأعظمية وقعت المعركة بين الجيشين. كانت النتيجة فِي نهاية اليوم الأول تميل لمصلحة سليمان باشا، وبات ليلته تلك وهو واثق مِنْ النصر النهائي، لكن لم يكد يستيقظ فجر اليوم التالي حتى وجد أن معظم جنوده قد تخلوا عنه، إذ رجعوا إلى بغداد، وكانت الحجة أنهم سمعوا بورود فرمان السلطان بعزل سليمان باشا!

لم يبقَ مع سليمان إلا ثلاثون مِنْ رجاله، ولما تراجع ليعبر نهر ديالى، تصدى له نفر مِنْ شمر وقتلوه، وجاءوا برأسه إلى خالد أفندي، فأكرمهم وأجزل لهم العطاء، كما أمر بسلخ الرأس وإرساله إلى إسطنبول، عن طريق الموصل، وكان ذلك يوماً مشهوداً.

أما الفرمان الذي حملة خالد أفندي معه فكان خالياً مِنْ اسم الوالي الذي سيُعين بدل سليمان الصغير، إذ ترك لثعلب الصحراء الأغبر أن يختار مِنْ يراه مناسباً، فاختار مِنْ بين المتنافسين الكثيرين عبد الله التوتونجي.

لم يمض شهر على تسمية التوتونجي والياً حتى انفجر الوضع مِنْ جديد، وقد فجره ذاك الذي استولى على القلعة، إذ كان يطالب بثمن المشاركته فِي دحر سليمان الصغير. لكن التوتونجي رفض الاعتراف بفضل أحد، أو بأداء أيّ ثمن، ولذلك واجه التمرد بالقوة. بعد الصدام، وبعد أن تفوقت قوات التوتونجي انسحب ذلك الثائر وجماعته ولجأوا إلى الباليوز، لكن القنصل الإنكليزي لم يشأ حمايتهم، مما اضطرهم إلى الفرار مِنْ بغداد.

وطوال ولاية التوتونجي، وكانت قصيرة، ظلت الخشية، كُلّ الخشية، مِنْ سعيد بن سليمان الكبير، إذ يعتبر وحده المنافس الخطر، وبدأ اسمه يتردد أكثر مِنْ قبل، وتجسدت خطورته جدياً حين غادر بغداد، وتحالف مع شيخ المنتفق حمود بن ثامر، الأمر الذي دفع الوالي إلى تجهيز حملة كبيرة، قادها بنفسه، وقد ألحقت تلك الحملة بالعشائر وبسعيد هزيمة كبيرة، لكن فجأة تغير الموقف، إذ تذكر معظم قادة التوتونجي أفضال وإنعامات والد سعيد، سليمان الكبير، عليهم، فأحسوا بتأنيب الضمير وضرورة ردَّ الجميل، وهكذا تحولوا، واحداً بعد آخر، إلى تأييد سعيد، فقبضوا على التوتونجي، وساقوه مقيداً إلى سوق الشيوخ، وهناك قتل، وسمي سعيد والياً على العراق.

عندما سمع قاضي بغداد بهزيمة ومقتل التوتونجي أعلن باشوية سعيد، وقرر مع الأعيان والوجهاء إلتماس السلطان بتعيينه والياً، وألحوا فِي الطلب والرجاء، فوصل الفرمان السلطاني أوائل حزيران بتسمية سعيد والياً، وبالإنعام عليه أيضاً بمنصب الوزارة.

كان سعيد فِي الثانية والعشرين عند توليه السلطة، كان غِراَ، بعيداَ عن شؤون الحكم، أقرب إلى الترف والانغماس فِي الملذات، فترك للآخرين إدارة شؤون الولاية، فاستغل حمود بن ثامر الفرصة، وخص نفسه وعشيرته بالأرض والماء والخيرات.

يقول إبن سند: «كان سعيد كالدمية بيد حمود». ويقول رحالة إنكليزي زار بغداد فِي تلك الفترة: «إن الباشا مشغول بالمظاهر وبرياضته اليومية أكثر مِنْ أيّ شيء آخر»..

تمردت العشائر التي حُرمت مِنْ الأرض والخيرات والماء، والتي عانت أيضاً مِنْ تحكم حمود بن ثامر، فثارت وأصبحت تهدد بغداد، وعند ذاك لم يجد سعيد غير داود لكي يتعامل مع هذا الخطر المحدق، فانتزعه مِنْ عُزلته، ووجهه نحو العشائر المتمردة. استطاع داود بالحزم والحنكة أن يقضي على هذا التمرد. وما أن هدأت الأمور حتى قامت ثورة مِنْ نوع آخر: ثورة نابي خاتون، زوجة سليمان الكبير ووالدة سعيد، إذ اعتبرت عودة داود تحدياً لها، فلقد رفضت، ومنذ البداية، أن تزوجه ابنتها، لكن لم تستطع الوقوف فِي وجه سليمان، فلجأت إلى معاملته بخشونة، وبعض الأحيان بازدراء، وكانت لا تخفي عداءها له. أما الآن، وبعد أن قضى على التمرد، وأصبح الجميع يلهجون باسمه، فقد أصبح رجلاً خطراً. قالت نابي خاتون لابنها سعيد تؤنبه، عندما جاء لزيارتها: «كيف تتخذ داود نائباً لك وأنت تعرف حق المعرفة أنّه وأشباهه أعدائي منذ وقت طويل؟ يجب أن تعزله حالاً، وإلا فوجهي حرام عليك، وحليبي غير محلل لك، فلست أنت ولدي ولست أنا أمك». ولم يجد سعيد بُداً مِنْ عزل داود.

لم تكتف نابي خاتون بعزل داود، بل بعثت وراء عبد الله ظاهري، الذي كان نائباً لزوجها وعينته نائباً لسعيد. رفض ظاهري، أول الأمر، ومما قاله لتبرير رفضه: كان المرحوم سليمان باشا أفلاطون زمانه. كان مُعمر الأطراف والحواشي، وكان عنده رجال يخدمونه بالصدق، أدناهم كُنتُ أنا، فكثر فِي أيام حكومته العلماء والشعراء وأهل الصنائع، وكثرت البضائع وتعمرت البلاد، كما قلّ الأوباش. أما اليوم فأنتم تريدون أن أباشر الأمور، وأتعاطى سياسة الحكومة، وكُلّ أمور أفندينا، سعيد باشا، وكُلّ خصوصياته، بأيدي أوباش مجتمعين على رأسه،«فكيف أستطيع ذلك؟» لم تقبل نابي خاتون أعذاره، وما زالت تصر عليه، وما زالت تُلح إلحاحاً شديداً، حتى اضطر مُكرهاً للقبول!

باشر عبد الله ظاهري أمور الدولة، وبذل كُلّ جهده خلال أربعة شهور، ثم فِي لحظة لم يحس بها أحد هرب واختفي!

هرب بعد أن وقع سعيد باشا فِي غرام شاب اسمه حمادي العلوجي. كانت علاقته به فِي البداية إعجاباً، لكن لم يلبث هذا الإعجاب أن تحول إلى عشق، ثم أصبح العشق هياماً فاستلاباً لا فكاك منه، لما يتمتع به حمادي مِنْ حسن وإغراء، ومن رقة وسخاء، الأمر الذي حمل الناس على الاقتناع أن العلاقة بين الاثنين تفوق الحد وتتجاوز الوصف، خاصة بعد أن شاع الاسم الذي يطلقه عليه سعيد: حادي، وبعض الأحيان حداوي، وكان الناس يسمونه مِنْ قبل ابن أبو عقلين لخفته وسوء سلوكه، وقيل أيضاً لأنه جاء من بعقلين!

أصبح حمادي الآمر الناهي، إذ لا يمكن أن يُرد له طلب عند سعيد، ولا يحصل أيّ أمر إلا بموافقته ورضاه، كما أصبح يرتقي فِي مناصب الدولة إلى أن وصل لرتبة نائب الوالي.

وغرق سعيد بعشقه وفسقه، فأهمل أمر الرعية وشؤون الحكم، فتدهورت الأحوال وضاق الناس وارتفعت الشكوى، ولم يتأخر داود لكي يلتقط الإشارة، ويدرك أن زمنه قد حان.

غادر بغداد مع مائتين مِنْ رجاله الأشداء، بحجة الصيد، لكنه صمم أن يقود المعارضة وأن ينقذ البلاد.

مِنْ بغداد إتجه إلى الشمال، حيث يتجمع أعداء سعيد. ومن هناك كاتب إسطنبول، واتصل بخالد أفندي، فلقي الدعم والتأييد، خاصة وأن خالد أفندي أصبح معادياً وحاقداً على سعيد، بعد أن رفض له فِي وقت سابق طلب تعيين عزرا رئيساً للصرافين، بدلاً مِنْ ساسون، لأن نابي خاتون وحمادي لم يكونا راضيين عنه.

وأخذت الأحوال تسوء يوماً بعد يوم، ولو ترك الأمر لسعيد باشا لاختار أن ينسحب، لكن حمادي لم يوافق، وما زال يحرضه على الرفض والمقاومة حتى اضطره للإذعان. قال له حمادي حين وجده متردداً: «إذا خالفتني فقدتني، وإذا طاوعتني فأنا لك إلى الأبد». وهكذا وجد سعيد نفسه مضطراً لمواجهة داود.

تقدم داود بقواته نحو بغداد، ونشبت المعركة بين الطرفين، ومثلما هي الحال فِي العديد مِنْ المعارك، كان النصر فِي البداية إلى جانب سعيد، فانسحب داود، لكنه لجأ إلى الحصار، إذ منع وصول المؤن إلى بغداد، فارتفعت الأسعار، وضج الناس بالشكوى، وبدأت بوادر الثورة فِي محلة باب الشيخ، ثم امتدت إلى المحلات الأخرى، فخرجت المظاهرات يتقدمها حملة الأعلام والدفوف والطبول، فعمت الفوضى وكثر السلب والنهب، مما اضطر سعيد إلى الاعتصام فِي القلعة.

تواصلت المناوشات بين الجماهير وفلول قوات سعيد لمدة خمسة أيام، وقد جرح فِي إحدى المعارك حمادي العلوجي، الأمر الذي أخرج الوالي عن طوره، وجعله يترك كُلّ شيء ويرابط إلى جانب حمادي لا يفارقه لحظة واحدة، يواسيه ويخفف عنه، وحينئذ اجتمع أعيان بغداد وعلماؤها فكتبوا إلى داود يحثونه على الإسراع لدخول بغداد.

1

وفِي ليل الخميس، التاسع عشر مِنْ شباط، اختلى داود باشا بمحب الدين المرادي، كبير المنجمين، ليقرأ له الطالع، وليستشيره حول أنسب الأوقات لدخول بغداد. طلب محب الدين مهلة بضع ساعات، كي يرجع إلى أوراقه وأصفيائه مِنْ أجل أن يرد الجواب، «لأن الأمر جلل والنجوم فِي حالة اختلال»..

وخلال تلك الساعات، بين الأوراق والبخور والأوراد، ثم الاجتماع برهط مِنْ أصحاب البركات، انكشف لمحب الدين المرادي الوقت والمجال. قال للباشا، وكان صوته عميقاً وفيه رنة خشوع: «السعد ممتزج والبروج ثلاثة، فإن حان القوس، وكان بمنزلة الإكليل، ففي ذلك الوقت تسير، لأنك تخرج مِنْ البروج الشمالية إلى البروج الجنوبية. وعند زيادة الميل تكون وقفة العز، وأنك مع الله تخرج مِنْ المرئي إلى جيب التمام، وحيث يلتقي الخطان يكون المجرى وفيه الأمان، ولا بد أن يكون ذلك بعد إشارة أو اثنتين، وإذا قدر الله وشاء يصير كُلّ شيء إلى الرضا والمبتغى، خاصة وأن الغد جمعة الرحمان، وعند الفجر يبين الخيط الأبيض مِنْ الخيط الأسود، والخيرة ستحدد الوقت والأوان، فإلى أن تحين نم آمناً، وسنبلغك، بمشيئة العليم القدير، ما تقوله الطوالع والأقدار...

وفِي يوم الجمعة، العشرين مِنْ شباط، قال محب الدين المرادي للباشا همساً، وهو يستعد للتهليل والتكبير: حان وقت السعد يا باشا، وبغداد منذ اليوم لك، فإذا أصبحت الشمس فِي برج الزوال ضل ولا تتأخر فِي الدخول، ادخل بغداد آمناً، أدخلها دون تأخير.

ولما كبر المؤذن معلناً منتصف النهار، وما أن انتهت الصلاة، وكانت قصراً، حتى دقت الطبول إيذاناً بالدخول. فامتطى الباشا حصانه وهمزه، فمد الحصان رجله اليمني، كما أكد الكثيرون، واقتحم، وكان هذا مِنْ مطالع الخير والبركة. وبلمح البصر اجتاز الباب الشرقي، وبلمح البصر أصبح الباشا فِي بغداد.

الحصان الذي امتطاه داود باشا كان أقرب إلى البياض، وقد سماه، تيمناً، المبروك. كان الحصان، بنظر الذين رأوه عن قرب، أكثر ارتفاعاً مِنْ الخيول الأخرى، وكان أكثر رشاقة أيضاً. وكان يخالط بياضه قليل مِنْ الزرقة، يظهر ذلك مِنْ العرف المسترسل على الرقبة، ثم يمتد بلمعان باهر حتى الذيل. أما حين تسقط عليه الشمس فيبدو شديد البريق، أقرب إلى الوهج، وكأنه مغسول بالزيت والنور معاً.

أحاط بداود باشا، بعد أن اجتاز البوابة بمفرده، وعلى مسافات متفاوتة، لكن دون قدرة على ضبط خطوات الخيول: قادة الجند والمفتي والنقيب، ثم عدد كبير مِنْ الوجهاء وأغوات الكرد وشيوخ العرب، ثم عدد مِنْ العلماء والتجار، وأكبر مِنْ هذه الأعداد الحرس والجنود. وكان يحف الجميع، مِنْ كُلّ ناحية، وعلى طول الطريق المؤدي إلى السراي، حاملو البنادق والسيوف. أما الموسيقيون، وضاربو الطبول بشكل خاص، فقد تقدم عدد منهم الموكب، واتخذ آخرون مواقع ثابتة على طرفي الطريق، خاصة عند المنعطفات أو فِي الميادين.

كانت الموسيقى وهي تتردد وتختلط تفقد إنسجامها ووحدتها، وكانت أصوات الطبول تطغى على كُلّ ما عداها، وتلتحم بأصوات الذين يهتفون ويهللون. وعند كُلّ زاوية، وفِي كُلّ ميدان، حين تضج أصوات الطبول الواقفة مع أصوات تلك التي تسير، يلتهب الجو ويرتفع الدوي ويزداد الصخب، كما تتوالى، بتدفق مجنون، موجات البشر. ويحاول الناس، جاهدين، السير مع الموكب ومرافقته، وحين يعجزون، يتزايد التدافع وتتراكب الكتل لتكون كُلّ واحدة أقرب إلى موكب الباشا، أو على الأقل أن تحافظ على موقعها. يتم كُلّ ذلك مع الفرح الجامح، ومع التهليل والتكبير.

كان الناس فِي حالة مِنْ الهياج لم يُشاهدوا فِي مثلها مِنْ قبل، إذ تمتزج عواطف الفرح بالانفعال، بالرغبة فِي عمل شيء ما. وكانت الشمس الدافئة تزيد هذه الرغبة وتذكيها. فالعيون لا تستقر فِي مكان، والأيدي تتحرك بعصبية وعنف تعبيراً عن التحية، والأجساد المتراصة بمقدار ما تولد الدفء اللذيذ فإنها تولد الضيق، وبعض الأحيان الشعور بالاختناق.

لكن ما أن تزداد ضجة الطبول التي تتقدم الموكب، ويجاريها الذين يقفون فِي الأماكن الثابتة، وما إن تظهر طلائع الحرس الخاص حتى يزداد الانفعال وترتفع الأصوات والأيدي أكثر مِنْ قبل فِي محاولة لأن تقول شيئاً قوياً.

الناس يرفعون أكفهم أو يهزون قبضات الأيدي ويرددون بأصوات متداخلة أقرب إلى التنغيم: مرحباً يا حامي البلاد، مرحباً يا منقذ العباد، مرحباً وخير مقدم. والباشا الفرح، المنفعل، البادي القوة والنشاط، يرفع يده اليمنى بين لحظة وأخرى، والابتسامة الواسعة لا تفارق وجهه. كان يتلفت فِي كُلّ الاتجاهات، وكانت نظراته كالريح تمسح الجموع، بحيث يصبح كُلّ مِنْ يراه مقتنعاً أن الباشا يحييه، ينظر إليه بشكل خاص، وأنه يعنيه قبل أن يعني أيّ إنسان آخر.

بدا ذلك اليوم مِنْ شهر شباط أقل برودة مِنْ أيام أخرى، وهذا ما جعل الناس يشعرون أكثر بالفرح. حتى النسوة اللواتي خشين ألا تتاح لهن الفرصة لرؤية الوالي الجديد، بسبب نزق الآباء والأخوة والأزواج، إذ لا

يسمحون لهن فِي العادة بالخروج إلا لزيارة الأهل والمقامات الدينية، أو الوفاء ببعض النذور، ويعللون ذلك بالخوف عليهن... تمنت النسوة مِنْ أعماق القلوب لو يتسامح الرجال فِي مثل هذا اليوم ويتركون لهن حرية الحركة، وهذا ما حصل بالفعل، خاصة بعد الأيام الثقيلة المليئة بالرعب التي مرت.

لقد كان مِنْ جملة الحظوظ الحسنة، وتفاءل بذلك الكثيرون، أن الآباء والأزواج، وهم يسمعون النسوة يتهيأن للخروج، تظاهروا أنهم لم يروا.

كما أنّ السماء وهي تصحو، والشمس وهي تنشر دفأها فِي الهواء، جعلت الرجال أكثر تسامحاً، وهذا ما يسر للنسوة تجاوز الشرفات وسطوح المنازل، كما كانت العادة فِي مرات سابقة، وأن يشهدن كُلّ شيء بأنفسهن، ولا يعتمدن على ما ينقله الصبية أو بعض الرجال، بعد أن يُحرف ويتغير بحيث يصبح شيئاً مختلفاً..

إن التعب الذي مازجه الخوف طوال الشهور الماضية جعل الكثيرين لا يصدقون أن الكابوس انتهى، إلا إذا شهدوا ذلك بأنفسهم ليتأكدوا، وهذا ما دفع الرجال والصبية، وكانوا أقرب إلى الانفعال، إلى الخروج مِنْ البيوت مبكرين، بعد أن تزايدت الإشاعات، وكانت هذه المرة تترافق مع الأيمان المغلظة والتأكيدات أن داود باشا سوف يصلي الجمعة فِي مقام سيدنا عبد القادر، وربما هذا ما جعلهم يتصورون أن النسوة إذا ذهبن إلى مكان فلن يتجاوزن مقاماً مِنْ مقامات الأولياء، ومن هناك سيرفعن الأدعية والابتهالات لكي يخلص الله الناس مِنْ الضيق والهم، بعد أن ارتفعت الأسعار فِي الأسابيع الأخيرة بطريقة جنونية، لم يتصورها أو يصدقها أحد، واضطر الكثيرون إلى بيع أشياء عزيزة لم يفكروا يوماً ببيعها، بل أكثر مِنْ ذلك كانوا يعتزون بامتلاكها، لأنها تعني لهم ذكرى عزيزة أو قيمة خاصة، ويريدون أن يورثوها لأبنائهم.

لقد باع الكثيرون أشياء مثل هذه مرغمين. فعلوا ذلك وأمل شاحب يراودهم أن زمناً آخر سيأتي، وسوف يستطيعون استردادها، أو شراء ما يماثلها، رغم قناعة فِي داخلهم أن ذلك لن يحصل فِي وقت قريب، ومع هذا ظلوا يبيعون، وظلوا يؤملون ويكابرون.

اليوم وهم ذاهبون لاستقبال داود باشا، ليسوا معنيين كثيراً مِنْ يكون الوالي الجديد، مقارنة بالذين سبقوه، ولكنهم لم يعودوا قادرين على مواجهة المصاعب التي تزداد يوماً بعد آخر، وافترضوا أن هذه المصاعب ستستمر، وربما تزيد، ما دام سعيد باشا ومعه حمادي العلوجي فِي السراي!

تمنى الكثيرون وصول داود باشا قبل هذا اليوم، لأن حالة الفوضى التي سيطرت، جعلت الحياة أشد كرباً وخوفاً وصعوبة، وجعلت الناس يتشاءمون

أكثر حين سرت شائعات قوية أن سعيد باشا، بعد أن تحصن فِي القلعة، ينتظر وصول نجدات المنتفق بين ساعة وأخرى، وأن رجال حمود بن ثامر إذا وصلوا قبل دخول داود باشا إلى بغداد فسوف يجعلون الحياة فِي المدينة أشد عنتاً وإرهاقاً، وقد ينهبون كُلّ شيء، كما حصل قبل بضعة شهور.

أما المظاهرات والمسيرات التي لم تتوقف خلال الأيام الأخيرة، إلا حين يخيم الظلام ويتعب الناس، وكان الخطباء والشعراء خلالها يؤكدون بثقة لا يمازجها أيّ شك أن داود سيدخل المدينة بين لحظة وأخرى. لكن والأيام تمر دون أن يتحقق ذلك، فقد بدأ يسري الخوف فِي النفوس، وزادت الأسعار أكثر مِنْ قبل، كما فقدت بعض المواد.

كانت المظاهرات، فِي البداية، تنطلق، أول ما تنطلق، مِنْ محلة باب الشيخ، يتقدمها حاملو الأعلام، يليهم الذين يدقون الطبول، ثم بعدهم وجهاء المحلة والشعراء والخطباء، فالناس العاديون، وهم خليط مِنْ الفقراء ونزلاء المقام وأصحاب الدكاكين والحرف. وكان بين هؤلاء، وفِي موقع مميز، شقاوات محلة باب الشيخ، ثم انضم إليهم شقاوات المحلات الأخرى، ومعهم أعداد كبيرة مِنْ الصبية والشباب، كانوا أول الأمر مِنْ المحلة ذاتها، ثم التحق بهم الصبية مِنْ كُلّ أنحاء بغداد، وبقدر ما تُمكنهم أقدامهم مِنْ الوصول.

كانت المظاهرات والمسيرات تبدأ رصينة مع احتشادها، وكان القادة يسيرون الجموع ويسيطرون عليها، وكان الشعراء والخطباء يعتلون المصاطب أو تهيأ لهم المنصات لكي يلقوا قصائدهم أو خطبهم، والجموع تنصت ثم تصفق وتستعيد، ويبلغ الانفعال بالناس حداً يتجاوز ما قدره الشعراء والخطباء أنفسهم. استمر ذلك خلال الأيام الأولى، لكن القادة تخلوا عن أدوارهم أو عن جزء منها بعد ذلك، تاركين لمساعديهم، أو لمن هم أصغر سناً، قيادة الجموع، والجموع ذاتها لم يعد يعرف مِنْ أين أتت أو كيف تلاقت. فهذه التي مِنْ باب الشيخ اختلطت بتلك الآتية مِنْ الفضل، مِنْ الشيخ عمر، مِنْ رأس القرية. وجاءت جموع أيضاً مِنْ أطراف الكرخ، ومن الميدان والباب الوسطاني. والشعراء الذين ملأوا الأجواء بأصواتهم، وكانت تبرق تلك الأصوات قبل أن ترعد، كما قال الكثيرون، فِي الأيام الأولى، أصابها الذبول بعد أن بحت، وبعد أن قالوا معظم ما يحفظون!

فِي الأيام اللاحقة، ورغم محاولات الشباب والصبية، وهم يقودون المسيرات، الإبقاء على اللهب والحماس، بحيث كانوا يقفون عند مفارق الطرق، ويخترعون فِي اللحظة أهازيج ساخرة مليئة بالشتائم وبالكلمات البذيئة، كوسيلة للتحريض وزيادة هياج العامة، ومحاولاتهم أيضاً فِي حمل

الشعراء على إنشاد قصائدهم مرة ثانية أو ثالثة، إلا أن الاستجابات أخذت تتراجع، وبدأت تظهر المشاحنات والتحديات.

لكن عصر الخميس، التاسع عشر مِنْ شُباط أصبحت الدلائل ترجح أن داود سيدخل بغداد، وهكذا تغيرت الصورة، إذ دب الحماس مِنْ جديد، واستعاد الناس الحيوية والتفاؤل، كما تراجعت الشائعات عن احتمال وصول حمود بن ثامر وعشائره، لأن قوات داود توجهت إليه لتدحره فِي عقر داره، وأكد مِنْ هم أدرى مِنْ غيرهم ببواطن الأمور أن حمادي العلوجي وراء تلك الأخبار، عله يستطيع التسلل والهرب مِنْ القلعة دون أن يحس به أحد!

يوم الجمعة صدقت التقديرات، ودخل داود باشا. وطوال الطريق الذي سلكه، بدا واثقاً قوياً، ورغم الحزم الذي لمحه بعضهم فِي وجهه ونظرته خلال لحظات معينة، فقد ظل يواصل الابتسام، خاصة حين تصله الأصوات: مرحباً وخير مقدم. وقد سار الكثيرون إلى جانب الموكب البعض الوقت، أكثر مِنْ ذلك تمنى هؤلاء أن تطول المسيرة وأن تستمر الاحتفالات، لكن شيئاً ما جعلها تختصر، ثم تنتهي.

إذ بعد أن قُراء الفرمان، وقد ساد خلال ذلك صمت مهيب، قدم القادة ورجال الدين والوجهاء التهنئة، وسمع صوت مؤذن السراي وهو يدعو بالتوفيق والصحة والعمر المديد للوالي الجديد، داود باشا، ثم بدأت الحركة بين الناس، إذ انقسمت الجموع إلى رتلين، الأول صغير، وقد دخل السراي، أما الرتل الآخر، ويمثل الجموع، فأشعر أن كُلّ شيء انتهى، وعلى كُلّ إنسان أن يغادر، لأن لا جدوى مِنْ البقاء.

ولأن أيام شباط قصيرة، فقد حل الظلام مُبكراً، وعجل ذلك بانفضاض الجموع. ومع أول المساء بقي الباشا مع ضيوفه، سواء الذين قدموا معه ودخلوا بغداد، أو أولئك الذين استقبلوه عند الباب الشرقي. وقد بدا الجميع فِي حالة مِنْ الرضى، وتبادل الكثيرون التعليقات والأخبار، وحتى بعض النكات، كما تذكروا الأيام الصعبة التي مرت بهم، وشكروا الله أن كُلّ شيء انتهى بوصول داود باشا، وأكدوا لأنفسهم ولبعضهم أن أيام العز والرخاء قد أقبلت. والباشا الذي بدا محباً متواضعاً، وسأل الكثيرين، وبمعرفة، عن أحوالهم وصحتهم، وتبادل الكلمات مع معظم الموجودين، اختار وقتاً مناسباً ليشعر الجميع بالعناء الذي لاقاه المسافرون والمقيمون، الذين دخلوا بغداد هذا اليوم، والذين كانوا ينتظرون، الأمر الذي يشفع له بان يقول:

ـ إن لأجسادنا، أيها الأخوة، علينا حقاً، فلنعط هذه الأجساد ما تتطلبه مِنْ الراحة استعداداً للأيام القادمة، والتي ستكون أيام خير للجميع!؟

وكان وقوفه إشارة إلى أن الاستقبال قد انتهى، وعلى الجميع الانصراف.

ما كاد الجمع ينفض، وقد أبدى رجال الباشا الكثير مِنْ الاهتمام لتأمين راحة الضيوف، حتى انصرف الوالي مع عدد مِنْ خاصته، وكان باق عليه مِنْ مهمات ذلك اليوم اثنتان: إحراق الجسر الواصل بين ضفتي دجلة، لمنع وصول أية إمدادات للقلعة مِنْ الضفة الأخرى، ثم وضع خطة للوصول إلى سعيد وحمادي.

كان داود باشا على ثقة أكيدة أن كُلّ شيء قد تمت السيطرة عليه، لكن، مع ذلك، يجب أن ينتهي مِنْ خصمه الأساسي المتحصن فِي القلعة:

سعيد باشا، ابن سليمان الكبير، إذ وحده الذي يمكن أن يشكل خطراً عليه. أما مَن عداه مِنْ الخصوم، حمادي العلوجي ونابي خاتون، وحتى صادق أفندي، رغم الكراهية التي يكنها لكل واحد منهم، فإنهم لا يمثلون أيّ خطر إذا تم القضاء على سعيد.

صدرت الأوامر بسرعة لإنجاز المهمة الأولى: إحراق الجسر، وكلف مِنْ يقوم بهذا العمل. أما وهو يتداول وسيد عليوي عن كيفية التخلص مِنْ سعيد، فقد تراءى له وجه هذا الخصم الذي لا يعرف حقيقة مشاعره نحوه، إذ كانت هذه المشاعر خليطاً مِنْ الاحتقار والاشمئزاز والكراهية الممزوجة بالخوف، وهو بمقدار ما يزدريه يشفق عليه، بل يتمنى لو أنّه لم يره أو لا يعرفه.

كان داود يقول، بعض الأحيان، أمام خاصته: «سعيد حقير ومغرور، لا يعرف صديقه مِنْ عدوه» وحين يتذكر بعض تصرفاته يُضيف: «حاولت معه أكثر مما حاولت مع أيّ إنسان آخر، لكن لا حياة لمن تنادي، لا يسمع ولا يستجيب، وقد حان الوقت لكي يدفع الثمن ويجب أن يكون ثمناً غالياً»..

أما الكلمات التي قالها همساً لكيخياه، يحيي بك، بعد أن سمع تكبير وتهليل محب الدين المرادي، إيذاناً بدخول بغداد:

ـ أذنت ساعة الحساب، إن الله حق والموت حق، ولا بد لكل مذنب أن ينال جزاءه، والقصاص مِنْ نوع العمل.

كان يعني الكثيرين، ولكنه كان يعني سعيد بشكل خاص، أو هذا ما فهمه الكيخيا، إذ ردَّ عليه:

- نشّف ريقنا هذا الخايب ابن الخايبة، وأنت، الله يسلمك، تحملت أكثر مما تتحمل الجبال! ردَّ الباشا، وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

ـ ما أحد تِعب مثلنا، لكن دون نتيجة، واليوم إذا ردنا نشيم الزمال ما عندنا له إلا قولة: هش.

فِي وقت سابق، حين جرت محاولات مِنْ قبل أهل الخير لمصالحته وسعيد باشا، كان يرد على الذين يحاولون:

- يا جماعة الخير: كُلّ ما أريده منه أن يتركني، أن ينساني، وبغداد تسعنا نحن الاثنين وتسع الآلاف غيرنا.

فإذا ازداد الإلحاح، وكان مِنْ الذين يثق بهم، يرد على محاولات المصالحة:

ـ أنا غسلت إيدي منه، يا جماعة، لأن قلبي انشلع وأنا أحاول، لكن بليا نتيجة، بليا قبض...

يستريح قليلاً ثم يُضيف فيأتي صوته مختلفاً:

- أسرحه ويّا الغزلان يرجع ويا الثيران. أقول له خصي يسألني كم ولد عنده!

وتتغير لهجة داود:

ـ لو، الله يرحمه، سليمان باشا، بال بولة كان أحسن مِنْ أفندي الكاغد اللي خلفه، لكنه هو جابه وراح، ونحن ابتلينا! فِي اللقاءات التي تضم أناساً يتوقع داود أن ينقلوا كلامه، يركز على حمادي وحده:

- بمكان السبع صار الواوي يتمرغل؛ وهذا، ابن الحيض، ابن أبو عقلين، كان آخذ سعيد فلاحة. وسعيد، يا جماعة الخير، مثل الثور اللي يكرب، لكن الزمال هو اللي يأكل. وبينا وبين سعيد ماكو إلا ما حرم الله، بس خلوا جاكوج إبليس يفارقه..

الآن، والباشا يتحدث مع سيد عليوي، فيريد منه أن يستعمل كُلّ مكره وذكائه مِنْ أجل تثبيت الوضع الجديد، ومنع أيّ خصم مِنْ الحركة أو تشكيل أيّ خطر.

توصل عليوي، وبحس فطري، أن المشكلة التي يجب أن تحل، لكي يكتمل النصر، التخلص مِنْ سعيد. كان يعرف، مثل داود، أن حمادي جريح يعاني سكرات الموت، وبالتالي لا يشكل أية خطورة. أما الخطر، كُلّ الخطر، فهو سعيد.

قال داود باشا، وهو يغادر إلى الجانب الثاني مِنْ السراي:

.. وتعرف، يا آغا، هذول الجماعة ما عاد تفيد بهم عصا موسى، وأنت عندك عصا فرعون.

قال سيد عليوي، وقد تهلل وجهه كله:

- أمرك، مولاي، ولعيونك كُلّ شي يصير!

2

فِي اليوم الأول استراح سيد عليوي، وخلال هذه الاستراحة استعاد الماضي كله. تذوق، مِنْ جديد، طعم الإهانات التي تلقاها مِنْ سعيد:

الاعتقال ثم إصدار حكم الإعدام، والتهديد بالتنفيذ كُلّ يوم. ثم تدخل الباليوز لتخفيف حكم الإعدام، وكيف رفض سعيد أول مرة، ورفض فِي المرة الثانية، وأخيراً حين وافق مضطراً قال إنّه يفعل ذلك إكراماً للقنصل، لأن الآغا يستحق الإعدام أكثر مِنْ مرة! أما حين أرسل إلى البصرة ليقضي باقي أيام سجنه هناك، فقد ترافق ذلك مع الإهانات.

استعاد الآغا هذا الشريط مِنْ الذكريات فامتلأت نفسه بالمرارة والحقد، وقرر ألا ينتظر، وأن ينتقم بنفسه. قبل أن ينتهي ذلك اليوم وضع خطة جريئة، أقرب إلى التهور، وقرر تنفيذها.

ما كاد الليل ينتصف حتى وصل إلى القلعة. بدا لكل مِنْ رآه كأنه خائف وملاحق. أبلغ قائد حرس القلعة أن لديه أخباراً هامة لا بد مِنْ إبلاغها إلى سعيد باشا، وأن الأمر خطير ولا يحتمل أيّ تأخير. ارتبك قائد الحرس، إذ أن مجيء عليوي بنفسه، وفِي هذه الساعة المتأخرة مِنْ الليل، وإلحاحه فِي طلب مقابلة الوالي، سعيد باشا، لا بد أن يعتبر أمراً استثنائياً وربما خطيراً، وقد تترتب عليه نتائج لا يعرف إن كان قادراً على تحملها وحده.

خلال فترة قصيرة ارتبكت القلعة كلها واضطربت، وبعد مشاورات لم تطل تقرر إدخال عليوي إلى القلعة.

بعد أن صعد الدرج، وهو يجتاز الدهليز الطويل، شعر أن خوفه يتحول إلى ما يشبه الفرح.

لقد وضع أقدامه على بداية الطريق، ولا بد أن ينجح. كان يمشي بثقة وبخطوات واسعة. كانت العيون جميعها منصبة عليه مِنْ الحرس والمرافقين، وكانت تسير معه تلك العيون، ثم تتبعه وهو يتوجه إلى غرفة عزمي أفندي، مرافق سعيد باشا.

كان المشوار طويلاً، أو هكذا تراءى له. فالدهاليز التي يعرفها جيداً، وقد مر بها سابقاً عشرات المرات، تبدو له الآن أكثر ضيقاً وأطول. أما الجو المخيم فهو بين الرطوبة والكثافة اللزجة. كان يريد أن يصل إلى غرفة عزمي بأسرع وقت ممكن. أما وهو يدخل الغرفة فعلاً فقد قابلته عينان حمراوان، وكأنها استيقظت تواً مِنْ النوم. بدا عزمي خائفاً مرتبكاً، إذ يمكن أن يتوقع أشياء كثيرة عدا هذه الزيارة. هل لدى عليوي أخبار لا تحتمل

التأجيل حتى الصباح؟ هل جاء ليتفاوض؟ ليسلم؟ وهل مِنْ المعقول أن يأتي بنفسه لولا الاضطراب والانقسام فِي معسكر داود؟

بكلمات قليلة، لكن واضحة، أبلغ عليوي المرافق أنّه يطلب مقابلة الباشا على الفور، فقد غادر السراي لتوه ولديه أخبار يريد إبلاغها سعيد باشا شخصياً، وأشار إلى أن كُلّ دقيقة تأخير سيكون ثمنها غالياً، وقد تتحول الأمور بين لحظة وأخرى، خاصة إذا عرف داود.

حاول عزمي أفندي، وقد تحول ارتباكه إلى ما يشبه الهلع، إقناع عليوي أن الأمر متعذر فِي هذه الساعة المتأخرة مِنْ الليل، وأن لا أحد يستطيع إيقاظ الباشا. وإذا كان لا بد مِنْ عمل شيء فإما الانتظار حتى الصباح، أو أن يبلغه بالرسالة وسيقوم هو بنقلها.

لا يمكن تحديد قسوة تلك اللحظات ومدى طولها، لأن شكل عليوي تغير مرات عديدة. لكن إصراره على لقاء الباشا، وبسرعة، لم يتراجع ولم يتزعزع لحظة واحدة.

وعزمي أفندي، المرتبك الخائف، والذي مضى على حصاره فِي القلعة أيام عديدة متواصلة، يزداد حيرة وارتباكاً وخوفاً مع كُلّ لحظة تمر، خاصة فِي مواجهة الحزم المتزايد الذي يبديه عليوي، حتى دعوة الجلوس التي وجهها له، ريثما يفكر بطريقة مناسبة، وبهدوء، قابلها عليوي باعتذار أقرب إلى الرفض، مع إصرار يتعاظم أن الأمر لا يحتمل أيّ تأخير.

ثم جاءت كلمة قالها عليوي، وكأنه ندم لأنها أفلتت منه، ما لبثت أن أصبحت مفتاحاً أو جسراً إلى غرفة سعيد باشا. قال له عليوي، وهو يهز رأسه بندم:

ـ ستكون كارثة إذا لم أر الوالي فوراً... كارثة عليه وعلي و...

غاب عزمي لحظات، بدت كأنها الدهر. كانت السكينة تخيم على القلعة، وبعض الأصوات التي تصدر عن فتح باب، أو خطوات تجتاز الممر، تخلف دوياً يولد الرهبة. وعليوي الذي نظر بسرعة إلى جدران الغرفة الداخلية، وإلى وجوه رجاله الأربعة الذين يرافقونه، كان يحمل فِي صدره أملاً يائساً بالوصول. أكثر مِنْ ذلك شعر أنّه ارتكب حماقة سيدفع ثمنها فوراً. لام نفسه على هذا التهور بدخول القلعة، وتسليم نفسه بهذه السهولة، ولا يعرف الآن ما إذا كان قادراً على الخروج والإفلات مِنْ هذا الفخ، خاصة إذا رفض سعيد باشا استقباله، أو أمر جنوده بالقبض عليه.

لكن البصيرة، فِي أحيان كثيرة، تعمى، أو تفقد قدرتها على التمييز. كما أن اليائس يمكن أن يتحول إلى وحش، وقد تغريه أية بارقة أمل، وهذا ما حصل تماماً. إذ ما كاد عزمي يعود، وقد تهللت أساريره، حتى أدرك عليوي

أن لحظته قد حانت، وأنه بمقدار تماسكه، بل وسيطرته، حتى على الهواء، ولو للحظات، يمكن أن يظفر، وإلا فإن الرائحة التي تملأ الفضاء المحيط، وهي رائحة دم شاحب وكثيف ستكون رائحة دمه، لا دم أحد سواه.

ما كاد يشير إليه عزمي كي يتبعه، حتى طلب مِنْ رجاله الأربعة، وبطريقة الأمر، أن يرافقوه. حين أبدى عزمي استغرابه مِنْ مرافقة الرجال ردَّ عليوي بشكل واثق أن هؤلاء رأوا بأعينهم، ولا بد أن يسمع الباشا البشارة مِنْ أفواههم أيضاً. لم يقل عليوي كُلّ هذا بكلمات واضحة، لكن هكذا فهمها، وتقبلها عزمي دون أن يفكر بها، ولم يتوقف عندها مرة أخرى.

قال خورشيد لعدد مِنْ أصدقائه بعد أيام، وكان واحداً مِنْ الأربعة الذين رافقوا الآغا:

- كان وجه سيد عليوي يتبدل كُلّ لحظة. كان يتحول مِنْ لون الشوندر إلى لون الكركم، إلى لون التراب، ثم يصير بلون وجوه الموتي. كنت لا أصدق ما تراه عيني وما تسمعه أذني. كان عزمي يهز رأسه وكأن الآغا سحره، وفِي الأخير وافق على كُلّ طلباته...

تتغير لهجة خورشيد وهو يتابع:

- والله وحده، سبحانه، كتب لنا حياة ثانية، وأي مخبل لا يفعل ما فعله سيد عليوي!

يبتسم بحزن وهو يتذكر أشياء عديدة، ثم يُضيف بلهجة لا تخلو مِنْ تهكم:

- يا جماعة، وما أكذب عليكم، صار قلبي يرفرف ووقع بين رجلي.

كنا رايحين لموت مؤكد، وضحكة الآغا شبر! وما أدري صحت أو توهمت روحي أصيح: وين رايحين يا معودين؟ لكن لما الآغا باوع علينا وخنزر صارت سنطة وكان الكل موتى. وطب وطبينا على سعيد، وبلمح البصر خلص كُلّ شيء. قال: يا الله، لازم نمشي! كُلّ واحد مِنْ الرجال الأربعة الذين رافقوا سيد عليوي يروي القصة بطريقته الخاصة، وبشكل يختلف عن الآخرين. أما عليوي نفسه فلا يحب، أو لا يعرف كيف يجب أن تروى القصة. وإذا صدف أن سمع أحداً يرويها، وكان يجب أن يسمع الآخرين وهم يتحدثون عن ذلك، فكان يكتفي، أغلب الأحيان، بأن يبتسم ويهز رأسه، مما يعني أن ذلك ليس صحيحاً أو ليس دقيقاً! وكان فِي لحظات التجلي يطلب مِنْ أحد رجاله ارض السواد الأربعة أن يروي ما حدث، ولفرط ما فعل ذلك بعضهم أصبح أكثر مهارة فِي الرواية والحديث عن التفاصيل، لكن كُلّ هذا لا يعجب الأغا، وبدل أن يصحح يكتفي بالشتائم أو بالسخرية مِنْ هؤلاء الذين رأوا كُلّ شيء بأعينهم ولم يشاهدوا شيئاً! وكان يختم مثل هذا الحديث بأن يقول: ـ البني

آدم ما يشوف بعينه بس. القلب يعرف شلون يشوف، وبعدها شلون يحجي ويقول!

وحين يرى الإعجاب فِي عيون الذين يسمعون، يُضيف بفخامة:

ولازم تعرفون: الكلب اللي ينبح ما يعض!

أما كيف وقعت الأمور فأغلب الظن أن الموت إذا اقترب ينشر رائحة لا يمكن أن يفلت منها أحد، وهذه الرائحة تخدر الحواس، تخلق حالة يصبح معها الإنسان عاجزاً عن التدخل، أو منع ما يقع تحت عينيه.

خلال اللحظات التي غابها عزمي، حين دخل إلى جناح سعيد باشا، ترامي إلى سمع عليوي صوت نسائي يقول: بالعجل، خليهم يجون!

لم يتأخر عليوي ورجاله اندفعوا كالبرق.

كانت نابي خاتون نصف مستلقية، ويبدو أنها نهضت لتوها. فآثار النوم لا تزال تملأ عينيها ووجهها، ورائحة الغرفة مزيج مِنْ الرطوبة والهواء الساكن، وكأنها لم تفتح لأيام متواصلة. وكان يتمدد إلى جانبها، بشكل عرضاني، سعيد باشا. رأسه فِي حضنها وجسده يشغل الجانب البعيد مِنْ السرير.

لا يُعرف مِنْ أين انتزع عليوي البلطة، أو أين كان يخبئها. فجأة التمعت فِي فضاء الغرفة وهو يرفعها بقوة وعصبية. كانت نابي، خلال اللحظات القصيرة التي مرت، تحاول إيقاظ سعيد. كانت تفعل ذلك بطريقة قاسية لكن مليئة بالحنان. طبطبت على خده، وربما قالت، وهي تحاول أن ترفع رأسه، لكي يتلقى البشارة معها: «قوم، عيني، قوم، ترى الدنيا مقلوبة، وهذول رجالك جوا حتى يبشروك.» ما إن رأت نابي خاتون البلطة تلتمع فِي الهواء، حتى ماءت مثل قطة مخنوقة. كانت تصدر عنها أصوات عمياء متداخلة، وهي بين الخوف والرجاء والتهديد، وربما احتضنت بقوة رأس سعيد، وكأنها تريد أن تحميه، لأن سعيد، وهو يتحرك، دفع يدها بنزق يريد أن يتخلص منها.

فتح عينيه لحظة، لحظة خاطفة، لأنه عاد وأغلقهما بقوة، وكأنه يبعد النوم أو يعود إليه. لا يدري إن رأى شيئاً خلال تلك اللحظة، لأن خطوات عليوي الواسعة، السريعة، لم تمكنه مِنْ استيعاب المشهد. هز رأسه أكثر مِنْ مرة وبسرعة، لكن يد عليوي كانت أسرع وهي تهوي. كانت الضربة عميقة، حتى بدا صوتها مثل خبطة فِي ماء عميق، أو فِي عجين لم يختمر.

وهذه الضربة وحدها كانت كافية، لكن سيد عليوي اتبعها بأخرى، فانفصل الرأس وتدحرج، كر إلى الجهة الأخرى مِنْ السرير، ثم سقط بين رجلي عزمي، الذي بدا شاحباً وأخذ يرتجف.

اللحظة فكر عليوي أن يقضي على نابي خاتون وعزمي، إذ التمعت عيناه وهو ينظر إليهما بسرعة، لكن وهو يعاود النظر إلى نابي، وبتأثير العينين المرعوبتين، وربما المخيفتين أيضاً، لم يستطع أن يواصل لعبته.

توقف. استجمع نفسه ونظر إلى رجاله، كانت النظرات قاسية كالريح الشتائية. قال وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه: - لفوا الرأس.

وبعد قليل:

ها.. اكو شي بعد؟

كان الدم يتدفق كنافورة ليملأ السرير، وكان الجسد ينتفض، يفرك، وكأنه يقاوم أو يحاول النهوض. كان الجسد يحاول شيئاً. وامتلات الغرفة فجأة ببخار لزج، أو هكذا أحس الرجال، وبدت الأرض زلقة، لأن خطواتهم وهم يتحركون بحثاً عن شيء يلفون به الرأس، كانت حذرة، متباعدة، وكأنها لا تريد أن تطأ الدم. أما حركات الأيدي، وهي تشد بعض الأغطية فكانت خائفة مرتبكة. وأخيراً سحب أحد الرجال بساطاً أحمر له حواش سوداء وألقاه على الرأس، لكي يلفه به قبل أن يلتقطه! كانت نابي، فِي هذه الأثناء، مصعوقة، مجنونة. خرجت العينان مِنْ المحجرين، وبدت نظراتها آلية بحركتها السريعة. أما يداها فكانت تنتقل بين ثقب الرقبة تحاول سده وإيقاف الدماء، وبين شعرها الذي أخذت تنتزعه خصلة بعد أخرى. كانت تفعل كُلّ ذلك، وتصدر مِنْ الحنجرة أصوات مخنوقة كأنها المواء أو العواء.

حاولت أكثر مِنْ مرة أن تنهض، لكن ثقل الجسد، تدفق الدماء، يديها اللتين كانتا لا تكفان عن الانتقال مِنْ مكان إلى آخر، برتابة وقسوة، كُلّ ذلك جعلها عاجزة، أو لا تدري ماذا تفعل، وقد يكون منظرها هذا، خاصة العينان، ما جعل عليوي يوقف لعبة الدم.

بقية الرحلة كانت سهلة بالنسبة لعليوي: قبل أن يعيد البلطة إلى مكان خفي داخل ملابسه، هزها فِي الهواء. بدت قطرات الدم التي لم تجف بعد، قاتمة، إذ فقدت لمعانها الأول، وقال لعزمي، وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

- شفت شلون انكسرت رقبته...

وبعد قليل، وبغضب:

ـ ترى الحبل يلحق الدلو، فإما توصلنا للباب سلامات، وترفع لنا تمني، وتقول عيني وأغاني.. أو...

وتغيرت لهجة عليوي، صارت أمراً:

- صير آدمي وسبع وامش قدامنا.

كان عزمي أفندي يسير بخطوات متعثرة، وعليوي يشد سترته بين لحظة وأخرى لئلا يسهو عما هو مطلوب منه، أو يرتكب حماقة ويخالف تعليمات الآغا فِي آخر لحظة، لكن الرعب الذي ملأه تماماً جعله يسير فِي الدهليز كسفينة واتتها الريح، إذ سار باستقامة، بإيقاع لا يتغير.

بعد أن تم اجتياز الدهليز الأول، وبدأ هبوط الأدراج، وقبل الوصول إلى نقطة الحراسة، قال عليوي بهمس:

- خليك سبع وما راح ننساها لك.

ولم يتردد سيد عليوي فِي الرد على تحيات الحرس، مع ابتسامة، وكانت العيون مركزة عليه، وهو يخرج، أكثر مما كانت مركزة أثناء الدخول. ولم تر تلك العيون، وهي تتابع الآغا، عزمي أفندي!

عند الباب الخارجي، بدا عزمي أفندي متهالكاً على وشك السقوط، لكن عليوي مد إليه يدا صلبة ليجعله قادراً على التماسك فِي اللحظات الأخيرة. شد على يده، وقال له وهو يبتسم بغل:

- ترى.. رجع الهوا غربي.. فاحترس وراجعني!

3

بدل أن يتوجه سيد عليوي إلى السراي مباشرة، ليزف البشارة إلى داود باشا، أخذ طريقه إلى ثكنة الفرسان.

كان هواء آخر الليل بارداً، أقرب إلى اللسع، لكن الوهج الذي كان يحسه فِي داخله، بعد أن أنجز المهمة بنجاح، جعله يشعر بالدفء، بلهب الغبطة، إذ لم يقدر أبداً أن تنتهي الأمور بهذا الشكل وبهذه السرعة.

بغداد لا تزال تغط فِي نوم ثقيل، بعد ليال لم تنم خلالها بسبب التعب والخوف. العربة التي تقله، ثم العربة التي ترافقه، وفيها عدا الأربعة الذين دخلوا معه، اثنان للحراسة ولإبلاغ السراي فيما لو سمعا آذان الصبح ولم بعد، إشارة إلى أنّه اعتُقل، ولا بد مِنْ إجراء ما. الظلمة والصمت يملأن الكون ما عدا الوقع الرتيب والكامد لحوافر الخيل.

كان سيد عليوي يريد أن يتحدث، أن يسأل، لكن وجد أن الذين يرافقونه غير جديرين بالحديث، ولا يعرفون كيف يجيبون على أسئلته فيما لو سأل. قال لنفسه، وهو يخرج رأسه ويعرضه للهواء البارد: «حظك، آغا، مِنْ السما، لأنك سويت كُلّ شيء وحدك وبدون ما يدري أحد» ابتسم وقد شعر بفخر مضاعف، إذ لا يمكن لإنسان أن يدعي لنفسه دوراً، مهما كان ضئيلاً، كما هي العادة حين تنجز المهمات الكبيرة ويتحقق النصر! شعر أن ثكنة الفرسان، رغم قربها، بعيدة، وأن الضباط، فِي مثل هذه الساعة، غارقون فِي النوم. كان يريد أن يفاجئهم، أن يقول لهم، دون كلمات، كيف تنفذ المهمات، كيف تُبتدع الخطط التي لا يمكن للأبالسة أن يكتشفوها. فحين يتدحرج رأس الباشا على الأرض، وحين يرونه بأعينهم سوف يصابون بالدهشة والخوف: «هل يعقل أن تفعل ذلك وحدك؟» «هل ما نراه حقيقة أم منام؟». «أيمكن تحقيق كُلّ هذا دون إطلاق رصاصة واحدة؟»..

لقد عزم على العودة إلى ثكنة الفرسان لأن داود باشا نائم الآن. ثم أن يلتقيه بملابس الاستعراض أكثر لياقة وتأثيراً مِنْ هذه الملابس الملطخة بالدماء. ولا بد أن يعطي نفسه مقداراً مِنْ الوقت يستطيع خلاله أن يستجمع قواه وأعصابه، إذ يكون الانفعال قد زال، لكي يقول للباشا مِنْ هو سيد عليوي، وماذا يستطيع أن يفعل؟

تعمد سائقا العربتين إحداث ضجة زائدة حين توقفا قليلاً عند بوابة الثكنة، ثم أثناء الدخول، للإعلان عن وصول الأغا، وللإعلان عن النصر بإنجاز مهمة لا يستطيعها غيرهم.

قال الآغا للذي يحمل الرأس، وكان يتجه إلى الغرفة الملحقة بمكتبه:

- بالعجل.... ناولني رأس ابن التي...

ما كاد حامل الرأس يفك البساط، ويظهر ما بداخله، وقد اختلطت الملامح والشعر بالدماء، حتى ليصعب تمييز الوجه، وبعد أن ألقى عليه الآغا والذين جاءوا مهرولين نظرة سريعة، حتى قال، وخرج صوته مخدشاً:

- شوفتك حزن وفراقك عيد، لكن اليوم خلصنا منك!

لما خيم الصمت، لا أحد يقوى على أن يعلق أو يسأل، تابع الآغا، وقد شعر بلذة النصر:

ـ كان ابن المقرودة يناطح بقرون مِنْ طين، وما يعرف الآغا منو؟

وتذكر فِي تلك اللحظة حمادي الذي كان ينام فِي إحدى غرف القلعة جريحاً. قال يخاطب نفسه، ويريد لرجاله أن يسمعوا - صدق... هذا القواد، حمادي، ليش ما خلصنا عليه بدر بنا؟

وبعد قليل وقد تغير صوته:

ـ لا. لا العجلة مِنْ الشيطان...

وتغيرت اللهجة مِنْ جديد، أصبحت مرحة:

ـ ما يخالف، وين يروح؟

هز رأسه عدة مرات:

ـ اللي تأكله العنز يطلعه الدباغ، وابن الدهاليز، حمادي، راح أخليه يقول: فدوة لعينك آغا بس اقتلني، خليني أخلص، أبوس إيدك! تطلع إلى الرجال الصامتين. كان يبتسم ويهز رأسه. قال بصوت خفيض، كأنه يخاطب حمادي:

حساب ناكر ونكير راح تشوف، يا ابن الزفرة، وهذا اللي يونس. رَاح أشوي على إذنك بصل، وأخليك تصيح: دخيلك يا سيد إدريس، دخيلك يا آغا.

والتفت مِنْ جديد إلى الرجال حوله، وكانه تذكر شيئاً:

ـ إذبحوا لنا طلي...

وقبل أن يتحرك أحد لتنفيذ المهمة، تابع:

لكن قبل ما تذبحوه خلوني أشوفه؛ أريد أشوف شلون يباوع، وأسمع صوته وهو يماعي، حتى أعرف منو أسبع: الطلي أو أبو الخرق، حمادي!

تحرك الرجال لتنفيذ المهمة. غادر أغلبهم. غادروا خوفاً أو قرفاً، وكُلّ واحد لا يريد، أو لا يقوى على رؤية الرأس الذي يبست دماؤه على الملامح، على الشعر، وبدا، بالعيون المطفأة، بالشِفة السفلى المرتخية وكأنها على وِشك

الكلام، وربما مِنْ الرائحة، بدا الرأس بهذه الملامح مثل لعبة منفرة أو لم يحسن صنعها.

ولئلا يبقى الآغا صامتاً، وكأنه يحارب خوفاً غامضاً انتشر فجأة، أو شعر أن عواطفه على سعيد لم تبرد بعد، فقد اندفع يخاطب الرأس بانفعال:

- الدنيا كلها ما انت توسعك. جنت شايخ بيها. أنا ربكم الأعلى فاعبدون. كان خشمك بالسما، لا تشوف أحد ولا أحد يشوفك. لكن إنت أثول، زمال، وحتى الونسة ما تعرف شلون تتونس. تارك كُلّ الدنيا وعابد أبو الطيز الجايفة، حمادي الخايس! لك البنات القمريات، بنات السطعش والسبطعش، الكرجيات وبنات إسطنبول، البيضا والشقرا، وحتى اللي لونها بلون الليل، تارك نعمة الله هذي كلها ولاحق ابن الزفرة حمادي...

تفو وتستاهل مو موتة واحدة تستاهل ألف موتة يا ابن الخايبة.

استراح قليلاً، وقد شعر بالرضا، وأضاف وهو يتلمظ:

- تسلم إيدك يا آغا، لأنك خلصت العباد مِنْ البلاء الأعظم؟

وتغيرت لهجته، أصبحت أمراً لذاك المسكين الذي لا يعرف إن كان أخطأ حين ظل واقفاً، أو كان يجب أن يبقى هكذا، قال له الآغا بحقد:

حط راس ابن الخايبة على صفحة حتى نعرف شلون ناكل لقمة قبل ما نشوف الباشا!

جيء بثلاثة خراف متفاوتة الهيئة والأعمار، ليختار الآغا واحداً منها.

نزع قسماً مِنْ ملابسه، ووضع البلطة التي كان يخفيها على منضدة قريبة.

كان الدم قد جف وتيبس على حواف شفرتها، ولم تبق منه إلا خطوط غير منتظمة وكانت شديدة القتامة. لما مُررت الخراف، أشار إلى الأول منها، وهو يحرك إليته بقدمه:

- هذا للفطور...

وضحك بصخب وهو يُضيف:

- واللي بعده للغدا، وما يندري عشانا يكون وين! شاركه الرجال بالضحك، وقد انضم آخرون كثيرون، نتيجة الحركة والضجة، وأيضاً نتيجة الهمس الذي سرى أن شيئاً خطيراً قد حدث، والآغا هو البطل، وما تخلف بسبب ذلك مِنْ رضى وحبور، خاصة وقد بدا الآغا متبسطاً مرحاً بالهيئة والتصرفات.

عبقت الغرفة بروائح الأغنام وبحركتها العمياء، فِي هذه المساحة الضيقة، وتناثرت كلمات الآغا وأسئلته، وهي توجه للأغنام لأن ترفع رؤوسها، أن

تتطلع إليه، وقد استغل مراد الجو ليزيد المرح، إذ لمح البلطة الموضوعة على المنضدة، قال بطريقة راجية، ليشعر مِنْ لا يعرف بعد:

- سيدي... ضربة مِنْ يدك الكريمة، مثل ذيك، تخلي رأس الخروف يطير بالهوا!

وتقدم نحو البلطة ليتناولها، تمهيداً ليسلمها إلى الآغا، لكن صرخة مفاجئة جمدت اليد قبل أن تصل إلى البلطة:

ـ بهذي... يا ابن الحرام، ما تنضرب غير النخلة اللي بيها تمر...

ثم بسخرية:

مش بوزك، لأن هذي للروس الجبيرة، مو لكل مصخم وجهه وقال أنا حداد!

وبطريقة لا تخلو مِنْ مكر، ولئلا يزداد الآغا عتواً، صرخ أحد مرافقيه، وهو يجر الخروف بعيداً، وقد استل خنجراً ليتولى ذبحه:

- لعيونك، سيدي!

وكانت عادة الآغا أن يتراوح بين حدين متباعدين فِي تعامله مع رجاله، فمرة يتبسط إلى درجة تجعلهم يتكلمون فِي حضرته بجرأة، وقد يمزحون؛ ومرة يمتنع عن استقبال أحد، فارضاً جواً مِنْ القسوة أقرب إلى الذعر، وقد يصدر أوامر أو تعليمات تنال بعضاً مِنْ ضباطه، ولا يكون مستعداً لمناقشتها، وقد يتعمد نسيانها، ولا يستطيع أحد تجاوزها، دون أن «يأتيه عقل الرحمان» كما يقول مرافقه حامد فِي تبرير عدم إمكانية المخالفة.

فِي هذا الوقت المتأخر مِنْ الليل، عند تخوم الفجر، وبانتظار الساعة المناسبة مِنْ أجل التوجه إلى السراي، كان الآغا فِي حالة مِنْ الإشراق، أو هكذا يبدو لمن يراه. ربما للغبطة الفياضة بعد أن أنجز مهمته الكبرى، وقد يكون بدافع مقاومة الخوف الذي يحاصره بعد أن انصبت عليه عينا نابي خاتون، ولعل الرأس القريب تتدفق منه صرخات مكتومة، لكنها قادرة على اختراق الهواء، وتجعله لا يحس بالطمأنينة.

قال أحد الأربعة لأصدقائه، وقد انتحى جانباً، أثناء ذبح الخروف:

- نظرة عيونها تموت. تخلي البني آدم يتشاهد ويقول: يا ربي أخافك وأخاف مِنْ اللي ما يخافك، وهذا الآغا ما يخاف الله!

وحين تنظر إليه العيون تطلب منه أن يواصل، يُضيف، كأنه يشجه نفسه:

- ظني أن بعد هذي الليلة عيني ما راح تشوف النوم، إلا بشفاع الخضر وزيارة العباس.

فإذا توالت الأسئلة همساَ ليقول لهم ما حصل، يرفع يديه بيأس، وتخرج الكلمات مبعثرة:

- شوفة الليلة، يا جماعة، ما راح تروح مِنْ البال والخاطر العمر كله.

يمكن لرجال عليوي أن يفكروا بالطريقة التي تروق لهم، ويمكن لمشاعرهم أن تسلك دروباً لا حصر لها. أما هو، فكان يفكر بشيء واحد:

كيف يحسن به عرض الموضوع على الباشا؟ لا يريد أن يبلغه الأمر فوراً، ولا يريد أن يتأخر عليه كثيراً. لا بد أن يذكر التفاصيل، لأنه حين يسمه الذين يتحدثون، ويجودون فِي الحديث، فأكثر ما كان يسترعي انتباه الطريقة التي كانوا يتحدثون بها، وهذه الطريقة إذا أراد أن يلخصها لنفسه هي التفاصيل الصغيرة: كيف بدأ؛ مِنْ كان معه؛ كيف وصل؛ كيف كان حال الذين التقى بهم وكيف استقبلوه. وتاه فِي أفكار بعيدة، شعر بأهمية العمل الذي أنجزه، والذي لا يمكن لغيره أن يفعله بالسرعة، بالنجاح، وبالنتائج التي لا تقدر بثمن: بضربة واحدة... لا بضربة ونصف، أنهى عصر بكامله، وأزال خطراً كان يمكن أن يبقى لسنين وسنين، وقد يقلب كُلّ شيء.

إنّه الآن أسعد إنسان، لكن بعد ساعة سيكون هناك مِنْ هو أسعد منه:

الباشا، خاصة عندما يرى الرأس وحده وقد انطفأت فيه العينان وصمت الفم إلى الأبد.

هكذا مرت الأفكار والصور والمشاعر فِي رأس سيد عليوي وفِي صدره. ولئلا يفوته الوقت، وتتسرب أخبار القلعة قبل أن يزفها بنفسه إلى داود باشا، طلب أن يُنتزع مِنْ الخروف الذي ذبح لتوه المعلاق، يكفي هذا اللفطور، وعليه بعد ذلك أن يلبس حلة تليق بهذه المناسبة ويذهب.

أصدر بسرعة أوامره بأن يُشوى المعلاق، وأن تشوي معه قطع مِنْ إلية الخروف، وأن تذبح خراف أخرى مِنْ أجل إعداد وليمة كبيرة لضباط الثكنة وجنودها، وسوف يبلغ لاحقاً ما إذا ستكون الوليمة غداء أو عشاء، تبعاً لانشغاله فِي السراي، وأنه سيكون حاضرة مع ضباط الثكنة والجنود، وقد يحضر آخرون! هكذا أبلغ حامد، وطلب منه البقاء فِي الثكنة للإعداد والإشراف على كُلّ شيء، وأيضاً انتظار أخبار أخرى سيبلغه بها لاحقاً.

كانت الشمس قد ارتفعت مقدار رمح عندما امتطى عليوي آغا حصانه متوجهاً إلى السراي.

الباشا الذي تعود أن يستيقظ مُبكراً، أفاق قبل موعده بساعة أو تزيد.

كان نومه فِي تلك الليلة قلقاً متقطعاً، فقد بلغه أن الآغا اختار اليوم عدداً مِنْ الجنود، اثنين منهم مِنْ حرس السراي، ولا بد أن يكون هذا الماكر قد

دبر أمراَ، وستظهر نتائجه سريعاَ. فالباشا يعرف كيف يصبح الآغا أمكر مِنْ ثعلب حين يريد الوصول إلى شيء. إنّه يعمل بغريزته، مثل بعض الحيوانات، إذ تتركز حواسه فِي نقطة واحدة: كيف يتغلب على المصاعب لكي يصل!

الباشا حين تحدث معه فِي الليلة الأولى، كان حديثه عاماً، لم يقل ماذا يجب عليه أن يفعل، ولم يسأله عما ينوي فعله، فقط ذكره بالخطورة التي يشكلها سعيد، وأن الانتصار لا يعتبر كاملاً إذا بقي متحصناً فِي القلعة.

وفهم الآغا ما هو مطلوب منه، وقد تأكد الباشا حين لمعت عينا الآغا، وكأنه اتخذ قراراً، وسوف يلجأ إلى كُلّ الوسائل مِنْ أجل تنفيذه.

وتذكر الباشا مهمات سابقة كلف الآغا بتنفيذها. كان لا يحب أن يسأله أحد عن الخطة التي سيتبعها. بل أكثر مِنْ ذلك، كان يرد على الذين يسألونه بطريقة ساخرة:

- مِنْ ساعة لساعة فرج.

فإذا ألح عليه أحد لمعرفة ما سيفعله يرد بنزق:

- الشهر المالك بيه لا تعد أيامه، فخلها علي وأنا كفيلها!

هكذا مرت الصور فِي ذهن الوالي. صلى الفجر وقرأ جزءاً مِنْ البيضاوي لكي يصبح أكثر اطمئناناً، ثم أمر بأن يؤتى له بالقهوة إلى الغرف الجنوبية المطلة على دجلة. كانت مياه النهر عكرة، لكن لا توحي، بعد.

بفيضان قريب. رأى أسراباً مِنْ الطيور تسف وتعلو قليلاً عن سطح الماء.

سمع هديل الحمام الذي أخذ ينتقل بين أشجار النخيل.

لم يتأخر سيد عليوي، إذ مع فنجان القهوة الثاني وصل. لم يكن هذا مألوفاً أو مِنْ عادته، ولكنه وصل. أبلغ الباشا بوصوله، فأمر أن يوافيه على الفور.

قال للباشا، وهو يتوجه نحوه، وقبل أن يصل:

طلعنا مِنْ حلق السبع، يا باشا، والله وفقنا.

لم يكن يريد أن يبدأ هكذا، لكن هكذا وجد نفسه يفعل. قال الباشا.

فِي محاولة لأن يبقى حازماً وصبورة:

- الله يصبحك بالخير يا آغا، أو نسيت أن الدنيا الصبح؟

ورغم أن الآغا حاول أن يستدرك، إلا أن حشد الصور والكلمات التي يريد أن ينقلها كان كبيراً متدفقاً إلى درجة أن ردَّ على الباشا بارتباك، وجلسر متهالكاً على الكرسي المقابل له.

لم يكن الباشا بحاجة إلى الكثير مِنْ الكلمات لكي يعرف أو يستنتج أر لدى الآغا الكثير، وربما الخطير، ليبلغه به. سأله بنعومة وبصوت دافي عله يمتص انفعاله:

ـ ها آغا... أشوفك جاي مِنْ غبشة، وبوجهك سوالف هوايه؟

وأخذ الآغا يروي، لكن بعد أن تذكر أهمية التفاصيل، ما حصل مِنْ لحظة وصوله إلى القلعة. كيف كان حال الحراس والحراسات، وكيف استدعى آمر الحرس. ماذا قال له وكيف ردَّ عليه. كيف أصر على أن يرو سعيد بنفسه، وكيف...

قال الباشا بنفاذ صبر:

- والنتيجة، المهم النتيجة يا آغا.

ابتسم الآغا ابتسامة واسعة، أكثر مما تعود أن يفعل أمام الباشا. لم يجب، بل صفق بيديه. خلال ثوان دخل الذين كانوا يرافقون الآغا. كان اثنان منهم يحملان البساط، كُلّ مِنْ جهة، والرأس يلق صعوداً وهبوطاً تبعاً للخطوات السريعة، غير المنتظمة، وما أن وصلا قريباً منهما، حتى قال الآغا بطريقة آمرة:

خلوا الباشا يشوف صيدنا!

ورفع الاثنان البساط مِنْ جانب وخفضاه مِنْ جانب، فتدحرج الرأس، تدحرج حتى وصل بالقرب مِنْ الاثنين.

انتفض الباشا قبل أن يعرف رأس مِنْ الذي تدحرج. وقف. تلفت حواليه، كانه يريد مساعدة أحد. لم يمعن بالرأس إلا بعد أن مرت لحظات. تطلع إليه بنظرة سريعة. مِنْ تلك النظرة قدر، أو تأكد، أنّه رأس سعيد.

صرخ، وكان صوته أقرب إلى الشهيق:

ـ أعوذ بالله مِنْ هذا الصباح!

سحب نفساً عميقاً، ونظر إلى عليوي وكأنه يؤنبه:

مِنْ هذا وماذا فعلت؟

- ولكنها أوامرك يا سيدي؟

- قتلتني...

ثم وهو يشيح بنظره ويرفع يديه بيأس:

- هذا خدني وابن عمي...

وتهدج صوته:

- كنت أريده حياَ.

وبعد قليل صرخ، وكان وجهه نحو النهر:

خذوه. أبعدوه عني. خذوه بسرعة.

والتفت إلى عليوي:

- كنت أريد ابن الزانية، حمادي، والآن لا أعرف ماذا يجب أن أفعل؟

وجلس على كرسيه متهالكاً، فِي حين لم المرافقون الرأس مِنْ جديد وضعوه فِي البساط مرة أخرى. أما عليوي، الذي افترض أنّه أنجز مهمة لا يمكن أن ينجزها غيره، وأن الباشا سيكون فِي منتهى السعادة، فقد أسقط بيده.. ماذا يعني حمادي، هذا المأبون التافه، لولا سعيد؟ سعيد هـ الصيد، وهذا ما يريده الباشا، أما حمادي فلا يعدو أن يكون مجرد خادم ماذا حصل للباشا؟

كان لدي عليوي الكثير مِنْ التفاصيل ليبلغها، لكن ردَّ فعل الباش ونظراته ألجمته. لأول مرة يحس أنّه لم يفهم ما قيل فِي الليلة قبل. الماضية. كان الباشا يعتبر أن الخصم الحقيقي سعيد، ووحده الذي يريد الآن، وقد أصبح الرأس تحت قدميه، يبدي أسفه، ولكن، أليس هذا الذي طلبه أو تمناه؟ ماذا حصل فِي هذه الدنيا؟ أين هو الخطأ؟

قال عليوي بصوت يشوبه الحرج:

- فهمت منك، يا باشا، أنك تريد رأس سعيد، وأن سعيد هو الخصم.

فماذا تغير؟

ـِ سعيد، يا عليوي، مِنْ لحمي ودمي. سعيد مثل ابني يوسف. سعيد ما كان يحل رجل دجاجة، وهذا كان سبب غضبي عليه.

زفر، وهو يضرب مسند المقعد:

ـ العلة والمصيبة، يا عليوي، هو حمادي. كان يقوده كما يقود الراعي الغنم. كان يقول له مِنْ هنا القبلة، فيرد عليه سعيد أيّ نعم. كان حمادي ساحره وأسره، وكان حمادي الفاعل الناهي، ولولاه لما كانت مشكلة بين أولاد العم...

كاد يُضيف أشياء أخرى لكن مقاطعة عليوي غيرت الموضوع. قال له:

ـِ حرام نجس أيدينا بابن الخايبة، حمادي، يا باشا!

ـ ذاك راس الشليلة يا عليوي، لأنه أصل البلاء.

وبعد قليل، وبلهجة جديدة:

- والخاتون، أمه، شنو اللي صار بيها؟

ردَّ عليوي، وقد شعر بخيبة أمل:

ـ لخاطرك، يا باشا، قلت حريمة وما يجوز نمد أيدينا عليها، تركناها تنوح وتلطم ومشينا!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.

وبعد قليل، كأنه يقنع نفسه:

وإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون! وتوجه إلى الرجال الأربعة الذين لا يعرفون ما ينبغي أن يفعلوه بالرأس بعد أن أعادوا وضعه داخل البساط:

ـ ليش بعدكم واقفين بخلقتنا؟ يا الله خذوه وامشوا.

والتفت إلى عليوي الذي بدا مذهولاً:

- كُلّ شيء بهذي الدنيا، يا آغا، قسمة ونصيب، والبني آدم ما يقدر يغير اللي كاتبه الله!

وبعد قليل، وبطريقة أبوية:

- باقي علينا مسائل كثيرة نسويها، يا آغا، وأنت تعرف معزتك عندي، وشقد اعتمد عليك... أخذ نفساً عميقاً. هز رأسه عدة مرات وأضاف:

- الله يرحمنا برحمته ويعطينا القوة ويسدد خطانا، إنّه السميع المجيب.

ردَّ عليوي بطريقة رتيبة:

- اللهم آمين!

كان يمكن لداود باشا أن يعجل بدخول بغداد أو أن يتأخر، تبعاً لتقديرات عديدة. لكن ما كاد يعرف بخبر إصابة حمادي ونقله إلى القلعة، حتى تغيرت الأمور، ثم أخذت تتسارع.

فحين انصرف سعيد باشا للعناية بحمادي، أخذ أكثر جنود القلعة يفكرون ويخططون للنجاة بأرواحهم. بدأ الأمر بشكل فردي وسري، ثم اتسع. أما حين بدأت تنتشر الأخبار، وأول مِنْ نقل ذلك مورد الخضار، إذ أكد أنّه سمع بأذنيه كيف يتناوب صوت بكاء الباشا، وكان أقرب إلى النواح، مع أنين حمادي، فقد أصبح الذين يغادرون القلعة يفعلون ذلك على شكل مجموعات وعلناً، وببعض التحدي أحياناً. وقد تمكن عدد مِنْ الهاربين مِنْ الالتحاق بالقوات خارج السور ونقلوا ما حصل، وكان هذا ما دعا داود باشا لأن يتخذ قراره بدخول بغداد.

أما ما وقع فِي القلعة بعد ذلك، خاصة فِي الليلة التي وصل إليها سيد عليوي، فإن الناس يختلفون، ويصل الخلاف، بعض الأحيان، إلى درجة التناقض.

ولم يقتصر اختلاف الروايات وتغيرها على الذين لهم صلة بالقلعة مباشرة، بل امتد الاختلاف وانتقل إلى خارج بغداد عن طريق المسافرين أما فِي بغداد ذاتها بمحلاتها وشوارعها وأزقتها الضيقة، بمناطق التجارة والأسواق الصغيرة فِي الأطراف، بالمساجد ومقامات الأولياء ومعابد النصارى واليهود، وفِي البيوت وعند زوايا الشوارع، وفِي المقاهي بشكل خاص، فكان الحديث الوحيد الذي يجري ويتكرر مع كُلّ قادم جديد، مع ما يحمله مِنْ إضافات، يتناول ما حصل فِي الأيام الأخيرة، خاصة فِي القلعة، وماذا حل بسعيد على وجه التحديد.

حتى الروايات التي أكدت أن مكروهاً لحق بالباشا سعيد، وربما يكون قد أصيب، تضمنت الكثير مِنْ التفاصيل المتناقضة، بحيث تنتهي كُلّ رواية تبعاً لرغبة راويها وتبعاً لمن يسمع مختار باب الشيخ، عبود الحاج قادر، وهو، فِي الأحوال العادية، رجل متزن بسلوكه وكلامه، نقل عن بعض جنود القلعة، وقد غادروها إلى محلة باب الشيخ فِي اليوم الثالث لدخول داود باشا إلى بغداد، أن سعيد باشا تعرض لإطلاق النار، فِي محاولة لقتله، وأن حمادي هو الجاني، فقد أراد مِنْ الباشا أن يتنازل له، لكن سعيد أبي. ويضيف هؤلاء الجنود، التأكيد صحة الرواية، أن سعيد باشا بصق على حمادي ووصفه

بالخائن، وزاد على ذلك بأن وجه إليه شتائم بذيئة رافقتها حركات بالإصبع الوسطى!

رفض الكثيرون تصديق هذه الرواية، نظراً للعلاقة المتينة بين الاثنين.

قالوا ذلك وأرفقوا كلماتهم بابتسامات لكي يشيروا إلى تلك العلاقة!

وأخذوا يؤكدون أن خلافاً مثل هذا لو وقع، فإن أبو عقلين لا يقوى على فتح عينيه بعد أن جرح فكيف يستطيع إطلاق النار وقتل مِنْ يحب؟

حين أكد عبود الحاج قادر أنّه سمع القصة بنفسه مِنْ الجنود، ردَّ عليه رزوقي الأعرج، أو رزوقي مفتاح، كما أصبح يطلق عليه، لكونه مساعد حامل مفاتيح مرقد الشيخ عبدالقادر، ردَّ عليه بسخرية:

خليك مِنْ هذه السوالف، مولانا، لأن الوالي وحمادي ما يتفارقون، طيزين بفد لباس، ومثل ما عاشوا سوا يموتون سوا، فإذا انقتل ابن سليمان فدور على واحد غير حمادي، لأن ذاك هو القاتل، هذي قضية لازم تفهمها زين!

ردَّ عبود بنزق غير مألوف:

- أنت منو، حتى تخوض بالسياسة، وباللي يصير وما يصير؟

آني منو؟ ما عاجبك؟ ما مالي عينك؟

- أيّ... ما عاجبني...

وابتسم عبود، ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة ساخرة وهو يُضيف:

- طول النهار تطرقع بالقبقاب: تطرق.. تطرق، تفتح باب وتسد الثاني، وبعدها تريد على روسنا تقرا دروس، مو بالدين، بالسياسة؟ هاي وين صارت... مولانا؟

- اسمعوا.. اسمعوا يا ناس: علمته الرمي رماني!

تغيرت نبرة رزوقي:

- كُلّ يوم والثاني، وعبود بوجهي، يا جماعة الخير: ها... شتقول أبو مولود، منو راح ينتصر ومنو راح ينهزم.. هذا الباشا أو ذاك؟ وآني أقول له: طول بالك مختارنا. إلزم القاع ولا تخبصنا يا أبو سندس، لأن كُلّ واحد منهم أنجس مِنْ اللاخ، وكُلّ شي ما راح يتغير؛ فيرد ويقول: أريد أفتهم وأعرف دربي، أريد أعرف أيا ختم يفيد هذا الباشا أو ذاك، فأقول له: على كيفك مولانا، وأختامك لكل باشا تصلح!

وترك الذين يسمعون الاثنين يواصلان النقاش الحاد، وذهب أغلبهم إلى السوق، إلى المقاهي المجاورة، علهم يعرفون ما حصل فِي القلعة، وماذا حل بسعيد.

فِي الكرخ، فِي قهوة أبو الخيل، حيث يتجمع عدد مِنْ رجال سليمان الغنام، فإن كُلّ واحد مِنْ هؤلاء الرجال، حين يسأل عما حصل فِي القلعة، تكون إجابته مطابقة أو مقاربة لإجابة الآخرين! يقول هؤلاء الرجال أنهم تركوا القلعة فِي وقت مبكر، تركوها قبل أن يدخل داود باشا بغداد بأيام، لأنهم لم يعودوا يعرفون مِنْ هو الوالي، ومن له حق إصدار الأوامر. ليس ذلك فقط، كانت الأوامر تتغير بين لحظة وأخرى، إذ ما تكاد تُبلغ حتى تُنقض، ولم يعودوا يعرفون الحساب مِنْ يحاربون أو مِنْ أجل أيّ شيء.

ويتبرع واحد مِنْ الجالسين لكي يقول إن الرواتب لم تدفع لهم منذ شهور وحاروا كيف يؤمنون رزقهم، وهكذا تركوا القلعة دون أسف، ولم يعرفوا ما حصل!

ويؤمن آخرون على صحة ما يقال، كي لا يُظن أن لهم علاقة أو يتحملون أية مسؤولية. بل وقد يضيفون تفاصيل أخرى، خاصة إذا جاء مِنْ يؤكد وقوع اضطرابات خطيرة فِي القلعة، وإن هذه الاضطرابات ربما أوْدت بحياة سعيد باشا وآخرين، الأمر الذي ما كان ليحصل لو أن رجال الغنام هم حراس القلعة والمسؤولون عن حماية الوالي.

يقول رجال الغنام بانفعال أن لا أحد يستطيع أن يدافع وأن يحمي مثلهم. كانوا لا يسمحون حتى للطير أن يعبر فوق القلعة حين كانوا فيها؛ وكانوا يميزون العدو مِنْ الصديق بِمجرد نظرة، وهذه النظرة لا تخيب أبداً.

أما أن يكون الحُراس نِياماً أو مُتساهلين، وأن تقع مثل هذه الأحداث الخطيرة، ولا يستطيعون منعها أو مقاومتها، فهذا يؤكد صحة الموقف الذي اتخذوه بالانسحاب فِي وقت مبكر.

وفِي المحلات الأخرى بصوب الكرخ تتردد القصة ذاتها، أو ما يُشابهها، باختلاف بسيط فِي بعض التفاصيل.

تقول القصة إن حراس القلعة كانوا نياماً لما تسلل عدد مِنْ رجال داود، واستطاعوا الوصول إلى الجناح الذي يقيم فيه سعيد باشا. ودون صوت، دون أن يُحس بهم أحد، اقتحموا غرفته، وهناك حدث الاشتباك، ولا يعرف ما إذا قتلوا سعيد أو أسَروه.

الذين يُؤكدون أن حصيلة الاشتباك مقتل سعيد، يشيرون إلى أن المُهاجمين لم يكتفوا بقتله، بل وأخذوا رأسه أيضاً وحملوه معهم، وكادوا يغادرون القلعة كما دخلوا، لكن عند البوابة الخارجية سقط منهم الرأس، فأحدث دوياً هائلاً، مما أيقظ الحرس، فاضطر المُهاجمون إلى ترك الرأس والهرب، وتبين فيما بعد أن الرأس الذي بقي بين أيدي الحرس لم يكن السعيد وإنما لطباخه، كريم أبو كيف!

حين تُروى القصة بهذا الشكل، تترك احتمالاً أن سعيد لم يُقتل، ولا يُعرف ما إذا سيُسلم نفسه، أم سيُقاوم؛ ولا يعرف أيضاً ما إذا بقي فِي القلعة أم غادرها إلى مكان آخر!

سُكان محلة الميدان يؤكدون أنهم دفنوا رأسين كانا بالقرب مِنْ القلعة، لكن ليس أيّ منهما لسعيد باشا. وهذا ما أقسم على صحته منعم الأسود،أحد الذين عملوا فِي السراي فِي فترة سابقة، وقد رأى بنفسه، ومن قرب، سعيد باشا، وبالتالي له القُدرة على التمييز بين هذين الرأسين ورأس الباشا!

كان يتم تداول هذه الروايات وسط المدينة، أما سُكان الأطراف،القريبون مِنْ السور، فيُرددون قِصصاً مِنْ نوع آخر، وكلها تؤكد أن سعيد باشا لا يزال حياً، وقد نجا مِنْ الحصار الذي فرضه داود، وغادر بغداد، مع عدد مِنْ رجاله نحو الجنوب، ورُبما وصل إلى منطقة حمود بن ثامر، وقد يعود فِي أية لحظة، لينتزع السلطة مِنْ أيدي غاصبيها ويصبح والياً مِنْ جديد.

روى بعض الذين يسكنون بالقرب مِنْ باب المعظم أن عدة مجموعات مِنْ الفرسان عبَرت، وأن أولى هذه المجموعات استوقفت بعض الفلاحين وسألتهم عن الطريق المؤدي إلى الجنوب.

وما يعطي هذه الرواية مصداقية كبيرة أن ثلاثة مِنْ هؤلاء الفرسان استوقفوا رجلاً كان فِي طريقه، عند الفجر، إلى المطحنة وطلبوا مِنه ناراً، وحين ورث هذا الرجل الزناد وقربه نحو الفارس الأوسط تأكد أن مِنْ يراه هو سعيد باشا، استنتج ذلك مِنْ طريقة التصرف، ثم مِنْ الرائحة الزكية التي كانت تفوح منه. كما أن ذلك الفارس سأله عن اسمه، وما إذا كان راضياً عن الوالي، سعيد باشا، وقبل أن يَمضي منحه ليرة ذهبية. هذا الرجل ما كان ليصدق لولا أنّه لم يواصل طريقه إلى المطحنة، إذ عاد أدراجه إلى بيته ليصطحب زوجته وولديه الكبيرين مِنْ أجل أن يساعدوه فِي البحث عن الليرة الذهبية التي سقطت منه فِي ذات الموضع، رُبما نتيجة الخوف أو الفرح. ولقد رآه عدد مِنْ معارفه يبحث عن تلك الليرة، فشاركوا فِي البحث معه، لكن لم يعثروا على شيء. وأكد الجميع أن لا أحد يمكن أن يمنح مثل هذه المكافأة إلا الوالي أو مِنْ كان فِي مصافه مِنْ المنعمين، وهم قليلون أو نادرون فِي سنوات الجوع!

والذين يسكنون عند الباب الشرقي سمعوا طلقات نارية فِي ليلتين متواليتين، وقيل إن عدداً مِنْ الفرسان حاولوا اختراق الطوق ومغادرة المدينة، مِنْ هذه الناحية، لكن رُدوا. أكد ذلك أحد الحُراس الليليين، وقد توارى فِي الوقت الذي مر فيه الفرسان، لكنه سمع صيحات تحذير ترددت

عدة مرات، وقد ميز بوضوح كلمة بالذات، «يا باشا.. يا باشا» ثم عاد الفرسان مِنْ حيث أتوا!

أما قهوة الشط، فِي جانب الكرخ، والعادة أن يأتي إليها كثيرون مِنْ صوب الرصافة حين تلتبس الأمور، فقد وصل إليها عبود الحاج قادر، مختار محلة باب الشيخ، فِي الصباح الباكر. جاء بعد أن شعر بالمرارة، وأيضاً بالحنق فِي اليوم السابق، نتيجة الكلمات التي سمعها مِنْ رزوقي مفتاح. لم تكن الكلمات وحدها التي آلمته، بل والسخرية التي طفحت بها، خاصة وأنها قيلت أمام الآخرين. جاء ليعرف لماذا قال وتصرف رزوقي بهذه الطريقة، دون خوف مِنْ العزل أو مِنْ انتقام أهل المحلة.

حين رآه الأسطة عواد، صاحب قهوة الشط، وكان حوله عدة أشخاص لم يميز المختار منهم سوى الحاج صالح العلو، بادَأَهُ الأسطة قبل أن يصل، وكانت الابتسامة تملأ وجهه.

- هالجية، يا مُختارنا، ما هي الله!

وبعد أن تم تبادل التحيات بين الجميع، تابع الأسطة بنفس المرح:

ـ اللي يطول الغيبات يرجع بالغنايم، صدق لو آني غلطان، مختارنا؟

- حاشاك مِنْ الغلط، مولانا...

توقف قليلاً، أجال النظر فِي الوجوه التي تتابعه، وأضاف، فبدأ صوته حاداً:

- ذاك الصوب، يا أبو نجم، مقلوب، والناس هناك ما تعرف رأسها مِنْ ساسها، فقلت لروحي: عند جهينة الخبر اليقين...

تطلع إلى الأسطة عواد وهز رأسه عِدة مرات وتابع:

- هذا اللي خلاني أسري عليكم سروة.

ردَّ الأسطة عواد، وقد حمل كلامه مقداراً مِنْ السخرية:

ـ لما شفتك، يا مختارنا، قلت لروحي: عرس أو عزاء، لأن ماكو أحد يعبر الشط غبشة إلا إذا كان متوازي!

قال الحاج صالح، فِي محاولة لبناء جسر مِنْ التفاهم بين الاثنين:

ـ الأعْراس بمثل هذي الأيام، يا أبو نجم، إذا صارت تصير بوقة، لأن أولاد الحلال بذاك الصوب ما خلوا لأحد درب حتى يقول يا ليل يا عين، ومن حقه المختار يحير مثل ما كلنا حايرين!

ـ يا أبو قدوري، بصوب الكرخ كله، ماكو قلعة وسرايات، ومثل ما تعرف: بذيك المكانات وحدها يصير الاكو والماكو، وعند جماعة ذاك الصوب الأخبار، أما إذا جوا لهذا الصوب حتى يعرفِوا شنوا صاير بالدنيا، فلا بالله حصلنا!

ردَّ الأسطة عواد، وأضاف موجهاَ الكلام للمُختار:

ـ إذا تقدر، يا مختارنا، تقنع الجماعة بذاك الصوب أن يخلصونا مِنْ القتل والمقتول، ويخلونا نعيش فد جم يوم مثل ما تريد، فالله يخلف عليك وعليهم!

- آني منو يا معود حتى أشوف الاكابرية أو أقنعهم!

- أنت مُختار باب الشيخ، مولانا، ومِفتاح المرْقد بحزامك، وإذا مو اليوم ثاني يوم راح يجيك والينا داود؛ واللي ما نقدر نقوله، أنت نوب عنا وقول باسمنا: قتلة سعيد آخر ما نريد نسمع وآخر ما نريد نشوف!

سأل المُختار بدهشة وانفعال:

- يعني هسه سعيد انقتل؟ خلصوا عليه؟ هذا رأيك، أبو نجم؟

ـ أنت وين عائش، مولانا، بهذي الدنيا، أو بغير دنيا؟

هكذا ردَّ الحاج صالح العلو بتساؤل استنكاري، وكأنه يدين هذا الجهل أو التجاهل، فأجابه المختار بسرعة، ليقطع عليه طريق السخرية:

- بذاك الصوب، حجي، الناس دايخة، تضرب أخماس بأسداس، وماكو أحد متأكد: سعيد عايش؟ ميت؟ بهذي الدنيا لو بغير دنيا؟

قال الأسطة عواد ببطء، كأنه يكلم نفسه:

ـ ما أسرع روجك يا شط بغداد، لأنك توصل الأخبار بالعجل، ولهذا الصوب قبل ذاك الصوب!

وتبرع أكثر مِنْ واحد ليؤكد أن سعيد باشا قُتل، وأنه مات وشبع موتاً.

كان كُلّ مِنْ يتكلم يقول ذلك بثقة راسخة، خلافاً للأماكن الأخرى، ولأشخاص آخرين. فإذا سُئل كيف عرف، ولم هو واثق هكذا، كانت الإجابات تتراوح بين الابتسامات يتبادلها مع الآخرين أو مع الذين يسألون.

وتترافق الابتسامات عادة مع هزات مِنْ الرأس وكلمات بعينها تتردد: إن غداً لناظره قريب. والذين يسألون لا يعرفون كيف اقتنعوا، خاصة حين يريدون إقناع غيرهم، وهم يروون لهم ما سمعوا فِي قهوة الشط!

كاد الحديث يسترسل لولا وصول الحاج شبلي أبو الهيب.

صحيح أن الحاج شبلي مِنْ سكنة الميدان، ويملك تجارة فِي الشورجة، إلا أن تردده على الكرخ، وعلى قهوة الشط لم ينقطع، خاصة فِي الفترة الأخيرة، خلافاً لسيد عبود، الذي قد تمر سنة كاملة ولا يراه أحد فِي القهوة، وقد لا يعبر النهر، رغم أنّه مِنْ مواليد الكرخ، ومن محلة الفحامة بالذات، وهذا ما جعل الأسطة عواد يواجهه بالعتاب وببعض السخرية.

الآن، بوصول الحاج شبلي، تغير الجو، وفِي محاولة انتقاد ضمنية السيد عبود، كان الأسطة عواد حفياً بالقادم الجديد. قال له بفخامة:

- الواحد ما ياكل إلا خبزته، حجي، وصلة الرحم بين الناس ماكو مثلها؟

- الحمد لله، وما أدري نشكره أم لا؟

هكذا ردَّ وهو يتوجه إلى المكان الذي أفسحه له الحاج صالح العلو، وتابع بمرح:

ـ القعدة بالقهوة، هذي الأيام، والسوالف، وشوفة الوجوه الحلوة، أحسن ألف مرة مِنْ أكل لحم الناس.

ولأن الكلام بدا غامضاً، أو كأنه استمرار لحديث سابق، فقد تولى الحاج صالح المتابعة:

- بهذي الأيام، حجي، التجارة ما تنراد، لأنها مو ربح حلال، ولا هي بيع وشرا مثل أيام قبل؛ التجارة هذي الأيام شلون الواحد ينهب الناس، شلون يجمع فلوس؟

ـ شنو قيمة التجارة، مولانا، إذا ربح الواحد مِنْ لحم قرايبه، مِنْ دم جماعته؟

ردد الأسطة عواد. كأنه يكلم نفسه:

- لولا الحنية بقلوب بعضنا، ان الناس ماتت، يا جماعة الخير، وإذا الأحوال اليوم هالشكل، ما يندرى بالأيام والسنين اللي راح تجي شلون راح تصير!

قال الحاج شبلي وكأنه يُبرر تردده الزائد على القهوة، وإهمال تجارته:.

- مِنْ يوم ما صار القتل والمقتول قلت لروحي القرش المنفوس اللي ما يطلع إلا بشلعان الروح ما ينراد، لأنه بالعجل يحترق ويصير رماد. وهذا اللي يخليني ما اطب العلوة إلا نوبة بالأسبوع..

تغيرت اللهجة، أصبحت حزينة:

- طلعة القرش مِنْ الجيب تشيغ الروح، يا جماعة الخير، لأن ما يجي غيره إذا راح!

ولئلا يبقى الحديث بين اثنين، أو حول الربح والتجارة، فقد تدخل الأسطة عواد:

- نريدك كُلّ يوم هنا، حجي...

ضحك وهو يهز رأسه، وأضاف بمرح:

- نريدك هنا، لكن ما نريد نقطع رزق القهاوِي الثانية!

قال الحاج صالح العلو، وخرج صوته عميقاَ:

ـ أصلاً بهذي الأيام ماكو بيع وشِرا، ولولا رحمة الله الناس ماتت، لكن الناس لبعضها؟

أما الأسطة عواد فقد قال وهو ينقل نظراته فِي وجوه الذين حوله:

- بغداد ماكو بالدنيا مثلها ولاية، وبالدنيا مثل ناسْها ما تلقي: قلب الواحد على أخوه، والرغيف اللي يشبع اثنين يشبع ثلاثة!

قال أحد رواد القهوة، وكان جالساً غير بعيد عن هذه المجموعة، ويتابع ما يجري مِنْ أحاديث:.

ـ الدم ما يصير ماي، وهذي ولايتنا ونعرفها كلش زين يا جماعة الخير!

إلتفتت إليه الوجوه، وتوالت هزات الرؤوس، وغرق الجميع فِي صمت واسع وقد عاودتهم ذكريات الأيام التي مضت، ومخاوف الأيام التي ستأتي.

5

بعد أن أصبحت نهاية سعيد باشا أقرب إلى اليقين، وإن كان لا أحد يعرف كيف انتهى، انشغل الناس بلملمة مشاعرهم، وإعادة ترتيب حياتهم اليومية، وإن ظلت التساؤلات تعاودهم، بين فترة وأخرى، حول ما حصل. ومع التساؤلات المخاوف، خاصة إذا ترافقت هذه مع الإشاعات أو كانت بسببها، إذ إن إشاعة تنطلق، لا أحد يعرف مِنْ أين، يمكن أن تغير المزاج وتجعل الناس يتناوبون القلق والرجاء، «لأن بغداد، كما تعود أن يردد الكثيرون، ما ينحزر عليها»..

ومع أن هاجس الفيضان أصبح الهاجس الأقوى خلال هذه الفترة، خاصة للذين يسكنون على الضفة اليسرى مِنْ النهر، إلا أن الخوف الكامن فِي القلوب، والذي يتكرر كُلّ سنة، امتد إلى الآخرين هذه المرة وبسرعة، وكأنه يغلف مشاعر أخرى كثيرة يحِسها الناس دون أن يعرفوا لها سبباً واضحاً أو مُحدداً.

صحيح أن الفيضان يتعاقب سنة بعد أخرى، كما تتعاقب الفُصول، ويتحسب له الجميع ويخافونه، لأنه إذا جاء قوياً يقضي على البشر والحيوانات، ويترك آثاره على الزرع والبيوت، إلا أن أملاً يظل يُخامر الكثيرين، ويتحول الأمل إلى صلاة وتضرع، أن يكون فيضان هذه السنة رحيماً، بحيث يصل إلى حد معين ثم يتراجع، دون أن يجتاح ويدمر، كما يفعل فِي بعض السنين.

هذا الأمل يبقى ملاذ الناس، مع احتياطات قليلة يلجأون إليها، لأن لا شيء يمكن أن يقف فِي وجه الفيضان إذا تجاوز حداً معيناً، مع أن الذين يسكنون على ضفاف النهر لا يكفون عن وضع الحواجز وتقوية السدود، ويزيدون فِي متانة أسوار البساتين، إلا أن زيادة المِياه إذا توالت بسرعة، وإذا ترافقت مع أمطار غزيرة هنا أو هناك، فلا شيء ولا أحد يستطيع مقاومة الماء.

ومع أن فيضان النهر يأتي عادة أوائل الربيع، بعد أن يدب الدفء فِي الأرض، وبعد أن تكون خضرة الزرع قد بدأت تملأ العيون والقلوب، فقد يتقدم موعد الفيضان، لكنه لا يتأخر كثيراً. حين يتقدم يتشاءم الناس وتستبد بهم المخاوف، لأن معنى ذلك أن أمطاراً غزيرةً هي التي عجلت بقدومه، أما الثلوج فِي أعلى منابع النهر، فلا تزال تنتظر دورها لتذوب، وتنقذف إلى المجرى مع الوُحول وأغصان الأشجار، وكُلّ ما تصادفه المياه فِي طريقها الطويل.

هذه السنة، وبعد أن مرت أكثر أيام شهر آذار ولم يأت الفيضان، قال الناس: قد تكون هذه السنة مِنْ سنوات الخير، وقد يأتي الفيضان فِي نيسان رحيماً، فيغسل التربة بدل أن يقضي على الزرع، وربما يكون قصيراً فلا يمنع الناس مِنْ الحركة، ولا يؤخر وصول القوافل إلى بغداد.

قال الناس ذلك، وافترضوا أن مجيء داود باشا، ودخوله إلى بغداد فِي هذه الفترة، فألٌ حسن ورضى مِنْ الله، خلافاً لما كان عليه فيضان السنة الماضية الذي أتى على الزرع والضرع، وفسره الكثيرون أنّه عقاب مِنْ الله لما ارتكبه سعيد باشا مِنْ موبقات مِنْ خلال هذا الربط الذي افترضه محبو وأنصار الوالي الجديد، وردده ائمة المساجد أيضاً، تجدد الحديث عن سعيد وداود، عن الأيام السوداء التي كانت، والأيام البيضاء التي ستأتي.

وإذا كان الحديث هكذا يبدأ، فإنه لا يلبث أن يمتد ويتشعب فِي كُلّ الاتجاهات. فحمادي الذي نسبه الكثيرون فِي غمرة الاهتمام بسعيد، يصبح حديث الكبار والصغار فِي المقاهي والأزقة، وقد يصبح حديث النساء أيضاً، مع كلمات بذيئة وتوريات لا تخفى دلالاتها حتى على البنات الصغيرات!

وكالفراشات التي تنتقل مِنْ زهرة إلى أخرى، ينتقل الحديث مِنْ حمادي إلى نابي خاتون، ماذا حصل لها وأين هي الآن. وينتقل الحديث إلى مِنْ بقي مِنْ أولاد سليمان الكبير وبناته، وكيف أن الدنيا كالدولاب لا تكف يوماً عن الدوران، وكيف تنتقل الولاية مِنْ يد إلى يد، كما تنتقل الأمْوال، كما تنتقل الأمراض. وتُستعمل فِي مثل هذه الأحاديث الحكم والأمثال وتجارب الأيام، ويُحاول الكبار أن ينقلوا للصغار، كوسيلة مِنْ أجل تعليمهم الدروس، ليكونوا أكثر دِراية فِي التعامل مع الأحداث.

وإذا كان حديث الباليوز لا يروق للنساء، ولا يقتربن منه إلا كما يقترب الطفل مِنْ النار، فإن الرجال فِي المقاهي، وفِي محلات البيع والشراء، وحتى فِي البساتين أو عند أطراف النهر، يغريهم، ويعتبرون ذلك شيئاً ضرورياً وهاماً، مما يجعلهم يصلون إلى الباليوز، وإلى ذلك الأشيقر، الذي لا يُعرف هل هو مع الوالي الجديد أم الوالي القديم، وما إذا ساند سعيد أم ناصبه العداء فِي الأيام الأخيرة، وهل كان راغباً بداود أم وقف ضده. ولماذا طلب مِنْ الذين التجأوا إلى الباليوز أن يخرج بعضهم وأن يبقى آخرون؟

إن الحديث إذا بدأ عن قنصل إنكلترا، لا بد أن ينتقل بالضرورة إلى قنصل فرنسا، وإلى قنصل إيران، لأن ما يفعله أحدهم ينتقل إلى الآخرين، وينتقل إلى المقاهي وإلى السوق التجاري.

وأكثر التجار فِي السوق لا يروق لهم القسم الأكبر مِنْ الأحاديث التي تدور فِي قهاوي الأطراف، إذ يعتبرونها لغواً، ولا يخوض فيها إلا العاطلون عن العمل والشقاوات والشعراء، أما ما ينفع الناسِ، وما يؤثر فِي حياتهم

ورزقهم، فلا يقتربون منه، ربما كوسيلة للهروب أو النسيان. وهذا ما جعل الحديث فِي قهاوي السوق يتركز، خاصة بعد الأيام الأولى لدخول داود باشا إلى بغداد، حول عزرا وساسون، وما هو متوقع أن يطرأ على الأسعار مِنْ ارتفاع أو هبوط، وما يجب أن يحتاطوا له فِي البيع والشراء.

هكذا كانت تجري الأحاديث، ومعها الأسئلة والمخاوف والإشاعات، ربما كمحاولة لنسيان الفيضان أو لتأجيل وقوعه، لأن الناس لا يحتملون أن تتوالى المصاعب ومعها المصائب بهذا القدر أو بهذه السرعة.

ولأن بوادر الفيضان بدأت فِي الأسبوع الثاني مِنْ نيسان، ولأن زينب لا تخاف على نفسها مِنْ الغرق، وإنما تخاف على أوراقها والمستندات أن تخطفها المياه، إذا مال الزورق لهذه الناحية أو لتلك، فقد توقفت عن عبور النهر منذ أن بدأت المياه ترتفع.

زينب تعرفها بغداد كلها، بالصوبين. لكن مِنْ أجل تمييزها عن أخريات يشاركنها بنفس الاسم، ولتمييزها بشكل خاص عن زينب العرجاء، وتلك التي تبيع القيمر فِي باب الآغا، فقد أصبح اسمها زينب كوشان، بعد أن غابت كنيتها الأصلية!

أما كيف اكتسبت الكنية الجديدة، كوشان، فنتيجة الأوراق التي تحملها دائماً، والمليئة بالتواقيع والأختام، لتأكيد ملكيتها لمحلة الشيخ بشار. وهذه الأوراق تجمعت بمرور الأيام، وإن كانت بدايتها، كما يقال، فِي صحن مقام موسى الكاظم، إذ شرحت فِي إحدى زياراتها للكاظم ما تلاقيه مِنْ عنت وإنكار لملكيتها محلة الشيخ بشار، شرحت ذلك لإمام أعمى، وأقسمت على صحة ما تدعي، فما كان مِنْ الإمام إلا أن أملي على مساعده، وهو شاب أمرد يقع صوته بين المرأة والصبي، وثيقة تثبت هذه الملكية، أو كوشان القدرة، كما أطلق على تلك الوثيقة! وما كادت تمر ايام على زينب وهي تدور على بيوت المحلة لإطلاع الجميع على الوثيقة، حتى تحول اسمها مِنْ زينب ملا ضيف إلى زينب كوشان، ولأن عدداً مِنْ الخبثاء فِي صوب الكرخ سايروها وأيدوها، فقد أضافوا على الكوشان تواقيع وأختاماً كثيرة، مما استدعى إضافة ورقة بعد أخرى، إلى أن أصبحت الأوراق كومة، حملتها زينب مرات عديدة للسراي كي تحصل على حقها، وفِي كُلّ مرة يطلب منها أن تنتظر، وأن تحتفظ بالأوراق لكي تعرض على الباشا!

ولأن قصة زينب تبدأ لكن لا تنتهي، وهي تتوالد وتتغير بين فترة وأخرى، فقد جاء مِنْ أكد لها أن الوالي سعيد باشا عرف بالتعدي الذي حصل على ملكيتها لأراضي محلة الشيخ بشار، وقد استاء كثيراً، وأنه بصدد إعادة الأمور إلى نصابها والأملاك إلى أصحابها، وما دامت انتظرت طويلاً، «فيمكن أن

تنتظر إلى وقت ولادة حملان الربيع، وقبل أن يصفر شعير جلولاء، وسيعود إليها حقها».

حمودي أبو الليل، الذي يرابط فِي قهوة سبع، بالقرب مِنْ الشريعة، قال أمام كثيرين، إن مِنْ يتعدى على زينب كوشان فكأنه تعدى عليه، ولذلك فإن ممازحة زينب لها حد لا يتعداه أحد، خشية أن يتعرض مِنْ يتجاوز ذلك إلى عقوبة حمودي الذي يخشاه الصغار، ويحسب حسابه الكبار.

ومثلما تحظى زينب برعاية حمودي، فإن هوبي الأكحل، الملاح، بين شريعة سبع والكمرك، يعطف على زينب ويعتبرها فالا حسناً كلما صبحه وجهها وهي تتوجه إلى مركبه لتعبر إلى ذاك الصوب، فِي طريقها إلى السراي، فِي الصباح الباكر، مِنْ أجل ملاحقة قضيتها، رافضاً أن يتقاضى منها أجراً. وكي لا يشعرها بفقرها يؤكد لها أنّه سيستوفي كُلّ ما يستحق له بعد أن تكسب القضية!

يقول الذين يشفقون على زينب، باعتبارها امرأة فقيرة ووحيدة، وقد بلغت هذا العمر المتقدم، إنها يمكن أن تموت فِي ذات اليوم، أو فِي اليوم الذي يليه، لولا أن هذه القضية تشغلها، وبالتالي تؤخر موتها.

ويقول الذين لا يكرهون زينب، وليس لديهم تجاهها ود خاص، إنها هكذا منذ عرفوها، وربما منذ اللحظة التي رأت فيها النور! لم تكن صغيرة يوماً، لم تعرف الطفولة أو الشباب، فجأة مِنْ رحم الأم إلى الشيخوخة!

وهذا ما يفسر قسوة الملامح وغياب الأثداء وضمور الساقين. ولأن فِي داخلها غريزة الأنثى ولم تتزوج، ولم تعرف الأطفال، فقد استعاضت عنهم بعدد يزيد كُلّ يوم مِنْ القطط، إذ تعتني بها، تطعمها، تعطيها أسماء، وبعض الأحيان تعتمد القسوة فِي تربيتها!

الآن، بعد الأحداث التي وقعت، ترفض زينب كُلّ ما يُقال، وترفض التسليم أيضاً. ورغم أن الحراس الجدد للسراي طردوها، وطلبوا منها أن تبتعد عن البوابة، فقد استمرت تذهب إلى هناك كُلّ صباح، وبدأ الحراس يتظاهرون أنهم لم يروها، أو لا تعني لهم شيئاً أو خطراً.

أما بعد أن ارتفعت مياه النهر، ولخشيتها أن تغرق الكواشين، فقد توقفت، مؤقتاً، عن الذهاب إلى السراي. ولأن هوبي الأكحل تغيرت مهنته خلال هذه الفترة مِنْ ملاح إلى ملقح لأشجار النخيل، وتوقف عن الانتقال بين ضفتي النهر، وإلى أن ينتهي الفيضان، فقد أصبحت زينت كوشان تجوب محلات الكرخ وأزقتها، وكانت تتوقف، أو تُستوقف، فِي الكثير مِنْ الأماكن ليسمع الناس، خاصة النسوة والأطفال، ما تقول.

كانت ترد، حين تُسال عن سعيد باشا، ما إذا قتل أم لم يقتل، كانت ترد بسخرية وهي تضحك:

- سعيد، باشا وابن باشا، هو مو مثلي ومثلكم، فإذا مات تنخبص الدنيا..

تتوقف لحظة، تغير نبرة صوتها، وهي تتلفت:

ـ أحد منكم شاف جنازته؟ أحد منكم سمع الطوب؟

فإذا قيل لها أن سعيد عزل قبل أن يقتل، والوالي المعزول حين يموت، يموت مثل الكلب، لا تجري له جنازة، ولا تقام له فاتحة. حين يقال لها هذا تجيب بحزن:

- صحيح آني بعدني فقيرة، لكن عقلي براسي. فإذا الناس خافوا فأهله ما يخافون، ولازم: فاتحة وقراية وذبيحة عن روحه، وهذي كلها ماكو! ويقولون لها إن داود باشا منع ذلك كله، وأهله بين هارب وسجين، ويضيفون تفاصيل أخرى كثيرة. تسمع زينب، تهز رأسها دلالة أنها استوعبت كُلّ ما قالوه، وبعد أن ينتهوا ترد هازئة ومتحدية:

- قولوا اللي بكيفكم، لكن باجر أو اللي عقبه بعيونكم راح تشوفون!

فإذا أكد لها الذين يتحدثون أو يسألون أن سعيد انتهى، تجيبهم بحدة:

- شحده يموت قبل ما يخلص شغلتي؟ يقبلها الله؟ يقبلها العبد؟

وحين تلمح الابتسامات على وجوههم، تنهض، لكن قبل أن تغادرهم تقول:

ـ قابل نبدا مِنْ جديد...؟

وهي تسير:

- طقت مرارتنا وزهقت أرواحنا حتى قنعنا ذاك الثور، هسه شلون؟

وقبل أن تغيب:

- بابا... سعيد باشا بعده حي وقوي مثل الصل!

وحين تسمع ضحكات الأطفال تضيف وكأنها تخاطب نفسها:

- ولو ما انشاف فمثل غيبة المهدي له رجعة وبعيونهم راح يشوفون؟

إذا انتهت الأسواق والمقاهي، وحتى الحمامات، مِنْ سعيد، فإن المساجد والأئمة الذين فيها لا يوافقون بسهولة على ما يقوله الآخرون؛ أكثر مِنْ ذلك يتبارى هؤلاء الأئمة فِي مخالفة الآخرين، ويتباهون!

خادم جامع أبي حنيفة، بكري الدده، يعرف، مثل الكثيرين، علاقة داود باشا بمقام عبدالقادر الكيلاني، فيتخيل الهدايا والهبات التي ستذهب إلى هناك، ولن يطال منها شيئاً، فيُحم ليلة وثانية، ويقولَ للناس فِي اليوم الثالث، إن

ثلاثة رجال، لثلاث ليال متوالية، جاءوا إلى جامع الإمام الأعظم قبل الفَجر. كانوا يلبسون ثياباً بيضاء كأنها الأكفان، وجوههم منيرة كأنها الأقمار، ورائحتهم المسك والعنبر. كانوا يدخلون إلى الجامع لا يعرف مِنْ أين، فقد كانت البوابات مغلقة، ويبدأون بالدوران حول الضريح، وهم يبكون ويرددون الأدعية طالبين مِنْ الإمام الأعظم أن يفك أسر الغائب... سعيد.

لقد رآهم ابن الدده فِي تلك الليالي رؤية العين، وسَمعهم يُرددون هذا الدعاء، لكن خاف أن يقترب أو يسأل، وقد ميز بينهم واحداً تعود أن يراه فِي صلاة كُلّ فجر، وقد صمم أن يستوقفه أو ينادي عليه، لكن رجليه لم تُسعفاه وصوته لم يطاوعه، رغم محاولة الحركة والصراخ، وشعر أن العرق يغسله مِنْ رأسه حتى قدميه.

ورغم أنّه تشجع فِي الليلة الرابعة، وحمل حجاب القوة الذي صنعه له شيخ ضرير حين أصيب بالجُدري، وكان مُصمماً على أن يستوقف الرجال أو واحداً منهم، ولو بالقوة، إلا أن الرجال لم يظهروا فِي تلك الليلة، ولم يظهروا فِي الليالي التالية!

بعد أن انتشرت هذه القصة فِي طول بغداد وعرضها، قيل إن سبد عليوي أرسل عدداً مِنْ الخيالة للمرابطة حول الجامع، والقبض على الذين يأتون عند الفجر، إلا أن هؤلاء لم يظهروا مرة أخرى!

لم يتأخر رزوقي الأعرج، أو رزوقي مفتاح، فِي الرد على هذه القصة، إذ قال أمام كثيرين، إن زواراً مثل هؤلاء، وقبل صلاة الصبح أيضاً، طلبوا منه فِي اليوم الأول أن يعجل بفتح باب مرقد الشيخ عبدالقادر، ففتحه وكان شديد الخوف، الأمر الذي جعله ينسى المفتاح فِي القفل، ورغم أنّه بحث عن المفتاح فِي كُلّ مكان فلم يجده إلا بعد عدة أيام، وقد وضع زوار النور شموعاً عند المرقد، لأن الله، بشفاعة الشيخ عبدالقادر، استجاب لدعائهم بنصر داود على القوم الظالمين.

ولتأكيد قصته يورد رزوقي مفتاح الكثير مِنْ التفاصيل، فملابس الزوار كانت مِنْ نور، ولهم أجنحة مِنْ غمام، أصواتهم كالهديل وعيونهم القناديل، وكان كُلّ واحد منهم يحمل ديكاً. ديك الأول أسود، وديك الثاني أبيض، أما ديك الثالث فلا يتذكر رزوقي لونه، وقد دار الزوار الثلاثة، وهم يرفعون الديوك إلى الأعلى، حول الضريح سبع مرات، ثم فجأة اختفوا.

عبود الحاج قادر، مختار باب الشيخ، الذي كان يسمع رواية رزوقي لأول مرة، ولم يشر إليها قبل أن يسمع الناس يرددون ما حصل فِي جامع الإمام الأعظم، قال تعليقاً على القصة، وكأنه لا يوجه الكلام إلى رزوقي مفتاح:

- ابن الدده أكذب مِنْ دلال بسوق الهرج.....

والتفت إلى رزوقي وسأله بمكر:

- بس ما قلت لنا، مولانا، شنو لون الشموع: سودا لو بيضا؟

وحين قهقه الذين يسمعون، سمع مِنْ يقول:

ـ لونها بلون الديج الثالث!

ردَّ رزوقي مفتاح بغضب وانفعال، موجهاً كلامه للمختار:

- إنت منين طالع لي سجينة خاصرة؟ منو دازك علي؟

- يا أبو مولود، يرحم والديك، نحن أولاد محلة، وبينا خبز وملح، بس سالفتك ما تنبلع، ومثل ما قالوا، حاشاك، مخبل يحجي عاقل يفهم...

وضحك المختار وهو ينظر إلى الآخرين، ويتحاشى نظرات الحاج رزوقي.

ردَّ عليه رزوقي بغيظ:

- اللهم جيبك يا طولة الروح!

ـ اشو ما تذكرت هذي الرؤيا إلا بعد ما سمعت سالفة ابن الدده، شنو غيرة أو المسائل بالتفاطين؟ - مولانا... المصائب التي تدرب فوق روسنا صبح وعشية تخلي الواحد ينسي اسمه، فشنو تريدني أصير؟

-صلوات على محمد وعلى آل محمد، ويا رب، يا أرحم الراحمين، إلْهم عبيدك الرشاد والكلام الصدق!

ـ يعني آني ما أقول الصدق، هذا قصدك؟

- آني ما قلت هالشكل، أنت اللي تقول!

ـ يحرم علي مِنْ اليوم أقول لك مرحبا!

ـ على كيفك، مولانا، سُبحانه وتعالى قال ووصى بالكلام والسلام بين المتقين، والبني آدم إذا قال لك مرحبا لازم تقول له مرحبتين!

ردَّ الحاج رزوقي بألم:

- كلام الله على عيني وراسي، بس أنت تريد تغثني، تريد تسود عيشتي. هذا كُلّ قصدك.

ـ بالمُختصر المُفيد تريد تقول: سعيد انقتل، قولها، مولانا، وخلصنا!

- تريدني أقول سعيد انْقتل؟ أيّ نعم مولانا، انقتل واشتعلت صفاحه، وألف لعنة...

ردَّ واحد مِنْ بعيد:

- مولانا.... لا تجوز على الميت غير الرحمة، وين أنت رايح؟

قال الحاج عزيز، الذي كان يتابع النقاش باهتمام:

ـ إذا أبو مفتاح هالشكل، شلون غيره؟

وخفض صوته إلى أقصى حد وهو يُضيف، لكن بعض الذين حوله سمعوه يقول، وكان يهز رأسه أسفاً:

- ضرط الوزان وتاه علينا الحِساب؟

واستمر النقاش، لكن بتقطع وحزن، عن سعيد، لكن عيون الناس كانت على مياه النهر، تخاف أن ترتفع وتغرق كُلّ شيء، كما حصل فِي السنة الفائتة. أما حين وصلت إلى حد لم تتجاوزه، ثم بدأت تنخفض بعد ذلك، فقد تنفس الكثيرون الصعداء، وقالوا: اللهم اجعل الأيام الآتية أحسن مِنْ الأيام الماضية...

6

إلى جانب داود باشا، غير بعيد عنه، وهو يدخل إلى بغداد منتصراً، بعد ظهر ذلك اليوم مِنْ شباط، كان عزرا بن سليم روفه.

لقد عاد عزرا، عاد أخيراً ظافراً، وها هو يحتل موقعاً متقدماً على كثيرين فِي الموكب، وقد حرص، وبذل جهداً، لكي يبقى مُتقدماً، وأن يراه الناس فِي ذلك الموقع.

بدا لكل مِنْ رآه فِي ذلك اليوم الشتائي الدافيء متألقاً يضج بالغبطة والمباهاة. كان لا يصدق ما يرى وما يسمع، مثل فتاة اكتشفت فجأة جسدها وقد اشرأب، ورأت جمالها فِي عيون الآخرين الذين لم يكونوا قادرين على إخفاء دهشتهم وإعجابهم وهم ينظرون!

وبقدر ما كان عزرا جزءاً مِنْ الموكب المنتصر، كان منفرداً وملهوفاً وهو ينظر إلى الوجوه بإمعان، ليتعرف على الأقرباء والأصدقاء، وليكتشف بشكل خاص ما إذا بقي شيء أو أثر مِنْ خصمه اللدود: ساسون. سوف يعرف ذلك بكل تأكيد مِنْ خلال وجوه الناس، وجوه الذين تعاطف معهم أو عاداهم. لقد عاهد نفسه أن يعرف كُلّ شيء قبل أن يصل إلى حيه، إلى بيته، وقبل أن يسمع بأذنيه الأخبار الكثيرة التي لا بُد أن تكون بانتظاره، والتي حصلت أثناء غيابه خلال الشهور الماضية.

لن يغفر لساسون، ولن ينساه أبداً. لقد كان السبب الذي اضطره لأن يُغامر بحياته، لأن يواجه المصاعب والأخطار، وأن يبقى شهوراً طويلة بعيداً عن بيته وأهله.

كانت رحلته إلى الشمال محفوفة بالأخطار، منذ اللحظة التي غادر فيها بغداد. كادت تقبض عليه إحدى الدوريات، لولا الرشوة التي دفعها ليُنقذ نفسه، أو كما قال له داود باشا بعد أن التقيا بالقُرب مِنْ أربيل، وبعد أن سمع ما وقع له عند أسوار بغداد:

- بهذي الفليسات اشتريت روحك، وانكتب لك عُمر جديد، يا عزرا أفندي!

أما وهو يجتاز أحد الجِبال فقد تعرض لعاصفة ثلجية كادت تودي به.

كما واجه فِي ليالي البرد والانتظار أخطاراً كبيرة، وكاد يقع أسيراً قرب كَركوك. كيف يمكن أن ينسى هذه المصاعب والأخطار، ويغفر لساسون؟

لقد جاء وقت الحساب، وسيدفع ساسون الثمن مُضاعفاً الآن.

كان، وهو يُقلب نظراته فِي الوجوه، يشعر بالغِبطة والقوة معاً. لقد انتصر أخيراً. صحيح أن النصر ليس له وحده، ولكن ما كان هذا النصر ليتم بدونه، وبدون تلك المغامرة التي لم تأت وحدها، أو بالصدفة، وإنما هيا لها بكثير مِنْ الذكاء، ودفع الأمور لكي تأخذ هذا المسار.

حين يستعرض عزرا كيف حصلت الأحداث يشعر أن المال وحده لا يستطيع أن يفعل شيئاً إذا لم يقده عقل وهاج، عقل يَعرف ما يجب أن يفعل ومتى يفعله، وهذا ما صَنعه تماماً فِي الشهور الأخيرة. تصرف بهدوء ومرونة حين تطلب الأمر ذلك، واتخذ القرار الجريء فِي الوقت المناسب.

الآن، وهو يسمع الهُتافات كيف تدوي فِي استقبال داود باشا، يقول لنفسه: «يمكن للإنسان أن يكِسب المال إذا كان بارعاً وواتاه الحظ، كما يمكن أن يكسب بالصدفة أو بالقوة، ولكن الأكثر أهمية أن يجعل هذا المال وسيلة لمال أكثر، لقوة أكبر، مِنْ أجل السيطرة» وتخيل نفسه كيف سيكون قوياً، وصاحب الكلمة الأولى، بعد أن أصبح صراف باشي.

حين يتذكر الخطوات التي اتخذها مِنْ أجل أن ينتصر، يعتبر أن أمرين كانا الأكثر أهمية: العقل والجرأة. كان عاقلاً بالمقدار الضروري، فقد كتم عواطِفه بعد أن رُفض تعيينه صراف باشي. لم يرفع صوته احتجاجاً. لم يعلن الحرب مباشرة على سعيد باشا. ترك رفض التعيين يمضي وكأنه لا يعني له شيئاً، وبعد أن هدأت العاصفة بدأ العمل الحقيقي.

بعد العقل، أو معه، كانت الجُرأة.

لو أن واحداً غيره كان مُرشحاً لمركز صراف باشي ورُفض، لبدأ الحرب فوراً، لكنه لم يفعل. حتى لما أراد ساسون أن يستدرجه إلى الحرب كان عاقلاً ولم يُستدرج. قابل مُحاولات ساسون بأعصاب باردة وكان الأمر لا يعنيه، إذ كان يَصدر عن قناعة أساسية: الحرب التي يؤقتها الآخرون، ويدعونك لخوضها، ستكون فيها مدافعاً، والدفاع، أغلب الأحيان، نصف خسارة أو خسارة مؤجلة.

أما عن جُرأته فيكفي لكي يَرضي عن نفسه، أنّه رفض مصالحةَ ساسون، لكنه لم يُعاد الآخرين فِي البِداية، حين أراد ساسون. عاداهم حين أراد هو، وبعد أن أنجز المُهمة التي لا يمكن لغيره أن يُنجزها.

وكانت هذه الخُطوة الطلقة قبل الأخيرة التي توجه لسعيد باشا ولحمادي، والتي جعلتهم يترنحون، ومعهم أيضاً نابي خاتون وكُلّ رجال سعيد، وها هم الآن يَسقطون. وأخذت تتبدى له صورة ساسون: طويل، متين الجسد، لكن أبرز ما يميزه عن الآخرين تلك الابتسامة الرخوة، والتي سُرعان ما تتحول إلى ضحك صاخب. حتى رأسه، وهو يتحرك كبندول الساعة، فكأنه يريد أن

يجعل الآخرين يرون فرحه! أما طوله فقد رسم النظراته مساقط عالية، بحيث يبدو كأنه ينظر إلى البعيد، مما يترك انطباعاً أنّه قادر على تحقيق كُلّ شيء، خاصة حين يشرب كأساً أو اثنين مع الوالي سعيد، أو حين يكون مع رجاله المقربين.

الآن جاء وقت الحساب. سوف يلقنه درساً لن ينساه أبداً، وسوف يثبت له أن الشيء الذي يتعذر كسبه عن طريق المال هو العقل. فالعقل ميزة يختص بها بعض الناس، قلة مِنْ الناس، كي يكونوا أقدر مِنْ غيرهم وأقوى، وهذا ما لم يستوعبه ساسون جيداً. لقد افترض أن للجنة بابا واحداً، وكان مطمئناً حين وقف حمادي عند ذاك الباب، وكان وحده يسمح ويمنع، ولم يتصور أن يكون للجنة أبواب أخرى، أو يمكن اختراعها عند الضرورة!

كان يحس منذ وقت مبكر أنّه أولى مِنْ ساسون بمنصب صراف باشي.

لم يقل ذلك لسعيد باشا أو لحمادي مباشرة، ولكن جعلهم يتأكدون أنهم بحاجة ماسة إليه ولخدماته، فهو يعرف كيف يكون موجوداً ومفيداً فِي الوقت المناسب، ولا يتردد فِي اتخاذ قرارات قد تكلفه مالاً لا يستعاد، ومع ذلك لا يتأخر فِي أن يقوم بها.

ليس هذا فقط، فأخوه حسقيل الذي ترك بغداد مُبكراً واستقر فِي اسطنبول، كان يريده إلى جانبه، وقد حاول أن يستقدمه إلى هناك، لكن عزرا كان يؤجل تلبية هذه الرغبة مرة بعد أخرى، كطريقة غير مباشرة للرفض، لأنه يحب بغداد، ولا يقوى على فراقها، كما كتب مرة لحسقيل، وكان فِي الحقيقة يعبر عن مشاعر وردة، زوجته، أكثر مما يعبر عن مشاعره.

أما عواطفه هو، فمن جملة أسباب تعلقه بهذه المدينة شعوره أنّه فيها أقوى مِنْ أيّ مكان آخر، لأنه يعرف كُلّ شيء: الناس والأماكن وحتى الطقس، الأمر الذي لن يُتاح له فِي مدينة أخرى، خاصة اسطنبول، حيث يذهب الكثيرون إلى هناك، لكن الذين يستمرون قلة، وهذه القلة تظل خاضعة للرياح التي لا تتوقف عن العصف طوال أيام السنة، ومهما بلغ الواحد مِنْ القوة يمكن أن ينتهي فِي لحظة.

بعد أن تعذر على حسقيل إقناعه، ومن أجل أن تكون العائلة قوية فِي اسطنبول وبغداد معاً، ويسند كُلّ جناح الآخر، لا بد أن يكون عزرا صراف باشي، وهذا ما حاوله حسقيل عن طريق خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر.

لما فشلت المُحاولة، كان وقع الفشل على الذين حاولوا أقوى مما ظهرت على عزرا أفندي. لقد تظاهر، أول الأمر، أنّه لا يدري، وأنه فوجيء بالموضوع. ثم قال إن المنصب، لو أسند إليه، سوف يشغله عن متابعة

مصالحه الكثيرة، مما سيلحق به خسارات لا يحتملها، خاصة وأن عليه ديوناً واجبة التسديد، ولا تحتمل أيّ تأخير أو تأجيل، وشكر الله أن مثل هذه الرغبة لم تلق استحساناً لدى الوالي، لأنه يستطيع أن يفيده فِي مجالات أخرى!

كان الغيظ بالغاً أقصاه فِي قلب عزرا، لما عرف برفض اقتراح خالد أفندي أن يُعين صراف باشي، لكن لم يترك لهذا الغيظ أن يبلغ عقله أو يؤثر على مظهره وسلوكه. كتب لحسقيل عن الليالي الثقيلة التي لم يتم خلالها نتيجة الرفض الفظ الذي صدر عن حمادي، قبل أن يصدر عن أيّ إنسان آخر. ولأن الرفض اقترن بكلمات نابية مليئة بالسخرية وبالحركات البذيئة، وبالتهديد أيضاً! وكان يريد مِنْ هذه الرسالة أن يبلغ خالد أفندي الموقف تجاهه، وماذا يعني للسلطان وللرجال الذين حوله، أكثر مما كان يلوم حسقيل أو يؤنبُه. ولم يتأخر حسقيل فِي إطلاع خالد أفندي على مضمون الرسالة، وأن يزيد عليها الكثير، كوسيلة إضافية للتحريض، مع أن خالد أفندي لم يكن بحاجة إلى ذلك، لأن رجاله فِي بغداد لا يبخلون عليه بالمعلومات والأخبار؟

وكتب حسقيل إلى عزرا رسالة طويلة، ليس فقط رداً على رِسالته، وما ورد فيها مِنْ نقاط، بل وما يُفكر فيه أيضاً. جاء فِي مقطع مِنْ هذه الرسالة......«ولدينا مِنْ الأخبار، وحتى مِنْ المعلومات، عن الوالي والذين حوله الكثير، لكن نحتاج إلى أدلة ملموسة، أدلة دامغة، لحمل الكبار هنا على اتخاذ القرار. يجب أن لا تبالغ فِي تصور قوتنا أو قدرتنا على تحقيق كُلّ شيء، ولعل فِي مُحاولات خالد أفندي دليلاً يكفي. أطلب منك أن تكون مُعتدلا، كي نستطيع أن نحقق ما نقوى على تحقيقه الآن... وإلا فإن أمورنا كلها ستضطرب فِي اسنطبول، وكذلك فِي بغداد، فانتبه يا عزرا. احم نفسك وأسرتك، واحم أكبر عدد مِنْ الأقرباء والأصدقاء، لأن الشجاعة، فِي أحيان كثيرة، أن يبقى الإنسان حياً، فالحياة لا تتوقف عند هذه المحاولة فقط».

وهنا بدأ العقل، ليس لحماية صاحبه وحده، بل ولتوظيف كُلّ ما فيه مِنْ إمكانيات ومواد مِنْ أجل خوض المعركة الحقيقية، خاصة وأن الطرف الآخر، سعيد والذين حوله، أصبحوا شديدي السخاء فِي تقديم ما يساعد مِنْ أجل هذه المعركة!

ومن يلبد عند المنعطف، بانتظار الفرصة المناسبة لا بد أن تواتيه، وعليه أن يعرف كيف يلتقطها، ثم كيف يحولها إلى قوة لا يمكن أن تُقاوم، وهذا ما فعله عزرا. إذ ما كادت تطلب اسطنبول ما يستحق لها، وأكدت على ضرورة تسديده، حتى التفت سعيد إلى الذين حوله، خاصة صراف باشي ساسون، والتفت ساسون إلى الآخرين. أمكن تأمين جزء مما هو مستحق، لكنه لم يكن ليكفي، أما عزرا فدفع قليلاً، بحجة الديون وضرورة تأديتها فِي أوقات لا

يمكن أن تتأخر. تبرعت نابي خاتون بمبالغ لكي يبقى رأس والينا مرفوع وتنازل حمادي عن أراضي المسيب اللدائنين، بعد أن تعهدوا بدفع ما يستحق على هذه الأراضي خلال السنين الثلاث الأخيرة، وأن يدفعوا له مبلغاً مِنْ المال!

وأبلغهم خالد أفندي أن هذا لا يكفي، وعليهم دفع كُلّ ما هو مستحق... وإلا.

فهم هذا التهديد ولم يفهم، لكن الذين يُحبون داود، وكان بعضهم فِي السراي، وآخرون قريبين مِنْ حمادي، نقلوا إليه ما تقول اسطنبول، وفهم داود الرسالة، وبدأ يستعد ولأن عزرا عند المُنعطف لا يغادره، بانتظار لحظة الإشراق، «وإلى أن يخرج المرئي إلى جيب التمام، حيث يلتقي الخطان، ويكون المجرى وفيه الأمان» كما تعود أن يقول محب الدين المرادي، فقد التقط الخيط، وكان قبل ذلك قد فهم الرسالة. ويتذكر آخر لقاء له بداود، قبل أن يرحل هذا الأخير إلى الشمال، فقد ردد ما قاله محب الدين:

- السعد ممتزج والبروج بمنزلة الإكليل، ولا بد أن أسير، فإذا لم نلتق هناك نلتقي هنا، والله هو المدبر، وهو الميسر، وعليه التوكيل!

ولم يتأخر عزرا فِي تنفيذ ما كلفه به سعيد باشا.

فهذه البارات التي تحملها البغال مِنْ والي اسطنبول، ذهاباً وإياباً، لا تساوي قيمة علف الحيوانات التي تنقلها، ولا تعني شيئاً فِي الذهاب والعودة، فلماذا تصر بغداد، أو صراف باشي على وجه التحديد، على أن يجعلها فِي رحلة دائمة؟ وإلى متى تظل اسطنبول تدفع رواتب الذين يحسبون هذه البارات فِي الذهاب والعودة؟

لم تتأخر المراسلات ولم تطل: «أبقوا عندكم البارات، لا ترسلوها فيما يستحق لدار الخلافة، وإذا احتجتم إلى مزيد منها، فسكوها عندكم، ولا حاجة إلى المزيد مِنْ المكاتبات».

ولنلا يظن عزرا أن رفض تعيينه كصراف باشي غضب كلي مِنْ الوالي، فقد كلفه سعيد باشا بسك هذه العملة،«حتى يفرح الفقراء وان زعل أصحاب البغال». وأضاف بنوع مِنْ النشوة:

- اليوم بارة، ويجي اليوم اللي ندق به ليرة الذهب، يا عزرا أفندي!

ولم يتأخر عزرا فِي الاستجابة لِما طلبه الباشا.

اندفع إلى العمل بهمة وحماس، وبطريقة تبدو شديدة البراءة طلب مِنْ الأسطة محي الدين أن يُوضع اسم الوالي سعيد على القطع النقدية، كي تُميز ويُعرف أنها سكت فِي بغداد. والأسطة الذي أبدى استغرابه أن لا

تحمل هذه القطع الطغراء واسم السلطان، كما هي العادة، ردَّ عزرا أفندي على هذا الاستغراب بابتسامة واسعة وبكلمات شديدة الوثوق:

- له.. لَهُ يا أبو زكي.. هذه البارات ما تسوى ويكلف سكها أكثر مِنْ قيمتها، وصار الاتفاق أن يكون عليها اسم الوالي بدل اسم السلطان.

- مُتأكد.. عزرا أفندي؟

- على بختك يا أبو زكي.. قابل آني أسوي فد شي بدون أمر أفندينا!

- عفواً.. عزرا أفندي، بس.

- على مسؤوليتي، أسطة، أنت مالك لازم، دق وامش!

- عليه توكلنا.

ولم يتردد عزرا فِي أن يخص نفسه بالكيس الأول الذي خرج مِنْ دار السك، وكان مملوءاً بالبارات. حمله إلى البيت، دفن مقدار النصف فِي أرض الحديقة، بالقرب مِنْ شجرة برتقال، وطلب مِنْ ابن أخته، فكري، أن يملأ جيبين داخليين بهذه القطع النقدية، وأن يسلمها لخاله، والذي بعث يستدعيه إلى اسطنبول «لأن مركزاً هاماً ينتظرك، وستفرح به كثيراً، ووصولك اليوم أفضل مِنْ الغد». وحين بدأت القافلة رحلتها إلى اسطنبول، قال عزرا لفكري يوصيه:

-.... وتسلم عليه، وتسلمه الصوغة، وتقول له: رطب بغداد لحق، والدبس هذي السنة أكثر وأحلى مِنْ السنين اللي فاتت، وعليكم الباقي.

أما وردة، زوجة عزرا، حين رأته يحفر إلى جانب شجرة البرتقال، فقد أدْركت أن التهديدات التي كان يُطلقها بدأت تتنفذ، وأن مغادرته أصبحت وشيكة، إذا لم يكن اليوم، ففي الغد بكل تأكيد.

كانت وردة أماً كبيرة حتى لعزرا نفسه. كانت تلومه، بعض الأحيان، لِتهوره، وتعتب أنّه لا يُشاورها، لا يأخذ رأيها. لكنها مثل أيّ أم تغضب، تذهب إلى مسافة معينة، ثم ترجع أو تتراجع. تفعل ذلك دون أن تعلن هزيمتها، إذ تعتبر الرجال، مهما بلغوا مِنْ العُمر، أطفالاً بحاجة دائمة إلى النصح والرعاية، وأنهم أصبحوا هكذا لأنه لم تُحسن تربيتهم!

فِي الليل المُتأخر، وبعد أن أعاد عليها توصياته كلها، ما يجب أن تفعل، ولا تفعل، وأبلغها عن الأموال التي لَه، وبسرعة عن الأموال التي عليه، وضع فِي يدها، وظل يحرك، المفتاح الخاص بالخزنة الكبيرة، والموجودة فِي مستودع الطحين، وقد وعت وردة كُلّ التفاصيل مِنْ المرة الأولى، ومع ذلك أعادها عليها، لئلا تنسى، كما أكد أكثر مِنْ مرة. ومع أول أنوار اليوم الجديد، وقد استعد لمغادرة بغداد متوجهاً إلى بعقوبة، «مِنْ أجل المطالبة بدين»

فيما لو سئل، أو سئلت وردة، بعد أن يكون قد تجاوز الأسوار وأصبح بعيداَ. فِي ذلك الصباح الباكر قالت له وردة، وقد خنقتها الدموع:

ـ أينما ذهبت، وإلى أيّ مكان تصل إليه، اكتب لنا وسوف نأتيك، سوف نتبعك!

ردَّ وبدا متلعثماً:

- لن أتأخر، سوف أعود، خاصة إذا رافقتني دعواتكم والصلوات!

- ولا تنسى أن تتذكرنا؟

ـ كيف أنسى، كيف أغفل، وأنا الذي لا يقوى على الفراق، ولكنها مشيئة الله!

وغادر بغداد باتجاه الشمال ليلتحق بداود.

قبل أن ينقضي يومان على مغادرته، عرضت القطع التي تم سكها على السراي، لما رآها حمادي صرخ والشرر يتطاير مِنْ عينيه:

- سواها بينا ابن اليهودية؟

وتراكض رجال السراي لجمع القطع النقدية، والقبض على عزرا.

جُمع القسم الأكبر مِنْ هذه القطع، أما عزرا نفسه فكان قد اختفى. جرى البحث عنه فِي كُلّ مكان، لكن لا أحد رآه أو سمع عنه شيئاً. أما حين سُئلت وردة فردت وهي تداري خوفها:

- راح على الحلة حتى يحصل ديونه اللي أكلها الناس، شنو تريدون نعيش مِنْ الهوا؟ ممنوع نحل فلوسنا؟

وبعد قليل، وكأنها تخاطب نفسها، لكن تريد للذين جاءوا للسؤال أن يسمعوا:

- فوق الزينة والمعروف، والصبر على الدين سنين، صار طلب الدين، شعرة منه، حرام؟ هاي وين صارت؟ منو يقبلها؟

ولم يتأخر صدور فرمان السلطان بعزل سعيد، والطلب إليه أن يذهب إلى حلب، وأن يضع نفسه بتصرف واليها.

كتب إليه حسقيل، وقد حمل التتار الرسالة إلى أربيل مع فرمان عزل سعيد وتعيين داود والياً على بغداد.. كتب فِي الرسالة يقول: «... سوف تعرف أن البارات التي بعثتها أصبح الواحد منها يعادل الآلاف، بل وأؤكد لك أن كبار الوزراء ورجال الحاشية يتمنون مجرد رؤيتها. أتوقع أن تكون قد احتفظت بعدد منها، لأنها ستكون ذات قيمة كبيرة فِي المستقبل، ولا بُد أن تباع بأثمان خيالية، وسوف يتوارث هذه القطع النقدية جيل عن آخر،

وسيكتب التاريخ فِي قادم الأيام، كيف أصبحت البارة أثمن مِنْ ليرة الذهب. ليس ذلك فقط، سوف يُقال إن بارة قضت على أكبر الولاة فِي العراق».

وقرر عزرا أن يكتب رسالة أقرب إلى الوصية، حين ارتدت قوات داود باشا عن أسوار بغداد، وكادت تلحق بها هزيمة ساحقة. كتب عزرا تلك الرسالة فِي لحظة حزن، لكن يشكر الله أنّه لم يُرسلها وتركها بين أوراقه، حتى إذا مات، وسلمت تلك الأوراق إلى أسرته لا بد أن تقرأ وتنفذ فِي يوم مِنْ الأيام. كتب فِي تلك الرسالة: «... وتركت لكم ثلاثة أنواع مِنْ الثروة: مالا إذا عرفتم كيف تتصرفون به سوف يتضاعف مِنْ جيل إلى جيل؛ وتركت لكم علاقات تَحميكم مِنْ غدر الزمان وتقلب الأيام؛ وتركت لكم سمعة تحول التراب إلى ذهب، وتجعل كُلَّ حاكم يتلمس رأسه قبل أن يعاديكم، فاعرفوا أين يجب أن تضعوا أقدامكم، ومن تصادقون ومن تعادون». أما خالد أفندي، ذئب الصحراء الأغبر، فقد قال الحسقيل، وكان لا يعرف كيف يداري فرحه:

- هذه البارة ستكون مثل شفرة المِقصلة... وستقطع وبعد أن هز رأسه مرات عديدة دلالة الاقتناع، تابع كأنه يخاطب نفسه:

- لدينا الآن الورقة الرابحة، إذ بعد أن تصور سعيد نفسه أكبر مِنْ السلطان، وتجرأ على وضع اسمه على النقود بدل اسم مولانا، فلا أحد يعرف ماذا يمكن أن يفعل غداً...

والتفت إلى حسقيل:

- يجب أن يُحمل رأس هذا المغرور إلى اسطنبول، ليكون عبرةً لكل مِنْ تسول له نفسه أنّه أصبح أكبر مِنْ مولانا السلطان!

مرت هذه الذكريات والأحداث فِي ذهن عزرا، وهو يضبط حركة حصانه ليكون فِي طليعة الموكب، أقرب المرافقين إلى الوالي داود باشا.

ورغم حرصه الذي لم يفتر فِي أن يبقى هكذا، كان يتحقق مِنْ الوجوه عله يقرأ فِي قسماتها بعضاً مِنْ أخبار الشهور الماضية، وأخبار ساسون بشكل خاص.

قال لنفسه، وقد أصبح الموكب عند مشارف السراي: «إذا كان الكبار، سعيد وحمادي ونابي خاتون، انهزموا، وتساقطوا، فكيف يمكن أن يفلت ساسون؟»..

ولا يُعرف إن سمعه أحد، وهو يلكز حِصانه، يقول:

- درابين بغداد ضيقة، وإذا ما تنشاف أول يوم تنشاف تاني يوم...

وين راح تروح يا ساسون!

وإذا فات مِنْ حوله سماع صوته، فقد لاحظ عدد مِنْ المرافقين أن حصان عزرا جمح قليلاً وتغيرت خطواته، لكن سُرعان ما امتثل بعد أن شدّ اللجام!

قد تنقضي أعوام، عشرات الأعوام، ولا يأتي إلى العراق مثل كلوديوس جيمس ريتش. شخصية نادرة، تراث تراكم عبر الأيام والسنين.حالة مِنْ الغواية الأسرة للسيطرة على الآخرين، فهو فِي نظرته للناس والبلاد مزيج مِنْ الكراهية ورغبة السيطرة، وقد انصهرا معاً، بحيث لم يعد يعرف كيف التحما ثم اتحدا ليصبحا واحداً.

هل حلمت أمه ذات ليلة، وكان جنيناً فِي شهره السابع، أن الشرق البعيد، موطن ألف ليلة وليلة، هو الذي ينادي ابنها ليكون نبياً جديداً ويبدأ مسيرته مِنْ هناك؟ وأبوه هل قابل تجارة أتوا مِنْ أماكن قصية، وكانوا يلبسون الحرير، وتفوح منهم رائحة الزعفران والصندل والقرفة، فأسكرته تلك الرائحة، وقرر أن يبعث بابنه إلى المُستعمرة الجديدة، الهند، ليصطاد النمور، ويعود مِنْ هناك حاملاً على صدره الأوسمة، ومالاً صناديقه بالذهب؟ إن حُلماً أقوى مِنْ النبوءة، ونشوة أشد فتكاً مِنْ الخمرة المُعتقة، ورغبة كالشبق، ما دفع ريتش ليتعلم العربية والتركية والفارسية، ثم لأن يسلك طريق الشرق، نحو الهند. لكن محطة بذاتها، هي العراق، استوقفته، ولم يعد بعدها قادراً أن يرى أهم أو أشد فتنة منها، وقرر أن يربط مصيره بها، تماماً كما تصبح فتاة بذاتها هي الآسرة، بعد أن تم لقاؤها صدفة فِي حديقة أو فِي أحد مُنعطفات الطريق، وربما فِي ميناء صغير، فتغير فِي اتجاه ومصير مِنْ تلتقيه، ثم يصبح الذي التقاها غير قادر على استبدالها بأخرى أو الرضى بغيرها.

فإذا كانت اللغة مفتاحاً، ومشرق الشمس اتجاهاً، ورفاق السفر والمضيفون فِي المحطات ناصحين ومساعدين، فإن المصائر ترسمها الأقدار والنساء.

إذ ما كاد كلوديوس. ج. ريتش يتوقف فِي اسطنبول، وكان فِي طريقه إلى الهند، ويقدم كتاب التوصية الذي حمله معه مِنْ لندن إلى سفير بريطانيا لدى السلطنة، وما كاد يرى تلك الفتاة التي كانت فِي ضيافة عمتها، زوجة السفير، حتى قرر أن يختصر الطريق وأن يختصر البحث، إذ اختار العراق بدلاً مِنْ الهند، ولم يعد بحاجة لأن يبحث عن زوجة، لأنه تأكد أن هذه الفتاة وحدها التي تليق أن تكون زوجة له.

حين وصل ريتش إلى بغداد قنصلاً عاماً مفوضاً لبريطانيا العظمى، كان فِي أوائل العشرينات مِنْ عمره.

صحيح أنّه جاء مِنْ بريطانيا، تلك الجزيرة الباردة، المحافظة، المعزولة، لكن جاء ليقول شيئاً مُختلفاً، وليثبت للذين لديهم فكرة معينة عن الإنكليز، وليثبت للفرنسيين بشكل خاص، ولقنصل فرنسا فِي بغداد تحديداً، أن أفكارهم خاطئة، أو لا يعرفون الإنكليز بالمقدار الكافي! فمع أنّه أصغر موظفي القنصلية سناً صار رئيساً للبعثة، أيّ القنصل العام. أما ما يقال إنّه مِنْ بلد مُحافظ، فقد كان أكثر ثورية وتحرراً مِنْ الذين ساهموا بإسقاط لويس الرابع عشر! إذ ما كادت تمر شهور على استلامه العمل حتى أصبحت القنصلية البريطانية، أو الباليوز كما أطلق عليها الناس فِي بغداد، تضاهي السراي، بل وتتفوق عليها فِي كُلّ شيء: التأثير، العلاقات، الأهمية، ومعرفة كُلّ ما يدور فِي المدينة.

وقبل أن تنقضي سنة على إقامته تحولت القنصلية إلى المكان الأكبر والأجمل فِي بغداد، وأصبح الناس بدل أن يراجعوا السراي، أو قبل أن يراجعوها، يذهبون إلى الباليوز علهم يحظون بمساعدته. كما أصبح ديوان القنصل المكان الذي يبدأ منه كبار الموظفين ممارسة أعمالهم، وفيه يتبادلون الأخبار والأسرار، وأيضاً ما يجب أن يكون اليوم وغداً.

وإذا كان سفير فرنسا لدى السلطان استطاع فِي وقت سابق اقتراح وال واعتباره الأكثر جدارة لمواجهة مصاعب أو ظروف طارئة، فقد أصبح ريتش، وقبل أن تمضي سنوات على إقامته فِي العراق، هو الذي يُهيئ الولاة ثم يفرضهم، وكان لديه باستمرار عدد مِنْ الولاة ينتظرون!

وحين عجز قنصل فرنسا عن شراء عصاً لها مقبض مِنْ الفضة لمترجمه، وقد بدا المترجم ذليلاً كسير الجناح أثناء زيارته إلى السراي، استطاع ريتش أن يستقدم باخرة حربية للمُرابطة فِي النهر بصورة دائمة، وكان على الباخرة عدد مِنْ البحارة يكفي لخوض حرب.

أما حين زيد عدد العاملين فِي الباليوز إلى عدة أضعاف، وكان لدى كُلّ واحد منهم ما يفعله طوال اليوم، فقد بكى قنصل فرنسا غيظاً وهو يقرأ ردَّ سفارته فِي اسطنبول، والذي تعتذر فيه عن تعيين حارس ليلي، لضيق ذات اليد، «... وأنت تدرك ذلك يا مسيو ريمون، مع رجاء الكف مستقبلاً عن تقديم اقتراحات ترتب التزامات مالية».

.

ولأن القنصلية كانت تقيم احتفالات عديدة فِي السنة، وتدعو إليها الكثيرين، فإن الاحتفال الذي أقيم بزواج ريتش لم تشهد له بغداد مثيلاً، رغم أن الزواج تم فِي أوروبا، وقبل بضعة شهور، لكن وصول القنصل وبصحبته الزوجة اعتبر فرصة لإقامة هذا الاحتفال، الذي لم يتردد ريتش فِي الموافقة على إقامته، مِنْ أجل أن يدخل الفرح إلى قلبِ ماري، «ولكي يقول للنِاس

ماذا يعني زواج قنصل ملك بريطانيا!» وقبل أن تنقضي ثلاثة شهور أقيم احتفال ثان، لا يقل روعة وحجماً عن احتفال الزواج، لكن هذه المرة لعيد ميلاد ماري، وقد استغرب الكثيرون كيف أن الإنكليز لا يتذكرون فقط السنة التي ولدوا فيها، بل ويتذكرون اليوم»!

لقد استعاد الناس هذه القصص، وأخرى غيرها، حين بدأ النزاع بين داود وسعيد، وكانوا يريدون أن يعرفوا: «الأشيقر، ريتش، أبو الباليوز، أرض السواد يؤيد سعيد أو داود أم عنده واحد ضامه تحت الإبط؟».

هكذا تساءل الناس، لأن موقف القنصل هذه المرة يَختلف عن مرات سابقة: كان قليل الاهتمام بالصراع الذي يدور، كأنه لا يعنيه، أو لا يعني له شيئاً، إذ لزم موقف المُراقب، تماماً مثل موقف الذي يراقب صراع الديوك دون أن يكون مراهناً!

وموقف رجال الباليوز هذه المرة كان خلافاً لمرات سابقة أيضاً: لا يتحركون إلا بمقدار؛ يجيبون عن الأسئلة أكثر مما يسألون، والإجابات ذاتها لا تحمل تعاطفاً أو حتى مَيْلاً، فالكلمات تقال مع هزات الأكتاف، وكأنهم لا يقصدونها، أو لا تعني لهم شيئاً. وهذه الطريقة بمقدار ما لفتت نظر الكثيرين، فقد أفزعتهم.

حتى الذين كانوا ضُيوفاً فِي الباليوز، وقضوا هناك أسابيع عديدة، ريثما ينجلي الصراع بين سعيد وداود، فقد خرج بعضهم فِي الأيام الأخيرة، وفضل الآخرون الانتظار وتمديد فترة الضيافة، أو ربما طلب منهم القنصل البقاء!

لما حصل ذلك، وكانت بغداد خائفة مُترقبة، قال الأسطة عواد لحسون الذي لا يكاد يفارق قهوة الشط بعد أن تهبط الشمس نحو المغيب، قال له بحرص ومودة أن يذهب إلى زاوية القهوة، ناحية الغرب، ليراقب إن ظهر هلال الشهر الجديد أم لا، وفِي محاولة لترغيبه أن يفعل ذلك، أضاف بمداعبة:

- وإذا جبت البشارة، لك مني، فوق البوسة بين العيون، طاسة لبلبي وكمشة مِنْ راحة الحلقوم!

لم يكن حسون بحاجة لمثل هذه الإغراءات، إذ يمكن أن ينفذ ما يطلبه منه الأسطة عواد دون أيّ مقابل، لكن الكلمة التي أضافها، وحسون يتجه إلى الزاوية الغربية، لفتت نظر الذين حوله، إذ قال بنبرة موشحة بالحزن:

ـ لاني مبيت خيرة، وأريد اشوف الهلال على قُصة هذا المسكين!

سأله الحاج شبلي باهتمام:

- خير أبو نجم.. حج لو عمرة؟

- رحت هوايه زايد، حجي...

وبعد قليل:

ـ قبل هذي أو ذيك، أن نخلص مِنْ الطريقة اللي فوق روسنا، حجي!

ـ الحق تقوله، يا أبو نجم...

وتغيرت لهجة الحاج شبلي:

ـ ابن الخايبة، سعيد، خلصان، أسطة، هذا شيء مؤكد، وداود مصبح مسي، هذي ما ينراد لها قراية كف، بس ما ينعرف إذا ذاك الأشيقر، أبو الباليوز، ذاب له لقط أم لا... هذي هي المسألة، وهنا بيت القصيد، مثل ما يقولون؟

كان الحاج صالح العلو يسمع ويهز رأسه، وحين خيم الصمت قال كأنه يكلم نفسه:

- رأينا مو كُلّ شي، يا جماعة الخير، المُهم رأي الباليوز وأهل التفك.

وحين يتبرع أحد الذين كانوا فِي جانب الرصافة ذلك اليوم فِي وصف ما رأى مِنْ تأييد الناس لداود، وأن أقرب الناس لسعيد تخلوا عنه، يقول الحاج شبلي، ويخرج صوته مَبحوحاً:

- هاي بغدادنا ونحن أعرف الناس بيها: تنام على شبوط تصبح على جرية!

ابتسم. هز رأسه عدة مرات وأضاف:

- وحوادث زماننا كثيرة، يا أولاد الحلال...

يغير الحاج شبلي أبو الهيب جلسته قليلاً، ويتابع بصوت عميق:

ـ قالوا: سليمان بخرنابات انتصر، ولما جاء الخبر لبغداد انخبصت:

هلاهل وشربات، ذبايح وطبول، مِنْ السما ومصقول... وراح يوم وجا الثاني وإذا سليمان مقتول! ابتسم أكثر، وهو يتطلع للذين حوله، وهزات رأسه تتوالى موافقة:

ـ وعبد الله باشا طار ورا سعيد، وصل لسوق الشيوخ وهو يقول: بيدي ارض السواد لا بيد غيري، وفعلاً انهزم سعيد، ونام عبد الله باشا ذيك الليلة، وهو يحلم: «شلون تحب تموت يا سعيد، يا ابن سليمان؟» ولما صبح لقي إيده والحصير، جماعته كلهم انهزموا، صاروا ويا سعيد، وقبل ما ترتفع الشمس ذراع أو ذراعين جزوا عبد الله جرة سخل وبساحة سوق الشيوخ علقوه!

وحين خيم الصمت مِنْ جديد، وتذكر الكثيرون الأحداث التي مرت، قال الحاج صالح العلو بطريقة حكيمة:

- أبو الباليوز، الأشيقر، ما بندري شنو اللي ضامه جوا إبطه، وشنهو اللي يريده، لكن تاليها تصفى ونشوف.

عبد الله غبيشان، صاحب اسطبل الخَيل، الذي انتزع منه حمادي وزبانيته عدداً مِنْ خُيوله، قبل أن يُهرب ما بقي منها إلى الخالص، قال، وخرج صوته مبحوحاً، حتى ظن الذين يسمعونه أنّه يقلد الحاج شبلي:

- أصواتنا انبحت واحنا نصيح داود، لكن لا حياة لمن تنادي... انجلت البحة قليلاً وهو يُضيف:

ـ ارواحنا وصلت للزردوم، حاج شبلي، مِنْ المخانيث، لأنهم ما خلوا لنا درب أو سكة، سدوها بوجوهنا، وما بقي إلا يجي داود، وإلا انلاصت علينا؟

وأضاف همساً، كأنه يخاطب نفسه:

- أما إذا ولانا حمادي مِنْ جديد، فالله وأكبر، راح تكون ولية مخانيث، مو بس تعور، تذل!

- يا معود، قال الأسطة عواد، ما راح تتطربق على سعيد ومسعود، راح تتطربق فوق روسنا كلنا، شنو عبالك؟

ردَّ عبد الله غبيشان وهو يضحك:

- وراح الواحد منا يصيح باللاخ: إلزم لحيتك يا أبو فلان.. خاف يطيرها الهوا!

وضحك الذين يسمعون، لكن ما كاد يخيم الصمت مِنْ جديد، حتى قال الحاج شبلي، وكان صوته أقرب إلى الصرامة:

ـ اللي تقولوه صحيح، يا جماعة الخير، لكن مو هذا موضوعنا، موضوعنا الأشيقر، هذا راس الحية!

قال الأسطة عواد:

- هذا مثل البومة، ساد حلقه ومفنجر عيونه، وما يندرى هو مع سيدي أو مع ستي!

- غداً إذا انجلي الغبار...

هكذا ردَّ عبد الله الغبيشان، وشاركه بعض الآخرين فِي إكمال البيت.

أما الحاج صالح فقال، وشابت صوته رنة حزن:

ـ الباليوز يغزل وما ينعرف منو راح يلبس، فصبراً جميلاً.

ردَّ عبد الله بتحد واستهتار:

- ماكو بعد الصبر إلا القبر، أبو قدوري، شنو عبالك؟

ـ ما يندرى، والعلم عند علام الغيوب.

فِي هذه الأثناء، وكالعاصفة، جاء حسون وهو يصيح:

- شفته، عمي، بعيني شفته، رفيع مثل الخيط، وإذا ما تصدق قوم وياي حتى أراويك!

قال الأسطة، وقد انفرجت أساريره:

- كلمتك ما تصير ثنتين، حسون، صدقتك، وهسه راح تاخد نص الحلوان، طاسة لبلبي، والنص الثاني.. إما تاخد فلوس وتشتري راحة الحلقوم بنفسك، أو تنتظر لباجر حتى يفتح عبود الشكرجي؟

وحين سئل الأسطة عواد عن الخيرة التي بينها، قال وهو يهز رأسه هزات متوالية وواثقة:

ـ نحن اليوم بيوم الاثنين، والهلال، مثل ما قال حسون، بيومه الأول، أو الثاني، هذي ما ينحزر عليها، ورهاني ويا اللي يريد يراهن: قبل ما يصير القمر بدر، بغداد تشوف والي جديد وولاية غير شكل!

قال عبد الله غبيشان بنزق:

- يا أبو نجم نريد داود، وغيره ما نريد؟

ردَّ الحاج شبلي أبو الهيب:

ـ لو المسألة يمنا مِنْ زمان خلصت، لكن المسألة يم غيرنا، يا أولاد الحلال، اندعوا ربكم تخلص على خير.

قال الحج صالح وهو ينهض:

ـ اتنصتوا زين على الباليوز، يا جماعة...

وكاد يُضيف كلمات أخرى، لكن عبد الله غبيشان قال بصوت حاد، دون أن يوجه الكلام لأحد:

ـ لا الباليوز ولا غيره، اللي يحل المسالة، اللي يحلها مِنْ الأول للتالي، هم أصحاب التفك، واللي يصوبون زين.

وانقسم رواد قهوة الشط: فريق يتنصت لما يقوله أو يفعله الباليوز؛ فريق يرهق نفسه فِي تقدير قوات داود وما تبقى مِنْ قوات سعيد؛ وفريق يرقب الهلال وينتظره ليكبر فِي قبة السماء.

وفِي تلك الليلة، وبعد أن انفض أغلب رواد نهوة الشط، قال حسون للأسطة عواد:

- عمي... بعد ما أريد راحة الحلقوم، ولا أريد فلوسها، طاسة اللبلبي كفتني وزادت!

ردَّ الأسطة عواد وهو يضحك:

- ما عليك هذي دين برقبتي، حسون، وإذا صار اللي ببالي، أهل قهوة الشط كلهم، مو بس إنت، راح ياكلون راحة الحلقوم و...

وترك الأسطة عواد الصمت ليكون نهاية لهذا الكلام ولهذا اليوم.

إذا كان الباشا قد بدا مشغولاً فِي الأسابيع الأولى باستقبال قادة الجند وكبار العُلماء والتجار، ثم بالتعيينات الضرورية للمراكز الهامة، فإن الهدوء الذي أعقب الأيام الأولى، بعد دخوله إلى بغداد، بدا خادعاً، أو على الأقل لم يكن بالمتانة التي رغبها وتوقعها الكثيرون. فرجال سعيد، أو مِنْ بقي منهم، بعد أن عجزوا عن المقاومة وجهاً لوجه، أخذوا يثيرون المتاعب والقلق، مِنْ مهاجمة بعض المواقع العسكرية ليلاً، إلى إطلاق الرصاص بالقرب مِنْ أسوار بغداد وبواباتها، إلى افتعال مشاكل وخلافات فِي السوق التجاري وفِي عدد مِنْ المقاهي القريبة. كانوا يفعلون ذلك بهدف الإثارة والتحريض دون أن يذكروا أنهم مِنْ رجال سعيد أو مِنْ أنصاره.

هذه الأمور، أو بعضها، مع أن داود باشا قد توقعها، واحتاط لها قدر ما يمكنه وضعه ورجاله، فإن الإشاعات التي بدأت تملأ بغداد عن قرب وصول البدو، رجال حمود بن ثامر، وآخرين، جعلت الناس يخافون ويتحسبون، خاصة وأن الأسعار التي ارتفعت خلال الفترة الأخيرة مِنْ الحصار، والتي كان يتوقع أن تنخفض بعد دخول داود باشا إلى بغداد، وبعد أن استلم عزرا أفندي منصب صراف باشي، ولقائه مرات عديدة بالتجار، بقيت هذه الأسعار على حالها، إن لم تزد فِي بعض المناسبات.

ترافقت هذه الحالة مع إشاعات تتزايد كُلّ يوم، ولا يعرف مِنْ ينشرها أو كيف تستقر فِي القلوب والعقول، إن قاسم الشاوي الذي كان يقود المقاومة، واختفى فِي الساعات الأخيرة قبل دخول داود، لا يزال فِي بغداد لم يغادرها، ولا بد أن يفجر الوضع مِنْ جديد، وسيتم ذلك مع دخول قوات البدو، أو مع وصول طلائعها. وداود باشا الذي يعرف خصومه مثلما يعرف راحة يده، كان يتحسب مِنْ هذا البدوي، ويعتبره الخصم الحقيقي، وبالتالي سيكون خطره كبيراً إن بقي طليقاً فِي بغداد، خاصة وأن جميع المعلومات والتحريات لم تشر إلى وجوده فِي مكان آخر.

هذا الجو، إضافة إلى الخوف الغريزي الذي سيطر على الناس، بسبب الحصار والصراع فِي الشهور الأخيرة، أديا إلى تراجع المعنويات، وزيادة الخشية، فأصبح الكثيرون أقرب إلى الحذر، وإلى الكِتمان أيضاً. حتى الأحاديث التي كانت تجري بصوت عال فِي المقاهي والأسواق فِي الأيام الأخيرة مِنْ الحِصار، وقبل دخول داود باشا إلى بغداد، أصبحت تجري همساً وتورية، بعد أن ظلت الأسعار على حالها، ولم يتغير شيء مما توقعه الناس.

كان مِنْ المُمكن أن تجد هذه الأمور تفسيراَ أو تبريراَ، طالما أن الوضع لم يستقر بعد، ويحتاج إلى المزيد مِنْ الوقت، كما هو حال أيّ وضع جديد، لكن ما أثار مخاوف الناس أكثر، وجعلهم يتحسبون وينتظرون:الباليوز. إذ بعد موقف اللامبالاة الذي اتخذه إزاء الصراع الذي كان يدور بين سعيد وداود، فقد استمر فِي الصمت والغياب، ثم بدا وكأن القنصل انشغل بقضايا أخرى.

إذا لم يكن الأمر هكذا، فما هو إذن سبب تأخر زيارة القنصل للسراي، أو عدم استقبال الباشا للقنصل؟

كان هذا السؤال يتردد على كُلّ شفة ولسان، وكان به يبدأ أيّ حديث، ثم يتشعب الحديث ولا ينتهي.

الذين يبغضون القنصل، ويتخوفون منه، يقولون بعبارات جازمة إن القنصل، ومنذ اليوم الأول، طلب مُقابلة الباشا، لكن الباشا ردَّ بصوت عالِ: لدينا الآن أمور كثيرة هامة، لا تحتمل التأجيل، وبعد أن تنتهي سيأتي وقت القناصل!

الذين يميلون إلى تصديق مثل هذا الكلام يضيفون تفاصيل أخرى، ويؤكدون أن داود باشا يختلف كثيراً عن الولاة الذين سبقوه، ولا بد أن يُشعِر القناصل بذلك، ولعل أول إشارة أن يؤخر استقبالهم!

أما الذين يحسبون كُلّ حركة ويقدرون كُلّ تصرف، فيقولون إن الباشا مستاء مِنْ القنصل لأنه آوي كُلّ أعدائه فِي الباليوز، وقدم السلاح والعون إلى سعيد ورجاله، وحين أدرك أن لا جدوى، وأن داود باشا هو الأقوى، ولا بد أن ينتصر، فقد تراجع وشعر بالخيبة، لذلك لا يقوى على مقابلة الباشا قبل أن تمر فترة طويلة، وإلى أن يهدأ غضب الباشا أو حين ينسى..

لا يتوقف الذين يقولون مثل هذا الكلام عند هذا الحد، إذ يرددون الأسماء والوقائع، وكلها تؤكد أن العداء بين الطرفين وصل إلى حد كبير، ولا يمكن أن يسوى إلا بمرور الزمن، أو بأن يطلب داود باشا مِنْ اسطنبول، وتطلب اسطنبول مِنْ لندره، تغيير هذا القنصل اللئيم الذي لم تر بغداد مثيلاً له مِنْ قبل. والذين لا يعتبرون أن الأمور وصلت إلى هذا الحد، يقولون إن مشاغل الباشا وحدها هي التي تمنع استقبال القنصل.

وهناك مِنْ يقولون، وهؤلاء تسيطر عليهم مشاعر الخوف، إن القنصل ذاته هو الذي يؤجل زيارة الباشا فِي السراي، فقد كان عليه أن يبادر، وخلال الأيام الأولى، إلى القيام بهذه الزيارة، على الأقل للتهنئة، خاصة وأنه تغيب تماماً عن الاستقبال، لكنه لم يفعل، وهذا شيء مقصود وله ما بعده.

ظلت الأحاديث التي تتناول هذا الموضوع بالذات لا تتوقف. أما حين انشغل القنصل، أو شغل نفسه، بترميمات وإضافات فِي بناء الباليوز،

والسور الذي تقف بموازاته الباخرة الحربية، فقد تطير الكثيرون، واعتبروا أن الخلاف واقع لا محالة بين السراي والباليوز، ومما أكد ذلك أكثر، وجعله يقيناً غير قابل للدحض، أن عدداً مِنْ الذين كانوا ضيوفاً لدى القنصل خلال فترة الصراع اعتقلهم داود، تمهيداً لمحاكمتهم القسم الأكبر مِنْ الأحاديث التي تدور على ألسنة الناس يصل إلى السراي وإلى الباليوز، إلى الوالي وإلى القنصل. وإذا كانت أوساط أيّ مِنْ الاثنين لا تجيب، مباشرة أو بشكل واضح، على الأسئلة التي تشغل الناس وتقلقهم، فإن طريقة رجال الطرفين فِي الحديث أو الإجابة تزيد الأمور غموضاً وتعقيداً، وأكثر مِنْ ذلك تجعل الناس فِي حيرة أكبر.

وجاء الفيضان. كان هذه السنة أكثر رحمة مِنْ سنين أخرى، إذ بلغ حداً مُعيناً، خاصة فِي الثلث الأول مِنْ نيسان، ثم أخذ ينحسر. وما قاله رجال القنصل إن تقوية أسوار الباليوز ورفعها كانت لدرء أخطار الفيضان فيما لو جاء قوياً جامحاً هذه السنة، كما حصل فِي السنة الفائتة، حين طغت مياه الفيضان على الحديقة المطلة على النهر وتجاوزتها حتى لامست جدران مستودعات الأعلاف، الأمر الذي اقتضى أخذ الحيطة. أما أن تقوية الأسوار ورفعها لاعتبارات عسكرية، فإن الإجابة على مثل هذه التخرصات مضيعة للوقت، «لأن لا أحد يعرف مدى عمق العلاقة ومقدار المحبة بين الاثنين». يقولون ذلك دون تسمية، دون تحديد، للبرهنة على أن العلاقة بين الباشا والقنصل تختلف عما يفترضون، أو عما تظهر مِنْ بعيد؟

هذا الكلام بقدر ما يريح القلقين وبعض الخائفين، يفزع الذين افترضوا أن داود باشا يختلف عن غيره مِنْ الولاة. وكُلّ مِنْ يريد أن يدقق يجد فِي الكلام الذي يسمعه حجة وسبباً للراحة أو للفزع.

أما إذا تذكر الناس فيضان هذه السنة، وقارنوه بفيضان السنة التي سبقته، أو سنين أخرى، فإنهم يجدون فيما يقوله رجال القنصل وجاهة وأسباباً معقولة، خاصة وأن زوجة القنصل ذاتها اشتركت بالعمل أو التوجيه أثناء البناء، كما ذكر عدد مِنْ عمال محلة الشيخ عمر، الذين ساهموا بإنجاز أكثر الأعمال.

فإذا كانت زوجة القنصل ذاتها ساهمت فِي العمل، فإن هذا العمل بكل تأكيد شغل القنصل عن كُلّ ما عداه، مما اضطره لتأخير زيارة الباشا، والباشا نفسه أبدى تفهماً ووافق على هذا التأخير! رجال الباشا لا يجدون أنفسهم مضطرين لتفسير تأخر زيارة القنصل، فالمُهمات التي تواجه الباشا، خاصة فِي هذه المرحلة، مِنْ الكثرة والتنوع بحيث تجبره على مواصلة الليل بالنهار، حتى أنّه لا يقوى على رؤية أفراد أسرته، فكيف بالأجانب؟ يقولون الكلمة الأخيرة دون تحديد، معتبرين القنصل كأي واحد آخر مِنْ الأجانب

المقيمين فِي بغداد. أما إذا جرت الإشارة إلى تعزيز أسوار القنصلية، فالأمر لا يستوجب مِنْ رجال الباشا إلا تعليقاً بسيطاً، يقولون بنوع مِنْ التبخيس: مِنْ يرد أن يصبح جمالاً عليه أن يعلي باب بيته؛ والذين يسكنون على طرف الماء إما أن يهربوا وقت الفيضان أو أن يرفعوا أسوار بيوتهم؟

ودائماً كانت لدى كُلّ طرف أسبابه وحججه إذا جرت الأحاديث هكذا، دون تحلي، وبلا استفزاز. أما حين حل شهر رمضان، تلك السنة، عقب الفيضان مباشرة، فقد أصبحت لدى رجال الباشا حجج أقوى لتأخير استقبال القنصل، خاصة بعد أن ذاع خبر الزيارة التي قام بها مترجم القنصلية، بطرس يعقوب، إلى السراي، ولقائه بصفوت قرداغ.

يروي رجال الباشا، ويسرفون فِي إيراد التفاصيل، والتي تتغير ليلة بعد ليلة، وتختلف مِنْ مكان إلى آخر، أن بطرس يعقوب وصل إلى السراي ضحى، وقد استوقفه الحرس وقتاً غير قصير، وبعد أن تأكدوا مِنْ صفته وموجبات الزيارة، أخذوه، مشياً على الأقدام، بعد أن استوقفوا حصانه مع الحارس عند البوابة الخارجية، إلى مكتب صفوت قرداغ، مدير التشريفات. واستمهلوه أيضاً وقتاً غير قصير فِي المكتب قبل أن يستقبله صفوت نفسه.

وهنا تتشعب الروايات وتتناقض إلى أقصى حد. تقول واحدة مِنْ الروايات إن بطرس يعقوب رفض الخوض فِي داعي الزيارة قبل أن يُقدم له اعتذار رسمي للتأخير فِي استقباله، ولأنه قطع المسافة بين البوابة والمكتب على أقدامه، الأمر الذي لم يحصل مِنْ قبل، ولن يرضي القنصل بكل تأكيد فيما لو عرف، خاصة وأن الشمس كانت شديدة الحرارة فِي ذلك اليوم؟

تقول هذه الرواية، أو ربما غيرها، إن الأمر سوي خلال لحظات، ليس عن طريق الاعتذار الرسمي، وإنما نتيجة لباقة صفوت أفندي وأريحيته، إذ أضفى على بداية اللقاء جواً مرحاً، بعد أن لام الحرس الجاهلين بالأصول، والذين تسببوا، دون قصد، بهذا الخطأ، والذي يقع مثله يومياً حتى مع كبار موظفي السراي، ولقد تفهم الترجمان الموقف وتجاوز الموضوع؟

وهناك تفاصيل كثيرة تروى، لكن الذين يسمعونها لا يتوقفون عندها.

أما حين طلب تحديد موعد لاستقبال القنصل، فكان الجواب سريعاً، لأنه جاهز «فِي الأسبوع الأول الذي يلي شهر رمضان المبارك» ولما ظهر الاستغراب على وجه بطرس يعقوب، أوضح صفوت أفندي الأمر بسرعة:

- سيكون الباشا كثير الانشغال مع العلماء والفقهاء خلال هذا الشهر..

وبعد توقف قصير:

- ثم إن الباشا يريد أن يستقبل سعادة القنصل بطريقة تليق بمقامه!

حاول الترجمان، بطريقة ماكرة، أن يشعر رئيس التشريفات أن الموعد المقترح بعيد، «وأن سعادة القنصل يرغب بلقاء الباشا فِي وقت مبكر لكي يقدم تهانيه بمناسبات عديدة: تسلم ولاية بغداد، ثم التهنئة برمضان المبارك وأيضاً بعيد الفطر السعيد» لكن صفوت أفندي اعتذر بمكر لا يقل عن مكر الترجمان، وكان يقلب دفتراً كبيراً أمامه. وكي يحسم الأمر بصورة كاملة، قال بطريقة فخمة:

- ليكن يوم الخميس الذي يلي عيد الفطر، ساعة الزوال.

ولما وجد بطرس مطرقاً صامتاً، تغيرت نبرة الصوت، أصبحت ودية:

- وتعرف أن الباشا خلال هذا الشهر الفضيل يستقبل الفقهاء والأعيان، ويقيم حفلات الافطار للأيتام ورجال الدين...

وعاد إلى اللهجة الفخمة:

وفِي هذا الشهر يؤجل المؤمن كُلّ شيء ويتفرغ لله عز وجل...

قال هذه الكلمات ليشعر الترجمان أن هذا الشهر له طابع يعني المسلمين وحدهم، وأضاف كأنه يتذكر:

ـ لا تنسى الدروس التي يلقيها الباشا... يا بطرس أفندي. وزم شفتيه فبان وجهه حازماً:

ـ لقد طلب منه العلماء أن لا يبخل عليهم بدروس إضافية خلال هذا الشهر، وقد وافق أفندينا، مع أن هذه الدروس تكلفه مشقة كبيرة.

توقف صفوت أفندي لحظات، حرك خلالها جسده كأنه يقاوم خدراً فِي الساق اليمني، إذ دقها عدة مرات بالأرض، وتابع:

ـ لا أخفي عليك، يا بطرس أفندي: الصوم يفيد الجسم، هذا ما لمسته بنفسي، فآلام الساق التي كانت ترهقني قبل الصيام، قلت عن السابق...

وعاد إلى الموضوع الأول:

- وأنت، يا بطرس أفندي، ابن هذه البلاد، وتدرك معنى التزام الباشا بإلقاء درسين كُلّ أسبوع، فكيف إذا تضاعفت الدروس خلال هذا الشهر؟

ومع أنّه كان يوجه إليه السؤال، فلم يكن ينتظر منه جواباً، إذ تابع بحزن:

- عند الناس أسئلة لا تنتهي، والساعة المخصصة للدرس تصبح ساعتين أو ثلاث ساعات، وتعال... واحسب!

لم يكن النقاش متكافئاً، أو يعني شيئاً هاماً للإثنين، ولكنه جزء مِنْ واجب الوظيفة، كما أنّه اختبار لما ستكون عليه العلاقات فِي المرحلة القادمة، إذ ما لبث أن انصرف الإثنان إلى أمور أخرى. تحدثا عن الفيضان، عن مِوجة

الحر المُفاجئة، عن وجود علاجات إضافية لأمراض المفاصل. كما تبادلا أخبار بعض المعارف. وانتهى اللقاء بنكتة رواها صفوت أفندي، وضحك لها بطرس يعقوب أكثر مما تتحمل نكتة مِنْ هذا النوع!

هكذا تحدد موعد استقبال قنصل الملك.

كان يمكن أن يتحدد موعد أبكر مِنْ ذلك، لو أراد أحد الطرفين وألح، لكن كُلّ طرف أعطى لنفسه فترة إضافية، لعله يستطيع خلالها أن يكسب نقطة على الآخر، أو أن يجعله فِي موقع يضطره لتقديم تنازل مِنْ نوع ما.

يقول بعض مِنْ يعرفون، إن الباشا كان يريد أن يشعر القنصل، ومنذ البداية، أنّه غير مدين له بأي شيء. لا بل القنصل هو المدين، وقد حان الوقت لمعاقبته، مِنْ خلال التجاهل، بعد أن جعل الباليوز وكراً لكل الذين يعادون الباشا، وليس أقسى مِنْ إهماله وتأخير استقباله!

ويضيف هؤلاء، أن الباشا لن يسرف كثيراً، ولن يصل إلى حد العداء، لأنه يعرف ما يمثل هذا القنصل، ومدى قوة دولته وتأثيرها عليه وعلى ولايته، الآن وفِي المستقبل.

صحيح أن فِي ذهن الباشا صورة سلبية عن هذا الغر، لكنه يبقى، مع ذلك، مُمثلاً لدولة قوية، والدولة القوية تضفي على مِنْ يمثلها قوة، حتى لو كان مصنوعاً مِنْ القش.

وإذا كان الذين يعرفون لا يقولون كُلّ ما يعرفون، فإن واحداً مِنْ هؤلاء، وكان مع داود باشا فِي الشمال، قال لأصدقاء له فِي قهوة الكمرك، إنّه سمع مِنْ الباشا فِي إحدى المرات كلمة لا ينساها:

- منو هذا الزعطوط، سعيد، لولا أنّه ابن سليمان باشا وملتزمه الباليوز؟

ويضيف هذا الشخص، الذي يستحلف أصدقاءه ألا يذكروا اسمه إذا نقلوا عنه، أن الباشا تحدث وأفاض فِي الحديث عن هذا الذي ورث، بالصدفة، إسماً وموقعاً دون استحقاق، فِي الوقت الذي صنع غيره حياتهم ومواقعهم تبعاً لما يملكون مِنْ مؤهلات ولما قدموه مِنْ تضحيات.

ويؤكد الشخص ذاته أن الباشا ذكر لو أن ابنه سليمان ما زال حياً لكان الآن أكبر مِنْ سعيد ومن القنصل، وذكر أن الحياة خير معلم وهي التي تخلق الرجال.

إذا كان هذا ما دفع الباشا إلى تأخير استقبال القنصل، فإن القنصل، كما يروي رجاله لم يكن فِي عجلة مِنْ أمره. قال لترجمانه، بطرس يعقوب، وهو يُرسله إلى السراي:

- لا تلح أبداَ، لا تلح ولا تعتبر الأمر مهما: سعادة القنصل يريد مقابلة الباشا للتهنئة، فأي الأوقات تناسب فخامته؟

ابتسم، وهو ينظر إلى عيني ترجمانه وتابع:

ـ هؤلاء الشرقيون يتصورون أن أهميتهم تستمد مِنْ قدرتهم على أن يقولوا غداً، وغدُهم هو المجهول بعينه، فلا تناقش كثيراً، المهم أن تقول لهم: ممثل جلالة الملك موجود فِي بغداد، ومن واجبه أن يقدم التهنئة، ثم أترك لهم أن يقولوا متى يناسبهم ذلك!

ولما كان الكبار، كالباشا والقنصل، يتناقشون ويتصرفون بطريقة معينة، فإن الموظفين يمتلكون مِنْ الوقت، ومن الرغبة، ما يجعلهم يعتبرون بعض الأمور هامة جداً، مع أن لا حاجة لها البتة، وأغلب الأحيان يتجاوزها الكبار، أو لا تعني لهم شيئاً، ولكن ماذا يفعل الموظفون إذا لم يفعلوا ذلك كي يبرهنوا على الدقة ومدى الحرص فِي أدائهم لواجبات وظائفهم؟

قال الترجمان فِي نهاية لقائه مع رئيس التشريفات ـ لا مانع لدى قنصلية جلالة الملك على الموعد...

ابتسم بوقاحة وهو يُضيف:

- شرط أن لا يسبق قنصل الملك لقاء أيّ مِنْ القناصل!

ردَّ صفوت قرداغ وكأنه ينفي عن نفسه أيّ تهمة:

- لم تعط، بعد، مواعيد لأي مِنْ القناصل.

- وسيكون، بالتأكيد، قنصل جلالته أول مِنْ سيستقبل؟

ردَّ صفوت أفندي بانفعال:

ـ أرجو ذلك!

عندما أبلغ الترجمان ريتش بالموعد، هز الأخير رأسه وكان يبتسم ابتسامة تحمل أكثر مِنْ معنى. وقال:

- نحن هنا مثل الهواء، قد لا يرانا مِنْ يتطلع حواليه، لكن كُلّ إنسان بحس أننا موجودون وضروريون... ولعل الباشا أكثر الجميع إحساساً بهذا الأمر.

وبعد الاستفسار عما دار مع رئيس التشريفات، عقب ريتش:

- الجديد سيتعلم مِنْ القديم، وداود باشا رجل ذكي، يعرف ماذا تعني بريطانيا العظمى الآن وفِي المستقبل، لهذا البلد وللبلدان الأخرى...

وأضاف، كأنه يخاطب نفسه:

- ليت هؤلاء الشرقيون يدركون أن الأمور تتجاوز المظاهر، وتتجاوز رغباتهم وما يفكرون فيه...

وبعد قليل:

ـ أثناء زيارتي الأخيرة للمملكة المتحدة، ولبعض الدول الأوروبية، أدركت أن ما يفصل الشرق عن أوروبا ليس الجغرافيا أو الزمن بل ونوع العقلية أيضاً!

وكاد ريتش يستطرد، لكنه فجأة أدرك أن ترجمانه واحد مِنْ الشرق، ولا يحسن أن يقول أمامه كُلّ شيء أو ما يفكر ويحس به. فتابع وقد تغيرت - سجل الموعد، لكي لا ننسى، ولا بد أن تذكرني به قبل يوم أو يومين مِنْ ذلك!

ومع أن الموعد تحدد بشكل ثابت ونهائي، إلا أن بطرس يعقوب أصر أن يكون استقبال قنصل بريطانيا أول مِنْ يتم استقباله مِنْ القناصل، وكان يعني تحديداً قنصل فرنسا، لأن الوسواس تملك ريتش مِنْ أن تعود الأمور كما فِي السابق، أيام سليمان الصغير، حين كان القنصل الفرنسي لا يختار الوالي فقط، بل وكان يملي عليه السياسة والعلاقات، وأي شيء يجب أن يقبل أو يرفض.

تحفظ ريتش كان مِنْ قبيل الاحتياط، لأنه لا يعرف كيف انتشرت الأخبار عن فرار نابليون مِنْ منفاه، واحتمال عودته إلى السلطة مجدداً، وما يعنيه ذلك مِنْ متاعب ليس لأوروبا وحدها، وإنما للعالم بأسره. هذه الأخبار بدأ تداولها بعد وصول عدد مِنْ التجار الأوروبيين، كان ضمنهم بعض الفرنسيين، لبحث إمكانية شراء منتجات زراعية مِنْ العراق وإيران، وأيضاً لشراء الجلود والسجاد والصوف، ولإقامة عدد مِنْ المنشآت خاصة فِي الشمال لصناعة الحرير الطبيعي.

ليس ذلك فقط، إذ كان لدى ريتش قناعة أكيدة أن لفرنسا جواسيسها أيضاً، وهؤلاء، وان كانوا غير ظاهرين، لا يكفون عن تحريض الناس ضد الإنكليز، وشتمهم واختراع القصص عما يفعلون، وما يدبرون مِنْ مؤامرات. ورغم تحريات ريتش لمعرفة هؤلاء الجواسيس، لم يصل إلى نتيجة واضحة أو مؤكدة، الأمر الذي زاد مِنْ مخاوفه، وجعله دائم القلق.

حتى إشاعة هرب نابليون فِي هذا الوقت تدل أن شيئاً ما يُدبر، وقد تكون الإشاعة بداية متاعب، خاصة وأنها ترافقت مع أخبار عن قرب عودة قنصل فرنسا مِنْ اسطنبول. وهذا ما جعل ريتش يحتاط حين أرسل ترجمانه إلى السراي وما جعله يتشاءم أيضاً، لأن تبدل الولاة فِي العراق يحمل معه تبدل السياسة، واختلاف النظرة إلى الأجانب وطريقة التعامل معهم.

لقد واجه ريتش فِي بداية عمله أوقاتاَ صعبة، لأن المسيو دانييل، قنصل فرنسا، كان مِنْ البراعة وسعة العلاقات والتأثير إلى درجة أن جزءاً مِنْ طموحات وأحلام قنصل الملك باتت أقرب إلى الخيال، أو غير قابلة للتحقيق، لكن مِنْ حسن حظ ريتش أن إقامة المسيو دانييل فِي بغداد لم تطل، إذ نقل إلى مكان آخر، وجاء بديلاً عنه المسيو ريمون. ورغم ما يتميز به القنصل الجديد مِنْ حيوية وكبرياء أقرب إلى التحدي، وبعض الأحيان نعومة تختلط بالمكر، خاصة حين تتغلف بالدعابة، فقد اعتبر ريتش أنّه يواجه خصماً سهلاً، أو على الأقل ليس بقوة دانيل أو بعلاقاته، نظراً لأنه أقدم منه فِي هذه المدينة، ثم لأنه يمثل دولة صاعدة، فِي الوقت الذي تتراجع فرنسا وتلاحقها الهزائم، بعد هزيمة نابليون. ثم هناك سبب شخصي، فالمسيو ريمون الذي يدعي معرفة بالعربية، كان يتكلمها بطريقة تثير السخرية والشفقة معاً، فقد تعلمها حين كان ممثلاً لشركة ملاحية فِي مالطا، ثم استدرك ما فاته لما انتقل إلى طنجة، بحيث أصبح مِنْ الصعب فهم ما يقول، رغم الإشارات! وقد بدأت أولى المعارك بين الرجلين مِنْ خلال اللغة، فقد صادف وجودهما معاً فِي مناسبات مشتركة، وبعد أن يبدأ المسيو ريمون الحديث، وبلغته العربية، كان يطلب مِنْ ريتش أن يترجم ما يقوله زميله الفرنسي!

وإذا كان المستر ريتش قد نوى أن يلحق هزيمة ساحقة بخصمه، فليس مِنْ قبيل الانتقام الشخصي، إذ ليس بين الاثنين ما يستوجب ذلك، وإنما هو صراع بين دول، ولا بد أن يُظهر تفوقاً مزدوجاً، إذ حين يهزمه هنا فمعنى ذلك أنّه الأقوى، وأن دولته هي الأقوى هناك، الأمر الذي يجعل الناس يقتنعون دون مشقة.

لكن الهزيمة الساحقة التي أرادها ريتش لم تتحقق، لأن المسيو ريمون بعد شهور مِنْ المراسلات المضنية مع سفارته فِي اسطنبول، ومع وزارة الخارجية فِي باريس، دون أن يصل إلى أية نتيجة مرضية بخصوص تلبية طلبات قنصليته، قرر أن يذهب بنفسه لمتابعة هذه الطلبات.

قال لريتش فِي اللحظة الأخيرة، وهو يودعه، إنّه ذاهب إلى اسطنبول، ولن يغيب إلا بضعة أسابيع، وسأله ما إذا كان بحاجة لأي شيء يمكن أن يخدمه به، فرد ريتش بطريقة أشد مكراً، لأن ريمون لم يبلغه إلا فِي اللحظة الأخيرة، قال:

- ظننت أنك مسافر إلى باريس؛ لو كان الأمر كذلك لأوصيتك على كتابين صدرا أخيراً فِي فرنسا، وهذان الكتابان: الأول عن الهند والثاني عن الامبراطورية العثمانية، وأظن أن فيهما شيئاً مفيداً... إذا لم أقل هاماً.

كان يريد أن يشعره بمدى جهل الفرنسيين أولاً، وها هو يقول له الآن إنّه لا يعرف هذين الكتابين؛ وأن يؤكد أيضاً أن الإنكليز، وأنه هو شخصياً على وجه التحديد، يعرفون ويتابعون ما يُكتب وما ينشر!

أما بعد أن سافر المسيو ريمون، وتتابعت الشهور، وليس الأسابيع، دون أن يعود، فقد شعر ريتش بالراحة، واعتبر أن معركته مع قنصل فرنسا تراجعت، ولا حاجة لأن يشغل نفسه بأمر لم يعد ملحاً.

ومع أن قنصلية فرنسا بقيت مكانها، فِي محلة الميدان، وغير بعيد عن السراي، إلا أن الصمت الذي لفها، بعد أن توقف دفع رواتب الموظفين المحليين، بمن فيهم الترجمان، جعلها غائبة أو أقرب إلى الغياب.

الآن مِنْ خلال هؤلاء التجار الذين لا يكتفون بالأرباح التي يبحثون عنها فِي كُلّ مكان، فقد جاءت الأخبار المثيرة للتساؤل أو ربما للقلق، خاصة أن الأخبار مِنْ انكلترا قليلة، ومن اسطنبول لا تصل إلا بأوقات متباعدة، كما لا تشفي الغليل إن وصلت، وفكر ريتش بضرورة ترتيب البريد مِنْ جديد، لكي لا ينتظر طويلاً، أو أن تأتيه الأخبار، وربما المفاجآت، عن طريق التجار والمسافرين! وقرر أن يحسم هذا الأمر أثناء زيارته القادمة إلى اسطنبول ثم إلى لندن، وأيضاً أن يقضي فِي زيارته هذه بضع أسابيع فِي باريس، ولا بد أن يشتري الكتابين اللذين لم يكلف مسيو ريمون نفسه عبء السؤال عن أسماء المؤلفين!

لم يكن داود باشا بحاجة إلى أن يهمس بأذنه أحد ليقول له دلالة أحداث حصلت وأخرى لم تحصل. فإطلاق النار ليلاً على بعض الثكنات العسكرية، أو عند بوابات بغداد؛ وتلك الإشاعات التي تملأ المقاهي والأسواق عن قرب وصول قوات البدو، وأن ذلك سيتم حالما ينحسر الفيضان؛ ثم تأخر وصول كبار شيوخ البدو، حتى القريبين إلى بغداد، للتهنئة وإعلان الولاء؛ وأيضاً تزايد الأخبار بأن رجال قاسم الشاوي يشترون البنادق والخيول.... هذه الأحداث، وأخرى أيضاً، لم تترك شكاً لدى داود باشا أن أمراً ما يهيؤه الخصوم، فإذا لم يبادر قد تنقلب عليه الأحوال.

وإذا كان مِنْ الضروري ملاحقة بعض الخصوم قبل أن يستفحل خطرهم، فإن خصوماً آخرين مِنْ الخطأ أن يُلاحقوا، أو أن يُلتفت إليهم.

كما أن اللجوء إلى القسوة تجاه الخصوم يجب أن يكون له وقت، وأن يكون له حد، وأي خطأ فِي اختيار الوقت أو الحد ينقلب إلى عكسه.

تعلم داود هذه الدروس فِي وقت مبكر، إذ علمته الحياة، وجعلته التجارب دقيقاً حريصاً إلى حد الوسواس، خاصة تجاه البدو، الذين يتقنون الحقد أكثر مِنْ أيّ شيء آخر.

ورغم أنّه لم يحب يوماً قاسم الشاوي، ولا وثق به، إلا أنّه لم يخطىء يوماً فِي تقدير قوته، وما يمكن أن يضيفه لمن يكون إلى جانبه، هذا ما جعل داود يحاول، ويبذل جهداً، لكي يكون هذا الرجل معه. فقاسم مِنْ الجرأة وسعة الحيلة والسرعة، بحيث يشكل قوة تغير الموازين. وهذا ما دفعه لأن يبعث إليه عدة رسل. حاول فِي البداية أن يغريه، وحاول فِي فترة لاحقة أن يهدده، لكن قاسم لم يستجب للإغراء، ولم يخف مِنْ التهديد.

قال له داود مع واحد مِنْ الرسل: «سعيد ما هو ابن عيشة، يا قاسم، وأن تكون مع السلطان خير لك وأنفع مِنْ أن تكون مع الشيطان، مع سعيد وحمادي وما يشابه مِنْ الأضراب، فكر أول يوم، وفكر فِي اليوم الثاني، وفِي اليوم الثالث ابعث مع الرسول الجواب»..

ولم يتأخر الرسول إلى اليوم الثالث. أعاده قاسم قبل أن ينقضي اليوم الأول، مع كلمات شديدة الوضوح: «ما تعودنا، يا داود، أن نرمي ببير شربنا منه حجارة، وإلى اليوم نتذكر أفضال سليمان باشا علينا، ويلزم غيرنا، الذين آواهم سليمان باشا مِنْ خوف وأطعمهم بعد جوع أن يتذكروه ويتذكروا أولاده» ويضيف رسول داود، أنّه بعد مغادرته لمضارب الجبور، تبعه فارس،

وطلب منه أن يبلغ داود أيضاً كلمة نسي قاسم أن يقولها...«وتقول لداود: الدنيا ما تخلص بيوم أو اثنين، والواحد إذا ما كان له أول ما راح يصير له تالي»..

ورغم أن داود باشا استعاد الرسول ما قاله قاسم أكثر مِنْ مرة، وطلب منه أن يتذكر جيداً كُلّ كلمة قالها، فقد أمر أحد كتابه، رسمي جناوي، أن بدون جواب قاسم، لكي لا يُنسى شيء فِي المستقبل.

وبعث داود رسولاً ثانياً وثالثاً، ثم رسولاً أخيراً، وكان الوقت الذي يفصل بين واحد وآخر لا يزيد على الشهر، وفِي هذه المرات تلقى الرسل أجوبة واحدة أو متماثلة. وبلغ الأمر بقاسم أن أبلغ الرسول الأخير رسالة قصيرة، لكنها واضحة، بعد أن ضاق مِنْ الإلحاح: «... وتقول لداود: أيّ طارش جديد راح يكون له درب واحد، جية بليا ردة، فإذا عنده رجال واجد خلي يطرش كُلّ يوم مو واحد... مية»..

الآن، وبعد أن استولى داود على بغداد، كان بالإمكان أن يؤجل معركته مع قاسم، وقد ينساه، رغم الكثير الذي فعله، لكن توالي الحوادث، وحتى التهديدات التي تنقل عن رجاله، وكان يلتقطها عيون داود بسرعة، ولتأكده أن قاسم لا يزال فِي بغداد لم يغادرها، فلا بد أن يظفر به. يمكن أن يختفي فِي بيت مِنْ بيوت الأصدقاء، لكن إلى متى يستطيع ذلك؟ وإذا لم يصله اليوم ألا يستطيع الوصول إليه غداً أو بعد غد؟ وهل يقوى قاسم، أو يجرؤ على اجتياز أبواب بغداد بعد أن أمر داود بتعزيز الحراسات عليها، ووضع عند كُلّ بوابة مِنْ يعرف قاسم معرفة جيدة؟ وإذا قدر له أن يفلت فإلى متى وإلى أين؟

لا يمكن لداود أن ينسى وجه قاسم الوسيم والمليء بالحيوية والقسوة معاً؛ كما لا يمكن أن ينسى إجاباته للرسل الذين بعث بهم إليه، خاصة إجابته الأولى ثم إجابته الأخيرة. لا بد أن يقبض عليه، أن ينظر إلى عينيه وهو مغلول اليدين ذليلاً. وسوف يذكره بكل كلمة قالها، وسوف يرى كيف تكون إجاباته الآن بالمقارنة مع إجاباته للرسل، الذين لا بد أن يحضروا مثل هذا اللقاء!

وأكد داود، وزاد فِي التأكيد، أنّه يريد قاسم الأسير لا قاسم القتيل، وعلى الذين يقبضون عليه بذل أقصى جهدهم كي يأتوا به حياً، «لأن قاسم الحي، كما قال الباشا لنفسه، أثمن ألف مرة مِنْ قاسم الميت!». وهذا الذي اقتضى زيادة عدد الذين يتحرون عن مكانه، وخصصت جوائز كبيرة لمن يقبض عليه أو يبلغ عن تحركاته، فانتشر العيون فِي أنحاء بغداد، وغادرها آخرون إلى حيث يحتمل أن يلجأ قاسم، أو ربما يكون هناك منذ أن دخل داود المدينة.

ولم تتأخر الأحداث، ولم تتأخر بعدها الأخبار: لقد أفلت قاسم، غادر نحو الجنوب. قال ذلك أناس كثيرون رأوه فِي الحلة، وتأكد ذلك بعد أيام، وقد شوهد فِي طريقه إلى سوق الشيوخ. وجاء مِنْ سمع منه تهديدات مباشرة، حين كان يغادر سوق الشيوخ إلى مكان آخر.

وعادت الذكريات لداود باشا حين استلم فرمان تعيينه والياً لبغداد، وكان مع الفرمان خلعة ثمينة مِنْ جلد السمور، قال لنفسه، وهو يقلب الخلعة: «الصبر مفتاح الفرج، ومن صبر ظفر»..

لم يتأخر فِي إعلان الفرمان، وفِي إبلاغ كُلّ مِنْ يلزم، أنّه أصبح الوالي، وإذا كان يهمه أن يعرف سعيد بهذا التعيين، فقد كان يهمه أكثر أن يتبلغ حمود بن ثامر «فهذا البدوي الجلف وحده الذي يستطيع، بتخليه عن سعيد، أن يسقطه، فقط إذا لم يستجب لنداءاته أو لعويل أمه».

وحمود الذي سمع مِنْ رسول داود بفرمان السلطان وخلع سعيد، لم يتكلم كثيراً، ولم يتكلم بوضوح. قال: «كلام السلطان على الراس والعين»، وقال «إن أهل مكة أدرى بشعابها، وإنشاء الله يصير خير»..

ولم يستطع داود أن يتأكد ما إذا كان حمود بن ثامر سيبقى مع سعيد أم سيتخلى عنه. «فالله سبحانه وتعالى لا يعرف ما يدور فِي رؤوس هؤلاء البدو. إنهم مخلوقات غامضة مليئة بالشر والقسوة، وهم كالشياطين لهم ألف وجه، لذلك يجب الاحتراس منهم دائماً» هكذا كان يقول داود لنفسه، خاصة وأنه اختبر العديدين منهم، وعرفهم عن قرب. «إنهم يعرفون السخرية إلى درجة الأذى، دون أن تظهر على وجوههم علامات السخرية! حتى الكلمات التي يرددونها تحمل معاني لا حدود لها، والغريب أن الواحد منهم يفهم ما يعنيه الآخر مِنْ نبرة الصوت، مِنْ رفة العين، حتى لتبدو الكلمة داخل كلمة، داخل كلمة، ومظهرها لا يدل عليها! أين تعلموا هذا المكر كله؟ وكيف استطاعوا أن يحملوا الكلمات هذا المقدار مِنْ الثقل والكثافة دون أن تسقط، ودون أن تتغير؟».

ولأن داود باشا يعرف أعداءه معرفة جيدة، فإنه يعرف نقاط قوتهم ونقاط ضعفهم، لذلك فهو دائم الشك، كثير الارتياب بما يقولون أو بالوعود التي يعطونها. مع هذا يتظاهر أنّه لم يسمع ولم ير، لكنه أبداً لا ينسى. وزيادة فِي الحيطة كان يطلب مِنْ كاتبه، جناوي، أن يدون الأقوال والأوقات والشهود. أكثر مِنْ ذلك، لا يعطي ثقة كاملة لأحد ودفعة واحدة، يعطيها بمقدار، وعلى فترات. أما إذا بدر ممن محضه الثقة خطأ أو تقصير، أو إذا أظهر طموحاً ليس له ما يبرره، فعندئذ يسحب ثقته، وقد يبالغ فِي العقاب «كي تزول مِنْ عقول الآخرين أية فكرة، ولو على شكل احتمال أو حلم، للتآمر أو الخيانة» يلجأ إلى هذه الوسيلة إلى حين، وبعد أن يتأكد مِنْ وصول الرسالة يعرف

كيف يداوي. يستعيد مِنْ عاقبه، بعد أن أصبح مطواعاَ، كي يعهد إليه بمنصب أقل مِنْ منصبه السابق، ويجعله تحت رقابة خصم له!

لم يكن داود يتحدث عن ذلك أبداً، لأن الحاكم إذا تكلم كثيراً فقد هيبته، ثم إن ما يهم الناس ما يرونه بأعينهم، لا ما يسمعونه مِنْ أقوال ووعود.

ولأنه الوالي الآن، يجب أن يكون مختلفاً عن السابق، بالسلوك، بالتصرف، ومتى يجب أن يتكلم ومتى عليه أن يصمت. لقد انتهى دور التعبئة والتحريض، وحسمت معركة الكلام منذ اللحظة التي دخل فيها بغداد. صحيح أن الدماء هي التي تحسم المعركة فِي النهاية، لكن الكلام.. وبعض المال، ما يؤدي إلى المعارك التي يبذل فيها الناس دماءهم، وكثيراً ما خسرت معارك أو تبددت لأن الكلام الذي قيل لتبريرها أقل مِنْ مستوى كلام الخصم.

حتى الأصدقاء الذين تعودوا عليه قبل أن يصبح والياً، يجب أن يتعودوا عليه بعد أن صاره، معنى ذلك أن يتغيروا عن السابق، لأنه هو ذاته تغير. لم يعد داود المطارد أو الهائم فِي الجبال، إنّه الآن الباشا، والمنصب ذاته يفرض طريقة جديدة فِي التعامل. هذا ما يجب أن يدركه القريب والبعيد، وأن يلتزم به الجميع.

عليوي لاحظ تغير الباشا، لكنه عزا ذلك إلى قلة النوم، وإلى اختلاف المناخ! ولأنه كان مشغولاً باستقبال الوفود، وبتقصي أخبار خصومه السابقين، لم يحفل كثيراً بصمت الوالي، وذلك الحذر الذي أخذ يميز تصرفاته. قال لنفسه فِي محاولة لتجنب الوساوس: مية بغداد غير مية الجبل، والهوا هنا ثقيل، حتى الواحد لما يقوم مِنْ نومه يكون مضعضع، فشلون إذا ما نام؟».

والباشا يسمع كثيراً، لكنه لا يتكلم إلا قليلاً، وما هو ضروري. أما الرجال الذين يمكن الاعتماد عليهم فِي المرحلة الجديدة، فلن يكونوا، بالضرورة، نفس الرجال الذين كسبوا المعارك، إذ مِنْ يصلح للمعارك، لا يصلح لمهام يفرضها زمن السلم. لا يعني ذلك أن يُبعدوا، أو أن يهملوا، فالحاجة إليهم لا تزال ماسة، ولكن عليهم أن يستريحوا، مع حفظ الألقاب والمظاهر، وأن يجزل لهم العطاء أيضاً، دون أن تسند إليهم أعمال أو مهمات جديدة.

وأولئك الذين ظلوا يرقبون المعركة مِنْ بعيد، دون أن يتدخلوا، يمكن الآن استمالتهم، وقد يكونون مفيدين، شريطة أن يذكروا أن الوالي هو الذي أنعم عليهم، فِي الوقت الذي يمكن أن يحصل العكس.

قال الباشا لكيخياه، يحيي بك، وكان الحديث يدور حول تعيين كبار الموظفين:

- حتى الذين كانوا مع سعيد، فإنهم قبل أن يكونوا معه كانوا مع السلطان.

ولما أبدى يحيى بك استغرابه بعد أن ذكر أحد الأسماء، تابع الباشا: - يجب أن يبقى مأمور الدولة مأمور دولة، أن يطيع رؤساءه، وأن ينفذ ما يأمرونه به دون اعتراض. أما إذا تركنا لهم أن يقرروا ما يجب تنفيذه، وما يجب أن يمتنعوا عنه، تبعاً لأهوائهم، فلن تنتظم أمور الولاية، وسوف يضيع كُلّ شيء.

ولأن مشكلة البدو هي التي تثير مخاوف الباشا، وقد تقلب الأمور رأساً على عقب، فكثيراً ما وجد نفسه يركز عليها، ويتناول الأمثلة التي تخصها.

قال لسيد عليوي، بعد أن تأخر كبار شيوخ البدو فِي تقديم التهنئة، وربما يكون بعضهم يستعد للتمرد:

- تندفع غزوات البدو فِي أيامها الأولى بقوة، وربما تصبح خطرة، لأن كُلّ فرد منهم يكون قد استوعب ما طلب منه، وينفذ ما أمر به. لكن ما أن ترتفع ضجة الهوسات، وتدب فِي عروقهم الشجاعة الفردية، حتى ينسوا كُلّ شيء، ويفعل كُلّ واحد ما يحلو له. يندفع أكثر مِنْ اللازم، يحلم بالوصول قبل غيره، لكي تكون له الحصة الأكبر فِي الغزو، وفِي الشهرة أيضاً. فإذا تركتهم يوماً أو يومين يفعلون ذلك فيمكن بعدها ان تتصيدهم كالأرانب.

لم يكن هدف الباشا إقناع الآغا، بل كان يلقي عليه درساً، ليعلمه كيف يجب أن يتصرف عند الضرورة حين يواجه حالات مِنْ هذا النوع.

حتى التجار الذين وقفوا إلى جانب سعيد، أو امتثلوا لما أراد، لم ينظر إليهم الباشا نظرته إلى البدو، لأن التجار، كما قال لنفسه، يخافون مِنْ شيئين: الخسارة والموت. فإذا جبتهم الخسارة، ولم تذكر أمامهم الموت، فإنهم لا يبالون بأي شيء آخر. وخطيئة سعيد أنّه أتاح لهم ربحاً كبيراً فِي البداية، ثم سلبهم فِي النهاية كُلّ الأموال، بحجة أنها مجرد دين، وهذا جعلهم يحسون بخسارة مضاعفة، خسارة الأرباح ورأس المال، ووضعهم، وهم عزل، فِي مواجهة الموت الفعلي، وهذا ما جعل الكثيرين لا ينفرون مِنْ سعيد فقط، وإنما يعادونه، وعلينا أن نستفيد مِنْ أخطاء الحمقى.

هكذا فكر داود باشا وهو يستقبل التجار الذين جاؤوا للتهنئة، وأيضاً اليفسروا المصاعب التي تجعلهم مضطربين وحائرين، إذ يريدون أن يساعدوا، لكنهم لا يعرفون كيف. كانوا يسترسلون فِي مواضيع كثيرة، ويقاطع بعضهم بعضاً. والباشا الذي يستمع بصبر، لم يتمالك نفسه أكثر مِنْ مرة مِنْ الابتسام.

قال لنفسه، بعد أن ودعهم: «تجار بغداد مثل ذكور بعض الحيوانات، ما توفره الإناث يسرقه الذكور. يحبون المساومة، والمماطلة، حتى لو باع الأب لأبنائه، وكأنه يريد أن يعلمهم درساً يجب أن لا ينسوه! أما إذا تأمن الربح

للتاجر فيصبح أكثر وداعة مِنْ الخروف، يطيع الراعي الذي يسمنه، ولا يفكر أنّه يهيئه للسلخ»!

هكذا فكر داود، وهكذا قال لنفسه، وقرر أن يأخذ فسحة مِنْ الوقت ارض السواد كي يتعامل مع التجار، لأنه لا يعرف متى تستيقظ لديهم غريزة الذكر الذي يأكل أبناءه، أو ينتزع الحب مِنْ أمام إناثه.

قال لفيروز بصوت عال ومرح، وكانا فِي الحديقة الجنوبية للسراي:

ـ إنهم يشبهون ديوك مرو...

ولما نظر فيروز إلى سيده متسائلاً، لمح على وجهه ابتسامة، لكن لم يفهم شيئاً، ابتسم دون أن يقول كلمة واحدة.

سأله الباشا:

ـ أتعرف عادات الديوك فِي مرو؟

هز فيروز رأسه بالنفي، قال الباشا بمرح:

- ذكرني لأحدثك عن هذه الديوك فِي ساعة صفاء!

ابتسم فيروز مع هزات مِنْ رأسه ولم يقل كلمة واحدة.

تمني داود لو أن قاسم بقي فِي بغداد، إذ مهما طال الوقت لا بد أن يقبض عليه. يمكن أن يخصص عدداً إضافياً للبحث عنه، وإذا فشل الرجال فِي الوصول إليه يمكن أن يستعان بالنساء، خاصة وقد بدأ يظهر طرف خيط عن طريق إحدى المنجمات، وكانت تتردد على قسم الحريم فِي السراي، إذ وعدت أن تأتي بالخبر اليقين بعد إشارة أو اثنتين!

الآن صار قاسم بعيداً، ولا يعرف متى تتهيأ الظروف للوصول إليه، وبأي ثمن.

قال داود لنفسه بعد أن توالت الأخبار عن قاسم، ثم تأكدت: «هؤلاء البدو يعرفون شيئاً واحداً، وقد أتقنوه لفرط ما أدمنوا عليه: إشغال الدولة. انهم لا يعرفون الحرب، صحيح أنهم يقاتلون، لكنهم لا يستطيعون التمييز بين النصر والهزيمة، وربما لا تعنيهم هذه القضية. فقط يريدون خصماً، حتى لو كان وهماً، كي يحاربوه. وبهذه الطريقة يشعرون بوجودهم وأهميتهم. أما إذا غاب الخصم فعندئذ يأكلون أنفسهم إلى أن يتلاشوا، ويبدو أنهم لا يريدون التلاشي، على الأقل الآن!» هكذا مرت الصور فِي ذهن داود باشا، وهو يستعيد علاقاته وحروبه معهم، وتذكر أيضاً كيف يتغيرون بين يوم وآخر، يصبحون مخلوقات جديدة، مختلفة تماماً عما كانته فِي الأمس، وما يمكن أن تكونه غداً. فقط إذا شعروا بالضعف أو بالقوة، بوجود المال بين أيديهم أم لا، بعجز الآخر عن الوصول إليهم أو قدرته على ملاحقتهم. ويتذكر داود باشا كيف يتكلمون ويتصرفون حين يشعرون بالخسارة، ثم كيف تنقلب الأوضاع حين يغلبون: «نحن رجالك وعبيدك يا آغا، يا بك. جربنا نوبة ثانية وشوف، بس هالمرة يا آغا، يا بك، وسبحان مِنْ لا يخطي». وفِي اليوم التالي، إذا انتصروا فِي معركة حتى لو كانت صغيرة: «باشا الكاغد ما نبيه، ما ورا الحكومة إلا العسكرية والخوات وتكسير الراس؛ حنا بديرتنا واللي بيه مرجلة ينوشنا».

لا يريد داود باشا، بعد أن أفلت قاسم الشاوي، أن يأكله الندم أو أن يستسلم لليأس. يمكن أن ينتظر، يمكن أن يلتفت حواليه، خاصة وأن الدفء الذي سري فِي الطبيعة، وأخرج الثعابين مِنْ سباتها الشتوي، أخرج أيضاً الخشب المسندة التي أقامت فترة طويلة فِي الباليوز، وبعد أن حقق وحده النصر على سعيد، رفعت هذه الثعابين الربيعية رؤوسها تطالب. بحصة، وتريد أن تكون شريكة.

كان مِنْ السهل على داود أن ينسى عدداَ غير قليل مِنْ هؤلاء الخصوم، أو أن يؤجلهم على الأقل. أما الآن، وقد أفلت الطير الثمين، قاسم، فلا يمكن العودة مِنْ الصيد دون صيد، خاصة وأن أهل العراق، كما كان يقول داود لنفسه، يعتمدون على أعينهم ويصدقونها أكثر مِنْ اعتمادهم على آذانهم أو عقولهم، ولا بد للناس أن يروا ماذا يعني الوالي الجديد، وكيف يستطيع أن يعاقب أيّ شخص، خاصة مِنْ الكبار الذين أساءوا فِي الماضي ووقفوا فِي وجهه، ليكونوا عبرة لكل مِنْ تسول له نفسه أن يفعل شيئاً الآن أو فِي المستقبل.

ورغم المشاغل الكثيرة، وقد تصل إلى حد الهموم، التي تثقل كتفي داود باشا ليل نهار، ولكي يبدأ رحلته التي طالما فكر فيها، ومنذ وقت طويل، وكان يريدها مختلفة عن أية رحلة سابقة، وأحد شروطها أن يخلق استقراراً يشابه الرصاص بثقله، فقد التفت حواليه، وأخرج عدداً مِنْ الفرمانات المؤجلة.

إذ بالإضافة إلى حمادي، الذي كلف سيد عليوي أن يتولى أمره، بدأت تصله أخبار الآغا درويش ثم عبد الله بك. كانا يقولان، فِي الأيام الأولى، همساً، أن حمادي وحده السيىء والمسيء، أما سعيد فإنه، مهما أخطأ أو مُلل، يبقى ابن سليمان الكبير، وكان جديراً بداود أن يقف إلى جانبه، لا أن يعاديه. أما بعد أن ابتعد عنه وتركه، فقد سقط فِي أحضان حمادي، وهذا ما كان يريده حمادي ويتمناه. وينتهي مثل هذا الهمس إلى اقتراح يجب أن يرفع إلى السلطان: كُلّ مِنْ يمت بصلة قرابة أو مصاهرة لسليمان باشا يجب ألا يولى على العراق، لأن الخلاف بين هؤلاء وصل إلى درجة يمكن أن يؤدي إلى الفتنة، ومثل هذا الخلاف يشابه ذاك الذي وقع بين علي ومعاوية، وكان أصل الانقسام بين المسلمين، فإذا أراد السلطان أن يمنع فتنة جديدة فعليه أن يستبعد أطراف الخلاف!

وداود الذي لا يلتفت كثيراً إلى ما يقال إلا بمقدار ما يتحول القول إلى فعل، فقد أخذ يتحسب حين تحول همس الدواوين إلى اتصالات مع رجال الدين والتجار والأعيان. وكان رأس سعيد الذي تأكد أن بلطة قضته كما تقص الشجرة، ثم سلخ وأرسل إلى اسطنبول، هو الذي يدور حوله الحديث. وكان ما ينساه عبد الله بك، مِنْ قصص سعيد باشا: الطيبة والكرم وحب الخير ومساعدة الفقراء، لا بد أن يستدركه درويش آغا.

شعر داود بضرورة أن يبادر، خاصة وقد قيل إن أحد رجال خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر، وصل إلى بغداد لكي ينقل، بعد أن يرى بعينيه الاثنتين، فرح الناس إلى سيده خالد، لينقله هذا إلى مقام السلطان! لكن الرجل الذي جاء إلى بغداد، فِي إطار هذه المهمة، زار أيضاً ديوان عبد الله

بك، وبعد أن سمع كلاماَ لم يصدقه، وقد بدا هذا الكلام مستغرباَ، وظهر عدم التصديق على وجه الرجل، طلب منه أن يلتقي بدرويش آغا الذي يتذكر أكثر منه؟

بعد أن نقل العيون لداود ما قيل فِي ديوان عبد الله بك، وقبل أن ينقلوا إليه ما قيل فِي ديوان درويش آغا، قرر أن يتحرك.

صحيح أنّه لا يحب أياً مِنْ الاثنين، وهذه الكراهية ترجع إلى زمن بعيد، لكن كما أصبح يردد على نفسه، منذ أن دخل إلى بغداد منتصراً: «السلطة لا تعتمد على الحب والكراهية، السلطة تعتمد على ما ينفع، على ما يجعلها أقوى وأكثر قدرة، بغض النظر عن الجهة التي منها يجيء هذا النفع». لكن فجأة استيقظ الخوف داخله، وأصبح مضطراً أن يفكر بطريقة مختلفة.

وأخذت الصور تعاود الظهور فِي ذاكرته مِنْ جديد، إذ بعد أن أصبح عبد الله ودرويش نواباً لسعيد، على التعاقب، ثم كيف هرب الواحد بعد الآخر، والتجأ إلى الباليوز، قال داود لنفسه بغيظ: «عبد الله نور الله ببر سيمه، ما يعرف كوعه مِنْ بوعه. وإذا كان هناك مِنْ يسكر مِنْ الخمر، وهناك مِنْ يسكر مِنْ ذكر الله، فعبد الله يدوخ مِنْ دبس باب الشيخ، ويسكر مِنْ طرشي حنانش، والطوب ما يقعده. أما إذا اشم ريحة تشريب الطماطة ويا العكوس فيفة مثل المرعوص» وتذكر وجه هذا البهلول، إنّه يشبه وجوه الأطفال؛ حتى صوته لا يخلو مِنْ الجرس الذي لا يستطيع الإنسان أن يصنفه: هل هو صوت صبي أم امرأة أم صوت رجل؟ قال الباشا لنفسه بحقد: «ما ينعرف، ابن الحرام، إنّه رجال إلا إذا بدا يشتم، والواحد، إذا سمعه، يقول: قحبة عتيقة أو دلال هوش».

أما حين تراءت له صورة درويش آغا، الذي ظل نائباً لسعيد فترة طويلة، وظل موضع رضاه إلى أن جاء حمادي، وبدأ يرتقي المناصب، وأخذ يعادي ويضطهد جميع المنافسين، فقد هرب درويش آغا، ولجأ إلى الباليوز. وريتش الذي ألجأه إلى دار المقيمية، كان يريد أن يبقي تحت تصرفه أكثر مِنْ والي احتياط، إذ يمكن أن يخرج واحداً أو آخر، كما يفعل الساحر للمزيد مِنْ إفراح الناس وإدهاشهم، كما يجعل المتنافسين يتسابقون لخدمته!

ولما تذكر داود باشا سيرة هذا الرجل، قال لنفسه وهو يبتسم بحزن: «درويش آغا يحب الدنيا والآخرة، وبقدر ما خدع الناس ونهب أموالهم، يريد أن يلعب اللعبة مع رب العالمين، لكن ربنا يمهل ولا يهمل» قال ذلك وهو يقدر المبالغ التي يمكن أن يفرضها عليه ليفتدي بها نفسه، خاصة بعد أن بلغه ما بذله ريتش ورجاله معه مِنْ محاولات أثناء إقامته فِي الباليوز، إذ رغم العناية التي أحيط بها، فِي محاولة لإعداده وجعله منافساً محتملاً، إلا أن هذه المحاولات لم تجدِ، لأن درويش آغا، كما يقول الذين يعرفونه، دخل فِي

حالة مِنْ الذهول بعد وصوله إلى الباليوز بأيام قليلة. كان يفضل العزلة والصمت، وقد شوهد مرات عديدة يغرق فِي نوبات مِنْ البكاء المتواصل، وهو يهلل ويكبر ويردد بعض الأدعية، كما أصبحت صلواته تستغرق وقتاً طويلاً، بحيث لا يفطن للوقت أو للذين حوله. أكثر مِنْ ذلك أخذ يطيل سبحته أسبوعاً بعد آخر، وبها يبدأ لكن لا يعرف متى ينتهي! لما بلغ درويش آغا هذا الحد مِنْ الذهول والاستغراق، تحول إلى عبء على الباليوز. حتى المعلومات التي كان ريتش يريد الحصول عليها منه، وكلف مدير شؤون المقيمية، ميناس، أن يحاوره وان يداوره لينتزعها منه، فقد تعذر الامر عليه حين دخل درويش آغا فِي تلك الحالة. وكدليل على ذلك نسي دوريش آغا أسماء أولاده، ونسي أيام الأسبوع، وقيل أنّه رشا أحد حراس المقيمية، فقط ليذكره بيوم الجمعة، ولكي يصلي معه هو وأحد العاملين فِي الحديقة، لتكون الصلاة جماعة!

قال داود باشا لنفسه، بعد أن وصلته أخبار درويش آغا: «سبحة المية قليلة، وحتى سبحة الألف ما عادت تكفيه، يلزم له بعد اليوم زنجيل جهنم»..

وخلال الأسابيع الأولى، بعد دخوله إلى بغداد، كلف داود باشا مشهور أبو الهيل أن يتكفل به، وأن يرافقه مثل ظله، لأن إذا خوضنا بدمه راح يصير شهيد، وهذا ما راح يفرح به، وإذا تركناه يحكي ويفتي بكيفه، دون رقيب أو حسيب، راح يلوص، وهذا ما نريده».

ولم يفت داود أن يتذكر عدداً آخر مِنْ الذين كانوا مع سعيد، وقدموا له الفتاوى أو أمدوه بالمال. ولأن الفرمانات والتخويل بين يديه، وترك له أن يتصرف، فقد حان الوقت لكي يعطي درساً، وليقول للقريب والبعيد مِنْ هو داود باشا.

11

لم يكن قد مضى يومان على التخلص مِنْ سعيد، حتى نقل حمادي إلى ثكنة الفرسان.

قال الباشا لعليوي يوصيه:

ـ ترى ابن الزنا، حمادي، أظافره متروسة طحين، فأريد قبل ما يفارقنا يزوع آخر باره، وأريد أعرف ممن أخذ وإلى مِنْ أعطى...

وحين اهتز رأس الآغا، دلالة الموافقة والفهم، وأن لديه أشياء أخرى أيضاً يريدها مِنْ حمادي، تابع الباشا بنبرة جديدة:

- هه... الدولة ينراد لها فلوس ما تاكلها النيران، با آغا، وهذا، ابن الزفرة، أكل الأخضر واليابس، فأريدك تبوق لسانه، أريدك تحوفه مِنْ هنا الهنا حتى نحصل على الذهب اللي نهبه هو وسعيد.

وحين تتابعت هزات رأس الآغا، مع ابتسامة أقرب إلى الوعيد، تابع داود باشا، كأنه يكلم نفسه، ويريد مِنْ سيد عليوي أن يسمع كُلّ كلمة:

ـ أريده يموت ألف موتة قبل ما تطلع روحه، لأنه ابن الحرام هتك عرضنا وسوانا سالوفة بحلوق الناس. أريد منه الأموال، أمواله وأموال غيره، وما لازم يبقى أيّ سر مغطى، حتى لو وصل لأكبر راس...

صمت الباشا وطال صمته، ولم يكن الاثنان بحاجة إلى المزيد مِنْ الكلام، ولئلا يظن سيد عليوي أنّه مقيد بأي قيد، قال له الباشا وهو يودعه:

- وعليك الباقي با آغا، وما أريد أوصيك!

لم يكن الآغا بحاجة إلى مثل هذه التوصيات، وقد اعتبرها زائدة، أو لا تعني شيئاً، لأن الغبطة التي شعر بها وهو يقتل سعيد بتلك الطريقة، ما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الندم، ليس نتيجة ما قاله الباشا، أو نتيجة التفجع الكاذب الذي ظهر عليه بعد أن تدحرج رأس سعيد بين رجليه، وإنما لأن كُلّ شيء جرى بسرعة، بسرعة خارقة، بحيث لم يستطع أن يشفي غله، أن ينظر إلى عينيه ويرى فيهما الخوف، كما لم يسمع خلال تلك الثواني الخاطفة كلمة توسل أو حتى كلمة احتجاج، ولو كانت شتيمة.

الآن، ومع حمادي، يريد أن يستدرك ما فاته، أن يتشرب اللذة مِنْ خوفه وتوسلاته، مِنْ خلال ذلك الهوان الذي يصل إلى حدود الامحاء الكلي، وهو يطلب العفو الذي لن يحصل عليه. أما حين يسأل حمادي، حتى عن أصغر التفاصيل، بما فِي ذلك علاقته «الحميمة» مع سعيد، وحين يبصق على جبهته

لتنزلق البصقة على العين ثم تهبط نحو الشفة العليا، وهناك تستقر، فعنذاك سيشعر أنّه انتصر فعلاً. أما وهو يسمع إجابات حمادي، وكيف يحاول التبرير أو الإنكار، وتأتيه الصفعات مِنْ كُلّ ناحية لكي يعترف، ليقول الصدق، فلا بد أن تتملكه الغبطة ويتأكد كم هو قوي وقادر على فعل كُلّ ما يريد.

الكلمة، قال لنفسه، فِي أحيان كثيرة أقوى مِنْ الرصاصة. الرصاصة تذهب بسرعة خارقة لتقتل وتنتهي، أما الكلمة فتظل تقتل طالما ظلت تتردد، تفعل ذلك بهدوء، لكن بشكل قوي، تماماً مثل السكين التي تهبط، دون صوت، فِي اللحم الحي لتقسمه إلى نصفين، لتجعله يحس، وهو ينحر، كم مِنْ الآلام ترافق ضغطة اليد، نظرة العين.

ومع أن سيد عليوي، رغم مشاغله الكثيرة، كان متلهفاً ليبدأ رحلة المتعة مع حمادي، إلا أن الجروح كانت تؤجل انطلاق هذه الرحلة. بل أكثر مِنْ ذلك راودت الآغا مخاوف حقيقية أن يقضي حمادي وتغرق معه الأموال والأسرار فِي ركام قبر مجهول، وقد أصبحت هذه المخاوف كابوساً حين والت حرارته الارتفاع، الأمر الذي اضطر الآغا للاستعانة بطبيب هندي مِنْ أجل معالجته، وفكر فيما لو ساءت حالته أكثر أن يلجأ إلى طبيب الباليوز، عله يستطيع شيئاً، لكن ما كاد خبر مثل هذا يصل إلى الباشا حتى أوفد إليه أحد رجاله مع كلمات قليلة: «إياك ثم إياك، لأن هذا الذي يتمناه الباليوز، ونكون فِي هذه الحالة، كما يقول أهل بغداد، مثل اللي يؤمن البزون شحمة!» معالجة الطبيب الهندي أثمرت، وبدأ حمادي يستعيد قوته ووعيه، لكن ببطء بالغ، وبانتكاسات تعاوده بين فترة وأخرى.

ولأن سيد عليوي يريد كُلّ شيء، وهذا لن يتأتى إلا إذا تعاني حمادي تماماً، ورأى بعينيه، وهو فِي حالة مِنْ الصحو الكامل، أن سعيد باشا وعهده قد أصبحا مِنْ الماضي، ثم بعد أن يتشرب الكأس المر، حتى الثمالة، يمكن بعد ذلك استخلاص كُلّ شيء منه قبل أن يدفن. معنى هذا أن الزمن أخذ يتحول ضده، فإذا لم يعترف اليوم سيعترف غداً، والوسائل التي تجبره على ذلك كثيرة، ومن الممكن اختراع وسيلة جديدة لكل يوم جديد!

حين أوشك الفيضان على الانتهاء، بدأ التحقيق مع حمادي.

قال الآغا للذين يحققون معه:

ـ قبل ما تندفن العظام أريد اطلع الذهب المتروس جواها!

ولما بدت كلماته غير مفهومة، إذ تبادل المحققون نظرات متسائلة أقرب إلى البلاهة، تابع الآغا، وكان يبتسم.

ـ الأيام الأولى: عيني وأغاني، ومثل ما يتدلل الزغير دللوه، يمكن الله...

ثم بلهجة حازمة:

ـ نحن نريد، أول نوبة، الفلوس، وبعدها الأخبار والأسرار، منو وشنو وشلون، فإذا الله أعطاه عقل الرحمان، وحلب معنا صافي، فهذا اللي نريده هسه، وبعدين الله كريم؟

ولئلا يسرف المحققون، كان يسألهم أكثر مِنْ مرة فِي اليوم الواحد ما إذا وصلوا إلى اعتراف أو نتيجة. ولأن الصمت ظل مسيطراً، أو يترافق مع بعض الكلمات فقط، مثل: ما أدري، ما أعرف، وأحياناً وحدها هزات مِنْ الرأس لنفي أية علاقة أو معرفة، وقد استمر ذلك الأيام الثلاثة الأولى، فقد قال الآغا فِي اليوم الرابع:

ـ مثل هذول الأوادم ما تفيد وياهم الكلمة الزينة والمرحبا، ما يفيد وياهم إلا الكندرة والدق.

وحين تساءلت عيونهم عن مدى القسوة التي يخولهم استعمالها لانتزاع الاعتراف منه، ردَّ بسخرية:

- بحَسب روحه، ابن القحبة، أنّه بعده بأيام سعيد، وأنه الحاكم الناهي...

ضحك ثم تابع:

- ويجوز حسب إنا خايفين منه، وإن المرحبا الزائدة، وعيني وأغاتي بالأيام اللي مضت، خلته يطمع، وظنه أن ماكو إيد تنرفع عليه.

ولما تبادلت عيون المحققين النظرات فيما بينهم، قال بحقد:

- خلوا رحمة الله تشتغل عليه...

وقبل أن يتساءلوا عن الحد أو المدى المسموح به، قال بحدة:

- ابلشوا الدق مِنْ هذي الساعة وبالليل أجيكم، والله كريم. ولأيام عديدة متواصلة لم يتوقف تعذيب حمادي. كان يعذب فِي الليل والنهار. مرة بالضرب ومرة بمنعه مِنْ النوم. مرة بالحديد الساخن ومرة بالماء البارد. كان يجري كُلّ ذلك بمقدار، إذ المهم ألا ينتهي بسرعة، لأن ما عنده أهم منه، وهذا ما يراد الوصول اليه.

كان التعذيب لا يتوقف إلا حين يتعب المعذبون، أو حين يغيب حمادي فِي واحدة مِنْ الإغماءات الطويلة. عذبوه بالضرب، بالوعود، وأكدوا له أنّه يمكن أن يعود كما كان أيام سعيد، فقط إن تكلم، لكنه ظل صامتاً لا يقر ولا يعترف. كان أهم ما يعنيهم المال، ماله ومال سعيد، أين هي المخابئ، عند مِنْ يمكن أن يكون. مِنْ استلم ومن دفع، والمقدار. وحمادي لا يجيب. وإذا فتح فمه فلكي تخرج صرخات أقرب إلى أصوات الحيوانات.

تكلم مرة أو مرتين. وردد العبارة ذاتها، وكان الآغا موجوداً:

- أبوس إيديكم.. بس اقتلوني، أريد أخلص.

كان يائساً إلى درجة القتام، عنيدة إلى حد الجنون، وكان مملوءاً برفض لا يستطاع معه انتزاع كلمة واحدة منه.

خلال ليال عديدة، وبعد أن تكون بغداد قد غرقت فِي نوم عميق، كان يأتي سيد عليوي ليشرف بنفسه على التحقيق. كانت عيناه، أغلب هذه الليالي، محمرة، وشفتاه رطبتين، السفلى متدلية، والعليا تنزم قليلاً.

قميصه مفتوحاً والأكمام مشمورة حتى الأكواع. كان يندفع نحو حمادي وينهال عليه بيديه ورجليه. كان يضربه على رأسه، على بطنه، على كتفيه والرقبة. يفعل ذلك دون توقف، دون رحمة. ومع الضربات يتعالي صوت أقرب إلى العربدة:.

ـ ما أريد منك أيّ اعتراف، يا ابن القحبة، أريد أبرد فوادي!

لم يكن سيد عليوي يتوقف إلى أن يتعب. حين يغسله العرق وتحمر الوجنتان، يرتمي على مقعد كبير وهو يلهث. كان حمادي يعرف مِنْ يضربه فِي بعض الأحيان، ولا يعرف فِي أغلب الأحيان. وسيد عليوي الذي تصله معلومات كاملة مِنْ المحققين عدة مرات فِي اليوم الواحد، كان على يقين أن حمادي سيعترف. يمكن أن يصمد يوماً، اثنين، ثلاثة أيام، لكنه سيسقط، ولا بد أن يعترف فِي النهاية. وحمادي بين الرفض والعناد واليأس وصل إلى نتيجة مؤكدة: سيُقتل، اعترف أو لم يعترف، فقرر أن يقتل قبل أن يُقتل.

فِي ليلة، بعد أيام متواصلة مِنْ التعذيب، وحين كان سيد عليوي يرتمي على المقعد الطويل، فِي استراحة قصيرة ليعاود بعدها الضرب مِنْ جديد، أو لكي يتمتع برؤية الجلادين وهم يعذبون حمادي، فِي لحظة صحو نادرة، فتح حمادي عينيه، فتحهما بصعوبة وما إن استقرت نظراته على عليوي حتى خرجت كلمات لاهثة، متعبة، متقطعة:

- راح أموت وأخذ كُلّ شيء وياي.. يا عليوي.

استراح. تنفس بعمق، وجاء صوته متقطعاً:

ـ الحق مو عليك، الحق علي يا عليوي، لأني خلصتك مِنْ الحبل!

أغمض عينيه. غاب فترة غير قصيرة. كان الصمت مديداً ثقيلاً، إلى أن جاء صوته مِنْ جديد، وما كان ليفهم بسهولة:

- راح أموت وما تعرف الذهب وين؟

ربما ضحك حمادي، فِي تلك اللحظة، أو ربما ابتسم، لا يمكن لأحد أن يؤكد، فتضاريس وجهه أصبحت مثل حقل سيىء الفلاحة، بعد أن تورم وتخدد

وازرق، لكن الصوت، رغم وهنه، كان حافلاً بالوجع، حتى لمن يسمعه. إستاء عليوي فِي تلك اللحظات أو أهين، لأنه صرخ كالمجنون:

- راح تعترف يا ابن ستين قحبة!

الفصول التي تلت ذلك تروى بأشكال عديدة، وأغلب الأحيان متعارضة.

قيل إن سيد عليوي لم يحتمل الكلمات التي قالها حمادي، فقد أخرج مسدسه على الفور وأفرغ رصاصاته كلها فِي رأسه وصدره، وهكذا انتهى. وقيل إن حمادي لم يقتل بالرصاص، أو فِي تلك الليلة، إذ تركه عليوي بضعة أيام ورجع إليه فِي إحدى الليالي، وأخذ يتفنن فِي تعذيبه. قيل إنّه استعمل سكيناً صغيرة كان يقلم بها أظافره عادة، إذ أخذ يقطع أجزاء مِنْ جسد حمادي، بدأ بالأشياء البارزة، قطع الأذن اليمنى، قطع جزءاً مِنْ الأنف، قص إصبعين، الإبهام والوسطى مِنْ يده اليسرى واستمر يقطع.

كان يلعب بالقطع المقصوصة، يرميها فِي الهواء، يحاول أن يدخلها فِي فوهات الجسد، يدوس عليها. وكان الرجال حوله ينظرون، وكان الصمت.

حين بلغ حمادي مرحلة قاربت النهاية أهوى على رأسه بالبلطة ذاتها، فشق الرأس إلى نصفين.

وقيل إن سيد عليوي لم يقتله بيده. صحيح أنّه كان موجوداً أثناء قتله، لكنه لم يشارك فِي القتل.

وقيل إن مائدة أعدت لسيد عليوي فِي صدر الغرفة، وكان يشرب ويتابع التعذيب، وقبل أن يصدر أوامره بالقتل، قال لحمادي:

- حصلنا على كُلّ شي نريده، وغيرك اعترف عليك!

وبعد قليل، وهو يرفع كأسه:

- كنت تتمني أن أقتلك لكن ما راح انجس إيدي بدمك!

ويبدو أنّه كان متفقاً مع رجاله، فما أن وضع الكأس حتى توالت ضربات قضبان حديدية على رأس حمادي، وهكذا انتهى.

وهناك روايات ترجح أن القتل جرى بعد فترة طويلة، إذ بعد أن تعب سيد عليوي ومحققوه، ولم يتوصلوا إلى أية نتيجة، تقرر إيقاف التحقيق، واعتماد خطة جديدة، علهم يستطيعون بالوسائل الأخرى الوصول إلى نتائج أفضل، إذ تم استبدال المحققين بآخرين، وجرت عدة محاولات الحمل حمادي على الاعتراف، لكن بعد أن عجز المحققون الجدد أيضاً، ولإنهاء هذه القضية المضجرة، تم قتله ببرود إذ كلف آمر سجن ثكنة الفرسان بقتله فقتله.

وهناك رواية روج لها واحد مِنْ رجال الباليوز، تؤكد أن حمادي لم يقتل رمياً بالرصاص أو نتيجة التعذيب، إذ بعد أن تُرك فِي السجن، وقيل إنّه أخذ يتعافى، وذات صباح فتح باب الزنزانة ليقدم إليه طعام الإفطار، فعثر عليه ميتاً!

فِي وقت متأخر، وحين جرى الحديث عن حمادي، قال سيد عليوي:

- اتركونا مِنْ ابن هالقحبة، واحكوا عن ناس تسوى...

وبعد قليل، وباستنكار:

- منو هذا حمادي حتى تخبصونا بيه!

لما أبلغ داود باشا أن حمادي انتهى دون اعتراف، دون أن يدل على الأموال أين وضعت، ودون أن يحدد أدوار الرجال الذين كانوا حول سعيد، وما فعلوه فِي الشهور الأخيرة، ومدى علاقتهم بالباليوز... حين أبلغ بذلك صمت، وطال صمته، حتى بدا وكأنه لم يسمع أو لم يستوعب ما نقل إليه، أو ربما لم يفاجا بهذه النهاية التي كان يتوقعها.

لكن بعد الصمت الطويل قال، وجاء صوته حزيناً:

- حرامات... راح الخيط والعصفور!

لم يكن يريد أن يسمع خبر حمادي فِي هذا الوقت، خاصة بعد أن فر قاسم الشاوي. إنّه الآن يواجه خسارتين، إذ يعرف ماذا يمكن أن يسبب ابن الشاوي مِنْ اضطرابات، قد تؤدي إلى انقطاع القوافل، وبالتالي استمرار ارتفاع الأسعار. ثم هذه هي الخسارة الثانية بموت حمادي، وقد أخذ معه ذهبه وأسراره، فِي الوقت الذي كان الوالي بحاجة ماسة لهذه الأموال، لكي لا يضطر لفرض ضرائب جديدة، خاصة فِي هذه الفترة، لتأمين مصاريف الدولة المتزايدة، ولدفع جزء مما يستحق على ولاية بغداد إلى اسطنبول.

ولأن أكثرية الناس تسمع وتفهم بما تشاهده، فقد أخذ رجال الباشا ينقلون أخباراً مقلقة. فالهمس الذي كان يدور فِي بعض المقاهي، تحول إلى كلام واضح وبصوت عال، وهذا الكلام أقرب إلى الشكوى، وقسم كبير منه احتجاج على الغلاء. أكثر مِنْ ذلك تجرأ الكثيرون وقالوا إن داود لا يختلف عن غيره مِنْ الولاة الذين سبقوه. أما الوعود التي أعطاها رجاله قبل أن يدخل بغداد، والتي كرروها بعد أن دخل، فهي مجرد أوهام، إذ لم يتحقق منها أيّ شيء.

وزاد آخرون، إذ قالوا دون خوف، إن داود يتحمل مسؤولية ارتفاع الأسعار منذ البداية، إذ لولا الحصار الذي فرضه على بغداد، والذي أدى إلى انقطاع القوافل، لما قلت المؤن، ولما حصل كُلّ هذا الغلاء.

وانصرف عدد كبير مِنْ الناس رجالاً ونساء، وكانوا يتزايدون كُلّ يوم، إلى مقارنات لا تنتهي بين الأسعار التي كانت قبل الحصار، وكيف وصلت الآن إلى حد لم يعد بمقدورهم أن يطيقوه أو أن يسكتوا عليه.

وبدأت الحسابات الطويلة والمعقدة، والتي لا تخلو مِنْ الطرافة فِي أحيان كثيرة، بين سعر سلعة ما اليوم وسعرها قبل حصار داود لبغداد، وما يمكن شراؤه بهذا الثمن أو بذاك فِي السابق والآن. ومع المقارنات الشتائم

المليئة بالغيظ، وكلمات الاحتجاج. وما ينساه أحدهم يتذكره الآخرون، وما يبدو غريباً للحظة يأتي بعده ما هو أغرب منه، وهكذا أصبحت هذه والتسلية» تثير الكثيرين فِي المقاهي والأسواق، ووصلت إلى الأزقة ودخلت البيوت، مع ما يصحبها مِنْ مراهنات واختلاف، وتحديات فِي بعض الأحيان، الأمر الذي يتطلب «الورقة والقلم، كما يقولون، أو الاستعانة بنوى التمر أو الحصى للتأكد مِنْ كُلّ شيء، وضبط الأمور» كما أصبح يردد عدد مِنْ المهووسين، وقد حفظوا أمثلة كثيرة، لكي نعرف بيا دنيا نحن عايشين»!

ولأنه لا يمكن «ضبط الأمور» على أرصفة الشوارع والأزقة، فكثيراً ما تتحول المداعبات إلى خشونة ثم إلى قسوة، وقد لا تخلو مِنْ التعديات، وجاء مِنْ قال إن رجال سعيد هم الذين يدفعون الأمور لأن تأخذ هذا المسار.

كان كُلّ هذا يصل بسرعة إلى ديوان الباشا، وكانت عادة الباشا، قبل أن يأوي إلى فراشه، أن يقرأ ما يقدمه اليه الديوان، وكان يخط على أطراف الأوراق ما يجب أن يُعمل ومن يجب أن يعمله، وفِي الأيام التالية يستدعي المسؤولين ليبحث معهم كُلّ هذه الأمور. لكن الأمور لا تحل ما يرغب، فتوالي احتجاجات الناس ويزداد تذمرهم، وتبقى الأحوال دون تغيير.

ويبذل عزرا أفندي جهوداً كبيرة مِنْ أجل إقناع التجار، لكن التجار لا يستجيبون، ليس نتيجة العناد والتحدي، وإنما بسبب تأخر القوافل وانقطاع بعض المواد، هكذا يقولون. ولأن الذين يخاطبهم عزرا تجار مثله، فإن أعداداً متزايدة مِنْ الكلمات التي يتبادلونها فيما بينهم، وتكون متداولة ومفهومة، ما تلبث، وهي تصل إلى المقاهي والأزقة، أن تتحول وتتغير لتصبح مادة للسخرية، نظراً لغرابتها، ولأنها لا تغير فِي الأسعار! وهكذا يصبح عدد مِنْ هذه الكلمات أهازيج يرددها الصبية فِي الأزقة، وتتحول بعض الكلمات إلى شتائم بذيئة، وأغلبها يتردد بعد أن تهبط الظلمة، لئلا تميز أصوات الأطفال مِنْ ذويهم أو تكون موضع تقريع النساء المسنات، واللواتي يستعملن كلمات أكثر بذاءة فِي شتم أولاد الدرابين وهم يهزجون!

وأخذت الحسرة، مرة أخرى، على سعيد تكبر وتتسع. ومع الحسرة الذكريات عن الأيام القديمة، كيف كانت مليئة بالخيرات وبالمحبة؛ وكيف كانت النقود، رغم قلتها، تكفي لشراء حاجات كثيرة، خلافاً لهذه الأيام، إذ أصبح الناس يكتفون بأقل الأشياء، بعد أن باعوا مِنْ أجل شرائها أعز ما يملكون، ولا يعرفون ماذا سيحصل غداً أو ما يليه مِنْ الأيام.

«... والناس، يا سيدي، إذا خلصوا مِنْ شلون كانوا وشلون صاروا، وإذا خلصوا مِنْ السوالف العتيقة أو جازوا منها، وإذا النوم ما جاهم مِنْ خوف الأيام اللي راح تجي، فلازم البني آدم يحسب ويخاف» هكذا قال فيروز،

أقرب الرجال إلى قلب الوالي، والوالي الذي كان يحس بذلك لا يقوى على أن يبوح بما يحس لأحد، أو أن يقوله الآن.

لكن بعد هاتين المصيبتين، ولتوقع الوالي أن يبدأ ابن الشاوي غاراته، وما يمكن أن تؤدي إليه مِنْ خوف وقطع للطرق، ولأن خبر مقتل، أو موت، حمادي، انتشر بسرعة عن طريق رجال الباشا، عله يفرح الناس، لكن لم يلق أيّ صدي أو أيّ اهتمام، لفرط ما هو مكروه، ولأن حياته أو موته الآن لم يعد يعني شيئاً أو أحداً، لذلك أصبح المطلوب مِنْ الباشا أن يفعل شيئاً غير عادي، وإلا ستفلت منه الأمور.

لم يتأخر داود باشا، ولم يتردد، حول ما يجب أن يفعله. فالفرمانات التي وصلته مِنْ اسطنبول، حين كان فِي الشمال، وكانت جميعها ممهورة وموقعة، بعضها بأسماء بعد أن سقطت عنها الألقاب، وأخرى تنتظر ما يناسبها مِنْ أسماء، أخرج الباشا هذه الفرمانات، بعد أن كان قد وضعها جانباً منذ أن وصل إلى بغداد. وضعها فِي الخزانة الحديدية فِي غرفة نومه، وردد بغمغمة:

- يجي وقتها!

الآن، وهو يستخرج الفرمانات، رتبها بطريقة جديدة: طوي فرمان إعدام سعيد سليمان، وهو يقول لنفسه: «هذا خلصنا منه»، وطوى، باسف، وهو يهز رأسه، فرمان إعدام حمادي العلوجي، وهو يقول وهذا، همين، خلصنا منه». أما فرمان إعدام قاسم الشاوي، فقد وضعه جانباً وهو يدق عليه ثلاث دقات ويقول بصوت عال:

- وين تروح، يا قاسم؟ أنا وأنت والزمن طويل!

وتتابعت تحت ناظريه أسماء: عبد الله بك، درويش آغا، عمر آغا الملا، محمد سعيد الدفتري ونعمان الباجه جي، ثم أربعة فرمانات أخرى بالإعدام، ممهورة وموقعة، ولا تحتاج سوى أن توضع عليها الأسماء المناسبة!

وإذا كانت قناعة داود باشا، وهو يدخل بغداد، أنّه يفترض بالوالي الجديد، لكي يدوم حكمه وقتاً طويلاً، أن يعطي وأن يمنع، لأن هذا هو منطق السلطة، فقد صمم أن يكون للعطاء وقت، وأن يكون للحزم، حتى لو بلغ القتل، وقت آخر. لذلك أراد أن يعطي قبل أن يقتل، لكن الأمور تسير، كما يبدو، خلافاً لما يريد أو يتمنى، وأبرز اثنين وقفا فِي وجه هذه الرغبة: ابن الشاوي وحمادي العلوجي. فإذا أمل ألا يستطيع الأول منع القوافل مِنْ الوصول لتنخفض الأسعار، إلا أن فراره، ثم الأخبار التي أخذت تتردد عما ينتويه، وما يرافقها مِنْ التهديد والوعيد، تشير إلى أيام صعبة تنتظر الناس، ولا يملك الآن ما يمكنه مِنْ وقفها أو منعها.

كان يريد الباشا أن يعطي الناس مِنْ خلال انخفاض الأسعار، إذا لم يستطع أن يعطيهم مباشرة، وستكون هذه أول هدية، لكن...

«أما حمادي، كما قال الباشا لنفسه، فأمه زانية وأبوه أكبر القواويد، لكن هذا النغل تفوق على الاثنين معاً، إذ أخذ ما سرقه وما جمعه الناس وذهب به كله إلى جهنم، ولو ترك مال الناس للناس لانفرج الكثيرون، لكن أولاد القحاب أبداً لا يتأمنون، فإذا كان هذا النغل مِنْ هذين الأبوين، فشنو نترجي منه؟»..

قال الباشا، وقد تراءت له صورة حمادي حين لقيه آخر مرة قبل شهور طويلة:

ـ فِي اللعنة عشت، وإلى اللعنة تمضي يا مرتكب أكبر المعاصي، ولأن لا أحد يذكر لك خيراً، حتى لو بمقدار ذرة، فلم يأسف لموتك أحد، لكن بهذا الموت الفاجر تركت فِي القلب حسرة: أخذت أموال المسلمين وغبت، ولو كان هذا المال بين يدي لفككت الكرب وجنبت الناس السؤال.

ولان داود لم يجد شيئاً يعطيه الآن، فقد أجل العطاء؛ ولكي تدوم السلطة لا بد مِنْ الحزم إلى حد القتل، وهذا ما دعاه لأن يستخرج مِنْ خزانته الفرمانات النائمة، وأن يكون رؤوفاً بقدر ما يستطيع!

ولأنه كان يتوقع أن يعتبر الناس مِنْ مقتل حمادي، لكن هذا القتل لم يترك أيّ أثر، فقد قرر أن يكون القتل الآن علنياً، ويطال رؤوساً كبيرة، لأن الموت السري، كما قال لنفسه، لا يترك أثراً، ولأن الموت الصغير لا يعني أحداً».

وهكذا بدأ.

إذ بعد استوثاق لم يُطل، ولكي يرضي الله فِي السماء، وليقنع الناس فِي بغداد، ولتصل الأخبار إلى الحواضر والبوادي، فقد أحال الباشا أعوان سعيد» إلى محكمة السؤال واليقين. سأل القضاة المجلوبين أمامهم أسئلة محددة، وطلبوا منهم الإجابة المفيدة المختصرة، فأجابوا. كانت الإجابات واضحة، أنهم يعرفون سعيد باشا، وأنهم تعاونوا معه أو دفعوا له المال الذي طلبه. ومثلما كانت الإجابات واضحة كان تصديق الأحكام بنفس الوضوح أو يزيد. ولأن باشا بغداد، أفندينا داود، عرف منذ البداية، وتوثق أن هؤلاء أعداء السلطان، وعرف السلطان بما كان يجري فِي بغداد، ولأن ما فعله هؤلاء فتنة، والفتنة أشد مِنْ الكفر، فقد أصدر السلطان ما يلزم مِنْ الفرمانات، وطلب الحيطة، كي تبرأ ذمته، أن توثق أقوالهم لدى قاض قبل أن تنفذ الأحكام!

ما كاد ينقضي النصف مِنْ رمضان، حتى خرج المنادون، ومعهم قارعو الطبول، لإبلاغ الناس أن مولانا السلطان أصدر الأمر بإعدام أهل الفتنة،

رجال العاصي سعيد، وأن حكم السلطان سينفذ فِي أقرب أوان.

أصيب الناس بحالة مِنْ الذهول مازجها الخوف. نظر بعضهم إلى البعض الآخر غير مصدقين! ومع الذهول وعدم التصديق، انتشرت الأخبار أن البدو يتجهون إلى بغداد، وأن القنصل اختفى عن الأنظار.

قال عدد مِنْ الناس فِي الشورجة: «لولا أن الوالي خائف مِنْ شيء لما أصدر هذه الأحكام الآن» وحين يُرد على هؤلاء أن هذه أحكام السلطان، ولا علاقة للوالي بها، تهتز الرؤوس مع ابتسامات، وهي كافية دون كلمات، لتؤكد أن شيئاً مثل هذا ما كان ليحصل لولا أن الوالي داود يريد ذلك! وحين يخيم صمت قصير يسمع مِنْ يقول: «داود مثل الجمل، يصبر، يتحمل، لكنه أبداً لا ينسى» ولتأكيد مثل هذا الكلام يُضيف آخرون: «لو لم تكن هذه رغبة والينا لما تذكر السلطان»..

فِي الأزقة وزوايا الشوارع قال الكثيرون: «داود مثله مثل غيره مِنْ الولاة، لا يشبع مِنْ الانتقام، ولا يغركم سن الذهب، لأن وراه لدغة حية، فالله يسلم ويستره».

قال بعض المصلين فِي جامع أبي حنيفة: «إذا كان داود بدأ بصلب الباشاوات والبكوات، وكُلّ واحد منهم يحكم ديرة أو عشيرة، فالله يساعد الناس الفقرا، لأن راح يقتلهم دون أن يحس أحد»..

وفِي كُلّ مكان مِنْ بغداد، بالصوبين، أصبح ما ردده المنادون حديث جميع الناس، فالسؤال يفضي إلى سؤال آخر، ونفي إمكانية أن يحدث هذا يتحول إلى يقين ثابت للحظة أو عند بعض الناس. وما يقوله أحدهم يؤكده ثان وينفيه ثالث. والأسئلة تكبر وتتوالد، وحيرة الجميع تزداد. وقهوة الشط، ذلك اليوم، يرتادها عدد أكبر مِنْ المعتاد. ورغم أن الحديث يدور همساً، ولا يخلو مِنْ تورية، خلافاً للأيام السابقة، إلا أن قدرة الناس على تبادل الأحاديث والتفاهم أكثر مِنْ الأيام الأخرى.

قال الحاج شبلي، وهو يتوجه نحو مجموعته فِي ركن القهوة القبلي، وقد بدا منفعلاً:

- جنهم وخبز شعير، يا جماعة الخير، ما يصير!

وبعد أن استفسر مِنْ الحاضرين عما سمعوه، وأبلغهم بما سمع، سأل أسطة إسماعيل، حلاق المحلة، عما يتوقعه. ولأن الأسطة إسماعيل يميل إلى الدعابة، ويرى مِنْ الحياة الجانب المرضي أكثر مِنْ الجوانب الاخرى، فقد ردَّ، وكان صوته هادئاً، عله يدخل الطمأنينة إلى قلوب سامعيه:

ـ نحن برمضان، حجي، وهذي الأحكام ما راح تتنفذ، على الأقل بهاي الأيام...

تطلع بإمعان إلى الذين يسمعون، فلما وجدهم يصغون إليه باهتمام، تابع بنفس النبرة:

ـ أيّ نعم، راح تتأجل، وإذا تأجلت أول نوبة تتأجل نوبة ثانية، إلى أن تنسي، وبعدها والينا يصدر عفو... وتعود الدنيا مثل ما انت مِنْ قبل! ردَّ الحاج صالح العلو، وكان صوته غاضباً:

- هذا كلام بطرانين يا معود، لأن الوالي متوازي: قاسم انهزم؛ السوق واقف؛ حمادي راح بول بشط هو وكومات الفلوس، فإذا ما راوي الباشا العين الحمرا خاف تنلاص عليه.

- على كيفك، حجي، ردَّ الأسطة إسماعيل، ولازم تعرف: والينا عاقل ومجرب، وما دام راح وقت القتل والمقتول، فالله أعلم أن هذه الأحكام تتأجل، وبعدها تتخفف، وقبل ما يحول الحول يقول لهم الوالي:

ارجعوا لبيوتكم، وصيروا أوادم، وأبوك الله يرحمه!

قال الحاج شبلي، وهو يهز رأسه بسخرية:

- الرحمة على كُلّ أمواتنا، لكن يبين أن هذا الباشا شايف حاله أكثر مِنْ اللزوم، وكأنه يريد يحرق الأخضر واليابس.

ـ إذا ما شفع لقرايبه، لسعيد وأمثاله، تريده يشفع للغربتلية، للي رفعوا السلاح بوجهه؟

هكذا سأل الحاج صالح العلو رداً على الأسطة إسماعيل، وأضاف بحزن:

ـ ماكو أحد يدافع عن هذول السرسرية، لأن هم أصل القضية وهم السبب، لكن أرواحنا تعبت مِنْ القتل.

قال الأسطة عواد الذي جاء ووقف يستمع إلى الحديث الذي يدور:

- لو راد الباشا ينتقم، لو راد يعاقب كُلّ واحد حمل السلاح بوجهه، جان بغداد انترست مشانق!

قال جاسم مهدي، وهو مِنْ ملاكي سوق حمادة: ـ أصلاً... أكثر الموجودين هنا، اللي تشوفهم عيونكم، وكُلّ اللي بقهوة أبو الخيل، وهناك... وهناك كانوا رجال سعيد، فشنو قابل داود باشا يريد يصلب كُلّ الناس؟

ردَّ الحاج شبلي:

ـ الناس، مولانا، مع الحاكم، والحاكم همين يريد رضى الناس، إلا إذا راد يجن أو يعنفص، فيعادي الناس، يصلب وينهب، وكُلّ شيء يسوي...

وكاد الحاج شبلي يواصل، إلا أن الأسطة إسماعيل أراد أن يجعل الذين حوله يتفاءلون، قال موجهاً الكلام للحاج صالح: - لو فرضنا، يا أبو قدوري، أن

والينا سنكر، راح منه عقل الرحمان وجاه عقل الشيطان، فلازم تعرف: نحن بشهر رمضان، وماكو عاقل، ماكو أحد بقلبه حتية أو ذرة رحمة، يصلب ويعدم برمضان.

تابع الأسطة عواد بالاتجاه ذاته:

- وبعد رمضان العيد، وبعد العيد بين العيدين، وبعدهم محرم، فإذا مرت هذه الشهور يبرد الدم، والدم إذا برد البني آدم يحسب ألف حساب قبل ما يضرب ويقتل...

وقاطعه الأسطة إسماعيل:

- يسلم حلقك يا أبو نجم، لأن هذا الكلام اللي ينصرف، وهذا اللي يسويه كُلّ عاقل!

قال الحاج شبلي، كأنه يخاطب نفسه:

ـ اللي تقولوه يا جماعة الخير، على العين والراس، بس لازم تعرفون:

حساب الحاكم غير حساب المحكوم، حساب الوالي غير حساب النفرات، البيادا، مثلنا، فخذوا بالكم، وبعدها قولوا إن الحاج شبلي قال.

قال جاسم مهدي ليمتص مخاوف الحاج صالح:

ـ اتفقنا، حجي، ومثل ما قال أبو حقي، الأسطة إسماعيل، برمضان ماكو شي، وبعدها الله كريم، فخلنا ننتظر ونشوف!

- غصب عنا راح ننتظر، وشكو عدنا غير الانتظار...؟

وخفض الحاج صالح صوته، حياء، وهو يُضيف:

- ماكو عندنا غير فليساتنا وخصاوينا وقهوة الشط، ولازم ننتظر ونشوف!

قال الحاج شبلي، وهو ينهض، وكأنه لم يقتنع بأكثر ما قيل:

ـ سوء الظن مِنْ حسن الفطن، يا جماعة الخير، وآني راح أتمشي لقهوة الكمرك، وأشوف الناس هناك شكو عندهم سوالف وأخبار.

قال جاسم، فِي محاولة لأن يبقي التفاؤل:

- تفاءلوا بالخير تجدوه!

ونهض الحاج صالح العلو أيضاً، وحين طلبوا منه، وألحوا، أن يبقى، ردَّ وهزات رأسه تتوالى:

ـ إذا أبو رحيم توجه لقهوة الكمرك، فأني أريد آخذلي غفوة قبل ما يضرب الطوب، لأن قلوبنا مِنْ التعب والهم سافت.

وهو فِي طريقه إلى البيت، لا يعرف الحاج صالح، أبو قدوري، كيف استوقف زينب كوشان وسألها ما إذا سمعت الطبل والمنادي، وحين ردت بالنفي، أو إنها لا تتذكر، قال وهو يواصل خطواته الثقيلة.

- شر أيام الديج يوم يغسلون رجليه!

منذ الأيام الأولى لحصار بغداد، وإسم هوبي يتردد على كُلّ شفة ولسان. رجال سعيد باشا يجدون فِي طلبه، بعد أن وضع حمادي جائزة لمن يقبض عليه، والفقراء والضعفاء محتمون به، ومحلة الشيخ عمر تنام بعمق حين تعرف أن هوبي يدافع عنها، ولا تتردد محلات أخرى فِي جانب الرصافة أن تطلب مساعدته فيلبيها. الجميع يخافونه، وهو لا يخاف أحداً. حتى رجال الوالي يحاولون تجنبه، إذ كان يصادف أن يروه بعض الأحيان، لكنهم يؤكدون لأنفسهم أنّه ليس هو، بل وأصبحوا فِي الأسابيع الأخيرة مِنْ أيام الحصار يبعثون إليه مِنْ يخبره بضرورة مغادرة المكان الذي هو فيه، الأن وشاية وصلت إلى السراي، وسوف يُدَاهم.

كانت تطلق على هوبي قبل الحصار ألقاب عديدة: هوبي الأعور، أبو القراقيع، هوبي ورور، وأطلق عليه أيضاً هوبي عكس، لأن ضربة مِنْ كوعه يمكن أن تخلف إصابة دائمة، وقد تقتل!

لكن فجأة غابت الألقاب جميعها أثناء الحصار، وأصبح اسمه هوبي كريم، وقد برر رجاله هذه التسمية «أن عينه راحت فدوى للفقرا». أما بعض الذين أصروا على تسميته بالأعور، تحدياً أو للإساءة، فقد نالوا عقابهم. قيل إن رجال هوبي قتلوا واحداً فِي قهوة الكمرك، وآخر فِي محلة راس القرية، وسبب القتل كما قيل مناداة هوبي بالأعور، وقيل إن وشابات منهما وصلت إلى حمادي عن مكان وجوده.

ولد هوبي فِي محلة الشيخ عمر، وهناك نما وترعرع. عرف الفقر والحرمان منذ الصغر، لأن أباه توفي باكراً. ومنذ الصغر سيطرت عليه رغبة أن يدافع عن الفقراء، وتمنى لو يستطيع أن يؤمن لكل واحد منهم ما يكفيه مِنْ الثياب والطعام، كي يجنبه استجداء أو توسل الأغنياء الذين كانوا يملكون الكثير، ولا يكتفون بما يملكون، إذ يزاحمون الفقراء على القمتهم، وهذا ما دعاه للحقد على هؤلاء الأغنياء.

أما كيف تحول مِنْ عامل دباغة إلى شقي، فإن موت صالح الدباغ هو المسؤول عن ذلك. مات صالح خطأ، أو ربما نتيجة طعنة السكين، لكن موته فِي كُلّ الأحوال كان سخيفاً، خاصة وأنه جرى بسرعة خارقة، حتى أن الذين شهدوا هذا الموت لم يصدقوا.

كانت القضية، فِي البداية، بالغة البساطة. لو أن صالح لم يتفوه بهذه الكلمات، أو لم يقلها بتلك السخرية، وأمام الآخرين، لأخذت الأمور مساراً آخر، لكن كلمات صالحِ عجلت بكلِ شيء.

كان بمقدور صالح أن يرفض، أن يوافق، أن يفعل أيّ شيء غير أن يقول تلك الكلمات. لكنه قالها، ثم مات بعد ذلك!

إذ ما كاد هوبي يطلب إذناً لكي يذهب إلى حمام السوق فِي اليوم التالي، وذكر أنّه اتفق مع أصدقاء على ذلك، حتى هز صالح الدباغ رأسه وصمت. لم يرفض، لكنه لم يعلن موافقته. هوبي لم يستطع أن يفسر هزات رأس صالح، هل كانت موافقة أم رفضاً. أما فِي اليوم التالي، حين جاء الأصدقاء لاصطحابه، فقد سأله صالح، وهو يوزع نظراته بينه وبين الأصدقاء:

- صدق تريد تغسل... هوبي؟

- نعم أستاذي - قبل شهر أخذت رخصة ورحت للحمام!

- لو بإيدي، وأقدر، أروح كُلّ يوم!

- شكو بيها... يطلع لك!

وتوجه المعلم صالح إلى الأصدقاء الذين جاءوا. هز رأسه مرات عديدة، وتابع بسخرية:

- يريد يصير نازوكي... يلوق له!

ـ إلزم حدك، أستاذي، أحسن ما تخرب بينا!

لم يمهله معلمه، تابع وبسخرية أشد:

- بعد ما لميتك مِنْ الدرابين وشبعتك صرت فسقان، مو هالشكل، هوبي؟

ـ إلزم حدك، أستاذي، قلت لك!

ردَّ المعلم ببطء وهو يباعد بين الكلمات:

- روح، ابني، روح اسبح وتونس، بس لازم تعرف: الدباغة تحوج خرا جلاب!

وجرت الأحداث، بعد ذلك، بسرعة لم يصدقها أحد، ولم تمكن أحداً مِنْ التدخل. فضربة السكين، وقد أرادها هوبي أن تعلم لا أن تقتل، انزلقت رغماً عنه، ومقاومة صالح الفجة هي التي جعلت السكين تنزلق. أكثر مِنْ ذلك يقول أصدقاء هوبي إن صالح مات خوفاً وليس نتيجة الضربة المباشرة، لأنه سقط قبل أن تمسه السكين. وقيل إنّه بسقوطه هوى فوق السكين فقتلته. موت صالح اذن اضطر هوبي للهرب ثم للاختفاء.

يقول الذين يخافون هوبي أكثر مما يودونه، إن موت صالح كان مجرد ذريعة، لأن هوبي لم يكن مقتنعاً، ومنذ البداية، بهذا العمل، أو أيّ عمل يشابهه. كان يكره البقاء فِي مكان واحد مِنْ الصباح إلى المساء، ويكره أكثر مِنْ ذلك المساومات والبيع والشراء. ولتأكيد صحة ما يقولون يشيرون إلى

حوادث وقعت، وإلى أعمال تنسب إليه، وإلا مِنْ أين له كُلّ تلك الألقاب، وتلك الهالة التي ترافقه أينما ذهب؟

القصص التي تروى عن هوبي مزيج مِنْ الخوف والإعجاب والكراهية، كما أن للخيال دوراً كبيراً فِي الإضافة أو التغيير، تبعاً لما يراد مِنْ القصة التي تروي، والموقف مِنْ صاحبها.

وإذا كان لمثل هذه القصص أن تغيب أو تظهر تبعاً لمزاج الناس والظروف التي تحيط بهم، فإن كُلّ يوم مِنْ أيام الحصار كان يحمل أخباراً تتعلق بهوبي: أكياس الطحين التي كانت تُحمل ليلاً، وكان هوبي ورجاله يحملونها، لتوزع على الفقراء، وفقاً لعدد أفراد الأسرة ومدى حاجتها؛ أكياس الرز التي كانت تودع فِي مكان، ويطلب مِنْ الفقراء أن يذهبوا الاستلام ما يستحق لهم مِنْ حصص السكر، الدهن، وحين شدد حمادي فِي ملاحقة هوبي، أصبح توزيع المال أكثر أمنا وأكثر جدوى.

أما الرد على حمادي، وعدد آخر مِنْ رجالات سعيد، فيبدأ بالرسائل توجه للتحذير، وصولاً إلى القتل. وبين الاثنين هناك قصص كثيرة يرويها أهل بغداد عن بطولات هوبي: كيف اقتحم؛ كيف قاوم حين أتوا للقبض عليه؛ عدد الذين قتلوا هنا... وهناك لما وقعت معارك بينه وبين رجال حمادي؛ كيف ضلل الذين قبضوا عليه ذات مرة حين أكد لهم أنّه ليس الشخص المطلوب، لكنه سيدلهم على مخبأ هوبي! وعشرات القصص الأخرى، وكلها تروي تفاصيل تزداد وتتغير يوماً بعد آخر.

حين يتساءل الناس، لا بقصد الاستفهام أو التعرف، وإنما بهدف التأكيد الذي لا يمازجه أيّ شك حول الشخص الذي جرح حمادي، فكل الروايات تجزم أن هوبي وراء ذلك، لا بل هو نفسه الذي جرحه، وكان بإمكانه أن يقضي عليه، لكنه لم يفعل لسبب ما، وحول ذلك سلسلة لا تنتهي مِنْ الاجتهادات والتفسيرات!

أما كيف عنا هوبي الناس، خاصة فِي الأيام الأخيرة للحصار وكيف كان موجوداً وقوياً إلى درجة لا يعرف ماذا يمكن أن يحصل لو أن حمادي استطاع الوصول إليه وقتله، فإن هذا السؤال تبادر إلى أذهان الكثيرين، لكن خافوا مِنْ طرحه على أنفسهم أثناء الحصار، ولم يتجرأوا على ذلك إلا بعد أن دخل داود إلى بغداد، وحمدوا الله أن الأمور أخذت هذا الاتجاه، وانتهت إلى تلك النتيجة.

بعد أن دخل داود باشا بغداد، غاب هوبي. قال أصدقاء له مقربون، إنّه بدأ النوم حين سمع مؤذن جامع السراي يدعو لداود بالنصر والتوفيق، ويقول هؤلاء إنّه نام لثلاثة أيام بلياليها بشكل متواصل، نتيجة التعب الذي حل به فِي الأيام السابِقة. ويقول أصدِقاء آخرون إنّه نام فترة أطول. حتى لما طلب

داود باشا أن يراه، بعد أن سمع عنه الكثير، وما فعله خاصة فِي الأيام الأخيرة، قيل له إنّه نائم. ويضيف مِنْ يروي القصة أن داود باشا ابتسم، وطلب أن يُترك هوبي نائماً وأن لا يزعجه أحد، ثم نسي الموضوع، ولم يلتق الرجلان!

وقيل إن هوبي، بعد أن أفاق مِنْ نومه الطويل، كان لديه ما يفعله، إذ تفقد عدداً غير قليل مِنْ الأسر والأصدقاء، خاصة الذين فقدوا بعض الأقرباء أيام الحصار وخلال الصدامات التي وقعت. أما الدعوات التي وجهت إليه فقد اعتذر عنها جميعاً، وكان يقول مداعباً، ليخلص مِنْ الإلحاح:

- إذا جا ربيع هذي السنة زين، والله سلم، ما تشوفوني إلا طاب عليكم!

ويغيب هوبي مرة أخرى، لا يعود أحد يراه أو يسمع عنه شيئاً. فإذا توالت الأسئلة، وزادت عن حد معين، يتبرع واحد مِنْ الأصدقاء ليقول إن هوبي فِي أحد بساتين الخس، بالقرب مِنْ الباب الشرقي.

داود باشا، بعد أن أنجز المهمات الضرورية والعاجلة، أراد أن يعرف التفاصيل الدقيقة لما حدث أثناء الحصار، بعد أن لفت نظره ما فعله هوبي. قال لعليوي آغا، بعد أسابيع عديدة مِنْ دخوله بغداد:

ـ الشارع، يا آغا، آفة، وأبد ما يتأمن.

كان يقول ذلك وبذهنه زعماء الأحياء والشقاوات، خاصة بعد أن خاب أمل هؤلاء نتيجة استمرار ارتفاع الأسعار وبعض القسوة، والتعديات مِنْ رجال الوالي، تحديداً بعد هرب قاسم الشاوي.

سيد عليوي لم يدرك بوضوح عما يتحدث الباشا أو ماذا يريد، لكنه هز رأسه بنوع مِنْ الموافقة. تابع الباشا:

- أولاد الدرابين، يا آغا تاخذهم كلمة وكلمة تردهم، وما يندري شنو يطلع بروسهم إذا مو اليوم... عقبه!

ردَّ الآغا بانفعال:

ـ إذا تريد شي، باشا، بس أؤمر، آني ما عندي لحية مشطة، واللي تريده يصير!

ـ ما وصلت الأمور لهذا الحد، لكن لازم نفتح عيونا كلش زين..

وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:

- وأهل بغداد ما ينراد لهم إلا مِنْ يدق إصبعتين حتى يرقصوا؟

ـ إنت بس قل لي: منو... والباقي علي يا باشا.

قال الباشا ونظراته مركزة فِي عيني الأغا:

ـ قالوا لي: الأعيور صار لسانه ما يخش حلقه ويقول يصير وما يصير!

ردَّ الآغا، وقد فوجيء:

- هوبي، يا باشا، هو اللي ثور الدنيا ضد سعيد، وهو اللي فتح لنا أبواب بغداد، ولولاه جانت الدنيا غير شكل.

ـ اللي ثور الدنيا ضد سعيد، يقدر يثورها ضد غيره، قال الباشا.

- يا باشا، يا محفوظ السلامة، هوبي ما يحلف إلا برأس داود باشا، ويقول قدام الزغير والجبير: أروح للوحة فدوة لعيون داود!

ابتسم داود باشا، هز رأسه عدة مرات، تابع سيد عليوي:

ـ أخاف أن ما سمعته يا باشا قيل عن قال، وهوبي له عداوات هوايه!

غير الباشا جلسته، استعداداً لكلام طويل، نظر إلى الآغا، ثم سحب نظراته بعيداً، وخرج صوته مِنْ أعماق الصدر:

- هذول اللي هوسوا لما دخلنا بغداد، يا آغا، روسهم متروسة بالأحلام. فإذا ظلوا للبارحة يقولون عيني وأغاني، ما تعرف باجر بأي شي يحلمون، لأن الحلم يجر غيره، وهذول الشقاوات يغزلون أحلامهم على كاس وطاس بالليل، وبالنهار يسوون ألف طرقاعة!

- شلون نقدر نمنع الأحلام، يا باشا؟

- نريدهم يحلمون مثل ما نريد، مو مثل ما يريدون؟

قلب الآغا شفته السفلى استغراباً، وبعد أن فكر تساءل بمكر:

- وشلون نقدر، يا باشا، نتحكم بشياطين الليل، ونخلي الناس تحلم مثل ما نريد؟

ردَّ الباشا، وخرج صوته حزيناً:

ـ الأحلام، يا آغا، مثل الطاعون، إذا بدت ما تعرف وين تصير. الأحلام تفقس وتكبر، خاصة بروس المفاليس واللي ما عندهم شغل، وتعال، بعدها، اخلص!

وقدر الباشا، مِنْ خلال هذا الحوار، أن الوقت لم يحن بعد. قال العليوي، وهو يضفي جرساً ودياً على صوته: - نسيت أسألك، يا آغا، إنت... تحلم هوايه؟

فوجيء الآغا بالسؤال. تطلع إلى الباشا بإمعان ليعرف ما إذا كان جاداً بسؤاله، لما وجده ينتظر الجواب، ردَّ بارتباك:

- هوايه أحلم، يا باشا، لكن الغريب أني لا أتذكر الأحلام، أنساها كلها!

ـ تنساها كلها أو قسم منها؟

ـ أتذكر أني حلمت، وأتذكر أن الأحلام كانت هوايه واضحة، لكن فِي اليوم التالي تغيب، تنطمس، وتصير مثل الغمامة السودا، شليلة وضايع رأسها.

ـ دائماً هالشكل؟

- إلا إذا صار فد شي خلال النهار وذكرني؟

وأراد أن يُضيف أشياء أخرى، لكن الباشا قاطعه:

- أو إذا جا أحد وذكرك.

ضحك عليوي بطريقة أقرب إلى القهقهة، وقال:

- منو يقدر يخش براس عليوي...

ـ عفية، آغا، خليك هالشكل!

فِي أحد بساتين الخس، شرقي المدينة، وراء أسوار بغداد، تعود هوبي وجماعته أن يلتقوا كُلّ ليلة. كان يزيد العدد أو ينقص، لكن الزيادة أو النقصان لا يتعدى الاثنين أو الثلاثة، والغياب لا يتعدى اليومين أو الثلاثة أيام. فإذا تجاوز الغياب هذا الحد لا بد أن يكون قد حصل شيء غير عادي، الأمر الذي يدفع هوبي لإرسال مِنْ يتفقد الغائب، كي يعرف ما وراء هذا الغياب.

ما إن حل رمضان هذه السنة حتى قال هوبي لأفراد الجماعة: «هذا الشهر فرارية. كُلّ واحد بنجاز ويا نفسه، ويا ربه»، معنى ذلك إجازة طويلة.

ولما كان رمضان يغير المواعيد والعادات، فإن الذين مع هوبي لا يقلون عنه صرامة فِي التقيد بالأعراف، وبعض الأحيان المبالغة فِي ذلك.

فالذين تعودوا الشرب أغلب الليالي، وطوال أيام السنة، ما إن يحل رمضان حتى يصبح بعضهم نمطاً آخر مِنْ الرجال. يصبحون ناكاً متعبدين أقرب إلى الدروشة. يصومون النهار ويتهجدون فِي الليل، وكأنهم يريدون التكفير خلال هذا الشهر عن جميع الذنوب التي اقترفوها، وتلك التي ستاتي! وإذا صادف أن جاء بعض هؤلاء إلى بستان الخس، بعد صلاة التراويح، لإظهار تمسكهم بالجماعة، فإنهم يعتبرون هداية الآخرين واجباً أكثر أهمية مما عداه، لذلك يسرفون فِي الحديث عن أهمية الصيام، وما يولده مِنْ غبطة فِي الروح والجسد، وأنهم لمسوا النتائج بأنفسهم، وهم يتحدثون عن تجربة، لا كما يفعل أصحاب العمائم وهم يتحدثون!

وإذا كان هوبي حازماً قاسياً أغلب الأحيان، فإنه فِي هذا الشهر يصبح شخصاً آخر: متسامحاً إلى درجة الإفراط، متفهماً إلى حد يوافق على الكثير مما يقال، ولا يمانع بقبول «التوبة» إذا جاء أحد رجاله وطلب أن يترك «الجماعة». شرط هوبي فِي هذه الحالة: «إذا كان هذا رأيك، وقلت بشرفي وناموسي ما أغدر ولا أخون، ولا شفت وما أعرف، فالله وياك، لأن ماكو أحد يجبر غيره. لكن تذكر: كان بينا خبز وملح، واللي يغدر أو يخون يقتل نفسه قبل ما يقتله غيره».

لقد حدث هذا أكثر مِنْ مرة، ليس فِي هذا الشهر وحده، بل وحدث أيضاً فِي منتصف شعبان وفِي محرم الحرام، وأيام صوم زكريا، ويوم مَرَد الراس. كما حدث فِي حالات أخرى، عندما تهجم المنامات الكبيرة. إذ ما أن تتوالى الكوابيس، أو زيارات الملائكة، كما يقولون، وتتكرر الأحلام ذاتها ليلة بعد الأخرى، مسببة الكآبة وتأنيب الضمير، وقد يصل الأمر إلى البكاء أو الخوف مِنْ الظلمة، والامتناع عن المِضاجعة. كان مِنْ يصاب بمثل هذه الحالات

يكاشف هوبي، طالباً النصح أو المساعدة، وهوبي لا يتردد فِي أن يخير الشخص بين البقاء مع «الجماعة» أو تركها. طالباً منه أن يتخذ القرار الذي يلائمه، وله العودة، لاحقاً، إن هو أراد.

أكثر مِنْ ذلك يصبح هوبي خلال هذا الشهر عرضة للقلق والتساؤل. ورغم أنّه يمتنع عن الشراب، لكنه لا يصوم، كما يصبح أكثر استعداداً للحديث، وأن يشرك الآخرين بما يفكر، وما يعتزم أن يقوم به مِنْ أعمال، وقد يعترف بأخطاء ارتكبها فِي السابق.

أما الذين يريدون أن يبقوا كما كانوا قبل رمضان، أو كما يقول بعضهم: «رمضان شهر مِنْ الشهور، مثل شعبان وشوال، مثل ربيع وربيع، والمؤمن الصدق مِنْ يشعر فِي داخله بالحئية، والعطف فِي كُلّ الشهور. أما أن يكون الواحد زنديقاً كافراً، يظلم الناس ويسلبهم فِي كُلّ شهور السنة، حتى إذا جاء شهر رمضان تحول وتغير، فكأنه يضحك على نفسه وعلى غيره، ولا نريد نقول أكثر مِنْ ذلك، حتى رب العالمين ما يحرقنا بنار جهنم».

أولئك الذين يريدون أن يبقوا كما كانوا قبل رمضان، لا يحاول هوبي إرغامهم على أن يكونوا شيئاً آخر، كُلّ ما يطلبه، كما يقول، «الستر يا جماعة، وما لازم نكسر خاطر الناس» فإذا ألح عليه أحد المؤمنين الجدد أن يقف معه، أن يسانده، أو أن يكون حكماً فِي الجدال الذي يدور حول الصيام وفوائده، يقول هوبي وابتسامته لا تفارق وجهه:

- باوعوا الطيور اللي تطير بالسما، كُلّ طير يختار الطريق اللي يريد!

وحين يجد أن هذه الحجة غير كافية، يُضيف، وقد تغير وجهه:

ـ ماكو أحد ينزل بقبر غيره، وماكو أحد ينوب عن الثاني يوم الحساب، فخلوا الله وحده هو اللي يحاسب!

كان كلامه يغضب بعض المتدينين، أو الذين أصبحوا كذلك خلال شهر رمضان، إذ يعتبرون موقفه مؤيداً للعصاة، لكنه يرد:

- يا جماعة، نحن أولاد اليوم، وما نريد يتأجل الحساب إلى يوم القيامة إذا نقدر نحاسب اليوم!

ويضيف، وقد عاود وجهه الابتسام:

- إذا رب العالمين باله طويل، وينتظر سنة وألف، فالبني آدم خلقه ضيق، إما بحياته يحصل أو ضاع عليه كُلّ شي.

فإذا وجد أن كلامه غير مقنع، تكتسب كلماته حزماً أكبر:

- المسألة، يا جماعة، ما هي مسألة صوم وصلاة، ومثل ما قلنا: رب العالمين هو اللي يحاسب، لكن أريد أسألكم فد سؤال: بربكم، بدينكم،

بصلاتكم وصيامكم، شقد اكو بشر ما يقطعون لا صلاة ولا صوم، لكن قلوبهم أسود مِنْ الفحم: يظلمون الفقرا، يسلبون اليتامى، وما يخلون مكسورة إلا ويسووها. وشقد اكو بشر لا يصلون ولا يصومون، لكن الحرام أبد ما ياكلون. مو بس هالشكل: ماكو أحد محتاج، ماكو طير أو حيوان، وبليا ما يحس أحد إلا ويفتحون جيوبهم وبيوتهم ويقولون: ألف هلا ومية مرحبا، وعليك الله تاخذ!

وغالباً ينتهي مثل هذا النقاش دون نتائج.

ولأن رمضان هذه السنة كان مختلفاً عن السنين السابقة، مِنْ حيث الأسعار، وصعوبات الحياة، ونتيجة الأحداث التي مرت، إذ لا تزال ذكرياتها طرية فِي قلوب الناس وعقولهم، فقد أصبحت المجادلات بين رجال هوبي أكثر مِنْ السابق، وتزيد عن الحد الذي يبقي الود بين هؤلاء الرجال، ولئلا تستفحل الأمور، كثيراً ما تدخل هوبي ليضع حداً، أو ليعطي الجدال مسارات أخرى.

كان يقول، للحد مِنْ الخلافات:

ـ ترى إذا ظلينا بقصة الجنة والنار، الثواب والعقاب، ضاعت علينا الدنيا والآخرة...

ويهتز رأسه بحزن، ويتابع:

- جوامع بغداد ماكو أكثر منها؛ وأصحاب العمايم يدورون على الناس بالدرابين حتى يحصلوا منهم الزكاة والخمس، فخلونا بهمنا وخلونا نشوف دربنا.

وحين يخيم الصمت، والعيون تتابع، يُضيف:

ـ اللي يريد يصلي الله وياه، واللي ما يريد يصوم... كُلّ ما نقدر نقوله: الله يهديه، وانتم تعرفون: ماكو أكرم مِنْ الله، وهو أرحم الراحمين.

بعد أسابيع، وفِي محاولة جديدة مِنْ الباشا لإقناع عليوي أن شقاوات بغداد، مثلهم مثل البدو، يعشقون الفوضى إلى حد الجنون، وليس لهم مِنْ عمل إلا تحريض الناس والتطاول على الحكومة.

أما عن دورهم فِي محاربة سعيد، وتسهيل دخول بغداد فلا يتعدى الرغبة فِي النهب وفرض الخوة على الأغنياء. وإذا كان لديه أيّ شك، عليه أن يختبرهم فِي مواجهة الإعدامات التي ستجري، وما إذا كانوا سيؤيدون الحكومة أم لا.

شعر سيد عليوي بالتحدي، كأن دفاعه السابق عن هوبي ورجاله لم يرق للباشا، وعليه أن يختبر الأمور بنفسه ليتأكد!

كان هوبي وعدد محدود مِنْ رجاله حين وصل الآغا فجأة بزيارة إلى بستان الخس. شعر هوبي والرجال الذين حوله بالحرج، وبالاستغراب أيضاً، إذ لا يعرفون كيف يجب أن يكرم الآغا فِي هذه الليلة الرمضانية. هل يسألونه ما إذا كان صائماً كي يهيئوا له السحور؟ هل يحسن أو يليق أن يتحدث أحد عن الخمر فِي مثل هذه الليلة؟

قال هوبي، فِي محاولة لخلق جو مِنْ الألفة، وليكسر الاعتبارات التي تسود فِي مثل هذه الليالي:

- ترى بينا، ي آغا، مِنْ هو مريض أو على سفر، فاللي تؤمره يصير!

- جيتك مِنْ آخر تلفات الدنيا، يا أبو راجي، حتى أبلل زردومي بعرق هبهب، لأن هذا الزردوم صار كم يوم يابس، طقطق مِنْ العطش...

وبعد قليل، وهو ينزع حذاءه، ويفك أزرار قميصه:

ـ ترى سوالف السراي أبد ما تخلص، يا أبو راجي، والواحد إذا غرق بيها وحدها يصير أثول، وبعدها ما يعرف كوعه مِنْ بوعه، فهات الكاس والطاس حتى ترتاح أعصابنا شوية.

وبسرعة فائقة، وكأن هذه الليلة مثل غيرها مِنْ الليالي، هيئ كُلّ شيء مِنْ أجل الشراب. وهوبي الذي بدا أحد المشاركين، وهيأ كأسه أيضاً، قال للآغا قبل أن يرفع الكأس:

- قول على اللي تريده، يا آغا، آني وياك بالطاس والكاس، بس، سبحان الله، برمضان يصير العرق بحلقي سم، وأزود مِنْ السم، فأريد أترخص منك، أرفع وياك كاس، وأقول لك عوافي، بس لا تلومني إذا ما قدرت أشرب!

حين بدا الاستغراب على وجه الآغا، وتطلع إلى الآخرين، أضاف هوبي بنوع مِنْ التبرير:

- الاخوان راح يشربون، وآني وياكم، وإذا تريدني أكون مرتاح، وأقندل، فخليني بكيفي!

وبعد قليل، ولئلا يترك مجالاً لنقاش إضافي، رفع الكاس:

- كاس الآغا، يا جماعة، صحة وعوافي!

بدا الآغا مختلفاً هذه الليلة عن مرات سابقة، ربما جاء ليستريح مِنْ أعباء السراي، مِنْ الأشغال التي بدأت مع دخوله إلى بغداد، ويبدو أنها لن تنتهي.

وربما لديه شيء يريد أن يفضي به لهوبي، لكن أحداً لم يكن فِي عجلة مِنْ أمره.

أضفى هوبي جواً مِنْ المرح على الجلسة، إذ طلب مِنْ أحد رجاله، وكان معروفاً بخفة الدم، أن يروي بعض النكات. ولم يتأخر هذا، إذ روى نكاتاً قديمة وأخرى جديدة. ورغم أن هوبي ورجاله سمعوا أغلب هذه النكات مِنْ قبل، لكن طريقة روايتها هذه المرة، وما أضيف إليها مِنْ حركات، أضحكتهم أكثر مِنْ السابق. أما سيد عليوي الذي ضحك، وبالغ بعض المرات، فقد كان فِي عالم آخر، لاحظ الرجال ذلك مِنْ سهومه، مِنْ حركاته العصبية.

فِي لحظة معينة، قال عليوي، وكان كلامه أقرب إلى الأمر:

- أكو كلمة بيني وبينك، أبو راجي.

وقبل أن يقول هوبي كلمة، ويطلب مِنْ رجاله ان يخلوا المكان، انسحبوا.

قال سيد عليوي، وهو ينظر إلى عيني هوبي:

ـ أريدك تتحضر..

واقترب منه أكثر:

- بالأيام اللي راح تجي راح نعلق كم واحد مِنْ جماعة سعيد، هذول اللي دوخونا، وشلعوا قلوبنا. فأريدك أنت والجماعة تكونون موجودين وحاضرين، حتى ما يرفع أيّ ابن قحبة صوته ويقول: يصير وما يصير.

تراجع هوبي قليلاً، كي ينظر إلى عيني الآغا، ليقرأ فيهما ويتأكد ما إذا يعني بالكلمات التي قالها. لما وجد الوجه صلباً، والعينين تؤكدان الكلمات، سأل، وقد حمل صوته صلابة مماثلة:

- منو...؟ وشنو صاير بالدنيا؟

ـ عقب أيام راح تشوف بعيونك...

وتغيرت نبرة عليوي:

ـ هذوله القواريد، اللي أكلوا الأخضر واليابس، اللي قالوا لسعيد نحن وياك للموت، إضرب ولا تخاف، وشقد ما تريد فلوس نحن حاضرين...

وعاد إلى لهجته الأولى:

ـ ترى الناس كلها ويا الوالي، بس تعرف، يا أبو راجي، أهل بغداد يريدون دف حتى يرقصوا، يريدون عزا حتى يلطموا، وخاف أولاد الحرام، جماعة سعيد، يتوهمون، فأريدكم حاضرين حتى ما أحد يفك حلقه.

ردَّ هوبي بطريقة لا ترتب أيّ التزام:

- الجماعة فيدوس يا آغا، كُلّ واحد يم أهله، وجماعة الوالي بيهم الخير والبركة، يكفون ويوفون؟

ـ اللي تقوله صحيح، يا أبو راجي، بس وجودكم ضروري.

- منو نحن، يا آغا، إذا الحكومة موجودة؟

- نريد جماعة مثلكم يقدرون يقولوا للناس: باوعوا، شوفوا هذوله اللي ظلموكم تعلقوا، وإذا واحد قال: شنو... منو أو شلون، يقولون له:

تنشب وتاكل هوا...

وبعد قليل، لكي يبدو الموضوع عادياً:

- هذا كُلّ ما نريده منكم، يا أبو راجي؟

ردَّ هوبي، بعد أن ساد الصمت، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً:

- والله نحن قولنا مِنْ راسنا، يا آغا، واللي علينا سويناه، وما كلف الله نفساً إلا وسعها.

وحين تطلع إليه سيد عليوي باستغراب، أضاف ليعفي نفسه مِنْ أية مسؤولية:

- بعدين... الجماعة تطشروا، يا آغا، صار كُلّ واحد منهم بديرة.

حاول أن يبدو عادياً وهو يُضيف:

- وتعرف.. نحن بشهر رمضان، فلو كان الوقت غير وقت، لقلنا لهم تعالوا، لكن مثل ما تشوف عينك... حتى الجماعة اللي شفتهم هسه محملين، وباجر أو عقبه كُلّ واحد منهم عند أهله ردَّ عليوي بطريقة لا يريد أن يبدو مهزوماً:

ـ اللي الله يقدركم عليه، يا أبو راجي، وأعرفك نشامة وما تقصر!

مثلما وضع داود باشا الفرمان الخاص بإعدام قاسم الشاوي جانباً، جهة اليمين، ودق عليه ثلاث مرات وأقسم أن ينتقم، فإنه وضع فرمانات عبد الله بك والآغا درويش، وذاك الخاص بالباجه جي، جانباً، لكن هذه المرة جهة اليسار وقال يخاطب نفسه: «الفلوس بهذا الوقت أهم مِنْ الرؤوس، وكُلّ واحد مِنْ الثلاثة يقدر، بالأموال المضمومة تحت مخدته، يشتري ولاية ويسير قوافل، فإذا أرادوا افتداء أرواحهم عليهم أن يدفعوا كفارة، ومثلما أوقف عمر، رضي الله عنه، الحد أيام المجاعة، يمكن أن نرفع عنهم الحد»..

ولأن هؤلاء، وآخرين، كانوا قد اعتقلوا بعد أيام مِنْ سفر موفد خالد أفندي، بسبب ما قيل عن «المضبطة» التي يفكرون برفعها إلى السلطان لمطالبته بتنحية كُلّ مِنْ له صلة قرابة أو مصاهرة بسليمان باشا الكبير، منعاً للفتنة، فقد قرر داود باشا أن يسد بعض الأبواب التي قد تأتي منها الرياح، لأن لديه الكثير الذي يجب أن يفعله فِي هذه الفترة، ولا يحتمل التشويش والتحديات. فكر أن يبقيهم بضعة شهور «ضيوفاً» عنده، إن لم يكن فِي سجن القلعة تماماً، ففي جناح لا يختلف كثيراً عن السجن: حار أو شديد الحرارة فِي الصيف، وشديد البرودة فِي الشتاء، وأن يكون بالغ الضجيج ليل نهار، مِنْ داخل القلعة ومن خارجها، دون أن يتمكنوا مِنْ رؤية الناس، لكي تتاح لهم المقارنة بين ضيافة الوالي الجديد وضيافة الباليوز.

هكذا فكر داود، وكان يردد لنفسه، وهو يبتسم، عندما تتراءى له وجوههم: سطرة وجرة إذن... وبعدها: يا غريب دور أهلك.

لكن هذه الخطة التي قرر اتباعها، فِي محاولة لترويض خصومه ومن يفكرون بمعارضته، ما لبثت أن تغيرت بعد فرار ابن الشاوي وموت حمادي.

كان لا بد مِنْ الحزم، حتى لو اقتضى الأمر التخلص مِنْ المعارضين الخطرين، وكان لا بد مِنْ تدبير الأموال اللازمة، وبسرعة، لمواجهة الأعباء المتزايدة.

لم يتأخر الباشا فِي التحضير لتنفيذ الأحكام، وعلناً، بأولئك الذين لا يمكن أن يغفر لهم، خاصة وأن أغلبهم صفة أنهم تعودوا على الأخذ دون العطاء، إذ بالإضافة إلى الفتاوى التي كانوا يصدرونها لسعيد ونابي خاتون، فقد كانت ألسنتهم طويلة، قذرة، وطافحة بالسخرية، حين يمتنع العطاء وحين يقل، إذ يتحولون إلى خصوم، وهذا ما جعلهم لا يتوقفون لحظة واحدة عن تاييد سعيد والنيل مِنْ خصومه، وقد لحق داود، منذ أن غادر إلى الشمال وإلى أن دق أبواب بغداد عائداً إليها، مِنْ ألسنتهم الكثير. كانت نابي خاتون تملأ جيوبهم

بالنقود، وتنشر عن طريقهم قصصاً حول داود لها بداية لكن لا تنتهي. ورغم أنّه لم يكن يخاف تلك القصص، إلا أنّه لم يكن يحبها، إذ تتناول طفولته وفقره وأسرته، فِي الوقت الذي كان يبذل أقصى الجهود مِنْ أجل أن يراه الناس كما يحب: ذكياً، لامعاً فِي السياسة والحرب، شجاعاً ومنتصراً فِي كُلّ المعارك.

الآن جاء الوقت ليصفي حسابه معهم، وعليهم أن يدفعوا ثمن الأخطاء الماضية، كما لا يريد توبتهم، لأن الكثيرين أخذوا يتسابقون إليه ليمدحوه ويشيدوا بمزاياه.

ومع التصميم على التخلص مِنْ هؤلاء، ليكونوا عبرة لمن يفكر بالتطاول، فقد أرسل إلى الذين يملكون المال: عبد الله بك، ودرويش آغا والباجه جي مِنْ يفاوضهم لافتداء أرواحهم.

لما عرض الذين أرسلوا لعبد الله بك اقتراحهم أن يدفع ليفتدي نفسه، لجا راساً إلى الشتيمة. شتم سعيد ونابي وحمادي، لأنهم السبب فِي المذلة التي يواجهها الآن. وشتم القدر الذي جعله يتعامل مع هؤلاء الأوباش. وشتم نفسه لأنه ترك العزيزية وجاء ليصبح عبداً عند نابي خاتون.

فوجيء الذين جاؤوا يفاوضونه، وكانوا يلتقونه أول مرة، مِنْ هذه القابلية الخارقة على ابتداع الشتائم، والتي لا تخلو مِنْ طرافة. وقد حاول أن يستغل ذلك مِنْ خلال إدهاشهم وإضحاكهم، وفِي جو مِنْ المرح، والذي سرعان ما تحول إلى ابتسامات فقهقهات، أراد أن ينسيهم الغرض الذي جاؤوا مِنْ أجله! لكن ما أن يهدأ الجو قليلاً ويسألونه عن المبلغ الذي يدفعه ليخلص مِنْ «الرزالة التي يعيشها الآن»، حتى يعود مِنْ جديد:

- آني أبو فلوس؟ آني عندي فلوس؟

ويلتفت بحذر خشية أن يسمعه غيرهم، ويتابع:

- شنو... مخابيل انتو؟ ما تشوفوني مصلخ، منتوف، وما عندي غير طرق خصاوي؟

وحين يطلبون منه أن يترك الهزل، وأن يحدد ما يستطيع دفعه، يرد بحدة:

- بابا... قلت لكم مفلس، بارة سز، حتى أفندينا السلطان، أطال الله عمره، نوى يتكرم علي بنيشان برنجي لأني أكبر مفاليس السلطنة!

يهزون رؤوسهم أنهم لا يصدقون، وعليه أن يبحث عن حجة أخرى، فيهدر صوته:

- حتى داود، الله يخلف عليه، لقفها وهي طايرة...

ولأنهم لِم يفهموا ما يعنيه يتابع:

- ليش أكو دور للأيتام والعجز؟ ليش الله، بسماه العالية، قال: لا تكسروا خاطر الفقير؟ ليش الديانات كلها وصت بالمسكين؟

وحين لا يجيب أحد، يتولى الجواب:

- ربنا مِنْ فوق شايف حالي، فقال لمحروس السلامة داود: هذا العبد الفقير، الميت مِنْ الجوع، عبد الله بك، توقف قليلاً، وقد رنت «بك» بأذنه، كما رنت بآذان الذين يتابعونه. ابتسم قليلاً ثم قهقه، وخرجت كلماته حادة، مع حركات مِنْ يده ووجهه:

ـ هذي البك قشمرة، لا تغركم...

ثم يعود إلى نبرة الصوت السابقة.

ـ قالوا لوالينا داود: دير بالك عليه، لأن الرجال ما محصل خبزته، مهتوك، كُلّ شيء ما عنده، وداود ما قصر، قال: تعال، أكل واشبع.

وبعد قليل وبسخرية:

- عرفتوا ليش آني هنا... لو بعد؟

وتكون ابتساماتهم دلالة للإنكار وعدم الإقتناع، فيندفع أكثر:

- بابا انتو غلطانين، ويجوز الباشا دازكم على واحد غيري. قلبوا دفاتركم زين، وبعدها راح تقولون: هذا العبد الفقير لله يستحق الصدقة! بين الحيرة والاستغراب، ولأنهم لم يعرفوا كيف يتعاملون معه، انسحب الرجال الذين أرسلهم داود، استعداداً لجولة ثانية، بعد أن يستشيروا رؤساءهم فيما ينبغي عمله.

فِي المرة الثانية، ما إن فتح الباب عليه ورآهم، حتى استقبلهم صوته الحاد:

- العن أبو اليوم اللي تركت العزيزية وداست رجلي بغداد، لأنه يوم اكشر. لو انكسرت رجلي وما طبيت بغداد. لو صاب طيزي دوحاس وما شالني بغل أعور. لو عجاجة قشرة أخذتني لمكان ماكو بيه أحد، حتى لا أشوف هذه الولاية ولا أقابل جهرة نابي خاتون. لكن حظي نجس، حظي خرا، ومن دعاوي أمي علي وآني زغير، ولأني بقت خبز العباس وكلاش المومن، وما خليت مكسورة إلا وسويتها، صار بي اللي صار... وهمين جايين علي تريدون فلوس، وتقولون هات؟

توقف لحظة كي ينشف العرق الذي أخذ يسح مِنْ جبينه وخديه. نظر خلسة إلى الوجوه التي تتابعه ليكتشف النوايا، وما إذا اختلفت عن المرة السابقة، فلما وجد أن الرجال يتابعون بصبر، لكن لديهم ما يقولونه، سأل بلهجة حملها مقداراً مِنْ الحزم:

- ها... شلون، تأكدتم أن اللي تريدونه واحد غيري؟

لم يجيبوا، لكن نظراتهم أشعرته أن الطريقة التي يتبعها لا تجدي، قال بمسكنة:

ـ لو آني بغير هذا المكان، والدنيا مو رمضان، جان صحت لكم ماي بارد، حامض، طاسة باقلاء أو لبلبي.. لكن مثل ما تشوف عيونكم...

وبعد قليل، بلهجة مختلفة:

ـ ما يخالف، تهون، تنقضي أيام القهر، تصير سوالف وأخبار، وعندها مو راح أعزمكم نوية، مية نوبة.

ولما طالبوه أن يحدد المبلغ الذي يستطيع دفعه، ليطلق سراحه، سألهم مِنْ جديد:

- بابا... إنتو متأكدين أن ماكو غلط بالموضوع؟

وقالوا له إن الأمر لا يحتمل نقاشاً طويلاً، وعليه أن يختار.

بعد أن صمت وقتاً غير قصير، جاء صوته وكان متحدياً:

- زين ما يخالف، راح أبيع اللي فوقاي واللي جواي، بس قولوا شقد يريد افندنيا داود؟

وحين أبلغوه أن المقدار المطلوب عشرة آلاف كيس، رفت عيناه عدة مرات، وبدا الخوف قوياً على وجهه، قال وهو يلهث:

ـ إلزموا الباب، يا معودين، والله وياكم، وأبد لا تخلوني أشوف وجوهكم؛ وبعدها اللي تشمره السما تتلقاه القاع؛ هذا هو، وألف جهنم! قالوا له قبل أن يغادروا إنهم مستعدون للتنازل قليلاً، فسألهم بعصبية عن حجم التنازل، ولما ذكروا أن المبلغ قد ينزل ألفا، ردَّ، وهو يدير وجهه نحو الحائط:

- بابا... شنو إنتو عقال لو مجانين؟ منين أجيب؟

وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:

- لو باعوني بسوق هرج أكثر مِنْ ألف ما يتحصل!

وهم يخرجون، وقد كانت خطواتهم ثقيلة، عله يتراجع فِي آخر لحظة، استدار مِنْ جديد، ولم يتخل عن صوته الغاضب:

- والمخلص؟ نهايتها شقد؟

ولما استدار آخرهم، وقال إنهم مفوضون بالتسعة، ردَّ بسخرية:

- بابا.... سيروا على بركة الله. سلموا هوايه على الوالي، وقولوا له: عبد الله مات، مات مو مِنْ اليوم، مِنْ يوم ما طب بغداد، وما تجوز على الميت

غير الرحمة؟

ولئلا تصل المفاوضات مع درويش آغا إلى ما يشبه هذه النتيجة، أرسل إليه مشهور أبو الهيل. جاء مشهور كصديق للزيارة والاطمئنان عليه، وقد أبلغه أثناء الحديث، إذا كان يوافق، إن بالإمكان أن يفتدي حياته وحريته بمبلغ مِنْ المال، وزين هذا الحل، رغم صعوبة أن يُوَافق عليه، لكن سيبذل أقصى ما يستطيع مِنْ أجل ذلك. ودرويش آغا، الذي لم يرفض هذا الاقتراح، تساءل عن الوقت الذي يمكن أن يقضيه فِي هذا المكان، الذي ما أن تخيم الظلمة حتى يمتلئ بالعفاريت، وتأخذ هذه العفاريت تتراكض حوله وتصيح، فتصطدم به وتنام فوقه وتدغدغه، وبلغ الأمر أن سرقت مسبحته، ولم تعدها إلا بعد أن أوجعها بكاؤه!

روي درويش آغا هذه القصة كوسيلة إضافية ليعجل مشهور بإخراجه مِنْ هنا. فلما لاحظ هماً على قسمات وجهه، قال له بانفعال:

- الفلوس، يا أبو مثقال، وسخ دنيا تروح وتجي، أما روح البني آدم إذا طلعت، أبد ما تنرد!

وبعد أن وافقه مشهور بهزات مِنْ رأسه تابع درويش آغا بحزن:

- شلون بلوي ابتلينا، وما يندرى همين شوكت تخلص!

قال مشهور بحزن لا يقل عن حزن الآغا:

ـ الحبس، آغا، وإن طالت أيامه، يخلص؛ بس الواحد يخاف يصير غير شي، وهناك الطامة الكبرى؟

ـ يعني شنو... قول بالقلم العريض، خاف تكون سامع فد شي!

ـ والله ما جيت، يا آغا، إلا على مود هذا الشي!

ـ يعني شنو؟

ـ الناس بالسوق تسولف وتقول: داود ما يتأمن، مثل الدنيا ما تتأمن، ولازم عرفت: قاسم فر. عصفور وطار، ومن ذاك اليوم ووالينا نار الله الكبرى، محموق، وبس يريد ينتقم، فقلت لروحي...

توقف لحظات، أخذ نفساً ملء رئتيه، وتابع:

- وخاف يتسودن وتجي براسه ويسويها...

واهتز الآغا بعصبية، لكن مشهور أضاف بلهجة مريرة:

ـ الفلوس بألف جهنم، المهم إنك تبقى حي، يا آغا!

واتفقا أن تُبذل أقصى الجهود، وبسرعة، بغض النظر عن المبلغ الذي سيدفع مِنْ أجل أن تنجز هذه المهمة.

قال درويش آغا لمشهور، وهو يودعه:

- واليوم أحسن مِنْ اللي عقبه، يا مشهور، لأن روحي شاغت، وما بندري شنو اللي يصير.

ورغم أن مشهور أكد له، وأقسم، أن يبذل كُلّ ما يستطيع، فقد سأله الآغا بخوف:

- وشوكت ترد الجواب؟

- خليها على التيسير، درويش آغا، ومن جهتي أبد ما راح أقصر، وما يلزم توصيني، بس المسألة أن نلاقي درب على الجماعة.

وبعد قليل، وهو يبتسم:

- وأنت، آغا، إذا بينت خيرة ودعيت لنا بالتوفيق فرب العالمين يهون ويفك ألف باب!

قال درويش، وبدا متعباً وحزينا:

ـ إذا قلنا: اليوم الثلاثاء، فشوكت أنتظرك، ومعك الجواب؟

- لو المسألة يمي، آغا، جان اليوم قبل باجر، لكن ينراد نشوف درب على الجماعة، نريد فد واحد يعرفهم زين، ويمون.

ويهتز رأس الآغا ببطء موافقاً ومؤكداً على كُلّ كلمة يقولها مشهور أبو الهيل، ويريد منه أن يتابع أيضاً، ولا يتأخر مشهور:

- وإذا لقينا اللي يساعد ويوصلنا راح يكون حظنا مِنْ السما.

- يا معود، يا أبو مثقال، أنت معارفك هوايه، والدنيا ما تخلى، مِنْ هنا، مِنْ هنا، ولازم نلقي.

- وكُلّ الله، آغا، اللي يسأل ما يضيع، واللي يدور يلقي.

- راح إعتمد عليك، يا أخوي مشهور، ولازم تدبر! هز مشهور رأسه مرات عديدة دلالة الهم والتفكير، وقال، وخرج صوته مِنْ أعماق الصدر:

- وكُلّ الله، آغا ـ عليه توكلنا، وإليه ننيب.

ولم يتأخر مشهور فِي الزيارة الثانية، جاء يوم السبت، بدا ملهوفاً، وهو يضج بالفرح:

- أبشرك مولانا!

- الله يبشرك بالخير!

وتعمد مشهور أن ينتظر بعض الوقت. مسح حبات العرق التي تساقطت مِنْ الجبهة. نظر حواليه، وكأنه يضع المسؤولية على هذا المكان الحار.... قال وهو يظهر تأففه:

- حارة... آغا... جهنم! كانت ردة فعل الآغا سريعة:

- متنا، احترقنا، ومو بس بالنهار، الليل أنجس...

ولما تأكد الأغا أن مشهور ليس مستعداً، بعد، للحديث، تابع بحرقة:

- والماي.. الماي عبالك بول بعران، والبق الله لا يراويك؛ وكُلّ جريدي ولا بزون قصاب، وما أدري بعد شنو...

وصمت الآغا متعمداً ليمهد لحديث مِنْ نوع آخر، وبعد أن مرت ثوان، بدت طويلة وثقيلة، قال الآغا بكثير مِنْ الود:

- أيّ، أبو مثقال، قلت لي إنّه الأمور تيسرت؟

- خليها على الله، آغا!

تراجع الآغا بخوف، وكأنه لا يتحمل مثل هذه الإجابة الرجراجة، خاصة وأن مشهور تعمد أن يرد ببطء، وقد شابت صوته رنة شجية. سأل الآغا بحرقة:

- أريدك تسولف لي، وبالتفصيل، مِنْ ساعة تفارقنا حتى اليوم!

ردَّ مشهور بتثاقل، وكان يهز رأسه:

- شاقدر احجي شاقدر أقول، آغا...

وبعد قليل، وبنبرة جديدة:

ـ انشلع قلبي وآني أركض مِنْ مكان لمكان، أريد فد واحد أفهم عليه ويفهم علي؛ يوم، اثنين، إلى أن لقينا فد خوش ولد، وبعد ما افتهم السالفة، دق على صدره، وحط إيده على الشارب، وقال: هذي، يا بو مثقال، علي، خدها مِنْ هذا الشارب!

- الله يبشرك بالخير، يا أبو مثقال..

أخذ نفساً، وأضاف:

ـ الدنيا، بعد، بيها خير، يا أبو مثقال، والناس للناس، شنو عبالك خلصت؟

ولما هز مشهور رأسه موافقاً مع ابتسامة جذلي، تابع الآغا بحماس:

ـ أيّ نعم، مولانا، الناس للناس، لأنها إذا خليت خربت، مثل ما قالوا، الله يرحمهم، جماعة قبل، إنت معي، أبو مثقال، لو لا؟

- شلون لعاد، آغا، وياك مية بالمية!

وترك الاثنان لبعض الوقت أن يمر، لكي يبدأ بالحديث الجدي.

قال مشهور أبو الهيل، ليقطع الطريق على أية إمكانية للاعتراض:

- والجماعة اللي عاونونا، مو بس نشامة وأهل مروة، آغا، وهمين اعتبروها قضيتهم، وقالوا فدوى لعيون الآغا!

- بارك الله بيهم، ونحن شلنا على الناس غير مروتهم، ما تقول لي، يا أبو مثقال؟

- مو بس هالشكل، آغا، الدنيا مخبوصة، والله العليم أن الباشا ناوي على شر، ومثل ما قال الجماعة: نخلص القضية اليوم، هالساعة، أحسن، لأن الواحد ما يدري شنو اللي يصير باجر!

- يخلف عليهم، مولانا، والله يكثر مِنْ أمثالهم!

وساد الصمت مِنْ جديد. ابتسم مشهور أكثر مِنْ مرة. فرك يديه بحيوية، وتابع:

ـ المهم خلصنا، إذا سارت الأمور على خير!

- أيّ، أبو مثقال، شلون اتفقتم؟ على شنو؟

- قلت لهم: المهم بالنسبة إلنا: روح الآغا، صحته وكرامته، وبعدها كُلّ شي رخيص، ما له قيمة...

- أيّ... مولانا، وبعد؟

- تصور، آغا، قالوا لي: لا تروح زايد.. صحيح، ونحن معك، روح الآغا بالدنيا، ونريده بصحة زينة، ونريده يقعد ببيته على الشط بالنهار، وينام فوق السطح بالليل وهو أمير، لكن ما نريد جماعة الباشا يطمعون بينا!

ردَّ الآغا بحمية وانفعال:

- يخلف عليهم ولازم نقول: الواحد مايرده إلا حليبه، ولولا أن الجماعة أولاد حلال، أولاد أصل، يجوز تنلاص، يجوز يطالبون بالآلاف قال مشهور، وخرجت كلماته بطيئة، لكن موزونة:

- لا.. آغا، مِنْ هذي الناحية طمن روحك. الجماعة قالوا: نحن ما نريد، ولو بارة، المهم تخلص القضية على خير!

- يا أبو مثقال، آني قلت لك ألف مرة: الدنيا بعد بيها خير، وهذا رأيك، مولانا، مو هالشكل؟

ـ تماماً، آغا، وحمدت ربي ألف مرة، أن القضية راح تخلص هالشكل.

بعد هذه الجولة الطويلة، وبعد الصمت الذي داخله التأمل والفرح وانتهاء الفترة الصعبة، سأل الأغا: - أيّ... مولانا، شلون اتفقتم؟

- الجماعة... قالوا: المسألة تحتاج عشرين.. أقل شوي.. أكثر شوي!

- عشرين شنو؟

- عشرين ألف... آغا.

ـ هاي منين نجيبها؟

وبعد قليل، وكأنه يحدث نفسه:

- هاي بلوة، هاي منين تنجاب؟

ردَّ مشهور بسرعة وبحسم:

- قلت لهم هذا كفر، وهاي فوق طاقة الإنسان، فوق طاقة الآغا، ولازم الواحد يكون بقلبه رحمة، وعنده إنصاف، ويطالب بالممكن، أما إذا راحت الرحمة مِنْ القلب، وصارت الفلوس كُلّ شي، فالواحد ينفض إيده..

- أيّ.. وبعد؟

ـ قلت لهم: الآغا ما يدفع إلا عشرة، ولو طلعت بروسكم نخلة ما يدفع أكثر، شنو الدنيا قوترة؟ الدنيا فالتون؟

استراح مشهور قليلاً، ثم أضاف بحزن:

- قلت لهم: خلوا الله بقلوبهم، يا جماعة الخير. والآغا لو يقدر كان فتح كيسه وقال لكل محتاج: تعال... أكرف، لكن الرجال على باب الله، وإذا حصل فد يوم فلسين، فنصها للأيتام والفقرا والمحتاجين، والنص الثاني حتى يعيش بيه الرجال هو وأهله.

- أيّ، وشلون اتفقت وياهم؟

. قلت لهم: حدنا العشرة، فإذا أنتم جاهزين، الآغا جاهز؟

- أيّ... وشنو اللي قالوه؟

ـ قالوا: إذا هاي طاقته يمكن نقنع الجماعة!

ـ أيّ... وبعد؟

قال مشهور، وهو يبتسم:

- قلت لروحي: قبل ما أروح زايد لازم أشاورك، لازم آخذ رأيك وموافقتك!

- أيّ.. وشنو اللي قالوه؟

ـ قالوا: معك ثلاثة أيام، إذا وافق، على خيرة الله، أما إذا قال فلاني وتركاني ترى نحن ما علينا...

وبعد أن مسح مشهور حبات العرق، واضطر أن يخرج منديله مِنْ لباسه، أو ربما مسح باللباس، قال، وكان متعباً:

- هذا اللي توصلنا له مولانا، وهسه ظلت موافقتكم، رأيكم، حتى نرد الجواب للجماعة!

سقطت دموع غزيرة على وجنتي الآغا درويش، لم تظهر أول الأمر، إذ انسربت إلى لحيته، لكن توالي الدموع، ثم إخراج منديل مِنْ الحزام، وكان كبيراً إلى درجة يبدو وكأنه غطاء، وما رافق مِنْ طريقة تنفس، أكدت أن الآغا حزين ويشعر بالغبن، وربما القسوة، لكن بعد أن نشف نفسه مِنْ الدموع والحزن، قال لمشهور:

- انت تمون، يا أبو مثقال.

وبعد قليل:

- ولكن ينرادلي كم يوم حتى أدبر المبلغ.

- هذا كان شرطي، آغا، قلت لهم: حتى لو وافقنا، لا تأخذونا كراخة، لا تلحوا زايد، لأن الرجال ينراد له وقت حتى يجمع الفلوس!

- أيّ، وشنو اللي قالوه؟

ـ قالوا: ما يخالف؛ والدنيا ما تخلص بيوم أو اثنين، وبعدين، أولها وتاليها القضية قضية ثقة.

هكذا انتهى الأمر، مع الآغا درويش.

أما الباجه جي، وحين طلب منه المبلغ الذي حدده الباشا، فقد وافق، وافق مِنْ المرة الأولى ودون نقاش طويل، فقط طلب أسبوعين لكي يسدد ما طلب منه، خاصة بعد أن رفض عزرا أفندي الموافقة على كمبيالات تدفع كُلّ شهر.

وتم الافراج عن الآغا درويش والباجه جي بضجة كبيرة متعمدة، ليسمع عبد الله بك وليتأكد أن الفدية دفعت.

مر يوم، وعند ضحى اليوم التالي، تناهى لسمع عبد الله بك وقع طبل يقترب. انشدت أعصابه تماماً. اقترب الطبل ورافقه صوت. لم يكن الصوت واضحاً أول الأمر، لكن كلما اقترب تميز وتحدد. أما حين أصبح تحت أسوار القلعة، وخيم الصمت، ثم ارتفع الطبل وتبعه الصوت، فقد عرف عبد الله بك صوت خليل الأعور، منادي الشؤم، كما كان يطلق عليه، وهو يبلغ الناس

أن الفرمان الهمايوني قد صدر بصلب العصاة وأصحاب الفتنة، وسوف يرى الناس بأعينهم المصلوبين.

عصر ذلك اليوم، وكان عبد الله بك قد تعب مِنْ المناداة ودق الباب، جاءه أخيراً الحارس، وحين طلب منه البك أن يأتيه آمر القلعة أو واحد مِنْ السراي، ردَّ الحارس أن الأمر فِي إجازة، ولا يعرف كيف يتم الوصول إلى رجال السراي، والأفضل أن يؤجل الموضوع إلى يوم أو اثنين، إلى أن يعود الأمر مِنْ إجازته!

ولم يتوقف صخب عبد الله بك، ولم تتوقف احتجاجاته، إلى أن جيء له بأحد المسؤولين، وعندما سمع آذان المغرب اكتفى البك بحبة تمر لينهي صيامه، وقبل أن تنتصف تلك الليلة تم الاتفاق على أن يدفع تسعة آلاف كيس، واشترط أن يمهل تسعة أيام، وله الحق إما بدفع ألف كيس كُلّ يوم، أو أن يسلم الأكياس كلها فِي اليوم الأخير. ووافقت السراي على شرط عبد الله بك، وترك له أن يقرر: الدفع اليومي، أو الدفع فِي نهاية اليوم التاسع، أيهما يرضيه، وأيهما أكثر راحة له!

المُوفد الذي أرسله خالد أفندي لتقصي الأوضاع، بعد أن دخل داود باشا بغداد، اتصل بكثيرين وسمع الكثير. ورغم أن أخباره كانت تصل الديوان الباشا كُلّ يوم، ويعرف بمن التقى وما دار مِنْ أحاديث، فإن حذراً أقرب إلى التوجس داخل قلب الوالي، ولئلا تفلت الأمور قرر أن يبادر، كما أن الخشية مِنْ اسطنبول دفعته لأن يتصل بالأصدقاء، وأن يجزل لهم العطاء، إذ عن هذه الطريقة يمكن أن يدفع غوائل الزمان، أو على الأقل أن يؤخر الحساب؟

وإذا كان داود عزم، وقد استقبل القبلة وأقسم، أن لا يكرر أخطاء الولاة الذين سبقوه، فقد عاهد نفسه أن يعتمد على قوته وعلاقاته، لكن دون أن يسلم مصيره لأحد. ومرت فِي ذاكرته صور الذين سبقوه، وتجسدت أخطاؤهم: سليمان الصغير فرضه الفرنسيون، لكن فِي غفلة مِنْ الزمن نسوه فانتهى. عبد الله فرضه الإنكليز، وحموه خلال الفترة الأولى، لكن عجز عن إرضائهم فتخلوا عنه، فذهب مثل كلب، وحتى قبراً يدفن فيه لم يجد!

وتذكر سعيد. انفعل وهو يتذكره. كان سعيد فِي البداية محبوباً. وكان سليمان الكبير مثل خيمة تحميه مِنْ الأعداء. حتى الإنكليز وافقوا أن يكون والياً، قالوا نعم، لأن ذلك الكورسيكي، نابليون، أتعبهم، وكانوا يريدون أن يخلصوا منه، ولم يلتفتوا إلى أحد آخر. وسعيد بدل أن يعيد أمجاد أبيه، انشغل بحمادي وأمثاله، وترك الولاية لأولئك البدو الذين لا يحللون ولا يحرمون، كما لا يفهمون بشؤون الإدارة والحكم، فأتلفوا كُلّ شيء.

وبرقت فِي ذهن داود صورة خالد أفندي. هل يمكن الاعتماد عليه؟

هل يمكن الوثوق به؟ وكيف يمكن أن ترتب العلاقة مع اسطنبول بأقل قدر مِنْ التدخل والإزعاج؟ وهذا السلطان الشاب... هل يملك مِنْ التجربة والعلم ما يمكنه مِنْ مواجهة التحديات؟

قال داود لنفسه: «أهم شيء الآن: كسب الوقت، وترتيب أوضاع الولاية، وهذا يتطلب تحقيق الاستقرار، وبناء الثقة بين اسطنبول وبغداد. ولئلا يشوش ذلك الموفد عقل خالد أفندي، لا بد مِنْ أن أبادر بنفسي إلى الاتصال به.

وفجأة وجد نفسه يطلب مجيء كاتبه، ربحي خوجه، ويملي عليه الرسالة التالية:

«حضرة أفندينا المكرم خالد افندي، أيدكم الله مِنْ عنده، ومتعكم بالسؤدد والمجد، وأسبغ عليكم موفور الصحة وراحة البال، آمين.

أما بعد، فإن خير بداية ما قاله الشاعر::

إذا اعتذر الصديق إليك يوماً ^^^ مِنْ التقصير عذر أخ مُقر فصنه عن عتابك واعف عنه ^^^ فإن الصفح شيمة كُلّ حر بعد السؤال عن طيب خاطركم، ودوام الصحة وراحة البال، أنتم والأهل وجميع الأصدقاء، وكُلّ مِنْ بطرفكم، فيسعدني يا حضرة أفندينا، وقد جمعتنا مودة القلوب وقوة الإيمان، أن تكونوا سندنا ولسان حالنا لدى المقامات الشريفة المبجلة فِي دار السلطنة، دار العز، وحصن المسلمين، وأن تنوبوا عنا فِي الإبانة أن ولاية بغداد استقر حالها وهدأ بالها، وعاد كُلّ ذي صنعة لصنعته، مع التطمين أن الجهود الحثيثة تتوالى، وبال الناس مستقر، وحصل المقصود بالخير والبركة والرفاه.

أما عربان الفرات فقد وجهنا إليهم الرسل والمكاتيب، مع الكلام الواضح الصريح، أن مِنْ والى الحكومة ولزم حده، وامتنع عن الغزو والتعدي، ووفي ما فِي ذمته بما فرض عليه، فله الأمان وراحة البال. وعاد الرسل بكلام الأمن والاطمئنان، وأكدوا أن شيوخ القبائل قالوا السمع والطاعة، وقالوا إن هذا الذي كنا نريده ونتمناه.

لكن هؤلاء البدوان، كما تعرفون يا أفندينا، يقولون ما لا يفعلون، ويعدون لكنهم لا يفون، ومع ذلك ليس فِي طولة البال خسارة، فهم بالتأكيد سيرجعون إلى الغارة، وعند ذاك سنلقنهم الدرس بحد المدفع والسيف، وسوف ينالون كُلّ ما يستحقونه مِنْ حيف، حتى يعرفوا أن الله حق، وأن الدولة تعرف الرأفة لكنها لا تقبل الغفلة، وأنها تمهل لكنها لا تهمل. حامل الرسالة والصوغة، إبراهيم آغا، مِنْ لَدُنا موثوق، وعليه اعتماد كبير. إذا سألته فسوف يجيب، وإذا استفسرته عن أمور كثيرة فإنه لديه ما يكفي ويزيد.

أما بخصوص الأموال المقررة علينا، فإن عزرا كلف أخاه حسقيل أن يوافيكم بالمطلوب، وسوف تتم المحاسبة باليسر وحسن القبول، فكونوا مِنْ هذه الناحية كاملي الموثوقية، لأن الحساب غب الطلب.

أما بخصوص المراسلة والجواب، فإن إبراهيم آغا يعرف مِنْ التتار نفراً يمكن الاعتماد عليهم، فإذا شئتم سوف يوافونكم إلى حيث تأمرون، وإلى التوقيت الذي يتجاوب مع حسن خاطركم.

جناب عالي المقام خالد أفندي..

لا نرى إلا مِنْ الدواعي، ومن حسن الختام، أن تخصوا مولانا السلطان بكل الدعاء والتبجيل والتكريم، سائلين المولى، جلت قدرته، أن يديم عزه ونصره، وأن يجعله لكل المسلمين ذخراً وفخراً، وأن يكون دعاؤنا مقبولاً،

ورجاؤنا محموداً، ومرضاتنا مِنْ عنده فِي الدنيا والآخرة، اللهم اقبل وانعم، إنك السميع المجيب، آمين»..

كان داود باشا يريد أن يكتب أشياء أخرى كثيرة، وكان يريد أن يُضيف بعض الأشعار، وفكر لو كتب بخط يده، لكن وجد أن هذه الطريقة أسلم وآمن، فاسطنبول التي تسمع كثيراً، لا تصدق إلا القليل، إذ ينتابها، غالب الأحيان، الشك ثم الوسواس، وتسيطر عليها المخاوف، فهي تعرف أن أكثر ما ينقل إليها ليس صدقاً كله، ولذلك تتحرى بطرق لا تخلو مِنْ تحد ودهاء، وهي تريد أن تطلع لتتأكد، فتلجأ إلى المقارنة والتدقيق، وتبعث بالموفدين والمحاسبين لتقطع الشك باليقين. وهؤلاء الذين يتظاهرون بالتصديق، ممتلئون بالشك، ولا تعني لهم الكلمات التي يسمعونها الكثير، ولذلك يتحرون عن كُلّ شيء، ويقضون الشهور وهم ينقبون ويبحثون.

إذا وصل الأمر إلى درجة الشك، فعندئذ لا بد لمن ينكر أن يثبت قوله، وعليه أن يخرج الرسائل التي وصلت إليه مِنْ قبل، فإذا تبين أن رسالة اختلفت عن أخرى مِنْ حيث الخط أو المداد أو ديباجة الكلام، خاصة فِي البداية أو الختام، فعنذاك يتبرع الكثيرون لإثبات اختلاف الخط عن الخط، والمداد عن آخر. أما الديباجة التي ترفع إلى شيخ الإسلام فتطلب رأياً فيما اختلف عليه، وكثيراً ما أدى الرأي إلى انتزاع الرأس مِنْ بين الكتفين، أو إلى المنافي التي لا يعود منها أحد.

يتذكر داود باشا ما قاله خالد أفندي فِي أحد اللقاءات الأخيرة:

- اسطنبول تشك بكل شيء، وتعتبر المرء مذنباً حتى تثبت براءته....

وشابت وجهه صرامة:

ـ أخذ جانب الحذر أسلم، واعتبار الشك هو الأساس آمن وأضمن!

ولأن ذلك اللقاء كان حميماً، وكان بينهما فقط، فقد أضاف خالد أفندي:

- حتى الخدم، وهم يلبون ما يطلب منهم، لا يكتفون بما سمعوا، ينظرون إلى الشفاه ليتثبتوا، وتظل الرجفة تلازمهم حتى اللحظة التي يتأكد فيها الطالب أنهم فعلوا ما أراد.

لم يكن داود باشا بحاجة إلى مثل هذا الكلام، فهو يعرفه مثل خالد أفندي، أو ربما أحسن منه، لكن الفرق أن خالد أفندي الآن فِي اسطنبول ويعرف أدق التفاصيل التي تجري هناك، ولا بد لداود أن يستفيد مِنْ هذه المعرفة، وأن يستوعب هذا الدرس دون أن يدفع ثمنه.

وإذ شعر داود ببعض الغضاضة لأنه لم يكتب بخط يده لصديقه، فقد اعتبر أن فِي ذلك حماية للطرفين، وهذا ما دفعه إلى مضاعفة الهدية، فالكلمات،

كما قال لنفسه وهو يأمر بإضافة اثنين مِنْ الخيول الكريمة، لا تكفي، لأنها فِي أحيان كثيرة تشبه الضحكات الصاخبة، إذ ليست دائماً تعبيراً عن الفرح، فهي تنتهي بسرعة، أما الخيول، أما الذهب، وما يشابهها مِنْ الأشياء الثمينة، فإنها تبقى، ولا تتأثر باللحظة، وما تعجز عنه الكلمات تعوضه الهدايا، وهذه مِنْ السهل تقدير قيمتها، كما مِنْ المحتمل أن تزيد هذه القيمة بمرور الزمن!».

حين سرح الباشا إلى ذكريات وأماكن بعيدة، انتبه فجأة أن ربحي خوجه ما زال يمسك بالقصبة، ومستعداً لمتابعة الكتابة، قال له، وكان يبتسم.

- عندما يمن الله علينا بالوقت وراحة البال، أريدك أن تعلمني خط النسخ!

ردَّ ربحي بانفعال:

- جلسة أو اثنتان، يا أفندينا، تكفي لأن تكتب بالتجويد المطلوب، والأمر متروك لفخامتكم، ونحن جاهزون.

- المهم، يا ربحي، أن يكون الإنسان صافي البال!

ما إن بدأ الحديث فِي موضوع يعتبره ربحي هاماً، وهو إنشاء مدرسة التعليم الخط، ومدى الفائدة مِنْ ذلك، حتى قال الباشا.

- إذا بدأنا بإقامة الجوامع يكون الخط ومدرسة الخط مِنْ أول اهتماماتنا، فذكرني بالأمر يا ربحي، لأن مِنْ الضروري أن ننقش على بيوت الله خطوطاً جميلة، وأن تبقى لمئات السنين.

- إلى الله أتضرع، يا أفندينا، أن يقدرك، وأن يمد بعمرك، لتكون سنداً وذخراً، لأن الخط الجميل، يا أفندينا، يفرح القلب ويصقل النظر، كما يفتح باباً للجنة، ويقول للذين سيأتون مِنْ بعدنا: لقد أقام الوالي داود هذا، وبني ذاك، ورمم وأضاف لتصبح بيوت الرحمان جنة الأرض وطريقاً لجنة الخلد!

وكاد ربحي يُضيف أشياء أخرى، لكن الباشا الذي امتلأ وجهه بالبشاشة قاطعه، وكأنه يحدث نفسه:

- لا تنس يا ربحي أن تذكرني وتلح فِي التذكير حين نبدأ ببناء المساجد والمقامات والزوايا.

ـ بأي شيء تريدني أن أذكرك، يا أفندينا؟

هكذا سأل ربحي، وكان مسروراً بادي اللهفة، لأن الباشا استجاب لما كان يفكر فيه.

ردَّ الباشا، وبدا صوته عميقاً:

- كيف يجب أن يكتب اسم الذي بني مسجداً يصلي فيه المسلمون، والمقام الذي يضم رفات صحابي أو واحداً مِنْ السلالة الشريفة...

توقف، نظر إلى ربحي بعيون قلقة، وبعد لحظات صمت، أضاف بحزن:

- وكيف يجب أن يكتب على ضريح أحد الولاة!

وغص بكلماته الأخيرة، ربما لأنه تمثل له القبر الذي سيدفن فيه، لكنه تابع كأنه يكلم نفسه:

ـ صحيح أن حساب يوم القيامة يساوي بين الجميع، والناس عند الله سواسية، لكن مِنْ خفت موازينه فكتابه بشماله، ومن ثقلت موازينه فكتابه بيمينه...

وغير الباشا جلسته، فتغير صوته ـ خير القبور الدوارس.. ومع ذلك يجب أن يحترم الإنسان فِي حياته وموته، وما القبر إلا رمز لهذا الاحترام، ولذلك يجب أن يكون واضحاً، محمياً، لكن دون مبالغة.

توقف لحظة، وقد شعر أنّه ذهب بعيداً، تنحنح ثم تابع:

- المهم أن لا ينسى الإنسان آخرته، ولا بد أن يتذكر: وراء كُلّ حياة موت، وما يفيد الإنسان إلا ما سعى، والسعي هو الذي يشفع ويوسع القبر ويخفف الحساب ويقود إلى الجنة.

قال ربحي بمسكنة:

ـ الحق ما تقول يا أفندينا، لكن المرء هو الذي يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخرته كأنه يموت غداً!

وحين وجد رضا فِي وجه الباشا، أضاف وقد استبشر:

- والفرق كبير بين مِنْ يصرف عمره فِي الإحسان وعمل الخيرات ومَن يضيعه سدى...

ولم يتابع فِي نفس الاتجاه، فقد وجد أن الاتجاه الآخر أكثر أمناً وسلامة:

ـ إن تدوين عمل الخيرات، يا أفندينا، والاشادة بالذين قاموا بها، يشجع الناس على عمل الخير، لأن كسب الإنسان فِي هذه الحياة زائل ولا يفيده إلا الذكر الحسن.

ردَّ الباشا، وجاء صوته صلباً:

ـ أنوي إشادة جوامع كثيرة، يا ربحي، وأنوي ترميم الأضرحة، وإقامة الزوايا، ولا بد أن يذكر على تلك الأبنية لماذا بنيت، ومن يرقد فيها ومن بناها، حتى تجعل الناس يقدرون أولياءهم وبركاتهم، فتكال لهم الأدعية وتلهج بذكرهم الركبان.

- هذا ما يتوقعه الناس منك يا أفندينا، وسوف يتذكرون ذلك جيلاً بعد جيل، ويقولون: اللهم أحين لمن أحسن للمسلمين، اللهم بارك بالذين يقضون الليل تهجداً بذكرك، ولا يغمض لهم جفن وهم يسبحون بالائك، اللهم جازهم فِي الدنيا والآخرة...

وأشار إليه الباشا بيده أن يتوقف، فقد امتلأ تلك اللحظة بالشجن والتذكر والخشوع.

وحين خيم صمت طويل، وامتدت سكينة واسعة، شعر ربحي أن عليه الانسحاب. تحرك أكثر مِنْ مرة، ولما انتبه إليه الباشا، قال بصوت مسكين وهو يستأذن:

- أترك أفندينا، إذا أذن لي، فِي تبتله وخشوعه، وأنا رهن إشارته فِي كُلّ وقت وفِي كُلّ آن.

ردَّ الباشا، وهو يأذن له، دون أن يرفع إليه عينيه، وخرج صوته بعيداً:

- بارك الله فيك، واللهم قونا على فعل الخير!

أما حين خرج الباشا إلى الشرفة التي تقود إلى الحديقة المطلة على النهر، فقد رأى فيروز، وكان غريزة خفية قادته لكي ينتظره هناك. ابتسم له. نظر إلى ماء دجلة فرآه معتكراً. قال فِي نفسه: «شعب هذه الولاية كمياه النهر يعتكر لفترة ثم يصفو» وتذكر ما قيل فِي ناس هذا البلد، قالوا فيه أكثر مما قاله مالك فِي الخمرة. قالوا فيه شعراً ونثراً، لكنه يبقى وحده الرهان. رفع رأسه، وكانت حمرة أول المساء، تمتد بتدرج أخاذ، وقد تجمعت فيها كُلّ الألوان.

بانفعال قال كمن يحدث نفسه بصوت عالي:

ـ أقول، وهذا الغروب يشهد على قولي هذا، سوف يفعل داود ما لم يفعله غيره، سيفعل ما عجز عنه الأقدمون والولاة الآخرون، وسيلهج الناس، حتى بعد مئات السنين، بما سأفعل، واشهد أيها الغروب على ما أقول.

وفيروز الذي انفعل نتيجة انفعال سيده، سأل بلهفة:

ـ هل يطلب سيدي مني أيّ شيء؟

- كُلّ ما أطلبه با فيروز أن يمد الله بحياتي، وأن تكون أنت إلى جانبي.

هكذا ردَّ داود، وكان يواصل التمشي فِي الحديقة، وفيروز بعيد وقريب منه فِي آن واحد.

ثم تابع بنفس نبرة الصوت:

- سبحانه هو الذي يؤتي الملك مِنْ يشاء، وهو الذي يعز مِنْ يشاء، وهو...

والتفت إلى فيروز قبل أن يكمل العبارة، وقال بانفعال:

- كلفني عز وجل أن أفعل شيئاً لم يسبقني إليه أحد، وبمشيئته سوف أفعل...

كان فيروز يهز رأسه بحمية وانتظام دلالة الموافقة المشفوعة بالتضرع أن يستجيب الله لكل ما يقوله الباشا. واستطرد داود كأنه يعلن عهداً لا رجعة فيه:

ـ إذا شاءت إرادته لا بد أن يصبح داود سيد البر والبحر، ومثلما سيرضي الله سيرضي العباد، وكُلّ ما أريده منك، يا فيروز، أن ترفع يديك إلى السماء وتقول: اللهم استجب. اللهم اقبل وشد الأزر وحقق المنى، فأنت القوة والسند، وأنت الحامي والعمد، وأنت فِي البداية والمنتهى، فاستجب يا رب العالمين.

كان فيروز رافعاً يديه بتضرع وكان يتمتم وراء الباشا، لكن الكلمات كانت تتداخل وتضطرب، وخيم المساء.

قبيل تنفيذ الإعدام بأيام قليلة أمر داود باشا أن تسحب مِنْ مخازن القوات العسكرية كميات كبيرة مِنْ المؤن، وأن تطرح فِي الأسواق. وأوفد عدداً مِنْ رجاله، يرافقهم بعض التجار، إلى البصرة والموصل وماردين وحلب، وإلى مدن أخرى، مِنْ أجل شراء كميات مِنْ المواد الضرورية والإسراع بشحنها إلى بغداد، كما بعث بهدية إلى القنصل الإنكليزي تعبيراً عن الود، أو ربما للاعتذار عن التأخر باستقباله، وقيل كي يأمر القنصل الشركات الإنكليزية فِي البصرة بسرعة توريد المواد!

قال داود باشا لعزرا، وكان صوته حازماً ولا يخلو مِنْ تحذير:

-... وتقول للتجار، ولأهل السوق: اللي يزيد الأسعار بارة عن الأسعار التي حددتها الحكومة، ما يلوم إلا روحه...

وبعد قليل، وقد قست ملامح وجهه:.

-وإذا أحد منهم ما يفهم بعقله راح عيونه تفهمه عندما يشوف الجماعة مصلوبين.

وإذا كان اليوم الأول مر دون حركة كبيرة فِي السوق، فلأن الشك استولى على الباعة والمشترين معاً، فالباعة إذا كانوا مستعدين للبيع بالأسعار التي حددتها الحكومة، فإن هذا يقتصر على المواد التي تسلم إليهم فقط، لأنه يصعب عليهم بيع ما لديهم مِنْ مواد بخسارة. أما المشترون، وبعد أن فوجئوا بهبوط الأسعار، فقد توقعوا هبوطاً أكبر، لذلك لم يكونوا فِي عجلة مِنْ أمرهم، إذ يمكن أن ينتظروا أياماً أخرى.

أما بعد أن خرج المنادون، تسبقهم وتمهد لما سيقولون الطبول، فقد زفوا البشائر للناس، والتحذير لمن يخالف أسعار الحكومة بالبيع والشراء، ولم ينسوا أن يرفعوا الدعاء للوالي داود، وكانوا يرددون فِي نهاية النداء عبارة بذاتها: «وأعذر مِنْ أنذر»، وقد انتقلت العبارة بسرعة البرق إلى الصبية، إذ أخذوا يرددونها على شكل أهزوجة تسبقها كلمات وتلحق بها أخرى، دون أن يدركوا معناها بدقة!

حين وصلت الأخبار إلى قهوة الشط، بما فيها الهدية التي بعث بها الباشا إلى القنصل، وقيل إنها كانت عبارة عن ثلاثة رؤوس مِنْ أجود الخيول، مع تلك العبارة، أعذر مِنْ أنذر، فقد قال الأسطة عواد لعبد الله غبيشان، وفهم مِنْ كلامه ما يشبه التعريض:

- إلحق وبيع خيلك يا عبد الله، لأن الباشا فتح الطوايل، ومثل ما دز عشر روس للباليوز، وترس السوق دهن وطحين، فيعلم الله أنّه راح يركب كُلّ الناس خيول...

وضحك الأسطة، أصبحت ضحكته قهقهة، وهو يُضيف:

- وقد أعذر مِنْ أنذر.

وبعد أن هز عبد الله غبيشان رأسه مرات عديدة، تعبيراً عن العجب مما يجري حوله، قال الأسطة:

- اللهم إجعل آخر هالضحك خير!

وبعد قليل:

ـ قلبي يقول لي، يا عبد الله، بعد ما طلع لنا هذا الأشيقر ما أعرف شلون، أن الدنيا مو راهمة، مو عدلة، والله أعلم أن والينا مبيت سالفة! ومع أن البيع زاد فِي اليوم الثاني، ثم فِي الأيام التي تلته، وقال التجار الأنفسهم: خسارة هذا بربح ذاك، فإن اليوم الرابع كان غريباً، وخلافاً لما توقعه الكثيرون.

لقد نفذ داود باشا حكم الإعدام بعدد مِنْ رجال سعيد.

وجاء العيد ثقيلاً، ويختلف عن الأعياد فِي سنين أخرى.

ثم فجأة بدأ التساؤل مِنْ جديد: هل حان وقت زيارة القنصل للسراي؟

لا يعرف مِنْ طرح السؤال أولاً أو كيف، لكن لم يبق أحد إلا وكان له رأي، بل وأصبح موضع جدل واختلاف.

بضعة أيام، وهي الأيام الأخيرة التي أعقبت العيد مباشرة، وإلى أن حان يوم الخميس، والسؤال: متى سيقوم قنصل إنكلترا بزيارة الباشا؟

ظل هذا السؤال هاجساً، ولا يخلو مِنْ مخاوف، لأن «القنصل، كما قال الكثيرون، لا يتحرك إلا إذا ميز الخيط الأبيض مِنْ الخيط الأسود، فإذا تقدم أو تأخر فإن وراء ذلك سبباً».

لم يترك رجال الباشا لمثل هذه التساؤلات أن تستمر أو أن تسيطر، فقد سربوا أخباراً أن «الباشا لا يريد رؤية الأجانب الكفرة إلا بعد انتهاء أيام العبادة» ولا يضيفون تحديداً أو توقيتاً.

فإذا أبدى أحد استغرابه، وقال إن الأمر لا يتعلق بالكفر والإيمان، فالباشا لم يستقبل أيضاً قنصل إيران المسلم، يرد رجال الباشا بتعال وفخامة:

- لا تقلقوا... سيأتي وقت القناصل!

وحين يرون عدم الارتياح على الوجوه يضيفون.

ـ سوف يجد الباشا الوقت الذي يعتبره مناسباً لاستقبال هؤلاء القناصل، أما الآن فهناك ما هو أهم مِنْ هذه القضايا الصغيرة!

واستمر التساؤل... وطال الانتظار ورغم أن موعد استقبال قنصل إنكلترا كان قد تحدد، فإن الخبر لم يتسرب مِنْ السراي، وإنما أعلنه رجال القنصل. كانوا يذيعون الخبر أينما ذهبوا. ورغم أن بعض رجال السراي نفي أن يكون الموعد الخميس «لأن الباشا سيكون ذلك اليوم فِي سلمان باك لزيارة ضريح الصحابي سلمان الفارسي» فإن رجال القنصل عادوا للتأكيد اكثر مِنْ قبل على ان الموعد تحدد بشكل نهائي، «وعند الحادية عشرة سيتوجه القنصل إلى السراي، وسيكون الباشا فِي استقباله. أما الموكب فسيكون أعظم مِنْ جميع المواكب التي شهدتها بغداد مِنْ قبل».

حرب صامتة بين الطرفين، لم تهدأ ولم تتوقف طوال الفترة بين إعلان الخبر وانتظار يوم الخميس الموعود. كان أكثر الناس يترقبون، رغم الحزن والهموم وأعباء الحياة، لأن على ضوء ذلك ستحدد أمور كثيرة.

حتى النسوة اللواتي سعدن باستقبال داود باشا، راودتهن الرغبة فِي أن يشهدن موكب القنصل وهو يخترق شوارع المدينة فِي طريقه إلى السراي. وحين قابل الرجال هذه الرغبة بالرفض الممزوج بالاحتقار، كان ردَّ بعض النسوة: «المسألة كلها لا بالبال ولا بالخاطر، والروحة بالأصل لسلمان باك، لكن أنتم ردتم تشوفوا الباليوز...» وأضافت عدة نسوة: «هذا الزعطوط ما يسوى ظفره لحلاق الرسول، وشنو اللي جاب لجاب؟» ومع ذلك استمر رفض الرجال حاسماً، واعتبرت النسوة أن الأمر ليس بذي بال.

وجاء يوم الخميس.

كان الجو، ذلك اليوم، مقبولاً، رغم الحرارة والتقلبات التي حصلت فِي الأيام الأخيرة. رائحة القداح تعبق وتملأ أنحاء المدينة. أما أشجار الحمضيات، التي اغتسلت بأمطار مفاجئة، فبدت لامعة، نضرة، وأكثر خضرة مِنْ المعتاد. حتى طيور الحمام التي أخذت تحوم فِي الفضاء أسراباً، فكانت أقرب إلى الغيوم الصغيرة وهي تتشكل وتتمزق لحظة بعد أخرى.

قال نجدت أبو خيط، أحد أبرز كشاشي الحمام فِي محلة الميدان:

- الله... الله يا دنيا...

قال ذلك، وهو يتلفت فِي أنحاء السماء، يراقب أسراب الحمام التي بدت أكثر مِنْ الأيام العادية. وحين تنبه الناس لكلماته، تابع، وكان يوزع نظراته وحركات يديه بين الأرض والسماء:

- حتى رب العالمين، بهذا اليوم، قال لكل ما خلق: تونسوا، فكوا لبسانكم وخيلوا؟

وأخذ يصيح بطريقة فرحة وهو يشير إلى سرب حمام قريب:

ـ أيّ.. عيني... سوادي: اقمط! وانت أيّ... إنت، بغدادي فوق الوردانية! وأنت مكاوي: إلزم زين، دير بالك، لا تهدها، وراها وراها للوحة!

وحين وجد الفرح والتأييد فِي وجوه بعض الذين حوله، وكي يستفز المتحفظين، قال بتحد:

ـ شبيكم؟ ليش تباوعون علي هالشكل؟ باوعوا فوق، شوفوا شلون الدنيا مقلوبة، كُلّ واحد مخيل على وحدة، وكُلّ وحدة تقول: فدوة العيونك!

تدخل أحد الموجودين، وكان يتكلم بكل جسده:

- لك نجودي... الدنيا مو بس مقلوبة فوق، فوق وجوان باوع واشتم، ريحة القداح تفك الصدر، وشوفة الحبيب تبل الظهر، والطير فوق الطير تحل مِنْ الأسر، والزر جوا الزر تخلص مِنْ القبر، فقول: الله!

وتردد أكثر مِنْ صوت، وبحرقة:

- الله رب السماوات والأرض، سبحان ما خلق!

قال واحد مِنْ بعيد حين هدأت الضجة:

- سبحانه... بوجوهنا مدلغم، وكُلّ يوم كفخة أو زلقة، ومع أصحاب العيون الزرق: وردة وخزامة، ومع كُلّ خطوة يقول: الله واسم الله!

وحين بدا كلامه مستغرباً، أضاف:

- قبل أيام كنا غارقين بالوحلة. اليوم، وعلى قُصة أبو عيون الزرق:

شمسة وريحة قداح، وطيور طايرة بالسما، والأسعار نزلت همين، وما ينعرف بعد... شكو؟

قال واحد، سُمع صوته لكن لم يميز بدقة:

- على نياتكم ترزقون؟

ردَّ آخر:

ـ إنّه قريب ومجيب للدعاء.

هكذا كانت تدور الأحاديث والتعليقات بين الذين جاءوا سبكرين انتظار الموكب القنصل. كانوا يفعلون ذات تتزجية الرقت، لخلق جو مِنْ المرح وربما أيضاً لمقاومة الخوف الذي تسرب إلى الكثيرين نتيجة ما أشاعه رجال السراي. إذ بالإضافة إلى ما قالوه وأكدوه فِي الأيام السابقة، إن الباشا

سيكون فِي سلمان باك ذلك اليوم، وإنه لن يستقبل القنصل، فقد مر رجال الباشا هذا الصباح أيضاً وقالوا للجموع التي كانت تنتظر: «إذا ما رحت السلمان بالش راح عليكم الأول والتالي».

كانت كلماتهم واثقة، ووجوههم أكثر صرامة مِنْ المعتاد، كُلّ ذلك التأكيد. ما يقولون. وما أن يمضي رجال الباشا حتى تصل موجة مِنْ رجال الباليوز: الطبل، يا جماعة الخير، ما يندق جوا البساط؛ بآذانكم سمعتي طوب البانيوز، وبعد ساعة تشوفون القنصل بعيونكم ويعلق واحد مِنْ الجموع:

- بعد ساعة تطلع الشمس على الحرامية، ويبين الصادق مِنْ الجذاب!

وأهل بغداد لم يتعودوا أبداً على صدق الحاكم، فكيف إذا كان الذين يتكلمون باسمه اليوم هم نفس الرجال الذين تكلموا باسم سعيد، باسم التوتونجي، وظلوا يتكلمون بنفس الوتوفي والحماس؟

وانشغل الناس بأحاديث جانبية انتظاراً للساعة الحادية عشرة.

وإذا كان الكثيرون قد رأوا موكب القنصل مِنْ قبل، فإن الرغبة، هذه المرة، تفوق أية مرة سبقتها، إذ مِنْ خلال مراقبة الوجوه والتصرفات، ومقارنة موكب اليوم، ثم الوقت الذي ستستغرقه الزيارة، وأمور أخرى مشابهة، بأيام سابقة يمكن أن يستنتجوا الكثير!

قبل الحادية عشرة بقليل، مدفع وقع الطبول. خيم اتسمت ثقيل. نظر انناس إلى بعضهم، وكانت هذه أول إشارة على كذب رجال الباشا. كان وقع الطبون، فِي البداية، بعيداً، ثم ما لبث أن أخذ بالاقتراب. وشيئاً فشيئاً امتزج بأصوات آلات النفخ والآلات النحاسية، وعلى جانبي الفرقة الموسيقية، ويتقدمها رجال القنصل يوسعون الطريق، ويشكلون سورا يتيح أكبر قدر مِنْ الحرية لأفراد الفرقة الموسيقية لكي يجودوا ويعطوا أفضل ما يستطيعون، وعلى مسافة منتظمة وثابتة مِنْ الفرقة، كان الخيالة وعدد كبير مِنْ الحرس، وقد شقوا خطين مستقيمين، كأنه درب داخل الدرب، وإن بدا أكثر ضيقاً. وبعد خطوات كان القنصل.

كان القنصل فِي المقدمة، وعلى مسافة منه، مِنْ الجانبين: كبير ضباط المقيمية، جهة اليسار، ونائب القنصل جهة اليمين، ووراءهم بخطوات قليلة عدد مِنْ المساعدين والتراجمة، ثم خلف الجميع طوق مِنْ الحراس يشكل حماية للموكب كله.

الجميع على خيول باذخة مِنْ ناحية المضهر والصحة والنظافة، وقد زينت بأسرجة وأرسان جميلة لامعة، وكانت الخيول مِنْ حيث الطاعة وسرعة الاستجابة شيئاً عجباً لم ير أهل بغداد خيولاً مثلها، بل وأكد الكثيرون أن الخيول كانت تسير على وقع الطبون، إذ نرفع أرجلها وتضعها بنظام شديد

الدقة بالغ الصرامة، حتى ليظن مِنْ يراها أنّه يرى بشرة مدربين على الطاعة والانتظام.

القنصل وسط هذه المجموعة مختلف ومميز، مِنْ حيث الشكل والملابس والموقع، ورغم اختلاف وتميُزه كان منسجد وتتكاملاً مع المجموعة كلها، بل وكان مِنْ الضروري أن يكون هكذا، كي يبا. وكن شيء بهذا الجمال ويتلاك الروعة.

خلف، هذا الموكب، موكب آخر، مِنْ رعاع المدينة وبسها لباسها والمتسولين والعاطلين عن العمل والصبية. كان هؤلاء يتدفقون وبهز جون، وكانوا يتبادلون النكات وبصرخون وينادي بعضهم بعضاً، كما لا يكفون عن توزيع التحيات على الذين اصطفوا على جانبي الطريق. ولو الحراسة الشديدة التي أحاطت بانسموكب، لأفسد هؤلاء الرعاع كُلّ شيء. لكن أصوات الطبول والآلات النحاسية، ووقع حشوافر الخيل، وذلا الصمت الذي غطى الواقفين على الرصيفين أثناء مرور القنصل، أعطى كُلّ ذلك طابعاً مِنْ المهابة والقوة، جعل الكثيرين يهزون رؤوسهم عجباً.

الناس الذين اصطفوا على الجانبين أثناء مرور الموكب، كانوا محايدين، يرقبون كُلّ شيء بانتباه وبصمت، لئلا يفوتهم تصرف أو تخفي عليهم حركة. وإذا كانت الأنظار قد انشدت أول الأمر إلى الفرقة الموسيقية، ثم إلى الحرس، فإن اقتراب القنصل جذب كُلّ الأنظار، وفوت على الكثيرين الانتباه إلى الذين يحيطون به، ثم إلى المرافقين خلفه.

ولأن الناس يحبون الاختلاف، ويلتذون بالمشاكسة، ولكل إنسان طريقته فِي رؤية الأشياء، وله تقييمه الخاص أيضاً، فإن كُلّ مشهد فِي ذلك اليوم، كُلّ حركة، كان موضوع تعليق واختلاف.

بعد أن وصلت الأخبار إلى قهوة الشط، قال عبد الله غبيشان:

- عرس واوية؛ دنابك وكدش، عجم وهنود، وكأنه طهور ابن مهيد.

مو بس هالشكل، وين اكو شلاتية ببغداد كانوا وراهم يصفقون ويرقصون، والناس تباوع وتقول: سبحانه.. يعطي الحلاوة للي ما عنده سنون؟

ردَّ عليه الأسطة إسماعيل، فِي محاولة لاستفزازه:

ـ على كيفك يا معود، كُلّ اللي شافوا الموكب قالوا: عبالك موكب السلطان: مزامير وطبول، مزيقا وقياطين ونياشين... هاي وين تلقى مثلها بغداد؟

- خلينا مِنْ هذا الكلام، أبو حقي، كلها قشمرة، وضحك على الناس!

- شلون قشمرة، مولانا، إذا رجال الوالي تلقوه مِنْ راس الجادة، وكُلّ واحد: تفضل مولانا، تفضل آغاتي، وفوقها بخور وزهور وما يندرى بعد شنو!

احتد عبد الله غبيشان، والذي كان متحمساً لداود منذ البداية:

- لعلمك... آغاتي: الباشا ما قام مِنْ مكانه لما وصل القنصل، وبإصبعه شاور، ما معناه: اقعد. لا مد ايده ولا سنم. حتى مباوعة ما باوعه. ظل الباشا يسولف ويا جماعته، وبعد ما خلص واستراح التفت وقال للترجمان: ترجم: الباشا يقول لك أهلاً، وأنت ضيفنا، والضيف لازم يكون مؤدب، وإذا صار لك حاجة راجعنا، وسكت!

ردَّ الأسطة إسماعيل، فِي محاولة استفزاز جديدة:

- بابا، أنت تعرف، وكُلّ الناس تعرف، الأشيقر، أبو الباليوز، لبلبان بالعربي، وما ينراد بينه وبين الوالي ترجمان، منين جبت قصة هذا اللي قعد وسطاني، ما تقول لي؟

ولأن عبد الله غبيشان ارتبك، إذ لم يعرف كيف يجيب، فقد تدخل الحاج شبلي:

ـ لا تروحوا زايد، يا جماعة الخير، وما لازم تفتهموا كلامي على أنّه دفاع عن القنصل، معاذ الله، بس الرجال أخذ موعد مِنْ الباشا، والباشا قال له تعال بفلان يوم بفلان ساعة، والقنصل جا باليوم وبالساعة، والضيف مثل الدخيل، إذا طب بالبيت صار مثل صاحب البيت وأزيد؛ فلا يعقل أن الباشا ظل منجعي، يسولف ويضحك، وزابل الرجال.... هذا ما يصير، وأي واحد ما يساويها.

سأل عبد الله بسخرية مبطنة:

ـ جنت بالمجلس حجي؟ شفت بعينك؟

- الله بالعين ما نشاف، قال الحاج شبلي بعصبية، لكن بالعقل انعرف، لو اني غلطان؟

- عفوا حجي، أجاب عبد الله، بس هذا اللي سمعته، ومن مصادر تعرف كلش زين!

- مِنْ واحد مِنْ جماعة الباشا، مو هالشكل؟

هكذا تساءل الأسطة إسماعيل، فِي محاولة جديدة للمناكدة. فرد عبد الله، موجهاً الكلام للجميع - يرحم والديكم لا تحرجوني، ولا تسألوا منو؟

قال الأسطة عواد، وكأنه يكلم نفسه:

ـ داود باشا غير سعيد، غير اللي جوا قبله، هذا باشا مِنْ صدق، والكلام اللي انقال، إذا صار كله، أو شي منه، يرفع الراس، لأن الله العليم أبو الباليوز حافر لنا حفرة ويريد يوقعنا بيها، ولازم أحد يوقف بوجهه قال الحاج شبلي وهو ينهض ليذهب إلى قهوة الكمرك، عله هناك يسمع المزيد مِنْ الأخبار.

- نريد نصدق... لكن...

وتابع وهو يمشين ـ عند العبرة يبين منو عنده قروة، ومنو صاغ سليم!

بعد أن أنجز الباشا المهمات العاجلة، بدأ باستقبال الوفود.

التقى أولاً بكبار رجال الدين، ولأن هؤلاء يعرفونه أكثر مِنْ غيرهم، فقد كانوا، أغلب الوقت، مستمعين، فِي هذا اللقاء تحدث الباشا بكثير مِنْ الوجد والانفعال عن الآخرة، وقال إنّه يراها رؤية العين كما تحدث عن يوم القيامة والحساب، وعن الجنة والنار، وكيف آن الحسنات والسيات، توزن بالعدل، وأن الإنسان وما سعي، والله جلت قدرته، لا يغفل عن شيء، حتى النملة التي تدب فِي زاوية مظلمة مِنْ هذه الأرض يحصي سبحانه، حركتها ويوفر لها رزقها، وأن الموعظة الحسنة بعشرة أمثالها.

وقبل أن ينتهي هذا اللقاء، أكد الباشا أن رجال الدين هـم الصفوة المختارة وعليهم الاعتماد فِي هداية الناس وإرشادهم سواء السبيل. ثم أمر أن تقدم لهم الخلع، عربونا للثقة، وأن لقاءات كثيرة ستجمعه بهم للاستفادة مِنْ نصيحتهم واجتهادهم.

ومثلما استقبل الباشا رجال الدين استقبل الوجهاء، وقد تبسط معهم كثيراً، وكان بادي الود والبشاشة، وبعد أحاديث قصيرة عن أخبار الناس وأحوالهم، أصبح حديث الذكريات هو الطاغي، مما كسر التهيب، وأفسح مجالاً واسعاً للعواطف أن تفيض والقلوب أن تلتقي وتتقارب، الأمر الذي جعل الكثيرين يلومون أنفسهم أنهم اساءوا الظن بهذا الرجل، أو ظلوا بعيدين عنه، رغم ما يتصف به مِنْ طيبة ومقدرة وحب الخير، عد عن طلاقة اللسان، والدقة فِي أحنتيار الكلمات والأمثال والحوادث، كُلّ ذلك دون تكلف، وبطريقة متواضعة أقرب إلى السحر.

وفِي ليال أخرى عديدة التقى الباشا برهط مِنْ شعراء المدينة وأدبائها، وقد سبق له أن تعرف على بعضهم، وكانت تربطه بهم صلات مودة وثقة.

وفِي تلك الليالي طال السهر وامتد، حتى قيل إنّه استمر فِي إحدى الليالي حتى الصباح. وأكد أحد العاملين فِي ديوان الباشا، أن الوالي وضيوفه بعد اللقاء الأول صلوا الصبح فِي جامع السراي، ثم دعاهم إلى مائدته. ومع تعدد أنواع الطعام، إلا أن الباجه كانت الوجبة الأساسية، بحيث أصبحت تلك الليلة، إذا ذَكرت، تذكر «بليلة الباجه»! أما وهو يودع ضيوفه، وحين سمع كلمات الثناء على اللقاء والطعام، فقد قال بنوع مِنْ الدعابة:

- مثلما مات سيبويه وفِي نفسه شيء مِنْ حتى، فإن البغدادي يموت وفِي نفسه شيء مِنْ الباجه؟

ولقد ضحك الشعراء والأدباء كثيراَ لدعابة الوالي، وتم نقلها، مع تحويرات كثيرة، وبمرح، إلى الأصدقاء والمعارف!

وإذا كان قد عرف عن الباشا طول الباع فِي أمور الدين، إضافة إلى التقى والورع، فقد فاجأ الكثيرين فِي ليالي الشعر بما كان يحفظه مِنْ الشواهد الهامة، وما يماثلها بالفارسية والتركية. وقيل إنّه روى مقطوعات عديدة، ولما سئل عن قائل تلك المقطوعات ردَّ بأنه لا يتذكر، وأرفق الرد بابتسامة خجولة، مما أكد أنها مِنْ نظمه، وأنه قائلها، لكنه، تواضعاً، وربما خشية مِنْ هذا الجمع المهيب، لم يشأ أن ينسبها إلى نفسه! ومما يعزز مثل هذا الاعتقاد أن الأشعار التي رواها كان يشفعها، حتى دون أن يُسأل، باسم قائليها وببعض التفاصيل الإضافية التي تؤكد أن مثله لا ينسى؟

وفِي هذا اللقاء لم يغفل الباشا عن الإشارة، وإن كانت إشارة سريعة، إلى أهمية الشعر ودور الشعراء، إذ قال فِي لحظة انفعال:

ـ إن الشعراء هم لسان الحق.

ثم أضاف بحمية حين رأى رؤوس الذين يخاطبهم تهتز موافقة:

ـ إن الشعراء هم الذين يعبرون عما يجيش فِي الصدور وما تخفي القلوب وهم الذين يرون أكثر مِنْ غيرهم وقبل غيرهم.

ثم أكد على ضرورة أن يهتم أولو الأمر بما يقوله الشعراء، لأنهم بمقدار ما ينقلون أفكار الناس ورغباتهم، فإنهم قادرون أيضاً على إظهار ما يصنعه الحكام، وخاصة السلطان، فالسلطان لا ينسى وقلما يسهو، لكن للحياة ضروراتها وأحكامها، وقد لا يتاح لجميع الناس أن يفطنوا لأهمية هذه الأمور، إلا أن نتائجها تظهر أثناء الحروب، وفِي مواجهة التحديات والمحن، وبالتالي ما كان يبدو خافياً على الآخرين، كان السلطان يعرفه، وهذا ما دعاه أن يفعل أو أن لا يفعل هذا أو ذاك مِنْ الأمور.

وهكذا وخلال شهور طويلة متواصلة، كانت مهمة داود باشا أن ينظم علاقاته، لكن بطريقة مختلفة عن السابق. فإذا كان شعاره أثناء الحصار أن يوسع القوس الذي يدور فيه، كي لا يفلت أحد، مما جعله يذهب إلى الناس، وأن يلتقي بهم، وأن يتحدث معهم ليقنعهم، فقد اختلفت الظروف بعد أن أصبح والياً.

الناس فِي المرحلة الجديدة بحاجة إليه أكثر مِنْ حاجته إليهم. عليه أن يبقى حيث هو، وأن يأتي إليه الناس. سيأتون بكل تأكيد. وسوف لن يسرف فِي الكلام معهم، فهم الآن بحاجة لأن يروا بأعينهم. ومثلما أتقن مخاطبة الناس فِي الماضي، عليه الآن إصدار الأوامر، توجيه الرسائل، ويجب أن تكون هذه قصيرة وواضحة.

أما رؤية الوالي بعد اليوم فيجب أن تكون أمنية، وحدثاَ استثنائياَ فِي حياة كُلّ مِنْ يراه، بحيث ينقل أخبار هذا الحدث إلى الآخرين كأعجوبة، وأن ينسبه إلى الحظ الحسن، لأن صدفة مِنْ هذا النوع لا بد أن تكون توفيقاً مِنْ الله ونتيجة رضى الوالدين!

هكذا أصبح يفكر، وهكذا أراد أن تجري الأمور.

فبعد اللقاءات الكثيرة التي أجراها، وكانت متنوعة إلى أقصى حد، وقد تحدث خلالها كثيراً، وتبسط، فقد رأى فِي الوجوه، أغلب الوجوه، نوعاً مِنْ القبول، لكن لم يصل إلى درجة الرضي. كان الذين يتحدث إليهم يسمعون، يهزون رؤوسهم، دلالة أنهم سمعوا، لكن ليس أكثر مِنْ ذلك.

ولأنه الآن فِي وضع يتطلب الانصراف إلى القضايا الكبيرة، وعدم الالتفات إلى ما يقال هنا وهناك، فلا بد أن يوجد مِنْ ينوب عنه فِي الحديث، لكي يقنع الناس، ويحملهم على الموافقة ثم الرضي. بل أكثر مِنْ ذلك، يجب أن يكون هناك حماس لكل ما يفعله. ليس المهم الاقتناع، المهم أن يُبهروا بما يفعل، وأن يفعلوا ما يريد. وبمرور الوقمنا، وبالتكرار، سوف يقتنعون بكل تأكيد.

ليست الصورة واضحة بعد، لكن سوف تتضح ولأن الشعراء يقضون أيامهم وهم يلوون الكلمات، لا بد أن يكونوا معه، سوف يملأ جيوبهم، وعندها لن يكون مضطراً لإقناعهم، وحدهم سوف يقتنعون، ووحدهم سيصلون إلى الحقيقة، وستتون مهمتهم عند ذاك إقناع الناس وحملهم على القبول ثم الرضى!

لم يخلق الله الشعر عبثاً، خلقه كي يكون تسبيحاً بقدرته وذكراً لنعمه. حتى الرسول عليه السلام، استعان بالشعر والشعراء، كأن حسان شاعره. وفِي كُلّ وقت، كان الشعراء يبشرون بالحقائق التي يفترض أن يقتنع بها الناس، وكان الناس مستعدين دوماً لسماع الشعر ثم السير وراء الشعراء. أما حول ما جاء فِي كتابه الكريم أن الشعراء يتبعهم الغاوون، فلا ينطبق على الشعراء المؤمنين الذين تعمر قلوبهم رهبة الله، ويدعون إلى الحق والجنة واليوم الآخر.

الناس بحاجة إلى الشعر مثل حاجتهم إلى الطعام، مثل حاجتهم إلى راحة الجسد والبال. وعندما يغيب شعر الإيمان يحل مكانه شعر الكفر والزندقة وأهل النار. والحاكم الذي يبتغي مرضاة الله، لا بد أن يستعين بهذا الجيش مِنْ الملائكة.

حين وصل داود باشا إلى هذا التصور، تراءت له وجوه عدد مِنْ الشعراء الذين عرفهم، قال لنفسه «الفراغ مفسدة للروح وللبدن، ومثلما يكون

الإنسان معرضاً للزيغ ووسوسة الشيطان، يمكن أن يصل إلى الإيمان، وأن يقضي عمره فِي ذكر الرحمان، وهذا ما يجب أن يفعله شعراء داود».

والفكرة تولد النكرة، كما السنبلة تأتي مِنْ الحبة، وتحمل عشرات الحبات، هكذا تأتي الغلال ويعم الخير.

وداود الذي ضير الحياة وذاق حلوها ومرها، لا يحتاج إلى مِنْ يعلمه دروساً جديدة. يحتاج فقط إلى مِنْ يحمل أفكاره ويوصلها إلى الناس، وهذه الأفكار ستكون مثل السنابل المليئة، إذ حالما تدخل إلى الوجدان لا بد أن تستقر هناك. ولعل مِنْ أكبر أخطاء سليمان باشا الكبير أنّه لم يستعن بالملائكة الذين سخرهم الله لخدمته، فأهمل الشعراء، ولم يلتفت إلى العلماء، وهذا ما يجب أن يتداركه هو نفسه، لأنه يريد بناء ينتقل مِنْ الآباء إلى الأبناء إلى الأحمان، حتى قيام الساعة.

صحيح أن أهل العراقي أصعب أقوام الأرض، وأكثر هم شراسة وجنوناً، لكن الحكم العاقل، الذكي، الذي يعر كيف يتصرف، قادر على ترويضهم وحملهم على أن يفعل ما يريد برف وفنانية، وكأنهم اختاروا ما يفعلون بأنفسهم!

لو كان سعيد يملك ذرة مِنْ العقل أو الإيمان لما وصل إلى ما وصل إليه، ولكنها مشيئة الله، أو كما قال الحكماء: رب ضارة نافعة.

لن يضيع وقته فِي تذكر الماضي، المهم أن يتلافي الأخطاء التي وقع فيها الآخرون، وأن يستدرك النواقص التي تشملت أكثر الحكام الذين سبقوه يسقطون فِي منتصف الطريق. حتى الذين وافاهم الحظ، وحكموا فترة طويلة، فإن الصدفة هي التي خدمتهم أو ربما حماقات أعدائهم، وليس بعد نظرهم، أو استعدادهم للأيام الصعبة، لأنهم حين ماتوا وغابوا مِنْ الوجود، لم يبق منهم أثر. بل أكثر مِنْ ذلك، دفع أبناؤهم أو الذين جاءوا مِنْ بعدهم، ثمن أخطائهم وتهاونهم.

وسرح داود باشا، وهو يفكر فِي الدولة التي يجب أن تقوم «الشعراء هم الذين يبشرون بالدولة، هم الذين يبدؤون، لكن ما يجعل الدوله نستمر وتظهر قوتها هم الذين يؤرخون للأحداث، ومن يقنع الناس بأهميتها، وهذا يتطلب أن يكون فِي الديوان: المؤرخون ورجال الدين والشعراء، ثم أولئك الذين لا يرون ولا يعرفون الآخرة!» أفكار تبدو غامضة، متداخلة، لكنها ستتضح يوماً بعد يوم، وسوف يجسدها أناس خلقوا لهذه الأسباب ولهذه الغايات. ليست مهمة الحاكم أن يقول إني فعلت كذا وكيت، يجب أن يكون هناك مِنْ يقول ذلك، وأن يردده كُلّ يوم، وفِي كُلّ مكان. وعلى الدعاة ألا يتعبوا مِنْ ترديد ذلك. إذ بدون الإلحاح ينسى الناس بسرعة، كما ليس لديهم الوقت أو الفكر الحصيفه كي ينقبوا أو يقارنوا ويتأكدوا.

لذلك كانت الأفكار الأولى التي حرص عليها داود باشا أن يفعل كما فعل حكام آخرون، فِي مصر وفِي بلاد الفرنجة، أن يأتي بالمطبعة، وأن يخرج للناس الجورنال. إذ عن طريق هذا الجورنال يمكن أن يقول الكثير، وأن يصل هذا القول إلى الناس. أما إذا ظل الأمر حبيس الصدور، ولا يسمع عنه إلا إذا حصل ما يذكر به، فإن الناس سرعان ما ينسون، أو تلتبس عليهم الأمور ثم الأحداث.

لكن الناس لا يتركون الوالي يفعل. إنهم عجولون، ضيقو العقل والنظر، وأغلب الأحيان لا يفكرون إلا فِي اليوم الذي يعيشون فيه، لذلك يجب أن يعاملوا كالخيل: أن لا يخلدوا إلى الراحة، وأن لا يحملوا أكثر مما يطيقون. فالراحة إذا طالت تولد الكسل، والجهد إذا زاد عن حده يولد الثورة. أما الإحساس بالخطر فيجعل الناس فِي حالة مِنْ التاهب والتحسب، خاصة أن الذاكرة مليئة، ولا تحتاج سوى التحريض!

بعد أن دخل داود باشا بغداد غاب ساسون مع الذين غابوا. لا.. بل إن غيابه بدأ أثناء الحصار، أو على التحديد فِي الأيام الأخيرة منه. إذ بعد أن أخذ سعيد بفرض ضرائب جديدة، والاستدانة مِنْ التجار، وبعد أن باع عدداً كبيراً مِنْ خيوله، فِي محاولة لتأمين متطلبات الحرب، أحس ساسون أن المركب بدأ يغرق، ومن الأفضل أن يغادره فِي الوقت المناسب. لا يريد أن يتحمل العبء بعد أن أقفرت خزائن الوالي، كما لا يريد أن يتورط مع التجار بأن يكون السيف الذي يستعمله سعيد لحملهم على تقديم القروض. ادعى المرض، ثم ما لبث أن توارى. حتى المحاولات التي بذلت فِي الأيام الأخيرة مِنْ أجل نقله إلى القلعة، باعتبارها أكثر الأماكن أمناً، قابلها بالرفض. قال للرسول الذي أرسل إليه مع عربة وعدد مِنْ الحراس: «سأفارق هذه الحياة الفانية اللعينة قبل الوصول إلى القلعة، فاتركوني أموت بسلام. أبلغوا أفندينا، سعيد باشا، أن قلوبنا معه، فليساعده الله ولينصره». وكي لا تتكرر المحاولة غادر البيت الذي كان فيه قبل أن تصل العربة إلى القلعة!

أما بعد أن دخل داود باشا، فكان عليه التزام الحذر أكثر مِنْ قبل «لأن الخطر الحقيقي، كما قال لابنه، يكون فِي اليوم الأول، خاصة أثناء الليل.

فالمهزوم يمكن أن يفعل أيّ شيء قبل أن يمضي، يحرق، يدمر، يقتل، لأنه بائس. أما المنتصر فلا بد أن يؤكد لنفسه وللآخرين انتصاره، ويكون هذا التأكيد أوضح وأقوى ما يكون حين تتأرجح جثث الأعداء فِي الهواء».

لهذا السبب اختار ساسون مكاناً أميناً لاختفائه، وقرر أن يبقى مختفياً «حتى يبرد الدم» كما أكد لزوجته، حين سألته إن كان مِنْ الأفضل مرافقته وأفراد العائلة، وأضاف بسخرية: «و ما يلزم بعد إلا آخذ وياي البيبي متو حتى يظل يصرخ: ساسون.. ساسون!».

عزرا كان موزعاً بين البقاء إلى جانب داود كي يراه الجميع، خاصة الذين لا يكنون له الود، وبين العودة بأسرع وقت إلى حيه وبيته كي يفرح لنفسه، ويجعل الآخرين يفرحون بعودته، بعد أن أصبح صراف باشي وكان حريصاً أيضاً على معرفة أين أصبح ساسون وكيف يمكن الوصول إليه.

لم يقل لأحد ماذا يفكر، أو ما يحتمل أن يفعله. حتى سؤاله عن ساسون ورد ضمناً وهو يسأل عن آخرين. لكن حين ذكره لم يخل سؤاله مِنْ سخرية:

- بدالكم.. ضابط الإيقاع، ساسون، شنو اللي صار بيه؟ بعدو شايل الدبنك جوا ابطه وخابص بغداد وثابر العباد؟

وحين تلقى إجابات غامضة، هز رأسه وأخذ يردد مقطعاً كان ساسون لا يمل مِنْ ترديده:

أيها الساقي إليك المشتكي *** قد دعوناك وإن لم تسمع

وفهم الذين سمعوا ولم يفهموا، رغم أن الخصومة بين الاثنين علنية ومكشوفة، لكن قدروا أن فِي ساعات الغضب، كما فِي ساعات الزهو، يقول الإنسان أشياء قد لا يعنيها تماماً.

وفِي الأيام التالية انشغل عزرا بأمرين: الأول، أن يبذل أقصى جهد ممكن لترتيب أوضاع السوق، ومحاولة تخفيض الأسعار وتأمين المواد، بعد فترة العذاب التي استمرت شهوراً طويلة. والثاني، أن يعثر على ساسون، خاصة بعد أن عرف كيف تعامل ساسون مع عائلته ومع عوائل أخرى صديقة، إذ لجأ إلى التهديد مِنْ أجل الحصول على معلومات حول مكان اختفائه، وقد استمر الحال هكذا إلى أن جاءت الأخبار أن عزرا التحق بداود وأصبح فِي الشمال.

الآن جاء وقت الحساب. لذلك لم يتردد عزرا كي يبث عيونه فِي جميع الأحياء التي يسكنها اليهود، وأن يراقب بيوت أقرباء ساسون وأصدقائه، مع أن الباشا نبه على الجميع: «لا نريد أن نكسب أعداء بعد اليوم، نريد أن يكون الناس معنا».

وإذا كانت العادة أن يلجأ الولاة وأصحاب النفوذ إلى استخدام الرجال فِي التحري ومعرفة الأخبار، فقد لجأ عزرا إلى بث عدد مِنْ عيونه فِي المقاهي والأسواق، واختار أيضاً مجموعة مِنْ النسوة ليساعدنه فِي هذه المهمة.

فسلطانة رجوان، وكانت تقود جوقاً مِنْ الدقاقات، ومعها ابنتاها سارة وزكية، إضافة إلى امرأة عمياء مِنْ القريبات؛ كانت سلطانة تتمتع بصوت جميل، وكانت ذات قوام، رغم السمنة، يثير شهوة الرجال، كما يثير فضول النساء، وقد عُرف عن ساسون أنّه يعتبرها أفضل مِنْ تغني البستة بين الرجال والنساء، ويؤكد مِنْ يعرفونه أنّه لم يكن يمر أسبوع دون أن يستمع إلى صوتها. كان يذهب إلى حيث تغني، إلى بيوت يعرفها، وإلى أخرى يتعرف إليها، إذا تعذر عليها موافاته إلى بيته أو إلى بيوت أصدقائه. وكان يود، أيضاً، لو تتاح له الفرصة لحضور الحفلات التي كانت تقيمها فِي بيوت المسلمين، لكن باعتبار أن تلك الحفلات تكون مقصورة على النساء، فقد نقل عن لسانه أنّه كان يسأل سلطانة بعد كُلّ واحدة مِنْ هذه الحفلات:

ـ قالوا لي غناك ذيك الليلة يخبل، وأنك غنيت مِنْ جوا صدرك، فأريد أن أسمع مثل ذاك الصوت!

وترد عليه سلطانة بمرح ودلال:

- بذيك البيوت كُلّ وحدة تقول للقمر آني أضوي أزيد منك؛ وتظل كُلّ خاتون تفتر وتندار مثل دولاب الهوا، فشلون ما تريدني أتخبل وأغني مِنْ كُلّ قلبي؟

ولا تتركه يجيب، يصهل صوتها كفرس مشاكسة:

- وأنتو... كُلّ واحد الله دعبله وشمره، قال له: روح يا عبدي مِنْ خلقتي، روح دور خبزتك بنفسك، ترى آني مِنْ اليوم ما علي!

ويبتسم الرجال الذين يسمعون، ينظرون إلى بعضهم ثم تفلت كلمات مِنْ هنا ومن هناك فِي إدانة سمنة سلطانة وقبحها، فترد، وقد تغير صوتها:

- الزمان عياب، لكن الخلفة وحدها تقول؟

وتشير إلى بنتيها. تخجل البنتان، أو تتظاهران بالخجل، فتصرخ فيهما بطريقة أقرب إلى الأمر:

ـ الوحدة منكم ببيوت المسلمين غزالة، وهنا تعرج، فشنوا اللي صاير؟

مثل هذا الكلام يعني أن سلطانه ستتجاوز نفسها، ستكون أرق وأجمل مِنْ ليال كثيرة سابقة، لأنها تعرف كيف تواجه التحدي.

عن هذا الطريق دخل عزرا. إذ بعد أن عرف عن العلاقة التي قامت بين زكية بنت سلطانة ونسيم ابن ساسون، وكاد الأمر ينتهي بالزواج، وقد أعطى الحاخام طقو موشي بركته، وقيل إنّه بدأ الاستعداد لليلة الحنة، إلا أن كُلّ شيء تغير فجأة.

سلطانة تقول إن ساسون هو السبب، إذ أوقف ثم أفسد كُلّ شيء، رغم الموافقة التي أعلنها فِي إحدى المراحل، شرط أن تتوقف زكية عن الرقص والغناء. فوافقت هي، واضطرت سلطانة للموافقة، رغم تأكيدها أنّه لم يسبق زكية أيّ مِنْ المغنين والمغنيات فِي بغداد منذ أن عرفت الغناء. لكن فجأة سافر نسيم، لا يعرف إلى أين أو إلى متى، وترك رسالة عند الحاخام طقو. كانت كلمات الرسالة شديدة الغموض، لأن القدر عاكسه واضطر إلى السفر؛ وأنه يحرر زكية مِنْ أيّ التزام ويترك لها أن تختار طريقها فِي هذه الحياة، رغم حبه لها.

قرأ الحاخام الرسالة أمام الأم وابنتها، وحين طلبت زكية أن تحتفظ بالرسالة، باعتبارها موجهة إليها، رفض طقو موشي، مدعياً أنها مِنْ ممتلكات الكنيس، وأنه مسؤول عن ذلك أمام الله لا أمام البشر! أدركت سلطانة أن ساسون هو الذي أراد هذه النهاية، ومنذ ذلك الوقت امتنعت عن تلبية طلباته، حتى تلك التي تأتي عن طريق أصدقاء، واستمرت هكذا، وقيل إنها رفضت الغناء ذات مرة حين جاء فجأة لحفلة بمناسبة عيد المجلة (بوريم)،

إذ طلبت مِنْ سمحة العمياء أن تغني بدلاً عنها، كما طلبت، همساَ، مِنْ ابنتيها أن تحتفظا بصوتيهما، لكي يسمع هذه الأصوات مِنْ يقدر قيمة الخبز والملح، كما قالت؟

بعد أن عرف عزرا هذه التفاصيل، وقد عرفها بالصدفة مِنْ الأسطة مهدي خضير، الذي جاء ليهنئه بسلامة العودة، وكان قد سبق أن عمل لديه سائساً، ويملك الآن عربة يجرها حصان مسن، وتستخدمها سلطانة فِي تنقلاتها لإحياء الحفلات، بعد هذه التفاصيل لمعت فجأة فِي ذهن عزرا الفكرة:

- تسلم لي على الخاتون، وتقول لها: أفندينا يسلم عليك هوايه ويريد يشوفك...

ولم يترك الأمر للصدف، تابع بحماس:

وتقول للخاتون: أفندينا راح يكون ببيت قداحي يوم الأربعاء، قبل الحفلة بساعة...

وتغيرت النبرة:

وإنت، قبل ساعة تجيبها وتجي، افتهمت؟ ما راح أوصيك..

ـ أمرك مولانا، تؤمر أفندينا، مِنْ هالعين ومن هالعين!

فِي بيت قداحي كان موقف عزرا بسيطاً وواضحاً:

.... ونريدك، خاتون، تساعدينا. والمطلوب بس نعرف مكان هذا اللي كسر عرضنا وسود وجوهنا، ولازم يعرف أن الدنيا مو قشمرة.

وسلطانة التي أحست أن كُلّ كلمة قالها عزرا تعنيها، ولها صدى فِي نفسها، لم تكن تعرف ما هو المطلوب. سألت بسذاجة:

- وأني، بدالك، شنو اللي أقدر أسويه؟

ـ أريد منك، خاتون، تعرفين ساسون بيا زاغور لاطي؟

مثل هذا الجريدي وين يلاقي زاغور يوكر بيه، يا أفندينا، فشلون تريد مني أنبشه والاقيه؟

وشعرت أنها تورطت، أو كأنها توافق على ما يريده منها عزرا. قالت فِي محاولة للتراجع:

همي ما تشيله جبال، يا أفندينا، ولولا إنا نقشمر روحنا ببستة وعتابا، ونطلع الضيم اللي بقلوبنا، كان مِنْ زمان طقينا، متنا، فالله يرحم أمواتنا، ويخلصنا!

- يواش.. بواش، خاتون، هذا الكلام ما ينصرف، بعدك بأول عمرك... وايدك تنوش...

وتغيرت نبرة الصوت:

ـ أنا وإنت مجروحين يا خاتون، واللي جرحنا هو ساسون؛ والله ما يقبلها أن نظل مقهورين وناكل أصابعنا ندامة. لازم نقول له ولغيره نحن منو، والظلم إذا حكم يوم ما يدوم كُلّ يوم، حتى رب السما ما يقبل، فلازم نتفاهم.

بعد جدل مرتبك، توصل الإثنان إلى نوع مِنْ التفاهم. فعزرا لم يكن يطلب أكثر مِنْ أن تفتح سلطانة عينيها وأذنيها، وأن تسأل بطريقة مناسبة، خفية، أين يمكن أن يكون ساسون، ولا يريد منها أكثر مِنْ ذلك، كما لن يقول لأحد أنّه عرف عن طريقها.

وفِي محاولة لنفي أية مسؤولية، أو أيّ تعهد، وبعد أن استفسرت عن الكيفية التي يمكن عن طريقها أن تعرف، أو توصل الأخبار، قالت بلهجة لا تخلو مِنْ يأس:

- آني لا أنشد ولا أدور بالزواغير. أما إذا شفت أو سمعت فادز أسطة خضير، هو اللي يقول لك ساسون وين...

كادت أن تقول: أبو نسيم، مثلما تعودت حين تخاطبه، أو حين تذكر اسمه بين الآخرين؛ لكن الجرح الذي أحست به بعد الذي حصل، جعلها قاسية، وكأنها تريد أن تنتقم، إذ أصبحت لا تذكر اسمه أبداً، وإذا اضطرت، وحسب السائل أو الجو، فلا تتردد فِي أن تصمت أو تلجا إلى التجامل أو المواربة، كأن تهز كتفيها أو أن تقول «هو». أما إذا أرادت أن تتحدث عنه مباشرة، وكان الجو أميناً، فتقول، ويخرج صوتها حاداً، مثل قطة محاصرة:

ـ لو جان بيه خير، لو ان رجال، ما جان روجينا هدته، وما قالت له: روح ويه جهنم، لا تفيد لا بالليل ولا بالنهار، مثل السيان: ريحة تهف ونفع ماكو! لكن عزرا الذي لم يكن يريد مِنْ سلطانة إلا مجرد خبر، وليس أكثر مما تطيق، كان يود أن يستعين بعدد مِنْ الأشخاص، لعل أحدهم، أو عدداً منهم، يساعد للوصول إلى هذا الذي عذبه، وخلق له تحدياً، إذ بدون الوصول إليه، أو معرفة ما يخطط وما يفكر، لا بد أن يظهر فِي وقت مِنْ الأوقات ويسبب له متاعب وتحديات، كما أن النصر لن يكتمل إذا ظل أقوى خصومه حياً، إذ يمكن أن يظهر غداً وقد تصالح مع الآخرين ليصبح خطراً مِنْ جديد..

كان عزرا على يقين أن ساسون مثل أسماك الأنهار الجبلية: أشواك كثيرة، ومرونة فِي الحركة والانتقال، لكن لا تغادر محيطها، إذ لو فعلت لن

يقدر لها أن تعيش. قد تختفي فترة، قد تموه نفسها، لكن لا بد أن تظهر حالما تشعر بالأمان.

قال الإثنين مِنْ رجاله:

ساسون سمكة نهر! وحين تطلع إليه الاثنان باستغراب، ولم يفهما ماذا يعني أو ماذا يريد، تابع وهو يبتسم:

ـ الأسماك النهرية، مهما ابتعدت، لا بد أن ترجع إلى نفس المكان!

استراح لحظة ثم أضاف: - والإنسان هوايه أذكى مِنْ السمك، فلازم نعرف العادات والمواعيد ولئلا تبقى الأمور مجرد رياضة فكرية أو حزازير، اندفع بتدفق، وقد تغير تماماً:

لازم تعرفوا: ساسون قريب، بدربونة مِنْ هالدرابين حوالينا، ولازم نكظه مثل الجريدي...

وتغيرت لهجته:

ـ السمك اللي يلبط، الجمار أول ما ينزل، الحليب مِنْ هايشة زينة ما كملت الخمس سنين، والعرق مِنْ عند ميخا، ذاك العرق الزين اللي ينجر مع الحيوة وصدور الدجاج السمينة، إذا باوعنا زين على هذي المسائل لا بد نلزم طرف خيط ونوصل لساسون. وبالليل، وين اكو مزيقا وطبل، باوعوا زين، وإذا مو أول ليلة ثاني ليلة ساسون لذاك المكان يتدهدى، وهناك يجوز نلزمه...

بهذه الطريقة كون عزرا شبكة مِنْ نوع خاص، كبيرة، لكن منتقاة بعناية. وإذا كانت سلطانة حلقة فِي هذه الشبكة، فإنه لم يقتنع، أو لم يكتف، بالأشياء التي تأتي صدفة أو حسب رغبات الآخرين، إذ لا بد أن يذهب أبعد مِنْ ذلك.

بعد أن أقام عزرا هذه الشبكة المحكمة مِنْ العيون، لم يتردد فِي أن يبدأ بزيارات دينية متعددة. زار الحاخام الأكبر، وزار عدداً مِنْ الكنس فِي عقود عديدة يسكنها اليهود، وتعمد أن يتأخر قليلاً فِي زيارة كنيس أبو سيفين، والالتقاء هناك بالحاخام طقو موشي. لكن حين قام بهذه الزيارة أضفى عليها الكثير مِنْ مظاهر العفوية، إذ تباسط فِي الحديث مع الحاخام ومساعده، ومع عدد مِنْ الزوار. سأل عن أحوال العقد وسكانه، وما إذا هناك حاجة لأية مساعدة. كما لم ينس الالتفات إلى بناء الكنيس وحاجاته، فاقترح ترميم بعض الجوانب، وتجديد السور الخارجي. وحين وجد الرضي، الأقرب إلى الغبطة، فِي عيون الحاخام، رجاه أن يزوره فِي السراي لبحث التفاصيل المتعلقة بإنجاز هذه الإصلاحات.

لم يتأخر الحاخام طقو موشي فِي ردَّ الزيارة، ولم يتردد فِي أن يخوض مع عزرا فِي أحاديث وموضوعات عديدة، معتبراً، مِنْ باب اللياقة والكياسة معاً، ترك القضية المالية المتعلقة بالإصلاحات كنقطة أخيرة إذ مِنْ شأن الجو الودي، واكتشاف نقاط مشتركة، أن يسهلا تلبية أيّ طلب، وهذا ما حصل بالفعل.

كان الحاخام راغباً فِي مثل هذا الجو، وعزرا لم يكن أقل منه رغبة، إذ فِي حال توفره يمكن أن يصل أحدهما أو كلاهما إلى ما يريد، رغم أن مِنْ سيدفع المال سيكون فِي موقع أقوى ممن سوف يتسلمه، أو هذا كان شعور عزرا، الأمر الذي جعله يمتنع فِي هذا اللقاء عن الإشارة، مجرد الإشارة، إلى ساسون.

انتهت الزيارة بصورة مرضية للطرفين، حتى المال لما قدم كان تعبيراً عن واجب. أما حين قام عزرا بتوديع الحاخام، فقد أبدى ضروباً مِنْ العناية والحفاوة، ورجا أن تتكرر مثل هذه الزيارات، وأن تكون بأوقات متقاربة.

وقد أشار بانفعال إلى البهجة التي ملأت نفسه، وإلى الفوائد الكبيرة التي تحققت نتيجة المعلومات والشروح التي قدمها الحاخام حول أمور دينية وأخرى تاريخية، فامتلأ الحاخام بالرضى الكبير عن نفسه وعن الدور النافع

والضروري الذي يقوم به، كما شعر أن قلب عزرا يفيض بالإيمان، وأن تمسكه بالشعائر صادق.

قال عزرا لنفسه، وهو يعود ورجاله بعد أن ودع الحاخام مسافة اعتبرها كافية: مثل هؤلاء يحتاجون إلى معاملة خاصة، لأنهم شديدو الحذر، ويعرفون أشياء كثيرة، وهذه الأشياء بالذات هي رأسمالهم، تماماً مثل النقود للصيرفي، ومثل البضاعة للتاجر حين فرغ مِنْ زرع هذا الطعم، عليه أن ينتظر وقتاً، وقد يطول هذا الوقت، إلى أن تبدأ السمكة بالإقتراب، ثم نقر الطعم. لذلك عليه أن يحاول فِي أماكن أخرى.

ومثلما استدرج سلطانة، مستفيداً مِنْ العداوة بينها وبين ساسون، فلا بد أن يفعل شيئاً مماثلاً مع روجينا، إذ ربما تساعده، خاصة وأن الذين ينزلون تحت الأرض، الذي يختفون مِنْ السلطة، تسيطر عليهم فِي البداية، وبعد أن يزول خوف الساعات الأولى، الرغبة فِي الخمرة والجنس.

الخمرة، أول الأمر، كي ينسوا، إذ يريدون أن يخلقوا لأنفسهم عالماً يبعدهم عن الشعور بالهزيمة، وأيضاً لتنطفىء رغبة الانتقام السريع، لأنهم غالباً يجهلون الكثير مِنْ الأحداث التي تجري، ولا يملكون الرد المباشر، ويمكن للخمرة فِي مثل هذه الحالة أن تكون علاجاً، على الأقل خلال الفترة الأولى.

أما الرغبة الأخرى، والتي تبدأ تشتعل فِي عقولهم وقلوبهم، فهي أن يلتقوا بالجنس الآخر، وغالباً يفضلون نساء لم يلتقوا بهن مِنْ قبل، إذ بالإضافة إلى الحاجة التي يفرضها الجسد، فإن صلات مِنْ هذا النوع تعيد لهم الثقة بالنفس، وتشعرهم بالقوة، وأيضاً لإطفاء اللهب الداخلي الذي يولده الحقد والعجز فِي المجالات الأخرى.

ساسون الآن كالتنور، فما أن تغيب الشمس حتى يغرق فِي الكاس والطاس، وبعدها يريد صوتاً يملأ رأسه، وامرأة تدلله، ثم يلتف عليها ليغرق فِي النوم.

بهذه الطريقة اقتنع عزرا أن روجينا يمكن أن تكون مفتاحاً، خاصة بعد أن وصلته الأخبار، وتأكد منها، أن زوجة ساسون، أم نسيم، لم ولن تغادر البيت، كانت النهبية ينتظرون الساعة اللي أحط رجلي بالعتبة..

طريقة تعامل عزرا مع روجينا كانت مختلفة عن تعامله مع سلطانة أو مع الحاخام موشي. لم يتكلم معها مباشرة، بعث إليها واحداً مِنْ رجاله يعرفها، وهذا وضعها أمام خيارين لا تستطيع مقاومة أيّ منهما: المال أو الملاحقة. فإذا وافقت أن تتعاون وتقدم معلومات، وعن ساسون بالذات، يمكن أن يدفع لها ما تطلب، فقط أن تدلهم أين يقيم، ولا شيء أكثر مِنْ ذلك. أما لو

رفضت فإن العمل الذي تديره سينتهي، وعندها ستجوع هي. ومجموعة البنات اللواتي معها، وقد لا يُكتفي بذلك، يمكن أن تصبح الأمور أسوأ.

بعد جهد شاق، وبعد أن تكرر اللقاء معها أكثر مِنْ مرة، قال الرسول الذي كلفه عزرا أنها وعدت، وإن لم تعط موافقة صريحة وكاملة.

لقد قالت، أول الأمر، وهي تحاول الابتعاد عن أيّ التزام، ولتبرير الاعتذار، انها منذ مدة طويلة لا تعرف شيئاً عن ساسون، وأن العلاقة بينهما انقطعت، ومضى على ذلك أكثر مِنْ سنة. ولما اعتبر هذا العذر غير كان، وان الظروف الآن اختلفت عن السابق، إذ كان الكثيرون فِي خدمته حين شغل منصب صراف باشي، وقد تخلوا عنه بعد أن سقط، ولا بد أن يلجأ إليها، ردت أنّه فِي أيام قوته ونفوذه، وهي تعرف ذلك جيداً، لم يكن يريد مِنْ المرأة إلا نظرة وابتسامة، وإذا زاد عن ذلك فلا يتجاوز القبلة والشمشمة، تماماً مثل العصفور، وإذا طوخها: قرصة مِنْ الخد، أو يمد إيده على الصدر أو يخششها بين الزرور! وحين بدا الاستغراب على وجه الرسول، قالت بحدة:

خذ مني يا معود، آني اللي أدري بكل شي!

وحين ذكرها بالطرب وجلسات الأنس، ابتسمت بسخرية وعلقت:

- كلها مظاهر، ومثل ما يقولون: الاسم للنورة والفعل للزرنيخ!

ولما أبدى استهجانه، ولا يعقل أن يكون الأمر كذلك ردت، وهي ترفع يدها بيأس:

- اللي أكل الصواب يعرف شكو بالجراب؟

كادت الأمور تنتهي عند هذا الحد، لكن عزرا لم يقتنع ولم يسلم، قال للرجل الذي كلفه:

هذي روجينا، أشطر مِنْ دلال بالسوق، تريد تزلقنا، حتى نفك عنها ياقة، عبالها أيام ويرجع ساسون مثل ما كان، فتقول لها: الأحسن تحلب ويانا صافي، لأن بعدها تجي السطرة والدفرة.

بعد محاولات جديدة تخللها البكاء والرفض أكثر مِنْ مرة، قالت روجينا إنها لا تستطيع أن تقوم بهذا العمل المشين، والذي لا يتناسب مع ضميرها، وحتى لو سامحها البشر على مثل هذا العمل، فإن الرب فِي المنماء لن يسامحها! لكن هدأت فجأة، وقد ظهر الفرح فِي عينيها، وقالت أخيراً إنّه إذا وصل إلى علمها خبر عن مكانه فسوف تكلف مِنْ يوصل هذا الخبر. وبدا للرسول أن روجينا صادقة وكاذبة بنفس المقدار، لكن لم يستطع أن يصل معها إلى أكثر مِنْ ذلك، على الأقل فِي هذه المرحلة.

لم يعتبر عزرا النتيجة التي وصل إليها مع روجينا كافية أو مقنعة، بل أكثر مِنْ ذلك بدا له أن المرأة تحاول التهرب، وهذا ما دفعه لأن يثير شكوك سيا: عليوي، ثم أن يحرضه عليها:

.... وتعرف، يا آغا، صديقنا، أبو نسيم، ساسون، صاحب كاس وطاس، ومثل ما يحب الفلوس، وما يشبع منها، يحب الكيف: البستة والمقام، ويموت بيا ليل ويا عين، أما إذا صاحت مرية بآخر الليل: أوف، فتلقاه راكع خاشع، وبعد ما تخلص الأوف يشيل كراعه وينشمر بين زرورها...

وأراد أن يتابع كي يصل إلى هدفه، لكن ردَّ فعل عليوي، وقد انفرجت شفتاه، بدا مأخوذاً، وما كادت لحظة صمت تخيم، حتى علا صوته: - شكو بالدنيا غير هذي النفايس يا أفندينا؟ هذا ما قدمه رب العالمين وقال: تمتع يا عبدي، كُلّ واشكر!

وضحك بصخب، وهو يتلمظ، أو ربما لم تسعفه الكلمات، وبعد أن استجمع نفسه قليلاً:

- رب العالمين ما خلق الفاكهة حتى البني آدم يباوعها مِنْ بعيد، خلقها الحكمة، خلقها لضرورة وحاجة، وقال لعبده: إذا ما ذقتها، إذا ما أكلتها، أكلها غيرك، فأنت أولى بها، وإلا راحت، صارت طعام للعصافير وللواويات..

وتغيرت اللهجة؛ أصبحت أقرب إلى الحكمة:

- كُلّ ما خلقه، عز وجل، له سبب وفيه حكمة، يا أفندينا. وسبحانه خلق الإنسان وقال له: يا عبدي آني خلقت وسويت، وأنت افتهم، وعليك الباقي!

ردَّ عزرا برصانة أقرب إلى التأنيب:

ـ اللي تقوله يا آغا على عيني، بس...

ضحك بوقار، وقد تغير لونه قليلاً وأضاف: - سبحانه أنعم على الإنسان بالخيرات كلها، وفضله على العالمين، لكن تعرف، آغا: آخرها حساب وكتاب، وبعدها جنة ونار.

كان الآغا يهز رأسه موافقاً، وللحظات بدا خاشعاً، وخرجت كلماته أقرب إلى الدمدمة تأييداً، وبعد لحظة صمت قال، وكأنه يخاطب نفسه:

- سبحانه، مالك الملك، وهو على كُلّ شيء قدير!

- ومثل ما قال رب العالمين: أعطيتك، يا عبدي، كُلّ شيء، أعطيتك العقل، وجاء فِي سفر التكوين، كلام الرب: «وأخذ الرب الإله آدم ووضعه فِي جنة عدن ليعلمها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: مِنْ جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت. وقال الرب الإله ليس جيداً أن يكون آدم وحده،

فاصنع له معيناً نظيره. وجبل الرب الإله مِنْ الأرض كُلّ حيوانات البرية وكُلّ طيور السماء، فاحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها، وكُلّ ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها. فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية. وأما لنفسه فلم يجد معيناً نظيراً. فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام. فأخذ واحداً مِنْ أضلاعه وملأ مكانها لحماً. وبني الرب الإله الضلع التي أخذها مِنْ آدم امرأة وأحضرها إلى آدم. فقال آدم هذه الآن عظم مِنْ عظامي ولحم مِنْ لحمي. هذه تدعى امرأة لأنها مِنْ امرءٍ أخذت. لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً. وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان».

وإذا كان الآغا قد سمع شيئاً مثل هذا، أو ما يشابهه، أو ربما مختلفاً عنه، فلا يعرف لماذا يريد عزرا أن يغرقه فِي هذا الجو. إنّه مؤمن وكفى، لا يريد أن يسأل، ولا أن يعرف أكثر مما يعرف، فالله لا يحاسب الإنسان على قدر ما يعرف مِنْ الآيات وإنما يحاسبه قدر إيمانه.

كاد يقول لعزرا عن هذه الأفكار التي غزت رأسه وهو يسمع عن الحيوانات والطيور، وكيف أن حواء خلقت مِنْ ضلع آدم، لكن العبارة الأخيرة التي قالها عزرا على لسان الرب أعجبته: «وكان كلاهما عريانين آدم وامرأته، وهما لا يخجلان»، قال بصوت قوي:

- الله يعرف أكثر مِنْ البشر حتى وهم عراة، هذا شيء مؤكد، لأنه يرى كُلّ شيء، ويسمع كُلّ شي، ولكني...

وفجأة تذكر أن الحديث بدأ عن ساسون، وتذكر أن بداية الحديث كانت جميلة فسأل بمكر:

ـ كان ساسون، يا أفندينا، ملح وذاب، انفتحت القاع وبلعته، فشنو قولك حي أو ميت؟ بعده ببغداد أو انهزم؟ قال عزرا لنفسه، وهو ينظر للآغا ويهز رأسه: «إذا كانت هذه معلومات رجال الباشا فالباشا صام.. صام وفطر على جرية»، ورد ببرود:

ـ مِنْ أول الليل، يا آغا، وأني أريد أعرف!

ابتسم بحزن وعقب:

- تعرف يا آغا، طول النهار نركض، نريد نجمع بارة فوق بارة حتى ما تتصخم وجوهنا. نقول للي يسوي واللي ما يسوى: ساعدونا يا جماعة الخير، أعطونا دين، قرضة، وقبل ما يحول الحول ترجع لكم فلوسكم ومعها زودة، قلبنا انشلع، ونحن نركض وراء الناس...

وبدل أن يتابع، سأل بسخرية:

- وبدل ما تجاوبونا، وتقولون لنا شنو صاير بالدنيا، وين فلان وشنو صار بفلان، تسألون...؟

وضحك، فِي محاولة لاستدراج الآغا:

- واجبكم أنتم، آغاتي، تقولون: ساسون وين صار، وشنو راح نسوي اليوم وعقبه حتى نكظه مثل دجاجة، ونطلع فلوسنا وفلوس الناس مِنْ حلقه، لكن...

- حقك يا عزرا أفندي..

وبعد قليل وكأنه تذكر:

- لكن هذا منو؟ هذا شنو حتى نخبص روحنا به؟

هذا أكل أموال الناس يا آغا؛ هذا كان سكيناً فِي خاصرتنا كلنا أيام سعيد، لو نسيت وعفا الله عما مضى؟

وتوالت هزات رأس الآغا، بالموافقة والتذكر، لكن اعتبر أن الأمر ليس مهماً:

لكن هذا الجراب رجل دجاجة ما يحل، ولولا فلوسه ما كان أحد قال له: مرحبا، فلا تدير بال عزرا أفندي.... وحقوق الناس يا آغا؟ الفلوس اللي نهبها، والسوايات اللي سواها؟ وتغيرت اللهجة:.

ـ هذا تشوفه فقير مسكين، ورجل دجاجة ما يحل، لكن إذا ولانا مِنْ جديد الله أكبر، ما يخلي أحد مِنْ شره وأذيته!

ولئلا تبقى الأحاديث تدور فِي فراغ، ولكي يصل إلى نتيجة محددة، غير عزرا الاتجاه، إذ بعد فترة صمت سأل: ـ شنو رأيك، آغا، إذا قلت لك ساسون وين مُوكر؟

تطلع إليه الآغا باستغراب، فقد أحس أن عزرا يسخر منه. تابع متجاهلاً تلك النظرات:

ـ أراهن يا آغا، وأدفع ما تأمر به؛ إذا كنت غلطان...

وتغيرت اللهجة، أصبحت متآمرة:

- مولانا، روجينا تتظاهر أنها بطلت القوادة، لأنها ما تلحق تقود الساسون، بنية رايحة وبنية جايه، وآني بخدمتك ساسون أفندي، بس قول، تريدها: زغيرة، طويلة، سمينة بكر لو حايلة؟

وبعد قليل وقد انفتحت عينا الآغا على اتساعهما، ولا يعرف إن كان عزرا جاداً أم مازحاً يبلغه الأخبار أم يريد أن يعرف ردود فعله. مرت فترة صمت كافية، ولما وجد عزرا يتطلع ويهز رأسه، سأله:. حيرتنِي، مولانا، وتاهت علي

الحسبة، تسألني عن ساسون مِنْ صفحة وتتراهن أنك تعرف مِنْ صفحة ثانية، فشنو تريد تحزرني، مولانا؟. حاشاك، آغا، إنت سيد العارفين، لكن مر علي ابن حلال وقال لي:

خذوا بالكم يا جماعة، ترى الماي تجري جواكم وأنتم ما حاسين، وبعد ما قررته قال لي إن روجينا خري مري بين أبو سيفين وساسون، ليل ونهار...

وتغير صوته تماماً:

ويجوز، يا آغا، أن المسألة أكبر مِنْ القوادة، أكثر مِنْ بنت خاشة وبنت طالعة، خاف هو وغيره ضامين لنا ضميمة، وبليلة ما بيها ضو قمر بجيتون علينا...

وعاد إلى اللهجة الأولى:

هذا هو اللي يخوفني يا آغا! اقترب الآغا كثيراً، حتى كاد يلامس كتف عزرا، وسأل بحزم:

- صدق ام جذب هذا اللي سمعته؟ هذا اللي قالوه؟

- اسأل رجالك آغا، دز عليهم واسألهم، حتى تعرف الصدق مِنْ الجذب. واللي قالوا لك تعرفهم؟ ثقات؟

- مولانا، بغداد ما عندها سالفة إلا روجينا وساسون، وإذا ما تصدقني اسأل!

- والباشا يدري؟ عنده علم؟

ـ إذا كان أهل الداربين، والناس فِي القهاوي، وجماعة السوق كلهم يدرون، فشلون تريد ان الباشا ما يدري؟

ضرب كفا بكف، وقال كأنه يخاطب نفسه: - والله لأضربها ضربة فالة إذا ما تموتها تعورها هالبنت الحرام.

بصوت فزع، ردَّ عزرا كالموجوع:

- كُلّ شيء إلا هذه، يا آغا، لأنا نحن نريدها، وإلا تروح علينا الخيط والعصفور!

انتقل التحسب المشوب بالخوف إلى الآغا. سأل بارتباك.

قلت لي: عن طريق روجينا نصل إلى ساسون، ونحن ثارنا مع ابن هالحرام، فاترك المسألة علي. اتفقنا؟

عليك نور يا آغا، وما تريد أحد يقول لك أو يوصيك: روجينا وأمثالها صدورهم قبور الأسرار، يعرفون كُلّ شيء بالولاية، ويعرفون الناس على

البطانة، وهذول ما يجون بالعصا، يجون بالمال والمرحبا، فكل ما أريده منك المداراة وطولة البال، والكلمة الحلوة تطلع الحية مِنْ زاغورها.

ظل الآغا ينظر ويهز رأسه، وكان هذا الدرس لا يعجبه، وبعد فترة صمت قال بصوت عميق:

لازم نلقاه، إذا ما كان عن طريق روجينا عن طريق غيرها، وإذا ما كان اليوم، اليوم اللي عقبه...

وبعد قليل سأل نفسه بمرح:

- وين يريد يروح؟ شلون يفلت مني؟

لم يترك سيد عليوي لرجاله الاتصال بروجينا، ذهب إليها بنفسه.

صحيح إنّه التقاها عدة مرات مِنْ قبل، لكنها كانت لقاءات عابرة سريعة، أما الآن فيجد نفسه مدفوعاً لإقامة علاقة مِنْ نمط خاص. ومع أن له علاقات يتحدث عنها الكثيرون همساً، كان يروق له أن يبدو مختلفاً، ومثاراً لاختلاف الآخرين أيضاً.

يقول الذين يبغضونه أنّه فاجر، حين يجري الحديث عن علاقاته النسائية، لأنه يرتبط بعدد لا حصر له مِنْ النساء. ويضيفون أنّه فاجر مِنْ حيث السلوك واللسان، إذ لا يتورع عن استعمال أكثر الكلمات بذاءة، أما الشتائم فإنه يتلذذ وهو يقذفها، موجة وراء أخرى، مِنْ فمه، وكأنه يتغنى بها.

الذين لا يكون له عواطف خاصة، حباً أو كراهية، يقولون فِي وصفه أنّه زير نساء، ولا يخفون حسدهم! إذ يتمنى الكثيرون لو تتاح لهم مثل هذه العلاقات، شرط أن تبقى سرية! بعض أصدقائه يقول: الآغا طفل كبير، صحيح أنّه يغضب وقد يكون قاسياً فِي لحظات معينة، لكن قلبه أبيض كالحليب، لأنه يعفو ويسامح بنفس سرعة غضبه، كما يقول ما يفكر فيه دون تحفظ أو خوف، عكس الكثيرين الذين يفكرون بشيء ويقولون شيئاً آخر. أما عن علاقاته النسائية، فيعترفون أن له مثل هذه العلاقات، لكنها لا تتعدى الترويح عن النفس، وأنها «بريئة»، يقولون ذلك ويبتسمون!

وسيد عليوي يسمع الكثير مما يقال، لكنه لا يقيم وزناً، وبعض الأحيان يعلق بنوع مِنْ السخرية:

ـ أهل بغداد يموتون قهر إذا ما قشبوا، لازم يلاقون أحد يحطونه وسطاني وتشتغل عليه رحمة الله!

الآن، بعد أن برزت روجينا فجأة، لمعت فِي ذهنه أكثر مِنْ فكرة. لم يبعث أحداً مِنْ رجاله ليسألها عن ساسون، ولم يرق له أن يؤتى بها. إذ ما كادت بضعة أيام تنقضي على لقائه بعزرا، حتى طلب مِنْ مرافقه، حامد، أن يتوجها إلى بيت روجينا. ظهرت المفاجأة على وجه حامد، وهو ينظر إليه مستوضحاً عن دقة الاسم والطلب، ردَّ عليه الآغا بخشونة:

ـ أيّ نعم روجينا، روجينا القوادة، شنو بطلت تسمع؟

وصلا فِي وقت مبكر مِنْ مساء يوم ربيعي. كان جو ذلك اليوم دافئاً، وكانت رائحة الطبيعة تتفجر فتولد حالة مِنْ النشوة فِي الجسد والروح، وكانت هذه الحالة تجعل الإنسان ممتزجاً بكل ما حوله، حتى يحس أن

الأشياء أقرب إليه، وإنه جزء مِنْ الطبيعة بأشجارها وطيورها ورائحتها، بحيث يصبح أكثر خفة، وأكثر استعداداً ورغبة للتواصل والحديث، وربما الغناء.

روجينا فوجئت بالزيارة. كانت أقرب إلى الدهشة ثم الذهول. ورغم أنها تعودت منذ وقت مبكر على المفاجآت، وأضحت أكثر استعداداً لمواجهة المواقف الشائكة، إلا أن هذه الزيارة أشعرتها بالارتباك، بل وببعض الخوف، خاصة وأنها ربطتها بساسون.

تتذكر أنها رأت الآغا أكثر مِنْ مرة قبل سنين، لكن اسمه الآن يدوي فِي بغداد كما تدوي الطبول. وبمجرد أن يذكر الاسم تتولد حالة مِنْ الخوف الممزوجة بالاشمئزاز، خاصة بعد أن عُرف كيف قتل سعيد. إضافة إلى القصص الكثيرة التي يتناقلها الناس عما يجري فِي القلعة وفِي ثكنة الفرسان.

ثم إنّه قبل سنين لم يكن هكذا. كان نحيفاً، وله وجه أليف، ويزين الوجه شاربان أقرب إلى الشقرة، ومقصوصان بعناية. الآن يبدو ضخماً، وكأنه ازداد طولاً وعرضاً، أما الشاربان المتهدلان فإنهما أشبه بالأسلاك أو بليفة حمام قديمة، بعد أن أصبح لونهما يميل إلى الحمرة. والعينان لم تختلفا عن السابق، لكنهما الآن تخالط الحمرة بياضهما، فتبدو الدكنة حولهما وكأنها طوق يسور القسم الأعلى مِنْ الوجه.

فِي تلك المرات كان مع آخرين. وتتذكر روجينا أنّه شرب وضحك، لكنه غادر مُبكراً، لم تعرف لماذا لم تسأل نفسها ولم تسأل الذين جاء معهم.

الآن يأتي وحده، إذ ما أن أبلغها حامد، الذي سبقه بخطوات، حتى شعرت بالرهبة، ماذا يريد وكيف تتصرف؟

لأول مرة تشعر أنها محاصرة، مرتبكة، وعاجزة عن التصرف. هل تقابله كما تقابل الآخرين بالابتسامات، ثم كطريقة لكسر التهيب والخجل تروي، بسرعة، نكتة بذيئة، لتسيطر على الجو؟ هل تقوى على أن تفعل ذلك فِي مواجهة هذا الرجل الذي لا تعرف لماذا جاء أو ماذا يريد؟ الرجال الآخرون، الذين يبدون مترددين أول الأمر، ولا يخلو ترددهم مِنْ خوف، يقفزون، بعد كأس يشربونه بسرعة، للاندماج أكثر مما ينبغي فِي الجو، وهي تعرف كيف تبقى مسيطرة مِنْ خلال طريقة التصرف، مِنْ الحركة، أو حين تأمر البنات بالرقص والغناء.

حاولت أن تبتسم، وحامد يقف مائلاً ليفسح له الطريق، وتخرج الكلمات بسرعة:

- تفضل سيدي.. تفضل.. تفضل.

روجينا ترخي وجنتيها فِي محاولة للابتسام، تشير بيديها الاثنتين، دون كلمات، أن يتقدم، أن يتفضل، وتنظر بقلق إلى الخطوة التالية.

يدخل سيد عليوي متمهلاً. ينظر بسرعة إلى روجينا ويجيل عينيه فِي انحاء البيت، وتصل العينان إلى السقف، وكأنه يكتشف، وحين وقف وسط الصالة الكبيرة، وكان الصمت قوية، تنفس رائحة ثقيلة هي مزيج مِنْ العطور والرطوبة ودخان قديم، وكانت تختلط أيضاً برائحة كثيفة مِنْ الأكل والبشر والأثاث وربما أشياء كثيرة أخرى تراكمت منذ وقت طويل. لم يرتح عليوي للرائحة، ولم ترتح روجينا للصمت، ثم لهذه النظرة التي مسحت الأرض والجدران والسقف، ولم تتوقف عند وجهها إلا بشكل سريع وعابر.

قال ليكسر جو الصمت والرهبة:

- ريحة الدنيا برة تخبل: قداح وورد ورازقي...

وتغيرت اللهجة، بدت أقرب إلى المرح، وهو يُضيف ملتفتاً إلى مرافقة:

والخاتون عبالها بعد برد، مقفلة الأبواب والشبابيك...

والتفت نحوها:

- لو خايفة؟

ردت، وخرج صوتها خشناً مخدشاً بسبب التدخين والخوف:

- وين اكو خوف بصايتكم وصاية النشامة أمثالكم!

واستعملت يديها أكثر مِنْ الكلمات، وهي تدعوهما للتفضل والجلوس، وكان سيد عليوي يشعر بمزيد مِنْ الثقة والألفة معاً. وما أن ارتمى على مقعد فِي صدر القاعة، بعد أن تخفف مِنْ بعض ملابسه، حتى نظرت روجينا، مواربة، إلى المرأة. شعرت أنها بحاجة إلى تغيير ملابسها، لكن الشعور الأقوى الذي سيطر عليها أنها بحاجة إلى وقت لتخلو إلى نفسها، لعلها خلال ذلك تستعيد السيطرة على انفعالاتها. قالت مستأذنة، بارتباك مازجه الخوف:

- مِنْ رخصتكم، فذ دقيقة...، بك، بس أبذل هدومي.

ردَّ فِي محاولة لخلق جو أليف:

- ولا أحلى مِنْ هذا الثوب القلقلي، اللي تلبسينه، خاتون..

وبعد قليل وبمرح:

ـ لو اني غلطان؟

ـ حاشاك أفندينا، بش شايفة ومو مصدقة. جيتك بالدنيا!

خلال الدقائق القليلة التي غابتها روجينا خيم الصمت. كانت تُسمع فِي الداخل أصوات بشر وأبواب تُغلق، وحركة سريعة، لكن الآغا سمعها ولم يسمعها.

لما عادت روجينا بعد وقت قصير قضته فِي الداخل، بدت كأنها امرأة أخرى: الضحكة تفترش وجهها كله، ومع الضحكة ثقة تبذت بالحركات السريعة، الرشيقة، ثم التفاتات لا تخلو مِنْ تساؤل أقرب إلى الإغراء. أما الثوب الأخضر المزين بورود صغيرة بألوان صفراء وبنفسجية فقد نقل معه اريج القداح والربيع. وبدت روجينا وكأنها خبأت مقداراً مِنْ السنين فِي خزانة ملابسها! أما الرائحة التي هفت بعودتها، ورغم حدتها خلال اللحظات الأولى، فقد بدت مرغوبة، أليفة، خاصة حين امتزجت بنسمة الهواء التي اقتحمت الغرفة لما أزاحت الستارة العنابية الداكنة، وفتحت النافذة.

أعطى الآغا لنفسه فرصة كافية، تملى الشكل والحركات، ومع النسمات التي ملأت المكان، فحركت الجو وجددته، قال كأنه يتذكر:

- سبحان الله...

وبعد قليل وهو يبتسم:

- أتذكر أول مرة رأيتك وكأنها هذه الليلة..

وتغير صوته:

- هل تتذكرين؟

زمت عينيها، فِي محاولة للتذكر. لم يتركها تتابع رحلتها:

- عند صادق بك ولكي يزيل أيّ لبس لتشابه الأسماء:

صادق بك الدفتري، هل تتذكرين؟

قهقهت وقد بدأت تستعيد السيطرة..

- صدق كأنها البارحة يا بك...

وأضافت، وشاب كلامها شيء مِنْ حزن:

- ابدالك، يا بك، الواحد ما يعرف شلون تمر الأيام! ولئلا تستسلم لذكريات قديمة، ولكي تستعيد سيطرتها، تابعت:

ـ الأيام اللي مضت راحت وانقضت، هسه علينا الأيام اللي نعيشها.

وضحكت بغنج، وهي تنظر إليه بتحديد لتقرأه دون خطا:

.... وجيتكم تسوى الدنيا، وهذا الشرف، ابدالك، أبد ما أنساه، فشنو تحبون تشربون: عرق لو غير شيء؟

قال الآغا وهو يقهقه:

ـ ما نريد نسوي زحمة. جينا بليا خبر، بدون موعد...

جيتكم مِنْ السما يا بك، والواحد يتذكرها لولد الولد...

وقبل أن تسمع رده عما يرغب، صفقت بيديها، وفوراً دخل إثنان، رجل وامرأة. وإذا كان الرجل بدا فتياً، وكأنه يقوم فِي الدار بأكثر مِنْ مهمة، فإن المرأة كانت فِي حوالي الخمسين، أو تزيد قليلاً، وقد بدا وجهها ضاحكاً، أقرب إلى وجوه الأطفال. كانت ابتسامتها كبيرة وعيناها تسألان. وقف الإثنان فِي حالة تأهب، وقد أحسا بأهمية الضيف، ينتظران أية رغبة كي تلبي فوراً.

ومن جديد، وقد انتقلت روجينا مِنْ مقعد مقابل، بعيد، إلى مقعد أقرب مِنْ الأغا، وانحنت وهي تسأل بلهفة قبل أن تستقر على المقعد:

- عيني تباوع، وما مصدقة روحي، وما أدري آني بحلم لو بعلم!

قهقهت. جلست. سالت مِنْ جديد بلهفة:

مسوين اليوم دولمة وخبز عروق، وبعد ما خلص الخس نزل قبل كم يوم الخيار، واهل المروة دزولنا اليوم مخضرات تفك الروح: طماطه وكرفس ونعناع وبصل أخضر وخيار...

تطلعت إليه بطريقة معينة، وتابعت:. وأتذكر... يا بك، أنك كنت تحب الجاجبك واللبلبي، فشنو رأيك، تسمح لي أحضر فد شي؟

قال، وخرج صوته أقرب إلى المرح:

- كُلّ شي خير وبركة...

والتفت إلى حامد:

ـ شوكت أكلنا حامد؟

ولم يتركه يجيب، أضاف بصرامة:

صار الواحد منا ما يتذكر شوكت أكل، شوكت نام...

ـ وتشربون كاس قبل الأكل... بك؟

سألت وهي تنظر إلى اللذين يقفان دون حراك ينتظران الأوامر، وقالت، وقد تغير صوتها تماماً:

ـ تحضرون، أول شي، الشراب...

والتفتت إلى الآغا، وتابعت:

وبس يأمر البك، شوكت يحب ياكل، بدقايق كُلّ شي يتحضر.

وكان كُلّ شيء كان جاهزاً، فما أن انقضت دقائق حتى رتبت الأشياء كلها. كانت روجينا تتحرك بنشاط، بخفة، وكان تلك الحركة تمنحها المزيد مِنْ القوة والثقة بالنفس. لقد اقتحمت الحاجز الأول، فالآغا أياً كانت الأسباب التي جاء مِنْ أجلها، هو الآن فِي بيتها، وليس كأي زائر آخر، فقد امتدت يده إلى الكاس الأول، وبعد أن تدور الكؤوس، بعد أن تدوي الضحكات، سوف تعرف كيف تتصرف. ومع أنها لا تشرب إلا قليلاً، ومع أشخاص محددين، فقد شعرت أنها بحاجة إلى كأس أو اثنين ذلك المساء، لأن الشراب يختصر الوقت، يكسر الحواجز، ومن خلاله يمكن أن يصل الإنسان إلى أمور كان مِنْ المتعذر الوصول إليها لولاه.

والأغا، على الأقل فِي هذه الليلة، لم يأت مِنْ أجل ساسون وعزرا، بل ولم يفكر بهما إلا كما يفكر بارتفاع شجرة أو مساحة أرض، فالأمر، الآن، لا يعنيه، لكنه لم ينسه أيضاً.

و حين قدمت الكؤوس والشراب، كان مع الخادم والمرأة المسنة شابتان لا يزيد عمر الواحدة منهما على العشرين عاماً، وقد ساعدتا بهذا الواجب بخفر أقرب إلى الارتباك، وكأنهما لم تعرفا الرجال مِنْ قبل. وسألت روجينا، بعد أن دقت كأسه بكأسها:' - شتحب، يا بك، تسمع الغنا أو تحب تشوف البنات يرقصن؟

ردَّ الآغا، وكان لا يخفي ارتياحه:

ـ الزينة ما ينراد لها سؤال... خاتون!

ليلة لا تشبه الليالي الأخرى. هكذا قال حامد لاثنين مِنْ أصدقائه، وهو يزف إليهما أخباراً سارة بليال ستكون حافلة، لأن الآغا أبلغ روجينا، بعد أن امتد الليل وطال، وبعد أن تعددت الوصلات، إذ قال لها، وحاول أن يحمل كلامه شيئاً مِنْ الإغراء:

- سأزورك مع الولد، ونريد مثل هذه الليلة... وأزيد شوية!

ردت وهي تضع إصبعها تحت العين اليمنى، ثم تنقلها بسرعة تحت العين اليسرى:

- مِنْ عيني هاي قبل هاي!

ورغم الإغراءات الكثيرة مِنْ روجينا والفتيات اللواتي تزايدن مع الغناء والرقص، إضافة إلى النكات البذيئة والشراب، ورغم المحاولات التي بذلت كي يبقى ويقضي الليل معهن، إلا أنّه فِي لحظة مفاجئة نهض، وكأنه تذكر

أمراَ لا يحتمل التأخير أو التأجيل، ومن حركته، طريقته فِي التصرف، وحتى النظرات، بدا أنّه اتخذ قراراً غير قابل للمناقشة أو التعديل.

قال لروجينا وهو يضع يده على كتفها، وكأنه يختبر اللحم:

- تونسنا هوايه، خاتون، وبين يوم والثاني راح تشوفينا طابين عليك نوبة ثانية!

بعد أسابيع قليلة زار الآغا عليوي روجينا للمرة الثانية. جاء ومعه رهط مِنْ رجاله. كان مرحاً مثل المرة السابقة، أو ربما أكثر، وقبل أن تستعيد روجينا نفسها مِنْ وقع المفاجأة، إذ لم تكن بعد متأكدة مما رأت وما سمعت، حتى قال الأغا ليكسر التهيب:

ـ نحن الليلة ضيوفكم، وشكو عندكم يكفي ويزيد...

وبعد قليل، وبلهجة متآمرة أقرب إلى الهمس:

- والولد طقت أرواحهم، صار لهم شهور وأيام، الواحد منهم مثل الفرس الحايل، يشب على الحائط، فإذا طوخناها وياهم خاف يسوون لنا مكسورة. اليوم هتيناهم، قلنا لهم تونسوا!

ويفرح أقرب إلى النشوة قفزت روجينا. كانت تدور حول نفسها وهي تصفق وتنادي فِي وقت واحد، خاصة بعد أن ألقت نظرة لا تخلو مِنْ تمعن على وجوه الذين يرافقون الآغا مِنْ لحظة دخولهم، لتقرأ فِي تلك الوجوه ما تحمل مِنْ نوايا ورغبات. أما بعد أن سمعت ما قاله الآغا، وما بدا على وجوه المرافقين، فقد شعرت أنها كسبت نصف المعركة.

وكان الاستعداد كان جاهزاً وكاملاً، توقعاً لمثل هذه الزيارة. خلال فترة قصيرة مُدت مائدة كبيرة، وكانت عامرة. وشيئاً فشيئاً عبق الجو برائحة دخان الغلايين وقرقرة الأراكيل وأصوات الأطباق، وروجينا مثل النحلة تنتقل مِنْ مكان إلى آخر، تغيب بعض الأحيان كي تظهر فجأة، أما حين دخلت وسرب مِنْ الفتيات اللواتي تهيأن لهذه الليلة، فقد بدا الجو احتفالياً متوهجاً، خاصة بعد أن انتشرت موجة مِنْ العطر القوي، ترافق مع بعض الهلاهل التي لم تكن عالية إلى درجة الإزعاج، كما فِي الأعراس، ولم تكن منخفضة إلى درجة الخجل. كانت قصيرة، مرحة، لكن تكفي للإعلان عن بداية الاحتفال. أعقب ذلك أدوار تعودت الفتيات على أدائها: بضع نكات، تحمل إشارات جنسية مبطنة، ثم تقليد لحركات مرحة أقرب إلى التمثيل، وقد شارك فيها عديدون، وأغلب الأحيان، أناس الداخل.

ما كادت هذه الحركات تنتهي، حتى تغير الجو تماماً... تفكك ثم ارتخي. أصبح مرحاً مفتوحاً، وكان كُلّ فتاة تعرف الجميع منذ وقت طويل. فالتصرفات تتسم بالمرونة، وتحمل مقداراً كبيراً مِنْ الإغراء، إضافة إلى رشاقة المراهقة، خاصة تلك الطريقة فِي الضحك، والتي تشبه الصهيل، إذ ما تكاد تضحك واحدة، أو بمجرد أن تبتسم حتى يندلع المرح، فتعدي

الأخريات، وفجأة يصخب الجو بالضحك وتبادل النكات، وأيضاً بتبادل الغمزات والإشارات، خاصة بين الرجال حول أيّ الفتيات أجمل مِنْ الأخرى، وأيها الأكثر ملاءمة لهذه الليلة!

روجينا بمرح وفتون تدور بين الضيوف، وقد توردت وتغيرت. أما بعد أن ارتدت ثوباً جديداً، وطريقة الفتيات فِي استقبالها، وربما كان الأمر سيمر دون أن يلفت نظر الرجال ودون أن يميزوا ما حصل مِنْ تغيير، لكن تلك الصرخات الصغيرة، الأقرب إلى الدهشة، المعبرة عن الإعجاب، جعل الرجال يتوقفون ويمعنون النظر، ثم ليكتشفوا الجمال الذي لا يزال يدافع عن نفسه، ويؤكد وجوده، مِنْ خلال بروز الصدر وعري الزندين والكتفين، وتلك النظرات التي تحفل بالإغراء والخبرة، وتقول الكثير وهي تلتفت إلى هذه الجهة أو تلك!

وبنفس النعومة التي يختفي بها النشالون، وبتواطؤات تفتقر إلى البراعة العين مراقبة، أخذ الرجال والنساء يتسللون. كان بعض مرافقي الآغا أكثر خجلاً مِنْ غيرهم فِي التصرف والحركة، لكن ذلك لم يدم إلا لفترة قصيرة، عابرة. فالفتيات يعرفن كيف يعالجن مثل هذه الحالات: بالجرأة الزائدة لقهر الخجل، بالضحك الصاخب، وأيضاً بالإعلان الصريح عن الرغبة، لإثارة المتأخرين!

كان يجري ذلك متخطياً الصعوبات وبعض الحرج، ليقف على مسافة غير قليلة مِنْ الآغا، إذ لم تتجرأ واحدة لتجاوز المسافة التي حددها، أو الطريقة التي يجب أن يُعامل بها.

ظل الأمر كذلك إلى أن جاءت روجينا بثوب جديد آخر. وبإشارات خفية، أو ربما بسبب تعليمات سابقة، وربما بتعليمات فرضها الثوب ذاته، أو هذا المقدار مِنْ العري الذي ظهرت فيه، انسحب، تباعاً، الموجودون، وبقيت روجينا والآغا وحدهما.

لم تكن تجرؤ أن تطلب منه الانتقال إلى غرفة داخلية، رغم أن رغبة جامحة راودتها، وربما تبديل الثوب أحد التعبيرات عن ذلك، إذ كان يكشف جسدها أكثر مما يستره، خاصة بعد أن أحست أن الآغا ينظر إليها بشهوة وبطريقة مختلفة، وكأنه يحاول إعادة اكتشافها، إذ سمح لنفسه أن يمسحها مِنْ بطة الساقين حتى الشعر الذي تركته مسترسلاً هفهافاً، وكأنه إعلان أخير عن ما تمتلكه مِنْ كنوز. أما حين توقف عند الصدر، ثم عند الزندين، فقد تركته يتمعن ويتوقف، لكن قالت له، مِنْ خلال العينين والابتسامة، إنها رأته يفعل ذلك، وإنها سعيدة لأنه فعل! بل وتعبيراً عن ذلك تعمدت أن تضرب كاساً بكأس، بعد تلك النظرة الطويلة المتأنية، وكأنها تعده بأكثر مما

رأي، خاصة وهي تنهض لأمر لم يكن مهماَ، ولكن التفسح له الفرصة كي يراها مرة أخرى، ومن كُلّ الجوانب!

قالت وهي تعود متمهلة كفرس تعرف مدى ما تملك:

ـ الولد هوايه متونسين...

ضحكت وهي تتابع، فجاء صوتها مليئاً بالإغراء:

- خابصين الدنيا جوا، ما تسمع إلا: أيّ أوي، يواش يواش على كيفك؟

واقتربت منه أكثر، حتى كادت ترتمي فِي أحضانه وهي تجلس إلى جانبه، قالت فِي محاولة اختبار:

عفواً أفندينا، خاف عورتك، ضايقتك..

كانت تقول هذه الكلمات وهي تنظر إلى عينيه بإمعان لتقرأ الإجابة قبل أن يجيب. ردَّ وهو يقهقه:

ـ عَلَواه كُلّ المضايقات اللي خلقها رب العالمين هالشكل، لكان البني آدم يبوس إيده وجه وقفا ألف مرة كُلّ مطلع شمس، ويقول: زدنا مِنْ هذه الخيرات!

وامتدت يده إليها. طوق كتفيها، شدها إليه. عصرها وهو يتشمم عطرها. أعطته نفسها للحظة، لكن فِي اللحظة التالية ماءت: أوي، أوي..

صدرت عنها هذه الأصوات، وهي تنظر إليه، ولما استمرت يده على كتفيها، وربما اشتدت قليلاً، قالت بغنج:

ـ اسم الله... أقوى مِنْ شاب ابن عشرين!

شدها إليه أكثر مِنْ قبل، ليثبت لها أنّه أقوى مما تقدر أو تظن، ماءت، واقتربت منه، سألت وهي تنظر إليه مِنْ أسفل، بعد أن أصبحت فِي حضنه:

- تحب نخش جوا... حتى ترتاح؟

- اليوم: الزغار، وآني فد كم يوم وما تشوفيني إلا وطاب عليك، وراح نتونس هوايه!

قالت وهي تتمسح به أكثر مِنْ قبل: - علواه اليوم وكُلّ يوم! وبعد قليل وبلهفة:

ـ فدوة لعيونك، آغا!

حين أحست أن رفضه قاطع، وأن أية محاولة لن تكون مجدية، احتفظت بتوسلاتها.

قالت بطريقة لا تخلو مِنْ استفزاز مثير:

ـ أنتم الرجال إذا ردتم فد شي ماكو مرية تقدر تقول لا، أما المرية لو رادت، إذا اشتهت، حتى لو احترقت مِنْ جوا، واشتعل أفادها، فتقولون باجر واللي عقبه، وخلي المرية تشتعل وتموت بنارها!

ـ على كيفك... خاتون. الدنيا أخذ وعطا، وإذا مو اليوم ثاني يوم!

وبعد قليل وكأنه يوضح ويعتذر:

صار لي يومين ما نايم، خاتون. ولولا غلاوة هالشباب علي، وقلت أنفه عن صدري شويه لكان صاير لي ساعة ساعتين وأنا نايم!

وأكرم الشباب الفتيات أكثر مما توقعن، وأكثر مِنْ المعتاد. فعلوا ذلك داخل الغرف، ولكل واحدة بمفردها. وقدم شاكر زبيبه، باسم الجميع، هدية ومبلغاً مِنْ المال لروجينا. رفضت أن تقبل أول الأمر، وأصرت على الرفض، لكن حين قال لها عليوي:

ـ ترى إذا ما قبلت هذه الصوغة ما راح تشوفين وجوهنا نوبة ثانية! اضطرت أن توافق، وكانت شديدة التأثر، أقرب إلى الارتباك، فهي مضطرة أن تقبل لأن مِنْ يرفض النعمة يعاقب فِي الدنيا وفِي الآخرة، حسب قناعتها؛ ولأن مثل هذا المال يمكن أن يصبح قيداً أو رسناً تُجر به، خاصة وأنه يأتي مِنْ عليوي ورجاله، ولا تعرف ما يريد منها. تمنت لو أنها لا تعرفه، أو لا تواصل اللعب معه، لأن وجه ساسون طوال السهرة لم يفارقها، بل وفِي لحظات كثيرة كانت تظن أن الوجه الذي تراه، اليد التي تشد كتفيها، هما لساسون وحده.

قالت، بعد أن انفض الجمع وانتهى الاحتفال، وكانت كُلّ واحدة مِنْ الفتيات ثري الأخريات ما قدم إليها، وتنظر بإمعان إلى الهدايا الأخرى، قالت روجينا لنفسها، وكانت تريد أن يسمع الجميع كلماتها:

- يا رب اجعله كله مِنْ بركاتك ومن خيرك!

وفِي اليوم التالي، حين كانت الفتيات يستعرضن القطع الذهبية والهدايا التي قدمت إليهن. قالت لهن روجينا بنوع مِنْ الرجاء.

ـ علواه لو تبدلن هذا الذهب بذهب غيره، لأن الذهب الحلال يغسل الذهب الحرام...

وبعد قليل، وكان تسال نفسها:

ـ ما يندري منين جايبين هذا الذهب، وما يندرى هو حلال أو حرام؟

رغم مرور أيام عديدة على الزيارة ظلت روجينا متحسبة، يخامرها التساؤل والقلق: ماذا يريد منها سيد عليوي؟ هل جاء ليسألها عن ساسون؟

لكن لم يشر إليه مجرد إشارة. هل جاء للراحة والتسرية عن النفس؟ ولكن مثل هؤلاء يخفون وجوههم بألف قناع إذا اضطروا للمجيء، أما هو فقد صهل كالحصان حين دخل، وملأ هرجه البيت كله. وخرج أيضاً دون أن يفعل شيئاً. لماذا جاء إذن؟

ظلت هذه الأسئلة، وأخرى غيرها، تعاودها وتقلقها، وكُلّ الإجابات التي افترضتها لم تكن مقنعة أو كافية. أما إجابتها للفتيات اللواتي كن عندها تلك الليلة، ثم إجاباتها لمن يسألها عن زيارة عليوي، فقد تعددت وتغيرت مرة بعد أخرى، لأنها لم تكن متأكدة مِنْ شيء. كانت أغلب الأحيان تجيب وعيناها تتيه فِي أمكنة بعيدة.

ولأنها رأت الكثير فِي هذه الحياة، وتعرفت على نوعيات لا حصر لها مِنْ البشر، كانت تميل إلى طريقة فِي التفكير والتصرف تختلف عن معظم الناس، إذ تعتبر الرجال القساة الذين يفاخرون بعدوانيتهم، والذين يتلذذون باستعمال الكلمات البذيئة، ولا يترددون بضرب أو شد شعور النساء، إن مثل هؤلاء شديدو الضعف، وأغلب الأحيان بحاجة إلى أمهات أكثر مِنْ حاجتهم إلى عشيقات!

لم تكن تقول ذلك لأحد، بل ولم يكن هذا الشيء واضحاً لها تماماً، لكن بعض الرجال الذين عرفتهم، ثم بعض القصص التي سمعتها فِي أوقات مختلفة، تركا فِي نفسها أسئلة تختلط بالشكوك، وكان يروق لها أن تراقب وتتابع، لأن فِي الأمر شيئاً يثيرها.

لطف الله فرج، زعيم شقاوات الميدان، الذي كان اسمه يولد الرعب ليس فِي محلة الميدان وحدها وإنما فِي بغداد كلها، كانت تتعدد أسماؤه والألقاب التي تطلق عليه تبعاً لعواطف الناس تجاهه وموقفهم منه.

فالذين يعتبرونه رمزاً ومثالاً للقوة، يدللونه، بعض الأحيان، بإطلاق أوصاف كبيرة أو خارقة عليه. ويبالغ بعضهم ويتجاوز كُلّ حد، ليصل إلى الأسماء التاريخية أو التي ترد فِي الكتب: الصمصام، الباتر، أبو الفوارس عنتر. أما الذين لا يعنيهم الأمر، ويؤثرون الحياد، إذ يسمعون ويراقبون ثم يهزون رؤوسهم وأكتافهم ويمضون، ولأن الاسم والألقاب لا يعنيان لهم الكثير،

بالإضافة إلى الغرابة، فقد اختصروا الأسماء إلى: لطس إذ اعتبروه أكثر لياقة وأيسر، وهذا ما جعلهم إذا ذكروه أن يكتفوا: لطس أبو الميدان!

أما خصوم لطف الله فرج ومبغضوه، وأولئك الذين تعرضوا لأذى رجاله، وهم كثيرون، فإن الأسماء والألقاب التي يطلقونها عليه كثيرة ومتغيرة: جراب، أبو فرج، أبو الدقايق، هذا عدا عن الأسماء والألقاب التي تطلق فِي التو واللحظة، وغالباً ما تنتهي بالشتائم!

لطف الله فرج كان حامياً لروجينا حين سكنت فِي أحد الأحياء الجديدة فِي أقصى غرب الميدان. كانت فِي أول شبابها: جميلة، صغيرة، كأنها لعبة، وكانت بحاجة إلى الحماية والحب معاً. ولم يتأخر لطف الله فِي أن يقدم لها الحماية، ولم يطل الوقت ليقع فِي حبها.

كانت روجينا لا تحب أن تتذكر كُلّ شيء بعد مرور السنين، لأن الشيء الذي لا يمكن أن تنساه: أن الرجل الذي يخافه جميع الناس، والذي يخيف الحكومة أيضاً، وإذا ذكر اسمه تتداعى صور ووقائع لا نهاية لها عن شجاعته والأعمال التي قام بها.. ذاك الرجل الذي يخلق كُلّ هذا الخوف، كان جباناً معها! كان يرتجف بين يديها، وفِي أحيان كثيرة يبكي مثل طفل، ولا يكف عن البكاء ولا يهدأ إلا إذا وضعت رأسه فِي حجرها، قريباً مِنْ الصدر، وأخذت تغني له كما تغني الأم لطفلها الصغير لكي ينام!

تتذكر روجينا أنها لم تحب إنساناً كما أحبته، كما لم تتعب مع إنسان كما تعبت معه. إذ بمقدار ما كانت تذوب رقة، وتصاب بالإرتباك، بمجرد أن تضع عيناها عليه، وتبذل أقصى طاقتها كي يرضي، لأن يبتسم، وتتحول بين يديه إلى قطة، إذ تدور حوله، تتمسح به، وتنتظر اللحظة التي يطلب منها شيئاً، فإنها لا تعرف لماذا يرفضها كامرأة!

كان يقضي لديها ساعة، اثنتين، ثم يمضي. لشد ما حاولت إقناعه بأن يقضي الليل معها، ما أكثر المرات التي حاولت أن تغريه، كم جربت وبذلت مِنْ الجهود والتوسلات كي ينام معها، ولكن كُلّ شيء انتهى إلى نتيجة محددة: الرفض الحاسم الذي لم يتخل عنه. كان يرفض بكلمة، بهزة رأس، ولا شيء يجعله يغير رأيه.

السؤال الذي حيرها: لماذا؟ كان فِي بعض ظهيرات الصيف يمر كي يقيل عندها، وما أن ينزع ثيابه حتى يتبدى لها صولجاناً مِنْ القوة والاكتمال. الزنود المتينة المفتولة، الرقبة المكتنزة كأنها رحي، الصدر العريض القوي الذي تغطيه غابة مِنْ الشعر الأسود الكثيف فِي أكثر المواضع. حين ترى ذلك ثم تهبط فتلمع السروال وقد اكتنز، وهو ينهض على ساقين قويتين كانهما نخلتان، تشعر برجفة قوية تجتاحها مِنْ أقصاها إلى أقصاها، وكثيراً ما وجدت نفسها ترتمي عليه، ومثل ريشة يرفعها، تصبح بين يديه مثل طفل صغير.

وتتذكر حين كانت طفلة، وأبوها أو بعض مِنْ الأقارب، يداعبها، يهزها، يلقيها فِي الهواء. كان خوف يمازجه اللذة يسري فِي ذلك الجسد المقذوف، لكن ما أن تتلقاها الأيدي مرة أخرى حتى تزول اللذة ويبقى الخوف، الآن ولطوفي يداعبها، يحملها بيد واحدة ويدور بها، تعاودها مِنْ جديد اللذة القديمة، ولكن دون خوف هذه المرة.

بعد أن يدور بها مرات كثيرة، وينزلها، يقول:

- عزلنا، خلص، وهسه أريد آخذلي غفوة!

ومثل كرة، ترتد عليه، تتشبث بعنقه، تحاول أن تجره إليها، لكنه ثابت كالجدار، قوي مثل ثور، وعنيد كأنه حمار، لا يستجيب، ولا يلين.

وتحاول مِنْ جديد، لكن هذه المرة عند القدم، عند الساقين. تغمر وجهها، تموء مثل قطة، تتوسل، وحين تراه بعيداً هكذا تقفز إلى صدره، تمتد يداها الصغيرتان إلى غابة صدره تنتف بعض الشعيرات، تغمر وجهها هناك، تُخرج أنفاساً ملتهبة فِي هذا الجحيم الطاغي الذي يشتعل فِي كُلّ مكان، لكن دون جدوى.

فِي لحظة ما يقول، وتتهاوى كلماته كقطع الحجارة:

- بس أقوم مِنْ النوم نتشاقى!

وليس أمامها إلا أن توافق، أن تسلم. وعند قدميه كحارس تنام، لعل الذي لم تصل إليه قبل النوم تصله بعده. ويغرق فِي نوم عميق، وتظل فِي يقظة عارمة ترقب قسماته، تتملى جسده، تتابع أنفاسه، ولا تمل مِنْ النظر إليه.

تكررت الحالة مرات عديدة، وتذكرت حيرتها وتساؤلاتها، لأنها لا تقوى على الاحتمال، فهي تفشل فِي الوصول، ولا تقوى على الهجر. إنها تغرق فيه يوماً بعد آخر، وتكتشف فيه صفات لم تكتشفها مِنْ قبل عند غيره: يحنو عليها، يعاملها بمودة تصل إلى درجة الاحترام، وفِي الوقت الذي يزداد طمع الآخرين بها، وبعض الأحيان معاملتها بخشونة، وبغير قليل مِنْ القسوة والبذاءة، فإن المرأة التي تسلك هذا الطريق عليها أن تتعلم بسرعة كيف تدافع عن نفسها، أن تكبر سنة كُلّ شهر، ليصبح مِنْ الصعب خداعها أو حملها على غير ما تريد. وروجينا مثل كُلّ الأخريات كبرت بسرعة، تعلمت بسرعة. أصبحت أكثر اعتماداً على النفس، وكان يمكن لها أن تفعل مثل غيرها: أن تستقل عن الحماية المباشرة، أو أن تستعين بها عند الضرورة، لقاء مبالغ يتفق عليها، يتم اقتطاع جزء منها لقاء خدمات تقدم.

كان بإمكان روجينا أن تفعل ذلك، لولا الجنون الذي يسكنها تجاه الطوفي. وحين تنازلت عن مطالب مِنْ الصعب أن تتنازل عنها المرأة فِي علاقتها مع الرجلِ، واكتفت، إلى أن تجد حلاً، بأن تراه، أن تسمع ضحكته، وأن يبقى

حامياَ لها، فقد هيأت له كُلّ الأسباب كي يختار غيرها مِنْ «البنات»، إذ ربما تكون له رغبات ومقاييس للمرأة التي يفضلها لا تدركها، وبذلت كُلّ مِنْ البنات جهوداً لاجتذابه، لإغرائه، لكن انتهت تلك الجهود إلى الفشل! ولم تستطع أيّ منهن أن تصل إلى أكثر مِنْ لمسة، وبعض الأحيان «حضنه»، عدا زهور!

وهذه المرأة لا يُعرف مِنْ أين جاءت، وكيف وجدت نفسها فِي هذا الوسط. لم تكن لها مِنْ صفات المرأة المرغوبة أو المشتهاة سوى ضحكة تملأ وجهها، أقرب إلى ضحكات الأطفال، وصوت يقطر بكل الحزن.

كانت تحفظ عدداً مِنْ أغاني الجنوب، وتعرف كيف تغنيها ومتى.

زهور إذا اختارها رجل ذات مرة، وحظها دائماً أقل مِنْ غيرها بكثير، تعرف كيف تجعله يختارها مرة أخرى! ولأن الأخريات لا يعتبرنها منافسة لهن، تقوم بأعمال لا يقوم بها إلا الخدم عادة، لذا فإن وجودها واستمرارها ضروريان، وهذا ما جعلها باقية، وربما أكثر مِنْ غيرها. ليس ذلك فقط، كانت لا تخرج مِنْ البيت إلا نادراً، لأن لا أحد مِنْ الرجال يطلب أن توافيه إلى مكانه، وقيل إنها تخاف الخروج أيضاً لأن لديها إحساساً قوياً أن هناك مِنْ يترصدها، ولا بد أن يقتلها.

زهور الوحيدة التي قدر لها أن تنام مع لطوفي. حصل الأمر صدفة، إذ جاء ولم يكن فِي «البيت» غيرها. خافت إلى درجة لم تخف هكذا مِنْ قبل حين وجدت نفسها وحيدة مع لطوفي. تمنت لو لم يجيء، لو أن أحداً معها. طلب الشاي، قدمته بارتباك، وحاولت أن تنشغل، أن تغادر الغرفة، لكن لطوفي طلب منها أن تجلس قبالته، وأن تغني هكذا روت القصة لروجينا فِي نفس الليلة، ومع كُلّ أغنية يطلب منها الاقتراب، وإعادة بعض المقاطع، وكان يرتجف، وكأن خوفها انتقل إليه، وفِي لحظة ما، ولا تتذكرها بوضوح، مع أن روجينا أكدت عليها مرات أن تحاول استعادتها بكل دقة، لكنها، كما تقول، كانت مضطربة خائفة، وكان خوفها يزداد وهي ترى لطوفي على تلك الحالة مِنْ الانفعال، كان يرتجف، يرتعش، تصطك أسنانه، وفجأة انقض عليها. لأول وهلة ظنت أنّه سيقتلها، وسيتم ذلك خنقاً، لكنه أخذها إليه كما تؤخذ وسادة، وحين أحست بحرارته، بأنفاسه، تأكدت فِي اللحظة أنّه يريدها.

وتتوقف زهور عن متابعة التفاصيل اللاحقة، لأنها لم تعش لحظات ممتعة مثل تلك اللحظات، ولا تظن أن مثل تلك اللحظات يمكن أن تتكرر مرة ثانية!

روجينا وهي تدقق بالتفاصيل، فيما تستعيد زهور كُلّ حركة، تريد أن تفعل مثلها، لعلها بعد هذا الفشل الطويل المتواصل، تصل.

ورغم أنها قامت بالدور كله، حتى الأغاني التي غنتها زهور، غنتها له، وأضافت وحورت، ولجأت أيضاً إلى السحر والعطور، لكن لطوفي يمعن فِي تعذيبها، بالتوقف عند لحظة لا يتجاوزها!

حتى مع زهور لم تتكرر المحاولة، أو هكذا تدعي! وتقسم بعض الأحيان، لكن أحداً لا يصدقها، لأن «البنات» كثيراً ما يغبن عن البيت، ولأن لطوفي يأتي حسب رغبته، وليست له مواعيد أو أوقات ثابتة. فإذا حضر، وكانت واحدة أو أكثر مِنْ البنات يكتفي منها بالغناء! أما غير ذلك فلا يُعرف عنه شيء!

فِي وقت ما، قبل أن يحدث ما حدث مع زهور، كانت روجينا حين تخلو لنفسها، تسيطر عليها فكرة أن لطوفي ليس رجلاً مثل باقي الرجال فِي علاقته بالمرأة. وظنت أن فِي الأمر خوفاً أو جهلاً، أو ربما مكتوب له سحر. ولذلك فهو مربوط، ولا بد مِنْ فك هذا السحر وحل ذلك الرباط، وقد بذلت جهداً فِي هذا المجال لكن دون جدوى!

فِي وقت لاحق ظنت أن زهور تكذب، وربما رتبت الأمر مع لطوفي لكي لا تظن به الظنون، لكن طريقة زهور وهي تروي ما حصل، وكيف أن عينيها تشعان ببريق لا يصدر إلا عن إنسان اشتعل بلهيب نشوة لا يستطيع الفكاك منها أبداً، تجعلها تنفي احتمال الكذب.

ولأنها تريد أن تصل إلى ما وصلت إليه زهور، كانت تنفي أية شبهة حول رجولة لطوفي، كما بذلت جهداً كبيراً كي تصل إلى مستواها فِي الغناء، وأن تتفوق عليها أيضاً، واتبعت أساليب إضافية فِي محاولة الاقتراب مِنْ لطوفي، كأن تدلك ساقيه، أو تداعب أذنيه وأن تقدم له العسل بشهده، وأن تذبح له طيور الحمام للأكل والنذر معاً، وتجرأت مرات فِي أن تمد يدها هناك، لكن «التيس، كما كانت تردد لنفسها، بعده معاند».

ورغم ذلك لم تسلم ولم تتوقف عن المحاولة!

ظلت الأمور هكذا، وكانت روجينا متأكدة أن الشيء الذي قد لا يحصل اليوم لا بد أن يحصل غداً، وسوف تعرف كيف تصل.

ذات صباح أفاقت بغداد على خبر ملأ جنباتها: لطوفي قتل، وانطوت صفحة فِي حياة روجينا، وحياة المدينة.

تذكرت روجينا تفاصيل هذه القصة وهي تستعيد وجه سيد عليوي.

وبانتظار أن يزورها مرة أخرى، تذكرت قصة نعيم أبو طوب، وقد خدم لديها فترة مِنْ الزمن، كان خادماً وحارساً، يخاف منه الطارئون على البيت«بقصد ابتزاز البنات»، أو التهرب مِنْ الدفع، وبعض الأحيان افتعال المشاكل كي لا يدفعوا كُلّ ما يطلب منهم. كان نعيم يتولى أمر هؤلاء،

ويعرف كيف يجعلهم يتوبون عن اللجوء إلى مثل هذه الأعمال، ليس فقط نتيجة القسوة أو العنف الذي يميز ردود فعله بل ونتيجة الإساءة والفضائح التي يعرف كيف ينشرها عن هؤلاء فِي المقاهي القريبة، لتصل فِي اليوم ذاته، أو فِي اليوم الذي يليه، إلى أبعد مقهى فِي بغداد، كيف حبسهم فِي أماكن معينة! ماذا فرض عليهم مِنْ أعمال يأنف أيّ إنسان عن القيام بها كي يطلق سراحهم، أو يكف عن ضربهم!

نعيم ذاته بين البنات يفضل أن يُنادي بنعيمة، ويتصرف كأي بنت مِنْ هذا الوسط، هذا إضافة إلى أنواع الملابس والألوان التي يختارها، ولا يتردد فِي أحيان كثيرة أن يلبس مثل النساء أيضاً.

أكثر البنات يعتبرنه «أخاً»، وبعضهن ينادينه أستاذي، وهو معهن محب كاخ، ووديع مثل أب، وبقدر ما يخافه الآخرون ويتجنبونه،«فإن البنات» شديدات التعلق به. فإذا غاب تخيم على «البيت» وحشة، ويدخل الخوف إلى قلوب البنات، حتى إذا عاد بعد يومين أو ثلاثة كان يحمل معه قصص الجزء الآخر مِنْ الميدان، حيث يعيش الأغنياء وكبار الموظفين والعاملين فِي السراي، وكلها تتحدث كيف نام معه فلان، وكيف نام هو مع فلان الآخر، وكيف عاش مثل سلطان اسطنبول أو مثل الوالي خلال تلك الأيام، ولديه الكثير مِنْ الأدلة والإثباتات التي تؤكد صحة ما يقول! هل يعتبر سيد عليوي واحداً مِنْ الذين يفضلون هذا النوع مِنْ العلاقات؟ هكذا تساءلت روجينا، ولم تكن تملك جواباً، أو لم تكن متأكدة مِنْ الجواب.

منذ الليلة التي قتل فيها سعيد، وقعت نابي خاتون فريسة للمرض. كان المرض أول الأمر نوعاً مِنْ الهلع، إذ تبقى مفتوحة العينين فِي حالة ترقب وخوف، فما أن تلمح جفناً يتحرك، أو يداً ترفع، ما يكاد طير يرف بجناحيه، أو يُسمع صوت، حتى ترفع يديها الاثنتين بطريقة دفاعية، وكأنها تتقي شيئاً. لما أصبحت تترك وحيدة، لإشعارها بالطمأنينة، تحول هلعها إلى حالة مِنْ الذهول، إذ تمضي ساعات وهي تتطلع إلى نقطة بذاتها.

كانت تهز رأسها بعض الأحيان، تهزه بالموافقة أو بالرفض، وللتأكيد فِي حالات معينة، وكانت تكلم نفسها بتمتمة لا تتجاوز حركة الشفتين.

ظلت هكذا خلال الشهور الثلاثة الأولى، ثم فجأة تحولت إلى العنف.

كانت تصرخ، تشتم، تحطم، وتريد أن ترى أيّ إنسان لتصب عليه كُلّ غضبها، الأمر الذي أدى إلى احتجازها فِي بيت لا يعرفه إلا عدد محدود مِنْ خاصة رجال الوالي. وبعد أن رفضت تناول الدواء، ولم تجد بعض المعالجات، كالتدليك والماء الساخن، اضطر الطبيب الذي كُلف بمعالجتها والإشراف عليها، لإصدار أمر بتقييدها إلى قوائم السرير، ثم إلى تكثيف المعالجة، مما جعلها تنام ساعات طويلة متواصلة.

نوبة العنف لم تطل، خاصة وأن الأدوية التي أجبرت على تناولها حولتها إلى امرأة مسكينة لا تفعل شيئاً سوى البكاء. كان بكاؤها صامتاً حزيناً، وغالباً دون صوت. ولأنها بلغت حالة مِنْ الضعف والاستسلام، ورأتها هكذا ابنتها نازك خاتون، زوجة الوالى، فقد حز فِي نفسها أن تترك وحيدة أو أن تعامل بهذه الطريقة، فتضرعت إلى زوجها، وكانت توسلاتها تختلط بالدموع، أن يوافق على نقلها إلى السراي، إذ يمكن فِي هذه الحالة أن تعتني بها، وقد تشفي.

لم يتأخر الباشا فِي الموافقة، إذ نُقلت إلى جناح منعزل فِي قسم الحرملك بالسراي، وأصبح يطلق عليها: السيدة الكبيرة، وبدا وكأن هذه المشكلة انتهت، أو فِي طريقها لأن تكون كذلك. لكن ما انقضت أسابيع قليلة حتى عاودت نابي خاتون سيرتها الأولى: البكاء، وأحياناً الصراخ؛ وتحطيم الأثاث؛ ورفض تناول الأدوية. ورغم التكتم على الأمر، وإخفائه عن الباشا، فقد كانت تصله أخبارها، وكان مضطراً للسكوت. وقد حمل ذلك الطبيب على تقييدها مِنْ جديد، وزيادة الأدوية التي تعطى لها، بحيث أصبحت تبدو كالمخدرة أو الغائبة عن الوعي.

ولما هدأت مِنْ جديد، أصبحت السيدة الكبيرة كالأطفال بتصرفاتها وأسئلتها: تسأل عن كُلّ شيء، بما فِي ذلك أسماء الذين حولها، وما هي صفاتهم، وإلى متى سيبقون هنا. فإذا انتهت مِنْ هذه الأسئلة تلتفت إلى توجيه الأوامر بضرورة تهيئة الطعام لسليمان باشا الكبير، لأن مِنْ المحتمل أن يصل فِي أية لحظة، ولا بد أيضاً مِنْ إعداد الماء الساخن لحمامه اليومي، وتأمر بتحضير ملابس محددة للباشا، لأنه يفضلها على غيرها خلال فترة المساء، ويجب أن تكون مع هذه الملابس العصا السوداء القصيرة، وأيضاً سبحة العقيق أو الكهرمان!

وإذا كان داود باشا لا يأبه لهذه التصرفات والأوامر، ما دامت السيدة الكبيرة هادئة، لا تصرخ ولا تحطم، فإن كُلّ خشيته أن تعاودها نوبات العنف، خاصة وأن الأخبار أخذت تتسرب مِنْ السراي، وأصبح يلوكها الناس فِي المقاهي والأسواق، ومعها الحديث مِنْ جديد عن سعيد وسليمان، والأحداث التي مرت. وقد فكر أكثر مِنْ مرة أن يحجر عليها، أن يسفرها إلى خارج بغداد، أن يتخلص منها، لكن كان يؤجل ذلك ما دامت هادئة، وانتظاراً للوقت المناسب.

فِي إحدى المرات، وقد تسللت السيدة الكبيرة إلى جناح الوالي، اخذت الخلعة التي دخل بها داود باشا بغداد، وخلال وقت قصير حولتها إلى كومة مِنْ القطع الصغيرة، بعد أن أعملت مقصاً حاداً بها. وسرعان ما وصل الخبر إلى الباشا، فقال للذين حوله، وكان ضمنهم الآغاز ـِ موت بعض الناس راحة لهم ولغيرهم؟

وبكلمات قليلة، غامضة، أشار إلى مرض السيدة الكبيرة، دون أن يُضيف شيئاً آخر. أما الآغا الذي تعمد أن يبقى مع الباشا، فقد قال حين أصبحا وحيدين:

ـ إذا فاتنا نخلص منها ذيك الليلة، فوكل لي أمرها، يا باشا، وما يكون لك بال!

ابتسم داود باشا، كانت ابتسامته حزينة، ورد كأنه يخاطب نفسه:

ـ المكان ضيق والبغل رفاس، يا آغا، ونحن بدل ما نهتم بقضايا البلاد والعباد، طلعت لنا هالعجيزة، واللي ما قدر عليه الرجال تريد تسويه! - إذا تركت الأمر علي، يا باشا، آني أدبرها ـ تأخر الوقت... يا آغا...

وبعد قليل:

ـ القشة بالعين ما تعمي لكن تزعج، فخلي كم شهر يمر وبعدها نشوف!

خلال إحدى نوبات صحو السيدة الكبيرة، جاءتها واحدة مِنْ الخادمات لتقول لها إن رأس سِعيد أرسل إلى اسطنبول، ولا بد أن تلحق به إلى هناك،

لأن قبره أصبح مزاراَ، يأتيه الناس مِنْ كُلّ مكان.

وقالت لها الخادمة مرة أخرى إنّه بذهابها إلى اسطنبول لن يتاح لها زيارة القبر فقط، بل ويمكن أن تقابل السلطان. فإذا قابلته وشرحت له كيف حصلت الأمور، منذ أن جيء بداود طفلاً صغيراً وبيع فِي بغداد، وكيف أن سليمان الكبير اشتراه واعتنى به وهذبه إلى أن كبر، فوثق به وقربه، وكدليل على تقريبه زوجه ابنته ثم دارت الأيام، وبدلاً مِنْ ردَّ الإحسان تحول داود إلى قاتل. ولم يكتف بقتل البدو وأهل المدن، بل بلغت به الخسة حداً أنّه قتل ابن الذي رباه. والسلطان حين يسمع القصة مِنْ بدايتها إلى النهاية، سوف تثور الدماء فِي عروقه، فيبعث وراء داود فوراً لكي يحاسبه، وداود إذا مثل بين يدي السلطان، وكانت نابي خاتون موجودة، ونظر إلى عينيها سوف يصاب بالرعب، ولن يستطيع إخفاء الحقيقة. وبعد أن يعترف أمام السلطان، والذين حوله، لا بد أن ينال جزاءه، «لأن مثل ما قال أهل قبل: بشر القاتل بالقتل، ولو بعد حين»..

ونابي خاتون التي أعجبتها الفكرة، واستعادت الخادمة روايتها مرة وثانية، سيطر عليها هاجس السفر، وكانت تبرره بزيارة قبر سعيد، ولا تضيف شيئاً آخر.

ورغم أن ابنتها، نازك خاتون، زوجة الوالي، بذلت جهداً كبيراً لصرفها عن هذه الفكرة، وأكدت لها أن سعيد باشا دفن، الرأس والجسد، فِي مقبرة الإمام الأعظم أبي حنيفة، وفِي مكان دفن الولاة، وقد شيعه الوزراء والأمراء، وحالما تتعافى سترافقها لزيارة الضريح، إلا أن السيدة الكبيرة كانت تسخر مما ترويه ابنتها. فإذا أكدت نازك خاتون، وأقسمت، على صحة ما تقول، تبدأ الأم بالصراخ وبتحطيم الأثاث والزجاج، الأمر الذي جعل الوالي يوافق، وبحماس، على أن تسافر، وترك لها أن تختار بين حلب واسطنبول، ولا مانع لديه، إذا شاءت، أن تسافر إلى الحج، لأن زيارة الكعبة تنير القلب وتعافي الجسد، وإذا رغبت أن تجاور إلى جانب قبر الرسول، فإن كُلّ مسلم يتمنى مثل ذلك.

ولم تتأخر السيدة الكبيرة فِي أن تختار اسطنبول وجهة لسفرها، ولم تقل أية كلمة إضافية، كما طلبت منها الخادمة، لكي يوافق الباشا، ولئلا يشك فِي النوايا، ثم بالنتائج!

أمر الوالي بتهيئة قافلة للسفر إلى اسطنبول. وفِي الليلة الأخيرة، قبل السفر اختلى بصادق أفندي، صهره، وابن نابي خاتون، وأخذ موافقته على سفر الوالدة.

عند أضواء الفجر، كان الموكب الصغير يستعد للتحرك، وقد جرى للسيدة الكبيرة وداع قصير، وكان حزيناً، إذ لم يشارك فيهِ سوى عدد محدود مِنْ

أفراد الأسرة، وعدد أكبر مِنْ الخدم والحراس، وبدأت القافلة رحلتها باتجاه اسطنبول.

ما كادت أيام قليلة تنقضي حتى انتشرت أخبار متضاربة عن غياب نابي خاتون. كان أول ردَّ مِنْ رجال السراي، أن السيدة الأم لا تزال موجودة، وقد استعادت صحتها، بعد أن بذل الوالي أقصى العناية، حتى أنّه استدعى أطباء مِنْ حلب واسطنبول لمعالجتها، وأنه الآن يطلب مرضاتها، بعد أن تولت نسوة فِي السراي شرح ما وقع، وأن داود باشا أصابه السقم، وعزف عن الأكل لأيام عديدة حين بلغه ما حصل لسعيد باشا، وقد أمر بأن يقتل كُلّ الذين تسببوا بهذه الجريمة، التي لم يسمع بها إلا بعد أن وقعت.

يقول رجال السراي ذلك، ويؤكدون أن نابي خاتون، بعد أن عرفت التفاصيل، قالت للباشا، وقد سمع عدد مِنْ الخدم ما قالته:

لا يمكن للإنسان أن يقتل ابنه، وسعيد كان ابنك، أعز مِنْ ابنك.

ويضيف واحد مِنْ الخدم أن داود باشا بعد أن سمع هذا الكلام قبل رأس نابي خاتون، بعد أن رفضت أن تعطيه يدها ليقبلها!

كان مثل هذا الكلام يدور فِي الأيام الأولى لسفر القافلة. أما بعد أن وصل بعض المسافرين والتجار مِنْ ماردين والموصل، وأكدوا أنهم التقوا بقافلة نابي خاتون، فقد قال رجال السراي إن نابي خاتون سافرت بالفعل، لكنهم لم يضيفوا شيئاً آخر. لم يقولوا إلى أين أو إلى متى. وحين سئلوا مرة ثانية وثالثة عن وجهة سفرها، وما إذا ستعود قريباً، أجابوا بتردد وحيرة: إنها سافرت إلى حلب بدعوة مِنْ واليها، وسوف تبقى هناك حتى تشفى، أو إلى أن يوافق الوالي، لأن «الضيف أسير المعزب» ويبتسمون دلالة أن مثل هذا العرف يحكم زيارات الضيافة! فإذا توالت الأسئلة، ومعها الإشاعات والشكوك، ووجد رجال السراي أنفسهم مضطرين للإجابة أو للتوضيح، فإنهم يقولون إن سفر نابي خاتون قد يطول، إذ مِنْ المرجح أن تذهب بعد حلب إلى زيارة الأماكن المقدسة فِي دمشق والقدس، وقد تصل إلى المدينة المنورة!

ولأن القوافل لا تتوقف بين بغداد والشمال، وصولاً إلى اسطنبول، ولأن كثيرين يسلكون هذا الطريق، فإنه حين سُئل بعض المسافرين ما إذا قابلوا نابي خاتون فِي طريقها إلى اسطنبول، ذكر هؤلاء أنهم التقوا بقوافل عديدة، لكن لم تكن ضمن أيّ منها نابي خاتون. ولم يتأخر رجال الباشا ليذكروا أن تلك القافلة، فِي إحدى مراحل الطريق، وبناء لرغبة السيدة الكبيرة، غيرت وجهتها، وذهبت إلى المدينة المنورة، وأغلب الظن أن تبقى نابي خاتون هناك، أن تجاور بالقرب مِنْ قبر النبي.

وحين وصلت قافلة مِنْ الموصل، حاملة كميات كبيرة مِنْ الحنطة، فقد ذكر أفراد فِي هذه القافلة، أن سيلاً هائلاً دهم قافلة كانت آتية مِنْ اسطنبول فِي طريقها إلى مكة، وقد جرف ذلك السيل عدداً مِنْ أفراد تلك القافلة وأغرقهم، فقال رجال السراي إن نابي خاتون كانت ضحية ذلك السيل، وغرقت مع الذين غرقوا!

أما فِي قهوة الشط، فقيل إن نابي خاتون غادرت بغداد مصممة أن تكون اسطنبول وجهتها، لكنها لم تصل أبعد مِنْ كركوك، فقد داهم «اللصوص» القافلة وبعد أن سلبوا كُلّ شيء، عرفوا أن نابي خاتون فِي القافلة، ولخوف «اللصوص» مِنْ عقاب الوالي والسلطان، وفِي محاولة الإخفاء الجريمة، فقد قتلوا الجميع وفروا!

ورغم أن عقلاء صوب الكرخ، وفِي قهوة الشط، نبهوا مِنْ هم أصغر منهم سناً، بضرورة الحيطة حين يتحدثون إلى الغرباء، خاصة بأمور تتعلق بالسراي، ولجأوا أيضاً إلى شيء مِنْ التكتم والحذر، وبعض الأحيان إلى استعمال عبارات محايدة وهم يجيبون على الأسئلة التي توجه إليهم، إذ يقولون: أخبار ذاك الصوبه دون تحديد ودون تخصيص، إلا أن الإجابات تفهم أو تحور على أنها تعني الوالي وتعني السراي.

الآن وهم يسمعون القصص التي تروى عن نابي خاتون، والتي تتراوح بين وصولها إلى أسطنبول ومقابلتها للسلطان، وكيف أن السلطان حين سمع منها قصة ما حصل، أجهش فِي البكاء، وبكى معه كُلّ مِنْ كان فِي مجلسه، وقد أمر بإحضار داود إلى اسطنبول. بين هذه الرواية، وتلك التي تتحدث عن السيل، وما أخذه فِي طريقه، وكانت نابي خاتون فِي جملة ما أخذ، فإن المسنين فِي قهوة الشط حين يسمعون هذا الذي يقال، يرددون كلمات تفهم ولا تفهم، يقولون: «اللي يدري يدري، واللي ما يدري يقول: ف عدس».

مع تزايد عدد الناس حول داود باشا كان شعوره بالوحدة يزداد، ورغبته بالانعزال تقوى. لم يكن هكذا مِنْ قبل، لكنه امتلأ بهذا الشعور منذ أن عاد إلى بغداد وأصبح والياً. ومع كُلَّ يوم جديد، ومع كُلّ حدث جديد، يحس أن الذين حوله يزدادون بلادة، أو يصبحون أقل قدرة على فهم ما يريد.

صحيح أنّه يتبادل معهم الحديث، ويتبسط فِي الكثير مِنْ الأحيان وهو يشرح ويوضح، وكانوا يصغون إليه ويهزون رؤوسهم دلالة الفهم، كما تخرج مِنْ حناجرهم كلمات كبيرة، لكنه يحس أنهم فِي عالم آخر، وربما لم يستوعبوا ما قصد إليه، وهذا ما يجعله يتألم ويمتلئ بالضيق. كان يتمنى لو يكف هؤلاء الذين يدورون حوله عن التمثيل، عن إطلاق صيحات الإعجاب، لكن دون جدوى.

ونظراً لتزايد انشغاله، فقد أصبح يعتمد على فيروز ينقل إليه الهمسات التي تتردد فِي السراي، وكذلك على نائلة خاتون تنقل إليه ما يدور فِي الحرملك.

وفيروز، مِنْ حيث الشكل والسلوك حالة مفردة، لا تتكرر إلا بأزمنة متباعدة، وفِي أمكنة متباعدة.

لم يأت مع داود مِنْ تفليس. ولم يكن يوماً قريباً مِنْ السراي أو له صلة بالذين يحكمون. مِنْ ينظر إليه قد ينسبه إلى بخارى، أو إلى جزيرة فِي البحار البعيدة، لأن وجهه قد يبدو غريباً مِنْ حيث لون البشرة، لكن إذا دقق الإنسان فِي الملامح يجد منها شبهاً فِي الكثيرين، وإن وزع بمقادير

وأشكال تجعل فيروز مختلفاً. صغير الحجم، هذا شيء مؤكد، لكن دون تشوه مِنْ أيّ نوع. وقصر القامة هو أكثر ما يلائمه، إذ لو كان أطول قليلاً، لبدا غريباً. حتى الكفان، رغم صغرهما، فإن فيهما مِنْ القوة ما يجعل الذي يصافحه يحس شيئاً يكمن فِي الداخل، ليست القسوة ولا الشعور بالعظمة، وإنما ذلك الكيان المستقر، الواثق، والذي لا يخلو مِنْ حزن.

رجل باهر، فِي كيان قد يبدو، مِنْ بعيد، صغيراً، لكنه كان ومقنع.

فإذا استقرت عيناه فِي عيني أيّ إنسان، إذا سمعت كلماته، وهي قليلة على العموم، فلا بد أن تترك فِي الذاكرة أثراً لا ينسى.

أما كيف أصبح فيروز قريباً مِنْ داود، فإن الصدفة وحدها خلقت هذه القرابة:

«كنت أوفي نذراً لأمي: أن أسقي العطاش فِي مقام سيدنا عبد القادر لمدة ثلاثة أيام، وخلال الأيام الثلاثة كان يصادفني ذلك الشيخ فأقول له:

ماء منذور، أتشرب يا سيدي؟ كان يتناول الطاسة ويشرب. فِي اليوم الثالث صادفته مرتين، قبل الظهر وعند الغروب، وقد شرب فِي المرتين، وقال:

ليبارك الله مِنْ وفِي عهداً، ومن سقى عبداً، وليجعله مِنْ أبناء السلامة».

«كانت عينا الشيخ تقول إضافة إلى الكلام كلاماً، وكانت يده، وهي تمتد إلى الماء، تشكر الخالق على نعمه، إذ كان يبسط كفه جميعها شكراً وامتناناً، ويقول: إذا جرى الماء بين الناس، إذا لم يحبسه إنسان، بعد أن مِنْ به خالق الأكوان، فأمة الإسلام بخير، ولو بعد حين»..

ويضيف فيروز، وقد استبد به الحنين لأيام قديمة:

بعد أن وفيت بنذر أمي، لا أعرف كيف وجدت نفسي أذهب كُلّ يوم إلى مقام سيدنا عبد القادر. وإذا شغلني الماء أسقي به العطاش فِي الأيام السابقة، فإن عيني ذلك الشيخ، ثم كلماته، استهوتني، ثم جذبتني فوجدت نفسي أذهب إليه كُلّ يوم، وأسمع ما يقول، ووجدت أنني أحب ما يقول، بل وأعرفه بقلبي وإن لم يطعني لساني على ترجمته إلى كلمات، كما يفعل هذا الشيخ الجليل.

ولما داومت على الذهاب إليه يوماً بعد يوم، وجدت نفسي مضطراً للذهاب كُلّ يوم. لما رآني لا أفارق مجلسه، وأني إليه أنظر، وبه تعلقت روحي، قال لي ذات يوم: إذا لم تثقل عليك أعباء الحياة، ولست مضطراً أن تعيل أماً أو أباً أو ولداً، وبك حنين إلى الجنة فأنا بحاجة إلى مِنْ يساعدني ويحمل عبئاً عني. ولا أعرف كيف قلت له: لبيك وأنا الخادم بين يديك، ومنذ ذلك الوقت لم أفارق سيدي ومولاي داود باشا يوماً واحداً.

أما داود باشا الذي لا يتذكر التفاصيل التي يرويها فيروز، فيتذكر أن هذا الرجل بمقدار ما يستقر فِي القلب فإنه يتعب العقل، إذ بعد أن يغيب الوزراء والاغوات وأمراء الجيش، يتحدث نيابة عن الجميع، ويسرف فِي بعض الأحيان، ليقول كيف يفكر الناس، ما يحبونه وما يخافون منه.

ويختم داود باشا ما يريد أن يقوله عن فيروز بكلمات قليلة: «إنّه عين المدينة ولسانها، وإذا غاب الكثيرون وحده يتكلم، وإليه وحده أصغي!».

قد يبدو فيروز قصيراً، بنظر البعض، وقد تكون بشرته داكنة قليلاً، وربما يختلف الناس حول عدد مِنْ صفاته، لكن الصفة التي لا خلاف عليها: أنّه يعرف الكثير، ولكن أكثر شيء يعرفه هو الصمت!

ومثلما كان داود يثق بفيروز ويؤثره على كُلّ حاشيته، فإنه إذا انتقل إلى الحرملك فهناك: نائلة خاتون.

ونائلة رغم أنها ليست أماً أو أختاً، وليست زوجة، كما لا تعتبر قريبة مِنْ القريبات، إلا أنها أهم، أو مِنْ أهم، شخصيات الحرملك.

تربت، مثل داود، فِي سراي سليمان الكبير، وهي أكبر منه ببضع سنين. بعد أن تزوجت مرتين ولم تنجب، وبعد أن مات زوجها الثاني، قررت أن تسقط الرجال مِنْ حياتها، وقيل إنها خاوت واحداً مِنْ الملائكة، وانصرفت إلى العبادة والصلاة.

أحبت داود كأم أو كأخت كبيرة، وأصبحت مِنْ حاشيته. حتى عندما استقر فِي باب الشيخ، بجانب المرقد، ولم تكن له حاشية، كانت نائلة خاتون ضمن أفراد أسرة داود، وبمرور الوقت أصبحت واحدة مِنْ الأسرة ولا غنى عنها.

رغم تقدمها بالعمر ظلت نائلة خاتون محتفظة بوجه أنيس. الابتسامة لا تفارق وجهها، حتى لتبدو كالأطفال، خاصة وأن حجمها صغير، إذ كانت أقرب إلى القصر، مع سمنة قليلة تجعلها إذا مشت، إذا تلفتت، أقرب إلى البطة.

فِي وقت ما لم تكن لها واجبات محددة، ومع ذلك يحس الجميع بضرورتها، حتى إن غيابها، ولو لفترة قصيرة، يخلق فراغاً لا يمكن لأحد أن يعوضه، خاصة لداود، ربما لما تحفظه مِنْ قصص، ولطريقتها التمثيلية وهي ترويها، إضافة إلى بساطة تمتزج بالبلاهة، أو أنها تصطنع البلاهة لتسوغ لنفسها أن تتصرف وتتكلم بطريقة لا تؤاخذ عليها، ولا يجرؤ أحد أن يفعل مثلها!

تحب الصغار، لكن بمقدار. إذ تتجنب المواليد فِي سنواتهم الأولى، لأنها لا تطيق الانشغال بأمور أكلهم ونظافتهم، ولا تمانع فِي مداعبة مِنْ هم أكبر سناً. وكلما كبر الصغار كانت تزداد علاقتها بهم، فإذا شبوا، ثم تقدموا بالعمر، اعتبروها أماً أخرى لهم، ربما تمثلاً بالأب، والذي يُطلق عليها الرضيعة، أو الخاتون، أو لأنهم يجدون فيها سحراً حين تروي القصص وحوادث الأيام. وفِي وقت معين تصبح موضع أسرارهم وثقتهم، إذ تعرف كيف تواسي، ثم كيف تداوي، خاصة خيبات المراهقين وأوجاع مِنْ هم أكبر سناً!

ظلت هذه حال نائلة خاتون سنيناً عديدة متواصلة، إلى أن ولدت محسنة، وهي الابنة التي ولدت لداود قبل شهور مِنْ رحلته إلى الشمال.

سماها هكذا تيمناً وتفاؤلاً بما قد يقع. كان يريد مِنْ الله أن يحسن إليه، أن يتفضل عليه بالإشارة فجاءت. وما عزز تفاؤل داود تأكيد نائلة خاتون «أن قُصة هذه الفتاة كلها خير وبركة، لأنها ولدت والقمر بدر، وهذا دليل أن الأيام مقبلة»..

ولادة محسنة غيرت بالكامل حياة نائلة خاتون، جعلتها امرأة أخرى.

إذ بعد أن تضيق ببكاء الأطفال أو صراخهم، كانت تأمر المربيات أن يستعملن بعض النباتات المخدرة لكي يكفوا عن البكاء، وتجعلهم يغرقون فِي النوم. كما لا تتردد أن تصيح على الأطفال المزعجين، بل وقد تخيفهم ليسكتوا أو يبتعدوا. أما الآن، وبعد أن ولدت «سعد أبيها» محسنة، فقد أفردت لها سريراً إلى جانب سريرها، واستعادت الكثير مِنْ الأمور التي نسيتها، أو تعمدت نسيانها، بشأن تربية الصغار، مِنْ الأكل إلى النظافة فالغناء.

خلال الفترة القصيرة التي قضاها داود فِي بغداد قبل أن يتوجه إلى الشمال، أصبح ينظر إلى الصغيرة مِنْ خلال عيني نائلة خاتون، ولأنه تفاءل بولادتها، ثم برعاية الرضيعة لهذه الصغيرة، فقد سافر وكله ثقة وأمل بالأيام التي ستأتي.

كانت نائلة خاتون تقدم لداود تقريراً غيابياً كُلّ ليلة، إذ تتطلع إلى الصغيرة وتوجه الصوت إلى البعيد: «... وضحكت اليوم يا أفندينا، شلون ضحكة... تفك الصدر» «الليلة، للفجر، ما شافت عيني النوم، لكن ما يخالف، فدوة لعيونك» «يا بك، يا أبو يوسف، اليوم بز سنها مثل هلاهل الربيع» «ناغت اليوم، فدوة لعيونها ما أحلى مناغاتها، عبالك يمامة، عبالك حمامة» وتتمادى فِي إحدى الليالي، تقول وهي تضع يدها أمام عينها، تعبيراً عن الخجل «... حتى ضرطتها، حاشاك، يا بك، يا أبو يوسف، ما لها ريحة»..

أما بعد أن قضى داود باشا شهوراً طويلة فِي الشمال، ثم عاد، فكان أكبر شوقه لهذه الصغيرة التي حاربت إلى جانبه وجعلته ينتصر. وما قالته نائلة خاتون غيابياً قالت أضعافه لداود بعد أن عاد. كانت لا تتعب وهي تحكي له عن التفاصيل الصغيرة، وعن كُلّ يوم مِنْ أيام محسنة التي مرت، وكانت تنهي حديثها بعبارة أصبحت مألوفة لفرط ما كررتها، كانت تقول:

ـ ظفرها يسوي ديرة وعشيرة، وعلى قصتها شفت الخير كُلّ الخير، والجاي، بعد، أكبر.

وكرت الأيام. أكملت محسنة سنتها الأولى، عيناها الواسعتان تنظران إلى كُلّ ما حولها. كلماتها تتعثر قليلاً ثم تستقيم. قل بكاؤها وزاد ضحكها. ورغم أنها تمانع الانتقال مِنْ يد إلى أخرى، إلا أنها لم تمانع أن تنتقل إلى أحضان داود. كانت تنظر إليه بود، تبتسم، وكان يروق لها أكثر ما يكون أن تعبث بلحيته والشوارب. وتبقى هكذا وقتاً غير قصير، ثم ترتمي على نائلة خاتون. وفِي أحضانها تتحول إلى عصفور لا يمل أبداً مِنْ التغريد. كانت تضحك مِنْ أعماق قلبها، تتغشغش، حتى أن الباشا خاف وتحسب أكثر مِنْ مرة مِنْ هذا الضحك أن يرهقها أو أن يؤثر عليها، لكنها سرعان ما تعود إلى العبث ثم إلى

الهدوء، رغم أنها لا تكف عن محاولة الطيران والافلات مِنْ يدي نائلة خاتون. لكن وهي تعود إلى الأحضان تبدو مثل غزالة أتعبها الركض ولا بد أن تنام. والباشا كثيراً ما مر فِي اليوم الواحد عدة مرات، حتى أثناء نومها، لكي يفرح ويأنس بها.

بعد الأسنان الأولى، وبدخول فصل الربيع، أصبح هم نائلة خاتون، وقد جاوزت محسنة عامها الأول، أن تقف على رجليها، أن تمشي.

استعادت نائلة خاتون كُلّ ما تتذكره مِنْ الأهازيج التي تشجع الأطفال على الوقوف ثم المشي. استعانت بالمربيات كي تحفظ المزيد مِنْ هذه الأهازيج والأغاني. رددتها بأنغام لا حصر لها، وهي ترفع الطفلة، وهي تشجعها، والطفلة التي ألفت هذه الأهازيج، وأصبحت تحبها، تستجيب لها، تنفعل بها، ترتفع، تحاول أن تقف، لكنها بعد محاولات عديدة لا تواصل، إذ تتوقف وهي تلوي رقبتها.

كانت نائلة خاتون تقول لها بصوت عال:

ـ أسنان الزغار مِنْ أسنان الأمهات، أما الرجلين فمن التراب والشمس.

وتضحك الصغيرة، وتضحك معها نائلة خاتون وهي تقول لنفسها:

«الشمس إذا ارتفعت تقوي العظام، والبني آدم ما لازم يعاند، فإذا راح وجا الثاني تتعدل، تصير الرجلين خيزران، أقوى مِنْ الخيزران، بس تدفا الدنيا».

وجاء الربيع ثم انقضى، ونائلة خاتون تبذل جهوداً تتضاعف يوماً بعد آخر، كي تقف الطفلة، ثم كي تمشي، لكن كُلّ الجهود انتهت إلى نتيجة محزنة: الطفلة بعظام رجليها الضعيفة غير قادرة على الوقوف، وقد لا تقوى على المشي فِي وقت قريب.

هل يمكن لنائلة خاتون أن توافق أو أن تستسلم؟

لم تترك وسيلة. لم تتوقف لحظة واحدة عن المحاولة. انشغلت عن كُلّ شيء إلا هذه الأقدام الصغيرة. كانت تلف الساقين. كانت تفك اللفائف. كانت تبدأ بفرك القدمين إلى أن تصل الأفخاذ والحوض بزيت النارنج وماء الورد. كانت تقرأ عليها الأوراد طوال الليل، والأقدام عاجزة، لا تستجيب لسائل أو دعاء، ونائلة خاتون تزداد إصراراً.

استدعت كُلّ مِنْ له علاقة بطب أو رقية. بذلت بسخاء لعرافات جلبن لها نباتات مِنْ أمكنة بعيدة، وأكدن لها أنّه قبل أن يحول الحول، ستركض الصغيرة مثل غزالة، لكن وسائل الطب لم تجد، وعجزت نباتات العرافات عن تحريك قدمي الصغيرة.

حملت نائلة خاتون الطفلة إلى جميع الأضرحة والمقامات. نذرت وربطت الخيوط على الشبابيك وشواهد القبور، وبعد أن فكتها ربطتها مِنْ جديد على كاحلي الصغيرة، ربطتها برقة مع كلمات كثيرة امتزجت بدموع أكثر. طلبت مِنْ الخيوط ومحسنة معاً أن تفعلا شيئاً، لكن الخيوط صمتت، والصغيرة تفتح عينيها بحزن وهي ترقب الخيوط تأتي وتذهب لا تعرف لماذا... ولا يتغير شيء.

بعد الربيع والصيف ثم الشتاء، كُلّ شيء فِي محسنة يكبر ويتفتح إلا الساقان، فإنهما لا تكبران إلا بمقدار، وكلما كبرتا يزداد العجز ويظهر أكثر. ومع الكلمات الأسئلة التي تتبعثر مِنْ الفم الذي يشبه اللوزة، حين ترى مِنْ هو أصغر منها يتسلق الحائط ليقف، أو يمسك بأحد أصابع الكبار أرض، وتسأل محسنة:

- بيبي... شوكت أمشي؟

قيل إن نائلة خاتون ظلت تبكي ساعات بعد أن سمعت السؤال. كانت تبكي بحرقة، لم تخف دموعها، ولم تخجل وهي تنشج أمام الآخرين.

ومحسنة التي كانت تنتظر جواباً خافت حين رأت دموع نائلة ثم وهي تسمع نشيجها، فانخرطت هي فِي البكاء أيضاً، وظلت ترفض أية محاولة لنقلها إلى مكان آخر أو إبعادها عن نائلة، إلى أن انتزعت. وقيل إن محسنة مرضت وظلت مريضة إلى أن أعيدت إلى نائلة خاتون مِنْ جديد.

وجاء ربيع آخر بعد شتاء طويل. وداود باشا الذي انشغل بأمور عديدة، لم يستطع أن يتابع معالجة المسائل الصغيرة، أو أن يسمع تفاصيل ما يحدث كُلّ يوم، ومع ذلك لم ينسها، ولم تغب عن باله. لكن ما إن رأي نباهة الطفلة، وطلاقة لسانها، وما إن بدأت عيونها تدغدغ شرايين قلبه، حتى تعلق بها أكثر مِنْ قبل، وأصبح أقل استعداداً لفراقها. لم يكن ذلك شفقة أو حزناً، كان رهاناً كبيراً وتحدياً لا يفتر.

سأل داود الكثيرين. سأل أهل الطب والمنجمين والعرافين. سأل الكبار وأصحاب التجربة، لكن أحداً لم يستطع شيئاً، رغم الأدوية التي وصفت، والمساحيق التي سفتها الصغيرة أو مزجت مع طعامها وشرابها.

نائلة خاتون بعد أن مرت على مقامات الأولياء واحداً بعد آخر، زارت أضرحة تعرفها وأخرى ذكرت لها، وكان بعضها مجهولاً أو نائياً، وعدد منها أرضاً خراباً أو نتوءات فِي جدار أو عند مجرى ماء. ولم تستطع أن تجعل الدماء تعود إلى الساقين الضامرتين الرخوتين، فقررت أن تذهب إلى أبعد مِنْ ذلك.

ذهبت إلى سيدي محمد. ذهبت إلى سامراء. قضت أياماً عديدة فِي كربلاء والنجف. كانت تحمل الصغيرة، رافضة أن يحملها أحد غيرها، ورافضة أن يرافقها هذا العدد مِنْ التنابل، كما وصفتهم لداود، وهي تهييء الرحلتها إلى هذه العتبات المقدسة، فقد طلبت منه برجاء أقرب إلى التوسل، أن يبعد عنها أصحاب القلوب السوداء«الذين يخربون الشفاعة، ويسدون الطريق، ويجعلون الأئمة المباركين مثل المادي وهم يصرخون أمام أضرحتهم: كسوة وعشرين خروف ونيشان، وكأنهم يعلنون أن بنت الوالي مقرمة».

ذهبت إلى أكثر هذه المقامات كإمرأة فقيرة، تحمل على خصرها فتاة مجهولة، حتى إن الكثيرين أشفقوا عليها لما رأوها تحمل فتاة مثلها طولاً ووزناً، لكنها لا تبالي، لا تشعر أن حملها ثقيل. حتى الطفلة، فِي لحظات معينة، وبحركة مِنْ الجزء الأعلى مِنْ جسدها، تحاول أن ترتفع، أن تطير، لعلها تخفف وزنها، خاصة وهي ترى نظرات الإشفاق! قالت لها، وهي ترفع يديها فِي صحن مسجد أمير المؤمنين:

- بيبي... لا تديرين بال، أقدر أزحف.

وحركت يديها بطريقة معينة دلالة القوة والرغبة فِي أن تزحف، واستمرت فِي المحاولة.

نظرت نائلة إليها طويلاً، وكان الجفنان ثقيلين ويخلفان حرقة كاوية فِي العينين.

ردت، وهي تلتقطها، وتواصل الدوران حول الضريح - هذا أبو الحسن والحسين، هذا اللي يرد الغياب، واللي يهزم الكفار، ولا ينسى مظلوم، وما يقدر عليه ظالم، يقدر يقول لك: إمش بقدرة قادر، وتمشين!

وتواصل الدوران حول هذا الضريح، وحول الأضرحة الأخرى، مع الشموع والخيوط والخرق الممزقة. حتى أن صندوق الثياب الذي حمل مِنْ بغداد، مُلىء أكثر مِنْ مرة بثياب جديدة وزعت كلها، ليس على سبيل الصدقة، وإنما بالتبادل، لعل ثوب فقير يشفي الطفلة، لكن الطفلة عادت إلى بغداد بارجل أكثر ضعفاً، وبثياب مهلهلة، دون أن تدب الماء فِي الساقين أو فِي القدمين.

قال داود بعد أن تعب لتعب نائلة والصغيرة:

- المؤمن ممتحن، خاتون، ومحسنة ستكون شفيعتنا يوم القيامة، والصبر مفتاح الفرج، فلنصبر، ولنقبل بما أراده لنا الله عز وجل.

وافقت ولم توافق. فكرت بالحج والطواف وسكنى المدينة المنورة إذا مِنْ الله على الصغيرة بالشفاء، وبمقدار ما ترقب ساقي الطفلة، وتحاول أن تهرب مِنْ عينيها المليئتين بالأسئلة، فقد بدأت تراجع كُلّ ما أحاط بولادتها: ماذا حصل فِي تلك الأيام؟ مِنْ قُتل ومن قتله؟ والنهر هل ارتفع مثل السنين الأخرى أم أخلف عادته وتغير لأن الناس تغيروا؟

أسئلة تأتي وتهرب. ليست واضحة، ليست ثابتة. إنها مثل الوهج تبرق وتختفي بتعاقب لا يترك للعقل أو للقلب أن يتملي ما حصل.

حتى اللحظات التي كانت تميل فيها إلي إدانة داود، لأنه، كما سمعت، قتل هنا وهناك، وساق الجنود فِي هذا الاتجاه أو ذاك ليموتوا، لكنها لا تعرف كيف ترتب الأمور لتصل إلى نتيجة، أو لتحدد سبباً يمكن أن يكون وراء ما يحصل، فتقول لنفسها إن لداود قلباً يحتمل الجميع، وإنه أب ليس لأولاده وحدهم، بل ولأولاد الولاية كلها، وتتأكد أكثر حين تراه كُلّ صباح وهو يتفقد الأشجار والخيول وأقفاص الطيور. أما حين تسمع ضحكته فتقول، وقد يسمعها مِنْ حولها: - أبو يوسف ما يقدر يدوس نملة...

وتتذكر ساقي الطفلة، فيخرج صوتها غاضباً:

لكن رجله وهو مقبل تهذ هد، تنطق بليا كلام، وتقول آني!

وحين تستعيد رشاقته وهو يمتطي الحصان تقول:

- وبلمح البصر، وكأنه نسمة، الواحد يشوفه فوق الفرس! وتذكرت سعيد وأمه، وتذكرت ما قاله فيضي الأعرجي. كان فيضي يهم بقص شجرة صفصاف نبتت إلى جانب البركة الداخلية، وقد طلب إليه قصها لأن أوراقها كانت تفسد الممر وتولد الحزن، وهي تتدلى كخيمة.

كان فيضي قبل أن يهوي على الشجرة يردد:

«مِنْ قتل إنساناً بلا ذنب، مِنْ أمر بقص شجرة دون سبب، مِنْ منع عطشاناً مِنْ ورود الماء، أو حيواناً مِنْ لقاء جنسه وقت البذار، فبشره بالقتل، أو بوار الحال، والله على كُلّ ما أقول شهيد»..

راقبته نائلة خاتون أول الأمر مِنْ النافذة. كانت النافذة قريبة، فوقه تماماً. وبعد أن دار حول الشجرة مرات كثيرة، وكأنه لا يقوى على القيام بالمهمة التي كلف بها، ودخن غليوناً ثم ثانياً، وهو يهمهم، وقد سمعت بعض ما قال، قررت أن تنزل، وأن تسأله.

ا خاف حين رآها. أنكر أنّه قال شيئاً. وحين ابتسمت لتشجعه، قال كأنه يعترف.

ـ إنها مثلنا يا خاتون: وحيدة، والماء وحيد، وهي تتقرب منه، تتشاقي وياه، توشوشه، تشد شعره حتى لا يحس أنّه وحيد...

توقف لحظة ثم أضاف بصوت مختلف تماماً:

- الخاتون لا تريدها، لا تحبها. ما يخالف، لكن الأعرج بدل ما يقصوا رجله لازم يعطوه عوجية، عصا خيزران، حتى يتوكأ عليها ويمشي!

وعاد إلى اللهجة الاستنكارية:

- احلفلك بالعباس خاتون، أكو شجرة بالدنيا ما تهتز، ما تقول أريد وما أريد؟ أكو شجرة ما توقع أوراقها؟

وتغيرت اللهجة مِنْ جديد:

- لو كان بيهم خير، كان شدوا آذان حمودي وزيدان وأبو أرشيد، وقالوا لهم اكنسوا زين، ما نريد ورقة صفرا، لكن لمن أحكي، لمن أشكي؟

وقام إلى الشجرة. تفل بيده. قال، وهو يهم بالعمل:

- الله، سبحانه وتعالي، ما عنده حجارة، لكن يعرف شلون ينتقم! ولأن فيضي لم يقص إلا جزءاً مِنْ الأغصان المتدلية، ولم يبدأ بالساق بعد، فقد طلبت منه نائلة خاتون أن يتوقف، لأن هذه الشجرة يجب أن تبقى. وحين تطلعت إليها عيناه بتساؤل ممزوج بعدم التصديق، خوفاً مِنْ السواد غضب الخاتون، زوجة الوالي، قالت نائلة بحدة:

ـ هذي الشجرة قرة عين أبوها، محسنة، والأفندي ما يرضي.

وظلت شجرة الصفصاف تتدلي فوق الماء، كأمل أخير أنّه بحسنة هذه الشجرة قد تمشي محسنة... ذات يوم.

العادة أنّه مع وصول القوافل والبريد ينشغل الكثيرون فِي تقصي أخبار الولايات الأخرى، يسألون المسافرين العائدين عن الأسعار وأخبار المطر والجراد، وعن العجائب التي صادفوها فِي الطريق أو فِي المدن التي وصلوا إليها. ولا ينسون السؤال عن الولاة والأمراء والشيوخ، وخلال هذه الأسئلة يطرحون أسماء ووقائع معينة لتكون علامات يمكن على ضوئها أن يتابعوا الأخبار والأحداث فِي الأماكن الأخرى. ومن عادة المسافرين، خلافاً لأصحاب البريد، بعد أن يستريحوا يوماً أو يومين، أن يفيضوا فِي الاجابة على أسئلة وجهت إليهم وعلى أخرى لم توجه، وهكذا يعرف الكثيرون الأخبار، ويقدرون تقديراً متوجساً ما إذا ستتحسن الأحوال أم ستسوء.

قال مسافرون عادوا مؤخراً مِنْ البصرة، وبعد أن شهدوا سفناً إنكليزية عديدة وصلت إلى هنالك: «لو كان الامبراطور نابليون حراً طليقاً، كما كان مِنْ قبل، لاستطاع أن ينغص على الإنكليز حياتهم، لكن بعد أن هزم لم يعد أحد قادراً على الوقوف فِي وجه الإنكليز» قالوا ذلك وأضافوا بسخرية وحسرة: «غاب البزون إلعب يا فار».

الذين لم يسافروا، وسمعوا باسم نابليون يتردد، نظروا حولهم فلم يجدوا سوى عدد مِنْ القساوسة بملابسهم الغريبة وهم يهرولون فِي الدرابين، كي يجمعوا الصبية الصغار مِنْ أجل أن يعلموهم القراءة والكتابة. تساءل الكثيرون: ماذا يستطيع هؤلاء فِي مواجهة الإنكليز؟ وهل هم الذين يمثلون نابليون الذي يتحدثون عنه، ويقولون إنّه كان ملك البر والبحر، ووصل إلى أقاصي الدنيا؟

ليس ذلك فقط، حين رجع القنصل الإنكليزي مِنْ رحلته إلى أوروبا أواخر الصيف، وفِي الاحتفال الذي أقامه بهذه المناسبة، قال يخاطب وجوه المسيحيين «يجب أن يشعر المسيحيون منذ اليوم بالأمان الكامل، لأنهم فِي حماية التاج البريطاني. وأحب أن أزف البشرى للأخوة المجتمعين أن دير النمساويين أصبح بحماية المقيمية البريطانية» وحين سأله بعض المتابعين لأحداث العالم عن نابليون، ابتسم القنصل ابتسامة صغيرة، كأنه كان يتوقع هذا السؤال، وبعد أن أخذ نفساً عميقاً أجاب:

- يمكن اعتبار نابليون جزءاً مِنْ التاريخ القديم، الجزء الذي انتهى!

وكي لا تبدو كلماته غامضة أو مبالغاً فيها، أضاف:

ـ لقد أزعج هذا النابليون أوروبا والعالم كله، ولو تُرك وشأنه لما وجد العالم راحة أو سلاماً، لذلك كان تأديبه ضرورياً، وهذا ما تولته الإمبراطورية البريطانية العظمى، وانتهى الأمر.

ومن قبيل الثقة، ولإدخال الطمأنينة إلى قلوب الذين يستمعون، أضاف:

. صحيح أنّه كان بعيداً مِنْ هنا، وانكسرت محاولاته قبل أن تصل إلى شواطيء أو رمال هذه المنطقة، وغرق فِي الوحول الروسية حتى أذنيه، لكن يبقى تأديب مثل هؤلاء المغرورين ضرورياً، كي لا تتكرر المحاولة مرة أخرى!

ورغم أن صورة نابليون كانت مهتزة، غائمة، فِي أذهان أغلب الذين يسمعون كلام القنصل، فإن المشاعر تجاهه كانت تتراوح بين المحبة والخوف. فهذا الإمبراطور الذي دق أبواب الشرق، وأسمع صوته كُلّ العالم، لا يعقل أن يذهب هكذا أو بهذه السرعة. ثم ماذا لو أن غيابه مؤقت؟ وهل باستطاعة المسيحية أن تقوم وتنهض دون الكاثوليكية، دون أن تكون فرنسا موجودة وقوية؟

سأل أحد الآباء الكرمليين القنصل:

ـ سعادة القنصل...

كان يضم يديه فِي حجره، وينظر إلى الأسفل، وكأنه يراقب أصابع هاتين اليدين التي بدت عصبية:

ـ الكاثوليكية لا ترتبط بشخص، ومثلما الرب موجود ودائم، فإن غياب شخص، أياً كان الرأي فيه، لا يغير فِي طبيعة الكنيسة ودورها، لذلك نشعر أن القنصل سيرعى المسيحية كلها.

ردَّ القنصل بود وبتواضع:

- لتطيب نفس كُلّ مسيحي فِي هذا البلد، وفِي أيّ بلد آخر؛ إن قنصل جلالة الملك لا يفرق بين مسيحي وآخر، وإذا كانت الظروف السابقة، نتيجة ما حصل فِي أوروبا، خلقت شيئاً مِنْ سوء التفاهم، فإن غياب نابليون سوف يعيد للمسيحية مجدها ووحدتها!

رجال الباشا الذين نقل إليهم ما قيل فِي هذا الاجتماع، عن طريق الجواسيس، خاصة مِنْ اليهود الذين التبس دورهم على أنفسهم وعلى الآخرين، قالوا بنوع مِنْ الثقة: «ليقل القنصل، الذي يبدو كالديك، ما يشاء بعد أن غاب دور فرنسا، ولم يعد قنصلها، لكن سيشعر بالندم إذا عادت الأمور إلى ما كانت عليه»..

أحد رجال السراي القريبين مِنْ الباشا، بعد أن عاد الناس للحديث عن الموكب الجديد للقنصل الإنكليزي، ورداً على الذين سألوه عن ممثل فرنسا، هل سيعود أم سيبقى ذلك الإنكليزي وحده يصول ويجول، ردَّ بنوع مِنْ الحزن:

ـ لا يمكن لأحد أن يتوقع، فما دامت باريس غارقة فِي الظلمة، ويطارد رجالها بعضهم، سيبقى هذا الإنكليزي سبباً للدوار لنفسه ولغيره؟

وأضاف بطريقة لا تخلو مِنْ رجاء:

- ليساعد الله الرجال المخلصين...

ثم بعد قليل، وقد تغيرت النبرة:

السلطان يقدر الإمبراطور، وكذلك الوالي، لكن الأهم مِنْ ذلك:

ديار الإسلام، ماذا يمكن أن يحصل إذا هزم هذا الرجل أو تلك الدولة، وإذا انتصر هذا الملك وتلك الدولة، هذا ما يشغل بال والينا ويفكر فيه دائماً!

الذين سمعوا كلام رجل السراي فهموا ولم يفهموا، لكنهم قدروا أن الرجل لا ينطق عن الهوى، «وأنه يزن كلماته بميزان الذهب»..

الكلمة الأخيرة قالها الحاج شبلي، وكانت رداً على السؤال الذي ظل يتردد فِي قهوة الشط، هل أن قنصل نابليون سيعود مِنْ جديد إلى بغداد أم لم يكتف بذلك، إذ بعد صمت طويل، وكأنه يخاطب نفسه، قال بعصبية:

- كُلّ واحد منهم منفوخ مثل الظرف، يظن نفسه فيلسوف زمانه، ولذلك يقول كلاماً لا يفهم ولا يفسر، والناس تضرب الأخماس بالأسداس!

وتوجه إلى خالد الوائلي كأنه يعاتبه:

كان سليمان الكبير يفهم ويفسر حتى لغة الطير، كان ترجمان زمانه، فما قولك بما تسمع اليوم؟

حجي... طولة البال زينة، وهذي الديرة داها منها وبيها، فلا تروح بعيد!

ـ البعيد ما تاركنا يا ابن الحلال، لازمنا مِنْ زياقنا وما مخلي لنا فكة.

وكُلّ الله... حجي.

- منو إلنا غيره، يا معود؟

وبعد قليل:

ـ عليه توكلنا، وإليه ننيب، لكن ما أحد يدري شنو اللي يصير باجر.

قال الوائلي بمرح:

- باجر يتكفل بنفسه، حجي، لا تدير بال!

والإنكليز... شنو براسهم وشراح يسوون؟

- لو عندي علم وأدري انت الدنيا بألف خير...

وضحك، ضحك بمرارة ثم تابع:

ـ لو أعرف يا حجي جان قلت لك، وأنت تقول لغيرك، فإذا انطشت ووصلت للصغير والكبير تنلاص على الباليوز، ويقول: كبروا الزغار...

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت قاتمة:

لكن المصيبة أن الواحد ما يدري؟

هز الحاج شبلي رأسه عدة مرات، وهو يفكر بحزن، وحين خيم الصمت، قال عبد الله غبيشان:

- إلعب وحدك ترجع راضي!

قال الوائلي، وهو يهز رأسه بمرح:

- شوفوا الفستان شيقول...

وبعد قليل، وقد فارقت صوته السخرية:

- ليش الإنكليز مخليين أحد يلعب وحده يا معود؟ ماخذين الدنيا شاطي باطي، وما فاكين ياقة... يوم ويا عبد الله باشا، وثاني ويا سعيد باشا، يوم مع السلطان ويوم مع الشيطان، وتعالوا يا فتاحي الفال، يا أهل السيميا، افرزوا وفسروا: هذا مع منو؟ وهذا ضد منو؟ وآني... ويا نفسي أو ويا إبليس!

علق الحاج شبلي بأسى:

- بالمختصر المفيد، يا جماعة، الواحد منا دايخ!

إذا كان المسافرون نحو الجنوب، أو الذين عادوا مِنْ هناك، قد نقلوا عن نابليون هذه الصورة، فإن الذين عادوا مِنْ الشمال، مِنْ حلب وبيروت والشام، والذين وصلوا إلى مصر وعادوا منها، فإنهم يتكلمون عن هذا الكورسيكي بطريقة يمتزج فيها الإعجاب بالجموح، بالحزن الذي لا يستطيعون إخفاءه: «رجل أراد أن يغير العالم، أن يخلق عالماً جديداً»..

ويفيض هؤلاء فِي الحديث عن الانتصارات التي حققها نابليون. عن خوف ملوك أوروبا، وكيف كانوا يرتعدون إذا سكن أو تحرك، وكيف يحاولون التماس رضاه، والاستجابة إلى كُلّ ما يريده ويتمناه، لكن نابليون يندفع ليدك الممالك ويقول: لا آكل إلا مِنْ صيدي، ولا بديل عن الحرية والاخاء

والمساواة. وتتحرك جيوشه فِي كُلّ مكان، وتردد الجبال العالية والأودية السحيقة صدى الأناشيد التي تصعد مِنْ حناجر جنوده وهم يجتازون الدول ويطوون الممالك.

ويتردد الهمس، الذي ينقله مسافر بعد آخر، أن نابليون أعلن إسلامه، وأمنيته الوحيدة أن يزور الديار المقدسة، ولا بد أن يمر بالعراق أثناء الزيارة!

حتى باشوات بغداد كانوا يحسبون ألف حساب لهذا الثائر المجنون.

كانوا يتحدثون عنه بإعجاب لا يخفونه، ويؤكدون أن سفيره يلتقي بالسلطان وقتما يشاء، فِي الليل والنهار؛ والسلطان يتبادل والإمبراطور الهدايا والإعجاب، وإن الواحد يستجيب لما يطلبه الآخر. وللتدليل على صحة ما يقولون، يذكرون سليمان الصغير وخالد أفندي.

سليمان ما كان يُقدر له أن يصبح باشا بغداد لولا نابليون وسفيره فِي اسطنبول. أما خالد أفندي الذي يصول ويجول الآن، مِنْ ماردين حتى البصرة، مروراً بحلب والموصل وبغداد، فقد كشفه نابليون عندما كان سفيراً فِي باريس مِنْ أول مرة يراه! ولأن خالد أفندي صديق الباشا، فالحديث عنه يجري همساً: «لما استقبله نابليون، نظر طويلاً إلى عينيه، ثم تركزت نظراته على الجبين، وخلال دقائق انتهت المقابلة. وما كاد خالد يخرج مِنْ البلاط الامبراطوري حتى التفت نابليون إلى وزيره وسأله: أرأيت البقعة السوداء فِي جبينه؟

وحين صمت الوزير، لا يعرف كيف يجيب، قال له نابليون: لا يليق بمثل هذا الرجل أن يبقى فِي باريس، لأنه رجل سوء وجاسوس علينا وعلى دولته».

ولم يطل الأمر بخالد أفندي، طرد مِنْ باريس كما تطرد الكلاب السائبة. قالوا له: كش، فخرج فِي ليلة مظلمة دون أن يحس به أحدا ويضيف الذين يتحدثون: «منذ أن عاد مِنْ باريس، لا يفارق سفير ملك بريطانيا فِي اسطنبول. أما إذا جاء إلى بغداد فأنتم تعرفون أين يقضي أوقاته وبصحبة مِنْ»!

أما نعمان العاني الذي ذهب إلى القاهرة طلباً للعلم، وقضى هناك بضع سنين، حين غزا نابليون مصر، فليس لديه حديث أحب إلى قلبه مِنْ الحديث عن مصر خلال تلك الفترة:

ـ مصر بذيك الفترة انقلبت، تغيرت. ما ظل شيء بمكانه. حتى الشوارع والملابس والأسماء تغيرت. ما أقدر أقول أحسن أم لا، لكن أهم شيء: الغازيتا؟

يعرف أنّه بهذه الكلمة الأخيرة يضع الناس أمام لغز كبير. تتركز عليه العيون:

ـ شنو اللي قلته، نعمان أفندي، إنّه أهم شيء؟

- الغازيتا... أيّ نعم الغازيتا! ويأتيه أكثر مِنْ صوت: ـ شنو هذي البلية، يا نعمان أفندي؟ يحاول بعضهم أن يستعيد الاسم، لكن يأتي مختلفاً. ونعمان العاني يشعر بفرح أقرب إلى النشوة وهو يرى العيون مركزة عليه تنتظر حل هذا اللغز. يصمت وقتاً يعتبره كافياً، ويبدأ:

ـ على والديكم ألف رحمة، وهذا السؤال خوش سؤال!

تتوالى هزات رأسه، يصقل صوته وهو يوضح:

- بدل ما الواحد يسولف للثاني شنو صاير بالدنيا، الغازيتا هي اللي تسولف، تقول منو جا مِنْ السفر، منو مات، منو ترفع. كُلّ هذا مكتوب بالغازيتا، والناس تقرأه وتفتهم.

لا تزال الفكرة مبهمة وأكثر تشويشاً مِنْ قبل، فيسأل أحدهم:

- يعني مثل المنادي أبو طبل؟

ـ لا يا معود، ما كو أحد يصيح ولا أحد يدق الطبل، الغازيتا وحدها تقول كُلّ شيء!

ولئلا يفقد السيطرة على الموقف فِي هذه المتاهة التي وضع الناس فيها، يسارع بالتوضيح:

- لما وصل نابليون إلى مصر وصلت معه مكاين، الواحدة بكبر هذي القهوة أو أكبر، ووصل الكاغد، وبدل ما الواحد يكتب بالقصبة على الكاغد، المكائن تظل تدق بالليل وبالنهار، وكُلّ شيء ينختم على الكاغد، وثاني يوم الناس تصيح: نريد «بريد مصر»، ويشترون هذي المكتوب بيها كُلّ شيء. المتعلم يقرأ لروحه، واللي ما يعرف القراية يقرون له كُلّ ما مكتوب بالكاغد، وتشوف مصر مِنْ أولها لتاليها صارت تعرف شنو صاير بالدنيا!

وبعد قليل، وقد تهللت أساريره، يختم كلامه:

- هذي هي الغازيتا!

ويعلق أحد الموجودين:

ـ يعني مثل كتب التاريخ؟

لا، يا معود، هذي تحكي عن كُلّ يوم بيومه، شنو صار وشنو راح يصير؛ التاريخ سوالف الناس اللي ماتوا واللي ولدوا، وأخبار الحروب..!

ويسأل آخر:

- وهذي المختومة على الكاغد تطلع مرة بالسنة، بالشهر؟

ـ لو راد نابليون كان يقدر يطلعها كُلّ يوم، بس قال لروحه مرة بالأسبوع يكفي!

- يعني تطلع مرة كُلّ يوم جمعة؟

ـ أيّ نعم...

ويبتسم نعمان العاني ابتسامة كبيرة، وهو يُضيف:

- ومثل ما اكو غازيتا تقول للناس عن أحوال السياسة، اكو غازيتا مخصوصة للشعر واللغة والفقه والأدب... واسمها «العقد المصري»، ومكتوب عليها: دورية أدبية علمية...

فيعلق واحد بسخرية:

ـ يعني هذا صاحبنا نابليون جا لمصر حتى يعلم أهل مصر شعر العرب ودين الإسلام؟

ـ لازم تعرف، مولانا، أهل مصر هم اللي يكتبون بالغازيتا!

ـ يعني كُلّ واحد شايل ختمه وواقف بالسرا حتى يدمغ الكاغد؟

- مولانا... المكاين هي اللي تشتغل وحدها، لا اكو مهر ولا اكو دمغة!

وتتغير لهجة نعمان العاني، ويتغير شكله، وهو يقول:

ـ يحتاج لكم سنين وأيام يا أهل بغداد حتى تعرفوا شنو صاير بالدنيا!

يهزون رؤوسهم وهم يسمعون هذا الهراء، ثم بتعمد، ولإغاظة السيد نعمان، يقول واحد لآخر:

ـ ما علينا... شنو سمعت؟ شنو صاير بالدنيا يا أبو فلان؟

- سولف، يا أبو فلان، أنت تعرف الأكو والماكو!

- صدق.. يا جماعة... شكو ماكو؟ منو انصلب؟ منو آنلزم؟ منو انهزم؟

- لو كان عندنا كاغد أبو دمغة كان خلصنا مِنْ الأول والتالي...

- لك هذا اسمه أبو الغوازي!

- يا معود هذا اسمه: قال الراوي... يا سادة... يا كرام.

وتضج المجموعة بضحك صاخب فِي الوقت الذي يكون نعمان قد بدأ يستعد للمغادرة. كان لا يخفي ابتسامته، ويقول فِي نفسه: أهل بغداد عينهم وكحة، ما يصدقون إلا اللي تشوفه عيونهم، أما عن القال....

الباليوز، مثل عادته دائماً، حاضر، بل كثيف الحضور، لكن ضمن رصانة صارمة لا يتنازل عنها، ولا يتهاون بأي مِنْ شروطها ومقتضياتها.

فهو يرقب بعناية كبيرة كُلّ ما يحصل: كيف يعبر الناس عن فرحهم واستقبالهم للوالي، ماذا يقولون وكيف يتصرفون. حتى الانفعالات الصغيرة التي تظهر هنا وهناك يرصدها بدقة. يفعل ذلك بهدوء وصبر، ويتقصي دون تعب أو ملل كُلّ ما يحصل، ويبقى مع ذلك بعيداً عن المشاركة أغلب الأحيان، وبعيداً عن الظهور.

ومثلما فعل فِي المرات السابقة فعل هذه المرة أيضاً، لكن، ربما، بحرص أكبر، لأن داود ليس جديداً على الباليوز وليس غريباً عنه. وربما لأن ريتش أصبح أكثر نضجاً وتجربة وهو يقرأ إنفعالات الناس وطريقتهم فِي التعبير، فأهل هذه الولاية، كما قال لنفسه، يشبهون الأطفال أيام العيد، أو فِي مواجهة أشياء جديدة أو غير متوقعة. ينفعلون بسرعة يصخبون، وبعض الأحيان يجنون، لكن ما أن تنقضي أيام العيد، وما أن تصبح الأشياء التي أدهشتهم فِي البداية مألوفة أو عادية حتى يملوا منها وينسوها، ثم يبدأون مرة أخرى البحث عن الجديد أو غير المألوف.

وعلينا أن نحتمل هذه الفورة مِنْ الانفعال، تماماً كما يفعل الآباء فِي مواجهة أطفالهم، وأن نحكم السيطرة على ما يليها مِنْ الأيام..

ولما كان ريتش شديد الحرص على معرفة كُلّ شيء، وعلى ألا تفوته الصغيرة والكبيرة، فقد أوعز لرجاله أن يراقبوا ويتحروا أدق الأمور، لكن الأكثر أهمية أن يكون موجوداً داخل السراي، وأن يسمع ويعرف كُلّ ما يدور هناك، خاصة وأن داود يختلف عن سعيد... ويختلف عن غيره مِنْ الولاة.

وتذكر ريتش بمرارة كيف أن داود غادر بغداد، قبل بضعة شهور، ووصل إلى كركوك، قبل أن يعرف. لقد موه داود باشا سفره، ومعه هذا العدد مِنْ الرجال، ليس فقط على سعيد باشا، بل وعلى الباليوز أيضاً، رغم أن ريتش كلف اثنين مِنْ رجاله بتقصي أخبار داود بشكل دائم، ومعرفة ما يدور فِي أوساطه، وكان هذان الرجلان يعتبران نفسيهما مِنْ المقربين لهذه الأوساط، أو جزء منها. لا يريد ريتش الآن أن تتكرر خطيئة مِنْ هذا النوع، خاصة بعد أن أصبح داود والياً.

قال لنفسه، وهو يستعرض رجاله، وكيف يجب أن يكون بعضهم فِي السراي: «هذا الجورجي بمقدار ما يبدو طيباً وبسيطاً فهو شديد الخطر،

تماماً كالمياه الساكنة، إذ لا يُدرك عمقها، ولا يُعرف ماذا تخبيء فِي باطنها».

وإذ فكر ريتش ببعض رجاله، ومدى علاقتهم بالسراي، فقد تأكد أن داود لن يبقي أحداً منهم، مثل عادة أيّ وال جديد. فقد استبدل رجال التشريفات والحراسة والخدم والمسؤولين عن الإطعام والإسطبل، برجاله، خاصة وأنه كون لنفسه حاشية كاملة لما كان فِي الشمال، وقد رافقه هؤلاء ودخلوا معه عندما دخل بغداد.

قال له ميناس، وهو يصف موكب داود حين ينتقل مِنْ مكان إلى آخر:

الرجال حوله يحيطون به كالسور، وحراسه نمط غريب مِنْ الناس:

مهتاجون، عصبيون، قاتمو الوجوه، ينظرون إلى الناس بغضب ممزوج بالكراهية، ويدفعون بخيولهم الذين يحاولون الاقتراب، ولولا الابتسامة الكبيرة التي تملأ وجه داود، ولا بد أن حراسه كانوا يرونها، لارتكبوا حماقات كثيرة. إنهم حذرون إلى درجة الخوف، مرتبكون إلى حد لا يميزون بين الذين يحبون الباشا وبين الذين يريدون به شراً. ليس ذلك فقط، فقد نقل لي بعض رجالنا أن عدداً مِنْ تجار وآغوات بغداد، الذين لم تكن وجوههم مألوفة للحراس، تعرضوا إلى معاملة خشنة فِي بعض المرات، ومُنع بعضهم مِنْ دخول باحة السراي، وواحد مِنْ هؤلاء، وقد تعرض للدفع والإهانة: «رؤوف السعدي».

ردَّ ريتش بسخرية:

- رؤوف السعدي... إن الإنسان لا يميز فيه ما إذا كان متسولاً أو صاحب حانوت صغير، أو ربما سماكاً فرغ لتوه مِنْ بيع ما اصطاده ذلك اليوم؟

وبعد صمت تابع ريتش وكأنه يحدث نفسه:

هؤلاء الشرقيون ملتبسون ومجبولون بالفوضى والتناقض، لا تميز فيهم الغني مِنْ الفقير، أيهم الطيب وأيهم الماكر، ومن هو الفرح ومن هو الحزين. بل أكثر مِنْ ذلك تبدو عليهم الغبطة حين يوقعونك فِي خطأ التمييز، أو لم تسعفك فراستك بالمقدار الكافي لتحديد الصفات والمراتب!

ولأن ميناس مِنْ سكان البلاد، ويعرف أكثر مِنْ ريتش طباع الناس وطريقتهم فِي التصرف، ولأنه أقدر على التمييز أيضاً، قال كمعلم:

- بل ويحاولون خداعك يا مستر ريتش، نعم، إنهم يفعلون ذلك إذا لم يكونوا مطمئنين...

وتابع بلهجة الواثق:

حين أرسلتني، يا مستر ريتش، لشراء الأرض الشرقية، ذهبت للقاء المالكِ. سألت أكثر مِنْ واحد كي يدلني عليه، وكُلّ مِنْ اِسأله يريد أِن يعرف

لماذا أبحث عنه قبل أن يجيب عن سؤالي. حتى هو سألته، وقبل أن يجيب نظر إليّ طويلاً وسألني ماذا تريد منه، ولم يعترف أو يعلن عن نفسه إلا بعد أن أطمان!

بدت القصة طريفة لريتش، إذ لم يسمعها مِنْ ميناس قبل الآن، سأل بفضول:

- وماذا تظن وراء هذا التكتم؟ ـ إنهم، يا سيدي، يخافون مِنْ القتل، كما يخافون مِنْ الحسد، مِنْ الابتزاز أو الغدر..

وضحك ميناس وهو يُضيف:

- وربما يخافون مِنْ أنفسهم يا مستر ريتش!

- يخافون مِنْ أنفسهم؟ سأل ريتش، إنهم غريبو الأطور؟

- يقول المتدينون: على الإنسان أن يكون مثل ذرة الرمل، مثل قطرة الماء، صغيراً، متواضعاً. وكما تشبه ذرة الرمل ذرة الرمل، وكما تشبه قطرة الماء قطرة الماء، يجب أن يشبه الإنسان الإنسان. وهم بهذه الطريقة يكتسبون الثواب، ويصبحون أقرب إلى الله. هكذا يقول المتدينون، لكنني لا أصدقهم، يا مستر ريتش!

ـ ألاحظ شيئاً مثل الذي تقوله، وألاحظ أيضاً أنهم يسرفون فِي بعض المظاهر، خاصة بالأكل والشراب، وأحياناً بهذا الكرم الأبله، إذ يمكن أن يعطي الواحد كُلّ شيء دفعة واحدة ولمن لا يستحق، وفِي أحيان أخرى يفعلون العكس، فكيف تفسر مثل هذه التصرفات؟

ـ إنهم كالأطفال لا يقدرون نتائج ما يفعلون. المهم أن يثبتوا وجودهم، ويظهروا متفوقين بنظر أنفسهم وبنظر الآخرين!

ورغم أن مثل هذه المناقشات تمتع ريتش وتستهويه، ويحاول أن يسمع أكثر مما يتكلم، فإنه غالباً يأخذ دور المدقق، فهو يسأل ويستوضح لعله يفهم بشكل أفضل هؤلاء الشرقيين، الذين يثيرون حيرته وفضوله فِي آن، إلا أنّه ليس مِنْ البلاهة إلى الدرجة التي يمكن أن تستغرقه مثل هذه الأمور الآن. إنّه رجل عملي قبل أيّ شيء آخر، والإنسان لا يكتسب مثل هذه الصفة إلا مِنْ خلال قدرته على مواجهة المشاكل وإيجاد الحلول لها، وهذا يتطلب أن يرجىء أموراً وأن يعطي الأولوية والأهمية لأمور أخرى.

سأل ميناس ليعيده إلى بداية الحديث:

قلت لي إن حرس الباشا قساة أجلاف، وإنهم جاءوا معه مِنْ الشمال؟

هذا ما رأيته وهذا ما أكده رجالنا!

ومعنى ذلك أن يكون له حرس جديد؟

هذا ما أتوقعه، يا سيدي.

ولا بد أن يكون لنا رجال بينهم.

- عندما يجوعون سيلجأون إلينا، كما فعل قبلهم حرس سعيد باشا.

وهل ننتظر حتى يجوعوا؟

سأل ريتش بهذه الطريقة الساخرة، وغمز بعينه، وكأنه يطلب منه أن يبدأ دون إبطاء بإيجاد موقع قدم بين هؤلاء بعد فترة صمت قال، وبدت لهجته مختلفة، وفيها تحدي:.

منذ الغد يجب أن نعطي فرصة للحيوانات التي طال حبسها فِي الأقفاص. علينا أن ندهش أهل بغداد وان نقول للوالي عن بعض ما نملك، وما لدينا مِنْ عجائب!

دارت عينا ميناس فِي محجريهما مثل دورة بندول الساعة، بان عليه الاستغراب مِنْ طريقة رئيسه فِي التفكير، كيف ينتقل مِنْ موضوع إلى آخر، دون أن تكون هناك صلة بين المواضيع، لكن وجد أن مثل هذه الفكرة يمكن أن تغير مزاج الناس واهتمامهم، خاصة وأن عدداً مِنْ الحيوانات التي وصلت مؤخراً مِنْ الهند انتقلت فوراً مِنْ المركب إلى الحظائر، دون أن يتاح لها فرصة العرض أو أن يراها غير المشرفين عليها ورغم أن الطواويس الأربعة الموجودة فِي الباليوز تتردد أصواتها، وتسمع فِي منطقة واسعة مِنْ المدينة طوال النهار، فإن تلك الأصوات الحادة، والتي لا تخلو مِنْ نشاز، أثارت الكثير مِنْ الاهتمام، وكان يشفع لها جمال ريشها، وتلك الخيلاء فِي المشي والحركة حين تبدأ استعراضها فِي الحديقة الغربية، الأمر الذي كان يدفع الكثيرين إلى الاقتراب لرؤيتها والتعبير عن إعجابهم الشديد. كانوا يصطحبون معهم أطفالهم وبعض الضيوف... إذا كانت هذه الطيور تلاقي الاستغراب والفضول، فإن الناس حين يرون الحيوانات الأخرى سيذهلون.

وريتش الذي أدرك منذ وقت مبكر مدى اهتمام الناس بكل ما يصدر عن الباليوز، فقد لفت نظره أن حيوانات الباليور تحظى باهتمام كبير. كان يروق له، بعض الأحيان، بمنظاره المكبر، مراقبة الناس الذين يتجمعون بالعشرات لرؤية الطواويس والقرود، وكان يطلب مِنْ الحرس والمشرفين على الحدائق أن ينقلوا إليه تعليقات وانطباعات الذين يتفرجون على هذه الطيور والحيوانات، وقد حرص أكثر مِنْ مرة على تدوين بعض الانطباعات والأقوال.

أما خيول الباليوز المتنوعة، وكيف ينظر إليها كُلّ مِنْ يراها بإعجاب يصل حدود الأفتنان، فإنها كانت حديث الكثيرين، وموضع سؤالهم. وبلغ الأمر بعدد

مِنْ الأغنياء والشيوخ أن تجرأوا وتساءلوا ما إذا كان الباليوز يوافق على بيع بعض هذه الخيول، فإنهم مستعدون لدفع ما يطلب منهم.

لم يقولوا ذلك لأحد مِنْ رجال الباليوز مباشرة أو بشكل واضح، لكن هذه كانت أمنيات بعضهم، وكانت مثار أسئلة آخرين، وهم يفترضون أثماناً لهذه الخيول.

مثل هذه الأحاديث والأمنيات تتسع وتقوى حين يمر موكب القنصل، سواء فِي طريقه إلى السراي، أو إلى خارج المدينة للصيد.

وإذا كان لكل مِنْ المركبين مراسيمه الخاصة، وطريقه المختلف، ومواعيد تكاد تكون ثابتة، فان موكب الصيد كان يخلق شحنة مِنْ الأنفعال قلما يحظى بها موكب آخر. إذ بالإضافة إلى الملابس الخاصة، وهي شديدة الغرابة، ولم ير أهل بغداد مثلها مِنْ قبل، خاصية القبعات والقفازات والأحذية الطويلة، فإن ما يستقطب اهتمام الناس إلى أقصي حد ذلك العدد الكبير مِنْ الكلاب التي ترافق القنصل وأنواعها وأحجامها وطريقتها فِي التصرف وردود أفعالها وهي تمر بين الحشود التي تصطف على طرفي الطريق الذي يمر فيه الموكب، وكيف تنفعل تلك الكلاب، وتظل حذرة، وبعض الأحيان عدوانية، حين ترى جميع العيون تراقبها وتنصب عليها مِنْ كُلّ ناحية.

هذه بعض التفاصيل الصغيرة المتعلقة بالباليوز، والتي رآها الكثيرون.

أما تلك التي سمعوا بها ولم يروها فإنها تفوق الوصف وتتجاوز كُلّ تصور:

الأسود الكثيرة الموجودة فِي الأقفاص، والتي يُسمع زئيرها فِي بعض الليالي فتثير الفزع، ثم النمور التي وصلت مِنْ أمكنة عديدة، والقرود، وتلك الأعداد الهائلة مِنْ الطيور الملونة، خاصة الأفريقية، وتلك التي جيء بها مِنْ الهند. وقد أهدى ريتش عدداً مِنْ الببغاوات إلى بعض رجال السراي، ومنهم درويش آغا، وقيل إنها كانت تردد كلمات بالعربية والإنكليزية، والأرمنية، وكانت حديث المدينة. ولما لجأ درويش آغا إلى الباليوز، حرص على اصطحاب الببغاء، فتحول اسمه، بين رجال الباليوز، منذ ذلك الحين، إلى بيبي متو!

وريتش الذي بدأ هاوياً فِي حب الكلاب والخيول، أصبح يدرك أهمية ما يملك مِنْ حيوانات. إذ بالإضافة إلى المتعة التي يشعر بها وهو يراقبها أو يعتني بها، فقد كان يقضي ساعات متنقلاً بين الحظائر والأقفاص، وبلغ به التعلق خلال فترة معينة أن يؤثر قضاء الوقت معها على أن يقضيه مع هؤلاء الذين لا يملون مِنْ الحديث عن ذكائهم وما حققوه مِنْ أعمال، فِي الوقت الذي تدل أشكالهم وأحاديثهم عن الغباء والسماجة وحتى قصور الخيال،

مقارنة مع الحيوانات والطيور التي تشتعل بالذكاء والخفة؛ الأمر الذي جعل ريتش يفكر بتحويل الملاحظات التي دونها إلى كتاب، لكنه احتار كيف يمكن لكتاب واحد أن يجمعها، فِي الوقت الذي تجتمع هي فعلاً فِي الباليوز، وتخلق هذا الكم مِنْ المتعة، والتي يريد أن يوصلها إلى الآخرين!

قال لنفسه، وكان عائداً مِنْ الإسطبل، وكانت رائحة الخيل تشي به دون صعوبة مِنْ أيّ نوع: ستعرف ماري، حين تشم الرائحة، أن هناك مِنْ ينافسها فِي حب كلود.

كان راضياً عن نفسه، وكان مصمماً على إدهاش أهل بغداد. قال بصوت عالي:

ـ سوف يدرك هؤلاء الناس ماذا يعني الباليوز... ومن هو ريتش.

لم يكن أيّ مِنْ القصرين، السراي والباليوز، فِي عجلة للوصول إلى ترتيب العلاقة بينهما بشكل كامل. فالسراي يعج بالوفود، وإنشغالات الباشا بإعادة النظر بالرجال والمواقع تأخذ معظم وقته. والباليوز ظل مترقباً، مثل الأيام الأولى، رغم مظاهر الود التي تتواصل بين الطرفين، وإن شاب تلك المظاهر الحذر، سواء فِي الاتصال أو طريقة التعبير.

داود باشا الذي بدأ عسكرياً منذ نعومة أظفاره، واكتسب الكثير مِنْ الخبرة فِي رحلته الحافلة، سواء بالمعارك التي خاضها، أو بالمدة الطويلة التي قضاها فِي السراي، أصبح الآن، وبعد أن خاض آخر معاركه فِي مواجهة سعيد باشا، يميل إلى التخلي عن المظاهر العسكرية، فما أن مرت فترة حتى تخلى عن بزة القائد العسكري، وأصبح فِي حديثه اليومي أكثر اختصاراً، ويمتلئ بالدين والتقوى، ويترصع بالتاريخ والشعر، ويحض على التسامح وتجاوز الماضي بدمائه وأحقاده. وأخذ يقرب يوماً بعد آخر الرجال الذين ليس لهم علاقة بالحرب، خاصة الذين خاضوها معه.

حتى القوات العسكرية التي ملأت بغداد خلال الأسابيع الأولى، أخذت تخلي معسكراتها، وتنتقل إلى أماكن أخرى. قيل إن جو بغداد لم يلائمها، فقد وقع عدد كبير مِنْ الجنود مرضى، وأخذت تنفق أعداد متزايدة مِنْ الخيول. وقيل إن قادة الجند هم الذين طالبوا بمغادرة المدينة بعد أن زادت الحرارة، ولم يعودوا يحتملون هذا المقدار مِنْ المصاعب للرجال والحيوانات. وانتشرت إشاعات أن الجنود الذين قدموا مِنْ الشمال طالبوا بالعودة مِنْ حيث أتوا. بعضهم قال إنّه سيعود بشكل نهائي، وبعضهم قال إن الأمر لا يتعدى إجازة بضعة شهور، ولا بد أن يعودوا بانتهاء شهور الصيف.

ميناس الذي ينقل لريتش أخبار مغادرة الجنود، وكانت أخباره لا تخلو مِنْ التساؤل والارتياب، وتتضمن الكثير مِنْ التفاصيل التي ينقلها رجال الباليوز المكلفون بأبواب بغداد، ويفترض أن يقدموا معلومات عن القوات والمواد التي تدخل إلى المدينة أو تخرج منها.. هذه المعلومات التي ينقلها ميناس، كان ريتش يعقب عليها بأسئلة لا تخلو مِنْ ملامة:

- إلى أين تذهب هذه القوات؟ وما هو هدف تحركها؟ هذا هو السؤال.

وميناس بالدقة المتناهية للمعلومات التي يقدمها، وغالباً يبدو فخوراً أنّه حصل عليها، بعد أن يواجه بأسئلة ريتش، يشعر بالارتباك والحيرة. كيف

يمكنه أن يعرف الهدف؟ وهل يُفترض بأي تحرك أن يكون له غرض مباشر أو هدف محدد؟

أما ريتش الذي تصله هذه الأخبار مِنْ مصادر أخرى، فيريد أن يشعر رجاله بضرورة الانتباه أكثر مما يفعلون، وأن يبذلوا جهداً لمعرفة ما وراء الحركة المباشرة، ما وراء المظاهر التي يراها الكثيرون. كما عليه أن يعيد ترتيب علاقاته، وأن يختبر تحالفاته، لأنه الآن بمواجهة والي مِنْ نمط مختلف.

حتى مظاهر القوة التي يتمتع بها الباليوز يجب أن تكون واضحة ورادعة، ولا بد أن يشعر بها الوالي ليفكر كثيراً قبل أن يقدم على أيّ عمل، وهذا يقتضي استعراض القوة بين وقت وآخر، كي لا ينسى أبداً. كما أن رؤية الناس العاديين لهذه القوة مِنْ شأنها أن تضغط على السراي، لأن السراي يرى ويسمع أغلب الأحيان مِنْ خلال الآخرين.

هذه القناعة دفعت ريتش لأن يزيد عدد قوات الحراسة، وأن يجدد أسلحتها وثيابها، كما دفعته إلى العناية بمظاهر ومواعيد تبديل الحراسات، وأن يرافق ذلك صدوح النفير ودق الطبول. أما السفينة النهرية الرابضة قبالة الباليوز، فقد زيد عدد العاملين عليها، وقيل إن طاقم السفينة، آن ماري، التي جاءت بزيارة، ورست إلى جانب سفينة الباليوز، عادت إلى البصرة ولم يبق على ظهرها الأن ما يكفيها للإبحار. أما البحارة والجنود الكثيرون فقد أحدثوا هرجاً على ضفتي النهر ما آن اقتربوا، ثم فِي المدينة ولأيام عديدة، فقد بقي القسم الأكبر منهم، وكانوا خليطاً مِنْ الكركة والأفارقة، أما القادة فكانوا شديدي الشقرة، وقد توقع لهم أهل بغداد أن يذوبوا تماماً قبل أن ينتهي الصيف!

أما ما حملته السفينة الزائرة فكان موضع تساؤل واهتمام، إذ رأى الناس مِنْ الضفة الثانية أشياء كثيرة تفرغ مِنْ السفينة. ومع أن عدة زوارق اقتربت منها، وفِي أوقات مختلفة، لمعرفة أنواع الحمولة وكمياتها، إلا أنها لم تصل إلى نتيجة واضحة، مع أن التفريغ استمر الليل بطوله واليوم التالي.

أما أثناء النهار فقد مُدت أشرعة وفردت أقشمة عريضة، بحيث تعذر معرفة ما وراءها أو ما تحتها، مما حدا بعدد مِنْ الشعراء الشعبيين إلى نظم قصائد وهم يراقبون مِنْ الضفة الأخرى أنوار المشاعل والأشباح تتحرك حولها طوال الليل، بحيث تبدو مثل أعراس الجن، كما وصفها أحد الشعراء!
أما الدعوات والحفلات التي أقيمت فِي الباليوز، فقد رُوعي إحاطتها بالمظاهر الباذخة، وأفانين الاستعراضات الفخمة والصارمة معاً، بحيث بدا ريتش فِي هذه المرحلة أكثر ثقة، خاصة حين ارتدي ملابس قائد بحري أثناء الحفلة التي أقيمت لقبطان آن ماري وبحارته، وحرص على تقليد القبطان وشاحاً خاصاً، وقد تم إعداده بسرعة، وأعطي اسماً جديداً وغير مألوف:

«الوشاح الرواد والمكتشفين - ما بين النهرين» وكان هذا مقابل الوسام الذي قدمه القبطان لريتش.

لقد جرى تبادل الأوسمة فِي جو احتفالي مهيب، وذكر عدد مِنْ الضيوف أن ملابس ريتش العسكرية كانت جليلة مهيبة، إلى درجة تفوقت على كُلّ الأزياء التي تعود ارتداءها فِي مناسبات مختلفة. أكثر مِنْ ذلك، وأثناء حفلة العشاء التي أقيمت فِي حدائق الباليوز، اقترح بعض الضيوف، مِنْ قبيل التقدير، لو أن القنصل يستمر على ارتداء هذا الزي! كان ريتش يتقبل التهنئة وكلمات التقدير مثل أيّ عسكري محترف:

إبتسامة صارمة، التفاتات بالغة الوقار، وبطريقة مدروسة، إضافة إلى هدوء بارد ليعطي للموقع والزي ما يستحقانه مِنْ اعتبار. أما عندما تتالت كلمات التقدير ممتدحة الزي بالذات، متمنية أن يعتمده ريتش دائماً، فقد قال كلمة تناقلها الكثيرون: «لا يزال الوقت مُبكراً لهذا الزي، أما حين يتم إنجاز مشروع تنظيم الملاحة فِي النهرين، بالاتفاق بين بريطانيا العظمى ودار الخلافة فِي إسطنبول، وبهمة الوالي الجديد، داود باشا، ويعتمد هذا الطريق كطريق للبريد والقوافل بين بريطانيا العظمى والهند... حين يتم إنجاز هذا المشروع، وأكون على ظهر أول باخرة تبحر مِنْ البصرة إلى أعالي دجلة والفرات، فسوف أعتمد هذا الزي»..

أغلب الذين سمعوا ما قاله ريتش، ثم إيضاحاته على مائدة العشاء، وبعد ذلك، فهموا ولم يفهموا، لكن قدر الجميع أن عصراً جديداً ينتظر هذا البلد، وما كان ريتش ليقول ما قاله لولا إتفاقه مع الوالي، وإتفاق بريطانيا مع إسطنبول. ومع ذلك ظلت الصورة غامضة مشوشة، ولم يُعرف كيف ستُنفذ أو متى؟

وإذا كان مثل هذا الكلام يعني رجال الدولة، وقد يستمرون فِي تقليبه على وجوه كثيرة، لمعرفة ما سينتج عنه، فإن الناس فِي الأسواق والمقاهي، فهموا الأمر، أو نُقل إليهم، بشكل مختلف. فقد وصل إلى علم الناس أن الآغا عرض على ريتش أن يتبادل وإياه الأزياء! وقيل إنّه طلب مِنْ القبطان، وقد ترجم بينهم عزرا، ورجاه أن يؤمن له عدداً مِنْ هذا الزي، وأبدى استعداده لدفع الثمن مقدماً! وبالغ بعض الناس فذكروا أن الآغا تبادل مع القبطان المسدسات، عربون الصفقة الجديدة، وأنه استأذنه فِي أن يجرب القبعة التي يرتديها، واستدعى عدداً مِنْ رجاله ليقدروا ما إذا كانت ملائمة أم لا!

إنها أحاديث ليل، كما يقال، إذ تتغير وتتبدل مِنْ واحد لآخر، بين يوم ويوم. أما الشيء غير القابل للتغير أو التبدل فهو ما تراه العين. وهذا ما حصل بعد عشرة أيام مِنْ مغادرة آن ماري، وظهور ملامح بعض ما كانت تحمل.

فالأرض شرق الباليوز، والتي تم شراؤها قبل سنة وبضعة شهور، وكانت عبارة عن بستان مزروع بالنخيل وأشجار الحمضيات والفواكه، ومحاطة بسور طيني يخفي ما وراءه، قيل إن الأرض اشتريت لتوسيع الإسطبل، وقد تواصل العمل فيها خلال المدة الماضية كلها. أما حين أزيل الحائط الطيني مِنْ حولها وانكشفت، فقد تبين أنّه أقيمت فوقها حظائر عديدة لحيوانات لم يسمع بها مِنْ قبل، وأقيمت فِي الجهة الأخرى أقفاص ضخمة أشبه بالغرف الواسعة المحاطة بأسلاك لتصبح مثل الشباك، وتسبح داخلها أنواع مِنْ الطيور بأشكال وألوان وأحجام متفاوتة إلى أقصى حد.

حين أنجز ذلك سمح للناس الاقتراب مِنْ السور الجديد، وهو مِنْ الأسلاك الشائكة، وقد حل مكان السور السابق، واستمر هذا السماح الثلاثة أيام، وتقاطرت الجموع مِنْ كُلّ مكان لتلقي نظرة، عبر السور، على الحيوانات والطيور، مما اضطر الباليوز إلى تنظيم مرور الناس، وعدم السماح بالتوقف لفترة طويلة، ومنع الضجيج أو رفع الصوت، لئلا تتهيج الحيوانات. هذه الأيام الثلاثة قلبت حياة المدينة، وجعلت الناس لا يتحدثون إلا عما رأوه، فأفاضوا فِي إيراد التفاصيل والأوصاف وزاد الكثيرون مِنْ عندهم أشياء افترضوا أنهم شهدوها بأعينهم، أو هكذا تهيأت بعد الأيام الثلاثة قال حراس الباليوز، وهم يمنعون الناس مِنْ الاقتراب، «مثلما البشر بحاجة إلى الراحة والنوم، فالحيوانات والطيور كذلك، وإلا تصبح خطرة أو تتعرض للمرض»..

ولم يكن أمام الناس إلا الإذعان، رغم شعورهم بالخيبة، وتجلت الخيبة أكثر ما يكون لدى النسوة، مِنْ أجل أنفسهن، ومن أجل الأطفال، خاصة بعد أن تملك الانفعال والنزق بالأطفال والصبية، لأنهم لم يشاهدوا تلك الحيوانات بالمقدار الكافي!

ومثل عادة ريتش أيضاً: لم يظهر كُلّ ما لديه دفعة واحدة.

فالمفاجأة الكبرى، كما أخذت تنتشر الأخبار، ستظهر خلال الأيام القريبة، وسوف ترى بغداد شيئاً لم تره مِنْ قبل، هذا ما بدأ يتردد فِي أماكن كثيرة.

بعد أسبوع على العرض الأول، وفِي محاولة لتطويق الخيبة، نتيجة وقف زيارة الحيوانات، خاصة للذين لم تتح لهم الفرصة لرؤيتها، فقد سرب رجال الباليوز أخباراً أن ما غرض لا شيء قياساً لما سيعرض.

بعد تسريب الأخبار الأولى أخذت تضاف إليها كُلّ يوم تفاصيل جديدة: «راح تنقلب بغداد، انتظروا» «اللي راح تشوفوه ما راح تنسوه طوز عمركم!» «اللي شفتوه الحيوانات الزغيرة، أما اللي راح تشوفوه فأكبر مِنْ كُلّ ما تتصورون».

ومع كُلّ تفصيل جديد يزداد شوق الناس، ويزداد فضولهم. ما هي الحيوانات التي يتحدث عنها رجال الباليوز؟ وكيف أمكن تخبئتها ورا الأسوار طوال الفترة الماضية دون أن يعرف الناس؟ وهل توجد حيوانات أكبر مِنْ الجمل وأقوى مِنْ الأسد، وأعجب مِنْ السعدان؟

ورجال الباليوز لا يكفون يوماً واحداً عن الإثارة وخلق المزيد مِنْ التحريض، والناس ينتظرون ويتساءلون؟

حين انتصف الأسبوع اندفع رجال الباليوز إلى الأسواق والمقاهي.

كانوا لا يتوقفون إلا دقائق قليلة، وخلال هذه الدقائق ينشرون الأخبار ويحرضون ويتحدون. كانوا يفعلون ذلك وهم شديدو الفرح، شديدو الوثوق. وحين يحاول الناس الاستفسار وسؤالهم أكثر عن الحيوانات، كيف هي، وما هي أسماؤها، كان رجال الباليوز لا يعرفون كيف يجيبون، وحتى لو أجابوا فكانوا يزيدون الأمور غموضاً!

يوم الأربعاء تغير الجو تماماً. غاب رجال الباليوز، وتسربت معلومات لا يُعرف مِنْ سربها، أن الباليوز قد توقف عن عرض هذه الحيوانات!

لكن بعد ظهر اليوم ذاته، وأكثر مِنْ كُلّ الأيام السابقة، قال رجال الباليوز إن الحيوانات التي سيتم عرضها لن تعرض فِي الحدائق المغلقة، ولن تتم رؤيتها مِنْ بُعد، وإنما ستجتاز أسواق بغداد وشوارعها، شرط: أن يعامل الناس الحيوانات بالاحترام والرقة التي تليق بها.

صباح الخميس ارتفع النفير فِي الباليوز. كان النفير مختلفاً عن أيام سابقة، مِنْ حيث النغم وفترة الصدوح، وتلا ذلك دق الطبول، إيذاناً بأن موكباً سيخرج، كما هي العادة حين يخرج القنصل فِي طريقه إلى السراي، وأيضاً حين يستقبل ضيوفاً بارزين.

خرجت كوكبة مِنْ الفرسان بثياب الاحتفال، وكذلك كانت الخيول.

كان سيرها خبباً، وعددها ليس كبيراً. اتجهت فوراً إلى الميدان، وسط المدينة. فِي الميدان كان أحد المنادين الذين تستعين بهم القنصلية عادة إذا أرادت إبلاغ الأهالي بخبر مِنْ الأخبار، وكان إلى جانب المنادي ترجمان القنصلية، جوزيف دير اني.

بعد أن نادي المنادي، والناس يسمعون ويراقبون الفرسان والخيول والترجمان، طلب السكوت والإصغاء لما سيقوله ممثل الباليوز، نيابة عن القنصل.

نظر جوزيف ديراني طويلاً إلى الوجوه، بعد أن خيم الصمت، ثم جاء صوته هادراً:

ـ يعلن سعادة القنصل، ويبلغ عموم الأهالي، أنّه بمناسبة عيد جلوس ملك بريطانيا العظمى، سيقدم استعراضاً كبيراً، وسوف يرى الأهالي حيوانات لا مثيل لها فِي كُلّ العراق، وهذا الاستعراض يدوم يوماً أو يومين، بشرط أن يلتزم الأهالي بالسكينة وحسن النظام، مع أخذ العلم أن الحيوانات الضخمة التي ستعرض على الأهالي شديدة الخطر إذا تهيجت.

فالمطلوب ثم المطلوب، وعلى الحاضر أن يبلغ الغائب، وعلى الكبير أن يبلغ الصغير، التزام جانب السكينة والحذر. ويمنع الاقتراب مِنْ الحيوانات، أو المناداة بالصوت العالي، كما يمنع الضحك قهقهة، وكذلك الصفير ودق الطبول، وكذلك يمنع الزيك والعفاط، وكُلّ ما مِنْ شأنه أن يعكر أمزجة الحيوانات.

يا أهل بغداد... اسمعوا وعوا، واعرفوا أن التجاوز يقلل مِنْ الفرح والمتعة، وسعادة القنصل يتمنى لأهل الولاية جميعهم الصحة والبهجة والموفقية.

بدأت تُسمع مِنْ البعد أصوات الطبول. كان الدوي يصل على شكل موجات متتالية، وكأنه آت مِنْ أعماق سحيقة، خاصة وأن الصمت ختم على المكان فجأة، بسبب الترقب والانتظار، وما يشبه الخشية. بل أكثر مِنْ ذلك كان الناس يتلفتون ليس فقط إلى الجهة التي يأتي منها الصوت، بل وإلى الجهات الأخرى أيضاً، وكأنهم يختبرون المكان، أو يتحوطون للهرب فيما لو تعرضوا إلى خطر مِنْ نوع ما، رغم أن الجميع قرروا فيما بينهم أن يلتزموا أقصى حالات الحذر.

ومثل مواكب القنصل السابقة، كانت فِي الطليعة كوكبة الفرسان، بالثياب المزركشة، والسيوف تلمع فِي الهواء. وبعد الفرسان كانت مجموعة مِنْ العربات تجرها بغال قوية، وفوق كُلّ عربة قفص كبير، وداخل كُلّ قفص حيوان أو اثنان. كانت أغلب الحيوانات ضخمة غريبة الأشكال، حتى القرود التي عرضت كانت باحجام وأشكال عديدة ومختلفة. وقد أثارت اهتماماً ترافق مع ضجة مكتومة، خاصة وأن القرود فِي ذاك اليوم بدت فِي حالة مِنْ الانشراح، ربما بسبب الدفء الذي ذكرها بمواطنها الأصلية، إذ كانت لا تكف عن الحركة والقفز، وتزيد فِي ذلك حين ترى الناس يراقبونها بإعجاب ودهشة. وقد تصرف عدد مِنْ هذه القرود بطريقة بذيئة، كما قذر بعض الرجال، وندموا أنهم اصطحبوا معهم أولادهم الصغار، وبشكل خاص الفتيات! وإذا كانت هذه الحيوانات قد أثارت الاهتمام ومقداراً غير متوقع مِنْ الدهشة، فإنها لم تستنفد الطاقات وحب الاستطلاع لما سيأتي بعدها.

ومن بُعد بدأت تلوح أشياء ضخمة تتحرك. كانت تتحرك كأنها التلال،وفوق كُلّ واحد منها رجل يسبح فِي الهواء. لم تكن عربات، ولم تكن جمالاً. كانت

حيوانات أكبر مِنْ الجمال ومختلفة عنها، لونها داكن، ولها رؤوس كالمثلثات، وفِي نهاية الرأس رجل كبيرة تتقدم، ترتفع، تتحرك بعصبية، وكأنها لا ترتكز على الأرض، ربما لعرج أصابها، أو قد تكون زائدة. أما الأرجل الأخرى الأربع، فإنها أقرب إلى سيقان الأشجار:

غليظة، متينة وكأنها قطعة واحدة.

ما إن أقبلت تلك المخلوقات الهائلة، حتى أفسح الناس الطريق واسعاً، كانوا ينظرون إليها وينظرون إلى بعضهم بدهشة والكثير مِنْ الحذر. أما الرجال الذين كانوا فوقها، وقد أخذت تتضح ملامحهم لما اقتربوا، فإنهم جعلوا الناس يتساءلون: كيف صعدوا؟ وكيف لا ينزلقون عن هذا الظهر الأملس؟ ثم كيف تسمح مثل تلك الحيوانات القوية، ولا بد أن تكون شرسة وخطرة، بركوب الناس عليها ولا تفعل شيئاً؟

العيون تنفتح إلى أقصاها. الشفاه متهدلة. القلوب واجفة وقد استبدت بها الخشية. والصمت ممتد، واسع. وما عدا الأنفاس السريعة التي تتصاعد، فإن رجال الباليوز لا يتوقعون ولا يتأملون صمتاً مثل ذلك، ولا نظاماً أشد صرامة مما يرون.

ووجد مِنْ همس: إنها الفيلَة!

وبسرعة البرق انتشر الاسم بين الناس الفيلَة.

استمر الموكب حتى وصل إلى الباب الشرقي، وقفل عائداً. والناس، خلافاً لأية مرة سابقة، لم يسيروا مع الموكب، لكن ما يكاد الموكب يتجاوز مكاناً حتى يبدأ الناس يستعيدون التفاصيل.

بعد عودة الموكب إلى الباليوز لم يبرح الناس الشوارع، ولم يتوقفوا عن الحديث حول ما رأوا. تبادلوا، مرة بعد أخرى، التفاصيل، وأعادوا وصف الحيوانات، وبالغ بعضهم فِي تحديد حجم الفيلة، وأوزانها، وتساءلوا كيف وصلت مِنْ البلاد البعيدة، وكيف تكتم عليها «الأشيقر، أبو العيون الزرق». واختلفوا فِيما إذا كانت تؤكل أم لا، وأيضاً تساءلوا ماذا تأكل ليقرروا إن كان لحمها حلالاً أم حراماً!

وإذا كان الرجال قد بالغوا فِي الحديث عن الفيلة فِي ذلك اليوم وفِي الأيام اللاحقة، وكانوا ينتهون بسرعة ودون اختلاف، فقد كان يروق لهم أكثر أن يطيلوا الحديث عن «الشوادي» وكانوا يسرفون فِي ذلك، خاصة عن أمور لا يجرؤون، أو لا يُحسن أن تحكى أمام النساء! تحدثوا عن مؤخرات هذه السعادين المكشوفة وعن أعضائها التناسلية، وبالغ بعضهم بالادعاء أنهم رأوا بأم العين، قبل وصول الموكب إلى الباب الشرقي، كيف جامع ذكر

اثنتين مِنْ الإناث كانتا معه فِي القفص، الواحدة بعد الأخرى. ولم يؤكد صحة مثل تلك الرواية إلا قليلون؟

قال رجال الباليوز بعد ساعات مِنْ عودة الحيوانات إلى الحظائر سيكون الغد أهم مِنْ اليوم وأكبر ولم يضيفوا شيئاً آخر، لكن كان واضح مِنْ طريقة الكلام، ومن الفرح الذي ملأ وجوههم، وانعكس على تصرفاتهم، أن القنصل كان راضياً، وأن الأهالي كانوا عند حسن ظنه، ويريد أن يكافئهم!

فِي الليلة ذاتها، وحتى ساعة متأخرة، تركزت الأنظار على مبنى الباليوز وعلى الباخرة الراسية فِي النهر قبالته، إذ ما كاد الليل يخيم حتى أضيئت أنوار الباخرة، فبدت شعلة وسط الماء، حتى أنها لم تظهر هكذا مِنْ قبل؛ قال الذين يسكنون على الضفة الأخرى، وكانوا مِنْ مواقعهم يشاهدون الباليوز والباخرة، إنهم لم يروا مشهداً مثل هذا، خاصة بعد أن صدحت الموسيقى وارتفع صوت الغناء. وقبل أن ترتفع أصوات المؤذنين إعلاناً بحلول العشاء، ارتفعت فِي السماء أنوار ملونة، وكانت هذه الأنوار التي ترافقها أصوات الانفجارات تتناثر فِي الهواء، مما خلق حالة مِنْ الخوف، دفعت إلى إدخال الصغار إلى الغرف الداخلية فِي البيوت المقابلة خشية مِنْ الأذى أو الحرائق. وراقب الكبار الأنوار والانفجارات بكثير مِنْ الحذر، لكن بعد عدة إطلاقات، وبعد أن تأكد للناس أنها لا تؤذي، أو على الأقل لن يصلهم أذاها، فقد استعادوا السيطرة على انفعالاتهم، وأخذوا يراقبون بمتعة أكبر، مما فوت الصلاة على الكثيرين، لأنهم لم يسمعوا الأذان، ولم ينتبهوا له!

الملا إدريس إمام مسجد الشواكة، وهو المسجد المقابل للباليوز، على الضفة الثانية مِنْ النهر، كان يهم بصعود درجات المئذنة ليبدأ بالتمجيد، كما يفعل كُلّ ليلة جمعة، حين سمع الدوي وأصوات الانفجارات التي تتوالى، وشهد ضوءاً شق السماء وغمر الكون، تماماً مثل ضوء البرق، فأيقن تلك اللحظة أن شيئاً خطيراً قد حصل، وربما يكون يوم القيامة قد حل، فلم يتمالك نفسه، وحار هل يواصل الصعود أم يهبط الدرجات، ولأن الصوت والضوء جاءا فجأة، ارتج عليه وسقط! سقط وتدحرج على درجات المئذنة، ولم يتوقف عن الصراخ والاستغاثة، لكن لم يسمعه أحد، لانشغال الجميع عنه، وفِي لحظة صمت سمع صوته، فهب لنجدته ومساعدته بعض الجوار. حين وصلوا إليه كان ينزف، نتيجة إصابته فِي جبينه وشفته السفلى، أما ساقه اليمنى فكانت مكسورة.

قال الملا إدريس لزواره، بعد أسبوع مِنْ الحادث:

- الدنيا، يا جماعة الخير، بآخرها، مصبحة مسية...

وانفعل فجأة، وبغضب:

- ما عليكم مني، صحيح أني تقرمت، ويعلم الله أن رجلي ما راح تطيب، لكن السالفة مو هنا، السالفة اللي شافتها عيونكم: الناس ما لها شغل إلا تركض ورا الشادي حتى تباوع طيزه، وولاية داود تبدأ بعام الفيل، ومنائر بغداد ماكو بيها يوم الخميس ليلة الجمعة مِنْ يذكر اسم الله، وأهل الكفر يفسقون ويفجرون أشكرا، وبيوت الله تصفر، حتى صلاة الجمعة ما تلقى فيها إمام... هاي وين صارت؟ ويحاول عواده أن يخففوا عنه، أن يقللوا مِنْ خطورة الأمر، لكنه يصرخ:

ـ مِنْ أجداد أجدادنا وصلاة الجمعة أبد ما قالت بس، لكن بذيك الجمعة تمنيت أموت وما أشوفها!

وحين يلاحظ الرضا فِي وجوه عواده يفيض:

- والله وتالله، وما لكم علي يمين، بذيك الجمعة، جريت نفسي، وأنا مقرم مثل ما الكلب يجر رجله المكسورة، وقبل ما تتجبر رجلي، وهسه يجون، وبعد شوي يجون، لكن لا حياة لمن تنادي..

وبدأت تتساقط مِنْ عينيه الدموع.

- والله دفنت أبوي وما نزلت دمعتي؛ ودفنت أمي ونزلت دمعة مِنْ عيني ما شافها إنسان؛ ودفنت أكبر أولادي وقلت شفيعي يوم القيامة. لكن بذيك الجمعة، وأنا وحدي بالجامع، بصلاة الجمعة، وما يجيني أحد، فما تعرفون: دموع الأولين والآخرين سخت مِنْ عيوني، وبعدما بكيت وشبعت مِنْ البكا، رفعت إيدي لربي وقلت: ترضى يا ربي هالشكل؟

قال الذين تابعوا تلك الليلة، إن الانفجارات بعد ساعة معينة توقفت، لكن صوت الموسيقى والطبول لم يتوقف. ظل الباليوز ساهراً حتى الصباح، وظلت تصدر مِنْ الباخرة الأغاني والأناشيد والعربدات إلى درجة أن البيوت فِي الضفة الأخرى لم تستطع النوم. حتى الصبية ظلوا ساهرين، وكذلك النسوة، لأنه جاء مِنْ قال: كما بدأت الليلة لا بد أن تنتهي، ومن يريد أن يشهد ليلة لن ينساها عليه أن يبقى ساهراً!

ويوم الجمعة، ضحي الجمعة، وكما حصل فِي اليوم السابق: كوكبة الفرسان، والمنادي، ثم العربات، ووراءها الفيلة.

كان احتفال يوم الجمعة كبيراً مهيباً. وإذا كان قد غاب عن احتفال الأمس الكثيرون، أو لم تتح الفرصة لرؤية كُلّ شيء، فقد امتلأت الشوارع منذ الصباح هذه المرة، خاصة وأن رجال الباليوز مضوا مِنْ مكان إلى آخر، وبسرعة، ليقولوا: عمر الإنسان خسارة إذا لم يشهد ما سيجري اليوم الرجال الذين شهدوا احتفال الأمس كانوا يوم الجمعة أكثر حرصاً.

والنساء اللواتي لم يعلمن، أو لم يستطعن رؤية الموكب الذي مر يوم الخميس، صممن، وبوسائل شتى، أن لا يغيب عنهن موكب الجمعة، خاصة بعد أن سمعن الكثير، ومن الصبية أكثر مِنْ الرجال، وبعد أن شهدنا ما حصل فِي الباليوز والسفينة الرابضة مقابله.

خاب ظن الكثير مِنْ الصبية يوم الجمعة، إذ بعد أن تحدثوا كثيراً وطويلاً عن القرود، فإن عددها، وترتيبها فِي اليوم التالي، كان قليلاً وفِي وسط الموكب. والرجال الذين منوا أنفسهم برؤية هذه المخلوقات العجيبة، والتي تهيجهم وتنفرهم فِي نفس الوقت، لم يأسفوا كثيراً لعددها القليل، أو لكونها فِي وسط الموكب، فقد كان ذلك أفضل، وعُزَوا أنفسهم الوجود الأطفال والنسوة. أما النساء فقد كان كُلّ شيء بالنسبة لهن جديداً وعجيباً ومهماً، خاصة وأن الرجال لم يقولوا «لا» تماماً، ولم يوافقوا، فقد كانوا مسرعين لئلا يفوتهم شيء!

كان فِي مقدمة موكب يوم الجمعة أسدان، كُلّ واحد منهما فِي عربة خاصة. ورغم الهدوء الذي حرص عليه الناس، وإفساح الطريق عريضاً أمام العربات وهي تتقدم، فإن الأسدين كانا مستشارين، مهتاجين إلى درجة أدخلت الرعب فِي القلوب.

وبعد الأسود جاءت عربة تحمل نمراً أرقط، وهذا النمر بحركته المجنونة، فِي القفص الواسع، ولد حالة مِنْ الذعر، ليس فقط للناس الذين راوه، بل وللقردة التي كانت خلفه، فقد انكمشت هذه القردة، وكانت تبدو أصغر حجماً وأقبح منظراً، رغم أن أحد الذكور كان فِي حالة انتصاب، وكان يدور فِي القفص كالمجنون، وسائل أقرب إلى الرغوة يطفح مِنْ فمه ويسيل على جانبي الشدق.

حمد الرجال الله أن القرود كانت هكذا. والصبية سلبوا برؤية الأسود والنمر مِنْ هذه المسافة القريبة، وبهذا الهياج، ولم يلتفتوا إلى ما عدا ذلك. أما النسوة، وقد كن بعيدات، ورغم عنايتهن بكل صغيرة وكبيرة، ورغم أنهن رأين كُلّ شيء، فقد اكتفين بإصدار أصوات خائفة، لكن مكتومة، وصدرت عن بعضهن شهقات، وقد سمعت أيضاً بعض الضحكات الماجنة!

مِنْ الوقت بسرعة، وبخوف والتباس، وغاب الناس عن كُلّ شيء، عدا ما يشاهدون. قال بعض الناس إنهم سمعوا، مِنْ بعيد، آذانا، ودعوة للصلاة، لكن ما كان يجري أمام أنظارهم، وهو مزيج مِنْ التشوق والرغبة والخوف، أنسَاهم، أو جعلهم لا يسمعون أو لا يميزون..

فِي وقت متأخر، وقد بدأ هذا الوقت بين العصر والغروب، إذ توقف الموكب فِي أماكن عديدة، وظل الناس ينتظرون عودته، وتخلل ذلك تبادل التعليقات وإبداء الملاحظات، فقد فطن الكثيرون أنهم جوعي، وفطِن غيرهم

أن الصلاة فاتتهم، وقال بعض الناس، وهم ينسحبون، إن بغداد بدأت تعيش عصراً جديداً، وقد تمتموا بكلمات وأدعية لا يعرف إن كانت تعبيراً عن الرضى أم عن الغضب.

قدر الكثيرون أن هذه الليلة ستكون مثل الليلة السابقة، لكن رغم الانتظار لم يحدث شيء. أسف الأطفال والصبية كثيراً، وشاركتهم النسوة بهذا الأسف.

الكبار مِنْ الرجال والنساء ناموا مبكرين، لكن عبارات محددة، تكررت وترددت كثيراً.

ـ اللهم استرنا... اللهم حسن الختام... يا رب أنت الأعلم بالسراء والضراء وأنت الأعلم بالسرائر، احفظنا وارحمنا... إنك سميع مجيب الدعاء!

أولاد الباشا يتكاثرون كُلّ سنة. وصدف أن جاءه أكثر مِنْ ولد فِي إحدى السنين. ومع كُلّ طفل جديد يزداد ثقة وقناعة أن العناية الإلهية تنظر إليه بعين الرضا وترعاه. وإذا كانت طفولته مريرة قاسية، هنا وهناك، ولشد ما أرهقته الوحدة وعذبه الضياع، فلا يعرف لأية أرض ينتمي، ولأي شعب ينتسب، فإن الأولاد وهم يتزايدون مِنْ حوله، يشعر أن جذوره امتدت عميقاً فِي تربة العراق، وأن القبيلة التي ابتدأت بواحد لا بد أن تكبر وتنتشر، وعند ذاك لن تأكله الحسرة، وسيزول الألم الذي لازمه طوال حياته السابقة.

لكن فرحة داود تصل إلى حد وتقف هناك. فهذه الطفلة التي أطلق عليها اسم محسنة اعترافاً بما مِنْ الله عليه، ولأنها جاءت فِي وقت الإقبال، كما قالت نائلة خاتون، تحتل مكاناً خاصاً فِي قلبه، وتجعله يغص عندما يرى كُلّ شيء فيها يتألق ويتفتح عدا الساقين. وإذا كانت الابتسامة، ثم اليدان الصغيرتان وهما تمتدان إلى لحيته لتداعبها، قد أسرتاه فِي البداية، فإن ما يأسره الآن، ويحكم الحصار عليه: طلاقة اللسان؛ الضحكة الخصبة التي ما إن تُسمع حتى تعدي مِنْ يسمعها؛ ثم النظرات التي تنبعث مِنْ العينين وكأنها فيض مِنْ النور الممزوج برائحة الورد والزعفران.

كانت كلماتها قليلة فِي البداية، لكن ما إن تخرج مِنْ الشفتين الصغيرتين حتى تنداح كأمواج فِي كُلّ أرجاء السراي. كان يتناقلها الصغار والكبار، بما فيها مِنْ أخطاء وقلب للحروف وتلك المدات التي تميز نهاية الكلمات. فإذا فات نائلة خاتون نقل بعض ما تقوله، فالخدم حولها يتكفلون بالباقي. وحين يسهو الكبار عن التقاط واحدة مِنْ تلك الكلمات فإن الصغار يركضون مِنْ مكان إلى آخر وهم يرددون ما قالت محسنة.

حتى زوجات داود الأخريات، وبعض مِنْ بناته، كن ينقلن ما تقوله محسنة، بعد أن يضفن مِنْ عندهن أنغاماً ومدات تشي بعواطفهن تجاهها.

كن يفعلن ذلك هزءاً مرة، وغيظاً مرة، وتحريضاً لأولادهن مرات، كي يكونوا أقرب إلى الباشا، فتكون الأمهات كذلك!

وإذا كان داود باشا يعرف جزءاً مِنْ الكيد الذي يدور فِي القصر، رغم تباعد الأجنحة، فإن الجزء الأكبر مِنْ هذا الكيد يفوته، أو لا يحفل به، كما لا يريد سماعه، لأن مشاغل الدولة، وتكاثر هموم الداخل والخارج، لا تترك له فرصة لمزيد مِنْ الهموم الصغيرة، ثم إنّه يفكر ويخطط لأبعد مما تفكر به الزوجات والخدم، أو ما يسلي عشرات العاملين فِي القصر، والذين يعتبرون

المكائد، وما يُهمس به فِي غرف الزوجات والمربيات، الخبز اليومي الذي منه يتعيشون، وقد يكون سبباً فِي أن يحصلوا على المكافآت والهدايا، خاصة إذا أحسنوا نقل ما يجب أن يُنقل، وفِي الوقت المناسب!

ما كان يشغل داود باشا، وقد لاحت الفرصة بعد طول انتظار، أن يشيد دولة لم تقم مثلها منذ أقدم العصور، ولعل أول شيء ينبغي توفره: أسرة كبيرة شديدة الترابط لا يستطيع أن ينفذ إليها أحد مِنْ الغرباء. حتى البنات يجب أن يُختار لهن أزواجاً مِنْ الأقوياء، أو مِنْ الرجال الذي جربوا وامتحنوا فِي المصاعب وأيام الرخاء، وبعد التأكد مِنْ ذلك يجب أن يقسموا أغلظ الإيمان أن لا يخونوا، وأن لا يتهاونوا، ومن يخن أو يتهاون فدمه مباح.

هكذا كان يفكر داود، وهكذا كان يخطط. لم يقل ذلك لأحد بوضوح. ولعل نائلة خاتون الوحيدة التي سمعت منه بعض الأفكار. كان ينشر أفكاره وأحلامه على مسامعها بطريقة مواربة، على شكل ذكريات، أو على شكل رهان أو مزاح، لكنه كان يعني ما يقول:

.... وتذكرين، خاتون، ونحن جهال بسراي سليمان، بالكاد الخبزة نشبعها، وإذا كنا اليوم أحياء وعايشين ما يندرن باليوم التالي شنو اللي يصير...

يضحك بحزن ويتابع بصوت مكسور:

- الواحد منا يخلق الثوب، ولازم يكون آخر مِنْ ينام وأول مِنْ يقوم ويا ويله إذا غلط أو سها، جلده يروح للدباغ، ماكو أم تشفع ببكاها ولا أب يجر سيفه ويقول يصير وما يصير...

يصمت قليلاً، يتذكر، ثم يأتي صوته بنبرة مختلفة:

ـ حتى الأيتام يلتقي لهم هنا أو هناك قرايب، أعمام أو أخوال؛ يلتقي لهم عشيرة تدافع عنهم، تأخذ بثارهم، احنا، يا محفوظة السلامة، جينا مِنْ زرف الحائط، إيد مِنْ ورا وإيد مِنْ قدام، لكن الله...

وتتغير هيئة داود ويتغير صوته:

- سبحانه وتعالى أعطانا، قال: خذوا. ومن اليوم ما يكفي أن نبوس أيدينا وجه وقفا ونقول الحمد والشكر، لازم نعرت بسنوناً، لازم ندافع بدمنا وأرواحنا عن عطايا مالك الملك، ونقول الله عز وجل: مثلما وهبت وفضلت، ملكاً وولداً ورضواناً، فإنا له لقابضون، وسنكون لولد الولد، ومن يأتي بعدهم مِنْ هذه الذرية شاكرين نعماءك ونسبح بحمدك وآلائك، فأنت الذي يعطي الملك مِنْ يشاء ويعز مِنْ يشاء ويذل مِنْ يشاء؟

يدرك داود، وهو يفكر ويحلم ويجود بمثل هذا الكلام أمام نائلة خاتون، أنها لن تنقله، فهي لم تستوعب معظم ما قاله، ولا تعرف كيف تنقله، لكن تحس

أن داود يتكلم أفضل منها، وأنها تحب هذه الطريقة حين يتحدث عن أيام قديمة تتذكر قسماً كبيراً منها، ويتحدث أيضاً عن الأولاد والجنة، وما قد يحصل فِي القادم مِنْ الأيام. إنها تحب هذه الطريقة، بل وتحاول أن تقلدها فِي بعض الأحيان، وهي تروي القصص للصغار كي يناموا. كانت بعد أن تروي أحداثاً قاسية مؤلمة، ولئلا ينام الصغار

مقهورين أو حزاني، كانت تنهي تلك القصص بأن تقول: يا عمي جتك الشمس / مقدر أقوم مِنْ حدبتي يا عمي جالك الجلب/ مقدر أقوم مِنْ حدبتي/ يا عم جتك الفرسا مقدر أقوم مِنْ حدبتي/ يا عم جتك العروس / نعم.. نعم عبدوها/ يا عمي ليش تخبلت يا عمي ليش جنيت وينام الأطفال وهم يضحكون ويحلمون!

كان داود يحارب اليتم الذي عاشه بالتحدي. أما الوحدة التي ظلت تلازمه خلال كُلّ تلك السنين، رغم أنّه يعيش بين العشرات والمئات معظم وقته، فلم تتبدد، أو بالأحرى لم تتراجع، إلا بعد أن تزوج، وبدأ يأتيه مِنْ صلبة أولاد. صحيح أن بعض هؤلاء الأولاد ماتوا صغاراً، ولقد حزن لذلك حزناً شديداً، لكن ما جعله ينسى: الأولاد الذين جاؤوا بعدهم، ملؤوا حياته وجعلوه يتفاءل.

ثم إن نازلي امرأة متفهمة، قد تعاند، وقد تغضب فِي حالات معينة، لكنها تدرك أن زوجها مثل أبيها، مثل أيّ رجل، يحق له أن يتزوج مرة ثانية، ومرة ثالثة ورابعة، ولهذا لا يطول عنادها، ولا يتجاوز غضبها حدا معيناً. كُلّ ما تحرص عليه أن تحمي موقعها، أن تنتزع الاعتراف بالأولوية والقدم، وأيضاً ببعض الامتيازات، باعتبارها أماً لأكبر الأولاد، خاصة الذكور، وهذا ما جعل داود يحتفظ بأربع زوجات، كانت على رأسهن نازلي!

وإذا كان داود اضطر لأن يطلق بعض زوجاته، لعدم الإنجاب، أو لأن الخلفة كلها مِنْ البنات، وفِي حالات أخرى لاختلاف المزاج، أو فِي لحظة غضب، فإن نازلي ظلت تستقبل وتودع دون خوف أو اهتمام، فهي ابنة سليمان الكبير، وهذا يعني لها ولداود، ولمعظم الذين حولهما، الكثير، خاصة وأنها وقفت معه وإلى جانبه فِي النزاعات داخل الأسرة التي أعقبت مقتل سعيد باشا، وما رافق ذلك مِنْ دماء وقطيعة وقسوة، الأمر الذي لم ينسه لها داود.

ولأن داود شديد التدين، فقد اضطر لأن يطلق عدداً مِنْ زوجاته، لأنه لا يجوز أن يجمع أكثر مِنْ أربع فِي آن واحد، فإذا حملت منه إحدى الجواري، وولدت له ولداً ذكراً كان يعقد عليها، لكن لفترة قصيرة، ربما لأسابيع وبعض الأحيان لأيام، مِنْ أجل أن ينسب الولد إليه. وفِي هذه الحالة لابد مِنْ مبادرة مِنْ نوع ما، كأن تتبرع إحدى الزوجات، لقاء هبة كبيرة أو امتياز، بأن تكون «الضحية». أو أن تتولى واحدة مِنْ كبيرات القصر إقناع إحدى الزوجات «أن

تفسح المجال شرعاً وودياً أمام الباشا»، وغالباً ما يحمل مثل هذا العرض الوعد مِنْ ناحية والتهديد مِنْ ناحية أخرى، وعلى الزوجة التي يقع عليها الاختيار أن تقرر، ويترك لها يوم أو بضعة أيام للتفكير، وخلال هذه الفترة تجري عمليات مساومة وتفاوض، يقوم بها رسل بين الطرفين، مِنْ أجل تحسين الشروط، والوصول إلى صيغة يبدو فيها الطرفان منتصرين!

هذه الأمور تجري بكثير مِنْ التكتم والحرص، وأيضاً تحت جنح الظلام، لأن أيّ تشبث أو خطأ قد يؤدي إلى مضاعفات لا يريدها الباشا، إذ كان يعتبر أن أموره الخاصة يجب أن لا تلوكها الألسن، وأن تبقى بعيدة عن أسماع العامة، ولقد لجأ إلى العقاب الصارم حين تسربت أخبار عن حديقة الغزلان الداخلية الموجودة فِي السراي: عدد الغزلان، ومن جاء بها، وأنواعها، وكيف أن الباشا يطعمها بنفسه وبيديه! عاقب الناقل ليس لخطورة الأخبار التي سربها، وإنما ليعطي درساً، وليجعل كُلّ مِنْ يعمل فِي السراي، أو له علاقة، يحفظ لسانه ويتكتم على ما يرى أو يسمع.

وكي يبدو الباشا عادلاً ومنصفاً بنظر نفسه، وبنظر الذين حوله، فقد لجأ فِي مرتين، تفصل بينهما ثلاث سنوات، وبعد أن تعذر الوصول إلى نتائج مرضية خلال المفاوضات، ولأن الزوجات الأخريات تدخلن فِي الأمر، لجأ إلى القرعة، إذ سجل أسماء الزوجات الثلاث، إذ كانت نازلي مستثناة، واستدعى نوري خوجه، الأعمى، المقيم فِي جامع السراي، وطلب منه أن يسحب ورقة مِنْ الأوراق الثلاث، وكان القرار، الطلاق، ما قالته الورقة.

وبنفس الوقت، وبعد أن يقع الطلاق، يقوم قاضي السراي بإتمام عقد الزواج الجديد.

كان مثل هذا العقد يتم، أغلب الأحيان، دون احتفال أو مراسيم خاصة، وعدا الاكراميات التي يقوم نادر الشيخة بتوزيعها فِي اليوم التالي، ويحرص على اختصارها إلى أقصى حد، مِنْ حيث المبلغ الذي يُعطى، أو الذين تشملهم الاكرامية، ويكون تأكيد نادر وهو يسلم المبلغ، إن والينا رزق بولد جديد، ولا يذكر أيّ شيء عن الزواج الجديد؟

ورغم تكتم السراي على جانب، وإبراز جانب آخر، فإن طريقة نادر الشيخة، وهو يوزع العطايا، تفضح كُلّ شيء. فذلك الحرمان الذي يشمل عدداً كبيراً مِنْ العاملين فِي السراي، خاصة أولئك الذين يعملون فِي الأماكن البعيدة، وبعد أن تصلهم أخبار العطايا للآخرين، وحرمانهم منها، وغالباً تصل هذه الأخبار مع المبالغة والكيد، لتنغيص عيشة نادر أفندي، الذي يعتبر خصماً لكل إنسان يعرفه، لما يتصف به مِنْ بخل وتقتير، فإن أخبار الزواج الجديد للباشا تطغى على كُلّ ما عداها. حتى اسم المولود الذي يصدر عادة ببلاغ رسمي عن السراي، يغيب فِي زحمة ما يتردد عن اسم

الأم، وعلاقتها بالوالي أو بغيره مِنْ العاملين فِي السراي! ومدى ما تتصف به الزوجة الجديدة مِنْ جمال أو صوت، وما يشبه ذلك مِنْ الأوصاف!

والوالي الذي تصله مثل هذه الأخبار التي تتردد فِي المقاهي والأسواق، يحار كيف وصلت إلى الناس، ومن أوصلها. ورغم التحريات الدقيقة، والعيون مِنْ الرجال والنساء، فقد كانت الأمور تصل إلى نقطة لا تتعداها، وهذا ما كان يجعل الباشا متحسباً، أقرب إلى الخوف، فما دامت أخبار الغرف الداخلية وصلت إلى الناس، كيف يضمن ألا تصل الأخبار الأخرى؟ قال لنائلة خاتون، ذات ليلة، بعد أن جاءه غلام جديد، سماه المعتصم، والعادة أن يجلس فِي الشرفة الجنوبية، المطلة على النهر، لتقبل تهاني كبار العاملين فِي السراي، وكان يستقبل الرجال بين العصر والغروب، وبعد أن يصلي صلاة المغرب، يستقبل عدداً مِنْ النسوة. قال النائلة التي قادت جوقة النسوة لتهنئة الباشا، وبعد أن انفض الجمع:

- تعرفين... خاتون؟

نظرت إليه باهتمام دون أن تقول كلمة واحدة. تابع:

- أكثر ما يخوفني، يا خاتون، اللي يجون بالفرح والعزا لبيت الباشا!

لو رايحين لبيت فقير أو مسكين كان أفرح مِنْ كُلّ قلبي، لكن الفقير والمسكين الله غاضب عليه، لأنه خلقه فقير، ولأن الناس ما تباوع عليه، ما تتذكره، عرس أو مات...

أخذ نفساً عميقاً وصمت. ظنت نائلة خاتون أن ما قاله شيء مألوف يقع كُلّ يوم، وفِي أيّ مكان، وما كان لديها شيء لتضيفه. لكن فاجاها بأمر جديد ومختلف:

هذا، خاتون، مو زين، يلغي النفس، لكن اسأليني، شنو اللي يخوف؟

ـ اسم الله عليك، أفندينا، لا تقول هذا الكلام؟

ـ لا، خاتون. لازم تعرفين، لازم أقول...

تلفت حواليه أكثر مِنْ مرة، ولأكثر مِنْ ناحية، وخرج صوته مجروحاً:

- أكثر ما أخافه، خاتون، حرامي البيت. أيّ نعم الحرامي اللي منا وما حاسين عليه!

وذكر لها كيف أن الناس فِي المقاهي والأسواق، كما وصلته المعلومات، لا يتحدثون عن المعتصم، إنما يتحدثون عن ماري الرجية.

متى جاءت إلى بغداد، وكيف انضمت إلى نساء السراي. ويتحدثون عن طولها، وعن الشامة فِي خدها الأيسر، وكيف سبت الباشا، ثم كيف هجر

نساءه جميعاَ، ولازمها لا يفارقها حتى جاءت له بهذا الغلام!

ويضحك الباشا بحزن وهو يهز رأسه هزات بطيئة متحسرة ذات اليمين وذات الشمال، ثم يتابع:

- هذا ما تجرؤوا ونقلوه لي اليوم، وما يندرى بعد شنو اللي يعرفون!

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت حازمة، أقرب إلى القسوة:

- وماكو أحد غيرك، خاتون، يقدر يعرف حرامي البيت. منو يبوق لسان الزغار والكبار، ومنو يشيل فرصة الخبز حارة للقهاوي ولأولاد الحرام!

ـ ما لك على يمين، يا باشا، حتى النملة إذا مشت أسمعها، وما يصير شي إلا وأخباره عندي، لكن البني آدم يسها، ينسى، وسبحان الله بلاني وابتلاني بهذي الفقيرة المسكينة، محسنة، فحتى الصلاة نسيتها!

ـ أيسي منها، خاتون، وآني ما خليت أحد. سألت القريب والبعيد، حتى جماعة مِنْ الهند والسند سألتهم، وقلت: اللي يشفي الزغيرة، الفقيرة، أزوجها له...

هز رأسه أسفاً وحزناً وأضاف:

- محسنة بقلبي. ما تفارق بالي. ما أقدر أنساها لا بيقظتي ولا بنومي، لكن لكل شيء حد، ولكل مخلوق أجل. هذه إرادة رب العالمين، والمؤمن ممتحن، فإذا كانت هذه إرادة الله، وهذه مشيئته، فلا راد لهذه المشيئة...

وترك للصمت أن يخيم ثقيلاً، وكان القمر برتقالياً متأخراً، قال، وكأنه إنسان آخر:

محسنة الشفيعة، وهي التي ستقودنا إلى الجنة يوم القيامة، وهي اللي تذكرنا أن الدنيا موت وحياة، لكن، وكما قال عليه الصلاة والسلام: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً!

قالت نائلة خاتون بحزم:

ـ خوفتني، يا أفندينا، مِنْ حرامي البيت، ولازم أفتح عيني زين!

ردَّ وهو يضحك، وكان يهتم بالوقوف:

- ولازم آني أشوف إذا كان ماري عندها شامات غير اللي أعرفها، قبل ما يعرفها غيري ويطشها بقهاوي بغداد!

قهوة الشط ليست كأية قهوة أخرى فِي بغداد: كبيرة، متدرجة، وبالغة البساطة والكثافة معاً. وإذا كانت مقاهي الأطراف تماثلها ببعض هذه الصفات، فإن ما يميزها عن غيرها الاتساع، ثم إنها دائمة التغير مِنْ حيث المزاج، تماماً كماء النهر. عدا عن أن فيها أركاناً وزوايا قوية ثابتة، ليس بالجدران التي تنهض عليها، وإنما بالبشر الذين يحتلونها، ويشكلون جزءاً مِنْ ملامحها، الأمر الذي يعطيها تميزاً إضافياً.

وإذا كان للسوق التجاري مقاهيه وناسه، فإن هذه المقاهي تمتلىء خلال أوقات معينة ثم تفرغ بعد ذلك، كما وتعتمد فِي عملها على خدمة المحلات حولها، وتلبية الطلبات خارجها، عدا عن العابرين والطارئين.

فإذا اقترب الغروب، وبدأت المحلات التجارية تغلق أبوابها، فلا تلبث تلك المقاهي أن تلملم نفسها لتشارك السوق كله وهو يدخل إلى الصمت، ثم إلى العتمة التي تزحف عليه قبل أن تزحف على الأمكنة الأخرى فِي بغداد.

أما قهاوي الأطراف، رغم أنها لا تغلق أبوابها خلال النهار، إلا أنها تنشط وتبدأ باستقبال روادها بعد العصر وأول المساء، وهؤلاء الرواد لا يتغيرون أغلب الأحيان، كما لا تتغير الأحاديث التي يتبادلونها. إذ بعد الأسئلة العادية عن الصحة وأخبار العمل، وعن ذاك اليوم كيف كان، تبدأ النمائم الصغيرة عن هذا وذاك مِنْ أبناء المحلة، ثم ينصرف الكثيرون إلى الألعاب الموجودة فِي المقهى، مع ما يرافقها مِنْ تحديات ورهانات وضجيج، وأيضاً ذلك الغضب المبالغ فيه مِنْ أجل وضع حد للمتفرجين كي لا يتدخلوا فِي اللعب، لأنه، ليس مِنْ السهل وقفه أو منعه. وحين ترتفع أصوات المؤذنين إعلاناً عن صلاة العشاء، يتحرك الكثيرون، تباعاً، ليس بالضرورة إلى المسجد القريب، وإن تظاهر بعضهم بذلك، ولكن إعلاناً أن يوم قهوة الطرف قد انتهى، ولابد أن يعود هؤلاء إلى بيوتهم، ولا يتخلف فِي المقهى عادة إلا الذين خسروا فِي الأشواط الأولى مِنْ اللعب، ويريدون أن يثأروا، ويتأخر أيضاً الشباب الذين دخلوا مرحلة الهموم، وبدأت تشغلهم شؤون القلب وتحصيل الرزق وأمور السفر.

قهوة الشط عالم آخر وحياة مختلفة: مقدار كبير مِنْ الكلام، والذي يتخلله الاختلاف، ومقدار أكبر مِنْ الأحلام والغضب. ثم هناك مقدار مِنْ الجنون. أما أعداد البشر الذين يؤمون القهوة، وفِي أغلب الأوقات، فِي النهار كله

ومعظم ساعات الليل، فإنها تكبر أو تقل تبعاً لمزاج المدينة وما يقع فيها مِنْ أحداث.

إذا كان صوب الرصافة يفخر باتساعه، وجمال أكثر أحيائه، وبوجود السراي والوالي، وبذاك الكم الكبير مِنْ أصحاب المقامات والأولياء، وبالسوق التجاري الكبير، فإن صوب الكرخ لا يشعر بالغضاضة أو النقص، كما لا يشعر بالخوف. صحيح أن قبور الأولياء الذين يرقدون فِي هذا الصوب لا تحمل الزينة، وقد تبدو فقيرة، لكن الأهمية، كما يقول الكرخيون، لا تحددها الحجارة، ولا تقاس بارتفاع الأضرحة، أو كميات الشموع والبخور، إنها تتحدد بمقدار ما تتركه فِي النفس مِنْ أثر، وما تولده فِي الذاكرة مِنْ حنين وأحلام.

لا شك أن الناس فِي صوب الكرخ أقل غني، لكنهم أكثر اعتزازاً بانتمائهم لهذه الجهة مِنْ المدينة. فالأحياء التي قد تبدو ضيقة ويظهر عليها القدم، وتوحي بالفقر أيضاً، إلا أن البشر الذين يملكونها يمتلكون قلوباً مِنْ ذهب، كما يقول الذين يحبونهم، ويتصفون بالكثير مِنْ الطيبة والبساطة، ويتميزون أيضاً بالصخب والأصوات العالية والمرح، إذا اعتبرت مثل هذه الصفات مزايا! أما علاقاتهم مع الغرباء فإنها أقرب إلى الدفء والمودة، لكنهم بالإضافة إلى ذلك يتصفون بالحذر، وبغير قليل مِنْ الانتباه، حتى إذا وثقوا وتأكدوا أصبح هؤلاء الغرباء جزءاً مِنْ المكان ومن ناسه.

الذين يرتفعون فِي المراتب مِنْ أبناء الكرخ، وهم فِي العادة قليلون، أو على وجه أدق، أقل مما هو متاح لأبناء الرصافة، فإن هؤلاء لا يغيرون أصدقاءهم وأمكنة سكناهم، كما لا تتغير عاداتهم، لأن المسنين حين يرد الحديث عن مثل هذه الموضوعات يقولون بفخر: «كُلّ يرده حليبه»، وهم بذلك يردون على بعض الذين يفخرون، أو الذين يقولون: «الكرخي مثل الحجارة... تغيب عنه سنة ومية، وترجع تلقاه بنفس المكان وبنفس الوضعية»..

ما يفخر به أهل الكرخ الروابط التي تجمعهم، إذ رغم الكثير مِنْ النكد والمنغصات الصغيرة التي تقع كُلّ يوم، وتجعلهم يثورون ويشتمون، ويقسم الواحد منهم أن لا يقول لخصمه المرحبا، إلا أنّه فِي اليوم التالي ينسى، أو يتظاهر بالنسيان، مع تصميم أكيد، مشفوع بأيمان غليظة فِي أغلب الأحيان، أن لا يعود إلى مثل هذه الحماقات مرة أخرى. أما إذا واجه الناس المصاعب، وهجمت التحديات، فإنهم يشعرون وكأنهم أسرة واحدة، شخص واحد، وأي أذى يصيب أحدهم يصيب الجميع.

هذه الخصال التي تميز الذين يسكنون فِي صوب الكرخ، تجعل الكثيرين فِي صوب الرصافة يفكرون ويتساءلون ويتحسبون، بل وتجعلهم يخافون فِي

بعض الأوقات.

فإذا كانت الصحراء تسند ظهر هذا الصوب، فإنها تجعلهم دائماً على ثقة، إذ لا بد أن تسعفهم بالمدد حين يحتاجون، أو أن تحتضنهم مِنْ جديد إذا تعرضوا للملاحقة. كما أن شعور الإنسان بالامتداد والحماية يجعله أشد قوة وأكثر استعداداً للتحدي، أو على الأقل لا يرضى بما يرضى به الآخرون، خاصة أولئك الذين فقدوا صلاتهم وروابطهم بالمنابع والجذور.

ورغم أن الصحراء بعيدة، وقد تبدو عصية، قاسية، وغير مألوفة للذين يسكنون فِي صوب الكرخ، نظراً للأزمنة التي مرت، إلا أن رائحة الصحراء التي تهب مِنْ جهة الغرب، تحمل معها تأثيراً لا يمكن مقاومته أو نسيانه، وتترك بصماتها على الوجوه والتصرفات.

لا يقول سكان صوب الكرخ ذلك، لكنهم يحسونه فِي داخلهم على نحو خفي. حتى المسنون الذين يفخرون بانتسابهم إلى جذور قوية، ويحاولون توريثها لمن بعدهم، وحين لا يجدون حماسة تكفي، أو رغبة تماثل رغبتهم، ينتابهم الحزن، ومع الحزن الخوف مِنْ الأيام التي ستأتي.

الذين يسكنون فِي الصوب الثاني مِنْ المدينة، يلحظون أكثر مِنْ الكرخيين، الصفات والعادات، وحتى الجنون الذي يميز تصرفات الذين يسكنون فِي الكرخ، خاصة أوقات الشدة، حين تأتي سنوات القحط، أو حين يصل الجراد، أو حين ترتفع مياه النهر وتهدد المدينة.

صادق البلام، كبير ملاحي صوب الرصافة، يقول حين يجري الحديث عن صوب الكرخ، وحين يكون الكرخيون موجودين:

- الله ربكم يا جماعة ذاك الصوب!

وحين ينظر إليه الذين حوله، وكان بينهم أصحاب مراكب وقفف مِنْ الصوبين، يتابع:

جماعة ذاك الصوب، موبس معهم الله والأنبياء والأولياء، معهم، آغاتي، الروج والموج، لأن الريح الغربية قبل ما توصلنا تمر بيهم، تسألهم: ها.. شنو قولكم أروح لذاك الصوب لو ما أروح!

يضحك بعربدة البحارة، خاصة وأنه ركب البحر العالي، وذهب إلى أماكن بعيدة، حتى إذا مل أو تعب، عاد إلى بغداد ليصبح صاحب مركب أولاً، ثم ليصبح شيخاً للملاحين. كان صادق البلام يضحك بهذه الطريقة، وهو يتطلع إلى جسده، خاصة الساعدين، ويضيف:

ـ وفوق الروج والريح الغربية شطكم عالي...

ويبدأ يتذكر:

ـ مِنْ أنا وزغير، مِنْ يوم ما فتحت عيني على الدنيا، وكُلّ ما قالوا:

بغداد غرفت، ننهزم لذاك الصوب، لأن الرصافة ناصية، والموج يرد مِنْ ذيك الصفحة لهذي الصفحة.

صادق البلام، وهو يؤكد هذه الحقيقة، لا يختلف الآخرون معه حولها، إلا أن الاختلاف حول ارتفاع صوب الكرخ، وعن مدى تأثير الريح، ولأنه لا يعرف بدقة الإجابة، ولكي يخلص مِنْ الأمور الخلافية، ينتهي كما بدأ:

- الله ربكم يا جماعة ذاك الصوب! قد يكون صوب الكرخ أكثر ارتفاعاً مِنْ الرصافة، وهو بالتأكيد كذلك، لكن الأكثر أهمية، أن قهوة الشط هي الأكثر ارتفاعاً مِنْ كُلّ ما حولها.

كيف قامت فِي هذا المكان، أو متى قامت؟ لا أحد يجهد نفسه لتفسير ذلك، لأن قهوة الشط تحتل هذا المكان منذ وقت طويل، كما أنها تمثل شيئاً عزيزاً ومتميزاً فِي هذا الصوب، وربما تبدو لكثيرين أنها تماثل السراي والباليوز وقصر الوالي، عدا عن مراقد وخانات وزوايا كثيرة فِي الصوب الآخر.

بطريقة غامضة، لا يعرف كيف، أصبحت قهوة الشط هي قلب الكرخ. حتى أنّه لا يذكر هذا الصوب الا ويعني الكثيرون القهوة بالذات، بما تثيره فِي الذاكرة مِنْ مواقف تعبر عن نمط للحياة والعلاقات، إضافة إلى الأحداث التي شهدتها. وهذه كلها، إضافة إلى عدد مِنْ الناس الذين لا يغادرونها حتى يرجعوا إليها، ويفعلون ذلك عدة مرات فِي اليوم الواحد، جعلتها مختلفة عن المقاهي الأخرى فِي كلا الصوبين، وجعلتها رمزاً أو حمى للذين يفكرون ويتكلمون، وأيضاً للذين يحلمون.

قال داود باشا بعد شهور طويلة مِنْ عودته إلى بغداد، قال لكيخياه ذات غروب، وهما يجلسان فِي الحديقة المطلة على النهر، وكانا يستعرضان الأماكن والبساتين:

ما تقول لي، يا يحيى بك، يا هو قهوة الشط؟

وبعد أن دقق الكيخيا النظر، وكان يزم عينيه، وبعد أن مسح أماكن عديدة، قال، وهو يشير بإصبعه:

- بعد ذاك البستان.. أكو مجموعة بيوت، بعد هذي البيوت تماماً، على النهر، قهوة الشط.

سأل الوالي مِنْ جديد:

- هاي اللي بصفحة البستان، ورا الجامع؟

ـ تمام يا باشا - أشوفها خرابة.. ما لها هيئة وما عليها ضوا. قهوة صيادين وسكاري، يا باشا...

وأضاف مستدركاً:

- وافندية الكرخ يقعدون هناك!

وبعد قليل، وقد أخذ الكيخيا نفساً عميقاً، وكأن هماً يثقل على صدره، أو قضية تشغله، قال وقد تغير صوته:

وتعرف، يا باشا، الأفندية ما عندهم شغل إلا فلاني وتركاني، ولازم طول الوقت يسولفون ويقسمون، حتى يحللوا خبزتهم.

ـ سمعت، يا بك، إن جماعة قهوة الشط مسوين سرايا ثانية، وهناك يفتون، ويقولون: يصير وما يصير!

ـ أفندية، وأصحاب غنم وجمال، فإذا خلصوا مِنْ سوالف التاريخ اندارو على سوالف هذي الأيام، ونزلوا قص!

ـ ما عندهم شغل؟

ـ عندهم شغيلات زغيرة ولسانات طويلة، يا باشا...

ابتسم الكيخيا، بدت ابتسامته حزينة، وأضاف:

وبالعجل يخلصون شغيلاتهم حتى يتلاقوا بالقهوة، وهناك تشتغل رحمة الله: فلان طويل، وفلان قصير. فلان أخذ وفلان نهب، ومن هذا سالفة ومن ذاك بيت شعر، وهم بينهم مِنْ يفتي ويقول، وما ينقال هناك ثاني يوم ينطش بالولاية كلها، وما تعرف مِنْ قال وشنو اللي قاله، وتنلاص علينا وعلى غيرنا، لأنه ما ينعرف الصدق مِنْ غيره!

قال الباشا وهو يبتسم:. وتعرف.. يا بك، إذا هذول الأفندية ما اشتغلوا، إذا ما لقوا فد شي يتلهون بيه، يقعون بروسنا دق!

ردَّ الكيخيا بحسرة:

- قهوة الشط، يا باشا، شالعة قلبي. كُلّ يوم والثاني سالفة أو إشاعة؛ وكُلّ يوم والثاني: صار بالسراي فلان شي وفلان شي، ونحتار، شلون نخلص منهم، ورأيي، يا باشا، حتى نسد حلوقهم، لازم نسوي فد شي!

ضحك الباشا، هز رأسه عدة مرات، وجاء صوته بطيئاً موزوناً:

ـ إذا ماكو قهوة الشط، لازم نسوي قهوة شط، أو واحدة مثلها...

وبعد قليل، وهو ينظر إلى نائبه بتحديد:

- شلون نعرف شنو صاير بالدنيا إذا الناس سدت حلوقها؟ إذا صمت مِنْ فوق ومن جوا؟ شلون نعرف الضحك مِنْ البكا، الجد مِنْ الهزل؟

وتغير صوت الباشا:

ـ إذا أكو بذاك الصوب مثل قهوة الشط، ونقدر نسمع ونعرف شنو اللي صار واللي جرى، فأريد منك تسوي قهوة ثانية بهذا الصوب، وبيها ناس مثل ذوليك!

وبعد أن خيم الصمت فترة غير قصيرة، قال الباشا، وكأنه يكلم نفسه:

- أخطر شي بهذي الولاية إن الواحد ما يعرف شلون الناس تفكر، شلون تحلم..

واستدار نحو النهر، كأنه يتذكر:

- سعيد.. وقبله عبد الله.. واللي قبله، وغيره.. وغيره.. الواحد منهم كان يسمع اللي يريده، اللي يعجبه، وأني أريد أسمع الشي اللي ما يعجبني، الشيء اللي ما يقولوه الناس بوجهي، لكن يقولونه بين بعضهم، هذا اللي يهمني يا بك، وعلواه نسمعه دائماً!

ولما خيم الصمت مِنْ جديد، وكان الاثنان ينقلان النظر إلى أماكن عديدة فِي صوب الكرخ، وهما يتأملان المشهد كله، وكانا يفكران بامور كثيرة، قال الباشا بحزم:

- أريد منك، يا بك، أن تتنصت حتى تسمع الصمت! وابتسم وهو يُضيف:

ـ ما أريدك تتنصت على اللي يقولوه الناس بس، أريدك تتنصت على الشي اللي ما يقولوه، على الشي اللي يفكرون فيه.. وإذا أمكن على اللي يحلمون بيه.

وبعد قليل، وهو ينهض، وقد أحس بالبرودة التي حملتها الريح الغربية:

ـ دائماً.. مِنْ ذاك الصوت تجي المصايب. إذا خلصنا مِنْ البدو، تدبي علينا القصص والإشاعات اللي يغزلها أفندية قهوة الشط بالليل، وقبل آذان الفجر تنطش ببغداد كلها.. وتعال أفرز وقول: هذا صحيح.. وهذا الع...

وهما يسيران إلى الداخل، التفت داود باشا، وقال لنائبه مازحاً:

- صدق لو لع؟

كان الصيد لداود باشا إحدى الوسائل لترويض عواطفه، وهذه الهواية التي استبدت به منذ وقت مبكر، كانت تتيح له المجال كي يجعل الحقد يفيض إلى الخارج، إذ يجد نفسه مدفوعاً لترويض ما يعتمل فِي داخله، مِنْ خلال اكتشاف ومعرفة المخلوقات الأخرى، والتي لها أمزجة وطرق فِي الدفاع عن النفس، وأساليب متعددة للتمويه تختلف عنه، فإذا أراد الاقتراب منها، ثم السيطرة عليها، يجب أن يقترب بحذر، فِي الوقت المناسب، وإلى الحد الذي لا يفزعها، فتهرب، وتفلت مِنْ بين يديه، فِي الوقت الذي كان بإمكانه أن يقتنصها لو سلك إليها طريقاً يتناسب وطبائعها.

الآن، وهو يرى ريتش يستعرض قوته، بالأزياء التي يغيرها كُلّ يوم، وبالحيوانات التي جلبها مِنْ أمكنة عديدة، ويتباهى حين يعرضها أمام الناس، ويسمع صرخات الإعجاب مِنْ الصغار والكبار، ثم المشاعل السماوية التي يزرعها فِي سماء بغداد، ليدلل على مدى قوته وما يملك، والسفن المليئة بالسكارى التي تصعد مِنْ البصرة، ولا يدري إلى أين يمكن أن تصل فِي المستقبل، هذه الأشياء وغيرها يمكن أن ترضيه، أن تجعله يحس بالقوة والتفوق، لكن إلى حين.

وفجأة لمعت فِي ذهن داود باشا صورة الجمل مقابل الفيل، وتذكر قصصاً قديمة مِنْ التاريخ.

صحيح أن حيوانات هذه المنطقة تبدو، أغلب الأحيان، ضامرة، مغبرة، شرسة، عدا الجمل، إذ يراه يختلف عن الحيوانات الأخرى، ليس بصبره فقط، بل وبحقده أيضاً، وهذا ما يجب أن يكون، ليصبح مختلفاً ومتميزاً عن الخصم الغربي الذي يريد أن يفرض نفسه وأسلوبه.

قال داود باشا لنفسه، وهو يغالب الغيظ، خاصة وقد تذكر فارق العمر بينه وبين ريتش: «الفرق كبير بين دولة انتصرت على نابليون، وتريد أن تسيطر على العالم، وبين دولة انهزمت فِي معارك عديدة، فِي أوروبا ومع روسيا، ولذلك علي أن أحاربه هنا وليس فِي مكان آخر، وعلي أن أحاربه بسلاحي وليس بالسلاح الذي يفرضه هو».

ابتسم داود وهو يُضيف لنفسه: «لن أخضع لما يريد. لن أتركه ليحدد ساعة المعركة أو أسلوبها».

ومرت فِي ذاكرته صور عديدة: الموكب الفخم، الاحتفالي، ومعه قطعان الكلاب، حين يخرج للصيد. أنواع الأسلحة الحديثة، والتي تتغير بين رحلة

وأخرى، ثم أولئك الذين يهيئون له الطرائد كما يهيئون الطعام، فهل يعتبر نفسه صياداً ماهراً؟

ولمعالجة هذه المشاعر، قال لنفسه بنوع مِنْ التصميم الحاقد:

الأسلحة وحدها، حتى لو كانت جديدة، لا تصيد. أما الملابس المنتقاة مثلما تخدع الطير تجعل الصياد مغروراً، والغرور أقصر الطرق إلى الفشل.

إن الذي يصيد هو الإنسان، وحصيلة صيده تتوقف على معرفة طبيعة الطريدة، وكيف يجب أن تواجه، ومتى وأين..

قال لفيروز الذي كان يرقبه مِنْ مسافة قريبة:

- لترسل بندقية الصيد الفرنسية التي وصلتنا أخيراً إلى الآغا ـ أمرك سيدي.

وعسى أن يهديها بدوره للقنصل، كي يفاخر بما عنده مِنْ أسلحة جديدة! وحين ابتسم فيروز ولم يعلق، أضاف الباشا:

- وقل له: مثلما الفرس مِنْ الفارس فالبندقية مِنْ الصياد.

وابتسم الباشا وهو يقول لنفسه: «الآغا لا يفهم القضايا المعقدة، ولا يتذوق النكتة» وأضاف يخاطب فيروز:

- وقل له: ليكثر مِنْ الصيد، فالباشا سيكون ضيفه!

كان إرسال بندقية الصيد بمثابة تخل مِنْ الباشا عن منازلة ريتش، على الأقل الآن، فالوقت مبكر على هذا النزال، وكما للصيد والقنص أماكن ومواسم يعرفها الصيادون، فيجب عليهم أن يلتزموا بها إذا أرادوا أن يظفروا، فإن مِنْ يخطىء فِي معرفتها لا بد أن يدفع الثمن!

وزيادة فِي المكر أرسل هدية للباليوز، وهي عبارة عن مجموعتين مِنْ الغزلان، مجموعة مِنْ الغزلان الصحراوية، والثانية مِنْ غزلان الجبال.

وكان يعرف أن الباليوز لا يملك مثلها، وهي بالإضافة إلى ندرتها، تعبر عن نوايا طيبة، لما ترمز إليه الغزلان مِنْ وداعة ورقة، إضافة إلى أن عيونها الواسعة تعني أن السراي ترى كُلّ شي! أما دقة السمع التي تميز الغزلان فِي العادة، فلم يشر إليها أية إشارة، إذ ترك لريتش أن يستنتج ذلك!

وإذا كان مهرجان الباليوز قد آثار الاهتمام، وشغل الناس أياماً عديدة، كما بعث برسائل إلى مِنْ يعنيهم الأمر، فإن دخول الصيف، أو بداية الحرارة فِي بغداد، جعل ريتش يفكر بجولة طويلة، وبالاتجاه المعاكس للرحلة التي بدأ يهيء لها الباشا، إذ ما كادت تتوالى الأخبار عن احتمال توجه قوات الوالي

نحو الصحراء، حتى أخذ الباليوز يهيئ رحلة القنصل إلى الشمال، وكان لديه الكثير ليفعله هناك.

فالتجار اليهود الذين قدموا هدية بمناسبة عيد جلوس الملك، وكانت عبارة عن مجموعة مِنْ القطع الأثرية، وقد قدمها وفد كان يرأسه عزرا فِي اليوم التالي للعيد أثارت اهتمام ريتش، خاصة بعد أن استسفر عن المكان الذي جلبت منه، وقارن هذه المعلومات بما لديه، وضرورة أن ينتهي مِنْ وضع الخارطة للمواقع الأثرية التي تعتبر أكثر أهمية مِنْ غيرها، وما تقتضيه مِنْ عناصر ووسائل، ليشرع فوراً باتخاذ خطوات عملية، خاصة بعد أن بدأ الفرنسيون عمليات تنقيب واسعة، وفِي عدة أماكن، وتوفرت لديه أخبار أنهم حصلوا على نتائج وحصيلة كبيرة.

ثم إن زيارة الشمال تتيح له فرصة إعادة الدراسة، وإمكانية اختبار طبيعة الأرض، ونوعية التربة، مما يجعله قادراً على اقتراح خطة متكاملة لطرق جديدة غير الطريق السلطاني، الذي خطته البغال ومجاري المياه دون أن يتدخل الإنسان مجدداً مِنْ أجل تخطي الأزمنة، وتجاوز هذه الوسائل البدائية!

أما أصدقاء الشمال الذين ألحوا عليه كثيراً ومراراً بزيارتهم، فقد حان الوقت ليفعل، لأن هؤلاء الأصدقاء، كأية مجموعة بدائية، إذا طال الانقطاع عنهم، يمكن أن يضيعوا، وقد يتغير ولاؤهم دون أن يحسوا بالذنب، ثم إن عدم تلبية دعوتهم، رغم إلحاحهم، يشعرهم بالغضاضة، إذ يبدون بنظر رجالهم أدنى درجة وأقل أهمية مما يدعون، ونتيجة ذلك يمكن أن يتخذوا مواقف سلبية لا تلبث أن تتحول إلى عداء.

وتذكر خالد بك الذي زاره عدة مرات، ودعاه بإلحاح لزيارة كوي، كما بعث إليه بعدد مِنْ أطيب خيوله، وأوفد إليه الرسل والرسائل، وريتش يؤكد أن لديه الرغبة فِي الزيارة، لكن مشاغله فِي بغداد تحول دون تلبيتها فِي وقت قريب. ويصبر خالد، ويعاود الزيارة والاتصال، وريتش لا يلبي، كما لا يعد ولا يعتذر، إلى أن ذهب خالد لكرمنشاه، وأظهر عداء لبغداد ولكل مِنْ فيها حتى لريتش، إذ اعتبره خاضعاً لإمرة الباشا، وعاجزاً عن أن يتصرف بطريقة مستقلة!

قال ريتش ليحسم أمره: مثل هؤلاء الناس يمكن استرضاؤهم بسهولة، شريطة أن تشعرهم بأهميتهم، خاصة أمام أتباعهم، وبمجرد أن تأكل مِنْ خبزهم يشعرون بالفخر، ويتذكرون ذلك لوقت طويل.

وعاودته ذكرى الأيام الأولى لوصوله إلى بغداد. كان يفترض أن المناقشة الهادئة، والاعتماد على العقل والمنطق مِنْ أجل إقناع الآخرين، يوصلانه إلى ما يريد، لكن بعد أن حاول، وبذل أقصى براعته، اكتشف أن الناس هنا

يختلفون عن الأماكن الأخرى، لأنهم هنا لا يريدون مِنْ يقنعهم، فهم بحاجة أكثر إلى مِنْ يأمرهم، إلى مِنْ يقول لهم ماذا يجب أن يفعلوا، وكيف يجب أن يفعلوه! أما حين تتحدث إليهم بأدب، بصوت منخفض، يفتحون عيونهم على إتساعها، لكن أفكارهم فِي أماكن أخرى، ربما لأن عقولهم قاصرة عن إدراك ما تريد، إذ يكتفون بهزات الرؤوس بالموافقة.

لكن إذا فاجأتهم بالسؤال يرتبكون، ينتزعون أنفسهم مِنْ الأماكن البعيدة التي كانوا فيها، وتطلب عيونهم قبل الكلمات، وبرجاء أقرب إلى التوسل، أن تطرح عليهم، مجدداً، السؤال، لكن بطريقة لا تحتمل كُلّ هذا التعقيد.

ويُطرح السؤال مرة أخرى، وبصيغة أخرى، وغالباً تكون النتيجة ذاتها! إنهم يفضلون الحديث عن الأمور الخاصة، الحميمة. وربما هذه الأمور وحدها تعني لهم شيئاً، وتبدو لهم مهمة. حتى ماري، وكأية امرأة، تعني كثيراً بالتفاصيل، كما تحب الدخول إلى عالم الآخرين مِنْ خلال الأمور الخاصة، إلا أنها بدأت تضيق ذرعاً بهذا الإلحاح المبالغ فيه، حين تُسأل عن الأمور الصغيرة، ويجعلها الآخرون تدور فِي هذا الفلك وحده.

قالت قبل أيام: ما رأيك يا عزيزي كلود إذا قلت لك إن الرجال فِي هذا البلد لا يختلفون عن النساء! سألتني ذلك وأخذت تروي لي كيف كان الضيوف ينظرون إليها ويوجهون لها الأسئلة عما تحب مِنْ أنواع الأطعمة، وكيف تتحمل الجو، وما إذا تشتاق إلى بلدها أم لا. كانت تتمنى أن يسألها احد عن أمر جدي، لكن لم تظفر بذلك!

فإذا كانت هذه حال الناس فِي المدينة، فماذا يمكن أن يكون حالهم فِي أعالي الجبال؟ فِي تلك المناطق المعزولة حيث لا يرون سوى الشمس فِي النهار والقمر فِي بعض الليالي.

وقرر أن يزور تلك المنطقة، تخلصاً مِنْ جو بغداد، وللقيام بالمهمات الأخرى التي طالما أجلها.

فِي ليالي السهد، وما أكثرها، كان داود باشا يسافر بخياله إلى أماكن عديدة، ويستعرض وجوهاً وأحداثاً لا حصر لها، لكن فِي الفترة الأخيرة استبدت به جورجيا، ويستغرب أن تفليس التي كانت غائبة طوال سنين وسنين أصبحت توافيه فِي الكثير مِنْ هذه الليالي! فجأة يجد نفسه يرحل إلى هناك، إذ تهف فِي أنفه رائحة الأرض ودخان أيام الشتاء، أو تتبدى له أزهار الربيع بألوانها وهي تزركش الحقول، لكن فِي لحظة تغيب كُلّ هذه المشاهد، ولا يبقى إلا وجه أمه. كان وجهاً مستديراً مشرباً بالحمرة، ومع أنها تميل إلى القصر، أو ربما تبدو كذلك لسمنتها، إلا أنها سريعة الحركة بالغة النشاط وهي تملا البيت بالدفء والحيوية منذ الصباح الباكر.

ومع وجه أمه تعود التفاصيل: الريح كيف تعصف؛ الثلج كيف يهجم؛ وحين تصبح أغصان الأشجار الأعلام الممزقة. كانت الأشجار، بعد أن تسقط أوراقها وتتعرى، تبدو كالجيش المتقهقر: ألوان كثيرة متداخلة، قامات متفاوتة الطول ولا تعرف أيّ انتظام، ثم ذلك البخار الذي يشع مِنْ الأرض أو يتولد مِنْ الكائنات، خاصة الأبقار، وكان الطبيعة رئة كبيرة لا تتوقف عن الزفير، لتملأ الجو ببخار يتصاعد ويتلوى ثم يختلط بالدخان الذي يرتفع مِنْ المدافئ، ومن فرن البيت، فِي الجانب الغربي مِنْ البستان، مع الحرائق الصغيرة التي يشعلها الأب ليدفئ الحظيرة. تصبح للطبيعة رائحة خاصة، حريفة، بالتأكيد ليست زكية، لكنها قوية، نفاذة، كما تثير فِي الخيال صوراً وأشياء لا يعرف كيف تتكون.

وتحمله ليالي السهد إلى أماكن أخرى، يذهب بعيداً، لكنه بسرعة يعود. فقد قرر منذ وقت مبكر أن يبقى، وبالتحديد منذ أن سلمه سليمان باشا المفاتيح. قال له بلهجة تقع بين الطلب والأمر: «إذا خدمتني بالصدق والإخلاص، وكنت أميناً وكنت مطيعاً، فستبقى مفاتيح السراي بين يديك.

وإذا صبرت واجتهدت فسوف تنتقل مِنْ الباب الصغير إلى باب أكبر»..

منذ أن سمع تلك الكلمات، والتفت حواليه يراقب الناس والأحوال، ويسأل بكثير مِنْ الحرص عن كُلّ ما يحيط به، قرر أن يبقى، وأن يعمل بكل قوته كي يرتفع درجة بعد درجة إلى أن يصل.

كان كتوماً فلم يبح بأحلامه وأفكاره لأحد. وكان جلوداً فِي العمل والسهر والحرص. وكان يؤثر الصمت. ولعل الصمت هو أكثر ما تحبه القصور، وتفضله على أية ميزة أخرى. لا مانع أن ترى، أن تسمع، وأن تعرف أيضاً،

لكن عليك ألا تفتح عينيك أكثر مما ينبغي، ولا أن تدير رأسك دورة كاملة لترى كُلّ شيء. وإذا سمعت شيئاً تظاهر أنك لم تسمع، أو أن ما سمعته كان دون قصد. أما أن تقترب مِنْ الأبواب لتسترق السمع، لتطل مِنْ النوافذ لترى ما يجري، فإن انكشف الأمر ستذهب إلى السراديب البعيدة، المظلمة الرطبة، وهناك يمكن أن تنتهي دون أن يحس أحد وما تراه، وما تسمعه، رغم أنك رأيته وسمعته، فأنت تجهله! حتى فِي أوقات المزاح أو بين الأصدقاء، أنت لا تعرف لأن مِنْ يعرف أكثر مِنْ الآخرين أو قبلهم لا بد أن يدفع الثمن اليوم أو غداً. وتذكر داود باشا ما قاله سليمان الكبير: «مِنْ اللسان تبدأ أكثر الشرور، ومن الكلمات تندلع أكبر الحرائق، فإياك ثم إياك».

لم يكن الباشا الكبير يلومه أو يحاسبه على زلة لسان سمعها أو نقلت إليه، إنما كان يدربه كي يرقيه إلى مرتبة أعلى، ولكي يعهد إليه بمهمات جديدة، بعد أن تأكد أنّه حفظ الدروس السابقة.

هناك لحظات فِي حياة كُلّ إنسان تخلق السعادة أو التعاسة. يحصل ذلك نتيجة قرار يتخذه، أو يُتخذ نيابة عنه، وهذا ليس دائماً نتيجة الذكاء، أو ترتيب الأمور بشكل معين، وإنما لأن توافقاً فِي الأزمنة والأمكنة والطوالع، وربما بقليل مِنْ الفطنة، سواء فِي اختيار اللحظة أو الكلمة المناسبة، يؤدي إلى الاتجاه الصحيح، ثم إلى بداية الوصول، تماماً كما يحصل عند مفارق الطرق.

داود حين قرر لم يكن متردداً أو خائفاً، كما لم ينظر إلى الخلف.

وخطوة بعد أخرى، وجد نفسه وقد قطع جزءاً كبيراً مِنْ الطريق. انفرجت الزاوية كثيراً، وأخذ يوغل فِي اتجاه لا رجعة فيه. أصبح كُلّ قرار جديد يتخذه، كُلّ حركة يتحركها، وأية علاقة يقيمها، تسهل عليه الوصول، أو ربما تقطع عليه الطريق بشكل نهائي.

يقول الذين يعرفون أن الدرس الهام الذي تعلمه مِنْ سليمان الكبير هو: الصمت. وكان يجيد الصمت أكثر مِنْ أيّ شيء آخر، رغم أنّه بارع فِي الكلام، وقد لا يبزه أحد فِي هذا المجال، لكنه يعرف متى يتكلم وأي شيء يجب أن يقول. يفعل ذلك حين يريد هو لا حين يطلب الآخرون.

ورغم أن تفليس تعاوده مرة بعد أخرى فِي ليالي السهد، ومعها وجه أمه بشكل خاص، ثم تتعاقب بعد ذلك الوجوه: جورجي عمانوئيل شفاي، أبوه، وشيو، أخوه، وديمتري، أخوه الأصغر، وتترآئ له صورة الكلب الذي كان عندهم هناك. ومع أنّه يحبهم كثيراً، ويحب أمه أكثر مِنْ أيّ إنسان آخر، إلا أن ذلك جزء مِنْ الماضي، هذا الجزء الذي يجب نسيانه، لأنه، فِي النتيجة، لا يعني له الكثير الآن. صحيح أنّه يفكر بمساعدة أهله، ولا بد أن يبعث لحاكم المقاطعة فِي جورجيا طالباً منه تحرير أسرته مِنْ العبودية، وبالتأكيد سوف

يستجيب، بعد أن أصبح هو والياً لبغداد، أو ملكاً لبابل، كما يخاطب بيترو الجورجي الذي يكتب له الرسائل بالجورجية والفرنسية، بمداعبة، إلا أن ذلك لا يتعدى الحنين الذي يجب إلا يستبد به، كما يستبد ببعض الناس!

الماضي بالنسبة له محرض، والطفولة الفقيرة الصعبة، حين كان يصحو مع الفجر كي يقوم بقسم مِنْ الأعباء الكثيرة المفروضة على العائلة، لقنته الدرس الأول. صحيح أن دروساً أخرى كثيرة أعقبت ذلك، لكنه تعلم مِنْ هذا الدرس الكثير، والفقر، كما قال لنفسه، يمكن أن يعلم بمقدار ما يمكن أن يكسر ويدمر، حسب النظرة إليه وكيف يتم التعامل معه، أما الأيام الأولى فِي بغداد، تلك الأيام التي يحاول أن ينساها ولا يفلح، فقد حفرت فِي قلبه أثلاماً لا يمكن أن تزول. كانوا ينظرون إليه ويتكلمون، ورغم أنّه لم يفهم ما كان يقال، لكن يحس أن كُلّ كلمة مسمار يُدق فِي عظمه، وكُلّ نظرة غرق فِي وحل أسود. وبعد أن انتقل مِنْ يد إلى يد، ومن بيت إلى آخر، وصل السراي، فاعتبرها خشبة خلاص لا يمكن أن يتخلى عنها. ومن هناك بدأ.

ولأنه عرف كيف يتعامل مع ماضيه، فقد قرر إعادة عجنه ليخبزه مِنْ جديد، لأنه لا يريد أن يأكل خبزاً قديماً.

فالأيام الأولى، رغم صعوبتها، تبدو له الآن خارقة، فقد استطاع أن يعيشها ثم أن يتجاوزها. ومع أنّه استوعب دروسها، إلا أنّه لا يريد أن يتصرف بوحيها. قد تكون ذكرى، لكن ما يريده الآن هو الهدف، ولن يكون غراً ليبقى أسيراً للماضي.

الماضي نهر عميق، ينبوع دائم التدفق، لكنه الآن يواجه أنهاراً أخرى وينابيع لا حصر لها، وعليه أن يوجد ممرات سرية وعميقة جداً لكي يسحب مِنْ مياه الماضي إلى النهر الذي يسبح فيه الآن. الينابيع القديمة رغم مائها البارد أيام الصيف، وتدفقها حتى فِي سنوات المحل، إلا أن الينابيع التي تروي، هي تلك التي تحيط به الآن، أياً كانت برودتها. يتذكر الشهور الأخيرة فِي الشمال. كان محاصراً بالبشر والينابيع، ومثلما كانت تهدر أصوات الرجال طالبة سرعة الوصول إلى بغداد، كان دوي الينابيع والشلالات يمنع أو يحد مِنْ هذا الهياج، ليتولد صخب مِنْ نوع آخر: المهم ليس الوصول وحده، الوصول والبقاء، ثم الانتصار، وكُلّ ما عدا ذلك: طريق للهزيمة أو للبقاء فِي الشمال، وربما للتراجع أكثر.

كان الزبد يتدفق فوق المياه كغطاء ليقول: تمهلوا إلى أن تنكشف روعة الأشياء، لأنكم تبحثون عن المياه، لا تبحثون عن الخيال، وأنا الدليل وأنا الإشارة، فانتظروا!

وكان داود باشا يقول لنفسه، لكن يريد للآخرين أن يسمعوا:

ـ مِنْ تعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، ونحن نريد أن نشرب مِنْ ماء بغداد إلى آخر أيام العمر، وماء بغداد موجود وجارٍ، وعلينا أن نعرف الطريق للوصول إليه!

وإذا كان الإنسان، فِي أحيان كثيرة، يولد أكثر مِنْ مرة، فإن الولادة الأخيرة هي وحدها التي يعول عليها، لأنها تعني البقاء أو الغياب.

استعاد داود باشا رحلة الشمال، والتي دامت شهوراً طويلة، تأمل أوراق الشجر، أصغي إلى أصوات الينابيع، نام قرب الشلالات، توقف عند معابر الأنهار، تطلع ملياً إلى الجبال والخضرة، وعرف أحلام الناس، كما راقب باهتمام صخب الماء وهو يهبط مِنْ الأعالي، وهناك توقف وأطال التأمل، خاصة وهو يرى الأسماك عند مساقط المياه. قيل له إنها الأمهات تحاول العودة إلى الينابيع الأولى. فرح وحزن. فكر بذلك طويلاً وعجب، وقال لنفسه: «هذا درس يجب أن نتعلمه مِنْ الأسماك، أسماك القاع وأسماك الأعالي». وحين أخبروه أن تلك الأسماك فِي محاولتها العودة إلى الينابيع، وحين تعجز، رغم ما تبذله مِنْ جهد، فإنها لا تموت دفعة واحدة، بل ترفع رؤوسها فوق الماء، وتظل تنوح وتبكي بصوت عال ولأيام متواصلة، ثم تقرر أن تنتحر، تخرج إلى اليابسة.. وهناك تموت.

وقد سمع أكثر مِنْ ذلك: الأسماك التي تعاكس مجرى الماء، وتريد أن تصعد مع الشلال، فإن القليل منها يستطيع ذلك، أما الأمهات الباقيات فإنها تقف عند أسفل الشلال، تقف على ذيولها، وتتلبث فِي الماء وقتاً غير قصير، وهي تصرخ بطريقة أقرب إلى الاحتجاج. وقالوا لو أن صياداً يحمل فالة ويريد أن يصطاد فِي هذا الموقع لجمع الكثير، لكن الصيادين، خاصة المحترفين، لا يفعلون ذلك! يقولون بطريقة حكيمة: مِنْ العيب أن يكون الإنسان دنيئاً إلى هذا الحد. ويقول غيرهم، إن لحم الأسماك التي تصاد أسفل الشلال تجلب الحمى والكوابيس، ومن يداوم على أكلها يصب بالعمى؟

قد تكون الأمهات، والعودة إلى الينابيع، ما جعل داود باشا يهجس فِي المنام واليقظة بأمه وبجورجيا. وربما هذا ما جعله يستعيد فِي ليالي السهد، أشياء نسيها منذ وقت طويل.

لكن، وهذه المشاهد تعاوده وتلح عليه، فقد طلب مِنْ بيترو أن يبذل جهداً استثنائياً لمعرفة ماذا حل بالعائلة، وأن يجد الطريقة المناسبة لإعادة الصلة، «لأن ملك بابل، هكذا قال لبيترو، اشتاق لمريم، أمه، ويريدها أن تأتي لترى كيف أصبح ابنها الآن!». وبيترو الذي أوصى عدداً مِنْ المسافرين الذين ذهبوا إلى إسطنبول، وكان فِي نيتهم أن يذهبوا إلى مكان أبعد، طلب منهم أن يوافوه بطريقة مناسبة للاتصال مع جورجيا. لم يقل إن الباشا يريد ذلك،

لكن أهل بغداد، كما قال بيترو لخلف، وهو يطلب منه تأمين مبلغ إضافي لأحد المسافرين، يعرفون دلالة أيّ طلب، وما يكمن خلفه مِنْ نتائج، وقد فهم خلف الطلب ولم يتأخر فِي تأمين المبلغ المطلوب.

إذا كانت الشلالات استوقفت الباشا، وجعلته يتساءل، فإن الفترة التي قضاها فِي الشمال، دفعته للتساؤل أكثر مِنْ قبل. صحيح أنها أسئلة لا تبارح الذاكرة، وقد تأتي بشكل عفوي، لكن مهادها، ثم نتائجها، تكمن فِي مكان آخر.

حتى الضباب الذي ينقشع سريعاً فِي الأماكن الأخرى، فإنه فِي الشمال يبدو كعباءة، إذ يغمر الوادي كله، ويظل هناك إلى ساعة متقدمة مِنْ النهار، وله رائحة تحمل فِي ثناياها قوة الحياة. أما الأشجار، وهي تعب مِنْ الضباب، بعد أن عبت الندى الليل كله، فإن لفاكهتها مذاقاً ينتقل مباشرة مِنْ اللسان إلى مجرى الدم. وكذا الخضار فإنها لا تذبل أبداً، ويتجدد النسغ داخلها كُلّ يوم جديد.

فِي ضواحي تفليس كانت الخضار قبل أن تكتمل يأتي الصقيع. كان الصقيع قوياً جارفاً إلى درجة أن الماء داخلها يجمد مِنْ لهيب البرد فتذبل، أو تتوقف عن النمو، ورغم ما يبذله الفلاحون فِي تدفئتها، فِي دفعها لأن تواصل الحياة فإنها لا تفعل، ولا تستجيب.

وثلج الشمال، رغم كثافته، يشبه الألحفة التي تسقط على مِنْ يحس برعشة البرد، فيغادره البرد، ويصبح أكثر استعداداً لأيام جديدة.

قالت مزيونة، ضاربة الودع، وقارئة الحظوظ، لداود باشا حين التقت به فِي كركوك: «تواجه أعداء كثيرين، تتغلب عليهم، لكن لا يهدؤون.

فإذا مر ربيع ثم صيف، وجاء الربيع الثاني فأيامك عز طويل».

يتذكر داود أيام الشمال كلها، يوماً إثر يوم. ويتذكر أعشاب الأرض، برودة الينابيع، وأيام الثلج الطويلة والليالي التي لا تنتهي. أما كلام مزيونة فإنه فخ، لأنها رأت سيفه والعسكر حوله، ورأت أن لا مهنة له سوى الحرب، فِي الوقت الذي كان يريد أن يعرف ما وراء الحرب، متى سيصل إلى بغداد، وأي شيء سوف يؤسس فيها ليدوم له العمر كله ثم ينتقل لأبنائه ثم للأحفاد إلى آخر الزمان.

فِي ليالي السهاد الطويلة المضنية لا يعرف كيف ينام أو متى. يتقلب عشرات المرات، يغير مواضع اليدين والرجلين، يرسم صورة ملبنة بالأشجار ويشرع يعدها لكي ينام، لكن فِي أحيان كثيرة، وبعد أن يعد الأشجار ويعذ غيرها، يرجع إلى العد مِنْ جديد، إلى أن ينزلق، دون أن يحس، إلى نوم مليء بالأحلام، وكانت هناك دائماً مريم تنادي عليه، تشير إليه، وحين يتحرك

ليجيب تختلط عليه الكلمات، لا يعرف بأية لغة يخاطبها أو ماذا يقول، فإذا حاول مرة أخرى، وبذل جهداً أكثر مما يطيق غادره النوم وهجمت عليه اليقظة لتحرمه النوم مرة أخرى.

ولا ينسى فِي اليوم التالي أن يسأل بيترو فيما إذا عاد المسافرون، أو وصلت إليه أية أخبار مِنْ تفليس، وحين يهز رأسه نافياً، دون أن يجيب، يقول له الباشا:

- سوف ننتظر أياماً أخرى.

ويتواصل دوي بغداد، ويغرق فيه الجميع.

مِنْ الدروس التي تعلمها داود، وهو فِي سراي سليمان باشا الكبير:

إجعل كُلّ إنسان محتاجاً إليك، ومعتمداً عليك؛ وأنت لا تحتاج ولا تعتمد على أحد بشكل كلي أو بصورة دائمة». والنصيحة الأخرى التي يتذكرها داود: «قوة أيّ فرد مستمدة منك وحدك، فإذا تخليت عن هذا الفرد يصبح لا شيء، ويجب أن يحس الجميع بذلك». أما كيف استطاع سليمان أن يكسب ولاء رجاله، فلأنه اتبع قاعدة ذهبية، كما سماها ذات يوم، وهو ينقل لأصهاره بعض تجارب الحياة، قال وهو ينقل نظراته بينهم ـ على الحاكم أن يعامل رجاله بثقة، فلا يلجا إلى القسوة إلا إذا كان الذنب كبيراً. كما يجب أن يبعد الخوف عن الذين حوله، لأن الخائف يبحث عمن يحميه، وقد يذهب الخائف أبعد مما تتصور، وحيث لا تريد!

كان سليمان الكبير قليل الكلام، وكان يفعل الأشياء أكثر مما يتحدث عنها، لكنه يريد مِنْ الذين حوله، خاصة أقرباءه، أن يستوعبوا هذه الدروس، وهذا ما جعله قوياً إلى آخر يوم مِنْ حياته..

و داود الذي كان يراقب دون تعب، وكان يعيد الدروس على نفسه لئلا ينساها، كثيراً ما لجأ إلى التاريخ يقرؤه، ويستعيد عبره، لأن المهمة التي نذر نفسه لها: إما أن تظفر أو أن تخيب، ولا يحتمل الأمر حلا وسطاً.

لم يكن ينام فِي بعض الليالي. كان يفكر ويخطط ويحلم، وكان يفرح ويحزن، فالعبء كبير، والأعداء كثر، والناس حوله يفهمونه ولا يفهمونه.

وحتى الذين يتظاهرون بالفهم فإن البلادة تسيطر على أبدانهم وأرواحهم، فتجعلها ثقيلة إلى درجة لا يعرف كيف يحركها أو كيف يغيرها، لتصبح أقدر على التجاوب معه.

ولأن العبء كبير، كانت تراوده أحلام لا تخلو مِنْ غرابة فِي بعض الليالي: ماذا لو كان العراق فِي مكان آخر مِنْ هذا العالم، ألم يكن حكمه أيسر؟ وماذا لو كان فيه بشر مِنْ طبيعة أخرى، ألم يكن ذلك أسهل؟ هكذا كان يحلم ويتمنى. ويبالغ فِي بعض الأحيان، ليصل إلى مدى حين يعود منه يعود بفرح يشوبه بعض الحزن. إذ يتمنى لو أن الشمس فِي بغداد أرحم وأقل توهجاً؛ لو أن الأرض لا تتملح بهذه السرعة أو بهذا المقدار؛ لو أن الأنهار تفيض فِي غير هذه الأوقات مِنْ السنة، إذ بدل أن تحمل مياه الفيضان الخير والبركة للزروع التي نمت، تحمل إليها اللعنة والدمار، وتجرف معها كُلّ ما بنته يد الإنسان؛ لو أن البدو أبعد، ولا يعرفون الطرق المؤدية إلى المدن؛ لو

أن التاريخ أخف حملاً، ولا ينهض الذين يحملونه إلى هذه الدرجة؛ لو أن الذين يعيشون فوق هذه الأرض أقل مذاهب وأعراقاً وألواناً... لو أن ذلك حصل، لما استطاعت اسطنبول أن تبقى وأن تسيطر، أن ترسم وتحكم؛ ولما استطاع غيرها أن يفكر بالغزو، أو أن بطمع بأرض أو ماء، أو أن يفرض ما يريد!

وحين يعود مِنْ رحلة الأماني، ويتلفت حواليه، ويحس بالقوة، يقول:

(إنها إرادة الله، وتلك هي مشيئته) هكذا يختم داود باشا الرحلة والمناجاة، وينصرف بعزيمة أقوى ليفكر ويخطط، ما يستطيعه الآن وما يحتمل التأجيل إلى الغد أو إلى أبعد مِنْ ذلك مِنْ الأيام التي ستأتي.

ورغم أن داود يحب الشعراء، ولهم عنده منزله تفوق غيرهم بكثير، إلا أنّه لا يحب طريقتهم فِي التفكير أو التصرف. فقد خلق لكي يبني بلداً وينشئ دولة، لا أن يسيطر عليه بيت مِنْ الشعر، لا يعرف متى يقتلعه النسيان مِنْ ذاكرة البشر لا يكتفي بذلك فقط، خلق داود لا لكي يقول أبياتاً مِنْ الشعر، وإنما ليقال فيه الشعر؛ خلق لا ليكتب التاريخ، وإنما ليصنعه، وبعد ذلك يأتي المؤرخون ليقولوا: هذا ما صنعه داود، ويبدؤون بالكتابة والتعداد إلى أن يتعبوا! أن يصنع الإنسان دولة، خاصة فِي هذا المكان، ومن هؤلاء البشر، أمر لا يستطيعه إلا الأفذاذ النادرون. وفجأة لمع بذهنه اسم الإسكندر الكبير، فكر لو يسمى واحداً مِنْ أولاده القادمين بهذا الاسم. ابتسم، لكنه ما لبث أن حزن حين تذكر كيف أن الإسكندر مات قبل أن يكمل مشروعه، ثم كيف توزع خلفاؤه ملكه إلى أن تبدد.

حين يجد داود نفسه يحلم لا يسترسل طويلاً فِي الحلم، إذ يكره الذين يكتفون بالأحلام. يعتبرهم مرضى، ولا بد مِنْ معالجتهم، كي يشفوا مِنْ هذا الداء الخطير، خاصة وأن ليالي بغداد تنشر هذا الداء وتجعله راسخاً أكثر مِنْ أيّ مكان آخر فِي هذا العالم!

ما يكاد يتسلل مِنْ الحلم، ويلتفت إلى ما يجب عمله، وبعد أن يكون قد فكر طويلاً وخطط، يجد أن عليه الكثير ليفعله، خاصة فِي هذه المرحلة. قد يتعب فِي البداية، لكنه التعب الذي يريحه فِي مراحل لاحقة، إذ يعتبر أن وضع الناس والأشياء فِي الأماكن المناسبة سوف ييسر عليه الأمور، تماماً مثل التعب الذي يتطلبه شق قناة للماء، فما تكاد تلك القناة تُشق حتى تتدفق فيها المياه بيسر، ويظل الأمر كذلك ما دام الإنسان يراقب ويتابع، دون أن يضطر لجلب الماء كُلّ مرة مِنْ الأمكنة البعيدة...!

وخلافاً لغيره مِنْ المنتصرين، لم يلجأ داود إلى تبديلات كبيرة أو سريعة. ترك الكثيرين فِي وظائفهم وأماكنهم، لكنه أشعر الجميع أن عهداً جديداً قد

بدأ، وأخذ، فِي نفس الوقت، ينشىء جهازاً موازياً يعتمد عليه أكثر فأكثر، خاصة فِي المواقع العسكرية.

لا يريد أن يعادي الكثيرين، خاصة فِي هذه المرحلة، قال، وهو يستقبل كبار الموظفين:

ـِ عفا الله عما مضى؛ نحن أولاد اليوم، ونحن فِي عهد جديد...

نظر إلى العيون التي تتابعه، وهو يمسح الوجوه أمامه، وكان بينها عدد مِنْ رجال الدين:

وأرواح الناس وأموالهم أمانة فِي أعناقنا، وكما سيحاسبنا الله على هذه الأمانة، فإن السلطان، فِي دار السعادة، ائتمننا وكلفنا وطلب منا أن تؤدي الأمانات إلى أصحابها، فمن فعل فقد أرضى الله ورسوله وأولي الأمر، ومن نكل فإن حسابه فِي الدنيا والآخرة، اللهم إني بلغت، وعسى أن تنفع الذكري.

لم يهدد، لم يسم أحداً، لكنه كان حازماً، وكان واضحاً حين وجه رسائله. والذين وُجهت إليهم لم يخطئوا فِي فهمها، لذلك بالغوا فِي إظهار الولاء، وفِي تأنيب أتباعهم حين يذكرونهم بالمصاعب، أو حين يبالغون فِي إبراز بعض الأخطاء، وبعض العيوب التي أخذت تقع هنا وهناك، يوماً بعد يوم.

أما حين أخذت تتوارد إلى السراي أخبار امتناع بعض القبائل عن أداء ما يترتب عليها مِنْ ضرائب ورسوم، فقد قال داود باشا للآغا، وكانا يجلسان فِي الشرفة الجنوبية المطلة على النهر:

لازم نخلي البدو يخافون خوفة حية.. بس تنذكر الحكومة.

ولما هز الآغا رأسه موافقاً، تابع داود:

- وهذا ما يصير إلا بعد ما يجيهم أول صواب.. والثاني، حتى يقولوا: إن الله حق، وإن الحكومة تقدر على كُلّ شيء.

ومثل عادته اكتفى الآغا بهزات مِنْ رأسه، دلالة الموافقة، لأنه لا يعرف ماذا يريد منه الباشا. خيم الصمت. كان الليل مديداً، ومياه النهر تومض بالتماعات خفيفة بين فترة وأخرى، حين يمر أحد مراكب الصيد، وكانت تسمع مِنْ البعيد أصوات غناء أو نباح كلاب متكسرة أو متطاولة، وكان يظهر جزء مِنْ المركب الراسي أمام الباليوز، وكان لا يُعرف ماذا يجري بداخله، وتتردد بعض الأحيان أصوات تنادي أو تشتم، لكنها متداخلة لا تفهم، وتترنح قبل أن تصل!

والباشا الذي يعتبر هذه الشرفة أحد حصونه القوية، حيث يشعر بالثقة وهو يطل على النهر مِنْ ناحية، وتبدو له السراي مكتملة، متألقة مِنْ الناحية

الثانية، ثم تلك المساحة الرحبة التي تفصله عن الآخرين، بحيث ينتفي أيّ قيد على الكلام والتفكير معاً، ما يدفعه إلى الاسترسال، وبعض الأحيان البوح بما يدور فِي ذهنه. وتبدو هذه الليلة هكذا.

بعد فترة صمت طويلة، قال الباشا:

ـ البدو أبد ما يؤتمنون، يا آغا...

وتغير صوته:

ـ إذا شعروا بالقوة... إذا أرخيت لهم الحبل. إذا أمحلت الدنيا، أو حتى فِي سنوات الخير؛ إذا ضحكت بوجوههم، وإذا عبست؛ إذا نسيتهم أو تذكرتهم؛ دائماً عندهم الحجة للتمرد والعصيان، وهذه آفة هذي الولاية، ولاية العراق، وهذا سبب ضعفها؟

هز الآغا رأسه، لكن بموافقة أكبر هذه المرة، وقد بدت تتضح الصورة. أضاف الباشا بنبرة جديدة:

- إذا لم يتأدب البدو ويخضعوا خضوعاً كاملاً، فسوف يستمر وجع الراس، وتزداد المشاكل.

ثم كأنه يحدث نفسه:

- ومثل ما قالوا: ماكو مِنْ البدو إلا الإفلاس ووجع الراس؟

انفعل الآغا فجأة، وكأنه تذكر شيئاً:

ـ البدو، يا أفندينا، الله بيم بلا ويرسون، ما يجون إلا بالعصا! ـ تمام، يا آغا، ولازم نؤدبهم حتى نخلص مِنْ سوالفهم، لأنهم لا يعرفون الحلال والحرام، وعندهم: الحلال ما حل باليد...

تنفس الباشا ملء رئتيه، وهو يفكر بأمور كثيرة، وتبدو هذه الأمور متداخلة، متشابكة، لكن شعر أنّه مِنْ الضروري، فِي مرحلة معينة، أن تتلخص بفكرة، بموضوع محدد، والبدو، فِي هذه الفترة، هم الموضوع، وهم الخصم، لذلك يجب أن يركز كُلّ جهده عليهم، وهذا ما يجب أن يفعله رجاله، وفِي كُلّ مكان، لكي تتجمع طاقات الناس وقناعاتهم فِي هذه البؤرة.

قال الباشا، وهو ينظر فِي نصف الظلمة إلى وجه الآغا، وكان يناجي نفسه: «بعض الناس إذا كثرت عليهم الأسئلة أو تراكمت يضيعون»..

فبعد أن أفلت قاسم الشاوي، وذهب إلى حافة جهنم، كما يصف الوالي الأهوار، شعر داود باشا بالغيظ، إذ كان يريد القبض على هذا العاصي، وبعد أن يعذبه ويشفي غليله منه، يحز رأسه كما تحز قطعة الجبن، ويبعث بهذا الرأس ليس باتجاه الغرب فالشمال، كما هي العادة، حيث ترسل الرؤوس

إلى اسطنبول، بل كان ينوي إرساله باتجاه الجنوب، إلى حمود بن ثامر والقبائل القاطنة هناك، كي يقول لهم كيف يتصرف داود مع العصاة، لأنه يعرف أن أفضل طريقة لمعاملة هؤلاء البدو، والتي يفهمونها بسرعة، أن يروا بأعينهم كيف يُعاقب المتمردون. قد تغلي دماؤهم أول الأمر، ولا بد أن يهوسوا، ثم تتعالى صياحاتهم مع ذلك الغناء الأعمى، وربما يطلقون رصاصات فِي الهواء، لكن ما أن ينظروا مرة ثانية إلى العيون المطفأة فِي ذلك الرأس المحزوز، حتى تسري فِي أجسادهم رعشة الخوف، وعند ذلك يتقدم المسنون، وترتفع أصواتهم التي كانت إلى الأمس لا تسمع، لكي يحذروا ويذكروا الشباب الذين لا يعرفون، أو ربما لا يقدرون، مِنْ هو داود، وماذا يمكن أن يفعل.

إذا بردت الدماء تماماً فِي العروق، ونظروا مِنْ جديد إلى الشفاه فِي الرأس المقصوص كيف ازرقت، فعندئذ لا بد أن يُصابوا بالهلع، وسوف يستجيبون لكل ما يريده الوالي وما يأمر به. ولن يكتفوا بالطاعة بل سوف يرسلون الهدايا أيضاً. وبعدها سيفكرون مرات ومرات قبل أن يقدموا على أيّ عمل جديد.

داود وهو يفكر بهذه الطريقة فِي التعامل مع البدو، فلأنه اختبرهم مِنْ قبل، أعطاهم فرصة وأخرى. عفا عن كثيرين، لكن أبلغهم ثم أنذرهم أنهم إن لجؤوا إلى العصيان فسوف يضرب بلا رحمة، وسيأخذ البريء بجريرة المخطىء، وعندها يدب فِي صفوفهم الرعب، بحيث أن الأم إن أرادت إخافة أطفالها، وحملهم على السكوت أو النوم، فليس أمامها إلا أن تقول: جاء داود ورجاله.

لكن قاسم أفلت منه، صار بعيداً، وهذا ما سيجعله يتوهم أن النصر سهل مثلما هو الهرب مِنْ حراس أغبياء يملأ النعاس عيونهم، كما سيدفع إلى تحريض كُلّ مِنْ يمكنه الوصول إليه، وعند ذاك تبدأ المتاعب.

كانت لدى داود أفكار كثيرة، ومنذ وقت مبكر، حول الطريقة الفعالة المعاملة البدو، لكن الولاة الذين سبقوه، ما إن يسمعوا اقتراحاته حتى يهزوا رؤوسهم بموافقة خجولة، ثم يهبطون إلى الصمت، وكان هناك دائماً مِنْ يتبرع باقتراح إرجاء مثل هذا الحل، انتظاراً لوقت ملائم، والوقت الملائم لا يأتي!

وتذكر داود باشا كيف هيأ لسعيد ظروفاً مواتية إلى أقصى حد، حين ألحق بالبدو هزائم قاسية، وفِي عدة مواقع، إلى درجة جعلتهم يوافقون على كُلّ شيء. كان يمكن آنذاك مواصلة العملية إلى نهايتها: بالتوطين والجندية والضرائب، لكن سعيد اكتفى بغرامات رمزية، ثم عفا عنهم، الأمر الذي جعلهم يعودون إلى سيرتهم الأولى.

الآن... بدأت تتهيأ الفرصة المناسبة. سوف يتمكن فِي وقت غير بعيد مِنْ ملاحقة قاسم، وحين يقبض عليه، سيجعله أمثولة. وإلى أن يحين مثل هذا الوقت لجأ داود إلى استنفار خصوم قاسم.

- يا عبد الله... المشيخة منذ اليوم لك، لكن احذر الذين يريدونها، وليكن الله فِي عونك مِنْ الحساد والطامعين.

لقد كان داود على قناعة أن العشيرة لن تنتهي إلا إذا صارت عشائر.

وكلما كثر عدد العشائر داخل العشيرة الواحدة أصبحت أكثر استعداداً للتمزق والاضمحلال. كما أن الزعيم الذي يختاره بنفسه، لا الذي تختاره العشيرة، سيكون الخنجر الذي ينغرز فِي صدور الزعماء الآخرين، ويقتلهم. كما يبقى ذلك الشيخ ضعيفاً وبحاجة إلى دعم الحكومة، وبهذه الطريقة يمكن السيطرة عليه، والسيطرة على العشيرة كلها، أو القسم الأكبر منها.

وحين يتنازع الشيوخ تنفتح دروب داخل العشائر يمكن سلوكها لكي تتم السيطرة على الجميع.

وإذا كان مِنْ شأن الغيظ، ثم الغضب، أن يحد أيّ منهما أو كلاهما مِنْ قدرة الفرد على الرؤية ثم التصرف، فإن الوالي يجب أن يعرف كيف يلجم غضبه، ثم أن يخفيه، بحيث لا يلحظ ذلك حتى أقرب الناس إليه، وعند ذاك، أو بعده، يقرر كيف يواجه المشكلة ومتي، لأن هزيمة الوالي تختلف عن هزيمة أيّ إنسان آخر. إنها تحصل مرة واحدة، ودفعة واحدة، وتكون القاضية، بينما بالنسبة لباقي الناس، فإن السقوط، وإمكانية النهوض مرة أخرى، جزء مِنْ حياتهم اليومية. بل أكثر مِنْ ذلك أنهم لا يعرفون إلا هذا السير المترنح، هذا السقوط المتوالي، وأيضاً الهزائم التي لا تتوقف، لكن إحساسهم المتبلد يجعلهم لا يقدرون، إذ فوراً ينهضون كي يواصلوا سيرهم الرجراج المتعثر، ليسقطوا ذات اليسار وذات اليمين، تماماً مثل سنابل القمح بعد أن تنضج وتضربها الرياح ولئلا يخطىء فِي التوقيت استدعى المفتي، خالد التميمي، وسأله:

- ماذا تقول، يا مولانا، فيمن خرج على الملة، ودعا إلى الفتنة؟

ـ كافر ودمه مباح!

وماذا تشور على الوالي أن يفعل؟

ـ أن يدعو المسلمين إلى قتاله، لأن ذلك هو الجهاد فِي سبيل الله.

ـ قال سبحانه وتعالى، وهو أصدق القائلين: ((إنما الأعراب أشد كفراً...)) ولئلا يحمل شيخه الأمور على أنها انتقام، تابع الباشا، وقد انخفض صوته وتغير:

وتعرف يا شيخنا، لقد عفونا عن الذين أساؤوا إلينا، وحتى الذين حملوا السلاح فِي وجوهنا، لأننا لا نريد أن توصف ولايتنا بالدم والانتقام...

وتغير الصوت، أصبح أكثر حزماً:

- والرسول عليه الصلاة والسلام، عفا حين فتح مكة فقال، حتى اللذين حاربوه مِنْ قبل: مِنْ دخل بيته فهو آمن، ومن دخل الكعبة فهو آمن، ومن دخل بيت أبي سفيان فهو آمن. ونحن قلنا: عفا الله عما مضى، لكن الذين فروا سعة الصدر ضعفاً، والتسامح جبناً، وحقن دماء المسلمين عجزاً، وعاودوا سيرتهم الأولى: يقطعون الطريق، ويروعون الأمنين، ويستبيحون دماء وأموال المسلمين، فلا بد مِنْ مواجهتهم بالحزم والشدة، ولا أخالكم إلا معنا، أليس كذلك يا شيخنا؟

زفر الشيخ خالد التميمي، وهز رأسه عدة مرات، إذ يعرف أن الباشا يريد فتواه، وهو لن يتأخر فِي إعطائها، لكن لا يعرف عمن يجري الحديث، ومن هم الذين يعنيهم الباشا، قال، وقد حمل صوته مقداراً كبيراً مِنْ الحزن:

لا يستقيم حال هذه الأمة، يا باشا، إلا بأن يعمر الايمان الصدور، وأن تصان أموال المسلمين وأعراضهم، وأن يُحكم بالعدل، وأن يُعطى كُلّ ذي حق حقه...

ولكي لا يفهم كلامه خطأ أضاف، وهو يحاول أن يبتلع ريقه، فاضطرب صوته:

ـ مِنْ خرج عن رأي الجماعة فقد زاغ ودخل الشيطان إلى قلبه، ولا بد مِنْ تقويم اعوجاجه، لأنه إذا تُرك فهذه هي الفتنة.

وليثبت الباشا تسامحه، واستعداده للعفو، قال بطريقة لا تخلو مِنْ كرم:

وتعرفون يا شيخنا أننا مستعدون أن نعفو حتى عن قاسم الشاوي، رغم أنّه لا يزال يحمل السلاح فِي وجوه المسلمين، أما أخبار الدليم فقد زادت عن كُلّ حد، وتجاوزت كُلّ ما يمكن أن يُسكت عنه، ودماء المسلمين أمانة بأعناقنا، وأنتم لا تقبلون أن تراق الدماء وتستباح الأموال والأعراض.

وأفتي خالد التميمي بضرورة أن ينهض الباشا لمحاربة العصاة وأهل الفتنة.

والباشا الذي كان قد سير رئيس الانكشارية عليوي آغا قبل أيام إلى غرب بغداد على رأس جيش كبير ليؤدب العشائر التي امتنعت عن أداء الضريبة، وتذرع شيوخها بانقطاع المطر، وطالبوا بالاعفاء. وحين رفض طلبهم طالبوا بالتأجيل، وحين رفض طلب التأجيل، قالوا ندفع شيئاً ونترك السنين الخير

الشيء الباقي، ولكن المتسلم رفض كُلّ ما اقترحوه، وما زال بلخ ويهدد ويشدد فِي المطالبة والتضييق، فقالوا له: لن ندفع وليكن ما يكون.

وكانت هذه مناسبة كافية لأن يجرد الباشا الحملة، وأن يوكل أمر قيادتها إلى سيد عليوي، رئيس الانكشارية.

لا يريد أن يظهر بعيون الناس وكان دافعه الانتقام مِنْ خصومه، ابن الشاوي وأمثاله، لأن الانتقام، بعد الدرس الذي تلقاه نتيجة قتله لسعيد، أشعر الناس أنّه لا يختلف عن غيره مِنْ الولاة، وأنه استسلم لعواطفه وأحقاده، ويفترض بالوالي أن يكون أباً يعرف كيف يسامح ويعفو، لا أن يعمي الحقد قلبه وعينيه فيندفع إلى الانتقام. سيغض النظر، مؤقتاً، عن بعض خصومه إلى أن يحين الوقت المناسب.

كان داود باشا يقول لنفسه، وبعض الأحيان بصوت عالي، حين يكون وحيداً: «يجب أن لا ينسى الوالي شيئاً، لكن عليه أن يتذكر فِي الوقت المناسب، لأن مِنْ يخطيء فِي التوقيت كمن يبحث عن حتفه!».

ثم إن مواجهة الخصم الذي يشكل خطراً راهناً يحس به الجميع أفضل ألف مرة مِنْ مواجهة خصوم لا يراهم الناس ولا يحسون بهم.

وهناك دوافع أكثر أهمية، وإن لم يصرح بها لأقرب الناس، ويتجنب التفكير بها الآن. فالشاوي الذي عرف إلى أين يهرب، ويريد أن يستدرجه إلى هناك، كي يستنزف قواه، ويغرقه فِي الوحول، سيأتي وقته. فحين يأتي وقت طريق النهر، ويحس الناس أنهم سيموتون إذا ظل العصاة يمنعون المؤن التي تأتي مِنْ البصرة، سوف يتفرغ له، ولا بد أن تكون الانتصارات التي حصلت فِي أماكن أخرى قد وصلته، وعند ذاك سيتعامل معه بالطريقة المناسبة، الطريقة التي يفهمها جيداً.

ومثلما أخذ بركة الشيخ خالد التميمي، فقد أخبر عدداً مِنْ الشعراء، وقال لاثنين يؤثرهما على غيرهم مِنْ الشعراء، الأخرس والصفوي:

- زوبع والجميلة، وحتى شمر، وغيرها مِنْ القبائل، تُذكر أو لا تذكر بسبب الشعر الذي قيل فيها، ومن قاله...

ابتسم ابتسامة كبيرة، تطلع إلى النهر الذي كان يُرى مِنْ النافذة، وتابع:

ـ مِنْ كان ليذكر كافور لولا المتنبي؟ ومن هو المعتصم لولا أبو تمام؟

وكاد يسترسل أكثر، فقد عنت بباله أمثلة أخرى، وهاجته أبيات مِنْ الشعر كان يروق له الاستشهاد بها فِي بعض الأحيان، لكن المناسبة الآن مختلفة، وما يريده يتجاوز المطارحة أو المنادمات. قال محرضاً:

ـ فِي حالات معينة الشاعر هو الذي يعطي للموقعة الحربية أهميتها، يجعل الناس يتذكرونها ويتحدثون عنها بعد مرور مئات السنين، حتى لو زال مكانها، أو لا أحد يعرف موقعها، لأن الشعر يبقى وغيره يزول!

وحين رأى الاضطراب فِي وجهي الأخرس والصفوي، وكأنهما دخلا فِي تلك الحالة التي تسبق المخاض الذي يؤدي إلى الشعر، قال وخرج صوته عميقاً:

- بعض الشعر يسبق المعارك، وبعض الشعر يتبعه...

وكاد يقول إنّه ينوي أن يؤلف كتاباً يضمنه قصائد خلدت أبطالاً وأماكن، وأن تلك القصائد أصبحت تاريخاً وذاكرة للناس، لكن وجد الحالة التي تملكت الشاعرين بدأت تفعل فعلها، ثم إن الأمر، الآن، يتجاوز رغبات ونوايا مِنْ هذا النوع، إذ إنّه مقبل على حرب يجب أن ينتصر فيها انتصاراً ساحقاً، لكي تصل أصداء هذا الانتصار إلى الناس بسرعة وقوة، وأن يستوعب خصومه بالذات هذه الأصداء، وأن يحسوا بهذا الانتصار، وكُلّ ما عداه مؤجل، أو لا يعني له شيئاً هاماً الآن.

تابع محرضاً:

ـ إذا قال كُلّ منكما شعراً، فإن هذا الشعر سيصل قبل أن تصل الجيوش والمدافع، ولا بد أن يفعل أكثر مما يفعل الفرسان. وحتى الفرسان إذا امتلأت رؤوسهم بذلك الشعر سيكونون أقوى وأكثر شجاعة، لأن الملائكة تحارب معهم، تقف إلى جانبهم.

وانفعل الشاعران، وقد أحسا أن الباشا يقول شعراً، وهذا الشعر لا يحتاج إلا لبعض الوقت والصبر كي تنتظم قوافيه وتستقيم أوزانه. وشعر كُلّ منهما وكأنه يطير، يصل إلى أقاصي الذاكرة ويعود مثقلاً بعبق التاريخ وبعنفوان الرؤى. قال الأخرس بطريقة لا تخلو مِنْ انفعال:

- الشاعر، يا باشا، يحتاج إلى شيطان، ولا بد مِنْ خلوة!

ضحك داود باشا، وقد امتلا نشوة: الرسالة وصلت، وتلك الدودة التي تغمض عينيها فِي بعض الأحيان، ولا تظهر إلا إذا حرضها دافع قوي، بدأت تنغل فِي داخل هذا «الأخرس»، ولا بد أن يقول قولاً جميلاً.

ردَّ وهو يهز رأسه والنشوة لا تزال قوية مستبدة:

«يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره»، إذهب، فأنت طليق!

كان الباشا لا يستطيع أن يخفي فرحه، فِي بعض لحظات انفعاله؛ فما يقوله يجد آذاناً صاغية، عقولاً تلتقط الغمام قبل أن يصبح غيماً، ثم تلك الاستجابة وكأن الصدى أقوى مِنْ الصوت.

وبطريقة لا تخلو مِنْ الارتباك الذي يمازجه الانفعال المتوتر المنفلت، تطلع الأخرس إليهما، وكأنه يراهما ولا يراهما، وخرج.

قال الصفوي الذي حاول أن يكون أكثر اتزاناً:

وتعرف، يا باشا، لا بد للشاعر أن يرى بعينيه وأن يسمع بأذنيه، وحالما تدق الطبول ويتقدم الفرسان وترتفع صيحات الحرب، سأكون مع الذين يسيرون، وسوف أكون الحادي والبادي...

وقبل أن يكمل ردَّ الباشا بانفعال لم يستطع أن يخفيه:

- بارك الله فيك...

وبعد قليل، وهو ينظر إلى عينيه:

- هذا ما توقعته منك، وهذا ما أردته، وسوف أجعلك مع الآغا، تسمع كُلّ شيء، وترى ما يحسن أن تراه دون أن تتعرض لأذى...

وكاد يُضيف، لكن الصفوي قاطعه بمودة: - آخر ما أفكر فيه، يا باشا هو الأمان...

وضحك ضحكة صغيرة ثم تابع:

ـ إنني أشم رائحة الجنة، وأقصى أماني المؤمن الشهادة فِي سبيل الله، وأن يكون مع الصديقين والشهداء.

ترك الباشا بعض الوقت يمر كي يتشبع الجو بكلماته، ثم تابع بصوت رخيم ـ أقصى الأمنيات أن يموت الإنسان فِي سبيل الله، وأن يحشر مع الشهداء والصديقين، لأن الجنة...

ولم يشأ أن يسترسل بنفس الطريقة أو حول الموضوع ذاته. تنحنح.

صمت قليلاً، ثم أضاف:

ـ نحن بحاجة إليك فِي هذه المعركة، وفِي معارك أخرى كثيرة، ولذلك نحرص أن تبقى حياً مثلما نحرص على بؤبؤ العين، على سويداء القلب.

ردَّ الصفوي بطريقة لا تخلو مِنْ تفاخر:

ـ الموت، يا باشا، نهاية كُلّ إنسان، وسعيد مِنْ يموت فِي سبيل الله، مِنْ يحشر مع الشهداء والصديقين...

- قل سيدرككم الموت ولو كُنتُم فِي بروج مشيدة... توقف للحظات مِنْ الصمت ثم تابع:

ـ أعرف شجاعتك، وحميتك فِي الدفاع عن حمى الإسلام، لكن لا أقبل أن تجازف... وتغيرت النبرة تماماً:... لدينا مِنْ الفرسان الآلاف المؤلفة، وهم

مدربون ومجربون، ولكن كم لدينا مِنْ الشعراء؟

ثم أكمل وقد تخلل صوته شيء مِنْ التحريض:

- يمكن أن يكون لدينا عدد وفير مِنْ الشعراء، لكن... وابتسم الباشا وهو ينظر بتحديد إلى عينيه، الأمر الذي جعل الصفوي يغض نظره قليلاً بخجل مصطنع، حتى إذا نظر إلى عيني الباشا مِنْ جديد، لكي يكتشف مدى جدية ما يعنيه، تابع داود بنبرة واثقة:

ـ أسمح لنفسي أن أقول: لدينا عشرات، مئات وآلاف مِنْ الفرسان أكثر فتوة، وربما أقوى تحملاً وتمرساً منك، لكن، قل لي، بالله عليك، كم مِنْ الشعراء الفحول تتذكر عبر هذي المئات أو الآلاف مِنْ السنين؟

ولم يتركه ليجيب:

- وهذا ما يجعلني أكثر حرصاً على أرواح الشعراء مِنْ الشعراء أنفسهم!

ولئلا يساء فهمه، تابع الباشا بحمية:

- الطلقة قد تقتل فرداً، وطعنة السيف قد تصيب وقد تنبو، أما بيت الشعر، إذا كان قوياً محكماً، فإنه يعادل آلاف الطعنات، آلاف الطلقات، ثم إنّه خالد، يبقى بعد أن يغيب الجميع، لذلك فأنا مسؤول أمام الله عن أرواح هؤلاء الشعراء مثلما أنا مسؤول عن أرواح الشهداء.

وخرج عدد مِنْ الشعراء مع الجيش المتجه غرباً، رافق الصفوي الجيش لبضعة أيام، ثم ما لبث أن استدعي، استدعاه داود باشا. قال له وهو يستقبله مِنْ جديد:

لم أطق أن تكون بعيداً عن بغداد، ثم إن صوت الشاعر يصل إلى كُلّ مكان، وليس مثل صوت المغني أو عازف الرباب الذي يتردد بين أربعة جدران، وقبل أن ينقضي الليل، يكون ذلك الصوت قد انقضى.

ونظر الصفوي إلى الباشا نظرة طويلة مفعمة بالامتنان، وقال وهزات رأسه تتوالي:

- كنت فِي الأيام الماضية، يا أفندينا، مثل طير حبيس فِي قفص، إذ كانوا يحيطون بي إحاطة السوار بالمعصم، ولم يتركوا لي فرصة لأخلو مع شيطان الشعر، أو أن أتقدم أكثر لأشهد أولى المعارك.

وبعد قليل وهو يبتسم:

ـ كانوا ينفذون أوامرك يا أفندينا، ولقد أسرني ذلك الحرص وضيق علي حتى إني...

قاطعه الباشا بمودة:

ـ إن لبغداد عليك حقاَ، ولنا فيك نصيب.

وقرر الصفوي أن ينظم قصيدة جديدة فِي مدح داود، وأن لا يقل عدد أبيات هذه القصيدة عن مائة بيت، وآلى على نفسه ألا ينام، ولو سهر بضع ليالي، حتى ينتهي مِنْ نظمها!

تجنب داود باشا الجنوب والأهوار، آثر أن تكون أولى معاركه العسكرية غرباً، على ضفاف الفرات وهو يخترق الصحراء فِي رحلته، قبل أن يتفرع، ويصبح بحراً لا تُعرف ضفافه وحدوده، وقبل أن يغيب مجراه فِي تلك المستنقعات التي لها بداية، لكن لا تنتهي.

صحيح أن الصحراء قاسية، خاصة على جند لم يتعودوا مناخها، لكن الخريف دخل مُبكراً تلك السنة، مما جعل القادة، وهم يستقبلون الليالي الرطبة المنعشة، يسرفون فِي إطلاق الأحكام واستباق النتائج، واعدين أنفسهم بانتصارات سهلة، وبغنائم لا حدود لها، وأن ذلك لن يقتصر على ما سوف يحصلون عليه مباشرة، بل وسيحصل الأهل، فِي أيّ مكان كانوا، على غنائم كبيرة، نتيجة وفرة المواد، ورخص الأسعار، بعد أن يُقضى تماماً على قطاع الطرق المنتشرين فِي القسم الأعلى مِنْ الفرات، والذين يمنعون التجارة ويسلبون القوافل.

كانت تعليمات داود باشا للآغا وكبار الضباط:

ـ لا نريد حرباً طويلة، يجب أن تكون الحرب خاطفة؛ ولا نريد نصراً صغيراً، يجب أن يكون النصر كبيراً ومدوياً، بحيث يتردد صداه فِي جميع انحاء الولاية، وأن يسمع به البعيد كما شهده القريب.

وغادره هدوؤه:

ـ البدو لا يفهمون إلا لغة واحدة: لغة القوة؛ لذلك استعملوا معهم أقسى الأساليب، حتى لا ينسوا الدرس إلى ولد الولد...

ومع هزات الرأس الحازمة، وهو ينظر إلى وجوه القادة الواقفين فِي مواجهته:

ـ البدو ماكرون كالثعالب. حين لا يستطيعون مواجهة القوة التي تقابلهم يبدون الندم والطيبة والوداعة، ويقسمون أغلظ الأيمان أن لا يعودوا للعصيان مرة ثانية، ولا تستغربوا إذا رأيتم بعضهم يرمي عقاله ويبكي طالب العفو والمغفرة...

وتغير الصوت قليلاً:

لكن إذا تمكنوا مرة أخرى ينسون أقوالهم وأيمانهم وكُلّ الوعود التي أعطوها، ويتحولون إلى وحوش: يقتلون وينهبون ويدمرون كُلّ ما يصادفهم. والمؤِمن لا يلدغ مِنْ جحر مرتين. فأريد منكم أن تلقنوا هؤلاء الوحوش

درساَ، وأن تعلموهم ماذا يعني الوقوف فِي وجه الحكومة، وعدم إطاعة الأوامر، وماذا يعني الامتناع عن دفع المستحقات المقررة عليهم للسلطان!

وبعد أن ترك فترة الصمت تطول، تابع بنبرة جديدة:

ـ أضع فيكم كُلّ ثقتي، وأنا على يقين أن النصر الذي يتحقق على أيديكم سيدون بماء الذهب، ولا بد أن تتردد أصداؤه فِي جميع أنحاء السلطنة، وسوف يصل إلى مسامع مولانا السلطان، وعندها سينعم عليكم برضاه وبركاته وأعطياته.

أما وهو يودع القوات قرب أبو غريب، فِي أقصى غرب المدينة، فقد انتحي بسيد عليوي وقال له:

ـ لا يزيل الخوف مِنْ القتل إلا القتل. وعندما تصبح رؤية الدم عادية، مألوفة لدى الجنود، يصبحون أكثر شجاعة ولا يهابون شيئاً...

لما رأى إبتسامة على وجه عليوي، أضاف:

- لا تقبل فِي الأيام الأولى أيّ حديث عن الصلح. خذ علماً لكن لا تفعل شيئاً. وحتى فِي اليوم الثاني لا تفعل شيئاً. أما فِي اليوم الثالث فقل لهم: «الأمر قابل للبحث»، وحين يأتي إليك شيوخهم أذلاء صاغرين، إفرض الشروط وتشدد بالمطالبة، وعليهم الوفاء بكل ما تطلب اليوم قبل الغد وإلا...

كان الباشا واثقاً مِنْ النصر، فقد اختار بعناية الهدف ومكان المعركة، واختار أيضاً الوقت المناسب!

قال الذين رافقوا الحملة إن سيد عليوي لم يغير أياً مِنْ عاداته: كان يشرب كُلّ ليلة، لكن كان يفعل ذلك مع عدد محدود مِنْ رجاله؛ وكان ينشغل بالرياضة والصيد، ويبدو عصبياً حين يسمع الأذان، إذ يحب أن ينشغل بأي شيء سوى الصلاة؛ وكان يطلب مِنْ ثامر المجول أن يرافقه، ليس باعتباره واحداً مِنْ الحرس الخاص، وإنما لصوته، فقد كان يطلب منه أن يغني فِي أيّ مكان يعتبره مناسباً.

وقال بعض الذين يميلون إلى المبالغة، ولا يكنون الود لسيد عليوي، إنّه ترك لضباطه أن ينصرفوا. «لأن البدو لا يحتاجون إلى خطط عسكرية، بل يحتاجون إلى تكسير راس. فإذا الواحد افترض أنهم جيوش وأهل حرب، تنلاص عليه وعليهم، فتصرفوا يا أهل المروة، ولا تتركوا واحداً وما تكسرون خشمه!» أما الذين لا يميلون إلى المبالغة فقد ذكروا أن سيد عليوي اجتمع بضباطه مرات عديدة، قبل أن يتحركوا للمواقع الأمامية، وأعطاهم التعليمات الضرورية، كما ترك لهم حرية التصرف بما يعتبرونه ضرورياً فِي الأحوال الطارئة، كما هي العادة بين القائد وضباطه؟

تمهل عليوي آغا فِي رحلته، رغم توقعه انتقال الأخبار، وبالتالي احتمال زيادة استعداد القبائل لمواجهته، بما فِي ذلك استدعاء الحلفاء.

لكنه موه هذا بالقول إن تحرك الجند بهدف التدريب ثم للانتقال إلى مكان آخر بعيد. ومما أكد ذلك أن القوات وصلت إلى أماكن معينة ثم غادرتها، بحجة أن «قوات السلطان لا تنوي الإقامة هنا» كما تردد فِي الفلوجة والرمادي وهيت وآلوس، إنما جاءت للتدريب كي تواجه القوات الوهابية فِي أماكن تشابه طبيعتها هذا المكان!

وإذا كان الباشا فِي بغداد ألح على ضرورة الحرب السريعة، فإن عليوي يتذكر كلمة قالها ريتش، وهو يتحدث عن البدو. قال ريتش: «البدو يحبون الحرب الخاطفة. يستطيعون فِي الفترة الأولى للحرب أن يبذلوا أقصى ما يستطيعون، فهم شجعان، محبون للحركة السريعة، لكن ما إن تمتد الحرب وتطول حتى تفتر هممهم، وتضيق صدورهم، لأن الحرب بالنسبة لهم جولة والثانية، ويجب أن تنتهي إلى نتيجة محددة. صحيح أنهم لا ينسون، والثأر جزء مِنْ تكوينهم، لكنهم لا يطيقون الحروب الطويلة، لذلك فإن أفضل طريقة لكي تهزمهم أن تجعلهم فِي حالة حرب دون حرب فعلية، أن تجبرهم على الانتظار. ورغم ما يزعمون عن مدى قدرتهم على التحمل، ويجاملهم الآخرون فيدافعون عن ذلك، فإن هذا التحمل لأيام، وحتى لو طال فلا يتعدى الأسابيع».

كان ريتش يتكلم بطريقته، وسيد عليوي يفهم بطريقته أيضاً. ورغم ما سمعه مِنْ الباشا داود، عن ضرورة الحرب السريعة، فإن ما لاحظه بتجربته الخاصة، وهو يتعامل مع البدو، أنهم لا يعرفون النظام ولا يطيقونه.

صحيح أنهم يمتثلون لرأي الشيوخ، ويبدون صنوفاً مِنْ الشجاعة والتضحية، لكن ذلك لا يدوم طويلاً، ولا يخضع إلى قاعدة، إذ فِي لحظة، ونتيجة إنفعال مِنْ نوع ما، يستفزون، وحالما يسيطر عليهم الاستفزاز يفقدون عقولهم، يتحولون إلى مخلوقات غريبة، لا يمكن الحكم على أفعالهم أو ردود أفعالهم، وهنا يجب أن يتقدم القائد الحكيم كي يصفي حساباته معهم!

ولأن سيد عليوي لا يرغب أن يكون امتداداً لفكرة أو لشخص، فهذه الحرب يعتبرها حربه الخاصة ويريد أن يمتحن أفكاره واحتمالاته. قد يعترض داود، لكنه سيقنع فِي النهاية، وبعدها سيمتثل، خاصة وهو يرى النتائج، «فالحروب، كما قال لنفسه، وقد شعر بالغبطة لأنه وصل إلى هذه الفكرة، لا تخضع، فِي مراحلها الأخيرة، إلى الاقناع قدر ما تخضع إلى النتائج، فالنتيجة هي المنطق وهي وسيلة الإقناع، كما أنها الحكم الأخير!»

حين انتصف الخريف، وبعد أن استقر الجند فِي أماكن صحراوية تكاد تكون ثابتة، ثمِ التدريبات التي أجروها هناك، فقد تأكد الجميع أن لهذه

القوات أهدافاً تتجاوز هذه المنطقة، وتتجاوز القبائل حولها، خاصة وأن خطباء المساجد، وهم يلقون الخطب والدروس، أكدوا ذلك.

آخر جمعة فِي ذلك الخريف، وبعد أن هدأت الشمس، ومالت نحو الشمال، وسبق ذلك بعض الأمطار، إستبشر الكثيرون، وقالوا إن هذه السنة ستكون مِنْ سنوات الخير، ولا بد أن تعطي الصحراء كُلّ خيراتها، أعطى سيد عليوي أوامره بالهجوم.

اندفعت القوات فِي اتجاهات عدة. كان إندفاعها سريعاً قوياً لكي تدرك القبائل قبل أن تصل أو تعبر الفرات، إذ كان سيد عليوي على ثقة أن الاشتباك إذا حصل شرقي النهر فلا بد أن يبيد البدو عن آخرهم، لأن الذين لن يطالهم الرصاص سيتولى النهر التهامهم، والذين لن يموتوا قتلاً سيموتون غرقاً. أما إذا تأخر الاشتباك، واستطاع البدو أن يعبروا الفرات، ودخلوا الصحراء، فعندئذ ستكون القوات الحكومية تحت رحمة القدر.

اندفعت القوات بسرعة، تاركة وراءها الكثير مِنْ الجيوب، فقد كان الهدف الوصول إلى الفرات عند هيت، وهناك يجب أن تقع المعركة الحاسمة.

والبدو الذين تنحوا قليلاً عن الطريق، وناوشوا القوات مِنْ الجوانب، وأوقعوا بها بعض الإصابات، كانوا متأكدين أن حصار هذه القوات سوف يؤدي إلى استسلامها، لذلك سهلوا مرورها، وفِي أحيان كثيرة زينوا لها هذا المرور السريع، وهكذا واصلت القوات تقدمها.

وإذا كانت خدعة مقاتلة أعداء خارج الولاية انطلت، وتركت تأثيرها فِي أوساط بلدات الفرات، وسرت إلى القبائل التي جاءت للنجدة، فخففت إندفاعها، وحملت بعضها على العودة مِنْ حيث أتت، فإن الأمطار التي توالت فِي أيام الخريف المتأخرة جعلت بعض القبائل الصغيرة تطلب مساكنها الشتوية، وهذا ما أدى إلى حركة بطيئة عمياء فِي اتجاهات متعددة، إذ لم يكن يُعرف هل تقع حرب أم لا، وبالتالي هل يستمر الاستعداد كما فِي الأيام الأولى، أم أن الحرب لن تقع أبداً، ولذلك لا حاجة لحرق الأعصاب فِي انتظار شيء لن يحصل؟ ولما كان الاحتمال الثاني أقوى تباطأت الحركة وقل الحذر، الأمر الذي جعل إندفاع الجند إلى الأمام لا يلاقي صعوبة أو مقاومة جدية.

كانت حركة القوات، فِي البداية، سريعة ومفاجئة، لكن غريزة الشك التي تسري فِي دماء البدو تيقظت، وكانت أسرع مِنْ حركة القوات الزاحفة. انتشر المسنون، رجالاً ونساء، ومعهم الأطفال، على أطراف بساتين النخيل وعند الآبار، فِي كُلّ موقع يحتمل أن يمر فيه الجنود.

وبطريقة سحرية كانت أخبار الزحف تصل أسرع مِنْ الريح. ورغم أن الجنود لم يرتاحوا لابتسامات الأطفال، أو لحركات أيديهم وهي ترتفع بما يشبه التحية، وقد تجاهلوهم فِي البداية، فلم يبادلوهم النظرات أو الابتسام، كما لم يردوا على التحيات التي توجه لهم، ربما لخوفهم أو الانشغالهم بما ينتظرهم فِي الأيام التالية. أما المسنون، الذين ظلوا على مسافة، فقد ظلوا يراقبون بصمت، وبدت ملامحهم قاسية.

وإذ لم يبد الجنود اهتماماً فِي اليوم الأول لحركة الأطفال، فقد أصبحوا فِي الأيام التالية شديدي القسوة وهم يطردونهم ويشتمونهم، ولم يتردد بعضهم بضربهم. أما المسنون فقد تواروا تقريباً. كان يصدف أن يظهر رجل مسن أو امرأة عجوز بين فترة وأخرى، لكن ما يكاد يظهر أحد حتى تبدأ الشتائم والإشارات البذيئة، وقد وجهت نحوهم البنادق عدة مرات، بل وأطلقت النيران فِي الهواء لإرهابهم أول الأمر ثم لجرحهم أو حتى قتلهم.

لقد تأكد قادة الجند، وهم يواصلون زحفهم، أن الأخبار قد سبقتهم، ولا بد أن يكون هؤلاء العفاريت قد نقلوها وتأكد ذلك أكثر مِنْ خلو أماكن عديدة مِنْ ساكنيها، تبين ذلك مِنْ الآثار، مِنْ بعر الجمال والغنم الطري، مِنْ الرماد الذي لا زال ساخناً، مما يعني أن الرحيل حصل فِي السواد الليلة السابقة، أو ساعات الفجر الأولى، كما أكد البيات والعقيل، الذين رافقوا الحملة، أن هؤلاء المسنين ألعن مِنْ الأبالسة. صحيح أنهم يبدون فقراء مسالمين، وغارقين فِي الصمت أيضاً، حتى يظن مِنْ يرهم أنهم خرس أو لا يحسنون مِنْ الكلام إلا ردَّ السلام، إلا أنهم يرون مثل الصقور، حتى الدماء التي تسري تحت الجلد يرونها، كما يعرفون الإنسان مِنْ كلمة، مِنْ نظرة. ولأنهم لا يستطيعون الركض أو الطيران فإنهم يكلفون الصبية بالإبلاغ عن عدد الجنود الذين مروا وأسلحتهم، بأن يحصوا العدد بنوى التمر أو بالحصيات الصغيرة، وبسرعة البرق تنتقل الأخبار.

قال الضباط لجنودهم فِي اليوم الثالث للزحف:

ـ إذا رأيتم فِي الطريق رجلاً، حتى لو كان أعمى، اقتلوه. أما الصبية فاقبضوا عليهم لأنهم يفيدون فِي الليل؟

تباطأ الزحف قليلاً، لكنه لم يتوقف. أما الأماكن التي عبرها الجنود فلم يشاهد فيها رجل أو امرأة، وكذلك اختفى الصبية!

فِي اليوم الخامس استراحت القوات الزاحفة، وفِي اليوم السادس وقعت المعركة الأولى، وقعت شرقي الفرات، كما أرادها سيد عليوي.

كانت معركة قاسية سالت خلالها دماء كثيرة، ومن الطرفين.

التقارير الأولى التي حملها فرسان البريد لعليوي كانت تطالب بإرسال المزيد مِنْ القوات، وعلى جناح السرعة، «لأن هؤلاء البدو يملكون أسلحة كثيرة، وعددهم لا يُحصى، كما أنهم يحاربون بطريقة منظمة، الأمر الذي لم يكن فِي الحسبان» وأشارت التقارير أن معنويات الجنود عالية رغم سقوط عدد كبير مِنْ الجرحى بعمليات القنص، وليس فِي عمليات الالتحام.

فِي اليوم التالي أخذت المعارك، قبل الظهر، شكلاً أقسى مِنْ اليوم الأول، والتقرير الذي أرسل إلى القيادة ذكر أن البدو تكبدوا خسائر فادحة، وأنهم تراجعوا، ولم تعد المسافة التي تفصلهم عن النهر تزيد عن مسيرة ساعات. وأكد التقرير أن اليوم الثالث سوف يكون هاماً، وطالب بسرعة إرسال المزيد مِنْ القوات لمنع العدو مِنْ عبور النهر. ولم يشر التقرير، إلا بصورة سريعة، للخسائر التي لحقت بالقوات الحكومية.

تلك الليلة، ثم لثلاثة أيام متوالية، وقعت أمطار غزيرة، مما أدى إلى توقف المعارك تقريباً. وما عدا عمليات قنص مِنْ الطرفين، والانشغال بمواجهة الأعباء الجديدة التي فرضها الطقس، فإن كُلّ طرف غرق بالوحول والشلل، وأيضاً بتعذر معرفة أو تقدير الخطوات التالية للطرف الآخر.

ولما كانت عادة البدو أن يتطلعوا دوماً إلى السماء برجاء، وبعض الأحيان بتضرع، فإنهم لم يفعلوا هكذا هذه المرة. كانوا يخافون مِنْ عبور الفرات، يتجنبونه فِي معظم الحالات، ولا يقدمون على ذلك إلا إذا كانوا مضطرين، فكيف يصبح الحال إذا وجدوا أنفسهم محاطين بالماء مِنْ كُلّ الجهات؟ والخدعة التي اعتمدوا عليها، فِي أن يقسموا المحاربين إلى جزأين، الأول يبقى شرقي النهر لمواجهة قوات داود، وإشغالها فِي محاولة التأخيرها، ريثما تصل نجدات الحلفاء، على أن تكون المعركة الحقيقية غربي الفرات، وحتى لو تراجعوا فان الصحراء ستكون بالنسبة لهم مثل حضن الأم، ولن يستطيع داود، ولن تستطيع قواته شيئاً حاسماً، وستبقى الحرب هكذا إلى أن يمل الجنود أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً. إذا كانت هذه هي الخطة والخدعة فماذا يستطيعون الآن؟

قال مجحم السلمان، الذي أوكلت له القيادة شرقي النهر:

مصيبة ما كانت لا بالبال ولا بالخاطر: الله وعبد الله! زفر بحرقة، وكان يرى وجوه الذين حوله، على ضوء سراج خافت، كأنها الأشباح تتراقص، وتابع:

ـ إذا عضينا على جروحنا وتحملنا كم يوم زايد، فعسى أن الله يفرجها!

ردَّ عليه مفلح الخرسا بغضب:

قلت لك يا ابن الحلال قبل ما تدردب علينا مصايب الله: تراها نمت يا أبو سلمان، ووراها غيمة سودا تحرق أو تغرق، نخلنا نعبر.

وشلون نعبر والسيوف بصدورنا والرصاص بظهورنا؟ شبقول علينا ربعنا؟ خفنا؟ انهزمنا؟

ردَّ مفلح بسخرية:

وهالحين، يا أبو سلمان، تظن أنّه راح يطلع منا مخبر؟

قال سويلم الجريدر ليخفف الغضب:

ـ هالحين ما يفيدنا أكل أصابعنا ندامة، هالحين يلزمنا نشوف شلون نخلص مِنْ هذي الجلهيمة، شلون نطلع هالبريسم مِنْ هذا العوسج.

ردَّ مفلح وهو يهز رأسه بسخرية:

- وين اكو برسيم مولانا؟ ما تشوف شلون راح الاكو والماكو؟

قال مجحم بحزم ليسيطر على الجو: - أولها وتاليها موتة يا أولاد الحلال، ومثل ما نحن محصورين وتايهة علينا، ترى الجماعة مثلنا، مو أحسن منا، فإذا تحملنا كم يوم زايد تري حالنا بخير، لأنا أهل ديرة، والغريب، مثل ما تعرفون أعمى حتى لو كان بصير.

سأل مفلح الخرسا بغضب:

- وأهلنا وحلالنا يا أبو سلمان؟ إذا نحن الرجال صبرنا، هم يصبرون؟

يتحملون؟

ـ اللي يصير علينا يصير عليهم!

وبعد مناقشات طويلة تقرر أن يبقى مِنْ يستطيع البقاء، مِنْ يريد البقاء، أما الذين لهم رأي آخر، موقف آخر، فيترك لهم أن يتصرفوا بما يرضي الله وضمائرهم.

وفِي الجانب الآخر لم يكن الموقف أقل ارتباكاً. فالآغا الذي جاءته التقارير أن البدو ليسوا كما صورهم ريتش، إذ يعرفون كيف يحاربون، وكيف يوقعون بخصومهم الخسائر، وأنهم يمتثلون لما يريده الرؤساء، كما أنهم قناصة حاذقون، بحيث أن رصاصة واحدهم تخترق الجمجمة مباشرة، مثلما قال حامل البريد، حين سأله عليوي عن الإصابات ومواضعها. وأنهم، مثل جمالهم، يتحملون الصبر والعطش إلى درجة أن الواحد يبقى فِي مكانه مِنْ الصبح إلى أن يحل الظلام؛ بعد أن سمع سيد عليوي وعرف هذه التفاصيل، كان عليه أن يفكر بخطة جديدة، وأن يتخذ التدابير مِنْ أجل نجاح هذه الخطة!

أما قادة الميدان فكانوا أشد خوفاً وتحسباً. ففي هذا المدى الموحش، الذي كان لأيام قليلة سابقة يضج بضوء ساطع خلال النهار، مع حرارة كارية، بعد أن أخذت الشمس ذلك السمت فِي السماء، ولم تعد مجرد شروق مِنْ هذه الجهة، وغروب مِنْ الجهة المقابلة، وإنما أصبحت طغياناً، بحيث تكشف أيّ تحرك مِنْ الجهة الشرقية. وفِي الليل تصبح السماء ملاءة ليست سوداء فقط بل وشديدة الكثافة، ولولا تلك الثقوب المضيئة التي تشتعل مِنْ كُلّ ناحية، وكأنها عيون، لظن كُلّ جندي وهو يتطلع إلى النجوم، أن السماء تطبق عليه كالقبر.

كان الجميع، القادة والجنود، يتمنون لو تنطفيء الشمس ويعم الظلام، خاصة وأنهم اختاروا الثلث الأخير مِنْ الشهر القمري ليتحركوا. كانت الشمس تبدو لهم خصماً، أو مثل عدو متجبر: توقظ البشر قبل الأوان، ترفع عنهم الالحفة وهم فِي ذروة الدفء والنوم. أما ذلك الجدب الصحراوي الذي لم يره الكثيرون مِنْ قبل، وكانوا يظنون أنّه أقل قسوة، فقد تبدى فِي الأيام الأولى، وهم يزحفون، عدواً آخر غير العدو الذي ينتظرهم عند النهر، غير عيون المسنين، وغير عيون الأطفال وضحكهم، وهم ينظرون إليهم ساخرين وهم يرفعون لهم أيديهم الصغيرة!

الآن، وقد غابت الشمس تماماً، وراء الغيوم السوداء الكثيفة، وأصبحت السماء فِي الليل بلا عيون، ثم جاءت تلك الأمطار الغزيرة التي أغرقت كُلّ شيء: الثياب والخيام والدواب، وحتى الأسلحة؛ وعصفت الرياح وتوحلت الأرض، ثم تقدمت تلك البرودة الكاوية، خاصة فِي أواخر الليل، فقد شعر الجنود والقادة، وحتى الدواب، بالحصار، ليس بالمياه وحدها، بل وبالخوف وبأيام صعبة قادمة أيضاً.

حتى التقارير التي تزايدت فِي فترة الأمطار، كانت شديدة الاضطراب، إذ يُكتب فيها الشيء ونقيضه، وترسل إلى مقر القيادة بتوالي لا يفصل بين التقرير والآخر سوى ساعات. لكن تبدو تلك الساعات بنظر مرسليها وكأنها دهور، لذلك شوشت الذين أرسلوها والذين أرسلت إليهم فِي وقت واحد، فلا يعرف ما هو المطلوب تماماً، ولا يعرف كيف يمكن تأمين ما اعتبر أو ما قُدر أنّه يفي بالحاجة. فأمر عليوي آغا، وكان شديد الغضب لتوالي التقارير بهذا القدر، وبهذه السرعة، خليهم يفكوا عنا ياقة، هذول الأوادم،«وبليا ما يثبرونا: نريد ونريد. خلونا نشوف دربنا، وبعد ما تنكشف السما، ونشوف وجه ربنا، نقول لهم: زين، هذا اليوم، وهذا باجر. هذا نقدر نسويه وهذا ما نقدر. أما وغضب الله نازل علينا، والدنيا وحلة والأرض زلقة فشنو اللي نقدر عليه؟ خوب نحن صرنا مثل الله نقدر نسوي كُلّ شيء؟» ولأن الأخبار وصلت إلى داود باشا أيضاً، وقد امتدت الحملة أكثر مما أراد، وأكثر مما قدِر، فقد اتخذ جملة مِنْ الإجراءات: بعث لعليوي آغا نيشاناً مع كسوة،

وأرسل إمدادات إضافية مِنْ القوات والعتاد؛ طلب تعديل الخطة والالتفاف على البدو مِنْ الجهة الشرقية، وأن يأتيهم مِنْ خلفهم أيضاً؛ وطالب بسرعة حسم المعركة!

قال بدري الحاج صالح العلو، الذي حمل الكسوة والنيشان، وقد وصل مع المجموعة التي ترافقه بعد العشاء بقليل، إن الآغا رفض استقبالهم. قال لهم ضابط الخفر، بعد أن ألحوا، وقد راجع رئيسه أكثر مِنْ مرة: «الصباح رباح، والآغا دخل إلى فراشه». وحين أبلغوه أنهم يحملون رسالة مِنْ الباشا، إضافة إلى الهدايا، وبعد أن غاب الضابط قليلاً وعاد:

«القد نام، ولا يمكن لإنسان أن يوقظه».

أما بدري العلو المرافق العسكري لداود باشا، وكان عينه وأذنه فِي المهمات الخاصة، فقد نقل للباشا، بعد أن عاد مِنْ تلك المهمة:.

قبل أن نصل إلى مقر القيادة، يا باشا، بمسافة، كنا نسمع صوت ثامر المجول، كان صوته يلعلع مثل الرعد، وكان الدنبك ومعه الدفوف تجاوب. أما ريحة العرق، يا سيدي، فحدث ولا حرج!

جر نفساً عميقاً، وهو يحاول تذكر التفاصيل:

- استوقفتنا السيطرة الأولى، وبعدها السيطرة الثانية، وفِي كُلّ مرة:

الأوراق، والعد والانتظار. وبعد التأكد، وبعد التي واللتيا نتقدم خطوة...

وتغير صوته، صار أقرب إلى الامتعاض: - نقول لهم: وفد مِنْ السراي. تكليف خاص مِنْ الوالي. وفد الاستعجال السريع؛ لكن العسكريين يقولون: على العين والراس، آغاتي.

الوالي فوق الجميع، لكنها الأوامر، أوامر الآغا! وننتظر، وننتظر، وبعد الانتظار: الصباح رباح، والآغا نايم!

سوف يأخذ الوالي علماً بما حصل، لكن لن يفاتح ولن يعاتب الآغا أما رجاله فقد أوضحوا لرجال السراي، ودون أن يُطلب منهم ذلك، أن الليلة التي وصل فيها وفد السراي كانت ليلة الخميس على الجمعة، والآغا الذي تفقد القطعات مِنْ الفجر حتى الغروب رجع متعباً، وبعد أن صلى العشاء، ولأن لديه مهمات كثيرة فجر اليوم التالي، فقد اضطر للنوم مُبكراً.

أما لو عرف بوصول الوفد، حتى لو كان وصوله متأخراً، فما كان ليتردد فِي استقباله، خاصة وأن الوفد يحمل معه النيشان والكسوة وأوامر الوالي؟

كانوا يقولون ذلك بصوت عالي، ويرددون الكلمات نفسها، لأن الآغا فِي اليوم التالي، حين استوضح الأمر، وتأكد مِنْ صفة الوفد ومهمته، شعر أن خطأه كان كبيراً، لكن تعلل بعذرين: كثيراً ما ينتحل البدو صفة رجال الدولة،

خاصة أوقات الحروب، كي يغيروا ويقتلوا، لذلك أصدر أوامره أن لا يستقبل أحداً ليلاً. أما العذر الثاني فهو أن رؤيته الليلية ضعيفة ومشوشة، ولقد أخطأ أكثر مِنْ مرة بأسماء أشخاص أو صفاتهم، لأنه لم يستطع أن يميزهم بوضوح!

بعد أن انقشعت الغيوم فِي اليوم الثالث، وفردت الشمس نورها على الكون، بدت الصحراء بلون أصفر قانٍ مختلط بزرقة، والرمل الذي امتص الكثير مِنْ الأمطار التي سقطت أصبح ثقيلاً رخواً، أما الفضاء بعد أن اغتسل هواؤه مرات لا عد لها، فقد أصبح شفافاً نافذاً بحيث تُرى الأشياء على مد البصر ولمسافات بعيدة.

حين نظر كُلّ طرف لنفسه وقذر وضع الآخر شعر الطرفان بالحزن:

الخيام متهدلة؛ الحيوانات منكمشة على شكل مجموعات وقد التقت رؤوسها فِي الوسط وكأنها تندب المصير الذي يتربص بها؛ الأشجار المبعثرة هنا وهناك ارتخت وتكسرت أغصانها؛ أما برك الماء التي تفصل بين الطرفين، وقد ملأت المنخفضات جميعها بمياه عكرة، فبدت مثل القبور الضخمة.

حتى السواتر المكونة مِنْ الحصر وجريد النخيل وأغصان الأشجار التي حجبت، جزئياً، طرفاً عن آخر فِي الأيام الأولى، تبددت وتطايرت، ثم أصبحت مع بعض الخيام دليلاً على أنّه كانت هناك حياة وانتهت، بل وكشفت ما وراءها مِنْ حيرة وبؤس، تماماً مثلما يبدو انسان مشوهاً بعد أن تنزع ثيابه!

ولأن الحرب فِي مثل هذا الطقس، عدا القنص، مستحيلة، فقد التفت كُلّ طرف إلى ترتيب شؤونه، مع أدعية كثيرة، مِنْ كُلّ جانب، لو أن الله يلهم القادة، والذين يصدرون الأمر، أن يكفوا عن الجنون، كي يعودوا مِنْ حيث أتوا. لكن ما يفكر فيه الجنود، وما يتمنونه، يختلف كثيراً عما يفكر به القادة، عما يريدونه. فإذا بدت الحركة ظهر اليوم التالي للأمطار متراخية، ولا تخلو مِنْ رغبة الاستسلام للشمس كي تدفيء العظام، فإن ظهر ذلك اليوم شهد وصول قوات جديدة، وتوزيع كميات إضافية مِنْ الذخيرة، كما أعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد.

ومر اليوم الأول، ومر اليوم الثاني دون أن يحدث شيء، لكن فجر اليوم الثالث شهد التحرك الكبير مِنْ جهة الجنوب الشرقي، ومن جهة الشمال الغربي.

صحيح أن التقدم كان بطيئاً، فالأرض لم تجف بعد، كما أن الغدران والوحول ملأت الأودية والمنخفضات، مما أعاق الحركة قليلاً، لكن التقدم استمر.

كان يُشاهد فِي أمكنة عديدة حيوانات نافقة، وبقايا ثياب، وكانت العقبان والغربان والطيور الجارحة تحوم فِي عدة بقع قريباً مِنْ الأرض، وقد غادرها الحذر، بله الخوف، حتى بدت وكأنها ترقص فِي بعض اللحظات، إذ ما تكاد تسف، ثم تسقط على البقايا، حتى تدرج هاربة مِنْ طيور أقوى أو أكبر منها، لكن هذا الهرب المخاتل لا يذهب بعيداً، ولا يكف عن إعادة المحاولة، حتى ليبدو الأمر لعبة لأغلب الطيور. أكثر مِنْ ذلك... أصبحت تلك الطيور لا تبالي بتقدم القوات أو اقتراب الجنود، كما لا تحفل بحركتها. وكان يروق لعدد غير قليل مِنْ الجنود أن يتابعوا لعبة الطيور السوداء تتطاير وتحط هنا وهناك، وهي بحركاتها المرحة بمقدار ما تبعث على الإثارة، فإنها تثير التساؤل والحزن؟

وفِي تجمعات البدو التي ارتقت الطعوس والهضاب الصغيرة، لكي تهرب مِنْ المياه والوحول، ولتشرف مِنْ مكانها ذاك على القوات الزاحفة، فكانت أهازيجهم والهوسات مليئة بالحقد والحزن معاً. وكان هناك الانتظار القلق لصدور الأوامر مِنْ أجل الاشتباك مع القوات الحكومية التي تُرى مِنْ بعيد وكأنها غابات سوداء تتحرك.

أما الفرات الذي كان أخضر داكناً فِي كُلّ الأيام الماضية، فقد تحولت مياهه إلى اللون البني الكدر، كما تباعدت ضفتاه وتزايدت سرعة جريانه، بحيث لم يعد ناس الضفة الشرقية يرون الضفة الأخرى، وحتى القفف التي كانت تملأ ضفتي النهر، وكانت تبدو كالدمامل فِي ذلك الجسد الطويل، اختفت تماماً، ربما ابتلعها النهر، أو قذف بها بعيداً إلى شطآن مهجورة.

قال المحاربون الذين رابطوا على الضفة الغربية إنهم لم يروا فِي حياتهم النهر يفيض فِي مثل هذا الوقت مِنْ السنة. وقال المسنون مِنْ المحاربين إنهم كانوا يخوضون فِي مياه النهر، ولم يكونوا مضطرين لنزع ملابسهم إلا حين يبلغون الوسط، ويظل الأمر كذلك إلى أن يأتي الفيضان الكبير أيام الربيع. أما أن ترتفع المياه هكذا، وفِي هذا الوقت، فأمر غريب. وتذكر واحد مِنْ المحاربين أنّه رأى النهر هكذا لما كان صغيراً، وما كان ليتذكر لو لم تنبعث رائحة الصحراء دفعة واحدة، بعد هطول تلك الأمطار، وقبل أن يأتي جوريد، فالرائحة وحدها هي التي ذكرته!

كانت مثل هذه الأحاديث والذكريات تتوالى والمحاربون ينتظرون، وقد شفهم الحزن وعذبهم الانتظار. فبعد أن هيؤوا أنفسهم لخوض المعركة على هذه الضفة، وتقسموا وحدات وكراديس ومجموعات، ولكل منها مكان ومهمة، فإنهم يشعرون هنا بالحصار والعزلة والعجز. فما زالوا يتمنون أن تقع المعركة على هذه الضفة مِنْ النهر، لكنهم الآن ليسوا متأكدين. كما أنهم غير قادرين على عبور النهر. حتى الرسل الذين اضطروا للعبور، فقد كان

ذلك مخاطرة كبيرة، مع أنهم سباحون مهرة ومجربون، وقضوا جزءاً كبيراً مِنْ أعمارهم فِي حضن الماء، وغامر بعضهم فوصل الأهوار! فإذا كان التيار يقذف هؤلاء إلى أمكنة بعيدة، وواجهوا مخاطر حقيقية وهم يعبرون النهر، فكيف حال الذين لم يقتربوا مِنْ الماء، ولا يعرفون النهر إلا لملء القرب؟ وكيف حال النساء والصبية والمسنين؟ ثم ماذا حصل للحلال والرزق؟ وقبل هذا وذاك ماذا حصل لرفاقهم الذين كانت مهمتهم تأخير القوات الزاحفة ومشاغلتها، ثم استدراجها إلى الضفة الغربية، كيف حالهم، وماذا حصل لهم، وهل يمكن أن يتخلوا عنهم؟

قال مجحم لرجاله، وكانوا يرون الكتل الكبيرة السوداء تتحرك ولا تتحرك:

ـ البني آدم يموت موتة وحدة...

وزفر قبل أن يُضيف:

- وإذا مات بالسيف أو برصاصة أحسن له وأشرف مِنْ أن يموت بكلاش...

وتغير صوته قليلاً:

- وموتة السيف أو الرصاصة نوبة واحدة، أما موتة الكلاش فبألف موتة...

وضحك بحزن: - ومو بس هو وحده اللي يموت بالكلاش، يورث هالموتة لولد الولد.

وبعد فترة صمت قصيرة أضاف وبحدة:

وأشرف لنا وأحسن أن نواجه رب العالمين ودمنا عطرنا، وعلامات السيوف بصدورنا شهادة ونيشان، وإذا شافنا سبحانه وتعالى يشوف عيون مفتحة وسنان تضحك، ونقول له بحيل صدر: شهداء، لا حساب ولا كتاب، لا منو أنتم أو شنو مسوين؟

كان مجحم السلمان بمقدار ما يحدث الرجال حوله، كان يحدث نفسه. ورأى بعض الرجال مثل هذا الحديث ضعفاً.

ردَّ عليه سعد المبدر بنزق:

- وشنو لازمة هذا الحجي يا أبو سلمان؟ ولم يتركه ليجيب، أضاف، ولم يفارق النزق صوته:

خوياك مجربين، وما ينراد لهم عيني وأغاني، بس إنت اؤمر، قول، يا أبو سلمان وشوف.

ردَّ وهو يبتسم بحزن:

خيل الأصايل تالي تجود يا سعد، ولولا إني أعرفكم وتعرفوني كان كلامي غير كلام.

قال بعض الذين تصادف وجودهم بين هيت والرمادي، مقيمين أو مازين، إن المعركة لما احتدمت بين الطرفين سالت دماء لا تقل عن الأمطار التي سقطت فِي الأيام السابقة. ومياه النهر التي كانت عكرة، حين استقبلت هذا المقدار مِنْ الدم، تحولت إلى لون بني قاتم أقرب إلى السواد. وقال هؤلاء إنّه لم يستثنَ أحد مِنْ القتل، حتى الصبية، وعدد كبير مِنْ النساء والمسنين، قتلوا، قتل الآلاف بل أكثر مِنْ ذلك.

قال سيد عليوي لجنده، وقد وصل فِي نهاية المعركة:

ـ لا نريد الأسرى، ليس لدينا طعام، وسوف يكونون جواسيس علينا، وأنتم تعرفون: البدو يثأرون بعد أربعين سنة، ونحن لا نريد شهوداً، ولا مِنْ ينقل الأخبار.

حتى مفلح الخرسا الذي تملكه الخوف واندفع إلى قوات عليوي، وقد نزع عقاله، ورفع يديه الاثنين، دلالة التسليم، كان مِنْ أوائل الذين سقطوا فِي المعركة. وقيل إنهم استقبلوه لدقائق قليلة، ثم قتلوه. وأكد شاهد أن الضابط قال له وهو يطلق عليه الرصاص:

ـ اللي يخون جماعته أسهل عليه أن يخون أعداءه.

وأطلق عليه ثلاث رصاصات، اثنتين فِي الرأس، والثالثة فِي الصدر.

أما مجحم وثلاثة مِنْ أولاده، ومجموعة مِنْ الرجال كانت معهم، فقيل إنهم توغلوا داخل معسكر الحكومة، قبل الفجر، وقضوا على عدد مِنْ الضباط. وأكد واحد مِنْ الجنود، ظل مختبئاً وراء أكياس المؤونة، أنّه شاهد بعينيه الاثنتين كيف دب الرعب فِي المعسكر، وهرب مِنْ استطاع الهرب، وكاد المهاجمون يفلتون، ومعهم عدد مِنْ الأسرى، بينهم محمد الرميح، زعيم العقيل، لولا أن أطلق عليهم النار أحد الجنود الذي جاء بالصدفة، فقتل أكثرهم، بمن فيهم مجحم ومحمد الرميح، ثم جاء جنود آخرون وقتلوا الباقين.

ومثلما طلب داود باشا، لم يفاوض عليوي أحداً فِي اليوم الأول بعد أن انتهت المعركة، ولم يفاوض فِي اليوم التالي، أما حين وصل شيوخ الدليم فِي اليوم الثالث، ولإنقاذ النسوة والصبية، وقد عبروا النهر مِنْ الضفة الأخرى بواسطة سفينة كانت قادمة مِنْ عانة، فقد اضطروا للموافقة على ما اراده أو فرضه سيد عليوي، خاصة بعد أن وصل بدري الحاج صالح العلو حاملاً رسالة جديدة مِنْ الباشا، وقد استقبل فور وصوله أولاً مِنْ قبل رجال السيطرة، ثم مِنْ رجال الحراسة، إلى أن وصل، مع عدد مِنْ المرافقين، والتقى مع الآغا. وقد تم استقباله قبل أن يجف عرقه!

ما كادت القطعات العسكرية تتجه غرباً، حتى بدأ داود باشا بإعادة ترتيب وضع القطعات العسكرية الباقية. كلف عدداً مِنْ الضباط الذين رافقوه فِي رحلة الشمال بأعباء إضافية. غير مواقع عدد مِنْ الضباط الذين عينهم الآغا، أعطاهم رتباً إضافية وبدل أماكنهم ومهماتهم! أنشأ حرساً خاصاً للسراي. استبدل قوات القلعة بأخرى غيرها، كما أقام حراسات جديدة حول أبواب بغداد مِنْ الداخل والخارج.

وأصدر الباشا أوامره أيضاً لعزرا أفندي أن يحكم الرقابة على التجار، لئلا يستغلوا محاربة بدو الفرات الأعلى فيرفعون الأسعار أو يخفون بعض المواد. كما أمر بإقامة موائد للفقراء ورجال الدين، وطلب مِنْ خطباء المساجد أن يحضوا الناس على الصدقة والعناية بالفقراء والمحتاجين، وعلى محاربة الرذيلة والفساد.

كان الباشا، خلال هذه الفترة، يصل الليل بالنهار، وكانت السراي فِي حركة دائمة وانشغال لا يعرف التوقف.

ولما كانت هذه الحركة، وتلك الانشغالات تتطلب مالاً، فإن نادر الشيخة الذي اختاره الباشا مِنْ الموظفين القدامى القلائل للبقاء فِي السراي والإشراف على الشؤون المالية، كان فِي حالة مِنْ الانفعال، بدا معها قلها مهموماً نتيجة الأعباء الكبيرة والمتزايدة، الأمر الذي يتطلب تأمين موارد جديدة، والحرص أكثر مِنْ قبل فِي أمور الصرف، فاتفق مع عزرا أفندي على أن يتشدد أكثر ولا يلبي إلا الطلبات ذات الختم الأخضر، والممهورة بتوقيع الوالي، ومعها مصادقة عزرا أفندي.

لقد كان المال بالنسبة لنادر الشيخة متعة لا توازيها أية متعة فِي هذا الكون. المال عنده، ليس وسيلة للتداول أو شيئاً قابلاً للانتقال، إنّه قيمة بذاته. لذلك لا يكفي أن يكون حريصاً دقيقاً، بل يجب أن يكون متشدداً إلى أقصى حد، وعليه أن يتقن ترديد كلمة أساسية فِي التعامل مع الآخرين: ماكو. حتى السكوت، فيما لو سكت أثناء المطالبة، قد يساء فهمه، وربما يعتبر موافقة مؤجلة. وكي لا يقع فِي مثل هذا الخطأ، عليه أن يرفض بطريقة واضحة، حازمة ونهائية!

كان يروق لنادر أفندي أن يغلق باب غرفته بالمفتاح حين يعرف أو يتوقع مجيء أحد لمطالبته بمال. كان يفعل ذلك مرات عديدة فِي الأسبوع، خاصة يومي الاثنين والخميس، حين يتوافد الكثيرون على السراي، ففي تلك

الغرفة، فِي أقصى المجاز الطويل مِنْ الجهة الشرقية للسراي، كان يخيم الصمت، وتغرق تلك الجهة فِي العتمة لما تعج الجهة الجنوبية بالناس..

إذا ابتعد نادر أفندي عن المطالبات، وابتعد عنه الناس، فإن له هواية تستأثر باهتمامه كله: يستخرج مقداراً مِنْ الليرات الذهبية المصفوفة بعناية داخل القاصة الكبيرة، وبعد أن يتأمل هذه الكومة بفرح لا يستطيع أن يخفيه، يبدأ بإسقاطها مِنْ يد إلى أخرى، إذ يضم أصابعه كمخروط، ثم يأخذ بإنزالها بسرعات متفاوتة. يفعل ذلك كي تستشعر أصابعه ملامسة المعدن المقدس، كما يسميه، وليقدر العدد، ولكي يطرب على الصوت وهو يتقافز وينتشر نتيجة الاصطدام أو الاحتكاك!

هذه الهواية تستغرق وقتاً، بعض الأحيان يكون طويلاً، وقد تأخذ أشكالاً عديدة، لكن ذروة الانفعال تكون حين يقذف ليرة ذهبية بيده اليمنى التتلقاها اليسرى، فوق ليرات سبقتها واستقرت فِي تلك اليد. كان يقوم بهذه اللعبة باتقان بالغ، وبلذة تجتاح جسده كله. وفِي هذه الرحلة القصيرة، السريعة، والرنين يتتابع ويتغير، تبعاً لكثافة السقوط، يكون نادر أفندي فِي منتهى التألق، وأقصى حالات الفرح.

مثل هذه الرياضة التي يمارسها نادر أفندي لماماً فِي النهار، ودائماً فِي الليل، لا تستهدف إعادة حساب ما فِي الخزينة، أو التأكد مِنْ ذلك، لأن مثل هذا الحساب يجري فِي الذاكرة، وهو واثق منه، وإنما لكي يُشعر نفسه بالفرح والقوة معاً، ولأن الأموال تجعله يتأكد أن ليس فِي السراي سوي اثنين: هو والوالي.

كان يقول لنفسه، وهو يعيد الليرات الذهبية إلى القاصة الحديدية:

- الفلوس تونس، شوفتها ترد الروح، وصوتها يبل القلب، وما أعرف شلون ان ناس تمردها...

وحين يطفىء النور، ليدخل إلى غرفته المتواضعة، والتي لا تحوي سوى سرير وبضعة مقاعد، يخرج صوته:

ـ اللي معه فلس يسوي فلس. أما المفاليس فهذول الله غاضب عليهم، ومثل ما عاقبهم فِي الدنيا راح يعاقبهم فِي الآخرة، لأنه، سبحانه، أعلي البني آدم عقل، وقال له: هذا ملكي وأنت تصرف. خلي يصير براسك خير ودور على خبزتك...

ويتغير صوته، يصبح غاضباً:

- الله ما ينزل زنبيل ذهب ويقول: خذ. الله يقول: أنا أعطيت العقل وعلى عبدي أن يكد حتى يحصل!

ويفرح لأنه وصل إلى هذه النتيجة، إذ لا معصية عليه، ولن يحاسب على ذنب. فالمال، منذ البداية، وحتي الختام، لله، ويجب أن يحافظ عليه. إنّه حارس، والحارس يجب أن يكون أميناً وشديد الانتباه، لأنه مؤتمن. أما إذا سها أو تساهل، إذا فرط او تجاوز فكانه خان الأمانة، وهنا، تماماً، معصية الخالق.

لا يقول ذلك لأحد، إذ بمجرد أن يدخل مع إنسان بمناقشة حول الأمر، وكأنه بدأ المساومة، والمساومة تقود إلى التنازل، وهكذا تتوالى التنازلات إلى أن تفرغ الخزائن، وعندها يقع الخراب، والخراب كما يقول بصوت صلب، وإن شابه بعض الارتجاف:

ـ عقوبة مِنْ الله على عباده.

يقول العاملون فِي السراي: إن نادر أفندي أبخل مِنْ كلب، وإنه لا يلبس الحذاء إلا حين يقابل الباشا، وإنه يؤخر الغداء كي لا يتعشى؛ ويبالغ بعضهم فيضيف إنّه لا يخرا حتى لا يشعر بالجوع!

حين يصرف الرواتب، أو حين يدفع الأعطيات التي أمر بها الباشا، أو حين يطالب الذين قاموا بتوريد المؤن إلى السراي بما يستحق لهم، يصاب نادر أفندي بالمرض. ترتفع حرارته، وتعاوده تلك البحة فِي الصوت، ولأن مثل هذه الأمور تقع كُلّ يوم تقريباً، رغم محاولاته التي لم تتوقف فِي أن يجعل الاثنين والخميس مِنْ كُلّ أسبوع يومي قبض المستحقات، إلا أن الأمور ليست بذلك الانتظام، أو وفق ما خطط لها، لذلك فإن المرض لا يفارقه، كما يصبح عصبياً مستشاراً، ويمكن لأية كلمة أن تخرجه عن طوره. كما يلجأ إلى حبس نفسه فِي غرفته، بعد أن يغلقها مِنْ الداخل، وقد تمر ساعات دون أن تسمع له أية حركة، ويقال إنّه لا يستعيد شيئاً مِنْ هدوئه إلا بعد أن يفتح القاصة ويطمئن أن كُلّ شيء فِي مكانه!

كان الباشا يحب ويكره نادر الشيخة بنفس المقدار. أو يمكن القول إنّه يكرهه فِي أوقات، ويحبه فِي أوقات أخرى. يكره فيه التزمت الذي يصل إلى حد الإحراج، خاصة حين يمتنع عن دفع بعض الأعطيات الضرورية لشيوخ العشائر ولأئمة المساجد، إذ يؤجل الدفع إلى أقصى حد يستطيعه، لعله مِنْ خلال هذا التأجيل يحمل أصحابها على التنازل عنها كلها أو بعضها، وقد حصل ذلك أكثر مِنْ مرة، وقيل إن الباشا لم يلمه، بل وقيل إنّه أثنى عليه! لما تأكد الباشا مِنْ حرصه، تولدت بين الاثنين لغة تعامل لا تحتمل الخطأ: فطريقة توقيع الباشا، ومكان التوقيع فِي أمر الصرف الذي يعده الديوان، يحدد ما إذا كان عليه الصرف فوراً أو يمكن تأجيله. وفِي الحالات التي لا تحتمل الانتظار والتوقيع، فإن الرسول الذي يرافق صاحب الأعطية يحدد ما إذا كان فِي الخزانة مال يصرف فوراً أم عليه أن ينتظر.

قال له الباشا ليحسم الأمر بعد ان تزايدت الشكاوى بسبب المماطلة والتأخر فِي الدفع:

- إذا جاءك خلف فادفع، لأن الله يخلف.

ومد نادر أفندي كفيه بحيرة وتساءل، وتكلمت عيناه بمرارة، وكانه غير راض عن هذا الإسراف، فقال له الباشا وهو يبتسم:

وغير خلف إذا جاك لا تدفع حتى لو حلف! أما أسباب محبة الباشا له فكثيرة، ولعل أهمها: الحرص على حماية ثروته، الملاحقة الدؤوبة لمنع الإسراف أياً كان نوعه، ومن أيّ مصدر جاء.

حين يقدم فيضي الأشجار، فِي نهاية الشتاء، وتكون الأغصان رطبة غير قابلة لأن تستعمل كوقود، خاصة وأن الدفء يكون قد دب فِي الكون، فهذه الأغصان وقود للسنة القادمة، ولذلك يجب ألا تُرمي! تُسلم لمحي الأعور، لكي يجففها، ويقول له نادر آغا:

هذه أمانة برقبتك، فإذا سهيت أو نسيت فالله لا يسها ولا ينسى، وإذا ما كان حسابنا بالدنيا يكون بالآخرة، فاحرص، وقول: الدنيا حياة وموت.

والخراف التي تذبح فِي السراي ليست كأية خراف: يجب أن تُعرف أوزانها، وأين يجب أن تذهب جلودها ومصارينها. حتى القرون، كما يؤكد عدد مِنْ العاملين فِي السراي، كانت لها استعمالات، وحين تباع لا بد أن تُسدد قيمتها!

والأكل والشراب والثياب، وحتى العطور، لكل منها حساب. وهناك أشخاص كلفهم نادر بالإشراف والمتابعة والمراقبة، لكي لا يذهب شيء إلى غير مكانه أو لمن لا يستحقه!

يقول الذين يكرهونه: بعد أن تزايدت المفاتيح التي يحملها، اضطر للاستعانة بمن يحملها عنه، أيّ أصبح لديه حامل للمفاتيح مثلما لدي الباشا حامل الأختام. وهذا الذي يقوم بالمهمة لا يتلقى راتبه نقداً، وإنما يعطيه نادر أفندي مواداً عينية مما تحت يده، ويتغير حجم هذه المواد بتغير سعرها فِي السوق! وحامل المفاتيح صنع لنفسه خرجاً فيه جيوب كثيرة، فِي أحد هذه الجيوب المفاتيح، وفِي الجيوب الباقية المواد التي يمنحها نادر: السكر، الصابون، الفلفل، الرز، العدس، بحيث يبدو، وهو خارج مِنْ السراي، شخصاً مضحكاً، إذ بالإضافة إلى الشكل المنبعج فِي أماكن كثيرة، فإن الرائحة التي تنبعث مِنْ أحماله غريبة مختلطة إلى درجة لا يمكن تحديدها أو تصنيفها، لكنها، مع ذلك، أصبحت مألوفة لعدد مِنْ الأشخاص الذين يتعاملون معه، وغالباً ما ينتظرونه بعد المغرب وقبل العشاء عند باب السراي، يوم الخميس، كي يبدأوا مساومته على بضاعته!

ربما يقال إن مثل هذه القصص مِنْ تدبير خصومه، وإنه أكبر مِنْ إشغال نفسه ببيوت المؤونة أو ترتيب الشؤون الصغيرة فِي السراي، فالباشا انتدبه الأمور أكبر مِنْ هذه بكثير، وهذه الأمور بالذات هي التي تفسر حب الباشا له، وتجعله قوياً ومستمراً، رغم الكراهية التي يكنها له معظم، إذا لم يكن كُلّ، العاملين فِي السراي!

يقول الذين يعرفون أكثر مِنْ غيرهم، إن الباشا لم يُبق على نادر الشيخة، ولم يحمه إلا بسبب الخدمات التي يقدمها. إنّه يتذكر الديون والمدينين أكثر مِنْ أيّ شيء آخر، ليس اعتماداً على السجلات، إذ حُرق أغلبها فِي الأيام الأخيرة مِنْ حكم سعيد باشا، وإنما اعتماداً على الذاكرة التي تستطيع فِي لحظات أن تستعيد ما تبقى على فلان أو فلان مِنْ ديون للدولة. الضرائب المقدرة عليه، كم دفع منها وماذا تبقى عليه، ومواعيد الدفع!

يتذكر نادر افندي ذلك ليس مِنْ أجل أن يثبت للآخرين أن ذاكرته لا تزال قوية، وإنما ليتذكر وقت حلول هذه الديون، وأيضاً وقت مجيء المدينين، خاصة فِي الأسابيع ثم الشهور الأولى لاستلام داود. فقد ظن الكثيرون أن سقوط سعيد لن يعفيهم مِنْ الديون فقط، بل لا يوجد مِنْ يتذكرها، خاصة بعد أن احترقت السجلات والأوراق، والكثير مِنْ دواوين الدولة.

كانت أصوات هؤلاء المدينين عالية متحدية، وهم يستعرضون ما حل بهم مِنْ غبن، وما لحقهم مِنْ خسائر، بعد أن ألزمهم سعيد بكذا وكذا مِنْ الأموال، وكيف أنهم أدوا ما عليهم وأكثر! ويظل الأمر كذلك إلى أن يطل نادر أفندي على مجلس الباشا مِنْ وراء حجاب، أو يسأل عن زواره، وخلال دقائق تصل إلى الباشا، مع الغليون أو القهوة، ورقة تبين الديون المترتبة عليهم.

ولأن الباشا يريد أن يكسب ولاء هؤلاء، أو أن يحصل جزءاً مِنْ الديون، كان ببراعة يعاود الحديث، بعد أن تكتمل لديه المعلومات، لكي يصل فِي النهاية إلى نوع مِنْ التسوية مع هؤلاء المدينين، حتى لو انتهت تلك التسوية بأن يسقط عنهم تلك الديون، مع التأكيد أنّه يفعل ذلك تكرماً، تقديراً لمواقفهم وتأييدهم، وأنه لن يتساهل بما سيترتب عليهم مِنْ أموال بمواعيد ومقادير محددة.

كان يقول له داود بعد أن ينفض الجمع:

ـ لم تخطىء يا نادر أفندي حين سميت ابنك يقظان...

وبعد قليل وكأن الباشا يكلم نفسه:

- يجب أن تترك على جلود هؤلاء الناس علامات لا ينسونها أبداً، لأن آفة البشر النسيان، أما إذا عرفوا وعرفت فإن التفاهم يصبح أيسر؟

ولا يعرف نادر أفندي هل يفرح، ويعبر عن هذا الفرح بالضحك، أم أن الأمور أكثر جدية وخطورة، بحيث يجب أن تتحول فِي وقت قريب إلى ليرات ذهبية، لأن هذه الطريقة وحدها التي تدخل الفرح إلى القلوب!

فِي وقت لاحق، وبعد أن استقر ديوان الباشا، وأصبح يعرف مِنْ هم زواره، ومتى سيأتون، أمر بأن تودع لدى نادر أفندي، قبل أيّ موظف آخر، أسماء الزوار، خاصة مِنْ التجار وشيوخ القبائل والمتنفذين، وأيضاً رجال الدين، لكي تسجل الديون والعطايا وبعض المعلومات التي تمكن الباشا مِنْ الوصول إلى نتائج مناسبة مع هؤلاء الزوار.

قال لنادر أفندي، بعد أن استدعاه إلى الشرفة الجنوبية المطلة على النهر:

ـ المال للدولة، يا نادر، مثل الأكل والشرب للإنسان.

لم يكن نادر الشيخة بحاجة إلى مثل هذه المقدمة، فهو يعرفها جيداً، ربما أكثر مِنْ الباشا. ضحك بخجل واعتدال، وكأنه يقول له: لا توصي حريص يا باشا، وأريد منك أن تقف معي مِنْ أجل حماية الخزينة.

ابتسم داود باشا، وقد أدرك ما يدور فِي عقل نادر، وتابع:

- لو كان لذي عشرة مثلك، يا أبا يقظان، لنمت قرير العين... وتغيرت اللهجة، أصبحت حزينة:

- هذا البلد عجيب يا نادر، ما تظن أنك وصلت حتى تكتشف أشياء لا بالبال ولا بالخاطر...

جر نفساً عميقاً وأضاف:

ـ كورة زنابير. تشوف الواحد اسم الله عليه، لابس كشيدة ولسانه ما يفوت حلقه، وهو يردد: قال الله وقال الرسول. تقي، ورع، يصلي ويصوم، وتدمع عينه إذا انذكرت الجنة، لكن إذا سألت عنه، إذا تحريت منو هو، وشنو مسوي بدنياته، تشوفه زنبور، وأبد ما يخرى عسل!

وشعر الباشا أنّه ذهب بعيداً، وأن مثل هذا الكلام لا يعني واحداً مثل نادر أفندي، فيغير جلسته، وهو يقول بصوت أراده ودوداً:

ما علينا يا نادر. المهم أن نضبط المالية، لأن هذه الحرب، مثل ما تعرف، نار الله الكبرى، تأكل الأخضر واليابس، وشقد عندنا فلوس فهذول العسكر يأكلون ويقولون لنفسهم عوافي. أريد منك الحرص:

خلف وختم أخضر، لا تنس، وإلا أبو كلاش يكد وأبو جزمة باكل وتنص علينا.

واتفق الطرفان أن يكون الصرف محدوداً، وأن تكون المكافأة متناسبة مع النصر، وألا تزيد إلا إذا حملها خلف وعليها التوقيع والختم الأخضر!

أما أكثر أسباب محبة الباشا لنادر فتلك الوقاحة، التي تجرح، لكن لا تقتل، فِي تعامله مع الآخرين، خاصة ناس السراي، بمن فيهن نساء الباشا ومحظياته وجواريه، إضافة إلى الحرس والمرافقين والمسؤولين عن الاسطبل، وأيضاً المسؤولين عن الحيوانات والطيور الموجودة فِي السراي!

ما عدا الباشا، ولأسبابه الخاصة، فلا أحد يطبق نادر أفندي، أو بالأحرى فإن الجميع يكرهونه، ويتمنون لو يختفي، لو يموت. وإذا كانت مواقف هؤلاء لا تتجاوز التمني والانتظار، فإن لعزرا موقف آخر، وكذلك نائلة خاتون، وبعض الأحيان نازلي باشي!

أقام داود باشا احتفالاً كبيراً لقواته المنتصرة. أقام الاحتفال فِي السراي، ودعا إليه رجال الدولة والوجهاء وأرباب الشعائر الدينية والتجار، وحرص على أن يكون بين المدعوين شيوخ العشائر وعدد مِنْ أغوات الأكراد.

كان الاحتفال جليلاً كبيراً، منح خلاله سيد عليوي رتبة إضافية، وقد قام الباشا بتقليده الوسام العالي. وأثنى، مِنْ خلال كلمة قصيرة، على شجاعته وتفانيه، وذكر أن الولاية فِي المرحلة الجديدة، وبعد هذا النصر الذي مِنْ به الله، تبدأ عهداً جديداً مِنْ الاستقرار والهدوء، بعد أن تُضي على قطاع الطرق والذين يسلبون القوافل، وهذا سيؤدي لازدهار التجارة بكل تأكيد، ولأن يعيش الناس فِي أمان. ولم ينس الباشا أن يلتفت إلى شيوخ القبائل، وهو يلقي الكلمة، إذ ذكر أن الغزو عادة ذميمة، وقد حرمها الله، ولا بد أن تكف القبائل عن هذه العادة، وأن تعتمد، مِنْ أجل تحصيل الرزق، على الزراعة والكد، ووعد أن تبذل الولاية، وأن يبذل شخصياً، وجميع المأمورين فِي كُلّ أنحاء الولاية، شمالاً وجنوباً، كُلّ جهد مِنْ أجل رفاه العموم. وختم كلمته بأن قال «وباشا بغداد الذي عرفتموه وخبرتموه، يؤمن بالله وبرسله وملائكته، ويؤمن باليوم الآخر، يبشر وينذر، وكما أن الحلال بين فإن الحرام بين، وكما أن الحق بين فإن الضلال بين، فمن أراد لنفسه ولأهله الخير والعافية فإن الطريق إلى ذلك واضح صراح قويم، ومن أراد غير ذلك فبيننا حساب الدنيا والآخرة.

اللهم إني حذرت وأنذرت، اللهم إني بلغت، والله على ما أقول شهيد».

ورغم أن العادة فِي احتفالات مِنْ هذا النوع أن يرتدي الوالي الملابس العسكرية، فقد حرص داود باشا، بعد أن دخل بغداد، على التخلي عن هذه الملابس، لذلك بدا بين هذا الحشد الكبير مِنْ الضباط، مختلفاً بل وبدا بنظر بعضهم أقصر قامة وأقل تألقاً. وتمنى الذين لا يكنون الود لسيد عليوي لو أن الباشا كان مرتدياً الملابس العسكرية، لئلا يظهر سيد عليوي وكأنه كُلّ شيء فِي هذا النصر. لكن ما خفف مِنْ تأثير هذا الخطأ أن الوحيد مِنْ العسكريين الذي لم يرتدِ ملابس الاحتفالات هو عليوي ذاته، فقد جاء إلى الاحتفال بملابس الميدان، وكانت خشنة متسخة، ولا تخلو مِنْ غرابة، الأمر الذي فَسر بأشكال مختلفة. إذ قيل إن إصرار الآغا على تلك الملابس كان للتدليل على أنّه جاء مباشرة مِنْ أرض المعركة، وأنه مستعد للعودة إلى المعركة مِنْ جديد لو طلب إليه الباشا ذلك! وقيل إن ظهوره بهذا الشكل يدل على تواضعه وعدم اهتمامه بالمظاهر، حتى بدأ الوسام مع الوشاح الذي قلده

إياه الباشا غير متناسبين مع بذلة الميدان، بحيث أن ناطق أفندي، الذي حمل الوشاح إلى الباشا، كان على ثقة أن الوشاح سيستم باليد دون أن يُقلد، وهذا ما جعله يبقي الطرفين مربوطين، لأن «وشاحاً مثل هذا»، كما قال لبدري صالح العلو، الذي بادر بسرعة لإنقاذ الموقف، إلى حل طرفي الوشاح، يحتاج إلى ملابس تليق به، وإلى صدر كأنه الصخرة لكي يبرز فوقه، أما أن يضيع فِي هذه الكومة مِنْ الثياب القذرة،«وأن يبحث الباشا عن مكان بين هذه الأسمال ليعلق الوشاح، فأمر يثير القرف والاستغراب». وقيل إن الباشا لم يكن مرتاحاً أو راضياً حين رأى سيد عليوي بملابس الميدان، فِي الوقت الذي ارتدى باقي الضباط زي الاحتفالات، لكن الوقت لم يكن كافياً لتدارك الأمر، فقبل الوضع على مضض!

وناطق أفندي، مسؤول التشريفات فِي السراي، أبدى استياءه لبدري فِي المساء المتأخر ليوم الاحتفال بقوله:

خدمت فِي بلاط السلطان، وخدمت فِي ولاية حلب. عرفت الكبار والصغار، وشهدت عيني احتفالات بعدد شعر رأسي، ولم أر مثل احتفال اليوم...

واختلط الغضب بالغيظ وهو يشرح ويوضح:

ـ إهانة لوالينا؛ إهانة للمقام العالي؛ إهانة للأوسمة والنياشين، فكيف يسمح لنفسه الاقتراب مِنْ الباشا ورائحته كلها صنان وكأنه خنزير؟

خفض صوته كثيراً وهمس:

- هذا الزق مِنْ العرق مع حفنة مِنْ غبار ممزوج برائحة البول، ويتلقى أوسمة؟

ولم يترك لبدري أن يجيب، تابع:

ـ كان مولانا السلطان يرفض المصافحة لمجرد أن الذي يصافحه مد يده إلى أحد قبله. وكان رجال التشريفات ينبهون الزوار: سلام دون مصافحة...

وعاد إلى الصوت المنخفض:

أما ايدين منفعة بالسيانات، وصار لها شهور ما انغسلت، فهذي مو بس ايدين نجسة، هذي ايدين تجيب الأمراض والمصايب، فالله يستر والينا؟

ردَّ بدري ليخفف مِنْ حدة ناطق أفندي:

- بس والينا يتوضأ خمس مرات فِي اليوم يا معود، ويغسل مرتين كُلّ يوم، فلا تخاف، لا تدير بال.

إن زي الرجل، كما يقول ناطق أفندي لنفسه، لا يقل أهمية عن الكلام الذي يتفوه به، وإذا قيل إن لكل مقام مقال، وإن كلام الإنسان يدل على عقله، وهذا ما يجعله حاضراً ومرغوباً، أو لا يُلتفت إليه أبداً، فلا يُسمع كلامه، ولا يؤخذ برأيه، فكذلك الأمر بالنسبة للثياب، بل إن الثياب، فِي أحيان كثيرة، تدل على حصافة الرجل ومدى ما يتمتع به مِنْ ذوق وكياسة، وإن الحكمة التي تقول: كُلّ ما تريد والبس ما يريده الناس، لم تأت مِنْ فراغ أو مِنْ عبث، فالملابس غير المناسبة سواء تم ارتداؤها بطريقة غير صحيحة أو لوقت غير مناسب، تجرح العيون، وتخلف ألماً فِي النفس. كما أن الناس يُعرفون ويُميزون مِنْ خلال الملابس التي يرتدونها، ولولا ذلك لتساوى الفقير بالغني، الحاكم بالمحكوم، وهذا لا يجوز أبداً، وهذا ما أدركه السلاطين قبل غيرهم، فجعلوا المراتب والكساوي والأوشحة والنياشين، وأوكلوا هذه الشؤون إلى أناس يفهمونها ويقدرونها، ولولا ذلك لضاعت الأمور، واختلطت المراكز، وعمت الفوضى.

هذه الفلسفة تجعل ناطق أفندي إنساناً متطلباً شديد الحرص، لا يقبل التساهل حتى فِي أصغر الأمور، وهذا ما يجعله، بنظر نفسه على الأقل، شخصاً بالغ الأهمية، لأن الخبرة التي اكتسبها عبر السنين أكدت له أن كُلّ شيء فِي هذه الحياة، وكُلّ إنسان، كيف يبدو وكيف نراه، لأن العين نافذة القلب، والقلب وما أحب، والقلب وما كره. حتى الحروب التي تقع، وقد تؤدي إلى آلاف القتلى، ترتبط إلى حد كبير بالحب والكراهية والحب والكراهية، بالدرجة الأولى: ما تراه العين.

ويسرف ناطق أفندي، نظراً لانشغاله بهذا الموضوع، فِي التأمل والتفكير، بحيث أوصله تأمله، وقاده تفكيره للحلم بإعداد كتاب، وقد استرسل فِي هذا الحلم إلى درجة أن وضع عنواناً للكتاب: «أقوم المسالك فِي الزي والتصرف وما إلى ذلك» وفكر أيضاً أن يفرد فصولاً طويلة حول ملابس القواد والأنفار، الحكام والعامة. لكن ما يحزن ناطق أفندي كثرة المشاغل اليومية، وأيضاً افتقار الناس إلى الذوق وحسن التصرف، ثم ذلك الميل إلى أن يميز الإنسان نفسه عن كُلّ الذين حوله، حتى لو بدا غريباً! ونظراً للدقة المفرطة التي تحكم علاقاته بالآخرين، بمن فيهم الوالي.

فلم يجرؤ أن يعلن عن أفكاره ومشاريعه، رغم اليقين المسيطر عليه أن مشروع الكتاب لو عرض على الوالي لا بد أن يلاقي قبولاً حسنا، وربما حماساً، مِنْ أجل أن يبادر إلى تنفيذه. لكن ناطق أفندي لا يسمح لنفسه بأن يتخطى المراتب، ويعرض المشروع مباشرة، وهذا ما جعله يقوي علاقاته ببدري صالح العلو، فهو الشخص الملائم كي يبحث الأمر مع الباشا فِي ساعة مِنْ ساعات الصفاء، ولا بد أن يصل معه إلى نتيجة مرضية! وعندها

يتفرغ هو، وربما مع بعض المساعدين، لهذه المهمة، وخلال بضع سنين سيكون بين أيدي الناس كتاب يعلمهم كيف يلبسون وكيف يتصرفون؟

اما خطبة الوالي، وكانت مرتجلة، أملتها المناسبة، فإنها بقدر ما جرحت رجال القبائل، أثارت مخاوف عدد مِنْ رجال الدين المسلمين، إذ شعر هؤلاء أن بعض الكلمات التي استعملها الوالي، خاصة حين وصف نفسه بالبشير والنذير، وحين قال: اللهم إني بلغت، فيها مِنْ التجاوز والتعدي ما لا يجوز السكوت عليه، فمثل هذه الصفات خاصة بالرسول وحده، ولا يليق ببشر غيره استعمالها، لكن حين فكروا بالأمر وحين تشاوروا فيما بينهم، كانوا اقرب إلى الاقتناع أن اللحظة املت مثل تلك الكلمات، وأن البدو يحتاجون إلى لغة فيها مِنْ الوعيد والتهديد ما يجعلهم يكفون عن الغزو، وينصاعون لأوامر الدولة. ثم تذكروا، وذكروا بعضهم، أن إيمان الوالي راسخ، وتفانيه فِي خدمة الدين الحنيف مضرب المثل، وتذكروا أيضاً العطايا التي قدمت لأرباب الشعائر الدينية، ووعدوا بأكثر، كما تذكروا كرم الباشا فِي ترميم الجوامع والزوايا والتكايا.

وإذا كانت هذه الأمور، كلها أو بعضها، قد لاقت فهماً وتفسيراً، أو قبلت على مضض، فإن الشيء الذي ولد دوياً فِي السراي لم ينقطع، وتسبب بحالة مِنْ التوتر سيطرت على كُلّ شيء وعلى كُلّ إنسان، فهو موقف نادر الشيخة.

كان آخر مِنْ ينام فِي السراي، وأول مِنْ يستيقظ. قال الكثيرون، واقسموا أغلظ الأيمان على صدق ما يقولون، إنّه لم يكن ينام. ربما غفا اللحظات بين نوبة هياج وأخرى، أما النوم الذي يعرفه البشر، فلم يعرف طريقاً إليه. كان، لئلا يشعر بتأنيب الضمير، أو يكتشف نفسه نائماً، يقضي وقتاً مع الحرس الليلي للسراي. كان يحدث الحرس عن الجنون الذي سيطر على سيد عليوي، وكيف أن هذا المجنون لا يعرف إلا كلمة واحدة:

هات. وإنه مع مطلع كُلّ شمس يطلب مِنْ الأرزاق والأموال ما يكفي الناس أجمعين ولمدة شهور أو سنين! وإذا كان قد عرف أو سمع كيف يتصرف المجانين، فإن أكثر ما يؤلمه أن الباشا يستجيب، يوافق على كُلّ ما يطلب، وكُلّ ما يريد، وكأن الباشا انضبع، أو يخاف هذا المجنون. إذ بدل أن يحجر عليه، بدل أن يصرخ فِي وجهه ويقول له لا، فإن الختم الأخضر والتوقيع لا يتوقفان فِي الليل والنهار، ومع الختم والتوقيع: خلف.

هكذا كان يحدث الحرس لكي لا ينام. وحين يصفن الحرس أو ينشغلون عنه، بجولة مكلفين بها، أو بملء الغلايين، أو حين يتبادلون أخبارهم الخاصة، كان يهرب إلى غرفته. وبدل أن ينام يفتح القاصة ويبدأ بعد ما تبقى مِنْ

أموال، وهذه العملية بدل أن تدخل الطمأنينة على نفسه، بدل أن تشعره بالثقة، فإنها تزيد توتره، وتجعله إنساناً يصعب التفاهم معه.

كان الباشا فِي الأيام الأولى للحرب، حين يستيقظ فجراً، لأداء الصلاة، ولكي يتأكد مِنْ الحراسات، يلتقي بنادر أفندي. كان يسمع منه ويصغي إليه، رغم الهياج الذي يميز تصرفاته، وبعض الأحيان كلماته.

كان كُلّ ما يقوله شكوي مريرة مِنْ هذا المجنون، سيد عليوي، الذي يريد كُلّ شيء، ولا يعرف إلى أيّ وقت سوف يستمر فِي تلبية هذه الطلبات.

والباشا الذي يسمع ويهز رأسه، لم يكن يرغب بمناقشة نادر، مع أنّه يقدر حرصه وغيرته، لكن ما أن تكررت الشكوى، وبنفس الكلمات، وبعض الأحيان بهياج يزيد عن الحد، حتى جاءه بدري الحاج صالح العلو، قال بطريقة أقرب إلى التهديد:

ـ شغلتك، أفندي، تعد الفلوس، موشغلتك تقول ليش ولمن، مو شغلتك تقول يصير وما يصير، أو هذا كثير وهذا قليل، افتهمت لو أفهمك بطريقة ثانية؟

- يعني تهددني؟

ـ افهم كلامي شلون ما تريد...

وتغيرت اللهجة، أصبحت غاضبة:

ـ موبس هالشكل، حدك هذا المجاز، وحديقة الورد أبد ما تطبها، أسمعت؟

كان نادر أفندي ينظر إليه غير مصدق. كان يرتجف مِنْ الغيظ والغضب معاً، إذ لم يتعود أن يسمع لغة مثل هذه، لكن يبدو أن الباشا طلب منه أن يبلغه ذلك، لأن بدري، أغلب الأحيان، يعرف كيف يسمع ولا يعرف كيف يتكلم، خاصة مثل هذا الكلام الذي يقوله الآن.

سأله نادر أفندي، وكان صوته مخنوقاً:

هذا كلامك أم كلام الباشا؟

- هذا الكلام اللازم تسمعه وتفتهمه زين...

وبعد قليل، وقد اختلفت النبرة قليلاً:

- والباشا براسه ألف شغلة، وهذي البسته سمعها منك ألف مرة، فما ينراد مِنْ الفجر، وبدل: يا رزاق يا كريم: عليوي أخذ، عليوي يريد. خل الباشا بهمه وشغله، يرحم والديك!

جلس نادر أفندي على الأرض، أو بالأحرى انزلق كما ينزلق كيس حنطة فقد توازنه، وما كاد يتكرم هكذا حتى أخذ ينشج. كان الصوت متقطعاً أول الأمر ثم أصبح نحيباً. وبدري الحاج صالح الذي لم يتصور ذلك ولم يرده، شعر أنّه قسا عليه، وأن الأمر لا يتطلب مثل هذه القسوة.

ترك بعض الوقت يمر، هدأ خلاله نادر أفندي قليلاً، قال بدري فِي محاولة الإصلاح الموقف:

ـ أنت تعبان يا أبو يقظان. قوم، اغسل وجهك واخز الشيطان...

وبعد قليل، وبود:

ـ لازم تستريح شوي يا أبو يقظان.

قول للباشا: نادر، أبو يقظان، مات واشتعلت صفاحه، واللعن والد والديه، وكُلّ شيء خلص، خله يدور على واحد غيري!

كانت الكلمات تخرج مِنْ فم يصطك ويختنق بالدموع. كانت الكلمات تخرج متقطعة يائسة. بصعوبة، وبمساعدة اثنين مِنْ موظفي السراي، أمكن إقناعه ثم حمله إلى غرفته. وضع فِي السرير بعد أن رفض تغيير ثيابه. كان يرتجف مثل قصبة، وربما ارتفعت حرارته، لأن جسده كله كان ينتفض، كان يتقلص ويتمدد لا إرادياً. أما عندما غفا، أو بدا أنّه يغفو، فقد خرج بدري مِنْ غرفته وهو يشعر أنّه ارتكب بحق هذا الإنسان ذنباً لم يقصده، لكن الخطأ ولد وكبر فِي لحظة، خاصة بعد أن قال له الباشا:

خلصنا مِنْ إبن هالأوادم، نادر حريمة، قل له يفك عنا ياقة، وما أريد أشوفه كُلّ مصباح، وقبل ما يصيح الديك: عليوي أخذ وأخذ. خلنا نتصبح بغيره، وإذا عنده سالفة، خلف موجود، وكُلّ شيء عن طريقه!

حاول بدري أن ينقل إلى الباشا ردَّ فعل نادر، وكيف انهار وسقط فِي موجة مِنْ البكاء والحمى، وأنه طلب إعفاءه مِنْ مهمته والبحث عن بديل آخر.

ابتسم الباشا بحزن، وكان يهز رأسه، وبعد أن مرت فترة صمت، قال.

كأنه يخاطب نفسه:

ـ دواه عند عزرا، هو اللي يقدر يتفاهم وياه! ولم يستطع عزرا أن يشفيه، لكنه ضمد بعض جراحه. قال له إنّه يفهم حرصه وتشدده، ويفهم امتناعه، بعض الأحيان، عن تلبية كُلّ الطلبات أو تأخيرها، لكن للحرب متطلباتها وأعباءها، ولا بد مِنْ الوفاء بها، وأن الخسائر التي نضطر لها الآن ستتحول إلى أرباح كبيرة فِي المستقبل، إذ سيدفع البدو الضرائب والمستحقات، وسوف تصل البضائع بكميات كبيرة، وهذا يحرك السوق ويشجع الناس على

الشراء، فإذا حصلت مثل هذه الحركة تتحول إلى فلوس، وقسم كبير مِنْ هذه الفلوس مِنْ حق الولاية، ولا بد أن تصل إلى يديه، وعند ذاك تمتلىء الصناديق مِنْ جديد!

كان نادر أفندي يستمع لعزرا بكل حواسه. كان يفتح عينيه على إتساعهما، وكان البؤبؤان يتحركان بسرعة كبيرة. فما يقوله هذا اليهودي مفهوم، جميل، يدخل إلى القلب مباشرة، ولا يخلو مِنْ إقناع، لكنه، مع ذلك، غير واضح بما يكفي. كما لا يعرف متى يصبح نقوداً وتصل إلى يديه. هل يستطيع الانتظار حتى ذلك الوقت؟ وماذا لو نفد ما لديه مِنْ نقود قبل أن تصل النقود التي يتحدث عنها عزرا؟ هل مِنْ يقدم قرضاً؟

والموظفون والإسطبل ونساء الوالي، هل يقبل أحد الانتظار، أو يقول: الله يسامحكم، ولا أريد شيئاً؟

اعتدل نادر أفندي فِي فراشه. استقر البؤبؤان وهو ينظر إلى عزرا، وبعد فترة صمت طويلة خرج صوته، وكان الصوت مرتجفاً:

ـ أريد أصدقك، عزرا أفندي، لكن...

لم يكن يريد أن يعلن موافقته كاملة أو دفعة واحدة، إذ لا يزال يشعر بالخوف والإهانة. وإذا كان مستعداً لنسيان الإهانة، خاصة بعد أن أشار عزرا عرضاً لأسف الباشا لما حصل، فإنه لا يمكن أن يتخلى عن الخوف، هذا الخوف الذي جعله لا ينام، ويعاف الأكل، ولا يطيق أن يكون مع الآخرين.

قال عزرا، فِي محاولة لكسر تمنعه: - ابدالك، أفندي، قول، تكلم.

- أوافق، عزرا أفندي. أقول عفا الله عما مضى، لكن بشرط..

ـ شنو شرطك، أفندي؟. هذول اللي يطلبون الفلوس صبح وعشية كفار، ماكو رحمة بقلوبهم، فاريد كفيل.

- شنو يعني كفيل آغاتي؟

- أريد واحد يشهد، واحد مثلك بقلبه انصاف، ويعرف الله، يقول:

هذا عدل. هذا ضروري. وهذا ما منه جاره...

وتغير صوته، أصبح غاضباً:

أما إذا صارت الدنيا توترة، وبس هات، فلو كان عندي مال قارون.. يخلص!

وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يتولى عزرا تنبيه الباشا إلى أن طلبات عليوي زادت عن الحد، وأن الخزينة تتناقص يوماً بعد آخر، ويجب ألا يستغرب إذا جاء يوم، وقد لا يكون بعيداً، وفرغت الخزينة تماماً! أما عن

الوليمة التي اقترحها عزرا، كي تتم المصالحة بين نادر وبدري فقد رفضها نادر أفندي بطريقة لا تقبل المناقشة أو إعادة النظر. قال لعزرا بما يشبه اللوم:

ـ تتصورني، أفندي، أقدر أعلس لقمة ويا هذا الجاحد النعمة؟

. كُلّ واحد، آغا، يسوقه مرضعه، فأريد منك، إبدالك، تنسى وتسامح!

ـ اللي ما يقيس قبل ما يغوص ما ينفعه القياس بعد ما يغرق، يا أفندي...

وبعد قليل وبحسرة:

عتبي مو على هذا اللي ما يفتهم، عتبي على والينا، هو اللي يشوف الفلوس تحترق، تطير، وما يقول: آخ!

بعد أسبوع مِنْ الاحتفال بدأت تصل الغنائم. آلاف مِنْ رؤوس الغنم، وعدد أقل مِنْ الإبل، أما الخيول التي وصلت، فقد اختير منها ثلاثون مُمَت إلى أسطبل السراي، وعرض الباقي، وكان بضع مئات، للبيع.

قبل يوم مِنْ وصول الغنائم كان اللقاء الأول بين الباشا ونادر أفندي.

كان الباشا فِي الشرفة الجنوبية، وقد فرغ لتوه مِنْ لقاء سيد عليوي ومسؤول فوج التجهيز والإمدادات، وقد أبلغاه أن طلائع الغنائم بدأت بالوصول، ولا بد مِنْ تهيئة الأماكن لاستقبالها، واختيار الرجال لاستلامها والعناية بها. وكان الباشا متأكداً أن اللحظة المناسبة لاسترضاء نادر أفندي قد حانت. لم يبعث بدري لاستدعائه، ولم يبعث فيروز. بعث إليه ناطق أفندي.

- الله ربك، نادر افندي. الباشا طالبك، يريد يشوفك!

ردَّ نادر بارتباك:

- آني؟ يريد يشوفني؟

ـ أيّ نعم، وقال لي: بالعجل...

وبعد قليل، وهو لا يقوى على إخفاء فرحته:

- بوجه منور وسن يضحك! وذ نادر أفندي لو يرفض، أن يقول: لا. يكفي أن يبقى خلف الرسول بينهما، ليس لديه ما يقوله له. لكن حركة ناطق أفندي، وهو يخطو فِي الغرفة خطوات قصيرة، لم تترك له الفرصة. سأله نادر أفندي، وهو يعرف الجواب سلفاً:

ـ ما يمكن تتأجل للصبح؟

- ييزي يا معود.. خف رجلك، الباشا ينتظرنا! نهض. قفل الباب الأول، قفل الباب الثاني. تأكد مِنْ الشباك، إذ دفعه بيده ليتأكد أنّه مغلق، وحالما استدار ليتبع ناطق أفندي، قال، وحاول أن يضفي على صوته القوة:

على بركة الله. اللهم اجعله خيراً قال الذين راقبوا اللقاء إن الباشا استقبله كما يستقبل كبار الضيوف وأعزهم. وقد طال اللقاء، وتخلله الابتسام. والذي وصل إلى حد الضحك بصوت مسموع أكثر مِنْ مرة! ويبدو أن الأثنين تذكرا أموراً عديدة وتحدثا عن أمور عديدة. أما حين انتهى اللقاء فقد كانت حركة نادر أفندي سريعة ولا تخلو مِنْ اضطراب. أما حين طلب عدداً مِنْ مساعديه، وأغلبهم يسكنون فِي أماكن ليست قريبة، فقد انشغل خلال الانتظار بإعداد قوائم وكتابة بعض الملاحظات.

قال حراس وبعض رجال السراي آن نادر أفندي ومساعديه لم يناموا لحظة واحدة تلك الليلة، وانهم غادروا السراي عند الفجر. انطلقوا بسرعة، وقد رافق هذا الانطلاق الكثير مِنْ الهرج ووصايا اللحظات الأخيرة، وقد فهم منها أنهم ذاهبون لاستلام الغنائم.

الذين كانوا فِي ساحة أم السباع، أو قريبين منها، قالوا إن الخيول التي وصلت إلى تلك الساحة فِي أواخر ذلك الليل، كانت آلافاً مؤلفة. وقالوا إن وقع حوافرها كان يُسمع مِنْ مسافات بعيدة، إذ كانت تدوي فِي الليل سواء انتظمت خطواتها أو لم تنتظم. أما الصهيل، الذي ظل يتردد بين فترة وأخرى، فكان حزيناً مليئاً بالحسرة، وقد أكد ذلك عدد مِنْ الذين لهم دراية بالخيل، ويعرفون طباعها، خاصة حين يركبها غير فرسانها، أو حين تساق دون فرسان عليها.

لكن أعجب شيء، وأغرب هيئة فِي ساحة أم السباع: نادر أفندي. كان يتراكض مِنْ مكان إلى آخر، ولا يعرف هل يكفي أن تُعد الخيول، أم أن توضع عليها علامات، أم يجب عليه أن يفعل أشياء أخرى. كان يتحرك بسرعة، وينادي، ويصرخ فِي آن واحد. أما الأوراق البيضاء التي ملأت يده، إضافة إلى الدفتر الكبير الذي كان يحمله هادي السودا، ويركض وراءه، فما كان يعرف ماذا يجب أن يسجل على تلك الأوراق أو فِي ذلك الدفتر!

حين عاد نادر أفندي إلى السراي بعد ثلاثة أيام، كان مهدوداً، متعباً، وقبل أن يذهب إلى غرفته مر على الاسطبل، وتأكد أن الخيول كلها وصلت، وخصص لها مِنْ يعتني بها. وقيل إنّه نام نوماً عميقاً تلك الليلة، وقد سمع الحرس حين مروا بالقرب مِنْ غرفته شخيره. وعلى غير عادته ظل نائماً إلى أن ارتفعت الشمس مقدار رمحين أو ثلاثة فِي صباح اليوم التالي.

وأقيم احتفال ثان فِي القلعة، كان هذا الاحتفال مختلفاً عن ذاك الذي أقامه الوالي. فقد جرى ليلاً، وضم العسكريين وأصدقاءهم، ودعي إليه عدد محدود مِنْ المسؤولين، إضافة إلى جوقة مِنْ الموسيقيين والراقصات، وغنى فيه وأجاد: ثامر المجول!

كان أغلب العسكريين بملابس عادية بسيطة، خلافاً ليوم الاحتفال الكبير، وإن حرص بعضهم على وضع الأوسمة وتقلد السلاح. أما باقي الحضور فقد تميزوا بالأناقة المفرطة، والعناية باختيار الألوان والأزياء التي تساعد، دونما خطأ كبير، فِي تحديد مواقعهم الاجتماعية وأهميتهم فِي سلك الوظيفة. أما النسوة اللواتي رافقن أزواجهن فكن قليلات نسبياً، بالمقارنة مع عدد الرجال، وقد خصص لهن بهو واسع، وهذا البهو بمقدار ما يعتبر مفصولاً عن القاعة الكبيرة، التي جرى فيها الاحتفال، فإنه مرتبط بها أفقياً، حيث لا يحجزه إلا قاطع خشبي مشبك مِنْ أحد الجوانب.

سيد عليوي كان نجم الاحتفال، خاصة فِي البداية. إذ استقبل الجميع بود ظاهر، وببشاشة لفتت نظر الكثيرين، مقارنة بما كان عليه يوم الاحتفال الذي أقامه الباشا. ومما زاد فِي لفت النظر إليه: البساطة فِي الملابس التي ارتداها، ثم الحيوية فِي الحركة والحديث. فقد وقف مع الكثيرين، وتبادل معهم الأحاديث. كما ابتعد تماماً عن جو الحرب، إذ لم يتطرق أبداً إلى المعركة الأخيرة، كأنها لم تقع أو لم يكن قائدها! أكثر مِنْ ذلك، حين سئل عن بعض الأمور التي لها علاقة، استطاع بنكتة أن يغلق الموضوع؟

وإذا كان الاحتفال قد بدأ وقوفاً، وعلى شكل حلقات صغيرة، فِي القاعة والشرفات المحيطة، وتجاوز بعض المدعوين الشرفات إلى الحديقة، إلا أن الأمر لم يدم سوى فترات قصيرة، نظراً لبرودة الجو، ثم تلك الرغبة أن يكون الإنسان مع الآخرين، وأن يغرق فِي هذا الدوي الذي يخلق الدفء، ويجعل التواصل مع باقي الضيوف سهلاً ولا يخلو مِنْ متعة، وربما بعض الفوائد الآن أو فِي المستقبل!

النسوة الحاضرات كن أكثر قدرة على خلق جو أليف فيما بينهن، فأي لقاء سابق بين واحدة وأخرى لا يعني مجرد المعرفة، كما هو الحال بين الرجال، وإنما صداقة وثيقة، وتخط سريع للمواضعات، وإن احتفظت بمقدار غير قليل مِنْ المجاملة. أما إذا كان اللقاء يتم لأول مرة فسرعان ما يتحول إلى رغبة بالاكتشاف، باختصار الأزمنة، وعدم انتظار الوقت المناسب كي يُسأل

عن كُلّ أمر مِنْ الأمور. فما تكاد بضع دقائق تمر حتى تتكامل الصورة التي تعرفها الواحدة عن الأخرى، لتبدأ بعدها عملية اكتشاف مِنْ نوع آخر: أيّ الرجال هو زوج التي تتحدث؟ وإلى أيّ حد يتطابق حديثها مع ذوقها باللباس الذي ترتديه، والعطر الذي تستعمله؟

وهل لباسها أو الحلي التي تتقلدها تحكي حقيقتها وتجسدها أم هناك فرق قد يخفي أموراً لا بد مِنْ اكتشافها؟

حتى إذا انتهت أية مدعوة مِنْ جارتها التفت إلى الجارة الأخرى، إلى المدعوات الأخريات. وقبل أن تمر ساعة تكون كُلّ واحدة قد استكملت معظم ما تريد مِنْ معلومات ومن تقييم، وانتهت أيضاً إلى أن تكون مميزة بين الأخريات، ضمن المجموعة، وعلى انفراد أيضاً! ووسط هذا الدوري الذي لا يصل إلى حدود الصخب، والذي تتداخل تخومه وتتشابك، وفِي جو الدخان والعطور الذي ملأ أنحاء القاعة الكبرى، شمع تصفيق. التفتت العيون، وإذ حامد، مرافق سيد عليوي، ينبه إلى أن لدى رئيسه ما يقوله أو ما يفعله. ساد الصمت، وتحركت الأجساد قليلاً كي يبدو الآغا فِي الصدر، وكي يراه الجميع.

ابتسم الآغا ابتسامة عريضة، وهو ينظر إلى الوجوه بمودة. ورغم أنّه تعود على إصدار الأوامر، ومخاطبة الجموع، إلا أنّه بدا، للحظات، محرجاً، إذ لا يعرف ماذا يقول، وكيف يخاطب الذين ينظرون إليه بتركيز.

بعد أن امتد الصمت قليلاً، قال وخرج صوته مرتجاً.

ـ نحن العسكريين مو مثل غيرنا، نحن ما نعرف شلون نصفط الكلام، نحن نعرف...

وتوقف لحظة. كانت تلك اللحظة طويلة مشحونة، إذ أدار عينيه فِي الوجوه وأضاف:

ـ نحن العسكريين نعرف كيف نحارب.. كيف...

وصمت. لكن فجأة وسط الصمت المشحون خرجت مِنْ جديد كلماته:

ـ نحن نعرف أن نقول لكم: أهلاً وسهلاً بمقدمكم وسعداء لحضوركم، والآن تفضلوا استريحوا ليبدأ الحفل!

وضجت القاعة بتصفيق عال، مبالغ فيه، لأن ما قاله الآغا، بعد أن هيأ الجو، جرى خلافاً لما توقعه الجميع. وقد لاقت هذه الكلمات، بالإضافة إلى التصفيق، نوعاً مِنْ الاستحسان والتقدير، حتى بدا الآغا بنظر الكثيرين أنّه يعرف عدا القتل، كيف يكون مرحاً، ودوداً، الأمر الذي لم يكن متوقعاً أو معروفاً عنه مِنْ قبل!

خلال حفل الاستقبال كانت الموائد، فِي القاعة الكبرى وفِي البهو، قد هيئت بعناية، إذ رافق العسكريون ضيوفهم إلى تلك الموائد بعناية كبيرة، وبمعرفة سابقة دقيقة ومتفق عليها، حتى أدق التفاصيل.

وكان العسكريون أيضاً شديدي الكرم مع ضيوفهم، وكانوا شديدي الكياسة فِي الكلام والتصرف. بل إن عدداً مِنْ المدنيين، خاصة مِنْ الوجهاء، لاموا أنفسهم لأنهم كانوا سيئي الظن بهؤلاء العسكر الذين لا يفهمون إلا شيئاً واحداً: القسوة. القسوة فِي الحرب، فِي القتل، فِي التعامل مع الآخرين! الآن يكتشفون أن هؤلاء العسكريين لا يختلفون عن غيرهم، وفِي أحيان كثيرة يتجاوزون المدنيين ويتفوقون عليهم! أما عندما بدأت الفرقة الموسيقية، وقد خصص لها مكان فِي الوسط، ناحية الشرق، فقد تولد جو مِنْ الألفة مازجه المرح، لأن الموقع الذي كانت فيه الفرقة يتيح أن ينظر طرفا القاعة إلى بعضهما بيسر ودون حرج، خاصة وأن الموائد مُفت بطريقة مكنت الجميع أن يتابعوا الفرقة الموسيقية بلا مشقة.

أما بعد أن دارت الكؤوس، خاصة على موائد الرجال، فقد تغير الجو بسرعة. أصبحت أية نغمة تثير الكوامن، وأي صوت يثير الشجن.

حتى الرجال المتحفظون، الذين يفضلون أن يشربوا سراً، وقد بدا على بعضهم التردد أول الأمر، لم ينتظروا طويلاً، بعد أن اتجهت العيون نحو الفرقة الموسيقية، ثم تجاوزتها إلى أبعد مِنْ ذلك! والضباط الذين أبدوا أريحية كبيرة، وهم يسألون، وهم يعزمون، وفِي محاولة لإزالة الحرج، قالوا: اعتبروا أنفسكم فِي بيوتكم وتصرفوا. وانصرف هؤلاء الضباط إلى متابعة الموسيقى، إلى ممازحة بعض الزملاء على طاولات أخرى، مما ساعد وسرع فِي خلق جو أليف وممتع.

ولأنه رافق بعض الموائد جو أكثر جدية مِنْ موائد أخرى، إذ استمر الرجال يتبادلون الأحاديث الرصينة، ويتقصون بجدية عدداً مِنْ الأمور، فإن الضباط الأقل رتبة، وكانوا يجلسون إلى موائد بعيدة نسبياً، ما لبثوا أن سيطروا، مِنْ خلال المرح والمشاركة، على الآخرين. فانتقل المرح، تدريجياً، مِنْ مائدة إلى أخرى، ولم تمض ساعة حتى أصبحت القاعة الكبرى جسداً واحداً ومناخاً واحداً.

أما حين تقدمت كوكبة مِنْ الراقصات، بمصاحبة موسيقى تلائم الرقص وتحرض عليه، فقد اشتعلت القاعة الكبرى كلها. لم تبق مائدة، ولم يبق شخص، إلا وعبر عن انفعال حقيقي ومشاركة فعلية، ولعل أقل المشاركات كانت الآهات، ثم التصفيق الصاخب حين تبدأ الراقصات بأداء رقصة جديدة، وحين ينتهين مِنْ أخرى!

لقد اختارت روجينا، دون أن تظهر، الراقصات بعناية كبيرة. كانت كُلّ واحدة أجمل مِنْ الأخرى، وكُلّ واحدة أمهر مِنْ التي سبقتها. حتى إن الكثيرين تساءلوا ما إن كانت هاته الراقصات مِنْ بغداد، أو على الأقل يقمن فيها، ولماذا وأين تختفي هذه الجواهر ولا أحد يعلم بها! أكثر مِنْ ذلك، المائدة الرئيسية، مائدة عليوي وكبار ضيوفه، لم تستطع أن تحتفظ طويلاً بهذا المقدار المبالغ فيه مِنْ الجدية. إذ ما كادت نجمة، وهي الأخيرة بين الراقصات، تظهر، وكانت، بالإضافة إلى جمالها، تتمتع بقدرة باهرة، فقد كانت تنفعل، بل وتغيب، وهي تؤدي الحركات. كان جسدها يضيء وهو يتلوى. كان يصرخ ويعوي، ورغم المرونة التي تصل إلى حد الإعجاز وهي تحرك ذلك الجسد، بحيث يبدو أقرب إلى جسد الحية، فإن الجهد الذي كانت تبذله، وهي تحاول أن تحكم كُلّ حركة، كُلّ سكنة، جعل العرق ينز. كانت حبات العرق وهي تتدحرج مِنْ الجبين، مِنْ تحت الإبطين، مِنْ بين النهدين، تتحول إلى كرات مِنْ اللؤلؤ، إذ تلتمع، تبرق، تتناثر، الأمر الذي جعل طلعت باقة، وهو مِنْ ضباط سيد عليوي الأساسيين، وكان على مائدته، ينهض بانفعال ويمسح جبين نجمة بمنديله، ثم يقدم لها المنديل.

ما كادت تبدر منه هذه الحركة، بعد أن انتهت الراقصة مِنْ رقصتها الثانية، حتى جنت القاعة. دوى التصفيق والتهبت الأيدي، وترافق ذلك مع ضحكات صاخبة تعلن، بشكل لا يخطىء، تأييدها. أما الكلمات التي صدرت مِنْ الموائد البعيدة، مِنْ صغار الضباط، فقد عبرت عن أكثر مِنْ التأييد، كانت هتافاً مليئاً بالتقدير والثناء، ولا تخلو مِنْ الحسد أيضاً!

طلعت رجع إلى المائدة محرجاً، رغم أنّه كان معروفاً بمرحه. لكن الابتسامات التي استقبل بها على المائدة الرئيسية، وكانت تحمل معنى الشكر، ثم التأييد الذي انهال مِنْ كُلّ مكان، جعله يشعر أن خطأ مِنْ هذا النوع مغفور، لأنه قابل للفهم، ولم ينو غير ذلك أو أكثر مِنْ ذلك!

حتى النسوة اللواتي استقبلن الموسيقى بعواطف هادئة، أقرب إلى الحياد، وكن موزعات بين سماع تلك الموسيقى ومراقبة الرجال، رغم المسافة التي تفصل بين الطرفين، وقد تهامسن أكثر مِنْ مرة لحركات بعض الرجال أو لكلامهم، فإن الرقص أثارهن، ليس كما أثار الرجال، وإنما بطريقة معاكسة، أو هكذا تظاهرن. فالتعليقات التي كانت تصدر عنهن كانت أكثر وضوحاً، وبعض الأحيان بصوت عال. ولم تتردد أكثر مِنْ واحدة أن تبدي تقززها مِنْ الحركات الفاضحة. مِنْ الملابس التي تظهر أكثر مما تخفي! بل وصدرت ملاحظات بحق الرجال، فقد وُصفوا بالخفة، بعدم المعرفة، بهذا الانجذاب للحم أية امرأة، عدا الزوجة!

أما حين ظهرت نجمة، وكان موقف النسوة لا يزال هو ذاته تجاه الرقص، فإن الأمر بدأ بشكل وانتهى بشكل آخر. إذ بالإضافة إلى الاعتراف التدريجي بجسد تلك الراقصة، فقد امتدحن حركاتها الجميلة المتقنة، خاصة وهي تغمض عينيها، خلافاً للراقصات اللواتي سبقنها.

كانت ترقص وهي لا ترى أحداً، وكأنها ترقص لنفسها، لحبيب تتخيله دون أن تراه. وكانت ترقص، فِي بعض اللحظات وكأنها تتعبد، أو تقدم طقساً مقدساً.

لم يُعلن كُلّ ذلك بكلمات واضحة، لكن الصمت الذي خيم عليهن أول الأمر، ثم ذلك الانفعال الذي جعلهن يتحركن بطريقة مختلفة عن السابق، والمتابعة الدقيقة، بما فيها مد الرؤوس أو تحريك المقاعد، وأخيراً ذلك الهمس الذي يدل على الاعجاب والحسد معاً، جعل بعض النسوة الفتيات يتمنين لو أنهن يستطعن ذلك، لو يجربن ذلك، لأن ما كن يشهدنه يختلف عن كُلّ الرقصات السابقة، عن كُلّ الراقصات اللواتي مررن قبلها.

حتى حركة طلعت باقة، لم تحمل هذا المقدار مِنْ الاحتجاج أو الرفض. فنجمة التي فتحت عينيها، وكأنها تفيق مِنْ حلم، أو تعود مِنْ رحلة بعيدة، بدت مرتبكة، خائفة، وكأنها طفلة صغيرة. حتى منديل طلعت باقة الذي مسح الجبين كان مثل يد حنونة، مثل لحظة حب، وكان فِي وقته تماماً! نجمة التي لم تكن تعرف كيف تواجه التصفيق وكلمات الاستحسان، كانت بحاجة إلى سند أو مساعدة، نظرت إلى أكثر مِنْ مكان، وكأنها تتوقع النجدة مِنْ أحد ما، مِنْ مكان ما. أما حين توالى التصفيق، واشتد، طالباً أن تقدم وصلة جديدة، فقد اتجهت عيناها إلى الفرقة الموسيقية بتوسل، راجية أن ترحمها، وأن تساعدها أيضاً. وربما التقط قائد الفرقة، فِي تلك اللحظة، الخيط، إذ التفت إلى زملائه بسرعة، وكانه يتواطأ معهم، كي يساهم الجميع فِي إنقاذ هذه الصغيرة.. فاختار نغماً سريعاً وقصيراً.

دارت نجمة دورة، ثم ثانية، أما فِي الدورة الثالثة فكانت تقترب مِنْ الباب الذي دخلت منه... وكالطيف غابت، كالحلم تلاشت، وغاب معها النغم وتلاشى!

واستغل سيد عليوي الضجة، وهم مِنْ حركاته أنّه حان وقت تقديم الطعام، فانسحب الموسيقيون، وهجم الذين يقدمون الطعام، وتغير الجو تماماً. لكن نجمة، رغم غيابها، كانت أكثر الناس حضوراً وطغياناً، واستمر ذلك إلى أن انتهى الطعام، إلى أن رفعت عن الموائد كُلّ البقايا.

وجاء دور ثامر المجول.

وثامر المجول، ذلك الجنوبي الذي امتحن صوته، وهو يغني للماء، بين القصب، فِي الليالي المليئة بالنجوم، والذي أحب ابنة الشيخ، وغنى لها مِنْ بعيد كُلّ الأغاني، وحين تزوجت ورحلت، لم يحتمل فقرر أن يرحل إلى بغداد.

وإذا كان ممكناً تغطية بعض الصفات فِي المدينة الكبيرة، تحت ركام السرعة والكثافة، فإن الصوت يفضح نفسه ويصعب إخفاؤه. وثامر الذي كان يغني لنفسه على شاطىء دجلة، على المياه الجارية تحمل صوته وحنينه إلى تلك التي أصبحت طيفاً بعيداً، ما لبث أن تردد صدى ذلك الصوت فِي الأمكنة القريبة، وأخذ يتجمع حوله أولئك الذين يلذ لهم الحزن، ويسكنهم الحنين، وكان بين هؤلاء مِنْ يحسن الاستماع ويميز الأصوات. ولم تمض مدة إلا وأصبح ثامر المجول الصوت المشتهى، والنغم الذي يذيب الحجر ويحرك أحزان الروح. ووجد مِنْ أبلغ سيد عليوي عنه، وحين سمع صوته لم يتركه يبتعد عن ناظريه يوماً واحداً!

قال الذين كانوا يسمعونه على الشاطىء، وأولئك الذين كانوا على زوارقهم داخل النهر، إن صوته حين يصرخ كان يشق الماء، يجعل النهر يروج ويموج. أما إذا ارتجف ذلك الصوت، فإن المخلوقات كلها تحبس أنفاسها، تتوقف البلابل عن التغريد، وترفع الخيول آذانها، ولا يقوى الساهرون على النوم بعد ذلك ولفترة طويلة. ويؤكد ثلاثة مِنْ الصيادين أن الأسماك كانت تتقافز فوق الماء، تطير، حين كان ثامر المجول يغني فِي إحدى الليالي!

كان الناس جميعاً يتحدثون عن ثامر: كيف ينفعل وهو يغني؛ كيف يهدر صوته كالرعد مع الموال؛ وكيف يترنح ذلك الصوت وهو يصيح الأوف. وكان الكثيرون يعتبرون أنفسهم مِنْ السعداء لأنه أتيحت لهم فرصة سماعه. وبلغ الإعجاب بعدد مِنْ محبي الطرب أن سموا أبناءهم باسمه! ورغم الحزن والصعوبات التي اجتاحت بغداد مرة بعد أخرى، فقد كان ناس المدينة يجدون بعض العزاء أن ثامر لا يزال بينهم، وانه يغني حزنهم.

ويعتبرون أن الحياة مهما ضاقت أو فست، فهناك مِنْ يستطيع أن يلتقط اللحظات المضيئة التي تجعل تلك الحياة أقل صعوبة، وتذكر أن أياماً جميلة مرت ذات وقت، وأن أياماً مثلها قد تأتي.

حين اختطف سيد عليوي ثامر المجول، وأصبحت إقامته وراء أسوار القلعة، ولا يتردد صوته إلا فِي بساتين بعيدة، ولبعض الناس فقط، قال الكثيرون أن بغداد ضاقت ثم أظلمت. وقال بعض الذين كانوا يترددون على شاطىء النهر، لما اكتشفوا لأول مرة صوت ثامر المجول، ان ليس لهم قلوب تحتمل رؤية الشاطىء مقفرة والصوت غائباً، وقالوا إن الدنيا اختلفت عن السابق!

الصيادون قرب الباب الشرقي، الذين أولموا عدة مرات لثامر، قالوا إن صوته هو الذي كان يصيد، كان يدفع إلى شباكهم أعداداً كبيرة مِنْ السمك. يقولون ذلك وهم يقسمون، وللتأكيد أكثر، يقولون إن صيدهم حين يغيب صوت ثامر يقل أو ينقطع. أما بعد أن غاب بصورة كاملة، فلا يعرفون أية صعوبات سيتعرضون لها، وكيف ستكون أيامهم القادمة!

استعاد الكثيرون صوراً وذكريات وهم يرون أمامهم ثامر المجول.

صحيح أنّه تغير، أصبح أكثر سمنة، لكن فِي عينيه حزناً لم يكن فيهما مِنْ قبل أو بهذا المقدار. حتى الابتسامة التي ارتسمت على وجهه، وهو يحيي الضيوف، بدت شاحبة ولا تخلو مِنْ مرارة.

قال الذين سمعوا ثامر يغني تلك الليلة إنهم لم يسمعوا فِي حياتهم مثل ذاك الغناء، وقد لا تتاح لهم الفرصة لأن يسمعوا مثله مرة أخرى!

وإذا تميز موقف النسوة تجاه الموسيقى بالحياد، وتجاه الرقص بالغيرة والخوف والحسد، وإن تستر ذلك بإظهار القرف والاستهجان، فإن مواقفهن تجاه غناء ثامر المجول كان بالغ الانفعال والتجاوب، حتى أن أصوات مشاركتهن، فِي لحظات معينة، وصلت إلى أسماع الرجال وأطربتهم، ووصل الأمر أن تصفيقهن بلغ مِنْ الشدة إلى درجة أن أعاد ثامر عدة مقاطع، وكان يتوجه نحوهن ويطلب أن يسمع أصواتهن المشاركة. أما الرجال فقد غادروا عقولهم تماماً. كانوا لا يكتفون بالتصفيق والمشاركة فِي الغناء. كان بعضهم يقف، يطلب مِنْ الآخرين أن يشاركوا، أن يعلنوا أقصى درجات الفرح، لأن ليلة مثل هذه نادرة، وقد لا تتكرر.

وثامر المجول، كما أكد اثنان مِنْ أصدقائه، يجود فِي حالتين: حين يغني لنفسه فقط؛ وحين يغني للمجموع. إذا غنى لنفسه يذوب وجداً، يتحول إلى خيط مِنْ النور، إلى غيمة مِنْ الحنين، وشيئاً فشيئاً يصبح الوجد نحيباً رقيقاً، وندباً موصولاً، وكأنه على وشك أن يغادر هذه الدنيا فور انتهائه مِنْ الغناء، مِنْ قول كلماته الأخيرة. أما إذا غنى للجموع فإنه يمتلئ بالشجن، يصبح عنيداً أقرب إلى الحدة، بل ويبدو متحدياً، وكأنه قادر على التقاط نجوم السماء، والوقوف فِي وجه العاصفة وفيضان النهر، مؤكداً مِنْ خلال الكلمات وملامح الوجه، أنّه سيواجه اعتى القوى، أقساها، وأنه سيصل إلى مِنْ يحب!

ويضيف الأصدقاء الذين يعرفونه: «وثامر إذا غنى لثلاثة أو لأربعة، ومثلما يريدون، يضيق صدره، ويغيب صوته، ويصبح مثل طير جريح»..

كان الآغا، وهو ينصت إلى ذلك الصوت، لا يصدق أذنيه. كان مذهولاً، منفعلاً، إلى درجة أن أخرج مسدسه، وبعث به مع حامد هدية الثامر. ورفع كأسه تحية له أكثر مِنْ مرة.

غني ثامر، تلك الليلة، كمجنون، مثل أسير أفلت مِنْ سجنه. بكي وأبكي أكثر الذين فِي القاعة. وشمع شهيق عدة نسوة. أما الزفرات التي صعدت مِنْ أعماق القلوب، فكانت تتزاحم إلى درجة تصدع الصدور، وتفجر الدموع.

وحين غادر شواطيء الحزن إلى حقول الفرح، اكتشف الجميع سعة الحياة وجمالها، وكيف وكم يخطىء الإنسان حين يبدد هذه الحياة، ويفرط باللحظات البراقة التي يمكن انتزاعها مِنْ خلال الحب والوصال.

وكي تصبح هذه الليلة مختلفة عن أية ليلة غيرها، ورغم الجهد الذي بذله ثامر، فقد وجد نفسه يواصل الغناء، ليس فقط بدافع الحماس الذي أبداه الجمهور، بل وبدافع قوة داخلية جعلته يغني عدة أغنيات جديدة، ولا يُعرف إن كان أعدها خصيصاً لهذه الليلة، أو تذكرها بعد أن كانت غافية فِي أعماق الذاكرة. وأكد أحد أصدقائه أن اثنتين مِنْ الأغاني الجديدة التي ارتجلها كانت وليدة التو واللحظة، لأنه لم يعد يتذكر الكلمات، رغم الجهد الذي بذله مِنْ أجل استرجاعها!

وامتد السهر تلك الليلة وطال. وبالغ بعض المدعوين، فأشار إلى أن عدداً مِنْ سائقي عربات الضيوف وجدوا يصلون الصبح جماعة حين خرج أصحاب العربات! وكان سائقون آخرون نياماً، مما اضطر بعض الضيوف للانتظار، أو ركبوا، وطلبوا أن توافيهم عرباتهم إلى بيوتهم.

أخبار الحفلة التي أقامها الآغا غادرت جدران القلعة فِي ذات الليلة، وتكاثرت فِي الليالي اللاحقة. أما التفاصيل فقد انتشرت فِي طول بغداد وعرضها، وكانت، وهي تنتقل مِنْ مكان إلى آخر، تزيد وتتغير، كما أصبح الناس لا يملون مِنْ الحديث عنها فِي النهار والليل.

كان الحديث يختلف مِنْ واحد لآخر، لاعتبارات وأسباب لا حصر لها. فحديث النساء يختلف عن الذي ينقله الرجال. ويختلف حديث رجال السراي عن ذاك الذي يجري فِي المقاهي والأسواق. ويختلف أيضاً عن حديث مبغضي الأغا، أو حديث الذين يقدرونه.

رجال الدين حين وصلتهم التفاصيل: الشراب الذي أريق؛ عري النساء؛ الرقص والغناء؛ ثم كيف أطفئت الأنوار وعم الظلام واختلط الرجال بالنساء... عندما سمع رجال الدين هذا الكلام فتحوا أعينهم على اتساعها، وسألوا مرة أخرى، ومرة ثالثة، ودققوا بأصغر التفاصيل وأكثرها خفاء. كانوا يسألون وهم يبلعون اللعاب الذي تزايد فِي حلوقهم، وبعد أن ألقوا بكل ما أرادوا معرفته، صاحوا: «الله أكبر.. الله أكبر.. يا غيرة الدين ويا عار الجبين. إنّه الكفر الصراح والفجور الذي لا يباح. لقد ظهرت الإشارة وقرب قيام الساعة. كُلّ امرأة مِنْ اللواتي حضرن ليلة الفجور، وجاءها غلام بعد تسعة شهور، فهو ابن سفاح، وواحد مِنْ هؤلاء الأطفال سيكون الأعور الدجال.» أكثر مِنْ ذلك، اجتمع رجال الدين وقرروا مراجعة الباشا، ومطالبته أن

يوقع حد الزنا بالذين حضروا، مهما علت وظائفهم أو ارتفعت منزلتهم، وقدموا مِنْ الحجج والبراهين ما يوجب ذلك. لكن واحداً منهم سأل: هل تقبل شهادة مِنْ حضر؟ ألا يعتبر كُلّ الحاضرين فسقة وفاجرين؟

ولم يحسم رجال الدين والفقهاء الأمر، ظل بينهم خلاف. قال بعضهم: يجوز التوسع والاجتهاد فِي جميع أمور الدين، عدا الزنا. وقال الآخرون: الزنا قمة المعصية، ولا يمكن السكوت عنه. وتوالت اجتماعات رجال الدين، وظلوا يقلبون الأمر على كُلّ الوجوه، وظلوا يتناقشون ويختلفون!

أما رجال السراي، وحتى النساء، فقد تعددت وتباينت مواقفهم، لأن الموضوع كان يناقش همساً وبتكتم شديد، مما جعل الجميع يقدرون ولا يجزمون!

إذ بعد أن تعمد سيد عليوي توجيه الدعوة لعدد مِنْ رجال السراي، نقل هؤلاء ما شهدوا، وما سمعوا، فتكونت فِي السراي وجهات نظر بعدد

الحاضرين. لكن ما كادت التفاصيل تأتي مِنْ مصادر أخرى، ويضاف إليها كُلّ يوم شيء جديد، حتى اختلطت الروايات وتعددت إلى درجة لم يعد أحد يعرف حقيقة ما حصل!

بدري، المرافق، نقل للباشا كامل التفاصيل قبل أن ينقلها إلى أيّ إنسان آخر. «كانت الأشياء واضحة، بينة، ثم فجأة تداخلت واختلطت» هكذا اعترف بدري للباشا «ولا أعرف بعد ذلك، على وجه الدقة واليقين ما حصل» إذ بعد أن بدأت نجمة الرقص، وكان بدري إلى ذلك الوقت رافضاً المشاركة فِي الشراب، وجد نفسه يستجيب لأحد أصدقائه القدامى ويتناول منه الكاس حين مده إليه. «والإنسان يا باشا فِي لحظات معينة، يعجز عن المقاومة والاحتمال، فالكأس الأول، كما الخطوة الأولى، أصعب الكؤوس، وأعسر الخطوات. ولذلك أطلب الصفح والمغفرة على هذه الخطيئة التي لن أكررها مرة أخرى.» الباشا كان يستمع باهتمام. يهز رأسه حين تُذكر أسماء المدعوين؛ حين يشار كيف تصرف فلان مِنْ التجار أو الموظفين. لمن تحدث، ماذا قال، وهل عامله الآغا، أو أحد رجاله، معاملة خاصة، وما إذا كانت الخاتون معه أم لا؟

نقل بدري، حتى التفاصيل الصغيرة، وتحدث هذه المرة أكثر مِنْ مرات سابقة، فِي محاولة لنيل رضا الباشا وصفحه، وأسرف كثيراً فِي الحديث عن الآغا وطلعت. ولم يتردد فِي الحديث عن نجمة، وما تركت مِنْ أثر على الجميع، على الرجال والنساء، وكان يفسر أو يبرر ما حصل!

لم يقاطعه الباشا وهو ينقل له ما رأى وما سمع. ابتسم عدة مرات. هز رأسه عدة مرات. وقال له، فِي محاولة لأن يحرض ذاكرته:

ـ أكتب إليّ كُلّ هذه المعلومات.. وحاول أن تتذكر أكثر!

ناطق أفندي الذي دُعي إلى الحفلة أيضاً، أصر على هاشم أفندي أن يبقى إلى جانبه، لأنه «أدرى بالناس وأعرف» كما قال له يغريه فِي محاولة لإقناعه، فِي الوقت الذي كان هاشم يريد أن يسمع أكثر مما يرى، لكن باعتباره مِنْ رجال السراي فقد قدر أن الكثيرين سيتحفظون إذا رأوه قريباً ويسمعهم، أو أن يمد رقبته الطويلة ليتابعهم، لذلك وافق على البقاء إلى جانب ناطق أفندي، لكن شرع أذنيه، وتنقل فِي عدة حلقات قبل أن تبدأ الحفلة عله يسمع أخباراً أو أشياء جديدة.

ناطق أفندي، فِي هذه الحفلة، كان مجرد عينين تراقبان وتدققان. وقد أكد فِي التقرير الذي رفعه إلى ديوان الباشا، وكتب عليه: «مخصوص. رفيع السرية، لأنظار فخامة الوالي»، كتب فِي التقرير ما يلي: «لم تشهد السلطنة، فِي دار السعادة، وفِي أيّ مكان قدر لي أن أخدم فيه، أن أرى مثل هذا الحال، وفِي تمِام هذِا المجال، ما رأيته فِي القلعة. لم يدخل

الضيوف حسب مراتبهم، أو وفقاً لطريقة تحظى بالاحترام العالي أو التقدير المناسب. كان كُلّ ضيف يدخل دون إعلان وبلا أية مراسيم، وكأنه يزور بيت أبيه، أو يذهب إلى معارفه وذويه. وهذه الطريقة أفسدت المراتب، وولدت الحيرة لدى الضيوف والمراقب، خاصة وأن عدداً مِنْ النصارى واليهود جلبوا أهل بيتهم، وبدل أن تدخل النساء مِنْ باب مخصوص، وبخفر وحياء، فإن الضحكات التي كان يستقبل بها المضيف، الآغا سيد عليوي، ضيوفه، جعلت الشؤون تختلط، خاصة وأن بعض النسوة لم يكتفين بالتسليم مِنْ بعيد أو بهز الرأس تحية للمضيف، بل لجأن إلى المصافحة المباشرة، وكادت أكثر مِنْ امرأة أن تصافح الرجال الذين يقفون إلى جانب الآغا، لكن عفة هؤلاء الرجال، وتراجعهم فِي الوقت المناسب، أو تظاهرهم بالانشغال، قلل مِنْ هذه المعايب.

أما الآغا نفسه فقد كرر خطيئة يوم الاحتفال الكبير الذي أقامه الباشا: لم يرتدِ ملابس الاحتفالات. لم يتقلد الرتب والنياشين. لم يقف إلى جانبه الحرس الثلاثي للدلالة على المقام والرتبة، الأمر الذي جعل عدداً مِنْ الضيوف يسلمون على المرافقين قبل تقديم واجب الاحترام لصاحب أعلى المقام.

إن الملابس والرتب، فِي مثل هذه الاحتفالات، أشد ضرورة مِنْ أيّ وقت، وإلا ما معنى أن تكون ملابس مولانا السلطان، أدام الله عزه ونصره، أيام الجمع والأعياد مختلفة عن أيام العيد والجهاد؟ وما معنى أن يكون الحرس والتشريفات بالملابس الناصعة والنياشين اللامعة والسيوف المشرعة والأجساد المترعة، وحسب الأقدمية فِي السلك، أليس معنى ذلك أن تكون ليوم عز وفخار، ولمقام ترتفع إليه الأبصار، فيفرح الصديق ورعية السلطان، ويخاف الكافر فِي كُلّ زمان ومكان؟

ثم كيف يجوز لرتبة أقل أن ترتدي كامل القيافة وتمام الهندام، فِي الوقت الذي لا يفعل ذلك عالي المقام وواسع الاحترام؟ ألا تحدث مثل هذه التشوشات والبلبلات، خاصة لمن لا يلم بالمقدار الأسمى فِي معرفة الرتب وتحديد المنازل والمقامات؟

إنكم يا صاحب المقام العالي تقدرون أن الناس منازل، ويجب أن تعرف هذه مِنْ الهيئة، فكما النبوة بالوحي وسناء الوجه وطلاقة اللسان، فلا بد للناس مِنْ لباسٍ وهيئةٍ ونيشان، وهذا ما يفترض سنه فِي الولاية ليكون معلوماً مِنْ قبل الخاص والعام، قبل أن يعم ما لا يُحب، وقبل أن تفرض الدهماء ما لا يجب.

فإذا عدنا إلى ليلة القلعة، فأقول عنها براحة الضمير، ويوافق معي الحسير والبصير، إن الناس مِنْ الخراقة وانعدام البصيرة، ومن فساد الذوق

وتساوي الحرير والحريرة، أن كُلّ واحد يرتدي ما يشاء، مغضياً عن الوقت إن كان صبحاً أو مساء، صيفاً أو شتاء، وكانه فزاعة زرع، أو حالب ضرع، لا يميز إن كان سيلتقي وزيراً خطيراً أو صعلوكاً حقيراً. بكل الموجز مِنْ الكلام، ومن حيث المنظر والهندام، كان الاحتفال: زرق ورق، وهيئة سز وذوق يوك.

ثم كيف يقوم أحد الأركان، مثل طلعت باقة، بمثل ذلك العمل الشائن: بمنديله ويده ينشف عرق واحدة مِنْ الغواني؟ أين النخوة والرتبة وعالي المقام؟ وهل انعدم أحد مِنْ المكلفين بالخدمة ليتولى هذي المهام؟ كاد خجلي يقتلني، يا فخامة الباشا، وكان عرقي يغرقني؛ إذ لم أرَ لا فِي دار السعادة، ولا فِي أيّ مكان آخر، أن السادة وذوي المكانة يفعلون ما فعل المشار إليه. وقد زاد فِي الطنبور نغماً كما يقول أهل قونية والجبل، حين انتزع الآغا سلاحه وأرسله إلى أحد الخصيان، فماذا يكون الرجل دون سلاح، والقائد بلا جناح؟ ومهما بلغ الحب والتقدير، والإيثار والغلبة، فإن الإنسان لا يتخلى عن اسمه أو أهله، كما لا يتخلى عن دينه ونسبه، وفعلة الآغا تحظى بالتبخيس وعدم التقدير، وتتسم بالخفة وغياب التدبير. كان يمكن أن يأمر له بسلاح، أيّ سلاح، وأن يعطي ويزيد، لكن سلاحه الخاص، بيضة مجده وعنوانه ليوم الخلاص، فلا يفعلها إلا طفيف العقل، حارق الأرض والنسل، والعاق الملة والأمل. اللهم نج المؤمنين. أما بخصوص النسوة فاترك لغيري الكلام.

وأترك لنباهة والينا أن يرى أحسن الرؤيا، وأن يصل إلى سداد المقصود. خادمكم، ناطق قزويني.

نادر أفندي لم يدعَ للحفل، وما كان ليذهب حتى لو دعي، ومع ذلك، تلك الليلة لم ينم! بذل جهداً كبيراً كي ينام، استجدى وسادته مرات عديدة وهو يحاول أن يستدرج النوم، لكن النوم جفاه. قرأ عدة سور قصيرة مِنْ القرآن، علها تدخل السكينة إلى قلبه وتجعله يغفو، لكن بعض الكلمات فِي تلك السور أقلقته وأبعدت النوم عن عينيه أكثر. قرأ سورة ياسين ثلاث مرات، وبعدها آية الكرسي سبع مرات، لكن النوم يبتعد أكثر فأكثر. نهض مِنْ فراشه، أخرج مفتاح القاصة الداخلية وفتحها. كان المبلغ الأخير الذي دفعه لسيد عليوي مِنْ هذه القاصة. نظر إلى النقود وداخله الحزن: «إذ لو كانت تلك الليرات موجودة الآن، فِي مكانها مع أخواتها» أحس أنّه تعيس وأنه محارب. لا أحد فِي هذا العالم يفهمه ويقدر أعماله. ماذا لو كان إنسان آخر فِي مكانه؟ هل يمكن لداود، أو أيّ باشا آخر، أن يستمر؟ ولماذا يتعاملون مع النقود بهذا الشكل؟ إنهم يدمرونها، يدوسون عليها كما يدوسون على التراب. ألا يعرفون أنها نعمة ويجب أن تعامل كما أمر الله؟ وهذا الخنزير، عليوي، لماذا يعاديه وينظر إليه هكذا؟ إنّه لا يفهمه أبداً، ولولا الباشا وحمايته

لفَتَك به، لجعله عبرة لكل مِنْ يأتي إلى مثل هذا المنصب. أغلق القاصة بعنف، وهو يقول بصوت عالٍ: «بجهنم، بالقير، خلهم بعدي ياكلون أصابعهم ندامة!».

كان أول الواصلين إلى السراي، بعد انتهاء الحفلة: بدري، تمنى لو أن الخصومة لم تقع بينهما، إذن لاستطاع أن يستوقفه ويسأله عما فعل الظالم: عليوي. كم مِنْ الخراف ذبح، وكيف تكومت رؤوس الذبائح فوق تلال التمن لا تؤكل، وإنما ليفاخر بها أمام الضيوف. وكيف.. وكيف. إنّه يعرف طريقة عليوي فِي التصرف، حتى الباشا لا يفعل مثله، لكن بدري، بعد ذلك الفصل، بعد تلك الكلمات، لا يمكن أن يُقارَب. صحيح انه عفا عنه وسامحه، لكن المرارة التي يحسها تجاهه تمنعه مِنْ سؤاله الآن.

وجاء ناطق وهاشم معاً، جاءا فِي عربة واحدة، لكن عربة أخرى كانت وراءها. وَد لو أنّه يخرج إليهما، ليعرف منهما ماذا حصل فِي تلك الحفلة، لكن فجأة وجد أن الدم يرتفع فِي رأسه: لماذا عربتان؟ لماذا يحبان الإسراف هكذا؟ وهل يختلفان عن عليوي؟ ولو كانا فِي موقفه ألا يفعلان مثله؟ وتذكر هاشم أفندي حين جاءه قبل أيام، ومعه خلف، ليضغط عليه مِنْ أجل أن يدفع للشيوخ. قال لنفسه، وهو يطفىء النور، ويحاول، مِنْ جديد، أن ينام: «وجوه نعاج وقلوب ذياب، كلهم هالشكل، لكن واحد محصل، إيده واصلة، والثاني ينتظر، وما يندري شيسوي إذا وصل!».

معاون القنصل، المستر هايني، لم يتردد فِي قبول دعوة سيد عليوي. كان على المائدة الرئيسية بين كبار المدعوين. أما القنصل ذاته فقد اعتذر، نظراً لانشغاله بأمور لا تحتمل التأجيل.

كان معاون القنصل، وهو يلبي الدعوة، لا يصدر عن القيام بالواجب فقط، ولا عن الرغبة بتوثيق العلاقات مع علية القوم والمسؤولين، خاصة العسكريين، فقط، إذ بالإضافة لهذين السببين، فإن أحد رهاناته الأساسية أن يكتب، ليس مجرد ذكريات عن إقامته فِي بغداد، وإنما دراسة عن طبيعة هذا المجتمع: كيف يفكر الناس؛ كيف يتصرفون؛ ما تأثير الطقس على تكوينهم العقلي والنفسي؛ وما تأثير الدين والمذهب فِي هذا التكوين؛ ثم ما هي العلاقة بين السكان الحاليين وأجدادهم القدامى، والأكثر قدماً، إن كانت هناك أية علاقة؛ وهل تعتبر البداوة إحدى الصفات الثابتة فِي هذا المجتمع أو مرحلة مِنْ مراحل تطوره؛ ثم الحزن الذي يبدأ مِنْ ملابس النساء ويمتد إلى كُلّ تفصيل فِي حياتهم، والذي يتبدى أكثر ما يتبدى فِي الغناء، لماذا يسيطر عليهم؟ وهل يتمتعون به، أم يعتبر ظاهرة عابرة، مؤقتة، ونتيجة هذه المرحلة فقط؟

كانت لدى هايني أسئلة كثيرة، ولم يتوصل بعد إلى أجوبة يطمئن إليها، وهذا ما يدفعه، فِي أحيان كثيرة، إلى الإلحاح فِي السؤال، ومراقبة الظواهر والمناسبات، وزيارة المناطق ثم المقارنة بينها. كما جعله يعتمد قاعدة لا يحيد عنها أبداً: لا ترفض دعوة، ولا تمل مِنْ سماع الآخرين، ولا تتعب مِنْ السؤال، إذ ربما يكون الإنسان بحاجة إلى مفتاح صغير كي يفتح بوابة الأسرار، ويدخل إلى عالم مليء بكل شيء عجيب! إذا كانت عادة هايني أن يصف أولاً، ثم يرتب الوقائع بعد ذلك، ويجري المقارنة، تمهيداً لاستنتاج شيء ما، فإن تلك الساعة التي يقضيها أغلب الأحيان مع ريتش، صباح كُلّ يوم، تجعله يتألق، خاصة فِي العرض، وكأنه، فِي هذه المرحلة، يبدأ الكتابة التجريبية، وإن يكن على سطح الماء، أو على ذرات الهواء، حتى إذا اطمئن، لجأ إلى تدوين الملاحظات، وغالباً ما تكون تلك الملاحظات، مع أشياء أخرى، مادة التقرير الذي يرسل ريتش منه ثلاث نسخ، الأولى إلى اسطنبول، إلى سفارته هناك؛ والثانية إلى لندن، إلى وزارة المستعمرات؛ والثالثة إلى البصرة ليكون فِي البريد الذاهب شرقاً، إلى الهند.

فِي اليوم التالي للحفلة، وخلافاً للعادة، جاء هايني إلى دار القنصلية متأخراً، فقد كان بحاجة إلى ساعات نوم إضافية، كي يعوض سهر الليلة السابقة، ولأنه يريد أن يرتب أفكاره بعد أن شهد هذا الكم مِنْ البشر والأحداث. قال لريتش، وهو يهز رأسه ويده معاً، دلالة أنّه سمع ورأى الكثير:

- سنلتقي أول المساء، لأن لدي الكثير لأقوله...

ابتسم بسخرية وهو يُضيف:

- لكن أريد أولاً أن أصفي ذاكرتي مِنْ تأثير خمر هذه البلاد!

- هذا معناه أن نؤجل الحديث لمدة أسبوع، لأن خمرهم له بداية، لكنه لا ينتهي، إنّه أكثر تأثيراً مِنْ مادة الرصاص!

- ومع ذلك لدي ما أقوله هذا المساء.

وفِي المساء بدأ يتحدث:

«... أكاد لا أصدق. فإذا تجاوزنا الأمور الكثيرة التي نعرفها عن هؤلاء البشر، فإن ليلة أمس جعلتني أفكر بشكل جديد، وربما مختلف عن السابق. بعد هذا الكم الهائل مِنْ المجاملات، الأقرب إلى النفاق، وما كادت تمضي نصف ساعة، ونحن على المائدة الرئيسية، حتى تغير الجو تماماً: فالكأس الثاني، بالنسبة لهؤلاء، بداية التحول ثم الانهيار، تماماً مثل انهيار السدود التي يبنونها فِي وجه الفيضان. إذ بمقدار الثقة بالنفس، والتي تكاد تصل إلى حدود الغرور، فجأة يتحولون إلى أناس ضعفاء، مسالمين، أقرب إلى

الفجاجة الصبيانية، أو يصبحون عدوانيين مستفزين، ويمكن لكلمة أو تصرف أن يخرجهم عن طورهم، وقد يرتكبون الحماقات.

«الخمر، بالنسبة لهم، نقطة الضعف الأولى. إنهم يشربون لا لكي يرفهوا عن أنفسهم، وإنما لكي ينسوا! وليخرجوا مِنْ تأثير الضغوط والاعتبارات التي كثيراً ما يلتزمون بها فِي ساعات الصحر. وهم يشربون بإسراف وبسرعة وكأنهم يريدون الدخول فِي حالة مِنْ الغيبوبة، وهذه الحالة تظهرهم على حقيقتهم: أطفال بجثث كبيرة؛ لذلك لا يترددون فِي أن يقولوا أيّ شيء، وهم يميلون إلى المبالغة حتى الحد الأقصى، وبإعطاء الوعود التي لا يتذكرونها، وبإظهار شجاعة استثنائية، كما يصبحون شديدي الحساسية لأية كلمة ولأي تصرف، وربما تبدر مِنْ كثيرين تصرفات ما كانوا ليجرؤوا على إظهار ولو قسم ضئيل منها، إذ فِي حالات الصحو يكونون بالغي الصراحة فِي الكلام والتصرف، لكن وراء ذلك يخفون هشاشة استثنائية».

«لقد رأيت أمس مشاهد ربما لا تتاح إلا فِي حالات نادرة: مهيوب المدلل الذي يعتبر مِنْ أسرة محافظة، ويدعي التدين أيضاً، ما كاد يستلطف إحدى الراقصات، وقد عبر عن ذلك بصوت عالٍ، وأيضاً بدق أصبعتين، حسب التعبير الشائع الذي يستعملونه، وما أن انتهت تلك الراقصة مِنْ إحدى الوصلات، حتى كرع كأسين متتاليين، وكأنه يريد أن ينيم آخر الوعي العالق فِي ذاكرته، ليبدأ دوراً جديداً: وقف وأخذ يجاري الراقصة، بطريقة الرجال، طالباً منها أن تجود وتتألق، ومع كُلّ حركة منها يزداد انفعالاً، إلى أن رمي كشيدته فِي الهواء.

قال بعض الذين كانوا أقل سكراً منه: «ستكلفه هذه الحركات ثمناً غالياً». وحين سألتهم أن يوضحوا أكثر، ردوا: «انتظر وسترى».

أما بدري، أحد مرافقي الوالي، فظل متوازناً رصيناً إلى أن جاءت راقصة أخرى. وفِي الوقت الذي يفترض أن لا يشارك الآخرين الشراب، وإن اضطر للتظاهر بمسايرتهم، لأن مِنْ واجبه أن ينقل ما رأي، والجميع يعرف أنّه عين الوالي، فقد انخرط باللعبة تماماً، إذ أخذ يصفق برعونة كي يجلب نظر الراقصة، وكان يرسل إليها، عبر الهواء، كلماته وعواطفه بشكل ملفت، ولقد رأيت سيد عليوي يغمز أحد رجاله لافتاً نظره إلى تصرفات «عين الباشا».

«إنهم يشربون هذا المقدار مِنْ الخمر، وبسرعة، كي يصلوا إلى اللحظة التي تجعلهم يتجاوزون خوفهم وضعفهم تجاه الجنس، إذ فِي صحوهم يبدون محافظين ومملوئين خجلاً تجاه المرأة، فما أن تلعب الخمرة برؤوسهم حتى يتخطوا الخوف، ويتحول ضعفهم إلى جرأة أقرب إلى التهور والتهتك،

ويعبرون عن ذلك بالكثير مِنْ التفاخر والمباهاة، وكأنهم كانوا ينتظرون مثل تلك اللحظة ليظهروا على حقيقتهم.

الجنس بالنسبة لهم شيء مقدس. شيء ضروري لبقائهم، ويبالغون إلى درجة تستدعي التفكير والتساؤل. يفعلون ذلك ليس بدافع الحرمان، وإنما نتيجة أسباب أخرى تبدو لي غامضة مِنْ بعض الجوانب. ربما يحاربون الموت بهذه الطريقة، وربما يريدون مقاومة الفناء، أو كأنهم وهم يلتحمون يعبرون عن قناعة أكيدة أنهم يتركون وراءهم شيئاً. وقد يفعلون ذلك، وهو مجرد احتمال، بدافع الانتقام، إذ يتوهمون أنهم اخترقوا شيئاً ما، أو وصلوا إلى شيء مقدس يفتقدونه فِي الأحوال العادية. لا أدري أيفعلون ذلك نتيجة الغيظ، أو كتعويض عن عجزهم فِي فعل أمور أخرى يتمنونها فِي الواقع لكن لا يستطيعون تحقيقها؟

لو أن رساماً قدر له أن يشهد ما شهدته أمس، وتمكن مِنْ تسجيل هذه الحالات، لقدم لنا لوحات لا يمكن أن تغيب مِنْ الذاكرة: كانت شفاههم تتدلى، كانت أصابع أيديهم تفرك، وكانت أجسادهم مهتاجة، محتقنة. أكثر مِنْ ذلك رأيت حركات الرجال، حتى الخفية منها، وكأنها رسائل موجهة إلى الطرف الآخر مِنْ القاعة، قدر ما هي موجهة إلى اللواتي يرقصن.

أما عندما اختلستُ النظرات إلى النسوة، فقد رأيت عدداً منهن ـ بمقدار ما أتاحت لي الرؤية ـ أكثر شهوة واستجابة مِنْ المعتاد، حتى لو تظاهرن عكس ذلك!

والأمر الثالث الذي أدهشني أمس: طريقتهم فِي التعامل مع الغناء. أعرف مدى الحزن الذي يكتنزون به، والذي يغلفهم مِنْ قمة الرأس إلى أسفل القدمين، لكن لم أتصور رجالاً يبكون وتتساقط دموعهم بصمت ولا يخجلون مِنْ ذلك.

كان المغني ملكاً سيطر عليهم إلى درجة الإذلال. كان يبكيهم ويفرحهم، يجعلهم يحزنون إلى درجة أن الرجل الوقور فيهم، المالك زمام نفسه، والصاحي فِي جوقة السكارى، لا يستطيع أن يكتم الشجن الذي يجتاحه كالعاصفة، إذ يغيب عن كُلّ ما حوله، يسلم نفسه للصوت والذكريات، وكأنه يعيش فِي عالم آخر!

فإذا تعب هذا الملك مِنْ الحزن، وأراد أن يوقفه، فإنه كالساحر يفعل ذلك. إذ ما يكاد يدندن بلحن جديد، حتى ينقلب الجو كله، وأولئك الذين كانوا غارقين فِي لجة الحزن، يتحولون فجأة إلى بشر مِنْ نوع آخر، يهزجون ويرقصون، ولا يترددون فِي أن يغنوا معه، رغم النشاز الذي يتولد مِنْ هذه المشاركة!

قد لا نستطيع، نحن الغربيين، التمييز بدقة بين لحن وآخر، نظراً لتشابهها ورتابتها، لكنهم، مثل الكلاب أو القطط، يملكون حواساً تجعلهم قادرين على التقاط أكثر الألحان خفاء، أشدها إيغالاً فِي البدائية والرتابة. ربما الكلمات التي يغنيها المطرب، أو كلمات أخرى تلائمهم، وقد يخترعونها فِي اللحظة، ما يساعدهم على توهم عالم خاص بهم، مما يدفعهم لاستباق قيامه، وكأنهم يحرضون المغني ويحرضون أنفسهم مِنْ أجل خلق هذا العالم.» كان نائب القنصل يتكلم مع ريتش، وكأنه مِنْ خلاله يوجه الكلام لجمهرة واسعة مِنْ مواطنيه، متحدثاً عن أحوال هذا الشعب ومزاجه، ما يثيره وما يحزنه. وإذا كانت هذه عادة مستر هايني، فإنه مأخوذ بما يجب أن يكتبه ذات يوم عن طبيعة شعب وعاداته مختلفٍ تماماً عن شعوب أخرى، وهذا ما يميزه عن غيره. ولا بد أن يُضيف إلى ذلك كماً كبيراً مِنْ الجوانب الأخرى فِي هذا الشعب، الذي يحاول أن يدرسه كظاهرة للشعوب التي تعتبر فِي مرحلة الطفولة، ولا تزال تعيش بغرائزها وعواطفها، ولم تصل بعد إلى اعتماد العقل ومنجزات العلم والكشوف الحديثة فِي حياتها وسلوكها، إذ ما تزال أسيرة للماضي والتربية الخاطئة، هذا عدا عن بعدها عن الاحتكاك بالشعوب الأخرى والحضارات المختلفة، مما يبقيها غارقة فِي ظلام العصور القديمة.

نائلة خاتون كانت تسمع الكثير مِنْ الهمس الذي يجري فِي السراي، لكن دون اهتمام كبير، خلافاً لباقي نساء السراي. ففي الوقت الذي كانت النسوة الأخريات يدفعن للخدم والخصيان والحراس عطايا كبيرة مِنْ أجل الحصول على تفاصيل جديدة، وينشغلن بهذه التفاصيل، وتفاخر الواحدة بمقدار وغرابة ما تعرف، كانت نائلة خاتون مشغولة بأمر آخر: روجينا، التي دبرت ورتبت، كُلّ شيء: الرقص والغناء، وأشرفت على وضع أسماء المدعوين، لماذا لم تظهر فِي هذه الحفلة؟

لقد عرفت نائلة خاتون أن روجينا وراء هذه الترتيبات مِنْ شريفة دلي، التي تقرأ لها الطالع مرتين فِي الأسبوع: الاثنين والخميس.

وإذا كانت شريفة قد أشارت مجرد إشارة إلى دور روجينا فِي حفلة القلعة، فقد طلبت منها نائلة خاتون أن توافيها بمعلومات أدق، وأكدت لها أنها ستكرمها لقاء ذلك.

قالت لها يوم الخميس، وجاءت أبكر مِنْ العادة:

- عرفت كُلّ شيء، خاتون. سيد عليوي مثل محبس بإيدها. تقول له مِنْ زين يقول فلان زين. تقول له فلان يبغضك وما يريدك، يصير فلان بقدرة قادر مثل ابن الضره أو أنجس.

- وبعد.. شريفة، شنو سمعت؟

ـ سِمعت، خاتون، إنّه يريد يستقعدها...

وابتسمت قليلاً، وهي تضيف:

- وكُلّ يوم والثاني متخم عليها، وعندها ينام ويقوم!

وحكت أشياء أخرى، وأقسمت أن كُلّ كلمة قالتها صحيحة ودقيقة، وقد أسرَت لها نجمة بذلك، وطلبت منها أن تجد لها مكاناً يمكن أن تلجأ إليه.

قالت نائلة خاتون للباشا:

-... ويقولون، يا أفندينا، إن الآغا ما يخالف لروجينا شور، وكلمتها عنده ما تصير ثنتين!

- لا تصدقي، خاتون. الآغا خوش ولد ويفتهم!

- إسمعني ولا تصدقني، يا أفندينا، بس هذا الحجي اللي سمعته بأذني ومن ناس يعرفون كلش زين!

- لا تصدقي، يا معودة، كله قال عن قيل!

- وداعتك، وتعرف شقد غلاتك عندي يا أفندينا، روجينا حافرة للآغا نوجه ولا بد يوقع بيها...

وبعد قليل، وهي تتنهد:

- زين، اللي تشوفه، لكن يروح يوم ويجي الثاني، وراح تشوف بعينك!

- لا تديرين بال يا معودة...

وأضاف بلهجة لا تكاد تُسمع:

- ما عايزة إلا هذي: القحاب مِنْ اللي يحكمن ويرسمن!

والتفت إلى ناحية النهر وتابع بصوت مسموع، وكأنه يخاطب المياه:

- سوف تسمعين.. وربما تشهدين الكثير الكثير فِي قابل الأيام!

منذ أن وصل ريتش إلى بغداد، وهو لا يكف عن التساؤل والتفكير لفهم طبيعة البلد والناس. كان يصل، بعض الأحيان، إلى إجابات تقنعه، وربما ترضيه، لكن ما إن يحاول وضعها فِي سياق حتى يجد أن تلك الإجابات تشكل الاستثناء لا القاعدة، لأن عشرات الشواهد الأخرى تنقضها، بحيث تبدو وكأنها وجدت فِي اللحظة، أو انبثقت فجأة، دون مقدمات توحي بإمكانية حصولها، دون أن تكون لها صلة بما قبلها.

فحين يجري الحديث عن نشوء الحضارات، مثلاً، يستغرب أن الحضارة البشرية الأولى نشأت فِي هذه البقعة. ويتساءل هل إن الذين يراهم الآن هم أحفاد أولئك الذين أقاموا الحضارات؟ ثم ما هي الصلة بين ما يراه الآن وذاك الذي كان فِي يوم مِنْ الأيام؟

كانت تخطر بباله مثل تلك الأسئلة، لأن القاعدة التي تنطبق على الأماكن والحضارات الأخرى، أيّ حين يختار الإنسان مكاناً، ليقيم حضارة، فلا بد أن تتوفر مجموعة مِنْ الشروط الملائمة، الأمر الذي يوحي أنها توفرت هنا فِي وقت مِنْ الأوقات. فالناس لا يبدون أنهم قابلون لأي نوع مِنْ التعلم، يولدون ويموتون بنفس المعارف والقناعات، وغير مستعدين لتغيير شيء أو إضافة شيء آخر. كما ليس لديهم الرغبة، أو ما يطلق عليه فِي الأماكن الأخرى: الشوق، لاكتشاف الجديد، وأيضاً، وربما هذا أهم الأشياء، أن الناس هنا لا يملكون حساً بالزمن.

أما الطقس، كما تبدي لريتش، فبالغ الصعوبة صيفاً وشتاء، وحتى ما يمكن اعتباره طقساً معتدلاً خلال فصلي الربيع والخريف، فإن القدر يتدخل غالباً ليجعله غير ذلك!

أيام الربيع، والتي تمتد مِنْ منتصف آذار حتى منتصف أيار، ويفترض أنها أجمل أيام السنة، ما يكاد الإنسان ينفض عن كتفيه ملابس الشتاء الثقيلة، ويتهيأ لاستقبال الدفء والزهر وانتقال الطبيعة، حتى تدهمه اللزوجة، إذ يعبق الجو ببخار وهو مزيج مِنْ رائحة العفونة والغبار والرطوبة، بحيث تتولد فِي الجسد حالة مِنْ الرخاوة والخدر تشبه تأثير الخمرة الرديئة، ويظل الأمر كذلك إلى أن يهبط الظلام، فيصبح الجو متسامحاً وأكثر رحمة، حين تنسحب تلك الرائحة، لكن لتعاود، وبقوة أكبر، فِي اليوم التالي.

لا يقتصر الحال على مظاهر الطبيعة والمناخ، فالنهر الذي كان مستسلماً وديعاً طوال أيام الشتاء، والذي لا يعتكر إلا قليلاً بتأثير الأمطار القليلة التي تسقط؛ هذا النهر لا يلبث أن يصبح شيئاً آخر فِي بداية الربيع: ترتفع مياهه،

تعتكر، يتسع مجراه، ويزداد تدفق الوحول فيه، وهذه كلها مجرد علامات تعلن عن الأيام الصعبة التي ستأتي.

فالربيع، أيّ ربيع، قلما يمضي دون أن يخلف جروحاً عميقة فِي الجسد والروح. وإذا كانت الأنهار فِي جميع بقاع الأرض تلتحم بما حولها، وتعبِر بالإيقاع ذاته عما يتردد فِي الطبيعة، فإن لهذا النهر إيقاعاً مختلفاً ومزاجاً مغايراً. إذ ما تكاد الأنهار فِي الأماكن الأخرى تهدأ بعد أمطار الشتاء، ويستعيد الماء لونه فيها، وما يكاد الإنسان يتمالك نفسه ويسيطر عليها مِنْ جديد، ويعاود ترويضها كي تكون مصدر حياة له، كما يحصل فِي كُلّ مكان، فإن نهري العراق يفاجئان الإنسان.

فالسماء الصافية، الشديدة الزرقة، والدفء الذي يسري فِي جسد الأرض، والزروع التي نهضت مِنْ غفوة الشتاء واستطالت بأوراقها الجديدة ونسغها الفوار، والحياة التي تفتحت لاستقبال أيام الخصب... ما يكاد هذا يظهر حتى يعربد النهران، ثم يهجمان بجنون وحشي، ليغيرا ويمزِقا الطبيعة والبشر.

لقد تكرر الفيضان منذ وصول ريتش وحتى الآن كُلّ ربيع. والفيضان لا يعني مجرد زيادة فِي مياه النهر يمكن أن تجرف فِي طريقها بعض الجذوع اليابسة، وبقايا الأشياء التي خلفها أو نسيها الإنسان طوال فترة انحسار المياه. الفيضان هنا يعني تدمير كُلّ شيء. إذ تعلو المياه وتعلو حتى تغمر أعالي الأشجار، والفيضان هنا يعني أن يجرف النهر فِي جريانه المجنون الزروع والحيوانات والبيوت، ولا يوفر أيضاً الكثير مِنْ البشر.

يتكرر الفيضان ربيعاً بعد ربيع، وتتطاول أيام الغمر حتى ليظن الإنسان أن اليابسة لن تظهر مرة أخرى، وأن المياه التي ارتفعت واتسعت بهذا المقدار ستبقى هنا إلى الأبد، فيهرب الناس ملتجئين إلى الأماكن العالية، وإلى سطوح المنازل، تاركين وراءهم كُلّ شيء، لا يريدون سوى النجاة بأرواحهم.

هذا الزحف المائي الذي يأتي مِنْ بعيد، دون إنذار سابق، لا يعرف الناس كيف يتعاملون معه، كيف يتقونه. فالوسائل البدائية التي يلجؤون إليها، ليس مِنْ شأنها إلا أن تعطي البعض منهم فرصة للهرب، لأن الأشياء التي يضعونها فِي وجه الماء بائسة ضعيفة، إذ لا تتعدى سدوداً مِنْ الحصير والتربة لا تقوى إلا على ردَّ الموجات الأولى. أما بعد أن تتقدم المياه وتتوالى الأمواج ثم ترتفع وترتفع، فإن الدعاء يصبح السلاح الوحيد فِي محاولة يائسة للوقوف فِي وجه الفيضان المجنون. ترتفع الأدعية وتعلو، بحيث تصبح أقرب إلى التوسل، أو ربما تشبه الاحتجاج، ويظن هؤلاء الناس أنهم كلما رفعوا أصواتهم بالدعاء، وكلما زادوا فيه، كانوا أقدر على ردَّ المياه، وكانوا بمنجى مِنْ خطر الغرق. لكن الموج لا يبالي، ولا يسمع، فيتواصل هديره، وتتزايد

ضحاياه، حتى إذا تعب الإنسان فالفيضان لا يتعب ولا يتوقف، جارفاً كُلّ ما هو قائم، وكُلّ ما هو عنيد، بحيث يتحول الإنسان إلى مخلوق ضعيف ليس لديه سوى الدموع وسيلة للدفاع. وكلمات ندب بائسة، لا تلبث أن تتحول إلى مجرد أصوات.

فيضان النهرين، الذي لم يتوقف منذ بدء الخليقة، أو ربما كان هو اصل الخليقة، جعل حتى الربيع فِي هذا المكان حزيناً ذاوياً. فالأيام التي تسبق الفيضان، والتي تعربد فيها الطبيعة تعبيراً عما تختزنه فِي داخلها مِنْ قوى وشهوات، لا تلبث أن تتلاشى مِنْ الوجود ومن الذاكرة، بعد أن تتدافع كتل المياه المجنونة، مخلفة وراءها الدمار أولاً، ثم الوباء الذي يليه.

فما إن تتخافت اندفاعات المياه المجنونة، ويهدأ اصطخاب الموج، ثم يعود النهر إلى مجراه، حتى تتخلف فِي كُلّ مكان البرك. تكون أول الأمر متصلة واسعة، ثم تصبح متباعدة، معزولة، وداخلها بقايا الأشياء: الحيوانات النافقة، الأغصان، الخرق، الأجسام الصلبة مِنْ قدور وأواني ومخلفات أخرى. وما أن تُصلي الشمس هذه البرك بأشعتها الحادة النافذة حتى تفقد لونها البني المائل إلى الحمرة لتصبح خضراء ثم خضراء قاتمة. لتتحول إلى الدكنة، وتعلوها بقع صغيرة أقل خضرة، وهذه تحتضن ملايين ملايين البيوض لتلك الحشرة التي تخرش الذاكرة، وتجعل ليل الناس أقرب إلى الجحيم!

إنها الملاريا... هذا الوباء الذي يأكل الإنسان ببطء ويعذِبه، قبل أن يجعله مثل الشبح: ذابلاً، مترنحاً، وقد تداخلت فِي ذاكرته الأشياء والأسماء. ومن لا تقضي عليه الملاريا لا يشفى منها أبداً، إذ تعاوده مرة بعد أخرى، كلما لاح مرض، وكلما ضعفت مقاومة الجسد.

هذه السنة جاء الفيضان أيضاً، لكنه جاء متردداً خجولاً. فارتفاعات النهر التي توالت مرة بعد أخرى لم تصل إلى حدود الخطر، إذ جاءت متباعدة، ثم تراجعت إلى أن هدأت، دون أن تترك آثاراً مدمرة. وقد فسَر الناس الأمر بالطالع الخير للوالي، وأن أيام الخير لا بد أن تتوالى، وقد تزيد، وفِي ذلك تعبير عن رضى السماء، بعد أن رحل سعيد ورجاله وجاء داود! ليس ذلك فقط بل إن رجال الوالي الجديد لا يكفون لحظة واحدة عن تذكير الناس بالخير الذي ينتظر الجميع، لأن السماء حين ترضى تعطي دون حدود، وما الضيق الذي أصاب البلاد والعباد فِي فترة سعيد سوى إنذار السماء للناس أن الفساد قد طغي، والظلم قد استشرى ولا بد مِنْ عقاب!

«الآن وقد قُضي على الفساد والمفسدين، فقد جاء الخير فِي ركاب والينا داود.» قال ذلك رجال الوالي، وقاله أئمة المساجد والمخاتير، وقاله بعض رجال السوق، لكن لم يكونوا متأكدين، إذ كانوا يعبِرون عن رغباتهم أكثر مما يعبِرون عن واقع جديد!

إذا كان هذا حال الربيع فِي هذه البلاد، وهو أجمل الفصول، أو بكلمات أدق أرحمها، فإن الفصول الأخرى لا يمكن الحديث عنها دون أن يصاب الإنسان بالكآبة حتى الوجع، نظراً لما يعانيه خلال تلك الفصول مِنْ أوقات صعبة تصل إلى حدود الإرهاق.

فالصيف يبدأ هنا فِي وقت مبكر، وعلينا ألا نتذكر الأماكن الأخرى، حيث تتميز الفصول وهي تتوالى وتتابع. الصيف فِي هذه البلاد يهجم مثل فيضان النهر: سريعاً جامحاً ودفعة واحدة. إذ ما تكاد نسمات ناعمة تعبر الجو، تعبيراً أن الشتاء ولَي، وجاءت أيام أكثر منه رحمة، حتى تتبعها خلال أيام قليلة لفحات كاوية، وهي الإنذار الأول أن الصيف يؤذن بالوصول.

يبدأ الصيف مِنْ مطلع مايو، وكلمة «يبدأ» هي مجازية تماماً، لأن أشعة الشمس لا تتسلل كي تدفيء الأرض ثم الهواء، وبعد ذلك تشيع الحرارة فِي الجو، وإنما تنصب هذه الأشعة كأسلاك النار منذ ساعات الصباح الأولى. فما يكاد الإنسان يفتح عينيه، حتى يحس بالدبق وقد تلبس جسده كله، فيشعر أن فتوراً كالأغلال يتسلل إليه، وما أن ينظر إلى السماء بزرقتها الشاسعة، وامتدادها الذي لا يعرف حداً أو نهاية، إلا ويلفحه حريق ينبع مِنْ كُلّ مكان: مِنْ الهواء، مِنْ طوب البناء، مِنْ ملامسة الأشياء أو مجرد الاقتراب منها. وهذا الحريق لا تلطفه أو تخفف منه السقوف أو الأشجار، ولا حتى المياه، لأن كُلّ شيء يتفاعل ويتحرك استعداداً للدخول فِي هذا الطقس المجنون.

الصيف هنا بداية الموت الحقيقي، أو اللحظة التي تسبق هذا الموت، لأن الوهن إذا استبد يجعل الإنسان عاجزاً عن الحركة، ضعيف الجسد، أقرب إلى الاستسلام. ولعل مِنْ الطريف والمحزن فِي آن معاً، أن يراقب الإنسان الآخرين: كيف يتصرفون، كيف تكون ردود أفعالهم على ما يجري حولهم. أما مراقبة الحيوانات، كالخيل والكلاب والقطط، فإنها تثير فِي النفس حزناً حقيقياً لما تعانيه هذه المخلوقات التي لا تعرف ماذا تفعل لمواجهة الحريق الذي يطوقها مِنْ كُلّ جانب. وإذا كانت الحيوانات الصغيرة أكثر قدرة على التصرف، إذ تجد زوايا رطبة، أو أماكن ظليلة تتلاعب فيها نسائم التيارات، فإن الحيوانات الأكبر تعلن يأسها بتصرفات لا تخفي!

أما الطيور المهاجرة التي وجدت لنفسها حلاً، إذ تذهب إلى الطقس الذي يناسبها حسب فصول السنة، فهذه الطيور الصغيرة التي تتقافز هنا وهناك فِي الصباح الباكر، قبل شروق الشمس، لا تلبث أن تختفي، ولطالما يتساءل الإنسان: لماذا لا تهاجر؟ لماذا تركت الأماكن المعتدلة واختارت أن تبقى فِي هذا الجحيم؟ سؤال يبعث على الحيرة، وليس له أيّ جواب منطقي!

حتى تذكر أيام الشتاء الباردة، لعلها توحي، نفسياً، ببعض البرودة أو التوازن، لا تغير أبداً فِي مواجهة هذا الطوفان الذي لا ينتهي مِنْ الحرارة.

ولئلا يبقي ريتش فِي إطار التأملات والتساؤل، ولأنه منذور لمهمة كبيرة، فقد وجد حلولاً لهذا الوضع. «لا يمكن التغلب على العذاب الذي يواجه الإنسان فِي هذه البلاد إلا بالعمل». هكذا كان يقول لنفسه بتحدٍ، وهو يضع لائحة بالأعمال التي عليه إنجازها. «فالإنسان مِنْ أقدر المخلوقات على التكيف، خاصة إذا كانت لديه العزيمة ولديه هدف يريد الوصول إليه، وبلاد مثل هذه لا بد أن تُكتشف بدقة، وأن تُدرس، خاصة وأنها لا تزال مجهولة لمواطنينا. حتى المعلومات التي يعرفونها عنها مشوشة متداخلة بحيث لا تمكن أيّ سياسي أو مسؤول مِنْ وضع تصور لما يجب أن تكون علاقتنا بها. أما لو أراد قائد عسكري بريطاني أن يقود جنوده ليسيطر على هذه البلاد فالأرجح أن يضيع، قبل أن يصل إلى هدفه، فِي مستنقعاتها وصحاريها ووديانها، لأننا لا نملك أية خرائط حول تضاريسها. ومعرفتنا بالناس لا تتعدى معرفة سائح تتراءى له الأشكال واحدة أو متشابهة».

وحين تذكر الآخرين الذين ينافسون البريطانيين، ولما مرت بذهنه صورة القنصل الفرنسي، دانييل، الذي كان فِي بغداد يوم وصوله، وكيف كان يملي على الوالي ليس الطلبات وإنما الأوامر. قال لنفسه بصوت عال:

- لن تعود مثل تلك الأيام ما دمت حياً، وما دمت موجوداً هنا!

واستدعى أحد مترجمي المقيمية، استدعى جوزيف ديراني، قال له وهو يؤكد على مخارج الكلمات:

- إذهب مِنْ فورك إلى السراي، وبلغ نائب الوالي أن الدكتور رايت سوف يقوم بزيارة البصرة، وعليهم أن يشعروا رجال الأبواب والطريق بذلك، لتأمين ما يلزم مِنْ استقبال وعناية واهتمام وتوفير الراحة له فِي سفره...

وبعد قليل وكأنه تذكر:

ـ لا أريد أن أوصيك بضرورة التقليل، ما أمكن، مِنْ الإجابة على اسئلتهم، إنهم ثرثارون وأغبياء، إذ يفسرون أية كلمة تصدر عنا بطريقتهم الخاصة، ويفهمون الأمور على غير حقيقتها.

كاد يسترسل أكثر، لكن حين التقت عيناه بعيني جوزيف، وكانت ابتسامة صغيرة ترتسم على وجه المترجم، وكأنها تؤكد أن لا حاجة لمثل هذه التوصيات التي يعرفها جيداً، وقد سمعها مِنْ قبل مرات كثيرة، قال لينتهي مِنْ هذا العمل:

- ولا تنسَ أن تذكر أن سعادة القنصل يبلغ تحياته إلى «أفندينا» وحين هم جوزيف ديراني بمغادرة الغرفة، أضاف ريتش، وكانت كلماته لا تخلو مِنْ سخرية:

- ولا مانع أن تبلغ نائب الوالي تحياتي!

مثل هذه المهمة، فِي وقت سابق، كان يقوم بها القنصل نفسه؛ صحيح أنها كانت تتم فِي السياق، أثناء الزيارة، وكأنها إحدى مفردات الزيارة وليس هدفها. أما بعد ان مرت السنوات، وأصبح ريتش أكثر معرفة بعقلية الولاة والمسؤولين فِي السراي، فلم يعد ميالاً إلى المجاملات أو إلى الثرثرة. أكثر مِنْ ذلك يعتبر أن وقته أثمن مِنْ أن يبدده فِي مثل هذه المهمات التي كانت تسبب له نوعاً مِنْ التوتر تتضح آثاره بسرعة بذلك الصداع الذي غالباً ما يلازمه أثناء الزيارة، ويستمر بعدها. أصبح الآن يكلف أحد رجاله، وقد تعود السراي على ذلك، واعترف به كأمر واقع، خاصة وأن داود باشا بدا فِي مرات عديدة أقل مجاملة ممن سبقوه فِي التعامل مع القنصلية ورجالها.

كان ريتش يعتبر أن أفضل وسيلة لإقناع الوالي الجديد، وتالياً حمله على الموافقة، أن تشعره، دون أن تجرح، بوجود أوراق كثيرة قوية لديك، وإنك قوي بما فيه الكفاية، ولذلك فأنت تطلب، لا تترجي أو تلتمس، «لأن هؤلاء الشرقيين يفهمون التواضع على أنّه ضعف، ويعتبرون التهذيب وسيلة للخداع، ومن الخطأ أن تشعرهم بذلك. إذهب إلى الهدف مباشرة، ومن الضروري أن تستعمل كلمات لا تحتمل الخطأ أو التأويل، خاصة وقد أصبحوا يدركون جيداً ماذا تعني بريطانيا العظمى».

وهو يستعرض هذه الصور، كان يستعيد شريط حياته فِي هذا البلد، وكيف استطاع، لأنه ممثل دولة عظمى، ولأنه أصبح أكثر دراية بتصورات الناس، بمن فيهم الولاة، أن يضع قواعد للسلوك، ويحمل الآخرين على الاستجابة لكل ما يريد.

«ابتعد عن المساومة، لأنها تقود إلى التنازل، وأي تنازل يقود إلى آخر بالضرورة. هؤلاء الشرقيون كالأطفال يدرسون بالغريزة الطرف الآخر، نقاط ضعفه وقوته، ومن النقاط الضعيفة يدخلون. أما البساطة، أما الصدق، فكثيراً ما يخدعهم، يظنون مثل هذه الصفات دليلاً على العجز أو الضعف، لأنهم لا يعتمدون إلا على ما يرون، ولا يفكرون إلا باليوم الذي يعيشونه.

«ليس ذلك فقط، إذ داود باشا نفسه، والذي يعتبره رجاله مِنْ أذكى الولاة، وكي يقنع الناس بأهميته، إعتبر أن إقامة قصر له يفوق دار المقيمية هو ما يمكنه مِنْ التفوق على القنصل، ولذلك لا يهدأ ليل نهار مِنْ أجل إنجاز هذا البناء بأسرع وقت ممكن. أما البساطة التي كان يتميز بها فِي أيامه الأولى فقد جعلت الكثيرين يخطئون فِي فهمه وتقييمه، وقد أدرك ذلك بسرعة، مما جعله يتصرف فِي الفترة الأخيرة بهذه الطريقة المتعالية، ويسرف إلى أقصى حد بمظاهر الأبهة والترف، ويبدو أنّه يريد أن يقنع ناسه أكثر مما يريد إبلاغي رسائل مِنْ نوع محدد».

وأخذت تتبدى له، مِنْ جديد، صورة داود باشا حين دخل بغداد، وكيف كان رجاله أيضاً. عزا بساطته، فِي البداية، إلى تدينه، وما يفرضه الدين مِنْ تقشف وتواضع، لكن قبل أن تنقضي السنة الأولى تغير كُلّ شيء: الملابس، التصرفات، المعاملة، حتى النظرة تغيرت. أصبح رجال الباشا كالطيور الملونة بهذا الكم الهائل مِنْ الملابس المزركشة التي يرتدونها، وأصبحت الدواوين مثل غرف عيد الميلاد بما تحتويه مِنْ أشياء وألوان، بحيث أن العيون تزوغ والنفَس ينحبس عندما يجد الإنسان نفسه محاطاً بهذا المقدار مِنْ الأشياء المتناقضة. أما العطور التي تُقدم فِي كُلّ زيارة فإنها تثير الغثيان لكثافتها وعدم القدرة على احتمالها، وما يكاد رجال الباشا يرون ابتسامة رضا، أو ربما يتوهمونها، حتى يبالغوا فِي دلق كميات إضافية مِنْ تلك العطور، فإذا جاء دور المباخر، فلا بد أن يُذكر مِنْ أين جيء بتلك المواد، وكيف تخلط، وما يضاف إليها، وكيف يجب أن يتم تحضيرها بعيداً عن ضوء الشمس أو التيارات الهوائية، كي تحتفظ بكثافتها وزكائها!

لقد عانى ريتش الكثير وهو يحاول أن يتعود على الشرق. صحيح أنّه كان يبدي حزماً فِي حالات كثيرة، خاصة فيما يتعلق بالطعام، إذ لم يكن مضطراً لمجاملة الآخرين سواء بالطريقة أو المقادير، لكن هناك أموراً لا يمكن تفاديها، ولقد جلبت له الكثير مِنْ الكدر، ولازمه الصداع لأيام متوالية. ورغم أنّه حاول إلزام الآخرين، حين يقبل دعواتهم، بأمور لم يكن مِنْ السهل قبولها أو الموافقة عليها، إلا أن المزعجات كثيرة، وغالباً ما تبرز فجأة، دون القدرة على منعها، رغم المحاولات التي يبذلها رجاله فِي اللحظات الضرورية، وبعض الأحيان الحاسمة، كأن ينبه، بسرية ظاهرة، أن سعادة القنصل، وبأمر مِنْ طبيبه، لا يستطيع أن يتناول هذا النوع مِنْ الحلويات، أو هذا النوع مِنْ اللحوم، وقد يشيرون إلى أيام الصوم الكبير، كسبب لامتناع القنصل عن تناول بعض المشروبات أو المآكل!

ـ لو قدر لأي خنزير أن يتناول هذه المقادير مِنْ الأطعمة، ومن هذا النوع، لقضي قبل طلوع الفجر...

هكذا كان يقول الدكتور رايت لميناس حين يبلغه بدعوة جديدة لغداء أو عشاء. لا يكتفي بذلك، يُضيف بسخرية حزينة:

ـ كان على سكان هذه البلاد أن يفاوضوا سكان القطب، أن يتم تبادل الأمكنة أو تبادل الأطعمة! أما أن يجتمع الإثنان معاً، وفِي هذا المكان، فإنه الانتحار بذاته، ويمكن أن نطلق عليه الانتحار الصامت، لأن الناس هنا، جميع الناس، يعرفون ذلك ويفعلونه، وكأنهم يتلذذون بتعذيب النفس!

ريتش الذي يشارك الدكتور رايت رأيه، ويحاول، قدر ما يستطيع، اتقاء الأمور الضارة، إلا أن نظرته للتعامل مع الآخرين مختلفة، وقد تكون نابعة

مِنْ موقعه، أو مِنْ المهمة التي نذر نفسه لها. كان يرد على الدكتور رايت، إذا جرى الحديث عن هذا الموضوع:

. غالباً ما يفسر الشرقيون امتناع الضيف عن تناول الطعام معهم بالخشية مِنْ السم، ولذلك تراهم يقدمون الدليل وراء الدليل على أن ما يقدمونه مِنْ طعام أو شراب خالٍ مِنْ الغدر، وهذا ما يجعلهم يتذوقون القهوة قبل أن تقدم إلى الضيف، وأن يأكل كبيرهم مع المدعوين.

كاد ريتش يتابع، ويأتي بأمثلة أخرى، لكن ردَّ الدكتور رايت كان سريعاً وساخراً:

ـ أن يموت الإنسان مِنْ السم فيه الكثير مِنْ الرحمة، لأنه موت سريع، أما أن يموت كُلّ ساعة وكُلّ يوم، ويطول نزعه قبل أن يقضي فعلاً، فهذا هو الموت الذي لا يخلو مِنْ مازوشية، وهو ما يفعله الشرقيون بإصرار، وكأنهم يتلذذون بهذا النوع مِنْ الموت!

ظل ريتش، منذ أن وصل إلى بغداد، يسمع أكثر الهمسات خفاء فِي السراي، حتى تلك التي تجري فِي الغرف الداخلية! كان هناك مِنْ ينقل إليه كُلّ شيء، فِي وضح النهار. وفِي فترات الاضطراب، وأثناء الصراع بين المتنافسين، كان هناك مِنْ ينقل إليه، ليلاً، ما يجري بين هؤلاء المتصارعين. إذ ما تكاد تهدأ الحركة فِي الشوارع، ويعم الظلام، حتى يتسلل إلى الباليوز أفراد مِنْ السراي أو مِنْ القلعة، ودائماً كان ميناس فِي استقبالهم، وقد تم الاتفاق مع كُلّ واحد منهم على إشارات محددة، سواء بعدد مِنْ الدقات على الباب الجانبي المفضي إلى رأس القرية، أو بأضواء تتقد عدداً مِنْ المرات، وعند ذاك ينزلق الآتي عبر البوابة، وينفض ما لديه عند ميناس: مِنْ استقبل الباشا ذلك اليوم، وكم دامت المقابلة، ومَن مِنْ كبار الموظفين أو الشيوخ زار السراي، وبمن التقى، وعشرات التفاصيل الأخرى.

والباليوز الذي لم يكن محتاجاً إلى كُلّ هذه التفاصيل، أيام عبد الله وسعيد، أو إلى هذا العدد مِنْ زوار الليل، لأن الأخبار تأتي مِنْ مصادر عديدة ودون تأخير، حتى إن هايني اقترح خلال فترة معينة «الاستغناء عن هذا العدد مِنْ الكسالى الثرثارين، الذين لا يُعرف إن كان ما ينقلونه صحيحاً أو هاماً، خاصة وأن قسماً كبيراً منه متعلق بخصومات الحريم!».

كلام هايني، وقد حمل معنى الاحتجاج، كان رداً على اعتذار ريتش لما طلب منه تعيين واحد أو اثنين لمساعدته فِي ترجمة الأغاني الشعبية والأمثال. اعتذر ريتش عن ذلك بعدم وجود المخصصات الكافية الآن لمثل هذه الأعمال، وكان يعني فِي الحقيقة عدم جدواها، أو ليست لها مثل هذه الأولوية فِي الوقت الحاضر.

ولما ألح هايني، وسخر لوجود هذا العدد مِنْ المخبرين، ردَّ ريتش:

ـ نحن هنا نعمل فِي القضايا السياسية لا فِي التاريخ، ولا فِي دراسة فولكلور الشعوب، وأظنك تقدِر ذلك.

- والسياسة، يا مستر ريتش، كي تكون ناجحة ومؤثرة، يجب أن تستند إلى العلم، إلى التاريخ. أما هذا الهراء الذي ينهال علينا مثل أمطار لندن، فإنه لا يجدي شيئاً، يذهب فوراً إلى البالوعة!

-ولكن السياسة، يا مستر هايني، تستند إلى المعلومة الساخنة، إلى الواقعة التي تحصل الآن، هذه هي التي تهمنا وتؤثر على عملنا، وربما على

مستقبلنا، أما الواقعة المتعلقة بالتاريخ أو غيره مِنْ الأمور فلها وقتها الذي سيأتي، أعتقد أنك توافقني على ذلك، أليس كذلك؟

- دعني أقل لك شيئاً واضحاً يا عزيزي، وهذا الشيء أسمح لنفسي أن أكرره، رغم أنا تحدثنا عنه مرات عديدة...

إبتسم بطريقة تطلب، بل ترجو، الصبر، وأيضاً التأمل والتفكير العميق:

- الأكثر أهمية، كما افترض، ليس الواقعة التي تحدث أمام أبصارنا، وإنما فهم العقل الذي تصدر عنه، أيّ السبب الذي جعلها تقع بهذا الشكل وليس بأي شكل آخر...

تنفس بعمق، وكان يبدو مهموماً، قبل أن يُضيف:

ـ لا أختلف معك، مستر ريتش، فِي أننا، هنا، نعمل لقضايا كبيرة وهامة للإمبراطورية، ولعل السياسة اليومية هي أقل هذه القضايا أهمية...

كاد يُضيف أشياء أخرى، لكن ريتش قاطعه:

ـ القضايا الكبرى، يا هايني، وأنت تعرف ذلك، هي حاصل جمع الأشياء الصغيرة، هي الوقائع التي تتراكم وتأخذ اتجاهاً معيناً، وعند ذاك تصبح كبيرة ومؤثرة. أما أن ننتظر، أو نهمل الأشياء التي تقع الآن، بحجة عدم أهميتها، فسوف يجعلنا نخسر كُلّ شيء!

- والعقل الذي تصدر عنه الأفعال اليومية، هل يجب أن نهمله؟

- ومن قال إننا أهملناه؟ ألا ترى طريقتنا فِي التعامل معهم؟ كيف نستمع إلى ثرثراتهم وأحلامهم، وكيف نتغاضى عن أكاذيبهم ونفاقهم، وكيف نتحمل سماجاتهم أيضاً؟ لولا فهمنا لهذا العقل لتصرفنا معهم بطريقة مختلفة!

ـ لا أنكر أن جزءاً مما وصلنا إليه كان نتيجة فهمنا لطريقة تفكيرهم، لكن هناك أشياء أخرى يُفترض أن نوليها الاهتمام أكثر مِنْ ثرثرة المخبرين!

ـ أن نقيم جامعة لدراسة الأزياء والأغاني واللهجات وتلك الأمثال الفولكلورية التي تمليها الحذلقة، حذلقة اللغة... أهذا ما تريد أن ننصرف إليه، أن نفعله؟

- أتذكر يا كلود إن مِنْ أول الدروس التي سمعتها منك، وربما فِي الأسبوع الأول لوصولي إلى هذا البلد: «لا يمكن فهم هذا الشعب دون فهم تاريخه، وباعتبار أن التاريخ المتداول، المكتوب، يشوبه التزوير والتحريف، يجب علينا أن نقرأ هذا التاريخ مِنْ خلال الآثار، مِنْ خلال الشواهد الحية» أليست هذه الكلمات، أو ما يماثلها، ما قلته لي، يا كلود؟

ـ لا أتذكر الكلمات بالضبط، يا عزيزي، فقد مرت سنوات...

ضرب على مسند المقعد. ابتسم. سافر قليلاً ثم عاد:

- لا تزال الآثار، بالنسبة لي..

وتغيرت اللهجة تماماً:

ـ الآثار التي أوليها الاهتمام هي الشواهد المادية، إذ تعني إعادة قراءة الحضارة الإنسانية، كيف بدأت، كيف تطورت، كيف واجهت المصاعب والتحديات، وكيف انتهت تلك المواجهة بحيث استمرت حضارة، أو أخلت المكان والدور لحضارة أخرى أكثر تطوراً، هذا ما يعنيني مِنْ الآثار...

تركه هايني يتابع، إذ رغم ما لديه ليقوله، فقد آثر أن يعتبر هذه المناقشة مناسبة لفهم أعمق لما يدور فِي رأس ريتش، خاصة وأن الاتفاق والتقاطع بينهما ليس إلى الدرجة التي تستوجب الاختلاف، بقدر ما تتطلب صيغة أفضل لإعادة ترتيب الأولويات.

تابع ريتش بحماس:

ـ أعرف أن أغلب الأشياء التي تقال لنا الآن ثرثرة، وقد يكون جزء منها ملفقاً، لكن هذه الثرثرة لا بد مِنْ سماعها، مِنْ معرفتها، كي تكون سلاحاً، أو لأقل أحد الأسلحة التي يمكن أن نستعملها فِي الوقت المناسب...

استراح قليلاً ثم أضاف:

- تتذكر حين كان سيد عليوي ضيفنا... تتذكر ما قاله لنا عن سعيد باشا، عن أشيائه الصغيرة: الحَمَام الذي كان يربيه، العسل الذي كان يتناوله بكميات لا يتحملها دب، ثم المساحيق والحمامات الدافئة... كُلّ ذلك كي يقضي وقتاً ممتعاً مع حمادي... ولما عرف سعيد أننا نعرف كُلّ هذه التفاصيل، وربما غيرها، أصبح بأيدينا مثل الدمية...

ابتسم وقد أصبح أكثر تألقاً:

- قد تكون أشياء كثيرة تصلنا كُلّ يوم غير ذات جدوى، لكن شيئاً واحداً يمكن أن يكون أساسياً، وهذا ما يجب أن نقبض عليه، وأن نستعمله فِي الوقت المناسب. وتعرف أنّه مِنْ أجل الحصول على هذا الشيء لا بد مِنْ دفع الثمن، ليس مِنْ المال فقط، بل ومن الوقت والأعصاب أيضاً!

وبطريقة لا تخلو مِنْ براعة، وربما مِنْ مكر، أراد ريتش أن ينسى الكثير مِنْ الماضي وأن يركز على الأيام الراهنة. سأل هايني فجأة:

- تعرف أن ما تشكو منه هو ما نحتاجه بالضبط هذه الأيام؟

ـ ما نحتاجه اليوم؟ ماذا تقصد؟

- منذ أن جاء داود، وبعد أن استقر، أصبحت معلوماتنا عن السراي تتناقص يوماً بعد آخر...

تنهد. هز رأسه بحزن عدة مرات، ثم أضاف:

- وقد استغل حملة الفرات الأعلى ليعيد تنظيم القطعات العسكرية فِي بغداد وحواليها...

وضرب مسند الكرسي بعنف، وتابع:

- والآغا سكر بالانتصار الذي حققه، افترض أنّه أصبح الأقوى والقادر على فرض ما يريد، ولا يُدري ماذا ستكون نتائج الصراع فيما لو وقع بين الإثنين الآن...

وبعد قليل وبحسرة:

- أما المخبرون الذين كانوا يأتون إلينا كُلّ ليلة، فقد أصبحوا الآن كالجثث العفنة بعد أن طردهم داود باشا مِنْ السراي. إنهم يقضون أوقاتهم فِي المقاهي، علهم يصطادون خبراً يحملونه إلينا...

وتغيرت لهجته، أصبحت ساخرة:

- ولقد أبلغت ميناس أن يبقي الضوء الأزرق مشتعلاً باستمرار، لأننا لا نريد أن نرى وجوههم، ولا أن نسمع أكاذيبهم!

ـ أعتقد أن داود، الآن، مثل أيّ والٍ فِي بداية ولايته: يجب أن يظهر عداءه لأصدقاء الوالي السابق، كي يبدو مختلفاً، ونقيضاً له، ليجمع وراءه كُلّ الذين خاصموا ذلك الوالي، لكن لن تمر فترة إلا ويصبح مثل الولاة الذين سبقوه: واقعياً، مدركاً لموازين القوى، بما فِي ذلك قوته الخاصة، وبالتالي مِنْ يجب أن يكونوا أصدقاءه!

ـ أتمنى ذلك يا هايني، لكن يبدو لي أن لدى هذا الرجل شيئاً مختلفاً...

غيَر جلسته فتغيرت نبرة صوته:

- صحيح أن نابليون هزم وانتهى إلى الأبد، خاصة فِي أوروبا، لكن أسطورته التي انتهت هناك بدأت هنا مِنْ جديد، وهذا ما يجعل داود يغرق فِي الحلم والمناورات، خاصة وأن ذلك الألباني يعتبر نموذجاً مغرياً!

ـ لا أظن أن أحلامه تبلغ حد الجنون، وتصل إلى هذا المستوى!

-دعنا نفترض هكذا ونتفاءل، ولكن ألا تلاحظ كم يحرصون على معرفة أخبار نابليون؟

ـ ألاحظ، ولكن كما يقولون فِي أمثالهم الشعبية...

وابتسم قبل أن يتابع:

ـ لديهم مثل يقول: القرعة تفاخر بشعر ابنة خالتها، ولذلك يفترضون أنّه لا أحد يستطيع الوقوف فِي وجه إمبراطوريتنا سوى فرنسا، فرنسا التي على رأسها نابليون، وهذا ما يفسر حرصهم على معرفة أخباره!

- ولا يعرفون أن نابليون أصبح جزءاً مِنْ التاريخ الماضي!

- ولكنهم سيعرفون.

ـ إلى أن يعرفوا، إلى أن يستوعبوا هذه الحقيقة، لا بد أن يسببوا لنا مقداراً غير قليل مِنْ المتاعب، وإلا كيف تفسر هذه الجفوة التي تصل حد العداء مِنْ داود ورجال السراي؟

ـ أعتقد أنها فترة اختبار لقياس ردود أفعالنا، وبعدها سيصبحون عقلاء بما فيه الكفاية!

نهض ريتش. أخذ يتمشي فِي الشرفة المطلة على النهر. كان مهموماً، خاصة وأنه لم يتوصل إلى خطة يمكن اعتمادها لمواجهة داود، فهو لا يريد أن يحاربه، لأنه ليس عدواً بعد، ولا يريد أن يتركه يرتب أموره، ثم ليفرض شروطه بعد ذلك. وهذا يقتضي أن يشغله، أن يلوح له، مِنْ بعيد، بما يملك مِنْ أوراق وإمكانيات، فإذا امتثل مثل ولاة آخرين يمكن أن يتعايشا، وربما أصبحا أصدقاء، أما إذا افترض أنّه مِنْ القوة بحيث يستطيع خلق المتاعب، فلا بد عندئذٍ مِنْ وضع حد له.

قال ريتش، وبدا صوته عميقاً:

- مشكلة هؤلاء الشرقيين أنهم مكابرون. إن المكابرة جزء عضوي مِنْ شخصيتهم، إذ يتوهم الواحد منهم أنّه يعرف كُلّ شيء، وأنه قوي إلى درجة يمكن أن يواجه أيّ خصم ويفعل ما يريد...

وهز رأسه عدة مرات، كانت هذه الهزات تحمل معنى السخرية والأسف، قبل أن يُضيف:

- وشخصية مِنْ هذا النوع لا تتعلم ولا تتروض إلا بطريقة واحدة: الضرب على الرأس. فالضرب يعلمها كيف يجب أن تتعامل مع الواقع، كيف يجب أن تنظر إلى الآخرين، وأيضاً ما هي قوتها وحقيقتها!

وبعد قليل، وهو يضرب الأرض بقدمه:

. فإذا لم يعلمها الضرب كيف يجب أن تكون، فإن مِنْ شأنه أن يكسرها، أن يجعلها صغيرة وذليلة دائماً!

ـ نحن نتفق ونختلف يا عزيزي كلود. نتفق بضرورة أن نكون موجودين ومؤثرين، ونختلف حول الوسائل. فالضرب ليس دائماً الطريقة الفضلى، لأن الحيوان الجريح هو أخطر مِنْ الحيوان الذي لم يجرح؛ والضرب يولد الحقد، يولد الغيظ، وعند ذاك نكون فِي حالة دفاع عن النفس!

- يجب ألا نتوهم كثيراً، يا هايني، فنسحب ما يجري فِي أوروبا على أماكن أخرى، خاصة على مثل هذه البلاد. فإذا كان العقل هناك سيداً، فالعاطفة هنا هي السيد، وهذا يتطلب أن نكون حازمين لئلا يخطئوا فِي فهمنا، وبالتالي يخطئون فِي التعامل معنا.

- ولكن الحزم ليس له شكل واحد!

- ومن قال ذلك؟

- أراك تميل إلى المواجهة، إلى القوة، وهذا الشكل مِنْ الحزم يعتبر أكثر الوسائل بدائية، وربما أقلها جدوى!

- وماذا تقترح أن نفعل؟

ـ أن نسيطر عليهم مِنْ الداخل، والخطوة الأولى: أن نفهمهم، أن نروضهم بالتدريج، أن نجعلهم يفعلون ما نريد وبظنهم أنهم يفعلون ما يريدون!

- وكيف نصل إلى ذلك؟ بترديد أغانيهم؟ بترديد أمثالهم؟ أهذا ما تريد أن نفعله يا عزيزي هايني؟

- أريد أن نفعل كُلّ الأشياء معاً، فعن هذه الطريقة لا نكسب الحاكم وحده، بل ونكسب الناس أيضاً!

ـ ما جئت إلى هذا المكان، يا عزيزي، كي أضيع جهدي ووقتي مِنْ أجل تحضير شعب غير قابل للتحضر.. إن مهمة مِنْ هذا النوع اختصاص الأنبياء والحالمين، وأنا لدي مِنْ المشاغل ما تجعلني أفكر بطريقة أخرى.

تهالك على كرسيه، وبدا متعباً. صحيح أنّه لا يمل مِنْ مناقشة هايني، وبعض الأحيان مِنْ الاختلاف معه، لكن الأمر فِي هذه الفترة أكثر تعقيداً، وربما أكثر خطورة، لأن الأوضاع كما يبدو، لا تسير وفق ما يريد، «فداود، كما قال لنفسه، يختلف عن الحكام الآخرين، وقد تكون لديه أوهام كثيرة، ويريد أن يختبر قدرته على تحقيقها، أو تحقيق قسم منها، وهذا يتطلب أن نكون مستعدين، ويتطلب أن نشغله، لأن الأنبياء والحالمين حين يجدون أنفسهم شبعى، ولديهم مِنْ الوقت الكثير، فإنهم لا يتورعون عن خلق المتاعب للآخرين، بغض النظر عن النتائج التي ربما تتولد مِنْ هذه المتاعب».

جاءت ماري فِي الوقت المناسب، جاءت تجر قردها الصغير، دوني، قالت وهي تنقل نظرها بين الاثنين:

- يبدو أن الرجال ما وُجدوا على ظهر هذا الكوكب إلا ليتحاربوا فالحرب هي عنوان ومبرر وجودهم!

ـ إنهم يحاربون مِنْ أجل امرأة جميلة؛ مِنْ أجل كأس مشتهاة!

هكذا قال ريتش، وهو يتوجه نحوها كي يعانقها، وليطلب للجميع الويسكي، ردت بدلالٍ:

- لماذا أنتما متجهمان؟ وهل المرأة التي تتحاربان مِنْ أجلها جميلة إلى هذا القدر؟

قال هايني وهو يقهقه:

- ليتنا كنا مختلفين على امرأة، إذن لفاز بها واحد منا، لكننا مختلفان على جنس الملائكة، وعلى أيهما أسبق البيضة أم الدجاجة!

وتغير الجو فجأة، أصبح مرحاً.

ليلة القلعة غيرت بدري صالح العلو تماماً. صحيح أنّه أبدى ندمه أمام الباشا، ولام نفسه على الضعف الذي بدر منه، وتخاصم مع الزميل الذي أغراه وقدم له الكأس، كما قرر خلال نهارات كثيرة أن ينسى، لكن طيف نجمة ظل يلاحقه.

كانت نجمة تتخايل له فِي النوم واليقظة، وكانت تتجسد ما أن يسمع صوت امرأة، ما أن تهف رائحة أنثي. أما إذا لمح واحدة، أية كانت، فإنها لا تُقارن بجمال نجمة، بعذوبتها وخفة حركاتها: أجفان ذابلة تشبه خيمة رطبة ودافئة، ساقاها كأنها أعمدة مرمر مضيء، زنداها مراوح تحمل رائحة الجبال، والبطن، آه، لشد ما كان مشدوداً وليناً معاً. أما العرق الذي انزلق مِنْ الجبين، مِنْ بين النهدين، فكان مهرجاناً مِنْ المسك. حتى الخنزير، طلعت باقة، بوقاره كله لم يحتمل. صحيح أنّه اندفع نحوها كالثور ليمسح الجبين، لكنه خاف أن يقترب، خاف أن يحترق، فاكتفى بأن تبارك بها، ثم أعطاها المنديل ومضى بعيداً.

وتروح وتأتي صورة نجمة، تماماً مثل أرجوجة، لا تذهب بعيداً لكنها لا تقترب إلا بمقدار، وكأنها نور معلق بين السماء والأرض، لا ترتفع وتغيب، كما لا تقترب وتهبط لتصير باليد ثم فِي القلب.

لم يكن بدري مراهقاً حتى يفتن بأول امرأة يصادفها، لم يكن غراً أو جاهلاً، كما لم يكن محروماً، حتى يقع أو يتساهل، فماذا حصل؟

كان يسأل نفسه هذا السؤال عشرات المرات فِي اليوم الواحد. أكثر مِنْ ذلك كان يعتبر أن جميع الرجال الذين حضروا حفلة القلعة يشاركونه الإعجاب، وأيضاً اشتهاء تلك المرأة. لكن مِنْ هي ليجد نفسه تجاهها مسلوباً هكذا، ومستشاراً بهذا المقدار؟

حاول أن يفسر عواطفه، أن يجعلها بسيطة ومفهومة، كي يصل إلى حل يطفيء اللهب الذي يحسه فِي داخله. لو تملك جسدها، لو ينام معها ليلة، أينتهي هذا العذاب الذي يزحم كُلّ خلية مِنْ خلاياه! هل يعتبر مشاعره نحوها حباً، أو شيئاً يقرب مِنْ الحب؟

لا يعرف كيف يحدد عواطفه ورغباته. لا يعرف ماذا يريد منها. يكفي أن يبحر فِي عينيها، أن تكون قريبة، أن يحدثها، وأن يتمعن ليس فقط بذلك الجسد الذي انتزعه مِنْ سكينته وطوح به لا يعرف إلى أين، بل وأن يتمعن بالروح الكامنة فِي ذلك الجسد.

كانت خائفة مثل أرنب، وربما ارتجفت فِي بعض اللحظات. كانت مليئة بالقوة والعنفوان وهي تحكم سيطرتها على ذلك الجسد. كانت فراشة تقفز وتطير أو تقف على رؤوس أناملها، لتتحرك بتلك الطريقة التي تجعل الكون كله يحبس أنفاسه. وكانت فِي أعماقها كالطفل الخائف، ترعبها النظرات، وتجعلها الأصوات مذعورة، لأن الكل يريد أن يلتهمها. كانت تبحث بعينيها، بارتجاف الجفون، بتقلص الشفتين عن حماية، عن إنسان يمد لها يده، عن قوة تخلصها مِنْ طوفان النار الذي يتقدم نحوها، وفجأة غابت.

شعر بالراحة لما غابت، هذا ما كان يريده، فقد نجت مِنْ العيون الحمراء التي تقطر شرراً، ومن الأفواه السكري التي تهرس حتى العظام، فكيف لو اقتربت منها، ألا تفترسها وتفتك بها كما تفترس الحية عصفوراً صغيراً، وتزدرده أو تلوكه، ليصبح وكأنه قطعة مِنْ البلعوم؟ لكنها بمجرد أن دخلت ذلك الباب، وغابت، انفجرت فِي داخله، تجلت وتجسدت، لكي لا تغيب أبداً.

إنّه حائر ومتعب. لا يعرف كيف يداري حيرته، كيف يصل إلى حل أو قرار، فالدنيا تبدو له ضيقة، صغيرة، وسوداء أيضاً.

الجميع يشاركونه فِي اشتهائها، لكن لا أحد يحبها مثله. لقد صفقوا لها كثيراً، أخافها التصفيق، ولكنه وحده توقفت يداه عن التصفيق، فِي لحظة بدأ قلبه بالخفقان ثم بالضجيج. كان تصفيقهم تعبيراً عن الشهوة، عن الرغبة بامتلاكها، بإخضاعها، وهو لا يريد إلا أن ينظر إلى عينيها، إلى ابتسامتها دون أية رغبة بالامتلاك أو السيطرة. وإذا مد يده إلى خدها، إلى جفنيها، فلكي يقول، همساً أو بصوت مسموع: تبارك هذا الذي خلق. لن يرغمها على شيء. لن يطلب منها شيئاً، فإذا أعطت، إذا شاءت، فسوف يكون ذلك كرماً منها ومنة.

الجسد؟ يمكن أن يصل إلى ما يشبه جسدها، لكن كيف يستطيع الوصول إلى مثل ذلك البهاء؟ صحيح أنّه لم يكلمها، لم يقترب منها بما يكفي، كما فعل الخنزير طلعت باقة، لكن شيئاً فِي داخله قال بكلمات لا تقبل الخطأ، بطريقة لا تقبل الشك، أنّه أمام امرأة لا تشبهها أية مِنْ النساء، وإن فِي داخلها روحاً تبكي كما تبكي الغزلان، وإنها وقفت فِي مواجهة تلك الجموع، التي كانت عيوناً كلها، كما تقف الضحية أمام السياف: كانت مرغمة، مضطرة، ولقد تأكد أكثر مِنْ طريقتها وهي تهرب، كانت تخطو إلى الخلف بقوة، بسرعة، تريد أن تنجو مِنْ النيران التي تطوقها!

والجسد، رغم المتعة التي يقدمها، فإن الروح هي التي تجعله هكذا، تلك الروح ترفرف وتزهو حتى بعد أن يتعب الجسد، بعد أن يخبو.

روح نجمة فِي تلك الليلة مثل أمطار الربيع، مثل خيوط النور، مثل هدهدة الأم لطفلها الرضيع. كانت فِي لحظات تتألق، تسافر بعيداً لتعود محملة

برائحة القداح والرازقي، ولتملأ القلوب بالفراشات وألوان قوس قزح، ثم كانت فِي لحظات أخرى، تقول، مِنْ خلال الجسد، الغضب والحزن والشبق، وكُلّ العواطف التي لا تجرؤ المرأة على قولها فِي أكثر الأحيان!

وكان، بالإضافة إلى الحيرة والتعب، مُوزَعاً بين الوظيفة وثقة الباشا، وبين العواطف التي تجتاحه كالنيران. وأيضاً لا يعرف كيف يصل إلى نجمة أو ماذا يريد منها.

بعد أن استفسر عن الفرقة، ثم عنها، عرف أن روجينا هي المعلمة، وعن طريقها وحدها يمكن أن يصل. هل يجرؤ أن يفعل ذلك؟ وإذا فعل هل يمكن لأمر مثل هذا أن يبقى سراً؟ وماذا لو وصل إلى الباشا أو عليوي؟

لقد تعلم فِي سلك العسكرية، ثم مِنْ مرافقة الباشا، أن مِنْ جملة ما يذل العسكري، ويجعله عاجزاً عن القيام بالواجب: الخضوع إلى قضايا القلب، أيّ العواطف. فعلى العسكري أن يترفع عن الشفقة والحب، وألا يصغي إلى نداءات العامة أو حتى إلى تصرفاتهم، وأن يكون له قلب كالصوان.

ويتذكر موقفاً للباشا. كانوا يزحفون مِنْ أربيل إلى كركوك. فِي إحدى مراحل الطريق طلب منه الباشا أن يلتقط حجراً حدده، التقطه، قدمه إلى الباشا، نظر إليه الباشا بإمعان ثم أعاده إليه وهو يقول: «احتفظ به، لحين أطلبه». عند أول استراحة، وقف الباشا خطيباً. تكلم كثيراً، ثم فجأة طلب منه الحجر. أمسك بالحجر ورفعه وهو يديره فِي كُلّ الاتجاهات. وبعد أن رآه الكثيرون، وتأكد منه القريبون، قال: أبناء الجبال يعرفون هذا النوع مِنْ الحجارة، أما أبناء الوسط والجنوب فإنهم يسمعون به لكنهم لم يروه. هذا هو حجر الصوان. انه أقسى أنواع الحجارة، وبالإضافة إلى القسوة فإنه يجرح، وهكذا يجب أن يكون الجندي فِي جيشنا: له قلب كالصوان: لا يخاف، لا ينكسر، ولا بد أن يترك أثراً، فإذا لم يقتل لا بد أن يجرح.

تذكر هذا الموقف، لكن ماذا يمكن أن يقول للباشا الآن لو عرف أن عسكرياً، وليس أيّ عسكري، وإنما مرافقه، الذي يأتمنه على كُلّ شيء، وقع فِي حب راقصة، وأنه مِنْ الضعف والهشاشة بحيث لا يستطيع أن يتخلى عنها؟ أين الصلابة، وحجر الصوان والترفع عن العواطف؟ كيف ضاعت الثقة وتداخلت الأمور إلى درجة أن المرافق يصبح تحت رحمة الخصم، عليوي؟

فِي لحظة انفعال، والعواطف فِي صدر بدري تتأجج كالبراكين، قال لنفسه بغيظ: «ولكن العسكري، حتى مرافق الباشا، إنسان قبل أيّ شيء آخر: والإنسان ليس مجرد البزة التي يرتديها أو الموقع الذي يكون فيه، انه عواطف وأفكار ورغبات، وحتى جنون، أما أن يبقى أسيراً للرداء أو للموقع،

وأن يخضع لما يريده الآخرون، دون أن يسمع نداء قلبه، فعندئذٍ يتحول مِنْ إنسان إلى دابة، إلى لعبة، إلى شيء دون روح، وهذا لا أستطيع أن أكونه».

كان مثل هذا الكلام يأتي فِي الليل، وكان ليل بدري يطول ويمتد أكثر مِنْ أية فترة سابقة، لكنه فِي النهار يصبح إنساناً آخر!

هل يعترف للباشا ويستأذنه؟ هل يذهب إلى روجينا سراً ودون أن يعرف أحد؟ هل يدوس عواطفه ويتحول إلى حجر صوان ليخلص مِنْ هذا العذاب؟

يقرر شيئاً فِي الليل، وفِي النهار ينقضه. يضع خططاً فِي الليل وتتلاشى مع أول أضواء نهار اليوم التالي. يردد فِي الظلام وحتى ساعة متأخرة مِنْ الليل أيماناً بصلابة الصوان على أنّه سيُقدِم فِي الغد، لكن تلك الأيمان تنزلق كالماء لتضعف إرادته وتصميمه، ولتصبح شتماً للنفس وتقريعاً اللذات التي لا تحسن شيئاً ولا تعرف كيف تتصرف وكيف تتخذ القرار!

وأي يوم يمضي دون أن يقرر، دون أن يصل، ألا يعني احتمال أن يأتي غيره ويسرق هذه الغزالة ويمضي بها إلى حيث لا يدري ولا يصل؟

وروجينا التي تعرف مِنْ يكون، وفِي أيّ موقع هو، ماذا ستقول وكيف ستتصرف؟ هل ستُبقي الأمر سراً مكتوماً بينها وبينه؟ وماذا لو عرف الآخرون؟ هل يجرؤ على المواجهة أم ستنكسر عينه مثل انكسار إرادته، وينسحب ذليلاً كما يفعل الكلب المهان، إذ يضع ذيله بين ساقيه ويمشي موارباً مع تلك النظرة المسكينة؟

ولكن لماذا لا يترك السراي والباشا وكُلّ الذين يحسب لهم حساباً ويمضي مع نداء قلبه، دون أن يتعرض لامتحان لا يحبه ولا يريده؟ والباشا الذي قال له حين كان معه فِي الجبل: على الرجل أن يتزوج ليكمل نصف دينه، ماذا يقول الآن إذا كانت الزوجة التي سيختارها مِنْ «بنات» روجينا، مِنْ بنات الهوى؟ لن يكتفي بالرفض، سيقرن الرفض بالسخرية ويقول له: «ألم تجد فِي بغداد غير هذه الساقطة لتتزوجها؟» وسيقول الباشا لنفسه: كانت العادة أن يزوج الولاة بناتهم لأقرب الناس إليهم، وأنت، كنتُ أعدك أن تتزوج واحدة مِنْ بناتي، وبدل أن تبذل أقصى ما تستطيع كي تحظى بهذا الشرف، ذهبتَ إلى حيث لا أتوقع ولا أنتظر، فشكراً لله أني لم أتعجل ولم أفرط، فقد بان معدن الرجل وانتهى الأمر».

وفِي محاولة للدفاع عن قلبه، وكأنه يواجه خصومه فِي السراي، أو الذين قد يسخرون منه، يقول لنفسه، وهو يحاول أن يكظم غيظه: «الذين ينظرون إلى السراي مِنْ بعيد، الذين يسمعون الصمت ولا يصلهم الدوي، الذين يتخيلون ويحلمون ولا يعرفون، يظنون السراي تكية مِنْ التكايا، زاوية يملؤها التقى والورع، ولا يرتفع فيها سوى اسم الله مِنْ الصباح إلى الهزيع الأخير

مِنْ الليل، لكن لو يقتربون، وينصتون إلى الهمس الذي يدور، لو يعرفون كيف تسري الحركة بعد أن تطفأ الأنوار، لو أن ذلك حصل لأصاب الكثيرين الذهول. أما إذا شاهدوا بعض الذي كان يجري ويدور، فسوف يقولون إن روجينا وبناتها، سلطانة وفرقتها، أكثر عفة؛ فهل يحق لناس السراي أن يقولوا كلمة، أن يعترضوا على رغبة إنسان وجد نفسه يسقط فِي هوى نجمة دون أن يدري؟» بعد أيام مِنْ العذاب المضني، والسهر الذي بانت آثاره فِي الزرقةِ حول العينين، وفِي ارتعاشة اليد وهي تقدم الأوراق إلى الباشا. تجرأ بدري، حين لاحظ الفرصة مواتية، وطلب أن يمنحه الباشا إجازة لمدة شهر. نظر إليه الباشا وابتسم، وكان فِي النظرة والابتسامة أكثر مِنْ سؤال. قال بدري، وخرج صوته متلجلجاً:

- أريد أن أكمل ديني يا مولاي!

- ومن هي المسعدة، صاحبة الحظ؟

- مِنْ يبحث يجد، يا سيدي!

- لم تحددها بعد؟

- ذكرت لي العائلة واحدة...

ولكي يداري كذبه حاول أن يبتسم، لم يطاوعه فكاه. خرجت الابتسامة قاسية أقرب إلى التكشير. قال الباشا فِي محاولة لأن يساعده:

- حين تقرر أبلغني، لأن لك علينا حقاً، وقُصتك كانت خيراً علينا، ولا بد أن نهني وأن نبارك، لأنك تستاهل كُلّ خير!

كان يتمنى، فِي تلك اللحظة، لو أنّه يستطيع طلب نقله إلى أقصى مكان فِي الولاية، أن يذهب مع أول فوج متوجه إلى القتال. أن يقطع علاقاته بكل الذين عرفهم مِنْ قبل، كي لا يتعرض إلى سؤال أو نظرة سخرية. قد لا يوافق الباشا، وربما يشك فِي أمره، لكنه فِي لحظة مناسبة سيعترف، سيقول له انه لا يقوى على التفكير بإمرأة غير نجمة، ولا يريد لأحد أن يسأل، أن يقول كلمة. ومثلما اختار الآخرون، واتخذوا قراراتهم بمفردهم، فمن حقه أن يفعل ذلك!

حديث مثل هذا لم يجر، ظلت الرغبات حبيسة فِي صدره. لقد وافق الباشا على أن يمنحه الإجازة، وأشار مازحاً:

- بعد تسليم المهمات لا تتأخر، إبدأ البحث فوراً عن العروس، وعلى الله توكل، مع المباركة والتوفيق!

حين رأته روجينا يدخل إلى بيتها ذات مساء بملابس مدنية وعباءة تحسبت، لم تستطع أن تخفي ارتيابها بل وخوفها. ماذا يريدون منها؟

بصعوبة، استطاعت أن ترتب علاقاتها مع سيد عليوي، والآن.. السراي؟ ألا توجد امرأة غيرها فِي الولاية كلها لتصبح هدف «الكبار»؟ كانت تعيش بهدوء، كانت تفعل ما تريد برغبتها، وتغني الموال الذي يروق لها، الآن يتجاذبونها، كُلّ واحد يريدها أن تغني له الموال الذي يحبه ويستهويه!

هكذا فكرت وهي تبذل جهدها كي تلجم الخوف، خاصة وأن بدري جاء متأخراً، بمفرده، ويبدو ذابلاً مِنْ غير شرب.

ولأنها امرأة مجربة، ولا تقبل أن تقع تحت تأثير المفاجأة، وبعد أن رحبت بحرارة واهتمام، استأذنت قليلاً:

- نفنوفي مو لايق بك، فد دقيقة، بك، مِنْ رخصتك!

وبقدر ما أعطت نفسها فرصة كي ترتب زينتها، احتفالاً بمثل هذا الضيف، فقد أعطت لعقلها وقتاً لكي يقدر الاحتمالات التي يمكن أن تطلبها السراي، وكيف يجب أن تتصرف، وكيف عليها أن تجيب.

وإذا كانت قد استقبلت عليوي بكثير مِنْ الهرج والحيوية، فإن هؤلاء الشبان لا يروقون لها، فهي تخافهم، لا تقدر بدقة كيف يفكرون، أو ماذا يمكن أن يفعلوا. صحيح أنهم أغرار، قليلو التجربة، لكن مثل هذا الضيف، وبالموقع الذي يحتله، لا يمكن أن تحزر ماذا يرغب، وما هي المهمة المكلف بها.

خلال فترة غيابها تلفت بدري، أجال نظره فِي الغرفة، خاصة الزوايا والستائر، وكأنه يحاول اكتشاف ما وراءها، أو تقدير مِنْ كان هنا فِي يوم مِنْ الأيام. وضع يده على المقعد الذي يجلس عليه وهزه، يريد اختباره، أو استنطاقه عن الناس الذين سبق أن جلسوا عليه. تنفس ملء رئتيه لعل الرائحة تقول له ما عجزت عن قوله المقاعد. شعر أنّه لا يحب هذا المكان. كان كُلّ شيء كامداً ثقيلاً، الرائحة مزيج مِنْ الهواء الخانق مع عطور متنوعة قاسية، وعرق مِنْ النوعين، إضافة إلى بقايا دخان مِنْ تبوغ متعددة وحادة!

لما عادت روجينا حملت معها موجة مِنْ العطر. بددت الرائحة الجديدة ما قبلها أو طغت عليها، فتغير هواء الغرفة واختلف، خاصة وأن عودتها حملت وترافقت بفيض جديد مِنْ الترحيب والحركة السريعة والابتسامات التي تبدأ صغيرة ثم لا تلبث أن تتحول إلى قهقهات، تعبيراً عن السرور لهذه الزيارة.

سألته بطريقة أقرب إلى الرجاء ما إذا كان يرغب أن تقدم له الشراب، وأن تهيىء له العشاء، أو إن كان يرغب بأي شيء. اعتذر بارتباك، بخجل لم يستطع أن يخفيه. قال إنّه كان يمر قريباً مِنْ هنا، وإنه جاء للزيارة فقط، وإنه سيأتي مرة أخرى ليشرب ويتونس!

وروجينا التي رفضت تصديق أية كلمة قالها، وعاودت أكثر مِنْ مرة، وبإلحاح، تسأل ما إن كان يحب رؤية البنات ليختار واحدة، وهو يعتذر، ازدادت ريبة وخوفاً مِنْ هذه الزيارة. ماذا يريد إذن؟ وما وراء هذا الخجل والارتباك؟ قالت، بطريقة لا تخلو مِنْ تعريض:

ـ إذا ما راح تمالحنا، تشرب مِنْ ميتنا وتاكل مِنْ خبزنا، وإذا ما قلت «أكلكم» طيب، راح آخذ على خاطري!

ـ لا خاتون، شوفتك بالدنيا، والأكل وغيره يجي وقته!

- هاي أبد ما تصير، لازم تذوق فد شي.

ـ ما أقدر، وداعتك، نفسي عايفة، وقلبي يرفرف!

ـ خير.. خير يا معود، لا تحچي هذا الحچي، فدوه لعيونك، آني إبدالك!

- ما يخالف خاتون... كلها كم يوم وأصير زين!

ودخل الصمت مِنْ جديد. ربما لم يكن وقت الصمت طويلاً، ولكن هكذا أحست به روجينا. فإذا جاء «مصادفة»، وهي لن تصدق ذلك أبداً، ولا يريد أن يشرب أو يأكل، كما لا يرغب أن يرى البنات، مجرد رؤية، فلماذا جاء إذن؟ لماذا أرسلته السراي؟

لو أن غيره جاء، لو أن إشارة ما توحي أو تفسر هذه الزيارة، لأمكن لحوار أو كلمة أن تزيل الخوف. لكنه فِي كُلّ لحظة يغرق أكثر فِي مقعده. تهرب عيونه إذا حاولتْ أن تنظر إليهما، تبدو ابتسامته شاحبة ولا تخلو مِنْ كآبة.

فِي لحظة، وقد بدت بعيدة، تكلم مِنْ جديد:

ـ أريد أسألك فد سؤال، خاتون!

- تفضل عيوني، قول، اسأل.

ـ البنية، نجمة، اللي رقصت يوم حفلة القلعة، أقدر أشوفها؟

صهلت روجينا مثل فرس. ضحكت بقهقهة عالية، ومدت رجليها وكأنها خرجت فجأة مِنْ تحت الماء. أخذت نفساً عميقاً. نظرت إليه وكأنها تقرأه مِنْ جديد. لقد سمعت السؤال جيداً، لكنها، حتى الآن، لا تصدق، وربما كان السؤال عنها مجرد فخ، لا تريد أن تتورط، أن تعطى جواباً قبل أن تتأكد. سألت، وخرج صوتها مرحاً:

- بلي.. بلي، نجمة، بنية تخبل...

صمتت. نظرت إليه بتحديد، وقد تغيرت ملامحها. لا تريد أن تتسرع فِي الإجابة. قد لا يكون وحده الذي يسأل عنها، إذ ربما يكون الباشا سمع بها، وصلته أخبارِها، وهو الذي يسأل!

قالت، كأنها تكلم نفسها:

- نجمة خوش بنية، سمكة تلبط، غزالة، قمر يضوي، لكن...

كانت تقول كُلّ كلمة وهي تنظر إلى عينيه، إلى ردود أفعاله، علها تكتشف إن كانت تعنيه شخصياً أم تعني غيره. فِي لحظة معينة، وبغريزة الأنثى، قدرت أنها تعنيه، وربما لا تعني غيره. قالت بطريقة متعالية ولا تخلو مِنْ مكر:

- بس هاي ماكو أحد يقدر ينوشها...

وبعد قليل، وكأنها تحدث نفسها:

ـ بألف ويلاه قدرنا عليها ذيك الليلة، وقالت وحلفت: هذي الليلة وبس!

وعادت لتحدث نفسها مرة أخرى:

- ثامر يثبر الدنيا إذا أحد باوع عليها، ومن ذاك اليوم مدلغم وما يتحاچي!

ـ ما أريد منها شي، خاتون، بس علواه أقدر أشوفها، دقيقة، دقيقتين، وأقول لها: سبحان ما خلق!

فِي تلك اللحظة تأكدتْ أن الرجل الذي جاء «مصادفة»، ويحدثها الآن بهذه الطريقة، ولا يريد سوى دقيقة أو اثنتين كي يراها، ليحدثها، ليس مغرماً فقط، وإنما مجنوناً بهواها. ولئلا تفقده، وتخيب أمله، عله يفيدها يوماً، قالت بطريقة تحمل مقداراً مِنْ الحزن:

- شقد شفت بحياتي؟ شفت هوايه بنات حلوات، الواحدة تقول للقمر قوم مِنْ مكانك وخلي الناس يحكمون منو أحلى أنا لو انت، لكن مثل هذي البنية ما شافت عيني!

تنهدت وهزت رأسها عدة مرات، وأضافت بحزم:

- لكن ثامر معرت بيها مثل ما يعرت كلب بعظمة. يغار عليها مِنْ نسمة الهوا، مِنْ ضو القمر، ومن عصافير النبكَة!

قالت الكلمات الأخيرة لتغريه أن يحاول، أن لا يسلم بسهولة؛ وأن كُلّ شيء فِي هذه الدنيا يمكن أن يحصل إذا تمكن الحب مِنْ القلب.

كان حائراً معذباً، وكان، أيضاً، شاكراً لروجينا. فقد عجزت عن تلبية ما يريد، لكنها دلتة على الطريق.

حين كان يودعها، كانت تهز رأسها بنوع مِنْ الشفقة، ولكنها تريد أن تحرضه أيضاً. كانت تقول، وبنغم:

- يا أبو بشت بيش بلشت... بيش بلشت، بيش بلشت، أويلاخ يابا!

سيفو المحمود أحد أركان صوب الكرخ، وأبرز معالمه. يعرفه الجميع ويعرف الجميع، حتى فِي الصوب الآخر إذا وجد مِنْ لم يره، فلا أقل مِنْ معرفة اسمه وبعض الحوادث التي تروى عنه. انه أشبه بطير مِنْ طيور الماء: ساقان طويلتان ضامرتان كأنهما ساقا لقلق، مكشوفتان أغلب الأحيان إلى ما فوق الركبة. أما الدشداشة التي يرتديها فلا يمكن تمييز لونها الحالي كما لا يُعرف لونها القديم، وما إذا كانت لطفلٍ أم لرجلٍ كبير، فقسم منها مشكول بالحزام الصوفي الذي كان أبيض ذات يوم ثم تحول إلى القتام. القسم الأعلى مِنْ الدشداشة ينفتح برحابة عن صدر أقرب إلى القفص، إذ تبدو عظامه بارزة قوية، وربما كانت مليئة باللحم والعضلات، لكنها انصقلت بتأثير المياه التي تتدفق مِنْ القربة المحمولة على الكتف، أو بتأثير العرق الذي يسح مِنْ الرقبة والجبين العريض.

يمكن لحي الشيخ صندل أن يستغني عن أشياء كثيرة، ويمكن أن يتغير قليلاً أو كثيراً، لكنه لا يستطيع أن يستغني عن سيفو، ولا يستطيع أن يحتمل تغير أو غياب سيفو عن الحي يوماً واحداً. وإذا تصور الكثيرون إمكانية تغير الولاة، وعزل القادة، أو حتى احتمال موتهم، فلا أحد مستعد لأن يفكر أو يقبل بغياب سيفو أو تصور تعرضه للمرض أو الانقطاع. أصبح أكثر معالم الحي ثباتاً وحركة وضرورة. إنّه قديم إلى درجة أن رجال القوافل الذين مروا قبل سنين فِي بغداد، وغابت عنهم ملامح المدينة، وعادوا إليها بعد تلك السنين، وحتى لو عاد بعض معارف لهم، فإن السؤال الأول الذي يطرحونه على أنفسهم وعلى الآخرين: «وين نلقي الجواد، ساقي العطاش: سيفو؟» ودون انتظار طويل يتوجهون إلى الشيخ صندل، إذ لا بد أن يلقوه هناك.

وأبناء الحي ذاته يؤرخون الأحداث، ويحددون المواعيد والوفيات بأمور ترتبط بسيفو: «ولد فلان يوم غرق جمل سيفو بالطوفة الكبيرة»؛ مات فلان سنة عضت الحية رجل سيفو وانقطع الماء عن المحلة ثلاثة أيام!» ويسرف أبناء الحي فِي إيراد الأحداث المتعلقة بالرجل، ويميل بعضهم إلى الدعابة، لكن لا تصل إلى حد السخرية أو الانتقاص مِنْ أهمية سيفو أو ضرورته، وإنما هي طريقة فِي التعبير عن الألفة والود، لأن أيّ خطأ فِي التعامل معه لا بد أن يؤدي إلى نتائج لا يمكن احتمالها أو توقي عواقبها.

وتتداخل هنا الحاجة المباشرة مع الاعتقادات المسيطرة، فإغضاب سيفو يعني انقطاع الماء عن أحد البيوت، وهذا يحصل نتيجة خطأ جسيم يرتكبه أحد أفراد هذا البيت، خاصة إذا تعلق الأمر بأمانته، إذ يمكن أن يخلق

صعوبات قد لا يستطاع تداركها بسهولة، ولعل أول ما يفعله أحد عقلاء البيت محاولة استرضاء سيفو!

لا يقتصر الأمر على الاضطراب الذي يتولد مِنْ انقطاع الماء، فالأكثر خطورة مِنْ ذلك الشعور بالذنب الذي يخيم على البيت، خاصة لدى المسنين، إن إساءة كبيرة لحقت بأحد الأوفياء، ومن شأن إساءة كهذه أن تلحق الأذى، وقد تصل إلى المصائب، حتى لو لم يشأ سيفو ذاته، «لأن الملائكة التي تحرسه، وتقف إلى جانبه، هي التي تتولى الانتقام» الأمر الذي يدفع لاسترضاء سيفو فِي ذات اليوم، أو قبل ظهور شمس اليوم التالي، «لأنه إذا نام مكسور الخاطر يهتز العرش غضباً!».

يعرفه أهل الحي جميعاً، الصغار والكبار، ويعرفه سكان المحلات المجاورة، وحتى البعيدة، ويحسدون محلة الشيخ صندل لأن سيفو يخص هذه المحلة بالذات، ولأنهم لم يجدوا سقاء بنشاطه وحميته؛ بل ويبالغ عدد مِنْ سكان محلة الشيخ صندل، خاصة المسنين، بأن يؤكدوا أن الماء الذي يجلبه سيفو مِنْ دجلة أكثر صفاء، وأشد برودة مِنْ الماء الذي يجلبه السقاؤون الآخرون. يذكرون ذلك إذا زارهم أحد، ويذكرونه إذا زاروا المحلات الأخرى وشربوا مِنْ المياه التي تقدم لهم.

أكثر مِنْ ذلك: قيل إن عدداً مِنْ متنفذي محلة أخرى، وشاركهم المختار، حاولوا إغراء سيفو أن ينتقل إلى محلتهم، وأن يتولى سقايتهم وحين وجدوا أن الإغراء لا يعني له شيئاً، ولا يمكن أن يغيره، لجؤوا إلى ذكر فضائل مِنْ يقدم الماء، ويسقي العطاش، وكيف يرفع الناس أيديهم إلى السماء بالدعاء، وحتى الحيوانات والطيور ترفع رؤوسها شاكرة، بين رشفة وأخرى، امتناناً لمن سقاها ويسر لها الماء، وقالوا إنهم سيدعون له فِي الصباح والعشية، وسيقبلون أيديهم وجهاً وقفا إذا وافق وجاء إلى محلتهم. لكن سيفو، وبطريقة اعتذار أقرب إلى التوسل، أكد لهم أنّه لن يستطيع القيام بهذا العمل، مع رغبته فيه، لأنه غير قادر!

مِنْ الصعب تحديد عمر سيفو، حتى ولو تقديراً، كما أنّه لا يحب أن يتحدث عن ذلك، وهكذا كف الناس عن سؤاله بعد أن تلقوا أجوبة غامضة ولا تخلو مِنْ سخرية.

الشكل، رغم النحافة الظاهرة، يوحي بالقوة ومتانة العصب، إضافة إلى امتداد القامة، مع انحناءة صغيرة، ربما بتأثير قِرب الماء الكثيرة التي يحملها مِنْ الشط إلى البيوت أو إلى بعض الدكاكين فِي صدر المحلة.

نوعية العمل، ثم طبيعة الحياة التي يعيشها، تجعل الإنسان يكبر أكثر مِنْ الآخرين وقبلهم، لكن هذا الكبر يتراجع، وقد يتلاشى، إذا وقعت بعض المعارك، أو حصلت الرهانات لتحديد مِنْ يرفع ثقلاً أكبر مِنْ غيره، ومن هو

أقوى زنداً حين تتقابل الأيدي فِي الكسار، ومن يتفوق فِي الصراع. فسيفو الذي يبدو بنظر الشباب الأغرار مسناً، وساقاه أقرب إلى سيقان الغزلان، لا تكادان تحملانه، وهو ينقلهما بهدوء حذِر، وعظام الوجنتين البارزة وكأن لم يبق غيرها فِي ذلك الوجه المحروق بشمس بغداد

التي تتساقط مِنْ السماء كاللهب، وتبدو أشد حرارة وأكثر فعلاً إلى جانب الشط، ثم خلال الطريق الصاعد باتجاه الشيخ صندل. إن تلك الشمس أضافت إلى التمويه الخلقي الذي ميز الوجه، تمويهاً إضافياً، بحيث يصبح الشباب الأغرار على قناعة كلية أنهم بدفعة صغيرة يمكن أن يسقطوا هذا الشبح، ويمكن بلية يد لا يُستعمل فيها إلا جزء مِنْ القوة حتى تتقلص ثم تنثي العظام فِي اليد المقابلة، لكن ما أن يبدأ النزال، خاصة فِي أيام الربيع المتاخرة، حين تحتدم القوة بالعنفوان، بذلك الفيض الذي يطفو على الأجساد والأرواح معاً، ما أن يبدأ النزال، ويكون سيفو طرفاً فيه، حتى يكتشف الصغار خطأهم، بعد أن خسروا الرهان، وحتى يزداد تقدير الكبار، معللين الأمر أن الملائكة التي ترعاه تمنحه القوة أيضاً.

قد يُضيف بعض المعجبين، وكنوع مِنْ الدعابة المشوبة بالحسد، وغالباً ما يقولون ذلك همساً: «الماء البارد مثلما يحيى يميت؛ أحيا فيه القوة وأمات الخَلَف».. إذ يعتقدون أن آلاف القرب التي حملها على ظهره روت عصب القوة، جعلته أخضر ريانا، وقتلت عصب الشهوة فبرد. يقولون ذلك بمزيج مِنْ الفخر والحسد، وإن كان الفخر أغلب، خاصة وهم يرون أبناءهم، وبعضهم يرى أحفاده أيضاً، فِي الوقت الذي لم يرزق سيفو بوَلد.

ليس ذلك فقط، فالجميع يعرفون أن فطيم أم الغزل هي زوجته الثالثة، وقد أنجبت قبل أن تتزوجه بنتاً وولداً. الولد غرق فِي الشط، وكان ابن عشر سنين، والبنت كبرت وتزوجت وسافرت إلى البصرة، وقد قبلت فطوم أن تتزوجه لأنها تريد رجلاً يحميها، ويكون إلى جانبها أكثر مما تريد زوجاً تنجب منه، كما أسرْت لواحدة مِنْ صديقاتها، وتريد أن تعيش مع سيفو كما تعيش القطة مع أهل البيت!

أما الزوجتان اللتان سبقتا فطوم فواحدة أخذها الفيضان، بعد أن عاشت معه ثلاث سنين، ولم يُعرف شيء عن أسباب الغرق! والثانية ماتت بالهواء الأصفر، مثل كثيرين، حين هب ذلك الهواء مِنْ جهة الشرق وخرب بيوتاً كثيرة فِي الكرخ والرصافة، وفِي أمكنة أخرى كثيرة، وقد أصيب بهذا الوباء سيفو نفسه، لكن الملائكة تولت حمايته، رغم أن الحمى تعاوده بين فترة وأخرى.

يقول بعض الناس إن الحاج علاوي، مختار محلة الشيخ صندل، يعرف كُلّ شيء، ليس فِي المحلة وحدها، بل وفِي المحلات الأخرى. ويقولون إنّه

يعرف بغداد طابوقة طابوقة. له ذاكرة مثل حد السيف، وتشبه بير الغيبة، حيث تنزل لتبقى إلى الأبد، وإذا دخلت إلى البير لا تخرج مِنْ هناك بسهولة.

ويقول بعض الناس إن الأسطة إسماعيل، حلاق محلة الشيخ صندل يفوقه، رغم أنّه لا يترك دكانه، فهو «يعرف أية دجاجة باضت البيضة، وأي فلاح زرع القمحة، وأن كُلّ الأخبار تأتي إليه مبلبلة، ساخنة» حتى ليحار الكثيرون كيف تصله ومتى، ومع أن بعضهم يقضي لديه ساعات متواصلة، أو يرابط جالساً فِي المقهى المقابل للدكان، ويرى الذين يأتون والذين يذهبون، فإليه وحده تصل الأخبار. وأبو حقي الذي يحرص على نقل الأخبار إلى الذين يسألونه، يحرص أكثر مِنْ ذلك على كتم مصادره. كما أن الأخبار على لسانه تكتسب ألقاً ونضارة تفتقر إليها أخبار الحاج علاوي. وإذا التبس خبر مِنْ الأخبار على الناس، ذهبوا إلى الأسطة إسماعيل، فعنده الخبر اليقين، والمعرفة الأكيدة.

سيفو يعرف أخباراً كثيرة، لكنه يختلف عن الحاج علاوي وعن أبو حقي، فلا يجيب إلا على الأسئلة التي توجه إليه، وأغلب الأحيان بإيجاز شديد، ويتجنب المبالغة والتعريض، كما يمتنع عن ذكر الأخبار المسيئة، وإذا اضطر، نتيجة الإلحاح، فلا يذكر الأسماء، إذ يعتبر ذلك رأس الفتنة.

يحاول أبو حقي بوسائل ماكرة، وخلال اللحظات التي يملأ له سيفو الحِب، أو يرش الماء أمام دكانه، أن يستقي منه بعض الأخبار، كأنْ يبدأ بذكر اسم أو طرف حادثة وقعت فِي الأيام الأخيرة، ويتبعها بسؤال ما إذا يعرف تفاصيلها أو ملابساتها، وسيفو الذي ينظر إليه بطريقة هي بين الاستفهام والاستنكار، يحاول الهروب مِنْ الإجابة، لكن كثيراً ما يوقعه أبو حقي. ومن بضع كلمات، أو مِنْ تعليق قصير، يربط ما قاله سيفو بما يعرفه هو، بما سمعه مِنْ آخرين، ثم إن طريقته فِي إعادة رواية الحادثة تجعله الوحيد الذي يعتد بروايته، ووحدها تنتشر.

والحاج علاوي عكس أبو حقي فِي حمل سيفو على الكلام، إذ يلجأ إلى الاستفزاز، وبعض الأحيان إلى السخرية، وسيفو الذي يحتمل الكثير، ويتظاهر أنّه لا يسمع، يصل إلى حد لا يطيق السكوت، ولا يرضى بالأكاذيب، إذ يضع القربة جانباً، ويصرخ فِي وجه المختار:

- بغدادنا زغيرة، حجي، والناس تعرف الاكو والماكو، فاتركنا مِنْ هذي السوالف، واذبحها على قبلة!

ويضحك الحاج علاوي بقهقهة، كوسيلة للدفاع، وتخرج الكلمات مِنْ فمه مبعثرة:

- هذي هي القبلة، إذبحها وراوينا...

ولا يكتفي بيده وهو يشير نحو القبلة، بل يستدير نصف استدارة، ويتابع:

ـ الناس ما تحب الصدق، الناس تريد اللي يونسها، وأنت مالك شغل إلا تونس الناس.

- آني حجي؟

ـ مِنْ أكو غيرك يفتر بالدرابين ويلقلق؟ يقول اللي صار واللي ما صار؟

- حجي.. ترى اكو بيوم القيامة حساب وكتاب!

- باوعوا يا جماعة الخير.. منو اللي يحچي عن يوم القيامة، وعن الحساب والكتاب!

ـ ما راح احچي لو طلعت برأسك نخلة، موت بقهرك.

- اخصمها مولانا، وأنت تعرف أزيد مِنْ غيرك، قل لنا شنو أخبار عزرا؟ شنو أخبار الآغا؟

يضحك سيفو، يتلفت فِي جميع الاتجاهات، ويخرج صوته ساخراً:

- باوعوا عمن يسأل؟

وبعد قليل وبصوت مختلف:

- آني مالي شغل بهذول الخايسين، ولا تهمني سوالفهم، لأن الواحد منهم أنجس مِنْ اللاخ...

ويعود مِنْ جديد إلى لهجة السخرية:

ـ الحجي، يا جماعة الخير، شامرنا بحجر چبير، وبعد ما چان يسأل عن الباشبزق فلان، والجندرمة علان، صار يسأل عن الإكبارية، جماعة السراي! وباچر ما يندرى يجوز يسأل عن الوالي.

وينهض بسرعة واضعاً حداً لهذه المناقشة، وما أن يرفع القربة على ظهره، حتى يقول:

- إسألنا يا حجي عن الفقراء، عن أهل الله، هذول اللي نعرفهم، وهذول اللي يستاهلون إن الواحد يسأل عليهم.

ويرد عليه الحاج علاوي بسخرية مماثلة:

ـ الفقراء يا سيفو مالهم حظ بالدنيا، حظهم عند مالك الملك، عند رب العالمين. أما الواقعين بالدهن، أما عزرا، والكيخيا والآغا، وجماعة ذاك الصوب، فهذول إما يثبرونا ويسودوا عيشتنا، أو يهديهم الله ويفكوا عنا ياقة، وعندها يقدر البني آدم يرجع لأهله سالم، ويعرف يبيع ويشتري، وبالليل يصيح: أوف.. ويا عين!

ـ نحن، يا حجي، ماشين الحيط... الحيط ونقول يا رب الستر. أما الولاية وما يصير فيها مِنْ قرا بالغ فمو يمنا، فخلينا بهمنا، يرحم والديك!

وينزلق سيفو فِي درابين المحلة لكي يوصل المياه إلى البيوت، ويظل لسان الحاج علاوي يهدر بما كان وبما سيكون، لا يتوقف إلا لحظات، ريثما يستقبل أحد الذين يريدون أن يختم له ورقة تتضمن بيعاً أو شراء، فيجر مِنْ حزامه بسرعة الختم النحاسي، ويرطبه ببخار فمه، ويختم بيده اليمنى، ويده اليسرى ممدودة لتلقي المقابل، وبعد أن يتأكد مِنْ المبلغ، يتابع، حسب لازمة لا تتغير:

ـ أيّ نعم، وين وصلنا بالسالفة؟

ولأن كُلّ واحد مِنْ السامعين يفهم الحديث بطريقته، فإنه يصعب تحديد نقطة التوقف. يخرج صوت الحاج علاوي، والذي يحمل معنى اللوم للآخرين لأنهم لا يتابعون بدقة، وربما لا يفهمون ما يقول:

ـ ما علينا مِنْ السوالف الزغيرة، منو قال وشنو قال، المهم شقال الاكبارية، شنو جرنا لهذي السوالف... وين صار رباط الحچي؟

ويتذكر مرة، ولا يتذكر أخرى، ولأن لديه الكثير ليقوله يتابع بلهجة جديدة:

ـ ما علينا، المهم...

ويندفع إلى حديث يعتبره مهماً، يقول لمن يقابله ويستمع إليه:

- المهم... آغاتي مو تفتحوا عيونكم وحلوقكم، المهم تفتحوا قلوبكم، حتى الواحد يعرف أن كلامه ينقال لمن يستاهله!

«هل يمكن للزمن أن يكون طويلاً مجدباً قاسياً إلى هذا الحد؟» هكذا سأل بدري نفسه، وهو يحاول، طوال أسبوعين، أن يصل إلى نجمة، ولا يستطيع.

أراد، أول الأمر، أن يصل بمفرده ومباشرة، لكن انقضت أيام دون أن يحقق أية نتيجة، إذ لم يهتد إلى مكانها، أو إلى مِنْ يوصلها إليها. أما حين عرف أن روجينا هي الأم والعش، ورغم إحساسه بالمرارة، فقد قرر أن يلجأ إليها. وروجينا التي استقبلته باهتمام وبدت بشوشة مرحة، فقد فعلت ذلك لأنه مرافق الباشا، ولما تخلى عن هذه الصفة فقد اعتبرته واحداً مِنْ الرجال، وبالتالي يمكن أن تقدم له واحدة مِنْ البنات، أجمل البنات، لكنه لم يشأ أيضاً. أما حين فتح صدره، وأخرج قلبه ووضعه أمامها، فقد كان لا يريد سوى نجمة. بدت روجينا حائرة مشفقة، بل وحزينة. ماذا تستطيع أن تفعل مِنْ أجله، وكيف تتصرف معه؟ حتى ذلك المقطع مِنْ الأغنية الذي رددته كان حزيناً أكثر مما كان ساخراً. وكأنها تريد أن تقول: لا أملك لك حلاً، ولا أستطيع شيئاً!

فِي تلك الليلة، ومع أنّه خرج متاخراً مِنْ بيت روجينا، فقد حام، مثل أيّ لص، حول القلعة. كان يعرف أن ثامر إلى جانب سيد عليوي، وبالتالي يجب أن يقيم قريباً منه، ونجمة لا بد أن تكون هناك أيضاً. نظر إلى عددٍ مِنْ كوى القلعة، كانت مظلمة. نظر إلى السور، كان عالياً قاسياً ومنفراً. أما سيد عليوي الذي حرص على الإقامة فِي القلعة خلال الفترة الأولى، ثم أثناء التحضير لحرب الفرات الأعلى، فهل ما يزال متقشفاً وراغباً فِي أن يبقى بين جنوده، خاصة بعد النصر الذي حققه، أم يريد أن ينتقم الآن، ويعوض ما فاته، ولذلك سرح إلى بيت مِنْ البيوت الكثيرة التي يتردد عليها، وحمل معه الشراب والغناء والرقص ومضى؟

تراءت له نجمة، لكن هذه المرة بين مجموعة مِنْ الرجال المخمورين، وليس كما شهدها فِي ليلة القلعة. الآن.. الرجال لا ينظرون إليها مِنْ بعيد، وإنما يتناوبون عليها، يتقاذفونها، وهي لا تملك إلا أن تستجيب، أن تشاركهم الضحك والعربدة، حتى إذا قامت لترقص، ولا بد أن تكون عارية، لا يطاوعها جسدها، يرتخي ثم يسقط. والذين حولها يصرخون، يطالبون. وتحاول، لكنها تسقط مرة أخرى، تتلوى وهي على الأرض، يتشنج وجهها، يهتز جسدها، ثم فجأة تتقيأ.

قال لنفسه بحنق وهو يحاول إتقاء هذه الصورة: «لا يمكن أن تكون هكذا، إنها أقوى منهم، ولا أحد يستطيع أن يرغمها. وتذكر كلمات روجينا: «أيّ مرية إلا هذي» وحلفت لتؤكد له، وأضافت أن ثامر قابض عليها كما يقبض الكلب على عظمة، وانه يغار عليها ولا يقبل حتى لضوء القمر أن يراها، ولا زال نادماً على تركها ترقص هكذا أمام الرجال فِي ليلة القلعة.

بعد الدورة اليائسة حول القلعة، ولمقاومة فكرة أن تكون نجمة الآن عارية وبين مجموعة مِنْ الرجال، قرر أن يعود إلى داره فِي الشيخ صندل.

كانت بغداد تغرق فِي أضواء الفجر. برد ناعم يوقظ الحواس. ملا حمادي الذي رفع الأذان بسرعة، مثل عادته، وانتهى مِنْ هذا الواجب الضروري، يريد أن يوقظ الجميع، لذلك يرفع صوته متعمداً للرد على تحيات المارين القلائل، وينادي كأنه يصرخ أو يستغيث طالباً مِنْ سيفو «أن يرقص لليوم الجديد بچفية» لأنه أول محرم، وعليه أن يبذل جهداً مضاعفاً لمثل هذا اليوم المبارك، ليتقاضى بهذه المناسبة إكراميات وعطايا لا حد لها؟

وصل بدري والنقاش، الأقرب إلى المداعبة، يدور بين الملا حمادي وسيفو. وإذ رحب به الإثنان، واعتبرا هذا الصباح مباركاً، خاصة وأنهما لم يرياه منذ وقت طويل، لكن يُقدران الأعباء والمهمات التي يقوم بها، وإضطراره للإقامة فترات طويلة فِي السراي، إلى جانب الباشا، فإن المحلة تعتز، كما قال ملا حمادي، «لأن لها ابناً فِي السراي وكلمتنا هناك مسموعة.» فقد تساءلا، دون كلمات، ما إذا كان آتياً مِنْ السراي أو ذاهباً إليها فِي هذه الساعة المبكرة.

قال ملا حمادي، وكأنه تذكر أياماً سابقة:

- اللي يشوفك، يا بك، بعد هالغيبة الطويلة، يقول شقد كبرنا، وشقد مرت أيام.

ـ الأيام تركض ركض يا معود، قال سيفو، سد عين.. إفتح عين تشوف العمر انقضى!

- مو بس هالشكل: نركض مِنْ الصبح إلى المسويات والعشا خبيز!

ـ تهون يا ملا، تعودنا، وما عادت تفرق!

ـ أنت ما تفرق وياك، مولانا، ماكو وراك دادا ولا بيبي، بس ويا غيرك تفرق، لو أنا غلطان.. بك؟

- حاشاك ملا، اللي تقوله صحيح!

هكذا ردَّ بدري، فِي محاولة لئلا يدخل فِي نقاشٍ لا يعني له شيئاً، وغير مستعد له، الأمر الذي استفز سيفو، فقال بحدة:

ـ لا تسمع هذا الكلام، مولانا، الملا كُلّ كلامه دفن.

- آني سيفو؟ بهذا اليوم الفضيل تقول هذا الكلام؟ ما تخاف الله؟

ـ ما أخاف غيره، ملا، بس أنت قلت لروحك: جا ابن المحلة، بدري، فلازم ما نفوتها، نذب قدامه چم حچاية، وهو ما يقصر، يقول للباشا والباشا يعطي!

- وشكو بيها إذا الباشا تصدق على الفقرا، على اللي يستاهلون؟

- قبل ما تسال الآدمي: شلونك، شلون الصحة والأحوال، شوكت نسمع الأخبار الزينة إنك راح تتزوج ونفرح بك، قبل هذا كله: تعدد وتلطم، فإذا الباشا ما انطاك تريد بدري ينطيك، مو هالشكل؟

ـ أنت تدور طلايب سيفو، تريد تفتن بينا!

قال بدري، وحاول أن يحمل صوته مقداراً مِنْ المصالحة:

- يا جماعة الخير: الدنيا بعدها غبشة، وآني صار لي كم يوم ما نايم، عصرية أو مسويات نتلاقى ونسولف!

ردَّ سيفو فِي محاولة لأن يقطع الطريق على الملا حمادي:

ـ لا تدير بال، عيني بدري، الملا يشيل مِنْ اللحية ويخلي على الشوارب، ولا بد شعرة تلزق!

تركهما بدري يتناقشان ويتعاركان، ومضى.

عادة محلة الشيخ صندل أن تكون شديدة الاحتفال بأبنائها، خاصة عندما يعودون مِنْ سفر، أو حين يشفون مِنْ مرض، وتعبر عن ذلك بالزيارات والهدايا، لذا اعتبرت إجازة بدري لا تقل أهمية عن السفر أو الشفاء مِنْ المرض، فكثرت الزيارات وتواصلت. فِي الصباح بعض النسوة، الجارات والقريبات، وبعد الظهر، وعلى امتداد المساء والسهرة، الكثير مِنْ الأصدقاء وبعض الأقارب. الأم، والأختان الكبيرتان، شعرن أن الإجازة هي استجابة لطلباتهن المتكررة حول ضرورة أن يبقى بدري فترة فِي البيت، وأن يتردد عليه أكثر مِنْ السابق، كي يدبر أمر زواجه بطريقة مناسبة، إذ ستتاح له فرصة أن يلتقي ببعض القريبات، ببعض فتيات المحلة اللواتي كبرن فجأة أثناء غيابه، ولا بد أن تعجبه واحدة، وعند ذاك سيتم البحث العملي بين النساء، ثم بين الرجال، مِنْ أجل ترتيب المهر فالزواج. أما إذا ظل غائباً أو بعيداً، وظلت الأسماء وحدها تتكرر: فلانة طويلة، وفلانة سمينة، وهذه تريد وهذه لا تريد، لأنها صغيرة، أو تنتظر ابن عمها، إذا ظلت الأمور هكذا فلن يتزوج مهما ألحت الأم والأخوات، ومهما تعاونت عليه العمات والخالات، إذ غالباً ما يرد على مثل هذا الإلحاح بابتسامة، تعقبها نكتة، كي يدوخ الناس، كما تقول أمه بحزن ومرارة.

لم يكن إذن ما قاله بدري للباشا كذباً كله، وإن لم يكن كُلّ الحقيقة. ففكرة الزواج التي لم تراوده أو تشغله بهذا المقدار، كانت تشغل الأم إلى درجة أن عينيها تنفتحان إلى الدرجة القصوى ما إن ترى فتاة تعتبر أن فيها مِنْ الصفات ما يلائم «المقرود» الذي لا تعرف كيف يفكر أو ماذا يريد، خاصة وأن جميع أقربائه وأصدقائه الذين بعمره، أو حتى مِنْ هم أصغر منه سناً، تزوجوا وأنجبوا، وهو لا يزال يؤجل، ولا يرغب الخوض فِي هذا الموضوع!

الآن، وخلال هذه الإجازة، لا بد أن يحسم الأمر، وهكذا دب الصوت فِي المحلة أن بدري جاء ليبقى فترة غير قصيرة. وسرى الهمس أن شيئاً ما متوقع الحدوث، فإذا لم يكن زواجاً كاملاً، فلا أقل مِنْ نيشان، وربما عقد المهر، انتظاراً لوقت ملائم مِنْ أجل إتمام الزواج. وبهذه الطريقة التي لا تخلو مِنْ تواطؤ، بدأت تتوالى الزيارات التي تظهر بريئة عفوية، لكن وراءها تدبير ومكر كثير.

أما الأصدقاء والأقارب الذين جاءوا للزيارة، ثم للخروج معاً إلى مقهى المحلة، وأحياناً تبادل الزيارات مع مقاهٍ أخرى، وأيضاً التمشي على شاطىء دجلة بين العصر والغروب، فقد كانوا أكثر جرأة وصراحة فِي السؤال عن احتمال الزواج، وما إذا كان ينوي ذلك الآن. وكان الجواب، أغلب الأحيان، قصيراً وحاسماً: «ليش مستعجلين، بعد وقت» أو «الزواج ما هو بالبال ولا بالخاطر، فاتركونا مِنْ هذا الموضوع يرحم والديكم» فإذا ألح عليه أحد الأقارب المسنين بالسؤال، أو بضرورة أن يحسم الأمر ويقرر، فكان يلجا إلى المزاح، وإلى نكتة يرويها كي يغير الجو!

وإذا كان الكثيرون على قناعة أن بدري يعني ما يقوله بشأن الزواج، فقد بدا لأغلبهم أن شيئاً يدبر فِي هذه الأيام، ومختلفاً عن أيام سابقة. حتى بدري بشكله أو بتصرفاته، وأيضاً طريقته فِي الكلام، وهو يرد على سؤال أو يروي حادثة، بدا متوتراً ولا يخلو مِنْ نزق. غابت عنه تلك الميزة التي جعلته متفوقاً على الكثيرين: الحيوية، إذ كان يورد التفاصيل، وبصور مليئة بالطرافة والجدة. الآن يبدو ما يرويه، إذا روى، مفتقراً إلى النضارة، وبعض الأحيان مفتقراً إلى الترابط. أكثر مِنْ ذلك بدا وكأنه لا يرغب بأي كلام.

هل غيره الجبل أم أثرت عليه السراي؟ وهل تكفي هذه الفترة أو تلك الأماكن لأن تغير الإنسان بهذا المقدار؟

حتى الزيارات الصباحية التي يفضلها الأصدقاء المقربون، إذ يمكن أن يتحدثوا بهدوء، وأن يستفسروا عن أيّ شيء، دون مقاطعة الآخرين أو صخبهم، حين يتزايد الجمع، لم يستطيعوا أن يرتبوها، «لأن الأفندي» وهذه الصفة التي يطلقونها تقع بين التعريض واللوم، لكن دافعها المحبة بكل

تأكيد، «ينام للظهر. وكان عنده قصور نوم، وما يريد يشوف خلقة بني آدم». والذين تجرؤوا واقتحموا، وأيقظوه مِنْ نومه، فوجئوا وهم يرونه ذابلاً، أقرب إلى الغياب، حتى بعد أن يمر وقت غير قصير يجدونه غير مستعد لمشاركتهم، أو أن تلك المشاركة مختلفة كثيراً عن السابق، لفت نظرهم ذلك وحاروا فِي تفسيره!

الأسطه اسماعيل، أبو حقي، حلاق المحلة، جاء عصراً للسلام. جاء بملابس نصفها يرتديه أثناء العمل، والنصف الثاني أثناء الجلوس فِي المقهى أو زيارة الأصدقاء. ومثل عادته يريد أن يسمع وأن يتكلم فِي نفس الوقت، وبنفس المقدار. ولكي يعبر عن احتفائه، ولأنه لا يريد أن يبقى طويلاً، فقد خلق هرجاً غير الجو:

- ضوت المحلة ببدرها فيا ألف هلا ومرحبا...

والتفت إلى الحضور، أجال نظرة سريعة، تركزت بالدرجة الأولى على الرؤوس، كي يتأكد أن لا أحد خانه وذهب إلى حلاق آخر، وما إذا كانت الرؤوس تحتاج إلى حلاقة جديدة أم لا. بعد هذه النظرة التي طمانته بدأ:

- أشغال الناس كلها كوم وشغلتنا كوم...

تطلع بفرح إلى الوجوه التي شدتها هذه البداية، التي لا بد أن يكون وراءها شيء هام:

ـ القصاب يذبح، وبعد ساعة زمان ينفض إيده ويمشي، لأنه باع وخلص. البزاز ما يوصل دكانه إلا الظهر، يروح مترهي، بعد استكان شاي أو اثنين، واحد بقهوة المحلة والثاني بقهوة الشط. ولما يفتح، يقول، وهو مقندل: يا كريم. وتتدهدي عليه خاتون وراء الثانية، وكُلّ واحدة تخبل. وسوالف وضحك وشقا...

وأدار عينيه بالوجوه التي استطابت الحديث، وان ظل غامضاً، إذ لا يُعرف ماذا سيأتي بعده. هز رأسه عدة مرات، وتنحنح ليصقل صوته، ثم أضاف:

- وتريدون بعد أقول لكم شلون يشتغل العلوچي وبياع المخضرات والزعرتي و...

وسمع أصواتاً مرحة تطالبه أن يتحدث حول الزعرتي، ردَّ بمرح، كي يبرر ما سيقول:

- قواويد، أديسيزية، كلكم تعرفون شغل الزعرتي أحسن مِنْ أبو حقي، لكن اللي جوا إبطه عنز تثغي...

وضحك بمرح كي يزيل آثار الشتائم، وأضاف:

- باوعوا بين رجليكم حتى تشوفوا شنو اللي ساواه بيكم الزعرتي! ولئلا ينساق فِي هذا الجو، وكي لا يمر الوقت، سأل بلهجة جديدة:

- إسألوني، يا جماعة الخير، شنو القصد مِنْ هذا الكلام؟ شنو لازمته؟

- إي أبو حقي، شنو قصدك؟

هكذا سأل أكثر مِنْ واحد، وبمرح، فرد، وهو يستعد للنهوض:

ـ أيّ نعم، وين رباط الكلام...

وتابع وهو واقف:

- أول ما قلته، إن كُلّ الأشغال أحسن مِنْ شغلة المزين، كُلّ شغلة ولها وقت، إلا شغلة المزين: بالليل وبالنهار، مِنْ غبشة وبعد ما تظلم العين، ولازم تراضي كُلّ الناس.

و خطا خطوة والثانية، حتى إذا أصبح وسط الغرفة، وقف وأخذ يردد:

- سليمي با سليمى.. تنام قلوب الناس وآني قلبي شينيمه؟

وحين ضجت الغرفة بالضحك، وما كاد يجد لحظة كي يُسمِع صوته، حتى قال، وهو يخرج:

ـ مسلم عليكم يا جماعة، وفِي أمان الله!

ما كاد يخرج حتى أطل برأسه مِنْ جديد، وقال مخاطباً بدري: - - خل بالك... هذا الرأس ينراد له زيان، فلا تطول على أبو حقي!

وظل الأسطة اسماعيل، مثل عادته، يتسقط الأخبار، خاصة أخبار بدري، إذ بعد أن وصلته تعليقات مشوشة مِنْ الذين زاروه، أخذ يساوره القلق: إجازة طويلة أم أن الباشا استغني عنه؟ هل هو مريض أم قرر أن يتزوج؟ ولماذا هذا الشحوب وهذا الصمت؟

قال اسماعيل لسيفو، وهو يحاول أن يستدرجه:

- يقولون، سيفو، إنّه بيت آغاتي اشتروا حوش بصف حوشهم وخيطوا واحد باللاخ، سمعت؟

- منو بيت آغاتي؟ وشلون يتخيط حوش باللاخ؟

- بيت علو...

وبعد قليل، وبصوت مختلف، كأنه يتآمر:

- يقولون أن بدري جا وجايب وياه كومة فلوس!

ـ إلعب بالمقصص، أبو حقي، شنو تريد تقشمرني؟

- وداعتك هذا اللي سمعته، هذا اللي يقوله الناس.

- آني ما سمعت، وما أحط بذمتي!

- زين.. أنت شنو اللي سمعته؟ شنو اللي تغير ببيت علو؟

- الله وكيلك ما تغير شيء: نفس الطاس ونفس الحمام!

ـ لعاد الناس ليش تحچي؟

- يا معود الناس مِنْ يوم آدم ما عندهم إلا الحچي والسوالف!

ـ يعني، برأيك، ماكو شي؟

- أيّ، ماكو شي، اطمئن!

قال أبو حقي يخاطب نفسه، لكن يريد أن يستفز سيفو:

- الله العليم انْ ماكو دخان بليا نار!

ـ يعني ما تصدقني؟ ما تثق باللي أقوله؟

- كلامك على الراس والعين، سيفو، بس الواحد ما يقدر يسد آذانه، ويقول ماكو شي...

وبعد قليل وبانفعال عله يستدرج سيفو مِنْ جديد:

- كُلّ الناس تسولف وتقول إن بدري جايب وياه لهمودة فلوس! - يا أبو حقي الناس تلقلق، تحب الحچي، وأنت عاقل وتفتهم، وتعرف كلش زين منو الحاج صالح العلو: الحرام أبد ما يفوت بيته!

- آني هذا رايي، سيفو، لكن ما أقدر أضم راسي مثل النعامة وأقول ماكو شي، إذا كان الكلام تارس بغداد!

- يا معود، أهل ذاك الصوب يسوون للضرطة هلاهل، فسدها وخلصنا!

- وأهل هذا الصوب؟

ـ أنجس!

بعد قليل، وهو ينهض بعصبية:

- وآني على ويش مدوخ رأسي، خلي أمة علي تندب علي، وآني خلي راسي مرتاح.

فِي أحد العصاري «قبض» الأسطة اسماعيل على بدري:

- جيت والله جابك، صار وقت زيانك!

- الله يخليك، أبو حقي، اليوم مالي واهس.

- هذي مو كُلّ يوم تحصل، هسه نحن وحدنا، أزينك ونسولف.

ـ مالي خلق أسطه اسماعيل، أجيك غير يوم.

- شوكت، قل لي، الدنيا ما عاد بيها أمان!

ـ ما أقدر أقول: بس غير يوم، اليوم مالي واهس.

- هذا مو كلام، بك، أريد تقول لي شوكت...

وتغيرت اللهجة تماماً، لم تعد تتعلق بالحلاقة، فعينا بدري الحائرتان، إضافة إلى شحوبه، أثارا الأسطة اسماعيل، سأل بلهجة جديدة:

- الزيان وأبو الزيان.. هذي ما اشتريها ببارة، ما زينت اليوم تزين ثاني يوم، الشعر مخلوف، لكن اللي حارق فوادي أني شايفك صافن، وما يندري أنت هنا أو هناك، معنا أو مع غيرنا، وهذا مو بس رأيي آني، الكل يقولون: بدري تغير، وكأن المحلة وأهلها ما عادت فد شي بالنسبة له، لو آني غلطان؟

- أبو حقي، يرحم والديك، كلام الناس هوايه، فلا تدير بال.

- أشوفك هالأيام غير شكل، وكأنْ اكو قضية شاغلة بالك، أنت بس قول وما عليك، علي الباقي!

ـ ماكو شي، يا أبو حقي، ولا تلح، لأنْ بعدها أصدق أنّه أكو قضية!

ـ خاف محتاج فد شي؛ خاف أحد غاثك؟

وتغيرت اللهجة، فِي محاولة للاستدراج:

- وأولها وتاليها، يا بك، الناس للناس، والأقربون أولى بالمعروف...

اقترب منه أكثر، حتى كاد يلامسه:

ـ نحن أولاد محلة، بينا خبز وملح، واللي يصير عليك يصير علينا. نحن إخوان، أكثر مِنْ الأخوان، فازعل هوايه إذا ظليت ساكت، إذا ما سولفت وقلت شنو اللي يوجعك!

- كُلّ شي ماكو، يا أبو حقي...

وبعد قليل وبحزن:

- كُلّ ما فِي الأمر: ضايج يا أبو حقي، والدنيا ما تسوى خِلالة!

- تعال.. تعال، لازم أعرف، عيني بدري: أنا أزين وأنت سولف، وإذا ما عاجبك زيان، نقعد ونسولف!

- خليني اليوم، أجيك غير يوم!

- إلى يوم كَصاص الغزلان؟

ـ لا يا معود، يوم والثاني وما تشوفني إلا وأنا طاب.. تزين ونسولف.

- هذا وعد؟

وبعد قليل وبلهجة مختلفة:

- بس بصراحة شَوشتني، ليش هالضوجة؟

- لا تدير بال أسطة، كُلّ قضية وإلها حل!

الأسطة اسماعيل الذي سلم مؤقتاً، إذ شعر أن لا جدوى مِنْ استمرار الإلحاح والمحاولة، قدر أن المشكلة التي تواجه بدري تتعلق بالدرجة الأولى، بالوظيفة، إذ ربما يكون الباشا غاضب عليه، ولا بد أن تطول إقامة بدري فِي المحلة، وما لم يستطع معرفته اليوم سيعرفه فِي الغد، سواء مِنْ بدري نفسه أو مِنْ آخرين.

أما سيفو الذي أحس، دون سؤال، أن زيارة بدري ليست مثل زيارات سابقة، وربما قدر ذلك مِنْ عدد الضيوف، أو مِنْ انشغال الأم، وحركتها المضطربة السريعة، فإن منظر بدري، منذ اليوم الأول، ثم حين صدفه فِي قهوة المحلة، أو وهو يتمشى على شاطىء دجلة، لم يعجبه، لم يقل ذلك لأحد. لم يسمع الكثير مما كان يدور مِنْ همس وتعليقات، حتى ما قاله أبو حقي، لم يسمعه، لكن أخذ يراقب ويتساءل.

أكثر مِنْ ذلك: «قِرَب الماء التي كان يجلبها لبيت صالح العلو مرتين فِي اليوم، الأولى فِي الصباح الباكر، والمرة الثانية عند الغروب، زادها واحدة ثالثة، كان يجلبها عند الضحى. لم يطلب منه أحد ذلك، ولم يعترض على ذلك أحد، لكنه قدر ضرورة الزيادة وفعل. وربما كان الحمل الإضافي السبب الذي جعله يلتقي مرات عديدة ببدري.

ظل خلال الأيام الأولى يأتي بحمل الضحى دون ضجة، خلافاً لحمل الصباح، إذ كان يكره النوم المتأخر، ويريد أن يكون الآخرون مثله، أو على الأقل لا يميلون إلى الكسل، أما وهو يأتي بحمل الضحى، فكان ميالاً، لا

يعرف لماذا، لأن يفعل ذلك بهدوء، وببعض الكسل، إذ يطلب أن يشرب الشاي، أن يجلس فِي باحة الدار. قد لا يتكلم كلمة واحدة خلال هذه الفترة. كان يكتفي بأن يدخن غليونه، ويتأمل النباتات، وبعد أن يحتسي قدح الشاي الثاني ينهض، وبهدوء يغادر.

فِي هذه الفترة، التقى أغلب المرات ببدري، وجرت بينهما أحاديث. كانت قصيرة، سريعة، لكن أكدت له أن هناك مشكلة ما. لم يقل له أحد ما هي. لم يسأل. لم يتغير شيء، سوى الحركة السريعة، وأيضاً صمت بدري، وبعض الأحيان ذهوله، أو ربما غيابه وهو يراه أمامه! وهذا ما جعله يراقب بعناية، ينتظر اللحظة التي يقول له بدري شيئاً، عله يستطيع أن يصل إلى بداية «الانكشاف»، كما يقول لنفسه عندما يواجه صعوبات أو تحديات.

بعد عدة أيام مِنْ المراقبة، وانتظار اللحظة المناسبة، فجأة وجد بدري يحمل استكان الشاي ويأتي للجلوس بجانبه، ودون مقدمات بدأ:

- أبو فلاح.. أريد مساعدتك، أريد منك فد خدمة!

- آني؟ أساعدك؟

ـ أيّ نعم، أنت الوحيد اللي تقدر!

ـ أحچي غيرها، يا معود، آني رِجال فقير، على باب الله، خاف أنت غلطان!

- لا.. عمو سيفو، أنت اللي تقدر تساعدني!

ـ أستغفر الله؛ أؤمر عيني بدري، واللي أقدر عليه، اللي أقدر أسويه، فدوة لعيونك.

حتى تلك اللحظة لم يكن سيفو يصدق أذنيه، زحف، كما يزحف كلب، نحو بدري، تطلع إليه، بعد أن فرك عينه اليمني بطرف ردائه، بعناية، إذ ربما توضح النظرة ما عجزت عنه الكلمات. كان خائفاً ومرتبكاً. تابع بدري وكان صوته مضطرباً:

- تعرف ملاح؟ صاحب مركب؟

لم يجب سيفو، فكل ما يسمعه، حتى الآن، يبدو غريباً، غير قابل للتفسير. تطلع مِنْ جديد، وبإمعان، إلى عيني بدري، وكان يجلس بجانبه وليس بمواجهته، لعل العيون والحركات تسعفه لمعرفة ما يريد منه. قال بدري:

ـ أريد صاحب بلم أو صاحب مركب زين، خوش ولد، نؤجر مركبه مِنْ الصبح إلى المغرب...

وتغيرت النبرة وهو يسأل:

- تعرف تجدف أبو فلاح؟

ماذا يريد منه؟ لماذا يسأله هذه الأسئلة؟ وماذا يريد أن يفعل بالمركب؟ هكذا سأل سيفو نفسه، وهو يحاول أن يقدر إجابات مِنْ نوع أو آخر، دون أن يجزم بشيء.

ردَّ سيفو بارتباك:

ـ أكو هواية بلامة زينين.

وبعد قليل، وقد غير جلسته، ليكون مقابله، وسأل، وكان جسده كله يسأل:

- بس ما قلت لي شتريد بالمركب؟ وين تريد تروح؟ وين تريد تسير؟

ابتسم بدري كانت ابتسامته مرتبكة، ووجهه شاحباً، بدا حائراً أو غير قادر على الإجابة. وربما عنت له فجأة فكرة أن يستأجر قارباً وينزل إلى النهر، أما ماذا سيفعل بعد ذلك فلم يكن يملك جواباً أو تصوراً واضحاً.

سأل سيفو إذا كان راغباً بكأس شاي جديد، وكأن بهذا السؤال يريد أن يغير الموضوع، أو أن يعطي نفسه فرصة إضافية كي يفكر، ومن أجل أن يخرج الموضوع بطريقة مقنعة أو ربما جديدة. هز سيفو رأسه بالموافقة، دون أن يتكلم. نهض بدري، وهو يحمل الكأسين. بدا فِي مشيته وكأنه لا يسيطر على جسده وحركاته، ترنح قليلاً ثم استقامت المشية. شعر سيفو بالحزن، وامتلا حيرة أكثر مِنْ قبل. قال لنفسه، وهو يهز رأسه: «تغير الرِجال.. تغير هوايه».

مع الرشفات الجديدة، وبدا الشاي هذه المرة أطيب مذاقاً، تجرأ سيفو على السؤال:

ـ ما قلت لي: ليش المركب؟ وين تريد تسير؟

- ما أريد أروح لأي مكان. أريد أتمدد بالمركب وأباوع على القلعة...

وبعد قليل، وبصوت يكاد لا يسمع:

- لعل وعسى؛ يمكن الله يفتحها على وجهنا!

إذا كان للكلام السابق أن يُفهم، ولو بصعوبة، فإن ما يقوله بدري الآن لا يفهم أبداً. انه كتلة مِنْ الألغاز، وربما يحمل الخطر أيضاً. تذكر سيفو الأحداث التي وقعت قبل سنتين، عندما حوصرت القلعة وكان فيها سعيد وحمادي، وكيف ألقى بعض الذين كانوا فيها أنفسهم إلى الشط، لعلهم ينجون، ثم كيف اضطرب الشط، وسادت الفوضى واتسعت، وخاف الناس وترك قسم منهم بيوتهم وسافروا... فماذا يريد بدري الآن مِنْ القلعة، وما الحاجة إلى مراقبتها بعد أن حكم داود وأصبح كُلّ شيء فِي بغداد طوع بنانه وتحت تصرفه؟

مرت هذه الصور والأفكار فِي مخيلة سيفو، وقد أصبح كله عيوناَ، وهو يراقب بدري، ولا يعرف كيف يفكر أو ماذا يريد.

تطلع بدري بتحديد إلى عيني سيفو، قال، وخرج صوته دافئاً وراجياً:

ـ إذا قلت لك فد سر، يا أبو فلاح، يظل بيئا؟ ما يطلع؟

ردَّ سيفو، وشاب صوته الألم:

ـ على بختك، بدري، شنو مالك ثقة بي؟

وبعد قليل، وكأنه يلومه:

- لولا أني أعرفك، وأعرف الحليب اللي رضعك، كانت أخذت على خاطري...

وتغيرت اللهجة أكثر، أصبحت تقريعاً:

- شنو نسيت الأوادم؟ ما عاد اكو أمان بالدنيا؟ والرجال ينربطون بزنجيل أو بكلمة يقولونها...؟

وعاد إلى لهجة مصالحة:

- لا... على بختك يا بدري، ما كنت أريد منك هذا الكلام!

هكذا تدفق سيفو، دون أن يترك له فرصة للتوضيح أو الرد. وبدري الذي كان يهز رأسه ويبتسم، كان راضياً أيضاً عن الثقة التي يقدر وجودها لدى سيفو، لكنها الآن تعبر عن نفسها بهذا الفيض الذي لا يترك مجالاً لشكٍ أو لتردد.

ردَّ، وكان لصوته رنين:

ـ ما افتهمتني زين، يا أبو فلاح، وما كان قصدي مِنْ السؤال اللي جا ببالك...

- على كلٍ شتريد.. قول!

هكذا ردَّ سيفو بما تبقى فِي صوته مِنْ عصبية، وراغباً فِي أن يسمع ذلك السر.

جمع بدري نفسه، تنحنح أكثر مِنْ مرة، استعداداً لأن يبوح:

ـ أنا متورط، يا أبو فلاح. شفت بنية، شلون بنية، تاخذ العقل، ومن يوم ما شفتها وصورتها ما تغيب عن بالي لا بالليل ولا بالنهار...

كان سيفو يسمع ويهز رأسه، وللحظات، ظن أن بدري يهذي، إذ لا توجد علاقة بين الذي يقوله الآن، وما بدأ به الحديث. هل يريد أن يصطحب الفتاة بنزهةِ واختار أن تكون فِي النهر؟ وما دخل القلعة فِي الأمر؟

سأل، وبدا صوته بين المرارة والسخرية:

- راح تخبلني، لأنها انلاصت علي. بدينا بمركب مع ملاح زين، وبعدها تحچي لي عن بنية، ما تفهمني وين رباط الحچي؟ شجاب هذي على هذي؟

ـ القصة طويلة، لكن بالمختصر المفيد: هذي البنية، الله أعلم، نازلة بالقلعة، وأريد أتأكد!

ـ نازلة بالقلعة؟ شنو اللي جابها على القلعة؟ شتسوي هناك؟

- رجلها يشتغل بالقلعة!

ـ وهمين متزوجة وعندها رجال؟

ـ أيّ نعم... لكن...

وحاول أن يستدرك، أن يوضح، لكن الصورة غامت وتداخلت فِي ذهنه، فلا يعرف إن كان ثامر تزوجها أم تعيش معه دون زواج، وما إذا كانت له وحده، أم يشرك الآخرين معه، وما طبيعة العلاقة بينهما. سأل بارتباك:

- تعرف ثامر المجول؟ سمعت به؟

- منو ما يعرف ثامر يا معود. هذا أشهر مِنْ نار على علم!

وبدأ سيفو أكثر اندهاشاً وحيرة. تطلع إلى بدري بإمعان وبخوف. ماذا حصل له، وماذا حصل فِي هذه الدنيا؟ يبدأ بسؤال وينتهي إلى شيء آخر مختلف، ولا علاقة بين البداية والنهاية، فكيف يفكر الرجل أو ماذا يريد؟

خفض سيفو صوته، وهو يسأل:

ـ شنو القصة؟ شنو اللي صاير بالدنيا؟

ـ ما أدري، شفتها وتخبلت بيها!

- وثامر، شعليه؟ شنو قصته؟

ـ عايشة وياه، وما أدري، يحبها؟ مستقعدها؟ تزوجها؟

- سالفتك آغاتي، ما الها چارة، برسيم بعوسج...

وبعد قليل وبطريقة أبوية:

- عيني، بدري، خاف أنت متوهم، هذول الناس ما أحد يقربهم، يتحارش بيهم. فإذا كان ثامر مستقعدها، فلا بد تكون مثله، هالرقعة لهل البابوج، فانساها ولا تدير بال، يرحم والديك.

- ما أقدر يا أبو فلاح، ما أقدر!

- والله دوختني، وما أعرف شاقول، وشلون أقدر اخدمك وأساعدك؟

- ننزل بالمركب، ونظل نباوع القلعة، بركي الله!

ـ تحچي صدق لو تقشمرني؟

ـ إذا أريد أقشمر روحي ما أقشمرك، يا أبو فلاح! أنت مثل أبوي، وما تعرف شقد أقدرك وأحبك.

- وإذا أخذنا المركب ونزلنا بالشط، وشفت المسعدة، بنت الأوادم، شراح تسوي؟

ـ ما أدري، المهم أباوعها، أشوفها!

- وإذا شفتها؟

- هذا يكفي!

ـ لا تلعب بي شاطي باطي، بدري، يرحم والديك، قل لي الصدق حتى نذبحها على قبلة، لأن هذا الكلام اللي تقوله ما ينصرف، ما يسوى فلسين!

ـ أنت ما عليك، خلينا ننزل وبعدها الله كريم!

- لازم تعرف، بدري، عيون الناس مفتحة، وإذا ظلت القضية سر بيني وبينك، باچر اكو ملاح واكو أوادم بالشط وعلى الصوبين، والناس تحچي!

ـ إحنا شمسوين، يا أبو فلاح، بايقين؟ ناهبين؟

وتغيرت اللهجة، وهو يُضيف:

ـ قاعدين بالمركب نباوع، وإذا الله رزقنا نصيد فد شبوط.

- بدري.. هاي بغداد تنسد بوبها، وحلوق الناس بيها ما تنسد، فخاف تجيبك التهايم وأنت نائم، وبعدين تبتلي. أنا ما علي، لا بعدين تقول!

- ما عليك، أنا المسؤول!

- زين.. زين. اليوم خلص، باچر أدور على ملاح زين، وعقب باچر ننزل، اتفقنا؟

ـ على خيرة الله!

اثنان لم يناما تلك الليلة: بدري وسيفو!

فسيفو الذي تعود أن يصل إلى البيت بعد الغروب بقليل، وغالباً يصلي المغرب متأخراً أو لا يصليه، رغم لوم ملا حمادي ومحاولاته فِي أن يحمله على الصلاة فِي المسجد جماعة، «لأنها أبرك، يا أبو فلاح، وكُلّ ركعة بألف، وهذي راح تشفع لك يوم القيامة» فإن جميع الجهود التي بذلها الملا لم تجدِ. كانت الحجة الدائمة لسيفو: الجوع. «جوعان، ملا وتعرف: إذا بردت الشوربة ما تنكال». لكن إلى جانب هذه الحجة: الرغبة فِي أن يشعر، ولو لفترة قصيرة، أنّه قادر أن يكون سيداً، وأن يفعل ما يريد، وليس ما يطلب منه. ومن جملة ما أصبح يعتبره حقاً له: أن تستقبله فطيم، وأن تصب الماء على يديه ليزيل آثار تعب اليوم، وأن يكون الدوشك مفروشاً فِي صدر الغرفة، وبعد أن يغير ثيابه، والثياب هي الدشداشة القذرة المربوطة بالحزام الصوفي، إذ يخلعها بسرعة ويرمي بها فِي الزاوية، وحالما يفعل ذلك يبدو مثل طائر ملون: الأجزاء التي تتعرض للشمس تبدو قاتمة أقرب إلى السواد، أما تلك المستورة، عند أسفل البطن وحتى الركب، فإنها متدرجة الألوان: حنطية قاسية، ثم بياض كأنه التراب المبلول، ثم بلون الباجلاء، حتى إذا رأى الإنسان لون الركبتين فإنه يرى ما يشبه الخبز المحروق: سواداً على كثافة خشنة وكأنه طين متراكم.

حين يخلع دشداشته، ويبدو عارياً، أو أقرب إلى العري، وتراه فطيم هكذا، تقول بنوع مِنْ السخرية:

- وين مصخم روحك...؟

وقبل أن يجيب، وهي لا تنتظر جواباً، تتابع:

- نايم ورجليك بالشمس، وراح يجي يوم مو بس تسود، راح تحترق!

يتناول منها الدشداشة النظيفة. يبتسم. يقول كأنه يكلم نفسه:

- باوعوا منو اللي يحچي، منو اللي يقول!

وبعد قليل، وبسخرية:

ـ قال غراب لغراب: ولك.. ليش أنت أسود؟

ترد فطيم بتحدٍ:

ـ إذا أحد شافني وشافك يقول: حرامات هذا الأبيض القرطاس ينمرد ويا الفحم والطين!

- الحق وياك خاتون: إذا الشمس مِنْ أيام وسنين ما شافتك، وإذا تباوعين على القمر مِنْ ورا البوشي، فلازم تصيرين قرطاس، أبيض مِنْ القرطاس!

وقبل أن تجيب يهدر صوته:

- ويلچ.. منقوبة، بدل العوافي، بدل الهلا والمرحبا، واقعة بي دق؟ أسود ومطين؟

وتتغير اللهجة، تصبح ساخرة:

ـ الحق علي أتزوج واحدة مزنجرة، تخضخض مثل كَونية العظام، لكن القدر كتب ورسم...

وبعد قليل، وقد لبس دشداشته وارتمى فوق الدوشك:

ـ ما يخالف.. إذا فاتتنا بالدنيا.. حظنا بالآخرة ما راح يكون هبي بياض!

- باوعوا منو يقول...

تتسع ضحكتها وهي تهز رأسها، وتضيف:

- عبالك تشوف الجنة؟ هاي شيلها مِنْ بالك!

ـ حتى الجنة ما أريدها إذا أنت بيها!

وفجأة تتغير فطيم. تشعر بالخوف فيما لو تركها فعلاً، أو اختلف دربها عن دربه، تسأل بقلق:

- صدق.. أبو فلاح.. شراح نسوي إذا آني بصفحة وأنت بصفحة لخ؟ ما نتلاقى؟ ما نتشاقى؟ وصوتك.. ما أسمعه يصيح: وين انت فطيم؟

- قومي بربوك.. اشتعل ربي مِنْ الجوع، ومصاريني تقرقر، أريد فد لقمة!

ـ على ويش مستعجل؟ خلنا نسولف، نحچي، موبس أكل ونوم يا مال القوم!

- فطيم.. قلبي مِنْ الجوع سايف، فيرحم والديك لا تطوخيها، قومي سخني الأكل، وخليني أتزقنب.

- مِنْ هالعين قبل هالعين.. يا أبو فلاح الورد.

ـ تظلين بنت أوادم وصاحبة أصل!

- كلمن حليبه يرده، وما تعرف شقد غلاتك عندي، يا أبو فلاح!

كانت ترقبه وهو يأكل. كانت فِي أعماقها تحبه، لكن تعتبر أن مِنْ الضعف، وربما مِنْ الخفة، أن تظهر له هذا الحب. أن تحوله إلى مجرد كلمات. أكثر مِنْ ذلك، كانت تحاول، بعض الأحيان، أن تناكده، أن تثيره، إذ بهذه الطريقة،

والتي يتخللها بعض الشتائم، تحمله على الكلام، وهي تعرف أنّه لا يعني الشتائم التي قد يتفوه بها، إذ تعتبرها جزءاً مِنْ مستلزمات الحديث!

تلجأ إلى هذه الطريقة لأن سيفو الذي يصر على تناول طعامه وهو متربع على الدوشك، ما يكاد ينتهي، وفِي أحيان كثيرة وهو يلوك اللقمة الأخيرة، حتى ينقلب على جنبه ليدخن غليونه أولاً، ثم ليهبط إلى النوم فوراً، وهي لا تريده أن يفعل ذلك. تريد أن يتحدث، تتمنى أن يسألها عن يومها، مِنْ رأت وماذا فعلت، لتسأله بدورها مِنْ رأى وماذا سمع. لكن التعب الذي يكون قد هده طوال النهار لا يترك له فرصة. ودون إرادة، دون قدرة على المقاومة، يجد نفسه ينزلق إلى النوم كما تنزلق سمكة إلى الماء.

هذه الأمسية شعر أنّه متعب أكثر مِنْ أماسٍ غيرها، إذ بالإضافة إلى الأحمال الزائدة التي نقلها، كي يعفي نفسه فِي اليوم التالي مِنْ بعض الأحمال، ويجد الوقت الكافي للاتفاق مع واحد مِنْ أصحاب المراكب، فإن شعوراً بالضيق، الأقرب إلى الهم، سيطر عليه، منذ أن رأي بدري ذلك اليوم، ثم هذا العبء الذي وضعه على كتفيه. ماذا يريد مِنْ مثل هذه المرأة؟ وهل يليق به، وبأسرته وبالمحلة كلها، أن يتعرض لهذه التجربة القاسية؟ وبدري نفسه، الذي تتمناه أية فتاة فِي المحلة، وفِي بغداد كلها، كيف يتورط مع امرأة ساقطة؟ ثم إنها متزوجة أو مستقعدة، والغريم هو ثامر المجول، الذي يمكن أن يؤلب جميع الناس عليه، لماذا وضع نفسه فِي هذا المكان وتجاه هذا الشخص، ألم يفكر بالنتائج، بأهله، بمحلته؟

ثم صاحب المركب، ماذا سيقول إذا طُلب منه أن يقف، دون حركة، مقابل القلعة، وبدري لا يفعل شيئاً سوى أن ينظر وينظر، وهو صامت وحزين؟ ألن يفكر الملاح أن الرجل أصيب بالجنون؟ وهل يمكن أن يسكت بعد ذلك؟ وإذا وافق على السكوت أمام بدري، ماذا سيقول للملاحين الآخرين، لمن يسأله، عما كان يفعل هناك؟ ولماذا فِي ذلك المكان بالذات؟

كانت هذه الأفكار، وغيرها الكثير، تدور فِي رأس سيفو، وهو يحاول أن ينام، لكن مع كُلّ فكرة جديدة، يزداد النوم بعداً، وتزداد مخاوفه ويثقل الهم عليه. تمنى لو أن بدري لم يكلفه بهذه المهمة، ولم يطلب منه هذا الطلب، إذن لاستطاع أن يواصل حياته، ولاستطاع أن ينام كما كُلّ ليلة. الآن يشعر أنّه غير قادر لا على النوم ولا على المساعدة، ولا يعرف ماذا يجب أن يفعل.

حتى فطيم يمكن أن تشور عليه، وتساعده، لو حدثها عن هذا الهم الجديد، لكن كيف يفعل ذلك بعد الكلمات الكبيرة والغضب الذي بدر منه حين سأله بدري ما إذا كان يحفظ السر أم لا.

وحاول أن يتذكر القصص التي سمعها أو عرف بها عن الذين أحبوا. وصفوهم أنهم لا يستطيعون النوم، ويعافون الأكل، ويفضلون عدم مخالطة

الناس، إذ يؤثرون العزلة كي تبقى صور الحبيب. ثم كيف يلجؤون إلى الأخوات مِنْ أجل إيصال رسائل الحب، وغالباً ما تنتهي مثل هذه القصص بالزواج. يصادف، فِي بعض الأحيان، أن تغضب أسرة الفتاة أو الشاب، لكن غالباً ما تنتهي إلى الرضا والتسليم بالأمر الواقع. أما أن يحب شاب، مثل بدري، امرأة متزوجة، أو مِنْ هذا النوع، فلم يسبق أن سمع بمثلها، وحتى لو سمع، فإنه يعتبر ذلك نزوة، ولا تليق بالرجال العقلاء!

وسأل نفسه ما إذا أحب فِي يوم مِنْ الأيام. حاول أن يتذكر، لكن بدا له كُلّ شيء غائماً وبعيداً. ربما أحس بلهفة أو حنية خاصة تجاه زوجته الأولى، وحزن كثيراً حين غرقت، حتى إنّه قرر عدم الزواج، لكن لم تمض بضعة شهور إلا ووجد نفسه يبحث عن زوجة ثانية، لأنه لا يستطيع أن يعيش وحيداً. والزوجة الثانية، مريم، كانت تجيد أمراً لا أحد يستطيع أن يجاريها فيه: الصمت! حتى وهي تموت بالهواء الأصفر، وكان إلى جانبها يمرضها، لكن ما آن غفا لدقائق قليلة حتى قررت أن تموت خلال تلك الغفوة: بذلت كُلّ جهدها كي تفعل ذلك، لكن فِي اللحظة الأخيرة ند عنها صوت، حاولت أن تكتمه، فسمعه واستيقظ. وقبل أن يرفع المخدة وراءها، لترتاح قليلاً، انتهت. ماتت وشفتاها مطبقتان، وبرد جسدها قبل أن يستدعي الجيران. قال بعض الذين جاؤوا لمساعدته إنهم رأوا دمعة تسقط على خده. هو لا يتذكر، ليس لأنه لم يحزن عليها، أو لم يتأثر، ولكن يعرف أنّه إذا حزن أو تألم، وأراد البكاء لا يستطيع. يشعر أن صدره يؤلمه، ويغيب صوته! ويظل الألم أياماً ثم يزول تدريجياً، أما الصوت فيبقى غائباً لفترة. ولما استشار ذات مرة الأسطة اسماعيل، باعتباره أعلم منه وأدري، أوصاه أن يوقف «المسخوط» الغليون، وأن يتناول مشروبات دافئة، على أن يحليها بالعسل وليس بالسكر، فرد عليه، وكان صوته مخرشاً:

- يعلم الله أنك ما تعرف غير هذا الدوا، ولكل علة: للمسهول واللى عنده قبض؛ مِنْ توجعه سنونه واللي طالع له دوحاس؛ وتوصفه لمن توجعه عيونه وذاك اللي عنده رعصة، وحتى للمجردم، واللي خصيانه تصيح، فشنو... ما تقول لي شوكت دواك يمنع الموت ويرد الموتى؟

ضحك أبو حقي طويلاً وهو يسمع سيفو يتكلم بهذا الانفعال، وبذلك الصوت المشروخ، وكأنه يمثل دوراً. ولما هدأ الإثنان، قال أبو حقي، وحاول أن يحمل كلامه مقداراً كبيراً مِنْ الجدية:

- مولانا.. هذا الدواء مذكور بالقرعان، فالعسل دواء لكل داء! وبعد قليل بطريقة حكيمة:

- وآني كنت أريدك تنفه عن روحك، تطلع اللي بصدرك، فإذا نفهت، إذا طلع اللي جوا الصدر، يطيب البني آدم، يصير زين، أما إذا نام على غش

فحسبته حسبة!

اقتنع بكلام الأسطة اسماعيل، أوقف الغليون، وشرب سوائل محلاة بالعسل، فشعر أن صوته يعود إليه، لكن الحزن لم يفارقه.

قال لنفسه، دون أن يكون متأكداً: يجوز أن هذا هو الحب!

أما فطيم، ونظر فِي الظلمة حيث تنام، فإن الحاج علاوي هو الذي ورطه لكي يتزوجها. لم يفكر بالزواج بعد موت مريم، وسمع، همساً، مِنْ يقول: «سيفو يموت أية مرية يتزوجها». ولأنه ليس كذلك، أو لا يريده، فقد قرر ألا يتزوج. وتدخل الحاج علاوي. كان الأمر صدفة، إذ ما كادت فطيم تغادر دكانه، ولا يعرف ماذا كانت تريد منه، حتى دخل. أفرغ القربة فِي الحب، وجلس قليلاً ليستريح. تبادل والحاج بضع كلمات، ثم خيم الصمت. كاد يقوم، بعد أن انتهى مِنْ تدخين غليونه، لكن فجأة تطلع إليه الحاج علاوي، وكأنه لم يفطن لوجوده مِنْ قبل. قال له، وبطريقة أقرب إلى الأمر:

- أقعد.. أقعد سيفو...

امتثل، دون إرادته، وجلس. قال له الحاج علاوي:

- تعرف.. سيفو، شقد أنت عزيز علي وعلى المحلة كلها...

توقف قليلاً. صمت سيفو، لم يرد ولم يعقب، لكن أحس أن وراء مثل هذه المقدمة شيئاً آخر. تابع الحاج:

- وواحد مثلك، بعمرك، ما يصير يبقى وحده، بليا مرية...

كاد يرد عليه رافضاً، لأن مثل هذا الأمر لا يفكر فيه الآن، ولا يعني له شيئاً، لكن الحاج علاوي تابع، وكان حاسماً فِي لهجته:

ـ لقيت لك مرية تناسبك تماماً، وكأن رب العالمين ما خلقها إلا حتى تصير زوجة لسيفو...

وتغيرت اللهجة، أصبحت أبوية، ولا تخلو مِنْ أمر:

- ولأني أعرفك وأعرفها زين فأريد أمون، وما أريدك تقول: لا، راح أزوجك!

وحين نظر إليه سيفو بدهشة، وكان لديه ما يقوله، ليرفض، ليطلب التأجيل، إلا أن الحاج علاوي واصل الهجوم، لكن كلامه هذه المرة لم يخل مِنْ مداعبة:

- أريد أكسر رقبتك، وأدفع الدية، لأني بعد شهر أو شهرين راح أشوفك جاي تهفي: يخلف عليك حجي: شقد اكو أصدقاء، شقد اكو ناس يحبون، لكن مثلك ماكو، لأنك لقيت للجدر قبغه، وخلصتني مِنْ ألف ورطة...

وهكذا تزوج فطيم. حصل الأمر دون حماس، وبسرعة، لكنه يشعر الآن أن الحاج علاوي لم يخطىء، أو على الأقل لم يخطىء كثيراً!

ففطيم، رغم النكد وسلاطة اللسان، لا يتصور أن يأتي إلى البيت يوماً ولا يجدها. لا يعرف إن كان يحبها أم لا، لم يسألها ولم تسأله، حتى بطريقة غير مباشرة، لكن يحس أنها ضرورية، وأنها تعني له الكثير. ينظر إليها، بعض الأحيان، خلسة، فيجدها تنظر إليه، تنظر بحنان. يعرف ذلك مِنْ العينين، فالعيون تتكلم، وبطريقة لا تكذب. حتى الكلاب والقطط التي تقابله فِي الطريق، يقرأ موقفها منه مِنْ خلال العيون. يعرف أيّ كلاب تحبه وأيها تكرهه. وحتى أصحاب البيوت فِي المحلة، يعرف عواطفهم تجاهه مِنْ عيونهم. الكلمات لا تهمه كثيراً، مهما كانت تلك الكلمات كبيرة. وحين يطلب الشاي، ويجلس فِي ظل الجدار، قرب الحِب، يعرف ممن يطلبه وأين، لأن الشاي إذا لم يكن ممزوجاً بالأنفاس الطيبة فإنه يصبح مثل الماء الساخن المُحلى، ولا شيء أكثر مِنْ ذلك!

فطيم، الآن، تعني الانتظار واللهفة. تقلق إذا تأخر. تمرض إذا مرض، وتغضب إذا سمعت بحقه كلمة لا تليق.

حتى الشتائم بينهما ضرورية. يعرف أنها لا تريد الإساءة إليه، ويتذكر كم بكت وناحت حين قرصته الحية. ثم كيف فزعت المحلة كلها. حتى مجيد دقلة الذي يقيم فِي سلمان باك، ويرفض أن يزور مريضاً، ويطلب أن يؤتى بالمريض إليه ليعالجه، استطاعت فطيم أن تأتي به، وكان ذلك سبباً فِي شفائه، وفطيم ظلت تزوره كُلّ سنة مع النذر له ولسلمان. هل كانت تفعل ذلك لولا الحب؟ لولا المشاعر التي تحسها وتدفعها؟

تساءل فِي الظلمة، وكان يسمع أنفاسها منتظمة، ولا تخلو، بين فترة وأخرى، مِنْ شخير، ما إذا كان يحبها أم لا؟

لو لم يسمع اليوم ما قاله بدري لتجرأ وقال إنّه يحبها. لكن بدري كان يتكلم بطريقة أخرى، بكلمات مختلفة، وهو لا يعرف مثل هذه الكلمات، ويراها غير ضرورية. هل يختلف عن بدري، أو أن ما يحسه ويعيشه بدري يختلف عنه؟

كاد يوقظ فطيم ليسألها عن عواطفها تجاهه. أو بالأحرى كان يريد أن يسألها: ما هو العشق. إنّه يسمع هذه الكلمة، أو ما يشبهها، أكثر مِنْ أية كلمة أخرى، لكن لا يعرف معناها، أو ماذا يُقصد منها بالضبط. ابتسم، وانقلب فِي فراشه، لأنه كان متأكداً أن فطيم لو صحت الآن، ولو سألها عن معنى هذه الكلمة، لربما سمع شيئاً لا يرضيه، وقد لا تكتفي بالكلمات، إذ ربما أرادت أكثر مِنْ ذلك!

إذ بعد أن أصبحا فِي هذه السن، وبعد أن عاشا وعرفا الكثير، لم يعودا حريصين، مثل الكثيرين، على استعمال كلمات نازكة وملبلبة، كما يفعل الغرباء حين يلتقون لأول مرة!

ومن جديد سأل نفسه إن كانت هذه حالة بدري. قال وكله غيظ: «ابن صالح العلو مخبل، أكيد مخبل، وواحد مثله ما يجي بعيني وآغاتي، يجي بجرة أذن وعين حمرا، وما أكون سيفو إذا ما خليته يجوز مِنْ هالقحبة».

وسأل نفسه ما إذا كان أحد مِنْ أهله مثله، تذكرهم كلهم، قال بأسف. وهو ينقلب على جنبه الآخر عله يستطيع النوم «وجوه الخير لها علامة، والحجي والحجية، وكُلّ آل علو على العين والراس، بس هذي البلية، اللي ما كانت لا بالبال ولا بالخاطر منين جتهم؟».

قدر أن أبناء الحكومة، خاصة الذين يعملون فِي السراي، يمكن أن يصابوا بأمراض غامضة، وقد يكون هذا المرض مِنْ جملة تلك الأمراض، لأنهم لا يرون الشمس، وأغلب الوقت فِي غرف مغلقة. كما أنهم لا يرون الناس ولا يسمعون كلامهم، وهذا ما يجعلهم مختلفين تماماً عن غيرهم. وتذكر بعض معارفه الذين عملوا فِي السراي، وكان منهم الحراس أو الذين عملوا فِي الحدائق. لقد تغيروا تماماً: يتكلمون بصوت لا يُسمع، وكأنهم يتكلمون مِنْ أنوفهم. يضحكون بطريقة عجيبة، يضحكون مثل البنات أول ما يجيئهم الحيض: بفرح وخوف وارتباك. وحتي رزوقي الذي عمل سايساً فِي السراي، ما مضى عليه شهران أو ثلاثة إلا وتزوج مِنْ جديد. ويتذكر ما قال له: «الناس على دين ملوكهم، أبو فلاح، وماكو أحد أحسن مِنْ أحد. وإذا مرية وحدة تكفي لأيام الفقر، فأيام العز ينراد ليها مرية بيضة قرطاس، مرية راهية وعيونها خضر».

هل يحتمل أن يكون بدري مثل غيره تعور وأصابه مرض السراي؟

وفكر بمرض آخر: «الرجل الذي لا يأكل مِنْ طبخ أمه ومن خبزها، أو مِنْ طبخ أهل بيته وخبزهم، وكُلّ يوم يأكل مِنْ يد، لا بد تقع براسه مصايب الله، يا هل ترى سموا باسم الله وهم يُعدون الطعام؟ هل كانوا على طهارة؟ ألا يجوز أنهم سحروا الطعام والشراب، ووضعوا سحر الهند والسند ببطنه؟ والأكل الزائد، بدل أن يعطى للفقراء، يُرمى أو يُعطى للكلاب، فهل يجعل الله فيه خيراً أو بركة؟»..

ثم هذا العدد الكبير مِنْ النساء فِي القصر «وكُلّ واحدة مخيلة على رجال، راد ما راد لازم تنوشه، لازم تصله، معقول تهده بليا سحر؟» وتذكر ما قاله له الأسطة اسماعيل: «عيني سيفو، يا أبو فلاح، المرية إذا رادت ماكو قوة بالكون تقدر توقف بوجهها، حتى الله وملائكته ما يقدرون، وعندها ألف طريقة وطريقة حتى تِوصل: بالغمزة، باللمزة، وحتى بالدمعة. مولانا، المرية

تفطر الحجر، وتبطح أشجع فارس. منو اللي نزل آدم مِنْ الجنة غير حوا؟ ومنو هو عنتر بليا عبلا؟ حتى أبو زيد الهلالي، مولانا، ما خلص مِنْ النسوان».

ويتذكر سيفو أن الأسطة اقترب منه، وكأنه يريد أن يوشوشه، أو يبلغه سراً: «القوة، مولانا، مو اللي يشيل أكثر، القوة منو يتحمل أكثر» ويتذكر سيفو أن الحاج علاوي جاء فِي تلك اللحظة، وقبل أن يحلق له أبو حقي، قال، وكان يخاطبهما معاً: «المرية مثل الأرض، اللي ما تتحمله فوقها، تجره تحتها، وهناك تصفي حسابها وياه» ولم يستجمع كُلّ ما قاله أبو حقي بعد ذلك، لكنه ظل يردد: السحر.. السحر مولانا، أيّ نعم السحر. فهل يجوز أن يكون بدري مسحوراً؟

وخطر ببال سيفو: علوان الشيخ جعفر. «بغداد كلها عنده، وبشهر واحد فك كُلّ سحر مكتوب. وسوى قرايات طردت حتى العنكبوت، ووصف دوايات للمجردم واللي ما بيه حيل، وفرج عن كُلّ مكروب، لكن مين يقدر يصل علوان، وشيجيبه مِنْ الحلة؟».

لا يمكن أن يفيد فِي مثل هذه الحالة إلا علوان «أما سحاري بغداد فكلهم حيالين، ما يتأمنون، يجرون فلوس ونفع ماكو».

قبل أن يصيح الديك، قبل أن يؤذن الفجر، تناول سيفو مِنْ الزاوية دشداشة الشط، كما يُسمي ثوب العمل. نظر فِي الظلمة حيث كانت تنام فطيم، سمع أنفاسها منتظمة هادئة، فابتسم وخرج.

أما بدري فلم يستطع النوم. تقلب فِي فراشه عشرات المرات، ويتذكر أنّه سمع صوت الملا حمادي يؤذن الصبح، وسمع أصوات عشرات، مئات، العصافير واليمام، وربما لمح الأضواء الأولى للنهار قبل أن يغرق فِي النوم، وظل نائماً حتى الظهر أو بعده بقليل!

لو لم ينم بدري حتى ساعة متأخرة مِنْ ذلك اليوم لأبلغ سيفو بصرف النظر عن فكرة النزول إلى النهر. ولو أن سيفو لم يغب طوال ظهر ذلك اليوم وحتى المساء لأمكن أن يتبلغ بالأمر، لكن سيفو، مثل عادته، جاء عند الضحى فوجد بدري نائماً، فلم يشأ أن يوقظه، ترك البيت بسرعة ومضى، دون أن يشرب الشاي الذي جلبته له أم قدوري.

وبدري الذي ذهب مُبكراً عصر ذلك اليوم إلى مقهى الشط، وبقي إلى ما بعد الغروب، عله يحظى بسيفو، لم يعثر عليه، ولم يستطع أن يوصل له خبراً.

قيل إن سيفو شوهد بعد الظهر، وكان يرتدي ملابس «مقابلة الحكام»، كما قال الأسطة اسماعيل مازحاً، ولا أحد يعرف إلى أين ذهب، أو ما وراءه مِنْ مهمات!

قال أبو حقي لما سئل أين يحتمل أن يكون سيفو:

- قطعاً أبو فلاح هسه بالسراي، لأن الباشا دز عليه!

وحين نظروا إليه باستغراب، تابع بسخرية:

- الوالي ما يقدر يسوي فد شي بليا شور أبو فلاح! شعبالكم!

وبعد قليل وبشيءٍ مِنْ الحزم:

ـ لا يغركم الدشداشة الخلق اللي يلبسها، فأبو فلاح صماخ مو شلون ما چان، بلوة. صحيح لا قاري ولا دارس، لكن، صلوات على النبي يقرا الممحي وماكو مثله اثنين...

أما فطيم، حين أُرسل إليها أحد الفتيان ليسألها عن سيفو، وقد أرسله الأسطة عواد، صاحب قهوة الشط، بناء لطلب بدري، فكان جوابها مدعاة للتساؤل:

ـ مِنْ شوكت أبو فلاح يعطي سره لأحد!

وأضافت، كما قال الصغير:

- واي.. واي، باوعوا، منو ينشد عنه؟ إذا آني ما أعرف، ما أقدر أجاوب، شلون غيري؟

وبدت غاضبة، حين سألها الصغير لماذا لبس دشداشة الطلعة، وقد طلب منه الأسطة عواد أن يسألها، إذ ردت بعصبية:

- بابا روح.. تمشَ، وقول لعواد اللي دزك: سيفو يغني الموال اللي براسه، ويلبس الهدوم اللي تعجبه، وماكو أحد يقدر يقول: ليش!

أما الحاج علاوي، فكان له رأي آخر حين سئل:

- سيفو ما ينحزر عليه. أبو سنكيرة، ومثل المهدي له غيبة.

وتابع كأنه يحدث نفسه:

- الله أعلم وين هسه موكر: عند الشيخ عبد القادر؟ عند الكاظم؟ ما يندري. لكن بالتأكيد عنده كم فلس جمعها مِنْ هنا.. مِنْ هنا وما يقدر يضمها، لازم ينطيها. وبطريقه يسمع قرايات تكفيه سنة، ويمكن تشفع له يوم القيامة...

وحين عرف أن عواد بعث ليسأل فطيم، ضحك الحاج علاوي، هز رأسه عدة مرات ثم قال:

- أبو فلاح إذا سوي فد شي ايده اليمنى ما تعرف شنو اللي سوته اليسرى، وين رايحين؟

وأضاف بسخرية:

-.. ويقشمر فطيم بشوية شكرات: أحمدي ربك واشكريه با مرية. كلي واسكتي، هذي شكرات مقري عليها، هذي شكرات مِنْ يم إمام يشور!

وهكذا انقضى اليوم دون أن يعرف أحد أين ذهب سيفو، أو ماذا فعل! وبدري الذي لم يقدر أن أمراً مثل هذا يمكن أن يولد اهتماماً وردود أفعال كهذه، إضافة إلى استمرار التساؤل، فقد قرر أن يصرف النظر عن «رحلة الجنون» كما سماها لنفسه، وما سؤاله عن سيفو إلا كي يوقفه عن إتمام الفكرة، وبالتالي لا حاجة للبحث عن ملاح وسفينة!

أما سيفو فقد قرر الاستعانة بصاحب مركب مِنْ أصدقائه بصوب الرصافة، «لأن جماعة صوب الكرخ، كما قال لنفسه، ما بيهم غير ساناتهم. يريدون يعرفون: الشط مِنْ حفره والنغل مِنْ بزره، وهات لص مِنْ حلوقهم.» ولا يعرف كيف خطرت له تلك الفكرة: «... أبو منعم: الصديق صديقه، وآني تعنيت مِنْ ذاك الصوب وقصدتك، وما أريدك تفشلني. عندي صديق، أخ، أعز مِنْ أخ، يريدنا نسير سوا باچر بالشط. هذا الصديق شاعر، لكن صار له كم يوم مقبطة عليه، يريد وما يقدر. قال لي: «أبو فلاح أشو الله ما فاتح علي، فشنو رأيك نلاقي صديق عنده بلم وننزل نسير بالشط. وهناك الدنيا سنطة، وماكو حولنا لا إنس ولا جان. يمكن الله يفتح علينا ونخلِص هذي القرادية، وهو يسميها قصيدة، قلت له: لعيونك. وهذا سبب جيتي، أبو منعم، وأيدي بحزامك».

نام سيفو، تلك الليلة، أبكر مِنْ ليالٍ أخرى. نام مِنْ التعب ومن سهر الليلة السابقة. أما محاولات فطيم أن تعرف أين كان وماذا فعل، فقد انتهت بسرعة، حين ردَّ، وكان يتجنب أن تلتقي عيناه بعينيها:

- شكو بهذي الأيام غير الفواتح. مِنْ فاتحة لفاتحة: السلام عليكم عظم الله أجركم، والجنة إنشاء الله مثواه، وفِي أمان الله!

- قهرتني، أبو فلاح، منو مات؟ فاتحة منو؟

- يا معودة قولي منو ما مات، منو بعده طيب!

- هذا شلون كلام، اسم الله. شنو صارت الناس تموت سنطة، بليا حس، بليا خبر؟

ـ لعاد الفقرا شلون يموتون: بمزيقا وطبل؟

وتظاهر بالحزن والغضب:

- نقضان، فطيم، وقلبي ممرود، فإذا ما راح تسخنين الأكل راح أندفس وأنام!

كانت تريد أن تقول له إنهم سألوا عنه فِي قهوة الشط، وكيف ردت عليهم، وماذا قالت عن ملابسه، لكن وجدته حزيناً، لا يرفع رأسه عن الصحن، فقررت أن تؤجل مثل هذا الحديث إلى وقت آخر. أما حين لم يكمل صحنه، ولم يعمر الغليون، فقد تأكدت أن حزنه سينقلب إلى غضب فيما لو سألته، لو قالت كلمة إضافية، وهكذا انشغلت بأمور صغيرة، وبهدوء، كي تتركه ينام!

كان أبو منعم، صاحب المركب، رجلاً مرحاً، محباً للمزاح والغناء. ما كاد يرى بدري فِي غبشة الصباح حتى هز رأسه بهدوء عدة مرات وقلب شفته السفلى قليلاً، وكأنه يقول لنفسه: أعرف هذا الوجه، رأيت هذا الوجه مِنْ قبل. ولأنه سيقضي النهار معه، لم يكن متعجلاً لسؤاله، إذ ربما سيتذكره قبل أن يسأل؛ ثم هناك أمر آخر، فأبو منعم لا يحب الغناء فقط، بل هو أحد أفراد فرقة هواة للإنشاد، وقد تكون هذه مناسبة لأن يقيم علاقة بشاعر، وقد يغني له شيئاً مع فرقته فِي يوم مِنْ الأيام!

ما كاد المركب ينزلق على وجه الماء، تاركاً شريعة الدملوجي وراءه، حتى ارتفع صوت أبو منعم بالغناء. كان الصوت شجياً، خاصة بالبحة التي تلازمه، وما يكاد يصطدم بالموجات الصغيرة التي تتوالد مِنْ ضربات المجدافين حتى يترجع له صدى يجده الإنسان ناعماً لذيذاً فِي هذا الصباح الربيعي. أما نسمات أول النهار حين تصطدم برائحة النهر، بقرصة البرودة، فإنها توقظ

الحواس، وتحرك المشاعر. يحس الإنسان أنّه يطفو فوق الماء، يطير، ويتأكد هذا الإحساس مع كُلّ ضربة مجداف وابتعاد المركب عن الشاطىء.

قبل أن يبلغ المركب منتصف النهر، سأل أبو منعم، وبدا صوته خشناً:

- وين تريدون نروح؟

إلى ما قبل هذا السؤال كان سيفو حائراً كيف يجب أن يتصرف. ود لو أنّه اتفق مع بدري على طريقة مناسبة، لكنه خشي أن لا يُفهم، أو أن يخلق مشاكل دون مبرر، الأمر الذي جعله صامتاً حزيناً، وإن نوى أن يفرض إرادته فِي وقت ما، بشكل ما، حتى لو غضب بدري أو لم تعجبه طريقته.

الآن، وأبو منعم يسأل، فوجيء الإثنان بالسؤال. وإذا كان سيفو قد صمت متعمداً، ليرى كيف سيكون جواب بدري، إلا أن نظراته أصبحت لهباً، وهي تتركز فِي عيني بدري. كانت حادة، مكتسحة، أشبه بالحصار. كانت تقول، دون كلمات: يجب أن تكون عاقلاً، وتعرف معنى الكرامة، لئلا تتحول إلى أضحوكة، وتحول الشيخ صندل والكرخ إلى قصة يتندر بها ذاك الصوب، ثم لتعم بغداد كلها.

لا يُعرف كم استمر هذا الصمت، وماذا قالت النظرات، أو كيف فُهمت، لكن ما كاد أبو منعم يسأل مِنْ جديد:

ـ ها، شنو قولكم، وين ردتم نسير، مع النهر أو عكس الماي؟

حتى جاءه جواب بدري:

- أنت الربان ونحن الملاليح، وين تاخذنا نروح!

- هذا أول الشعر: أنت الربان ونحن الملاليح، وين تأخذنا نروح، هكذا ردَّ أبو منعم بمرح!

هل يمكن لكلمة، لنظرة أو حركة، أن تغير بهذا المقدار؟ أن تنقل البشر، وربما الكون، مِنْ حالة إلى أخرى؟ هكذا أحس سيفو فجأة. شعر أنّه كسب المعركة كلها، وما الساعات الكثيرة الآتية إلا تفاصيل صغيرة فِي هذه المعركة الكبرى.

مال نحو بدري وهمس بأذنه:

- إذا قلت إي، إذا قلت لا، انت مِنْ هالدقيقة عسكر بياده جوا إيدي، أسمعت؟

هز بدري رأسه موافقاً، وارتسمت على وجهه ابتسامة. صحيح أنها بدت شاحبة، لكنها غيرت ملامح وجهه، جعلته مختلفاً عن الأمس.

رفع سيفو أصبعه، وهو يوجه إليه الكلام مِنْ جديد، وبهمس أيضاً:

- وأنت مِنْ هالدقيقة شاعر، لا مرافق الباشا ولا ضراط عقيل، سمعت؟

- هاي شنو أبو فلاح...

سأل هكذا وابتسامته تتسع ووجهه يتغير، وتابع:

- قلت أنت القايد وافقنا، على العين والرأس، لكن شلون بدقيقة الواحد يتغير مِنْ قصاب إلى دفان موتى؟ مِنْ مزين إلى شاعر؟ ما تقول لي؟

- أنت مِنْ هذي الدقيقة شاعر، وما عليك، الباقي علي!

ـ هذي آخر وظيفة لو اكو بعدها؟

ـ إلزم النظام، القايد، أبو فلاح، هو اللي يصدر الأوامر!

- وصاحبنا، أبو منعم؟

قالها بدري بصوت عالٍ، فِي محاولة لأن يواصل جو المرح الذي خلقه سيفو، وأيضاً ليكونا اثنين ضد واحد.

ردَّ سيفو، وقد أضفى على وجهه ملامح قاسية:

- قلت لك: أبو فلاح قمندان باشي، وأنتو بياده، سمعت؟

ولأن المرح يعدي، كما الحزن، قال أبو منعم:

ـ إذا كثرت الملاليح غرقت السفينة، يا أبو فلاح!

وبعد قليل وبنبرة مرحة أيضاً:

- وهسه، وين تؤمرني أستاذي؟ وين نروح، مع النهر أم نصعد لفوق؟

فر سيفو يده، وكأنه يسأل بدري عن رغباته. ردَّ بدري بتلويحة يد تعني أن كُلّ الخيارات ممكنة، وأن الأماكن متشابهة، وأكد ذلك بحركة مِنْ شفته، مشفوعة بملامح الوجه لتزيدها تأكيداً.

قال سيفو، وهو يسند ظهره على حافة المركب، ويترك لأبي منعم مساحة أكبر للتصرف:

- نصعد مع النهر فد شوية، حتى نباوع بغداد، وبعدها مع الماي ننحدر!

- كأنك بقلبي يا أبو فلاح...

- وبعد قليل:

- قلت لروحي: النهار بعد بأوله، وحيلنا قوي، فنصعد شقد ما الله يقدرنا عليه، وبعدها ندهدي مع النهر، ووين تأخذنا الماي نروح...

وضحك بقهقهة ثم تابع:

- شلوني وياك أبو فلاح؟ موافق؟

قام سيفو. اختل قليلاً توازن المركب. كان يريد أن يخطب، لكنه اختصر كُلّ شيء، قال وهو يهبط:

- على بركة الله؛ سيري فعين الله ترعاك!

تتبدى بغداد، حين يُنظر إليها مِنْ النهر، عبر غباش الماء، شيئاً لا يصدق، أو هكذا رآها ناس المركب فِي ذلك الصباح الربيعي.

بدت جديدة، طازجة، فواحة بشذى القداح، خاصة بعد أن اغتسل هذا الشذى بالماء وشفته ريح صغيرة نبعت مِنْ أعماق النهر وهبطت مِنْ الأعالي. أما خضرة النخيل التي ملأت الأفقين، فكانت تتموج وتتغير كُلّ لحظة: شفافة، زاهية، ريانة، وخضرة قاسية أيضاً، ولا تخلو، فِي لحظات معينة، مِنْ تحدٍ.

وبين خضرة وخضرة عشرات الألوان الخضراء المتشابكة، وكأن كُلّ شجرة، كُلّ غصن يريد أن يتميز بلونه الخاص، بتألقه الذي يجعله مختلفاً عن غيره.

قال بدري، وكأنه فوجيء بما يرى، وكان يتلفت إلى الضفتين مذهولاً:

- ولا عبالك بغداد اللي نعرفها وعايشين بيها!

ـ إذا الواحد معمي قلبه، وطامس بالوحل للزردوم، شلون تريده يشوف وردة وخزامة، مولانا؟ شوكت يفتح عيونه ويباوع؟

هكذا ردَّ سيفو، وهو يحاول أن يخزن أكبر قدرٍ مِنْ الهواء فِي صدره، فيبدو الصدر مثل قفص قديم لم يعد يتسع لما فِي داخله. كان سيفو حزيناً وفرحاً فِي آن واحد، أو كانت عواطفه مختلطة متداخلة إلى درجة لا يستطيع أن يحدد ما هو أو كيف هو. لم ير بغداد مِنْ وسط النهر منذ فترة طويلة، أو لم يرها هكذا. صحيح أنّه ركب الزوارق مرات عديدة، لكنه كان يركب ليعبر مِنْ ضفة إلى أخرى، وكانت عيناه، أغلب الأحيان، على الماء، حوالي المركب. وحتى إذا نظر إلى البعيد، فقد كانت المناظر تهتز وتتحرك. أما إذا رفع عينيه لينظر مِنْ صوب إلى الثاني فتبدو الأماكن جامدة، قاسية.

الآن، مِنْ هذا المكان، يبدو كُلّ شيء مختلفاً، وكأنه يراه لأول مرة. قال سيفو لنفسه: «الجرف غدار، لأن البني آدم يلزق بيه، ومثل ما الجرف بمكانه، والماي هي اللي تجي وتروح، فالواحد ما يحس، يفتح عين يغمض عين يلقى العمر انقضى، مر وراح».

هز رأسه عدة مرات، وتابع بحزن يخاطب نفسه: «وشلون عمر؟ كله خسارة، وفوق الخسارة: قهر وشلعان قلب».

التفت إلى أكثر مِنْ ناحية وسأل نفسه: «إذا سبحانه وتعالى حاسب البني آدم، حاسب واحد مثلي، وسأله: قل لي يا فلان شنو اللي شفته مِنْ ملكي، مِنْ اللي خلقته وسويته، شلون راح يجاوبه؟».

قال سيفو، وقد انفرجت أساريره:

- صدق يا جماعة الخير.. إذا رب العالمين سألنا يوم القيامة: شلون كانت دنياتكم، تونستو؟ عشتو؟ شفتو؟ شراح تجاوبون؟

ردَّ أبو منعم، وقد فوجيء بالسؤال:

- هو.. هو منين جبت هذا السؤال، أبو فلاح؟ شلون جا على بالك؟

- أفر راسي هنا.. هنا، واسأل روحي: شنو اللي شفته بدنياتك يا مقرود، وين رحت، شنو شفت، شنو اللي سويته؟

- أيّ... قل لنا، سولف، يا أبو فلاح، شنو اللي شفته؟

- راح أقول لرب العالمين: يا رب أنت اللي خلقتني زمال، أنجس مِنْ الزمال، ومن عمري عشر سنين بين الجرف والشيخ صندل أروح وأرجع، تيتي تيتي، وبعدين أنت اللي عندك ملائكة وسجل محفوظ وكُلّ شيء مقيد ومكتوب، وتعرف أحسن مني، فأنت اعلم شلون عشت وشنو اللي شفته!

قال بدري، وقد راقت له اندفاعة سيفو، يسأل الملاح:

- وأنت، يا أبو منعم، لو ربنا سألك فشنو راح يكون جوابك؟

- مِنْ اليوم لذاك اليوم فرج، فعلى ويش مستعجلين، يا جماعة الخير؟

ردَّ سيفو، وبدا حانقاً:

- ما مستعجلين، آغاتي، لكن هو لاحقنا بعصاته: صلوا. صوموا. اعبدوني. لا تسووا هذا، لا تسووا ذاك. موبس هذا الشيء، ويقول: ديروا بالكم، ترى جهنم فاكة حلقها، ويسألها سبحانه وتعالى: هل امتلاتِ؟ فتقول: هل مِنْ مزيد؟

قال أبو منعم، فِي محاولة لأن يغير الموضوع:

- وكُلّ الله، أبو فلاح، لأنه سبحانه غفور رحيم!

- وشديد العقاب، مولانا، هالشكل قال فِي كتابه العزيز!

قال بدري، الذي ما زال مفتوناً بالمناظر، ولا يريد أن ينجر إلى الفخ الذي نصبه سيفو:

ـ إذا تريد تلطم، أبو فلاح، فغيرك مستعد يشق زياقه، لو آني غلطان؟

فجأة تنبه سيفو، ردَّ بحزن:

ـ صحيح، مولانا، هسه وقت ونسه، ولاحقين على اللطم...

وتغيرت اللهجة، وكأنه يريد أن ينهي الموضوع:

- ما باقي بدنياتنا شي يسوى، آغاتي، يوم والثاني الواحد يعض لسانه، ويمشي كأنه ما چان!

وحاول أن يقف، لكن المركب اهتز، قال كأنه يحتج على اهتزازه:

ـ إذا الواحد يريد يرقص، إذا يريد يدق أصبعتين، ويقول أوف، شيسوي؟

ردَّ أبو منعم بمرح:

ـ وجهك مو وجه رقص، أبو فلاح، وإذا بيك حيل غَنِ هسه، وبالكسرة راح نوقف وهناك راوينا رقصك!

المناظر تتغير كُلّ لحظة، فرصة البرد التي رافقت الخطوات الأولى بدأت تنحسر. أما الشمس الخجولة، المتوارية خلف غابات النخيل، وكانت ترسل ضياءها مِنْ بعيد، فقد ظهرت بوهج دافيء غير لون الماء والخضرة، وجعل الأشياء وكأنها فِي لحظة ولادتها الأولى!

بدت بغداد، مِنْ هذه المسافة، أقرب إلى الحلم، أو كأنها مدينة أخرى. غابت رائحة الأزقة الضيقة، تراجع الحزن، وما عدا صوت المجدافين اللذين يشقان الماء، كان الصمت ممتداً وواسعاً.

ظهر الباليوز. كان البناء، ضمن الخضرة التي تلتف عليه، رشيقاً ببياض أسواره. حتى السفينة الرابضة إلى جانبه، على حافة النهر، بلونها الرمادي، كانت مثل سمكة عملاقة عجز الصيادون عن التقاطها، رغم الحبال الغليظة التي تقبض عليها مِنْ الجانبين، والتي تظهر رخوة، وربما لهذا السبب تركوها مؤقتاً، وإلى أن يأتي مِنْ يساعد على جرها.

قال بدري، الذي يرى الباليوز مِنْ هذا المكان لأول مرة:

ـ إذا الواحد قريب مِنْ فد شي ما يشوفه زين، يا جماعة الخير!

تطلع سيفو إلى أكثر مِنْ جهة، وقد التبس عليه كلام بدري، لكن الإصبع التي امتدت نحو الباليوز، أوضحت قليلاً. تابع بدري:

- مِنْ بعيد يبين أصغر!

- مثل واحد ببطن بير، والثاني فوق منارة، شلون تريدهم يشوفون فرد شكل؟

هكذا ردَّ سيفو، وقد تذكر شيئاً. ضحك وهو يُضيف:

ـ قبل سنين، سنكر مجيد أبو الحنة، قال لأهل المحلة: بطلت، دوروا على واحد غيري حتى يلقح نخلكم. وأهل المحلة قالوا: ماكو غير سيفو، هو وحده يدبر المسألة. والله ما كذبت خبر: بين قربة والثانية، اصعد نخلة. يوم والثاني لقحت نخل المحلة كلها!

ابتسم ابتسامة واسعة، وبعد فترة صمت:

- مو هنا القضية، القضية أن الواحد وهو فوق، ويباوع المحلة والبني آدمين مِنْ هالعلو، يشوف كُلّ شيء غير شكل!

- راح أقول فد كلمة، لكن أريدك ما تزعل، أبو فلاح!

قال أبو منعم، وهو يلتفت إلى سيفو بطرف وجهه. ردَّ سيفو بتحدٍ:

- قول، مولانا، شنو ظلت عليك!

- قلت لروحي لما سمعتك تقول: لقحت، إنك راح تحچي عن غير شي!

- هذي مو إلنا، آغاتي، هذي لغيرنا!

قال سيفو الكلمات الأخيرة، والتفت إلى بدري، كأنه نوع مِنْ التعليم عليه. ردَّ بدري ممازحاً:

ـ تهمة غنى ولا تهمة فقر، أبو فلاح، مو هالشكل؟

ـ العلم عند علام الغيوب، مولانا!

ومرت موجة مِنْ الضحك. أما عندما بانت السراي، فقد بدت مبعثرة، أقرب إلى الكتل، رغم اتساع المساحة. كانت قديمة، متآكلة، وكان الزمن يصرخ مِنْ كُلّ جنبة مِنْ جنباتها. قال بدري فِي نفسه: «الأبنية تهرم، تتعب، وسيأتي يوم تموت فيه، كما يموت البشر» وشعر بالحزن أن الباليوز يبدو بناءً فتياً، فِي الوقت الذي تبدو السراي وكأنها فِي آخر أيام حياتها.

قال أبو منعم، وقد بدت نخلات طليعة عند المنعطف:

- بعد بيك حيل، أبو فلاح، حتى تلقح هذي الطلايع لو راد أصحابها؟

سأل، وهو يوزع نظره بين سيفو وبدري، فِي محاولة للعودة إلى الموضوع الأكثر أهمية.

ردَّ سيفو بنزق:

- جدف زين يا معود، وباوع لقدام، خاف نزلق!

- على بختك، أبو فلاح، شنو خايف؟

- وين اكو خوف، أبو منعم، هذي خلصنا منها، بس ما تشوف زنادنا ما عاد بيه نار؟

- بعدك شباب، مولانا!

- خليها سنطة، أنت أخوي وتعرف!

قال بدري فِي محاولة استفزاز جديدة:

- ذاك اليوم سمعت سالفة بالقهوة...

مد سيفو رقبته مثل طائر مائي، وبهمس أقرب إلى التآمر:

ـ أيّ أبوي، شسمعت؟ شيقولون؟

ـ العهدة على الراوي، يا أبو فلاح. بس سمعتهم يقولون ان سيفو كان غافل ملا حمادي ويصعد على المنارة ويوذن. وقت صلاة، مو وقت صلاة، ما يدير بال، ليل نهار ما يدير بال، صدق؟

ضحك سيفو، شاب ضحكته نوع مِنْ المرارة، وبعد فترة صمت:

- وُلْد المحلة سرسرية، ما عندهم لحية ممشطة؛ ومن سنين وأيام حلفت يمين ما أطب قهوة الشط.. لكن!

- ليش أبو فلاح، خير؟

هكذا سأل أبو منعم، وقد راق له الموضوع. وهدر صوت سيفو:

- ملا حمادي حيال، ما يعرف الحلال مِنْ الحرام. الفلس ربه ومعبوده، مثل اليهود، أكثر مِنْ اليهود.

واهتز رأسه وهو يحاول أن يتذكر، وبعد فترة صمت:

ـ قال الأولياء والأنبياء: استروا عيوب موتاكم، لا تحچوا عليهم مو زين...

وابتسم، كانت ابتسامته أقرب إلى القهقهة، أضاف وقد تغيرت لهجته تماماً:

- يا جماعة، حرام الواحد يحچي على جماعته، على أهله، لأنه إذا سوى هالشكل كأنه يأكل مِنْ لحمه!

قال أبو منعم ليحول دون توقفه أو لتحريضه على مواصلة الحديث:

- هي سالفة، يا أبو فلاح، وإذا الناس بقهوة الشط يحچون، فنسمعها منك أحسن ما نسمعها مِنْ غيرك، مو هذا رأيك؟

عقب بدري لزيادة التحريض:

- وإذا قالوا استروا عيوب موتاكم، فالملا حمادي بعده حي، ويمكن يدفنا كلنا، وعنده لسان ولا لسان حية، فليش خايف؟

- يا جماعة الخير: الخوف بقلبي مات، وهسْة إذا أخذوني للوحة ما أخاف، كلها موتة، لكن...

وضحك بسخرية وهو يُضيف:

- وآني والملا، بهذي الأيام، أصدقاء. واللي يشوفنا قاعدين نسولف، يقول: باوعوا الفخاتي شلون تتناغى، فاتركونا مِنْ الأيام القديمة!

ردَّ أبو منعم، وكأنه يضع سيفو فِي موقع صعب:

ـ إذا ما ردت، أبو فلاح، تحچي السالفة، يحرم علي الليلة أروح على البيت إذا ما سألت الناس بقهوة الشط!

ـ السالفة، مِنْ الأول للتالي، وهذي صار لها سنين وسنين، وكنا شباب بذيك الأيام، إن الواحد شرب قمع عرق، والدنيا ليل وقمرية، سوالف وونسة، وصار بينا شرط: منو يقدر يصعد المنارة ويصيح يا ليل يا عين؟ والله، محسوبكم، أبو فلاح، ما كذب خبر: حطيت طرف دشداشتي بسنوني، وطُب طب، كُلّ درجتين ثلاثة سوا، اشوف روحي براس المنارة، ومن هناك رحت أصيح يا عين يا ليل، والجماعة مِنْ جوا يردون علي: أوف. وبعدها جريت مقام وبستة، اشتغلت مِنْ جوا الهلاهل والشتايم والعفاط، وما أدري بعد شنو، والملا حمادي يصيح: يا معود، يا ابن الأوادم، إنزل، خلنا نتفاهم، كسرت عرضنا، نجست الجامع، وآني ولا داير بال، وما نزلت إلا بألف ويلاه!

هزته الذكرى، سافر بعيداً إلى أيام قديمة. كان يهز رأسه ويبتسم ابتسامة تقع بين التذكر والأسف والإعجاب، وبعد فترة صمت:

- طبيعي تخاربنا آني والملا حمادي، لكن بذيك الأيام وين يقدر يفك حلقه، شحده يقول كلمة واحدة، والله العليم كان أكسر رقبته. كنت أتعارك مع ذبان وجهي. وهو، مِنْ بعيد، مدلغم، يباوع علي بسكوت، ومختزر... على كلٍ...

سأل بدري بمرح:

- بس هذي أبو فلاح لو اكو غيرها؟

- ونوبة ثانية، بعد صلاة الجمعة، ووقتها ما شارب ولا مقندل، بس الكلام اللي قاله بالخطبة كلش قهرني، وما شفت روحي إلا وآني صاعد للماذنة، وشكو عندي شتايم وفشار، وقعت براسه.

وضحك ثم أضاف، وقد تغير صوته تماماً:

- سوالف ملا حمادي كلها أعرفها، آني أعرفه كلش زين، وبذاك اليوم شريته على الحبل، غسلته وشريته، وهو يباوع مِنْ جوا: دموعه تسح، ويصيح: أتركك للواحد الأحد، أتركك للمنتقم الجبار!

وبمرح يسأل بدري:

- وبعدها.. شلون تصادقتم وصرتم أصحاب؟

- هذي ما صارت إلا بعد شهور وأيام!

- بس المهم تصالحتم.

- أيّ نعم، تصالحنا لكن بشروط!

سأل أبو منعم، وبحماس:

ـ أيّ أبو فلاح، المهم الشروط، شنو كانت شروطك، وشروط الملا؟

- قلت له: إسمع ملا، ما يهمني شلون تقعد يهمني شلون تحچي، ومن اليوم لازم تحچي عدل. وقلت له: لا تجمع ولا تشحذ فلوس باسم الفقرا وتنام عليها، والفقرا ما يشوفون مِنْ هذي الفلوس لا بشلك ولا باره، أما الشرط الثالث...

وتلفت حواليه، كأنه خائف مِنْ البوح، أو لظنه أنّه لا يزال على اليابسة والناس حوله، فلما اطمئن تابع:

- أما الشرط الثالث، ملا حمادي، فلا تقرا على رأسي كُلّ ما شفتني: تعال، صلِ، صوم، سبِح، تصدق.. هذي كلها أعرفها، وآني أسوي اللي يعجبني، وشوكت ما أريد. أما قال فلان وقال علان فقولها لغيري...

وبعد قليل، وبنبرة جديدة، إعلاناً أن القصة انتهت:

ـ إذا وافقت على هذا الكلام، على هذي الشروط، فماكو بيننا إلا كُلّ خير، وأصير آني وياك مثل العسل والدهن، واتفقنا!

- وشروطه هو، ما انت قلت له شروط؟

هكذا سأل أبو منعم باستفزاز، وكأنه يريد أن ينتقص مِنْ نصر سيفو، ردَّ عليه بسخرية:

ـ كان له شرط واحد: ان ما أصعد للمنارة!

- بس هذا الشرط؟ سأل بدري، لو اكو غيره؟

- هذا شليلي، وأهل المحلة كلهم يدرون، وأنت قلت: الجماعة بقهوة الشط يعرفون ويسولفون!

ـ استغفر الله، نحن مصدقين، أبو فلاح، بس ما دامت السالفة انفتحت فنحن نسأل سؤال.

هكذا قال أبو منعم، لعله يستدرج سيفو مِنْ أجل أن يقول شيئاً إضافياً، وسيفو الذي كان واثقاً، ولإزالة أية شكوك، قال موضحاً:

ـ الرِجال تكلم هوايه عن الجنة والنار، عن الكتاب والحساب، وعن يوم القيامة، وآني قلت له: ملا أنت تعرف: ماكو أحد ينزل بقبر غيره، وكُلّ عنز معلقة مِنْ عرقوبها، وكُلّ واحد له عقل ويسوي اللي بعقله!

لما أصبحت القلعة قريبة بدت ثقيلة كابية، وبدا السور المحيط بها قاسياً، ويشبه حبل المشنقة. وإذا ظل الجو، لدقائق قليلة، مرحاً رضياً، فقد شابه، فجأة، كدر، وكان ريحاً حملته. أما الصمت الذي هبط ثقيلاً، فقد امتد على صفحة الماء أيضاً، وأصبح لوقع المجدافين صرير يشبه صرير سكين عمياء فِي لحم حي.

قال بدري، وخرج صوته كانكسار آنية فخارية: قوياً ومكتوماً:

- يكفي أسطه.. هذا حدنا!

للحظة جفل سيفو، فقد أحس أن قواه تنهار، وبراعته تتداعى، وان ما دبره، أو افترض أنّه وصل إليه، يتلاشى. ظن أن بدري سيرتكب حماقة، ولا بد أن يصلب المركب قبالة القلعة. ولا يُعرف ماذا يمكن أن يحصل بعد ذلك. لكن الصوت الذي تدفق مرة أخرى جعل شذى القداح يعبق أو يفيض مرة بعد مرة، وكأنه ينبع مِنْ الماء ويهبط مِنْ الفضاء.

قال بدري:

- وهسه ندهدى ويا الماي ونشوف تاليها وين نصير!

قال سيفو:

- وراح تسمع، مِنْ أبو منعم، بعد ما خلص مِنْ المجداف، موال بطيز موال، وإذا عندك واهس وبيك حيل إحسب وقيِد!

49 بعد أن أدار أبو منعم الزورق، وألقى المجدافين وسطه، قال، وهو يفرك يديه.

ـ الآن.. يستريح الرب!

ـ قال بدري، فِي محاولة للتصحيح:

ـ الآن.. يستريح الربان، أسطه!

- المهم الاستراحة، مولانا، لأنه اللي يأكل العصي مو مثل اللي يعدها...

وبعد قليل، وقد تغيرت النبرة:

ـ الرب اللي أحجي عليه مو ذاك مال الملا حمادي...

وأضاف بأسى، لكن دون شكوى:

- قبل ما يطيح بينا الزمان، مولانا، ونضرب جف مِنْ الصبح للمسويات، مِنْ طلوع الشمس لغيابها، حتى نحصل خبزتنا، جنا بحارة مجانين، وين أكو سفينة بكبر السراي، أكبر مِنْ السراي، وين اكو بحر ما شافته عين، ولا داسه أنس أو جان، جنا نركب ونجيت...

وتذكر. سافر بعيداً وعاد. تابع، كأن أحداً غيره يواصل الحديث:

- وبذيك المراكب، وبيها مِنْ كُلّ الأجناس والألوان واللغات، كان القبطان مثل ملك الزمان، يأمر ويقول: يوم الأحد ويوم العيد اليوم اللي فيه يستريح الرب. ما أدري شنو يقصد، لكن اللي يباوع شنو اللي يصير ويحصل يتخبل: السفينة مثل الطاووس، على وجه الماي، تمشي وحدها، الريح وحدها تسيرها.

ابتسم بحزن، وهو يُضيف:

- يا جماعة، ومالكم علي يمين، همين الماي تفتهم. الها روح...

قال سيفو بحماس:

- مولانا، سبحانه وتعالى، قال: وخلقنا مِنْ الماء كُلّ شيء حي!

وبعد قليل وبارتباك:

- وين رايح.. إذا ماكو ماي ماكو حياة، ماكو لا زرع ولا ضرع، والبني آدم بليا ماي، ريشة بريح، لا يزرع ولا يخلف، وما يسوى فلس، مولانا!

ردَّ بدري، وهو يحاول أن يعطي الحديث مجرى:

- أبو فلاح خليك سنطة، هسة نريد نسمع فد شيء ينزل بالقلب، وبين بستة والثانية نشوف أبو منعم وين راح، وشنو اللي شاف...

ثم، وبما يشبه الأمر:

- طول بالك يا أبو فلاح. خلنا نشوف الناس اللي راحوا وشافوا وبعدها نسمع شتقول!

ردَّ أبو منعم، بنوع مِنْ التسليم:

- غنا أغني؛ أغني شقد ما يساعدني صوتي...

وبعد قليل، وبأسف:

- لو عرفت أنّه الكم واهس بالغنا، كان جبنا ويانا ملا لطيف، لأنه وحده يضبط المقام، ويثور الدنيا، أما وحدي، وبليا دنبك ودف، فما أدري شيصير!

ـ اللي الله يقدرك عليه!

هكذا علق سيفو ليمنع أيّ تردد، أما بدري فأضاف:

- وبين المقام والثاني تسولف لنا عن البلاد اللي شفتها، والعجائب اللي صادفتها!

تلفت أبو منعم بارتباك، كأنه يبحث عن شيء أو تذكر شيئاً، ولما تأكد قال:

ـ علواه أعرف السوالف مثل أبو ردينة...

عدل جلسته قليلاً، وأضاف، وقد تغيرت لهجته تماماً:

- جان ويانا بواحد مِنْ المراكب اللي توصل إلى الهند وجاره والصين فد واحد اسمه داهش أبو ردينة. وفعلاً هذا الاسم بلوق له، لأن عنده سوالف تدهش، تخبل. مو بس هالشكل، يعرف شلون يسولف. وجنا ليالي وليالي نلتم حوله وهو يسولف...

وتغيرت اللهجة:

ـ ما أدري وين صار. هو بصراوي، مِنْ العشار، لكن قضى كُلّ عمره بالبحر، فإن چان بعده حي فالله يقويه ويعطيه العافية، وإذا مات الله يرحمه. خوش رجال. لبلبان. هواية يونس، حتى إن الواحد وياه ما يحس بالوقت...

وعاد إلى اللهجة الأولى:

- وداهش هذا موبس ملاح، جان يعرف يقرا ويكتب، وان عنده كومة كتب، وإذا الله ما كذبني، يمكن ما يملك غيرها...

توقف قليلاً، تغيرت ملامحه، أصبحت حزينة، عب الهواء وتابع:

- ويوم تفارقنا، وچنا بساحل عمان، ولأن العلاقات بينا صارت قوية، صرنا أخوان، أكثر مِنْ الأخوان، أنطاني فد كتاب، وقال: يجوز ما تقدر تقراه، لكن إذا وصلت بغداد اكو هوايه يقرون، ولا بد يقروا لك شكو بهذا الكتاب، ولا بد تتونس وتذكرني!

سأل بدري بلهفة:

- والكتاب شنو اللي صار بيه، وينه؟

هز أبو منعم رأسه عدة مرات، وقد عبرته ذكريات كثيرة. بعد أن مرت فترة صمت، وأجال عينيه خلالها بوجهي بدري وسيفو، ردَّ ببطء:

ـ الكتاب موجود، أيّ نعم موجود!

ـ علواه الواحد يقدر يشوفه!

هكذا ردَّ بدري.

ومن جديد تطلع أبو منعم إلى عيني بدري بتحديد، وكأنه يقرأ فِي العينين ما إذا كانتا تؤكدان الكلمات التي قالها، فلما اطمئن، قال بمرح:

ـ الكتاب مو بس موجود، وشايله وياي بالمركب!

ودون أن ينتظر، انزلق إلى أرض المركب، جر مِنْ مكان كان مغطى بالحبال وشادر قديم صندوقاً حديدياً، فتحه بمفتاح كان معلقاً بخيط لا يُعرف لونه ويتدلى مِنْ الرقبة، واستخرج كتاباً مغلفاً بجلد نبيذي، ومده نحو بدري!

سيفو الذي كان يراقب كُلّ شيء بصمت، أصابته الدهشة، حين كان يسمع الحديث، ثم وهو يرى لهفة بدري ورغبته فِي أن يرى الكتاب، وأخيراً وهو يقلب الكتاب وقد أصبح بين يديه.

قال بطريقة مهيبة:

- لو أن كُلّ ما يتمناه الواحد يصير هالشكل چان هسه الدنيا بألف خير...

وبعد قليل، كأنه يكلم نفسه:

- بِيا سالفة چنا، وين صرنا، الواحد ما يصدق!

وأخذ بدري يقلب صفحات الكتاب. كان يتنقل بين صفحاته كما تتنقل الفراشة. يهز رأسه مرة. تمتد شفته السفلى مرة. يضحك مرة. وكان الصمت قوياً ممتداً.

قال سيفو فِي محاولة لكي يكسر الصمت:

- كأنا قاعدين بعزا: واحد صافن، واحد يقرا، وما باقي على أهل الشيخ صندل، سيفو وأمثاله، إلا يلطمون!

أبو منعم الذي عاد مِنْ رحلة الذكريات بسرعة، والتفت إلى سيفو، وإن لم يسمع بوضوح كُلّ ما قاله، تساءلت عيناه. أما بدري فقد ظل بعيداً، مع كتابه، ولم يسمع شيئاً.

قال سيفو فِي محاولة للاستفزاز:

- خلنا نرجع، أبو منعم، يرحم والديك، لأن أذني اليسرى صارت تون، ولا بد يكون هذا الونين مِنْ شتايم ربعنا، أهل الشيخ صندل، لأنا تركناهم اليوم

عطاش!

انتبه بدري، كأنه يستعيد نفسه مِنْ أمكنة بعيدة، وتساءل باهتمام مرتبك:

- ها... شنو، شنو اللي قلته، أبو فلاح؟

ـ ما أدري إحنا جايين على مود الونسة أم قاعدين بفاتحة!

- ما افتهمت أبو فلاح!

- أبو منعم سافر للهند وللسند، سافر ويا داهش وغير داهش، وانت غرقت بالكتاب، وآني ما أدري أبقى وياكم أو أچيت بالشط وأروح يَمْ جماعتي!

ردَّ بدري، وهو يضحك:

- على كيفك، أبو فلاح، كُلّ جيتنا على مود الونسة!

ـ إذا هالشكل ضم الكتاب، وخلنا نسمع صوت أبو منعم الورد!

قال أبو منعم فِي محاولة للتوفيق بين عدة أفكار:

- أغني شوي ويقرالنا السيد شوية.

وتغيرت النبرة:

ـ وابن عمتي نواف، تعرفه، قرالنا فد أشياء بهذا الكتاب تخبل، تاخذ العقل!

ـ المهم، مولانا، نخلص مِنْ قعدة العزا!

كان المركب يسير الهوينا مع حركة المياه، وينحرف قليلاً مع المجرى. يتركه أبو منعم ولكن إلى حد، إذ بحركة جسده، خاصة القدمين، مع ميل الجذع إلى هذه الناحية أو تلك، يعتدل، فإذا أبى، أو تجاوز حداً معيناً، كان يستعمل أحد المجدافين كي يعدل مساره.

بغداد التي كانت مثقلة بالليل والبرودة، وببعض الضباب المنبعث مِنْ مياه النهر، تفتحت، تألقت فِي ذلك الشعاع الصباحي الذي اتسع وملأ كُلّ مكان.

صوت أبي منعم، البطيء، والذي لا يعلو إلا قليلاً، يبدو للسامع كأنه آتٍ مِنْ بعيد، مع شجن تلونه الكلمات، وتضفي عليه مسحة تجعله حزيناً وفيه قتام يحسه القلب ويتشربه لحظة بعد أخرى.

عبروا السراي، مرة أخرى. بدت قوية، لكن الحزن لم يفارقها. أما الباليوز، حين مروا به مِنْ جديد، فكان أكثر تألقاً، خاصة وأن الحركة على السفينة، والدخان الذي انبعث مِنْ المدخنة التي كانت بلونين، ظهر وكأنه زوبعة، نظراً للطول والاستقامة، قبل أن يتمطى فِي الهواء العالي، ثم يتبدد.

أما عندما اقترب المركب مِنْ وسط المدينة، وبانت الشرائع واضحة، والمراكب تنطلق منها أو تتجه نحوها، وتوقف أبو منعم عن الغناء، فقد قال له سيفو بطريقة تتجاوز الرجاء ولكن لا تبلغ الأمر:

- خف أيدك، أبو منعم، خلنا نخلص مِنْ الهرجة، وإلا الروج أخذنا يمنة ويسرى!

- لعيونك، أبو فلاح، وخاف الجماعة، هنا، هنا، يصبحون علينا، عبالهم ننقل نفرات مِنْ هالصوب لذلك الصوب!

تجاوزوا الباب الشرقي، بدأ النهر يشكل قوساً وهو ينعطف نحو اليسار. ارتفع صوت أبي منعم يغني، وقد فتنته المناظر التي ترى على الضفتين:

هذي يا صاح أوقات الهنا وبلوغ النفس أقصى الأمل جمعت مِنْ كُلّ شيء أحسنا لذة فِي غيرها لم تكمل ولما سمع ثناء سيفو، وقد أغمض عينيه، تابع بإيقاع جديد:

ضرج الورد بها وجنته والشفيق الغض إذ ذاك جريح تحسب النرجس فيها أعينا شاخصات نحونا بالمقل مال غصن البان فيها وانثنى فِي هواها ميلان الثمل ما كاد ينتهي مِنْ هذا الموشح، ورغم ثناء سيفو، حتى خيم الصمت.

ولما طال الصمت وامتد، رفع سيفو رأسه متسائلاً. تطلع إليه أبو منعم وهو يهز رأسه ويبتسم، وقال بحزن موضحاً:

ـ إيد وحدة ما تصفق يا أبو فلاح...

وتغيرت نبرة الصوت:

- وإذا تريد الصدق: الله خلق الغنا لليل بالنهار شقد ما يحاول الواحد ما ترهم، ما تصير...

وبعد قليل:

- بالليل يصير للواحد واهس يغني، يرقص، ويحار شيسوي...

وأضاف بصوت خفيض لا يكاد يسمع:

- يجوز البني آدم بالليل يخاف، يحس بالظلمة، بالموت، ويريد ينسى ويونس روحه، فتشوفه يصيح، يرفع صوته، يقول آني هنا، آني مو خايف، وكُلّ شيء أقدر أسويه!

ردَّ سيفو:

ـ الغنا واهس يا معود. اكو ناس يغنون بالليل، بالنهار، ما يهمهم الوقت، بس يسمعون صوت الدنبك ما تشوفهم إلا ويصيحون: خفي يا رجلي!

عقب أبو منعم بمرح:

- المهم الدنبك، مولانا، هو اللي يرقص!

وبعد قليل، وبمرح أكثر:

ـ واللي ما يرقص لصوت الدنبك أو الطبل يقول: الأرض عوجا!

ـ شنو قصدك، آغاتي؟

- قبل شوي چنت خابصنا، بس تريد ترقص، هسه راح نوقف، وبيك حيل راوينا رقصك، آغاتي!

- أكيد الأرض راح تكون عوجا على أبو فلاح، وبدل ما يرقص آني راح أقرالكم قصة أو ثنتين مِنْ هالكتاب.

قال بدري ذلك وهو يلوح بالكتاب.

ما إن استقروا على اليابسة، وبعد أن تم إعداد الشاي، أخذ بدري يقلب ويقرأ: «وحدث أبو محمد الحسن بن عمرو أن مركباً خرج مِنْ بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب مِنْ يد صاحبه بقوة الريح، وغاب المركب فاضطر الربان إلى الرسو بجوار جزيرة صغيرة لا ماء فيها ولا شجر؛ وخرجوا إلى البر واشتغلوا بإصلاح المركب، واتفق لهم يوم نوروز فحملوا مِنْ خشيبات المركب، وبعض خوص وقماش وأوقدوا، فتحركت الجزيرة بهم، فأسرعوا وألقوا أنفسهم إلى الماء، وتعلقوا بالقارب، ورأوا الجزيرة تغوص تحت سمعهم وبصرهم، ولحقهم اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا بسببه على الغرق؛ وكانت سلحفاة نائمة على وجه الماء، وحين أحست بحر النار هربت».

وحدث البرختي: «نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة. والمسافة ما بين كُلّ بلد مِنْ جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها. وكُلّ مِنْ فِي أقاليمنا ومدننا مِنْ الملوك يعبدون هذه النار التي تظهر لهم بالليل فِي هذه الجزيرة. ويسمونها بيت الشمس، لأن الشمس تشرق مِنْ طرفها الشرقي وتغرب فِي جانبها الغربي فيظنون أنها تبيت فِي هذه الجزيرة. فإذا أصبح وأشرقت الشمس مِنْ جانبها الشرقي، خفت نارها وماتت، وارتفعت الشمس فيقولون: هي هي. وإذا غربت فِي جانبها الغربي وامسى ظهرت النار فيقولون: هي، هي. فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم مِنْ سائر الجهات. ثم إن الله جعل المرأة فِي بلدنا تلد أول بطن ذكراً، وثاني بطن أنثيين، وكذلك باقي عمرها. فما أقل الرجال فِي بلدنا وأكثر النسوان. فلما كثرن وأردن التغلب على الرجال صنعن لهم المراكب وحملوا منهم آلافاً وطرحوهم فِي هذه الجزيرة. وقالوا للشمس: يا ربهم أنت أحق بمن خلقت، وليس لنا بهم طاقة. ومنذ ذلك الوقت ما سمعنا ولا

مر بنا أحد مِنْ الناس غيركم، ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة. وبلادنا في البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجيء إلينا فيرجع؛ ولا يجسر أحد أن يفارق الساحل والبرد خوفً أن تشربه البحار!».

قال سيفو مخاطباً بدري:

- هذي الديرة توالمنا هواية، الواحد يحس أنّه ملك، شتقول؟

تجاهل بدري السؤال والتفت موجهاً الحديث إلى أبي منعم:

- وهذي الجزيرة اكو أحد مِنْ جماعتك وصلها؟

- علي الحرام لو أني وصلت ما أرجع، لأن هذي هي الجنة اللي وعد بيها رب العالمين المتقين، والناس الخوش أوادم!

سأل سيفو:

- هاي شلون الواحد يقدر يوصلها؟

- يركب بالسفينة، ويارب ويا رحيم، شهر ثنين، سنة ثنتين وما يشوف روحه إلا هناك!

- وإذا تهنا؟ إذا الريح ما والمت؟

ـ يفوت السبت بطيز اليهودي، تكون راحت علينا بالدنيا والآخرة!

- وما نقدر نرجع لبغداد نوبة ثانية؟

هكذا سأل سيفو بسذاجة. ردَّ أبو منعم وهو يضحك:

- باوعوا شلون يسأل! إذا الريح قبت، وصار الموج مثل الجبال، أعلى مِنْ الجبال، وين اكو واحد يخلص؟ وين اكو واحد يرجع!

ـ يعني ماكو منها نتيجة؟

ـ إذا لحق الواحد بندار على القبلة ويتشاهد يكون الله راضي عليه!

- عيني، أبو منعم، لا تحسب حسابي، ومثل هذي الديرة ما أريدها...

وبعد قليل، وبأسى:

ـ تبقى بغداد، على كُلّ سخامها ولطامها، أرحم، وأحسن...

ثم بهمس:

- وبعدين تعودنا عليها، فإذا رحنا هنا.. هنا خاف نضيع المشيتين!

قال بدري، وهو لا يخفي مرحه:

- مثل هالروحة ما تتفوت، أبو فلاح، لو تريد تعيف كُلّ هالنسوان وتبقى ويا فطيم؟

- عصفور باليد، مولانا، أحسن مِنْ...

قاطعه بدري، وهو يتظاهر بالعصبية:

- زين إسمع: «... ومن ذلك أمة بجزيرة على شبه النساء، يقال لها بنات الماء فِي صور النساء الحسان ذوات الشعور السبط، لهن..... وثدي وكلام لا يفهم، وقهقهة وضحك. وحُكي عن بعض البحريين أن الريح ألقتهم إلى جزيرة فيها شجر وأنهار عذبة، وأنهم كانوا يسمعون جلبة وضوضاء وضحكاً فكمنوا لهن، وأخذوا منهن امرأتين فأوثقوهما، وأقامتا مع اللذين أخذاهما أياماً... وإن أحدهما وثق بصاحبته فأرسلها مِنْ وثاقها فهربت إلى البحر ولم يرها بعد ذلك، وبقيت الأخرى مع صاحبها مستوثقاً منها، فحملت منه، وولدت ولداً ذكراً، وأنهم ركبوا البحر فيما حصلت فِي المركب رحمها وحل ميثاقها، وقد رأى أنها لا تزول عن ابنها، فتغفلته ووثبت إلى البحر، فلما كانت بعد ذلك بيوم ظهرت له وألقت إليه صدفة در».

قال سيفو، فِي محاولة لأن يغير الجو:

ـ اللي قلته، يا أبو منعم، إن الغنا لليل، صدق، بالليل، الواحد ما يشوف بس بعيونه، وبقلبه يشوف، ويغني غير شكل!

- مو بس الغنا، أبو فلاح، كُلّ شيء بالليل غير شكل...

هكذا ردَّ أبو منعم، وأضاف بمرح:

- شفت بحياتك عرس صار بالنهار؟ شفت كلمة عشق طلعت مِنْ القلب غير بالليل، آخر الليل؟ وشنو قولك بالضحكة اللي تشق الحزن، وتطلع مِنْ جوا الصدر، تطلع بالنهار لو بالليل؟

أضاف سيفو، وكنوع مِنْ الاحتجاج على القراءة:

- واللي يقرون...

ضحك بسخرية، وكأنه يحاول أن يستدرك:

- مو قصدي اللي يقرون على القبور، هذول، الواحد منهم يكَدي ويريد يحصل له فلسين، أو يقولوا له عفية ويرحم والديك: آني أحچي على اللي قرا ودرس، هذول يقرون بالليل!

هز رأسه بأسى، والتفت نحو بدري:

- تعرف راضي الحلي...

وحين زم بدري عينيه، فِي محاولة للتذكر، أضاف سيفو:

ـ ابن أبو راضي اللي يسكنون براس الدهدوانة، بصف ناجية أم القيمر...

ردَّ بدري، وهو يبتسم:

- أيّ.. أيّ عرفتهم، تذكرت، أيّ شنو؟

ـ ما أشوف أمه إلا وتتوسل بي: أبو فلاح: هذا الولد راح يخبلني:

يسهر الليل كله وينام بالنهار، وشقد ما حاولت، شقد ما سويت، ماكو نتيجة. راح ينعمي. كُلّ الليل يقرا. عميت عيونه مِنْ القراية. ما تحچي وياه أبو فلاح! وأرد عليها: شاقدر أسوي أم راضي؟ ترد: القراية موكل شي بالدنيا!

قال بدري بسخرية:

ـ ما ينراد كُلّ هالسالفة، يا أبو فلاح، وما ينراد كُلّ هذي اللوفة، وإذا عاجبكم نقوم فأنا حاضر. الكتاب وياي، وإذا ما قرينا هسه، أقدر أقرا بعدين.

وبدأ المركب رحلة العودة، إلى بغداد، وقد طالت كثيراً!

لم يكن سيفو متأكداً أن هذا الذي جرى منذ الصباح وإلى ما قبل الغروب بقليل كان حلماً أم حقيقة. يتذكر الوقائع كلها. حتى أصغر التفاصيل يتذكرها. الكلمات التي قيلت، طريقة قولها، وكيف كان يقرأ أثارها على وجهي بدري، ثم أبي منعم. لكن إلى جانب هذه الوقائع فقد حصل شيء آخر، لا يعرف تماماً ما هو، أو كيف وقع أو مني، لكنه أحسه بكل جوارحه. ويبالغ بعض الأحيان حين يظن أن له آثاراً على جسده. يمد يده إلى عدة مواضع، يتلمس، يتحرى، عله يكشف تلك الآثار.

وإذا كان الجسد عصياً على البوح، وبطيئاً فِي التعبير، فإن فِي داخله ماء يتمطى، يرفع صوته بتحدٍ، مرجعاً أحداثاً بعيدة منسية، وحتى الأحلام التي عبرت مخيلته ذات ليلة ثم توارت، يراها الآن تتدفق وتفيض، تنفجر مرة أخرى وكأنها تتجدد، أو تكتسح الحواجز التي وقفت فِي وجهها ودفعتها إلى النسيان.

لم يعد قادراً، أو راغباً، فِي حبس الذكريات، أو منع استعادة الحياة التي عاشها طوال تلك السنين، تماماً مثلما لا يستطيع الإنسان وقف المطر الذي ينهال مِنْ السماء. قد يهرب منه لحظة، لكن آثاره تحاصره مِنْ كُلّ الجهات.

أيمكن لرائحة الماء، وسط النهر، أن تفعل ذلك؟ وإذا كانت الرائحة وحدها لا تكفي، فهل أن الجسد، وهو يلامس الأمواج، أو يقاوم ثقل الماء، بعد أن تراهن والأسطه أبو منعم، أيهما يستطيع أن يغوص لفترة أطول، لمسافة أبعد، ما جعله يستعيد الماضي كله؟

لقد تغير فيه شيء ما، يحس هذا الشيء لكن دون أن يقوى على تحديده، أو معرفته. انكسر حاجز، وسرحت إلى داخله موجة مضيئة وحزينة ملأت كُلّ كيانه.

صحيح أنّه سخر مِنْ بدري فِي اليومين السابقين. ولم يفهم تلك الرجفة التي ميزت صوته حين كان يتحدث عن نجمة. قال إن ذلك لا يليق بالرجال العقلاء، ويسيء لبدري ولعائلته وللمحلة كلها، ويسيء إليه شخصياً. ولم يشعر بأنه يخطىء حين فكر أن يمنع هذا الجنون، وأن يقف فِي وجه بدري، مهما كلفه ذلك مِنْ مشقة!

لكن.. خلال لحظة خاطفة، وسط النهر، أحس أنّه مخطىء، وأن تلك الرغبة التي كانت تدفعه لمثل هذا الموقف قد تجمدت، ثم أخذت بالتراجع. كيف يصف ما حصل له؟ متى بدأ؟ لا يعرف، وليس متأكداً، لكن يحس ذلك

بقوة، هل حصل لما وصلوا إلى القلعة، أم قبل ذلك؟ وهل لموقف بدري لما طلب أن يستدير المركب ويعود إلى السير مع المجرى علاقة؟ أيمكن أن يكون ذلك هو الذي استفزه، أم استسلام بدري بعد أن صعدوا إلى المركب؟ ولماذا بدا بدري ضعيفاً فلم يعترض ولم يناقش، أم لعله يضمر موقفاً آخر؟

فجأة تفتحت روح سيفو، أو ربما انفجرت. ولا بد أن تكون تلك الرائحة الملعونة، والتي تختلف عن رائحة الجرف، هي التي حركته، خضته تماماً، وغيرت مسار الدم فِي عروقه.

ومثلما تتكسر الموجات الصغيرة على طرف النهر بدأت تتكسر الحواجز، أو تغير مواقعها. صحيح أنّه حافظ على هدوئه، كي يمنع جنون بدري، لكن جنونه الخاص هجم عليه كما تهجم الحمى فِي بعض الليالي، يتذكر ذلك مِنْ الملاريا القديمة التي تلازمه. حاول أن يتجاهل الموجة الأولى، أبعدها بقوة، لكن مع كُلّ ثانية تمر، مع كُلّ نخلة يعبرونها، يحس أن شيئاً داخله يفلت ويريد أن يخرج، أن يطير!

الأيام القديمة، الذكريات، لحظات الزهو ولحظات التعب، تجمعت كلها فجأة، كما تتجمع مزن الربيع، وأخذت تنهمر عليه. لماذا جاءت هكذا دفعة واحدة؟ ماذا حملها إليه الآن، وماذا تريد منه؟ لا يملك جواباً، أو بالأحرى لا يعرف الجواب، كما أن أيّ جواب لا يجدي، أو أقل مِنْ أن يفسر مشاعره ويوضح له كيف تجري الأمور.

ثم لماذا هو على صواب وبدري على خطأ؟ وهل ما قاله أبو منعم، وأيضاً ما قرأه بدري فِي ذلك الكتاب الذي خرج مِنْ الصندوق الحديدي كما يخرج العفريت مِنْ المكحلة، ما جعله يشعر بهذا التغير؟

حتى أبو منعم، لما حول اتجاه المركب، كي يعود إلى بغداد، إيذاناً بانتهاء الرحلة، ضرب المجدافين بقوة، وبدت حركاته عصبية، ولا يعرف لماذا ردد: واللي ما زار سلمان كُلّ عمره خسارة؟ هل كانت لديه رغبة، فِي ذلك اليوم الربيعي، أن يواصل الرحلة إلى سلمان باك، ومع الونسة زيارة ضريح سلمان الفارسي، لتمسح الزيارة الخطايا والكلمات الملعونة التي أفلتت دون إرادة، ودون أن تعني موقفاً؟ ثم ألا يجوز أن تكون الذكريات اجتاحت الأسطة وحملته إلى أمكنة بعيدة، وعبر عن ذلك بهذه الطريقة؟

فجأة أحس بالخسارة والضياع، وترافق ذلك مع الحزن حين تصور نفسه يترنح مثل دابة بين الجرف والشيخ صندل. فمنذ أن فتح عينيه على الدنيا لا يتذكر إلا أنّه يواصل هذه الرحلة الدائرية التي لا تنتهي. رحلة عمياء إلى درجة لا يتصور أنّه عاشها. كيف استطاع أن يواصل تلك اللعبة المجنونة، وعيناه أغلب الوقت نحو الأرض، بين الجِرف وتلك البيوت التي لا يُسمع فيها

غير الشجار والشتائم؟ ألم يتعب؟ ألم يزهق؟ وهؤلاء الذين يستقبلونه بالمرحبا، ويقولون له كلمات كبيرة، هل يعرفون كم يعاني، ليس فقط مِنْ التعب، وإنما مِنْ ذلك التكرار الذي لا ينتهي: ذات الطريق، ذات الخطوات، ثم ذات المياه المتعبة التي وصلت إلى الشاطىء بنوع مِنْ الاستسلام، لتنقل إلى ذات البيوت، ولتوضع أخيراً فِي ذات الأواني التي ما تكاد تمتلىء حتى تفرغ، وكأن الناس يريدون شيئاً واحداً، ويتعمدونه: أن يقسوا عليه، أن ينتقموا منه. حتى الكلمات التي يرددونها لا تتغير، حتى استكان الشاي الذي يقدمونه إليه، كأنهم بهذه الطريقة يرضون ضمائرهم قبل أن يرضوا أحداً آخر؟

حتى النقود التي تدفع إليه كُلّ خميس يحس أنّه لا يحبها، ويحاول أن يتخلص منها فِي أسرع وقت. يعطي فطيم قسماً، ما يكفي لشراء الأكل والحاجات الضرورية، وما يزيد يودعه عند الحاج علاوي. لا يعرف بالضبط المبالغ، ويتعب حين يحاول تذكر ما أعطى وما يجب أن يستعيده، لكن الخاج علاوي منذ أن أدى فريضة الحج وزيارة قبر الرسول تغير: «فلوسك أبو فلاح، وما أريد أدوخ بعدها، بهذا الكيس، وإذا ردتها يوم مِنْ الأيام، تعال بحيل صدر وقول: فلوسي، حجي، فتشوفها حاضرة. وتعرف، الدنيا حياة وموت، فإذا ربنا أخذ وديعته فأنا كتبت ورقة باسمك وحطيتها ويا الفلوس، وأريد منك علامة، ونحطها همين ويا الفلوس، فإذا صار قدر، والناس كلها راح تموت، تجي وتقول: أريد فلوسي وعلامتها: فلان شيء!».

ورغم أن سيفو رفض تقديم العلامة أول الأمر، وتأخر حين ذكره الحاج علاوي بها، لكنه اقتنع فِي النهاية، حمل معه مِنْ طرف النهر صدفة صغيرة حمراء، قدمها للحاج علاوي بخجل، وقال له، وهو يدفع إليه آخر ما تبقى لديه مِنْ الخميسية: «هذا هو النيشان، حجي، وما يعرفه إلا ثلاثة: أنت وأنا وفطيم، ومثل ما قلت: الدنيا حياة وموت».

لقد سحب فلوسه عدة مرات مِنْ الحاج علاوي وبقى النيشان! كانت لديه دائماً أسبابه لسحبها: الكسوة، الضحية، وأيضاً الزيارة. كان الحاج علاوي على يقين أن أغلب هذه السحوبات تتم أثناء زيارات يقوم بها سيفو للأولياء. لم يكن يقول ذلك، لكن عن طريق النسوة، والأحاديث التي تدور بينهن، ثم عدم رؤيتهن أن ثوباً جديداً أو حذاء جديداً دخل بيت سيفو، فلا بد أن يكون المبلغ قد صُرف فِي أمكنة أخرى، ولأسباب لا يُعلن عنها!

والملا حمادي الذي سأل الحاج علاوي ذات مرة، كيف يصرف سيفو فلوسه، ردَّ عليه بقسوة جعلته لا يكرر السؤال مرة ثانية:

- حجيت بيت الله الحرام وزرت النبي؛ وشفت أوادم بعيني هذي، اللي راح ياكلها الدود، بقد شعر رأسي، لكن يحرم علي مثلكم أبد ما شفت...

فتح الملا حمادي عينيه انتظاراً لما سيقوله الحاج علاوي، والذي تباطأ، وهو ينظر إليه بحقد ممزوج بالسخرية:

- كُلّ واحد مِنْ هذول اللي يوذنون ويغسلون الموتى، وبالليل يعقدون المهر، ما يشكون مِنْ شي: صحة وعافية، ورضى الدنيا والآخرة، فليش لاحقين هذول المساكين الفقرا اللي يكربون مِنْ الفجر إلى ما بعد غياب الشمس؟

حاول الملا حمادي أن يوضح ويبرر - على كيفك حجي، لأن الواحد وهو يسأل حتى يتحضر، فإذا أحتاج سيفو، إذا راد فد شي..

- خلِ هذي على اليمنى، لا، وأنت قصدك غير شي!

- الله يسامحك حجي.

وبعد قليل وبارتباك:

ـ لازم أقوم، حجي، صار وقت المغرب.

ـ على كيفك تدهدى، ملا، حتى توصل على الوقت!

حتى التعب الذي استنزف عمره يحوله بعض الذين يدعون حبه إلى مجرد نقود، وأيضاً يريدون اصطيادها!

لقد وصل فِي علاقاته مع عدد مِنْ الذين حوله إلى نوع مِنْ التعايش المر. لا يستطيع أن يتخلى عنهم ولا يمكن أن يكون واحداً منهم، إنّه موجود معهم فقط، لكن المسافة التي تفصلهم عنه كبيرة إلى درجة يفضل أن يغرق فِي الصمت أو أن يسافر بعيداً.

حين أوصلهم أبو منعم إلى شريعة الدملوجي، قبل الغروب، اتفقوا على اللقاء مرة أخرى، وأن يكون معهم ملا لطيف. أما حين كان يصعد وبدري نحو محلة الشيخ صندل، فقد أحس أن أضلاعه تؤلمه، ولا يريد أن يتابع إلى البيت، قال فِي محاولة لإشعار بدري بانتهاء رحلة ذلك اليوم:

- أنت هسه رايح تقرا...

وبعد قليل وبنبرة سخرية:

ـ وآني لازم أدور وليف...

ولم يترك بدري ليسأل، أضاف بنفس النبرة:

ـ أروح يم الأسطة اسماعيل أو أدهدى على القهوة... ما تفرق.

ردَّ بدري بتحدٍ ساخر:

ـ لازم تروح يم الملا حمادي، لأن البزون يحب خناقه!

ـ مالي غير هذا أو ذاك، مولانا، إحنا ولد محلة ولازم نتصادق!

أكد بعض العاملين فِي السراي أنهم لم يعرفوا بدري لما عاد مِنْ الإجازة. كان ناحلاً، تحيط بعينيه هالات زرق لفرط السهر والتعب. أما مشيته القوية الواثقة، وكانت تُعرف مِنْ وقعها، فقد خبت، رغم الجهد الذي يبذله لكي يبقى كما كان.

نادر أفندي، بعد أن تصالح معه، ورآه الآن هكذا، فوجىء بمنظره، بل وأنكره خلال اللحظات الأولى. أما حين سأله ما إذا كان مريضاً، أو ألمت به مصيبة، فقد نفى بدري ذلك، بل وحاول أن يضفي المرح على حديثه وتصرفاته، وأشار إلى ضرورة أن يتمتع الإنسان براحة شهرية وسنوية لأن «البني آدم مثل الأرض، فالأرض إذا ما انغسلت، إذا ما استراحت، تصبخ، تملح، وينراد لها سنين وأيام حتى تعود مثل ما كانت» حين سمع نادر أفندي ذلك تحسب واعتبر هذراً، ويخفي شيئاً وراءه.

قال، وهو يقرب رأسه كثيراً مِنْ بدري:

ـ الصحة أهم شيء بالدنيا، بدري بك، وبعدها كُلّ شيء يهون!

بلع ريقه باضطراب، وأضاف:

ـ أيّ نعم، يا بدري بك، الصحة وراحة البال.

ولما أكد له بدري، مجدداً، أن صحته جيدة، ولا يشغله أيّ هم، فقد راودته شكوك أن تكون هناك مؤامرة مِنْ نوع آخر، إذ مثلما يلجأ المتسولون إلى ارتداء الأسمال البالية، أو يُظهرون بعض العاهات بمبالغة مقصودة، كي يستدروا العطف، فإن آخرين يلجؤون إلى وسائل أكثر مكراً، كأن يمرضوا فعلاً، أو يبالغوا بالشرود والحزن، ليسألهم الناس عما بهم، ومما يشكون أو يعانون، وهناك يكون الفخ منصوباً، ويقع فيه بعض البسطاء وكثير مِنْ المغفلين.

وعن لنادر أفندي أن يحسب الرواتب والعطايا التي حصل عليها بدري خلال الفترة الأخيرة، وجدها كبيرة؛ قال فِي نفسه: «ثم انه شاب أعزب، يقضي معظم وقته فِي السراي، كما أن أسرته لا تحتاج إلى مساعدته، لذلك لا يمكن اعتبار المال ما يقلقه أو يولد له الهم، هذا عدا ما يحصل عليه مِنْ الباشا أو ربما مِنْ نساء القصر، دون أن يدري أحد». لما تأكد مِنْ ذلك، سأله بما يشبه الهمس:

ـ خاف تكون محتاج فد شي، بدري بك؟

وحين هز بدري رأسه نافياً أية حاجة، وكان يبتسم، تابع نادر أفندي، وخرج صوته مِنْ الحنجرة:

- الفلوس إذا انطت لواحد يستاهلها، لواحد بعازتها، حتى يحل مشاكله، وبس تخلص العازة يرجعها، تصير مثل الصلاة والصوم: مبروكة وتقود للجنة، وما يضيع أجرها لا فِي الدنيا ولا فِي الآخرة!

ونفى بدري أية حاجة للفلوس، وكان لا يخفي ابتسامته وهو يتحدث، مما دفع نادر لأن يصرخ:

ـ علواه كُلّ الناس مثلك يا بدري بك...

وبعد قليل وبحدة، ليعبر عن مرارته وشكواه:

- الفلوس أحسن ما تروح للي يسوى وما يسوى، أحسن ما تروح اللقحاب والقواويد، ولكل ابن حيض، لازم تنضم ليوم العازة. وأنت، يا بك، الباشا يسمع منك، فلا تتعب وانت تقرا على راسه، أرجوك يا بدري بك، أتوسل إليك!

وكي يبرر مثل هذا الطلب، ولأنه على يقين أن بدري لا يحتاج إلى سلفة أو دين، فقد اندفع بحمية أكبر:

- إذا ردت فد شي، بدري بك، بس قول؛ ولازم تعرف: عندك أخ اسمه أبو يقظان، فلا تدور على أحد، ولا تحير أبد، تجي علي بحيل صدر وتقول: أريد، هات، وشوف شلون ألبيك، بدري بك!

وبعد قليل وبهمس:

ـ أكيد ما محتاج فد شي؟

- وداعتي، وداعة نادر أفندي، لو ردت، لو محتاج، كان آني بنفسي طلبت!

- بارك الله فيك يا ابن الحمولة، يا ابن الأصل!

أما ناطق أفندي، حين رأى بدري، فقد أصيب بالذهول. إذ بعد أن حياه بمودة وحرارة، طلب منه أن يقف مجدداً ليتأكد مِنْ قيافته، وبعد أن دار حوله، ونظر إليه بعناية، قال بأسى:

- شمسوي بروحك؟ ليش مرزل نفسك هالشكل؟

للحظات لم يدرك بدري مغزى سؤاله. نظر إلى ثيابه العسكرية، ونظر إلى ناطق أفندي مستغرباً، تابع ناطق، وكأنه يحدث نفسه:

- معقول انه بشهر زمان الواحد يتغير بهالشكل؟ إلى هذا الحد؟

وبعد قليل وهو يهز رأسه بحيرة:

ـ انت متأكد أن هذي ملابسك؟ ما انبدلت؟ ما تغيرت؟

ردَّ بدري، وقد مازج صوته بعض الحنق:

ـ شبيك، ناطق أفندي؟ شنو صاير بالدنيا؟ ليش تسأل مثل هذا السؤال؟

- بدري، عيني، اللي يشوفك بهذه الملابس يقول: بالتأكيد هذي ملابس أبوه، لو لاقيها، أو ناهبها!

وبعد قليل وباستغراب:

- ما شايف روحك، ما أحد قبلي قال لك؟

- ناطق أفندي.. إما انك متوهم أو تريد تتشاقى!

- شوفوا ابن الأوادم شيحچي، شيقول...

وتغيرت النبرة تماماً، أصبحت حازمة أقرب إلى الغضب:

- بدري، يا آغاتي، أنت تعرف شقد نحن متشددين مع الغُرب، مع الناس اللي ما نعرفهم: البسوا هذا ولا تلبسوا ذاك. القيافة هالشكل مو هالشكل. هذا يصير وهذا ما يصير...

استراح قليلاً، ألتقط نفساً وتابع:

ـ إذا كان هالشكل ويا الغربا، الناس اللي ما إلهم علاقة بالسراي، فشلون تريدنا نتعامل مع أقرب الناس للباشا؟

ـ ما تفهمني، يرحم والديك، شنو تريده مني؟

هكذا، بغضب، سأل بدري. ردَّ ناطق أفندي، وحاول أن يعطي صوته مدى مسالماً:

ـ هذي الهدوم ما عادت تلوق لك: مهبهبة، عريضة، واللي يشوفك جواها يقول: عبالك عصا ملفوفة بخلقان...

وبعد قليل وبرجاء:

- لازم نلقى لك ملابس غير هذي؛ ملابس عرضها أقل حتى أنت تملاها مو هي تملاك!

وتغيرت النبرة، أصبحت مرحة:

ـ اللي يروحون يم أهلهم، اللي يرجعون مِنْ إجازة، تلقى الواحد منهم مثل الغريري بعد الضرب: مربرب، مدعبل، سمين ووجهه متفتح، إلا أنت، اشو صاير جلد وعظم، شنو قصتك؟ ليس صاير مثل الفتيل؟

وإذ حاول بدري الدفاع عن قيافته وصحته، فقد ردَّ عليه ناطق بود وحزم معاً:

ـ إذا كان جماعة السوق ما يحسون أنهم سمنوا إلا بعد شهور، لأن واحدهم، بالليل والنهار، بالدشداشة والكلاش، فالعسكري يحس ويعرف مِنْ اليطق والجزمة، وآني هسه ما أريد أدخل وياك بإيراد ومصرف، ولكن أريدك تقول لي: شلون حذاءك وشلون حزامك!

لا شعورياً، وقبل أن يكمل ناطق أفندي كلامه، حرك بدري قدمه فِي جزمته، فوجد الجزمة فضفاضة، تلق، وكأنها لواحد آخر. ابتسم، وقال بنوع مِنْ التسليم:

ـ الحق اللي تقوله، ناطق أفندي...

وبعد قليل، وقد امتدت يده إلى الحزام تتحسسه، وجد مسافة بينه وبين البطن، قال باستغراب:

- ولا انتبهت، ناطق أفندي، ولا تفطنت!

- أكيد، لأن اللي يكون عند أهله، وبالدشداشة، وين يدري، شلون يتفطن!

- والرأي؟

- قوم، آغاتي، خلينا نشوف باللوازم، وين اكو قاط يوالم المرافق الأول للباشا!

خلف الذي كان ذاهباً لمكان ما فِي السراي، ربما لرؤية نادر أفندي! ما ان لمح بدري بصحبة ناطق أفندي حتى توقف فجأة، وقد تملكه الروع، وكأنه لم يتوقع رؤيته. أقبل عليهما، حيا بدري بمودة، لكن بدا مرتبكاً، أقرب إلى الحيرة. قال لبدري، وخرج صوته مضطرباً:

- أريد أشوفك فد دقيقة، بك، لان لي وياك كلام قبل ما تشوف الباشا!

- فد دقيقتين، خلف، وامر بك.

- ضروري. لا تنسى!

وإذا كان نادر أفندي وناطق أفندي قد لاحظا أن شكله تغير، كُلّ الأسبابه ومن الزاوية التي تعنيه، فإن خلف لم يلتفت لهذا الأمر، أو ربما لم يلاحظه، وهذا ما جعل بدري يُسر ويتحسب بنفس المقدار، إذ قد يكون التغير، أو اختلاف الهيئة الذي أشار إليه الإثنان مِنْ قبل، فيه حد كبير مِنْ المبالغة، وقد تكون لدي خلف قضايا أو أسباب أكثر أهمية، بحيث لا يبدو المظهر مهماً إزاءها.

قال لنفسه، وهو يسير نحو قسم اللوازم «السرعة التي تجري بها الأمور فِي السراي تختلف عن الأماكن الأخرى، ومن الخطأ أن يغيب الإنسان، أو أن يطول غيابه» وقد تأكدت هذه القناعة أكثر وهو يرقب خلف: مِنْ ارتباكه أولاً، ثم وهو يوصيه أن يمر عليه قبل أن يرى الباشا!

حين تقابلا فِي غرفة خلف، والتي لم تكن تبعد كثيراً عن ديوان الباشا، كان الصمت كثيفاً، والخطوات حذرة، وكان بعض الخدم، الذين يقومون بأداء مهمات معينة فِي الديوان، يمرون كالأطياف: حركاتهم محسوبة، متحفظة، خائفة، ونظراتهم ترى ولا ترى فِي نفس الوقت، خاصة فِي الغرف والممرات التي تؤدي إلى ديوان الباشا.

بدري الذي يعرف هذا الجو، يعرف الناس الذين يعملون، ويعرف كيف تجري الأمور. بدا له وكأن أشياء جدت أثناء غيابه، وأن الحركة تجري بتحفظ أكبر، خاصة بالنسبة له، أو هكذا أحس. أما خلف الذي اقترب منه كثيراً، حتى كاد يلاصقه تماماً على المقعد الذي جلسا عليه، وبعد أن سأله بسرعة عن أحواله، قال له، وكان يبدو خائفاً ومرتبكاً معاً:

ـ ترى الباشا ماخذ على خاطره..

وبعد قليل، وبلهجة حزينة:

- ويجوز بعده زعلان، فدير بالك، بدري بك!

- ليش يا معود؟ شنو اللي صار بغيبتي؟

ردَّ خلف، ولم تخل لهجته مِنْ السخرية:

ـ أنت تسألني لو آني لازم اسألك؟

- خير؟ تكلم، قول!

- كُلّ ما أعرفه، بدري بك، أنّه سألني: تعرف وين صاحبك، بدري؟ ولما قلت له ما أعرف، قال: هذا اللي أمناه، اللي أعطيناه الثقة: مصبح ممسي بين القحاب، فالله يستر!

- أيّ.. وبعد شنو؟

- تعرفه، الكلمة تطلع مِنْ حلقه بألف ويلاه...

بدري، وقد سرى إليه الخوف، إذ تصور داود باشا ولقاءه الأخير معه، كيف أبدى رغبته فِي أن يحسم أمر زواجه ويقرر، كي يشاركه بالفرح، أن يقدم له هدية، سأل بدري بخوف:

- شنو هالسوالف، خلف؟ منو اللي نقل، منو اللي قال؟

- علمي علمك، يا بك، وأنت تعرف شقد يطب بشر بالسراي، ومنين تجي الأخبار، توصل للباشا ملبلبة حارة، وما يندرى منين! وبعد قليل، وبحذر شديد:

- يرحم والديك، بدري بك...

أخذ نفساً عميقاً، وقد جحظت عيناه، وهو يقول ذلك، وأضاف:

- وأنت تعرف: لولا معزتك، لولا الخبز والملح، فلا أتكلم ولا أقول، انت أخ، ومثل ما تحفظ الود تعرف شلون تحفظ السر...

تلفت إلى أكثر مِنْ جهة، وقال بهمس لا يكاد يسمع:

ـ وآني وأنت، غير المرحبا ماكو، ما سمعت مني أيّ شي أبد، ولا عرفت، فاستر علينا الله يستر عليك!

وبعد قليل، وبطريقة متآمرة:

- وإذا شَوْفته اليوم ما لازمة، مو ضرورية، خليها لثاني يوم، لثالث يوم، يمكن الله... يكون مرتاح، متونس، وجايبه عقل الرحمان، ونقول له: بدري جا ويريد يسلم عليك، ونشوف شلون ترهم!

أما فيروز الذي يلازم باب ديوان الباشا كما يلازم الإنسان ظله، والذي يرقب كُلّ شيء بعناية، لكن دون أن يتفوه بكلمة، فقد جاء مصادفة، أو ربما قادته حاسة الشم إلى غرفة خلف. ما كاد يرى بدري حتى قالت عيناه أشياء كثيرة ودفعة واحدة: اللهفة، والاستغراب، المفاجأة، الشعور بالإنكسار والخذلان، وربما غيرها أيضاً!

وإذا كان يعرف كيف يعبر عما يحسه، وعن شعوره تجاه الآخرين مِنْ خلال عينيه، فإن طريقته فِي المصافحة تعطي وضوحاً إضافياً عن هذه المشاعر.

ما كاد يصافح بدري حتى قالت اليد والعينان: الباشا غاضب، وأن أشياء كثيرة نقلت إليه، فاحذر وتوق!

ومثل عادته قفل فيروز بسرعة عائداً إلى باب الديوان، وكأنه يقول دون كلمات: «الزمن هو الذي يحل المشاكل، فانتظر!».

الصفعة الكبرى التي تلقاها بدري ذلك اليوم كانت مِنْ سيد عليوي. إذ ما كان يغادر غرفة خلف، عائداً إلى جناح المرافقين والحرس، حتى رأي موكب سيد عليوي: كان فِي المقدمة، وعلى مسافة خطوتين مرافقه وحرسه الخاص. وإذا كانت عادة عليوي أن ينظر إلى كُلّ شيء بسرعة، وأن لا تستقر عيناه على شيء أو على أحد، نتيجة الثقة الزائدة، أو ربما الخوف فقد انصبت نظراته هذه المرة على بدري، وكأن لا أحد غيره فِي الساحة ثم فِي البهو الذي يفضي إلى ديوان الباشا!

للحظة، وقد كانت تلك اللحظة طويلة مشحونة، لم يعرف بدري كيف يتصرف، هل يتقدم نحوه كي يحييه ويقوده إلى غرفة الباشا، كما هي العادة، أم عليه أن يكتفي بأداء التحية العسكرية مِنْ بعيد، باعتبار أن هناك مِنْ هو مكلف بالاستقبال والمرافقة، خاصة أنّه لم يضع نفسه بعد تحت التصرف؟

قرر، بسرعة، الاكتفاء بتحيته مِنْ بعيد. لكن سيد عليوي أشار إليه برأسه، ليس رداً على التحية، وإنما يطلب منه أن يتقدم، أن يقترب.

لم يكن أمامه أيّ خيار، خاصة وأن سيد عليوي أبطأ فِي سيره، مما جعل المرافق والحرس يقتربون كثيراً، حتى كادوا يلامسونه. اقترب. قال سيد عليوي، وبدت لهجته ساخرة:

- شلونك؟ صار زمان ما شفناك؟

- زين سيدي، شكراً، كنت فِي إجازة.

- إن شاء الله تونست بالإجازة؟

- الحمدلله، سيدي.

- إجازتك ما كانت طويلة، مو هالشكل؟

- شهر، سيدي.

ـ وقدر الباشا تغيب عنه كُلّ هذي المدة؟

-....

- وخلصت الإجازة لو بعد؟

- خلصت، سيدي!

- على الخير.. على الخير!

كُلّ ما قاله سيد عليوي لم يعن له الكثير، قدر ما قالت نظراته، وأيضاً تلك الابتسامة المتشفية. ففي السابق لم يتعود أن يسأله، كما أن نظراته إليه كانت مختلفة. قد لا تخلو مِنْ ضيق، وبالتأكيد لا تحمل الود، لكنها لم تكن ساخرة، شامتة، كما هي اليوم.

ما كاد سيد عليوي يواصل سيره، حتى تأخر مرافقه، حامد، غمز بعينه وهو ينظر إلى بدري ويبتسم، وقال قبل أن يتجاوزه ليلحق بسيده:

- روجينا تسلم وتسأل!

وبعد لحظة، التفت وأضاف:

- وغيرها؟

«إذن يعرفون كُلّ شيء» هكذا قال بدري لنفسه، وهو يرى موكب عليوي يتقدم نحو ديوان الباشا. شعر أنّه مكشوف إلى درجة العري، وربما تداول الآخرون قصته بكثير مِنْ السخرية والاستهزاء. امتلأ بالغيظ على نفسه وتجاه الآخرين. لماذا كان غراً، أقرب إلى البلاهة، حين ذهب إلى نبع الشر: إلى روجينا؟ ألم يجد طريقة أفضل للوصول إلى نجمة غير هذا الطريق؟ لو أنها ساعدته لشفع لها حتى لو نقلت الخبر، ولوجد عذراً أو سبباً لكي ينظر إليها بطريقة مختلفة، لكن!

إنّه الآن يواجه خصوماً كثيرين ودفعة واحدة، وعليه أن يتحمل وأن يحسن التصرف، ليس ذلك فقط، لا أحد يقف إلى جانبه. لا أحد يفهمه أو يتعاطف معه. حتى سيفو، بدا له، فِي لحظات عديدة، خصماً أو أقرب إلى العدو. كيف تتحجر قلوب الناس، وتصبح غير قادرة على الفهم أو التعاطف؟ وماذا يريد منه الآخرون، ولماذا يتدخلون فِي أمور لا تعنيهم؟ وإذا حصل هذا الشيء أو لم يحصل، ماذا يستفيدون فِي الحالتين؟ ولماذا يشعرون بنوع مِنْ الغبطة، رغم البراعة فِي إخفائها، حين يسمعون قصص أو مآسي الآخرين ويعرفون معاناتهم وعذابهم؟

كان يريد أن يسترسل إلى ما لا نهاية، وقد امتلأ بالغيظ والحقد والغضب، ولكن ما فائدة ذلك الآن، بعد أن انكشف وفقد جزءاً كبيراً، إذا لم يكن كُلّ أسلحته؟

لما استسلم لجبروت سيفو، حين أشعره أنّه قوي ويمكن أن يفرض ما يريد، ثم تلك الوشوشات، وكانت أقرب إلى تمثيل الأطفال، وقد بدا سيفو خلالها، ولو فترة قصيرة، أنّه قادر على توجيه الأوامر؟ حين فعل ذلك وهم يستقلون المركب، فقد بيت أمراً آخر: سوف يستدعي إلى السراي ثامر المجول، وبعد بضع كلمات، يبلغه بطريقة حازمة أن يُطلق سراح الرهينة، نجمة. قد يحتج، وربما يعاند أو يرفض، لكن سيعرف كيف يتعامل معه، وكيف يجبره على أن يمتثل، بالقوة، بالإغراء، بالتهديد، لا يهم، وعند ذاك، وبعد أن يلتقي بنجمة، سوف يحدد نوع العلاقة التي يريد، وسيحيط كُلّ شيء بسرية تامة، ولا بد أن يصل إلى غايته!

أما الآن، وبعد أن انكشف كُلّ شي، فلا يعرف كيف يتصرف، ولا يستطيع أن يقدر قوته، وماذا سيكون ردَّ فعل الآخرين.

حتى خلف بدا خائفاً، بل ويمكن أن يتخلى عنه بإشارة صغيرة مِنْ الباشا. وفيروز الذي تلوب عيناه فِي الوجوه والأماكن، نسي الكلام لفرط الصمت الذي يغرق نفسه فيه، وسوف لن تسعفه الكلمات، حتى لو أراد، أن يلتمس له العفو عند الباشا. لذلك يشعر الآن أنّه وحيد إلى درجة لا يعرف كيف يتحمل، أو هل يستطيع هذا المقدار مِنْ الوحدة؟

صحيح أن الباشا اختاره مِنْ بين العشرات مِنْ زملائه، لكن هل معنى هذا الاختيار أن يستولي على عقله وقلبه؟ أن يجعله بلا عواطف، بحيث يحدد له كُلّ شيء فِي هذه الحياة؟

ومرت فِي ذاكرته صورة أبيه، هذا الذي منحه الحياة والهيئة والاسم، وقدم له الكثير عبر كُلّ هذي السنين، لم يستطع أن يقف فِي وجه رغبته حين اختار الجندية. يتذكر أنّه قال له، حين وجده مصراً هكذا: «ترى هذه مو شغلتنا، وإذا الواحد خلص مِنْ خطرها ما يخلص مِنْ شلعان القلب، وبعدين أولها وتاليها: باب فقر لولد الولد، فالله يهديك اتركها، وتعال وياي على العلوة، وبعد سنة، سنتين، فُك علوة إلك وحدك» لم يسمع ما قاله أبوه، واتخذ قراره. ومع ذلك، حين يعود إلى البيت، يحس، بل ويرى بعينيه ويسمع بأذنيه، أن أباه منذ لحظة وصوله يصبح إنساناً آخر مجرد أن يراه: أكثر فرحاً، أكثر شباباً، ولا يتردد فِي أن يدندن بأجزاء مِنْ بعض الأغاني تعبيراً عن النشوة التي تملؤه!

أكثر مِنْ ذلك: لو أنّه فاتح أباه بشؤون قلبه، وقال له كيف أن هذه الفتاة سبته، شغلت باله فِي الليل والنهار، ويريدها، فربما أبدى الأب رفضه، وقد يقول كلمات كبيرة لإقناعه بنسيانها، لمنعه مِنْ الزواج بها، لكن حين يرى تصميمه سوف ينسحب، ويترك لأمه أن تعالج الأمر. فإذا واصل جنونه، لا بد أن يصلوا إلى حل، قد لا يكون موافقة صريحة، أو إعلاناً مباشراً، ولكن سيكون أقرب إلى التواطؤ: «خذها وابعد عن المحلة، ومع الأيام سوف ينسى الناس، وعندها يمكن أن تعود».

إنّه متأكد مِنْ ذلك، فالأمهات والآباء لا يتقنون أكثر مِنْ العفو ومسامحة أولادهم عن كُلّ الحماقات التي قد يرتكبونها، ويجبرون أنفسهم على نسيانها، بحيث لا تبقى منها إلا الذكريات الجميلة، وذلك المرح الذي يتفجر فجأة حاملاً معه الملامح والشظايا، وحتى رائحة وأطياف الأيام الهنية التي مضت.

أما الرؤساء، أما الذين يحكمون، فإنهم لا يكتفون مِنْ مرؤوسيهم بالولاء والطاعة والتضحية فقط، بل ويريدون الاستيلاء على الأجساد والقلوب، وحتى الأرواح، ويجب أن يكون ذلك مستمراً ودائماً. أما الحماقات، أما شؤون القلب، وتلك الزوابع التي قد تهب فجأة، وتغير مسارات الدم، فإنهم لا يعترفون بها، لا يقرونها، بل أكثر مِنْ ذلك يعاقبون عليها دون ندم.

وتذكر بدري وجوهاً كثيرة، فِي بغداد وفِي الجبل، ومدى العلاقات التي تكونت، والأخطار التي واجهته، وعندما هبت رياح مِنْ هنا، ورياح مِنْ هناك، ووقع الخلاف، سقطت العواطف دفعة واحدة، ونسي الكثيرون الأيام الماضية كلها، وأصبحوا، دون تردد، دون قدرة على المراجعة، أعداء.

الآن لا يعرف كيف سينظر إليه الباشا، كيف سيعامله، قال لنفسه، وهو يهز رأسه غيظاً وحسرة: «بالتأكيد سوف ينسى كُلّ شيء سابق، وسوف يقف، وتطول وقفته، عند اليوم الحالي، عند الأخبار التي وصلته، ولا بد أن تمتزج السخرية بالتقريع، وقد تلحقهما العقوبة أيضاً». وتذكر حجر الصوان، وكيف رفعه الباشا، فأخذ الحجر يلتمع فِي شمس الشتاء الكابية. كان فرحاً وهو يعرضه، وهو يديره مِنْ جهة إلى أخرى. قال لنفسه: «والباشا، كإنسان، ألا يحب؟ ألا يسامح، ثم ألا يحمل فِي صدره مِنْ العواطف والرغبات تجاه زوجاته، تجاه الحريم، وتجاه الأولاد الكثير؟ ألا يتذكر شيئاً مِنْ هذا حين يتعامل مع الآخرين؟».

ذهب إلى الجناح. دخل غرفته، وأبقى الباب موارباً، إشعاراً أنّه عاد مِنْ الإجازة، وأنه فِي غرفته ومستعد لاستقبال الزملاء والمساعدين، كان يريد أن يرى أكبر مساحة مِنْ البهو. كُلّ ذلك لكي يرقب فِي عيون الذين سياتون، فِي عيون الذين سيعبرون، مدى ما يعرفون، وهل وصلتهم الأخبار أو مجرد إشارات، ولا بد أن ينظروا فِي أعماق عينيه، علهم يستكملون القصص التي يروق لهم سماعها، ثم ليقوموا بعد ذلك بنشرها!

فِي اليوم الثالث، وكانت تلك الأيام طويلة مريرة، جاءه خلف كي يبلغه أن الباشا يريده!

خلال المسافة بين جناح المرافقين والحرس وبين الديوان، والتي لا تزيد على سبعين متراً، كانت أطول رحلة يقوم بها بدري أثناء إقامته فِي السراي!

إذ رغم المعرفة الأكيدة بكافة التفاصيل، بما فِي ذلك ديوان الباشا، وطريقته فِي النظر والكلام والتصرف، فإن الخجل والخوف والتهيب، ومشاعر أخرى كثيرة، كلها ازدحمت وتكاثفت خلال هذه المسافة، وكأنه يقطعها لأول مرة، وكأنه لم ير الباشا مِنْ قبل. ومما زاد فِي احتقان المشاعر وتوتر الأعصاب، صمت خلف، إذ لو كانت لديه بارقة أمل، احتمال أو توقع رضا الباشا، لتصرف بشكل آخر. لكن الصمت، فِي أحيان كثيرة، يتحول إلى ضجيج، وهذا الضجيج يزداد ويعنف ما إن تقترب لحظة المواجهة.

سمع الباشا الباب يُفتح. سمع خلف وهو يقول: بدري، سيدي.

ظل الباشا ينظر إلى الحديقة عبر النافذة المفتوحة. لم يلتفت. لم يتكلم. وبدري الذي بقي واقفاً بصمت، لا يعرف كيف يتصرف. مرت دقيقة، بدت دهراً، بدت ثقيلة وقاسية.

قال الباشا، وجاء صوته بعيداً، كأنه يخرج مِنْ بئر:

- سوف أعطيك فرصة أخرى.

قالها وصمت. وبدري الذي سمع، كان يريد عينين لينظر إليهما، كي يدافع عن نفسه، ليبرر مواقفه وتصرفاته، لكن داود باشا الذي ظل ينظر إلى الحديقة، تابع بعد هذا الصمت:

- يمكن أن يغفر الإنسان للشباب نزواتهم، وهذا ما سوف أفعله!

والتفت إليه فِي تلك اللحظة. شعر بدري أنّه يقابل هذا الوجه لأول مرة، كأنه لم يره مِنْ قبل. كان قاسياً وشاحباً معاً. أما العينان فكانتا جامدتين لا تقولان شيئاً. تابع الباشا، وكان صوته هذه المرة شبيهاً بصوته القديم:

- لن أترك لعليوي ورجاله أن يسخروا مني ومن رجالي، ولن أسمح أن تكون أخبار السراي فِي دور البغاء، وليس فقط فِي المقاهي والأسواق...

وتغيرت لهجته تماماً، وهو يُضيف:

- ولأني أثق بك، وأريدك أن ترتقي فِي السلك، ولأني اعتبرك عيني وأذني، فسوف أبعث بك إلى كركوك...

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

- وأنت تعرف كركوك، وتعرف مشاكلها وناسها، وهذا ما جعلني اختارك لهذا المكان، ليس كعقوبة، وإنما كتجربة جديدة..

وأضاف وقد تقدم نحوه:

- أريد أن أختبر كفاءتك وسلوكك مرة أخرى، وسوف تعود إلينا فِي وقت غير بعيد.

وابتسم الباشا، أو حاول الابتسام، وكانت كلماته الأخيرة:

- هيىء نفسك للسفر خلال يومين أو ثلاثة، وأتوقع أن أسمع أخبارك المرضية، وعزمي أفندي حضر كُلّ شيء، ويمكن أن تقابله وتتفق معه على التفاصيل!

«القائد إذا انتصر يصبح خطراً» هكذا قال داود لنفسه، وهو يراقب بعناية تصرفات سيد عليوي، خلال الفترة التي أعقبت معركة الفرات الأعلى، فإذا كانت النياشين التي عُلقت على الصدور تكفي لإرضاء المنتصرين أثناء المعركة، ثم بعد انتهائها بفترة قصيرة، وقد يتظاهر المنتصرون خلال ذلك بالتواضع، رافضين، أو عازفين، عن المشاركة باقتسام الغنائم، فإن ابتعاد، ثم زوال رائحة البارود، يجعل الكثيرين يتنسمون روائح أخرى ويفكرون بشكل مختلف، إذ لا بد أن يكونوا موجودين وشركاء فِي السلطة والمال، بعد أن تحملوا الكثير، كما يقولون الأنفسهم ثم للآخرين، فِي زمن الحرب!

نادر أفندي الذي غضب مرات لا عد لها أثناء معركة الفرات الأعلى، وحاول أن يقنع نفسه بالرضا حين استلم الغنائم، ما لبث أن شعر مِنْ جديد بالخدعة، لأن عليوي الذي أصدر أوامره الصارمة بضرورة تسليم كُلَّ الغنائم إلى الخزينة، وهدد بإنزال عقوبات قاسية بمن يخالف ذلك، كان يريد أن يقول للباشا، ولكل مِنْ أخذ عليه مبالغاته فِي طلب المال أثناء المعركة، إن الحرب بمقدار ما يُنفق عليها، فإنها فِي النتيجة رابحة، وهذا ما جعله يردد فِي مجالسه الخاصة، وبعض الأحيان دون سبب واضح:

«عوافي لمن يدفع تسعة حتى يأكل العشرة».

حاول نادر أفندي أن يقتنع، رغم أن له طريقة مختلفة فِي الحساب. فالربح أو الخسارة، بالنسبة له، لا يقاس أيّ منهما بما أنفق أو ما ردته الغنائم، وإنما بما يترتب بعد ذلك. ويتملكه الخوف حين يتذكر الإكراميات التي قدمت ليس أثناء الحرب وإنما بعدها. إذ أن ما دفعه داود مِنْ العطايا والإكراميات بعد الحرب يفوق كثيراً ما أنفق خلال الحصار، ثم أثناء المناوشات التي دارت حول القلعة.

كان داود، لكي ينتزع الخوف مِنْ العقول والقلوب، لا يتردد فِي الإنفاق، إذ كان يعتبر أن المال يلين قلوب الكثيرين، ومعنى أن يعطي أنّه قوي وأنه راضٍ، لأن المال ليس فقط داوء للخائفين، بل إنّه أكثر جدوى وتأثيراً بالنسبة للمنتظرين والمترددين، ولأولئك الذين لا يعرفون حقيقة مشاعرهم بعد!

الآن، بعد الصخب الذي ترافق مع وصول الغنائم، جاءت مشكلة الرواتب والعطايا لشيوخ العشائر الذين وصلوا بأعداد متزايدة إلى بغداد. كان هؤلاء الشيوخ، بملابسهم الجديدة، وطريقة تصرفهم، يشبهون الأطفال أيام العيد:

كثيري الصخب، سريعي الحركة والانتقال مِنْ مكان إلى آخر، مع مطالب لا تنتهي لأنفسهم ولرجالهم.

والعاملون فِي السراي، الذي أولوا الشيوخ اهتماماً وعناية فِي البداية، ما لبثوا أن تراخوا أو تخلوا عنهم، إما بالتجاهل أو بالابتعاد، نتيجة زيادة المطالب، والفوضى التي أحدثوها فِي كافة أنحاء السراي. إضافة إلى الإلحاح واللجاجة فِي طلب مقابلة الباشا وكبار الموظفين مِنْ أجل زيادة المخصصات واستبدال البيوت والخيول. وحين لا تستجاب مطالبهم، أو لا يجدون آذاناً صاغية، يلجؤون إلى التهديد أو البحث عمن يلبي هذه المطالب، وهكذا لم يتأخروا فِي الوصول إلى سيد عليوي!

نادر أفندي الذي وقف بصلابة لا تقهر فِي وجه المطالب غير المشروعة، كما يُسمي كُلّ ما يتجاوز الراتب، أحس، ثم تيقن، أن ما لا يستطيع الشيوخ انتزاعه منه مباشرة يحصلون عليه عن طريق سيد عليوي. خمن ذلك فِي البداية، ثم قاله الشيوخ صراحة، وكانوا يسخرون مِنْ بخله وعناده. وقد تأكد لما أخذت تتزايد مطالب سيد عليوي لتخصيص مبالغ إضافية «المساعدة مساكين الحرب» كما أطلق على المبالغ الجديدة المطلوبة!

قال نادر لخلف، وهو يلح عليه لتحديد موعد عاجل مع الباشا:

ـ ترى الدنيا هوايه مليوصة يا خلف!

ولما وجد الاهتمام فِي وجهه، تابع وبحدة:

ـ الماي خاشة مِنْ جوانا ونحن ما ندري، فإذا ما فتحنا عينا زين راح الأول والتالي!

- شلون يا معود؟

ـ الآغا ما عنده شغل إلا يصيح وير وبعد قليل وبحزن:

- هذول الشيوخ الهتلية، لما شافوا العين هنا حمرا، وقلنا لهم: ها هي مخصصاتكم، وماكو غيرها، ولازم الواحد يمد رجليه على قد غطاه، راحوا يم الآغا، والآغا مو خسران شي مِنْ جيبه: خذوا، حلت البركة وتستاهلون. وكُلّ يوم والثاني: خرجية جديدة، وفوقها إكرامية: هذا حصان، وذاك فرس، واللي ما يريد حصان أو فرس خذ هذه صرة ذهب، وما ينعرف بعد شنو اللي يصير باچر واللي عقبه.

- والباشا يدري؟

ـ على مود هالشي أريد أشوفه. أريد أبرد فوادي وأقول له شنو اللي صاير بالدنيا!

حين التقى نادر بالباشا، حاول بصعوبة أن يمنع نفسه مِنْ البكاء. كان صوته يرتجف ووجهه ممتقعاً، ولا يقوى على إخفاء انفعالاته، ولقد بلغت حداً، فِي إحدى اللحظات، جعلت الباشا يقول:

- على كيفك نادر أفندي. يواش يواش، المال يتعوض، الرجال هم اللي ما يتعرضون...

وبعد قليل:

- لو اكو ناس مثلك، بحرصك، كان هسه الدنيا بألف خير، لكن منين نجيب الرجال؟ نخلقهم؟

وساد صمت، بدا ثقيلاً. كان الباشا يريد أن يتكلم ويفيض، لكن لا يعرف ما إذا كان الوقت مناسباً، ونادر أفندي هو الشخص الذي يمكن أن يفضي إليه أم لا. قال الباشا، كأنه يكلم نفسه:

- ترى البدو دائماً هَم: إذا كانوا معك وإذا كانوا عليك!

- وإذا ما منها چاره، ولازم ياخذون، فخلهم ياخذون مِنْ إيدك يا باشا مو مِنْ إيد غيرك.

- وأنت توافق تنطيهم؟

- أنت خليهم علي ولا تدير بال، آني أعرف شلون أتعامل معهم!

- هذا اللي خلاهم يدورون غيرنا، يا نادر أفندي، هذا اللي خلاهم يروحون يم الآغا وغير الآغا!

- سيدي، هذول ما يشبع عينهم إلا التراب، وما يعرفون غير قولة هات، فإذا ردنا نوافق على كُلّ ما يطلبون راح نصبح على الحصير!

- لا تخاف يا نادر أفندي، المال يتعوض، مثل ما هو الصوف مخلوف، ومهما ضاقت الدنيا تنفرج!

لم يكن الباشا بحاجة لأن يسمع مِنْ نادر، فقد كان يصله مِنْ غيره الكثير، حتى أن ما تجمع لديه مِنْ المعلومات والوقائع جعله يتحسب، لكن لا يريد أن يتعجل، كما لا يريد لأحد أن يقدر ما سوف يفعله. وحين أمر أن تُلبى طلبات سيد عليوي، كان يعرف أن جزءاً مِنْ هذه الأموال يُعطى لشيوخ البدو، ويعطى جزء آخر إلى كبار الضباط، ومع ذلك كان مقتنعاً وراضياً، فقد كان يخشى أن تمتد يد هؤلاء إلى الباليوز، أو تمتد إلى ما وراء الحدود، وعند ذاك يصعب استعادتهم أو الوثوق بهم. أما كلام نادر، وتلك «الثورات» العمياء التي يحدثها فِي السراي، فكان الباشا يريدها ولا يريدها فِي نفس الوقت، مما جعله يتسامح بعض الأحيان، ويقسو بعض الأحيان، ويكلف غيره فِي أحيان كثيرة كي يتعامل معه.

عزرا الذي ظل طوال الفترة الماضية صمام أمان، ويعرف كيف يروض نادر أفندي، أصبح فِي الفترة الأخيرة إنساناً لا يطاق: عصبياً، هائجاً أقرب إلى الثورة، فقد أخذت تصله بين فترة وأخرى معلومات أن ساسون شوهد فِي السوق، أو مر على أحد التجار. كما وصلته أخبار أن سلطانة غنت فِي حفل زواج كان فيه ساسون، لكنه لم يبق طويلاً، إذ غادر دون أن يحس به أحد.

وإذا كانت رغبة الانتقام ومحاولة تصفية الحساب مع ساسون قد شغلته خلال الفترة الأولى، وجهد مِنْ أجل الوصول إليه، فإن غياب ساسون الكامل، وعدم تسرب أو وصول إلى أية معلومات عنه، جعله يتناساه أو يبعد صورته عن ذهنه، خاصة وأن عزرا استطاع ترتيب الكثير مِنْ الأمور وفق صيغة مرضية حققت له فوائد كبيرة.

الآن فاضت الهواجس والمخاوف مِنْ جديد. وإذا كان الباشا قد عرف ببعض محاولات وأساليب عزرا لمتابعة ساسون والقبض عليه، ولم يكن لديه مانع فِي ذلك، أو كما قال لعزرا ذات مساء، خلال الفترة الأولى، وقد جرى الحديث عن بعض المستندات الضائعة، وقيل إن ساسون، احتفظ بها أو أتلفها، قال له الباشا: «ساسون ينراد له جرة إذن حتى يتأدب ويصير عبرة لغيره، وبعدما يقضي كم شهر جوا، ويذوق مرها مثل ما ذاق حلاوتها، نتواجه... والله كريم». أعتبر عزرا هذا الكلام تخويلاً له كي يفعل ما يشاء.

لكن منذ ذلك الوقت فاض النهر مرتين، وتغيرت أمور كثيرة، حتى كاد ينسى الكثيرون مِنْ رجالات سعيد، بمن فيهم ساسون، أو لم يعد الناس يتذكرونهم إلا كما يتذكرون أحداثاً قديمة.

غضب عزرا أفندي أشد الغضب لما رأى السخرية فِي وجوه الكثيرين. بعث بطلب مراد زكو، صاحب دعوة العرس. أكد له مراد، مع أيمان غليظة، أنّه لم يدع ساسون، وقد فوجىء بحضوره، كما فوجىء أغلب المدعوين. أما سلطانة، حين تم استدعاؤها، فقد كان عزرا أفندي معها قاسياً أقرب إلى الغلظة، لأنها لم تبلغه عن حضوره الحفلة التي غنت فيها، لكنها ردت بحزن:

- يجوز تدري.. ويجوز ما تدري، يا أفندينا. مهدي انطاك عمره، مات، وبعده نحن تقر منا، وآني مالي درب عليك، فشلون تريدني أوصل وأقول؟

- مهدي مات؟

- صار له شهور وأيام!

- الله يرحمه كان خوش ولد!

وكي يبني جسراً، عله يستطيع أن يصل مِنْ جديد إلى ساسون، لجأ إلى مجاملتها. سأل:

- لكنه مو كبير بالسن، وكان قوي، فشلون مات؟ مرض؟ توجع؟

ـ أبد يا أفندينا....

أخذت نفساً عميقاً، وبدا صوتها أكثر حزناً وهي تضيف:

ـ تكربس حصانه ووقع، يا أفندينا، وبعد يومين مات الحصان، وهو ما تحمل الدنيا، بعد موت الحصان ثاني يوم مات!

ـ هالشكل؟ بليا مرض، بليا ما يتوجع؟

ـ أبد، يا أفندينا. ما قال آخ. كان حيله قوي وما اشتكى مِنْ فد شي...

وبعد قليل، فِي محاولة للتدليل على معاناتها، وعدم قدرتها على مواصلة المهمة التي يريدها، قالت بألم:

ـ القهر، يا أفندينا، يدمر أكثر مِنْ المرض، والواحد إذا فواده انمرد شيبقى منه؟ الموت أحسن له مِنْ قهر الدنيا ورزالاتها!

ترك لفترة الصمت أن تمتد كي تمتص الحزن. قال وهو يحاول أن يضفي على صوته نوعاً مِنْ الكرم:

- لو تسألين أهله، خاف يكونون محتاجين...

وبعد قليل، كأنه يخاطب نفسه:

- وآني راح أشوف مختار الشراكة، ونشوف شنو اللي الله يقدرنا عليه!

- لم يكن يريد تقديم المساعدة عن طريق سلطانة وحدها، إذ ربما اعتُبرت أنها مقدمة منها، فالمهم بالنسبة لعزرا ليس أن يعرف الأهل فقط، فالأكثر أهمية أن يعرف الجوار، وأهل المحلة، لذلك لا بد أن يتم ذلك عن طريق المختار. لما سألها مِنْ جديد عن أسرة مهدي، ردت بنزق:

- كانوا عايشين مِنْ الحصان، والحصان مات، وثاني يوم أبو الحصان مات، وهسه ما ينراد سؤال: الولد ينتظرون، وأهل المروة ما يقصرون!

وقدم إليها عزرا أفندي مبلغاً، وقال بسخرية ممزوجة بالأسف:

- لو، الله يرحم، جاني ساعة تكربس بيها الحصان، وقال إن الحصان ماكو منه چاره، خلص، چان أنطيناه حصان مكانه وچان ما مات!

- شيفيد، أفندينا، منو يقدر يرد القدر؟ منو اللي يقدر يخلي شمعته مشتعلة طول الليل؟

وانحدرت دمعة على خدها. لم تمنعها ولم تمسحها. قال عزرا لينهي هذا اللقاء، وإلى أن يجد وقتاً أكثر ملاءمة، وصيغة عملية كي تبلغه ما إذا رأت أهل مهدي:

- نحن راح نتلاقى نوبة ثانية، ونشوف شنقدر نسوي!

وإذا اعتبر أن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت مع سلطانة، فقد كلف رجاله أن يزيدوا الرقابة فِي أحياء اليهود، وأن يحضروا جميع الحفلات والمناسبات التي تقام. وكي يحرض نفسه أخذ يستعيد، مِنْ جديد، الوقائع والأسباب التي تدين ساسون، وكيف ساء إليه واضطره إلى الهرب. كما زاد مِنْ زياراته لوجهاء الطائفة. زار مِنْ جديد موشي طقو فِي كنيسه، وحضر أيضاً الصلوات، وقد تعمد أن لا يقتصر فِي صلوات يوم السبت على كنيس بالذات، إذ زار أغلبها، إن لم يكن كلها.

حتى رجال السوق التجاري، خاصة باعة الجملة والصرافين، لفتت أنظارهم الزيارات المتكررة والمتقاربة التي قام بها عزرا. قدر الكثيرون أن وراءها أشغالاً وصفقات هامة، لذلك تبادلوا فيما بينهم الأحاديث والأخبار، قارنوا ودققوا، لكن لم يستطيعوا الوصول إلى نتائج محددة أو قاطعة.

قال الحاج شبلي فِي جمع مِنْ التجار أصحاب الصنف:

- يا جماعة الخير، عزرا أفندي صار له مدة، كُلّ يوم والثاني مهفي على السوق، فشنو جاي يخم؟ ما تقولوا لي؟

ـ لا تروح زايد حجي، فعزرا إذا ما جا بنفسه اكو له معاميل هوايه بالسوق، وهذول يوصلون له كُلّ شيء صار.

- زين... على ويش زادت جياته هذي الأيام إذا كان كُلّ شي يوصل له ويعرف كُلّ شي؟

قال نعمان المطيري:

- مولانا، قعدات، السراي تضوج، وين اكو مثل قعدات السوق؟ الواحد يشوف رزقه بعينه، ويشوف البيع والشرا؛ وأنت، حجي، تعرف مثلي وأحسن مني، يمكن بساعة، بضربة حظ، إن الواحد يكسب بيعة أو شرورة أكثر مما يربح بشهر إذا كان حاضر وقال: بعت أو اشتريت!

ردَّ حسين الملا علي:

- بابا، إحنا فليساتنا على قد حالنا، نبيع ونشتري حتى ندبر خبزتنا، عزرا وأمثاله يبيعون بالبحر، قبل ما توصل البضاعة بشهور، وهناك الربح، هناك تصير الفلوس!

قال الحاج شبلي وقد تخدش صوته:

- زين... زين ما اختلفنا منو يربح أكثر مِنْ اللاخ؛ وشلون تصير الأرباح. خلوا هذي على صفحة، السؤال: هذا، عزرا، ما چان ينشاف بالشهر بالشهرين، بهالأيام كُلّ يوم والثاني متخم، ما تفهموني ليش؟ شنو القصة؟

وجاراه نعمان المطيري فِي السؤال:

- سؤالك، حجي، على راسي، صدق، هذا ليش كُلّ يوم والثاني خري مري؟

وبعد قليل وبحيرة:

-لَا بُد يكون ورا جياته سالفة!

- هَذَا سؤالنا، مولانا!

هَكَذَا رَد الحاج شبل بانفعال....

وبَعْدَ قَلِيل، كأنه يُخاطب نفسه:

- بالسوق ماكو إلَا: بيش؛ شقد؛ مخلص أَمْ بيها إن...

توقف لَحْظَة، ثم أضاف وقَدْ تغير صوته:

- خلنا نروح عَلَى قهوة الشط، ونشوف الناس هُنَاك شيقولون!

قَال نعمان المطيري، والَذِي يأْخذ عَلَى الحاج شبلي الوَقْت الطويل الَذِي يقضيه فِي قهوة الشط:

- شكو ورا هذول الحفاي، حجي؟

ولَم يتركه ليجيب، تابع وكَانَ صوته أقرب إِلَى السخرية:

- وبقهوة الشط ناس يتصيدون ذبان، وأفندية يهرجون، وماكو أَحَد حاس بيهم، مثل ضرطة عنز بالجبل، وحدهم يخمسون ويسدسون فخليك ويانا أحسن، حجي، هُنَا نسولف ونقسم، ويجوز يطلع ويانا أزيد مِمَا يطلع مَع ذوليك الأفندية المضيعين كعابهم، وما عندهم إلَا أشعار وأمثال، وقَال فلان وفلان مِن قديم الزمان... هَذَا بالنهار، أمَا اللَيْل كُلُه فعِند ميخا، وماكو إلَا: أحْسَنْت؛ أعد؛ يسلم حلق الذهب. وبَعْدَهَا يفشرون ويبكون إِلَى أن يجروهم آخِر اللَيْل لبيوتهم...

وضحك بصخب بَعْد أَن رسم هَذِه اللوحة، ورُبَمَا تذكر شيئاً إضافياً، فقال:

- وبعدين القعدة وياهم، حجي، مو بس خسارة، بيها دوخة رَأْسَ وشلعان قلب، إِذَا مو أَكْثَر.

- مولانا... هذول الحفاي، اللي مَا عاجبينك، الواحد مِنْهُم مثل ماء السماء، ولولاهم الدُنْيَا مَا تسوي شي!

هَكَذَا رَد الحاج شبلي، وهُوَ يستعد للنهوض. قَال حسين ملا علَي، الَذِي يوافق عَلَى كلام الحاج شبلي، ويريد أن يلفت النظر لشيء آخَر:

- حَتَى الباشا... بَيْن يَوْم والثاني داز عَلَيْهم: ها... شنو رأيكم؟ موافقين لَوْ عندكم رأي ثاني؟

وأضاف، وقَدْ وجد الْآخَرِين يصغون إِلَيْهِ:

ـ مَا دام الباشا حاسب لَهُم حساب، فالحجي مو غلطان إِذَا قَال لازم نسمع شيقولون.

رَد نعمان بحسرة:

- كُل واحد يسمع اللي يريده، اللي يعجبه، لَكِن، لمعلوماتكم، الدُنْيَا ماشية عَلَى غَيْر رأي جماعة قهوة الشط، والباشا يقشمرهم بكلمة، أَوْ عَنْ طريق جماعته، واللي مَا يجي بعصا موسى يجي بعصا فرعون!

قَال الحاج غفوري الَذِي ظل طوال الوَقْت يسمع دُون أَن يقول كلمة:

- صَارَ لكم ساعة تسألون: عزرا رايح جاي عَلَى السوق، وما عرفتم الجواب، وَلَمَا عجزتم تريدون تكسرون الحِب بِرَأس أفندية قهوة الشط، فخلوا هالفقرا وحدهم، خلوهم يحلمون ويقسمون، وخلوهم يَقُولُون الشي اللي مَا نقدر نقوله، لأن الشاعر، يا جماعة الْخَيْر، يقول مثل الولد الزغير، اللي بقلبه، إِذَا بكي يبكي روحه وروح أمواتنا كلنا، فليش زعلانين؟

- مَا كوا أَحَد زعلان، حجي، بس تاهت عَليْنَا، وما يندري شنو صاير بالدنيا!

هَكَذَا علق نعمان، وأضاف حِيْن وجد الَذِينَ حَوْلَهُ يصغون ويُتابعون:

- أهل قهوة الشط شورهم مِن راسهم، وإحنا شورنا مِن رَأْسَ غيرنا، ولذلك راح تنلاص عَليْنَا أَكْثَر وأكثر!

قَال الحاج غفوري، وكَانَ يُمسد لحيته ويتكلم بهدوء:

- خلونا مِن الاكو والماكو يا جماعة الْخَيْر...

توقف قليلاً:

- بغداد مَا ينحزر عَلَيْهَا. بغداد ولايات. بغداد قاط فَوْقَ قاط، سرداب جو سرداب، وسرها بعيد، سرها غميق. وحَتَى البني آدم بَيْن يَوْم والثاني يَتَغَيَر. واللي مَا يقوله التجار بالسوق يقوله غيرهم بذاك الصوب، فخلنا نسمع، خلنا نفتح عيوننا زين..

وبَعْدَ قليل وبصوت يمازجه الذكرى:

- وأهل بغداد مِن يَوْم مَا خلق الله الدُنْيَا الواحد مِنْهُم قَبْل مَا يروح لأهله، لازم يفتر عَلَى ربعه، لازم يمر عَلَى القهوة، والقهوة مو بس السلام عَلَيْكُم وشلونكم. القهوة أخبار وأسرار، وغزل بالليل ينقل بالنهار، وبَعْدَ مَا يسمع:

فِي أمان الله يا جماعة. فشنو راح يصير بالدنيا إِذَا الحجي شبلي مر عَلَى القهوة، وسمع الأخبار وجانا باجر وقَال: ترى صاير كَذَا وكيت...

والتفت إِلَى الحاج شبلي، قَال لَهُ وهُوَ يضحك:

ـ القهوة، حجي، درمان الصدر، هُنَاك السوالف، وأكل اللحم الحي، وهُنَاك تشوف الدُنْيَا مقلوبة، غَيْر شكل، بس ينراد لَهَا طولة بال حَتَى الواحد يفرز الصِدْق مِنْ الجذب!

رَد الحاج شبلي وهُوَ ينهض:

- بغداد بليا قهوة، بليا مَا يقشب الواحد عَلَى الثاني، مَا تسوى!

قَال الحاج غفوري، وهُوَ يرقب الحاج شبلي حِيْن عبر الطاق:

- بغداد قهاوي وسوالف، واللي مَا يصير بالنهار يصير بالليل، وابد مَا ينحزر عَلَيْهَا، وما ينحزر شنو اللي راح يصير بيها؟

ومِثْل كُل لَيْلَة: حسون أَحَد نجوم قهوة الشط. يدْخل مخطوفاً: عينان مليئتان بالدهشة، وهُوَ يتلفت، بسرعة، فِي كُل الاتجاهات، كأنه يبحث عَنْ شَخْص أَوْ عَنْ شَيْء ضائع؛ شفتاه تتحركان بكلمات سريعة، لَكِنَها غامضة مُتداخلة، حَتَى إِذَا تعالت الأصوات، ومِنْ اِتِجَاهَات متعددة، تناديه وتطلب إِلَيْهِ أن يقدم شهادته عَنْ ذَاكَ اليوم، يهز يَديْه الاثنتين بطريقة عصبية دلَالة أنّه لَا يريد، أَوْ لَا يقوى عَلَى أن ينقل للناس مَا شهده، مَا رآه بعينه، فِي السوق، قُرب السراي، فِي الأماكن الَتِي وصلها ذَلِك اليوم.

ورواد قهوة الشط الَذِينَ تعودوا مِنْهُ ذَلِك، وكي يحملوه عَلَى الحديث، لَا بُد أن يلجؤوا إِلَى تهدئته، إِلَى استئناسه، بأن يطلبوا لَهُ استكان شاي، وأن يلتفتوا عَنْهُ ويتركوه لبعض الوَقْت، أن يتركوه قليلاً، دُون سؤال. فَإِذَا هَدَأَ، إِذَا استقرت عيناه وشفتاه، وقَبْل أن يُسأل يضحك بصخب، كأنه تذكر شيئاً طريفاً لَا يقوى عَلَى كتمانه، ولَا بُد مِن إشراك الْآخَرِين. الَذِينَ يعرفونه أَكْثَر مِن غيرهم يلتفتون ولَا يلتفتون، يتظاهرون بالإنشغال عَنْهُ، وعِنْد ذَاكَ ينفجر:

-.... الدُنْيَا مقلوبة بذاك الصوب...

يسمعون، لَكِن دُون تعليق. يتابع:

- وإِذَا الباشا اشترى مني لولده فريرات، اصير عزرا هَذَا الصوب؟

ويأتي أَكْثَر مِن صوت:

- أَنْتَ عزرا الصوبين!

- وين اكو بالدنيا كُلهَا فريرات مثل فريرات حسون؟

ِ مثلها ماكو لَا بالشام ولَا باسطنبول!

ويصرخ حسون لوضع حدٍ لِهَذَا الهذر:

- ولازم تعرفون، يا أهل هَذَا الصوب، جا للوالي ابن جديد!

ويدب الهرج مِن جديد:

ـ ولد لَوْ بنية، حسون؟

ـ أشقر لَو أسمر، حسون؟

ـ أمه نعرفها، لَكِن منو هُوَ أبوه؟

ويضج الجمع بضحك صَاخِب. ينظر الأسطة عواد بغضب، وإن لَمْ يسمع مَا يدور، لَكِن يقدِر أن الجماعة تجاوزت الحد المعقول، الحد المسموح بِهِ. وحسون الَذِي لَا يقيم وزناً لمواقف وعواطف الكثيرين، يتحسب كثيراً إِذَا غضب الأسطة عواد، لذَلِكَ يُحَاوِل أن يضع حداً للضحك الصاخب. يصمت قليلاً، يلتفت بحذر إِلَى كُل الاتجاهات، ثم يتابع، لَكِن بصوت لَا يكاد يُسمع:

- مثل المشي بالجنازة: قولوا اللي تريدوه، لَكِن بسكوت، بليا مَا أَحَد يحس، وإلَا اسكت!

- دير بالك يا معود!

- صَارَ لَنَا ساعات نقول هسه يجي حسون، فعَلَيْكَ الله لَا تضم شي!

- الأسطة يزعل ويرضى بالعجل، لَا تخاف!

ويرد حسون، وقَدْ شعر بالإهانة:

- منو اللي يقول حسون يخاف؟

ويضيف، وهُوَ يمُد رجليه، وقَدْ تملكه الغيظ:

- بالليل، بآخِر اللَيْل، أتمشي يم الشَيْخ مَعْرُوف، وإِذَا مَا عديت القبور، أصيح أوف يا ليل، فشنو عبالكم حسون؟

وتنهال عَلَيْهِ الأوصاف وهِيَ تثني عَلَى شجاعته:

- حسون سبع!

- حسون يخوف وأبد مَا يخاف!

- حسون مخوف ذَاكَ الصوب كُلُه، واللي مَا يصدق يتقدم ويقول؟

وبهدوء، أقرب إِلَى الرجاء، يرد حسون عَلَى هَذَا الثناء:

- إِذَا رايدن مني أحجي فاريد سنطة. موافقين؟

- بس انطق، بس قول!

ويخفت حسون صوته إِلَى أقصى حد:

- ورُزق مولانا الوالي بغلام جديد...

وبانفعال يبحث فِي جيوبه عَنْ شَيْء، حَتَى إِذَا وجده يرفعه فِي الهواء، يمرره أمام العيون، وهُوَ يتابع:

- وهَذَا النيشان: راحة الحلقوم، فاخرة فاخرة، أوَل صنف، مِن إسطنبول!

ويضحك بصخب، ثم يقول مُحذراً:

- وهذي بس الواحد يباوعها مِنْ بعيد، لِأَنَهَا أَكَلَ السلاطين!

ويأتيه صوت مِنْ بعيد:

- خاف يكون، هَذَا اللازمه، حسون، زب القاضي مو حلقوم اسطنبول!

وحين يضج الجمع بضحك صَاخِب لَا يَسْتطِيع الأسطة عواد أَن يبقى مُراقباً مِن بعيد، لَا بُد أَن يتدخل. يأتي مُتمهلاً، لَكِن بثقة، ويقول لحسون بحزم:

- قوم يا ابن الأوادم. تعال وياي، أحس مَا تسوي لَنَا مكسورة!

ويحاول حسون أَن يُفلت، يتظاهر بالخوف، اعترافاً بالخطأ، لَكِن الأسطة لَا يترك لَهُ مجالاً، يقول لَهُ كي يطيب خاطره:

- مثل مَا الأفندية إلهم سهم نَحْنُ إلنا بيك سهم، فتعال!

فَإِذَا حاول حسون أَن يتأخر أَوْ يَتَرَدَد تأتيه كلمات الأسطة حازمة:

- لَك الحامض برد يا ابن الأوادم...

وبَعْدَ قَليل، وهُوَ يُخاطب الجمع بطريقة لَا تخلو مِن تأنيب:

- مِن رخصتكم يا معمري البيوت...

وتتغير اللهجة تُصبح ساخرة:

- بدل مَا تحطوا بجيبه حجر، بدل مَا تقولوله هَذَا يصير وهَذَا مَا يصير، تثوروه زايد...

وبَعْدَ قليل، وبنوع مِن العتب، وهُوَ يَجر حسون:

ـ يخلف عَلَيْكُم، وكثر الله مِن أمثالكم!

الحاج شبلي الَذِي وصل إِلَى قهوة الشط بَعْد العصر وقَبْل الغروب، لَمْ يَكُن يريد أَن يشهد فصلاً جديداً مِن فصول حسون، فالأمر، بالنسبة لَهُ، أَكْثَر جدية مِن أَن يقتصر، أَوْ أَن ينتهي، كَمَا كُل لَيْلَة، تقريباً، بتلك المشاهد الَتِي لَا يعرف كَيْف تُصنف أَوْ كَيْف تُوصف. فعزرا الَذِي أخذ يَتَرَدَد كثيراً عَلَى السوق فِي الفترة الأخيرة شغله ثم أقلقه. وإِذَا كَانَ تجار السوق لَمْ يجدوا سبباً أَوْ تفسيراً، فَلَا بُد أَن يوجد أَحَد فِي قهوة الشط أَكْثَر معرفة ودراية.

سَأَل الحاج شبلي عبدالمولى حنون، أَحَد مُلاكي بساتين الجعيفر، عَنْ أسعار الأراضي، وعَن محصول السنة الحالية والسنة الماضية، وما إِذَا كَانَ يتوقع تحسناً بأسعار الأراضي والمحاصيل، وهَلْ لَا زَالَ الناس يشترون ويبيعون. كَانَ الحاج شبلي يريد أَن يُقارن، أَن يتأكد، مَع أَن الأَمْر لَا يعنيه مُباشرة، لَكِن مدفوعاً لمعرفة مَا آل إِلَيْهِ البستان الَذِي يملكه عزرا فِي تِلْك المنطقة.

قَال عبدالمولى حنون بطريقة فخمة، وبَعْدَ أن استمع إِلَى عدد مِن الأسئلة:

ـ القاع، حجي، تَخْتَلف عَنْ شغل السوق. القاع بمكانها، القاع مَا تتغير بَيْن يَوْم والثاني. ومحصول هَذِه السنة مثل محصول السنة اللى فانت. القاع ينراد لَهَا ناس غَيْر شكل، ناس يعرفون شلون يقرون الممحي...

ابتسم وصمت. كَانَتْ ابتسامته حزينة، أراد لصمته أَن يشق طريقاً، لَكِن حِيْن وجد الحاج شبلي يراقبه وينتظر، أضاف:

- عزرا.... وغَيْر عزرا، مِن أهل السوق، يريدون مِن القاع الونسة..

وبَعْدَ قليل، كأنه يَحْدُثْ نفسه:

ـ إِذَا الواحد مو فَوْقَ القاع، ويحجي وياها صبح ومسويات، ويَعْرِف شكواها وعذابها، تظل القاع خرسا، تظل تضلع، صحيح أَنَهَا تخلف، لَكِن شلون خلفة؟ عوجة ومعيوبة؛ وتصير مثل بول البعير: كُل يَوْم لورا.

ـ اللي يسمعك آغاتي تحجي عَلَى القاع هالشكل يحسب إِنَك تحجي عَنْ البني آدم، عَنْ شي حَي؟

- شعبالك حجي؟ القاع مثل البني آدم: تحس وتتعذب، تحجي وتبكي وتَقُولُ: الله أكْبَر إِذَا شافت البني آدم مَا داير بال!

ضحك بحزن وبَعْدَ قليل:

- كُل بال الناس أَن القاع، مَا لَهَا روح، مَا تحس ولَا تتوجع، وبعدين، بَعْد شهور وسنين، يحسون بالصواب، ويندمون!

- وبستان عزرا؟

- وبستان عزرا، مولانا، مثل غَيْرِه، مَا عرف حنية، وماكو أَحَد سمع ونينه أَوْ سأله شبيك!

- ويزور البستان؟

- زيارة القبور، كُل سنة نوبة أَوْ ثنتين!

- الله أعلم أنّه مَا عِنْدَه وقت!

- مولانا... أهل السوق غَيْر الفلح. أهل السوق مَا يعرفون القاع إِلَا نوبة بالسنة، يَوْم المحصول. أمَا الفلح فمع القاع كُل ساعة وكُل يَوْم، لأن مِنْهَا عيشتهم، وعَلَيْهَا يعتمدون؛ والنتيجة: يا فالحة يا طايحة.. هذي هِيَ السالفة مِن الأول للتالي. وهَذَا اللي مَا يعرفه أهل السوق لأن مَا عندهم وقت!

- وهَذَا مِن سنين، مَا تغير؟

- خلينا مِن هالسالفة، أبو قدري، الله يخليك، لأن صبر القاع طويل!

- وما أقصر صبرك يا بني آدم!

ـ يسلم حلقك، يا ابن الأصل!

وسَأَلَ الحاج شبلي آخرين، سَأَل الَذِينَ يتعاملون بالصوف والغنم، وسَأَلَ أَحَد دلالي البيوت، واثنين مِن الَذِينَ يتاجرون بالخيول ولهم علاقة بالقوافل، وسَأَلَ صياغاً وصياداً وأَحَد صُناع السروج، سألهم مَا إِذَا كَانَ عزرا، أَوْ أَحَد رجاله، سَأَل أَوْ استفسر عَنْ أَمْر مِن الأمور الَتِي لَهُم علاقة بِهَا، وحين نفى هَؤُلَاء، أَوْ هزوا أكتافهم دلَالة أنهم لَا يعرفون، قَال للأسطة عواد الَذِي كَانَ يجلس إِلَى جانبه، تعبيراً عَنْ التقدير والاحترام:

- تري عزرا سكين بغمدها، مَا تعرف شوكت تنجز؟

ولَم يصل الحاج شبلي إِلَى نتيجة واضحة خلال ثلاثة أيَام، رَغْم مواظبته عَلَى ارتياد قهوة الشط، وسؤاله الكثيرين، وإن يَكُن بشكل غَيْر مُباشر، عَنْ الحماس الَذِي دب فجأة وجعل عزرا يدور مِن مكان لآخر كالنحلة.

فِي اليوم الرابع، أوَل المساء، ومِثْل عادته كُل مساء، جَاء حسون. دخل المقهى وهُوَ يرقص. كَانَ متهللا منشرحاً أقرب إِلَى الطرب. لَمَا سألوه، بَعْد أن انتهت مراسيم استقباله، وبَعْدَ أن هَدَأَ، رَد بفخامة:

ـ فكوا عَنِي ياقة...

وبَعْدَ قليل:

. خلوني مقندل!

ـ شنو شارب؟ أَحَد انطاك صوغة؟

- راسي متروس مزيقا!. وين؟ شلون؟

- مِن الميدان إِلَى رَأْسَ القرية، كُلهَا مزيقا وطبول وخيول، وتعال تشوف عيونكم!

- عرس؟ طهور؟ شنو اللي صاير بالدنيا؟

وقف وهُوَ يخرج مِن حلقه صوتاً يشبه صوت الطبل، وكَانَ يوقع بقدميه، وَلَمَا وجد الجميع ينظرون إِلَيْهِ ويتابعونه أضاف:

ـ أَكَلَ.. أَكَلَ.. أَكَلَ، واللحم كومات، كومات، تشبع أهل بغداد بالصوبين.. ويزيد...

- منو العازم ومنو المعزوم، احجي، برد فوادنا؟

ـ مَا أدري، يمكِن الوالي، ويجوز الآغا، مَا ظل أحَد إلَا وجبت، وأهل بغداد كُلهَا هُنَاك مجموعة: رقص وغنا وأكل، شلون اكل: تمن عنبر ولحم ودهن حر، واللبن داير مندار، وكُل واحد وذراعه!

ـ إذَا مَا عرفت اسم العازم والمعزوم، كُل اللي قلته تصفيط، منام مِن المنامات، وباجر تطلع الشمس عَلَى الحرامية، ويبين الصادق مِن الجذاب!

- زين.. زين، لأني فقير مَا تصدقوني، لَكِن باجر تجيكم الأخبار؟

فِي اليوم التالي كَانَ السوق كُلُه يتحدث عَنْ الدعوة اَلتِي أقامها مهيوب الجلبي عَلَى شرف ساسون!

كَانَتْ الدعوة بمثابة أوَل ظهور علني وكامل لساسون، فَقَدْ حضرها عدد مِن كبار موظفي السراي، وثلاثة مِن ضباط القلعة، إضَافَة إِلَى تجار ورجال دين وبَعْض الملاكين، وأوفد الباليوز المترجم الأول لحضورها! الحاج شبلي لَمْ يسمع حسون وهُوَ ينقل مَا رأي، أمَا حِيْن أبلغه الأسطة أَن دَعْوَة كبيرة أقيمت فِي رَأسَ القرية، وحضرها جمع مِن الوجهاء، فَقَدْ أخذ يَتذَكَر الأغنياء الَذِينَ يسكنون هُنَاك، ومَنْ يُحْتمَل أَن يكون الداعي، ولَوْلَا التردد وبَعْض الخجل، ثم الغضب الَذِي انتاب حسون، لِأنَهُ لَمْ يؤخد كلامه عَلَى محمل الجد، لاستدعاه الحاج شبلي وسأله واستفسر مِنْهُ. ومَعَ ذَلِك فَقَدْ سيطر عَلَيْهِ هاجس أَن يكون للأمر علاقة بعزرا، وكَانَ مقرراً أَن يتحرى ويسأل أهل السوق فِي اليوم التالي، لَكِن الأخبار سبقته إِلَى هُنَاك.

حِيْن رآه نعمان المطيري قادماً، وقَبْل أَن يصبح عَلَيْهِ، بادره ضاحكاً:

- ها.. شقلنالك حجي، مو السوق أحسن مِن قهوة الشط؟

ـ الناس يَقُولُون: صباح الْخَيْر، أوَل نوبة. يَقُولُون يا فتاح يا كريم، فشنو شايف القهوة بمنامك؟

- الله يصبحك بألف خير، حجي، لَكِن بالي ظل يمك..

وتغيرت اللهجة، كي تبدو خالية مِن الشماتة:

ـ السوق، حجي، مَا يتكلم هوايه، لَكِن يسمع ويحس، ويلقفها وهِيَ طائرة...

وعادت اللهجة إِلَى التعريض:

- يجوز جماعة قهوة الشط يلبلبون الْكَلَام أحسن مِن غيرهم، لَكِن المهم مو الْكَلَام، المهم الفعل، النتيجة. صحيح مولانا لَوْ إِنِي غلطان؟

- بالمختصر المفيد شتريد تَقُول؟

. جيات عزرا عَلَى السوق، واللي حيرتنا، وراها ساسون!

- شلون؟ قول يا معود ـ البارحة السوق انهرج، واسم ساسون أفندي عَلَى كُل لسان...

وضحك بسخرية وأضاف:

- ابن الجلبي سِوَى لَهُ عزيمة مَا صارت مِن قَبْل، عزيمة مَا تتسوى للملوك!

أمَا حسين ملا علَي والحاج غفوري فَقَدْ جاءا معاً، وكَانَ حسين يَبْدُو مرحاً، رُبَمَا لنكتة قَالهَا الحاج غفوري، أَوْ لفكرة خطرت لَهُ أَوْ مثل أعجبه، حِيْن وجِداً نعمان يُحاصر الحاج شبلي، قَال حسين بمرح مُخاطباً نعمان:

- هَذَا اليوم اللي جنا نريده: نعمان لازم زياق الحجي، وواقع بيه دق!

قَال الكَلِمَة الأخيرة وهُوَ يلتفت نَحْو الحاج شبلي.

رَد نعمان فِي مُحَاوَلة ليبرىء نفسه:

ـ قاعدين نسولف، مِنْهُ سالفة ومني سالفة، وماكو صياد ونوجة!

عقب حسين بمرح:

- بالله، حجي، مَا أخذك فلاحة وهُوَ يسولف عَنْ ساسون؟

قَال الحاج شبلي، وقَدْ حاول أَن يحمل صوته كُل الحياد:

- البني آدم، يا جماعة الْخَيْر، والشهادة لله، مَهْمَا قَال أعرف، أدري، فاللي مَا يعرفه أَكْثَر، واللي يجهله أَكْثَر وأكثر!

الحاج غفوري، بَعْد أَن أخذ مقداراً مِن الزعوط، عطس مرات متوالية، ودمعت قليلاً عَيْنَهُ اليسرى، قَال بَعْد أَن استراح:

- يَقُولُون: الشاطر يلطم ويا صاحب البَيْت ويقسم ويا الحرامي، ونَحْنُ تاهت عَلَيْنَا، نباوع لبعيد وما ندري أَن الحرامي جو ابطنا....

هز رَأْسَه عدة مرات ثم استرسل:

- أهل السوق دايخين بيومهم، ينسون شنو اللي صَارَ البارحة، وما يهمهم شنو اللي راح يصير باجر، وعزرا، وقبله ساسون، الواحد مِنْهُم مَا ينسى البارحة وما يسها عَنْ اليوم اللي عقبه. ونَحْنُ إِذَا شفنا عزرا ننسى ساسون، وإِذَا جا ساسون غاب عزرا..

قاطعه نعمان، وكَانَ أقرب إِلَى السخرية:

- خلينا، حجي، مِن سوالف التاريخ، صَارَ.. وصَارَ، نَحْنُ ولد اليوم!

- وولد اليوم جايين مِن زرف الحايط؟

هَكَذَا رَدِ الحاج شبلي بحدة، رُبَمَا لخشيته أن يَرْتد الآخرون عَلَيْهِ لِأنَهُ يقضي وقتاً أَكْثَر مِمَا يَنْبغِي فِي قهوة الشط.

قَال الحاج غفوري بأبوة:

- عَلَى كيفكم، يا جماعة الْخَيْر، والواحد يتعلم حَتَى آخر يَوْم مِن عمره...

وبَعْدَ أَن غير جلسته قليلاً تغير الصوت:

- لَمَا حجيت، قَبْل سنين، قَال لِي حاج مِن الصومال، وكَانَ يوصيني أثقل عَلَى الراس، لِأَنَهُ شاف قبلي اللي ماتوا مِن الشمس، اللي مَا يتعلم مِن غَيْرِه مَا يتعلم أَبد!

وعادت النبرة إِلَى إيقاعها الأول:

- ساسون مَا ينسى عزرا، وعزرا مَا ينسى ساسون، ونَحْنُ نشوف الاثنين وما ندري، وما نعرف شنو اللي صاير بالدنيا، وإِذَا اختلفوا تظل بَيْنَهُم، إحنا مَا بينا إلَا الصايح: يا ناس... يا عالم، وبَعْدَهَا تنلاص!

ظل الحديث فِي الأسواق يدور حَوْلَ ساسون وعزرا أياماً عديدة، ومَعَ الأحاديث والإشاعات، وأخبار جديدة كُل يَوْم، لَكِن مَا إن مضت أسابيع حَتَى عرف الكثيرون أَن الباشا استقبل أوَل الأَمْر ساسون، وبَعْدَ ثلاثة أيَام، استقبل ساسون وعزرا معاً. وقِيلَ فِي هَذَا اللقاء إن «الصلح سيد الأحكام» فالبساتين فِي الطارمية وبالقرب مِن سلمان باك انتقلت إِلَى عزرا، وأن ساسون بقي أهم صراف فِي بغداد. وإِذَا اِخْتَلَف الاثنان فَلَم يبلغ الاختلاف حد أَن يقتل الواحد الآخر قَال ناطق أفندي لواحد مِن أصدقائه المقربين:

- الفرق بَيْن وصول الواحد والثاني دقيقة، أَقَل مِن دقيقة. والقيافة كَأَنهُم عسكر شرف، تَقُول الواحد الثاني. الفرق أَن ساسون جان أسمن، وجان ينظر إِلَى السقف لَمَا تحدث الباشا، وعزرا جان ينظر إِلَى الأَرْض. أمَا حِيْن نظرا إِلَى بعضهما، فَقَدْ دمعت العيون، وقالا معاً: «عفا الله عَمَا مضي»..

أمَا نادر أفندي الَذِي كَانَ يحتفظ بالخاتم وأوراق ساسون، وكَانَ يمنع عَلَيْهِ البيع والشراء، بناءً لطلب عزرا، فَقَدْ أعاد كُل شَيْء إِلَى عزرا، وَكَانَتْ محفوظة فِي كيس لونه أخضر، وسلمها عزرا لساسون، وقَال لَهُ: يا رب السماء إحفظنا ونجنا.

قَال الحاج شبلي، بَعْد أَن سمع كُل هَذَا، وكَانَ فِي قهوة الشط، وحَوْلَه الكثيرون، وحسون يستعد لتقديم شهادة يَوْم جديد:

- الفرق بَيْن ساسون وحسون، يا جماعة الْخَيْر، حرف واحد، فَيَا رب ارحم، ويا رب استر، ويا رب نجنا مِن الآتي!

مَهْمَا بلغ الأولاد مِن العمر يبقون بنظر الآباء والأمهات، الأمهات بشكل خاص، صغاراً، إِذْ يحتاجون إِلَى الرعاية والاهْتِمَام، ويحتاجون أَكْثَر مِن ذَلِك إِلَى الحنان.

وأصغر الأولاد، مَهْمَا تَقدم بالعمر، يبقى صغيراً دائماً.

بدري أصغر أولاد الحاج صالح العلو. دخل إِلَى المدرسة العسكرية خلافاً لرأي العائلة، وأبوه الَذِي بذل جهداً كبيراً لإقناعه بالتخلي عَنْ سلك الجندية لَمْ ينجح، فلجأ إِلَى أسْلُوب الإغراء والترغيب، ولَم ينجح أيضاً، فعمد إِلَى الصمت كأسلوب فِي العقاب، وإِلَى الاستعانة بأمه، علها مِن خلال الحنان والدموع تحمله عَلَى التراجع. لَكِن كُل هَذِهِ الأساليب جربت واستنفدت دُون أن تغير قناعة بدري، إِلَى أن أَصْبَح ضابطاً، ثم فِي السراي، وأخيراً مُرافقاً للباشا!

إِذَا كَانَتْ الاعتراضات فِي البداية كثيرة، وجَاءَتْ مِن جهات مُتعددة، فَقَدْ تراجعت فترة بَعْد أُخْرَى، إِلَى أن أَصْبَح المعترضون أنفسهم ينكرون أنهم اعترضوا فِي وقت سابق، أَوْ رُبَمَا نسوا ذَلِك! وحل بدل الاعتراض نوع مِن التباهي «لأن لمحلة الشَيْخ صندل مَن يُمثلها فِي السراي، وأن بدري يمون عَلَى الصغيرة والكبيرة، ويفك مِن حبل المشنقة».

والحاج صالح العلو الَذِي لَا يعرف رتبة ابنه، أَوْ الموقع الَذِي يشغله، حِيْن يُسأل عَنْ ذَلِك، ويكتفي بكلمات عامة، كأنَ يقول: «بعده ضابط زغير؛ وأنَهُ مِن حراس الوالي» لَا يفعل ذَلِك مِن قبيل التواضع، أَوْ لرد الحسد، كَمَا تفعل الأم، وإِنَمَا لِأَنَهُ لَا يثق بِهَذَا السلك، ولَا يطمئن إِلَيْهِ، إِضَافَة إِلَى أن هَذِهِ الشغلة، مَهْمَا طَالَتْ، مُؤقتة، ولَا بُد للإنسان أن يعود إِلَى مهنة العائلة، المهنة الَتِي يتوارثها الآباء عَنْ الأجداد، ويريدونها أن تبقى فيهم، لتورث إِلَى الأبناء فالأحفاد.

الأم تفكر بطريقة مُخْتلِفَة: تريد أَن يكون ابنها مُرتاحاً، أياً كَانَتْ المهنة الَتِي يختارها. صحيح أَنَهَا لَا تعترض عَلَى كلام زوجها، لَكِن لَا تتحمس لَهُ بنفس المقدار، ولَا تنظر إِلَى المهن الأُخْرَى كَمَا يروق لَهُ هُوَ أن ينظر.

أَكْثَر مِن ذَلِك، تعتبر أَمْ قدوري أَن ابنيها الكبيرين، قدوري ونعيم، يكفيان لأن تستمر المهنة فِي العائلة، ولأن يُساعدا الأب الآنَ، ثم ليحلا مكانه فِي وقت لاحق، فلِمَاذَا يكون الجميع مثل أبيهم؟

الفترة الصعبة اَلَتِي عانت خلالها أمْ قدروي حِيْن كَانَ بدري فِي المدرسة، لِأَنَهَا لَا تَسْتَطِيع أن تراه إلَا مرة فِي الشهر، إذْ لَمْ يَكُن يسمح لمنتسبي المدرسة إلَا بإجازة يومين شهرياً، هَذَا إذَا لَمْ تُوقع عَلَيْهم عقوبة فردية أوْ جماعية! فِي هَذِه الفترة ندمت أمْ قدوري أنَهَا لَمْ تبذل جهداً كافياً لحمله عَلَى ترك المدرسة. حَتَى أثناء غيابه، وما تعانيه مِن وسواس وخوف وقلق، تكون مُصممة عَلَى أن تُحَاوِل فِي هَذِه الإجازة مَا لَمْ تفعله فِي إجازات سابقة، لَكِن فجأة تجد نفسها وقَدْ غرقت فِي حاجاته العملية، مِن غسل الملابس وتأمين الطلبات الضرورية، إلَى الكي والحلاقة، ثم استقبال بَعْض الأقارب والأصدقاء. فَإذَا توفر وقت إضافي فلتسمع خلاله زقزقات الصبايا وهن يتحدثن عَنْ هَذَا الفارس اَلَذِي يختلف عَنْ جَمِيع أولاد محلة الشَيْخ صندل: بدري. وكَيْفَ تحلم كُل واحدة منهن بشاب مثله! خَاصَة وأن الملابس العسكرية تظهر رجولته وجماله، وتجعله متميزاً عَلَى الْآخَرِين.

حِيْن تسمع أَمْ قدوري هَذَا الْكَلَام، اَلَذِي يأتي همساً، مواربة، خجولاً، وأغْلَب الأحيان دُون تسميته، لَكِن كُل الإشارات تدل عَلَيْهِ وتشي بِهِ، تشعر بالفخر والاعتزاز، وتنسى قلقها السابق، وتصميمها عَلَى أن تبحث الأمْر مجدداً مَع بدري.

كَانَ ذَلِكَ أثناء الدراسة، أمَا بَعْد أَن تخرج ضابطاً، وملأ المحلة بحضوره، فَقَدْ أصبحت تخشى عَلَيْهِ مِن العين، ومِنْ أمهات الفتيات اللواتي يزرنها ويتوددن لَهَا، ويحملن معهن، بَعْض الأحيان، هدايا مِن أكَلَ أوْ شراب. كَانَتْ أمْ قدوري تخشى هَذِه الهدايا، إذْ رُبَمَا تكون مسحورة بالقراءة عَلَيْهَا، أوْ بخلطها بمواد رابطة أوْ فاعلة، وما تكاد الضيفة تُغادر حَتَى تدفع أَمْ قدوري بِهَذِهِ الهدايا إلَى نعيمة وبدرية، البنتين اللتين لَمْ تتزوجا بَعْد، إذْ رُبَمَا تُساعد، لَمَا فِيهَا مِن مواد، عَلَى تحقيق المراد!

ورغم أَن أَمْ قدوري حرصت عَلَى اختيار زوجات لابنيها الكبيرين فِي وقت مبكر، نسبياً، فَلَم تفعل الشَيْء ذاته مَع بدري، إذْ كَانَتْ دوماً تراه صغيراً، ويُمْكِن أَن ينتظر إلَى حِيْن العثور عَلَى الفتاة المناسبة. كَانَتْ تَقُول، إذَا جرى الحديث عَنْ الْمَوْضوع، ودائماً كَانَ يجري:

ـ لاحقين، بعده زغير، عَلَى ويش مستعجلين؟

أمَا إذَا جرى تذكيرها أَن قدوري ونعيم تزوجا، وكانا أصغر مِن سن بدري الآنَ، فَكَانَتْ تضع يدها عَلَى فمها، وتَقُولُ، مِن بَيْن الأصابع، وهِيَ تُحَاوِل إخفاء أسنانها الكبيرة، حِيْن تبتسم:

- بدري غَيْر شكل. وبعدين، أولها وتاليها، نصيب!

فَإِذَا تواصل الإلحاح عَلَى الأمْر أكْثَر مِن ذَلِك، وعَلَيْهَا أن تتدخل لتقول شيئاً، تنزل يدها، تضرب عَلَى الساق، وهِيَ تَرَدَدَ باسى:

- رَأْسَه بابس، منو يقدِر عَلَيْهِ..

وتضيف، كأنهَا تكلم نفسها:

- وإِذَا كَانَ ناقصه فد شي تعلمه مِن ربعه، مِن الضباط اللي وياه!

وهَكَذَا يُفهم أَن أُمْ قدروي، حِيْن تَقُول إن الوَقْت لَا يَزَال مُبكراً لزواج بدري، أَوْ أية حجج أُخْرَى، فلِأَنَهَا لَا تَسْتَطِيع شيئاً، وحين تُحَاوِل فَإِنْ المحاولة لَا تتجاوز الرجاء، والَذِي يبلغ حد التوسل فِي أغْلَب الأحيان! بَعْد أن أَصْبَح مُرافقاً للوالي، وأَصْبَحَ غيابه عَنْ البَيْت يمتد ويطول تحول اهتمام أَمْ قدوري إِلَى الأمور العملية، أن تتوفر لَهُ هُنَاك الراحة: «... وتنام زين، عيني؟ وعَلَى نفس القريوله؟ والمخاد نظيفة؟ والأكل زين؟ نظيف؟ واكو هُنَاك مكان تسبحون بيه؟ وتغسل كُل يَوْم؟» فَلما تطمئن، أَوْ عَلَى الأقل يتراجع خوفها وقلقها، تَقُول، ويخرج صوتها مِن الصدر:

- ماكو بالدنيا مثل أَكَلَ البَيْت. وما يرتاح الواحد إلَا عَلَى المخدة اللي تعود عَلَيْهَا...

وتتغير النبرة، لتصبح نجوى:

- وين أكو مثل حنان الأم، مثل قلبها؟ والأم تعرف بليا كلام إِذَا ابنها جاع أَوْ توجع، إِذَا رايد فد شي! هاي وين تلتقي وين تتحصل؟

وتتغير النبرة وهِيَ تخاطبه:

- لَا تَقُول لِي سراي وقرابالغ. لَا تَقُول مزيقا وخيل وهرجة، هاي كُلهَا مَا تسوى شي إِذَا البني آدم مو ببيته!

وحين تريد الحديث مَعَهُ عَنْ الزواج، ولكي يغلق الْمَوْضوع بسرعة، يُحدثها كَيْف أن الوالي، داود باشا، تزوج بنت سليمان باشا الكبير، وكَانَ مثله مُرافقاً، ثم مرت الأيام وصَارَ والياً.

يقول هَذَا الْكَلَام مَع ابتسامات، أقرب إِلَى الضحك الصاخب، ويتبعها بغمزات، وبَعْض الأحيان بمداعبات. كُل ذَلِك ليقنع أمه أن الانتظار فِي مصلحة الجميع!

تصفن أَمْ قدروي. تتطلع إِلَيْهِ. تسافر فِي الخيال بعيداً، وقَبْل أَن يَسْتطِيع تحويل الْكَلَام إِلَى اِتِجَاه آخر، تسأل ببراءة:

- وهَذَا الوالي، والينا، اكو عِنْدَه بنية يريدك تتزوجها؟

يرد بمرح، وبطريقة لَا تخلو مِن عَدَم اهتمام:

- أكر عِنْدَه بنات هوايه!

- حلوات؟

- الواحد بيه خير ويستنقي...

وبمرح أَكْثَر، وهُوَ يتلمظ:

- واحدة أمها كَرجية. واحدة أمها كردية. واحدة أمها مِن اسطنبول...

- يعْنِي حلوات؟

- حلوات وأزيد...

ولَا يتركها لتسأله، يتابع:

- وبنات الوالي!

ترد أَمْ قدوري، وكأنهَا تكلم نفسها:

ـ الحلاوة مو كُل شي بهذي الدُنْيَا، المهم الأصل. المهم أَن الواحد يعرف أمها، لأن البنت لِأمها مثل مَا يَقُولُون. فَإِذَا الأم بنت أصل، تعرف الحلال والحرام، وبقلبها أَوْ حتية، ورضعت مِن حليبها، الواحد مَا يخاف، يذب روحه وهُوَ ساد عيونه؛ أمَا إِذَا كَانَتْ الأم لملم، لَا رضعت ولَا ربت، فينخاف مِنْهَا والواحد يتحسب، لِأَنَهُ مَا يدري شنو اللي يصير بعدين...

ولئلا يتركها تسترسل، وَتَذْهَب بعيداً، يقول بمداعبة:

- حَتَى لَوْ وافقنا آني وأنت، يمه، يبقى، مثل مَا يَقُولُون: الوالي وبنته، فخلينا ناصبين النوجة، ونشوف شنو اللي ترميه الريح، وشنو اللي يجي ويا الماي!

أحست أَمْ قدوري بالخطر، قالت بحدة:

- بدري، عيني، مثل مَا قَال أبوك، ذول الحكام مَا يتأمنون. حياتهم , كُلهَا قتل ومقتول، وبنت الوالي يجوز أَوَل يَوْم، ثاني يَوْم، ترفعك، تغنيك، لَكِن مَا تعرف شنو اللي يصير باليوم التالي...

وتتغير النبرة:

- زوانا ولَا حنطة الجلب، يا ابني. بناتنا يصبرن عَلَى الضيم، يعرفن اللي يصير واللي مَا يصير، والوحدة منهن تموت مِن الجوع ولَا تذل نفسها. مَا تقبل المو زينة حَتَى لَوْ شنشلوها بالذهب، لَوْ قالوا لَهَا: نبني لَك قصور مِن فضة وعاج، لأن البني آدم عَيْنَهُ هِيَ الَتِي تاكل، فَإِذَا عَيْنَهُ شبعانة كُل شي يكفيه، كُل شي يرضى بيه.

قَال لَهَا بدري بمُداعبة، لَكِن لَا تخلو مِن حزم، وفِي هَذِه الحالات يُخاطبها بأم قدوري:

- أَمْ قدوري، خاتون المحلة...

يضحك قَبْل أَن يُضيف:

- بدينا بقصة وصرنا بقصة ثانية. سألتِ: بنات الوالي حلوات؟ قلنا: إي، وبعدين تهنا. كُل واحد يحجي وحده، كُل واحد يغزل ويلبس...

هز رَأْسَه أَكْثَر مِن مرة، وبَعْدَ قليل:

- وأنت يا أَمْ قدوري، رضعتي وربيتي، وبدري رضع مِن هَذَا الصدر!

ودق عَلَى صَدْرهَا، كي ينهي الْمَوْضوع. سقطت دمعة مِن عينها، مسحتها بِطَرْف الفوطة، وقالت لَهُ، كأنهَا تكلم نفسها:

- أجمل بنية بالمحلة، بالكرخ، ببغداد كُلهَا، تتمنى واحد مثلك، بس أَنْت قول وتمني!

- يا أَمْ قدوري. كُل شي بوقته زين. وكلي الله، لَا تحسبي هوايه، ولَا تخافي؟

فِي الزيارة قَبْل الأخيرة بَدَا بدري لِكُل مَن رآه إنساناً مختلفاً، وما عَدَا سيفو الَذِي عرف بَعْض مَا وقع لَهُ، ثِم كَانَتْ تِلْك الرحلة المجنونة، فَإِنْ الْآخَرِين فِي المحلة فكروا وقدروا شيئاً آخَر.

قالت أمه إن سحراً دخل طعامه، أَوْ إنّه مشى عَلَى مياه مسحورة؛ ورُبَمَا دخل عَلَيْهِ أَحَد وهُوَ نائم وقرأ أشياء، أَوْ رمي عَلَى ثيابه مسحوقاً مِن عظام ضبع أَوْ كبد سلحفاة، وهَذَا مَا أثر عَلَيْهِ. ولَقَدْ بذلت جهداً مِن أجل إبطال السحر. دفعت لقاء ذَلِك مبالغ كبيرة. ولتأكيد بطلان هَذَا السحر كتَبْت لَهُ حجاباً وخاطته مَع ثيابه، كَمَا قرأت آيات وأوراداً كثيرة، وتأكدت مِن النتائج فِي الأيام الأخيرة، حِيْن ظهر بدري مُعافي، لَكِن بَعْد أَن ذهب إِلَى السراي «انتكس». هَكَذَا قالت أَمْ نجم، وأيدها غفوري الأعور، «لأن السحر مربوط مِن جوا السراي، ولازم هُنَاك نطش ملح مقري عَلَيْهِ مَع قَرْن غزال ابن شهرين»..

أمَا بَعْد أَن عاد بدري إِلَى البَيْت استعداداً للسفر إِلَى كركوك، فَقَدْ قَال أبوه، فِي مُحَاوَلة لإظهار تفاؤله بأن بدري سيعود إِلَى مهنة العائلة:

ـ قَال لَنَا أبو منعم، سيد ناجي البكري، قَبْل أيَام فِي قهوة الشط، وقَدْ قرأ ذَلِك فِي كتاب مِن كتبه الكثيرة، قَال: ولَا تقرب السلطان، أَوْ الوالي، إلَا كَمَا تقرب الأسد، فَإِنْ طاوعته أتعبك، وأن خالفته أتعبك».

هز رَأسَه مرات عديدة، وأضاف، كأنه يَحْدُثْ نفسه:

- رب ضارة نافعة...

وبَعْدَ قليل:

- إِذَا بيت العلو براسهم خير، واكو بيهم أمل، فلازم السر اللي حصلوه مِن الأباء والأجداد يلزموه بأسنانهم؛ أَمَا إِذَا كُل واحد مِنْهُم بَدَا مِن جديد، وقَال: هاي أوَل الدُنْيَا، فأبد مَا راح يصير براسنا خير. نجرب ونبطل، نجرب ونبطل، والعمر يمر، والماي تمشي، وبَعْدَ مَا تمر سنين وأيَام نحس بالصواب، ونقول: يا حسافا!

وأم قدوري التِي كَانَتْ خائفة، رُبَمَا لخوف بدري، أَوْ لإحساسه بالغبن والمجهول، وَكَانَتْ تترجم أحساسيها بأن تراكم الملابس والأغذية، وتكثر مِن النصائح، وتتساءل مَا إِذَا كَانَ مِن الضروري أن يُرافقه أَحَد مِن العائلة، هِيَ أَوْ الأب، أَوْ أَحَد الأخوة، مِن أجل أن تطمئن، ومحاولات بدري فِي أن يَبْدُو عادياً، وأن الأمور شديدة السهولة والبساطة، والحياة ستكون بالنسبة لَهُ أَكْثَر راحة، بَعْد «أن خلصنا مِن السراي ومشاكله»، فَإِنْ هَذَا المدى الجديد الذِي ينفتح لَا يُعرف إن كَانَ خيراً أَمْ شراً. إن كَانَ لمصلحة بدري، ثم العائلة بَعْد ذَلِك، أَمْ سيكون، مِثْلَمَا حصل مرات كثيرة، فِي ظل ولاة آخرين، ولعائلات كثيرة، وكَيْفَ تحول الزمن، وتغيرت العلاقات بَيْن يَوْم وآخَر.

قالت لَهُ أمه، وهِيَ تحضنه، وتحاول أَن تخفي دموعها:

- أبد لَا تنقهر، عيوني، دير بالك عَلَى روحك، نام زين، أَكَلَ زين، وآني وأبوك الشهر اللي مَا تجينا بِهِ نَحْنُ نسير عَلَيْك...

والتفتت إِلَى زوجها تسأله:

- شتقول، حجي؟

- المهم، أَمْ قدوري، إِنَا خلصنا مِن السراي، لأن مَا ورا السراي إِلَا شلعان القلب ودوخة الراس، وباجر بدري يتأكد مِن الأمور بنفسه، ويقول: يخلف عَلَى والدينا لأنهم قالوا؟

وعادت تسأله مِن جديد:

- والشهر اللي هُوَ مَا يجي بيه نسير عَلَيْهِ، مو هالشكل، حجي؟

ـ أَي نَعَم، ليش لَا...

وتغيرت اللهجة قليلاً:

- خَاصَة أني أبعد مِن بعقوبة مَا رايح!

ردت عَلَيْهِ بنوع مِنْ الدعابة والعتب:

- وعَلَى الحج آني اللي رحت، مو هالشكل؟

- هذي خليها عَلَى صفحة، أَمْ قدوري، لَوْ تردين تنغزين وتصومين؟

قَال بدري ليضفي جواً مِن المرح:

- يمه.. روحة الحج خليها علَيَ، آني آخذك وأزورك، ونروح وحدنا، مَا ناخذ الحجي ويانا، شتقولين؟

- بابا بدري.. إِذَا تريد تفرحني، إِذَا تريدني أرضى عَليْك، فيوم السعد لَمَا تَقُول: يمه أريد أتزوج، شوفي لِي بنت الحلال. أَمَا الحج...

والتفتت إِلَى زوجها، وهِيَ تضع يداً عَلَى فمها، وتُشِير بالأخرى إِلَيْهِ:

- فهذي برقبته دين عَلَيْهِ، لَوْ نسيت؟

ـ إِذَا وافق بدري عَلَى الزواج، فالله كريم، خذي الحج مِن بطن عيني، مَا يخالف!

قَال بدري، كأنه يخاطب نفسه:

- أعطوني فرصة، يا جماعة الْخَيْر، خلوني أشوف وضعي هُنَاك.

- وترد لَنَا خبر بأول إجازة، مو هالشكل؟

هَكَذَا سألت الأم، فرد عَلَيْهَا بمرح:

ـ إِذَا مَا صارت بأول إجازة، بالإجازة الثانية، اللي بَعْدَهَا...

ولكي يُبقي جو المرح تابع:

- نريد نشوف كركوك بحرها وبردها، حَتَى نقدر إِذَا بنت الحلال تقدر تعيش هُنَاك، توافق، لَوْ تردين تخبنيها خبن: أي مرية، مَهْمَا كَانَ عمرها، شكلها، بس أَنَهَا ترضى تعيش هُنَاك؟

- آني أمك، وأنت تعرفني، بدري، عيوني...

أخذت نفساً سريعاً وتابعت:

- أريد لَك أحلى بنت ببغداد. حلوة وبنت أصل!

رَد الحاج صالح بدعابة وتعريض:

- والشرط الأول: حلوة!

تطلعت إِلَيْهِ أَمْ قدوري، وهِيَ تجيب بمكر:

- حلوة، وزغيرة، بيضا وعيون وسيعة، والشعر يتدهدى عَلَى الكتاف، وشويونة سمينة، وبطولي أَوْ أزيد مني إصبع أَوْ إصبعنين..

قَال الأب، موجهاَ الّكَلَام لابنه:

- دير بالك، ابني، عد للألف قَبْل مَا تَقُول إي، لأن أمك تاه عَلَيْهَا الحساب..

وبمرح مَع السخرية:

- تتصور روحها طويلة، حلوة، عيونها عيون غزلان، وشعرها...

ولَم تتركه ليتابع:

- كُنْت تموت بي، ومية نوبة قُلْتُ لِي: حَتَى نوم مَا أقدر أنام وأَنَا أحلم وأنتظر يَوْم السعد وَ...

ولَم يتركها:

- آني؟ أموت بيج؟ عَلَى طولك؟ عَلَى حسنك؟

وتغيرت النبرة:

- اللي يشوفك يقول: عبالك بطة، وزة. وين راح هَذَا الحسن والجمال؟

ـ العمر يا أبو قدوري! العمر يهد الجبال، العمر يغير الأحوال، ومو بس آني، آني وغيري يا أبو قدوري!

قَال بدري ليعيد جو المرح:

ـ إِذَا بَعْد ثلاثين أربعين سنة تختلفون، فليش تردون تورطوني؟ تكسرون رقبتي؟ أتركوني عصفور طيار، لَا دادا ولَا ماما، مو أحسن؟

ردت فِي مُحَاوَلة لتسيطر عَلَى الموقف مِن جديد:

- أبوك يحب الشقا، وصَارَ زمان مَا شاقاني، هسه طخت براسه ويريد يتشاقى!

وبَعْدَ قليل:

- باجر، يا وليدي، تتزوج، تتزوج أحلى بنية بالديرة، ونسوي لَك الأفراح والليالي الملاح، وما يحول الحول إلَا ويجيك أوَل ولد، ونفرح بيه، ونسميه عَلَى اسم أبوك، صالح، وقَبْل مَا يبلغ السنة، نطهره، ونسوي لَهُ زفة، مزيقا وطبل. وبَعْدَ مَا يحبي ويمشي، ناخذه للشيخ عبدالقادر وللكاظم ونشعل لَهُ شموع، ونفرق خبز عروق، وبَعْدَمَا مَا ينفطم، وقَبْل مَا يصير ابن سنتين يجي أخوه، ونسميه عَلَى اسم أبوي آني وَ...

قَال الحاج صالح العلو:

- أَمْ قدوري... مَا دام بدري وافق، أَنْت بيني خيرة، ودوري عَلَى كَيْف، يواش يواش، وَلَمَا تلقين الله كريم!

لَمَا هزت رَأسَهَا مُوَافَقَة، ولَم يعترض بدري، رُبَمَا لأن الأمْر سابق الأوانه، قَال الحاج صالح، كأنه يخاطب نفسه، ويريد لزوجته أَن تنتبه جيداً:

- إي نَعَم.. يواش.. يواش، لأن كُل شي عَلَى الهدا أطيب، أحسن...

وانخفض صوته:

- الشاي لَمَا يتخدر عَلَى نار هادية يصير أطيب. أَمْ البَيْت إِذَا ركبت مِنْ وقت يطلع أكلها أطيب، والزواج.... نفس الشي.

وسافر بدري فِي اليوم التالي إِلَى كركوك!

معركة الفرات الأعلى كَانَتْ درساً للبدو، مِثْلَمَا كَانَتْ درساً لداود باشا. فبعد المعركة، ولفترة غَيْر قصيرة، ساد الهدوء، وتقاطرت الوفود عَلَى بغداد مِن جَمِيع الأنحاء للتهنئة ولإظهار الطاعة. وبدا للباشا أن الوَقْت قَدْ حَانَ لكي يجسد الأفكار والأحلام الَتِي راودته طوال الفترات السابقة بمشاريع عَلَى الأَرْض ليراها الناس، ويتغنى بِهَا الشعراء، ولتكون دليلاً واضحاً عَلَى أنّه يختلف عَنْ الولاة الَذِينَ سبقوه.

فِي كُل الليالي، قَبْل أَن يغفو، وهُوَ بَيْن جموح الرغبة وثقل الأعباء، يتخيل الباشا بغداد وقَدْ أصبحت شبيهة بإسطنبول سعة وجمالاً، بَلْ ويُمْكِن أَن تتفوق عَلَى إسطنبول، لَمَا لَهَا مِن تاريخ عريق يمكنها أَن تنهض مِن غفوتها، لتتحول إِلَى أهم المدن وأقواها، خَاصَة وهُوَ يسمع كَيْف تنحدر إسطنبول يوماً بَعْد آخَر، نتيجة الهرم، وخلافات المسؤولين ومؤامرات الحريم. كَانَ يقول لنفسه: «يجب أَن تكون البداية مِن السراي، لأن قُوَة الولاية تتمثل بمقر الحكومة يهز رَأْسَه عدة مرات وهُوَ يتساءل: «هَل يُعقل أَن يكون الباليوز أجمل مِن السراي وأوسع؟ وهَلْ يقتنع الناس، إِذَا لَمْ يروا بأعينهم، أن داود باشا أقوى مِن ريتش؟»..

ورغم التحسينات الَتِي أَمْر بإجرائها عَلَى السراي، وقَدْ أُنجزت خلال فترة قصيرة، مِمَا أثار الإعجاب، إلَا أَن هَذَا الإجراء كَانَ مؤقتاً ولَا يُرْضِيَه بِمَا فِيهِ الكفاية. ومَعَ أَن ريتش، فِي زيارته الأولى للسراي بَعْد الإصلاحات، كَانَ يتلفت ويهز رَأْسَه، تعبيراً عَنْ الدهشة والإعجاب، وبدأ حديثه مَع الباشا بالإشادة بِمَا شاهده، وقَدْ أطري بشكل خاص البوابة العالية المُزخرفة والحدائق، وأكد أنّه لَمْ يصدق عينيه لأول وهلة، بَلْ ظن أنّه فِي مكان جديد! هَكَذَا قَال، وأثنى عَلَى مهارة البنائين وحسن ذوقهم، ومَعَ أَن الباشا جامله، ووافقه عَلَى مَا قاله، إلَا أنّه ظل ينظر بتركيز إِلَى عينيه ليكتشف مَا إِذَا كَانَ يعْنِي الكلمات الَتِي يقولها، أَمْ أَنَهَا مُجَرَد مُجاملة. وفِي نهاية الزيارة كَانَ الباشا أَكْثَر تصميماً عَلَى الشروع فِي بناء السراي الجديدة، قَال لنفسه بتحد: «سيرى هَذَا الثعلب بعينيه مَن هُوَ داود باشا».

وإِذَا كَانَ درس الفرات الأعلى بَدَا مفهوماً لمَن تسول لَهُ نفسه العصيان أَوْ مُناوأة الدولة، إلَا أَن البدو، بمرور الوَقْت، ومِثْل عادتهم دائماً، أخذوا يميلون إِلَى نسيان مَا حصل، وبدأت تراودهم فكرة التمرد مِن جديد. كَمَا أخذ الآغا يتلقف أية أخبار، مَهْمَا كَانَتْ تافهة، ويستغلها لتحريض الباشا مِن أجل تجريد حملات جديدة، خَاصَة فِي الجنوب، لتأديب هَؤُلَاء البدو الأشرار.

أمَا الباشا فكَانَ يُفكر بالمشاريع الَتِي ينوي القيام بِهَا، ويميل إِلَى ترك البدو لفترة أُخْرَى، بَلْ كاد يشرع بتنفيذ عدد مِن المشاريع فِي وقت واحد، غَيْر أن مُطالبات إسطنبول بالأموال، والتأكيد عَلَى ضرورة زيادتها، وكَانَ هَذَا يتكرر فِي كُل رسالةِ تصل إِلَى بغداد مِن هُنَاك، ثم إلحاح الآغا عَنْ طريق ضباطه ورجاله، وأيضاً تغير مزاج، ثم مواقف، عزرا، وهُوَ لَا ينفك يؤكد أن الأموال تكاد تنفد، ويصعب تحصيل الضرائب بمقاديرها ومواعيدها... هَذِه الأسباب جعلت الباشا قلقاً، وبَعْض الأحيان حائراً مُتردداً بَيْن الاستجابة لمطالبات اسطنبول، أَوْ الخضوع لرغبات الآغا، فكَانَ يقضي الجزء الأكبر مِن اللَيْل ساهراً مُفكراً فِيمَا يجب اتخاذه مِن إجراءات لَا يندم عَلَيْهَا فِي وقت لاحق..

الآغا لَا يَهَدَأَ ولَا يتوقف عَنْ التحريض، ويُلمح للباشا أَن البدو يستعدون، ومثلما حصل فِي أواخر أيَام سعيد، حِيْن جَاءَت جموعهم، واحتلت كُل زاوية فِي بغداد، وكَيْفَ ضَج الناس بسبب تعدياتهم وما فرضوه مِنْ أتاوات، وكَانَ هَذَا هُوَ السبب فِي هزيمة سعيد. وهم الآنَ يستعدون لتكرار مَا فعلوه فِي وقت سابق، «لذَلِكَ قَبْل مَا نحط حجر عَلَى حجر لازم نخلص مِنْهُم، ونكسر روسهم، وهُنَاك، وإلَا أكلنا أصابعنا ندامة».

الباشا يُصغي لَمَا يقوله الآغا، ويحاول التقليل مِن أهمية الحوادث الَتِي تقع هُنَا وهُنَاك، وأَنَهَا لَا تستحق تجريد الحملات مِن أجل قمعها «لأن البدو، قَال ليُقنع الآغا، كلمة تاخذهم وكلمة تردهم، فَإِذَا مَا لقوا أحَد بوجههم تفتر حماستهم، يَوْم والثاني وبَعْدَهَا يتعبون، ويصير كُل واحد يدور المرعي والماء حَتَى لَا يموت مِن الجوع أَوْ العطش» لَكِن الآغا يظل يسمع بطريقته، ويُشِير إِلَى أَن السلب وصل إِلَى أطراف بغداد.

وما لَا يقوله الآغا مُباشرة للباشا، يُذيعه رجاله بَيْن الناس فينتشر الخوف، ويتسع، ويفتح التجار آذانهم ليعرفوا كَيْف يجب أَن يتصرفوا. وتصل الأخبار إِلَى الباشا، فيأمر عزرا بالإيعاز للتجار أَن لَا يقيموا وزناً للإشاعات، وإن أَي رفع الأسعار، وأَيْ إخفاء للمواد، سَوفَ يرتب عقوبات عَلَيْهم أولاً، ولَا بُد أَن يخسروا بَعْد ذَلِك، إِذْ سيمنعون مِن البقاء فِي السوق.

وبكثير مِن الصَبْر والهدوء يُحَاوِل إقناع الآغا أَن العمل العسكري لَيْس دائماً أفضل الحلول، وحين يلمح عَدَم الاقتناع فِي عينيه، وابتسامة صغيرة تطفو عَلَى ملامحه، يقول لَهُ، وتخرج الكلمات بطيئة، لَكِن صارمة:

ـ إِذَا تريد تضرب، يا آغا، فاضرب ووجع، وبالوقت المناسب، والمكان اللي تختاره أَنْت...

يأْخذ نفساً عميقاً ويضيف:

- أمَا إِذَا هوس بدوي بآخِر تلفات الدُنْيَا، وأعلنا النفير، فَهَذَا مَا يَتمَنَاه ابن الشاوي وثامر، حَتَى تسْقط هيبة الدولة، ويصير شغلها الحجز بَيْن مخابيل!

ولكي يطمئن الآغا، الَذِي يُؤثر الصمت، يتابع الباشا بنبرة حازمة:

- يجي يومهم، يا آغا، والصَبْر زين!

ولأن الآغا يتظاهر بالاقتناع، لَكِنَهُ لَمْ يقتنع، يدفع رجاله للمُبالغة بنشر الأخبار، لَكِن كُل شَيْء يصل للباشا، وعَن أَكْثَر مِن طريق، فيُقرر أن يُقلص الأموال الموضوعة تَحْت تصرف الآغا، وأن يصم أذنيه عما يردده رجاله، لأن فكرة أساسية لَا تغيب عَنْ باله لَحْظَة واحدة، وهِيَ الَتِي تحدد موقفه مِن الأغا: إِذَا انتصر فِي حملة جديدة، فسوف تكون حملته الثالثة عَلَى السراي، ولَنْ يقبل إلَا أن يكون والياً.

ويَتَذَكَر الباشا كلمات كَانَ يُرددها سليمان الكبير أمام خلصائه، وكَانَ يتلفت بحذر قَبْل أن يقول: «مَهْمَا بَدَا القائد مُخلصاً للوالي، فَإِنْ النصر الأول الَذِي يُحَقِقه يقدمه لواليه فعلاً، أمَا النصر الثاني الَذِي يُحَقِقه فإنه يتقاسمه مَع وإِلَيْهِ، والنصر الثالث يكون عَلَى الوالي نفسه. فالحذر كُل الحذر مِن النصر الأول. فَإِذَا اضطر الوالي، مِن جديد، لنفس القائد، فعليه أن يُعين إِلَى جانبه قائداً آخَر يُشاركه النصر، والأفضل أن لَا يُعطِي لَهُ فرصة تحقيق نصرين متواليين». ويخفض صوته ويتابع «والهزيمة، بَعْض الأحيان، قَدْ تكون سبباً فِي تثبيت وضع الولاية، ولذلك يُمكِن أن نقبل الهزيمة بصمت، دُون نواح كثير، ودُونَ إِلْقَاء اللوم عَلَى قائد بذاته، لأن القائد المنتصر، والقائد المهزوم، يصبح أي مِنْهُما خطراً عَلَى الوالي وعَلَى الولاية».

هَذَا الْكَلَام الَذِي سمعه داود مُنْذُ وقت مبكر، حِيْن كَانَ حامل الأختام لسليمان الكبير، اعتبره فِي حينه مُسرفاً فِي سوء الظن والتشاؤم، ويشبه كثيراً نصائح المسنين لأبنائهم وهم يستعدون للسفر، إِذْ يعتبرون أن مِن الواجب والعقل أن يقولوا كلاماً مُختلفاً عَمَا تعوده الأبناء، وكأنه خُلاَصَة تجربة الحياة، وبُرهان عَلَى الحكمة أيضاً. وقَدْ ظن داود، فِي ذَلِكَ الوَقْت، أن مَا قاله سليمان الكبير لَا يتفق والواقع، لأن الحكمة ورجاحة العقل، وحَتَى غنى التجربة، لَا تُقاس دائماً بعدد السنين الَتِي يحملها الإِنْسَان عَلَى كتفيه، كَمَا لَا تشكل قانوناً واجب الاتباع، أَوْ يطبق فِي جَمِيع الحالات.

«لَكِن السنين تُعلم، والهزيمة تذل وتكوي، ولذلك فالحذر مِن حُسن الفطن» هَكَذَا أخذ داود يُردد لنفسه، وهُوَ يَسْتَعِيد سِلْسِلَة طويلة مِن الوجوه والأَحْدَاث الَتِي مرت، وهَذَا مَا دفعه لأن يكون شديد الحذر، وأن لَا يُعطِي سره لأحد، حَتَى لَوْ كَانَ أقرب الناس إِلَيْهِ، «لأن السر إِذَا تجاوز الاثنين ذاع، ومَنْ يملك سرك يُتعبك حَتَى لَوْ كَانَ مَعَك، أمَا إِذَا تغيرت الريح فيفرض نفسه شريكاً حَتَى لَوْ لَمْ يُطلق رصاصة واحدة!».

وتمثلت لَهُ صورة الآغا: كَيْف كَانَ فِي البداية، وكَيْفَ هُوَ الآنَ.

حِيْن التحق الآغا بالجبل أوَل مرة، كَانَ لَا يَجْرُؤ عَلَى أَن يرفع عينيه، وكَانَ صوته يرتجف. أَكْثَر مِن ذَلِك بَدَا لَهُ وكأنه نسي الْكَلَام، أَوْ لَا يعرف كَيْف يعرض أَفْكَارَه. ويَتَذَكَر الباشا أنّه سأل خادمه، فيروز، ذَاتَ مرة عَنْ لون عيني الآغا، فارتبك فيروز للسؤال، إِذْ لَا يعرف إن كَانَ الباشا جاداً أَوْ مازحاً، لَكِن حِيْن كَرَر عَلَيْهِ السُؤَال، وكَانَ يبتسم، رَد فيروز بدعابة:

- كُل عين لَهَا لون... سيدي!

وَلَمَا اتسعت ابتسامة الباشا، تابع فيروز:

- وبالليل غَيْر شكل عَنْهَا فِي النَهَار، سيدي!

هَكَذَا كَانَ الآغا فِي البداية، لَكِن بمرور الأيام تبين لداود أَن كلمات خادمه كَانَتْ مِن الذكاء والحدس بحيث حزر عَلَى الآغا قَبْل الْآخَرِين، ورُبَمَا ساعده عَلَى ذَلِك أنّه كَانَ يراه فِي أوضاع وأَوْقَات مُخْتلِفَة. فَهُوَ يراه كَيْف يتصرف حِيْن يكون فِي حضرة الباشا، ثم كَيْف يَتَغَيَر حِيْن يكون مَع أنداده مِن الضباط. أمَا وهُوَ يتعامل مَع رجاله المُقربين، خَاصَة الَذِينَ يخدمونه، فإنه يصبح شخصاً مختلفاً تماماً..

ومَعَ أَن للباشا عدداً مِن العيون عَلَى الآغا يحصون كُل حركاته وسكناته، وكَانَ مِنْهُم مَن يُشاركه الشراب، وينقل هَؤُلَاء لديوان الباشا كُل شَيْء، إلَا أَن الباشا كَانَ يروق لَهُ أَن يسمع مِن فيروز، الَذِي لَا يكتفي بأن يروي مَا رأي، وما سمع، إِذْ يُضيف مِن عِنْدَه رأياً أَوْ تفسيراً، وهَذَا مَا يريده الباشا عَلَى وجه التحديد.

يسأله فِي بَعْض العصاري، والعادة أَن يجري الحديث فِي الحديقة المطلة عَلَى النهر، وغالباً يكون فيروز واقفاً، أَوْ مفترشاً العشب كاي قَط بَيْن يدي الباشا:

- شلون أَحْوَال الأفندي؟

ورغم أَن عدداً مِن معاوني الباشا، وآخرين يعملون فِي السراي، يحملون اللقب نفسه، إلَا أَن فيروز، وبطريقة كَانَتْ تُثير استغراب الباشا، يعرف عَنْ أي الأفندية يسأله، بَلْ أَكْثَر مِن ذَلِك، وبمجرد أَن يلتفت الباشا إِلَى هَذِه الناحية أَوْ إِلَى تِلْك، أَوْ مِن خلال نظرة، يُدرك فيروز مَا يُريد، فيبادر إِلَى الإجابة أَوْ إِلَى تَلْبِيَة مَا يطلبه. وهَذِهِ الفطنة، إِضَافَة إِلَى البراعة فِي إتقان الصمت، جعلاه مُقرباً وموثوقاً، بحيث أَصْبَح الباشا لَا يستغني عَنْهُ.

يرد فيروز عَلَى سؤال الباشا باقتضاب، وبطريقة لَا تخلو مِن دعابة، ويَعْرِف أنّه يسأله عَنْ الأغا:

- زعل عَلَى حامد أوَل البارحة، وخلاه يماعي مثل السخل!

ويروي للباشا كَيْف أَن حامد حِيْن قاطع الآغا، وهُوَ يُصحح اسم أَحَد الزوار، انفعل الآغا وأمره أَن يتحول إِلَى خروف، أَي أَن يبقى جالساً عَلَى أربع، عَلَى يَديْه ورجليه، وأن يُقلد صوت الغنم.

وحين يسأله الباشا:

ـ إِذَا لوحنا لَهُ بجزة برسيم يصير ويانا؟

ويَعْرِف أنّه يقصد حامد الَذِي أُهين، فيرد:

ـ تعود عَلَى اللطمات يا باشا، وما يفيد؟

ولأن الآغا بَدَا مُلحاً وهُوَ يطلب سُرْعَة تجريد حملة عَلَى الجنوب، وأن تُعهد إِلَيْهِ قيادتها، فَقَدْ تحسب الباشا أَكْثَر مِن قَبْل، وعاودته أقوال سليمان الكبير، حِيْن ينتصر القائد مرتين!

لقد تغير الآغا خلال الفترة الأخيرة، تغير كثيراً، خَاصَة بَعْد معركة الفرات الأعلى، أَصْبَح لَا يخفي مواقفه؛ وما لَا يقوله مباشرة، يتكفل بِهِ رجاله، إِذْ أخذوا يذيعون أَن إرادته لَا ترد، وما يرغب فِيهِ يجب أَن يتحقق، ووحده الَذِي يَسْتطِيع أَن يأمر الباشا، وأن الباشا تحول إِلَى خاتم فِي يده.

أمَا البساطة الَتِي كَانَتْ تتبدى فِي مظهره وسلوكه، وحَتَى فِي كلامه، فَكَانَتْ فخاً أَوْ قناعاً لكي يصل، ولكي يتمكن. وما كَانَ يُقال عَنْ شجاعته أَصْبَح بنظر الكثيرين قسوة أقرب إِلَى الأذى، لأن مَن يلتقي بِهِ إِذَا لَمْ يتعرض لأذاه، فَلَا بُد أَن تُصيبه سخريته!

القصص الَتِي تروى عَنْهُ كثيرة إِلَى أقصى حد، ويتم تداولها بسرعة، مَع أنّه لَا يُعرف مدى صحتها، كَمَا لَا يقوى أَحَد عَلَى الزعم أنّه كَانَ شاهداً عَلَيْهَا.

حَتَى هُوَ، لفرط مَا تكررت القصص، وَكَانَتْ تصل إِلَيْهِ، أَصْبَح عَلَى يقين أَنَهَا حصلت، أَوْ حصل مَا يُماثلها، وإنَهُ كَانَ «بطلها». أمَا حِيْن يُسأل، ولأنه لَا يُحب الحديث، ورُبَمَا لَا يُجيده، فيترك لِلْآخَرِين أَن يقدروا، خَاصَة وأن ابتساماته، وقَدْ تصل إِلَى حد القهقهة، إِضَافَة إِلَى حركات اليَدَيْنِ والجسد، لَا تترك مجالاً لاستنتاج واثق وأكيد.

بَعْد أَن زادت زيارات الآغا للباليوز، أخذ الباشا يتحسب. أمَا حِيْن بعث إِلَيْهِ مَن يسأله بشكل غَيْر مُباشر عَنْ زياراته وعلاقاته، فكَانَ جوابه ساخراً وقاسياً معاً:

- آني مَا أخاف مِن شي، ولَا أعتبر أَي شي ممنوع أَوْ حرام!

وفجاة تستيقظ حواس الريبة لَدَيْه، يشعر أنّه مراقب، فيضيف بحدة:

- حَتَى القحاب والقواويد لازم أشوفهم، اسمع مِنْهُم، وكُل واحد يريد عليوي ألف هلا ومرحبا، مو مثل غيري يعلي أسواره ويسد بابه!

كَانَ يعْنِي الباشا قَبْل أَن يعْنِي أَي إنسان آخَر، وانسجاماً مَع هَذِه القناعة، وللتحدي أيضاً، زار محلة أبو سيفين، ومر عَلَى زهرة وسلطانة، واستدعى نعيم أبو طوب وهرجي، وقرر أَن يدْخل إِلَى مخادع الْآخَرِين مِن نوافذ غَيْر متوقعة. أمَا حِيْن علم الآغا بزيارة بدري لروجينا فَقَدْ أطلق لسانه فِي إحدى الليالي أمام عدد مِنْ ضباطه:

ـ مَا ينعرف: ابن علو جا يم روجينا يتونس أَوْ يتجسس؟

وَلَمَا لَمْ يجبه أَحَد، يتابع:

ـ يحسبون أنهم وحدهم اللي يقدرون... لَكِن باجر أَوْ اللي عقبه راح بعيونهم يشوفون!

وفِي تِلْك الليلة، كَمَا فِي ليال أُخْرَى، قَال كلاماً وصل إِلَى الباشا. قَال فِي هَذِه الليلة، وردده فِي ليال تالية:

- هذول اللي يلقلقون بالأمثال والأشعار، والواحد مِنْهُم مَا يخش لسانه بحلقه، وبَيْن كلمة والثانية قَال الله وقَال الرسول، هذول يخوفون، ولازم الواحد يحسب لَهُم ألف حساب!

ولأن الَذِينَ يسمعون يعرفون عمَن يتحدث ولَا يعرفون، فإنه يُتابع:

ـ الناس اللي شالوا أرواحهم عَلَى أيديهم، وقسم مِنْهُم راحوا وماتوا، انسوا، حطوا فوقهم طابوقة ونفضوا أيديهم مِنْهُم، وقالوا لأولاد المسعدات تعالوا، احكموا وارسموا، لَكِن الأيام بينا!

كَانَ بكلامه يرد عَلَى الشعراء الَذِينَ قربهم داود باشا، وعَلَى رجال الدين الَذِينَ أجزل لَهُم العطاء؛ وكَانَ يرد عَلَى القصائد الَتِي نظموها بَعْد معركة الفرات الأعلى، وكُلهَا تشيد بقوة وشجاعة الباشا الَذِي حَقق النصر، ولَم يرد ذكره إلَا كظل باهت، فِي الوَقْت الَذِي كَانَ هُوَ صاحب الفضل فِي كُل مَا تحقق. ولأن الَذِينَ يسمعون إِلَيْهِ قدروا أنّه يعْنِي هَؤُلَاء، وان لَمْ يكونوا مُتأكدين، فَقَدْ اندفع:

- مَا شالع قلبي إلَا هذول الأفندية وأصحاب العمايم. الواحد مِنْهُم مكَدي وعلجيته قديفة. أيَام الحرب والضرب وأَحَدُهُمْ لازق بحضن مريته، وبس يخلص الْقَتْل والمقتول تشوفهم مِن كُل فج يطلعون، واصواتهم عالية: يصير وما يصير؛ نقبل وما نقبل؛ قَال الشاعر الفلاني والشاعر الفلاني.. لَك أولاد القحاب.. وين ضميتو روسكم لَمَا ردنا الرجال؟ حَتَى العوافي مَا قلتم، يا أولاد الحرام!

يقول أحَد الحاضرين:

ـ الحَق عَليْنَا، سيدي، نَحْنُ هدينا الحبل نَحْنُ نخينا وقُلْنا لَهُم: خيلوا... اركبوا!

فيرد الآغا، وتخرج الكلمات مِن بَيْن أسنانه:

- لَكِن يخسون، ولازم يَوْم مِن الأيام يعرفون: مو كُل مدعبل جوز؟

ويأتيه صوت حامد، مرافقه:

- بس أَنْت أؤمر، سيدي، ونَحْنُ رجالك، وعَلَيْنَا الباقي ويهتز رَأْسَ الآغا دلَالة التهديد:

ـ مَا يخالف، إن غداً لناظره قريب.

ولَا يتأخر الباشا فِي اتِخَاذ القرار:

- جَاء وقتك يا آغا، وعَلَيْكَ الاعتماد.

يتهلل وجه الآغا، يَقْترِب قليلاً، يجلس عَلَى طرف الكرسي، انتظاراً للكلمات التالية:

- ولأنك مجرب، واسمك يقرقع بالولاية كُلهَا، ويخوف اللي مَا يخاف، ولأن الخطر، هَذِه المرة، مِن الشمال، وخاف الجماعة هُنَاك ياخدونا غفل، قررت إيفادك إِلَى كركوك...

تراجع الآغا وارتخى. كَانَ يظن شيئاً ويسمع الآنَ شيئاً مختلفاً. لاحظ الباشا خَيْبَة أمله، قَال، وهُوَ يبتسم:

ـ اخترت لَك مكاناً وسطاً، كركوك، فَإِذَا استقر الوضع فِي الشمال، وسَوْفَ يتحقق ذَلِك خلال بضعة شهور، وإِذَا أنجزنا التحضير لحملة الجنوب، فَلَا غنى عَنْك، سنبعث وراءك، ونكون كمن يكسب الدُنْيَا والآخرة!

ورغم أَن الآغا بذل جهداً خارقاً مِن أجل صرف النظر عَنْ هَذَا الإجراء، إِذْ قلل مِن أهمية مَا يجري فِي الشمال، والأخطار الَتِي تتهدده، وركز، مُجدداً، عَلَى الجنوب، وما يُمكِن أن يترتب نتيجة عصيان البدو، واحتمال توالي ثوراتهم، إلَا أَن الباشا قَال ليحسم الأمْر:

ـ القضايا الكبيرة للرجال الكبار يا آغا، وما اخترت غَيْرك للشمال لأني أعرف أَن الأخطار ستأتي مِن هَذِه الجهة...

وتغيرت النبرة، أصبحت حزينة:

- وتعرف معزتك عندي، وأني لَا أطيق فراقك، لَكِن للضرورة أحكامها حَتَى لَوْ خالفت رغباتنا وعواطفنا.

لما وجد الآغا أنّه غَيْر قَادِر عَلَى مُخالفة أمْر الباشا، ولَا بُد مِن تنفيذ الأمْر، قَال فِي مُحَاوَلة لكسب شَيْء مُقابل هَذِه الخسارة:

ـ إِذَا كَانَتْ هَذِه رغبتك يا أفندنيا، ولفترة محدودة، ومِنْ أجل الاستعداد لحملة الجنوب، فأتمنى أن يكون ضُباطي مَعِي لوضع الخطط ولاستمرار التدريبات!

ـ لَكَ مَا تريد يا آغا، وإِذَا لَدَيْك طلبات أُخْرَى فأنا عَلَى أتم الاستعداد لتلبيتها!

وهَكَذَا نُقِل الآغا إِلَى الشمال.

أرض السواد
II


عبد الرحمن منيف
أرض السواد
II

الطبعة الأولى، 1999

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826

سيفو، بَعْد الرحلة النهرية وبَعْدَ أَن سافر بدري إِلَى كركوك، تغير أَصْبَح إنساناً مُختلفاً تماماً. حَتَى هُوَ لَا يعرف مَاذَا جرى لَهُ، أَوْ كَيْف.

أَصْبَح نزقاً، ميالاً للمشاكسة، كَمَا أَصْبَح العمل الَذِي يقوم بِهِ عبئاً ثقيلاً أقرب إِلَى الهم. أَكْثَر مِن ذَلِك، أخذ يلوم نفسه لِأَنَهُ بدد حياته فِي هَذِه الرحلة العمياء الَتِي لَا تنتهي بَيْن الشط وبيوت المحلة، يقوم بالعمل ذاته كُل يَوْم، وكُل أيَام السنة. وأَيْ عمل؟ أَن ينقل بالقرب المياه الصافية مِن النهر، لتعود هَذِه المياه إِلَى النهر مرة أُخْرَى، وإِن يَكُن فِي مكان أبعد مِن المحلة، بَعْد أَن تكون قَدْ تلوثت وتلونت وتغيرت، أصبحت شيئاً آخَر. ألم يتعب الناس، مثله، مِن استهلاك المياه؟ أَلاَ يتوقفون يوماً واحداً؟!

كَانَ فِي رحلاته القصيرة، بَيْن الجرف وتِلْك البيوت المبنية بالطوب، يفكر، يحلم، يُسافر، لَكِن فجأة يجد نفسه ذاهباً إِلَى الجرف ذاته، أَوْ عائداً مِنْهُ، والمياه تنز عَلَى جسده، عَلَى الأَرْض الموحلة، قرب النهر، ثم المغبرة مَا إن يصعد نَحْو تِلْك البيوت.

وإِذَا كَانَتْ رائحة المياه فِي أَوْقَات سابقة تعبق فِي أَنْفه، وتولد لذة حَتَى فِي أيَام الشِتاء الباردة، فَقَدْ أصبحت لَهَا فِي الأيام الأخيرة رائحة مُخْتلِفَة، لَا يعرف كَيْف يصفها، لَكِنَهُ لَمْ يعد يُطيق هَذِه الرائحة، وأَصْبَحَ شكله، وهُوَ يترنح قرب الشاطيء، بليداً، منفراً، بَلْ ويثيره هُوَ نفسه!

هَل تغيرت رائحة الماء؟ هَل تغير شكل النهر؟

يجزم سيفو أَن شيئاً مَا تغير، أنّه مُتَأَكِد مِن ذَلِك. فَإِذَا كَانَتْ فصول السنة تُغير لون الماء، وبَعْض الأحيان مذاقه، وإِذَا كَانَ شكل النهر لَا يثبت عَلَى حال، إِذْ يتسع أَوْ يضيق، تعتكر المياه أَوْ تصفو، تبعاً للأمطار والفيضان الَذِي يأتي مِن بعيد، ويقْدر ذَلِك كُل مَن يعرف المواسم، متى ترتفع مياه النهر، ومتى يأتي الفيضان، فَإِنْ الأَمْر بالنسبة لسيفو أَكْبَر مِن ذَلِك وأخطر، وقَدْ أحس بذلك بجسده وروحه، وهَذَا مَا جعله عصبياً، ضيق النفس، وما جعله يفكر بطريقة تَخْتَلف عَنْ أية فترة سابقة.

بَعْض الأصدقاء لاحظوا أَن سيفو تغير خلال الفترة الأخيرة. لاحظوا ذَلِك مِن صمته الطويل، مِن الهرم الَذِي سيطر عَلَى ملامحه، خَاصَة عَلَى العَيْنَيْن، إِذْ أصبحتا تنظران إِلَى كُل مَا حولهما دُون أَن تريا، وكأنهما فِي أَغْلَب الأحيان فِي حالة سفر بعيد، ثم فجأة، مَع شَيْء مِن الرجفة، خَاصَة الرأس، تعود النظرات مِن هَذَا السفر. وكالأعشى الَذِي يدهمه الضوء القوي المفاجئ، يحتاج لوقت ليألف ثم يَسْتَعِيد صلته بِمَا حَوْلَهُ.

كَانَ الأصدقاء يحاولون إعادته مِن الأمكنة البعيدة. يستجيب مرة وينفر مرات. يستجيب بسرعة مرة، وتطول استجابته مرات. ولأن الجميع يعرفون مزاجه تركوا لَهُ الفرصة كي يتصرف، حَتَى فِي اختيار الوَقْت الَذِي يناسبه للكلام.

بَعْد أيَام مِن سفر بدري ذهب إِلَى الحاج صالح العلو:

- لَوْلَا كَمْ آدمي بالمحلة كَانَ بطلت هالشغلة مِن زمان، حجي!

- لولاك، يا أبو فلاح، كَانَ متنا مِن العطش، فالله يخلف عَلَيْك، وجزاك عنَا ألف خير.

- وإِذَا مات سيفو؟ إِذَا الله أخد وديعته، مَا لازم محلة الشَيْخ صندل تلقي فد واحد حَتَى يجيب الماي؟

- فال الله ولَا فالك يا ابن الحلال، لَا تجيب طاري الْمَوْت مِن غبشة الصُبْح. قول: يا رزاق، يا كريم، اللهم أدم عَليْنَا الصحة والعافية...

وتغيرت اللهجة، أصبحت مستغربة:

- شنو شايف بنومك يا أبو فلاح حَتَى تَقُول هَذَا الْكَلَام؟

- شما شفت يا حجي مَا مهم، مَا لَهُ قيمة..

افترت شفتاه عَنْ ابتسامة حزينة وأضاف:

- بالمختصر المفيد، حجي، هَذَا حدي ويا هذي الشغلة. مَا عاد بي حيل، وزهقت روحي مِنْهَا. فيرحم والديك، وأنت تمون عَلَى أهل المحلة، دوروا عَلَى غيري، شوفوا واحد غَيْر سيفورا قالت أمْ قدوري، اَلتِي سمعْت الكلمات الأخيرة، وَكَانَتْ قادمة تحمل الشاي:

- ينطيك قلبك، أبو فلاح، تتركنا؟ تريدنا نموت مِن العطش؟ تريدنا نجيف مِن الزبل والسيانات؟ هاي الله يقبلها منك؟

رَد سيفو، بَعْد أَن سحب مقداراً كبيراً مِن الهواء:

- مَا عاد بي حيل يا جماعة الْخَيْر، وروحي شاخت...

وبَعْدَ قليل وبحدة:

- كُل يَوْم.. كُل يَوْم! إرحموا مَن فِي الأَرْض يرحمكم مَن فِي السماء!

قَال الحاج صالح العلو:

- طول بالك، يا أبو فلاح، أعطينا مهلة، وان شاء الله يصير خير!

قالت زوجة الحاج صالح:

- يَوْم أسود إِذَا شربت الماي مِن غَيْر إيد أبو فلاح!

ولئلا يُساء فهم مَا قالته، تابعت بسرعة:

- أَنْت قول، أبو قدوري، شقد اكو فرق بَيْن الشاي اللي أخدره مِن مية سيفو والشاي بالمحلات الثانية؟ بذاك الصوب؟!

رَد سيفو بسخرية:

ـ قابل آني جايب الماي مِن بيت أبوي؟ مِن بير زمزم؟ كُل الأوادم تشرب مِن الشط، نفس النهر ونفس الكيل...

وبَعْدَ قليل، وبدعابة:

- لَوْ تريدين أظل أكرب حَتَى أنقض وأموت موتة جلب؟ موتة زمال جوا الحمل؟

- كفانا الله الشر، أبو فلاح، شنو هَذَا الحجي؟

ملا حمادي الَذِي وصلته أخبار مشوشة أَن سيفو سَوفَ يهجر مهنة السقاية، قَال بنوع مِن التعرض:

- وشلون راح يعيش؟ عَلَى الصدقة؟ مِن القراية عَلَى القبور؟

وَلَمَا كَانَ لَا ينتظر جواباً، أضاف بسخرية:

- حَتَى الفاتحة مَا يعرفها، فشنو بآخِر أيامه راح يقرا عَلَى القبور سورة البقرة؟

وخفض صوته كثيراً، كأنه يكلم نفسه:

ـ مَا يملك غَيْر طرق خصاويه...

وارتفع صوته مِن جديد:

- الله أعلم أنّه باجر، إِذَا بطل سقا، مَا راح يفارقني، يقعد هُنَا ويخنزر، حَتَى يهزم المصلين؛ راح يصير بوجههم مثل ناكر ونكير، والواحد بدل مَا يتوضأ يقول: أحسن لِي: أتيمم أَوْ أصلي بالبيت!

أمَا حِيْن تقابل الملا حمادي مَع الأسطة إسماعيل، وسأله حَوْلَ مَا قِيل عَنْ احتمال اعتزال سيفو للمهنة، وكَيْفَ يُمكِن لَهُ أَن يعيش، فَقَدْ رَد عَلَيْهِ الأسطة بحدة:

- اكو شغلات، ملا، هِيَ وحدها اللي تقرر، مو اللي يشتغلها يقرر!

مَع ضحكة ساخرة، كبيرة، سأله الملا مِن جديد:

- هاي شلون، هاي منين جبتها؟

- هاي مَا جبتها مِن بيت أبوي، ملا، بس ينراد لَهَا عقل يشتغل حَتَى يفتهم!

- فهمنا، عَلَيْك نور، أبو حقي!

هَكَذَا قَال الملا حمادي، وقَدْ أحس أنّه فِي موقع قوي. رَد الأسطة بنفاذ صبر، وبتعريض أيضاً:

- راح افهمك، ملا، واندعي لله حَتَى يفتح عَلَيْك...

وتغيرت اللهجة تماماً:

- اكو شغلات مِن المهد إِلَى اللحد، مثل شغلات الملوك، واللي يقرون عَلَى القبور، واللي يشدون. واكو شغلات وحدها تَقُول: بس، الزورخانة للثلاثين. المرية لَمَا توصل للأربعين، مَا تلد ولَا تخلف. القحبة إِذَا كبرت وتريد تبقى بالسلك تصير قوادة... افتهمت لَوْ تريد بَعْد؟

ارتبك الملا حمادي. وقَدْ أحس بالتعريض، قَال بحدة:

- أشوفك، أبو حقي، صرت تخلط شعبان برمضان، وتريد تأخذ الناس فلاحة، لَوْ أني غلطان؟

- غلطان ونص، مولانا. أَي نَعَم، غلطان...

وبَعْدَ قليل وبغيظ:

ـ انهد ظهره، سيفو. كُل يَوْم ألف مرة مِن الشط للشيخ صندل. لَوْ كَانَ حديد تخ، لقال: يبزي. شتريد مِنْهُ أزيد؟ ثلاثين، أربعين سنة، مَا قَال كلمة، مَا قَال أشهد أَن لَا إله إلَا الله.

قاطعه الملا حمادي بانفعال وغضب:

ـ استغفر الله؛ أستغفر الله...

قَال الأسطة، وخرج صوته هادئاً، لَكِنَهُ شديد الصرامة:

- قول علَيَ اللي تقوله، ملا. أَنْت أمنت الدُنْيَا والآخرة، وغَيْرُكَ لَا هذي ولَا ذيك...

وتغير صوته قليلاً:

- آني، بتكاني، بالفي والمي، يجي واحد يريد يزين أزينه بكيفي ويواش يواش، ووقت الزيان نسولف، نحجي، وإِذَا خلص، أقعد، أصفن، أدخن سبيل، حَتَى يجي واحد غَيْرِه. أمَا هَذَا المسكين، سيفو، فيظل مثل ثور الطاحون، طول النَهَار، بالشموس رايح جاي. وإِذَا الناس شبعت مِن الأكل مَا تشبع مِن الماي، وهَذَا الكديش لازم يظل يركض!

وأصبحت نبرة الصوت مُعادية:

. خافوا الله، قولوا أكو يَوْم آخرة. أكو حساب وكتاب يَوْم القيامة، والإِنْسَان وما سعى، موهالشكل؟

قَال الملا حمادي ببرودة أعصاب:

- وين جنا وين صرنا...

حاول أَن يبتسم وقَدْ تغيرت ملامحه:

- أبو حقي، وداعتك، مَا كَانَ سؤالي إلَا خوفي عَلَى أبو فلاح؛ مَا أريده بآخِر أيامه يترزل، يكَدي، يمد إيده للناس ويقول: صدقة يا أولاد الحلال، صدقة يا أهل المروة. هَذَا كَانَ قصدي...

وتغيرت اللهجة:

- أَنْت أخذتنا شاطي باطي، وكأَنَ لَك ثار وياي، وتريد تنتقم، تريد تبرد قلبك. مَا يخالف، أَنَا أسامحك!

- إسمع، ملا، الحَق.. حَق، وماكو بيني وبَيْنَكَ حساب أَوْ ثارات؛ أمَا إِذَا تريد تخبطها، وتخليها عرب وعجم فهذي سالفة ثانية!

أمَا الحاج علاوي الَذِي عرف بالأمر مُتأخراً، لِأَنَهُ سافر إِلَى سوق الشيوخ مِن أجل تحصيل ديون مستحقة لَهُ، وما إن رأى الاصدقاء فِي قهوة الشط، وَكَانَتْ ملامحهم توحي أنّه لديهم الكثير ليقولوه، خَاصَة لصديق مُسافر، فَقَدْ سَأل بنفاذ صبر، بَعْد أن رأى فِي وجوههم كلاماً:

ـ ترى يا جماعة ماكو أصعب مِن الْمَوْت، فَإِذَا مات أَحَد مِن الجماعة، أَحَد مِن القرايب، وما سمعْت، ترى قولوا...

وتابع باسترسال:

- ماكو أَحَد يقدِر يهرب مِن الْمَوْت، وهَذَا مكتوب عَلَى الكُل، بس واحد يسْبق، وواحد يلحق، فَإِذَا أكو شي، إِذَا أكو واحد مات، وفاتنا نمشي بجنازته، ترى يصيبنا أجر إِذَا قرينا الفاتحة عَلَى روحه، إِذَا شفنا أَهْلَه وقُلْنا لَهُم: عظم الله أجركم!

رَد أَكْثَر مِن واحد:

ـ الدُنْيَا بَعْدَهَا بخير، حاج علاوي، ماكو أَحَد مِن الجماعة مات بغيبتك، بس...

- قولوا... شنوا بس؟

- سيفو يريد يبطل!

ـ لَهُ لَهُ.. هاي بيها كسرة ظهر، قولوا غيرها يا معودين!

ـ إِذَا تقدر تقنعه نكون ممنونين، وتسوي فَضْل عَلَى المحلة كُلهَا.

أرسلت نسوة إِلَى فطيم، لعلها تَسْتَطِيع مَا عجز عَنْهُ الرجال. قالت لَهُ، وقَدْ جَاء متأخراً فِي ذَلِك المساء:

- سخنت الأكل نوبنين، وكُل شوي أقول لروحي: هسه يجي أبو فلاح، بَعْد شوي يجي أبو فلاح...

وتغيرت اللهجة قليلاً:

ـ اشو تأخرت؟ ظل بالي يمك!

نظر إِلَيْهَا بِطَرْف عَيْنَهُ، عله يكتشف مَا وراء هَذِه اللهفة، هَذَا الاهتمام. حِيْن وجدها تراقبه وهُوَ ينزع دشداشة الشط، ويَبْدُو مثل طائر بلا ريش، قالت بنوع مِن الدعابة:

- تبين زغران، أبو فلاح، وكَأَنَكَ رجعت عشر سنين، عشرين سنة لورا؟

- مو بس عشر سنين، عشرين سنة، رجعت جاهل ينراد لَهُ ديس وممية!

ابتسم بسخرية وحزن، وقَدْ أحس أَن كلام فطيم أقرب إِلَى التعريض، أَوْ وراء مثل هَذَا الْكَلَام طلبات، كأَنَ يصطحبها لزيارة سلمان باك أَوْ الكاظم، ورُبَمَا فكرت أَكْثَر مِن ذَلِك. ولكي يقطع عَلَيْهَا الطريق، قَال بتحد لَا يخلو مِن سخرية:

- لَوْ طلع براسك نخلة مَا راح أسوي اللي ببالك، مَا راح أسوي إلَا الشي اللي بدماغي. هَذَا لازم تفتهميه كلش زين، فطوم!

كَانَ يتكلم وهُوَ عار، تقريباً، إِذْ بَعْد نزع الدشداشة، ظل هَكَذَا قَبْل أَن يرتدي ملابس البَيْت، وكأنه نوع مِن التحدي! وفطيم الَتِي فوجئت بِهَذِهِ اللهجة الحازمة، لَا يُمكِن أَن تسلم أَوْ تنهزم بسهولة، خَاصَة وأن الكلمات الَتِي تتحرج النسوة مِن استعمالها تبدو لَهَا عادية، ولَا تتردد فِي أَن تقولها أمام الْآخَرِين.

قالت، وخرج صوتها خشناً:

- أكو ناس مَا يلوق لَهُم الهلا والمرحبا، وإِذَا الواحد طرى شبابهم أَوْ حسنهم، عبالهم قشمرة، ويَقُولُونَ: باوعوا شقد عيونه مالحة، وبس يريد يزلقنا!

تناول الدشداشة المنزلية، أدخل رَأْسَه فِيهَا، وقَبْل أَن تنهدل عَلَى جسده، قَال بنفاذ صبر:

ـ أكو لقمة تنعلس لَوْ انشب وأنام؟

- سويت لَكَ اليوم تشريب طماطة، وهسه، لَمَا تذوقه، راح تَقُول. ألف رَحْمَة عَلَى والديك فطوم، تاكل وتندعي لِي!

- صدق... جدب؟

وبَعْدَ قليل قَال فِيمَا هِيَ تنهض بحيوية لإعداد الطعام:

ـ تظلين بنت أوادم. تظلين بنت أصل!

وهُوَ يأكل بشهية، بمتعة، وقَدْ لاحظت ذَلِك مِن الأصوات الَتِي تصدر عَنْهُ، مِن فرحة العَيْنَيْن، وأيضاً حِيْن طلب رأساً إضافياً مِن البصل. سألته قَبْل أَن يشبع:

- جتني اليوم أَمْ حمودي وقالت: سمعنا أَن أبو فلاح راح يبطل، وقَال لأهل المحلة دوروا عَلَى سقا غيري...

ولَم تنتظر جواباً، تابعت بنبرة جديدة: وقُلْت لَهَا: منين هالحجي يا معودة؟ لَا تصدقي يمه، هَذَا حجي حساد، حجي ناس مَا يريدون الْخَيْر للمحلة، والغيرة ماكلة قلوبهم!

توقف قليلاً عَنْ المضغ، وهُوَ ينظر إِلَى عينيها، لكيتشف مِقْدَارَ الصِدْق فِيمَا تَقُول، وما إِذَا كَانَتْ تعني الكلمات الَتِي تقولها. تابعت، وهِيَ تنظر إِلَى أسْفَل، لكي لَا تلتقي العيون:

- وقُلْت لَهَا: الحمد لله والشكر، أبو فلاح بعده بحيله وشبابه، وَلَو راد، إِذَا نفسه حنت أَوْ اشتهت، مرية جديدة، آني اللي تزوجه؟

راق لَهُ هَذَا الحديث، عاد إِلَى المضغ، وخرجت الكلمات مِن فمه مبعثرة:

- إي.. وبَعْدَ، شنو قالت وشنو قُلْت؟

- سوالف تجر بَعْضهَا، يا أبو فلاح!

وتغيرت نبرة صوتها، وهِيَ تسأل مِن جديد:

ـ آني متعجبة، منين أَمْ حمودي صفطت هَذَا الْكَلَام، منين جابته؟

- أَمْ حمودي تحجي الصِدْق، والمحلة كُلهَا تدري: بآخِر خميس هَذَا الشهر أقول لَهُم: فِي أمان الله يا جماعة الْخَيْر. أبو فلاح مَا عاد سقا، مَا عاد يشيل مِن الفجر إِلَى غياب الشمس قرب الماي، وين اكو حب مَا متروس، وين اكو تنكة فارغة هاتوا... خذوا...لَا.... خلصنا!

وبَعْدَ قليل:

ـ أريد أشوف وجه ربي، أريد أستريح...

- وشلون نعيش يا رجال؟

- مثل مَا عايش باقي الناس!

- كُل واحد عِنْدَه صنعته، عِنْدَه صرماية، وانت، الله يسلمك، دمرت الأول والتالي، فَإِذَا بطلت تفتح حلوقنا للهوا، لأن ماكو لَا قدامنا ولَا ورانا.

صمت سيفو، لِأَنَهُ يعرف كَيْف تلح فطيم، وتظل حَوْلَ الأَمْر الَذِي تريده حَتَى تصل إِلَيْهِ أَوْ أَن يغضب، وهُوَ لَا يريد أياً مِن الأمرين الآنَ، خَاصَة وأَنَهُ لَا يَزَال حائراً. صحيح أنّه قرر ترك مهنة السقا، وهَذَا قرار لَا رجوع عَنْهُ، لَكِن مَاذَا يفعل بَعْد ذَلِك؟ وكَيْفَ يُمكِن أن يُؤمن مَا يحتاجه؟ هَل تكفي النقود الَتِي أودعها لَدَى الحاج علاوي؟ قَدْ تكفي شهرين أَوْ ثلاثة، مَع بَعْض الحرص، لَكِن مَاذَا بَعْد ذَلِك؟

سألت فطيم مِن جديد، ولَكِن بطريقة رحيمة، ولَا تخلو مِن مسكنة:

ـ أعرف، يا أبو فلاح، شقد تنعب، وهَذَا الظهر لَوْ أنّه صخر كَانَ ساف، لَكِن الخبزة تنراد، والدنيا كُلهَا تعب..

وبَعْدَ قليل، وبمذلة:

ـ أقدر أغزل، والغزل ينباع، لَكِن مَا أعرف يكفينا لَو لَا!

- منو قَال آني راح أقعد بالبيت؟

- ومنو قَال لَك أقعد؟

- عبالك أقعد وأقابلك؟

ولَم يتركها لتجيب، تابع بحدة:

- هذي لَا تحلمين بيها، هذي مَا راح تصير أبد!

ردت بنوع مِن السخرية المغتاظة:

- هَذَا الخد تعود عَلَى اللطم...

وبَعْدَ قليل وبحزن أَكْثَر:

- صَارَ لِي سنين وأيَام مَا أشوفك إلَا بالظلمة. تروح مِن الفجر وترجع بَعْد مَا تغيب الشمس...

وبَعْدَ لَحْظَات مِن الصمت، أضافت:

ـ قُلْتُ روحي لَمَا تزوجتك: صَارَ لِي رِجال، خيمة، ظل يكلكل علَيَ، وما راح أخاف مِن شي أَوْ مِن أَحَد..

أخذت نفساً عميقاً، وتابعت:

- جمعة نروح عَلَى سلمان باك، وجمعة بَعْدَهَا عَلَى الكاظم أوْ الشَيْخ عبدالقادر، وجمعة ثانية نسير عَلَى سامرا..

وتغيرت اللهجة، أصبحت استنكارية:

- وشقد سولفت لِي عَلَى البصرة والعشار؟ وقُلْت: يجي يَوْم ولَا بُد نوصل لهناك، وبشط العرب ناكل كباب!

ضحكت بسخرية وأضافت:

- حَتَى كباب الكاظم مَا وكلتني؟

رَد بحدة وغضب:

- آني، مِن سنين وأيَام، مَا حطيت كباب الكاظم بحلقي، وتشوفيني صاير مثل زمال الطاحون: مِن الجرف لِكُل زاغور بالشيخ صندل. شوكت أروح للكاظم؟ للشيخ عمر؟ شوكت أشوف دربي، أشوف وجه ربي؟

قالت بمسكنة:

ـ أعرف.. أعرف، وما قايلة فد شي، ودوم أقول لروحي: الحمد لله والشكر، مَا دام قادرين نحصْل خبزتنا؟

وبَعْدَ قليل، كأنهَا تكلم نفسها:

- كُل اللي راح، كُل اللي صَارَ، بصفحة، بس شلون هسه نقدر نحصل خبزتنا؟

- فطيم. لَا تضوجيني...

وبسرعة وبحدة:

- روحي لابت، صارت واقفة بالزردوم، وكُل مَا وصلت الجرف اتجنز، اصير غَيْر آدمي: الدُنْيَا سودا، والجرف مثل السيانات، وأقول: شلون كُل هذي الأيام والسنين مرت وآني رايح جاي، ليش مَا طفت روحي؟ ليش مَا متُ وخلصت؟

واحتدت اللهجة تماماً:

ـ تقولين لروحك: سيفو راح ينام للظهر، وعِنْد العصريات يتدهدى للقهوة، وهُنَاك يقعد ويسولف، وكأنَ الدُنْيَا بألف خير؟

ولَم يتركها لتجيب:

- مَا راح اقعد وأقابلك. مَا راح أنام للظهر. والقهوة إِذَا مريت بيها أَمر غبشة أَوْ آخِر اللَيْل!

تطلعت إلَيْهِ باستغراب، وقَدْ فتحت عينيها عَلَى اتساعهما. تابع:

- لَوْ عمرَي أصغر عشر سنين، عشرين سنة، مثل مَا تقولين، كَانَ رُحت بعيد بعيد، لَكِن بتوالي العمر البني آدم يعجز ويتقرم...

سألت بلهفة: وين تريد تروح؟

- وين الصيادين يروحون. وين الصيادين يوصلون؟

ـ بآخِر أيامك راح تصير صياد؟

- بآخِر الأيام، فطيم، كُل شي يصير!

- وراح تصيد بآخِر الأيام، سمكة بز أَوْ تصيد كوسج؟

- إِذَا صدنا بز ناكلها، وإِذَا صادنا كوسج ياكلنا، هَذَا هُوَ حال الدُنْيَا: يا ماكل يا مأكول!

وبعد شهور عاد بدري إلى بغداد فِي إجازة وصول بدري أثار اهتمام المحلة، وخلق مناخاً جديداً فِي قهوة الشط فالعائد، بنظر المقيمين، بالإضافة إلى كونه صديق الجميع، فإنه الشخص المناسب والمؤهل لفض المنازعات، وإنهاء الخصومات، كما أنّه الوحيد القادر على التعامل مع الجميع بروح مِنْ الأخوة والمحبة، وبالتالي تصفية القلوب.

ما كادت فطيم تعلم بوصول بدري، حتى كانت أول الزائرين. جاءت فِي الصباح الباكر، ورغم أن أم قدوري تعودت النهوض مع صياح الديك، فقد استغربت الزيارة فِي هذا الوقت. قالت، وهي ترحب بارتباك:

ـ ها، عيني، انشاء الله أبو فلاح بخير؟

- شيصير عليه يمه، مثل الصل، وكُلّ نهاره يهفي مِنْ مكان لمكان!

ـ الحمد لله يمه، لأن الرِجال لأهله مو بس هيبة، هو عمود البيت، وهو الأول والتالي...

استراحت قليلاً، وقد زايلها الخوف، ثم تابعت:

- وأبو فلاح، مع أنّه نكت بينا، لكن مثله ماكو!

ـ على مود هالقضية سريت، وجيت مِنْ وقت، يمكن الله!

ـ قولي يا بعد عيني، شنقدر نسوي؟ شنو اللازم؟ وأنت تعرفين: أبو قدوري أبد ما يقصر.

- ماكو، يا أم قدوري، أحد يمون عليه مثل، الله يسلمه، بدوري.

وحده يقدر يقول له: ارجع سقا يا أبو فلاح. اترك الاكو والماكو، لأن الناس عطشت بعدك، وقلبك ما ينطيك تترك الناس وتقول: مالي لازم. - لو

تعرفين، يا أم فلاح، شقد قلنا، شقد قرينا على راسه حتى يبقى، لكن، الله يسلمه، سنكر، حط رجليه بالحايط، وقال: ما أريد. وأبو قدروي أخذه على صفحة وقال له: أنطيك كُثر ما تنطيك المحلة كلها، بس ابق، لكن أبد!

ـ أدري، أدري يا أم قدوري، وكُلّ المحلة تسولف وتقول.

وبعد أن هزت رأسها بحزن، أضافت، وكان صوتاً مختلفاً:

- وحده بدري اللي يقدر عليه، ويسمع منه، وكُلّ ما أريده أن احجي وياه، الله يسلمه، وأقول له شقد ترزلنا، وشلون عيشة عايشينها، لأن كُلّ ما اسأل أبو فلاح، كُلّ ما أحجي وياه، يقول: ما عليك، لازم أسوي اللي بدماغي، ولازم أنتقم مِنْ هذا الزمان الأكَشر، وآني، يا أم قدوري، ما أعرف شنو اللي بدماغه، وإذا اكو أحد انتقم منه فمني وحدي ينتقم، وما أدري شسوي، شقول!

وبعد أن قضت المرأتان وقتاً وهما تتحدثان، رأت أم قدوري أن تأتي بالبامياء والعدس لتشتركا معاً فِي التقميع والتنقية، انتظاراً للوقت الذي يستيقظ فيه بدري. ولم تنسيا الحديث عن أخبار المحلة، وما جرى فيها، ثم عرجتا على بنات المحلة، مِنْ هي الجميلة، ومن هي البيضاء، وميزة واحدة عن أخرى، وما إذا كانت هذه أو تلك مِنْ الفتيات ينتظرها ابن عم أو ابن خال.

قال لها بدري، بعد أن رحب بها كثيراً:

- ما أقدر أقول فد شي هسه، خليني أشوف عمر سيفو، وبعدها الله كريم! أما ملا حمادي فقد أرسل إلى بدري عبود الأعرج. جاءه عبود إلى قهوة الشط، وقال له، مثل أيّ تلميذ بليد:

- الملا يريدك!

- بريدني آني؟

- أيّ نعم!

- آني منو؟

ـ ما أدري!

- وشلون عرفت أنّه يريدني آني؟

- شاور عليك ودزني!

- أكو أوادم بقهوة الشط أكثر مِنْ سوق هرج، فيجوز انت غلطان، متوهم!

ـ ما أدري!

- زين.. زين، ابني، روح للي دزك، وقل له: اللي يريد بدري يجي لهنا!

ولم يأت الملا حمادي إلى قهوة الشط، لكن رابط فِي مكان غير بعيد، وما إن خرج بدري مِنْ القهوة، مع مجموعة مِنْ الأصدقاء، حتى هجم عليه الملا. قبل وجنتيه مرات كثيرة، كما لو أنّه يقبل شباك الكاظم، وعاتبه، وطلب أن يراه فِي أقرب فرصة، لأمور هامة، واليوم قبل الغد، وأبلغه أنّه سينتظره ضحى اليوم التالي عند الحاج علاوي.

وبدري الذي لم يكن صديقاً، أو ممن يكنون الود للملا حمادي، لكن، نتيجة العاطفة الفياضة والإلحاح الذي لا يقاوم، وافق على أن يلتقيه فِي المكان والوقت اللذين حددهما.

ورغم أنّه لم يكن لدي بدري أيّ مانع لأن يبقيا عند الحاج علاوي، وأن يجري الحديث، أيّ حديث، أمامه وبحضوره، إلا أن الملا حمادي بدا محرجاً، صامتاً، وكأنه نسي ما قاله فِي الليلة السابقة! وحين سأله بدري، بعد أن ابتسم بطريقة ساخرة، أقرب إلى التعريض، عما يريده منه، ردَّ بارتباك:

- هسه نتمشى ونسولف!

وقام للتو، ويريد مِنْ بدري أن يقوم أيضاً. قال بدري، وكان صوته أقرب إلى المرح:

- على الحجي ما تنضم أسرار، ملا؛ مو بس هالشكل، بعدنا ما شفناه!

-الحجي أخ، أعز مِنْ أخ، وما ينضم عنه فد شي، لكن آكو سالفة بيني وبينك.

قال الحاج علاوي معرضاً:

-هذا محلك، ملا، شوكت ما تريد، أنت صاحب المحل ونحن الخطار، وإذا ردت آني أترخص... حتى تسولف!

. على بختك حجي، وآني لولا المونة والثقة ما كان تواعدت هنا، وماكو فد شي ينضم عليك..

وبعد قليل وبأسلوب اعتذار:

والمسألة مِنْ الأول للتالي ماتسوى، وما أريد أدوخ راسك بيها.- قال بدري، وهو ينهض:

- نترخص، حجي، حتى ما يفوت الملا الأذان والصلاة! حاول الملا حمادي، اختصاراً للوقت، أن يذهبا إلى الجامع، لكن بدري اعتذر، لأن أصدقاء سيمرون عليه فِي البيت! وهكذا وجد الملا نفسه فِي بيت الحاج صالح العلو.

قال لبدري وهما يجلسان فِي الفسحة السماوية، تحت شجرة النبق، وكان منفعلاً:

ـ الشكوى لغير الله مذلة، يا بدري أفندي، لكن...

سحب نفساً عميقاً، وقطب جبينه، إسترسل:

- يجوز آني ما أعرف أتصرف، ما أعرف أتعامل مع الأوادم، لكن أتمنى لو تشوف قلبي...

ارتبك، وكأنه لا يعرف كيف يتابع، وقد اختلطت فِي ذهنه كُلّ الأمور.

بعد فترة صمت طويلة بدأ مِنْ جديد:

- ما أريد أقول، يا بدري أفندي، أن جماعة المحلة زنادقة، كفرة، وقلوبهم ما تعرف الرحمة، وآني وحدي الخوش آدمي، ما اقدر، والعياذ بالله، أقول هالشكل، كُلّ الناس خير وبركة، ويجوز جماعتنا أحسن مِنْ غير أوادم، لكن ما أدري ليش يباوعون علي خزر، وليش يعادوني ويكرهوني!

ـ الكل يحجون عليك، ملا، بالخير، ويقولون لو الواحد افتر بغداد كلها بالصوبين مثل الملا حمادي ما يلقى!

- لا تصدق، مولانا...

واقترب مِنْ بدري، كأنه يفضي إليه بسر:

ـ حتى الجامع، على مودي، ينهزمون منه، وما يجي ببالهم إلا إذا صارت موتة أو وقعت مصيبة.

ضحك بسخرية وتابع بنبرة مختلفة:

- موبس هالشكل، صار اللي يصلي منهم يروح لجامع بعيد، لذاك الصوب، وما بقي بجامع الشيخ صندل إلا كُلّ مجردم ووجعان واللي واقعة قلاقيل طيزه...

وتغيرت النبرة، أصبحت غاضبة:

- وإذا سألتني عن السبب أقول لك: سيفو والأسطة إسماعيل، ومن ورا، وبسكوت، أبو نجم!

- هذي كلها أوهام وخيالات، ملا، والواحد مِنْ اللي سميتهم يحلف براسك!

- وهمين أنت، بدري أفندي، قشمروك؟

. ما ينراد لها قشمرة، المسألة واضحة، وأكيد أنت متوهم!

- مولانا، الجماعة ما لهم شغل إلا: ملا حمادي سوي؛ الملا حمادي قال؛ وإذا سوينا أو قلنا فد شي، وسبحان مِنْ لا يخطىء، يرقص لنا أبو فلاح

بجفية؛ وتنطش عن طريق القصخون، الأسطة إسماعيل، بكل مكان؛ ومن العصرية إلى آخر الليل، كُلّ واحد يجيب لأبو نجم سالفة عن الملا حمادي يتلقاه بحيل صدر، وبالهلا والمرحبا وبالحامض والشاي، ويسمع كُلّ كلمة، وبعد ما يضحك، ويغشى مِنْ الضحك، يقول له: تعال كُلّ يوم وجيب وياك سوالف ـ منين لك هالسوالف، ملا؟ هاي كلها كلام عدوين وحساد.

- ماكو شي ينضم، بدري أفندي، وكُلّ سالفة تدرج وحدها، تمشي على رجليها حتى توصل، وجماعتنا هنا، الله يسلمهم، حوصلتهم زغيرة!

- يا معود لا تصدق كُلّ ما ينقال، والناس بالقهاوي ما عندهم غير السوالف!

ـ ما علينا، بدري أفندي، نحن أولاد اليوم!

ـ يعني؟

- أريد منك، يا بدري أفندي، والجماعة يسمعون كلامك، أن يتركوني، أن يدخل الرحمان قلوبهم، أن يعرفوا: آخرتها موت، وبعده حساب وكتاب، وان الملا حمادي يحبهم ويودهم مثل ما يحب نفسه..

وكاد يتابع، لكن بدري رفع عينيه إلى شجرة النبق ثم إلى الحائط وراءها، وقال بلهجة لا تخلو مِنْ سخرية ومكر:

-خاف يفوتك الأذان، ملا، لأن الظهر صار.

وباضطراب نهض الملا حمادي، ركض قاطعاً المسافة بين بيت الحاج صالح العلو والجامع هرولة!

أما الأسطة إسماعيل، الذي كان يحلق شعر بدري، حين سئل عن الملا حمادي، وقد جاء ذكره عرضاً، فقد ردَّ وهو يبتسم:

ـ ما تغرك العمايم واللحى، مولانا، لأن هذا اللي يتظاهر أنّه مسيكين، خيط ببينه بيوت، ومو بس بالمحلة، بمحلات ثانية، وانتقل لذاك الصوب؛ ولا تستغرب إذا سمعت، بجية ثانية، إنّه صار شريك لعزرا أو ابن الجلبي؟

- ومنين له الفلوس؟

ـ قرش فوق قرش تجمع، مولانا!

- صدق، أبو حقي، منين الفلوس؟

- مثل النملة يجمع، ومثل الذيب ينهش مِنْ هنا... مِنْ هنا، وما خلى وما بقي!

-وهذي الفليسات، مال الكَدية، تسوي بيوت؟

ـ الكَدية والبوق والأوقاف وزكاة فلان وزكاة فلان وخمس الجد...

وضحك بسخرية، ثم أضاف:

-وشلون البزون يشتَم اللحم مِنْ بعيد، والزنبور يندل بليا دليل، والفارة تجمع وتطم، الملا أشطر منهم ويعلمهم دروس!

توقف عن الحلاقة، واستدار ليقابل بدري وجهاً لوجه:

- وابخل مِنْ جلب، حتى أولاده ميتين مِنْ الجوع، ويجوز الخبزة اللي يكَدونها يسرقها منهم!

- تغير هواية الملا حمادي، ما كان هالشكل!

ـ مِنْ يومه هالشكل، يا معود!!

وعاد الأسطة إسماعيل إلى الحلاقة، وهو يقول:

-وما أدري شراح يسوي بهذي الفلوس! مجوع روحه ومجوع أهله...

وضحك بسخرية وهو يُضيف:

-مو بس هالشكل: باجر راح يموت وماكو أحد يندل وين ضام الفلوس، وتروح بول بشط!

وتعمد بدري ألا يبحث الأمر مع سيفو، لأن الأسطة اسماعيل الذي يتمتع بمقدار كبير مِنْ المرونة، وقادر على إقامة علاقات مع كثيرين، كان هذا رأيه بالملا حمادي، وما يعرفه عنه مِنْ سلوك وتصرفات، فكيف يكون الحال مع سيفو، وماذا سيكون رأيه بالملا؟

قال بدري ذات غروب، وكانوا جماعة فِي قهوة الشط وبينهم سيفو، وقد ارتفع صوت الملا حمادي بآذان المغرب:

- تغير هوايه صوت الملا حمادي، كان بآذانه خشوع، ويطلع مِنْ الصدر...

التفت نحوه سيفو نصف التفاتة، تابع وكأنه لم يره:

- كان إذا وذن، إذا مجد، يشرح القلب، وكان لصوته حنية وجلال، هسه ما أدري شلون، صوته صار خشن وبيه لكة.

قال سيفو، وكأنه يكلم نفسه:

- مِنْ يومه هالشكل، وأبد ما تغير، لكن غيره تغير؟

تابع بدري دون أن يوجه الكلام إلى سيفو، أو أن يرد عليه:

ـ أتذكر أيام بعيدة، أيام الصيف، ما أن يبدأ بالتمجيد مع الفجر حتى نقعد مِنْ النوم، وتشوف الصوت يرتفع كأنه الرعد، وينزل حتى يغيب، ويترفع نوبة

ثانية ويلمع كأنه على بُعد ذراع منك. ومع التمجيد: اليمام يهدى والبلابل تغني، وحجيتنا، أم قدوري، تسبح وتقول: يسلم حلقك! التفت سيفو نحوه بكليته، وقد انفتحت عيناه باندهاش، وكأنه لا يصدق الكلمات التي يسمعها. لما وجده جاداً، علق بغضب:

- بابا أنت غلطان، متوهم، أنت تحجي عن ملا مهدي مو عن هذا الملا!

- ليش شقد صار له ملا حمادي بجامع الشيخ صندل؟

قال سيفو وهو يرفع رأسه بشكل مائل، وكأنه يتذكر:

ـ إذا ما كذبني ربي، هذي هي السنة العاشرة على وفاة الملا مهدي.

- يعني السنة العاشرة للملا حمادي..

هكذا ردَّ بدري، ثم أضاف مستدركاً:

ـ لا... إذن آني احجي عن ملا مهدي، ولما كنا جهال!

قال سيفو بتعريض لا يخفى:

- اكو فرق مِنْ الأرض للسما بين الصوتين. وين صوت ملا مهدي ووين هذا الصوت!

ولئلا يترك سيفو فرصة للتمادي بشأن الملا حمادي، وكي لا يغضب ويغضب غيره، سأل:

- اتركنا، آغاتي، مِنْ الملالي، وخلينا نحجي بالشي اللي منه نتيجة..

ضحك بدري، وكانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، وبعد أن هدأ:

ـ تمون عمو سيفو، تفضل، احجي بالشي اللي ينفع!

ـ سمعت مِنْ الولد، وهذي عليها بيني وبينك عتاب طويل، إنك، هذي المرة، ناوي تقطع عتبة جهنم...

تظاهر بدري أنّه لم يفهم، هز رأسه ويديه أكثر مِنْ مرة، وقال:

-عتبة جهنم؟ اكو أحد بيه عقل ويريد يعتب هذي الدرجة؟ يقطعها؟

- إسمع بدري...

وضحك سيفو بحزن قبل أن يُضيف:

ـ أنت تدري وآني أدري، والجماعة كلهم يدرون، فعلى ويش تقشمر روحك وتقشمرنا؟

قال خضير ملا نوري، الذي ظل صامتاً، حين كان يجري الحديث عن ملا حمادي، لئلا يساء فهم كلامه إذا تحدث عن واحد مِنْ نفس السلك، قال

بمداعبة:

- يجوز آني الوحيد اللي ما يدري، لكن كلمة مِنْ هنا... كلمة مِنْ هنا، ولقفتها: بدري يريد يتزوج. هذا جواب الحزورة، لو اني غلطان؟

وتعالت الأصوات:

ـ جبتها... أبو نوري!

ـ أبد مو غلطان، مولانا!

- راح تنكسر رقبته هذا اللي كان شايخ بيها!

- وباجر حوله يماعون، نريد وما نريد!

- مو بس هالشكل، مولانا، قبلهم ومعهم، ام الولد: هذا يصير وهذا ما يصير!

- الزواج ينراد له هز كتاف، الزواج مو شقا!

- الزواج شر لا بد منه!

- أنتم السابقون ونحن اللاحقون، ولا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

قال خضير، بعد الصخب والتصفيق، وبعد التعليقات التي أصبح مِنْ الصعب وقفها، وقد استغل لحظة هدوء:

- يشرفني، ومن أسباب الفخر، وآني راح اتخرج بعد أسبوعين، أن يكون أول مهر أقطعه مهر بدري أفندي... إذا يوافق!

وقف سيفو وسط المجموعة، وقال، وخرج صوته حاداً ممزوجاً بالغضب:

ـ يوافق، مولانا، يوافق ونص، لأنا ما نريد يقطع المهر فد واحد تخرمن عكوسه اللثامة، أو يبيع أهله وعشيرته بفلسين!

ولأن الكثيرين فِي قهوة الشط يتكلمون بالتورية، ويفهمون على بعضهم بأقل الكلمات، ويبدو حديثهم بريئاًوعادياً، إلا إذا أرادوا التشهير العلني، عند ذاك يتصدى مِنْ يسأل، مِنْ يستوضح بعض العبارات. إذا حصل ذلك، وبطريقة لا تخلو مِنْ الغضب والتحدي، تنكشف الأمور، تُسمى الأشياء بأسمائها، وقد تقع بعض الحرائق أيضاً؛ قال أحد ضيوف خضير ملانوري، وقد نمت لهجته عن الصدق والبساطة:

ـ مِنْ أول الليل، وكُلّ ما ينحجي وينقال، أحس بيه دفن، الكلمة كلمتين، والواحد يرمي للثاني حصوة يريد يزلقه فشنو القصة؟

.... والأخ مِنْ يا ديرة، مِنْ با منطقة؟

ـ مِنْ سامرا.

ـ مِنْ هذا الصوب أو ذاك الصوب؟

- وجوه الخير إلها علامة، عمو سيفو، ما تنضم!

- بربي صحيح، ويبين عليك إبن أصل...

وتغيرت لهجة سيفووهو يُضيف بحزن:

- سالفتنا ببغداد، بالصوبين، طويلة، وإلها جلاجل. بذاك الصوب:

السراي والوالي والجندرمة واللي عندهم فلوس، وبهذا الصوت واقعين برأسنا دق: ضرايب وعسكرية، وفوقها خبز شعير، فلازم نحجي دفن، ولازم، إذا لطمنا، نقول إنا نلطم على الموتى، مو على الناس العايشين اليوم، ولازم...

قال الأسطة إسماعيل الذي وصل للتو، وبعد أن سمع العبارات الأخيرة لسيفو:

- شنو فاتحة؟ عزا؟ شنو القصة؟

عقب خضير ملا نوري:

- كنا، يا أبو حقي، قبل ما تجي، نندانش: منو راح يقطع المهر، وشوكت، وشلون راح يصير العرس، ومثل هذي المسائل، وجيت أخوك أبو فلاح: هذا الصوب وذاك الصوب، وتعال اخلص.

ردَّ سيفو بدعابة:

- مولانا... قالوا مِنْ قبل: أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، وآني صار لي أيام وسنين حلقي ما انفك' فحرام إذا قلنا كلمتين؟

-خلونا، يا جماعة الخير، مِنْ أبو فلاح، لأن ماكو أسهل مِنْ التفاهم وياه، وهذا له وقته، بس هسه نريد نعرف منو اللي راح ينهلس ريشه، ومنو اللي جا أجله ويريد يتزوج؟

هكذا سأل الأسطة اسماعيل فاتجهت الأنظار إلى بدري، وكأن اتفاقاً جرى بين الجميع أن تكون العيون وحدها وسيلة التعبير. تطلع أبو حقي إلى بدري. هز رأسه عدة مرات، وخرجت الكلمات بطيئة:

ِ بعرس المسعدة القمر غاب.. وأبو حقي آخر مِنْ يعرف، مو هالشكل، مولانا، بدري أفندي؟

وقبل أن يجيب بدري، أضاف الأسطة:

- لو تريدني أغيب مِنْ صدق؟

أجاب بدري بمرح:

- انت أعرف مني، يا أبو حقي، بأهل الكرخ: يزوجون ويطلقون بليا ما ياخذون رأي العريس والعروس..

ورداً على هزات رأس الأسطة التي ظلت تتوالى، تابع:

ـ والجماعة هنا حددوا كُلّ شي: منو يقطع المهر، شوكت، و... ووما بقي إلا تحديد يوم الحمام والزيان... لو آني غلطان يا جماعة؟

قال سيفو بسخرية، وهو يعلن تضامنه مع الأسطة إسماعيل:

- كنت ناذر، يوم عرسك، أرقص لك بجفية، لكن يبين أنك ما تريدنا لا آني ولا أبو حقي!

صاح عدنان الفضل، قريب بدري:

- يا جماعة رحتو زايد، وبعدين خاف الشقا يصير جد، والناس تاخذ على خاطرها..

والتفت إلى الأسطة إسماعيل الذي استمر واقفاً، وهو يتابع الحوار:

- تفضل استريح أبو حقي، هذا أولاً، وبعدها: السالفة مِنْ الأول للتالي، ويجوز مثل كُلّ مرة، أن هناك نية للزواج، تصير ما تصير، الله أعلم، فقولوا انشاء الله، خلي البك يوافق، وبعدها كُلّ شي سهل!

قال خضير ليخلق جواًمن المرح:

- راح يوافق، مولانا، لأنا نريد نشتغل؛ وأول شغلة يسويها الواحد أبد ما ينساها!

ردَّ سيفو بمداعبة:

ـ أيّ نعم، مولانا، خاصة مثل هذي الشغلة، لأن بيها كسران رقبة، كسران ظهر، فشلون ينساها؟

قال خضير مواصلاً المرح:

- وزيان العرس على أبو حقي ببلاش!

- راح ازينك زيان بعمرك ما تنساه، بس أنت قرر، قول: إي!

قال بدري وقد استولت عليه الغبطة:

- قررت، قررت، وأقول إي، وأنتم شهود!

قال سيفو، وكأنه يكلم نفسه، لكن الجميع يسمعون:

- على بركة الله، بس لازم تعرف مولانا: الخشة للحمام مو مثل الطلعة منه!

كان يمكن لهذا الجو أن يستمر لولا وصول حسون!

ولأن الجرح الذي تخلف فِي قلوب الكثيرين، نتيجة بكاء حسون، قبل فترة قصيرة، لا يزال طرياً ولا يقوى أحد على أن يسيء إليه أو أن يزعجه، فقد لاقى اقتراح خضير ملا نوري أن يسرحوا مع النهر، وأن يغني فِي هذه الليلة، عربوناً للأفراح القادمة، لاقي الاقتراح حماساً كبيراً، وبسرعة، وبضجة غير قليلة، غادروا قهوة الشط إلى بستان سليم المدلل. قال خضير ملا نوري لحسون، وكان يسير إلى جانبه، ويمسك يده، عند الساعد، بمودة:

ـ الليلة، ببستان المدلل، راح أخلي نجوم السما، وهي تسمع الأوف والآه، تتمنى لو تنزل على القاع...

وشد على الساعد أكثر وأضاف:

ـ وما ظل مِنْ الجماعة بليا زواج إلا أنت وبدري. وما دام بدري أخذ قراره، وعليه شهود، ما ظل إلا أنت!

-وآني قررت، لكن ما أدري شوكت؟

هكذا ردَّ حسون، وكان بصوته انكسار وحزن. أما وهم يمرون حيث يجلس الأسطة عواد، وقد رآهم متهللين فرحين هكذا، فسأل:

ـ ها... وين؟ خير؟

وإذ لم يجب أحد، وكانت الابتسامات هي الرد، فقد تابع:

- روحتكم كلكم سوا ما هي لله، لازم يكون وراها فد شي!

قال خضير ملا نوري، وكان آخر الخارجين:

- روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة، أن القلوب إذا كلت عميت، هكذا جاء فِي القول الكريم، ونحن يا أبو نجم، ما نسوي إلا بما أمرنا الله!

ردَّ الأسطة عواد، وكان يبتسم:

- الله... وهل هالله بحسون يا جماعة، ديروا بالكم عليه.

استدار حسون نحو الأسطة عواد وابتسم، كانت ابتسامته حزينة!

كانت قد مضت فترة، سبعة شهور وبضعة أيام، على إقامة بدري فِي كركوك حين وصل إلى هناك الآغا سيد عليوي، وصل فجأة ونزل فِي القلعة، مع عدد مِنْ السرايا للمرافقة والحماية.

وإذا كانت مثل هذه الفترة تعتبر عادية، وقصيرة أيضاَ، فِي الظروف الطبيعية، فإن التغيُرات التي جرت فِي بغداد خلالها، ثم الاحتمالات المتوقعة، أو حتى المفاجئة، لحملة الجنوب، والقلق الذي اعترى الشمال، بعد أن تجدد النزاع داخل الأسرة البابانية، وتوقُع أن تتحرك بغداد نتيجة ذلك، كُلّ هذه الأمور أعطت للزمن معنى وسياقاً جعل سيد عليوي ينسى بدري أو يكاد.

فوجيء بوجوده حين استقبل ضباط القلعة، إذ كان يسلم بحياد ممزوج بود مصطنع، إلى أن التقت عيناه بعيني بدري. فجأة تذكر أن الباشا أبعده، غضب عليه لسبب ما. ورغم أنّه سأل عن السبب، فِي البداية، إلا أن تلاحق الأحداث والتغيرات جعلته ينسى ثم يهمل، إلى أن غاب الموضوع عن البال بصورة كاملة.

الآن، يجد نفسه وجهاً لوجه أمام بدري. تراجع برأسه فجأة إلى الوراء، رغم أن يداً كانت ممدودة للمصافحة. لما تأكد أن بدري إياه، مرت صور كثيرة ماضية، ابتسم بتشفٍ وقال بسرعة:

إذا أنت، همين، هنا، منو بقي مِنْ جماعة الباشا ببغداد؟

تظاهر بدري أنّه لم يفهم السؤال. قال، وكأنه يجيب عن سؤال آخر:

-صار لي هنا، سيدي، أزيد مِنْ ستة شهور!

- وشلون، والَمَك الجو؟ تعودت عليه؟

ـ ما يفرق عن جو بغداد، سيدي...

وابتسم قبل أن يُضيف:

. ويجوز هنا أرحم مِنْ جو بغداد، مِنْ صيف بغداد، سيدي!

ردَّ الآغا، وقد تذكر أموراً كثيرة:

ـ إذا الواحد جاي بكيفه، إذا جا مسير فالجو أرحم!

ولأن الضابط الذي يليه أدى التحية، ويفترض بالآغا ألا يطيل الوقوف، مهما كانت المعرفة، أو مهما كان السبب، فقد قال بسرعة:

- راح أشوفك نوبة ثانية.

ردَّ بدري كأي ضابط مهذب شديد الانضباط:

ـ حسب أوامرك، سيدي!

لم يكن الآغا متعجلاً للقاء بدري، فهو غير مطمئن أولاً، ثم أن «شعور السمكة بالأمن يساعد على صيدها!»، وهكذا طوقه رجال الآغا، لكن بكثير

مِنْ المودة والاهتمام، ودون التطرق إلى الباشا أو موقفه منه، كما لم يسألوا عن أسباب نقله، أو ماذا يمكن أن يفعل فِي المستقبل.

حين التقاه الآغا، بعد أسابيع، وقد أضفى على اللقاء طابع العفوية، إذ جرى بعد سباق للخيل بين ضباط القلعة، قال له:

- كنت أظن أن ضباط الباشا لا يحسنون سوى نقل الرسائل والتعليمات، أما أن يفوزوا بسباقات الخيل فهذا شي جديد!

- علمونا فِي المدرسة الرماية وركوب الخيل...

وابتسم قبل أن يواصل، كي يخلق جواً أليفاً:

-أما السباحة فقد تعلمناها وحدنا، وقبل أن نتعلمها شربنا مِنْ الشط كما تشرب الجمال!

-ونقل الرسائل؟

- تعلمنا فِي المدرسة الطاعة وتنفيذ الأوامر، وما يطلبه الرؤساء!

شد الأغا على ساعده، قريباً مِنْ الكتف، تعبيراً عن الود، وأضاف بمرح:

ـ الضابط الجيد هو الذي ينفذ أوامر رؤسائه بأمانة، دون أن يسأل لماذا صدرت تلك الأوامر، أو ما هو المقصود منها.

ـ تماماً سيدي!

وانتهى ذلك اللقاء، لكن أحس الطرفان أن شيئاً وراء الكلمات التي قليت، وبالتالي لا حاجة للاستعجال، أو للاستنتاج والتقرير قبل الأوان، خاصة وأن رجال الآغا أكدوا له أن بدري يعيش حالة أقرب إلى العزلة، إذ حمل معه مجموعة مِنْ الكتب، ويقضي وقتاً طويلاً فِي القراءة، أو الرياضة، ولا يميل إلى لقاء أغوات المدينة، وليس له علاقات أو صداقات يمكن أن تكون مصدراً لمعلومات يمكن أن يرسلها إلى الباشا.

أما عندما وصل الحاج صالح العلو وزوجته لزيارة ابنهما، وقد نزلا فِي أحد خانات المدينة، وعرف الآغا بوصولهما مِنْ رجاله، فقد منح بدري إجازة لكي يكون معهما، وأبلغه أنّه إذا لم تكن إقامتهما مريحة بالمقدار الكافي فيمكن أن يُهيئ لهما مكاناً فِي القلعة، أو فِي المنزل الذي استأجره طلعت باقة، وما زال فارغاً!

ورغم أن بدري اعتذر عن قبول أيّ مِنْ المكانين، أكد للآغا أن الإقامة فِي خان المسافرين مريحة، وأشار، بطريقة خفية، إلى أنّه فِي الزيارة القادمة إذا لم يستأجر بيتاً خاصاً، فسوف يقبل بما يعرضه عليه. وقد استنتج الآغا أن إقامة بدري ستطول، إما بسبب فداحة الذنب، أو لأنه مكلف بمهمة، وهذا

يتطلب أن يكون أكثر حذراَ، أو ربما أقل تحفظاَ، ‹‹ فالرجل إما مِنْ رجال الباشا الأساسيين، أو أنّه تم الاستغناء عنه نهائياً» وفِي محاولة لاختبار أيّ مِنْ الاحتمالين أكثر ترجيحاً، قام بزيارة الحاج صالح العلو، دون أن يُشعِر بدري مسبقاًلا بالفكرة ولا بالموعد.

قالت أم قدوري، بعد الزيارة، وبعد أن سمعت الآغا يخاطبها، ويناديها بالحجية:

- يابا بدري، قلبي قال لي: آمركم هذا حيال، حنقباز.

رمقها الحاج صالح بنظرات حادة، وكان يتطلع إليها مستغرباً إذ لم يصدر عن الآغا ما يؤكد مثل هذا الاستنتاج، وربما كان العكس أكثر احتمالاً، بسبب الود الذي أبداه، وأيضاً نتيجة التبسط فِي الحديث.

قال الحاج صالح بحدة:

- كُلّ ما أقول لروحي تعلمتْ، صارتْ.. اشوفك تعيدين كلام القولة الخنفسانة أم طالب وتزيدين عليه شوية لواص!

ـ شنو لازمته هذا الحجي، أبو قدوري؟

- لأن الرِجال ما قال كلام مو زين، وكُلّ كلمة والثانية: عيني وآغاتي!

ضحكت، وهي تهز رأسها، وتابعت بحدة:

ـ إذا شفت فد واحد يحجي بمونة هالشكل بليا ما يعرف ويا منو يحجي، فلازم البني آدم يخاف!

- شنو قصدك؟

- كُلّ كلمة والثانية يقول لي: حجية، شمدريه حجبت لو لا؟

ـ ظلت على هذي يا بنت الحلال؟

ضحك، وكان ضحكه أقرب إلى القهقهة، وهو ينظر إلى وجه أم قدوري الذي احتقن واحمر. وقال بعد أن هدأ قليلاً:

ـ إذا سمع الناس يصيحوني: حجي؛ واذا شاف فوطتك شراع مركب والسبحة تزيد عن ألف، وكُلّ دقيقة: طق.. طق.. طق، شتريدين يصيحك: مهيوبة؟ غزالة المحلة؟

قال لروحه: المرية مثل رجلها، إذا هو حجي لازم تكون هي حجية، فلا تروحي زايد، وتقولي فلاني وتركاني عن الرِجال!' - زين.. آني ما علي، لكن أقول فد شي: إذا هذا الرجال ما طلع خوش آدمي آني ما افتهم شي!

- شلنا على الرجال غير مروته يا أم قدوري؟ شنريد منه؟ شعلينا بيه؟

ـ مو إنت زلقتني وسألت؟

سألنا وكفرنا؟- وبعد قليل، وقد غرق الثلاثة فِي الصمت، ومرت الصور والمشاهد والكلمات التي جرت وقيلت، قال الحاج صالح، وكأنه يكلم نفسه:

ـ الرجال تعني وجا وزارنا. سولف وتشاقى وما قال فد شي مو زين، وبدل ما نقول: يخلف عليه، ويكثر خيره وقعت براسه طخ!

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت أقرب إلى التأنيب:

ـ الحق علي، كُلّ مرة تطلبين، أقول: أيّ، ما يخالف لكن كُلّ مرة تسوين لنا مكسورة، لأن أم طالب وهذا الأعيور كُلّ ما تهدا يثورها، ولازم يقولون: عظم ضبع وجلد واوي وكبد نعامة وحافر بغل.

وذول ابد ما يرضون وانت وياهم!

قامت بمسكنة، وفِي محاولة لتجاوز الموضوع:

- ليش انحمقت هالكثر؟

وبعد قليل:

- أولها وتاليها ما تسوى. يجوز آني ما أعرف الناس، لكن البني آدم يهدس، يسأل قلبه، وما ينعرف شنو اللي يصير.

قال الحاج صالح، فِي محاولة لأن يتغلب على زوجته نهائياً:

- إنت، بدري، تعرف أحسن منها ومني، شتقول؟

ابتسم بدري، نظر إلى الاثنين، لما وجدهما ينتظران جوابه، قال، وخرج صوته أقرب إلى الحزن:

ـ الآغا مو سهل، يجوز يبان بسيط، محبوب، لكن سره بعيد، ويعرف شلون يوصل، شلون تكنال الكتف!

وترك الآغا فترة أخرى تمر، وخلال هذه الفترة لا بد أن يتأكد ما إذا بقيت لبدري أية علاقة مع الباشا والسراي، خاصة وأن المراقبة والتحريات فِي كركوك جعلته على يقين أن الرجل يعيش منفياً، ويفضل أن يكون بعيداً عن الآخرين.

ومثلما للباشا عيون فِي أغلب الأمكنة، فقد حرص الآغا على أن يزرع عدداً مِنْ رجاله فِي السراي. كانوا حراساً وفِي الإسطبل، إضافة إلى بعض العاملين فِي المطبخ والتموين. ولم ينسى الحرملك أيضاً. وعن طريق هؤلاء كان يصله الكثير مِنْ الأخبار. ورغم التغييرات الكثيرة التي حصلت، فقد استطاع عدد كبير مِنْ هؤلاء أن يبقوا فِي أماكنهم، وبصمت وبهدوء.

كانوا ينقلون فقط ما يرون وما يسمعون، ويتقاضون لقاء ذلك مكافآت سخية، الأمر الذي جعلهم أكثر حرصاً على التكتم والتخفي، حفاظاً على حياتهم، ورغبة فِي استمرار تلك المكافآت!

بعد تأكد الآغا مِنْ انقطاع علاقة بدري بالسراي، أوعز لمرافقه، حامد، أن يتابع الرحلة معه، ليس فقط بإحاطته بجو مِنْ الود والثقة، بل ومحاولة كسبه ليكون مِنْ رجال الشمال، كما أصبحوا يطلقون على هذه المجموعة.

وحامد الذي بدأ المحاولة مبكرا، مستفيداً مِنْ معرفته السابقة ببدري، ومن الصفات المشتركة التي اكتسباها نتيجة مرافقة القادة، إضافة إلى التقارب بالعمر، ارتأى كمدخل لهذه المحاولة، أن يزيل أية انطباعات سلبية حول ما يُحتمل أن تكون قد نقلته روجينا، وبشكل خاص عن نجمة، التي سأل عنها بدري.

حين تطرق حامد ـ وقد تعمد أن يفعل ذلك بشكل عرضي، وبسياق الحديث عن أيام اللهو فِي بغداد ـ إلى روجينا، وما كانت توفره مِنْ متع، وعن البنات الجميلات الصغيرات اللواتي كن رهن إشارتها... حين تطرق حامد لهذا الموضوع دارت الأرض ببدري، استعاد اللحظات البرَاقة الخصبة فِي تلك الحفلة المجنونة، وكيف كانت نجمة نجمة حقيقية ظهرت فجأة فِي عالمه وتأبى أن تغادره. تمثلَت له، مِنْ جديد، بذلك التدفق السخي، وكأنها قطعة مِنْ نور دافيء يجتاح كيانه، كله، نور يدخل إلى الجسد على شكل موجات متتابعة وتظل تدور وتزمجر، وكأنها بداية نشوء الكون، بداية التحامه وخصبه.

تلك اللحظات، رغم قصرها، رغم بعدها، لا تزال كالأنفاس تتردد فِي صدره، يعيشها فِي نومه وفِي أغلب ساعات الصحو، وبمقدار ما تنعشه، وتمده بالعنفوان تشعره بالضعف والحيرة، ولا يعرف أن كان يجب أن يحاول مِنْ جديد أم يعتبر الأمر انقضى، خاصة وأن الشهور الماضية، رغم صعوباتها قد دفعته للنسيان، كما شكل البعد حاجزاً ومسافة، حتى لو أراد أن يحاول مِنْ جديد.

وحامد، بمكر أو بعدم تقدير، لم يتطرق إلى نجمة تحديداً، وكأنها مجرد واحدة، مثل جميع الأخريات. علاقة قد تستمر لفترة، ثم تنتهي، لا بد أن تنتهي، لأن هذا النوع مِنْ النساء خلق لساعة، لليلة، لفترة مِنْ الزمن، حتى إذا جاء فصل جديد، حل محل الفصل المنصرم، وكما تذبل الورود، كما تنتهي الأغنية، تتوارى وتغيب إلى الأبد، أو تنهض ورود جديدة غير تلك التي ذبلت، ترتفع الأصوات بأغانٍ غير تلك التي كانت وملأت الأسماع والقلوب فِي ليالٍ سابقة.

ورغم الجرأة، وقد تصل إلى حدود التهور، التي يُظهرها الرجال فِي الحرب والرياضة، وفِي لحظات التحدي، فإن العكس يحصل فِي العلاقة مع المرأة، وبعض الأحيان فِي الحديث عنها. وهذا ما جعل بدري يصمت كحجر، ولا يجرؤ على مجرد السؤال!

حتى المكر الخفي الذي تلجأ إليه المرأة فِي محاولة معرفة أيّ شي عن الرجل الذي تحب، تقابله بلادة أقرب إلى الغباء لدى الرجل، إذ يعجز عن التصرف، عن التفكير السليم، مِنْ أجل الوصول إلى بداية مِنْ أيّ نوع مع المرأة التي يحب، يلجأ إلى استمرار العذاب، إلى الانشغال بنسج الأحلام الليال طوال، لتنحل هذه الأحلام وتتلاشى مع أول أضواء نهار جديد، ثم ليبدأ مرة أخرى، وينتهي إلى نفس المصير!

كلما حاول حامد أن يلج هذا الباب، أن يفتح أفقاً، كان بدري يسده أو يتعامى عنه. حتى فِي كركوك، وفِي الوقت الذي يبذل صغار الضباط الكثير مِنْ الجهد والمال مِنْ أجل إشباع رغباتهم، كان بدري بعيداً أو غير راغب، وكأن مشغولاً بالكتب التي حملها معه، أو بأخرى يفتش عنها فِي أسواق كركوك، أو لدى بعض المهتمين. فإذا وجد وقتاً إضافياً أغرق نفسه بالرياضة، وأجهد جسده ليحمله على النوم، وحين يجفوه النوم ويمل القراءة، يركب لنفسه جناحين ويسافر إلى أمكنة بعيدة.

وإذا كان بعض كبار الضباط اتخذوا لأنفسهم بيوتاً فِي المدينة، أو ثكنات بعيدة، وكذلك فعل أكثر المتزوجين مِنْ صغار الضباط، فقد كا.

للكبار أماكن ثابتة فِي القلعة، وغالباً ما يقضون فيها أوقاتهم، لكن بعض الأحيان كان كبار الضباط يستقبلون «ضيوفاً»، الأمر الذي..

يقيمون فِي تلك البيوت.

طلعت باقة الذي التحق، كأغلب الضباط الكبار، بكركوك، وبالقلعة واتخذ له بيتاً فِي طرف المدينة، مِنْ الناحية الغربية، كان كثير الغياب كركوك، حتى ظن الكثيرون أنّه نُقل، أو أن وجوده لا يتعدى الزيارات.. فترة وأخرى.

ذات ليلة جاء حامد. منذ اللحظات الأولى بدا فِي وجهه كلام يستطيع كتمانه، قال لبدري بنوع مِنْ الحسد والتحريض:

- ما مخلين لغيرهم إلا البقايا والعظام، هذا إذا تركوا فد شي. وهم واقعين باللحم!

وحين ظهر على بدري الاستغراب والتساؤل، وكأنه لم يفهم ما يعنيه، تابع بحدة:

- طلعت بك له ثار ويا كُلّ مرية، يلزم وحدة ويهد وحدة، وأبد ما يشبع، وما يندري شراح يسوي باجر واللي عقبه إذا الآلة تعطلت أو ما لقى بنت سبعطش!

- لا تدوخني حامد، قل لي بالمختصر المفيد شنو القصة؟

- بالمختصر، مولاي، إن طلعت بك جايب وياه، هذي المرة، فد بنية دوخت الجماعة كلهم: زغيرة، العربان، بيضا، بطول النخلة، وإذا ضحكت تضوي السماء، والملائكة تتكر بس...

توقف فجأة. تطلع إلى بدري باندهاش، وحاصت عيناه فِي كُلّ الاتجاهات، وكأنه يتذكر. لما تأكد، أو رجح احتمالاً على غيره، قال، وخرج صوته مشروخاً:

- لك بدري، عيوني، تعرفها، أيّ نعم، بربي تعرفها!

ـ آني؟ مِنْ هي؟ وين؟

- تتذكر حفلة القلعة، اللي صارت بعد معركة الفرات، ولا بد أنك تتذكر البنية اللي رقصت ودوخت العالم.

- نجمة؟

- يرحم والديك. بلي، نجمة!

ـ شبيها؟

ـ استقعدها طلعت بك، وجابها، جت وياه...

وبعد قليل وبغل:

-وكُلّ يوم والثاني، وكُلّ كم ليلة، حفلة للضالين، ترقص وهم سكارى، ما يعرفون إلا قولة: الله، يا عين، يا ليل!

سأل بدري بغضب:

ـ متأكد.. حامد؟

- بلي.. شنو تتصور اتشاقى وياك؟

بعد فترة مِنْ الصمت والكلمات التائهة، سأل بدري، وكان يبدو حزيناً وشقياً:

- وثامر؟

- منو.. ثامر المجول؟

- أيّ.. ثامر المجول - بطل. تركها ومشي، قضى وياها كم شهر، وبعدها قال لها: فِي أمان الله!

- قول غير شي، يا معود!

لم يجب حامد، هز رأسه، وكأنه يتذكر أشياء كثيرة، وبعد فترة مِنْ الصمت سأله بدري بعصبية وحزن:

- يعني نجمة بهذي الديرة، بكركوك؟

ـ أيّ نعم!

- وطلعت بك مستقعدها؟

- أيّ نعم مولانا!

- مع الأسف!

ـ لا تتأسف، مولانا، هذا درب لا بد يوصل للطاحون.

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

-هذي، مولانا، تربية روجينا، روجينا ربتها على إيديها، وبعد ما صارت: عصفور وفلت مِنْ الإيد، طارت بعيد، وبعد ما خلصت مِنْ الدفتردار اندارت على ثامر، وبعد ما شبعت منه وكرت بحضن طلعت بك، وما يندري باجر بحضن منو!.

ولم يشأ بدري أن يذهب بعيداً فِي السؤال والتقصي، لئلا ينكشف تعلُقه بها، وكيف قضى الأيام والليالي لا يفكر إلا فيها. ترك للصمت أن يمتد بينهما. شعر خلال ذلك بالألم والحقد، وشعر أيضاً أن شيئاً ثقيلاً كان رابضاً على كتفيه سقط. قال فِي نفسه ‹‹كم يبدد الإنسان مِنْ الأوقات فِي الوهم، وكيف يُتعِب نفسه فِي نسج سداة بلا لحمة، وفِي فتح قناة لا تصلها الماء أبداً».

لما رأه حامد سارحاً فِي أمكنة بعيدة، سأله بمداعبة ماكرة:

ـ إذا تشتهيها، لا تخف، يجي دورنا!

- حتى لو اشتهيتها فِي يوم مِنْ الأيام، بعد هالكلام وقعت مِنْ عيني، ما عادت تسوي شي!

ردَّ حامد وهو يتلمظ:

- بعدها، بنت الحرام، تفور مثل التنور، تخبل، تاخذ العقل!

ـ إذا ذول السكارى يتناوبون عليها واحد ورا اللاخ، شنو اللي بقي منها؟

- ذيك الليلة شفتها ترقص، كانت عارية: ربي كما خلقتني، وكانت لازقه فوطة ساعة تحطها وساعة تشيلها، وتعال، بيك أعصاب وتحَمل، قول آني رجال!

- نقدر نشوفها؟

ـ ليش لا...

وبعد قليل:

ـ لا بد نلقى فد حجة، فد سبب، ونجيت.

تطلع إلى عيني بدري، وهو يهز رأسه، وكأنه يضع خطة مِنْ أجل الوصول، وحين بدا له أن ذلك ممكن، غمز بعينه وكان يبتسم، وأضاف:

- خليها علي، يوم والثاني ولازم نصل!

رغم المحاولات، لم يستطع حامد أن يهيئ الفرصة لرؤية نجمة إلا بعد شهور، وبعد وصول البريد، وفيه خبر الإنعام على الآغا بخلعة وعلى بعض الضباط بالترقية. إذ اغتنم طلعت بك هذه المناسبة، ودعا عدداً محدوداً مِنْ الضباط، على رأسهم الآغا إلى بيته.

كانت عادة الآغا أن يصطحب عدداً مِنْ المرافقين والحرس، لأغلب الأماكن التي يزورها، إلا أنّه يختصر هؤلاء إلى الحد الأدنى، وقد يستغني عنهم، حين يزور بعض الأصدقاء، أو يحضر حفلات خاصة. وحامد الذي يفترض أن يكون موجوداً حيث يكون الآغا، عليه أن يبقى فِي القلعة إذا ذهب الآغا إلى بيوت محددة، مِنْ ضمنها بيت طلعت باقة، لأنه وحده الذي يعرف مكان وجود الآغا، ويستلم نيابة عنه الرسائل الطارئة أو الأخبار والاتصالات المهمة، ويبلغ ما يعتبره ضرورياًولا يحتمل التأجيل أو الانتظار.

أما كيف يصطحب بدري، وما هو المبرر الذي يسوغ ذلك، فقد تفتق ذهن حامد عن سبب كافٍ: البريد الخاص بكفري، بما فيه الرواتب، والذي تأخر أكثر مما ينبغي، خاصة وأن بدري عائد إلى بغداد فِي إجازة، وسوف يغادر فِي اليوم التالي.

فِي الحالات العادية قد لا يكون هذا المبرر كافياً، لكن الآغا الذي يريد امتحان بدري، والتفويض الذي أعطي لحامد، ثم السفر فِي الصباح الباكر، وأيضاً حالة الغبطة بالخلعة ليس لأهميتها بالذات، ولكن للتدليل على أن الباشا يمنحه ثقته بالخلعة والترقية معاً، وكيف يمكن أن تُستغل هذه المناسبة لحشد التأييد والدعم للآغا، كُلّ هذه الأسباب جعلت ذهاب الاثنين إلى بيت طلعت باقة مبرراً!

لو لم يكن حامد لتعذَر على أيّ واحد، حتى مِنْ الضباط، أن يدخل.

وقائد مفرزة الحراسة الذي تباطأ، وظهر عليه التردد، حول السماح لبدري، ما لبث أن امتثل حين تلقى ردَّ حامد الحازم.

كانت الجلسة على مصطبة وسط الحديقة الفسيحة، المليئة بالأشجار والنباتات المتسلقة، بطريقة تنير وتحجب بنفس الوقت، ومن الطرف الجنوبي، حيث كان يتصاعد الدخان كانت رائحة الشواء تعبق ومن المكان مخلفة حالة مِنْ الشهوة تثير الشره، خاصة وأن أسياخ اللحم كانت تنتقل مِنْ يد إلى يد، وكان المشرفون على الشواء يعرفون كيف يخلقون جواً مِنْ العدوى والمرح.

وصل حامد وبدري أثناء إحدى الاستراحات. فالفرقة الموسيقية كانت غارقة فِي الأكل، والمدعوون ينتقلون مِنْ مكان إلى آخر، مع الصخب والنكات، بعد أن امتلأوا بالشراب والطرب.

طلعت باقة الذي استقبل حامد، استغرب مجيء بدري. لكن همسات تبادلها الاثنان بددت الاستغراب، وإن ظل التردد قوياً فيما إذا كان هذا الزائر يستحق أن يبقى، أن يشارك أم لا. ولئلا يطول التردد توجه حامد نحو الآغا. أسر له بأشياء، ما لبث أن هتف بعدها الآغا بطريقة مسرحية:

- إذا الاحتفال الكبير راح يفوتك فابق معنا هذه الليلة!

تطلع بدري إلى أكثر مِنْ اتجاه، إلى أكثر مِنْ وجه، وكأنه يستأذن، وأجاب:

- أمرك، سيدي!

وبعد قليل، فِي ظل الصمت المفاجيء، تابع بدري:

- تهانينا، سيدي، بهدية الباشا!

ـ الباشا ما ينسى أحد!

لما أدرك طلعت بك اهتمام الآغا بهذا الضابط الصغير، غمز بعينه، آمراً المشرفين على الطعام والشراب أن يخدمة الضيفين الجديدين.

كانت نجمة تربض، مثل قطة، فِي زاوية الطاولة التي يجلس الآغا على رأسها. لم يكن يفصل بينها وبينه سوى كرسي، ربما كان يشغله، فِي وقت سابق، طلعت بك. كانت ملفعة بعباءة، وفوق العباءة سترة أحد الضباط، فتبدو، مِنْ خلال هذا الشكل، وكأنها وجه، كله عينان، تملأن هذه المساحة الرحبة. كانت تتابع، بصمت، الرجال والأشباح والأضواء التي تتغير كُلّ لحظة. كانت هناك، ولم تكن. كانت تنظر، ترى ولا ترى. كان الآخرون حولها بكثافة، لكنها تبدو وحيدة. الأكل أمامها كثير، لكن لا تأكل، أو تأكل قليلاً، بسرية، بعد إلحاح وطلب الآخرين، وربما لا تأكل، لأن القطط تركت الأماكن وتجمعت

تحت قدميها، قريباً منها، وكانت تلك القطط ترفض دعوة الآخرين وإغراءهم لأنها وجدت مكانها!.

ومثل عادة المرافقين الذين يبدون اهتماماً زائداً مِنْ أجل تأمين راحة الذين يرافقونهم، فإنهم يرضون لأنفسهم، مؤقتاً، بأقل الشروط، ويبالغون بإظهار التضحية. فإذا كان حامد رفض بأدب بالغ الجلوس، وظل ينتقل مِنْ مكان لآخر، فإن بدري الذي كان مستعداً لأن يجلس، فِي أيّ مكان، دون أن يُشعِر أحداً بالمضايقة، اعتبر دعوة الآغا له للجلوس على كرسي وراءه، قريباً منه، شرفاً كبيراً وتقديراً خاصاً.

فجأة وجد نفسه وراء الآغا، وغير بعيد عن نجمة!

كالريح حين تتخلل الأشجار، كالأضواء الخافتة وهي تعبر الفجوات، وكالآهات التي تصعد مِنْ الأعماق ولا تنتظر مِنْ يسمعها، مرت بنظرتها كنسمه صغيرة، كضوء خافت، رأته ولم تره. هل هي امرأة تلك الليلة نفسها؟ امرأة الحضور والعنفوان والحزن؟

فِي فترة الاستراحة، بين وصلة وأخرى، يفيض الناس، يحاولون تعويض الغياب الذي حاصرهم وجمدهم؛ بنفس الوقت يحاول مِنْ كان كُلّ شيء أن يغيب، أن يتراجع، لكي تعاد القسمة بين الموجودين، ويتوزعون بشكل مختلف، لعل القسمة الجديدة تكون أكثر عدالة ورأفة، وتحل مكان القسمة التي كانت قائمة، وربما مفروضة.

بدت له حزينة أكثر مما توقع، وأكثر مما يحب. العينان، بالدرجة الأولى، تقولان حزناً قديماً يضاف إليه حزن جديد كُلّ يوم. النظرات البطيئة، كأنها تتحرك دون رغبة، وقد غادرها توق الاكتشاف أو التعرف.

والشفاه، رغم الابتسامة المرسومة، أقرب إلى الضيق أو الرفض، أما الرقبة الطويلة فإنها تبرز العروق مِنْ خلال فارق اللون بينها وبين البشرة.

قال بدري لنفسه، وهو يختلس إليها نظرات مكتشفة، بعد أن كون لها صوراً لا تنتهي فِي كثير مِنْ لياليه السابقة «إذا انقطعت صلة الفتاة عن الأهل، وحين تنتقل بين الرجال، تفقد الرغبة فِي البيت والأولاد، ولا بد أن تمتليء بالحزن، حتى لو دوت ضحكاتها كالطبول».

لما بدأ المغني التركماني الغناء مِنْ جديد كان صوته يراوح بين الطرب والحنين إلى مكان آخر، إلى أناس آخرين، لأن نجمة التي توقعت نغماً يلائم الرقص، لم تجد فِي الغناء أو العزف الذي يرافقه ما يساعدها على المشاركة. ظلت واقفة فِي مكان غير بعيد عن الطاولة، إذ لم تجد أن الفسحة فِي الوسط تلائمها.

كانت بالغلالة الخفيفة، وقد اختبات قليلاً تحت ظلال الجهنمية، بانتظار أن يصبح النغم والغناء ملائمين للرقص. أشبه بدفقة ماء تهبط مِنْ فوق لكنها لما تصل بعد، أو مثل شلال غادر مستواه الأول ويندفع نحو الأسفل. فالساق الممتدة قليلاً، وقد انسكب عليها الضوء، لامعة تنبض بالحرارة، والصدر الذي تستره حمالات بلون قاتم يضيء بالبياض الناصع، وقد ارتفع واكتنز، واليد تتحرك بين فترة وأخرى وكانها توقع الهواء لتجعله أكثر استعداداً لاستقبال اندفاعة الجسد التي تتهيأ لها، كما تتهيأ الفرس لارتخاء اللجام.

فِي لحظة صمت بين كلمة وأخرى، وكان المغني لا يزال يتيه فِي أمكنة بعيدة، صرخ طلعت باقة:

الله بيم بلا ويرسون... ملا، نريد غنا يرقص!- هزَ الملا كمال رأسه برضا وموافقة كبيرة، ختم أغنيته بسرعة، وما أن امتد صمت قصير لبضع ثوان، حتى اندفع، دون تمهيد، بأغنية شعبية يرقص على لحنها الناس فِي عيد النوروز. أنشد مطلعها، ولحقته الفرقة الموسيقية، أما حين اندفعت نجمة إلى الحلبة فقد اشتعل الجو كله. كان جسدها يضيء، يتفجر، يحرك الحواس كلها، يجعل كُلّ مِنْ ينظر إليها، يعجب كيف يمكن للجسد أن يتكلم هكذا، أن يعبِر بهذا المقدار!

وإذا كان الملا كمال يتقدم ويتأخر، وكأنه يراقصها ويحرضها لتدع جسدها يقول كُلّ شيء، فما اكتنزه ذلك الجسد مع الأيام، وتراكم الخبرة وتوالي المران، جعله يتحرك بطريقة كأنه كتلة واحدة، ومجموعة أجزاء فِي آن، فالفخذ، مِنْ الركبة وحتى الحضر، حين يهتز، يُظنُ أن أمواجاًداخله تخضه، ترجه، ثم فجأة يستعاد بتوقفه المفاجيء، لينضم إلى الصدر والرقبة، كما تنضم الأنغام والأصوات بحيث يصعب تجزئتها أو فرزها مرة أخرى.

واليدان والصدر، والردفان والظهر، والكتفان والرقبة، وكُلّ مساحة مِنْ هذا الموج الأبيض الذي يتفجر بالضوء واللذة ما إن تتوالى الحركات، ما إن تتواصل، وحتى لما تتوقف، يحس الإنسان أن قوة تطبق عليه، تحاصره، فيجد نفسه وقد أصبح كالوتر المشدود؛ مأخوذاً، مسلوباً ليقع أخيراً فِي الأسر!

قبل أن تنتهي الرقصة الأولى، اندفع أكثر مِنْ واحد إلى الحلبة، كان كُلّ منهم يحمل منديلاً، وبطريقة بدائية، غير متقنة، وبحركات فجَة، يحاول أن يُواجه تلك الشعلة مِنْ العنفوان، التي انفصلت عن كُلّ ما حولها وأخذت ترقص لنفسها، تعبوا ولم تتعب. والملا يونس، بصوته الأجش، يعرف كيف يخلق الفرح، كيف يجعله يتوهج، رغم التكرار، خاصة وأن الذين يتابعون ما عادوا يرون سوى الشهوة التي تفيض مِنْ داخلهم، وتحرقهم.

بدري الذي بدا مأخوذاً، وتركزت نظراته على هذا الألق الذي يزداد التماعاً، شعر فِي لحظة معينة أنّه يشتهي هذا الجسد أكثر مما يحبه، أو يحب الإنسان داخله، وحامد الذي ظل يتحرك وينتقل مِنْ مكان إلى آخر، بحجة ملء كأس جديد، أو لتبادل تعليقات وهمسات مع بعض الضيوف، كان يفعل ذلك ليقترب أكثر، ليشهد الجسد عن قرب ومن كُلّ الزوايا. لما حاذي بدري همس:

ـ لا تخاف. نيشن زين، وباجر أو اللي عقبه راح ننتقم.

وبدري الذي سمع ولم يسمع، شعر أن عواطفه تجاه المرأة تختلف فِي هذه الليلة عن تلك الليلة. الآن يراها بركة مِنْ اللذة، مِنْ الشهوة، وهي توزع حركاتها ونظراتها على الرجال حسب الرتب. فِي المرة السابقة بدت خائفة، وتريد أن تنتهي بسرعة.

وسمع حامد يهمس مِنْ جديد:

ما يخالف، راح تجي يا ذاك اليوم، وتنوشها إيدي، وبعدها الله كريم!- ردَّ بدري، وكأنه يكلم نفسه:

ـ إذا وصلنا السرا راح تشد لباسها ويصير الكلام وياها بعرضحال، يا معود!

- مولانا، اللي تشوفهم يرمقون لها بجفيه ما عاد بيهم حيل، الواحد منهم يحط رأسه وينجفي، هذي ينراد لها شباب مثلي ومثلك، وهي وحدها راح تجينا وتقول: صدقة لله.. يامعودين!

- زين.. زين انتظر!

- شكو ورانا، ننتظر، مو اليوم عقبه!

انتهت الوصلة. غمز الآغا حامد طالباً منه أن يقترب. همس بأذنه وكأنه وجه إليه بعض الأوامر. هز حامد رأسه عدة مرات دلالة الفهم والطاعه وما أن انتهى حتى طلب مِنْ بدري أن يستعد لينصرفا. التفت الأغا إلى بدري وقال له بصوت مسموع:

ـ نحتاجك هنا، لا تتأخر.

ـ أمرك سيدي!

-ولا تنسى تسلم على الجماعة!

ـ أمرك.. سيدي!

قضيا الجزء الأكبر مما تبقى مِنْ الليل فِي أحاديث متعددة، لكن الحديث عن نجمة لم يتوقف. ظلت مسيطرة وكثيفة الحضور، وبعد أن أُعدت رسالة إلى قائد قلعة كفري، وسلمت الرواتب، قال له حامد وهو يودعه:

- بعودتك راح يكون الرطب استوى وناكله سوية.

لم يكن يعني التمر وحده، كان يعني نجمة بالدرجة الأولى.

وفِي الطريق إلى كفري، ثم بعد ذلك، وفيما بدري يواصل السفر إلى بغداد، استعاد أموراً كثيرة، واستغرب كيف أن نجمة سيطرت عليه خلال الفترة السابقة، وكان مستعداً مِنْ أجل ذلك أن يفعل أيّ شيء. هل أحبها؟

هل اشتهاها؟ هل كان قادراً على أن يحبها إلى النهاية كما افترض. أم أنها نزوة؟ قال لنفسه، عندما بدت بغداد تتراءى له: «راح تهلهل أم قدوري وتجمع علينا الجوارين إذا قلت لها: يا الله حجية راوينا شطارتك وإستنقي البنية اللي تريدينها زوجة لابنك بدوري» وحين لاحت له نجمة مِنْ جديد قال بصوت عالٍ، وكان معه فِي القافلة اثنان رافقاه مِنْ كركوك، وآخرون التحقوا به مِنْ كفري، ثم فِي محطات الطريق بعد ذلك:

- يا جماعة الخير، بعد الخبز والملح اللي تقاسمناه، وهذي أمانة برقابكم، نحن أولاد ديرة واحدة، واللي يصبر على الواحد يصيب الكل...

أنصت إليه رفاق القافلة باهتمام، خاصة بسبب الجدية الأقرب إلى الحزم التي أعطت كلماته إيقاعاً مختلفاً عن الأحاديث التي جرت بينهم خلال الأيام السابقة.

تابع فِي ظل الصمت الذي خيم فجأة:

- ماكو أحد ببغداد ما يعرف قهوة الشط، وآني كُلّ مسوية هناك، وأريد أشوفكم، نتعشى، نتغدى، نسولف...

توقف لحظة، ثم تابع بنبرة جديدة:

- ويجوز تصير القسمة وأعقد مهر، فأريدكم تكونون موجودين...

ابتسم، وأضاف بكلمات أقرب إلى المرح:

- لو أدري شوكت راح يكون المهر كان عزمتكم مِنْ اليوم، لكن....

هذي ما بإيدي. وعلى كلِ لازم نتشاوف بالقهوة ونتفق.

وافترقت القافلة، توزعت على محلات بغداد، لكن الوعد بالتلاقي وتبادل الزيارات كان حازماً!

نقل الآغا إلى الشمال كان مفاجئاً له وموجعاً، وكان يفترض أن يحد الأثر نفسه على ريتش، ونظراً للعلاقة التي توثقت بين الاثنين، ولأنهما " على مجموعة مِنْ الخطوات لإضعاف الوالي وخلق المصاعب فِي وجهه تمهيداً لإسقاطه أو على الأقل إضعافه. لكن ريتش، بعد صدمة المفاجأة، والتي لم تطل، اعتبر الأمر بسيطاً وربما إيجابياً، إذ أن الموقع الجديد سيمكن الآغا مِنْ

الحركة والاتصال والتحريض، خاصة وأن رجاله سيكونون معه، كما أن تتضاريس المنطقة الشمالية ستوفر له حماية أكيدة، فيما لو فكر باشا بغداد أن يلجأ إلى القوة.

صحيح أن الخطط التي تم الاتفاق عليها بين الاثنين لم تعد صالحة أو ممكنة الآن، لكن المهم أن تُكَوَن قوة خاصة ومستقلة تحت إمرة الآغا، وأن يكون وحده القادر على تحريكها، وما حملة الجنوب التي لم يتوقف، الآغا عن إثارتها والتحريض عليها سوى الحجة لكي يمتلك مثل تلك القوة. لو حقق ذلك، واقترن بالنصر أيضاً، لأصبح أقدر على مواجهة الباشا، هذا عدا عن استنزافه مالياً وعسكرياً، وعندئذٍ يصبح مرغماً على التنحي أو الاستجابة لكل ما تريده بريطانيا العظمى.

أما الآن، وبهذه الحركة المفاجئة، تتغير الصورة، مما يستدعي التفكير وإعادة ترتيب الأوراق، ولأكثر مِنْ طرف، لذلك لا داعي للاستعجال.

الوضع الجديد، رغم غموضه، ربما يصبح أكثر ملاءمة، «لأن بغداد، كما قال ريتش لنفسه، مثل السلحفاة: بطيئة الحركة، بطيئة الاستجابة، لكن إذا تحركت لا تقف››.

وأخذ ريتش يتذكر الأحداث التي مرت به منذ أن وصل إلى هذه المدينة العجيبة. إنها مدينة لا تقرأ بسهولة، ولا يحزر عليها. تظل هادئة ساكنة فترة طويلة، حتى يُظن أنها فقدت كُلّ حافز، ولم يعد يعنيها شيء، لكن حين تدوي الطلقات على أسوارها، وتزحف نحوها الجموع، تتذكر أن لها دوراً، وقادرة على فعل شيء يفاجئها نفسها ويفاجيء القادمين إليها، وكأن جنوناً أصابها.

تذكر ريتش الباشاوات الذين حكموا هذه المدينة، معظمهم، إن لم يكن كلهم، انتزعوها بالقوة. جاؤوا إليها مِنْ خارجها، واقتحموا أسوارها.

صحيح أن الناس يتظاهرون أنهم لا يسمعون، وحياتهم تسير كالمعتاد، لكن حين تدوي طبول الخارج، ثم تتسلل، فإن جميع الطبول الداخلية تتدحرج مِنْ أماكنها، ترافقها البيارق والرايات، وغالباً ما تخرج مِنْ مقامات الأولياء أو ما يجاورها مِنْ الأماكن، لتملأ المدينة، ولا بد عندئذ أن يحصل شيء، بغض النظر عن النتائج.

الآن، وبعد أن تم نقل الآغا، لا بد أن تطوى الأوراق القديمة، وتفتح أوراق غيرها، وهكذا قرر ريتش أن يبدأ زيارة إلى الشمال طالما أجلها، ويحسن أن يتجنب كركوك، لكي لا تظن به الظنون.

خلال رحلة الشمال، اكنشف ريتش، أكثر مِنْ قبل، خطورة داود.

فالعلاقات التي أقامها متينة واسعة، والذين يكنون له الولاء، إلى درجة الحماس، كثيرون، وينتشرون فِي أماكن عديدة. هذا عدا عن الزيارات

والوفود التي لا تنقطع إلى بغداد، أو منها إلى مدن وقبائل الشمال.

ورغم أن طبيعة ريتش اعتماد سياسة الهجوم عندما يحس بالخطر «لأن هؤلاء الشرقيين يفهمون لغة القوة أكثر مِنْ أية لغة أخرى، ولا بأس مِنْ المال، بين فترة وثانية، شرط ألا يكون هذا المال منتظماً مِنْ حيث المقادير او المواعيد»، فإن هذه الرحلة علمته شيئاً إضافياً:‹‹ كي تكون قريباً مِنْ الاخرين اقترب مِنْ مشاكلهم وتعاطف مع همومهم قدر ما تستطيع: أخلق لهم أعمالاً واهتمامات فِي محيطهم، لكن اجعل هذه الأشياء لا تكتمل ولا تستمر إلا مِنْ خلالك، مما يتطلب أن يلجأوا إليك دائماً، دون إشعارهم بالمذلة» وهذا ما دفع ريتش لأن يولي الآثار، المهمة التي أجلها لبعض الوقت، معظم عنايته، مِنْ حيث الاهتمام وفرص العمل.

إذ حين وجد أن الفرنسيين سبقوه إلى الشمال، وأنهم استعانوا ببعض رجال الدين المسيحيين لمساعدتهم فِي البحث والتنقيب عن الآثار، شعر أنّه خُدع، وأنه تأخر كثيراً. صحيح أن آثاريين انكليز جاؤوا، خلال فترات متعاقبة إلى بغداد، وأبدوا رغبة فِي البحث، بل وطلبوا مساعدة الباليوز، سواء أثناء وجوده أو قبل ذلك، إلا أن أكثر هؤلاء غرقوا فِي الوسط والجنوب. كما يتذكر أن عدة رسائل وصلته مِنْ السفارة فِي اسطنبول، ومن لندن أيضاً، تطلب إليه الاهتمام بهذا الجانب، ولكن وجد أن ما يمكن عمله هو تكليف عدد مِنْ التجار اليهود أن يطلعوه على اللقى التي يمتلكونها، أو التي تصل إلى أيديهم، قبل أن يتصرفوا بها. ولقد اشترى بالفعل عدداً غير قليل مما عُرِضَ عليه، وطالب بالمزيد!

الآن، فِي هذه الرحلة، يكتشف أن الإنكليز خُدعوا كثيراً، فقد غرقوا فِي المكان غير المناسب، إذا ظلوا يبحثون فِي الجنوب، وكأن رهاناً مِنْ نوعٍ لا يقاوم جعلهم يصرون على ذلك!

قال لنفسه بنوع مِنْ السخرية: «صحيح أن الرب كان يقود خطوات الطرفين، لكن يبدو أنّه، لسبب ما، حين كان يقود خطواتنا، أوصلنا إلى المكان الخطأ، بينما رب أولئك الكاثوليك قادهم إلى حيث يجب أن يكونوا، ولقد سبقونا إلى هناك، وعلينا الآن أن نسرع قبل فوات الأوان!».

وحين كان يستعيد رحلات الإنكليز الباحثين عن الآثار، ويقارنها بما فعل الفرنسيون، يشعر بالغيظ، فالإنكليز جاءوا يحملون ‹‹معهم العهد القديم›› وكانوا يبحثون اعتماداً على ذلك «الكتاب». كانوا يحسبون المسافات، ويسألون السكان المحليين بإلحاح عن أسماء الأماكن، ويقضون الليالي الطويلة فِي مقارنة مخارج الكلمات والحروف، علهم يصلون إلى جنة عدن، باعتبارها مهد الحضارة، ولا بد أن يكون مكانها عند التقاء النهرين، أو فِي مكان غير بعيد، كما يشير العهد القديم.

أما الفرنسيون الخبثاء، مثلما يقول ريتش لنفسه بغيظ، فقد اعتمدوا على دين معاصر، وعلى رجال دين أحياء، وهؤلاء قد درسوا العهد القديم، لكن لم يشغلهم عن سماع ما يقوله رجالهم الذين جاؤوا مِنْ أجل اكتشاف كُلّ شيء، وقراءته بعيون الأحياء لا بعيون الموتى.

ونكاية بالذين سبقوه، خاصة مِنْ ‹‹علماء›› الآثار، فقد أولى ريتش عناية فائقة للمواقع التي مر بها. لم يكن يكتفي بتسجيل أسماء تلك المواقع اعتمادا على ما يقوله السكان المحليون، كان يحاول أن يفعل أشياء أخرى أيضاً. فما أن يصل إلى موقع قديم، أو إلى مكان يعتقد، مِنْ تضاريسه، أن له علاقة بالآثار، حتى يأمر بالاستراحة والتوقف. وعلى ضوء المعلومات التي يحصل عليها، أو التقدير الذي يتوصل إليه، تطول الاستراحة ويستمر التوقف. وخلال ذلك لا بد أن يقيس المساحة والارتفاعات، ويجوس المنطقة بعناية، ويجمع مِنْ أفواه السكان القصص والحكايات عن ذلك المكان. ثم يجمع ما يستطيع الحصول عليه، ويكتب فِي مذكراته: «مررنا يوم بمكان كذا وحصلت على المعلومات التالية». ويدون أدق التفاصيل حول لون التربة، ودرجة الحرارة، والانحدار، وما إذا كان يرتبط بسهول أو جبال، ومصادر المياه، إلى غير ذلك مِنْ المعلومات، والتي لا بد أن يرفعها، ذات يوم، فِي وجه هؤلاء الذين يأتون مِنْ أقصى الأمكنة، لا لكي يروا بأعينهم، وإنما بعيون الآخرين، وخصوصاً بعيون أنبياء العهد القديم!

وكي لا يترك الأمر لمستقبل مجهول، أو للصدف. ولأن الفرنسيين يعملون. يجب أن لا ينتظر، عليه أن يعمل، أن يبدأ فوراً. وهكذا امتدت الرحلة وطالت. ومن أجل تبرير امتداد الرحلة وطولها، كان يقول لنفسه: «مِنْ الخطأ اعتبار أن المركز، والمركز وحده، هو الذي يقرر النتائج، إذ يمكن للأطراف، إذا أحسن تحضيرها وتدريبها، أن تُطبق على المركز كما يُطبق الوحش على فريسته، ويكون الظفر مؤكداً إذا أحست الفريسة أنها بعيدة أو أنها بمأمن».

كان يقول ذلك ويتذكر الإجراءات التي اتخذها داود لإعادة ترتيب السراي والحراسات، وأيضاً بعد تغيير القطعات المحيطة ببغداد، وتغيير إجراءات الحماية.

ليس ذلك فقط، كان يقول لنفسه بنوعٍ مِنْ الثقة الفياضة: «يكون الصياد غبياً إذا ترك وعلاً يعبر حقله، ويكون على مرمى مِنْ بندقيته، بحجة أنّه ذاهب لصيد الخنازير!».

كان يردد مثل هذا الكلام لأنه فِي هذه الرحلة يستطيع أن يحقق أموراً عديدة فِي وقت واحد. سوف يلبي الدعوات التي وجهت إليه. وسوف يُشعر الأصدقاء أنّه قريب منهم ولم ينسهمِ. أما الطريق الذي يراد إنشاؤه بين

بريطانيا والهند، فلا بد أن يكون مختلفاَ عن الطريق الذي خطته الدواب، لذا فالاقتراحات التي سيقدمها إلى لندن هي ثمرة اطلاع مباشر، ومعرفة إنسان قطع المسافة على قدميه! وأخيراً: الكنوز التي تراها العين، قبل أن ينهبها الفرنسيون، وربما بموافقة مِنْ داود، أو على الأقل وهو بغض النظر عما يفعلون، فقط كي يغيظ بريطانيا العظمى ويتحداها!

ولئلا يضيع أو ينتظر، ولأن الفرنسيين سبقوه إلى رجال الدين المسيحيين فِي الشمال، فلا بد أن يعتمد على آخرين، وأن يكون هناك دافع داخلي ومغرٍ كي يتحمس هؤلاء مِنْ أجل مساعدته.

هكذا توصل إلى معادلة شديدة البساطة، وشديدة الإقناع: سوف يركز جهده فِي البحث حيث يبحث خصومه، الفرنسيون، لأنهم حين اختاروا تلك الأماكن لم يختاروها عبثاً، فهي ثمرة جهد طويل ومعرفة، وبدل أن ينتظر وصول العلماء الإنكليز، وإجراء المسح والأبحاث، عليه أن يقطف الثمرة الجاهزة، وهي ليست بعيدة عن عينيه! قد يضطر، للتمويه فقط: أن يبحث فِي الجانب الشرقي فِي الموقع، حين يبحث الفرنسيون فِي الجانب الغربي، لكن سيسبقهم فِي الوصول إلى قمة الموقع، مِنْ أجل تثبيت علم الامبراطورية، وعند ذاك لا بد أن يظهر الفرنسيون كمعتدين إذا أرادوا إنزال العلم ومنافسته على القمة. فهزيمة نابليون لا تزال قريبة وتدوي فِي الآذان، والمهزوم هناك لا يستطيع أن ينتصر هنا، أو أن يحتفظ بالنصر لفترة طويلة فيما لو حققه فعلاً.

أما كيف سيحقق هذه الخطة، فإنها، لبساطتها، لا تتطلب سوى أن تُعلن.

تلك الليلة، أواخر الربيع، شعر ريتش أنّه ملك حقيقي. شعر بغبطة عارمة حين توصل إلى تلك الخطة. صحيح أنّه لا يطمح، ولم يفكر مجرد تفكير، أن يكون ملكاً للامبراطورية، لكن الملك الحقيقي، كما افترض، هو الذي يستطيع أن يحقق هدف الامبراطورية؛ وهو الجدير بتمثيلها مِنْ حيث الروح والجوهر، هو الذي يترك مأثرة فِي ضمير الأجيال: هكذا يجب أن يفعل الإنكليزي المخلص.

وإذا كانت الحكمة والشجاعة معاً، فِي لحظة الحريق، تقضيان أن يُنقِذ الإنسان ما يمكن إنقاذه، وليس ما يحب إنقاذه، وعليه ألا يتأخر فِي ذلك، فإن تكوين فريق للبحث عن الآثار، بالحد الممكن والمعقول، ودفعه بسرعة إلى العمل، يشبه فريق الإنقاذ مِنْ الحرائق.

وكلمة السر لتكوين هذا الفريق، وسرعة تدخله: الكنوز!

حين توصل ريتش لهذه الفكرة، وإمكانية تحقيقها، شعر أنّه يمثل بريطانيا العظمى، وأنه ضميرها، وأنه مستقبلها. وهذا معناه، بشكل ما، فِي وقت

ومكان محددين، أنّه الملك الفعلي!

ولم يتأخر، ولم يتردد فِي أن يبدأ.

ماري الحالمة، ذات النسب العريق، وكان ريتش يحرص على أن يوفر لها أقصى شروط الراحة، مِنْ حيث اختيار الطريق الأقل وعورة كي تسلكه، وإطالة فترة استراحتها فِي كُلّ محطة، راق لها، فِي بداية الرحلة، أن تجمع أنواعاً كثيرة مِنْ الزهور البرية، وتشكل منها باقات، لكن لشد ما كانت تحزن حين ترى تلك الزهور تذبل بسرعة، وفِي أحيان كثيرة قبل أن يصل ريتش مع قافلة الرجال، فتضطر لأن تنتخب عدداً مِنْ تلك الأزهار لتضعها فِي الكتب الكثيرة التي حملتها زاداً لرحلة الشمال الطويلة والمضنية.

أما بعد أن أهداها ريتش عقداً قدمه إليه شيخ قبيلة تركمانية شمال شرق كركوك، ورغم انثلام بعض حباته، وعثر عليه فِي أسفل أحد التلال، فقد بدا فاتناً وأجمل مِنْ العقود التي تصنع فِي أوروبا، بأحجاره الثمينة وألوانها البراقة. أصبحت ماري بعد هذه الهدية أكثر أفراد المجموعة رغبة فِي البحث عن الآثار، وكانت مستعدة أن تفعل ذلك بنفسها! بل واقترحت أن يُصرف النظر عن هذا التقسيم الجائر للمشاركين فِي الرحلة، بحيث تتوحد القافلة، ولا تبقى قافلتان أثناء المسير، واحدة للرجال والأخرى للنساء مع عدد مِنْ الحرس والمرافقين. وحين وجدت ريتش غير متحمس للأمر، بحكم التقاليد السائدة فِي هذه البلاد، وأيضاً لتجنيب النساء المشقة، اقترحت أن تتاح الفرصة للنسوة كي يشاركن فِي التنقيب فِي بعض الأماكن، حيث يطول توقف القافلة. ولقد حقق لها ريتش هذه الرغبة. وكم كانت فرحة مدهوشة حين عثرت على قطع مِنْ الفخار المزخرف، وقطع مِنْ الزجاج الملون.!

لقد تغيرت ماري إلى أقصى حد، وخلال فترة قصيرة. إذ بعد الأمراض الغامضة التي كانت تستبد بها فِي بغداد، وتجعلها قلقة، منهكة، وبعض الأحيان شديدة التطير والكآبة، ولا تكف عن مطالبة ريتش أن يلتمس مِنْ رؤسائه كي يختصروا فترة إقامته ‹‹فِي هذا المكان النائي، والذي لا بد أن يؤدي إلى الموت، أو على الأقل يسبب أمراضاً لا شفاء منها››، كان ريتش يحتال على الأمر بإغراقها بالهدايا والوعود معاً، ويضطر، بعض الأحيان، حين يبدو له وضعها وقد اقترب مِنْ درجة الخطر، أن يسافر إلى أوروبا، خاصة إنكلترا، لقضاء إجازات طويلة، ويحاول، خلال تلك الإجازات، أن يبدو إنساناً آخر: أكثر بساطة ومرحاً، علها تعوض ما فاتها فِي تلك ‹‹المدينة البعيدة» كما تُسمي بغداد بإصرار لا ينفك يتزايد سنة بعد أخرى، ولا تتردد أن تقول ذلك أمام عدد مِنْ الأصدقاء وبعض الزوار، تعبيراً عما تكنه مِنْ كراهية لهذه المدينة.

الآن، فِي هذه الرحلة، بدت ماري امرأة مختلفة، ولقد ظهر ذلك بتصرفاتها، وأيضاً على شكلها. لم تعد تغرق فِي تلك الروايات الخيالية، والتي مِنْ شأنها أن توفر لها جواً مختلفاً عن ذاك الذي تعيشه. كما طوت دواوين الشعر التي تعودت قراءتها قبل النوم. أما الزهور البرية التي أخذت تتفنن بانتقائها، وطريقة ترتيبها، وكانت تشكلها بشعرها، أو تصنع منها طواقاً تضعها فِي رقبتها، فقد تراجع اهتمامها بها مقارنة بالآثار، بعد أن اكتشفت ثم فتنت بهذا العالم الواسع والغني.

حتى التعب الذي ظلت تشكو منه طوال الفترات السابقة، وقد حاربه طبيب الباليوز إلى الدرجة القصوى، رغم أنها تقضي وقتاً طويلاً فِي سريرها، ولا تقوم بأي عمل مجهد، وأعطاها مِنْ المقويات الكثير، لعلها تسترد نشاطها وحيويتها. هذا التعب زال تماماً فِي هذه الرحلة، بل حل مكانه نشاط فياض وحيوية دافقة، وقد تمثل ذلك بالنهوض مُبكراً، وبشهية فائقة للأكل، عدا عن المرح والضحكات التي كانت تدوي لأبسط الأمور، ولأقل الكلمات إثارة.

قال الطبيب: «إنّه هواء الشمال، إذ غالباً ما يكون الطقس هو الداء وتغييره هو الدواء». وقال الطباخ الرئيسي: «السفر يفتح الشهية، ثم إن خضار الشمال وفاكهته تعتمدان على المطر والندى، وليس كخضار بغداد وفاكهتها التي تُسقى بذلك الماء الثقيل، ماء دجلة». أما ريتش ذاته، الذي فوجىء بمقدار التغير، وقد سماه انقلاباً، فاعتبره نتيجة الوعد بضرورة أن يفكرا جدياً أن وقت الإنجاب قد حان، ولا بد أن يكون لهما طفل! ومما جعل ريتش يرجح هذا الاحتمال، شرط ماري أن يولد الطفل فِي انكلترا، ‹‹كي يكون طبيعياً بين زملائه، ولا يحمل عقل الشرق».

أما السبب الحقيقي لهذا التغير، والشبيه بالانقلاب، فهو أن ماري وجدت الهواية التي تلائمها، التي تحبها: الآثار، والتي اكتشفتها فجأة، دون تخطيط سابق، ودون تصميم، وكأنها خُلقت لهواية مِنْ هذا النوع!

ومثل أشياء عديدة فِي هذه الحياة، حين يكتشف الإنسان أنّه أخطأ موقعه أو دوره خلال فترة معينة، وقد اهتدى أخيراً للدور الذي يلائمه والموقع المناسب، فإنه يحاول تعويض ما فاته، إذ يقبل على العمل بحمية كبيرة، وبجموح يلفت نظر الآخرين، وقد يستغربونه.

فما تكاد ماري تعثر على مجموعة مِنْ كسر الفخار أو قطع الزجاج الملون، حتى تصيبها حمى مِنْ أجل جمع كمية أكبر منها. وما إن تجد حجراً تعتبره جميلاً أو مميزاً، مهما كان حجمه، حتى تبدأ التوسل لريتش كي يأمر بنقله مع القافلة. أكثر مِنْ ذلك، كانت تحمل عينات مِنْ التربة والرمال فِي

أكياس صغيرة أو بصرر، وفِي قناعتها أن تلك العينات إذا أرسلت إلى بريطانيا، وتم تحليلها هناك، لا بد أن تؤدي إلى نتائج خارقة!

ريتش الذي اصابته العدوي، واعتبر هذه طريقة لعلاج ماري، ما لبث أن ضاق بمبالغاتها، وكثرة مطالبها، وبعض الأحيان استحالة تلبية تلك المطالب. لجأ إلى أساليب شتى، كي يلتف على الأمر، إذ بالإضافة إلى أحاديثه الطويلة معها حول ضرورة اختيار الأشياء المهمة، النادرة، والاقتصار، فِي هذه المرحلة، على معرفة المواقع وتسجيلها، على أن تأتي فِي فترة لاحقة عمليات البحث والتأكد، فقد وافق على حمل بعض العينات، وتظاهر بنسيان عينات أخرى! كما طلب أن يُودع بعضها لدى أصدقاء، على أن تُحمل فِي طريق العودة، أو فِي وقت آخر.

هذه الأمور التي أثارت اهتمام ريتش فِي رحلة الشمال، وغيرت ماري تغييراً كبيراً، ما لبثت أن انعكست على جميع أفراد الرحلة، ثم أخذت تنقل العدوى لكل مِنْ تصبح له علاقة بالقافلة. حتى شيوخ القبائل المحليين، الذين تعودوا مشاهدة هذه التلال منذ أن رأت عيونهم النور، أصبحوا، بحكم الحمى التي دبت فجأة، ثم الكلمة السحرية التي أطلقها ريتش، ‹‹الكنوز»، شديدي الحرص على أن يتعاملوا مع الأمر بطريقة مختلفة:

استخرجوا، مِنْ أماكن بعيدة، الأساور والأطواق، وأنواعاً أخرى كثيرة مِنْ الحلي والمباخر والحجارة المصقولة، كما حاولوا أن يتذكروا أين وجدوا لك الأشياء، أو أين أصبحت بعد أن تم العثور عليها. وتساءلوا ما إذا انت هذه القطع مهمة بذاتها أو أنها تدل على وجود الذهب، كما تدل بعض النبتات الصغيرة التي ترفع رؤوسها أيام الربيع على وجود الكمأة أو الدرنات الأخرى تحت التربة.

حتى الفلاحون الذين تصبح عيونهم، خلال هذه الفترة مِنْ السنة، مثل عيون القطط الخائفة، إذ تتراوح بين الأرض التي زرعوها، ونما فيها الزرع، لكنه بحاجة إلى مزيد مِنْ الأمطار، وبين السماء التي لا تفارقها أنظارهم وهي تناشدها مِنْ ناحية، وتستطلع الغيوم التي تعبرها، فِي أحيان كثيرة، مسرعة. حتى هؤلاء الفلاحون، ودون إيعاز مِنْ الشيوخ، اندفعوا الملاقاة القافلة مع المساحي والفؤوس، بعد أن وصلتهم الأخبار: «القنصل يدفع أجوراً سخية لقاء حفر بعض التلال، أما إذا وجدت الكنوز فسوف يدفع أجراً مضاعفاً»..

كان ميناس يجد صعوبة فِي تحديد عدد العمال اللازم لكلٍ مِنْ التلال. وكان يختار، بناء لتوجيهات ريتش،ولتوصية الشيوخ،العدد الذي يعتبره كافياً، لكن هذا العدد لا يلبث أن يزداد، ويوافق ريتش على هذه الزيادة، لأن مِنْ سيُرفضون لا بد أن يعملوا وحدهم، لحسابهم الخاص، فِي جانب آخر مِنْ

التل، إذا لم يكن اليوم فغداً، وريتش لا يريد أن يبقى شيء خارج سيطرته، خاصة وأن الفرنسيين، بعد عدة تجارب، ظنوا وأشاعوا بين الذين عملوا معهم، وأوصلوا ذلك عن طريق رجال الدين: «الإنكليز عابرون، قد يبقون هنا يوماً أو اثنين، وبعد ذلك سيواصلون الرحلة إلى مكان آخر، أما نحن فباقون، ولذلك لا حاجة للقلق أو الخوف!».

ومع كُلّ يوم يمر، وفِي كُلّ محطة جديدة، ترتفع حمى الاهتمام، سواء فِي القافلة أو فِي الأماكن التي تعبرها. بل وأصبح السكان المحليون ينتظرون وصول ريتش بعد أن سبقته الأخبار كي يعرضوا عليه ما لديهم مِنْ لُقي وأشياء منسية. كانوا يحملون أواني فخار قديمة وقطعاً حديدية صدئة، وبانتظار وصوله يقلبون تلك الأشياء باستغراب وتساؤل: ما فائدتها؟ لماذا يجمعها؟ ماذا سيفعل بها؟ ومع الأسئلة التعليقات الساخرة والمراهنات!

وماري التي فتنت، أول الأمر، بالخرز والحلي، ما لبثت أن وجدت فِي الأشياء الأخرى جمالاً لا تعرف كيف فاتها، أو لم تلتفت إليه مِنْ قبل، الأمر الذي دعاها لأن تهتم بكل شيء بدا لها قديماً! حتى الصخور، على جانبي الطريق، أو فِي أعالي الهضاب، كانت تتراءى لها آثاراً، وكثيراً ما طلبت أن تتوقف القافلة لتتأكد ما إذا كانت الأشكال التي تراها فِي الصخور، مِنْ صنع الإنسان أم مِنْ فعل الطبيعة. كانت تتلمس بيدها، وبعض الأحيان تغمض عينيها وتترك أصابعها وحدها تجوس الصخر وتتقراه، علها تكتشف شيئاً لم يسبقها إليه أحد. أكثر مِنْ ذلك كانت تصف لريتش، وتظل تؤكد بكلمات قاطعة، أن أغلب ما رأته فِي رحلة اليوم لا يمكن أن يكون نتيجة فعل الطبيعة وحدها، إذ لا بد أن يكون الإنسان قد تدخل بشكل ما، بنسبة ما، مضيفة أن الإنسان الذي سكن هذه المنطقة فنان بطبعه ومزاجه، وجاءت الطبيعة كي تساعده على إبراز هذا الفن.

ريتش الذي تعود أن يستمع بصبر، خاصة مِنْ ماري، ورغم تعب النهار المضني، يحاول التوضيح بأساليب شتى أن الرياح، وعوامل التعرية الأخرى، يمكن أن تبدع فِي الطبيعة أشكالاً وأشياء قد يعجز الإنسان عن القيام بها، وأن هذا الأمر لا علاقة له بالآثار، خاصة التي يبحث عنها.

لذلك يجب عدم التوقف عند ظواهر الطبيعة، وعدم إفساح المجال أمام الخيال لئلا يذهب إلى أمكنة بعيدة، أو افتراض أشياء وهمية، ولكن ماري، مثل قطة مخنوقة، تصرخ:

ـ لا يمكن أن أصدق؛ إنّه شيء خارق!

وحين يوافقها ريتش ان ما رأته شيئاً جميلاً، وقد يفوق ما تصنعه يد الإنسان، إلا أن الطبيعة وحدها، دون تدخل مِنْ أحد، هي التي صنعته، ترد بحزن:

- يجب أن نتأكد، أن نتحرى بدقة، فالإنسان القديم، مِنْ حيث القوة والضخامة، يختلف عن الإنسان المعاصر!

ولأن ريتش لا يريد أن يدخل فِي رهان خاسر، كما لا يقوى على احتمال مثل هذه الأفكار، ويهمه أن يستريح مِنْ تعب ذلك النهار، يوافقها على ضرورة التأكد والتحري بدقة، ويعدها أن يتلمس بأصابعه، كما تفعل هي، فِي الأيام التالية.

وتستمر القافلة فِي رحلتها نحو الشمال، مع ميل متزايد نحو الشمال الغربي. ويسجل ريتش فِي مذكراته المعلومات التي يرى ضرورة تسجيلها، وفِي جوانب متعددة، مِنْ حيث المحاصيل ومصادر المياه ونوعية السكان، والمسافات بين الأماكن. وحين يتذاكر مع ماري حول رحلة ذلك اليوم، يجد أن مزاجها متعلق بشيء واحد: الآثار. فإذا صدف أن انقضى أحد الأيام دون مفاجأة أثرية جديدة، دون لقى جديدة، يُعثر عليها، أو يقدمها السكان المحليون، فإن حالة مِنْ السوداوية تسيطر عليها، مع إلحاح متزايد أن يبحث مع السكان المحليين عن الأماكن الأثرية وضرورة الوصول إليها ولا يهمها أيّ شيء آخر!

ولأن ريتش لم يكن يحلم أن تصل ماري إلى هذه الحالة المعافاة، وأن تجد عملاً أو هواية فِي هذه البلاد البعيدة، فقد كان مستعداً لتقديم تنازلات كثيرة مِنْ أجل أن تستمر بحماسها وحيويتها، وأن تكون ماري معه لا ضده، فقد كان يشعر أن وحدته تزداد، وألمه يتضاعف حين يجدها غارقة فِي كتبها، بعيدة عنه، وبعض الأحيان كارهة ورافضة للبقاء، رغم كُلّ ما يبذله مِنْ أجل أن يجعل الحياة معقولة، إذا لم يستطع أن يجعلها جميلة فِي هذا المكان النائي!

ومن أجل أن يسود السلم، أن تقتنع ماري بما يفعله، وجدوى هذا العمل، كان يجاملها كثيراً. ورغم أن رحلته كانت متنوعة الأسباب والأغراض، فقد اضطر أن يقنع نفسه، أكثر مما ينبغي، أن الآثار، خاصة فِي هذه المرحلة، وبمواجهة الفرنسيين تحديداً، تستحق أن يخصص لها جل اهتمامه، وأن يجعلها الغاية الأساسية، مما اضطره أن يغير، أكثر مِنْ مرة، اتجاه السير. أو إطالة الإقامة فِي مكان معين، أو مغادرته بسرعة.

حتى ميناس الذي كان شديد الصرامة فِي انتقاء المكارية، وقد حرص على اصطحاب أكثرهم مِنْ بغداد، نتيجة المعرفة والخبرة، فقد أصبح مضطراً، بسبب الأحمال الجديدة، إلى قبول مكارية جدد ودواب مِنْ أنواع لم يفكر أن تكون ضمن قافلته! مع ما يتطلبه ذلك مِنْ أعباء المؤونة، وسرعة الحركة والانضباط، إضافة إلى تحمل اختلاف الأمزجة والعلاقات، وما تؤدي إليه مِنْ خلافات ومكائد، مما جعله، فِي إحدى المحطات، يضطر إلى جلد

ثلاثة مِنْ الأكراد وأحد البدو، مِنْ رفاق القافلة، نتيجة مخالفات وتحديات لم يستطع احتمالها أو السكوت عليها.

ولئلا تصبح حركة القافلة ثقيلة، بما يضاف إليها فِي كُلّ محطة مِنْ أحمال، ومن أجل محاصرة الفرنسيين فِي أهم المواقع التي يعملون فيها، قرر ريتش أن يكتفي بتسجيل أسماء المواقع، وطلب مِنْ الشيوخ تأمين حراستها، وإبلاغه ما أن يقترب الفرنسيون منها، كما اتفق مع ميناس على ضرورة إعادة جزء مِنْ القافلة بأقرب وقت إلى بغداد، والإسراع إلى نينوى، حيث يوجد أكبر نشاط أثري للفرنسيين هناك.

ماري التي ازداد تعلقها بالمواقع واللقى التي عثروا عليها، وما كانت لتوافق على مغادرة أيّ منها إلا بصعوبة، وكثيراً ما نظرت إلى الخلف، وبحزن، وهي تفارقها، أصبحت تقضي وقتاً طويلاً فِي محطات السفر، وهي تعيد ترتيب اللقى. كانت ترتبها حسب الألوان والأحجام، وبعض الأحيان حسب ما تعتبره أكثر جمالاً أو انسجاماً، الأمر الذي ولد كماً غير قليل مِنْ سوء التفاهم بينها وبين ريتش، الذي كان له رأي آخر حول الترتيب المناسب، إذ يجب أن تبقى مواد كُلّ موقع مستقلة عن مواد المواقع الأخرى، وأن تبقى كُلّ مادة مستقلة عن غيرها مِنْ المواد، على أن يجري التصنيف فِي وقت آخر، ومن قبل أشخاص ذوي دراية.

كانت ماري توافق على رأيه، مِنْ حيث المبدأ، كما تقول، لكن لا تستطيع أن تمنع نفسها مِنْ استخراج بعض اللقى مِنْ أماكنها، وإجراء مقارنة بين مجموعة وأخرى، مما يؤدي إلى اختلاطها مِنْ جديد، أو عدم التأكد

ما إذا كانت تنتمي لهذه المجموعة أو لتلك!

أما حين تقرر استئجار بعض الأكلاك، واعتماد الطريق النهري مِنْ أجل إرسال الأحمال إلى بغداد، فقد كان ذلك اليوم يوماً حزيناً، وقراراً قاسياً لماري. كانت تريد أن تُبقي هذه اللقى معها، حولها، تماماً كما تريد الدجاجة أن تبقي صيصانها إلى جانبها. أما أن تسافر الأحمال وحدها، أن تكون بعيدة عنها، فما كانت لتحتمل ذلك بسهولة.!

وريتش الذي كان حاداً نزقاً فِي علاقاته مع الآخرين، ولم يكن يبالي بما يتولد مِنْ حدته أو نتيجة نزقه مِنْ ردود أفعال، كان شخصاً مختلفاً تماماً مع ماري، ربما لما يكنه لها مِنْ حب، واعترافاً بتضحيتها حين قبلت به زوجاً، رغم الفرق مِنْ حيث الموقع الاجتماعي والعراقة، وأيضاً الفرص التي كانت متاحة لها، ثم مرافقتها له إلى ذلك المكان الذي لا يقبل به إلا المنفيون والحالمون، وبعض الذين يهوون المغامرات والأماكن المجهولة!

انه يقدر لها كُلّ هذه الأشياء، الأمر الذي جعله معها بالغ الرقة شديد الحرص على أن يؤمن لها اقصى ما يستطيع مِنْ شروط الراحة، إذا لم يستطع أن يؤمن لها السعادة.

أما بعد إقامتهما الطويلة فِي بغداد، وحالة الكآبة التي أخذت تسيطر عليها، وبشكل متزايد، وما ولدته هذه الحالة لدى ريتش مِنْ مشاعر هي مزيج مِنْ الشفقة والاعتراف بالذنب والشهامة، فقد أصبح مستعداً لأن يكون معها شخصاً مختلفاً عن صورته أمام الآخرين، وبالتالي لا يتردد فِي تلبية جميع ما تطلب.!

الآن، وهو يراها شديدة الانفعال، ظاهرة الحزن، حين تقرر إرسال الأحمال إلى بغداد، بل وتفكر جدياً أن ترافق تلك الأحمال بالنهر، وريتش يبذل أقصى طاقته وكُلّ ما يملك مِنْ وسائل الإقناع لثنيها، مؤكداً لها أن ما سوف تراه فيما تبقى مِنْ الرحلة يفوق بكثير أيّ شيء رأته مِنْ قبل، وهي بدموع سخية تعلن احتجاجها، بل ورفضها، إلى أن تم الاتفاق على حل وسط: أن تستبقي ضمن القافلة مجموعة مِنْ اللقي، التي تعتبرها الأحب إليها، على أن تسافر البقية، مع وعد برحلة جديدة خلال هذا الخريف، وأبعد تقدير خلال الربيع القادم، مخصصة بالكامل للآثار، وأن يُحمل مِنْ هذه المواقع أقصى ما يُستطاع حمله. وكتأكيد لهذا الاتفاق، قال ريتش لميناس، الذي ظل حائراً ازاء التعليمات المتناقضة حول الإيعاز للأكلاك بالإبحار أو إلغاء الرحلة كلية... قال له ريتش، وكانت ماري تنظر إليه بجفون ثقيلة:

يجب أن تبدأ منذ الآن بالتحضير لرحلة جديدة فِي الخريف القادم، وستكون هذه الرحلة مقتصرة على الآثار...

ثم بصوت واضح وبنبرة أعلى:

- نحتاج إلى بغال قوية لهذه الرحلة، ونحتاج إلى أدوات هندسية، وإلى عمال مهرة...

وتطلع إلى ماري وهو يُضيف:

- وستكون ماري هي رئيسة هذه البعثة الأثرية!

قال ميناس، وهو ينقل نظراته بين الاثنين:

- سأبذل أقصى جهدي مِنْ أجل توفير كُلّ شيء، وسنعثر على آثار كثيرة وجميلة...

وبعد قليل وبمرح:

ـ هل أستطيع أن أعطي الأوامر بتحرك الأكلاك؟

هز ريتِش رأسه دلالة الموافقة. أما ماري فقد استدارت ودخلت خيمتها.

ولم تتأخر القافلة حتى نصبت خيامها بالقرب مِنْ نينوى.

الموصل، المدينة والمحيط، أيام الربيع مكان السحر الحقيقي.

الطبيعة التي ظلت متوارية كامنة، طوال الشهور السابقة، تخلت فجأة عن اتزانها، نزعت الوقار الذي كانت تتلحف به وأخذت تصرخ وتتحدى إلى أن بلغت مرحلة الجنون. فالألوان تتفجر كُلّ لحظة، فِي كُلّ مكان، وتتغير فِي اللحظة ذاتها، أو فِي اللحظة التي تليها. وكنوز الأرض التي اختبأت بخوف طوال أيام الشتاء، قررت أن تهاجم وتكتسح كُلّ شيء. أما البرودة القارية، والتي تبلغ ذروتها فِي ساعات الصباح المبكرة، فتتحول، فِي هذا الفصل، إلى عبق فياض ما إن ترتفع الشمس ذراعاً أو ذراعين.

حتى البشر والحيوانات والطيور فِي الربيع يصبحون مخلوقات أخرى، مخلوقات مختلفة، وكأن مساً أصابها، أو سري فيها نسغ جارف كما يسري فِي الأشجار. فالرجال الذين كانوا يحرصون على الأصوات الهادئة البطيئة، ويؤثرون، فِي أحيان كثيرة، الصمت والتأمل، يصابون بحالة مِنْ الانفعال أقرب إلى الهياج، إذ ترتفع أصواتهم، ويميلون إلى التحدي. كما ترتفع معها الأغاني والكلمات البذيئة والتعليقات الجنسية المكشوفة، كما يذهب الكثيرون إلى بيوتهم مبكرين، بحجة أنهم لا يحتملون برودة المساء!

وإذا كانت النباتات تتحدى دون أن تغادر أماكنها، وتصرخ طالبة أن يأتي الناس لرؤيتها، وتولد داخلهم الهموم والأسئلة، وذلك الخدر اللذيذ الذي يبدأ مِنْ العين ليسري فِي جميع جوانب الجسد، ويظل مستقراً هناك فترة طويلة، إذا كانت النباتات بألوانها وتنوعها وعبقها تفعل ذلك، الطيور، مِنْ الخرافة والخفة التي تستبد بها، لا تستطيع أن تخفي بذاءاتها أو أن تتستر عليها، بل أكثر مِنْ ذلك تفاخر بها وتتحدى!

الطيور فِي الربيع تمثيل لحالة العري الحقيقية التي فطرت.

المخلوقات كلها: تتغازل علناً وبلذة، تعشق وتشتهي دون تردد ومخاوف، سوى ممن هو أقوى، ومن ذات الجنس. وهي تلجأ إلى ذلك خاصة حين تنتقل مِنْ مكان إلى آخر، كي تعطي المخلوقات الأخرى در كيف يكون الحب، وكيف تصبح الشهوة الجانب الآخر للحب، أما الغز الطويل فيفتح ألف باب للنشوة، وكُلّ هذه الأبواب لا تغلق حتى الفتيات، أول نضجهن، بعد أن تكون أعينهن قد تفتحت على الألوان، فإنها تتفتح الآن على تلك الرقة التي تتمثل بالطيور، خاصة الحمام، التي لا تتعب مِنْ المطاردة، مِنْ التمسح ببعضها، مِنْ اشتباك المناقير، وأيضاً تلك الوشوشة التي لا تعلن شيئاً لكنها تقول كُلّ شيء.

وهذا ما يجعل الفتيات، فِي هذا الفصل بالذات، أكثر نضارة وأخطر لأنهن يغادرن الخجل ويكففن عن النظر إلى الأرض، إذ تصبح نظراتهن أكثر جرأة واستقامة، وأشد فتكاً، بعد أن جنت الحنايا داخلهن وتحركت الشهوة، تماماً كما تفعل الأرض، كما تفعل طيور الحمام أما الحيوانات الداجنة، خاصة الأغنام، التي تبدو أقرب إلى البلادة بنظراتها البلهاء، وحركاتها التي لا تعرف الرشاقة، فإنها فِي أيام الربيع خاصة مِنْ خلال المواليد الجديدة، تصبح مخلوقات بالغة الجمال، بالغة الرقة. فعيون الخراف الصغيرة، فِي أسابيعها الأولى، لا تخلو مِنْ مكر لذيذ، ومن تحدٍ، وكأنها تحن إلى أيام ماضية، حين كانت تسرح حرة فِي البراري، وتعرف كيف تدافع عن نفسها، وتتسلق أعلى الأمكنة وأصعبها مِنْ أجل أن تبقى. أما صوف الحملان الجديدة فتُذكر بأول أيام الخلق، بتلك اللمعة الزاهية، وذلك الدفء الذي يفيض بسخاء، حتى تبدو ك بياض الثلج وهو يهبط مِنْ السماء لم يخطىء ريتش حين وصل إلى الموصل فِي هذه الفترة مِنْ السنة.

تذكر سنة سابقة، جاء أيضاً فِي فصل الربيع، لكن أمطار تلك السنة كانت قليلة، ورغم مخاض الطبيعة القاسي الطويل، فقد انتهى ذلك المخاض إلى تعبيرات زاهية، لكنها قليلة، بحيث لم تقنع أحداً. ويتذكر أن الموصل، حين جاء سابقاً، كانت تحارب البدو الذين تدفقوا عليها بكثافة، ولم تستطع أن تردهم إلا بصعوبة، وبعد أن قدمت الكثير مِنْ الدماء والأموال.

لقد جاء ريتش يتوسط ويصلح ويداوي الجراح، وغرق فِي الغرف أياماً بعد أيام، ولم يستطع أن يشهد مِنْ الطبيعة إلا ظلالها، ولم يصله إلا نواحها مع نواح الناس.

فِي هذه المرة، بمقدار ما فوجئت ماري، فوجىء. وبمقدار ما صرخت ماري، وشهقت، لروعة الطبيعة وجمالها، فقد شاركها الإعجاب والدهشة، وإن لم يجرؤ على التعبير بالطريقة نفسها أو بالمستوى نفسه! وإذا كانت ماري قد فتنت إلى أقصى حد بروعة الألوان وتنوعها، وكانت فِي أحيان كثيرة لا تصدق ما ترى، بل وتغمض عينيها متعمدة، وفِي ظنها أن ما تراه مجرد حلم، وما إن تنفتح العينان مرة أخرى، حتى تتلفت مِنْ جهة إلى ثانية، وتصرخ:

ـ لا أصدق هذا الجمال، هذه الروعة، يا كلود؛ ورغم أنها عادت، مثل ما فعلت فِي بداية الرحلة، إلى جمع الزهور، لكنها كانت تفعل هذه المرة بطريقة نزقة، ولا تخلو مِنْ جموح فِي بعض الأحيان، وكأن الطبيعة ذاتها تغلغلت داخلها، وأخذت تحفر وتقرض.

حتى حركاتها وأفكارها وردود أفعالها اتسمت بمقدار كبير مِنْ الحدة والطرافة، وفِي حالات معينة لم تخل مِنْ الغرابة.

وتتذكر القافلة كيف أنها توقفت فِي إحدى مراحل الطريق، وطال وقوفها، كي تحضن ماري كُلّ حمل مِنْ الحملان فِي قطيع كبير. لقد تحولت إلى طفلة شقية وهي تطارد الحملان. كانت تفعل ذلك بلذة، بشوق، غير عابئة بانتظار القافلة، أو بالكلمات التي يمكن أن تُوصف بها تصرفاتها! أما ففي الليل، وحين التقت قافلة الرجال بقافلة النساء،.

المحطة المقررقة، ورغم أن ريتش قضى وقتاً غير قليل فِي زيارة مضارب إحدى القبائل، فلم يكن يفصل بين وصول القافلتين إلا وقت قليل، أثار استغراب ريتتش، وحتى قلقه، فِي اللحظات الأولى، لكن حين عرف السبب، مِنْ المعاونيين أولاً، ثم مِنْ ماري ذاتها، فقد انخرط فِي موجة الضحك!

وفِي تلك الليلة، ألحت ماري على أمرين: أن يشتري لها ريتش عدد مِنْ الخراف الصغيرة، وأن تحملها معها إلى بغداد، «لأنها لم تحب طوال إقامتها فِي. هذا البلد، كما أحبت هذه المخلوقات الجميلة!» وريتش الذي شاركها الإعجاب بجمال الحملان، أكد لها أن فِي بغداد مثلها أو أجمل منها «ثم إنّه مِنْ القسوة فصلها عن أمهاتها وهي ما تزال رضيعة!. وأما الأمر الثاني الذي ألحت عليه ماري فهو أنّه «حان الوقت كي يكون لنا طفل» وقد حاول الإثنان تخطى التحفظات التي كانت تمنع أحدهما أو كليهما فِي السابق!

لقد تدخلت الطبيعة، فِي هذا المكان، إلى جانت ريتش، وإن لم تتخل عن ماري. فقد أصبح ريتش أكثر قدرة ومرونة على التحرك والاتصال بمن يريد الاتصال بهم، ولبي دعوات كانت مؤجلة منذ وقت طويل. واستفسر عن أمور قبلية، مِنْ حيث التحالفات والعداوات والمراعي والمياه، ووأوعز، بشكل مباشر أو غير مباشر، بضرورة حل بعض النزاعات والمشاكل المعلقة، أو تركها، ضمن حسابات اعتبرها هامة وضرورية فِي تلك المرحلة.

فعل ذلك، وولم تغب عنه مراقبة الطبيعة والتمتع بجمالها فِي هذا الوقت مِنْ السنة. وقد أشار، أكثر مِنْ مرة، أنّه لم يشهد جمال هذه المنطقة كما يشهده الآن! والشيوخ الذين كان يروق لهم سماعه وهو يتحدث العربية بلهجة وإن لم تكن لهجتهم تماماً، إلا أنها مفهومة ومقبولة، خاصة وأن أجانب آخرين، بمن فيهم الأتراك، لا يتكلمون مثله، أو تبدو لهجتهم مثيرة للالتباس ثم للضحك. ولقد أكد له الكثيرون، وربما الجميع، أن الأرض هنا مِنْ الخصوبة إلى درجة لا يتصورها الإنسان، كُلّ ما تحتاجه المطر؟

فإذا جاء المطر بكميات ومواعيد مناسبة، وهذا لا يحصل دائماً، فإن الخيرات كثيرة إلى درجة لا يعرف الناس أين أو كيف يخزنونها، وأكدوا له أن قسماً كبيراً مِنْ هذه المحاصيل يتلف، أو يصبح طعاماً للحيوانات! أما

السنوات التي ينحبس فيها المطر، أو يأتي بمواعيد غير مناسبة، فإن الناس تأكل بعضها، كما قالوا؟

أما كيف لم تتخل الطبيعة عن ماري فالأمر شديد البساطة: إذ بعد أن سيطرت عليها الآثار، وكادت تخلب لبها، غير تاركة لها أية هوايات أخرى، وكانت لا تخفي حزنها، وأيضاً خوفها، على اللقى الهامة التي تجمعت، ثم أرسلت عبر النهر إلى بغداد، فقد وجدت فِي الطبيعة، مرة أخرى، عوناً. فهذا الكم مِنْ الجمال، خاصة الألوان، لا يمكن لأية امرأة، مهما كان حالها، أن تغفل عنه، أو أن تتجاهله. وإذا كانت ألوان بداية الرحلة قد فتنتها، فماذا تستطيع أن تقول الآن؟ وإذا كانت قد جمعت مقداراً كبيراً مِنْ الزهور، ووضعت قسماً غير قليل منها فِي كتبها، فقد أصبحت الآن أكثر ميلاً ليس لأن تجمع الزهور، أو أن تضع نماذج جافة منها فِي الكتب، فحسب، بل إنها تريد البذور. وهذا ما حاولت بإلحاح أن تبحثه مع ريتش، وأن تجعله ضمن الاهتمامات الأولى، لعلها تستطيع أن تنقلها، أو تنقل جزءاً منها، إلى بريطانيا!

ريتش الذي استمع إليها بكثير مِنْ الاهتمام والصبر، وهي تتحدث عن الألوان، إلى درجة أنها بدأت تشتق أسماء جديدة، حين لم تلبها الأسماء المتداولة والمعروفة، وكانت تصف ما رأته، وفِي كُلّ مرة تقول أو تصف اللون الذي يستعمله الكثيرون، ولكن تضيف أنّه ليس فقط ذلك اللون المعروف، إذ بالإضافة إليه هناك ألوان أخرى متداخلة وممتزجة به، بحيث لا يكفي أن نقول الأصفر، مثلاً، لأن هذا الأصفر يتخلله البنفسجي الازرق والبرتقالي... وتحار كيف تصف، كيف تفسر. تفعل ذلك، فِي محاولة لإقناع ريتش بضرورة بذل كُلّ ما يستطيع مِنْ أجل الحصول على البذور! وهو بمقدار ما يوافق، ويؤكد صحة ما تقول، فإن لديه أسبابه كي لا يجاريها فيما ترغب، وحالما يجد لحظة صمت، حالة تُساعده على شرح وجهة نظره، يقول بلهجة مسالمة:

- ألوان بالغة الروعة. ألوان تتجاوز ما هو متعارف عليه فِي أوروبا، لكن...

ويبتسم، وتعقب الابتسام فترة صمت، علها تمهد لما سيقوله:

- لكن هذه الألوان مستمدة مِنْ الطبيعة... هنا...

ويجد أن هذه العبارة متعثرة، لا توضح ولا تقول شيئاً. يتابع بصعوبة:

- لو أخذنا هذه البذور إلى هناك، ولا بد أن أفعل، فإن احتمال أن تتفاعل مع التربة والطقس احتمال ضعيف، فهناك البرودة الطويلة، الشمس الهادئة، وربما الخجولة، حتى فِي أيام الربيع ثم الصيف، وهذه الأسباب جعلت لكل نبتة أمكنة وظروفاً تواتيها.

وترد بحدة:

- يجب أن نفعل، يجب أن لا نخضع لليأس أو أن نستسلم!

ويوافق، لكن لا بد أن يُضيف:

يمكن لهذه النباتات، لتلك الألوان، أن تظهر حيث ننقلها، إذا وفرنا لها مناخاً يشابه المناخ الذي كانت فيه! ويأتي صوت الإصرار مخنوقاً:

- تعرف كم أخذنا نباتاً مِنْ الهند والملايو، ومن أفريقيا أيضاً، ومن غوانا الجديدة، واستطعنا استنباتها مِنْ جديد فِي بريطانيا!

ويرد بسخرية مبطنة:

ـ أعرف، ولكن فِي حدائق خاصة، فِي أماكن مغلقة!.

ويمكن أن نفعل الشيء ذاته، فِي البداية، ثم نكتف تلك النباتات!

- بالتأكيد يمكن، ولكن لا يُعرف ما إذا ستكون لها فرصة مواصلة الحياة، بحيث تصبح نباتات الحقول والبراري هناك كما هي هنا!

- يجب أن نحاول.

ويردد باستسلام:

ـ لا بد أن نحاول!

ويظل الجنون مستبداً مسيطراً، فمع كُلّ مرحلة جديدة تقطعها القافلة، ورغم المهرجان الذي تفرده الطبيعة فِي كُلّ مكان، فيبدو كأنه عرس يزداد ألقاً وحرارة يوماً بعد آخر، فإن المفاجأة الكبرى التي كان ريتش يخبئها لماري ستقع فِي الأماكن الأثرية القريبة مِنْ الموصل، فِي نينوى ونمرود وقرصباد. كان يريد أن يدفعها لهذا الجحيم اللذيذ، كي لا تخرج منه أبداً!

حين يفعل ذلك، وبعد أن تدخل ماري هذا «الجحيم»، وتلم بالكثير، لا بد أن تبدأ بدراسة كُلّ شيء، كما فعلت فِي أوقات سابقة، حين غرقت بكل ما يتصل بصناعة الحلي، إذ قرأت عن ذلك جميع ما وقع تحت يديها مِنْ كتب، ثم حين اهتمت بالفراشات، وكونت مجموعة كبيرة، فمن المؤكد أنها ستفعل الشيء ذاته بعد هذه الرحلة، بعد أن اكتشفت عالم الآثار الجميل والغني. إذا فعلت ماري ذلك سوف تحرره، كي ينصرف لأمور مِنْ الضروري أن يتابعها، وسوف يكون متأكداً أن هذا الحقل الهام وجد مِنْ يهتم به ويرعاه!

لقد اضطرت ماري أن تلبي عدة دعوات فِي المدينة، أكد لها ريتش أنها بالغة الأهمية، لأن الداعين، بالإضافة إلى كونهم أصدقاء سياستنا، فإنهم سيكونون شديدي النفع فِي مجال الآثار. لبت ماري تلك الدعوات، رغم جهد

الذي بذلته كي تبقى امرأة مجاملة، إذ سألت عن أمور كثيرة، إلا أن الاستغراب لم يفارقها: كيف يهجر هؤلاء الناس الطبيعة فِي لحظات عنفوانها ويحبسون أنفسهم وراء الجدران، متعمدين أن يخلقوا فاصلاً بينهم وبين مصدر الحياة الحقيقي؟ ولقد توصلت إلى إجابات اعتبرتها شديدة البؤس: فمن أجل أن يظهر هؤلاء الأغنياء ثراءهم، مِنْ خلال السجاد والسيوف وأدوات الأكل، ولتظهر النسوة ما لديهن مِنْ الثياب والحلي، ولكي يتفنن فِي ذلك، فقد حرموا أنفسهم، وببلاهة، مِنْ الكنوز التي يمتلكونها!

ورغم أن ريتش، فِي هذه المرحلة، أولى أمور السياسة والقبائل والطرق جل اهتمامه، ولم يتطرق إلى الآثار إلا عرضاً، فإن الرياح الفرنسية كانت تهب تجاهه دون توقف، وكانت تزداد سرعة ما إن يلتقي رجل دين مسيحي، أو واحداً مِنْ الذين يعتبرون أنفسهم مِنْ وجهاء هذه الطائفة، إذ كان يجري الحديث سريعاً حول ما يبذله الفرنسيون مِنْ رعاية للطائفة، وكيف يستخدمون الفقراء منها فِي أعمال قد لا تؤدي إلى أية نتيجة، فقط لكي لا يُتركوا عاطلين عن العمل، ولئلا يمدوا أيديهم إلى الآخرين.

كان رجال الدين، ووجهاء الطائفة، يقولون ذلك أمام القنصل الكبير، لعله يتقدم ويمد يد المساعدة، كي تشعر الطائفة أن هناك مِنْ يرعاها ويهتم بشؤونها! وريتش الذي يستمع باهتمام، ويسأل، فِي أحيان كثيرة، بشكل غير مباشر، عما يفعله الفرنسيون، وأيضاً عما تحتاجه الطائفة، كان يزداد ضيقاً وغيظاً، لأنه يحارب فِي المكان غير المناسب، وفِي الوقت غير المناسب. إذ بدل أن يكون المسيحيون، فِي أوروبا وهنا، على وفاق، وفِي صف واحد، إزاء الأعداء المشتركين، وإزاء المضايقات والمصاعب التي يخلقها أو يتسبب بها الولاة وأتباعهم تجاه كُلّ ما هو مسيحي، فإن العداء أبرز ما يميز علاقاتهم فِي أوروبا وفِي كُلّ مكان آخر.

لقد اختفى الفرنسيون كما تختفي حيات التبن، رغم أنهم كثرة فِي هذه المنطقة، خاصة فِي مجال الآثار.

قال لنفسه، حين سأل عن عددهم، ومنذ أيّ وقت هم هنا، وعن علاقاتهم بالسكان: «إنهم مثل قادتهم، مثل رؤسائهم، كُلّ واحد منهم يفترض أن لديه رسالة، وعليه واجب، لكن يجب أن يفعل ذلك بشكل سري، لأن الثورات، كما يتوهمون، لا تنجح أبداً إذا كانت فِي المرحلة الأولى علنية، وتفشل إذا كانت فِي المرحلة الأخيرة سرية». واستغرب أن أحداً منهم لم يفكر فِي الاتصال به، أو مجرد أن يتوجد حيث يكون. قال لنفسه بغيظ: «لقد أفسدتهم الثورة الفرنسية، وأفسدهم أكثر نابليون؛ أما الفساد الأكبر فسببه تلك الجيرة التي لا تفرز سوى العداوة، وعلى بريطانيا أن تفكر بطريقة مختلفة، إما باستيعابهم أو بإلغائهم».

أما بعد أن عرف عن نشاطهم الحثيث فِي مجال الآثار، فقد تطير، خاصة وأن أحد الشماسين فِي الكنيسة الكبرى بالموصل أبلغه أن قبو الكنيسة مليء بالكنوز التي جلبها الفرنسيون؛ قال له ذلك كي يدلل على مدى قوة المسيحية، وما تستطيع أن تفعله فِي هذا المكان بالذات!

لقد لام ريتش نفسه كثيراً، فِي مراحل الطريق، نظراً لتقصيره فِي هذا المجال، وفِي هذا المكان بالذات. وحين تزيد الشواهد والشهود يزداد شعوراً بالذنب، ويزداد تحدياً فِي ذات الوقت. لكن، وكما قال لنفسه، إن الذي ينتصر فِي أوروبا لا بد أن ينتصر فِي أيّ مكان آخر، والمهزوم فِي عقر داره لا يمكن أن يكون منتصراً فِي مكان آخر، لذلك لا بد أن ينهزم الفرنسيون هنا، كما هزمتهم بريطانيا فِي أوروبا، وفِي البحار أيضاً، بحيث لن يُقدر لهم اللعب إلا فِي الهامش، وحين يغيب اللاعبون الحقيقيون.

وهذا ما يستدعي أن يولي الآثار والمسيحيين ما يستحقانه مِنْ اهتمام، وألا يتأخر كثيراً، خاصة وأن الروس، مثل الدببة القطبية، ما إن شعروا بالدفء حتى بدأوا بالظهور هنا.. وهناك أيضاً!

كم مِنْ الهموم والأفكار والأحلام، وهو يقطع الطريق بين الموصل ونمرود، انتابته واستفزته، وجعلته أيضاً يفكر بطريقة مختلفة عن السابق؟

كم تمنى لو أنّه يتفرغ لتحدٍ حقيقي، وفِي واحد مِنْ هذه المجالات، لكن الامبراطورية، كما قال لنفسه: «حين تكبر، تتنوع همومها واهتماماتها، وإذا استطاعت أن تضبط حركتها بتوقيت مناسب، وحسب أولويات محددة، تماماً كما هي الفرق السمفونية، فعندئذ ستقدم شيئاً كبيراً وواسعاً، ويضم الكثيرين أيضاً، لكن بتناغم جميل، حتى أن الإنسان يحار فِي تحديد مِنْ يعمل ومن ينتظر دوره!».

مع آخر الخطوات نحو نمرود، ومن أجل أن يُهيئ ماري للمفاجأة، وقد تعمد أن يوحد القافلة فِي هذه المرحلة، قال لها بنوع مِنْ المداعبة:

زلت تكرهين الصيد مثل عادتك دائماً؟

نظرت إليه، وقد فاجأها السؤال، وفِي ظنها أنّه سيستبدل بندقية الصيد بالبندقية الحربية الموضوعة باتقان وراءه، فِي جانب مِنْ السرج. أكثر مِنْ ذلك ظنت أنّه يريد أن يُظهر لرفاق القافلة براعته! لكن حين وجدته هادئاً، ولا ينوي شيئاً مِنْ ذلك، ردت، وخرج صوتها محايداً، وإن شابته رنة سخرية:. وهل تريد أن تغير رأيي بعد محاولاتك الكثيرة السابقة؟

ـ إنّه مجرد سؤال!

نظرت إليه مِنْ جديد، فِي محاولة لأن تكتشف ما وراء سؤاله. ظلت تنظر صامِتة. تابع:

ـ أتمنى أن تبقي كذلك إلى النهاية!

ـ إنني لا أفهم ماذا تعني! - ستفهمين الآن كُلّ شيء!

إلى ذلك الوقت كانت ماري، وقد بدأت تظهر معالم القصر الملكي، متوترة، مشدودة، ولا تعرف لماذا يثير ريتش مثل هذه الأسئلة، بدل أن يتحدث عن قصر أشور زيربال وما يمكن أن تراه فِي هذا القصر. حين وجدته صامتاً، وإن بدا فِي عينيه حديث طويل، قالت فِي نفسها «كثيراً ما يروق للرجال الاحتفاظ بأسرار مفترضين أن النساء غير جديرات بها!» ابتسمت وهي تضيف لنفسها فِي محاولة للشعور بالزهو: «لكنهم مخطئون، فالمرأة تعرف تلك الأسرار، وتعرف أخرى غيرها، ولكنها تتظاهر أنها لا تعرف... إلى أن يأتي الوقت المناسب، وقد يكون ذلك الوقت حين ينسى الرجال تلك الأسرار»..

الغبار الذي تثيره طليعة القافلة، وهي تتسلق الهضاب فِي طريقها نحو القصر، أخذ يضايق ريتش. قال لماري وهو يركز حصانه ليخرج عن القافلة:

- يجب أن نسبق الجميع، اتبعيني!

وانتحى الحصانان إلى جهة اليمين، خارجين عن نظام القافلة، وركض وراءهما شماس الكنيسة، الذي طلب منه ريتش أن يرافقهم، ويكون دليلهم فِي زيارة هذه المواقع، وأيضاً كي يعرف ويستفسر منه بدقة عما فعل الفرنسيون، وعن الأشياء الموجودة فِي قبو الكنيسة!

وإذا كانت الحركة قد أخلت بنظام القافلة، وجعلت ميناس يتحسب، ويلتفت إلى جميع الجهات مستطلعاً، إلا أن التفاتة ريتش، وقد تجاوز القافلة، مع حركة اليد، وهو يشير لميناس بالهدوء، أعادتا النظام للقافلة، وجعلها تواصل سيرها لتنحرف نحو اليمين قبل أن تصل إلى أسوار القصر الملكي، وتتجه إلى المعسكر، الذي أقيم فِي اليوم السابق، وقد اختير له مكان لا يعتبر بعيداً، وفِي فسحة مستوية مِنْ الأرض تجعل الإقامة مريحة، والوصول إلى القصر الملكي غير شاق.

يمكن للكلمات أن تقول، أن توضح أكثر الأحيان، لكنها فِي أحيان معينة تكون عاجزة، بائسة، فقيرة، وناحلة إلى درجة الرثاء. والعين إذا كانت تستطيع أن تحتضن الكون حتى الأفق، وأن ترى، فِي لحظة، ما يحتاج إلى أوقات طويلة كي يقال ويروى، فإن طاقة العين على الاستيعاب فِي بعض الحالات لا تقوى على احتمال هذا التدفق الذي يفيض فجأة ويغمر كُلّ شيء!

حين وقفت ماري أمام الجدار المنقوش عليه رحلة صيد الملك أشور زيربال، وقفت مذهولة. فتحت عينيها على اتساعهما، واغمضتهما عدة

مرات، فِي محاولة لأن تستوعب ما ترى. فِي إحدى اللحظات، ربما لا شعورياً، رسمت على وجهها علامة الصليب، وكأنها تستدعي قوى خفية كي تقف معها، لتسندها.

قال لها ريتش، فِي الليل المتأخر، وقد عافها النوم، وكانت لا تزال تحت تأثير صدمة ما رأت ذلك اليوم:

- رأيتك تصلبين، ورأيت دمعة جامدة فِي عينيك، وهذه الدمعة لا تسقط إلى الخد، ولا تغيب...

وبعد قليل:

ـ هل أنا مخطىء؟ لم تجب. سحبت مقداراً مِنْ الهواء يكفي لإنقاذ غريق، وهزت راسها مرات عديدة متواصلة. وإذا كانت قد فهمت مغزى سؤال ريتش حين سألها وهم يقتربون مِنْ القصر الملكي فِي نمرود عن الصيد، فقد قالت وهما يغادران القصر، وكنوع مِنْ الامتنان:

- لن ألومك على رحلات الصيد... بعد اليوم يا كلود!

وحين سألها ما إذا كانت ترغب فِي الصيد، بعد أن رأت الملك وخيوله الطائرة نحو الطرائد، ردت بدعابة لا تخلو مِنْ الغبطة: يكفي أن تكون أنت الصياد، وتعرف ما يجب صيده! وكان يسعدها، تلك اللحظات، أنها إحدى طرائده، أو الطريدة الأجمل فِي حياته! - أما فِي الليل المتأخر، وهما يستعرضان مشاهد اليوم، وبعد أن تجولا فِي جميع أنحاء القصر، فقد عادا مرة أخرى إلى عربة الصيد. كان تتلمس النقوش والعربة والخيول، ليس بيديها وحدهما، وليس بجميع أصابعها فقط، كانت تتلمس النقوش بجسدها، وبطريقة حسية، وكأنها تريد الالتحام بالمشهد كله، أن تصبح جزءاً منه. فِي هذا الليل قالت لريتش، بنوع مِنْ الرجاء، الأقرب إلى التوسل:

قد أكون مجنونة، أو أصبحت مهووسة بهذه الأشياء الرائعة.... وامتلأ صوتها بالحزن:

- هل تتصور، يا كلود، أننا قادرون على مغادرة هذه البلاد، وترك هذه الأشياء وراءنا، بحيث لا نستطيع أن نراها مرة أخرى؟

ردَّ فِي محاولة لمنعها مِنْ مواصلة الحزن:

- سوف تتاح لنا فرص كثيرة لرؤيتها...

وبعد قليل، وكأنه يفكر بأشياء كثيرة معاً: ـ إذا لم يكن كُلّ سنة، فحالما نملك وقتاً أو ظروفاً مؤاتية!

سألت ماري بتردد، وشاب صوتها نغم يائس:

ألا نستطيع أن نرحلها؟ أن نحملها إلى هناك لتبقى، حيث يجب أن تبقى، إلى الأبد؟

ضحك بحزن، ورد كأنه يخاطب نفسه:

- كيف نستطيع أن نحمل هذه الكتل الهائلة؟ وماذا تعني إذا عزلناها عن كُلّ ما يحيط بها؟

وتغير صوته، أصبح أكثر خفوتاً:

ـ هل نستطيع أن نحمل الجبال؟ أن نغير مجاري الأنهار؟ أن نجعل الشمس فِي بريطانيا كما هي فِي الهند، فِي العراق؟

قالت ماري بحماس وحيوية:

ـ لا شيء يمكن أن يقف فِي مواجهة الإرادة والتصميم.. يا كلود؛ وبعد قليل، وبطريقة مفاجئة وصبيانية:

- ماذا لو تركتني هنا وعدت إلى بغداد؟ إنني أفضل الإقامة فِي هذا المكان عن العودة إلى هناك!

رغم الحزن، أو بسببه، ضحك، وكأنه حائر فِي اختيار الإجابة المناسبة، وبعد أن هدأ تساءل:

- وبقاؤك هنا بقصد الاستمتاع أم لاختراع طريقة مِنْ أجل نقل الآثار إلى بريطانيا؟

- دعني، سوف ترى؟

- بعد أن رأيت الآثار وتمتعت بها، أريد أن أرى الطفل واتمتع به. ألم نتفق؟

ونخلف كُلّ شيء وراءنا ونمضي؟

ولأنها تعرف ماذا يعني له وجود الفرنسيين، وكيف يستفزونه، خاصة وقد مضى على وجودهم وقت طويل، وحصلوا على أشياء كثيرة، قالت بنوع مِنْ التحدي:

- ونترك لهم كُلّ شيء؟

وبعد قليل وباستفزاز أكبر:

وإذا كانوا قد حصلوا على الكثير دون أن ينافسهم أحد، دون يشعروا بخوف، فماذا تتصور أنهم سيفعلون بعد زيارتنا؟ بعد أن أحسو بالخطر؟

ردَّ بنوع مِنْ الهدوء المقصود وكأنه دبر أمراً:

لدينا الكثير لنفعله غداً ثم فِي الأيام التالية، وعلينا أن ننام قليلاً.

نشيطين... فِي الغد!

وتغيرت النبرة:

ثم إن القرار، أيّ قرار، إذا أخل بهدوء، ولم يكن مجرد ردَّ فعل يكون أكثر صواباً ولا يؤدي إلى الندم.

وناما فِي تلك الليلة متعانقين، وكانا يحلمان بأشياء كثيرة!

مع كُلّ يوم ينقضي فِي نمرود يزداد الإعجاب وتزداد المخاوف:

الفرنسيون وضعوا أيديهم على جميع الكنوز. انتزعوا كُلّ شيء، وأصعب الأمور أن تنتزع عظمة مِنْ حلق كلبه هكذا يقول ريتش لنفسه، وهو يواصل زيارة القصر الملكي، ويقضي فيه ساعات طويلة كُلّ يوم. أما فكرة أن يبدأ التنقيب فِي الجانب الآخر مِنْ التل، ثم يتسلل، خفية، إلى الذروة، حيث يركز العلم البريطاني هناك، كتأكيد أنّه وصل قبل الآخرين، كما حصل أثناء اكتشاف أميركا، أو كما يفعل متسلق الجبال، إذ ينتقلون مِنْ ذروة إلى أخرى، بمخادعة ومكر؛ لو لجأ إلى هذا الأسلوب فسوف تبدو الأمور مكشوفة، نابية، وكأنه يريد أن يفتعل حرباً مع الفرنسيين فِي هذا المكان النائي.

نقطة ضعفه الأساسية أن ليس لديه فريق عمل للبقاء هنا. حتى لو شرع بنفسه فلن يجد مِنْ يواصله بعده، لأن جميع مِنْ حوله مجرد عمال عاديين، منفذين، ولا يمكن الاعتماد عليهم بعد سفره، لأنهم لا يتقنون سوى تلقي الأوامر: «احفروا هنا».. «أحفروا بهدوء».. «توقفوا».. «انقلوا التربة».. ارفعوا هذا الحجر».. «انزلوا عميقاً فِي الأرض دون أن تمسوا الجوانب». هذا ما يستطيعه هؤلاء الناس، وهو لن يقوى على البقاء معهم طويلا، لديه أشغال كثيرة تنتظره فِي بغداد وفِي أماكن أخرى!

وماري الهاوية، أثارت مجموعة مِنْ الاقتراحات «لا بد مِنْ نقل هذه الاثار الكبيرة. قد تبدو الفكرة مجنونة، غريبة، ولكن متى كان المنطق الهادىء البارد وحده الذي يوصل إلى نتائج كبيرة؟ «وماذا لو بقيت هنا شهور، أتستطيع خلالها أن تؤمن فريق عمل؟ وهل بإمكانها أن تفعل بمفردها؟ وماذا سيقول الآخرون: الفرنسيون والأتراك وأهل المنطقة زوجة القنصل تحولت مِنْ سيدة بلاط إلى مجرد عاملة يدوية، وبمستوى أدنى مِنْ العمال العاديين؟ وفكرة مِنْ هذا النوع، ألا تقابل أو يُرد.

بضحكة ساخرة؟ ألا يعتبر مجرد وجود فرد إنكليزي، فِي المكان المناسب والوقت المناسب، سبباً كافياً لترتيب حقوق؟ وهذه الحقوق المكتسبة؟

هل يجرؤ أحد على إغفالها فِي أية قسمة لاحقة؟ والقسمة إذا جرت ألاتعبر على القوة والنفوذ؟ قال لنفسه بمرارة: «شرط القسمة الأساسي أن يكون المرء موجوداً وقوياً، ولذلك فإن فكرة بقاء ماري ليست خاطئة أو مرفوض تماماً، لكن هل يكفي وجودها دون فريق، دون خبراء، لوقف ز الفرنسيين؟»..

أفكار كثيرة كانت تراوده. كان يبوح لماري ببعضها، ويُبقي الأخرى أحلاماً تراوده وحده، لأن ماري لا تعرف التدرج أو الحلول الوسطى حين تقتنع بأمر يسيطر عليها إلى الدرجة القصوى، بحيث لا تقوى على رؤية غيره، أو إمكانية وجود شيء أكثر أهمية منه، لهذا عليه أن يُنضج الاقتراحات، أن يقلبها مِنْ كُلّ الجوانب، حتى إذا اقتنع، إذا اطمئن، يمكن أن يطرحها للتداول أولاً، ثم لإقناع الآخرين بها بعد ذلك.

وإذا كانت فكرة أن تبقى ماري هنا، كما اقترحت، راودته، مِنْ جديد وهو يراها هكذا أمام النقوش على الجدران، خاصة رحلة الصيد، وكأنها تناجيها، ولا تكف عن الحديث عنها أغلب ساعات اليقظة، ولا بد أنها تحلم بها فِي الليل أيضاً، فإن فكرة أن يكون أباً، وتلك الطريقة المتلهفة التي عبرت ماري مِنْ خلالها كي تصبح أماً، جعلته قلقاً شديد الحيرة فِي تحديد أولوياته وعواطفه.

ولأن الرحلة، فِي هذه المنطقة، ما تزال فِي بدايتها، قرر أن يتركها على هواها، تماماً كما تُترك الخيول قبل اليوم الذي ستدخل فيه السباق دون أجم، دون سروج ومهاميز، ودون سياط أيضاً، عله يستطيع فِي نهاية الرحلة أن يجد حلولا مناسبة! وباعتبار أن مواصلة الرحلة إلى نينوى، ثم إلى قرصباد، يمكن أن تتم إما بالعودة إلى الموصل، أو متابعتها مباشرة، والطريق الأخير أطول وأكثر تعرجاً، ولأن الشماس يريد أن يشارك فِي أعياد الفصح، وقد كان ذا فائدة لا تقدر، إذ بدا لريتش بالمعلومات التي يملكها، وبالخفايا التي لا يستطاع الوصول إليها دون معونته، وكان أكثر أهمية مِنْ الكتب التاريخية والأثرية التي حملها ريتش فِي سفرته، فقد تقرر الرجوع إلى الموصل.

قال ريتش ننفسه بعد أن شهد الاحتفالات التي أقيمت فِي هذه المدينة يبدو أن هذا العيد بالنسبة للسكان، مسيحيين ومسلمين، أكثر مِنْ مجرد طقس ديني. ربما تكون لهذا العيد جذور أسبق مِنْ الديانات السماوية، لأن مشاركة الجميع فيه، ثم طريقة احتفال الناس، تجعل الإنسان يتساءل:

أليس هذا هو عبد الخصب؟ عيد النشور والبعث الجديد؟ وإلا كيف نفسر احتفال المسلمين، وبذات المراسيم تقريباً؟ الأمر، برأيي، يتجاوز المجاملات أو المشاركة الشكلية، ولا بد أن أدرس الأمر فِي الأماكن الأخرى لأتأكد. أما ماري التي ظلت مأخوذة بما شهدته فِي نمرود، حتى أنها اقترحت على ريتش أن يبحث عن رسام فِي المدينة يمكن أن يصور النقوش المرسومة، إلى أن يتم استدعاء أحد الرسامين مِنْ بريطانيا، لأن ما افترضته فِي نفسها مِنْ موهبة تمكنها مِنْ استنساخ تلك النقوش أسفرت عن «كارثة» كما قالت لريتش، بعد عدة محاولات قامت بها. الأمر الذي جعلها تمزق تلك الرسوم

لأنها تعطي صورة مشوهة عن هذه المعجزة الفنية. رغم أن الشماس حنا هيأ لها عدداً مِنْ الألوان استقطرها مِنْ الزهور والنباتات، ومزجها بطريقة فنية بارعة، وقد سجلت ماري الوصفة بكل تفاصيلها، واشارت أنها قد تحتاج إلى مساعدته فِي وقت لاحق، وربما تطلب منه أن يمدها ببعض تلك الألوان!

أكثر مِنْ ذلك، تساءلت ما إذا كانت هذه الطريقة فِي الصيد أكثر جدوى وأكثر متعة مِنْ الطرق الأخرى، خاصة المتبعة فِي بريطانيا؟ وريتش الذي أحس بحنان هذه الالتفاتة، وبتراجع كراهية ماري للصيد، أشار إلى فروق دقيقة تتعلق بنوع الطرائد التي يراد صيدها، ولطبيعة المناخ فِي كلا البلدين، ولم ينس أن يُضيف مازحاً:

. ثم إن هؤلاء الملوك، رغم عظمتهم، وما يستطيعون تسخيره مِنْ رجال وأدوات، إلا أنهم لا يملكون، مثلنا، الأسلحة الحديثة، خاصة البنادق، والتي تمكن مِنْ إصابة الطرائد مِنْ مسافات ودون مخاطر! ما كادت ماري تصل إلى المدينة، وتشهد عدداً مِنْ الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة عيد الفصح، حتى أخذها الحماس الديني، فشاركت فِي خدمة أحد القداديس، وتبرعت مع ريتش للكنيسة، وأطرت المطران كثيراً. كما بدا لها الشماس إنساناً مختلفاً، وهو يتحرك بحيوية مِنْ مكان إلى آخر، رغم العرج الذي كان يستطيع إخفاءه ببراعة مِنْ خلال الحركة السريعة المتقنة!

أما الألوان، ألوان ملابس النساء والأطفال، وحتى ألوان البيض المسلوق، فقد فتنتها تماماً، كانت زاهية، متألقة، وشديدة التنوع، أو كما قالت لريتش:

- ربما لا يتكرر مثل هذا المهرجان مِنْ الألوان فِي مكان آخر!

وريتش الذي هز رأسه موافقاً، ربما لم ينتبه، بما فيه الكفاية، للألوان التي تشير إليها ماري، لذلك تابعت:

- يبدو لي أن هؤلاء الناس البسطاء يختارون ألوانهم، أو يستمدونها، مِنْ الطبيعة المحيطة بهم. الطبيعة هي التي أملت عليهم، تماماً كما فعلت بالطيور الأفريقية الملونة، إذ قد تبدو ألوانها مباشرة، وبعض الأحيان فجة، لكن بمجملها تظهر منسجمة وتناسب كُلّ شيء حولهم!

نتيجة الفرح الداخلي الذي سيطر على ماري، خاصة حين شاركت فِي احتفال أقيم فِي قرية مسيحية قريبة مِنْ الموصل، ورأت مهرجان الألوان أيضاً، ولكن كان يبدو فِي القرى أكثر زهواً، وأكثر التحاماً بالطبيعة، تمنت لو تتاح لها الفرصة لتصميم مجموعة مِنْ الثياب النسائية، مع الحلي، تختارها مِنْ عدة أمكنة، لتكون هديتها لبريطانيا حين تعود بصورة نهائية، دلالة على تفاعل الحضارات، وما يمكن أن يضيفه الغرب إلى ثرائه المتعدد المصادر.

أكثر مِنْ ذلك تساءلت لماذا يصر الإنكليز على تلك الألوان الباردة، الشديدة الوقار، والفاقدة للفرح؟

ولأن ريتش لاحظ انشغال الشماس، واستمرار زياراته مع الخوارنة إلى أحياء وبيوت المسيحيين فِي المدينة، فقد كاد بيأس مِنْ إمكانية أن يرافقه إلى نينوى وقرصباد. لكن فِي عشية ليلة السفر، جاءه بعد الغروب بقليل، موفداً هذه المرة مِنْ المطران، ليكون فِي خدمة سعادة القنصل، وليبلغه، مرة أخرى، بركات الكنيسة واستعدادها أن تضيف جهودها ونفوذها لتصبح الرحلة أكثر نفعاً وجدوى للقنصل والرعية معاً.

ريتش الذي فرح بوصول الشماس، وبالرسالة التي حملها، لام نفسه أنّه لم يقدم هدية أكبر للكنيسة، ربما نتيجة الغيظ الذي ما زال يحسه تجاه الفرنسيين، وقرر أن يصلح الخطأ أثناء الرحلة، أو حين عودته إلى الموصل مرة أخرى.

لقد ارتأى المطران ضرورة استمرار الشماس دليلاً، باعتبار أنّه اشتغل مع الفرنسيين فِي وقت سابق، وفِي نينوى بالذات. وبالتالي يمكن أن يكون مفيدة ليعرف القنصل على أية تفاصيل تهمه وقد تساعده، ليس فقط عن الآثار، وإنما عن المنطقة، خاصة رعايا الكنائس المسيحية، وربما لتقديم ما تحتاجه مِنْ مساعدات وحماية.

هكذا أكد الشماس وهو يشرح بإفاضة موقف المطران، وكيف طلب منه أن يترك كُلّ شيء، وأن يكون فِي خدمة القنصل!

نذر ريتش هذه الالتفاتة، وإمكانية أن يعرف عن طريق الشماس، بالإضافة إلى المواقع الأثرية، وما فيها مِنْ كنوز وأشياء هامة، بل قد يستطيع إقناع أو إغراء الشماس بان يفتح له أبواب أقبية الكنيسة فِي الموصل، وقد يصل معه إلى أكثر مِنْ ذلك، خاصة بعد أن توثقت العلاقات، ثم جاء اهتمام المطران وتوصيته!

قال ريتش لنفسه، بعد أن اتفق والشماس على أغلب التفاصيل، «المال يجعل الكثيرين يخرون على الركب» وابتسم وهو يودعه، وكان يقول لنفسه: «المال قادر على فتح الأبواب المغلقة، وبإمكانه اختراق الحواجز والستائر ومعرفة أدق الأسرار».

.

هذه الرعاية مِنْ الكنيسة، رغم مظاهر الحفاوة والاهتمام، قابلها ريتش بتقدير، لكن بحذر أيضاً، وأخذ هذا الحذر يزداد، إذ قد تخفي وراءها أموراً أخرى، فهؤلاء الشرقيون، وبذكاء فطري، يحاولون استغلال الاختلاف والتنافس بين الأجانب، وقد يزيدونهما أيضاً، ثم يتدخلون كوسطاء مِنْ أجل

ابتزاز الطرفين!. خاصة وأن الخلاف الإنكليزي - الفرنسي لم يعد خافياً على أحد، و«بالتأكيد ليس لهؤلاء الفرنسيين مِنْ عمل فِي ليالي الشتاء الطويلة، وحين يتعذر عليهم مواصلة البحث عن الآثار، إلا مهاجمة الإنكليز وشتمهم، ولا يترددون فِي أن ينسبوا لهم كُلّ المساوىء».

لكن مثل عادة الإنكليز دائماً، لم يظهر على ريتش الشك أو الانفعال، لأن مِنْ تظهر عواطفه وحقيقة مواقفه ومشاعره قبل الأوان تجاه الخصم يكون قد خسر نصف المعركة سلفاً هكذا قال وهو يوصي نفسه!

ثم ماذا لو أن الكنيسة، وبالتواطؤ مع الفرنسيين، تريد أن ترصد كُلّ خطوة مِنْ خطواته، وأن تعرف ليس فقط ما يعمله، بل وما يفكر فيه؟

أيوجد أسهل مِنْ أن يكون دليله، الذي يكون عينه ولسانه، أثناء التعرف على المنطقة، بآثارها وبشرها، هو مِنْ يتجسس عليه، ومن ينقل إلى خصومه أصغر التفاصيل وأكثر الحركات خفاءً؟

لن يترك ريتش لمجرد شماس فِي كنيسة نائية أن يخدعه، أن يسخر منه أمام رؤسائه. وإذا كان قد تعلم بعض الأمور الهامة عن طبيعة سكان هذه المنطقة، فإن مِنْ جملة ما تعلم: «المال يلين القلوب ويجذب الكثيرين، شريطة أن تعرف لمن تعطيه ومتى، وأيضاً بأية مقادير، لأن المال إذا أعطي لغير مستحقيه، أو إذا أعطي أكثر أو أقل مِنْ المناسب، فلا بد أن يولد ردود فعال سلبية»..

وابتسم ريتش، وقد بدأت تتداعى فِي ذهنه صور الأشخاص الذين تعامل معهم. صحيح أنّه أخطأ التقدير، فِي البداية، لكن ما لبث أن تجاوز تلك الأخطاء بسرعة، وأصبح بإمكانه الآن أن يتصرف وهو واثق، خاصة وهو يسمع، ليس ما يقوله هؤلاء، وإنما ما ينقل على ألسنتهما وبتداعي هذه الصور، قال لنفسه: «وبعض الناس يهمهم أكثر مِنْ المال: الكلام الدافيء الذي تقوله لهم، وطريقة القول، ثم كيف تتعامل معهم، خاصة أمام أنصارهم، وحتى أمام الغرباء؛ لأن الكلام، مجرد الكلام، يعني الكثير لهؤلاء الشرقيين، ربما لعدم ثقتهم بأنفسهم، ولأنهم بحاجة دائماً إلى اعتراف الآخر. وهذا يستدعي أن تحفظ بعض أشعارهم وأمثالهم، حتى لو استعملتها بشكل خاطىء، مِنْ حيث النطق أو التوقيت، إذ يشعرون عند ذاك بنوع مِنْ التفوق وهم يأخذون دور المعلمين!».

وإذ بدأت الرحلة فِي اليوم التالي، وقد تحركت مُبكراً، لأن الحرارة أخذت ترتفع يوماً بعد آخر، فإن أحد الشيوخ أصر على ضرورة أن ترافق القافلة مجموعة مِنْ رجاله للحراسة والمهابة معاً، وكي يقول أمام خصومه أو منافسيه، ذات يوم، أن القنصل الإنكليزي أثناء تلك الزيارة كان بحمايته!

وريتش الذي يتيح هوامش مِنْ هذا النوع، لإرضاء غرور مثل هؤلاء الشيوخ، يعرف كيف يضع لها حداً أيضاً، وبعض الأحيان بشكل فظ، لكن لا يصل إلى حد الجرح أو الإهانة «لأن الشرقي حين يُجرح يتحول إلى ذئب، تعمى بصيرته تماماً ويصبح مستعداً لارتكاب كُلّ أنواع الحماقات».

بدا مِنْ لقاء مجموعة الحراسة بالقافلة، أن أكثرهم، وربما الجميع، يعرفون الشماس حنا، بل وتربطهم به صداقة، والشماس بمقدار ما يعرف عن الآثار يعرف أكثر المنطقة وناسها، كما أن له دراية بنباتات الأرض وحشراتها وطيورها وحيواناتها، وكيف يحول الكثير مِنْ النباتات إلى أكلات شهية، أو إلى ألوان وأصباغ، وكان يحمل فِي خرجه كميات منها!

ولأن الشماس أخذ ينحدر نحو الشيخوخة، ويظهر ذلك مِنْ حركته الثقيلة بعض الأحيان، ومن طريقة امتطاء البغل، فإن العرج الذي يحاول اخفاءه ببراعة، يظهر فِي بعض المواقف، ويثير مقداراً مِنْ الضحك يشارك هو نفسه فيه، ثم يحتال على الأمر بالغناء، إضافة إلى الكم الكبير مِنْ النكت الجنسية التي يحفظها؟

فِي لحظة مناسبة، حين سُئل رئيس مجموعة الحراسة عن الشماس، أجاب بمرح:

- أبو يعقوب رابطها بالدنيا وبالآخرة..

وبعد قليل وهو يضحك:.

- بعد ما خلص حسابه مع الدنيا يريد هالحين يواجه رب العالمين بقلب قوي!

ولما سألوه كي يوضح أكثر، ردَّ وهو يهز يده فِي الهواء:

- أبو يعقوب ما حافظ إلا وقت العيدين ووقت الحصاد. أما إذا حل وقت الكراب والبذار فما أحد يلقاه: ملح وذاب!

وفهم الذين سألوا ولم يفهموا، لكن لم تتغير عواطفهم تجاه الشماس!

فِي نينوى، وإزاء العربة الملكية لسرجون، وقد بدت فِي الضوء الذي يتسرب مِنْ الفجوات، قالت ماري بتأكيد لا يلبث يتزايد يوماً بعد آخر، إنها رأت تلك العربة تتحرك، تسير، تماماً كما كانت عربة جورج الثالث، وتذكرت كيف كانت الجماهير تزحف لتحية الملك، لإظهار عواطفها وما تكن له مِنْ الحب والولاء. وتتذكر ماري، منذ أن كانت صغيرة، كيف كانت تهيء فستانها الأبيض المزين بالشرائط الملونة قبل شهور مِنْ يوم التاج، وحين ترتدي ذلك الفستان، وتقف على الرصيف، لتقديم احترامها، كانت تحس أن الملك يتطلع إلى ساقيها، كانت بطريقة خجولة، والعربة تتقدم ببطء، تُنزل

الفستان، وهي تميل قليلاً مِنْ جانب إلى آخر، لكن فِي كُلّ المرات، بدا لها أن الملك يتطلع إلى الساقين!

الآن، وهي تنظر إلى العربة الملكية فِي نينوى، تحس بالكبرياء ذاته، كما كانت قبل سنين عديدة، خاصة أن سرجون والعربة معاً تخففا كثيراً مِنْ الأشياء الزائدة، ومن القسوة المفرطة. أصبح الملك أشد وضوحاً وتصميماً، وهو يركز نظراته، وقد تجسد بقوة وشموخ. حتى الحرس، وكانوا قريبين وبعيدين فِي آن واحد، فقد زادوا، مِنْ خلال مواقعهم وحركاتهم، فِي إظهار جبروت سرجون وقوته. أكثر مِنْ ذلك، بدا لماري أن النحت قد تعمق أو ارتفع. حتى العجلة التي تقود العربة الملكية، تجلت لها فِي لحظات كثيرة وكأنها عربة جورج الثالث، ذلك الملك الذي لم يحكم مثله ملك بريطاني مِنْ حيث الفترة الزمنية، أو مِنْ حيث المهابة.

وإذا كانت عربة سرجون الملكية قد مثلث القوة والمهابة معاً، وبدا فيها الملك ذاته، وقد تطلع إلى البعيد، فإن قصور سرجون الأخرى، وما يحيط بها مِنْ فخامة، وما تشير إليه مِنْ اتساع، شغلت القافلة، وهي تقطع الطريق إلى قرصباد، بعد أيام قضتها فِي نينوى. جعلت كُلّ فرد يتيه فِي الخيال، وهو يستعيد أياماً ماضية، ويتساءل عن جبروت هؤلاء الملوك، وأيضاً ما كانوا يتمتعون به مِنْ نفوذ وقوة مِنْ أجل إشادة مثل هذه القصور. وكيف كانوا يسخرون الآلاف المؤلفة مِنْ أجل جلب الحجارة وصقلها، ثم تشييد القصور التي لا يُعرف أين تبدأ أو أين تنتهي؟

الشماس يسير بالقرب مِنْ ريتش وماري، وهو لا ينفك يتحدث عن قوة سرجون، وما استطاع أن ينجزه، ثم كيف امتدت فتوحاته واتسعت حتى وصلت إلى أمكنة بعيدة.

كان الشماس يتحدث بحمية وانفعال، ويبالغ فِي أحيان كثيرة، كأنه باش فِي تلك الأزمنة، وفِي هذا المكان بالذات! لأن التفاصيل التي كان يوردها، وهي خليط مِنْ المعلومات والرغبات وتداخل العصور، كانت تجعل ماري تفتح عينها على اتساعهما، وتحاول التدقيق بكل ما يقوله.

تسأل عن زوجات هذا الملك، تسأل عن العدد والأعمار والألوان، وما إذا كان يفضل زوجة بذاتها أو مجموعة مِنْ الزوجات. والشماس الذي يزداد حماسة وهو يجيب، وأغلب الأحيان بثقة زائدة، كان يُدهش ماري، يجعلها تُخرج تلك الأصوات الحادة المخنوقة، وتلتفت مرات كثيرة إلى ريتش. وتحاول أن تقول له: هل رأيت؟ تفعل ذلك دون كلمات، لكن العينين، فِي أحيان كثيرة، تكفي لتقول كُلّ شيء، وريتش الذي يسمع ولا يسمع، لأنه يعتبر أن ما يقوله ذلك الشماس مجرد هذيان أو خيالات مريضة يفرزها خيال شرقي يهوى الخوارق ويذوب فِي المبالغات!

كان الشماس يفعل ذلك، ويزيد بمبالغاته ما إن تقترب القافلة مِنْ محطتها الأخيرة فِي هذا الاتجاه. وكأنه يُهيئ للمفاجأة.

فِي قرصباد، وفِي مواجهة الثور المجنح الذي يحرس بوابة قصر سرجون، وبذلك السواد الذي يتلألأ فِي ضوء شمس الأيام التي أعقبت عيد الفصح، كانت صرخة ريتش المفاجئة أكثر حدة، وهو يرى ذلك الثور الضخم، والذي هو مزيج مِنْ الكائنات والإنسان والرموز، عند البوابة. أما ماري التي لم تتمالك نفسها مِنْ البكاء، فكانت دموعها خليط عجيب مِنْ الخوف والتقدير والحب، وحتى الهيام.

الضخامة الهائلة، القوة التي لا تقهر، الاختلاف الكلي عن المحيط، مِنْ حيث لون التمثال، أو نوع الصخور التي قَذ منها؛ وأيضاً المهابة الكلية، الممزوجة بالخوف، التي تصدم عيني كُلّ إنسان فِي لحظات اكتشافه الأولى.

فِي تلك اللحظات، والشماس يحاول أن يشرح ويفسر، لم يكن ريتش بوارد أن يسمع أية كلمة، قبل أن يتملي، أن يُشبع حواسه كلها بهذا المشهد. أشار بيده اليسرى، وقد زمها تماماً، طالباً مِنْ الشماس أن يهدأ، أن يكف عن أيّ شرح أو تفسير، فقد كان يروق له، تحت تأثير الانفعال، أن يتماس مع هذا الأثر الهائل، أن يغرق فيه، أن يتفاعل معه إلى الحد الأقصى، ثم يأتي، بعد ذلك، العقل، المنطق، أو أية وسيلة أخرى، التفسير ذلك!

وإذا كان الثور رمز حضارات أخرى، دلالة على القوة والخصب، فإن هذا الثور يختلف عن أيّ ثور آخر وُجد أو يمكن أن يوجد. فالجناحان اللذان يبرزان فِي الجوانب لا يؤكدان السيطرة والقوة فقط، بل ويقولان أيضاً القدرة على الاجتياح، الصعود إلى الأعالي، الرغبة فِي إعادة تركيب الكون، ما أن يشير إليه الملك كي يفعل.!

لقد كان الشماس بارعاً وخبيثاً، لأن مشهداً مثل هذا لا يمكن أن تصطدم به العين فِي مكان أو زمن ويبقى الإنسان كما كان قبل رؤيته!

حتى الآثار المصرية العملاقة التي شهدها ريتش وماري معاً، ولم تستبعد ماري أن تكون مخلوقات مِنْ خارج هذا الكوكب قد ساهمت بتشييدها، وكانت مستعدة للدفاع عن ذلك. إلا أنهما فِي نهاية رحلتهما المصرية توصلا إلى مجموعة مِنْ الاستنتاجات والقناعات، كانت القادرة على تفسير تلك الحضارة.

أما هنا، فِي هذا المدى اللامتناهي مِنْ السهول والبياض، وأيضاً مِنْ التربة الرخوة اللحقية، فلا يعرف الإنسان كيف يفسر، أو يقتنع بسهولة، الشيء الوحيد، الذي يمكن أن يُفسر، جزئياً، قوة هذه المملكة وجبروتها، وبالتالي

قدرتها على تسخير الآخرين، كُلّ الآخرين، كي يكونوا فِي خدمتها، مِنْ أجل جلب تلك الصخور مِنْ فوهة الجحيم، بذلك الملمس الناعم، وتلك اللمعة الخارقة الاستثنائية. إذ لا بد أن تكون النيران وحدها هي التي تولت صقلها وإعادة تشكيلها لتصبح بذلك النقاء، بتلك الصلابة، وأيضاً بذلك اللمعان المذهل.

بعد ساعات مِنْ التأمل والدوران، قالت ماري:

- يمكن أن تقول أيّ شيء يا كلود، يمكن أن يكون رأيك مختلفاً عن رأيي، لكن يجب أن تعرف شيئاً واحداً: أنا مستعدة أن أدفع حياتي ثمناً للثور المجنح...

أخذت نفساً عميقاً، وعلا الشحوب وجهها، قبل أن تضيف:

ـ أثر مثل هذا لا يمكن أن يُترك فِي هذا المكان الموحش، وأن يكون تحت تصرف شعب متخلف لا يفهم ولا يقدر ما لديه، وقد يسيء إلى هذا الأثر دون أن يحس أنّه يرتكب حماقة أو جريمة!

تطلع إليها ريتش طويلاً قبل أن يسأل:

ولكن ماذا نستطيع أن نفعل يا عزيزتي؟ لو كان صغيراً يمكن حمله، ولو كانت لدينا وسائل تساعدنا على التعامل معه، لما ترددت فِي الموافقة على نقله إلى بريطانيا فوراً، كي يحمي امبراطوريتنا الراهنة كما حمى إمبراطوريات سابقة... لكن انظري إلى ضخامته، إلى وزنه، إلى ارتفاعه، فما عسانا نفعل إزاء وضع مثل هذا؟ ردت ماري بانفعال أقرب إلى التحدي:. وكيف فعل الذين نحتوا مثل هذا التمثال قبل آلاف السنين؟ هل كانوا أقوى أو أكثر جدارة منا؟ ألم يجلبوا الصخر مِنْ أمكنة بعيدة؟ ألم يشعروا بالتحدي الذي فجر كُلّ عبقريتهم؟

وتغيرت نبرة الصوت وهي تضيف:

يجب يا كلود أن تفكر بكل هذا لكي تحس بالتحدي، يا عزيزي، هل يمكن أن تسلم بالهزيمة قبل أن تخوض المعركة؟

ولكن ماذا نستطيع أن نفعل، هذا هو السؤال؟

فعلاً هذا هو السؤال!

بعد أيام، وكانا لا يزالان يفكران بطريقة مناسبة للتعامل مع الثور المجنح، وفِي محاولة لإقناع ماري باستحالة التعامل مع أثر بهذا الحجم، قال ريتش بمزيج مِنْ الحزن والسخرية معاً:.

ألم تقولي، يا ماري، قبل فترة، ونحن نتحدث عن أهرامات مصر، أن مخلوقات مِنْ كواكب أخرى هي التي صنعت تلك العجائب؟

نعم. قلت، ولكن ماذا يعني هذا؟

- لو أننا نملك قوة أكبر، ظروفاً أفضل، لفعلنا مثلهم!

ماذا تقصد؟

ـ إذا استبعدت المخلوقات مِنْ الكواكب الأخرى التي يمكن أن تشيد مثل تلك العجائب، واعتمدت على نفسي، لسخرت مئات، ألوف العمال، وأجبرتهم على سحب الثور المجنح، وربما شيئاً أكبر منه، مِنْ هذا المكان إلى البصرة، وحالما يصل إلى هناك، وتكون سفننا موجودة، نستطيع أن نرحل الثور، ومعه ثيران أخرى إلى بريطانيا.. وكاد يسترسل، ولكن سؤال ماري لم يتأخر ـ إذا كان مئات العمال يكفون للقيام بهذا العمل، فما الذي يمنعنا مِنْ تأمين هؤلاء وتكليفهم مِنْ أجل إنجازه؟

- ولكننا لسنا الحكام، بعد، فِي هذا المكان، يا ماري..

وبعد قليل وبحزن:

- لو كانت لدينا القدرة لتسخير العمال، دون ردود فعل، لما ترددت فِي القيام بذلك! يمكن أن ندفع أجورهم، يمكن أن يساعدنا الأصدقاء دون غضاضة!

ولكن أن تتم عملية مِنْ هذا النوع، تحت أبصار الناس، لا بد أن يسيئوا فهم الموضوع كله...

وزفر، هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ هؤلاء الشرقيون كثيرو الشكوك، يسيئون الظن بكل شيء لا يفهمونه، إذ يحولون التراب إلى ذهب، ويعتبرون ما يُريده غيرهم، أيا كان، ذا قيمة استثنائية. ويطالبون مقابلاً له قيمة تزيد مئات آلاف المرات، عن قيمته الحقيقية، فقط لأن غيرهم يريده.

وبعد قليل:

- لبريطانيا أهداف كثيرة فِي هذا البلد، وفِي البدان المجاورة، ومن الخطأ أن يرانا الناس نحلبهم، ونسرق خيراتهم...

وتغيرت اللهجة تماماً:

- يمكن أن يعطوا الكثير، دون شعور بالغبن، إذا افترضوا، أو توهموا، أنهم يعطون، لأن الكرم مِنْ الصفات التي يتميزون بها، وقد يبالغون فِي هذا المجال كثيراً، لكن إذا أحسوا أن ما يؤخذ يتم دون معرفتهم، دون ارادتهم، فعندئذ يتحولون إلى مجموعة مِنْ الحمقى، وتكون ردود أفعالهم غريبة، وغالباً لا تتناسب مع أهمية الشيء الذي أخذ! ومثلما اشتعل خيال ماري فِي

الأمكنة السابقة، فقد اشتعل إلى درجة الالتهاب فِي مواجهة الثور المجنح. أصبحت لا تتحدث إلا عنه، ولا تريد أن ترى شيئاً غيره، ولا تتصور أن هناك رمزاً للقوة أكثر منه اكتمالاً. كما أخذ خيالها يتفتق عن اقتراحات لا تخطر ببال مِنْ أجل نقله إلى بريطانيا.

وريتش الذي كان يشاركها الرغبة ذاتها، رجل عملي، لذلك انصرف تفكيره إلى محاولة حرمان الفرنسيين مِنْ الإنفراد، لأن الزمن سيعمل لمصلحته، فإذا استطاع الآن منعهم، ولفترة مِنْ الزمن، فسوف يجد الطريقة التي تمكنه مِنْ التعامل مع هذا الأثر الهام.

وزيادة فِي الحيطة سوف يلجأ إلى أكثر مِنْ قوة، واعتماد أكثر مِنْ أسلوب فِي التعامل. سوف يبعث إلى اسطنبول ولندن، وإلى الهند أيضاً، يطلب آثاريين، وضرورة التعجيل بإرسالهم، كي ينقبوا ويركزوا حيث يعمل الفرنسيون الآن والفرنسيون بمقدار ما يبدون هادئين، أو يتظاهرون بالهدوء، فإنهم، فِي أعماقهم، مجموعة مِنْ الحمقى، إذ يسهل استفزازهم، فما أن يروا الإنكليز إلى جانبهم، قريبين منهم، حتى يتهيجوا كما تتهيج الثيران مِنْ اللون الأحمر، ولا بد أن يبدأوا المعركة. وعند ذاك يمكن تدبر الأمر معهم!.

لن يكتفي بذلك، سوف يبحث الأمر فِي بغداد. وعلى ضوء ردَّ الفعل الذي سيلقاه هناك، يمكن أن يوسع المعركة أو أن يختصرها، خاصة أن الأتراك عموماً، وهذا الوالي على وجه التحديد، كثير والشكوك، شديدو الارتياب بكل ما يفعله أو يقوله الإنكليز، وفِي أحيانٍ كثيرة يهزون رؤوسهم موافقين ودلالة الاقتناع، لكنهم يفعلون العكس تماماً، تعبيراً عن الكبرياء، ورغبة فِي إظهار استقلالهم أو عدم خضوعهم لهؤلاء الأجانب الكفرة.

وأغرب شيء أنهم يعنون بالأجانب الكفرة الإنكليز وحدهم، وكأن الفرنسيين يصلون معهم الصلوات الخمس، أو ربما صدقوا ما أعلنه نابليون أنّه أسلم وارتدى العمامة!.

قد لا يضطر لبحث الأمر مع داود باشا بالذات، إذ يمكن لأحد مساعديه، الكيخيا أو عزرا، أن يكفي أحدهما أو كلاهما لوضع حد لنشاط الفرنسيين، كما أنهم سيكتمان الأمر عن الوالي، إذا لم يكن بصورة نهائية، فلا أقل مِنْ مرور فترة تكفيه كي يتصرف؟

وإذا كان الاثنان سيطلبان ثمناً، الكيخيا يريد ثمناً سياسياً، بالدعم والتأييد إذا تطورت الأمور؛ وعزرا، مثل عادته، وإن تظاهر أنّه يمزح، يمد يده ويحرك أصابعه بطريقة معينة، مع نكتة يرويها، ولا تخلو مِنْ مغزى، طالباً مقابلاً لأية خدمة يؤديها، إذا كان أحدهما أو كلاهما سيطلب مقابلاً ويبالغ فِي ذلك، فإن لِديه وسيلة إضافية لمواجهة الموقف: سيعتمد على قوة محلية، إذ ليس

أسهل مِنْ إيكال هذه المهمة لإحدى القبائل، وعند الضرورة لقبيلتين، ويجعل ساحة المعركة التي ستدور: قرصباد، مما سيؤدي إلى حرمان الفرنسيين مِنْ العمل، وجعلهم فِي خطر دائم، وقد يضطرهم هذا إلى الهرب، أو على الأقل لإيقاف جميع الأعمال... حتى إشعار آخر؟

حين وصل ريتش إلى هذه الحلول والبدائل شعر أنّه أنجز نصف المعركة، فالخطة الجيدة، خاصة فِي مواجهة مهزوم، تحديداً فِي أوروبا، معناها إلحاق المزيد مِنْ الهزائم بهذا الخصم، لأن النصر يقود إلى نصر، كما أن الهزيمة تؤدي إلى هزيمة أكبر، خاصة وأن «الآخر» يحارب بردود الفعل، بالانفعال والخوف مِنْ هزيمة جديدة.

لما لاحظت ماري ابتسامة على وجه ريتش، ولم تعرف لها سبباً، أو كيف تفسرها، سألت:

مثلما أحب ابتسامتك أخاف منها... يا كلود؛ واصل ابتسامه وطرَف بعينيه موافقاً، وهي طريقة يلجأ إليها بعض الأحيان، خاصة مع الغرباء، حين يستمع إليهم وهم يثرثرون ويحركون اجسادهم كلها، كوسيلة إضافية للإقناع. لما تراه ماري هكذا فِي احتفالات القنصلية، تحرك وجهها متسائلة، عند ذاك يزيد ابتسامته، ويطرف بعينيه الاثنتين أو يغمز بواحدة، دلالة أن كُلّ شيء يسير كما يريد. بعد انتهاء مثل تلك الحفلات، وحين تسأله عن أحد المواقف، أحد الأشخاص، وكيف ردَّ، يقول بثقة:

ـ فِي المدرسة تعلمنا الإصغاء، وفِي وظائف الخارجية تعلمنا مع الإصغاء الابتسام، وفِي مثل هذه البلدان تعلمنا أيضاً أن نسمع ما يقولون، وأن نفعل ما نريد؟

- والآن: أياً مِنْ الدروس تريد تطبيقه معي، أو علي؟

- تعرفين، ماري، ان ليس كُلّ ما يتعلمه الإنسان قابلاً للتطبيق؛ وليس كُلّ ما هو قابلاً للتطبيق يمكن أن يطبق بنفس الطريقة، أو على الجميع!. لم أفهم شيئاً أبداً!

- بصراحة: فكرت كيف نواجه الفرنسيين!

- قل لي كيف؟

ـ أن نكسب الزمن، وأن نكون عقلانيين!

ـ ولكن عملياً... كيف يتم ذلك؟

- شغل أقل. خيال أقل. صبر أكثر.. هدوء دائم!

وفِي الليل، وكان القمر بدراً، وقد انتظرت ماري اكتمال القمر، وكانا فِي جو مِنْ المرح والود، وهما يحاولان أن ينجبا طفلاً، ذكر لها كيف خطط، وما

يمكن أن يفعله، أولاً، لوقف الزحف الفرنسي، ثم بعد ذلك، وبالتعاون مع الآثاريين الذين سيصلون، كيف يمكن التعامل مع الآثار الهامة التي رأوها فِي الأماكن الثلاثة الأخيرة.

أما فِي اليوم الأخير لزيارة قصر سرجون الثاني، وبعد أن طافت ماري فِي كُلَّ الأنحاء، فقد توقفت طويلاً، وربما للمرة المائة، عند الثور المجنح. كانت تتلمس جنباته، وبأقصى ما تمكنها أصابع القدمين مِنْ الامتداد. كانت تتلمس وتتطلع إليه، إلى السماء، إلى قوة مجهولة، كي تقوى على الوفاء بالنذر الذي قالته، وكانت تتطلع إلى القمر: أريدك هناك، بمكان يليق بك، لتخلص مِنْ الوحشة التي امتدت آلاف السنين، وأريد الطفل هنا طبطبت على بطنها، وأخذت نفساً عميقاً، وبكل ما تملك مِنْ قوة!

فِي اللحظات الأخيرة، وقد جيء لها بالحصان الذي ستمتطيه، وكان الشماس مشتعلاً، نتيجة شربه مقداراً كبيراً مِنْ النبيذ الذي أهدي إليه مِنْ قرية مجاورة، قال لها وقد أسند كعبها الأيسر بيده ليساعدها على الركوب:

- تمنيت لو تتاح الفرصة لسيدتي أن تمتطي هذا الثور كما تمتطي هذا الحصان!

تطلعت إليه شاكرة، ثم التفتت إلى ريتش، ولا تعرف كيف قالت:

- سنقضي ما تبقى لنا مِنْ أيام على هذه الأرض إلى جانبه هنا...

وهناك.

ولما رأت ابتسامته، ورأت عينيه تطرفان، أضافت:

ـ لا بد أن يغادر هذا المكان الموحش، نعم يجب أن يفعل ذلك...

وبطريقة حالمة:

نعم، سوف يغادر، سوف يتحرك، إذا لم يكن كتلة واحدة، مجموعة مِنْ الأجزاء، وإذا أراد أحد، ذات يوم، أن يشهد الثور المجنح، فلن يتكلف الوصول إلى هنا، سوف يراه هناك!

وعادت القافلة إلى الموصل. وخلال الأيام القليلة التي قضتها هناك، استقبل ريتش الكثيرين، وقدم هدية لائقة للكنيسة، وهدية خاصة المشماس، وشكر كُلّ الذين أتاحوا له هذه الرحلة التاريخية.

فِي النصف الثاني مِنْ حزيران عاد ريتش إلى بغداد، بعد أن قضى ثلاثة أشهر وبضعة أيام فِي رحلته إلى الشمال. توقف، بشكل متعمد، فِي خان بني سعد وقتاً إضافياً، ريثما تستكمل كافة الترتيبات التي تليق بعودته ودخوله، بعد هذا الغياب الذي بدا طويلاً بالنسبة له، وأيضاً لآخرين كانوا ينتظرون هذه العودة.

تراءت له بغداد، وقد دخلها بعد العصر وقبيل الغروب، مدينة مختلفة، مِنْ حيث المناخ، ومن نظرات الناس أيضاً، فالبرودة، أو على وجه أدق، الجو المنعش الذي رافقه حتى بعودته، أصبح لافحاً شديد الحرارة، خلال النهار، منذ أن ترك تلك البلدة. ولو كان الأمر عادياً، ولا يتعلق بغيابه الطويل، ثم بمتطلبات المنصب، وما يقتضيه مِنْ مراسم لائقة، لفضل دخول بغداد ليلاً، أو فِي الصباح الباكر، كي يتجنب الحرارة والإرهاق، لكن، وكما قال لنفسه، وهو يحدد ساعة وصوله: «... فِي أحيان كثيرة يجب أن يتكيف الإنسان مع طبيعة المركز الذي يشغله، والموقع الذي يكون فيه، خاصة فِي بلد مثل هذا، حيث تُعطى للمظاهر المرتبة الأولى فِي تحديد الأهمية والقوة»..

ورأفة بماري، وبعض النسوة اللواتي كن معها، فقد فكر للحظة، أن يبعث بها قبله، لتتجنب قطع المسافة بين خان بني سعد وبغداد تحت تلك الشمس الحارقة، لكن ما لبث أن صرف النظر عن تلك الفكرة، فقد أرادها أن تكون إلى جانبه هذه المرة، وهو يدخل المدينة، لما سيكون لذلك مِنْ وقع استثنائي، لا بد أن يصبح حديثاً لبغداد أياماً بعد أيام، خاصة بعد أن لوحتها الشمس، وجعلتها متوردة متألقة، واكتسبت سمرة فاتنة ملفتة. ثم إن أهل بغداد إن كانوا قد لمحوا ماري، وربما رآها بعضهم عن قرب، فسوف تكون شديدة التأثير، وسط الموكب، إلى جانبه، حين تتعلق بها الأنظار!

أكثر مِنْ ذلك، يريد أن يعطي درساً، حتى لو كان أقرب إلى الصدمة، لهذا المجتمع المنافق، خاصة للطبقة الثرية والحاكمة فيه. إذ بمقدار ما تتظاهر هذه الطبقة بالعفة والطهارة، حين تغيب النساء بشكل كامل، حتى يظن الإنسان، فِي لحظات معينة، أن هذا المجتمع يخلو بالمطلق مِنْ النساء، فإن الوقت الذي يُصرف على التفكير بالمرأة، والحديث عنها، لا يُصرف مثله فِي مكان آخر مِنْ العالم! كما أن أنواع الممارسات التي تجري بسرية، تحت جنح الظلام، فِي البساتين، أو فِي بيوت خاصة، تجعل الإنسان يتساءل: إذا

كانوا غارقين فِي هذا الجو، وإلى هذه الدرجة، متى يكون لديهم وقت للأشياء الأخرى؟

ثم ماذا يقول الناس، وهم يرون ماري، التي جاءت مِنْ أوروبا البعيدة، مِنْ انكلترا، تمتطي ذلك الحصان الأسود الشموس، والذي يعرف كيف يُظهر نفسه ويظهر الفارس الذي يمتطيه، حتى لو كان ضمن مئات الخيول؟

إن الصدمة، فِي حالات كثيرة، بداية الرؤية الصحيحة للأمور. كما تجعل، حتى أبلد الناس، يقارن ويتساءل، وقد يعيد النظر بمسلمات كانت قائمة وراسخة إلى ما قبل حدوث تلك الصدمة. ومهمته منذ أن وصل إلى هذه المدينة أن يكون مركزاً لكل شيء، ليشعر الجميع أنّه لا يمكن حدوث أمر أو استمراره دون موافقته، ليس لبراعته فقط، بل ولأهمية الدولة التي يمثلها، هذه الأهمية التي يقر بها الجميع، وإن كان الحكام يحاولون تجاهلها، فِي الظاهر، لكن فِي أعماقهم يعترفون ويحسبون، وبالتالي لا يتخذون أية خطوة إلا وفِي تقديرهم أن الباليوز راض عنها، أو فِي أسوأ الأحوال لا يعترض عليها؟

وتراءت لريتش صورة داود باشا: «يبدو ناعماً، ولا يخلو مِنْ لطف، كما يحسن الاصغاء، لكنه بارد، شديد الحذر. أما إذا أراد أن يتجاوز حدود المجاملة، ويسترسل فِي الحديث، فإن ما يقوله لا يمكن إعادته أو تلخيصه، إذ لا يتعدى الكلمات المألوفة، المتداولة، والتي لا تعني شيئاً فِي النهاية. كما أن شعوره بأهميته لا تخفى. يتبدى ذلك مِنْ المظاهر والشكليات التي أدخلها على السراي، مِنْ حيث طريقة الاستقبال، وملابس الحرس ورجال التشريفات، إلى نافخي الأبواق، والذين يقدمون القهوة والغلايين، ثم الذين يمرون بالمباخر. أما الصمت الذي يخيم على السراي، فيبدو عميقاً ممتداً وكأن لا أحد فِي مساحة قطرها ميل أو يزيد، وحين تنتهي الزيارة يضج البهو والممرات فجأة بأصوات رجال لا يُعرف أين كانوا، أو كيف انفجروا هكذا!»
كان ريتش يسترسل، وهو يستعيد صور داود: حين كان قريباً مِنْ سعيد؛ ثم لما اعتزل؛ ولما تسلل إلى الشمال دون أن يحس به أحد. ورغم أن الباليوز زرع رجاله فِي كُلّ مكان، ومثلما كان له رجال قرب الوالي، كان له رجال فِي التجمعات المناوئة، وفِي الأسواق، وله صداقات فِي أوساط كثيرة، بحيث يعرف كُلّ ما كان يدور. إلا أن شعور ريتش بالغيظ الأن داود غادر المدينة دون أن يحس، لا يزال قوياً. بل أكثر مِنْ ذلك رافقه بعض الأشخاص الذين كانوا مِنْ أصدقاء الباليوز، ويعرفهم ريتش شخصياً.

أما بعد أن عاد داود والياً لبغداد، فقد بقي لطيفاً ودوداً، بل وحاول أن يتظاهر بنسيان مواقف الباليوز فِي دعم سعيد، أو فِي حماية بعض رجاله،

ثم كيف أخرج العديد منهم فِي الوقت المناسب، لعلهم يكونون شركاء لداود بعد أن تعذر عليهم أن يصبحوا حكاماً..

ولأن عادة ريتش ألا يقطع مع أحد، حتى لو تحول إلى خصم، إذ يُبقي صلة مِنْ نوع ما، وغالباً خفية وغير مباشرة، فقد تلقى رسائل مبكرة مِنْ سفارته فِي اسطنبول، تبلغه أن نتيجة الصراع الذي يدور فِي بغداد ستكون لمصلحة داود، لأن اسطنبول اختارته لحكم العراق، وتطلب السفارة منه وتؤكد أن يبقى قريباً وإيجابياً، وتضيف واحدة مِنْ الرسائل: «... ثم إن ما يهمنا، ويجب أن تنتبه إلى ذلك جيداً، ليس الكلام الذي يقال، وإنما الأعمال والخطوات التي تتخذ، لأن العادة فِي الشرق أن يقال كلام كثير، وبعض الأحيان شديد التباين، لإرضاء بعض الفئات، أو لمواجهة بعض المصاعب. وقد يكون ضمن الذي يقال ما يسيء أو يجرح، وربما لا يخلو مِنْ تعريض أو اتهامات. أمور مثل هذه غير مستبعدة، يجب أن نسجل اعتراضنا عليها، لكن يجب أن لا تصبح بمثابة إعلان حرب أو سبباً اللقطيعة».

كانت مثل هذه الصور تتلامع فِي ظهيرة ذلك اليوم بذهن ريتش، بعد أن تحولت قافلة الشمال إلى موكب أقل حجماً، لكن أكثر انتظاماً وتجانساً وتماسكاً. أما حين استقبلته الفرقة الموسيقية التابعة للباليوز عند مشارف بغداد، بملابسها الأنيقة اللامعة وخيولها المنتقاة، الحسنة الطلعة والزينة، فقد شعر أن رحلة الشمال كانت ضرورية، وتحمل معاني كثيرة، ولعدة جهات. ولما نظر إلى ماري بجانبه، وهو يدخل بغداد، ورأى الناس يقفون على جانبي الطريق، وبدوافع مختلفة، فقد تأكد أنّه يمثل دولة عظمى، أو بكلمة أدق: أعظم وأقوى دولة فِي العالم.

ورغم أن رسائل عديدة وافته مِنْ الباليوز إلى الشمال، وفِي عدة محطات على الطريق، وكان بعضها يطلب رأيه بأمور محددة، فإن كم الأخبار الذي وصله، ومن مصادر مختلفة، جعله يشعر، فِي لحظات معينة، وكأنه لا يزال فِي بغداد، وأن شيئاً لم يفته، لكن والناس ينظرون إلى موكبه، بدا له أن فِي العيون أكثر مِنْ حب الاستطلاع، مثل عادتهم فِي مرات كثيرة سابقة، إذ تحمل النظرات معنى التساؤل والإعجاب، وفيها شيء مِنْ الدهشة.

ومع أن الحرارة لا تزال لافحة، إلا أن البساتين على الجانبين، ثم قرب النهر، وتلك النسائم التي تهب عادة مِنْ جهة الغرب فِي مثل هذا الوقت، جعلت حشود الناس تتزايد ما إن يُسمع صوت الموسيقى، وما إن يتقدم الموكب، خاصة بعد أن اجتاز الباب الشرقي، نحو وسط المدينة.

فِي لحظة معينة، ورغم انتظام سير الموكب، إلا أن صوت طبل مفاجيء، وقد ارتفع بقوة مِنْ أحد الأزقة، ولد نشازاً أجمل الخيول، وكان أولها حصان

ماري، لكن استطاعت بسرعة، وبكفاءة لفتت نظر الكثيرين، أن تسيطر عليه. وسمعها، وقد انتظمت خطوات الموكب مِنْ جديد، تقول:

- مناظر رائعة. شيء لا يصدق! لم يجب، التفت إليها بطرف وجهه، وغمز بعينه.

ناطق أفندي الذي أرسل مِنْ السراي لاستقبال ريتش، ووقف طويلاً مع مساعد القنصل، لفت نظره زي العاملين فِي الباليوز، الذين جاءوا للاستقبال. إذ رغم تنوع الأزياء، فقد احتفظ الذين جاءوا مِنْ الهند بملابسهم الهندية، وكذلك الذين جيء بهم مِنْ افريقيا، ومن مدغشقر، وإن غلب على الآخرين الزي البريطاني، الشديد الصرامة، لكن بدا المشهد بمجموعه منسجماً، بل وجميلاً. وقد ثمن ناطق أفندي عالية الدقة والانتظام، بدءاً مِنْ الزي، مروراً بالوقفة الجادة، وانتهاء بالصمت الجليل الذي سيطر تماماً، حتى على الحيوانات! أما حين أراد أن يفتح حديثاً مع مساعد القنصل، فقد تلقى إجابات سريعة، رداً على الأسئلة التي وجهها، وكان الصوت همساً أو أقرب إلى الهمس، دون أن تلتقي النظرات، وما البث أن انتهى الحديث كما بدأ.

قال ناطق أفندق لنفسه، رغم المرارة التي شعر بها لانقطاع الحديث:

السبب فِي عظمة الدول، واتساع ممالكها، وقدرتها على إخضاع الآخرين، يتلخص بأمر أساسي: وجود النظام، وتفيد الجميع بهذا النظام، مِنْ الكبير إلى الصغير، وفِي كُلّ الأوقات. هز رأسه عدة مرات ضجراً، وقد طال وقت الانتظار، وأيضاً نتيجة الحرارة، لكن لما التفت حواليه، ورأى رجال الباليوز، شعر بالخجل، إذ ربما كانوا مسرورين فِي هذا الجو، وسعداء أنهم ينتظرون صامتين. قال ليعزي نفسه: «فِي جو مختلف عن الأجواء التي عاشوا فيها، وبين شعب لا يكن لهم الود، ومع ذلك يبدون راضين، أما نحن....

أما حين سلم على ريتش، وقدم التحيات باسم الوالي، فقد قذر ريتش هذه الالتفاتة، وطلب إليه أن ينقل إلى الوالي تحياته واحترامه. وحين وقعت نظرات ناطق أفندي على ماري، وقد لبست ملابس الفرسان، واعتمرت قبعة مِنْ الفلين، فقد بدت له أشبه باللعبة، بالبشرة التي لوحتها الشمس، وتركت فِي بعض المواضع ظلالاً زادتها فتنة، وكاد، فِي لحظة انفعال، أن يمد إليها يده، لكن فِي اللحظة التالية، وخشية مِنْ الخطأ، اكتفى برفع اليد فِي الهواء، مع هزات رأسه وابتسامة عريضة قالت تقديره وحتى إعجابه.

أما التقرير الذي رفعه إلى الباشا فكان موجزاً، لكن له دلالات لا تخفي. كتب:(... وصل سعادة القنصل قبل أذان المغرب بساعة زوالية. كان حصانه يسير خبباً، وإلى جانبه فارس آخر، وهو معه الحافر على الحافر، لا يقترب ولا يتأخر عنه، حتى ظن مِنْ رأى الموكب أن له أميرين وليس أمير واحد،

فلما اقتربا تبين أن حرم القنصل مِنْ كانت تساوقه. كانت بملابس الفرسان، بلا شارة أو نيشان، لكن بهاء الطلعة، وجلال التلعة، قالت عن المقام حتى دون كلام؛ أما باقي موكب القنصل فالمساعدون والحرس، كُلّ بهندام يليق وبمسافة تحدد ولا تعيق. وبعد أن أبلغته تحيات المقام العالي، تمنيت له طيب الوصول والمقام فِي حضرة وحماية والينا، فشكر وحمد وقدر، وطلب أن تُرفع لمقامكم أسمى التهاني مع دوام الصحة والعافية وراحة البال.) استدراك 1: كانت ملابس القنصل وحرمه تشبه ملابس صيادي الفرنج، أما الألوان فكانت أقرب إلى لون التراب الجاف. حتى العمائر كانت بذات اللون. أما باقي الموكب فاللون هو البهاري الكاشف، عدا ميناس فقد ارتدي زياً عربياً أقرب إلى زي بدو الموصل.

استدارك 2: بناء للتعليمات لم أمكث أكثر مِنْ الوقت الذي يتطلبه تقديم التحية، واعتذرت بعدها وانصرفت، سالكاً طريق الشط.

استدراك 3: لا يمكن تقديم توصيفات أكثر لمقامكم إلا إذا كانت الرغبة حاصلة والسؤال قائماً وبانتظار التوجيه. خادمكم ناطق قزويني.

الأخبار التي سرت فِي السوق أكدت منذ الصباح أن القنصل عائد ذلك اليوم. وإذا كان الكثيرون هزوا أكتافهم دون اهتمام، وكأن الأمر عادي أو لا يعنيهم، فقد انتشرت عند الضحى إشاعة قوية أن القنصل يصطحب معه فِي عودته أعداداً كبيرة مِنْ حيوانات الجبال النادرة، وستعرض هذه الحيوانات أمام العموم، لكن لم يُحدد ما إذا كانت ستتقدم موكب القنصل أم ستتبعه. وجاء مِنْ قال عند الظهر ان الباليوز، وكنوع مِنْ التقدير العالي المقدم القنصل، سوف يصطحب فِي الاستقبال عدداً مِنْ الحيوانات المفضلة لدى سعادته. وأكد بعض المتفائلين وأصحاب الخيال، أن نزالات سوف تجري بين الحيوانات القديمة والجديدة، لكن لم يقل أحد منهم أين، وهذا ما جعل الكثيرين، خاصة مِنْ الصبية والنساء، يخرجون إلى الشوارع، ترقباً لهذا الحدث الخارق الذي لا بد أن يقع، إذا لم يكن فِي الباب الشرقي فبكل تأكيد فِي الباليوز أو حواليها

حسون رافق موكب القنصل مِنْ الباب الشرقي حتى الباليوز، الأمر الذي جعله، خلافاً لعادته، يتأخر أكثر مِنْ ليالي سابقة فِي الوصول إلى قهوة الشط!

ولما كانت الأخبار والإشاعات قد انتقلت مِنْ الرصافة إلى الكرخ عند الظهر، أو بعد ذلك بقليل، وكانت أثناء انتقالها، خاصة فِي المراكب التي تتباطأ حركتها بين الضفتين فِي مثل ذلك الوقت مِنْ النهار، لقلة عدد الراغبين فِي الانتقال، أو لتباعد وصولهم، كانت الأخبار تتضخم وتتغير وهي تنتظر على الضفة الشرقية، ثم أثناء عبور النهر، حتى إذا وصلت إلى الضفة الأخرى تصل مختلفة، مليئة بالمبالغة، حتى لا تكاد تصدق!

وأهل الضفة الغربية، الذي يميلون بطبيعتهم إلى الابتعاد عن السلطة، ويكرهون هؤلاء الأجانب الذين وصلوا فجأة، لا لكي يمارسوا التجارة، كما هي العادة، وإنما لينشروا هذا القدر الكبير مِنْ الأسئلة والمخاوف، إذ كانوا يتحركون فِي الليل، ويظهرون فجأة ويغيبون فجأة، ولا يعرف على وجه الدقة، أو على وجه اليقين، ماذا يفعلون أو ماذا يريدون؛ أهل هذه الضفة كانوا يراقبون عن بُعد، ويضعون بينهم وبين هؤلاء الأجانب مسافة، كما يشكرون الله أن البالبوز بذاك الصوب، وليس عندهم، وإلا لكان حالهم أكثر سوءاً ولزادت مخاوفهم أيضاً.

الآن، وقد وصلت الإشاعات والأخبار بهذا الشكل، لا يعرفون ما يصدقون وما يكذبون. وما عدا بعض الصبية، وعدد قليل مِنْ الرجال الذين لم يستطيعوا مقاومة الفضول، خاصة وأنهم لم يروا الحيوانات التي عرضها الباليوز قبل فترة، فقد اندفع هؤلاء يركبون الزوارق إلى الضفة الأخرى؛ أما الصبية المفاليس فقد وضعوا ملابسهم على رؤوسهم، أو أمسكوا بها بيد، ومالوا قليلاً على جنوبهم، وهم يخبطون الماء بيد واحدة، كي يعبروا النهر. وحين تتعب يد مِنْ الإمساك بالثياب، أو مِنْ طريقة السباحة، كانوا يبدلون. ولقد شعر هؤلاء بفخر حين عبروا ووصلوا مثل الآخرين، خاصة وأن التيار لم يحملهم إلى نقطة محددة فِي الجهة الأخرى، وإنما سار بهم بعيداً، فما وجدوا أنفسهم إلا وهم أقرب ما يكونون إلى الباب الشرقي!

فرحوا بذلك، ولم يأبهوا لبلل الثياب، رغم حرصهم ألا تبتل، وما كادت أقدامهم تطأ صوب الرصافة حتى ارتدوا ثيابهم على عجل، والتحقوا بكثيرين كانوا متجهين إلى الباب الشرقي لرؤية عجائب ذلك اليوم!

حسون الذي يفاجئه أيّ شيء، كان هذه الليلة مفاجآ أكثر مِنْ ليالي أخرى كثيرة. دخل قهوة الشط متأخراً وهو يصيح بانكسار وضعف:

- فريرات... فريرات الذين التفتوا إليه، ولم يروه يحمل أية فريرات، هزوا رؤوسهم طويلاً بتساؤل وباستغراب. لم يأبه إلى العيون التي كانت تتابعه وهو يذرع القهوة إلى نهايتها، ثم ينزل الدرجات القليلة كي يصل قريباً مِنْ الرواد الذي فضلوا الهواء الطلق، مقابل النهر تماماً، وهناك اقتعدوا الكراسي المصنوعة مِنْ سعف النخيل. وصل حسون إلى هناك وهو يصيح بنفس الطريقة المسكينة:

- فريرات.. إي نعم فريرات، منو اللي يريد يشتري فريرات حسون؟

بعد هذه الجولة، وبعد أن سمع عدة مرات أسئلة لا تخلو مِنْ بذاءة، وهي تستفسر أين وضع الفريرات، وقف فِي أعلى الدرجات، وما كاد يُسأل مِنْ جديد عن فريراته، حتى وضع يده على صدره، عند القلب، وهو يردد:

- الفريرات هنا، يا معودين. فؤادي متروس فريرات، لكن منو يعرف، منو يدري؟

وتغيرت النبرة، أصبحت وجداً:

مو بس قيس مجنون، مو بس عنتر بليا عقل؛ اليوم، بعد شوفة اليوم، حسون جن، صار أكبر مجنون! وتتعالى الأصوات:

حرامات.... حرامات يجن حسون!

ـ له.. الله... لله، ما معقول، لأن إذا اكو عاقل بالدنيا هو حسون!

حسافا إذا جن حسون!

ـ موافقين على اللي تقوله، بس شنو اللي جننك؟

ـ إذا كانت ليلي جننت قيس، وعبلة كسرت ظهر عنتر، فأنت منو اللي جننك؟ منو اللي كسر ظهرك؟

ويصيح حسون، وهو يرفع يديه طالباً الصمت، ومشيراً إلى آخر الذين علقوا:

- يسلم حلقك، أبو عبد الله، لأنك عرفت الداء! يتوقف قليلاً، ويتوجه إلى الجميع - إذا ابن الأوادم، أبو عبد الله، عرف الداء، فمنو منكم يعرف الدوا؟

وتتعالى الأصوات مِنْ جديد:

- ماكو طبيب يوصف دوا، إذا ما عرف وين الداء!

- ولازم يعرف أسبابه! - ولازم يعرف ليلى وعبله...

- وزليخة ولطيفة وأبو قرون؟

- احجي، يا معود، قول، حسون، وشوف شلون تجيك رحمة الله!

وشلون تجيك مصايب الله يا حسون!

بعد أن هدأ حسون، وجيء له باستكان الشاي فشربه على مهل، وكان حزيناً، وقد ظهر ذلك مِنْ هزات رأسه الملتاعة، أبلغ الذين يريدون سماعه ما رأى: "... بغداد، ذاك الصوب، انقلبت، ناس تدافع ناس تريد تشوف

القنصل. هسه يجي، بعد شوي يجي. بعد آذان العصر دقت المزيقا، وآني، حتى أشوف زين قلت لنفسي: مالك حسون ألا تصعد تيغة أو تقمز فوق شجرة. وربنا سبحانه، لأنه يحب حسون، لقى لي تيغة وبظهرها شجرة، شلون مكان، لو الواحد يتمناه ما يلقاه، طفرت، وما اشوف نفسي إلا وكأني بحضن أمي وأبوي. الناس تباوعني وتقول ألف نيالك. ما أطول عليكم السيرة، بعد ما فات العصر شوية انهرجت الدنيا، ركض الناس، وآني بمكاني. دقت المزيقا أزيد مِنْ قبل وآني بمكاني مخيل، أباوع الرايح والجاي. وما شفت إلا الخيل مقبلة، شلون خيل تفتح النفس! ميات الحصونة، كُلّ حصان أحلى مِنْ الثاني. وصارت الدنيا مثل يوم القيامة!

استراح قليلاً، ثم تابع:

- وبنص هذي الخيل حصان أسود مثل الليل، ومنو راكبه؟

وسمع إجابات سريعة:

- طبيعي هذا حصان الآغا، برق!

- لا هذا حصان عزرا؟

- يا جماعة وين رايحين؟ هذا حصان الباليوز!

هز حسون رأسه وهو ينظر إلى الذي حزر أنّه حصان الباليوز، ومن جديد سمع مِنْ يقول:

- إذا كان هذا حصان الباليوز فلازم يكون راكبه أبو الباليوز.

- يعني القنصل!

- أو واحد مِنْ جماعته ردَّ حسون، وخرج الصوت مِنْ أعماقه:

- اللي راكب الحصان القنصلة، الباليوزة - منو؟ شنو؟ شتقول؟

- إي نعم آغاتي، زوجة القنصل، بدر الدجى، ملكة الزمان، صاحبة العز والصولجان، هي اللي راكبة ومخيلة... وبدا أنّه لا يستطيع المتابعة، فذاكرته

مثقلة بمشاهد، وهذه المشاهد تتزاحم إلى درجة لا يعرف كيف يعيد ترتيبها، كيف يرويها. لما خيم الصمت وطال، سمع أكثر مِنْ تعليق:

- ما يصير هالشكل حسون، توصل اللقمة يَم الحلق وبعدين توقف!

- كلامك كله لئامة حسون، تريد تقول: موتوا. شفت وما شفتم!

- خلوا الآدمي يستراح حتى يسولف زين!

- يا الله، آغاتي، حسون، تكلم... قول.

قال حسون بعد أن زفر بلوعة:

- القنصل شنو؟ القنصل منو؟

وتغيرت النبرة قليلاً:

- كُلّ واحد شاف القنصل مية نوبة: هو رايح على السراي، هو جاي مِنْ السراي، هو طالع للصيد، هو راجع مِنْ الصيد... ما علينا، لكن الخاتون، أويلاخ، منو منكم شاف الخاتون؟

وحين خيم الصمت مِنْ جديد، تابع حسون:

- وآني بمكاني أباوع وما أصدق عيوني: هذي أنس لو جان؟ مرية لو شيطان؟

وتغيرت اللهجة، أصبحت فرحة:

- تباوع على الناس وتضحك، فرحانه جنها بليلة عرسها!

- وبعد شنو، احچ يا معود، برد فوادنا.

- كُلّ هذا اللي صار بصفحة، واللي صار بعده بصفحة ثانية!

وتغيرت لهجته، أصبحت مليئة بالطرب:

- الله، مِنْ فوق، بسابع سماواته، ما ينسى يا جماعة الخير، يباوع ويشوف منو الآدمي، منو الخوش ولد، منو المظلوم، مِنْ اللي يستاهل... وكاد يتابع بهذه الطريقة، لكن سمع صوتاً غاضباً:

- لا تدوخنا حسون، لا تلقلق، قول شنو اللي صار، وخلصنا!

- وآني على التيغة، وظهري تسنده شجرة تكي، قاعد كأني أمير، والناس جواي تروج وتموج، وبعد ما خلص السلام والكلام، دقت المزيقا: حركة، للأمام.

وزفر كأنه جريح، ثم تدفق:

- مشى موكب الباليوز، وكُلّ الناس وراهم. وما إن وصلوا يمي حتى وقفوا. هي اللي وقفت، وقالت لرجلها: باوع. تباوع علي وضحكتها صارت شبر!

وتعالت الصرخات:

- الله ربك حسون؟

- مِنْ مثلك حسون؟

- هذي ما تصح غير للغانمين يا حسون؟

- طمست بيك حسون، الله ربك، وبعد هذي الليلة ثلاثة ما راح ينامون: الله والخاتون وحسون!

- بيش بلشت حسون؟

قال حسون بحرقة:

- وبعدها الناس تسأل: ليش الواحد يتخبل؟ ليش يجن؟

وجاءته الردود مِنْ عدة جهات، وكانت بين الاستفزاز والإشفاق:

- حضر حالك حسون، بآخر الليل راح تجيت عليك!

- شوف الفسقان، شنو آخر الليل؟ هسه لايبة عليه بالدرابين تصيح وتنتخي: وينك عيوني حسون؟

- الحب، يا جماعة الخير، مثل الطلقة، يصوب ويجرح، ونوبات يقتل، والطلقة إذا طلعت أبد ما ترجع؟

- يعني شنو قصدك: حسون تصوب؟ انجرح؟

- ويجوز يموت!

- بيش بلشت حسون؟

- يا أبو بشت، بيش بلشت... إي نعم بيش بلشت.

قال حسون وهو يضرب على ساقيه:

- خلوني بهمي وقهري، يا جماعة وتطلع إلى الأعلى، كأنه يخاطب الله:

- أنت، يا محب، يا ودود، يا كريم يا مجيب، تعرف ما فِي القلوب وما فِي الغيوب، ساعدني على القوم الظالمين!

وسمع أكثر مِنْ صوت يردد:

- يا محب، يا ودود... يا محب يا ودود... يا محب... سيفو الذي جاء مِنْ حلقة غير بعيدة، وكان يراقب الذين أحاطوا بحسون، وهم يحاولون أن

يزيدوا عليه أكثر مِنْ ليالٍ سابقة، وبعد أن سمع آخر التعليقات، قال بنوع مِنْ النزق، الأقرب إلى التأنيب:

- انتو، يا أهل هالصوب، ما بيكم غير الكلام، ومو على كُلّ الناس، على الفقرا، على المساكين...!

وبعد قليل، وقد امتلأ صوته بالغضب: -حرام... تبوقون لسانه، وبعدها تحطوه وسطاني، فكوا عنه ياقة.. هدوه!

قال حسون بلهجة مسكينة:

- صار لي أيام ما شفتك، عمو سيفو. شلونك؟ شلون كيفك؟

ولئلا تتطور الأمور، جاء الأسطة عواد وسحب حسون مِنْ يده، قال وكأنه يوجه الكلام إلى الآخرين:

- عود الحامض برد، وقلبك مِنْ اللغوة ساف.. ما ضجت؟ ما تعبت؟ يا الله قدامي!

ولم يعرف أهل قهوة الشط، تلك الليلة، غير أن القنصل كان مسافراً، وعاد مِنْ سفره، وأن حسون وقع فِي غرام زوجة القنصل!

الذين يعرفون الاسم الكامل لحسون قليلون، لأن الألقاب التي تطلق عليه تجعل الناس ينسون أو لا يحفلون باسم العائلة، خاصة وأن حسون مِنْ الشق الفقير فِي عائلة أبو خليل، ولأنه تعمد الابتعاد عن محيط تلك العائلة وعن الأعمال التي تمارسها، فلما جاءت الألقاب لم يعترض، ولم تعترض العائلة، إذ لا يشرفها أن ينتسب إليها هذا المتشرد الهزوءة.

فِي فترة معينة، حين كان يجري الحديث عنه أمام مِنْ لا يعرفه، يُسمى حسون أبو الخيل، ربما لأن هذا الاسم يُشابه اسم عائلته، خاصة وقد كان مهووساً بالخيل، وتعود أن يقضي فِي حظائرها وقتاً غير قليل، وكان يرافقها إلى مضامير السباق، ويندفع للحديث عن صفات بعضها، وما تتمتع به مِنْ مزايا، وكأنه مالكها.

وفِي فترة لاحقة سُمي حسون شبوط، ليس لأنه صياد، وإنما لأنه صديق الصيادين، وكان يتوسط بين هؤلاء والذين يريدون شراء السمك، وغالباً ما يستطيع الوصول إلى نتائج ترضي الطرفين.

أما عندما صادق الذين يطيرون الحمام، وتعلق بالحمام الورداني، وكان لا يمل الحديث عن صفات هذا الجنس، فقد أطلق عليه اسم حسون الورداني، ثم ما لبث أن تحول إلى حسون الورد، تحبباً!

وحسون أبو الفريرات أطلقه عليه الصغار، وأصبح لا يعرف إلا به فِي طول بغداد وعرضها بين هؤلاء الصغار. أما الكبار فكانوا يسمونه حسون الإخباري، لأنه الأول فِي نقل الأخبار، وإن يكن بطريقته الخاصة.

فِي المرحلة الأخيرة، وبعد عودة القنصل مِنْ الشمال، وحين أصبح حسون يقضي ساعات كُلّ يوم مقابل الباليوز، لعل زوجة القنصل تظهر ويراها، فقد أطلق عليه الناس فِي صوب الرصافة: حسون الإنكليزي، وسرعان ما انتقل اللقب إلى الصوب الآخر مِنْ المدينة، ولاقى هناك هوى واستحساناً، بحيث طغى على جميع الألقاب السابقة!

لم يكن حسون بحاجة إلى أيّ لقب، إذ بمجرد أن يطلق الاسم، دون أية إضافة، يُعرف أنّه هو المقصود، فِي الوقت الذي لا يتحدد غيره، ممن يحملون ذات الاسم، إلا إذا عرفوا بأسماء آبائهم أو عائلاتهم.

بعد أن أطلق على حسون اللقب الجديد، وبعد أن يكون قد قضى ساعات فِي محيط الباليوز، يصل إلى قهوة الشط، وغالباً دون أخبار، وبرغبة أن

ينزوي فِي مكان بعيد، قرب النهر، رافضاً الإجابة على الأسئلة التي توجه إليه، ولا يتردد، فِي بعض الأحيان، أن يرفع صوته بالغناء.

أهل صوب الكرخ الذين يتسمون بالبساطة إلى درجة السذاجة، بمن فيهم رواد قهوة الشط، كانت تسيطر عليهم رغبة لا تقاوم للسخرية وتدبير المقالب والاستغابة. إنهم تجاه بعضهم مسكونون بهذه الخصال إلى درجة المرض، ويتفننون فِي ذلك، وكأنهم أعداء! فالواحد منهم يتسقط أخبار الآخرين بكثير مِنْ الاهتمام والحرص، خاصة أخبار الفضائح الصغيرة، وما يمكن أن يكون مادة لحديث مثير، فإذا لم يجد بالغ فِي تقصي الأخطاء والنواقص، بل وتوهم بعضها. حتى الملامح والتصرفات، حتى الأسماء والمهن، للشخص أو لأقاربه، إذا كانت مناسبة لاستغابة، لا يوفرها!

وحسون الذي يعتبر موضوعاً شديد الإغراء، ودائم الحضور، ما إن يصل إلى قهوة الشط حتى يتظاهر الكثيرون أنهم لم يروه، أو لا يعنيهم أمره، خاصة بعد أن أصبح ((صريع الغرام)) كما وصفه الاسطة اسماعيل. فإذا اختار مكاناً بعيداً، وبدأ يدندن لنفسه، وغالباً لا يسمعه إلا القريبون، تتعالى صيحات الاستحسان وطلب الإعادة والزيادة مِنْ أشخاص عديدين. وحسون إذا غنى فمن أعجب المغنين، لأنه لا يحفظ كلمات أية أغنية بشكل دقيق أو كامل، كما لا يتقن الألحان، لذلك يصبح غناؤه أقرب إلى الصياح والفوضى، لكن وهو يسمع كلمات الإطراء يطرب فيواصل «ويجود»، الأمر الذي يُخرج الأسطة عواد عن طوره، باعتباره أحد المولعين بالمقام، يصرخ عليه بحدة:

- يبزي حسون، سد حلقك واسكت.

وبألم يتابع الأسطة:

- چانت عايزة والتمت: أثول يصيح بالدرابين فريرات.. فريرات صدق روحه أنّه صار قاري مقام...

يتمهل قليلاً ثم يُضيف بنزق:

- وولد المحلة يريدون يأكلون حلاوة براسه، كُلّ ما خلص ثوروه، جابوه بزفة أم سلاح: أعد... أعد حسون، بعد حسون، وتعال اخلص؟ يرد عليه الأسطة اسماعيل الذي يجلس إلى جانبه:

- على كيفك، أبو نجم، الرجال يغني مِنْ حرقة قلبه، فخليه ينفه!

- هذا غنا، أسطه، لو عياط وعفاط؟

- يريد يسلي نفسه يا أبو نجم!

- يسلي نفسه بروسنا؟

- شيسوي إذا ذيك صدت، وما قالت: بوه!

وبعد قليل بلهجة حزينة:

- فإذا الغرب ما حنوا عليه فنحن أهله وجماعته لازم نحن عليه.

ينظر إليه الأسطة عواد بتدقيق ليكتشف ما إذا كان جاداً ويعني الكلمات التي يقولها، قبل أن يرد عليه. والأسطة اسماعيل يعرف كيف يتفنن بإخفاء مشاعره، وغالباً ما يؤدي أدواره بإتقان. يقول الأسطة عواد:

- المقام، مولانا، مو لعبة، والغنا مثل الصلاة والصوم لا يقربه إلا المطهرون، وين رايح إنت؟

- يا أبو نجم، الرجال ما قال عن روحه انه قاري مقام، أو راح يصير مثل ثامر المجول؛ الرجال يريد يتونس، وهسه يتعب ويسكت!

يحرك الأسطة عواد يده فِي الهواء رافضاً التبريرات التي يوردها الأسطة اسماعيل، ويصرخ مِنْ جديد:

- تعال يمي، يا مصايب الله، تعال حسون، حتى نتفاهم!

ولأن حسون يعرف ماذا يعني غضب الأسطة عواد، ويقدر ذلك مِنْ نبرة الصوت، فإنه لا يستطيع أن يتمادى، أن يواصل التحدي. يرد، وهو لا يزال فِي مكانه:

- خلص.. أستاذي، التوبة!

وتتكرر القصة ذاتها بعد أيام قليلة. وإذا كان الأسطة عواد قد فكر بتخصيص ليلة فِي الأسبوع لقراءة المقام فِي مقهاه، لينافس مقهى القشلة ومقهى مراد، فإن عقلاء صوب الكرخ أشاروا عليه أن يصرف النظر عن الموضوع، لأن السكارى سيتجمعون فِي المقهى كما يتجمع النحل على الحلوى، ويمكن لهؤلاء أن يفعلوا أيّ شيء، وبالتالي سوف يفسدون الأخلاق ويسيئون إلى المحلة. ورغم أن الأسطة عواد استجاب لرأيهم، إلا أن ذلك لم يمنعه مِنْ تخصيص ليلة، بين أسبوع وآخر، لاستقبال بعض أصدقائه مِنْ قراء المقام فِي المسافر خانة التابعة للمقهى، وهناك ترتفع أصوات الغناء وتدور الكؤوس. وفِي مثل تلك الليالي، وبدل أن يغني حسون، مثل عادته، كان يذوب صمتاً ودموعه وحدها هي التي تتكلم. وكان يقسم ألا يعود إلى الغناء مرة أخرى، لأن صوته، كما يعترف للأسطة عواد سِقط، خردة، ولا ينفع إلا للنداء على الفريرات!

ويكف حسون عن الغناء لبضع ليال، لكن رواد قهوة الشط لا يكفون عن حسون، إذ لا بد أن يستفزوه. فحين يكون غارقاً فِي وحدته، رافضاً الانضمام إلى أية مجموعة تدعوه، تتصاعد، بين فترة وأخرى، مِنْ المقهى، مِنْ مركب يقترب، أصوات أغان يحبها، كان يغنيها. ومثلما تتشمم الكلاب رائحة الأشياء

الجديدة، إذ ترفع رؤوسها بعصبية وسرعة، لتعرف مِنْ أين يأتي الصوت، والشيء الذي يثيرها، يرفع حسون رأسه، فإذا وجد الأمر جدياً، يزحف بهدوء إلى مصدر الصوت سواء داخل المقهى، أو إلى طرف النهر، لكن ذلك لا يعدو أن يكون فخاً له، إذ ما يكاد يقترب حتى يطلب منه أن يغني. يرفض أول الأمر، يقول إن صوته هرب منه، لا يطاوعه، ولا يقول أنّه يخشى الأسطة عواد، حتى إذا بلغ الإلحاح درجة لا تقاوم، يقول، ويخرج صوته غاضباً:

- الله وعباد الله ضد الفقير!

ويبدو كلامه غير مفهوم، فيأتيه أكثر مِنْ صوت:

- الفقرا لهم الله وعبد الله، يا معود!

- ونحن عباد الله، كلنا وياك، حسون، فلا تدير بال!

فيسأل، وهو يشير برأسه، دون أن ينظر إلى الأسطة عواد:

- وهذا البلاء منو يرده عنا؟

- لا تدير بال، حسون، لأنه حتى أبو نجم يهز رأسه سنطة وهو يسمعك، لكن ما يريد يبين عليه أنّه مطروب، يخاف يقولون عليه صار أبو كيف!

- وإذا انحمق وقلب الدنيا علينا؟

- أنت غن وخل أبو نجم علينا!

ويبدأ حسون. يبذل قصارى جهده أن تكون البداية متقنة، جدية، لكن لا يعرف الكلمات، ولا يجيد اللحن، رغم المساعدات التي تقدم إليه مِنْ الذين حوله، إذ يتبرع أكثر مِنْ واحد لتلقينه. بعد فترة قصيرة تفلت الأمور، يتداخل اللحن مع ألحان أخرى، وتتداخل كلمات كُلّ الأغاني معاً، وهذا ما يخرج الأسطة عواد عن طوره، لأنه فِي حقيقة الأمر مع الغناء الجميل، وأكثر مِنْ ذلك مع الذي يضبط المقام. ولأن حسون ليس فِي الأمرين شيئاً، فهذا ما يجعل الأسطة يغضب، وبعض الأحيان يثور، خاصة إذا بلغ الحال حداً لا يمكن السكوت عليه. يصرخ مِنْ مكانه البعيد:

- لك حسون كافي تقوقي، انشب واسكت!

وحسون الذي اندمج بالغناء، وأخذ بكلمات الإطراء التي يسمعها، لا يعرف هل يواصل استجابة لنداء قلبه، ورغبة الذين حوله، أم عليه أن يمتثل لأمر الأسطة؟ يسكت قليلاً، مقاوماً التحريض، ومنتظراً ردَّ فعل الأسطة. وحين يتواصل الإلحاح عليه، خاصة مِنْ خضير ملا نوري، الذي يردد بخفوت شديد آخر كلمات الأغنية، يقول وهو يتلفت إلى وجوه الذين حوله:

- ها.. شنو اللي قلناه؟ شبيكم؟ احچوا، قولوا، لو تردون الفاس توقع بر اسي وحدي؟

وحين يجدهم غير مكترثين برد فعل الأسطة عواد، يتابع بمرارة:

- الواحد أحسن له يظل عايش ديم، وإذا راد يغني يغني وحده... وبالتشول!

ويسمع كلمات اللوم والعتاب مِنْ حوله، فيصرخ:

- واحد يهبش واللاخ يقول حح، هذا حال كُلّ واحد منكم يا أهل هذا الصوب!

وينتهي الأمر، أغلب الأحيان، بأن يصمت حسون، أو أن تنسحب المجموعة، خاصة إذا كان خضير ملا نوري موجوداً، لأن خضير بمقدار ما يحب الغناء، الساخر منه تحديداً، ويجيده، فإنه لا يجرؤ على الغناء إلا ضمن الأصدقاء، وبعيداً عن الأعين، خاصة بعد أن التحق بالمدارس الدينية، ويفترض أن يتخرج منها بعد بضعة شهور.

إذا كان خضير ملا نوري موجوداً، وبعد عملية القمع التي مارسها الأسطة عواد، يبدأ أفراد المجموعة بالانسحاب واحداً بعد آخر، بعد أن يكونوا قد اتفقوا على الذهاب إلى مكان مناسب. فِي الصيف يسرحون مع النهر، وأيام البرد ينزوون فِي بيت واحد منهم، ولا بد أن يكون حسون موجوداً، ولأكثر مِنْ سبب: ليكون تغطية، فلا يعرف أحد أن خضير هو الذي يغني، وليكون نجماً بين وصلة وأخرى، خاصة بعد أن أصبح «صريع الغرام»، ولا يمل مِنْ إعادة ما وقع له لما كان ينتظر القنصل فِي الباب الشرقي حين عاد مِنْ رحلة الشمال؟

وبنفس الاندماج، وبطريقة الابتهال الصامت، حين يسمع حسون المقام فِي المسافرخانة، يفعل وهو يصغي إلى خضير. الفرق الوحيد أنّه فِي الحالة الثانية يترك لجسده أن يكون وسيلته فِي التعبير، إذ يحرك يديه وبطريقة إيقاعية، دون صوت، وكأنه يقود جوقاً موسيقياً؛ أو يهز رأسه مع الكتفين كما يفعل الصوفيون؛ وأحياناً يقف ويحرك جذعه كله، لكن دون خلاعة وكأنه يصلي. حتى عندما يضج الآخرون بالضحك لما تحمله الأغاني مِنْ طرافة وسخرية، لأن خضير يجيد تحوير كلمات بعض الأغاني، إذ يحولها إلى نقد لاذع، فإن حسون يظل مأخوذاً بالنغم، بالصوت الشجي، فلا يشارك بالضحك، كما يضيق بالتعليقات!

كان خضير لا يتردد على قهوة الشط إلا قليلاً، ويحرص على وقار مبالغ فيه إذا جاء، فلا يمارس أياً مِنْ الألعاب التي تستهوي الأخرين، كما يفضل الجلوس لبعض الوقت، خاصة أول وصوله، مع المسنين، ورجال العلم،

«للانتفاع بعلمهم»، كما يقول، حفاظاً على سمعة عائلته المعروفة بالتدين، ولأنه سينضم إلى سلك رجال الدين، فإن الطرب يسري فِي دمه، والسخرية جزء مِنْ تكوينه، حتى أن الأسطة اسماعيل، راهن الكثيرين «أن خضير حتى لو صار مفتي اسطنبول راح يوم مِنْ الأيام يكسر الحِب» والذين سمعوا هزوا رؤوسهم استغراباً، وكانوا بين الشك واليقين وقالوا بأسف: «بهذي الأيام ما عاد ينحزر على أحد».

ومثلما يقع بعد حفلة المقام فِي المسافرخانة، إذ يمتنع حسون عن الغناء أياماً، يرد على الذين يطلبون منه الغناء بعد أن سمع خضير:

- رمانتين بفرد ايد ما تنلزم وحين يعتبرون كلامه غير مفهوم، يتابع كأنه يخاطب نفسه:

- إذا بردث فوادي، وقالت: أيّ، راح أعزم كُلّ أهل المحلة، وراح أغني بالليل وبالنهار، ولسبعة أيام، يوم ورا يوم، فخلوني هسه!

ويفهم الذين يسألونه، الذين يطالبونه بالغناء، مِنْ يعني، بل ويعرفون دون سؤال، لكنهم يبدون جهلاً أكثر مِنْ قبل. يظهر ذلك مِنْ استغرابهم، مِنْ رفات العيون، مِنْ الحركات، فإذا تمادى حسون بالتجاهل أو بالصمت يسألون ببراءة مصطنعة:

- بشر يا معود، قول، منو هي المسعدة؟

يبتسم ببراءة وحزن، ويرد:

- بربي تعرفون يا قواويد، لكن لازم تسألون؟

وحين يلحون أكثر يرد بنفاذ صبر:

- جماعة ذاك الصوب!

ويرفض بعد ذلك أن يُضيف أيّ شيء، لأن أية كلمة أخرى قد تدفعه للبكاء. وأهل صوب الكرخ، رغم سخريتهم، وغلاظة قلوبهم بعض الأحيان، إلا أنهم ضعفاء إلى أقصى حد تجاه الدموع، خاصة دموع الرجال، وتجاه حزنهم. قد يتسامحون، وربما يقدرون دموع المرأة إذا بكت. يحترمون ذلك ويفهمونه، لكن ضعفهم كله، الممزوج بالحدة والعنف والتطرف، يظهر إذا بكى أحد الرجال. إذ بالإضافة إلى أنهم لا يحبون ذلك، يشعرون تجاهه بالضعف، وهذا ما يجعلهم لا يتجاوزون حداً معيناً مع حسون، وكُلّ رجل آخر، فإذا أحسوا أنهم بلغوا هذا الحد توقفوا ولا يتمادون بعد ذلك أبداً.

هؤلاء الناس، الذين يبلغون درجة مفرطة مِنْ الحساسية، لا يترددون فِي ارتكاب الحماقات، يفعلون ذلك فِي لحظة نشوة، أو فِي حالة ضعف، وهذا ما يجعلهم لا يكفون عن حسون!

فإذا غاب عن الوجه، ورغم ما يكنون له مِنْ الود، فإن خيالهم يتوقد مِنْ أجل خلق المتاعب له. يتفننون فِي ذلك مستخدمين كُلّ طاقاتهم. يقضون الساعات، ويبذلون الجهد، بل ويتكلفون المال، فقط لكي يرتبوا المقالب، ويثيروا المشاكل، ليعرفوا كيف سيتصرف حسون.

ربما يفعلون ذلك لمواجهة الضجر، لجعل أيامهم أقل قسوة، وقد يفعلون لإثبات براعة ما مِنْ نوع ما، أو ربما لينتقموا مِنْ أنفسهم أكثر مما ينتقمون مِنْ حسون!

فالتتار الذين يحملون البريد، حين يصلون إلى بغداد بين فترة وأخرى، يكون لوصولهم ضجة كبيرة، لأنهم يحملون أخباراً هامة، وغالباً تتعلق بالسراي وكبار الموظفين والتجار. يتجه التتار فور وصولهم إلى ساحة السراي، وبعد أن يسلموا البريد الرسمي، يبدأون بالمناداة على الذين لهم رسائل وردت إليهم مِنْ اسطنبول، ومن مراكز الولايات، فإذا كان الذي يُنادي عليه موجوداً يستلم رسالته، بعد أن يدفع إكرامية بسيطة. هكذا يفعل التجار الذين ينتظرون بريداً، أما الغائب الذي يُنادى عليه، فيبلغ مِنْ قبل المعارف والأصدقاء، وعليه مراجعة التتار الذين لهم مكان قرب القلعة وهناك يتم تسليمه الرسالة مع إكرامية أكبر يدفعها «نظراً للمناداة عليه مرتين ثم حفظ الرسالة وسلامة الوصول». أما أن يأتي واحد مِنْ التتار إلى قهوة الشط حاملاً رسالة فأمر نادر، بل لم يقع أبداً مِنْ قبل!

لكن هذا ما حصل فِي إحدى الليالي، فِي قهوة الشط، وكانت الرسالة لحسون.

إذ بعد أن جلس حامل البريد إلى جانب الأسطة عواد، أبلغه بأمر الرسالة، طالباً حضور حسون لاستلامها. بدت الدهشة الأقرب إلى الإنكار على وجه الأسطة. قال للتتري، حامل البريد، بنوع مِنْ الاستغراب:

- خاف إسم على إسم، مولانا؟

وحين أكد حامل البريد أن الرسالة لحسون، وأن العنوان قهوة الشط، ويجب أن تُسلم باليد. ردَّ الأسطة، كأنه يخاطب نفسه:

- واي.. واي، انقلبت الدنيا!

والتفت إلى الأسطة اسماعيل، قبل أن ينادي على حسون، وهمس:

- شنو قولك، أبو حقي، صدق؟ جذب؟

ردَّ الأسطة اسماعيل، وقد اكتسب صوته حزماً ظاهراً:

- بهاي الدنيا، أبو نجم، كُلّ شي يصير... وبعد قليل، وقد انخفض صوته:

- يجوز جايته مِنْ تلفات الدنيا ورثة مِنْ عمة أو خالة، منو يدرِي؟

ونودي على حسون. جاء به اثنان مِنْ صناع المقهى. بدا خائفاً مرعوباً وهو بينهما. لم يرتكب هذا اليوم خطأ يمكن أن يلومه عليه الأسطة عواد، فلماذا يساق هكذا؟

حين وجد جمعاً حول الأسطة، ضمن وجوه يراها لأول مرة، والكل نظرون إليه، يريد وصوله، تحول خوفه إلى عناد فِي محاولة للدفاع عن النفس. تباطأ سيره ثم وقف. لكن كلمات الأسطة اسماعيل الحنونة جعلته يهدأ قليلاً. قال له:

- بالعجل، ابني، حسون. الله باعث لك رزقة!

هدأ حسون قليلاً، لكن لم يزايله الخوف. حين وجد الآخرين ينظرون إليه وينتظرونه تقدم.

نظر إليه حامل البريد بإمعان وكأنه يعاين خروفاً أو بغلاً، فلما بدا له أن الرجل الذي أمامه يمكن أن يكون حسون الذي يبحث عنه، التفت إلى الذين حوله وسأل بجدية صارمة:

- نريد اثنين معرفين.

ردَّ الأسطة اسماعيل بسرعة:

- كلنا هنا نعرفه ومستعدين نبصم ونحلف.

نظر حامل البريد مِنْ جديد إلى حسون، سأله:

- أنت حسون أبو... هز حسون رأسه، وكان الخوف مسيطراً. تصدى الأسطة اسماعيل مِنْ جديد للإجابة:

- أيّ نعم حسون أبو خليل، مِنْ محلة الشيخ صندل، أعزب، الشغل بياع شرا!

كانت الأنظار تتوزع بين حسون وحامل البريد، وتتابع ما يقول الأسطة اسماعيل، وكأنها تسمع بحسونٍ لأول مرة، أو تعيد اكتشافه مِنْ جديد. وحسون الذي بدا مستغرباً أن الأسطة يتحدث عنه هكذا، لا يعرف ما يراد له أو ماذا يراد منه.

ومن خُرْجٍ كان يحمله، مد حامل البريد يده واستخرج بضع رسائل، فرزها بسرعة، أبقًى واحدة وأعاد الرسائل الأخرى إلى الخرج. كما استل مِنْ مكان آخر دفتراً سميكاً قذراً، وقال وهو يفتحه: المعرف الأول.

تبرع الأسطة عواد أن يكون المعرف الأول. إذ بعد أن دون اسمه، جر حامل البريد يده ونفخ على الإبهام ليرطبه بحلق مفتوح إلى أقصى حد، ثم جر اليد كلها وضعها على خرقة فيها بقايا حبر، حتى إذا تلوث الإبهام، وقف

نصف وقفة وهو يسحب اليد إلى الدفتر، وهناك وضع البصمة، ونفخ مِنْ جديد على الدفتر، ولكن هذه المرة بشفاه مزمومة ليجفف الحبر.

وكان المعرف الثاني الأسطة اسماعيل، رغم أن عديدين تبرعوا بالتعريف بحسون، إلا أن يد أبو حقي، وقد شمر ومدها بسرعة، كانت الأسبق، وهكذا وضع بصمته على الدفتر أيضاً.

أما حسون الذي كان يتابع كُلّ ما يجري بعيون خائفة، وبإهتمام، فقد أجفل وتراجع حين طلب إليه أن يتقدم. قال بتوسل:

- ما أريد.. آني ما علي!

نبر الأسطة اسماعيل، وبطريقة أقرب إلى الأمر:

- لا تصير أثول، جانك خط مِنْ اسطنبول وتقول لا؟ هاي وين صارت؟

قال الأسطة عواد بطريقة أبوية:

- تعال.. تعال ابني، ابصم واستلم.

ردَّ حسون، وكان يوجه الكلام إلى الأسطة عواد:

- آني ما علي، أستاذي، وكُلّ شي ما مسوي!

- أعرف، إبني، ماكو أحد قال فد شي، وهذا خط جاك مِنْ اسطنبول ويريدك الآدمي أن تستلمه...

هكذا شرح الأسطة عواد، وكانت عيناه وحركاته تطلب مِنْ حسون أن يتقدم، أن لا يخاف. وتعالت الأصوات تحثه.

- الله ربك حسون، خط مِنْ اسطنبول؟ منو مثلك؟

- على ويش خايف؟ منو تجيه رزقة ويقول ما أريد؟

- هذا يوم الحظ، حسون!

- الله يعطي الحلاوة للي ما عنده سنون!

- تعال، خلصنا، خلينا نشوف الخط مِنْ يا ديرة، مِنْ يا آدمي؟

ودفع حسون. مد يداً ترتجف، ومثلما بصم قبل أبو نجم والأسطة اسماعيل، بصم هو أيضاً، وأعطيت إليه الرسالة! كما أعطيت إكرامية حامل البريد، دفعها، تبرعاً، الأسطة عواد.

وإذا كان هذا المشهد قد أثار استغراب كُلّ مِنْ رآه، وكُلّ مِنْ سمع به، فإن ما تلاه أكثر غرابة: فالرسالة لم تكن باللغة العربية، كما ليست بالتركية. وحين عرضت على عدد مِنْ الأفندية فِي المقهى اختلف هؤلاء، قال بعضهم إنها ِمكتوبة بالألمانية، وقال غِيرهم: بالفرنسية، وقِال آخرون، وكانوا أكثر

جزماَ، إنها مكتوبة بالإنكليزية. أما حامل البريد الذي أطال مكوثه فِي القهوة، وشرب عدة استكانات مِنْ الشاي، حين سئل عن مصدر الرسالة، فقد أجاب بأنه لا يعرف شيئاً، وأن مهمته تقتصر على استلام الرسائل وتسليمها، وهذه الرسالة جاءت مِنْ اسطنبول بكل تأكيد، لكن لا يُعرف إن كان مصدرها اسطنبول أو مكان آخر.

ليلة لا تُنسى فِي قهوة الشط!

لم يبق أحد إلا وكان له رأي، ولم يتفق رأي مع آخر اتفاقاً كاملاً، لكن قبل أن تنقضي تلك الليلة استلم الأسطة عواد الرسالة، وضعها فِي الدرج، حيث يضع الفلوس، وقفل الدرج، وقال للذين حوله:

- العجلة مِنْ الشيطان يا جماعة الخير، وما دامت الرسالة صارت جوا أيدينا، فلا بد نلقى مِنْ يقراها ويفرزن اللي بيها، وعندها نقول: ولد لو بنية!

وتوجه إلى حسون يخاطبه:

- وأنت، ابني حسون، ومثل ما قلت لي انك ما تعرف أحد باسطنبول، بديرة ثانية بعيدة، وما لك هناك قرايب، فلا بد أن واحد مر ببغداد فد يوم وشافك وشفته، وقال لروحه لازم نتذكر ابن الأوادم حسون، ودز لك هذي الرسالة. وباجر أو اللي عقبه يبين كُلّ شي، فنام مثل كُلّ ليلة ولا تدير بال، وآني أعقب الموضوع!

ومثلما اختلف افندية قهوة الشط حول اللغة التي كُتبت بها الرسالة، اختلفوا حول ما ورد فيها.

الأسطة عواد الذي اخذ الأمر بجدية صارمة، فضل أن يستشير أحداً مِنْ صوب الرصافة، معتبراً أن أيّ واحد مِنْ هناك لا بد أن يكون أكثر حياداً ممن يعرفون حسون فِي هذا الصوب.

كان أول مِنْ عرضت عليه الرسالة جاكي الأصفر.

كان جاكي منهمكاً بحساباته حين عرضت عليه الرسالة. نحاها جانباً وظل مشغولاً بنقل حسابات مِنْ دفتر إلى آخر. كان وهو يعمل يردد الأرقام بصوت مسموع، وبعد أن ينقل الرقم ويتأكد منه أكثر مِنْ مرة، يقول لنفسه، وكأنه يكافئها:

- أحسنت أبو ساره.

وكاستراحة قصيرة، بين فترة وأخرى، يرفع رأسه قليلاً وينظر إلى الأسطة أو إلى غيره، ويبتسم باقتصاد، بطريقة رتيبة، وكأنه يقوم برياضة لفكه، دون أن تُعتبر الابتسامة وداً أو اعتذاراً عن التأخر!

بعد أن انتهى مِنْ نقل صفحات مِنْ دفتر إلى آخر، وقف، تمطى، هز رأسه أكثر مِنْ مرة، كأنه يفيق مِنْ نوم، أو يُفرغ جسده مِنْ واجب حتى يبدأ واجباً آخر. لما رأى الاسطة عواد ينظر إليه، فطن للرسالة. التقطها. قال له قبل أن يقرأ أيّ شيء:

- قراية لو قراية وجواب؟

ردَّ عليه الأسطة، فِي محاولة لخلق جو مِنْ الصداقة:

- صار زمان ما شفناك بذاك الصوب.. أبو ساره!

- عينك تشوف: الشغل ما يخلص!

- آخر نوبة لما تلاقينا، قبل سنة، أكثر مِنْ سنة، وعَدت تمر على القهوة، حتى نقعد ونسولف.

- هاي وين أكو منها.. علواه، لكن...

وتعمد جاكي أن يفسح للصمت طريقاً، لئلا ينقضي الوقت بالثرثرة. حين خيم الصمت مِنْ جديد سأله جاكي:

- هِا، أسطة، قراية لو قراية وجواب عليها؟

- أول نوبة اقراها، قل لنا شكو بيها، وبعدين الله كريم!

- يعني فد قراية؟

- زين، آغاتي، فد قراية!

وبدا جاكي يقرأها لنفسه. كان الأسطة عواد يتابع ما يرتسم على وجهه مِنْ أثر وانفعالات لما يقرأ. رأى شفته السفلى ترتخي، تنزم؛ رأى عينيه ترفان؛ ورأى يده اليسرى ترتفع فِي الهواء ثم تتحرك وكأنه يتساءل.

فِي ظل الصمت المخيم، والأسطة ينتظر، تطلع جاكي الأصفر إليه بإمعان وسأل:

- منو هذا حسون؟

لم يرد الأسطة أن يفرط ويقول شيئاً يندم عليه. لم يجب، وإنما سأل:

- ما تقول لي شنو كاتبين له؟

- وهذي اللغوة شنو؟

- أبو ساره انت اللي تقرا مو آني!

-هذا الحجي كله خرابيط. واحد سكران يخيط ويخربط؟

- قول غير حجي يا معود!

- أصلاً ماكو واحد عاقل يكتب مثل هذا الكلام، وهمين يحجي على جماعة السراي!

- شيقول؟ شنو المكتوب؟

- أسطة، نص الكلام ما ينقرا، ما ينفهم، والنص اللاخ فشار!

وطوى الرسالة، أعادها إلى الأسطة عواد، وقال، وقد بدا صوته مختلفاً:

يجوز آني ما يفتهم، ما يعرف يقرا، فدور على واحد غيري، أسطة يرحم والديك!

- أبو ساره.. غير.. بدل...

ولما هز رأسه وكتفيه دلالة أنّه عاجز، أضاف الأسطة عواد:

- مِنْ ذاك الصوب جيتك متعني، وقلت لروحي ماكو إلا أبو ساره، هو وحده اللي يدبر المسألة!

- أبدالك، اسطة عواد، ما أقدر. شوف أحد غيري!

ولم يُجدِ الحاح الأسطة، رغم الايضاحات التي قدمها عن حسون، إذ وصفه بأنه رجل فقير، على باب الله، كما قالِ، وأن له أقرباء ِفِي اسطنبول، وربما

يكون واحد منهم قد أرسل إليه شيئاَ أو ترك له ميراثاَ. لكن جاكي الأصفر، الذي استمع دون اهتمام، أكد للأسطة عواد أنّه غير قادر على مساعدته، إذ لم يستطع قراءة الكثير مما هو مكتوب، وربما تكون اللغة التي كتبت بها الرسالة ليست الانكليزية التي يعرفها، ولذلك عليه أن يستعين بآخرين، متمنياً له التوفيق، كما قال وهو يودعه!

هذه البداية شكلت للأسطة عواد صدمة وتحدياً، كيف يعجز أبو ساره عن قراءة مجرد رسالة عادية لإنسان فقير مثل حسون؟ ألا يجوز أن يكون فيها أمر يخشاه، ولا يريد أن يكون شاهداً أو ترجماناً، كعادة اليهود الذين يرفضون أن يكونوا طرفاً فِي مشاكل قد تؤثر على تجارتهم؟ أو هل ينفذ تعليمات معلمه عرزا، الذي أعلن أكثر مِنْ مرة، أن «صوب الكرخ ما يجي منه إلا دوخة الراس» وكان يشير ضمناً إلى مواقف هذا الصوب تجاه الأحداث التي مرت، ولذلك يحب أن يعاقب الآن؟

إذا كان الأمر قد شغل الأسطة عواد بهذا القدر، فإنه شغل آخرين أيضاً، خاصة الأسطة اسماعيل، الذي كان يتحرك رغبة للانتهاء مِنْ عمله والذهاب إلى القهوة، وقد اضطر إلى صرف آخر اثنين مِنْ الزبائن، دون حلاقة، متذرعاً بالتعب وانشغال البال، أو كما قال لهما مازحاً «نحن بيوم الأحد، وايدي، بعد أسبوع مِنْ الشغل صارت ترجف، فإذا ردتم زيان رعبان أنا حاضر، وإذا ردتم زيان أفندية، يرجع الواحد منكم بعده ابن عشرين سنة، فتعالوا يوم الثلاثاء غبشة، وبعد الزيان راح تقولون: عاشت إيدك أبو حقي» قال أبو نجم للأسطة اسماعيل، بعد أن خفض صوته، والتفت إلى أكثر مِنْ جهة، يتأكد أن لا أحد يسمعهما:

- ترى فتنا بدرب ما يطلع، أبو حقي!

- شلون يا معود؟ المن شفت؟ شكو مكتوب بالخط؟

- شفت جاكي، جاكي الأصفر.

- أيّ، شقلك؟ شنو اللي كاتبين، وممن؟

- كُلّ شي ما قدرت أعرف يا أبو حقي، وانلاصت على أكثر مِنْ قبل!

- شلون يا معود؟

- ابن الحرام، جاكي أبو الزلف ردَّ الخط وقال شوف غيري!

وشرح الأسطة عواد ما حصل له بالتفصيل؛ حتى رائحة الخان التي خنقته أثناء ساعة الانتظار، أشار إليها. وكيف أن جاكي لم يفطن، أو لم يفكر، بأن يأمر له بأستكان شاي، رغم أن قهوة ابن زبيبة على بعد خطوتين، وان صانع القهوة مر عدة مرات، وأطل برأسه وسأل ما إذا يأمره أبو ساره بأي شيء!

وإذا كانت هذه التفاصيل تعني شيئاً للأسطة اسماعيل فِي وقت آخر، لقد اضطر إلى مقاطعة أبي نجم أكثر مِنْ مرة لمعرفة النتيجة. أما حول ورود ذكر للسراي فِي الرسالة، وبمقدار ما أخاف الأسطة عواد، فقد جعل الاسطة اسماعيل يتحسب ويتساءل أيضاً، وإن لم يشارك الرأي فِي أن تكون هذه الرسالة رداً مِنْ السلطان على مضبطة قيل إنها رفعت لاسطنبول. ردَّ عليه بلهجة بين الجد والمزاح:

- سلطان الإسلام ويكتب بلغة الكفار؟ هاي وين صارت أبو نجم؟

- آني وياك، أبو حقي، لكن ليش جت سيرة فلان وفلان؟

- مثلي مثلك، ما أدري، أسطة، لكن يجوز أكو فد واحد باسطنبول يعرفه وقال: سلموا لي على فلان وعلى فلان.

- وهذا اللي دز الخط ما لقى إلا حسون حتى يكلفه بالسلام؟

- لا بد يكون اللي دز الرسالة غريب، والغريب، مثل ما يقولون أعمى ولو كان بصير. ما يعرف الدنيا، وما يعرف الناس، وقال لروحه: رسالة لبغداد، لحسون، فشنو راح اخسر إذا قلت له: سلم على فلان وفلان؟

قال الأسطة عواد، وكأنه يخاطب نفسه:

- ما تجي المصايب إلا مِنْ الحبايب، وهذي المصيبة مِنْ ورا راس حسون!

- وكُلّ الله، أبو نجم، مِنْ ساعة لساعة فرج!

وابتسم أبو حقي، وكأنه تذكر شيئاً. نظر بإمعان إلى الأسطة عواد وتساءل:

- مسألة أن تكون هذي الرسالة مِنْ السلطان، شيلها مِنْ بالك، لأن السلطان مو قشمرة.

ولو راد يكتب يعرف المن يدز الخط! اسأل روحك يعرف لو ما يعرف؟

- شلون ما يعرف، آغاتي!

- ولعلمك، أبو نجم، سلطانا يعرف التركي والعربي، وإلا شلون يصلي؟ شلون يقرا الدعا شلون يفتهمه؟

- أنا وياك أسطة. وهذا اللي يحيرني.

- والحل؟

بعد فترة صمت، وبعد أن تبادل الاثنان التحيات مع كثيرين، وقر كُلّ مِنْ مر بهما أنهما مشغولان بأمر الرسالة، سأل الأسطة عواد فجأة، وكأن الفكرة طرأت له فِي اللحظة:

- هذا، صاحبك، ذنون الحاج حسين، ما يفيدنا؟ ما يقدر يفك الطلسم؟

نظر أبو حقي إلى الأسطة عواد، بعد أن استدار نحوه بكليته، وقال بفرح واندهاش:

- يسلم حلقك، يا أبو نجم، جبتها، وهذا الكلام اللي ينصرف!

وأضاف، وقد شعر بالظفر:

- ليش نسيناه؟ ليش ما جا ببالنا؟

- صاحب الحاجة يصير أرعن، ينسى، أو تتيه عليه، ما يعرف المن يسأل أو شيسوي، لكن ربك دائماً يذكر ويلهِمْ.

واتفق الاثنان على أن يذهبا مُبكراً إلى ضاحية الأعظمية، والتي تتطلب سفراً، حيث يسكن ذنون الحاج حسين، وهذا الرجل مِنْ زبائن الأسطة اسماعيل، وكان يأتي إليه بين فترة وأخرى ليحلق له شعره، وبعد أن ينتهي لا بد أن يمر على قهوة الشط منفرداً أو بصحبة الأسطة اسماعيل. وكان ذنون يحمل باستمرار كتباً، ويقول، بدعابة، لأي إنسان يسأله عنها إنها «بلغات الصليبيين: الانكليز والألمان والفرنسيين»، ويستمر فِي التعداد ليدلل على معرفته بلغات كثيرة! كما يؤكد أنّه بعد قراءة أيّ مِنْ هذه الكتب يحس أن رأسه يكبر «ولا بد أن يأتي يوم يطالبه الأسطة اسماعيل بأجرة رأسين بدل الواحد، لأن رأسه يكبر يوماً بعد يوم تماماً كما تكبر الرقية» والحقيقة أن الأسطة اسماعيل لمح، مداعباً، إلى شيء قريب مِنْ هذا، لكن بسبب مرور فترة طويلة بين حلاقة وأخرى، وليس بسبب حجم الرأس!

ما أن استقر رأيهما على استشارة ذنون حتى بدأ التفكير باختيار طريقة الذهاب. يمكن أن يمتطيا البغال، أو استئجار عربة، ولكن وصول سيفو فِي تلك اللحظات، وسماعه الحديث الذي كان يدور، جعلهما يقتنعان أن المركب أفضل طريقة، خاصة بعد أن عرض سيفو تأمين المركب، وهو لصديق بدأ يتفاوض معه كي يصبحا شريكين! ومما زكى استخدام المركب الحرارة الشديدة خلال النهار، ثم هكذا ينتقلان مباشرة مِنْ الكرخ إلى الاعظمية، دون أن يضطرا للذهاب إلى صوب الرصافة.

فكر سيفو أن يرافقهم حسون فِي هذه الرحلة، ليسمع بأذنه ما جاء فِي الرسالة، لكن ردَّ الأسطة اسماعيل كان حاسماً:

- خلينا مِنْ هالمسكين يا أبو فلاح، يثبرنا بليا افادة!

ـ وحتى لو ردناه يروح ينهزم، قال الأسطة عواد، وشفتوه الليلة كيف استلم الخط!

- ومن الغبشة يسري حتى يقابل الباليوز، قال أبو حقي، وكان يبتسم.

وركبوا إلى الأعظمية فِي الصباح الباكر لليوم التالي.

الهواء شمالي غربي، ناعم، منعش، وتزيده نعومة ولذة رطوبة الماء فِي ذلك الغبش المتلون ببقايا الظلمة. أما أسراب الطيور النهرية، بلونها الأبيض الناصع، فكانت مثل ضحكات الأطفال، كما وصفها الأسطة اسماعيل، الذي فوجيء بالمناظر حوله، وكأنه يراها لأول مرة!

قال يخاطب الأسطة عواد، لكنه يريد أن يسمع سيفو:

- مقابلين الحياطين الأربعة مِنْ غبشة الصبح حتى تظلم العين، والمقص بايدينا: تك.. تك.. تك، وبعدها شلون ما نعمى؟ ما نتقزم؟

لما وجد الأسطة عواد مأخوذاً بالمناظر، وقد سمعه ولم يسمعه، سأل:

- ما تقول لي يا أبو نجم شلون عيشة عايشينها؟

هز الأسطة عواد رأسه آسفاً، وأجاب، وقد خرجت الكلمات ببطء:

- الخبزة تنراد، أبو حقي، لأن الله ما يدندل بزنبيل؛ لازم الآدمي يركض، يكد، حتى يحصل خبزته.

- ما اختلفنا، لكن أكو فرق بين اللي يقضي عمره بزاغور، وبين اللي يسرح ويا الخضرة والماي.

قال سيفو بغيظ:

- لما قلنا هذا الكلام قلتم: سيفو صار خشمه عالي، ما يتحاچى، وما عاد يذكر الخبز والملح...

وأراد أن يواصل، لكن الأسطة اسماعيل قاطعه:

- على كيفك أبو فلاح، لا تعجج الماي... ابتسم وكانت ابتسامته أقرب إلى القهقهة وهو يُضيف:

- ماكو أحد وقف وياك مثلي يا أبو فلاح. تتذكر عركتي ويا ملا حمادي، ويا الحاج علو. قلت لهم: هدوا الآدمي، خلوه يشوف دربه.دوروا غيره!

- ما أنسى فد شي، أسطة؛ ولو سألتني شكثر عدد استكانات الشاي اللي شربتها بقهوة الشط... أتذكرها.

استدار الأسطة عواد بفرح، وكان إلى ذلك الوقت يتابع النقاش وقد ركزت نظراته على الأماكن التي يمر بها المركب، علق وهو يبتسم:

- اللي ما يعرفك زين، اللي يباوعك مِنْ بعيد يا أبو فلاح، يقول: هالرجال ما يتذكر اسمه، ما يتذكر شنو كان عشاه... لكن تظل كرخي أصيل، وتظل مخلص للحليب اللي رضعك!

ثم صاح بمناجاة:

قال الأسطة اسماعيل الذي لا يتخلى عن السخرية:

- لعلمك، أبو نجم، بعدنا بصوب الكرخ، بعدنا ما عبرنا لذاك الصوب، فشنو بدأ الحنين والشكوى والنجوى؟

- كلمة تنقال، أبو حقي؛ وبعدين لا تقعد لي سجينة خاصرة، خصوصاً قدام الرجال اللي رايحين يمه!

لما تقدم المركب مسافة إضافية ظهرت جزر صغيرة، وقد زُرعت بمحاصيل صيفية. كانت خضرة المزروعات ريانة براقة فعم الجو برائحة زكية نفاذة، وكانت تملأ العيون بنوع مِنْ الحذر، يحس معه الانسان أنّه لا يرى لون خضرة واحد، شيئاً مألوفاً، فالهواء، وهو يتموج فِي هذا المجري، يغير الألوان والأشكال، وبالتالي يغير نظرة الانسان وهو يستقبل هذا الجمال المتحرك المتغير فِي كُلّ لحظة.

صاح سيفو بنغم فِي محاولة للاستفزاز:

- خيار الشواطي.. يا خيار؟

- كُلّ يوم بمثل هالجزرة تسوى سنة بزاغور الدهدوانة والشيخ صندل والشيخ معروف، قال الأسطة اسماعيل، وبعد قليل، وهو يسأل سيفو:

- شتقول أبو فلاح؟

- لولا إني خلصت مِنْ ذيك الزواغير، كان هسة آني ميت، يقولون: الله يرحم سيفو، كان خوش آدمي...

ضحك وهو يُضيف، وبدت لهجته مختلفة:

- ما باقي لنا بالدنيا إلا جم يوم، وإذا عشنا مثل ما راد غيرنا، خلنا نموت مثل ما نريد! وبعد قليل وبحزن:

- وإذا رب العالمين سألنا: ها يا جماعة... شلون كانت دنياتكم.. نقول له خلقتنا بكيفك ومتنا بكيفنا!

كان استقبال ذنون لهم مرتبكاً، ولا يخلو مِنْ الشعور بالحرج. فهذا الرجل الذي يحاول أن يبدو أنيقاً فِي كُلّ زيارة للأسطة اسماعيل ثم لقهوة الشط، والذي تظهر عليه علامات الرفعة، وقد يوصف بالتكبر لمن يلتقيه أول مرة، بدا لهم، بالدشداشة القديمة الواسعة، بالشعر المنفوش، بالحركة السريعة المضطربة، وهو يدعوهم بود ظاهر للتفضل والدخول، أقرب إلى تصرفات الأطفال وطريقتهم فِي الحركة والكلام.

كان يسكن على طرف النهر، فِي بيت تظهر عليه آثار نعمة قديمة، إذ رغم اتساعه إلا أن الإهمال لحق بالكثير مِنْ جوانبه، وترك عليه الزمن علامات تتبدى بوضوح مِنْ الألوان، مِنْ تراكم أشياء كثيرة فِي الزوايا، ومن البلى الذي لحق الأبواب والنوافذ والأدراج. ولأن الرجل أعزب ويعيش وحيداً، فقد تزايدت الفوضى وظهرت فِي كُلِّ ناحية.

بعد ترحيب حار، وفِي محاولة للاعتذار، خرج صوته مسكيناً:

- لو قايلين، لو أدري، كان قلنا لوحدة، ثنتين، مِنْ القرايب، حتى نحضر البيت، القعدة، لكن أبو حقي، مثل عادته، يسوي الأمور سنطة!

وحين توالت الكلمات المتسامحة، التي تتفهم الأمور وتقدر ظروف الآخرين، شرح ذنون أنّه يعيش بمفرده، خلال فصل الصيف، فِي هذا البيت الذي لا يشغل منه سوى غرفة واحدة، فِي الطابق الأعلى، أما باقي أيام السنة فيقضيها فِي بغداد، فِي محلة قنبر علي. إنّه يفعل ذلك لأن هواء الأعظمية بالصيف يرد الروح، ويشفي مِنْ الأمراض التي تتراكم طوال العام فِي محلات بغداد المكتظة. وأشار إلى أنّه يقضي النهارات كلها فِي البستان: يقرأ ويشرب ويراقب الطيور، فإذا تعب يصنع مِنْ الغضار تماثيل تحاكي التي كان يُعثر عليها أثناء التنقيب، خاصة فِي أور. وإذا تعب أكثر، أو تعب مِنْ صناعة التماثيل ينظم الأشعار، ويلحن بعضها!

وفِي محاولة لخلق جو حميم، ولأنهم أصدقاء، فلن يضطر لتبديل ملابسه، كما قال، ويفضل أن يكون الجلوس فِي البستان، تحت ظلال النخيل، وبالقرب مِنْ أشجار الحمضيات!

لما انتقلوا إلى البستان كانت المفاجأة كبيرة: لقد خلق ذنون لنفسه جنة صغيرة، فتحت شجرة كرمة ممتدة، كبيرة، وكريمة أيضاً، وضع مجموعة مِنْ المقاعد الخشبية، وأخرى مصنوعة مِنْ جريد النخيل، ورمي فوقها بسطاً ملونة ومساند، وكانت ثلاث طاولات موزعة بعناية، واحدة عليها خضرة طازجة منتقاة بمعرفة، لجمالها وطيب مذاقها، وأخرى، جانبية وقد تراصت فوقها الكتب والزجاجات الملأى والفارغة، إضافة إلى مجموعة مِنْ المراوح وعدة ناركيلات، وربما أدوات صيد السمك، وبندقية حربية. أما الطاولة الثالثة وكانت أكبر الطاولات وبعيدة قليلاً، فقد امتلأت بمجموعة مِنْ التماثيل الطينية المفخورة والغضار غير المشغول.

كان يهب مِنْ جهة الغرب، مِنْ جهة النهر، هواء سخي منعش، يحمل رائحة الماء، والزهور التي تحيط بالمكان مِنْ ثلاث جهات، ويبدو أن ذنون كان شديد العناية بالنباتات الصغيرة، لأن طريقة تنظيمها وتوزيعها تدل على اهتمام وذوق، وكان جانب مِنْ النهر يظهر فِي نهاية البستان.

- عندك هذي الجنة وتريد تحبسنا جوا، بالزاغور؟

هكذا سأل الأسطة اسماعيل، وهو ينظر بإعجاب إلى كُلّ شيء يراه، وكان يتفقد المكان باهتمام. ردَّ ذنون وهو يفرك يديه:

- بصراحة، فكرت مِنْ لحظة وصولكم أن تكون قعدتنا هنا، لكن قلت لروحي خاف الجماعة يضرجوا مِنْ ريحة العرق... وأشار إلى الطاولة المليئة بالخضار والفاكهة، وكان عليها أيضاً كأس مِنْ العرق، وكتاب!

- لا يا معود، شكو بيها، وهم العرق، نعمة الله!

هكذا ردَّ الأسطة عواد وقد تهلل وجهه، خاصة وأن كلمة شاعر التي ذكرها ذنون، ثم كلمة تلحين بعض القصائد، رنتا فِي أذنه، وقدر أن يوماً جميلاً، وربما حافلاً، ينتظرهم.

أما الأسطة اسماعيل فقال محذراً ومنبهاً، لكن يمكر لا يخفى:

- ترى اللي يشرب بهذا المكان جزاه مثل جزا فرارية العسكر: القاط قاطين!

- شلون أبو حقي؟. سأل الأسطة عواد.

- إذا شفع لك هذا الصوب، ترى الصوب الثاني ما يشفع، فدير بالك أبو نجم!

- ليش يا معود؟ شمسوين؟ قاتلين؟ ناهبين؟ لو فرارية؟ سأل الأسط عواد.

- آني علي أقول لك، أنبهك، وبعدين افتصل أنت وربك.

- قول، نورنا، آغاتي!

- مِنْ هذي الصفحة: أبو حنيفة؛ ومن ذيك الصفحة: الكاظم، فشلون راح تخلص؟ وين تروح؟

- سيد ذنون صب لي جَدَحْ...

هكذا توجه بالكلام إلى المضيف، ثم التفت إلى الأسطة اسماعيل، وتابع:

- آني شفيعي أبو الخيمة الزرقاء اللي يعرف ما فِي السرائر، وهو الغفور الرحيم!

وتوجه ذنون كطفل مطيع ليحضر كأساً للأسطة عواد، وأثناء تحضير الكأس سأل:

- وأنت.. أبو حقي؟

- أشرب شويونة وذنبي برقبتكم، وعندي همين شرط!

- شنو شرطك؟

خرج السؤال مِنْ الأسطة عواد: ومن ذنون معاً! ضحكا، وكان الضحك أقرب إلى القهقهة، لتوارد الخواطر وخروج السؤال بذات اللحظة.

- الشرط، وقبل الشرب، أن تخلص لنا شغلتنا، حتى إذا شربنا نعرف إنا ذبحناها على قبلة!

- قول، أبو حقي، وشرطك على العين والراس!

وتولى الحديث الأسطة عواد:

- أكو بمحلتنا فرد رجال فقير، على باب الله، وما أدري إذا شفته بالقهوة لو لا، اسمه حسون، هذا الآدمي جته رسالة مكتوبة بالأجنبي، جابها حامل البريد بنفسه للقهوة، وما ندري شكو مكتوب ببطن هذه الرسالة، خير لو شر، بيها رزقة أو كسران ظهر، فقلنا لروحنا ماكو إلا سيد ذنون، وحده اللي يقدر يقراها ويقول لنا ممن وشكو بيها!

هكذا لخص الموضوع، دون أية إشارة إلى أنها عُرضت على جاكي الأصفر. ودون انتظار انتزع الرسالة مِنْ جيب داخلي، مما يدلل على حرصه، وقدمها إلى ذنون.

سيفو الذي أعجب بالبستان وبالمكان، لفتت نظره أكثر مِنْ أيّ شيء آخر التماثيل والغضار. إذ بعد أن تجول قليلاً، تجمد عند تلك التماثيل. كان ينظر إليها باهتمام، وبكثير مِنْ الإعجاب، ثم أخذ يدور حولها ليراها مِنْ كُلّ الجوانب، فبدا مسحوراً. ود مِنْ أعماقه لو يلمسها، لو يحملها ليعرف وزنها، لكن لأنه يعرف طين الشط كم هو هش، وقابل للتشقق ثم الانكسار فالتفتت، فقد تردد فِي أن يمد يده، وهكذا ظل يتأملها مِنْ بعد! حتى المناقشات عن الشراب والشروط لم ينتبه لها، وربما لم يسمعها، لأن ذنون بعد أن اتفق مع عواد واسماعيل، وبعد أن استلم الرسالة، سأل الاثنين بهمس:

- وصاحبنا يشرب لولا؟ ردَّ أبو حقي بمداعبة:

- هذا اللي شايفه، هذا اللي ما عاجبك، شرب صوب الكرخ كله، ومو سنة وثنتين، عشرين سنة، ثلاثين سنة، لكنه مثل الجمل شال على ظهره الذهب وأكل العاقول... وذنون الذي كان يستمع بأدب، لا يعرف إذا كان الأسطة اسماعيل يمتدح سيفو أم يذمه، يثني عليه أم يلومه، وبالنتيجة لا يعرف هل يشرب أم لا يشرب. قال ذنون وخرج صوته مسكيناً:

- كُلّ الناس خير وبركة يا أبو حقي، وما دام جا وياكم، ولا بد يكون صاحب، فسعره سعرنا، لكن ما أدري يشرب أم لا؟ أنتم أدرى!

قال أبو نجم لينهي مكر الأسطة اسماعيل:

- اسأله، مولانا، لأن الشرب واهس!

لما توجه ذنون نحوه، ورأى مدى استغراقه وهو يتأمل التماثيل، وكانت ملامح وجهه وحركاته تتوالى، وقد غرق فِي ذلك العالم، وقبل أن يسأله عما إذا كان يرغب بمشاركتهم فِي الشراب، وجد نفسه يقول:

- الظاهر أنها عجبتك؟

كمن يفاجأ بصوت فِي الظلمة، أو بحركة غير متوقعة، انتفض سيفو بعد أن رنت فِي أذنه تلك الكلمات. نظر إلى ذنون بعيون ترفرف، وربما التقط الكلمة الأخيرة التي قالها. ابتسم له تعبيراً عن الإعجاب والرضى. سأله ذنون مِنْ جديد:

- ها، شلون، عجبتك؟

- هوايه.. وكنت أشوف مثلها بمنامي، ونوبات أشوف الماي بطرف الشط يسوي مثلها، لكن بالعجل تتفلش، بلحظة تصير وبلحظة تذوب.

وصمت الاثنان، وتاها فِي أمكنة بعيدة. بعد هذا الصمت جاء صوت ذنون مِنْ جديد:

- يم العمارة كنا نلاقي مثل هذي، وكانوا يقولون عمرها آلاف السنين!

- ألفات السنين؟ معقول؟

- أيّ نعم، مولانا، إذا انفخرت زين تبقى!

هز سيفو كتفيه استغراباً وابتسم، وبعد قليل:

- هاي أنت مسويها؟

- أيّ نعم!

- ويقدر الواحد يتعلم ويسوي مثلها؟

- ماكو أسهل منها، بس ينراد لها صبر، وبال طويل.

فِي هذه الأثناء كان الأسطة اسماعيل يقترب، وقد دفعه الفضول أن يسمع ما يدور بين الاثنين، دون أن يحس سيفو باقترابه. عندما أصبح قريباً وقادراً على التقاط الكلمات، سمع سيفو يقول:

- علواه لو جنت ازغر فد عشرين سنة، جان بقيت هنا و...

وقبل أن يُضيف كلمة أخرى، لمح ابتسامة على وجه ذنون ونظرة صغيرة. التفت، وجد الأسطة اسماعيل، كان يبتسم ويهز رأسه كأنه قبض عليه متلبِساً، وعلَق:

- أزغر عشرين ثلاثين سنة حتى تكربس بنات الناس، حتى ما تترك وحدة مِنْ شرك، مو هالشكل؟

- أذكر ربك يا أبو حقي، لا تقسم وحدك مثل أيّ فسقان!

- آني فسقان أبو فلاح؟ما يخالف!

قال ذنون ليعيد الحديث إلى سياقه الأول:

- استنقي أيّ واحد مِنْ هذي، أبو فلاح، وهدية مني!

ولم يمهله أبو حقي لكي يجيب، قال بمكر:

- شنو، مولانا، صابر تعبد الأصنام؟ هذي آخرتك يا أبو فلاح؟

- له.. له يا أبو حقي، سويتنا عبدة أصنام؟ هاي تاليها؟

هكذا تدخل ذنون بلوم ودود، وكان يتابع، لولا أن صوت الأسطة عواد جاء قوياً منذراً:

- وينكم يا جماعة، ترى العرق غير الشوربة، إذا سخن يصير زقنبوت، فتعالوا حتى نشوف دربنا!

وبمرح توجهوا إلى الطاولة، حيث الفاكهة والخضار، وما كادوا يجلسون حتى سأل ذنون:

- شنو رأيك، أبو فلاح، تشاركنا؟ أصب لك فد قدح؟

هز سيفو رأسه كأنه يتذكر، ابتسم، وقبل أن يرد على سؤال ذنون سلباً أو إيجاباً، قال وخرج صوته مِنْ مكان بعيد:

- شربت بحياتي نوبتين أو ثلاث نوبات، وهذا، قبل سنين وسنين، لما جنت فِي البصرة. النوبة الأولى ضحكت... ضحكت حتى توجعت وتوجع ربعي. ما ظل أحد إلا وقال: ييزي يا معود، ما عاد بينا حيل.

ونوية ثانية، رب العالمين ذب علي القهر فبكيت، ونوبة لما تخاربنا آني والملا حمادي وهسه ما أدري أقول أيّ أو لا!

قال أبو حقي مداعباً:

- هالنوبة راح ننطيك نص قيراط، حتى لا تضحك ازيد مِنْ اللازم، ولا تبجي وتبجينا وياك.

لا يمكن أن يكون السكر، أو بالأحرى الشراب، السبب فِي أن لا أحد استطاع أن يفهم شيئاً واضحاً ومحدداً مِنْ رسالة حسون. إذ بعد أن قرأها ذنون عدة مرات، وحاول أن يترجم كُلّ فقرة، ورغم الجهد الذي بذله لتفسير بعض الفقرات والكلمات وعلاقتها فيما بينها، مع الشتائم الكثيرة التي اضطر

لاطلاقها وهو يصف كاتب الرسالة بالجهل وارتكاب الأخطاء، لم يصل إلى نتيجة واضحة، وللتدليل على ذلك، وفِي محاولة لإقناع نفسه، وأيضاً إقناع الآخرين، جلب ورقة بيضاء كبيرة، وأخذ يكتب بعض الكلمات، كما وردت فِي الرسالة خطأ، وما هو الصحيح الذي يقابلها، وكان يريها للأسطة عواد ولأبي حقي، ليؤكد خطأ وجهل كاتب الرسالة!

بعد ساعة مِنْ المحاولات والجهد قال ذنون بنوع مِنْ اليأس الحزين:

- يا جماعة الخير هذا الكلام ما يترجم!

وفِي محاولة أخرى للبرهنة على صحة رأيه قال:

- ما يخالف، خلينا نترجم كلمة.. كلمة.

اقترب منه أبو حقي، كان ينظر إلى الصفحة المفتوحة، والتي تشبه حروفها النمل الأسود: متداخلة، متراصة، لا يعرف أين تبدأ وأين تنتهي. وضع ذنون إصبعه على الصفحة مِنْ جهة اليسار، وقال:

- نبدأ «السيد حسون. تحية. الجامع الأيسر والماء. السهر، كيف ينتظر الإنسان. إخرس» ويشتم ذنون قبل أن يتابع:

- اكو بالدنيا أحد يكتب الماء والسهر هالشكل؟

ويحار قبل أن يواصل الترجمة، لكنه يتابع بصبر مع الشتائم والسخرية.

أثناء الترجمة ولأن كُلّ ما هو مكتوب مجرد لغو كانت النظرات المتبادلة حائرة متسائلة، وسيفو الذي كان يسمع بصمت، وبعد أن شرب جزءاً مِنْ القدح، أخذ يبتسم ويهز رأسه، ثم أخذ يضحك. نظر إليه الأسطة عواد بصراحة، وكأنه يطلب منه أن يكف، أن يصمت. أحس أن استمراره قد يثير الأسطة، حمل قدحه واتجه إلى التماثيل مرة أخرى!

قال أبو حقي، فِي محاولة لأن يترك أملاً مِنْ أجل الوصول إلى نتيجة حول ما جاء فِي الرسالة:

- كُلّ ظني، يا أبو نجم، أن الرسالة مكتوبة بحساب الجُمل.

- والرأي؟

- أن نسأل اللي يفتهمون بقراية هذا الحساب!

سأل ذنون، فِي محاولة تقدير جدية الموضوع:

- وصلته رسائل قبل هذي؟

ضحك الأسطة عواد بمرارة:

ـ إذا أبوي بقبره وصلته رسائل، حسون وصلته رسائل قبل هذي؟

قال الأسطة اسماعيل مواصلاً النظر دون أن يرى:

- ويجوز، يا جماعة الخير، أن الرسالة مجفورة جفر. فإذا ما انقرت على حساب الجمل لازم ندور على أحد يفك جفرها!

ردَّ الأسطة عواد بحدة:

- انلاصت علينا يا أبو حقي، وخاف يصير بينا أن اللي يتركه الحرامي ياخذه فتاح الفال!

- ما لازم نيأس، ما لازم نسلم، أبو نجم.

- والرأي؟

- إذا يتكرم علينا سيد ذنون ويترجم لنا الخط كلمة.. كلمة، وبعدها نشوف!

- بالنسبة لي ما تفرق، هكذا ردَّ ذنون، لكن خاف بعد التعب تبين أن كلها قشمرة!

- يا معود، أبو البريد، تعنى وجا بنفسه للقهوة، وما سلم الخط إلا بألف ويلاه، وهذي ما صارت مِنْ قبل وما أظنها تصير.

- زين.. زين ما يخالف، لكن بشرط...

تساءل الأسطة عواد بسخرية:

- أنت وأبو حقي ما تبطلون مِنْ الشروط؟

- آني ما علي، وما عندي شروط، أريد نخلص، وشلون ما تردون آني موافق.

ردَّ أبو حقي بنوع مِنْ التسليم، وقد رأى الآخرين أقل حماسة منه، ففاجأه ذنون:

- شرطي أن أترجم وأنتو تتولون تحضير الأكل...

وقام، وأخذ يشير بيديه، بجسده كله، وهو يُضيف:

- تردون دجاج، هذي الدجاجات وهذا الحطب. وإذا ردتم سمك فاكو سماك قريب... وأعد الدجاج. تولى سيفو معظم المهام، وترجم ذنون الرسالة كلمة كلمة، وسلم الأصل والترجمة إلى الأسطة عواد، لكن بدا الأسطة وهو يستلم الأوراق، أقل تفاؤلاً مما كان حين سلمها لذنون.

خلال الغداء وقبله شربوا وتحدثوا بأمور كثيرة. والجو، رغم الحرارة، كان أكثر رحمة مِنْ أماكن أخرى. أما حين جاء المركب، ووقف مقابل البستان عند العصر، وقد اعتذر الملاح عن البقاء أو مشاركتهم، لأن لديه أصدقاء فِي الأعظمية، ويريد زيارتهم، فقد كانوا جميعاً أقرب إلى النشوة، لكن دون

سكر. ولئلا تحدث مناقشة جديدة، فقد وضع ذنون أحد التماثيل فِي المركب، وهو عبارة عن شخص يرفع يده اليسرى فوق جبينه، فِي محاولة لاتقاء الشمس، وكأنه يحدق إلى نقطة بعيدة فِي الأفق.

قال لسيفو، وهو يودعهم:

- صارت الصوغة قبلك.

عند الغروب وصلوا إلى محلتهم فِي الكرخ.

قال أبو حقي بنوع مِنْ التحدي:

- أبو نجم.. انطيني الرسالة، وقبل أن يؤذن العشا ارجع لك بالخبر اليقين.

- شلون؟ المن؟

- ما عليك، مشوار الطريق، واستكان شاي، وان شاء الله ما نبات الليلة إلا على نور!

وذهب الأسطة اسماعيل إلى خاتشيك ديمرجيان، وتعمد أن يأخذ معه حقاً مِنْ الخمر، وهو فِي طريقه إليه!

لما وصل الأسطة اسماعيل إلى بيت خاتشيك، كان أحد رجال الدين الأرمن قد سبقه إلى هناك، وبدا أنّه وصل قبله بدقائق، لأن الأولاد الصغار أخذوا يتوافدون تباعاً للسلام على الخوري، وكان يظهر عليهم، مِنْ خلال بقايا الماء على شعورهم ووجوههم، ومن خلال الملابس التي استُخرجت للتو مِنْ الصناديق، أنهم لم يتوقعوا هذه الزيارة، وأنهم استعدوا لها بسرعة.

زوجة خاتشيك التي بدت فرحة وملهوفة، كانت تقدم أبناءها والبنات واحداً بعد آخر بكثير مِنْ الاهتمام. أما خاتشيك فكان يبدو مرتبكاً محرجاً، سواء بالكلام الذي يتبادله مع الخوري أو بطريقة التصرف.

وصول الأسطة اسماعيل غير الجو. فحق الخمر الذي جلبه، وكان ينوي أن يفاجيء به خاتشيك، بدا عبئاً للاثنين. إذ بين أن يُقدم باحتفاء، وأن يُستقبل بما يليق به، فإن وجود الخوري، وقد جلس فِي صدر الغرفة، بعد أن نزع غطاء الرأس، وفك أزرار الثوب الكهنوتي، جعل الأمر محرجاً. إذ بعد أن أحتفظ الأسطة اسماعيل بالحق، استغل دخول البنت الصغيرة التي جاءت للسلام، فوضعه جانباً، ثم غمز خاتشيك أن يحمله بعيداً.

كان الخوري، بعد أن تخفف مِنْ القلنسوة، غريب الشكل مِنْ حيث الهيئة والألوان. فالأماكن التي كانت محجوبة بالثياب، مِنْ أعلى الجبهه ونهاية الرقبة، ثم ما يليها، بدت بلون مختلف عن الوجه، وكأنها طليت للتو، خاصة وأن العرق، رغم محاولات تجفيفه، كان ينز بغزارة، أما القلنسوة التي كانت مقلوبة إلى جانبه، حين أدارها قليلاً، فقد ظهرت متسخة عند الحواف وشديدة الرطوبة.

حيا الأسطة اسماعيل الخوري باحترام، وكان يود أن يخلق جواً مِنْ الألفة السريعة، لكن الخوري كان مشغولاً بتجفيف عرقه، وكان بعيداً أيضاً، الأمر الذي لم يفسح لأكثر مِنْ كلمات تبادلها الرجال، فِي الوقت الذي جلس الصغار صامتين، وكانوا يراقبون كُلّ حركة، كُلّ كلمة، بعيون وآذان يقظة. وإذا كان خاتشيك اعتبر وصول الاسطة هدية مِنْ السماء، وكان قبل ذلك متحسباً خائفاً مِنْ زيارة الخوري، إذ لا بد أن يكرر عليه، مرة أخرى، الوصايا العشر، ثم يبدأ بتأنيبه على إهماله لواجباته المنزلية والدينية معاً، فإن وجود إنسان غريب، ضيف لم يره مِنْ قبل، سوف يجعله يختصر وصاياه، وقد لا يلجأ إلى التأنيب. وهذا ما جعل خاتشيك يتخلى بسرعة عن تحفظه ثم ارتباكه ويبدو عادياً، وما كان ليقوى على ذلك لو كان بمفرده مع الخوري وزوجته!

أما الزوجة التي تطيرت إلى أقصى حد مِنْ زيارة الأسطة اسماعيل، واعتبرتها غير لائقة، سواء مِنْ حيث التوقيت، أو مِنْ حيث إفسادها لما كانت تخطط له، خاصة وأنها رجت، دون أن يدري خاتشيك، الخوري أن يقوم بهذه الزيارة، كي تضع حداً لغياب خاتشيك عن البيت، وأيضاً لإهماله، فقد صممت أن لا تترك الأمور تفلت مِنْ بين يديها، مهما كانت النتائج.

فبعد أن دفعت الأولاد كالكرات، واحداً بعد آخر، إلى تقبيل يد الخوري، وكان هذا يعطي يده بطريقة آلية، جاءت بعد أن ارتدت الملابس التي تليق بهذه المناسبة.

كانت، حتى اللحظات الأخيرة، تتجاهل وجود الأسطة، كطريقة فِي معاقبته، ومنصرفة بكليتها إلى الخوري، وهي تردد كلمات الشكر والتقدير لقيامه بهذه الزيارة المباركة، والتي لن تنساها مدى العمر، ثم أخذت تعرض، دون تسمية، بالذين يقتحمون بيوت أو حياة الآخرين، ودفعهم إلى إهمال أسرهم، وإلى إنفاق المال على الشراب وعلى أشياء أخرى لا تفيد. تعمدت أن تقول ذلك باللغة العربية، وإن بدت لغتها ثقيلة، وبعض الأحيان غير مفهومة، وكأنها تتوجه بالخطاب إلى الأسطة اسماعيل وإياه تعني. وحين لا تسعفها العربية، أو لا تعتبرها كافية، تلجأ إلى الأرمنية، وحينذاك تتدفق بسرعة، وقد احتقن وجهها وبرزت عروق الرقبة. لا تكتفي بذلك، بل كانت تشير إلى خاتشيك، وقد أشارت أكثر مِنْ مرة، وباستخفاف، إلى الأسطة اسماعيل!

شعر الاسطة بالحرج، فهذه هي المرة الثالثة التي يدخل فيها بيت خاتشيك. جاء فِي المرتين السابقتين مع آخرين، مرة حين باع خاتشيك مركبه، وكان الأسطة شاهداً على هذا البيع، والثانية لما عُثر على راهب كرملي مقتولاً، وكان المطلوب وجود مترجم بين راعي الدير ورجال التحقيق، وقد تبرع الأسطة اسماعيل أن يدلهم على خاتشيك للقيام بهذه المهمة. وفِي المرتين كانت زوجة خاتشيك تظهر وتغيب كالشبح، وكأن ما يجري لا يعنيها أو لا يعني شيئاً لها. وفِي المرتين أيضاً أصر خاتشيك على أن يشربوا كأساً سريعاً. فِي المرة الأولى يؤكد أن البيع تم بنفس راضية، وليبارك البيع؛ والثانية لأنه لا يستطيع الترجمة، أو القيام بعمل جدي، دون أن يتناول كأساً، «والكأس لا يمكن أن يشربه البني آدم وحده لازم يشربه ويا ربعه» وقد اضطر الأسطة اسماعيل أن يشرب معه، خاصة فِي المرة الثانية، ليحمله على مرافقته بسرعة والقيام بالترجمة بين الطرفين.

إنها إذن المرة الأولى التي يلتقي فيها بزوجة خاتشيك.

لما وجدها منفعلة هكذا، وقد أشارت إليه أكثر مِنْ مرة، شعر بالحرج، ولام نفسه أن جاء فِي هذا الوقت. بل وفكر أن ينسحب، لكن وجد مِنْ غير

اللائق أن يغادر بهذه السرعة، خاصة وأنه وافق على الدخول، وأصر خاتشيك على بقائه.

فهم الأسطة، أو قدر، مِنْ خلال المناقشة، أن «محاكمة» تجري لخانشيك، فإذا لم تكن محاكمة بالمعنى الدقيق للكلمة، فإنها نوع مِنْ التأنيب، لكن لم يفهم علاقته بالأمر.

قال، فِي محاولة لأن يخلق جواً مسالماً:

- ترى يا جماعة أطلب منكم السماح. يجوز جيتي ثقيلة، لكن الحاجة توازي...

خيم، بعد هذه الكلمات، صمت حذر، فقد تطلعت إليه العيون تترقب ما سوف يضيفه. تابع بصوت خرج عميقاً:

- يجوز أم آرام ما تعرفني زين، وأهل بغداد يقولون: ظالم لا تكون مِنْ الدعا لا تخاف، وآني ما لي لا بالأول ولا بالتالي، فإذا تردون هسه أمشي!

ردَّ خاتشيك بحدة - على بختك أسطة، لا أنت تسويها ولا آني أقبل، شنو خلص الخير مِنْ الدنيا؟ ما عادت الناس تعرف بعضها؟ هاي وين صارت؟

- أشوف أم آرام مقبطة ومتوازية، وبين دقيقة والثانية تشاور علي!

- أنت ما عليك، أسطة، وزيارتك خير وبركة.

قال الخوري بكثير مِنْ الرصانة:

- أم آرام يريد مِنْ خاتشيك أن تبقى بالبيت؛ أن تهتم بالأولاد، هذا كُلّ كلامه.

- وآني كُلّ جيتي على مود رسالة وصلت بلغة أجنبية وأريد مِنْ أبو آرام أن يترجمها، يقول لي شكو بيها.

ارتاحت الزوجة قليلاً، لكن لا تريد أن تقدم تنازلاً، قالت، دون أن يُعرف لمن كانت توجه الحديث؛ - تمنيت يقعد فد ليلة بالبيت. كُلّ ليلة، ومن راس الدربونة، يصيحون عليه، وقبل ما يخلص الصوت ما نشوفه إلا غاب!

ولئلا تفوت الفرصة، أو يجري التطرق إلى موضوع خلافي جديد، سأل الأسطة، وكان سؤاله أقرب إلى الاستئذان.

أكو عندكم مانع إذا قعدنا، آني وأبو آرام، بقبة ثانية، أو رحنا للقهوة اللي بصفكم حتى يترجم لي الرسالة؟

كان بصوته الأقرب إلى الرجاء، بوجهه المتوسل، يستعطف. وأم آرام التي كانت تنقل نظراتها بين الرجال الثلاثة، فِي محاولة لامتحان مد الصدق،

وأيضاً حجم التنازل الذي توافق عليه، وجدت نفسها بعد أن نظرت نحو الخوري الذي هز رأسه دلالة الموافقة تقول:

- إذا كُنتُم متوازين، والسالفة ساعة زمان فما يخالف....

وتغيرت اللهجة وهي تخاطب خاتشيك:

- بس لا تصير لك حجة، وما تجي إلا آخر الليل، مثل عادتك؛ فأبونا ما راح يروح حتى ترجع، لأنه يريد يحجي وياك!

ومثل السمكة التي تهرب مِنْ الشباك، مثل الطير الذي يفلت بعد أن تكون الأيدي قد شدت على صدره والجناحين وأشعرته بقرب النهاية، هرب خاتشيك، أفلت مِنْ الأيدي والعيون والأفواه التي كانت تحاصره.

قال للأسطة اسماعيل، وهما يجتازان بسرعة الدربونة الضيقة المعتمة:

- اسألني آني...

تنحنح أكثر مِنْ مرة، ليجلو صوته قبل أن يتابع:

- ماكو أنجس مِنْ الإنكليز إلا ذول اللي هسه شفت واحد منهم...

ولئلا يسيء فهمه الأسطة اسماعيل تابع:

- مسوين حالهم حراس الجنة والنار؛ هذا يصير وهذا ما يصير؛ هذا حلال وهذا حرام، وكأن مفتاح الدنيا والآخرة بحزامهم، وما يدرون إن الله مو قشمرة، وأنه يعرف كُلّ شي ويشوف كُلّ شي!

قال الأسطة اسماعيل، بعد أن اجتازوا الدربونة، وأصبحوا فِي شارع عريض:

- لا تدير بال يا معود، كلهم فرد شكل، عدكم وعدنا!

- شنو، أبو حقي، تريد تعلمني؟ أنا أخوك وأعرفهم.

وبعد قليل، وهو يبتسم ويتلفت:

- صونة ومغشوقة، واحد مثل اللاخ!

كان يتلفت ليختار المكان المناسب الذي يجب أن يذهبا إليه. فالقهوة القريبة، قهوة سبع، رغم أنها فسيحة، وعلى شاطىء النهر، إلا أنها ليست المكان الذي يلائم خاتشيك، خاصة فِي مثل هذا الوقت.

قال وخرج صوته متوتراً، أقرب إلى التبرير:

- بعدها وقت، هسه، فإذا رحنا يم ميخا، نقدر نقعد وحدنا ونسولف؛ نخلص شغلتنا بالعجل، وبعدها الله كريم، شتقول؟

- المهم نترجم الخط، أبو آرام، وانت اختار المكان اللي يوالمك!

- يم ميخا أحسن شي!

لما رجع الأسطة اسماعيل، عند منتصف الليل، إلى قهوة الشط، كان أكثر مِنْ واحد بانتظاره: الأسطة عواد، سيفو، فتاح الحلي، نجمان، وكان حسون أيضاً!

دون تمهيد، وبلا تحفظ، قال، وهو يواجه العيون التي تنظر إليه وتسأله:

- كُلّ مين يبكي على ميته... يا أبو نجم!

قعد. قال لنجمان، وخرج صوته حاداً:

- انطيني فد استكان شاي، لأن قلبي ساف...

والتفت إلى الأسطة عواد الذي كان ينتظر جواباً أو نتيجة:

- ما يقبل، أبو آرام، إلا أن يلزم الحبل مِنْ الراسين. يترجم كلمة ويجز قمع، وما أدري الشتايم اللي يترجمها مكتوبة لو هي مِنْ عنده...

ابتسم بحزن وأضاف، وقد تغيرت لهجته:

- يشتم الانكليز ويشتم المرية واليوم اللي تزوج بيه؛ وكُلّ ما أرده للجادة، وأقول له: ترجم المكتوب، يرد: لا تدير بال يا معود لأن ما بقي شي اليسوى. وبعدها كلمة مِنْ هنا وكلمة مِنْ هنا وانلاصت؟

قال سيفو بنفاذ صبر:

- والنتيجة؟ الخلاصة؟

- ساعة يجر بالطول وساعة يجر بالعرض، والنتيجة بوش، يا أبو فلاح...

ضحك بحزن وأضاف:

- وقبل ما أشوفه، قبل ما يقرأ الخط، كانت المسألة ما بيها إن، لكن بعد شوفته، وبعد ما قرا الخط، آنلاصت، صار يشيل مِنْ اللحية ويحط على الشارب، وما يندرى الصدق مِنْ الچذب، مِنْ الخرابيط اللي براس أبو آرام!

قال سيفو، وهو ينهض، وليس مِنْ عادته أن يبقى حتى هذا الوقت:

- ربابة يم طيز بعير، وتعال اسمع!

قال الأسطة عواد، يريد أن ينتهي مِنْ هذا الموضوع:

- ما النا إلا يعقوب، يعقوب حوحو. وباجر مِنْ الغبشة، قبل صياح الديك، لازم اشوفه!.

... وصاحت ديكة بغداد كلها، صاحت مرات كثيرة، والأسطة عواد لا يزال مرابطاً فِي القهوة، لا يغادرها، ولا يخفي قلقه، لأن الصديق الحقيقي ليعقوب حوحو هو ناجي البكري، «والأستاذ ناجي شمسته عالية» كما قال الأسطة لنفسه، وهو ينتظر وصوله، إذ عن طريقه يمكن حل هذه «القرادية» كما سمي الرسالة، أو «الحزورة» كما أطلق عليها الأسطة اسماعيل، وهو يعيدها إليه. إذ قال له، وكان صوته مزيجاً مِنْ السخرية والحزن:

- الله أعلم أن هذا الخط، يا أبو نجم، مثل النواط مال البدو، ما يسوى فلسين...

أخذ نفساً عميقاً وأضاف:

- فلا تتعب روحك. إدفن وطم، لأن هذا المقرود، حسون، ما هو وجه رسائل مِنْ اسطنبول، ويجوز اللي در الخط يريد يقشمرنا، حط فلسين بأيدين واحد مِنْ التتار وقال له: بوجهك لقهوة الشط، سلم الرسالة وما عليك!

- تاهت علينا يا أبو حقي، وما أقدر أقول أيّ او لا...

هز رأسه عدة مرات وأضاف:

- وإذا مثل ما تقول، فهذا اللي سواها يريد يلعب بخلقتنا، يريد يقول: حسون وكُلّ اهل الكرخ عقل سز، قشمرتهم ولعبت بيهم طوبة!

- والرأي؟

- خلنا نشوف يعقوب، وبعدها لكل حادث حديث!

وتغير صوت الأسطة عواد، خرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

- إذا چانت كلها قشمرة، وعرفت اللي سواها، فوالله وبالله وتالله لأرجعه لبطن أمه!

بعد أن ارتفعت الشمس أذرعاً عديدة فِي السماء، دبت الحركة فِي أحياء بغداد، فتراجعت ثم تلاشت أصوات الديكة والكلاب، وأخذت قهوة الشط، مثل عادتها كُلّ يوم، تستقبل روادها.

والرواد أنماط وأمزجة وأوقات. بعضهم يأتي مُبكراً، وبعضهم يتأخر فِي الوصول. بعضهم يأتي للقاء أصدقاء محددين، لأعمال محددة، وأيضاً فِي

أوقات محددة، وبعضهم يأتي، بحكم العادة، لتبادل الأخبار، لقضاء الوقت، ولا يهم متى يأتي ومتى يذهب.

ناجي البكري، الذي درس الحقوق الشرعية والأنظمة فِي اسطنبول، كانت له فِي سنوات سابقة مواعيد دقيقة ثابتة فِي الوصول إلى قهوة الشط، وفِي مغادرتها. وقد ظل محافظاً على تلك المواعيد؛ حتى أن الأسطة اسماعيل، ومن قبيل الدعابة والتعريض بالملا حمادي، الذي لا يضبط مواعيد الصلاة، اقنع الكثيرين أن الملا لا يرفع الأذان مرتين: ظهراً ومغرباً، إلا حين وصول الأستاذ ناجي إلى قهوة الشط!

كان ذلك فِي وقت سابق، وقت امتلأ فيه ناجي البكري بحلم قوي: «ثورة الشرق»: رهان كبير سيطر عليه أثناء دراسته فِي اسطنبول، واستمر معه سنوات عديدة لاحقة. وقد تأكد هذا الرهان أكثر مِنْ قبل لما وصل نابليون إلى مصر، وبدأت الاصداء والرغبات، ومعها صيحات التحريض، تتردد بين بعض المتعلمين والحالمين، وكانت تلاقي استجابة، خاصة فِي الليل، لدى الشعراء، إذ كان هؤلاء ينظمون قصائد تحريض أو هجاء، لكن لا يلبثون أن ينكروها أو ينسوها فِي الأيام التالية!

ويعقوب حوحو، الذي تقاعد الآن، قيض له أن كان فِي باريس أثناء قيام الثورة الفرنسية، وقضى هناك، قبل الثورة ثم أثناءها، بضع سنين، وقيل انه شارك فِي بعض الأحداث. ويبالغ عدد مِنْ معارفه فيؤكد أنّه كان له دور فيها، رغم أنّه لم يشر إلى ذلك؛ ثم جاء بعد سنين إلى حلب، ومنها إلى بغداد، ليعمل مترجماً فِي القنصلية الفرنسية.

أما العلاقة بين الأستاذ والمسيو، كما أصبح يطلق اختصاراً على ناجي البكري ويعقوب حوحو، فقد قامت، فِي جانب، على حلم «ثورة الشرق»، كما اتفقا، دون صعوبة، على التسمية، وفِي الجانب الآخر على صراع الديوك، تلك الهواية التي استبدت بالرجلين، بل وكانت طريق التعارف بينهما، قبل أن يكتشفا أن أشياء كثيرة تجمعهما!

بعد أن توقفت الثورة الفرنسية عن تحريض مخيلة الشعراء والحالمين، وبعد أن أصبح نابليون منتصراً ومهزوماً فِي ذات الوقت؛ قادراً وعاجزاً بنفس المقدار، موجوداً غائباً فِي عين اللحظة، فقد تغير الاثنان: الأستاذ والمسيو.

ثم مع تراجع وهزائم نابليون، تأجلت ثورة الشرق، وازداد اهتمام الاثنين بصراع الديوك! بل أصبح صراع الديوك بديلاً مقنعاً، على الأقل فِي هذه الفترة، وإلى أن تنجلي الأمور، أو كما اتفق الاثنان، وهما يبتسمان بحزن «إلى أن يتبين الخيط الأبيض مِنْ الخيط الأسود»، كما لخص المسيو الاتفاق!

ورغم أن صراع الديكة يخلف خصومات لا تنتهي، وغير قابلة للشفاء، ليس بين الديكة ذاتها، وإنما بين مالكيها، وبعض الأحيان بين المراهنين عليها، فإن أول اتفاق جرى بين الأستاذ والمسيو، باعتبار أن الاثنين يملكان ديوكاً مِنْ ذات النوع، بل وقيل انها مِنْ نفس الأب! ألا يدخلا صراعاً مباشراً كخصمين أو متنافسين، إذ الأكثر أهمية أن يثبتا للآخرين أن الديوك الهراتية هي الأقوى والأذكي، وهذا يقتضي أن يؤكدا تميز وقوة «الثوار» كما الديوك الهراتية فِي مواجهة الديوك مِنْ السلالات الأخرى الخسيسة.

مع صراع الديوك كانت الأحلام، مثل الغيوم أيام الربيع والخريف، تتكاثر، تتكاثف، وكان معها الحديث الذي لا ينتهي عن كيف يجب أن يكون هذا الشرق. كانت تُبنى الممالك كُلّ ليلة، وكانت فِي اليوم التالي تتعدل وتتغير، وقد تهدم. وبين الهدم والبناء مِنْ جديد، كان الأستاذ والمسيو يعرفان شيئاً واحداً: هذا الشرق، بصورته الحالية، يجب أن لا يبقى؛ يجب أن يتغير. وثورة الشرق يجب أن تقوم لتغيره. ولا بد أن تكون قوية، عاصفة، بحيث لا تترك أحداً أو شيئاً كما كان مِنْ قبل. ومثلما قام بالثورة الفرنسية أناس مجهولون، لم يعرف أحد أسماءهم مِنْ قبل، وأغلبهم مِنْ الفقراء والمفكرين والشعراء، يجب أن يحصل هذا فِي الشرق وفِي ثورته!

كان الأستاذ والمسيو يغيران بين فترة وأخرى المرشحين للقيام بثورة الشرق. وبمقدار ما كانا يتفقان، بحيث يترافق مع القسم الدم الذي يطفر مِنْ العيون دون إرادة، فإنهما كانا مستعدين، فِي الأيام التالية، لإعادة النظر، للتغيير، «لأن هذا الشرق مختلف عن الأماكن الأخرى، عن فرنسا تحديداً، ولذلك فإن الذين سيقومون بالثورة هنا لا بد أن يكونوا مختلفين عن الذين قاموا بها هناك، ومعنى ذلك: يجب أن نبحث ونكتشف مِنْ هم المستعدون للقيام بالثورة!».

فِي وقت مِنْ الأوقات قالا إن المؤهلين للثورة هم الشقاة الذين يسيطرون على الأحياء. فِي وقت آخر قالوا: إن البدو هم الذين يملكون السلاح، وهم غير راضين عن السلطة ولذلك هم الثوار المرشحون؛ ثم قالوا إن الأفندية أكثر استعداداً مِنْ غيرهم. وقالوا أشياء كثيرة أيضاً!

حتى ذلك الإدمان على صراع الديوك، وغشيان المقاهي، ربما يساعد على اقتراب «ثورة الشرق»، وهذا ما جعل الأثنين يزيدان ارتباطهما بالناس الذين يترددون على حلبات صراع الديكة، لأنهم يمثلون الجميع، ويتميزون بالجرأة والصوت العالي وبالاستعداد للتضحية! وما جعل الأستاذ لا يتخلف يوماً واحداً عن قهوة الشط، «لأن الثورة تحتاج إلى مراكز قيادة، والمقاهي والأفندية يمكن أن يكونوا القادة!» لكن مع استمرار تراجع نابليون وتوالي هزائمه، ولأن سباستيان لم يعد السفير الذي يملي ارادته على اسطنبول،

ويفرض ما يريد فِي الولايات، بما فِي ذلك تعيين والي بغداد؛ ولأن القنصل الفرنسي عجز عن شراء عصا ذات مقبض فضي لمترجمه، رغم أنّه كتب إلى سفارته فِي اسطنبول، وإلى

وزارة الخارجية فِي باريس، وبدا المسيو يعقوب حوحو ضئيلاً، بل ذليلاً، بالمقارنة مع العاملين فِي الباليوز، حتى الذين دونه مرتبة، فقد أحس أن كرامته أهينت، وأصبح عاجزاً عن القيام بالدور الذي يتمناه، فأوقف الحديث عن ثورة الشرق، نكاية بوزارة الخارجية التي رفضت شراء العصا ذات المقبض الفضي، «ولأن الثورات تحتاج إلى عقول كبيرة، وإلى إرادة حازمة لا تعرف التردد، وليس إلى مكاتبات تمتليء دائماً بالعتاب واللوم»، كما هي عادة كتب وزارة الخارجية، وكتب السفارة فِي اسطنبول!

أما عندما قبض على نابليون، وأرسل إلى سانت هيلانة، فقد أحس المسيو حوحو بالحزن الشديد، وقيل انه غرق فِي صمت مذهل، بحيث أصبح عاجزاً أو رافضاً الحديث مع الآخرين، وقد استمر ذلك شهوراً عديدة، وعندما عاود الكلام مِنْ جديد، قال كلمات ترددت على ألسنة كثيرين مِنْ الأفندية فِي بغداد.

ـ فرنسا غير جديرة بالثورة التي قامت فيها، والدليل أنها قتلت زعماء الثورة؛ والعالم غير جدير بنابليون، لأن هذا العالم ولد فِي الظلمة، واَلِف الظلمة، وفيها سيبقى وإليها سيمضي! ولم تمض فترة قصيرة إلا وقرر أن يهجر الوظيفة، وأن ينصرف إلى قراءة التاريخ، «لأن العالم لا يمكن أن يتغير دون أن يملك ذاكرة، والتاريخ هو الذاكرة، وأول شرط يجب أن يتوفر فيمن يريد تغيير العالم أن يعرف تاريخ هذا العالم». وكان ضمن اهتمامات المسيو يعقوب حوحو أن يكتب تاريخ العالم، وهذا ما جعله ينصرف عن أيّ شيء آخر، بما فِي ذلك صراع الديكة.

ورغم أن «ثورة الشرق» تأجلت أو توقفت بموافقة الأستاذ والمسيو، ورغم أن هواية صراع الديكة لم تعد مشوقة لأي منهما بنفس المقدار، إذ دخل اليها المحتالون وذوو الأخلاق الرديئة، الذين لا يتورعون عن الخداع والغش، بما فِي ذلك حقن الديوك بالمواد المهيجة، خاصة الفلفل البغالي، وبالخمور أحياناً، هذا عدا عن أدخال سلالات رديئة إلى حلبات الصراع.

رغم ذلك فإن العلاقة بين الأستاذ والمسيو استمرت، لكن بتقطع وتباعد.

بعد أن ارتفعت الشمس كثيراً فِي قبة سماء بغداد ذلك اليوم، وكاد الأسطة عواد بيأس مِنْ مجيء الأستاذ ناجي، ويطوي «القرادية» او يمزقها، لكي يحشد نفسه مِنْ أجل معرفة الذي دبر هذا المقلب، وبالتالي الانتقام منه، وصل الأستاذ.

قال له الأسطة بطريقة لا تخلو مِنْ عتاب:

. - مِنْ الصبح وآني انتظر، وينك يا معود؟

ـ خير.. خير أبو نجم؟

ـ أقعد، استريح.

- شوشت فكري، قل لي، أكو فد شي؟

ـ أريد عونك، أريد مروتك..

ـ أنا حاضر أبو نجم، بس أنت أؤمر؟

.- قرادية حسون شوطت قلبي، فأريد نوصل أنا وأنت يم المسيو، ونشوف، يطلع مِنْ هذي القرادية فد شي أو كلها قشمرة!

والأستاذ ناجي الذي سمع، عرضا، أن رسالة وصلت إلى حسون، لم يلتفت للأمر، حتى لم يكن مستعداً لسماع أية تفاصيل. الآن، يلاحظ أن الأسطة مهتم وقلق، ولكن ما علاقة يعقوب حوحو؟ وماذا يستطيع أن يفعل؟ سأل وقد سرى إليه القلق:

ـ شنو علاقة المسيو برسالة حسون؟

ـ اللي دازها، ابن التي، كاتبها بالانكليزي، وينراد أحد يترجمها؟

- وينها؟ راويني لما رآها الأستاذ ناجي، هز رأسه بحزن، طواها مِنْ جديد، وقال:

- يا الله، بوجهنا عليه، والرجال ما راح يقصر؟

ونهض الأستاذ ناجي. قال له الأسطة:

ـ اشرب فد شي قبل ما نمشي، شاي، حامض...

ـ لا.. لا نشرب عند المسيو، يا الله، بالعجل!

قال يعقوب حوحو، بعد أن قرأ الرسالة بتأنٍ:

هذي، يا جماعة الخير، مو رسالة، هذي قشمرة. فد واحد ضايج وما عنده شغل، قال لروحه: ليش ما اتونس براس حسون وأهل قهوة الشط، انقش كلمتين بالانكليزي، بالهندي، وادزها، وبعدها خلي الناس بحيرون، يبتلشون، خاصة وان اكثر أهل بغداد بألف ويلاه حتى يفكوا الخط العربي، فشلون إذا وصلتهم رسالة بالانكليزي، بالفرنسي!

سأل الأستاذ ناجي باستغراب:

. معقول مسبو؟ بعد اكو بالدنيا اوادم مالهم شغل إلا القشمرة والضحك على الناس؟

- ماكو أكثر مِنْ ذول، مولانا، وتلقاهم بكل مكان، بكل ملة، ومو بس بالقهاوي، بالسرايات والسفارات...

هز رأسه أكثر مِنْ مرة، وأضاف، فبدا صوته مبحوحاً:

. وآني، لأني سافرت وعاشرت، وراسي شاب مِنْ الشوفات اللي شفتها، أعرف قصص لها أول وما لها تالي عن الكلاوات والستات اللي تتسوى بين السياسيين، بين التجار، بين العسكر.. حتى القناصل، وهنا، ببغداد، كانت تصير بينهم قصص تنكتب؛ ومع ذلك، إذا الواحد منهم شاف الثاني ابتسامته شبر ولا كأنه مسوي فد شي!

قال الأسطة عواد، وهو لا يقوى على إخفاء ابتسامته:

ـ إذا كان بين الكبارية، بين القناصل أو جماعة السراي، تصير كلاوات ودقات، بسبب الجاه أو المال، فهذا الفقير، حسون، ليش يسوون بيه مثل هذي الدقة؟ شنو اللي رايدنه منه وشنو اللي راح يحصلونه؟

ردَّ المسيو يعقوب، وخرج صوته حاداً:

- مولانا.. ماكو أنجس مِنْ البني آدم بين مخلوقات ربنا كلها..

وتغير صوته مرة أخرى: - باوع المخلوقات كلها، مِنْ أصغر ما خلق الله، النملة، حتى أكبرها الفيل، ما تلاقي عندهم مِنْ القسوة والخسة والأنانية والسرسرلوغية مثل ما تلاقي عند البني آدم...

وعاد إلى النبرة الأولى:

- يقتل، يسرق، يجمع ويضم، يكذب، والواحد يفتن على اللاخ، يتآمر عليه، يخونه، الغني يأخذ مِنْ الفقير، القوي بظلم الضعيف، وكُلّ شي تفكر بيه، تتصوره، البني آدم يسويه؛ وبعدين ينفض إيده، ويقوم يصلي ويندعي ربه: اغفر، ارحم يا رب، أنت الرزاق الكريم يا رب! هاي وين تلقاها عند مخلوقات الله الثانية؟

توقف لحظة، أحس أنّه ابتعد، هز رأسه عدة مرات، وتابع بمرح:

- نوبة سافرت مع جماعة لأفريقيا، وبعيني شفت: الغزال ما يبعد عن الأسد إلا أمتار؛ حمار الوحش يرعى والنمر بصفه؛ والطيور تنلزم باليد، وماكو أحد خايف مِنْ اللاخ، كُلّ واحد يحصل اللي يشبعه، وبعدها كُلّ واحد بأمان الله....

وتغيرت النبرة:

- هاي وين تتحصل، وين تنلقى، بين الأوادم؟

- ماكو اعتراض على اللي قلته، مسيو، كُلّ ما تفضلت بيه على العين والراس، بس شنو علاقته برسالة حسون اللي قريتها؟

ـ مولانا... بعد ما يخلص الإنسان مِنْ جمع الفلوس، بعد ما يضمن الجاه، يوقع برووس المساكين: هذي للفراش، وهذي لتمسيد الرجلين.

هذا للنكتة وهذا اللونسة، هذا للراس، وهذا للطاس...

وضحك بقهقهة وختم:

- وصاحبكم حسون، وسمعت أهل الصراع يسولفون عليه، حاطينه وسطاني، وكُلّ ما ضاجوا صاحوا: جيبوا الاقرع، واشتغلت رحمة الله!

الأستاذ ناجي البكري ظل صامتاً طوال الوقت. كان يسمع ويتابع باهتمام واستغراب معاً، قال بعد أن وصل المسيو يعقوب إلى هذي النتيجة:

- ومن تلفات الدنيا، وبالانكليزي، يدزون لحسون رسالة؟

- أستاذ، وأنت سيد العارفين، هذي لا شغلة اسطنبول ولا لغة انكليزية، هذي شغلة قرايب وأصحاب، وإذا الله ما كذبني: الشغلة ترهمت وتسوت بقهوة الشط!

فتح الأسطة عواد عينيه اندهاشاً، وقال كأنه يكلم نفسه:

ـ جماعتي وأني اعرفهم: الواحد منهم ابعد مِنْ سامرا ما وصل. إذا أحدهم راد يتشاقي بلسانه، بنكتة، ببستة، أما تجي رسالة مِنْ اسطنبول، فهاي بيها: إن!

ـ مولانا.. هذي شغلة طباخ هندي، او شلاتي مِنْ مالطا، ويجوز بحار مِنْ بوشهر. وواحد مِنْ الجماعة حط بجيبه فلسين وقال له: اكتب اللي يطلع براسك، وهذا سكران وما كذب خبر. نقش سطرين ثلاثة بانكليزية بنات الهوى وقال له: خذ، وإذا تريد بعد آني جاهز. وهذا دز الخط لصاحب باسطنبول، بالطريق، وقال له: دزه لحسون، لقهوة الشط... هذي كُلّ السالفة، إذا ما كذبني ربي!

سأل الأستاذ ناجي:

ـ متأكد مولانا؟ قريته زين؟

- مولانا... كانت توصل للقنصلية رسائل مثل هذي، وبعد ما حرنا بيها دخنا، عرفنا أنها قشمرة أو حتى توقع بينا وبين بعض الناس!

قال الأسطة عواد بحزن:

ـ ما يخالف، وجع الكتف ولا هم القلب...

وبعد قليل، وهو يبتسم:

- قلنا لروحنا: يجوز بتوالي الأيام احد تذكر حسون، بعث له صوغة، لكن اللي الله باليه البني آدم ما ينفعه!

قال الأستاذ ناجي فِي محاولة للتخفيف عنه:

- وكَل الله يا رجال، ومهما ضاقت تنفرج!

- تنفرج، مولانا، لكن الصواب أكلناه...

وخفض صوته، وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

. لازم أعرف منو اللي نجر الخازوق!

لم يكن أسهل مِنْ أن تستمر (رسالة) حسون موضوعاً أثيراً لدى الكثيرين فِي قهوة الشط، وان تشغلهم لفترة طويلة. إذ بالإضافة إلى الغرابة والطرافة، فالأمر متعلق بحسون، ثم أن الرسالة مكتوبة بالانكليزية. ومما زاد فِي الأهمية أيضاً أنّه لم يتم الوصول إلى نتيجة واضحة حول ما جاء فِي تلك الرسالة أو معرفة مِنْ أرسلها؟

ورغم أن الأسطة عواد أبلغ وجهاء القهوة الذين سألوه، أن الأمر لا يتعدى المزاح الثقيل، ولا بد أن يعرف فِي يوم مِنْ الأيام مِنْ دبر هذا المقلب، ويصفي حسابه معه، فقد أصبح ضيق الصدر، سريع الغضب، حين يجري التطرق إلى الموضوع مِنْ جديد. وكان لا يتردد فِي أن يوجه الشتائم إلى ذلك المجهول الذي أساء إلى نفسه، وإلى صوب الكرخ، وإلى قهوة الشط، قبل أن يوجه الإساءة إلى حسون. وكان ينهي الموضوع بأن يقول:

- هذا اللي سواها يقدر يضم راسه يوم اثنين، لكن لازم يبين، وإذا بيه مرجلة خليه يطلعها يوم نتقابل!

ولا يقبل بعد ذلك أيّ حديث أو استسفار، لكن تظل عيناه كالمنجل تحصدان كُلّ واحد مِنْ رواد قهوة الشط، وفكره لا يتوقف ولا يهدأ وهو يقرأ الوجوه، وهو يستعيد الأحداث والوقائع التي حصلت لحسون، ومن كان وراءها، وهل يحتمل أن يتجاوز الأمر رواد القهوة إلى آخرين فِي المحلة، فِي صوب الكرخ، وربما أحد فِي الصوب الآخر، عبر النهر؟

وإذا كانت أمور أقل أهمية تبقى مثار اختلاف واجتهاد وتحريض، وتشغل الكثيرين، فقد وُجد مِنْ همس فِي أذن حسون، ثم فِي آذان آخرين، أن زوجة القنصل، ولا أحد غيرها، مِنْ أرسل الرسالة، ولا بد مِنْ الاقدام، خاصة وأن الأمر يحتمل نتائج إيجابية كثيرة!

سأل بعض رواد القهوة الملاً حمادي، فِي واحد مِنْ دروس شهر شعبان، حول حكم الشرع فِي أمر امرأة مِنْ دين آخر أحبت رجلاً مسلماً وهبته نفسها، هل يعتبر تخليها عن الزوج، وهو مِنْ دينها قبل أن تسلم، سموحاً به شرعاً؟

والملا حمادي الذي لم يفهم المسألة، أو يستوعبها، أحتاج إلى طرح سؤال مرة أخرى وثالثة، وطلب أكثر مِنْ ذلك أن يُقرب السؤال، بالأسماء والصفات، كي يعطي حكماً، فكان السؤال صريحاً ومباشراً: ماذا لو أن زوجة الباليوز النصرانية، مثلاً، أحبت رجلاً مسلماً، حسون مثلاً، وأرادت أن

تهب نفسها له، أن تتزوجه، ولو كان المهر حفنة مِنْ حنطة، هل يعتبر مثل هذا الزواج جائزاً شرعاً، وماذا تترتب عليه مِنْ نتائج؟

يقول الأسطة اسماعيل الذي نُقل إليه جواب الملا حمادي:

. - ظل الملا حمادي يهز رأسه مثل الحردون، ولا أحد يدري: كان يفكر أو صفنة زمال؛ ظل بهذا الشكل ساعة زمان، حتى أيس اللي سأل، وضاج اللي بصلون، ولما شاف كُلّ العيون تباوعه ولازم عليه الجواب، ردَّ بكلمة واحدة: جائز؟

ويضيف الأسطة إسماعيل، وهو لا يقوى على إخفاء سخريته:

ـ قالوا له: مولانا، شنو قصدك؟ شنو حكمك؟ وهذي «الجائز» شنو معناها، ووين تنصرف؟ ردَّ، وهو ينهض للصلاة: اللبيب مِنْ الإشارة يفهم!

لما سمع سيفو ما رواه الأسطة اسماعيل عن الملا حمادي، قال مع صوت أخرجه طويلاً مِنْ بين شفتيه:

ـ لا بالله حصلنا...

وأضاف بنبرة ساخرة:

ـ إذا كان موذنا مِنْ ديرة الواق الواق، وخطيبنا مِنْ أهل البشناق، فأمة العراق، يا جماعة، بألف خير، جروا صلوات على محمد!

وساءت العلاقات أكثر مِنْ قبل بين سيفو والملا حمادي، لأن الذين نقلوا أضافوا وغيروا ما قاله سيفو، إلى درجة أن مِنْ حاولوا التوسط بين الاثنين عجزوا، ليس فقط عن جمعهما، بل وقف الحرب التي دبت بينهما، خاصة وأن الذين سمعوا ما قاله الملا حمادي، لما علم بقرار سيفو اعتزال مهنة السقا، وكتموا الأمر عنه فِي البداية، عادوا لرواية ما سمعوا، مع التبديل والتحوير، وأكدوا على أن سيفو لا يحفظ آية واحدة مِنْ القرآن، فكيف يمكنه أن يقرأ على القبور؟

وسيفو الذي جر أنفاساً عميقة، وهو يسمع بغيظ، ما يحتمل أن يكون ملا حمادي قد قاله، وبعد أن هز رأسه عدة مرات، قرأ بصوت عالٍ، وبنوع مِنْ التحدي، بضع سور مِنْ القرآن، وختمها بأن قال: صدق الله العظيم، ثم التفت إلى الذين نقلوا اليه ما قاله الملا:

- الموتى ما ينراد لهم قراية، كُلّ ما يريدوه أن الأحياء يفكوا عنهم ياقة، يخلوهم بقبورهم وما يتحارشوا بيهم، خاصة مِنْ ملالي آخر زمان...

وتغيرت ملامح وجهه مِنْ الغيظ، وهو يُضيف:

ـ وذول جماعة جائزة ما يعرفون الحلال والحرام؛ يحللون ويحرمون بكيفهم؛ ويشربون للواحد على قد فلوسه...

ضحك بسخرية وأضاف بنبرة مزدوجة:

- شنو رأيك، مولانا، بصيد البر؟ جائز؟

شنو رأيك، مولانا، بصيد البحر؟ جائز؟

شنو رأيك، مولانا، بصيد الأنثى؟ جائز؟

وشنو رأيك، مولانا، بالنهاية والختام، بصيد الذكر؟ همين.. جائز؟

ردد أبو فلاح الأسئلة والاجابات على مقامين: النوى والبيات، كان يفعل ذلك بمرح ممزوج بالغيظ، وهو يدور حول نفسه. ولما عاتبه بعض الأصدقاء، فِي وقت لاحق، ردَّ بنزق:

ـ لا تغركم البسملة والحوقلة، لأن مو كُلّ ما يبرق ذهب!

وأضاف، وخرج صوته منعماً:

.... ومن الملا بالك.. بالك!- ولزم الملا حمادي، مثل عادته، الصمت، «لأن رمضان على الأبواب، وهذا شهر القرآن والغفران، وآني غفرت لابو فلاح» ونقل بعض الأصدقاء، فِي محاولة لأن يحننوا ويرققوا قلب سيفو، لكي يعفو ويغفر، أن الملا كانت تسيل دموعه مدراراً إن ذُكرت بعض الأحداث التي مرت، وما قيل خلالها مِنْ كلام. لكن سيفو يسمع ويهز رأسه، دلالة أنّه أخذ علماً، وهو لا يزال مصرٌاً على موقفه مِنْ الملا حمادي الذي جرحه، دون مبرر، وبعد الخبز والملح، كما يرد على الذين يطالبون بأن يتصالح معه.

حسون فهم مِنْ الرسالة، رغم الضجيج وما قيل عن الاختلافات، شيئاً محدداً: الرسالة مِنْ زوجة القنصل، وقد اضطرت أن ترسلها إليه بهذه الطريقة لكي لا يعرف زوجها، إذ لو عرف فسوف يتصرف مثل أيّ أب أو أيّ زوج: أن يقتلها أو أن يهاجر.

إذا كان بعض أفندية قهوة الشط أبدى استعداداً لمساعدة حسون بكتابة رسالة لزوجة القنصل، رداً على رسالتها، ولا بد أن تتناسب تلك الرسالة مع حجم اللهيب الذي يتأجج فِي صدره ويحرمه النوم، وأن تتضمن أشعاراً أيضاً، لتصبح تلك المرأة أسيرة ليس فقط لعيني حسون اللتين لا يمكن أن تنساهما، بل ولكلماته أيضاً، وربما بمقدار أكبر! وهذا ما جعل هؤلاء الأفندية يرددون على مسامعه الكثير مِنْ العبارات المؤثرة، والكلمات القوية، حتى إذا فلتت مِنْ كلمة ما تفلت مِنْ الثانية، ويرددون بافتتان تلك الكلمات التي تتكرر دائماً، ويختمون بقول: والأذن تعشق قبل العين أحياناً!

لكن الأفندية الذين أبدوا هذا القدر مِنْ الاستعداد لم يكونوا فِي عجلة أن الأمر، خشية مِنْ الأسطة عواد، إذ ربما اعتبرهم مسؤولين، بشكل ما، عن الرسالة السابقة؛ ثم انهم لا يريدون أن يضيعوا لهفة حسون بالاستجابة السريعة له ما داموا يتمتعون كُلّ ليلة، وهو يلاحقهم ويسألهم ما إذا حضروا المسألة يقول ذلك بطريقة مواربة غامضة فِي محاولة للتكتم عم يطلب أو ما يريد!

ثم برزت أثناء البحث والمناقشة مجموعة مِنْ الأسئلة:

- لك مصخم حسون، باوع شقد اكو فرق بينك وبينها، بين الرجال والمرية: هي تعرف اسمك، تعرف أصلك وفصلك، فإذا ردنا نكتب لها رسالة حتى توقع اكثر مما هي واقعة، فشنوا اسمها؟ المن لازم تتوجه الرسالة؟

ويحار حسون فِي الإجابة. يضرب كفاً بكف. يضرب ساقه وحده، ويجر شعره، ثم يبدأ بان يشتم نفسه على هذا الجهل، على الغفلة التي منعته مِنْ السؤال عن اسمها، وكيف يجب أن يخاطبها! وإذا كان الاسم يشغل ليلة أو أكثر مِنْ ليالي قهوة الشط، ويعد حسون أن يبذل كُلّ ما يستطع مِنْ أجل السؤال والتقصي حول الاسم، فإن ليلة أخرى تنقضي عما إذا كانت المرأة، مثل زوجها، تعرف العربية، ولذلك يمكن كتابة رسالة الغرام بالعربية، أم أن الأمر يقتضي ترجمتها؟

وفِي الوقت الذي أصر بعض الذين بحثوا الأمر على ضرورة كتابة الرسالة بالعربية، لأن بهذه اللغة وحدها يمكن التعبير عن العواطف، وما يعانيه العاشق، إضافة إلى أن الرسالة يجب أن تتضمن كلمات وعبارات قد لا توجد فِي لغات أخرى، وقد أوردوا عبارات مثل: يا ملوعة وحارقة الفؤاد؛ يا حبة العين، نارك ولا جنة هلي؛ بطة وصادوني وتباروا فِي إيراد عبارات غريبة، مفترضين أن ليس لها مقابل بأية لغة أخرى، وبالتالي إذا كُتبت الرسالة بالعربية يكون لها وقع يختلف تماماً عن أية ترجمة. وللتدليل على صحة ما يقولون أكدوا أن جميع الترجمات للرسالة، وما تخللها مِنْ أخطاء واختلافات، نتيجة جهل المترجمين للإنكليزية!

وكادوا يذهبون إلى أبعد مِنْ ذلك، إلا أن منعم الفراتي، وهو قريب العثمان الهاجري مِنْ ناحية الأم، وقد جاء إلى قهوة الشط عرضاً أو مضطراً، كي ينتظر الأسطة إسماعيل، ليرافقه مِنْ أجل خلع ضرس عثمان الذي لم يمكنه مِنْ النوم فِي الليلة الفائتة. منعم الفراتي الذي سمع ما كان بنداوله بعض الأفندية، وكان قد عرف بأمر الرسالة، سأل:

- ليش تختلفون على قوة اللغة العربية إذا راح تترجم الرسالة؟

وجاءه أكثر مِنْ سؤال أو تعليق:

- الأحسن ما تترجم! ِ ـ العربية أقوى بما لا يقاس، آغاتي!

ـ والعربية فِي الحب توقع الطير الطاير!

- والعربية مو بس لغة الحب.. ولغة الحرب، مولانا!

ردَّ منعم الفراتي، وكان ضيفاً لأحد الأفندية، وخرج صوته ودوداً محايداً:

. ما اختلفنا ان العربية أقوى، وهي لغة القرآن، ولغة الحب والحرب، كن المرية ما تعرف العربي زين...

وحين تطلعت اليه العيون باهتمام وتساؤل، مفترضة أنّه يعرف ما لا عرفه الآخرون، تساءل:

- لو انت تعرف العربية لكتبت الرسالة بالعربية!

واهتزت الرؤوس بالموافقة والتأييد، لكن لا أحد يسلم بالهزيمة، قال أحد الذين أوردوا بعض أبيات الشعر:

- وين أكو بالدنيا، مِنْ يوم آدم حتى اليوم، واحد يقدر يقول بغير اللغة العربية:

مكر مفر مقبلٍ مدبرٍ معاً كجلمودِ صخرٍ حطه السيلُ مِنْ علِ وما أن تُحل مشكلة، ولو نظرياً، حتى تبرز مشاكل أخرى، أخطر وأكثر تعقيداً:

- لو فرضنا أن الرسالة انكتبت، وما يهم بالعربي، بالتركي، وقولوا همين ترجمت، شلون راح تسلمها حسون؟

ويذعر حسون فِي مواجهة هذه المشكلة التي لم يفكر فيها، وإلى أن يتوصل إلى حل، تتلاحق التعليقات:

- بربي، بديني، إذا تخطى حسون العتبة، راح الباليوز يهد عليه كُلّ الوحوش، وهذي مو بس تمزقه وتاكله، راح يكون لها يوم عرس!

ـ يعني بعدها حسون ماكو؟

. مو بس ماكو، حتى قبر ما راح يحصل!

- ليش، مولانا، حسون مو آدمي؟ ما لازم يكون له قبر؟

- بابا.. راح يكون حال حسون مثل اللي يغرق بالشط: ذاك ياكله السمك والكوسج، وهذا تاكله الأسود والنمور وراويات الباليوز؟

- يا جماعة أنتم وين رايحين؟ وحوش الباليوز باقفاصها ومقفول عليها، وما تنهد إلا بألف ويلاه، شنو الدنيا قوتره؟ وإذا انهدت ما يفرق بالنسبة لها حسون مِنْ غير حسون؟ تاكل الأخضر واليابس!

- كُلّ ظني أن حسون ما راح تاكله الوحوش، راح تصرعه رصاصات الحراس! - ينقتل على مود خط؟ على مود عرض حال؟ هاي وين صارت؟

شلون ظلم؟ هاي يرضاها الله؟

ـ لو قلنا أن الوحوش بأقفاصها، ومقفول عليها، والحراس ما اطلقوا النار، وجا حسون يهفي على الباليوز، وتلقاه البوابين وسألوه: ها، مولانا، شتريد؟ شكو عندك؟ شنو راح يكون جوابه؟ رسالة؟

يضحك الذي يسأل هذه الأسئلة، وقبل أن يتبرع أحد للإجابة، يتابع:

- بوجههم على القنصل: تفضل مولانا، فد واحد سلم الرسالة وينتظر الجواب!

ـ إذا حسون سوى هالشكل، وما قتله القنصل فوراً، دفاعاً عن الشرف والناموس، راح يسلمه للسراي، وتعال اخلص يا حسون!

ـ وإذا وصل ليد الوالي، إذا لزمه، الله أكبر...

- بالتأكيد يصلبه!

-. ويصلبه هنا، على نبقة قهوة الشط!

ـ ويخلوه معلق مو يوم واثنين، حتى يجيف، حتى تاكله الطيور!

وتتساقط بغزارة، دموع حسون. وفجأة يتغير الجو، يشعر الرجال الذين كانوا إلى ما قبل لحظة يتبارون فِي السخرية مِنْ حسون، بالحزن والغضب، ويشعرون أكثر مِنْ ذلك أنهم أخطأوا، وأنهم تمادوا فِي الخطأ، وعند ذاك يخيم صمت قاسٍ، ويتجنب الجميع النظر إلى حسون، أو حتى تبادل النظر فيما بينهم، إذ لو فعل أحد ذلك لانخرط فِي البكاء، أو دخل فِي معركة مع الآخرين، باعتبارهم تسبوا بهذا المقدار مِنْ الإساءة!

إذا انتهت الأمور عند هذا الحد، أو بهذا الشكل، وبعد أن يخيم الصمت فترة غير قصيرة، تأتي مبادرة مِنْ طاولة مجاورة، مِنْ زائر جديد، فِي محاولة لمصالحة حسون، لتطييب خاطره، وغالباً ما تترافق المحاولة بكلمات كبيرة، مع أمر بتجديد استكانات الشاي والحامض، وعناية خاصة بحسون.

وأثناء غياب حسون، يتبادل الذين تسببوا بالإساءة اللوم والعتاب، مع وعود قاطعة الا يعودوا إلى مثل ذلك مرة أخرى، وأن يكتفوا بمداعبات بريئة عابرة، لأن «مِنْ يسيء إلى طفل أو امرأة، مِنْ يؤذي حيواناً أو شجرة، مِنْ يسخر مِنْ عجوز أو مريض أو غريب، ومن يجرح الذين على باب الله والفقراء، مِنْ يفعل ذلك له حساب فِي الدنيا والآخرة، وهذا مقياس الشرف والناموس». هكذا قال ناجي البكري ذات يوم بعيد، حين قبض بعض الشبان على قطة، قالوا انها غافلتهم وانتزعت سيخاً مِنْ الكباب، فقرروا اعدامها،

وما أن قبضوا عليها حتى علقوها بحبل وشنقوها فِي قهوة الشط على شجرة النبق، الأمر الذي أثار الكثيرين، ودفع ناجي لأن يخطب ويحذر ويلوم، ومن الكلمات التي قالها تلك العبارة التي أمر الأسطة عواد أن تُخط وأن تعلق فِي قهوة الشط، وظلت هناك فترة طويلة، بحيث حفظها الكثيرون، وظلوا يرددونها، خاصة حين يساء إلى حسون أو إلى غيره مِنْ الضعفاء.

ومثل عادتهم أهل صوب الكرخ، خاصة رواد قهوة الشط، فهم يتأثرون بسرعة: يحزنون، برقون، يتسامحون، ويبالغون بالشجاعة والكرم، وعن ذلك تروى القصص. لكنهم وبنفس السرعة، ينقلبون إلى حالة مِنْ الجلافة والخشونة، وينسون ما عاهدوا أنفسهم عليه، حتى ليظن مِنْ يرقب تصرفاتهم، ويتابع أفعالهم، أن داخل جلد كُلّ واحد منهم أنفاراً وأرواحاً عديدة، قد تزيد على أيام الأسبوع!

فبعد التسامح المبالغ فيه تجاه حسون، والذي استمر أياماً، جاء مِنْ همس فِي أذنه أن هناك إنساناً واحداً فقط يمكن أن يوصله وينقذه، وعليه بدل أن يصلب نفسه كُلّ يوم مقابل الباليوز، أن يذهب إلى روجينا، لأنها وحدها التي «تمون» على زوجة القنصل!

كاد هذا الاقتراح أن يشغل رواد قهوة الشط، ويصبح مدار بحث واقتراحات، لولا أن حدثاً جديداً، وأكثر أهمية، وقع: وصول بدري مر كركوك، والإعلان أنّه جاء لكي يتزوج؟

وجاء بدري فِي زيارة جديدة إلى بغداد، ونتيجة إلحاح الأسرة والمعارف وكثير مِنْ الأصدقاء، أعلن أخيراً استجابته لرغبة الزواج، فأخذت تجتاح محلة الشيخ صندل، وان بشكل خفي، حركة حافلة موارة، رغم أن حياة المحلة استمرت، فِي الظاهر، أو كما يراها الغريب، مثلما هي، ومثل الأيام الأخرى.

وهذه الحركة التي لا تهدأ رغم التستر والانكار، تبلغ ذروتها مرتين يومياً، عند الضحى ثم فِي المساء المتأخر. فموكب النسوة حين يتحرك ضحى مِنْ بيت الحاج صالح العلو، يبدأ بزيارات إلى بيوت محددة فِي المحلة ذاتها، ثم فِي أيام لاحقة يتجاوز محلة الشيخ صندل إلى محلات أخرى فِي صوب الكرخ، وصدف أن عبر الموكب النهر، إلى الجهة المقابلة فِي الرصافة، لزيارة إحدى القريبات التي خلفت سبع بنات على التوالي، قبل أن تنتقل الأسرة إلى الرصافة، بناء لطلبٍ، أقرب إلى الأمر، مِنْ أحد المنجمين، والذي أكد أن الريح الغربية تعيق قدوم الطفل الذكر؟

كان الموكب وهو يقوم بهذه الزيارات، يضفي عليها الكثير مِنْ مظاهر البراءة والعفوية، أو على الأقل يحاول ذلك، دون أن ينجح، أغلب الأحيان!

فأم قدوري حين تبعث بأحد الصغار لعائلة صديقة تبلغها أنها آتية للزيارة، فكأنها تشعرها بضرورة الاستعداد لأمر غير عادي. والعائلة التي تُبلغ بذلك، تلتقط الإشارة بسرعة، خاصة مِنْ جانب البنت، أو أكثر المرشحة للزواج، إذ تستعد وتبذل أقصى ما تستطيع لكي تفوز بهذا الفارس الذي حلمت به كُلّ بنات المحلة. وحين تصل أم قدوري، ومعها دائماً العمة زاهدة، واحدى البنتين الكبيرة غالباً، إضافة إلى عدد مِنْ القريبات، وتتغير القريبات تبعاً للعلاقة التي تربطها بالعائلة التي تزار، تتأكد الظنون، ويصبح الهدف أكثر وضوحاً، رغم البراعة التي يبذلها الطرفان فِي إخفاء النوايا والتظاهر بعكسها.

وخلال الزيارة، وقد تطول بعض الأحيان، تتوزع الأدوار والمهمات.

فمن التدقيق بشكل البنت، وطريقة تصرفها، إلى التركيز على أسئلة وطلبات معينة، لمعرفة ردود فعلها وكيف تتكلم وبأية طريقة تجيب، إلى امعان النظر بزوايا البيت، لتقدير مدى النظافة والذوق والترتيب. وإذا كانت أم قدوري لا تتحرك خلال الزيارة، فإن أكثر ما يشغل العمة زاهدة:

النظافة، وهذا ما يجعلها تدقق وتبالغ فِي التدقيق. فما أن تجد الفرصة سانحة حتى تقلب الأغطية، وتتشمم الوسائد، وتنظر تحت السجاد والمقاعد لتقدر مدى النظافة. كما أنها تطلب أن تتوضأ، لتتاح لها الامكانية أن تجوس فِي البيت، وتتطلع إلى الزوايا، وتتظاهر بالخطأ حين تفتح باباً مغلقاً لترى وتتأكد مِنْ كُلّ شيء!

أما نعيمة فإن المهمة الموكولة لها أن تختلي بالبنت المرشحة، وتعرف عنها كُلّ ما تستطيع، بأسئلة غير مباشرة، بالمرور على غرفتها، برؤية ثيابها وبعض أشيائها الخاصة!

يجري كُلّ ذلك دون أن تصدر كلمة تشير إلى أنهم جاءوا لخطبة، أو أن بدري جاء هذه المرة مِنْ أجل الزواج! وحتى لو طرح سؤال عن احتمالٍ مثل هذا كانت تتم الإجابة عليه بالنفي، أو أن الأمور مؤجلة الآن، وإلى أن يوافق «الأفندي» ويقرر.

لعبة يمارسها الطرفان باتقان وبراعة، ورغم أن كُلّ طرف يعرف هدف الآخر، إلا أنّه ينكر هذه المعرفة، بل ويتصرف بطريقة تعطي انطباعاً وكأن لا شيء وراء مثل هذه الزيارة!

وإذا كانت النسوة قد التقطن بداية الخيط مِنْ الرجال، وما دار فِي قهوة الشط، فإن هذا مجرد بداية، إذ لا يكفيهن أن تكون الأمور بهذا الاختصار، أو على هذا الشكل الفج: «بدري يريد يتزوج»، فالتفاصيل والأشياء الصغيرة أكثر أهمية بالنسبة لهن، إذ لا يمكن معرفة المزاح مِنْ الجد، وتمييز الأخبار

المؤكدة مِنْ الإشاعات، إلا مِنْ خلال أمور محددة بدقة: ما هي الكلمات التي قيلت؛ كيف قبلت؛ ومن قالها.

جولة النسوة، والتي قد تطول وتمتد إلى الغروب، ويتخللها بعض المفاجآت بقدر ما تولد الاضطراب والفوضى فِي بيت الحاج صالح العلو، نتيجة غياب أم قدوري المفاجيء، فانها تكشف عجز الرجال، وعدم قدرتهم عن تدبير أمورٍ كانوا يفترضون أنها شديدة البساطة، لكن ذلك يستقبل، مِنْ الطرفين، بكثير مِنْ الرضا والتعليقات المرحة. فحين ترى أم قدوري حجم الفوضى التي نتجت عن وجبة الغداء تنادي بناتها بمرح، وتشير إلى كُلّ شيء وهي تقول:

- غيبة ساعات شغل أيام...

تهز رأسها وهي تضحك، وبعد قليل:

- رهمت كُلّ شيء قبل ما أمشي: هذا المرق ما ينراد له إلا تسخين؛ وهذا التمن بس يتهدى، وهنا الطاوة، وهذا الملح، وهذا الفلفل، وهنا الفجير، وهذي جانة الخبز... وشنو بعد...

ويتغير صوتها وهي تجمع الأواني، وتعيد الأشياء إلى أماكنها:

ـ ما يخالف، بس انشاء الله تتم الأمور على خير!

وتبدأ مع البنتين، مع النسوة القريبات جداً، اللواتي رافقنها بالزيارة، باستعراض التفاصيل الصغيرة مِنْ لحظة خروجهن إلى أن عدن. وفِي كُلّ محطة تعتبرها أم قدوري أو أية سيدة رافقتها مهمة، لا بد مِنْ التوقف، واستعادة كُلّ ما جرى وتقييمه. وكيف يمكن أن يقارن مع محطة أخرى، مع خيار آخر. يفعلن ذلك بكثير مِنْ الصرامة والحزم، «لأن المسألة مو هينة ولا زغيرة، مسألة عمر؛ وعائلة بيت العلو مايحبون أن أحد يقشمرهم.

حصيلة المناقشات والمقارنات الصارمة تستمر مِنْ الغروب وتطول فِي بعض الليالي وتمتد. قد تنقطع لفترات قصيرة، خاصة حين تضطر إحدة القريبات للمغادرة، بعد أن تكون قد أبدت رأيها وملاحظاتها، وما تعتبر أكثر ملاءمة أو أكثر أهمية، وتنقطع مؤقتاً مرة أخرى حين يصل الرجال.

التعاود مِنْ جديد فِي السهرة.

ولما كانت عادة الحاج صالح أن يذهب إلى قهوة الشط مُبكراً، بير العصر والغروب، فقد تعود الرجوع إلى البيت مُبكراً أيضاً، كي يجمع صَلاَتَي المغرب والعشاء معاً، فهو يفضل أن يتخفف مِنْ ملابسه، وأن يقر سور القرآن التي تستهويه أكثر مِنْ غيرها، وأيضاً كي يتجنب رائحة العطور القوية التي يدمن بعض رجال الدين على استعمالها!

إذا كانت هذه عادة الحاج صالح العلو، فإن عادات الأبناء مختلفة، حتى ليمكن القول إنهم بلا عادات، أو لم يتوصلوا بعد إلى عادات ثابتة ومضطردة. فلا تُعرف لهم ساعة محددة للمغادرة أو للعودة؛ ولا يعرف إن كانوا سيتناولون عشاءهم فِي البيت أم خارجه. وهل سيعودون مبكرين أو متأخرين. وهذا ما كان يجعل أم قدوري قلقة تنتظر عودتهم، كي تتأكد أنهم تناولوا عشاءهم؛ أنهم لا يشكون مِنْ ألم أو همْ. حتى فِي المرات التي لم تكن تقوى على الانتظار، كانت توقظ بنتاً أو زوجة أحد الأبناء كي تنتظر مكانها، مع توصيات لا تنتهي حول مكان الأكل والخبز وما هو مهيأ لليوم وما هو معد للغد.

الآن، وما أن عاد بدري، وأعلن رغبته بالزواج، حتى تغير نظام البيت، خاصة بعد أن بدأت الجولات اليومية لاختيار الفتاة المناسبة لتكون زوجة لبدري. وإذا كانت ذروة الحركة الصباحية تبدأ عند الضحى، ولا يعرف إلى متى ستستمر، فإن الذروة المسائية تبدأ فِي المرحلة الأخيرة مِنْ طعام العشاء أو عند انتهائه، لأن أم قدوري، بعد أن تحضر كُلّ شيء، تبدأ بعرض حصيلة اليوم. ورغم أن النسوة الحاضرات، وقد شارك بعضهن فِي الجولة، قد اتفقن على أولويات ومزايا للفتيات اللواتي تمت زيارتهن، إلا أن أم قدوري، سواء بطريقة عرضها للنتائج، أو لأنها ميالة لواحدة أكثر مِنْ الأخريات، ويظهر ذلك مِنْ طريق الكلام، مِنْ التركيز على واحدة، تثير اللواتي شاركنها فِي الجولة، ثم اتفقن معها فِي المناقشة على الأولويات.

وهكذا يبلغ الصخب أقصاه، ويتخلل ذلك الكثير مِنْ التعليقات الساخرة والمرح والاختلاف، لكن الأمور لا تصل إلى حد الحسم، لأن الحاج يتدخل فِي الوقت المناسب:

- بواش.. يواش، وبدري اللي صام وطال صيامه ما يجوز أن يفطر على جرية!

وتبدأ نقاشات جانبية. فإذا كانت أم قدوري عجزت عن اقناع العمة زاهدة، أو الحجية، كما أصبح يطلق عليها، مع أنها لم تذهب إلى الحج بعد، «لكن النية موجودة، ومع الحجي أو واحد مِنْ الولد، انشاء الله السنة اللي تجي نصعد على عرفات، فإن اقناع الآخرين لا بد أن يؤدي إلى فض المشكلة، كما تقول أم قدوري.

وبدري الذي يراقب المناقشة بكثير مِنْ المرح والتعليقات الساخرة، ويعلن أنّه مع الأكثرية، «المهم اتفقوا، وأنا موافق»، لا يريد أن يمتثل للشروط والمقاييس التي يضعها الأخوة أو العمة، وهو أكثر ميلاً إلى رأي أمه، لكنه يرى أنّه مِنْ السابق لأوانه أن يحسم الأمر، أو أن يقول كلمة نهائية.

فالأخوة، قدوري ونعيم، ومعهم العمة، مع اختلاف بعض التفاصيل، يريدون: «واحدة تزيد الخير ما تنقصه؛ بنت عائلة؛ أبوها معروف بالسوق؛ شبعانة وما بعينها شي! أما بنت قصاب، بنت حايك أو نجار فالواحد ما يتزوج مرية، يتزوج عشيرة، وتعال اخلص!» وتضيف العمة زاهدة:

. مو بس هالشكل، إذا الواحد كان واهسه: هذي بيضة، شقرة؛ وهذه حلوة وطويلة؛ وما باوع أصلها وفصلها، مين يدري شنو راح يصير بيها مع الأيام والأولاد، وشلون راح تنقلب، ويضيع علينا الأول والتالي!

. وأبوها مِنْ المفاليس...

هكذا يعلق قدوري، رداً على أمه التي اعتبرت زكية بنت نعمان المتولي بنتاًص مناسبة، بعد أن اضطر أبوها، الذي كان صاحب مزارع إلى رهن ثم بيع مزارعه والتحول إلى تجارة الخيام والحبال قال نعيم بسخرية:

- وهذي الحبال راح تجر آخر فلس بجيبنا؟

ويسأل بدري أمه:

- وانت شلون شفتيها؟ وشنو حكمك عليها؟

- اليوم شفناها، وشفنا مريم بنت شعبان أبو الحب، وشفنا نظيمة بنت محمود، وإذا خيرتني اختار زكية: طويلة، عيونها وسيعة، بيضة، مشيتها زينة؛ وإذا الواحد سألها، حجي وياها، ما ترفع عينها، وما تقول إلا: بلي عمة!

ويرد قدوري:

.... وأبوها باع مزرعة الشيخ سعد، وبعدها رهن مزرعة شلغوم وباعها، ومزرعة الجعيفر شراكة ويا غيره وقالوا راح يأخذوها منه؛ وبعد المزارع والمحصول صار يفتر على الناس: تريدون خيام؟ حبال؟ تريدون حبال بالدين؟

وتقول العمة، الحجية زاهدة:

. وقالوا لي إن ببينها خلفت خمس بنات، وما خلفت ولد؛ وأمها خلفت كومة بنات قبل ما يجيها ولد، وقرايبها كلهم ما يخلفون إلا بنات! وينتهي النقاش بأن يقول الحاج صالح:

-.... يا جماعة.. العجلة مِنْ الشيطان، وما دام بدري ما مستعجل، نلقي، فطولوا بالكم، مو اليوم باجر، مو هذي.. غيرها، وماكو ببغداد أكثر مِنْ البنات! وفِي قهوة الشط، وان لم يجر الحديث عن الموضوع مباشرة، أو دائماً، فإن التعليقات لا تنتهي؟

يقول سيفو لبدري مداعباً بعد أن زالت صدمة المفاجأة:

- والله لو كانت عندي بنية ما تفلت مني.. لو طلعت براسك نخلة!

ـ علواه.. عمو سيفو،ووين أكو أحسن مِنْ هيج عم!

. لكن فلت!

يقول سيفو ذلك بحزن، وقد تذكر خيبته كلها، إذ كان ينتظر أولاداً لم يأتوا أبداً، وفِي محاولة لأن يعزي نفسه يتابع:

-. ويجوز هالشكل أحسن، لا ولد ولا تلد، وباجر إذا الواحد حط راسه وغفا فد نوبة، فلا مِنْ يبكي علي ولا مِنْ يتعارك ويا اللاخ على ميراث.

ويبتسم سيفو، تصبح ابتسامته ضحكة وهو يتابع:

ـ على ميراث؟ الحمد لله والشكر: القربة يبست، والسمك بالشط يلبط، وكُلّ واحد وذراعه؟

ويعلق الأسطة اسماعيل ساخراً:

- والصنم اللي جبته مِنْ ذاك الصوب المن راح تورثه؟

وتنفتح العيون بدهشة، وتتردد الكلمة ذاتها:

ـِ صنم؟

ـ شنو.. الصنم؟

- شنو قصة الصنم.. أبو فلاح؟

ويرد سيفو بسخرية، وهو يشير إلى الأسطة إسماعيل:

- اسألوا المفتي، اسألوا شيخ الإسلام!

ويروي أبو حقي بمرح كيف أن سيفو تجمد أمام التماثيل التي يضعها ذنون، وكيف حصل على واحد منها، وأنه لفرط اعجابه بالتمثال، فلا بد أنّه أصبح عابداً له!

يهز سيفو رأسه ساخراً ويقول:

ـ ما أحط بذمتي، لكن الله أعلم أن الملا حمادي دفي ايديك وحط بجيبك وقال لك: وقع الثور، وقع سيفو، وهسه لازم نكومه ونخلص منه!

ويقترب الأسطة عواد، وحين ينظر إلى الوجوه، حتى لو لم يسمع كُلّ ما يدور، يقدر إذا كان الجو رائقاً أو تكدره بعض المنغصات، لما رأى أبا فلاح يتطلع نحو الأسطة اسماعيل ويهز رأسه، علق بمرح:

ـ أقول لروحي: شلون الغُرب حاكمين البلاد والعباد، فإذا أعز أخين ما قدروا يتوالموا، فعوافي للغُرب ونحن نستاهل كُلّ شي!

ويهدر صوت سيفو:

. وين رايح أبو نجم.... القضية قضية دين وناموس!

. شلون أبو فلاح؟ شنو اللي صاير بالدنيا؟

- الصوغة اللي حطها صاحبه، ذنون، بالبلم ذاك اليوم، وقال لي هذي مني إلك، صار إلها ايدين ورجلين...

ويضحك سيفو بسخرية قبل أن يتابع:

.- صارت صنم، وصار سيفو مِنْ اللي يعبدون الأصنام! هاي تاليها؟

تقبلها؟

ردَّ الأسطة اسماعيل بمرح:

- يبين عليك، يا أبو فلاح، شارب لبن حامض، وابد ما تتحمل الشقا؛ سوينها قضية دين وناموس، وهي ما تسوى!

قال الأسطة عواد ليغير الجو:

- اليوم، يا جماعة، هواية حارة، جهنم، فشلون راح تصير بتموز وآب؟

. وهي حرارة تخلى الآدمي يصير عصبي، لأن الدماغ يفور.

هكذا قال بدري، فِي محاولة إضافية، كي يعود الجر إلى المرح. نظر إليه سيفو بطرف عينيه وابتسم، وبعد قليل أضاف:

ـ تمون مولانا، واللي تريده يصير، بس أريد اسأل ابو حقي فد سؤال:

ليش، مولانا، تارس تكانك ملاعيب؟ سماور وسيف وناركيله، وملاعيب مِنْ الهند والسند، وما أدري بعد شنو ومنين...؟

وحين ابتسم الأسطة اسماعيل، تابع سيفو دون أن يترك الإجابة:

ـ العين، مولانا، ما تشبع، ما تشبع مِنْ المسائل الحلوة، الملونة، اللي تفرح القلب، فحرام على واحد مثلي إذا شاف فد شي وقال: هذا حلو، هذا الشي يفرح القلب؟

وتعالت الأصوات:

ـ أبد مو حرام!

ـ ان الله جميل ويحب الجمال!

- سبحان الذي خلق الإنسان على أحسن تقويم!

قال بدري، وخرجت الكلمات غمغمة:

.- وأم قدوري تفتر مِنْ الصبح حتى تلاقي لبدري بنية حلوة وطويلة لأن كلنا نحب الجمال!

وتعالت أصوات المرح. هز الأسطة عواد رأسه طرباً وانسحب، أما أبو حقي فبعد أن وقف تقدم نحو سيفو وقبل رأسه وهو يقول:

- زعل الدنيا كلها كوم، وزعلك يا أبو فلاح كوم، ولعنة على وجدان اللي يزعلك!

قال بدري وهو ينهض مستأذناً:

- مِنْ رخصتكم، يا جماعة، لأن وراي، بعد، حصبة وجدري؛ لازم اباوع شكو عند أم قدوري واستنقي، لازم أقول إي أو لا، فلا تنسونا مِنْ الدعا، يا جماعة الخير.

بعد عشرة أيام مِنْ الركض المحموم، ومن المشاورات التي تمتد فِي بعض الليالي إلى ساعة متأخرة، ولم يتخللها إلا يوم عطلة واحد، إذ لا يليق بالنسوة التزاور يوم الجمعة، حين يكون الرجال فِي بيوتهم؛ وبعد اختلافات كثيرة وتردد، كاد بدري يعلن فِي إحدى الليالي عزوفه التام عن فكرة الزواج، أو على الأقل أن يؤجل الأمر إلى وقت لاحق، كطريقة للضغط، وإجبار أخويه، بالإضافة إلى العمة، الحجية زاهدة، على التنازل، خاصة فيما يتعلق بثروة الفتاة التي قد تصلح زوجة!

قالت العمة زاهدة، حين شعرت أن بدري قد يصرف النظر عن الزواج:

- وين أكو بنية كاملة؟ الكمال لرب العالمين وحده...

تغير صوتها وهي تضيف:

ـ البنية إذا انت نظيفة وبنت أصل فهذا اللي نريده.

وحين وجدتْ الصمت قوياً ثقيلاً، ولا أحد يريد أن يُضيف، خاصة بعد الحدة التي بدرت مِنْ نعيم، لما اعترض على زكية بنت نعمان المتولي التي اقترحتها أمه مِنْ جديد، فقد تابعت العمة:

ـ المال يجي ويروح، لكن الأصل ما بنلعب بيه أبداً، يظل ويا الآدمي مِنْ الساعة التي يقول: واع ويع، ويبقى لازمه إلى أن يموت... وحتى بعد ما يموت...

ولم يعلق أحد. كان الجو لا يزال محتدماً. أضافت:

. ومو بس هالشكل، الواحد بليا أصل: عطابة بريح؛ عظمة بجول.

البنية إذا انت تحب النظافة وحريصة وبنت أصل تعمر بيوت، أما إذا كانت وسخة وأصلها به كلة فتحرق الأخضر واليابس وتهدم البيوت.

قال الحاج صالح بحزم أقرب إلى الحدة:

- هذي السوالف نعرفها زين، وقريناها على روس الناس، اللي يسوى منهم واللي ما يسوى، وهسه نريد نتيجة، نريد نشوف دربنا....

أخذ نفساً عميقاً، وتابع، فجاء صوته حاداً:

. صار أسبوع، أكثر مِنْ أسبوع، ومن بيت لبيت، مِنْ بنية للثانية، والنتيجة: قبض ماكو! هذي طويلة، وهذي قصيرة. هذي أمها تخلف ولد، وهذي أمها تخلف بنات. هذي فلاني وهذي تركاني، والنتيجة:

إيدينا والحصير!

قالت أم قدوري بتحلي:

- زكية ماكو مثلها!. وأبوها ليش طايح حظه؟

هكذا سأل نعيم، وكان محتداً، أقرب إلى الغضب.

ردَّ الحاج صالح، وقد جعل صوته رحيماً:

- يا ابني، الرزق مِنْ الله، وأنت تعرف: الزرع يطلع يوم ويغرق يوم؛ والواحد يربح يوم ويخسر ثاني يوم، التجارة ماكو بيها ربح دوم وكُلّ يوم، لا إذا كان الواحد يشتغل بالربا. فإذا الحاج نعمان خسر اليوم يجوز يربح.م ثاني... هاي حال الدنيا!

سأل نعيم، ولكن بحدة أقل:

- وليش خسارة ورا خسارة؟ ما عنده عقل؟ ما يقدر؟ ما يعرف السوق؟

ضحك الحاج صالح قبل أن يجيب:

- يا وليدي، التجارة مثل القمار، وما يغرك هوا اليوم، يجوز بار بصير شرقي، وأنت بالسوق وتعرف: البني آدم طماع: يركب الريح اللي جابت له الفلوس أول نوبة، وما يدري شكو باللوفة، يا ريح جاية وشنو راح تجيب، ربح أم خسارة!

قال قدوري، فِي محاولة لأن يبني جسراً:

- وأهل السوق يقولون إن الحاج نعمان دين عالم هوابه؛ وأنه وافق على تأجيل الديون سنة بعد سنة إلى أن رهن بستان الشيخ سعد، وبعدين باعه حتى يوفي وبستان شلغوم اشتراه بالدين، ولما عجز عن تسديد الدين أخذه الديانين، هذي كُلّ القصة!

- وليش ما باع واحد حتى يوفي الثاني، ويخلص مِنْ المشاكل؟

هكذا سأل نعيم، فرد الحاج صالح - سبحان الذي لا يسها ولا ينسى، والبني آدم طماع، يجوز قال لروحه بستانين أحسن مِنْ واحد، وهذا يوفي اللاخ، وحط مِنْ هذا على ذاك، وتدين، واشترى وباع، حتى وقع. يجوز المسألة صارت هالشكل.

قالت أم قدوري لتخلق جواً جديداً:

ـ نحن ما علينا بالسوق، وشنو اللي صاير بيه، نحن علينا البنيه.

قالت نعيمة، وكانت منفعلة وهي تتكلم:

- وقالت لي زكية: إذا تزوجت اللي ببالي، ويجوز تقصد بدري، وتريد تسمعني، راح أمشي زحف، وهذا نذر علي، للشيخ عبد القادر، ولازم أزور أبو حنيفة والكاظم، وأعلق لكل شباك مو شمعة... عشر شموع.

قالت العمة زاهدة بجدية صارمة:

- النذر لازم بتوفي، والبني آدم إذا نذر وما وفى يتشور!

أضافت أم قدوري، وكانت تبتسم:

- وشقد باوعت بوجهها؛ شقد سولفت وياها، وإذا سألتوني هسه شنو لون عيونها، فما أقدر أقول، إذا الله ما كذبني، أخضر، أزرق، أو الأخضر والأزرق مخبوطين!

قالت نعيمة، وقد تجرأت أكثر مِنْ قبل:

ـ شصار يمه...؟ أخضر، لو نسيتي؟

ـ ما أدري، يا بعد عيني....

ضحكت أم قدوري، وضعت يدها على فمها، مثل عادتها حين نضحك، وأضافت:

- نوبة أشوف العيون خضر. نوبة أشوفها زرق. ونوبة بين وبين، لكن تخبل.

طرب الحاج صالح لهذا الكلام، ضحك، كان ضحكه أقرب إلى القهقهة؛ قال بعد أن هدأ:

- راح أجرها وياج ميانة، أم قدوري، وأقول: نفسي رادت واشتهت، وأريد منك، ما دام صايرة وصايرة، بدل الوحدة ثنتين، وحدة لبدري والثانية لأبو قدوري!

وبرد فعل صاخب قالت أم قدوري:

ـ ما دام آني حية تموت وما تشوفها!

ربما كان الرد سريعاً، مبالغاً فيه، خاصة لوجود الآخرين! لأن العمة زاهدة التي كانت إلى ذلك الوقت مرتاحة، أقرب إلى المرح، شعرت بالإهانة، بالقسوة والتحدي، قالت؛ بعد أن غيرت جلستها:

- يموت عدوه، يمه، شنو اللي سواه؟ شنو اللي قاله؟ ـ ما سمعت شقال؟

- كُلّ رِجال يتمنى ويقول، وعلى مود كلمة تتدرب الدعاوي، وتقولين وتناولين؟ هاي شلون تصير؟

تدخل قدوري بغضب! - وين جنا وين صرنا؟ خلونا نخلص مِنْ القضية الأهم!

قال بدري:

ـ الزواج، يا جماعة الخير، بداية، شراكة، فإذا تريدوني أتزوج لازم البنية تجمع ما تفرق، تزيد ما تنقص؛ ولازم تقول: الحياة تبدأ مِنْ اليوم!

التفت نعيم لقدوري وهمس:

- كلام مكتبلية، كلام أفندية قهوة الشط!

قالت العمة فِي محاولة لحسم الأمر:

- اليوم الخميس ليلة الجمعة، وهذا يوم مبارك، نبيت خيرة بمديحة وزكية، ومنو يختارها الخضر صارت سهمنا ونصيبنا، شتقولون؟

سأل الحاج ابنه بدري:

. صارت يمك، إبني، شتقول؟ شنو رأيك؟

نظر بدري إلى أمه قبل أن يجيب. طرفت بعينها: أن نعم. نظر إلى العيون التي تتابعه، تنتظر قراره، قال وهو يبتسم:

- بيتوا خيرة والله كريم! ومر الخضر تلك الليلة. ترك إشارة بارزة على صحن زكية. كانت الإشارة مِنْ الوضوح إلى درجة أن اعترف الجميع برؤيتها! أما بعد أن تذوقوا الحليب المطبوخ الذي مسه الخضر، فقد كانوا واثقين أن الخير كُلّ الخير، فيما اختاره هذا المقدس، لأنهم لم يتذوقوا، طوال حياتهم، حليباً أطيب مِنْ هذا الحليب!

قال الحاج صالح، وهو يغادر البيت:

- اليوم، على خيرة الله، يصير الكلام ويا أم البنية، ويا قرايبها، ولازم البنية تعرف. ومو باجر، عقب باجر، الرياجيل...

ومشي خطوتين، توقف لحظة يفكر، قال مستدركاَ، بعد أن اقتربت منه أم قدوري. واليوم ينحجي بكل شي: يوم النيشان، والمهر، وبالزغيرة والجبيرة، حتى إذا رحنا عقب باجر نروح على ضو، سمعت زين؟

هزت رأسها عدة مرات، وهي تضع يدها على فمها لتخفي ضحكتها!

ومشي خطوة أخرى، وتوقف: - وتقولين لهم: ونريد الزواج بالعجل، ويجوز البنية تبقى وياه بكركوك فد شهر، اثنين..

- بلي.. بلي، كُلّ هذي المسائل ببالي، أبو قدوري.

. وما نريد خبصة، لأن الزواج الصدق راح بصير بعد رجعتهم مِنْ كركوك.

وإذا كانت عادة أم قدوري أن تبعث أحداً للإخبار عن زيارة ستقوم بها، ان الحجية زاهدة أصرت أن تتم الزيارة هذا اليوم دون إخبار «لأنا نريد شوف البنية بليا صبغ وبليا شناشيل، نشوفها مثل ما خلقها رب العالمين».

م قدوري اعتبرت أن فِي الأمر تجاوزاً، وربما يخلف القيل والقال. فردت عليها العمة:

ـ لا تديرين بال يا معودة!

. خاف يصير بيها زعل، حجية، وينقال فلاني وتركاني!

- نقول: جنا بزيارة الشيخ معروف، وعطشنا، وماشفنا حالنا إلا بكم. وشلون نقدر، بعدها، نحجي عن المهر والنيشان والأكو والماكو؟

. وشلون تريدينا نأخذ البنية بليا ما نخمها؟ لازم نشوفها بليا صبغ ديرم، بليا كحل وحنة!

. حجية.. خمينا كُلّ شي، وشفنا البنية علي البطانة، وما بقي هسه لا: شوكت وشقد والفتافيت الزغيرة!. هالشكل كُلّ شي صار بالعجل، وبليا ما أدري؟

ـ ناب عنا كلنا الخضر والعباس، وأنت اللي بيتي الخيرة، لو نسيت؟

- زين.. زين، آني ما علي، أروح وياكم، لكن أيّ شي يصير، الخطية برقبتكم.

بعد أن رتبت النسوة الأمور كلها، وقد جرت بسرعة ويسر، ذهب الرجال وتم الاتفاق.

قال سيفو للحاج صالح، وكان صوته يرتجف مِنْ الانفعال:

ـ أيّ شيخ يقطع المهر إلا ملا حمادي!

- شلون يصير.. أبو فلاح؟ هو شيخ المحلة وإمام الجامع.

- هذا نفَسه موزين، حجي، وآني أجيب لك بدل الشيخ مية!

ـ خاف يزعل الملا حمادي ويأخذ على خاطره!

- ننطيه فلسين، يصير ممنون، وبعدها ما عليه بغير شي.

- وإذا قال فلاني وتركاني وخبصنا بالمحلة؟

ـ ما عليك، حجي، آني اتكفله، آني أعرف شلون أخليه يسكت!

ـ إذا وافقناك وقلنا أيّ، بليا ملا حمادي، منو راح يقطع المهر؟

ضحك سيفو، هز رأسه عدة مرات ورد:

- ذاك اليوم، بقهوة الشط، خضير ملا نوري دق على صدره وقال: آني اللي أقطع مهر بدري ابن الحاج صالح العلو، وماكو أحد غيري!

- منو؟ شسمه؟

ـ خضير ابن ملا نوري.

- هذا الزعطوط المتعيقل، اللي ما طرت شواربه؟

ـ أيّ.. ابن الملا نوري.

- لا... يا أبو فلاح، أنت ما تقبلها...

وبعد قليل:

ـ يجوز الواحد ما يرضى على الملا حمادي؛ يقول عليه طماع، بخيل، لكن يبقى رِجال جبير، عاقل، وهذي شغلته.

ابدا سيفو محرجاً، فإذا استطاع إبعاد الملا حمادي، على الأقل بشكل أولي، فإنه لا يستطيع إقناع الحاج صالح أن يكون البديل هذا الشاب المبتديء، والذي يبدو أصغر مِنْ هذه المهمة.

قال، فِي محاولة لتأكيد ابعاد الملا حمادي:

- زين... زين حجي. آني، مِنْ ساعتي، أعبر لذاك الصوب وبوجهي إلى مقام الشيخ عبد القادر، وإذا ما اتفق مع الملا محمود اتفز ويا الملا عزيز، موافق؟

ابتسم الحاج صالح بحزن، أخذ نفساً عميقاً، وقال: - المسألة كلها، ما تسوى أن تروح وتتعنى، وبعدها بجوز الملا محمود يقول: هذا اليوم ما يوالمني، تعال غير يوم؛ والملا عزيز عنده فاتحة أو قراية، واليوم مشغول: المقام والزيارة وما أدري بعد شنو، فخلينا نفضها بهذا الصوب، وهي، أولها وتاليها، ما دام الكل موافقين: زوجتك سي بمهر قدره.. وبعدها الفاتحة، ونخلص.

- زين حجي.. إذا ما تريد خضير نجيب أبوه، الملا نوري، شتقول؟

ـ قالوا لي إنّه ما عاد بيه حيل، وما يطلع مِنْ البيت.

ـ لا، انت ما عليك، نطلعه، نجيبه.

.- وقالوا لي إنّه خالص، ما يمشي، وإذا مشى خطوتين يكَح ويضرط.

- يزيدها الناس، حجي، وأنت تعرف كلام الناس!

.- وسمعت، يا أبو فلاح، إنّه صار يضيع، ما يعرف الواحد مِنْ اللاخ، وما يعرف شنو اللي يسويه؟

- كلام عدوين، حجي، عدوين وحساد، الملا حمادي وأمثاله!

تطلع إليه الحاج صالح طويلاً. كان يبتسم ويهز رأسه. قال سيفو لئلا يفلت منه الأمر:

ـ أنت خليها علي، حجي، ولا تدير بال!

- كُلّ اللي تريده، يا أبو فلاح، أن تكسر رقبة الملا حمادي، مو هالشكل؟

- يا أبو قدوري، كُلّ ما أريده وأتمناه أن اللي يزوج بدري يكون يحبه، يقول كلمة تطلع مِنْ قلبه...

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

- ببغداد ماكو أكثر مِنْ الجوامع، وماكو أزيد مِنْ الملالي، فما لازم الملا حمادي وحده يشيخ بروسنا: حلال وحرام، يصير وما يصير.... خلينا هسه، با معود، نزوج بدري، وبعدين كُلّ واحد له دَيْن يحصله، أو له ثَار يأخذه!. لا ديون ولا ثارات يا حجي، بس الواحد ينغث إذا شاف العوجه وسكت عليها؟

. والخلاصة؟ النتيجة؟

ـ أدبر، الملا نوري يقطع المهر؟

لم يكن الملا نوري بالسوء الذي ور أو توقعه الحاج صالح. صحيح أن مشيته ثقيلة، ولا بد أن يستعين بأحد، إضافة إلى العكاز، إذا أراد از يجتاز عتبة أو أن يصعد درجاً، لكن ذاكرته لا تزال يقظة، ولا يكف عن المزاح، كما لا يتردد فِي استعمال الكلمات البذيئة.

قال لبدري قبل أن يعقد القران:

- أنتو، بيت العلو، خوش أوادم، أباً عن جد الشهادة لله، بس ما أدري هذول اللي راحوا على العسكرية، وصاروا مِنْ رجال الباشا، شلون صاروا؟

ردَّ الأسطة إسماعيل بمداعبة:

- ماكو أقوى مِنْ عِرْق الثيل، يا شيخنا، والطبع يغلب التطبع، فلا تخاف!

واستمر الملا نوري موجهاً الكلام إلى بدري:

. ويقولون على العسكر: عيونهم مالحة، الحلال والحرام بالنسبة الهم مو مثل الخيط الأبيض والخيط الأسود!

وتصدى الأسطة للرد مرة أخرى:

ـ أصابعك، يا شيخنا، ما تشبه بعضها!. ما نريد زيان ببلاش يا أبو حقي، لأن الزواج مو قشمرة، والواحد خلف وربي ويريد أن تكون وديعته للي يستاهلها.

هكذا ردَّ الملا نوري على الأسطة إسماعيل، وهو يستدير نحوه بثقل وبطء. سيفو الذي بدا مختلفاً بشكله تماماً، بعد أن لبس صاية شاهي جديدة، وتحزم بحزام حياصة بين الأحمر والبني، كما وضع على كتفيه خانه بلون البلح؛ كان سيفو فخوراً وخائفاً فِي آن، إذ يريد أن يُعقد القران بسرعة، وأن يرضى الجميع، وخشي أن تأخذ المناقشة بين الملا والأسطة إسماعيل مساراً قد يؤثر على النتائج.

قال فِي محاولة لتجاوز هذه المناقشة:

- بالكرخ كله، بهذا الصوب وذاك الصوب، ولو تفتر بغداد مِنْ أولها التاليها، مثل بدري ما تلاقي، مولانا!

تطلع الحاج صالح بطرف عينيه إلى سيفو، كأنه يلومه على هذا الاختيار، ولهذا الكلام الذي لا يرى له مناسبة أو ضرورة، قال، وخرج صوته مخدشاً:

- نسأل نسيبنا، الحاج نعمان، ولا بد أنّه سأل وتحرى منو هو بدري!

قال الحاج نعمان بفخامة:

- والنِعم، والسبعة أنعام.

قال الملا نوري مازحاً:

ـ إذا هذا اللي رايدينه فعلى بركة الله، راح هسه نقرا الفاتحة، وبعدها عليكم المزيقا والطبل!

والتفت إلى أكثر مِنْ جهة، وصاح:

- جيب الدفتر يا خضير وتعال! قال الكثيرون أن الحفلات الثلاث التي أقيمت لم ير صوب الكرخ مثيلاً لها منذ زمن طويل.

وإذا كانت الحفلة التي أقامها الحاج صالح فِي بيته حضرها الكثيرون، فان الحفلة التي أقامها الحاج نعمان المتولي تخللتها قراءة سيرة المولد. ولم

يحضر الملا حمادي فِي المرتين. أما الحفلة التي أقيمت فِي قهوة الشط، وقد أصر على إقامتها الأسطة عواد وأصدقاء بدري، لتكون وداعاً للعزوبية، فلم يبق أحد مِنْ الرجال والشبان، وحتى عدد كبير مِنْ الصبية والأطفال إلا وحضر. حتى الملا حمادي، الذي تظاهر أنّه لم يسمع ولا يدري، فقد أرسل إليه وفد، كان على رأسه الأسطة إسماعيل، وحضر أو أحضر! وقيل إن المبلغ الذي وُضع فِي جيبه، والكلمات التي همسها الأسطة فِي أذنه.

بأن أم قدوري نذرت أن يعقد مهر أولادها الملا الذي عقد مهر زواجها، أيّ الملا نوري، مما جعل الملا حمادي يرافق الوفد الذي جاء لإصطحابه! الأستاذ ناجي البكري تحدث بصوت عال عن الحياة الجديدة التي تنتظر بدري، وقال بعض المسنين إنّه تحدث فِي السياسة، وكان يقصد أشياء كثيرة بغمزاته وإشاراته!

ونمر بن ذياب، كبير شقاوات صوب الكرخ لم يلب الدعوة وحده أحضر عدداً غير قليل مِنْ رجاله، ودعا ضيوفاً مِنْ صوب الرصافة. وكان دخولهم إلى قهوة الشط احتفالياً، إذ لم يكتفوا بالأهازيج والطبل، فقد أطلقوا النار بغزارة، الأمر الذي جعل الكثيرين يتحسبون، مما دعا الأسطة عواد وبعض الوجهاء، أن يلتمسوا مِنْ نمر التوقف عن إطلاق النار، وقد استجاب، وامتثل رجاله، عدا مرة واحدة، حين قام سيفو للرقص، فقد أطلق نمر ذاته عدة طلقات تحية للعريس ولسيفو!

وحسون، كما أكد كثيرون، لم ينم خلال هذه الليالي الثلاث، إذا ظل يركض ويُبلغ مِنْ لم يُبلغ، وينقل الكراسي والسجاد، وعلق أغصاناً خضراء على باب القهوة، كما رقص وغنى أيضاً. ولقد استقبل الحضور غناءه فِي قهوة الشط بكثير مِنْ الحفاوة والاهتمام، وامتدح بعضهم صوته لما فيه مِنْ جنية وشجن!

والأسطة إسماعيل، ونعمان، والأسطة عواد...

لم يبق أحد إلا وشارك، أو على الأقل كان موجوداً. حتى فطيم، زوجة سيفو، ورغم التعليمات المشددة مِنْ سيفو ذاته، ومن نساء المحلة، أن لا تقترب، فقد اقتربت كثيراً، وقيل إنها زاحمت الصبية وهي تحاول أن تجد لها مكاناً قرب سور القهوة!

وصوت الطبل الذي طغى وسيطر منذ أذان العشاء، وكان يتردد صدا ويزاحم صوت الملا حمادي عند أذان الفجر!

فِي اليوم الثالث غادر بدري بغداد، عائداً إلى كركوك، على أن توافيه زكية وبعض قريباتها، إلى هناك، ومعهن مِنْ يريد مِنْ محلة الشيخ صندلة، إضافة إلى جميع عائلة الحاج صالح العلو، بعد أن تُستكمل التحضيرات هنا...

وهناك، وبأقرب فرصة ممكنة» كما قال سيفو، وهو يقدم له التمثال الذي تلقاه مِنْ ذنون هدية...

عصر اليوم السابق للسفر التقي بدري بزكية لأول مرة. جاءت مع أمها وعدد مِنْ قريباتها بزيارة إلى بيت الحاج صالح العلو، كي تتعرف بمن سيصبح زوجها! يتذكر بدري انه رأها مرة أو اثنتين حين كانت صغيرة. جاءت ذات ضحى حاملة علاقة فيها عثق مِنْ تمر البرحي، قالت أن أمها أرسلته، وانه مِنْ بستان الشيخ سعد. وجاءت مرة ثانية، أو ربما كانت أختها التي جاءت، بصحن فيه «خبز العباس.». لا يتذكر بدري الشكل أو الملامح، لكن يتذكر ابتسامة افترشت وجهها حين سألها عن اسمها. كانت تبتسم بود وبراءة، ودون خوف أيضاً.

مرت أيام كثيرة منذ ذلك الوقت. الآن، فِي هذه العصرية، يحاول بدري أن يستجمع الصور والملامح، لكنه لا يستطيع، رغم الوصف المسهب الذي قدمته أمه، وساعدتها، وصححت لها كثيراً، نعيمة، ثم تدخلت العمة زاهدة تضيف أوصافاً أخرى، فاختلطت الكلمات وتداخلت الصور، بحيث لم تبق إلا صورة ابتسامة قديمة، لا يدري إن كانت هي التي رآها، أم ابتسامة أخرى!

وإذا كانت أم قدوري والابنتان، إضافة لاثنتين مِنْ القريبات، قد انهمكن منذ الصباح بتنظيف البيت وإعداده لهذه الزيارة، فان العمة زاهدة مرضت قبل ظهر ذلك النهار، وأخذت تحضر لنفسها أدوية تعودت على تناولها فِي مثل هذه الحالات، كما انشغلت بعد الظهر بأدعية وابتهالات تساعدها على سرعة الشفاء! وحين كانت تفرغ قليلاً، أو تستعد لدور جديد مِنْ الأدعية، لم تكن تتردد فِي تقديم توجيهات، أقرب إلى الأمر، حول ما يجب عمله لتكون الدار أكثر نظافة، وأيضاً أكثر فخامة، لإظهار غني العائلة وعراقتها! وأم قدوري التي كانت تسمع، لكن دون اهتمام، وتواصل العمل كما تعتبره ضرورياً أو تراه ملائماً، لا تريد فِي مثل هذه المناسبة أن تحتد أو أن تحتك مع العمة. أما الأختان فكانتا تردان على العمة بكلمات لا تتغير إلا قليلاً: «أيّ عمة، ما يخالف» «زين... زين عمة» «بلي عمة»..

حين جاءت الزائرات كانت العمة، بالسبحة الطويلة، وبالابتسامة المنحفظة، أول المستقبلات، كما كانت أول مِنْ جلس، وفِي مكان تستطيع أن تراقب كُلّ شيء. كما لم تتردد فِي إصدار الأوامر حول سرعة توزيع المراوح، رغم أن هذا سيتم حالماً تنتظم حلقة الجلوس. وأمرت أيضاً أن يُستبدل الماء الذي قدم بماء أبرد، مع إنها تعرف عدم وجود ماء أكثر برودة!

أما عندما عاد الحاج صالح وبدري، وقد استقبلتهما الأم بالزغاريد وإلقاء النقود والسكاكر، فقد أبدت العمة استغراباً، وكأن هذه العودة تأخرت أو تقدمت قليلاً، رغم أنّه تم الاتفاق عليها، وهيأت النسوة لها! وحين طلبت أم

قدوري مِنْ زكية وأمها أن ترافقاها للتعرف على العريس ووالد العريس، كانت الحجية زاهدة هي التي تقود الموكب إلى حيث يجلس الحاج صالح وبدري، إضافة إلى بعض الأطفال الذين انهمكوا بجمع النقود والسكاكر!

خلال الساعة التي قضتها زكية فِي الحديقة، تحت شجرة النبق، ومعها عدد مِنْ النسوة، إضافة إلى العريس وأبيه، شعرت بغبطة لم تستطع أن تخفيها، أو أن تسيطر عليها. ظهر ذلك مِنْ خلال ابتسامتها الواسعة، التي تكررت مرات عديدة، ومن خلال رشاقة الحركات، خلافاً للتوصيات التي وُجهت لها بأن لا ترفع رأسها؛ أن لا تضحك؛ وأن تجيب، إذا سئلت، بأقل الكلمات!

لقد شعرت زكية، خلال تلك الساعة، إنها أسعد فتاة فِي بغداد كلها، وأنها وصلت إلى الحلم الذي كان يراودها الأيام والليالي، وها هو قد تحقق. فهي ترى بدري إلى جانبها، أصبح عريسها، وقد تجرأت أكثر مِنْ مرة ونظرت إلى عينيه، إلى حركاته. أما الصوت، صوته، وهو يتسلل إلى أذنيها، فبدا عذباً كأنه أغنية، شديد الألفة كأنها تعرفه.

حين قال لها إنّه ينتظرها فِي كركوك، ويجب ألا تتأخر، هزت رأسها بالموافقة، لكن ارتبكت قليلاً. ولما أكد على ذلك مرة أخرى، رفعت إليه عينين حانيتين وقالت «زين.. زين». وظلت تراقب حركاته العفوية، حتى لما كانت تتوجه الأنظار إلى الذين يتكلمون. ولقد أحست برعشة فِي جسدها أكثر مِنْ مرة، خاصة حين كان يستدير قليلاً كي يواجهها. كانت الرعشة تشبه تلك التي تخلفها المياه على الجسد حين تتناوب الحرارة والبرودة بغير انتظام!

تمنت لو تسافر معه، أن تكون إلى جانبه. أن ذلك لو حصل أكثر متعة مِنْ الثياب التي ستنشغل بتحضيرها خلال الفترة القادمة، خاصة وأنه سيكون بعيدة، خلافاً لحالات كثيرة مماثلة. لكنها لا تستطيع شيئاً، إذ يجب عليها أن تنتظر، أن تتحمل، فِي الوقت الذي يقرر الآخرون كُلّ شيء نيابة عنها!

كانت الساعة قصيرة وطويلة بالنسبة للاثنين، فقد مضي الوقت بسرعة، أسرع مما يحصل فِي الحالات الأخرى؛ وكان طويلاً، لأن العيون ظلت تنصب عليهما، تراقب كُلَّ حركة، تحاول أن تسمع كُلّ كلمة. ورغم أن الحجية زاهدة بقيت صامتة، إلا أن عينيها لم تتوقفا عن الكلام والسؤال والعتاب. أما الحاج صالح فقد خلق جواً مِنْ المرح والألفة، ربما ليشغل النسوة، وليخلق للعروسين مجالاً لتبادل بضع كلمات. وفِي نهاية الزيارة ظللت شجرة النبق جميع الموجودين، خاصة حين ارتفعت زغاريد أم قدوري، وشاركتها النسوة الأخريات ذلك!

لما وصلت العربتان لحمل الزائرات، والعودة بهن، وقبل أن يغلق الباب، سألت أم قدوري ابنها، همساً:

ـ ها، بشرني، شلون شفتها؟

. ملوكية، تخبل، نصيحة أخ لأخوه!

- ليش ما تقول نصيحة أم لابنها؟

وبعد قليل وبلهجة عتاب:

ـ تظلون، أنتم الرياجيل، ظنانين، وتحسبون المرية ما تعرف!

سالها بدري ليواصل المرح، وهو يدفعها أمامه بإتجاه الآخرين:

- زين.. زين إذا تعرفين كُلّ شي، فشنو لون عيونها، خضر أو زرق؟

كان يمكن لطيف الفرح الذي خيم على هذه الزيارة أن يتواصل، لكن الضيق الذي بدا على العمة، إذ آثرت أن تنسحب، تاركة للأخريات وداع الزوار، أفسح مجالاً للقلق أن يتسرب، وجعل الأشياء أقرب إلى الهشاشة أو فِي حالة مِنْ السيولة يمكن أن تنزلق وقد تتغير.

فما أن صعدت أم قدوري الدرجتين الواطئتين بإتجاه مقدمة البيت، حيث جلست العمة زاهدة، حتى سمعتها تقول:

- عبالك لعابة!

التفتت أم قدوري، بعد أن طرقت الكلمات مسامعها، وسألت:

- تحجين وياي، حجية؟

ـ احجي ويا روحي، ومن قهري؟

- ليكون أحد غثك، قال فد شي؟

جاءت نعيمة فِي تلك اللحظة. تابعت العمة زاهدة:

ـ اللي غاثني كومة العظام هذي، عبالك ما بيها لحم، كأنها خراعة زرع!

تبادلت الأم وابنتها نظرات الاستغراب والتساؤل، فقد بدت زكية هذا اليوم أجمل وأرَق مِنْ أيّ يوم سابق. سألت نعيمة:

.- عمة، على مِنْ تحوين؟

ردت بطريقة ساخرة، ولا تخلو مِنْ قسوة:

.- احجي على بنية بذاك الصوب...

وبعد قليل وكأنها توجه اللوم إلى أم قدوري:

ـ لو رحنا ذاك اليوم سنطة، بليا زفة وطبل، جان شفناها مثل ما خلقها الله، وجان ما أكلنا أصابعنا ندامة!

- يا معودة، حجية، شنو هذا الحجي، قابل نحن رابدين نشتري عايشة؟

ـ وقابل ولدنا يتزوجون جلد وعظم؟

قالت نعيمة، ولم يخل كلامها مِنْ مزاح:

- عمة، خاف ما شفتيها زين، ويجوز الكحل بالعين يسوي غباش!

. - قولي علي عمية، مو هذا اللي تريدين تقولينه؟

ـ لخاطر الله، عمة، لا تصيرين عصبية، وآني ينقطع لساني إذا ردت أقول فد شي مو زين.

قالت أم قدوري لتحسم الأمر:

- بدري، لمن شافها، طار عقله بيها، وهذا بدري اسأليه!

- آني ما علي، وباجر راح تاكلون أصابعكم ندامة! قالت العمة زاهدة.

بعد كلمات العمة، وقد حرصت أم قدوري على إبقائها ضمن هذه الحدود، لئلا يلتهب الجو، فقد انداح جرح كلما برأ ينفتح مِنْ جديد، كما حصل فِي مرات كثيرة سابقة، بسبب التحدي المتبادل بين المرأتين، لكن دواعي السفر، وجو الفرح، جعل أم قدوري تنصرف بكل طاقتها إلى تأمين مستلزمات بدري، وتهرب مِنْ الخصومة التي تريد العمة فرضها، قالت لها، وهي تنسحب:

- لا تديرين بال حجية، لأن القلب إذا حَب، حُقة لحم زايدة.. ناقصة ما تغير فد شي!

هزت الحجية رأسها، وقالت كأنها تكلم نفسها: ـ بآخر الليل تسمعين العياط!

سيفو الذي ودع بدري، مع آخرين، فِي قهوة الشط، جاء مرة أخرى إلى بيت الحاج صالح العلو. قال، وهو يداري خجله لهذه الزيارة:

. شفت ضؤكم، وسمعت الصوت، فقلت لروحي: الجماعة بعده يتعللون...

وبعد قليل، فِي محاولة للتبرير:

. وآني ما جايني نوم، قلت أمر بيكم، أقعد وياكم شوية، وبعدها نقول البدري فِي أمان الله، ونمشي.

وسهر سيفو، وطالت سهرته. ورغم أن لديه الكثير ليقوله، خاصة البدري، إلا إنّه لم يتكلم تلك الليلة إلا القليل. حتى إجاباته على الأسئلة التي توجه

إليه كانت سريعة مختصرة. ولم يغادر سيفو إلا بعد أن طلبت أم قدوري مِنْ ابنها ان يغفو ساعة، ليكون نشيطاً فِي اليوم التالي، يوم السفر.

وفي الصباح الباكر، حين أزف سفر بدري، كان سيفو ضمن المودعين أيضاً. قال له الحاج صالح مداعباً، وقد قدر انه لم ينم إلا قليلاً:

- صاير مثل السمج، يا أبو فلاح، تنام وعيونك مفتحة! ـ لاحقين على النوم، حجي، لا تدير بال!

قال بدري ليواصل المداعبة:

ـ قومة أبو فلاح مِنْ غبشة زكاة، لأنه يريد يقعد الملا حمادي، خاف تروح عليه نومة، وينسى الأذان!

ردَّ سيفو ساخراً:

- لا تخاف يكون قعد، هذي مصلحة، والأذان شغل؟

وسافر بدري، عائداً إلى كركوك.

طوال أيام الرحلة إلى كركوك، كان طيف زكية لا يفارقه: بشرة هي خليط مِنْ البياض ولون القمح الناضج، شعت فجأة تحت شجرة النبق فِي عتمة أول المساء. أما الابتسامة التي لفتت نظره منذ سنين عديدة فلا تزال هي نفسها، وإن شابها قليل مِنْ الإرتباك. وحين تتسع تلك الابتسامة تشف عن صفين مِنْ الأسنان المنتظمة البيضاء، والجميلة أيضاً. أما الطول فكان أبرز ما يلفت إليها النظر، خاصة فِي مثل هذا العمر، إذ تبدو وقد غادرت سنوات الصبا الأولى على عجل، لكن لم تدلف بعد إلى اكتمال الأنوثة، مما يجعل الكثيرين يعتبرونها أميل إلى النحافة.

كانت هذه الملامح تتراءى له، لكن لا تلبث أن تتشوش وتتداخل، ثم سرعان ما تغيب، لتحل مكانها، فِي مسامه، ثم فِي ذاكرته، رائحتها. وها هي الرائحة تتكرر الآن، خاصة أثناء عبور الأماكن الظليلة، أو حين التوقف على ضفاف ديالى، أو قرب أحد العيون. فتلك الرائحة الفواحة، وهي مزيج مِنْ النعناع والقداح والفلفل، وقد تداخلت مع الورد وحب الهال، واختلطت أيضاً بما يماثل رائحة العشب بعد المطر، تعاوده مرة بعد مرة.

تحت شجرة النبق، كان الهواء إذا تحرك قليلاً خاصة حين تدير زكية المروحة التي بيدها، وقد فعلت ذلك مراراً وبتعمد، كان يندفع نحوه شذى مسكر، فيشعر أن فِي داخله شيئاً يتفتح، ينتعش، وكأنه يصرخ: «إذا تعذر أن نبقى معاً منذ هذه اللحظة، فلتبق معك، لترافقك رائحة البشرة الخصبة وشذى الانثى المولهة!» وتذكر بدري كيف أن أمه إذا طلبت شيئاً مِنْ مسافر، أو أوصت مسافراً على شيء، فغالباً ما يكون له علاقة بما يجعل

رائحة الإنسان، أو طعامه، وحتى المكان الذي يقيم فيه، فواحاَ زكياَ، أكثر مِنْ حرصها على الأشياء الثمينة، وهذا ما كان يدفعها لأن توصي على نباتات وخلائط لتضاف إلى الطعام، أو إلى مياه الغسيل، أو لنكون، فِي بعض الأحيان، دواء أو حرزاً، الأمر الذي يجعلها فِي مواسم الورد والقداح والياسمين وبعض النباتات الأخرى، تبذل جهوداً كبيرة مِنْ أجل صنع الأشربة واستخلاص العطور، حتى أصبح يقال إن بيت الحاج صالح العلو يُعرف، حتى للغريب الذي لم يصل إليه مِنْ قبل، مِنْ الرائحة الزكية التي تنبعث مِنْ جنباته، نظراً لكثرة الأزهار والرياحين، وعطرها الذي يمتد إلى مسافات.

وهذا ما كان يجعل الحاج صالح يضيق بالأماكن المغلقة، وما يدفعه، حتى فِي أيام الشتاء الباردة، إلى الاغتسال يومياً، وإلى ترك النوافذ مفتوحة خلال النهار. ولهذا السبب كان الحاج صالح يفضل الصلاة فِي بيته، أو فِي أماكن مفتوحة، مما ولد نوعاً مِنْ الجفاء بينه وبين الملا حمادي. كما جعله يشعر بالمرارة، وبشيء مِنْ الغضب، حين ترك سيفو المهنة، وإلى أن ت العثور على سقا آخر.

كان الحاج صالح يعتبر أن الكثيرين يميلون إلى اغسل العصافير» أو طريقة البدو فِي الاستحمام، إذ يكتفون بصب الماء على رؤوسهم، أو يخوّضون فِي مياه النهر، ويحتالون على الروائح التي تنز مِنْ أجسادهم بالعطور، بدل غسل تلك الأجساد جيداً وتعريضها للهواء.

وسط هذا الجو تكونت عادات ونمت طقوس فِي أسرة الحاج صالح العلو، وأصبحت مِنْ الصفات التي تميز أفرادها، وحتى الأصدقاء، وان بمقادير متفاوتة.

الآن، وبدري يواصل الرحلة إلى كركوك، يحمل أطياف زكية، لكن يحمل أكثر مِنْ الأطياف الرائحة التي تعشقته، تسربت إلى مسامه وملأته.

وإذا لم يستطع، خجلاً، أن يدقق بملامح زكية، أن يمسحها بنظرات فاحصة مكتشفة، فقد امتلا بذلك الشذى الذي هفٌ حين كانت مقبلة لتسلم عليه وعلى أبيه، ثم أخذ هذا الشذي يتكاثف ويعبق، وها قد أصبح زرادته فِي هذا السفر؟

ولأن الرحلة طويلة وحافلة بالمشقة، وقد تخللتها محطات كثيرة يمكن أن تتيح فرصاً لأحاديث طويلة متشعبة، إلا أن التعب، إضافة إلى الحر، كانا مِنْ الشدة إلى درجة أصبح الصمت سيداً، وجعل رفاق السفر لا يتبادلون إلا أقل الكلمات، كما دفعهم لأن يغرقوا فِي النوم باكراً، استعداداً المشاق اليوم التالي، وهذا ما حمل بدري على أن يرحل فِي أيامه الماضية، وأن يبحر إلى المستقبل أيضاً!

وإذا كان الماضي، بالنسبة لأي إنسان، عزيزاً، ويعني له الكثير، وقد يعجب مما حصل له فيه، خاصة المواقف التي اتخذها، والقناعات التي دفعته لاتخاذها، فان حجم الحماقة، وربما الجنون، فِي هذه المواقف يجعله يتساءل مِنْ جديد عما إذا كان مستعداً الآن لمثلها، أو لما هو أقل! يتذكر بدري الرسائل التي حملها مِنْ الباشا إلى الآخرين، كيف تحدث معهم وهو ينقل تلك الرسائل. وكيف أكد على التعليمات، وبالكلمات نفسها التي قالها الباشا، فهل يستطيع الآن أن ينظر إلى عيونهم بنفس الطريقة؟ أن يردد ذات الكلمات؟ والمشاعر التي كانت تسيطر عليه وهو يقوم بذلك، هل كانت نابعة مِنْ داخله أم ملتصقة به مثل الغبار الذي تخلفه حوافر الخيول حين يمتطيها فِي مهمات عاجلة؟

يتذكر الآن ابتسامات سيد عليوي، بعد أن يتبلغ رسالة مِنْ رسائل الباشا وتعليماته، كانت مزيجاً مِنْ الامتثال والسخرية والكره معاً، فهل يجرؤ، بوضعه الراهن، أن ينظر إلى عيني سيد عليوي، أو الكيخيا، أو حتى مِنْ هم أدنى منهم، دون أن يشعر بالرهبة، ويتحسب لردود أفعالهم؟ قال لنفسه: «الإنسان جريء بمقدار القوة التي تقف وراءه، والباشا حين طلب إليّ نقل الرسائل، كان يريد أن يُسمع صوته، أن تصل كلماته ذاتها، كي يشعر مِنْ يستلمها، مِنْ تصل إليه، ماذا تعني ومن هو الباشا!» أما وهو يستعيد صور كبار الضباط والموظفين، حين يصلون إلى السراي، وهم ينتظرون فِي غرفة سبد خلف، إلى أن يحين الوقت ليستقبلهم الباشا، وكيف كانوا يبدون رقة متناهية فِي التعامل، فِي الكلام، ويظهرون ميلاً مفرطاً للحديث، كي يؤكدوا لصغار موظفي السراي مدى الطيبة التي تملؤهم، ويتصرفون بتواضع لا يتناسب والرتب التي يحملونها، ثم كيف رآهم فِي مواقع عملهم، فِي الثكنات والدواوين، وقد أصبحو بشراً مِنْ نمط آخر. قال لنفسه ورأسه يهتز بحزن، وكان يلكز البغل «ناس الحكومة، كما يقول الحاج صالح، مثل بعضهم، والواحد منهم يعرف اللاخ على البطانة؛ أو مثل ما يقول ربعنا: حرامي الهوش يعرف حرامي الدواب، وواحدهم كأنه الثاني مثل أسنان المشط»..

وما دامت الرحلة طويلة ومستمرة، فإن بدري يتذكر أشياء كثيرة، خاصة وأنه سبق له سلوك هذا الطريق برفقة داود باشا، وقضى فِي المحطات ليالي شديدة الحلكة، مليئة بالمخاوف.

كان الجو، فِي تلك الليالي، شديد التقلب، مليئاً بالمفاجآت. وتبعاً لذلك كان يتغير المزاج ومعه السلوك. وحتى السحنة كانت تتغير. فمع وصول الرسل والبريد مِنْ بغداد، مِنْ اسطنبول، أو حتى مِنْ القبائل فِي الجبال أو عند أطراف بغداد، يسيطر جو مِنْ الصمت والتكتم، إلى أن تتسرب بعض

الأسرار والأخبار، فيتغير مزاج الرجال، وتتغير ردود أفعالهم، ويظهر ذلك حتى لو أرادوا التكتم أو التظاهر بشكل مختلف... عدا الباشا.

كان داود باشا قادراً وبارعاً فِي إخفاء عواطفه، وفِي إخفاء الكثير مِنْ الأخبار التي لا يريد لها أن تظهر أو أن تنتشر. وكان قادراً أيضاً على أن يبث فِي رجاله العزم وقوة الإرادة. كما لا ينسى لحظة واحدة ما يريد، وكيف يقنع كُلّ الذين حوله بضرورة الترفع عن الأشياء الصغيرة، ونسيان الخصومات.

يفعل ذلك بأساليب لا حصر لها، وحسب الشخص أو الطرف المقابل.

يتذكر بدري كيف أن الباشا أئب وقسا على خادمه فيروز حين أبلغه أن طباخه الخاص، مصطفى الأردبلي، كذب حول عدد الخراف التي ذبحها، أنها تنقص ثلاثة رؤوس عما ادعاه. قال له الباشا بعتاب لا يخلو مِنْ مدة: «يجوز، بزيادة مراقبة الغنم، نوفر كم راس، لكن الراس الكبير كون فِي خطر، ولما أبدى فيروز استغرابه، ولم يفهم ما قصد إليه الباشا، ردَّ عليه بحنق، وكان يشير إلى رأسه: اروحنا بإيده، وآني، بأكلي، عبده، فاتركنا مِنْ هذي المكسرات: خروف زايد، خروف ناقص»..

أما المبالغ التي كان يدفعها الباشا بسخاء، حين كان فِي الشمال، الرؤساء القبائل، للقادة، للذين ينضمون إليه، فأصبح يجمع الآن أضعاف أضعافها، ليس مِنْ الذين دفع إليهم، وإنما مِنْ القادرين على الدفع، مِنْ الذين يجب أن يدفعوا فِي المرحلة الجديدة!

قال بدري لنفسه: «يختلف الباشا عن التجار، لأن المال بالنسبة له وسيلة للسيطرة، إذ يمكن عن طريقه استمالة الآخرين أو حتى إخضاعهم.

أما التجار فانهم أقل شجاعة مِنْ الباشا بكثير، لأنهم يفرحون إذا كنزوا الأموال، وبودهم ألا تغيب عن أنظارهم لحظة واحدة، وحين تذهب إلى غيرهم يستبد بهم حزن لا يستطيعون إخفاءه أو مقاومته!» ومثل رشق أمطار الشمال، كانت الأفكار والصور والذكريات تتوالى فِي ذهن بدري، فلا يعرف كيف يرتب الأمور، أو يجعل لها نسقاً وسياقاً، بل وشعر انه ليس بحاجة إلى ذلك، المهم أن تنقضي الساعات، وأن يقطع هذا الطريق الطويل الشاق لكي يصل إلى كركوك، ويبدأ بترتيب حياته الجديدة.

والفكرة التي طالما استبعدها، بل وحاربها، وهي أن يترك العسكرية، ويعود إلى مهنة العائلة، ورغم أن أباه لم يتطرق للموضوع فِي هذه الزيارة، ربما متعمداً، كي يورطه» ألاً فِي الزواج، الذي كان يرفضه مِنْ خلال التأجيل، أخذت تتراءى له الفكرة الآن أقل سوءاً مما افترض فِي البداية، وإلا كيف يفسر العقوبة التي يواجهها الآن فِي كركوك؟ لقد عامله الباشا

بقسوة بالغة، ولعل أكثر ما آلمه الطريقة التي خاطبه بها: كان صامتاً أول الأمر، ثم حين تكلم كان يدير إليه ظهره، وظل كذلك فترة غير قصيرة. حتى الكلمات الأخيرة التي قالها، ليطيب خاطره، جرحته أكثر مما واسته، تماماً كما يفعل الملا وهو يعلم الأطفال فِي الجامع، إذ لا بد أن يضربهم، أن يؤلمهم، كي يعرف الأهل مدى حرصه، ومن أجل أن يأخذ الأطفال الآخرون درساً!

لماذا نسي الباشا خدماته السابقة وتضحياته، ولم يتذكر إلا تلك الزيارة لروجينا، والتي لم تحمل أيّ معنى يضر الباشا أو يسيء إليه؟

قال بدري لنفسه، وقد امتلأ بالمرارة: «الباشا لا يعرف إلا الساعة التي يعيش فيها، وحدها تعنيه، أما الماضي فيأتي ويغيب بقدر ما يخدم اليوم والغد، ولذلك يجب ألا يخطىء مِنْ يعمل مع الباشا. أما الباشا نفسه فيمكن أن يفعل أيّ شيء، وكيفما يريد، دون أن يُسأل، دون أن يلام».

وحين تذكر جماعة السراي، وأنه لم يزر أحداً منهم، كما لم يدع أيّ واحد لحفلة عقد القران، شعر بالندم، رغم أن سيفو ذكره عدة مرات، وعلى شكل سؤال، ما إذا نسي أحداً أو يُفترض دعوة أحد، وأبدى استعداده للعبور إلى الضفة الأخرى مِنْ أجل هذه المهمة، لكن المرارة التي أحس بها، ليس فقط تجاه الباشا، بل وتجاه رجال السراي، حيث لم يسأل عنه أحد، جعلته يتناسى متعمداً دعوة أيّ منهم. قال وهو يلكز البغل، الذي بدا رتيباً إلى درجة الإملال: «صحيح أن زلمة الباشا باشا، لكن الناس فِي السراي مثل باقي الأوادم».

وإذا كانت رياح الماضي، والذكريات، حملته بعيداً، فإن الخوف مِنْ المستقبل، أو بالأحرى ما يجب عليه أن يفعله ليواجه هذا المستقبل، لم يغب عن باله، فهو، الآن، شخص مختلف، فما أن تلتحق به زكية سيصبح مسؤولاً عن عائلة، وبعد سنة سيصبح أباً، وقد لا تمر بضع سنين حتى تكبر العائلة، ولا يعرف هل يبقى فِي العسكرية أم يجب أن يفكر بعمل آخر، ثم إلى متى سيبقى فِي كركوك؟ وحتى لو نُقل إلى مكان ثانٍ، ورقي إلى رتبة أعلى، هل يطيق أن يبقى بعيداً عن بغداد، عن صوب الكرخ وقهوة الشط والشيخ صندل؟ وماذا إذا عاد إلى السراي، هل يستطيع أن ينسى الإساءة والعقوبة؟ وسيد عليوي، الذي لا يعرف حقيقة عواطفه وموقفه، هل يرضى عنه؟ وحامد لماذا يعامله بهذه الطريقة، وماذا يريد منه؟

حتى المناقشات حول بساتين الحاج نعمان المتولي، وطريقة نعيم وهو يوجه اللوم، لأنها لم تُدْر بالطريقة المناسبة، هل يمكن أن يصبح بديلاً للحاج نعمان فِي الإشراف، أو إدارة ما تبقى منها، لكي يثبت لنعيم، وللآخرين، إنّه قادر أن يكون مثلهم فِي التجارة وجمع المال؟

وإذا فشل؟ وإذا غرق الزرع، كما قال أبوه، وتراكمت الديون، وجاء أصحاب تلك الديون ليطالبوا، لينتزعوا البساتين واحداً بعد آخر، هل يحتمل مثل الكلمات التي قالها أخوه؟ هل يكتفي بالتفسير والتبرير كما يفعل أغلب التجار حين يخسرون؟ وماذا إذا لم يوافقه الحاج نعمان، مِنْ البداية، على أن يسلمه الإدارة، هل يطلب مِنْ زكية أن تترجى أباها، أن تبكي وتعطي الوعود؟ وهل الحاج نعمان حر التصرف أم عليه التشاور مع أولاده؟ وهل يقبل هؤلاء أن يأتي غريب لينافسهم، ليزاحمهم، ثم ليصبح سيداً عليهم؟

ابتسم وقال لنفسه: «يجوز مِنْ حسن الحظ أن البساتين راحت قبل الزواج، وهذا معناه أن اعتمد على نفسي، لا على أب أو على عم».

أما لو امتثل لرأي أبيه، واختار مكاناً إلى جانبه فِي العلوة، فهل يقوى على المساومات الصغيرة، وتلك العمليات المليئة بالدهاء والمكر، كما يفعل أخوه نعيم؟ ولماذا نفر مِنْ هذا الجو منذ وقت مبكر، وهرب إلى الرياضة أول الأمر ثم إلى العسكرية؟ وأخوته الذين صمتوا حين كان الأب يحاول إقناعه بأن لا يذهب إلى المدرسة العسكرية، ثم تظاهروا انهم لم يروا ولم يسمعوا بالمحاولات التي تبذلها الأم، بتحريض مِنْ الأب، لحمله على ترك العسكرية، وأن العمل والمكان جاهزان لاستقباله، هل كان صمت الأخوة سيستمر لولا رفضه وعناده، وتأكدهم أن التجارة لا تستهويه، وبالتالي لن يزاحمهم؟

لقد مرت هذه الصور، وغيرها الكثير، فِي ذهنه، وكان يشعر انه غير مضطر لاتخاذ قرار، على الأقل الآن، وأن العسكرية، رغم المشقة، يمكن أن تكون صيغة لحياته، كما هو حال الكثيرين مِنْ زملائه، خاصة وأن المهنة يمكن أن تتيح له فرصاً ليصبح ملاكاً أيضاً، وقد تفتح له آفاقاً، كما حصل لعدد مِنْ كبار الضباط.

قال لنفسه، فِي محاولة لأن يرجىء إتخاذ أيّ قرار: «ما نريد نشتري المعلف قبل الحصان» وحين تطلع إلى البغل الذي يركبه ابتسم. كان البغل يمشي بخطوات قوية، ثابتة، ومن ينظر إليه يظن أنّه حصان، فشعر الرقبة مقصوص بمعرفة تدل على مدى العناية التي كان يوليها له مالكه السابق.

وتذكر كيف اشتراه له نعيم. قال له، بدعابة:

- أنت اللي يقرر: بعد ما تركبه، تريد تبقيه أو تبيعه..

ابتسم، وهو ينظر إليه بتحديد:

ـ نعرف أمه، أما أبوه فالله أعلم...

هز رأسه أكثر مِنْ مرة وأضاف:

- وراح تتأكد أن الأم تعرف شلون تخلف. وجماعة الجبل يفضلون البغال، أما جماعتنا هنا، فالواحد ما يهمه إلا الاسم، إلا المظهر؟

وقال له قدوري ليزيل أيّ شعور بالغضاضة:

- وبعدين، أنت راح تمشي الغبشة، وماكو أحد راح يشوفك ويسأل:

حصان لو كديش؟ وأن ابن صالح العلو راكب الصبحة أو بغل أبو بابين!

ولئلا تتولد أية أحاديث فِي قهوة الشط، وتصبح مجالاً للتندر، سواء لعائلة الحاج صالح العلو، أو للعريس، أودع البغل فِي الليلة الأخيرة فِي بقجة مجودي أبو اللبن، وأتي به فِي الصباح الباكر. وفضل بدري أن يمشي إلى الجرف، وأن يركب قفة مستقلة، على أن يُحمل البغل بمركب آخر، وعند الباب الشرقي، وعلى ضوء «خيول» القافلة، يقرر بدري ما إذا سيركب البغل الذي تم شراؤه، أم يختار واحداً مِنْ «خيول» القافلة، والتي لم تكن تختلف عن هذا البغل إلا بالتسمية.

فِي الباب الشرقي، بعد أن قلب الخيول، فضل أن يمتطي البغل الذي غُسل جيداً فِي النهر، وكلف قدوري مِنْ اختار له سرجاً جميلاً ومريحاً، وأكد نعيم أن مِنْ يبيعه فِي كركوك لا بد أن يربح الضعف!

وتذكر بدري قول أبيه:

- وأنت، يا ابني، لا تخاف، ولا تدير بال: تريد تكرب أكرب على ثور، وإذا تريد تحارب فلازم تعرف المهرة اللي جواك، أما السفر فينراد له رهوان، والواحد، ابد، ما يخلص مِنْ كلام الناس!

حين بدت كركوك فِي الأفق، قال رئيس القافلة، كاكا محمود، لبدري:

- هذي كركوك، أغا!

ـ أيّ نعم، وصلنا.

- وأنت، بس، كركوك؟

ـ أيّ نعم، شنو نسبت؟

ـ والحصان؟

ـ شبيه الحصان!

- خوش حصان!

ـ أيّ نعم، وأنت شفته بعينك!

- تبيعه؟

- هذا صار صاحب، حملني مِنْ هناك لهنا، شلون أبيعه؟

ـ إذا تبيعه آني يشتري!
- وآني، إذا أريد أشتري منك الحصان اللي تركبه، بيش تبيعه؟
- آني ما ببيع!
- أنت بس تشتري؟
ـ أيّ نعم!
- آني أريد أرجع بغداد، وأريد الحصان يبقى وياي؟
- إذا يريد يرجع بغداد آني، كاكا محمود، ياخذك.
- بس هذا خوش حصان، وأريد أرجع عليه!
- آني إذا اشتريت ما أبيع هذا الحصان، وأنت ترجع عليه!

بعد مفاوضات لم تطل كثيراً، وقد تخللتها المداعبات والوعود، وأيضاً حساب ثمن العلف، ثم تقدير قيمة السرج، تم الاتفاق على أن يشتري الكاكا محمود البغل، وقد ربح بدري ليرة ذهبية زيادة عن ثمن شرائه، وتنازل عن نصف قيمة السرج. مع وعد أن يكون له الخيار فِي أن يشتريه مرة أخرى، إذا عاد إلى بغداد!

أما حين اقتربت كركوك أكثر، وأصبحت القافلة على مشارفها، فقد قرر بدري أن يستريح فِي القهوة المطلة على القلعة، على أن تواصل القافلة مسيرها، مارة بالثكنة، وإبلاغ حامد أو رمزي، أو أيّ ضابط مناوب، أن بدري فِي القهوة وضرورة إرسال حصان أو عربة كي تحمله مِنْ هناك إلى القلعة.

والكاكا محمود الذي كان فرحاً للصفقة التي أنجزها، وكان شديد الاحتفال بهذا البغل طوال الطريق، إذ كان يراقبه ويختبره، لم يتأخر فِي إبلاغ ضباط الثكنة بوجود «ضابط كبير فِي القهوة، بانتظار عربة القيادة».

أما وهو يودع بدري، وكان يشد على يده بحرارة، فقد سأله:
- آغا... شوكت ترجع لبغداد؟
ولأن بدري لا يعرف متى سيعود، فقد ردَّ عليه بمداعبة:
- انت.. كاكا، شوكت ترجع لبغداد؟
- آني أرجع بعد شهر، مثل هذا الوقت، بس يصير القمر بدر بالسما!
قال له بدري بحزن:
- آني راح أتأخر...
وبعد قليل، وقد تغيرت النبرة:

- وإذا ردتك وين ألقاك، كاكا؟

- اسأل بالسوق وين الكاكا محمود مراد. بالسوق يعرفون وين أكون!

وهكذا عاد بدري إلى كركوك بعد أن أنجز مهمة تأخرت كثيراً: أن يجد شريكة لحياته، وقد وجدها، وأنجز مهمة أخرى: حقق أول ربح تجاري فِي حياته!

وبدأ يعد الأيام والليالي انتظاراً لوصول زكية!

المرارة التي استبدت بالآغا، وصلت إلى درجة الحقد، بعدما تأكد أن نقله إلى الشمال كان بداية للتخلص منه، وإبعاد خطره عن بغداد، عن الوالي تحديداً، لم يخفف مِنْ هذه المرارة إلا وجود رجاله حواليه، فما دامت قواه لم تُمس، وهي معه، ورهن إشارته، سيعرف كيف يرد فِي الوقت المناسب، وكيف ينتقم. كان ينتظر اللحظة المواتية، الحجة التي تمكنه مِنْ الزحف على بغداد وتلقين الوالي درساً جديداً. ولا بد أن يكرر صيغة الزحف السابق، ومثلما انقض على سعيد سينقض مِنْ جديد على داود، هذا الرجل الماكر الذي استغله وضلله، وبعد أن استعان به لاسقاط سعيد، ها هو الآن يتخلى عنه!

صحيح أن داود، وهو يكلفه بشؤون الشمال، قال كلمات كبيرة. امتدحه حين تحدث معه على انفراد. وهو يتحدث فِي الحفلة الكبيرة التي أقامها له فِي السراي، قبل أن يتحرك بأيام.

لكن ما فائدة المدائح والكلمات الكبيرة إذا تحولت إلى عقوبة، إلى منفى؟ وهل تتوفر ظروف مثل تلك التي مكنته وداود مِنْ هزيمة سعيد؟

وسعيد وداود.. هل هما متشابهان؟ مِنْ طينة واحدة؟ وإذا كان سعيد، وابن الزنا، حمادي، قد هيأ الظروف مِنْ أجل أن ينقض الخصوم عليهم، وأن يتكون ذلك الإجماع، هل يعطي داود الفرصة ويخلق ظروفاً مشابهة؟

وأهل بغداد... لماذا ينامون فترة طويلة ثم يصحون فجأة؟ إنهم بشر مِنْ طينة خاصة، يتحملون كثيراً، يتظاهرون أنهم لا يسمعون ولا يرون ما يجري حولهم. بل أكثر مِنْ ذلك تبدو عليهم اللامبالاة وهم يمارسون حياتهم كُلّ يوم، وفجاة يتحولون إلى مجموعات مِنْ الوحوش، وحوش لا ترويها إلا الدماء، لماذا سكتوا وغابوا طوال الفترة الماضية؟

كانت مثل هذه الأسئلة تراود الآغا، تخطر بباله عندما يسمع أن بغداد تنام وتستيقظ دون أن يخطر لأي واحد فيها أن يقول لا، أن يرفع صوته، حتى ولو فِي لحظة غضب، لكي يشتم داود، كما كان يُشتم سعيد. كان ينقل له رجاله أن الحياة عادية، هادئة، رغم الضرائب الجديدة التي فرضها داود. وأن الناس يتسابقون عصر الخميس ويوم الجمعة إلى مراقبة صراع الديكة وسباق الخيل، وإنهم يتراهنون وينفعلون، ولا يتردد الذين يخسرون فِي شتم الذين يربحون، ويتوعدونهم أن تكون الأمور مختلفة فِي الخميس القادم، فِي الجمعة التي ستأتي. وحين تنقضي هذه الأيام يعودون إلى حياتهم العادية. يتراكضون فِي الأسواق، يبيعون ويشترون، يخسرون ويربحون، لكن كُلّ ذلك

يجري بهدوء، دون شكوى، أو بشكايات صغيرة حول التأخر فِي سداد دين أو عدم توريد البضاعة فِي الموعد المتفق عليه.

وما أن تنقضي مثل هذه الأمور حتى يعود الناس إلى المقاهي إلى الغناء، إلى الهموم الصغيرة.

أحس الآغا بغصة لأنه غرق فِي القلعة، وبين الثكنات، وترك بغداد لغيره. لو أنّه وثَق علاقاته بالمخاتير، بالشقاوات، بالذين يحملون الأعلام ويصيحون، لأخذت الأمور شكلاً آخر. كان داود لا ينسى أحداً مِنْ هؤلاء: يجتمع بهم، يدفع لهم، يبعث برجاله لكي يسأل عن أحوالهم، ولذلك كانوا سنداً له حين تقدمت القوات لحصار بغداد. كان هؤلاء مثل القنوات التي تسير فيها المياه. إذ رغم أن لكل منهم مكانه، طريقته فِي العمل، فانه يعرف كيف يخاطب رجاله، كيف يحرضهم. لقد فاته هذا الأمر. اهتم الآغا بالشيوخ والأغوات، اعتبرهم القوة التي يمكن أن تعينه حين يحتاج إليها. لكن الشيوخ والأغوات، وربما لم يصيروا كذلك إلا لأنهم يعرفون كيف يغيبون فِي الوقت المناسب! ومتى عليهم أن يظهروا مِنْ جديد! وحتى غيابهم أو ظهورهم فانه يرتبط بأسباب مقنعة لهم وللذين حولهم: «دفعنا دماءنا وبخلوا علينا بكم فلس». «طلبنا فلم يسمعوا ولم يستجيبوا، فكيف نحارب معهم؟».

لا حاجة للندم، فالناس سريعو التغير، وهم دائماً مع القوي، مع الذي يدفع، ولن يكون داود أكثر مهارة مِنْ غيره، أو أقدر. المهم اختيار الوقت المناسب ليتحرك، وسوف يعرف كيف يحرك الناس.

كان الآغا شديد الثقة. بل أكثر مِنْ ذلك، كان يعتبر أنّه هو الذي حقق النصر لدواد، وهو الذي فتح بغداد، جعل المدينة والناس تتحول بين يوم وآخر، ولا بد أن يفعل ذلك مرة أخرى، لكن هذه المرة لنفسه. لن يكون أداة لأحد، لن يتوارى أو يتواضع لكي يقطف النصر غيره. فما دام رجاله حوله، وما دام الشمال معه، سيعرف كيف يرغم داود على التسليم. سوف يحاصر بغداد مرة أخرى، سوف يمنع عنها المؤن ويمنع التجار مِنْ الخروج. وحين يجوع الناس سيصرخون. حتى داود الذي نسب النصر لنفسه، ما كان ليستطيع أن يدخل بغداد إلا بعد حصار طويل. وخلال ذلك الحصار ضج الناس وارتفعت الشكوى، ثم انفجرت الشتائم، تلتها الطبول والأعلام بعد ذلك. الإنسان لا يصرخ إلا إذا ضُرب، إذا جاع، ومفاتيح بغداد بحزامه. لن يرحم ولن يخاف. فقط ينتظر الوقت المناسب. ولا بد أن يحين هذا الوقت، وأقرب مما يتصور الكثيرون. المهم أن يحتفظ برجاله، أن يكسب ولاء الشمال. أن يبقى الأغوات معه.

وسط التفكير والهموم، وانتظار الوقت المناسب لإعلان التمرد والعصيان على داود، جاءت فجأة روجينا، جاءت وهي تحمل رسالتين.

واحدة كتبها مترجم القنصلية، بطرس يعقوب، والثانية نقلتها إليه شفوياَ، وعلى مراحل!

رسالة بطرس مليئة بالألقاب والجمل الفخمة، ولم يستطع أن يفهم منها الآغا سوى أن القنصل افتقده بعد أن غادر بغداد، وكان يوده لو انه باق، لأن الباشا «رجل صعب ولا يمكن التفاهم معه، خاصة بعد أن غادر الأصدقاء». ويسميه هو تحديداً. وذكر بطرس يعقوب أن القنصل يحتفظ له بذكريات طيبة، «وإنه رهن الطلب» ولم يفهم ماذا تعني هذه الكلمة، أو ما يريده منه القنصل. ولولا امرأة مثل روجينا تعرف كيف توضح وتسهل الكثير مِنْ الأمور، لتعذر عليه أن يفهم أو يفسر مثل تلك الكلمات. قالت له إن الود انقطع بين الباشا والقنصل، وأصبحت العلاقة أقرب إلى الجفاء وقالت إن القنصل ما كان ليتخلى عن سعيد ويترك خصومه ليفتكوا به لو كان يعلم أن الأمور ستعود كلها لداود.

هكذا كانت بداية الرسالة الشفوية، ثم تبعتها تفاصيل كثيرة: القنصل مستاء مِنْ طريقة داود فِي الحكم والتعامل، فقد توهم أنّه أصبح والياً أكبر مِنْ الولاة الآخرين، ويريد أن يتشبه بسيده سليمان الكبير، كما يعتبره مثلاً.

وإذا كان القنصل استمر بعلاقاته مع السراي خلال الفترة الماضية فلوجود أشخاص مثل الآغا، أما الآن، وبعد أن تنكر داود لكل أصدقائه، لكل الذين ساعدوه، فان القنصل يتطلع إلى الأصدقاء لكي يصححوا الموقف، ولا يجد أكثر جدارة وكفاءة مِنْ الأغا. كانت روجينا فِي بعض الليالي تتكلم بطريقة لا تخلو مِنْ دلع، إذ تتعمد أن تكون قريبة جداً مِنْ الأغا، وحين لا تكفي الكلمات للتعبير عما تريد، كانت تميل عليه، تنكزه بكتفها كوسيلة إضافية فِي الإقناع! كانت تفعل ذلك، وهي تقول، ويعلو صوتها:

- ومنو داود لولاك أنت، أنت يا بعد عيني!

ويبتسم الأغا. وهو يتطلع بتحديد إلى عينيها، ليعرف ما إذا كانت تنقل كلمات وأفكار القنصل أم تتكلم باسمها. وحين تجده بعيداً، صامتاً، وابتسامته كأنها تعني امرأة أخرى، شيئاً آخر، تتغير نبرة صوتها. وهي تسأل:

- دي احچي. قول. لخاطر الله!

فيرد بمرح:

- شتردين أقول يا وردة؟

- فد كلمة منك وكُلّ شي يتغير؟.

ـ الكلمة للخاتون، لروجينا الوردة، أم لغيرها؟

ـ بس أنت احجي، والكلمة الحلوة، الكلمة الزينة، مِنْ حلقك الحلو، تفتح أبواب السما، تغير الأول والتالي!

يواصلان اللعبة لبعض الوقت، تتمتع روجينا، تحس أن كُلّ خلية فِي جسدها تغير مكانها، تتحرك، تتفجر، لكن لا تنسى ما تريد. تقول وهي تحتك به بكل جنبها، وتكاد ترتمي عليه:

- لو تعرف شقد يحبك ويقدرك القنصل. يقول: لولا الآغا ما چان داود وصل للسراي، وبعدين، ومثل ما يقول أهل بغداد: ذَبه قشر...

تبتعد قليلاً، فقط لكي تنظر إلى عينيه مباشرة، علها تستطيع مِنْ خلال العينين أن تقول شيئاً إضافياً، وحين تجده مرحاً، تضيف بغنج:

ـ لا تعمل خير شر ما تلقي...

تتغير اللهجة قليلاً:

- الله ما يقبلها، والعبد ما يقبل. بدل ما يحطك بعينه، ويقول لك عيني وآغاتي شمرك بآخر تلفات الدنيا، وأنت، لأنك خوش آدمي، وما تريد تؤذي أحد، قاعد وصابر....

وتصبح حادة، أقرب إلى الغضب:

- وأنت، وكُلّ واحد يعرف، القريب والبعيد، منو هو الآغا، وشنو اللي سواه، وشنو اللي يقدر عليه. الناس حايرين: ليش؟ لشوكت؟ وهاي وين صارت عند الله لو عند العبد؟

وتعود إلى النعومة، إلى الدلع:

- وآني ووياي القنصل، راح نقول: غسلنا أيدينا وما علينا!

فِي رسالة بطرس يعقوب يذكر أن الفرس التي أهداها الآغا إلى القنصل، خلفت، وكان المهر ذكراً جميلاً، وقد تفاءل بولادته جميع المقيمين فِي الباليوز، لأن قوائمه، الأماميتين، إضافة إلى القائمة اليمين الخلفية، محجلة بالبياض، وقد أطلق عليه القنصل تيمناً: الآغا. ويذكر بطرس أن القنصل ما كان ليطلق على المهر هذا الاسم، خاصة وأنه لم يتم الاستئذان، لولا تفاؤله وتوقعاته بخير كثير خلال الفترة القادمة.

أما روجينا فقالت بصراحة أكبر:

ـ ترى لولا معزتك، ولخاطر القنصل، چان ما تعنيت وما جيت!

وحين ينظر إليها الآغا بتلك النظرة المتسائلة، تجيب:

- آني بكل وقت أحب أشوفك، لأنك تعرف شقد غلاتك عندي، لكن أنت بعيد، وتريد تظلِ بعيد، وإذا هذي المرة تعنيت وجيت، فما أدري أقدر نوبة

ثانية، أو تظل أنت، ونظل نحن واحد بهذا الصوب والثاني بذاك الصوب، وماكو بينا إلا الروج والشرايع مقطوعة.

وفِي الليلة قبل الأخيرة، وحين قررت السفر:

- ها... شتريدني أقول للجماعة.. قمحة لو شعيرة!

ولما ضحك وعلت ضحكته، أضافت بسرعة:

- الله وأكبر أنتم الرجال. شقد قلوبكم قاسية، لا ترحمون حالكم ولا ترحمون غيركم!

- على كيفك، يا معودة...

وبعد قليل، وبلهجة جديدة:

- شنو المطلوب؟ شنو اللي ينراد منا؟

ردت وهي تهز رأسها، وتنظر إلى عينيه بتحديد:

- منو يلوق لهذي الفرس غير هذا الخيال؟

ولما رأته بعيداً، وليس لديه الرغبة بالجواب، أضافت:

- ياما كثر الليالي والأيام وأني أقول لروحي: يجي يوم ويصير حبيب الروح بالسراي، ووحده الحاكم الناهي!

زفر. كانت زفرته طويلة حارة. نظر إليها. وبدا لها أنّه أول مرة يشتهيها، يريدها أو على الأقل يريدها قريبة. أضافت بسخرية:

- مربط أيديك ورجليك وتقول: ربي أرزقني، فشلون تريد الله يرزقك وأنت تدفر النعمة، تهرب منها؟

ـ النعمة ما تندفر، خاتون، لكن ننتظرها حتى تلحق، ما نريدها فطيرة!

ـ دايم الدوم تقول هالشكل، وابد ما وصلنا!

- يواش.. يواش، يا معودة، لأن اللي قبالنا ذيب، ينام بعين وحدة.

- والناس اللي ينتظرون شتريدنا نقول لهم؟

وبعد قليل وبنبرة جادة ومتفائلة:

- وقال لي: بس يقول وشنو اللي يريده منا نحن حاضرين..

ضحكت كأنثى:

ـ لازم تعرف، وأنت تعرف أحسن مِنْ أيّ واحد خلقه الله: المرية أبد ما تقول للرجال أريد، لكن الرجال لازم يفتهم، ولازم يكون جسور، وإذا ما كان هالشكل ضاعت عليه وكسر قلب المرية!

قهقهت وهي تنهض، قالت وكانت تلتفت إلى الآغا الذي ظل ملتصقاً بكرسيه:

- وعقب باچر ورانا سفر، ولازم اتحضر!

بعد أن سافرت روجينا بدأ الآغا يتحرك، وبدأت أحلامه تكبر وتمتد، ومع الحركة والأحلام أخذ يستعد، لكن كُلّ شيء كان يصل إلى الباشا، عن طريق العيون، عن طريق الحمام الزاجل، ومن بعض أوساط روجينا بالذات!

التغير الذي حصل فِي كركوك، خلال الوقت الذي غابه بدري، لم يقتصر على الطبيعة وحدها، فقد شمل القلعة وضباطها، وسرى إلى المدينة أيضاً.

إذ بعد أن هجم حر شديد أواخر الصيف، «ويزيد عن حر بغداد ويشابه حر البصرة» كما أشار حامد، وهو يعرض لبدري ما جرى خلال غيابه، إلا أن الجو فِي النصف الثاني مِنْ أيلول مال إلى الاعتدال، عدا ساعات الظهيرة، أما ليالي كركوك فكانت شديدة العذوبة، خاصة حين تنحدر النسمات الباردة مِنْ جبال الشمال.

«... والمواسم كانت زينة». قال حامد، وكان باين الرضا.

وأن تكون المواسم طيبة تعني الكثير، فحركة القبائل، العرب والأكراد، رغم كثافتها واستمرارها، لا تمثل خطراً، كما لا تدفع سكان المدن إلى الخوف أو الامتناع عن التبادل، مثلما يحصل فِي سنوات القحط أو أثناء وقوع المعارك. وينعكس ذلك أيضاً على القوات العسكرية، سواء فِي المدينة أو فِي القطاعات التابعة لها، الأمر الذي جعل الآغا فِي حالة مِنْ الرضى، إذ لم يكن مضطراً لتحريك قواته هنا وهناك، ولم يتكلف مِنْ الأعباء إلا القليل، وهذا ما دفعه إلى القيام بزيارات عديدة، ولاستقبال الكثير مِنْ الشيوخ والأغوات فِي كركوك.

وبدري الذي كان يدقق فِي وجه حامد ويديه، مستغرباً السمرة الزائدة، قال مازحاً:

ـ اللي يباوعك يقول كأن ما عندك فد شي إلا تفتر بالشموس...

وبعد قليل، وبما يشبه العتب:

ـ شنو.. شصاير بالدنيا، تترك المي والفي وتتخم مِنْ مكان لمكان بهالصيف الجهنم؟

- ليش القضية يمنا؟ ما تذكر لما چنت المرافق الأقدم للباشا؟ يقول:

امشِ، لازم تمشي. يقول تعال، تقول أمرك سيدي...

سحب حامد نفساً عميقاً وأضاف:

- والآغا كُلّ يوم والثاني يقول: تحضروا، ونتحضر، ونمشي، ونروح هنا.. وهنا...

وابتسم ثم هز رأسه عدة مرات قبل أن يتابع:

- ويجوز لو تأخرت شهر أو اثنين كان تلقاني أسود مثل الليل، مو مثل اللي يروحون إجازات، وبأحضان الحبايب ينامون للظهر!

وضحك الاثنان.

ومثلما كان لدي بدري الكثير ليقوله، كان لدى حامد، لكن الاثنين، بحكم طبيعة العمل الذي يمارسانه - وان أصبح ذلك جزءاً مِنْ الماضي بالنسبة لبدري - تعلما الحذر واعتماد الكتمان والإيجاز فِي الكلام؛ كما اكتسبا الكثير مِنْ صفات التواضع فِي بعض الأحيان، والدماثة فِي مواجهة الرؤساء وضيوفهم، لكنهم يعرفون كيف يكونون خشنين، أقرب إلى القسوة، فِي مواجهة آخرين، أو حين يُطلب منهم ذلك!

ورغم أن حامد أبدى الكثير مِنْ المرونة والود، وكسر حواجز عديدة، مِنْ أجل إقامة علاقات ودية مع بدري، إلا أن صفة الحذر، أو ربما الاختبار، لازمته، ولعل فترة الإجازة، كما قال كُلّ واحد لنفسه، كانت فترة للتأمل، وأيضاً لتحديد نوع العلاقة التي يريدها، وتلائمه أكثر.

بعد أن تبادل الاثنان أخباراً قليلة، وقد كانت بمثابة تمهيد، قال حامد:

- شكرت ربي ألف مرة لأنك رحت بإجازة ذاك الشهر!

ولأن بدري اكتفي بابتسامة، وتحصن بالصمت، فقد تابع حامد، وخرج صوته مختلفاً:

- لأنك لو بقيت هنا يجوز تورطنا...

وحين تطلع إليه بدري بتساؤل واستغراب، خاصة وأن كلامه بدا غامضاً، أخذ يوضح:

- بعد سفرك بأسبوع، بعشرة أيام، وكنا تونا راجعين مِنْ كوسينجق جانا الخبر!

لم يستطع بدري أن يواصل لعبة الصمت، سأل بانفعال:

- خبر منو؟ خبر شنو؟

- خبر قتل نجمة!

- شلون يا معود؟

وأخذ حامد يروي كيف وُجدت نجمة مقتولة، ولم يعرف، حتى الآن، مِنْ قتلها، إذ بعد أن سافر طلعت باقة بمهمة، وما أن مر على سفره يوم وليلة، حتى اكتشفت نجمة غارقة بدمائها، وقد أُرسل وراء طلعت، وأُعيد قبل أن يصل إلى المكان الذي كان يقصده، وبعد تحقيقات وسؤال الكثيرين لم

يعرف القاتل، كما أن طلعت لم يوجه الاتهام لأحد. ورغم أن القضية انتهت إلا أن الأسئلة لم تنته.

وحين بدا الاستغراب على وجه بدري، أضاف حامد مازحاً، وبسخرية:

ـ طبيعي آني ما لي علاقة، والمسألة بين الكبار...

لم يسم أحداً، لكن إشارة اليد إلى الكتفين أوضحت أنّه يقصد عسكريين، وأضاف وكأنه يتذكر:

- صارت بينا، بعدما سافرت، مرحبا، لكن الله ستر...

وبعد قليل:

- قلت لروحي: بس يرجع بدري مِنْ الإجازة نصيدها سوا...

وتغيرت اللهجة.

- تعرف.. لو چنت هنا يجوز واحدنا شجع اللاخ، دفعه، ويجوز تورطنا!

- ومنو تعتقد ورا قتلها؟

- المسألة أعقد مِنْ ذنب الضب!

وقف حامد. نظر عبر النافذة. خيم صمت ثقيل. بعد فترة ليست قصيرة جاء صوته:

- كُلّ شي جائز، وماكو أحد بريء!

فِي ليلة أخرى، وحين تطرق الحديث إلى نجمة مِنْ جديد، أكد حامد أنّه لا يستبعد، حتى طلعت نفسه، لأن الرسول الذي بُعث وراءه، وكان يقدر أن يجده فِي جمجمال، وجده فِي كورة الهجيرة، وحين أبلغ بالأمر لم يبدُ عليه الاستغراب، وكأنه لم يفاجأ. أما مظاهر التأثر التي بدت عليه لاحقاً، فكانت عابرة ومصطنعة.

أما الضباط الآخرون، الذين تعودوا السهر عند طلعت فلا يمكن اعتبارهم أبرياء، إذ لم يكن أيّ منهم يخفي اشتهاءه لتلك المرأة، وبالغ بعضهم فِي مغازلتها، لكن بصوت عالٍ وأمام الآخرين، خاصة أمام طلعت بك، لكي يثبت له أن هذا أقصى ما يريده، ويكتفي به، امتثالاً للعرف السائد فِي علاقات مِنْ هذا النوع، إذ ما دام كُلّ شيء علنياً، فلا يُخشى أن يتم تجاوزه ما بقيت تلك المرأة تعيش تحت سقف «الصاحب» الذي اختارها.

وطلعت بك الذي كان يبالغ بالكرم فيما يقدمه لضيوفه، ويظهر مقداراً غير قليل مِنْ التسامح فيما يتعلق بالغزل الصريح، المباشر والعلني، مِنْ ضيوفه تجاه «البنية»، كما اصطلح على تسميتها، كان يشعر بالغيرة إذا تم تجاوز

الأمر حداَ معيناَ، كما أن عينيه لا تتوقفان عن المراقبة والتدقيق، وان تظاهر انه فِي مكان آخر، أو مستغرقاً فِي حديث مع آخرين.

ولأن الخطأ حصل منذ وقت مبكر، حين انتزع طلعت بك نجمة مِنْ ثامر المجول، وقد فعل ذلك كنوع مِنْ الرهان الأقرب إلى التحدي، وكان يريد أن يثبت للآخرين أن التحدي لا يزال قائما «لأن البنية، ومن أول ليلة شافتني، قالت: «عفت كُلّ الرجال، وأنت الوحيد بقلبي، ولو خيروني الدنيا كلها، برجالها، بذهبها، بكل ما بيها، اختارك أنت» وهذا ما جعل طلعت بك واثقاً، وبعض الأحيان مغروراً إلى درجة التحدي!

واتفق بدري وحامد، أثناء المناقشة، أن هذا النوع مِنْ النساء، رغم مظاهر الفرح والطرب، خاصة أمام الآخرين؛ ورغم الجمال وفتون الزينة والمبالغة فِي إظهار السعادة، فإن حزناً قائماً حاداً، أقرب إلى المرض، يعاودهن بين فترة وأخرى. فإذا جاء هذا الحزن، إذا استبد وسيطر، يمكن أن يفعلن أيّ شيء، خاصة تجاه الرجل الذي يعتبر رب النعمة، وأنه حقق لهن كُلّ شيء!

وتذكر الاثنان وقائع كثيرة، أغلبها ذات صلة بنجمة أو بنساء يشابهنها.

وإذا لم يخف أيّ منهما اشتهاءها، وتمنى لو انه وصل إليها، إلا أن الاثنين شعرا أن شيئاً فِي داخل كُلّ منهما انكسر، وكانا أقرب إلى الحزن لغيابها، خاصة وأنه لم يُعرف قاتلها، ولم يُعرف لماذا قتلت!

قال بدري، وقد اختلطت أشياء كثيرة فِي ذاكرته:

- بنية، وفقيرة، وحلوة، وتموت أمها يتقرم أبوها، وتكون أكبر الأخوة، وماكو بالبيت فد شي، فشلون تقدر تنزع العظمة مِنْ حلق كلب!

تطلع إليه حامد باندهاش وسأل:

- يبين تعرفها، مسلسلها أباً عن جد؟

- وداعتك ما أعرف عنها أيّ شي، لكن مثلها مثايل. وإذا ما كانت هالشكل تماماً، لا بد فد شي قريب!

قال حامد، وبطريقة استعراضية، وقد وقف ورفع يديه:

- دنيا.. كُلّ شي يصير بيها!

وبعد أن مرت فترة مِنْ الصمت، وقد سرح كُلّ واحد فِي عالم، سأل بدري:

-... وطبيعي اندفنت هنا؟

ضحك حامد بسخرية، وعلق:

- وين تريد تندفن، مولانا؟

وتغير صوته:

ـ إذا الملقن ما عرف شنو اسم أمها، وأبوها ضايع وماكو له أثر، فوين تريدنا ندفنها؟ المن تريدنا نسأل...؟

وبعد قليل وبصوت حزين:

ـ الفقرا والقحاب...

توقف قليلاً، وقد تغيرت سحنته، وتابع كأنه يحدث نفسه:

ـ أيّ نعم، الفقرا والقحاب، وحتى عسكر هالأيام، يموتون سنطة، لا أحد يحس بيهم، ولا أحد يعرف قبورهم!

وإذا كان الكبار والعظماء يشغلون الناس بموتهم، ثم بعد أن يموتوا، فإن الفقراء يشغلون بعض الناس بدفنهم، ثم يهبطون بسرعة إلى النسيان، ولا يعود أحد إلى تذكرهم، إلا إذا حدث شيء يذكر بهم.

هذه القاعدة التي تحكم حياة الناس فِي أغلب الأماكن، كان لها أن تسري على نجمة أيضاً، لكن تلك المدينة المتوسطة بين مدن عديدة، وظلت محطة للقوافل، وبعض الأحيان الطريق بين بغداد واسطنبول، كان يروق لها أن تستقبل القصص وتنقلها، كما تستقبل المسافرين ثم تودعهم.

فنجمة، مِنْ يوم وصولها إلى كركوك، ثم بعد ذلك، ولشهور متعاقبة، أصبحت حديث المقاهي، لما ذُكر عن جمالها أولاً، ثم عن الغموض الذي لف حياتها، إذ لا يُعرف إن كانت زوجة لطلعت باقة أو مجرد خليلة، وما إذا كانت له وحده أم يشاركه فيها آخرون، خاصة وأن السهرات التي تعقد فِي بيته، وكانت تمتد وتطول، وما يتخللها مِنْ رقص وغناء، جعلت الكثيرين يتناقلون القصص أو يتخيلونها. كانت تلك القصص، ما إن تغادر المقاهي إلى البيوت، حتى يضاف إليها الكثير، وتتغير وتتبدل، بحيث لم يعد يعرف ما هو حقيقي وما هو مِنْ نسج الخيال؛ وما وقع فعلاً، وما يحتمل أن يكون مجرد تقولات أو أكاذيب. وقد تعزز كُلّ ذلك مِنْ خلال المكان النائي الذي يقع فيه المنزل، ولأن أية علاقة لم تنشأ بين القادمة الجديدة وبين أيّ مِنْ نساء كركوك. لم تحاول هي ولم يحاولن، رغم الفضول الذي كان يميز علاقة الطرفين، والرغبة فِي أن يعرف كُلّ طرف أخبار الطرف الآخر.

هكذا كانت الحال طوال الشهور التي قضتها نجمة فِي كركوك. الآن وبعد أن ماتت، أو بالأحرى بعد أن قتلت، لم يعد للمدينة مِنْ حديث غيرها. وهكذا تجددت القصص والحكايات مرة أخرى، وتبارى الناس فِي إيراد التفاصيل، وتحري المعلومات والأخبار، ومن يحتمل أن يكون وراء قتلها، ولماذا قتلت، ومقارنة ما يعرفه، أو ما سمعه، أيّ واحد فِي وقت سابق، مع ما يسمع الآن، مع ما يرويه الآخرون. وهكذا انقسم أهل المدينة إلى فريقين، الأول

يتعاطف مع نجمة ويدافع عنها، ويعتبرها ضحية، خاصة وأن هذا الفريق يراها مجرد زوجة طلعت بك، ولا تختلف عن أية امرأة أخرى، ويميل إلى تكذيب ما يُروى عن السهرات التي ترقص فيها، أو إمكانية أن تكون لها علاقة بآخرين. أما لماذا قتلت، ومن قتلها، فيميل هذا الفريق إلى اعتبار أن جمالها، ثم فارق السن بينها وبين طلعت، هما السبب أو الدافع للقتل، إذ لا يستبعد أن تكون الغيرة هي التي دفعت الزوج لارتكاب الجريمة، للشكوك والظنون، خاصة وأن غيابه عن كركوك كان يمتد لأسابيع فِي بعض السفرات!

أما الفريق الآخر، وكان أكبر عدداً، فقد اعتبر، ومنذ البداية، أن وجود امرأة مِنْ هذا النوع كافي لتلطيخ سمعة المدينة، وقد يجلب عليها الشؤم، خاصة وأن ذلك توافق مع وصول أعداد كبيرة مِنْ الضباط والجنود، وما يحتمل أن يتولد مِنْ أخطار وحروب ومجاعات، مما دفع أصحاب الخانات إلى المطالبة ببدل أعلى لقاء إقامة المسافرين، وجاراهم فِي ذلك التجار والذين وافقوا على تأجير بيوتهم إلى الضباط الذين آثروا السكني فِي المدينة بدل البقاء فِي القلعة أو فِي الثكنات.

هذا الفريق لم يكتف بترديد القصص التي تروي عن الليالي الماجنة التي كانت تجري فِي بيت طلعت باقة، بل أضاف إليها الكثير، وأسرف فِي إيراد التفاصيل، كما أكد أن الأمر لا يقتصر على هذا الضابط وحده، وتلك المرأة بمفردها، وإنما هناك أشياء كثيرة جرت، وأخرى ستجري، وما مقتل نجمة إلا البداية، لأن القتل جرى بين متنافسين، وبمجرد أن غادر «أبو قرون» المدينة. أما ما سوف تواجهه كركوك فِي المستقبل فلا يعرف سوى الله كم سيكون خطيراً وثقيلاً، ما لم يتدخل باشا بغداد، خاصة وأن الآغا، وبعد أيام مِنْ وقوع الجريمة، وحين سأله مخاتير الحي الشرقي، وقد تعمدوا أن يكون السؤال فِي سياق الحديث عن بدل إيجار البساتين الثلاثة القريبة مِنْ الثكنة الشرقية، والتي تجاور المقبرة تماماً، إذ ردَّ حين سألوه عما إذا كان طلعت بك يريد بناء قبر للمتوفاة:

- هذي سالفةماينحچي بيها يا أولاد الحلال!

ولما بدا لهم الجواب غامضاً، ويحتمل أكثر مِنْ تفسير، وقد ظهر ذلك على وجوههم، فقد تابع بحدة:

- تحمد ربها، هالخايبة، لأنها لقت مكان تندفن بيه، وبعدين ماكو أحد راح يسأل عنها أو راح يزورها، فليش المصاريف الزايدة؟

وإذا كانت عادة الناس فِي كركوك أن يتبادلوا مثل هذه القصص فيما بينهم، فقد تعودوا أن يسألوا المسافرين أيضاً عن الأشياء التي سمعوا بها أو وقعت لهم، ويكونِ ذلك سبباً كي يرووا لهم ما لديهم مِنْ قصص أو ما وقع

فِي مدينتهم مِنْ أحداث، وهكذا حمل المسافرون قصة نجمة. رووها فِي الطريق، ثم أعادوا روايتها فِي بغداد.

إن ذلك مجرد حدس أو تقدير، فقبل أن ينقضي شهران على مقتل نجمة وصلت روجينا إلى كركوك، ووصلت أوامر السراي بنقل عدد مِنْ أقرب الضباط للآغا إلى بغداد، وكان ضمن هؤلاء طلعت باقة.

قيل إن روجينا جاءت بناء لدعوة مِنْ الآغا، وما يؤكد مثل هذا الظن الحفاوة التي أحيطت بها ومن معها مِنْ قبل الآغا وضباطه. لكن لم يعرف ما إذا جاءت لتبقى أم إنها مجرد زيارة، فكلا الاحتمالين تؤكده وقائع عديدة. إذ بالإضافة إلى الأحمال التي رافقتها، وكانت كثيرة، فقد هيئ بيت طلعت باقة على عجل مِنْ أجل إقامتها، خاصة وأن طلعت لم يشأ العودة إلى ذلك البيت بعد مقتل نجمة، وقد أمر بعض عناصره بنقل أمتعتهم الشخصية إلى القلعة، وترك كُلّ شيء على حاله. الآن، والبيت يُهيئ وقد نقلت إليه أشياء إضافية، فقد تأكد الذين راقبوا أو شاركوا بإعداده، أن الذين جاءوا سيقيمون لفترة طويلة!

نقل بعض الخدم أن روجينا أشرفت شخصياً على نقل ممتلكات نجمة إلى غرفة خاصة، أقفلتها بنفسها، ووضعت المفتاح فِي حقيبة كانت تلازمها باستمرار. ولقد فُسر الأمر على أكثر مِنْ وجه. قيل: حزناً على الراحلة وكُلّ ما يذكر بها مِنْ ثياب وأمتعة. وقيل بسبب التطير الذي يحسه الأحياء تجاه أشياء الموتى، خاصة الذين يمتون لهم بصلة القرابة أو المحبة، إذ يفضلون عدم رؤيتها أو استعمالها، وهذا ما يفسر الدموع الغزيرة التي ذرفتها روجينا أثناء الزيارة الأولى للبيت الذي كانت تسكن فيه نجمة!

كان لبعض التفسيرات حظ مِنْ القبول خلال الأيام الأولى، لكن رئيس القافلة الذي امتنع عن تحديد صفة روجينا أول الأمر حين سئل عنها، ثم أجاب بطريقة أثارت الانتباه ثم الاهتمام، وان ذلك ترافق مع ابتسامات وغمزات، لم يحتمل السكوت أكثر مما فعل، إذ أسر لصاحب الخان قبل أن يغادر إلى أربيل:

- هاي، مولانا، ببغداد تقرق...

وحين فتح صاحب الخان عينيه دهشة، ولم يستطع أن يفسر معنى هذه العبارة، أضاف رئيس القافلة:

- كلمتها ما تصير ثنتين، واللي تريده يصير!

- شلون آغاتي؟

ـ ما أدري، لكن اللي يقوله أهل بغداد: روجينا تحل مِنْ حبل المشنقة!

- أويلاخ، إذا ببغداد هالشكل، شلون هنانا - بولاية الفقرا؟

- آني ما علي، بس هالشكل يحچون، وهسه أريد امشي، توصيني فرد شي، رايد فرد شي؟

ـ ما راح أخليك تمشي، قبل ما تقول لي هالبلية شنو ومنو!

- الله يخليك، يا معود، آني على هذا الطريق رايح جاي، ومنه رزقتي، فلا تقطع خبزتي، وتبليني!

ـ أمانة، والكلام يظل بينا، بس فهمني، شنو القصة؟

- بالقلم العريض، مولانا، هذي، قبل سنين، چانت أكبر قحبة؛ وتعرف القحبة لما تكبر، لما تبطل، شتصير...

ـ هالشكل؟

وبعد قليل وصاحب الخان يكلم نفسه:

- قلت لروحي! والوسواس الخناس قال لي: هذي البلية تغزل بالليل وتفك غزلها بالنهار، فالله يستر!

- وأنت لا سمعت مني، ولا تعرفني، مو هالشكل؟

ـ على بختك، أنت هسه تيسر، وأني لا شفت ولا سمعت!

ولم تتأخر معلومات رئيس القافلة فِي الوصول إلى المقاهي خلال النهار، ثم انتقلت إلى البيوت، لكن بانتقالها ووصولها تعرجت وتداخلت مع أسماء أخرى، مع صفات جديدة، وان تركزت العيون على كُلّ خطوة مِنْ خطوات روجينا، وعلى كُلّ كلمة تقولها، وهكذا تغيرت النظرة والتفسيرات. لذلك فإن الإشاعة التي ترددت بقهوة الخان أن روجينا هي وريثة نجمة، وأنها جاءت لهذا السبب، هذه الإشاعة لاقت قبولاً متزايداً، خاصة لما نقل أحد خدم البيت «أن الخاتون قفلت على روحها باب قبة الميتة، وظلت تدور مِنْ الضحى إلى أذان المغرب». ورغم أن الكثيرين تحسبوا وتشاءموا مِنْ هذه الزيارة، أو مِنْ اقامة روجينا، وتوقعوا أن تتجاوز كثيراً ما فعلته نجمة، خاصة وأن البنات الثلاث اللواتي كن معها، وقالت إنهن بناتها، كن مِنْ الصبا والجمال، وحتى الفتنة، بحيث لم تر كركوك مثيلات لهن، لكن الأوامر التي وصلت مِنْ بغداد، بنقل عدد مِنْ الضباط، واستدعاء آخرين، غيرت الكثير، إذ ظلت روجينا مرابطة فِي ذلك البيت، وانشغل الضباط باستعداداتهم للحركة على الأقل لمعرفة ما يريده باشا بغداد، وقد اتفقوا مع الآغا على تنفيذ الجزء الأول مِنْ الأوامر: الذهاب إلى بغداد، امتثالاً للفرمان، وبعد معرفة النوايا، والتأكد مِنْ كُلّ شيء، وأيضاً الاتصال ببعض الزملاء، لا بد مِنْ العودة إلى كركوك مِنْ أجل التسليم، ولجلب الأمتعة، ولأسباب أخرى أيضاً!

وهكذا انشغلت كركوك بأمور عديدة دفعة واحدة!

بدري الذي وصل إلى كركوك وهو يفيض بشذى زكية، وكان مصمماً على ترتيب أموره بسرعة، ليبدأ حياة جديدة، ما لبث أن واجه أوضاعاً وأسئلة لم تخطر له على بال.

فنجمة التي كانت حلماً، وعنت له فِي وقت سابق شيئاً لذيذاً، دافئاً وشهياً، وكاد مِنْ أجلها أن يرتكب حماقات كبيرة، لا يعرف كيف قدر على التخلص مِنْ تأثيرها، مع أن طيفها، أو ما يماثله، ظل يلح عليه ويعاوده فِي بعض الليالي.

لم يعد ينظر إليها الآن مثلما كان يفعل مِنْ قبل، فقد أصبحت مجرد امرأة مشتهاة، يود لو يكون له فيها نصيب، خاصة بعد أن استقرت فِي أحضان ذلك الرجل، طلعت باقة، الذي يشبه بحركته، حين يحاول أن يثبت نفسه فوق الحصان، قربة ماء نصف ممتلئة، أو عجيناً مختمراً.

الآن، فِي الليلة الأولى لوصوله، تنفجر نجمة فِي وجهه مِنْ جديد، لكن هذه المرة ليس على شكل جسد يتدفق بالخصوبة والجموح، كُلّ عضو فيه يتكلم وينادي، وإنما كسؤال: لماذا تنتهي المسكينة بهذا الشكل؟

ليس المهم مِنْ قتلها، وإنما لماذا تقتل؟ فالمبررات التي يمكن أن تساق لتبرير هذا القتل، سواء أكان بدافع الغيرة، أو بدافع الشهوة، لا تعني شيئاً بعد أن غادرت.

وتذكر الليلة الأخيرة قبل سفره إلى بغداد. كانت نجمة تلبد مثل قطة.

كانت حزينة، رغم الابتسامات التي تحاول أن ترسمها على وجهها. حتى الجسد، وهي ترقص، كان، بحركته الجامحة، يريد لطم العالم، الانتقام منه. أو كأنها ترد بذلك على عيون الرجال، كُلّ الرجال، التي تلاحقها مثل أسياخ النار، كطوفان، تريد أن تنغرز فِي كُلّ خلية مِنْ جسدها.

غابت نجمة. أصبحت الآن تحت التراب. ربما فاض دمها مِنْ الجروح فغطى الجسد كله، حول لونه مِنْ البياض الزاهي إلى اللون البنفسجي القاتم، أو ربما سال الدم خيطاً رفيعاً مِنْ فوهة الجرح، حتى إذ تسرب كله إلى الخارج، أصبح جسد نجمة أصفر شمعياً، أصبح هشاً منفراً، وأخذت تتحرك فيه الديدان.

ورغم الموت والغياب، وبدلاً مِنْ طلب الغفران لهذا الموت الظالم والقاسي، فالآغا يعتبر أن القبر شيء زائد، غير ضروري، لأن لا أحد، فِي أيّ

يوم قادم، سيأتي لزيارة هذا القبر، ليذرف دمعة، أو حتى للسؤال عمن يرقد فيه.

قال بدري لنفسه، وكان شديد الانقباض: «ماذا لو كانت تمتُ بقرابة لواحد مِنْ هؤلاء الضباط، هل يمكن أن يُلعب بها كدمية ثم أن تقتل بهذا الشكل؟»، وحاول أن يستعيد صوراً أخرى، صورة زكية. قال، وخرج صوته حاداً:

ـ المرأة حين تكون جميلة ووحيدة لا يمكن أن تنجو مِنْ غابة الرجال، غابة الذئاب!

وشعر بحقد على طلعت باقة، على الآغا، على مجموعة الضباط.

وشعر أيضاً بحقد على نفسه، قال كأنه يخاطب شخصاً أمامه:

- مثلما يمكن أن يكون للديك بيضة فِي العمر، كما يقولون، أتمنى لو أن الرجل يحمل مرة كُلّ عشر سنين ليقدر عذاب المرأة، ليعرف شقاءها وكم تعاني فِي غابة الذئاب!

ومع أن مقتل نجمة لم يغب عن لقاءات الضباط فِي القلعة، إلا أن الحديث عنها أخذ يجري همساً، وسرعان ما كان يتشعب ثم يضيع.

أما حين انتشرت الأخبار حول نقل عدد مِنْ كبار الضباط، وكان مِنْ ضمنهم طلعت باقة، فقد تراءت لبدري وجوه هؤلاء المنقولين، وترددت فِي أذنيه أصواتهم وضحكاتهم. كان أكثرهم مِنْ الذين التقاهم فِي تلك السهرة. شعر أن القدر يعرف كيف ينتقم، ولا بد أن يفعل، إذ مِنْ المؤكد أن واحداً مِنْ هؤلاء قتل نجمة، أو على الأقل يعرف مِنْ قتلها، لكن أياً منهم لا يريد أن يعترف، لأن العلاقة بين رفاق السلاح، رغم التنافس، والذي يتجاوز الحسد إلى الضغينة، أقوى مِنْ أن تحمل أحدهم على قول الحقيقة، على البوح باسم الذي قتل تلك المرأة. قال بدري لنفسه بحسرة:

«لو كانت العمة زاهدة الآن هنا لما استراحت يوماً واحداً قبل أن تصل إلى نتيجة. يمكن أن تستعين بالأولياء والسحرة والعرافين، يمكن أن تستعين بأي إنسان، مِنْ أجل كشف القاتل، لأن العرافين، كما تؤكد العمة، يعرفون مِنْ باض البيضة ومن زرع القمحة» وتذكر قصصاً كثيرة عن سرقات كُشفت، وعن جرائم عُرف مِنْ كان وراءها. صحيح أن تلك القصص تبدو له الآن غائمة، متداخلة لأن أكثرها جرى، أو سمع به، حين كان صغيراً، وكان الناس يتحدثون عن ذلك وكأن الأحداث وقعت لهم أو كانوا شهوداً عليها!

لما بدأ الضباط يغادرون إلى بغداد، تعمدوا أن يغادروا فرادى، وعلى دفعات، كما سلكوا طرقاً متعددة، ولا بد أن يكون قد تم الاتفاق على ذلك خلال الاجتماعات اِلتي تزايدت كثيراً فِي الفترة الأخيرة. كانت الاجتماعات

على شكل ولائم أو حفلات وداع. كما أن الضباط المنقولين، وهم يودعون جنودهم، كانوا يتظاهرون بالطيبة والبساطة، ربما للتكفير عن قسوتهم فِي السابق، أو فِي محاولة لكسب ود الجنود، علهم يكونون سنداً لهم فِي وقت لاحق، أو إذا دعت الضرورة!

قال مزاحم سعيد، ضابط القلم فِي القلعة، وكان يتحدث إلى حامد، وكان بدري أثناء الزيارة:

ـ الشغل، آغاتي، مو ذاك اللي يتعب الإيدين، الشغل اللي يتعب القلب...

وحين بدت كلماته غامضة، أضاف، وهو يبتسم:

- تعب الأيدين ساعة وينقضي، لكن شنو قولك بالتعب اللي ما يخلص، ويزيد كُلّ يوم؟

وحامد الذي بدا أنّه يفهم عن أيّ شيء يتحدث مزاحم، سأله بمرح:

ـ دفاترك صارت مثل دفاتر اليهود ما تنفتح إلا وقت الإفلاس، فحرام إذا انفتحت نوبة بالسنة ونقشت منها شهادة حسن سلوك؟

ـ الشهادة المن يستاهلها مثل البوسة بالعين، يا أبو جميل، لكن شنو قولك بشهادة فقر الحال اللي تريدونها، والتي تشبه شهادة أبو الحصيني؟

- يا معود... كلها وصلة كاغد، وبعدين.. منو اللي راح يقرا؟ منو اللي يقول صدق لو چذب؟

ـ نحن، يا أبو جميل، ضباط قلم، نفتهم على بعضنا بلسان الطير، فإذا انت ما درت بال، وقلت كاغد وماكو أحد يقرا، فأكو كُلّ آدمي وابن حلال مِنْ جماعتنا قاعد لنا ركبة ونص، وإذا مو هنا... هناك، مو اليوم اللي عقبه، وتعال أخلص!

ردَّ حامد بمزاح:

- يا مزاحم أفندي، شغلة ضباط القلم، وبكل ديرة، مثل شغلة اللي يدفن الموتى، لا يسأل منو ولا يسأل ليش. المهم: ختم الآغا، هو الأساس، فلا تعقدها زايد...

استراح قليلاً، وأضاف بنبرة لا مبالية:

- وبعدين.. أنت ما عليك، انقش، وعلينا الختم، وأبوك الله يرحمه!

- شلون آني ما علي... آغاتي؟ علي ونص...

ولما رأى حامد يهز رأسه بسخرية، أضاف بحدة:

- ناقل الكفر موبس كافر، آغاتي، كافر ونص!

قال حامد بطريقة تعليمية:

ـ نسيت شنو اللي قاله الآغا؟ قال: كُلّ ضابط اشتغل وياي، چان بامرتي، تسقط ذنوبه مثل ما الحج يُسقط مِنْ الذنوب ما تقدم وما تأخر!

رفع مزاحم سعيد يديه يأساً، وقال بتمتمة:

- بكيفكم، وآني إذا انسألت فد يوم أعرف شلون أدافع عن روحي، شلون أطلع الأول والتالي.

- عفاريم، مزاحم أفندي، هذا الحچي اللي ينصرف، هذا هو الكلام الزين!

وهكذا صرفت للضباط الشهادات التي أوصى بها الآغا، وكانت كلها إشادة وتقدير لحامليها، وتزكية لأعمال أكبر وأهم!

قال مزاحم لبدري، وقد التقاه فِي ندوة الضباط، بعد أن صرف آخر وثيقة:

- ترى آني ما علي، وختم الآغا هو الأساس.

وحين ابتسم بدري ولم يعلق، تابع مزاحم بسخرية:

- فرمانات چلاب... وبعدين ما يندرى: تنصرف أو تتنقع ويشربون مايتها!

ولأن روجينا وصلت فِي نفس الفترة، ومعظم الضباط يعرفها، ومن لم يعرفها سمع بها، فقد كانت مناسبة لإقامة حفلات عديدة. وقد تداخلت حفلات الاستقبال مع تلك التي أقيمت لوداع الضباط المغادرين، بحيث لم يعد يُعرف أيها ترحيباً بالذين وصلوا، وأيها لوداع الذين يغادرون! قال الآغا فِي الحفلة التي أقيمت على شرف طلعت باقة:

ـ نحن فِي كركوك ضيوف؛ الفرق أن واحد وصل قبل اللاخ، وواحد يسافر قبل اللاخ. لكن باچر أو اللي عقبه، بس الله يجمعنا ببغداد مِنْ جديد، راح نسوي حفلات ما صار مثلها مِنْ قبل، ولهذا السبب اعتبروا أرواحكم أصحاب بيت.. وتصرفوا.

أما حين طالت إقامة روجينا، وتضاربت الأسباب حول زيارتها، ثم ما نقله الخدم والعناصر والحراس، وما قيل عن زيارات متعددة قام بها الآغا، وقد قام ببعضها منفرداً، وقام بأخرى مع بعض ضباطه لروجينا فِي بيت طلعت باقة، فقد تحسب الكثيرون فِي القلعة وفِي المدينة.

قال رضوان قره غولي، صاحب الخان الكبير:

- چنا مِنْ قبل نقول: مِنْ الجندرمة بالك.. بالك؛ هسه كملت: مِنْ الجندرمة والمؤلفة قلوبهم وما يندرى بعد منو! كان يتحدث إلى بعض المسافرين، لكنه فِي الحقيقة كان يحدث نفسه.

بعد أن سمع عن زيارات الآغا لروجينا. وحين أبدى الذين يسمعون استغرابهم، ولم يفهموا شيئاً محدداً، أضاف، وكان يبتسم:

- چنا، مِنْ قبل، خايفين مِنْ بدو ذاك الصوب، هسه صرنا نخاف مِنْ بدو الصوبين!

وفهم الذين يسمعون، ولم يفهموا، لكن أحسوا أن أياماً صعبة تنتظرهم!

ومع أن الآغا، منذ أن وصل إلى كركوك، بدا بنظر الذين يعرفونه شخصاً مختلفاً عما كانه فِي بغداد، إذ أصبح يتبادل الحديث، وان يكن بمقدار، مع العناصر والحراس، ولا يتردد فِي زيارة ضباطه فِي الثكنات أو فِي القلعة، ويشارك فِي بعض السهرات، فقد طرأ عليه تحول إضافي منذ أن وصلت أوامر نقل الضباط. لم يُستطع فهم هذا التحول، أو بالأحرى فُسر على وجوه عديدة. قيل بتأثير روجينا، وما خلقته فِي الجو مِنْ الليونة والمرح. وقيل بسبب نقل الضباط. وأكد بعض المقربين أن السبب الحقيقي وفاة المرأة التي أرضعته وربته، وقد بلغه ذلك مِنْ خلال رسالة عاجلة لقريب، حملها له التتار مِنْ بغداد!

وإذا كان وصول روجينا، ومعها الفتيات الثلاث، قد ألهب خيال الضباط والأفراد فِي القلعة والثكنات، وتبادل هؤلاء القصص فيما بينهم، وأضافوا إليها مِنْ عندهم الشيء الكثير، فإن شيوخ البدو وأغوات الأكراد أخذوا يكثرون مِنْ زياراتهم إلى الآغا، وحين لا يجدونه يزورون كبار ضباط القلعة، ويوجهون الدعوات، كانت الدعوات تتسم بإلحاح، حول ضرورة أن يقوم الآغا بالرد على زياراتهم، ويضيفون، ببعض التردد والخجل، إنهم ينتظرون زيارته ومعه ضيوفه، كُلّ ضيوفه، وهم يعنون روجينا وبناتها، خاصة وأن الجو، فِي هذه الفترة، سواء فِي البادية أو فِي الجبال القريبة، أحسن مِنْ أيّ وقت سابق!

كان الآغا، إذا التقى هؤلاء الشيوخ والأغوات، يؤكد بعبارات قاطعة أنّه سيلبي بسرور هذه الدعوات، وكان يبتسم، وهو يُضيف:

ـ إذا وصلنا لديرتكم فحضروا روسكم يا قرعان، لأني راح أجي ووياي كُلّ ربعي...

وبعد أن يهدأ مِنْ موجة الضحك التي سيطرت عليه يتابع:

- طبيعي ما راح أجي تك نفر، مثل أيّ عزابي، لأن برقبتي الله وعباد الله!

أما الضباط الذين ينوبون عنه فِي استقبال الشيوخ والأغوات فالعادة أن يكونوا أكثر صراحة:

- وكلوا الله يا جماعة الخير، لأن أفندينا نوى وقال، وما يمضي أسبوع الثاني إلا وتشوفونا طابين، وبيكم حيل وتحملوا!

يقولون ذلك، تاركين لخيال السامعين أن يرحل إلى أمكنة بعيدة، وحين يلاحظ الضباط العيون المدهوشة المتسائلة يضيفون:

- والضيوف معنا، قبلنا، رِجلهم على رجلنا، لأن أفندينا ما يقبل أن يترك أحد، أن ينسى أحدا! وظلت روجينا تلهب خيال الكثيرين، ويثير وجودها، مع الفتيات، الترقب والتساؤل.

الآغا الذي انشغل بالضباط قبل سفرهم، وبروجينا فِي بعض الليالي، ما لبث أن غاب، أو بالأحرى لم يعد يُشاهَد فِي القلعة أو الثكنات. قيل إنّه سافر إلى بغداد؛ وقيل إنّه مريض؛ وهمس بعض الذين يعرفون أكثر مِنْ غيرهم إنّه مرابط فِي بيت طلعت باقة لا يغادره، والدليل: كميات الأكل التي تُحمل إلى هناك، علاوة على زيادة الحراسة حول البيت. وأضاف هؤلاء بصوت لا يكاد يُسمع أن الآغا يقضي كُلّ وقته مع الفتيات، يقضيه فِي الصعود والنزول! وإذا أراد أن يستريح يكتفي بسماع الغناء أو مشاهدة الرقص، وحين يمل مِنْ كُلّ ذلك: يلعب الورق. ويحرصون على أن تكون الكلمات الأخيرة عالية الجرس وتُسمع مِنْ الجميع!

وإذا كان وجود اثنين دليلاً أكيداً على وجود الآغا، وهما حامد وغايب، لأن الأول مرافقه، والذي يعرف مكانه، ويمكن أن يتصل به عند الضرورة، خاصة إذا جاء بريد بغداد، أو إذا وصل أحد الشيوخ الكبار أو واحد مِنْ الزوار المهمين، فإن غياب حامد، أو عدم رؤيته فِي ديوان الآغا، يعتبر دليلاً قاطعاً على السفر.

أما الشخص الثاني فهو غايب، قريب الآغا مِنْ ناحية الأم، والمسؤول عن أمنه الشخصي، ويعتبر أقوى ضباط القلعة وأكثرهم نفوذاً، بحكم القرابة، وأيضاً للمهمة المنوطة به.

الآن، ورغم غياب الآغا، أو على الأقل عدم ظهوره، فإن الاثنين موجودان. شوهد حامد فِي ديوان الآغا، وفِي قسم اللوازم، وشوهد مرات عديدة فِي «القلم». أما مباراة الفروسية التي جرت العادة أن تقام عصر كُلّ يوم جمعة، خاصة فِي فصلي الربيع والخريف، وكان مِنْ عادة الأغا أن يحضر بعض هذه المباريات، أو أن ينيب عنه أحد كبار القادة، فقد أقيمت عدة مباريات لم يحضرها، وحضر اثنتين منها غايب، ولم يُعرف ما إذا كان مكلفاً بالحضور أو كان مجرد مشاهد مِنْ المشاهدين! ولم يعرف أيضاً ما إذا كان الآغا فِي كركوك أم غادرها إلى مكان آخر؟

بدري الذي تعود أن لا يُسأل، لئلا يُسأل، لاحظ وجود حامد، بل رآه عدة مرات، وكان يسمع الهمس والأسئلة حول سفر الآغا أو ربما مرضه، وما قيل عن «غرقه» فِي بيت طلعت باقة. كما لاحظ بدري أن السمرة التي ميزت بشرة حامد قد تراجعت أو زالت، وكان يتعمد إثبات وجوده أكثر مما يفعل بالعادة.

ليس ذلك فقط، إذ بعد سفر الضباط إلى بغداد، تزايدت زيارات حامد البدري، وجاء معه أكثر مِنْ مرة غايب نور الدين.

ورغم الدماثة التي يتصف بها غايب، والكرم واستعداده لتلبية ما يطلب منه، فقد اتضح لبدري، بعد أكثر مِنْ زيارة، أن غرض غايب معرفة ما إذا كان أثناء إجازته فِي بغداد زار السراي أو التقى بالباشا.

لم يسأل عن ذلك مباشرة، لكن مِنْ خلال أحاديث جانبية، مِنْ بعض الملاحظات، استطاع بدري أن يقدر.

ففي الزيارة الثالثة لغايب، قال عرضاً، وبدا على وجهه التأثر وما يشبه الحزن، أن أحد كبار موظفي الولاية، واثنين مِنْ الذين مروا بطريقهم إلى السلمانية والموصل، أكدوا أن الباشا مريض، وقد لاحظوا ذلك لما رأوه يصلي الجمعة، إذ بدا مصفر الوجه، وكانت يداه ترتجفان، وكذلك صوته!

لم يكن غايب يسأل، أو يريد إجابة على ما قاله. كان هدفه الأساسي أن يقيس ردَّ فعل بدري، أن يستنتج، مِنْ كلمة، أو حركة، ما إذا رأى الباشا، ما إذا سمع عنه شيئاً مِنْ أحد المقربين.

وذكر غايب فِي لقاء ثانٍ أن قائمة أخرى لنقل عدد مِنْ الضباط على وشك الصدور، ومن المتوقع وصولها بين أسبوع وآخر، ومن المرجح أن تشمل القائمة الضباط البغداديين، وأضاف، ضاحكاً، إنّه يتوقع أن يكون اسم بدري ضمن الأسماء المرشحة للنقل!

مِنْ الإشارات المتزايدة فهم بدري أن غايب يريد معرفة ما إذا كانت لا تزال له صلة بالسراي، ولئلا تبقى اللعبة بينهما مثل لعبة القط والفأر، أكد بدري أن إجازته اقتصرت على شيء واحد: الخطبة، وأنه الآن يستعد للزواج، وأشار بطريقة واضحة أن همه الآن يتلخص بأمر واحد: العثور على سكن مناسب فِي كركوك، تمهيداً لاستدعاء خطيبته والزواج.

ومن أجل تبرئة نفسه مِنْ أية شبهة حول وجود علاقة له بالسراي، تعمد بدري، وبوجود حامد، أن يحدثهما عن حفلة الخطوبة، وكيف عرض عليه بعض الأصدقاء دعوة زملائه مِنْ العاملين فِي السراي، لكنه اعتذر، وكان اعتذاره أقرب إلى الرفض، بسبب المرارة التي لا يزال يحسها تجاه السراي وجميع العاملين فيه.

وحامد الذي يسمع لأول مرة بخطبة بدري، إذ لم يسبق أن أبلغه بذلك، قال بعتاب لا يخلو مِنْ مرح:

ـ الماي تجري مِنْ جوانا ونحن ما ندري. أقول لروحي: ليش بدري صاير عاقل، لا نشد عن روجينا، ولا تحرش بالفخاتي اللي وياها!

ردَّ بدري مدافعاً عن نفسه:

ـ اللي يسمعك يقول: بدري ما عنده شغل إلا شايله ودايرِ!

وضحك الثلاثة.

قال غايب فِي محاولة لإظهار أقصى الود:

- إذا فاتنا المهر ببغداد، وبدري معذور، ما راح يفوتنا الزواج هنا.

نظر بإمعان إلى بدري، وكأن فكرة طرأت له فجأة، تابع بلهجة ظفر:

ـ لازم نسوي لك زفة تصير حديث كركوك سنين وسنين...

وبعد قليل، وهو لا يستطيع أن يخفي فرحه:

- وندعي أفندينا، وكُلّ الضباط، ونحييها للصبح: دق وغنا، مزيقا وطبل، ووين اكو واحد يصبح أوف أو عتابا: أنت يا فلان معزوم على عرس بدري...

وكاد يتابع، إلا أن حامد قاطعه:

- ويصير العرس تاريخ: قبل عرس بدري... وبعد عرس بدري!

ردَّ بدري، وهو يحاول إخفاء خجله:

- يرحم موتاكم يا معودين، آني انهزمت مِنْ الهرجة، انهزمت مِنْ الحاج صالح العلو لأنه يريد يخبصها، يريد مزيقا وطبل، فخلوا الهرجة لغيرنا وخلونا نتزوج سنطة، هذا كُلّ ما أريده!

قال غايب، وكانت لهجته حاسمة:

ـ أترك المسائل علي، وما راح تكون إلا راضي!

ـ لخاطر الله يا معود...

هكذا ردَّ بدري، وأضاف برجاء:

ـ إذا إليّ مودة عندكم، كُلّ ما أريده زواج بسيط: صديقين... ثلاثة، وهلهولتين مِنْ أمي وأمها، وبعدها استكان شاي أو شربت، وفِي أمان الله!

- أشوفك مستعجل، بس تريد تخلص!

بهذه الطريقة تدخل حامد، وتابع والضحكات لا تزال تملأ الغرفة:

ـ شنو صار بالدنيا: ابن صالح العلو يتزوج بسكوت؟ بليا دف ودنبك، وما تعرف بالعرس أمة الثقلين؟

ضرب على الطاولة، وقد علا صوته:

ـ أبد ما يصير!

- أهم شي هسه: نلقى بيت زين، وبعدها الله كريم، قال غايب.

ـ موعود ببيت، والصبح أشوفه، وإنشاء الله يصير خير، ردَّ بدري.

بعد أيام، وقد أمن رضوان قره غولي بيتاً لبدري، واستلم إيجاره لسنة كاملة، قال غايب بنوع مِنْ العتاب:

- هذي مو خوش بداية، لأن أفندينا قال: «... وبيت بدري على حسابي، وعرسه على حسابي، لأن الصديق لصديقه».

وبعد أن صفن غايب لحظات، أضاف:

- زين.. زين، ما دامت هذي فاتت، لا بد نلاقي غيرها ونتراضي.

فِي اليوم التالي جاء غايب وحامد معاً لزيارة بدري، وبعد أحاديث متنوعة، تخللها العتاب، لأن بدري تعجل بدفع إيجار البيت، إذ كانت رغبة الآغا أن يفعل ذلك، قال، وهو يستخرج كيساً مِنْ جيب داخلي:

- وهذي هدية صغيرة مِنْ الأغا، ومعها التبريكات، وبالرفاه والبنين!

- هاي شنو؟

- مبلغ بسيط، هدية.

أبعد بدري الصرة قليلاً. تطلع إلى عيني غايب، ثم التفت إلى حامد:

ـ إذا تريدون نبقى أصدقاء، والعلاقات بينا زينة، فاللي أرجوه أن تأخذوا الفلوس وياكم...

ابتسم وتابع بصوت خرج عميقاً:

- الله فضل علينا، أعطانا حاجتنا وزود، ومثل ما تعرفون: الحاج صالح العلو رجال ميسور، ويريد يزوجني مِنْ كيسه، وهو متكفل بكل شي...

وبعد قليل:

- مو بس هالشكل... الإكراميات اللي اندفعت لي مِنْ السراي، مِنْ الباشا، كان الحجي يأخذها ويوزعها على الفقرا، وكان يقول: غيرك أحق بيها منك...

وعاد إلى النبرة الأولى:

ـ لهذا السبب، وحتى نظل أصدقاء ومتفاهمين، وإذا تودوني وتريدون أكون مرتاح، فالرجاء أعفوني مِنْ هذا الهم.

قال حامد، وقد تخلل صوته اللوم:

- ولكن الهدية ما تنرد يا ابن الحلال!

- هديتكم واصلة، وإذا احتجت فلوس يوم مِنْ الأيام آني راح أطلب، آني اللي يقول: هاتوا يا جماعة الخير! كان حامد يود أن يواصل فِي هذا الإتجاه، أن يلح أكثر مِنْ أجل قبول المبلغ، لكن غايب أدرك، مِنْ طريقة الرفض، مِنْ الكلمات التي قالها بدري، عدم جدوى الإلحاح، إذ ربما يؤدي إلى نتيجة معاكسة، لذلك ردَّ غايب، وهو يقلب شفته السفلى أسفاً.

ـ إذا كان هذا رأيك ما يخالف، لكن أريد منك كلمة، وعد.

ـ تفضل... اؤمر.

ـ إذا احتجت فد يوم، إذا ردت، فأعتب عليك، أزعل منك، إذا سمعت إنك رحت لغيري، موافق؟ تنطيني كلمة؟

- خلص.. خذها مِنْ هالشارب!

وأمسك بدري بشاربه، وكان يدير رأسه بين الاثنين وهو يبتسم، إذ شعر بالثقة لأنه أنقذ نفسه مِنْ هذا المأزق.

قال حامد، وقد شابت صوته المرارة:

- بصراحة.. هاي مو خوش دقة..

وبعد قليل:

- هذي هدية، والفلوس الها ألف طريقة حتى تنصرف..

وكاد يتابع، إلا أن ضحكة بدري، وكانت أقرب إلى القهقهة، جعلته يتوقف. بعد أن ساد الصمت قليلاً علق بدري:

- يا معود، يا أبو جميل، أنت تريد مصلحتي لو تريد تهجم بيتي!

ولم يدعه يجيب، تابع بمرح:

- لو عرف الحجي، أبو قدوري، يسحب إيده، ويقول: آني ما علي، روح تزوج بالدين؛ وأنت تعرف، يا أبو جميل، أن اللي يتزوج بالدين ولِده يجون بالفايدة، فخلينا أول نوبة نتزوج، نلزم العصفور، وبعدها الله كريم!

ولما هز حامد رأسه، دون أن تعني هذه الهزات الموافقة، وان ارتسم على وجهه ظل ابتسامة، فقد تابع بدري بمرح:

ـ لو تريدنا، يا ابن الحلال، نضيع الأول والتالي!

واستمر غياب الآغا، واستمرت الإشاعات.

الذين رجحوا غيابه بسبب المرض، وقدروا احتمال وصول راهب قوشية يعقوب متي، ليتولى معالجته، كما حصل لقائد القلعة السابق، بدأت تخامرهم الظنون بعد أن مرت أيام كثيرة دون أن يصل هذا الراهب، الذي عرف ببراعته وجرأته، وقد استطاع أن يشفي القائد بعد أن عجز أطباء كركوك، وبعد أن جيء بطبيب معروف مِنْ الموصل ولم يستطع أيّ منهم شيئاً. لقد مر وقت طويل دون أن يصل يعقوب متى، كما لم يستدع أيّ مِنْ أطباء كركوك إلى القلعة أو إلى بيت طلعت باقة، الأمر الذي جعل الكثيرين يتساءلون ما إذا كان الآغا مريضاً أو مسافراً.

أما الذين رفضوا، منذ البداية، اعتبار المرض سبباً للغياب، وكانوا متأكدين أن روجينا و«البنات» هن السبب، فكان لديهم ما يؤيد ذلك:

الطعام الذي ينقل إلى بيت طلعت باقة، الحراسات الشديدة حول البيت أو على الطريق المؤدية إليه، ثم الأخبار التي يتم تناقلها عن الخدم، وغالباً ما تُنقل همساً ويداخلها الكثير مِنْ التشويش، فقد رجح الظن فِي القلعة، ثم فِي المدينة، أن الآغا لم يغادر كركوك، وأنه مرابط فِي بيت طلعت باقة.

أما لماذا لا يغادر البيت، وما الذي يحمله على البقاء فيه طوال الوقت، فقد اختلفت التفسيرات وتضاربت:

قيل إن شرهاً جنسياً أقرب إلى الشبق استبد بالآغا بعد أن فُتن تماماً بجمال الفتيات الثلاث، وأنه لا يفعل شيئاً سوى الانتقال مِنْ واحدة إلى أخرى، مع الشرب والرقص والغناء، بحيث لم يعد قادراً على الإفلات مِنْ هذا الجو، خاصة وأن روجينا حملت معها مجموعة مِنْ الأدوية والمنشطات تجعل الرجل فِي حالة مِنْ الهياج لا يستطيع معها أن يكف، أو أن يسيطر على نفسه. وهذا ما يفسر، إلى حد ما، إشاعة المرض التي راجت لبعض الوقت!

وقيل إن الآغا مرابط فِي بيت طلعت باقة، أو ربما فِي بيت آخر، لغير هذا السبب، إذ بعد أن تم نقل أقرب رجاله إليه، وكان يعتمد عليهم كثيراً، استبد به الحزن، فقد شعر أنّه أصبح معزولاً وضعيفاً، كما يمكن الاستغناء عنه فِي أية لحظة، دون أن يقوى على مجرد السؤال أو الاعتراض، وهذا ما يفسر عزوفه وعزلته. أما ما يقال عن جو الخلاعة، والغرق فِي أحضان «بنات» روجينا، فإنه محض افتراء أو مجرد أوهام وخيالات مِنْ الذين يبغضون الآغا،

لأن الرجل، مهما بلغ مِنْ القوة، ومهما استبدت به الشهوة، فإن الليل وحده يكفي ويفيض.

فإذا قيل أن التنوع يغري، واختلاف النسوة يحرض، وأن «بنات» روجينا ليس لديهن مِنْ عمل إلا إغراء الآغا لإغوائه، وأنهن مِنْ الفتنة والبراعة ما يجعلهن قادرات على تحريض حتى الصخر الأصم، وهذا ما يفسر الغياب الطويل للآغا، فإن رأياً مثل هذا لا يقنع الكثيرين. «فالآغا، كما يقولون، عرف مِنْ النساء ما لم يعرفه إلا قلة مِنْ الرجال، إذ بعد أن صادق وعشق وتزوج، غير الصديقات والعشيقات والزوجات بقدر عدد الأمكنة التي أقام فيها، بحيث لم يترك ملة أو لوناً أو بلداً يعتب عليه، فقد ارتوى إلى درجة لم تعد به طاقة أو رغبة».

وحين يُسأل هؤلاء عن غياب الآغا، وأين يمكن أن يكون، لا يجدون لديهم الكثير ليقولوه، أو يقولون شيئاً عن لهم فِي اللحظة، بل ويبلغ الأمر ببعضهم أن يذكروا شيئاً هم أنفسهم لا يصدقونه!

فرضوان قره غولي، صاحب الخان الكبير، حين سئل ما إذا كان الآغا فِي كركوك أم غادرها إلى مكان آخر، ردَّ بسخرية:

- خلونا نسأل الكاكا محمود...

ورغم أن الكاكا محمود غير موجود، فلقد تابع الأسطة رضوان يخاطب شبحاً:

- قل لي كاكا: أنت صاعد لو نازل؟

ومع أنّه لا ينتظر جواباً، إلا أنّه ترك فسحة مِنْ الوقت تمر، وكأنه يستمع خلالها للجواب، وتابع يسأل:

- وبطريقك شفت أحد؟ سمعت أن أحد قبلك أو بعدك مر أو راح يمر؟

وبعد أن يهز رضوان قره غولي رأسه عدة مرات، دلالة أنّه سمع وفهم، يلتفت لمن سأله ويجيب:

- سألنا الصاعدين، وسألنا النازلين، فقالوا: ما شفنا الآغا. ولأن الصاعدين ما شافوا الآغا، ولا النازلين، فالآغا بكركوك...

ويضحك، وتخرج ضحكته كالصهيل، وبعد أن يهدأ:

- بابا.. اللي تسألون عليه موكر بفد مكان قريب! ولأن الضجر يمد جناحيه على المدن الصغيرة، ويزيد ويتسع حين تتأخر الأمطار، وحين تتأخر القوافل، فقد ظلت كركوك تجتر ما وقع فيها، أو ما نقله المسافرون.

فنجمة التي شغلت المدينة طويلاً، وجعلت الناس يتساءلون ويختلفون، خاصة حين قتلت، عمن قتلها ولماذا، تراجع الاهتمام بها أو الحديث عنها، خاصة لعدم ظهور أيّ شيء جديد فِي الأمر، ثم لغياب مِنْ يذكر بها بعد نقل الضباط وسفرهم.

حتى نقل الضباط، ورغم ما خلفه مِنْ تساؤل وترقب فِي القلعة وفِي الثكنات، فإن المدينة التي سمعت بالأمر لم تحفل ولم تنشغل به طويلاً.

فالذين سافروا مثل الذين كانوا قبلهم، مثل الذين سيأتون بعدهم. وحتى الحفلات التي أقيمت للمسافرين، ستقام مثلها للآتين بدلاً عنهم، ويبقى كُلّ شيء كما كان!

روجينا، بوصولها، ثم باستمرار إقامتها، وما أخذ الناس يتحدثون به عن الفتيات اللواتي رافقنها، وهل تنوي البقاء أم ستواصل سفرها إلى مكان آخر، أم تعود مِنْ حيث أتت، فإن الفضول المشوب بالخوف، ثم رغبة التثبت، جعلا الناس لا يتوقفون عن رواية أخبارها، مع الزيادة والتغيير.

قد يكون ما يقوله الكثيرون تافهاً أو ربما وهماً، وقد يكون تعبيراً عن رغبة أكثر مِنْ أيّ شيء آخر، لكن الفضول لم يتوقف، والسؤال لم ينقطع، خاصة بعد الذي قاله قاضي الحنفية تقي الدين أوغلي. فقد فسر انحباس المطر بزيادة المعصية، وتفشي الفسق بين الناس، وكان يعني، دون تسمية، روجينا «وبناتها»، ويشير مِنْ بعيد إلى الآغا!

ومثلما تولد النكتة عفو اللحظة، وكذلك الإشاعة، فإن ما قاله قاضي الحنفية لاقي آذاناً صاغية، ومال الكثيرون إلى قبول ما يقول، بل وربطوا ذلك بغياب الآغا، وما قيل عن ملازمته لبيت طلعت باقة بين «بنات» روجينا، وما يحصل فِي ذلك البيت مِنْ فسق وفجور. وهكذا أصبح هذا الأمر حديث كركوك وحديث المسافرين! ولأن الإشاعة تولد أخرى، فلا يعرف مِنْ الذي أكد أن عزلة الآغا، وهي صحيحة، ليست لها علاقة البتة بروجينا وبناتها، لأن الآغا الذي ظل قوياً، ظاهر المرح والنشاط، إلى أن جاء البريد، وما حمله مِنْ خبر وفاة مريم خاتون، المربية التي تعهدته بعد وفاة أمه، فقد أصابه غم شديد ما لبث أن تحول إلى كآبة تسيطر عليه ليل نهار. ورغم الصلاة والأوراد وإشعال البخور، فإن الغم يزداد والكآبة تقوى، وكان يرافقهما، فِي بعض الليالي، بكاء يطول إلى أن يصبح نحيباً موصولاً، خاصة وأن نفس الآغا عافت الأكل ورؤية الناس، الأمر الذي دفع معاونيه الأقربين إلى حمله إلى مقام الشيخ محمود، إذ ربما ببركات المقام، وعناية القائمين عليه، وقد اشتهروا بالتقوى، ولأن المقام فِي جبل عالٍ، إضافة إلى القرابين والنذور، لعل ذلك يُذهب حزن الآغا، ويعيده إلى ما كان عليه مِنْ القوة.

هذا الكلام تقاطع مع كلام الذين رجحوا، منذ البداية، مرض الآغا، ولذلك ارتفعت أصواتهم مِنْ جديد، دون النظر إلى طبيعة المرض أو مِنْ يتولى العلاج.

وهذا الكلام ذاته دحض ما يقال عن الفسق والمعصية، وعلاقة الآغا بذلك. لكن بعض الذين تبنوا هذا الرأي تمادوا أكثر فيما يجب عمله.

فالخلوة فِي مقام الشيخ محمود، وإن كانت نافعة، بل ضرورية، إلا أنها وحدها لا تكفي، فالغم لا ينتهي، والوسواس لا ينقطع إلا بالحج وزيارة قبر الرسول، وهذا ما يجب أن يفعله الآغا، فِي أقرب وقت، لأن الحج والزيارة يضيئان القلب، ويردان العافية، فثقة الإنسان بنفسه مستمدة مِنْ ثقته بالله، وقوته مِنْ قوته، وما عافية النفس والجسد إلا مِنْ مظاهر رضى الله على عبده.

حين يسمع بعض الناس عن خلوة الآغا يبتسمون ويهزون رؤوسهم سخرية وغيظاً، لأنهم على قناعة أكيدة أنّه فِي كركوك، لم يغادرها، إذ لو فعل فلابد أن يرافقه أقرب رجاله، خاصة حامد وغايب. حين يشار إلى ذلك يرد الذين على قناعة بخلوة الأغا: أن مِنْ شروط صحة الخلوة أن تبقى سرية، وأن تتم دون تباه ودون إعلان، ويحسن ألا يعرف بها وريث أو قريب، لأن حال المختلي مثل حال الذي يريد الخروج مِنْ الدنيا، إذ لا يغريه مال أو جاه أو بنون، وليس فِي نفسه فضلة مِنْ أكل أو فرج أو شراب، وقد آلى أن يهب جسده وروحه إلى باريء هذا الخلق.

يقولون ذلك ويوردون أمثلة عن رجال زهدوا بالدنيا، وعافت نفوسهم المسرات، وقاوموا الإغواء وزخارف الحياة، فذهب بعضهم ولم يعد، وتحول غيرهم إلى نُساك يملأون ببركاتهم أصقاع الأرض، يظهرون للتائه فيدلونه، وللغريب يؤنسون غربته، وللجائع يقدمون له ما لديهم مِنْ زاد.

ويضيفون: لم يذهب إلى الشيخ محمود مريض إلا وعافاه!

ولأن الضجر أستبد أكثر مِنْ قبل بأهل كركوك، بعد أن حرثوا الأرض وبذروا الحب، وطال انتظار المطر، فقد استمروا يشغلون أيامهم ولياليهم بالثرثرة والتلصص، وبالغ بعضهم فِي ذلك أشد المبالغة.

فخيول الآغا شغلت الكثيرين، خاصة الذين يتاجرون بشراء الخيول وبيعها، والذين يبادلون أو يزاوجون. فهذه الخيول لا تستعرض فِي ميادين عامة، ولا يعرف عددها على وجه الدقة، كما لا تعرف أحسابها وأنسابها، لأن الآغا، بعد تجارب عديدة، أصبح يضيق بشيوخ البدو وأغوات الأكراد الذين لا يملون أبداً مِنْ ملاحقة الخيول، فإذا لم يستطيعوا المبادلة فالمشاركة بيد أو برجل، وحين لا يصلون إلى ذلك فلا أقل مِنْ التشبية، يطلبون ذلك بإلحاح، مع رجاء

أقرب إلى التوسل: «ضرب واحد طال عمرك». والآغا الذي يعتبر خيله مثل نسائه، يجب ألا تظهر، ألا تُعرف إلا فِي أضيق الحدود، كان له هدف آخر: ألا يستطيع أحد رصد حركاته مِنْ خلال معرفة خيوله، إذ كثيراً ما يفضل الذهاب إلى بعض الأماكن أو زيارة بعض الأشخاص، متخفياً، وبأقل عدد مِنْ المرافقين، وهذا يتطلب ألا يعرف الخيول التي يمتطيها، وألا تتميز بالبهارج، كما يفعل أنصاف الشيوخ أو صغار الأغوات، الذين يبالغون بتزيين خيولهم لتدل على أهميتهم!

إذا كانت هذه عادة الآغا، وهذه تعليماته لسواسه، وقد ساعدته على أن يبقي جزءاً مِنْ تنقلاته خافياً، وأن لا يستطيع مِنْ يضمر له شراً أن يصل إليه، فإن أهل كركوك بلغوا مِنْ المكر حداً أنهم راقبوا كُلّ شيء بعناية، وأقاموا مِنْ الصلات ما جعلهم يعرفون أدق الأمور وأكثرها خفاءً. فأي حصان يركبه الآغا، ويراه عدد مِنْ أهل المدينة، يرسخ لونه وشكله، وجميع ما يميزه، فِي ذاكرة الكثيرين وحين لا يعرفون اسم ذلك الحصان، يعطونه اسماً مِنْ عندهم، حتى يصبح ذلك الاسم أثبت عليه مِنْ اسمه الحقيقي!

رضوان قره غولي الذي يشغله أكثر مِنْ الخان الذي يديره، الخيول التي يستطيع الوصول إليها، لا ليتباهي، كما يفعل الكثيرون، وإنما ليبيعها فِي الوقت المناسب، ولمن يجب أن تباع له، وهذا ما جعله يوثق صلاته بسواس القلعة، ويحاول الوصول إلى خيول الآغا. ولما كان الأسطة رضوان يعرف مواعيد وصول القوافل، ويعرف أيّ الطرق تلك فِي ذهابها وعودتها، حسب فصول السنة، بل ويعرف مواعيد وصولها إلى محطة مِنْ المحطات، وكثيراً ما راهن وكسب، فقد شعر بالغضاضة الأقرب إلى المهانة أن لايعرف ما إذا سافر الآغا أم لا يزال فِي المدينة. سأل وتحرى، حتى أصحاب البساتين فِي أطراف كركوك سألهم، لكن لم يستطع الوصول إلى تقرير يطمئن إليه.

لو أن رضوان قره غولي كان متأكداً مِنْ سفر الآغا لنفذ الخطة التي راودته منذ وقت طويل: أن يشبي إحدى أفراسه مِنْ «المسخوط»، إذ يعتبر هذا الحصان مِنْ أكرم الخيول، ونسبه، إضافة إلى الصفات الأخرى التي يتميز بها، يتحدث عنه الناس فِي بغداد والموصل وكركوك، ومدن أخرى عديدة. كان رضوان، وهو الذي أطلق على هذا الحصان اسم المسخوط، مستعداً للمخاطرة، خاصة وأنه اتفق مع زهدي شيخو على ذلك، لكن الاثنين لا يعرفان ما إذا كان الآغا فِي كركوك أم غادرها، وهكذا ظل الأسطة رضوان ينتظر ويتسقط الأخبار!

كان بدري يريد أن يجعل البيت لائقاً مِنْ أجل استقبال الضيوف القادمين مِنْ بغداد، وأن يجعله عشاً للأحلام الكثيرة التي تملأ مخيلته. كان يريد أن يرد لأمه، لأبيه، لكل الذين يحبهم، بعض ما يشعر به نحوهم، وهو ان

يستقبلهم فِي أول بيت يمكن أن يسميه بيته. ظل يفكر بكل شيء، ويتهيأ له، بل وتساءل ما إذا سيفو سيأتي أم لا. قال لنفسه: «وين يفوتها أبو فلاح؟ لا بد جاي يهني».. وأبوه.. أين يجب أن ينام.. «ها، حجي، مثل عادتك، تريد تنام مِنْ وقت؟». وابتسم وهو يتصور أباه يرقص «راح أرقص بعرسك وأدق إصبعتين». ومرت صورة أمه. كان متأكداً أنها لن تنام فِي الليلة الأولى، وربما فِي الليلة الثانية. لن تستطيع، لأن الفرح يجعلها غير قادرة على الاستقرار فِي مكان. وتصور أختيه، وتصور عمته، قال لنفسه، وهو يغالب قهقهة أفلتت منه: «الحجية تنام بعين واحدة، ولا يمكن أن يفلت منها الطير الطاير» وتذكر أخوته، وتذكر الكثيرين. قال لنفسه بمرح: «ومنو يدري.. يجوز أبو حلق الذهب، الملا حمادي، ما يفوتها ولا يكذب خبر، ما نشوفه إلا بوجهنا!».

والحديقة التي كانت جميلة ذات يوم، لحقها الإهمال، وطفت عليها نباتات وحشية، حولتها إلى غابة متشابكة، مما يتطلب بذل جهد كبير مِنْ أجل إعادتها إلى جنة تليق بالضيوف، وليعلم أهل كركوك كيف يجب أن تكون الحدائق مِنْ حيث الجمال والترتيب! وقد تكون درساً لزكية أيضاً، إذ مِنْ خلال الجهد الذي سيبذله يمكن أن يثبت لها جدارته فيما لو طلب ذات يوم أن يكون مزارعاً ولم يرغب أن يسجن نفسه فِي علوة الحاج صالح العلو!

ولأن الشغل كثير ومتنوع، فقد اضطر للإستعانة بعدد مِنْ الأشخاص لمساعدته، كان على رأس هؤلاء قادر محمود.

وقادر كان ذات يوم صاحب بستان، لكن البستان انتزع منه لتوسيع الثكنة الشمالية. ولأنه رجل عنيد، ومتعلق بأرضه إلى درجة يستحيل عليه تصور قطع أشجار البستان لأي سبب، خاصة وأن فِي الجهة الأخرى مِنْ الثكنة أرضاً بوراً، ويمكن التوسع فِي تلك الجهة، فقد رفض قبول التعويض، وظل خلال ثلاث سنوات متواصلة يقدم الاسترحامات والعرائض، ويسافر مِنْ مكان إلى آخر، ويطرق أبواب الكثيرين، مِنْ أجل إعادة أرضه، لكن كُلّ محاولاته انتهت إلى الفشل، وانتهى البستان إلى أرض جرداء، بُني فِي جزء منها اسطبل لبغال الثكنة، وتناثرت فِي الأجزاء الأخرى مِنْ الأرض مخلفات لا يعرف لأي أغراض استعملت أو كيف تجمعت.

ربما وُجد مِنْ أبلغ قادر أن بدري كان مرافقاً لباشا بغداد، وقد يعود كذلك فِي يوم مِنْ الأيام! ولأن لا أحد فِي كركوك، أو مر بها، أنصفه، أو سمع إلى النهاية شكواه، فقد افترض، أو توهم، أنّه عن طريق بدري يمكن أن يصل إلى حقه، وهذا ما دفعه إلى التعرف عليه، وأن يكرر زيارته.

وبدري الذي استمع بروية إلى شكوى قادر، وعرف ما حل بالبستان، كان يود لو يستطيع مساعدته، ويود أكثر لو أن الرجل قبل التعويض وبدأ عملاً

جديداَ، لكن الرفض، الأقرب إلى العناد، الذي ميز موقف قادر، جعل بدري حائراً حول الكيفية التي يمكن أن يساعده بها، فهو لا يريد أن يطلب مِنْ أحد هنا، ولا يجد الشجاعة، أو المبرر الكافي، لإرساله إلى بغداد، إلى أحد أصدقائه فِي السراي، ربما لتفاهة الموضوع، وأيضاً لقدمه، وقد لا يجد حلاً فِي ظل تشابك العلاقات. وهكذا ظل الموضوع معلقاً.

ولأن الموضوع ظل هكذا، فقد استمر قادر فِي التردد على بدري، علَه يستطيع إقناعه، وظل بدري يستقبله ويكلفه ببعض الأعمال بين فترة وأخرى، إذ يمكنه بهذه الطريقة أن يقدم له بعض المساعدة.

بعد أن تم استئجار البيت وشرع بتحضيره، كان قادر كُلّ شيء، أما حين بدأ تنظيف الحديقة فقد تفجرت عبقريته وتفجر جنونه.

كان يبدأ العمل فِي الصباح الباكر، ولا يتوقف إلا بعد حلول الظلام.

وكان الذين يساعدونه يضجون بالشكوى، ولا يخفون سخريتهم مِنْ حرصه ومن طلباته. إذ لا يكفي أن تقلع الحشائس الضارة والأشواك، وتجمع الأغصان اليابسة، وتقلب الأرض، بل ويجب أن يتم التأكد مِنْ كُلّ عرق أخضر، كُلّ غصن فِي كُلّ شجرة، وأن يعالج كُلّ حوض، وأن تصف الحجارة بعد ربط خيط لكي تبقى بنفس الارتفاع، بنفس الاستقامة!

ولما كان الفصل أول الخريف، ولكل وقت نباتاته وزهوره، فلا بد أن يذرع قادر كركوك مِنْ أقصاها إلى أقصاها كي يختار مِنْ النباتات والبذور ما يلائم الفصل الحالي ثم الفصول التي تليه، أن يزرع بالمكان الذي حدده، وبالطريقة التي حددها، وكان بعض الأحيان يوقف العمل، بسبب أخطاء صغيرة، ليعاوده مِنْ جديد.

وبدري الذي افترض، خلال بعض الوقت، أن لديه أفكاراً نموذجية حول الشكل الذي يجب أن تكون عليه الحديقة، وكان يشارك، بعد أن يستبدل ملابسه العسكرية بأخرى تلائم العمل، ما لبث أن اكتشف جهله، ثم اكتشف عجزه، بالمقارنة مع معرفة قادر، وازاء نشاطه.

ويوماً بعد آخر أخذت تتكامل الحاجات الضرورية فِي البيت، ضمن ما يستطيعه الرجال. لكن أكثر منها بدأت الحديقة تتألق وتزهو، خاصة بعد أن نُظفت السواقي ودارت فيها المياه، وبعد أن طُليت سيقان الأشجار بالكلس. أما حين بدأت بعض النباتات والزهور الموسمية تشق الأرض، وترفع رؤوسها الصغيرة، وأخذ الجو يعبق، عند أول المساء، برائحة شجرة الليل، فقد أحس بدري أنّه أضاع شطراً مِنْ حياته وهو يبحث عن شيء لا يعرفه!

كان يلذ لبدري فِي بعض العصاري، وبحجة المشاركة فِي السقاية، أن يقضي ساعات فِي البيت الجديد، وخلال هذه الفترة توثقت علاقاته أكثر بقادر، أصبحا يتحدثان كأصدقاء، يتبادلان الأفكار والأخبار، حتى الأحلام كان أحدهم يقول للآخر بعض أحلامه. أما مسألة بستان قادر، فلم تعد تطرح إلا عرضاً، وإذا حدث ما يذكر بها. بل وخطر لبدري لو أن قادر يعمل فِي بستان المتولي، بدل أن يبقى تائهاً بين أرض انتزعت منه وبين مطاردة حلم قد لا يتحقق، لكن هذه الفكرة لم تثبت طويلاً فِي ذهن بدري، بل اعتبرها قاسية، فمن الظلم أن ينتزع هذا الإنسان مِنْ بلده، مِنْ أهله، فقط مِنْ أجل أن يؤمن خبز أطفاله.

لما انقضى أيلول كله، وانقضت أيام تشرين جلها أو كلها ولم يأت المطر، فقد خاف الناس أكثر مِنْ قبل وزاد تشاؤمهم. وتذكر الكثيرون ما قاله الشيخ تقي الدين أوغلي حول المعصية والفساد والغل الذي يملأ قلوب الناس، وعاد التساؤل مِنْ جديد ما إذا كان الآغا مقيماً أم مسافراً، فإن كان مقيماً لا بد أن يظهر، إذ لا يعقل أن يبقى طوال هذا الوقت فِي أحضان «بنات» روجينا، فحتى الشباب، حين يتزوجون، ويكونون عادة فِي أوج قدرتهم وشهوتهم، لا يحتملون النوم مع زوجاتهم أكثر مِنْ مقدار معين، ثم يتعبون أو يملون، فكيف بهذا الثور المسن الذي تجاوز الخمسين واقترب مِنْ الستين؟

أما إذا كان مسافراً فقد طال سفره. وحتى لو نقل، ألا يفترض أن تقام له الحفلات ويجري وداعه، كما حصل لضباطه وللقائد الذي سبقه؟

فِي خضم المشاغل والتساؤلات وصل كاكا محمود آتياً برحلة جديدة مِنْ بغداد، وجاء لتوه إلى بدري.

كان يمتطي، مزهواً، الزعفران «الحصان» الذي اشتراه مِنْ بدري، ومعه أحد رجاله يجر بغلين يحملان أغراضاً بعثت بها أم قدوري.

كان الزعفران، رغم التعب، يبدو قوياً وفتياً، خاصة وهو يرى البغلين الآخرين ينوءان تحت ثقل الأحمال. وكان الكاكا محمود يبدو فخوراً ومنشرحاً. بعد التحية الحارة، والتبريك، متمنياً أن يكون البيت الجديد فاتحة الخير والأفراح، أنزل الأحمال، وسلمه رسالة مِنْ الحاج صالح العلو، كما نقل إليه تحيات الجميع، وأبلغه أيضاً أنّه تم الاتفاق على نقل العائلة، وبعض الأصدقاء، وفِي المقدمة العروس، فِي السفرة القادمة، وسوف لن يتأخر وصولهم عن شهر منذ الآن!

فض بدري الرسالة، التي خطها أخوه قدوري، وقرأ:

حضرة ولدنا المكرم بدري أفندي ادامه الله وأعزه بعد التحية مِنْ سويداء القلب، والسلام مِنْ جميع الأهل والمحبين، وبعد السؤال عن صحتكم الغالية، فإن سألتم عنا فنحن ولله الحمد فِي أتم الصحة وأهدأ بال، ولا ينقصنا إلا مشاهدة أنوار وجوهكم الكريمة. ولدنا العزيز كان لفراقكم رنة أسي لدى جميع أفراد الأسرة فرداً فرداً، وأحدث سفركم فراغاً فِي قلوب جميع المحبين، لكن ما خفف الألم قرب لقيانا بالبهجة والسرور، وهذا سيتم بمشيئة العلي القدير. وبعد أن تم التشاور والاتفاق مع نسيبنا الحاج نعمان المتولي، فِي غرة ربيع الأول، وقد ربطنا القافلة واتفقنا ودفعنا الرعبون. ومن جهتكم وصوا حامل الرسالة، الكاكا محمود، على انتظام المواقيت وجلب دواب إضافية، لأن عدد المسافرين يزيد كُلّ يوم، ولا تستغرب يا ولدنا الحبيب إذا جاءك كُلّ جماعة قهوة الشط، عدا عن أفراد العائلة وعائلة نسايبنا.

«أخونا المبجل، حفظه الله. تم تحضير هذا الخط قبل سفر القافلة بساعة، وقد طلب الوالد الكريم الإيجاز وحسن الإعلام، أما السوالف الثانية فحين يجمعنا المولى، وهو السميع المجيب.

الخاتون تتحضر حسب ما أخبرت الوالدة. ألح سيفو شديد الإلحاح أن نخصه بسلام خاص، وما على الرسول إلا البلاغ. طمن روحك ولا ينشغل بالك، وبعد هذا اليوم بشهر، وبمشيئة الباري، سنكون بطرفكم. أما أحمال السلام وقناطير الشوق فحدث ولا حرج.

المرسل والدكم: الحاج صالح العلو.

كاتب الخط: أخوكم المحب قدوري.

كان أغلب ما أرسل فِي الحملين له علاقة بغرفة النوم، وكان ضمنها الوسادة التي تعود بدري النوم عليها، كما أرسلت أمه مصحفاً، إضافة إلى بعض أدوات الطبخ. ووجد بدري أيضاً مجموعة مِنْ الصرر تحوي مواداً لم يعرف لماذا تستعمل أو كيف، لكن رائحتها الزكية وشت بما يحتمل أن يكون غرضها!

فِي الأيام الأخيرة مِنْ تشرين سقطت الأمطار، وبسقوطها تراجع الحزن، وتفاءل الكثيرون.

أما عندما شوهد الآغا، وهو يحضر مباراة الفروسية فِي الجمعة الأخيرة مِنْ تشرين، وبدا أكثر سمرة، وربما أكثر نحافة، فقد تأكد الكثيرون أنّه كان مسافراً، لكن لا يُعرف أين!

ولم تمض أيام حتى جاء قادر حاملاً سجادة صغيرة منسوجة بخيوط الحرير، ومعها قلادة، يعرض بيعهما. وحين سأله بدري لمن ومن أين، أبلغه

أن أحد أقربائه اشترى السجادة والقلادة مِنْ رمضان بيشار، طباخ الآغا، وقد جلبها هذا، مع أشياء كثيرة أخرى، مِنْ كرمنشاه، حين كان مع الآغا فِي زيارة هناك، وعاد قبل أيام.

... واشترى بدري القلادة، لتكون أول هدية لزكية.

بدخول تشرين الثاني لم يتغير الطقس وحده، تغيرت أشياء أخرى كثيرة أيضاً.

روجينا التي جاءت فجأة، ودون أن يدري أحد، غادرت بنفس الطريقة، ولولا ثقة الناس برضوان قره غولي لما عرف الكثيرون بسفرها.

فالعادة أن يجتمع المسافرون فِي الخان الكبير عند الفجر، وبعد أن تتم صلاة الصبح، يتولى الإمام قراءة عدد مِنْ الآيات وبعض الأوراد المناسبة للسفر، يقرأها على ماء فِي إناء خزفي، وبعد أن ينتهي يرش الماء على المسافرين والحيوانات والأمتعة. وحالما تبدأ القافلة بالمسير، مع التهاليل والأدعية، يتولى صاحب الخان رمي الإناء الخزفي وراء القافلة، وحين يتحول الإناء إلى شظايا، يحرص أهل المسافرين، أو مِنْ له بضاعة فِي القافلة، على التقاط كسرة مِنْ الإناء تيمناً وكفأل حسن.

فِي هذا الصباح، وبعد أن تحركت القافلة، لم ير أحد روجينا والبنات فِي الخان، لذلك لم يخطر بالبال أبداً أنها سافرت، أو يمكن أن تسافر فِي هذه القافلة. لكن ما حصل أنها والبنات اللواتي معها سبقن القافلة بمرحلتين، وهناك انتظرن. قيل إن روجينا غادرت كركوك قبل يوم وليلة، وقد رافقها الآغا، ونزل الجميع بضيافة إسماعيل الحاج سليمان، أحد آغوات المنطقة. وبعد سهرة تخللها الرقص والغناء، أهدى الآغا إسماعيل لروجينا حصاناً، وأهدى الفتيات أشياء ثمينة، وفِي الصباح ودعها ورجاله بطريقة احتفالية مع الطبل والمزمار. رجح بعض الناس، عقب سفر روجينا بأيام أن الآغا كان بين المودعين، لكن أحداً لم يشاهده، فيما أكد مِنْ راقب سفر القافلة وجود غايب، الذي أشرف بنفسه على سفر الضيوف.

رضوان قره غولي، وهو يكسر الإناء الفخاري، والقافلة تبدأ مسيرتها، قال، وكان يرفع يديه فرحاً:

ـ ما أطولك يا درب بغداد!

وبعد قليل وبهمس:

- عسى أن يكون درب الصد! الذين سمعوا الكلمات الأخيرة، كانوا متأكدين أنّه يعني صادق جادو، الذي نافسه وسبقه لشراء حصان، ود رضوان لو أنّه هو الذي اشتراه، وقد أخذه صادق وسافر به مع القافلة إلى بغداد، لأن السوق هناك أفضل لبيعه.

فِي المساء، وكان الأسطة رضوان بين أصدقائه، والجميع يدخنون الأراكيل، قال، وكان أكثر وضوحاً:

- بسفر الكروان اليوم، خلصنا مِنْ هم، أكبر هم! لم تعن كلماته شيئاً هاماً للذين يستمعون، فالعادة أن يكون يوم سفر القافلة يوماً ثقيلاً مرهقاً، إذ كثيراً ما يتخلله فِي الساعات الأخيرة الاختلاف على دفع أجور الخان، أو ما يستحق كمقابل للسفر؛ وربما يتأخر بعض المسافرين، وقد يعدل غيرهم عن السفر فِي آخر لحظة، وما يعنيه ذلك مِنْ انتظار، أو مِنْ تأجيل الرحلة، إضافة إلى المساومات وإعادة ترتيب الأحمال والمسافرين.

قدر الذين سمعوا ما قاله رضوان أنّه يتحدث عن متاعب سفر القافلة، مثل أية مرة، وحين صمت الجميع، ولم يسأله أحد عن الهم الذي يعنيه، سأل، وكان لا يخفي غبطته:

ـ ما سألتوني عن الهم اللي خلصنا منه، لو ما تريدون تعرفون؟

خفتت تدريجياً قرقرة الأراكيل، وتطلعت إليه العيون متسائلة. تنحنح قبل أن يتابع:

- مِنْ اليوم خلصت كركوك مِنْ الفسق!

تنبه الذين يسمعون، فالعادة أن لا يتكلم الأسطة رضوان إلا قليلاً. أما الآن، وهو يتحدث بهذه الطريقة، دون أن يسأله أحد، وعن شأن لا علاقة له بالعمل، فقد انشدت إليه العيون وساد الصمت انتظاراً لما سيقوله.

خفض صوته قليلاً وهو يُضيف:

ـ الكاكا محمود راح ياخذ بطريقه، مِنْ الحويلة، الأم وبناتها! قال الكلمات الأخيرة وغمز بعينه، دلالة أنّه يعني روجينا والبنات اللواتي جئن معها. لكن هذه الطريقة المواربة فِي إعلان الخبر لم تكن كافية أو تبعث على الطمأنينة، رغم أن الذين كانوا يصغون إليه قدروا، دونما خطأ، أنّه يعنيها، لكنهم يريدون أن يسمعوا بآذانهم اسم روجينا يتردد بوضوح. حين تتالت الأسئلة تستوضح وتتأكد، روى الأسطة رضوان كيف أن غايب استدعاه فِي اليوم السابق إلى القلعة وطلب منه أن يُهيئ القافلة لتصطحب معها روجينا والذين جاءوا برفقتها، وأن ذلك سيتم مِنْ الحويلة وليس مِنْ الخان، ودفع إليه الأجور، وأوصاه أن يبذل أقصى ما يستطيع مِنْ أجل راحة المسافرين وسلامة وصولهم.

قال رؤوف، الذي له أكثر مِنْ عمل وأكثر مِنْ صفة فِي الخان:

ـ لما شفتك تكسر الحب هالشكل قلت لروحي: عمي اليوم فواده محروق على بيعة هالحصان، وإن شاء الله يوصل سلامات حتى ما يقول الناس: عين

رضوان!

- يا حصان... يا معود...

وبعد قليل وهو يضحك:

- صحيح أن كُلّ واحد يدور المكسب، لكن فراق هالقحبة، التي ثبرت الدنيا، أكبر مكسب إلنا كلنا، خلصنا وراح ترجع كركوك مثل ما چانت!

ردَّ رؤوف، ولم يكن قادراً على إخفاء فرحه:

- بس ظل عليك، يا أبو شامل، تراضي أبو عزيز، لأنه راد وصلة مِنْ الحب ما حصل، راح كله سحن، لأنك شمرته شمرة مو شلون ما چان، ولما سمعك تقول درب الصد، قال: عوذة مِنْ هالسفرة، عوذة مِنْ هاليوم، وبعدها تفل ومشي!

رضوان الذي اهتز بتأثير قهقهته، قال بعد أن هدأ:

ـ إذا ظلت على أبو عزيز سهلة، هذا مِنْ جماعتنا، ونعرف شلون نرضيه...

وبعد قليل، وهو يلتفت إلى الذين حوله ويغمز:

ـ نحن، هنا، علينا نراضي أبو عزيز، وغيرنا، وبالطريق، عليهم يرضوا عزيز، مو هالشكل؟

وضج الذين يسمعون بالضحك.

وقبل أن ينقضي ذلك المساء عرفت كركوك أن روجينا رحلت، لكن مثل عادة المدن الصغيرة، مثل عادة القرويين: الشيء الذي لا تراه العين لا يطمئن له القلب. وهكذا أصبح هم الكثيرين أن يتحروا، أن يروا بأعينهم بيت طلعت باقة وقد غرق فِي الظلام. أن يسمعوا مِنْ مسافرين يصلون إلى كركوك مِنْ جهة الشرق أنهم رأوا روجينا ومعها البنات فِي طريقها إلى بغداد، أو حتى إلى مكان أبعد! ولم يطل الأمر، إذ ما كادت أول قافلة تصل، حتى أكد الذين كانوا فيها أنهم رأوا روجينا، وأضاف بعضهم مع حركات بالعيون والشفاه، أن «البنات ياخذن العقل!».

وإذا كانت عادة الآغوات فِي مثل هذا الوقت مِنْ السنة، وفِي موسم الحصاد أيضاً، أن يرابطوا فِي قراهم لا يتركونها، وأن يلاحقوا الفلاحين للتأكد أنهم فلحوا وبذروا، خاصة بعد أن وقعت الأمطار، فقد شهدت كركوك أعداداً منهم تزيد كُلّ يوم. صحيح أنهم لم يبقوا طويلاً، لكن الحركة التي رافقت وصولهم، ثم الأخبار التي راجت بعد ذلك، جعلت الناس يتساءلون ويتحسبون، خاصة وأن هؤلاء الأغوات اشتروا أكثر ما كان موجوداً مِنْ الدواب: الخيول والبغال، وعدد غير قليل مِنْ البقر والحمير!

رضوان قره غولي الذي لا يبيع ولا يشتري إلا بعد سؤال القوافل، وكان يتحرى ويدقق، ويبالغ كثيراً بعض الأحيان «لأن الهوا الشرجي، كما يقول، بالصيف حريق وبالشتا غريق، وهذا الهوا ما يجي إلا مِنْ بغداد وصوبها!» وكان بسؤاله يريد أن يعرف مزاج بغداد، وما إذا حصل فيها أمر، أو قد يحصل، يغير الجو والاحتمالات.

الآن، وبعد هذه الزيارات المفاجئة للآغوات، ومحاولتهم شراء كُلّ أو معظم دواب كركوك، والسخاء غير المألوف فِي دفع ما يطلب منهم ثمناً لها، ثم ذلك الإلحاح على البائعين لتأمين دواب أخرى مِنْ القرى القريبة، هذه الأمور جعلت رضوان يمتنع عن بيع ما لديه مِنْ خيول، وجعلته يتحسب أيضاً، فقد قدر أن ما يراه نذير أيام صعبة لا بد ستأتي، وربما فِي وقت أبكر مما يظن الكثيرون!

صحيح أن الأغوات، وهم يشترون، لم يقوموا بذلك مباشرة، فقد كلفوا وكلاءهم وسماسرة الدواب، لكنهم اشترطوا رؤية الخيول قبل البت بأمر شرائها، ليتأكدوا مِنْ أنسابها وأعمارها، إضافة إلى جمالها وخلوها مِنْ العاهات، وكانوا يرددون، وهم يكلفون غيرهم بالشراء، أن ما يدفعهم إلى ذلك أنهم يتوقعون أن تكون هذه السنة مِنْ سنوات الخير. فالأمطار الغزيرة التي هطلت، وحسب تقديرات المسنين، خاصة بعد أن شحت الأمطار فِي السنوات السابقة، تجعلهم يزرعون أراض لم يزرعوها مِنْ قبل، وتجعلهم أيضاً يستعدون، ومنذ الآن، لتأمين الدواب مِنْ أجل نقل المحاصيل إلى كركوك وغيرها مِنْ المدن! ثم إن الأبقار والثيران التي كانت تفلح الأرض بيعت أو ذبحت خلال السنين السابقة، مما يضطرهم لشراء بديل عنها، وإلا فاتهم بالكامل فلاحة الأرض وزرعها!

قالوا ذلك، أو قيل ذلك نيابة عنهم، وكانوا يفضلون أن تتم عمليات الشراء دون أسئلة كثيرة، لأن الذي يبيع، كما قال طالب محو، أحد كبار آغوات كويسنجق، لا يسأل المشتري عما سيفعله بالبغل الذي يشتريه، وإنما يحدد المبلغ الذي يريده ثمناً لبغله وكفى!

رضوان قره غولي كان متأكداً أنّه سيحصل على ثمنٍ مجزٍ للخيول التي يملكها، شرط أن يصبر، رغم أن رجال القوافل الذين سألهم عن الأسعار وحركة البيع والشراء فِي الأماكن التي مروا بها، أكدوا أن الأسعار هذه السنة مثل أسعار السنة التي مضت، ولم يتوقعوا أن ترتفع كما حصل حين حاصر داود باشا بغداد. وأضافوا بحزم أقرب إلى اليقين أن حركة البيع ستبقى عادية، أو على وجه أصح بطيئة. وأشار عليه بعضهم أن ينتظر إلى موسم الحصاد، عندها لا بد أن يحصل على أسعار أفضل لخيوله.

أما رؤوف الذي لا يتوقف عن متابعة حركة السوق، لما بلغت الأسعار التي يدفعها المشترون حداً معيناً، ثمناً لكل حصان أو فرس مِنْ التي يملكها رضوان، وحسب ما يعني ذلك مِنْ ربح، فقد قال لرضوان:

- ترى الأغوات ما داموا بكركوك يدفعون أسعار زينة، لأن كُلّ واحد يريد يرجع لربعه وهو يفاخر: تشوفون هذا الحصان؟ هذا راده فلان ورادو فلان، لكن آني دفعت أزود منهم واشتريته!

ولما هز رضوان رأسه دون أن يتكلم، تابع رؤوف بلهجة تحريض:

ـ ترى الغيرة هسة ماكلة قلوبهم، لكن إذا شيلوا ومشوا، يجوز ما تلقى أحد يسوم، يسأل بيش، فرأي يا أبو شامل: بيع!

هز رضوان رأسه عدة مرات، وخرجت الكلمات مِنْ فمه بصعوبة:

ـ العجلة مِنْ الشيطان يا رؤوف...

تنحنح ثم أضاف:

ـ طولة البال زينة، خلنا بالأول نشوف شنو ورا هالسالفة!

وحاول الكثيرون أن يستفيدوا مِنْ حماس رؤوف لاقتناعه بالأسعار التي يعرضونها، لكن موقف رضوان قره غولي لم يتغير، إذ ظل رافضاً بإصرار، الأمر الذي حير رؤوف وأزعجه، لأنه وحده الذي يفاوض، الذي يساوم، خاصة وأن رضوان كان مستعداً لأن يبيع بأسعار أقل مِنْ هذه بكثير قبل شهر أو شهرين. الآن يبدو برفضه غير مفهوم وغير مقنع!

قال له رؤوف فِي إحدى الأمسيات، وبعد أن عُرض عليه سعر مغرٍ يصعب رفضه:

- يا أبو شامل... الواحد يشاور الأكبر منه ويشاور الأصغر منه، وبعدين يرجع لشوره، أشوفك هالأيام حتى السلام ما ترده، شنو القصة، ما تفهمني؟

رفع رضوان نحوه وجهاً متسائلاً، ولم يتكلم. قالت عيناه ما يشبه اللوم. تابع رؤوف ببعض الحدة:

ِ صحيح آني أصغر منك يا أبو شامل، لكن، بصراحة، موقفك يحير، وما مقبول! قال رضوان، وهو يهز رأسه، وكانت كلماته بطيئة:

- المسألة يا ابن الحلال، ما شقد يدفعون اليوم، المسألة شراح يدفعون باكر واللي عقبه...

- رؤوف الذي لم يفهم شيئاً، ظل صامتاً وعيناه تنظران باستغراب وقد قلب شفته السفلى.. فتابع رضوان:

- جية الآغوات بهالوقت مو لله. الأيام اللي قضوها بالقلعة ما چانت عشق وغرام، خاصة بعد ما راحت مشغولة الصفحة، روجينا. وبعدين، الآغوات اللي مردوا آخر فلس بجيوبهم بعد الحصاد، وصاروا يتدينون، فجأة اغتنوا، والواحد منهم مو بس يريد يتزوج، أو يشتري حصان، بريد يشتري الدنيا، وكأن الفلوس بجيوبهم تحرقهم، ويريدون يخلصون منها، صحيح لو آني غلطان؟

قال رؤوف موافقاً وهو يهز رأسه:

- إي نعم... صدق، هاي الفلوس منين؟

- ومثل ما قلت بلسانك: الواحد يسمع شور الأكبر والأصغر، لكن بعدني ما افتهمت شنو ورا هالقصة: قمحة لو شعيرة!

- وآني حاير، ما أدري، يا أبو شامل!

ردَّ عليه رضوان وهو يبتسم:

- وبعدين إذا خيلنا ظلت ملك أيدينا نقدر نتحرك، نقدر نسوي فد شي، أما إذا راحت منا نتقرم، نصير إيد مِنْ ورا وإيد مِنْ قدام.

- شوشتني هوايه يا أبو شامل..

وبعد قليل وكأنه يخاطب نفسه:

- چنا بقصة صرنا بقصة ثانية.

ـ أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة، يا رؤوف!

ـ يعني إذا سألوني أجاوبهم: ماكو عندنا خيل للبيع؟ مو هذا اللي تقصده؟

ردَّ رضوان قره غولي، وهو يبتسم:

- آني ما قلت هالشكل!

- لكن آني افتهمت هالشكل!

- زين... خلينا نسمع ونباوع زين، وبعدها الله كريم، نبيع أو نشتري!

وغادر الآغوات عائدين إلى قراهم، كانوا يسوقون أمامهم قطعاناً كثيرة مِنْ الدواب، عدا خيول رضوان قره غولي، فقد ظلت فِي كركوك.

غايب الذي انقطع أياماً عديدة متواصلة، حتى ظن بدري أنّه مسافر، ظهر مِنْ جديد، وأخذت زياراته تتوالى كُلّ يوم، مع حامد أحياناً، ووحده أغلب الأحيان.

كانت الأحاديث فِي تلك الزيارات امتداداً للأحاديث السابقة: التقدم الذي حصل فِي تحضير البيت استعدادا للزواج؛ التغير الذي يحصل فِي حياة الرجل

بعد أن يتزوج؛ مباريات الفروسية؛ إضافة إلى أحاديث عابرة يفرضها الطقس والمسافرون، وما يجد مِنْ أحداث.

فِي إحدى الأمسيات، وما إن وصل غايب، حتى اقترح عليه أن يستعد بسرعة، لكي يقوما بزيارة هامة. لم يقل له أين أو لمن. وبدري الذي لم يكن قادراً على الرفض، نظر إليه، وتساءلت عيناه، لكن غايب، بمرح لا يريد ولا يقوى على إخفائه، طلب إليه الاستعجال، وقال رداً على التساؤلات التي تجول بالبال، دون أن تتحول إلى كلمات:

- راح تتذكر هالزيارة بعد سنين وسنين!

كان الآغا ينتظرهم. وغايب، الذي هيأ هذه الزيارة، كان فرحاً كطفل، إذ ظل يوزع نظراته بين الإثنين ليقرأ الآثار، خاصة على بدري، ليقول له، بعينيه، مدى الود الذي يكنه له، إذ أتاح له مثل هذا اللقاء مع الآغا!

بهذا الجو الحميم، وقد تخللته أسئلة كثيرة عن إقامته فِي كركوك، ومدى تأقلمه مع الطقس، والذي يختلف عن طقس بغداد، خاصة فِي فصل الشتاء، ثم سأله الآغا، بكثير مِنْ المرح والمودة، عن الرحلة الجديدة التي يستعد لها: الزواج، وأشعره أنّه يعرف ما عرضه غايب، وكيف اعتذر، وإنه يفهم ذلك. وبعد أن قُدم الشاي وعدة أنواع مِنْ فواكه الخريف المتأخرة، تمنى له الآغا حياة جديدة وسعيدة، ومليئة بالأطفال أيضاً. قال ذلك وهو يضحك، ثم التفت إلى غايب، وسأله ما إذا كان الولد فِي القلعة على معرفة بالأمر، وأنهم مستعدون لإقامة عرس «لأفضل ضابط مِنْ ضباط القلعة» وغايب الذي زايله الحذر، بعد أن أفعم الود الجو كله، أكد للآغا أنّه «تم اتخاذ جميع الترتيبات مِنْ أجل إقامة عرس لن تنساه كركوك لسنين وسنين!»..

هكذا كانت الزيارة، وقد تمت استعادة وقائعها، وبالتفصيل، فِي اليوم التالي، أثناء زيارة قام بها غايب وحامد معاً. وبدري الذي تحدث قليلاً أثناء زيارته للآغا، وكان أغلب الأحيان يرد على الأسئلة التي توجه إليه، أو يكتفي بتعليقات موجزة، كلما رأى ضرورة لذلك، كان حريصاً فِي اليوم التالي، وبرجاء أقرب إلى التوسل، على أن يكون العرس، إذا رغبت القلعة بالمشاركة، بسيطاً إلى أقصى حد ممكن، وقصيراً أيضاً!

حامد الذي لم يستطع أن يفهم، أو يقر، تحفظات بدري، وقد اعتبرها أقرب إلى الرفض، سأل بطريقة لا تخلو مِنْ تهكم قاسٍ:

ـ ما أدري ليش ما تريد تمالحنا، ما تفهمني؟

وحين نظر إليه بدري بعتاب، تابع:

- يجوز، بيوم مِنْ الأيام، كُلّ واحد منا كان بصفحة، انت بالسراي ونحن بديرة ثانية، بس صار لنا هنا، سنة، أكثر مِنْ سنة، وأنت تبيع نزاكة:

«رجاء؛ إذا ممكن؛ ممنون...» وما أدري بعد شنو، وكأنك تريد تبقى بعيد وغريب، صحيح لو مو صحيح؟

ردَّ بدري، وقد بذل جهداً كي يحافظ على هدوئه:

ـ رحت كلش زايد... يا أبو جميل... كُلّ اللي تقوله ما فكرت بيه، ولا ببالي: آني بالسراي وانت بصفحة ثانية، فشنو لزوم هذا الكلام؟

قال غايب، وهو يبتسم:

- يجوز أبو جميل أخذ على خاطره، لأنك ما قبلت صوغة الآغا، وكأنك ما تريدنا بزواجك نفرح وياك!

- يا جماعة الخير... آني كُلّ قصدي أن نسوي عرس بسيط، بليا خبصة، وبليا تكاليف زائدة. أما أن تفرحوا وياي فهذا اللي أريد، وأتمناه!

هجم عليه حامد، عانقه بحرارة وهو يقول:

- بعد اليوم ماكو تبيعنا نزاكة، إنت واحد منا، مثلنا، إي أم لا؟

- على بختك، أبو جميل، هاي ينراد لها سؤال؟

قال غايب، فِي محاولة للوصول إلى تسوية:

- راح نسوي الضروري، ومثل ما قلت: بليا خبصة، فخلها علينا!

ومع كُلّ يوم يمر يزداد البيت الذي استأجره بدري اكتمالاً وتألقاً. وإذا كانت لأم قدوري نقيصة، أو خطأ فِي تربية أولادها، فذلك الإفراط بتدليل ابنائها الذكور، خاصة بدري، مما جعله قليل المعرفة، وفِي أحيان كثيرة، مهملاً. ولولا المدرسة العسكرية التي قومته بعض الشيء، واضطرته للاعتماد على نفسه، لظل بحاجة إلى مساعدة الآخرين.

الآن، وهو يمضي بتحضير البيت، يجد قادر إلى جانبه ويساعده.

لذلك يتغير نظام الغرف كُلّ يوم. إذ بعد الاتفاق على اعتبار غرفة ما أصلح الغرف لتكون غرفة نومه، ولا يتم ذلك إلا بعد مشاورات مع قادر، وغالباً ما يتخلل الأمر اختلاف وإعادة نظر، وبدري وحده يمثل الرأي والرأي المخالف، لأن مهمة قادر تنفيذية، وهذا ما يؤدي إلى تغيير الترتيب.

يقول لقادر:

- هذه القبة شمالية، باردة بالشتا، فلازم نحولها للقعدة، لأنها لا تصلح للنوم.

ـ نحولها، شكو بيها!

- وهذا الصندوق، هنا، زايد، لازم نخليه بقبة ثانية!

- شكو بيها نخليه بقبة ثانية!

- وهذا الكنتور مايل.

- إي نعم مايل!

- نحط جواه وصلة خشب!

- شكو بيها، نحط وصلة خشب!

- وهذا الزرع، هنا هوايه، لازم نفرقه.

- شكو بيها... تفرقه!

وفِي الليل، قبل أن ينام، يستعيد بدري صورة أخرى للبيت، وإعادة ترتيبه، لكي يكون أجمل، أكثر تناسقاً، ويتذكر ما كانت تفعله أختاه، ما كانت تفعله أمه، وتتراءى له صورة زكية وهي تدخل البيت أول مرة.

ستصاب بالدهشة للتنظيم الدقيق، للانسجام والذوق، وحين تتطلع إلى غرفة النوم، وترى السرير النحاسي وسط الغرفة، وقد انسدلت فوقه الملاءات البيضاء، سوف تشعر بالخجل، بشيء مِنْ الارتباك. وماذا إذا أرادت هي، أو إحدى أختيه، أن تغير شيئاً فِي آخر لحظة؟ قال بدري لنفسه، وهو يختصر ابتسامته: «لا يمكن لامرأة أن ترضى عن طبخٍ أو ترتيب يقوم به رجل». وعنت له عمته زاهدة: «وهل سترفع الزوالي والبسط لتتأكد مِنْ النظافة؟» وخيمت عليه صورة أمه: «ستسبقها الهلاهل، ستملأ الفضاء، ولا بد أن تزداد حمرة وجهها حتى لتبدو مثل الطماطا» ضحك مِنْ هذا التشبيه، وعدله: «سيبدو وجهها مثل الشمندر». وحين تمر على غرف البيت، وترى ما بذل مِنْ جهد لإعداده وترتيبه، سوف تقول بصوت عال: «صلوات على محمد... هذا بابا أنت كله بوحدك سويته؟ ألف صلاة عليك يا محمد»، ولا بد أن تطلق الهلاهل مِنْ جديد، وستدمع عيناها مِنْ الفرح. وبعد ذاك ستتوالى كلمات الثناء والتقدير، وتنظر إليه زكية بطريقة تحمل معاني الحب والامتنان.

وما قرره فِي الليل، قبل أن ينام، مِنْ تعديلات عليه أن يجريها فِي اليوم التالي، ما تلبث أن تتغير، قليلاً أو كثيراً، وهو يحاول وقادر بين يديه يعمل ويردد كلمة لا يغيرها؛ شكو بيها... نجرب، نشوف!

ويوماً بعد آخر يقترب موعد وصول «أهل بغداد» كما أصبح يردد، فهو لا ينتظر وصول زكية وحدها، ولم يتعود بعد أن يذكرها بمفردها، كما أن شوقه للآخرين لا يقل عن شوقه إليها.

ويقرر أن ينتقل مِنْ القلعة إلى البيت، «لأن البيت الفارغ، كما قال لنفسه، يظل بارد وموحش، والنَفَس والناس تدفي البيت، تعمره، وبعدين لازم

التعود عليه، لأني راح أصير أبو بيت».

ونقل حاجاته القليلة إلى البيت الجديد. بدت تلك الحاجات زائدة، أو لا تتناسب مع الأشياء الجديدة اللامعة، والتي انتظمت ضمن نسق ارتضاه أخيراً، ووافقه قادر على ذلك. قال يمازح قادر:

ـ ترى بعد هالساعة ماكو أيّ كلام، وأنت لازم تقول لي: خلص، تمام؛ مو شكو بيها... ونجرب!

- شكو بيها... عمي ـ يعني كُلّ شي تمام؟

ـ تمام وانتظام... افندينا!

كان يود لو يطلب مِنْ قادر البقاء معه فِي البيت إلى حين وصول «أهل بغداد»، إذ يمكن أن يؤنسه وأن يساعده، لكنه شعر بالحرج، وقدر أن مثل هذا الطلب، والذي سيلبيه قادر بفرح ودون تردد، سوف ينتزعه مِنْ أسرته، وفيه الكثير مِنْ الظلم، مما دعاه لصرف النظر عنه. ومع ذلك ظل قادر يأتي فِي الصباح الباكر مع الخبز الذي خرج لتوه مِنْ التنور، والحليب، وبعض الخضار والفواكه، ولا يترك البيت إلا بعد أن يحل الظلام.

فِي اليوم التالي لانتقاله زاره غايب وحامد. تجولا فِي البيت، وأثنيا على ترتيبه وجماله، وتمنيا له السعادة والفأل الحسن. وتعمد غايب أن يلقي نظرة فاحصة على المداخل والحديقة ليقدر كيف يمكن أن تجري الزفة، هكذا أشار وهو لا يخفي غبطته.

ومر يوم آخر هطلت خلاله أمطار غزيرة، ورغم قلق بدري على المسافرين، واحتمال أن تعيقهم مثل تلك الأمطار، إلا أن تفاؤل قادر، وتوقعه أن تكون هذه السنة سنة خير، ثم تلك الرائحة التي ملأت الطبيعة، بعد أن ارتوت الأرض وغسلت الأشجار، جعلت كُلّ شيء يبدو ناصعاً متألقاً، وكأن الدنيا فِي ولادتها الأولى، خاصة وأن القمر تلك الليلة بدأ يظهر ويغيب، بعد أن تمزقت الغيوم وأخذت تتبعثر كالقطن فِي السماء.

قال قادر ليضفي جواً مِنْ البهجة، وليزيل قلق بدري:

- لازم تعرف يا أفندينا: المطر: كركوك وفوق، كركوك وجوا مطر قليل، مطر ماكو...

وبعد قليل، وحين اكتفى بدري بهزات مِنْ رأسه:

- وإذا جا مطر زين كُلّ شي يرخص، أفندي، والفقير يشبع!

ـ المطر هو الخير، قادر، وبليا المطر الناس تموت، أو تهاجر، وما يبقى فد شي يستاهل، تمام لو شكو بيها؟

ـ تمام... تمام أفندينا.

ورغم ما خلفته الأمطار مِنْ وحول فِي الطريق إلى بيت بدري، فقد جاءه فِي اليوم التالي غايب. جاء وحده، ومنذ اللحظات الأولى بدا أن فِي وجهه كلاماً يريد أن يقوله.

وبعد أن قدم لهما قادر الشاي، قال له غايب، وبطريقة أقرب إلى الأمر:

- خلينا وحدنا كاكا!

ما كاد قادر يغادر الغرفة حتى بدأ غايب:

ـ أكو موضوع صار لي مدة أريد أبحثه وياك، ولازم تفهمني زين...

كانت البداية بصوت مرتجف، غايب لا يزال يتهيب مِنْ طرح ما يريد طرحه، وقد ظهر ذلك مِنْ خلال نظراته القلقة، مِنْ خلال تغيير جلسته أكثر مِنْ مرة. قال له بدري لكي يشجعه:

ـ تفضل، قول اللي تريده وآني كلي آذان!

ـ المسألة بصراحة، ولأنا وثقنا بك، ونعتبرك، مثل ما قال الآغا، أفضل ضباط القلعة، نريدك تكون ويانا، واحد منا...

وحين لمح ابتسامة على شفتي بدري، وقد أربكته هذه الابتسامة، أضاف بعصبية:

ـ الباشا يريد يتخلص مِنْ كُلّ ضابط زين، مِنْ كُلّ ضابط محبوب...

وتغيرت اللهجة، أصبح غايب أكثر سيطرة على نفسه:

- ودون مقدمات، دون تفاصيل، وأنت تعرف كُلّ شي مثلي، أحسن مني، وأنت أصلاً واحد مِنْ الضحايا، ومر على عقوبتك أكثر مِنْ سنة ونصف ويجوز حتى الآن ما تعرف شنو الصوج، شنو الذنب، ويجوز تظل سنة، ثنتين، بعد، مشمور بكركوك أو بديرة ثانية، وماكو أحد يذكرك...

أخذ نفساً عميقاً، وغير جلسته ليصبح مقابل بدري تماماً:

- ووصلتنا معلومات مِنْ الجماعة اللي انقلوا لبغداد: تحقيقات انفتحت، ومعها التهديد والشتايم والرزالات وما أدري بعد شنو، وكُلّ المعلومات تؤكد أن الباشا ناوي على شر، وحتى إرسال الآغا إلى كركوك خدعة، فقررنا ندافع عن روحنا، ونريدك تكون معنا، واحد منا...

ولم يترك لبدري أن يسأل، أن يتكلم، تابع بلهجة صارمة:

ـ ولازم تعرف: الضباط كلهم ويانا، مو بس بكركوك، بأغلب القطعات، وبكل مكان. جماعة الشمال كلهم ويانا، والموصل، وحتى البصرة. ومثل ما

قلت لك: المسألة مربوطة ومظبوطة، وماكو أحد يقدر يوقف بوجهنا، وحتى إلنا جماعة داخل السراي، وبالساعة المناسبة، وإذا راد الباشا يغدر، يهجم، قبل ما يتعشى بينا لازم نتغدى بيه!

حين قال كُلّ هذا، بدا وكأن حملاً انزاح عن كتفيه، تطلع إلى عيني بدري مباشرة وكأنه يتلمس الجواب مِنْ العينين قبل أن يسمع الكلمات مِنْ الشفتين.

فوجيء بدري. إنّه الآن أمام مفارق طرق، ولم يُهيئ نفسه لسلوك أيّ منها. صحيح أنّه ليس مع باشا بغداد، فالجرح الذي خلفه فِي نفسه لا يمكن أن ينساه بسهولة أو بهذه السرعة، لكن لا يعتبر نفسه خصماً للباشا، وعليه أن يثار منه، أن ينضم إلى خصومه. ثم مِنْ هم هؤلاء الخصوم؟

وهل يمكن أن يكون الآغا أفضل مِنْ داود باشا؟

عشرات الأفكار والأسئلة تمثلت له وعصفت به، وغايب يتكلم. ثم إن هذه الأسئلة لا تحتمل الانتظار أو التأجيل، ولا بد مِنْ قول كلمة، مِنْ اتخاذ موقف. ربما قالت عيناه، ملامح وجهه، شيئاً جعل غايب يُضيف، ولكن براحة أقرب إلى الثقة هذه المرة:

- ما أريد أضغط عليك، وما نريد أحد ويانا بليا قناعة...

ابتسم، وعيناه تبحثان عن جواب فِي عيني بدري، وبعد قليل..

- إي نعم.. قناعة وحماس، لأن هذا الشي يتسوى بالعمر نوبة وحدة، وينذكر لولد الولد.

نهض، أخذ يتمشي فِي الغرفة. بدري لا يزال تحت وقع المفاجأة، وقد أحس بخطورة الموقف. اتسع الصمت الذي خيم على الغرفة وقسا.

وخطوات غايب، وهي تجرح الصمت، بدت ثقيلة متحدية.

فِي لحظة ما، قال غايب، وكأنه يضع نهاية للموقف الصعب:

ـ ما أريد جواب فوري. معك الليل بطوله، فكر، دانش روحك، ومعك باچر كله، إذا وصلت إلى جواب تعرف وين آني، إذا ردت تجي هلا وألف مرحبا، وإذا تأخرت، إذا احترت آني أمر عليك عقب باچر...

وقال له، وهو يودعه:

ـ لازم تعرف يابدري، لولا غلاتك عند الآغا، وعند كُلّ اللي يعرفوك، چان لا تعنت ولا حجيت وياك، لأن المسألة خالصة، وما تتوقف على واحد!

لم يشأ أن يقول له إن المسألة لا تتوقف عليه. لم يسمه، لكن بدري فهم جيداً ما يقصده ومن يعني!

إلى ما قبل هذه الليلة، كان الزمن ثقيلاً بطيئاً، إذ بعد أن غادرت قافلة كاكا محمود فِي طريقها إلى بغداد، أخذ بدري يعد الأيام. وكنوع مِنْ تسلية النفس، ومثلما كانت تفعل جدته فِي حساب أيام رمضان، إذ تجمع نوى التمر، وتعدها كُلّ يوم، لتعرف كم انقضى مِنْ الأيام، وكم بقي. ومع كُلّ يوم يمضي تردد: «وهذا يوم خلص»؛ طلب مِنْ قادر أن يأتيه بكمية كبيرة مِنْ الحصى، كي يحسب ما تبقى لوصول «أهل بغداد». وقادر الذي يحرص على الاتقان، ذهب إلى المجرى الكبير، حيث تتدفق مياه كركوك ومياه أمطار المناطق المجاورة، وانتقى مِنْ هناك مجموعة كبيرة مِنْ الحصى المصقولة والمتعددة الألوان. وهكذا أصبحت لعبة بدري الأليفة أن يسقط حصاة كُلّ يوم فِي وعاء معدني خصصه لذلك! كان، وهو يسقط الحصاة، بعد أن يرفع يده إلى أقصى حد، يسمع لها رنيناً عذباً، ويظل هذا الرنين يتردد فِي أذنيه لوقت طويل. ومثلما كانت تفعل جدته يحاول أن يفعل. ردد، وهو يسقط الحصاة الأولى: واحد، الله واحد؛ ومع الحصاة الثانية: اثنين، الله ومحمد اثنين؛ ومع الحصاة الثالثة: الله ومحمد وعلي ثلاثة؛ وواصل العد على طريقة جدته إلى حد معين، ثم لم تعد ذاكرته تسعفه ليردد كما كانت تردد، فترك الأحجار وحدها تتكلم، وتعد نفسها، مِنْ خلال رنينها العذب فِي الطبق المعدني.

ومع كُلّ حصاة تسقط يزداد فرحاً، عكس ما كان يحصل لجدته، إذ تريد أن يطول رمضان ويمتد إلى آخر العمر، وتحزن على كُلّ يوم يمضي.

أما هو، ومع سقوط كُلّ حصاة، فتتراءى له وجوه يحبها، ومعها ينتظر حياة جديدة ستكون قادرة على محاربة الوحدة والملل، وسوف يحس بالدفء، بفرح الآخرين بفرحه، خاصة حين يرى دموع أمه وقد تفجرت بدافع الفرح والحزن معاً، ولا تدري إن كانت سعيدة للأيام التي ستأتي أم حزينة على الأيام التي مضت!

ويستعيد بذاكرته محطات الطريق. كان الطريق إلى بغداد، رغم طوله، سريعاً قصيراً، خاصة فِي المرحلة الأخيرة، حين أخذت رائحة بغداد تزدحم فِي الجو. أما وهو عائد منها إلى كركوك، فقد طال الزمن وامتد الطريق إلى درجة وكأنه بلا نهاية. بل أكثر مِنْ ذلك راودته نفسه لو يتوقف، لو يترك القافلة. حتى رفاق الطريق فِي الذهاب، كانوا أكثر مرحاً وأكثر كرماً، أما حين عاد إلى كركوك فلم يستطع أن يتبادل مع الذين رافقهم إلا أقل الكلمات، ومضوا دون أن يخلفوا فِي نفسه أيّ أثر.

الآن، والحصى تزداد فِي الإناء المعدني، يشعر أن «أهل بغداد» اقتربوا، ولن تمر أيام إلا ويمتلئ البيت بالضجيج والضحكات والمرح، ويتغير كُلّ شيء. فكر، كمحاولة لاختصار الزمن، أن يلتقي بهم فِي الحويلة، أو فِي مكان آخر على الطريق، لكن مثل هذه الفكرة لم تدم طويلاً، إذ مِنْ الخفة أن يُظهر عواطفه بهذه السرعة أو بهذا المقدار. ماذا ستقول زكية، أو بالأحرى ماذا ستقول أختاه وعمته زاهدة، وربما أمه أيضاً، بعد أن أرهقهم طوال سنوات برفضه، ليس الفتيات المقترحات لأن تكون واحدة منهن زوجة له، وإنما وهو يرفض مجرد مناقشة فكرة الزواج، أيليق به الآن، كما يفعل العشاق، الانتظار على قارعة الطريق؟

هذه الفكرة، وهي تراوده الآن، لشعوره ببلادة الزمن، أنّه لا يتحرك إلا كما تتحرك الأشجار، يترنح لكن لا يتقدم، لا يخطو مجرد خطوة للأمام.

حتى الرنين العذب للحصى وهي تهبط فِي الإناء خلال الأيام الأولى لم تعد كذلك الآن، رغم أنّه يحاول، كما تعلم فِي العسكرية، إسقاط الحصاة فِي مكان فارغ كي لا تقع على اللواتي سبقتها، ومع ذلك ينبعث الصوت مخنوقاً كتيماً كأنه لا يريد الاعتراف أن يوماً آخر قد انقضى!

حين جاءه غايب تلك الليلة، وقال الذي قاله، لم يستطع أن ينام! بذل جهداً، وهو يتقلب؛ غير الوسادة أكثر مِنْ مرة؛ أحس بالعطش فشرب وحمل معه كوباً ليكون قريباً منه، لكنه لم يستطع أن ينام لحظة واحدة، وجاء الفجر سريعاً أيضاً، وملأ النور كركوك كلها فجأة، ولم يستطع أن ينام!

ذهب إلى القلعة، ولم يفطن أنّه لم يرم الحصاة فِي الإناء المعدني إلا وهو فِي ساحة التدريب! حاول أن يتذكر عدد الحصى، عدد الأيام التي مضت وتلك الباقية، وجد نفسه مشوشاً مضطرباً، تذكر ولم يتذكر. ومر الوقت أسرع مما أراد ومما قدر.

وإذا كانت عادته أن لا يشرب إلا فِي المناسبات، ومع الآخرين، فقد وجد نفسه يكلف أحد العناصر فِي القلعة أن يشتري له مِنْ المدينة قرابية مِنْ العرق، وأن يأخذها مباشرة إلى البيت!

قال لقادر إنّه متعب وينوي أن ينام مُبكراً، لذلك يمكن أن يغادر فِي الوقت الذي يشاء لأنه ليس بحاجة إليه. وقد فهم قادر أن عليه المغادرة، وهذا ما فعله. لأول مرة فِي حياته يسيطر عليه الشعور أنّه وحيد، محاصر وعاجز. أكثر مِنْ ذلك، يشعر أنّه بمواجهة تجربة لا يحبها ولا تعني له شيئاً، وعليه أن يكون جزءاً منها رغماً عنه. لا يستطيع أن يقول نعم لغايب أو حتى لسيده، ولا يعرف كيف يمكن أن يقول: لا. ولماذا يريد الجواب اليوم أو غداً؟ ماذا لو تركوه؟ ماذا لو تركوه إلى أن يتزوج، إلى أن يصل «أهل بغداد؟؟» هؤلاء الذين يقطعون الطريق إليه الآن، وقد جاءوا تعبيراً عن الود، عن الأيام

الجميلة التي كانت ومع الحلم أن أياماً أجمل ستأتي، وسيكونون معاً. هل الأمر عاجل إلى هذه الدرجة؟ وماذا لو كان معهم أو لم يكن، هل يغير ذلك فِي الأمر شيئاً؟

ثم كيف انقضت الليلة الفائتة بهذه السرعة دون أن يستطيع الوصول إلى أيّ موقف؟ وكيف انقضى اليوم أيضاً دون أن يحس بمروره؟ كان مشوشاً إلى درجة لا يقوى على استعادة الأفكار التي مرت بسرعة فِي رأسه. كانت مضطربة، متداخلة، سريعة، وكان الزمن سريعاً. «ما أريد جواب فوري، معك الليل بطوله، فكر، دانش روحك، ومعك باچر كله، إذا وصلت إلى جواب تعرف وين آني، إذا ردت تجي هلا وألف مرحبا، وإذا تأخرت، إذا احترت، آني أمر عليك عقب باچر».

هكذا قال له غايب. قال الكلمات الأخيرة، وكان ينظر إليه ويبتسم بطريقة فيها السخرية والتحدي معاً. وانقضى الليل. لم يفكر، أو بالأحرى لم يفكر بهدوء، بالطريقة التي تعودها، ورغم أنّه بقي صاحياً الليل كله لم يتمكن مِنْ بلورة أية فكرة، أيّ خيار. وحين رنت بذاكرته كلمة «دانش» ضحك بسخرية «لشد ما تكون قاسية بعض الكلمات!».

فِي لحظة ما، أثناء التدريب، عن له أن يذهب، هرولة، إلى غايب، أن يفتح الباب بقوة، ويقول له: «لا يمكن أن أكون معك أو مع الآغا؛ ويجب أن تعرف: أنا لست مع الباشا». لو فعل. لو قال له ذلك، لفهم غايب شيئاً واحداً: «لا أريد أن أكون معكم»، وغير ذلك لا يعنيه، أو لا يعني له شيئاً هاماً. وماذا يمكن أن يفعل أيضاً؟ هل يتركه ليمضي هكذا؟ هل يكظم غيظه، كما حصل أثناء الاعتذار عن قبول المبلغ الذي قدمه كهدية مِنْ أجل الزواج، أم سيأمر رجاله، وبغضب، بالتحفظ عليه، أو ربما باعتقال هذا الضابط المتمرد؟

تراءت له صور كثيرة للآغا، فِي بغداد، وفِي أماكن أخرى. حين كان يأتي إلى السراي، حين يغادر السراي؛ فِي القلعة؛ وبعد الانتصارات. كان يمشي مرحاً، تياهاً، فخوراً إلى أقصى حد. وتذكر حفلة القلعة، كان، رغم تواضع ملابسه، يريد أن يقول للجميع، دون كلمات، مِنْ هو، ومن هو الباشا. أو ماذا يعني الباشا لو لم يكن إلى جانبه! وقد وصلت الرسالة، لكن الباشا يعرف، أكثر مِنْ أيّ شيء آخر، وأكثر مِنْ أيّ إنسان آخر، كيف يخفي عواطفه. إنّه يمتص الضربات كما يمتص القطن الماء. أما الآغا، ورغم محاولاته أن يكون متواضعاً، وبعض الأحيان محباً، إلا أن ما بداخله ينز إلى الخارج، يظهر فِي لحظة معينة، مِنْ خلال التفاتة، مِنْ طريقته فِي السؤال، أو حتى ردَّ التحية!

ولا يمكن لبدري أن يكون واحداً مِنْ رجاله، أن يحبه، أن يكون معه إلى النهاية. صحيح أنّه يطيعه الآن، ينفذ أوامره، لأن العسكرية علمته أن يطيع

رؤساءه، أن ينفذ أوامرهم، لكن إذا خرج على الباشا، إذا اختلف معه، فلا يمكن أن يكون معه.

تراءت له هذه الصور قبل أن يشرب، وتراءت له وهو يشرب، ولا يعرف ما إذا تبعته إلى السرير، لأنه لا يعرف كيف وصل إلى السرير، أو متى نام.

وانقضت المهلة التي حددها غايب. انتهت كالحلم وأسرع مِنْ البرق.

ماذا سيرد عليه إذا جاءه اليوم؟

وفجأة وجد نفسه فِي اليوم التالي يذهب إلى حامد:

- حامد أنت تعرفني أحسن مِنْ غيرك، ويجوز تقدر تفهم موقفي...

وتعمد حامد ألا يفهم، هز رأسه ويده مستوضحاً، دون أن يتكلم، تابع بدري:

- تعرف وضعي، خاصة بهالأيام: مخبوص، وراسي ما أقدر أحكه وكُلّ فكري يم الجماعة اللي راح يوصلون بين يوم والثاني، فلخاطر الله هدوني، فكوا عني باقة..

وتعمد حامد ألا يفهم أيضاً، سأل وهو يبتسم:

- أشوفك تحچي ألغاز اليوم،. شنو القصة، ما تفهمني؟

ـ لا تتجاهل.. أنت تعرف كُلّ شي، ردَّ بدري، وأريدها منك!

- بس قل لي شنو المطلوب، شنو اللي رايده مني؟

- تقول لغايب يتركني، حتى اشوف دربي!

- أشوفك متوازي وصاير عصبي هوايه، وكأن غايب زعلك، أو مسوي وياك فد مكسورة...

صرخ على الحاجب، ليأتيهما بالماء والحامض. وتابع بمرح:

- نحن أخوة، خاصة بهالديرة الكشرة، والواحد منا للثاني، فإذا زعلك غايب، إذا صار فد شي، يتصلح، فلا تدير بال، يا معود!

وتعمد بدري أن يبقي الأمور بهذا الشكل، واضحة بمقدار وغامضة بنفس المقدار، وهذا مِنْ الدروس التي تعلمها أثناء مرافقة الباشا، لأن أية كلمة زائدة قد تؤخذ عليه، ويدفع ثمنها، وحامد تعلم دروساً متشابهة، ولذلك لم يلح ولم يسأل.

فِي اليوم التالي جاءه غايب، جاء وحده ليعطيه أكثر مِنْ درس:

- لولا الثقة والمعزة، يا بدري، ما چان حچيت وياك كلمة واحدة!

- خير... شنو اللي صار؟

ـ الكلام چان بيني وبينك، وماكو أحد ثالث، صدق لو لا؟

- إي نعم.

- وبدل ما تجيني وتحچي وياي رحت لغيري؟

- حامد مو غريب، وكُلّ ما قلته إني مخبوص بهالأيام، وما أقدر أفكر بفد شي، نخلي غايب يتركني! ابتسم غايب، فِي محاولة لأن يغير الجو قليلاً:

ـ أقدر ظروفك، وكُلّ ما ردته منك كلمة، كلمة واحدة: تريد تكون ويانا؟ واحد منا؟ أم لا؟

وتغيرت النبرة تماماً:

ـ أصلاً لو صار فد شي، وأنت بهذي الظروف، وحتى لو ردت تشارك ويانا، نحن ما راح نقبل، راح نقول لك: هسه مو وقتك، روح هسه تنوس، وبعدين يجي دورك، لأن كُلّ شي بوقته زين!

قال بدري، ولم يخل صوته مِنْ حدة:

- آني قدمت على إجازة، إجازة زواج، وأنت تعرف: الضابط المجاز كأنه خارج الخدمة، لا يقدر يعطي أمر، ولا يتكلف بمهمة!

- كُلّ اللي أريده منك، يا بدري، كلمة: ويانا لو ويا الباشا؟

- آني، بدءاً مِنْ اليوم، بإجازة، وبعد الإجازة الله كريم!

هز غايب رأسه مرات عديدة متوالية وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

- زين... زين...

وبعد قليل، وكان ينظر إليه بغيظ وسخرية معاً:

ـ قال لنا الآغا: «انطوه فرصة ثانية، يمكن الله يهديه ويصير واحد منا».

لكن يبين أنك ما تريد، لو أني غلطان؟

- أريدك تعرف فد شي واحد: آني مو ويا الباشا!

ـ إذا مو ويا الباشا، مو ويانا، ويا منو حضرتك؟

- يمكن تقول اللي تريده، غايب، لكن لازم تعرف: آني ما أريد أكون ويا أحد، مو بس هالشكل، أريد أخلي العسكرية لأهلها وأمشي، أريد أصير بقال، صاحب علوة، بياع شرا، ولا دوخة الراس هذي: ويانا لو ويا غيرنا، هذا رأيي بالمختصر المفيد!

- أشوفك حمقان كلش، وكأن أحد أكل خبزتك!

- ماكو أحد ياكل خبزة أحد، إلا إذا الواحد خلص عمره!

- هذا رأيك الأخير؟

- وتسلم على الآغا، وتقول له: بدري قرر يستعفي!

- وترجع إلى بغداد وهناك تشتغل؟

- حتى حمال مستعد اشتغل، شكو بيها.. بعدني بشبابي وقوتي!

- بعد ما صرت عصبي هالشكل، وضايج منا، يجوز حتى بعرسك ما تريد تشوفنا؟

- كُلّ شي بوحده، غايب. فإذا شلنا هذه القصة على صفحة، فالله يحييكم بكل وقت وبكل مكان، هنا وببغداد، اليوم وباچر.

وبعد قليل، وبجو حاول بدري أن يجعله مرحاً:

- وأزعل إذا ما شفتكم بالعرس، وانت مفوض تعزم اللي تريده!

- زين... زين، وعلى بركة الله.

حتى القرارات الخاطئة، وتلك التي لم يفكر فيها الإنسان مِنْ قبل، حين تُتخذ، تجعل مِنْ اتخذها إنساناً مختلفاً. قد يندم للحظة، وربما يلوم نفسه، لكن فِي لحظة أخرى يشعر بنوع مِنْ الراحة، فقد اتخذ القرار، ولا بد الآن مِنْ مواجهة حالة جديدة تختلف عن السابق.

بدري الذي قضى ليلتين حائراً مؤرقاً، ولا يعرف ما إذا نام أم لا، ورغم أنّه لم يفكر ولم يحضر لما سيقوله لغايب، ولم يدر فِي باله، ولو لمحاً، أن يعلن، وبهذا الحسم، رغبته فِي ترك العسكرية، حتى لو اضطر أن يعمل حمالاً، وجد نفسه، بعد أن قال الذي قاله لغايب، إنساناً آخر:

أكثر حرية، وأكثر استعداداً لكل شيء.

قال لقادر، وهو لا يقوى على اخفاء نوع مِنْ الفرح انفجر فِي داخله:

ـ شنو رأيك، قادر، لو نشتري، أنا وأنت، قاع، وتفلحها ونزرعها؟

- شكو بيها، عمي، نشتري!

- ونزرعها حنطة لو شلب؟

ـ الحنطة أحسن، عمي!

- حنطة لو أشجار؟

ـ الأشجار أحسن وأحسن، عمي!

وبكركوك لو ببغداد؟

- بكركوك أحسن، عمي!

- ومنو يشتغل بيها؟

ـ أنت ما عليك، كُلّ شي علي، عمي!

- وشلون نتقاسم المحصول؟

ـ اللي تنطينياه، اللي ترضى بيه نفسك، يكفي وزود، عمي!

- وإذا اختلفنا، قادر؟

ـ إن شاء الله ما نختلف، عمي!

- هاي دنيا، كُلّ شيء يصير بيها، فإذا اختلفنا؟

ـ ما نختلف، إذا قلبي قال لي إنك ما تريدني، أقول لك فِي أمان الله، عمي!

- وإذا آني ما وافقت، واختلفنا؟

ردَ قادر الذي أحس باللعبة:

- تعرف... عمي!

ـ شنو؟ قول.

ـ الأحسن، عمي، ما نشتري القاع، حتى نظل أصدقاء!

وضج الإثنان بالضحك. بعد أن هدآ، قال قادر بنوع مِنْ العتاب:

ـ الصبح اشتريت جوز مال الحويلة، أحسن جوز بالمنطقة، وأنت ما ذقته؛ والبارحة جبت رمان بعقوبة، ما مديت إيدك عليه، شنو خايف تمد إيدك على الشي اللي أجيبه؟

ولم يتركه ليجيب، حمل صحناً مِنْ الجوز، وبدأ بتقشير رمانة. ما إن رأي بدري حبات الرمان حتى تذكر الحصى. قال لنفسه، بعد أن نسي رمي حصاتين عن اليومين السابقين «صار لازم نكرف الحصو ونشمره». نهض بسرعة، التقط الحصاة الأولى، رفع يده إلى أقصى حد، وترك الحصاة تهبط، سمع لها رنيناً عذباً لم يسمعه فِي الأيام الماضية. التقط حصاة ثانية، بدا منشرحاً، رماها بنفس الطريقة، وسمع لها أيضاً ذات الرنين. قال القادر:

- لازم باچر أمر على رضوان قره غولي واسأله شوكت توصل القافلة.

- شكو بيها، لازم نسأله...

وبعد قليل، وقد برقت عينا قادر:

- تريدني أروح هسه، عمي، آني أعرف بيته؟

ـ الصباح رباح، قادر، ومثل ما يقول أهل بغداد: صابح القوم ولا تماسيهم!

كان رضوان منشرحاً فِي ذلك الصباح المشمس، وربما عاد لتوه مِنْ الإسطبل الواقع فِي الجهة الجنوبية مِنْ الخان، فحبات العرق الصغيرة تتناثر على جبينه، ورائحة الخيل تملأ ملابسه. ما إن رأي بدري، وبعد أن صافحه بحرارة، حتى قال، وخرج صوته عميقاً:

- ابن الحلال عند ذكره.

ابتسم وهو يُضيف:

- لو متأخر فد ساعة زمان چان ما شفتني إلا وطاب عليك!

ـ القلوب سواجِي يا أبو شامل. قول. بشر - الله يبشرك بالخير..

وقبل أن يتابع أمسك بيد بدري، عند الزند، وهو يدفعه بمودة:

- شمسة اليوم دافية، حلوة، خلنا نقعد ونسولف.

وفِي الفسحة الداخلية للخان، وتحت شمس الخريف الدافئة، جلسا.

ورغم أن لدى الأسطة رضوان ما يقوله، إلا أن الفضول، وربما التحسب، لما يجري وراء أسوار القلعة، دفعه لسؤال بدري ما إذا حرب جديدة قد تقع. ولما ابتسم بدري، ونفى أن يكون احتمال مثل هذا وشيك الوقوع، ردَّ رضوان بتورية:

- بشرتني، الله يبشرك بالخير، لأن الآغوات لمن اشتروا دواب كركوك كلها قلت لروحي: خلص، مصبحة مسية!

وبعد قليل، وهو يفرك يديه استعداداً ليزف الخبر السعيد:

- ترى الجماعة اليوم بالحويلة...

وقبل أن يتابع هدر صوته بقوة منادياً على أحد العاملين فِي الخان، طالباً أن يأتوا بالشاي، بالحامض، بالماء البارد، والتفت إلى بدري:

- وصل طارش البارحة بالليل، وصل قبل الكروان؛ وقال: الجماعة، إذا الله يسر، يكونون بطرفنا عقب باچر العصر..

ابتسم رضوان قره غولي، كانت ابتسامته كبيرة، وهو يربت على ساق المري، ويضيف:

- وآني مِنْ يمي أنطيته الحلوان، وقلت له: طمن روحك راح نبلغ الجماعة هنا حتى يكونوا حاضرين.

وإذا كان اليومان السابقان قد مرا سريعاً، أسرع مِنْ أية أيام أخرى، فإن اليومين اللذين يبدآن منذ هذا الصباح الخريفي لا تلوح لهما نهاية.

حركة دؤوبة لا تتوقف. كميات كبيرة مِنْ الخضار والفواكه تنقل إلى البيت. زوجة قادر ومعها قريبتان يصلن مِنْ أجل إلقاء نظرة والتأكد مِنْ عدم وجود نواقص، خاصة فِي الأمور المتعلقة بالمواد التموينية والأدوات. ثم القيام بعمليات تنظيف أخيرة، مِنْ كنس ومسح وما شابه ذلك. إلى التوصية على كميات مِنْ الخبز والحليب والبيض، على أن يتم توريد قسم منها فِي اليوم التالي، ثم بعد ذلك، وقد يُطلب زيادتها أيضاً. هذا عدا عن الخراف السبعة التي اشترها بدري، وحجزت فِي القسم الخلفي مِنْ البستان، كما وصلت، وعلى دفعات، مجموعة إضافية مِنْ الخراف: خمسة رؤوس مِنْ الآغا، واثنان مِنْ حامد ومثلهما مِنْ غايب، إضافة إلى كبش كبير، وقد عُلق جرس فِي رقبته، كان هدية مشتركة مِنْ الزملاء فِي القلعة! كما بعث رضوان قره غولي بخروفٍ عمره سنة. وحين سمع بدري أصوات دجاج فِي القسم

الخلفي، وسأل عن الأمر، ردَّ قادر، وكانت عيناه ترفان بخجل، أن الدجاج هدية منه ومن أصدقاء آخرين لم يذكرهم!

هدية الآغا أولاً، ثم هدية غايب، وبنسبة أقل هدية حامد، لم تلفت نظر بدري فقط، بل جعلته يفكر ويتساءل، إذ ربما بعد أن تشاوروا، اعتبروا موقفه لحظة نزق، تماماً كما كان الأمر بالنسبة لرفضه هدية الزواج، وبالتالي يمكن تجاوز هذا الموقف واعتباره وكأنه لم يكن.

ومع الحركة والأصوات، ومع وصول الهدايا، أو الأشياء التي تمت التوصية عليها، يزحف الوقت بطيئاً. تمنَى بدري لو أن بعض أفراد العائلة أو الأصدقاء، وصل قبل الآخرين، إذن لاستطاع أن يتدبر أمره بشكل أفضل. صحيح أن قادر لا يفارقه إلا فِي الليل، حين لا يحتاج إليه، لكن يحس أنّه بحاجة إلى آخرين أيضاً، إلى أناس يعرفهم منذ وقت طويل. لو أن أحداً منهم موجود لشعر بثقة أكبر، وقد يتفتق ذهنه عن أفكار واقتراحات عديدة، ليكون كُلّ شيء أجمل.

فكر بأخوته، بسيفو، بالأسطة إسماعيل. قال لنفسه، وقد شعر بغصة:

«لا يتسنى للإنسان أن يجد أو يكون له أخوة وأصدقاء، حين يرغب أو كما يريد، لأن هؤلاء لا يكونهم إلا الزمن» أعجبته الفكرة، لكن وهو ينظر إلى قادر، شعر نحوه بفيض كبير مِنْ المودة. لا، ليست المودة تماماً، وإنما الثقة الممزوجة بالشفقة. إنّه يعرفه ولا يعرفه، يحس أنّه بحاجة إليه، لكن لا يكفيه. قال لنفسه، وهو يبتسم: «سيفو مثل الذهب العتيق، قبل ما تقول الكلمة يعرف شنو اللي تريد تقوله، شنو اللي تفكر بيه»، ووجد صوته يخرج دون إرادته:

ـ القوة يا أبو فلاح، مساك الله بالخير؟

التفت قادر إلى أكثر مِنْ جهة ليعرف إن كان بدري يكلم أحداً، قال بدري وهو يضحك:

- راح يجي فد واحد ويا الجماعة، إسمه سيفو، ويصيحوه أبو فلاح، إذا شفته راح تحطه بقلبك، كلش خوش ولد!

- شكو بيها، نتعارف، ونسولف وأزوره كركوك، أعرفه عليها كلها...

وحين وجد بدري يسافر ويتذكر، سأله:

- عمي... هذا أبو فلاح أخوك؟ قرايبك؟

- هذا مثل أخ، أغلى مِنْ الأخ!

- وشيشتغل، عمي، هذا، أبو فلاح؟

- اشتغل سقا وبعدين بطل!

- وبعدها ما اشتغل؟

- چان يدور على شغل، ويجوز صار ملاح!

ـ يعني مثلي، چنت أبو بستان، وهسه ما أدري شنو!

قال بدري بمرح:

- ومثلي آني، هسه ضابط، وباچر ما أدري شنو!

وفِي ساعة متأخرة أكل بدري بشهية، وشاركه قادر. أما وهما يأكلان الفاكهة، وحين لمح الرمان، فقد نهض بسرعة، التقط حصاة، والتقط أيضاً الصحن المعدني، حمله إلى قادر، وهو يقول:

- الزمه زين، وآني راح انيشن عليه، حتى أشوف حظي ونصيبي!

سلمه الصحن، وتراجع خطوتين أو ثلاثاً، قال وهو يوازن نفسه ليلقي الحصاة:

- يا حظ بدري!

لولا براعة قادر، وهو يميل الصحن قليلاً، لأفلتت الحصاة. قال قادر بمرح:

ـ تمام... أحسن نيشنجي بالقلعة!

- إي، شكو بيها، قول اللي تريده!

أما وهو يودع قادر، وقد خرج معه إلى الباحة، فقد رأى القمر كبيراً يملأ ضوؤه السماء، وكان يضفي على الأشجار والبيوت البعيدة، وعلى كُلّ الأشياء، جمالاً حزيناً، أو كأنه يغطيها بغلالة مِنْ الضباب. قال لنفسه، وكان يقفل راجعاً، بعد أن سمع خطوات قادر تشق الظلمة الخفيفة: «لو كان القمر كالشمس، يكتمل كُلّ يوم، لما نظر إليه أحد. ولو كانت الشمس كالقمر لا تكتمل إلا مرة فِي الشهر لبدت وجوه الناس أجمل، ولكانوا أقل سوءاً» أبتسم لهذه الفكرة الغريبة التي لا يعرف كيف عنت له!

قال وهو يتمدد على الأريكة المواجهة للسرير النحاسي: «السرير إذا كان ضيقاً أكثر مِنْ اللازم لا يريح، وإذا كان أعرض مِنْ اللازم، وينام فيه الإنسان وحيداً، يشعر أنّه فارغ» وتراءت له زكية وهي تتمدد على السرير، إلى جانبه، أبتسم، وقال: «لن يكون ضيقاً أكثر مِنْ اللازم، ولن يكون أعرض مِنْ اللازم».

فِي الصباح التالي، وما إن ذرذر الضوء، حتى امتلأ الجو بصياح الديكة وثغاء الغنم. أما تغريد الشحرور الذي كان يوقظه كُلّ صباح منذ أن نزل فِي هذا البيت، وكان يطرب لسماعه، ويتفاءلِ به، فقد حاول أن يميز صوته بين

الأصوات، لكن لم يستطع، خاصة بعد أن سمع شتائم قادر وهو يتعامل مع هذه الحيوانات. قال لنفسه، وهو يلقي نظرة على السرير النحاسي الفارغ، بعد أن حلم أنّه ينام فيه: «الشحرور طير خجول، أو ربما جبان، وقد يكون شاعراً أيضاً، لأنه آخر مِنْ ينام بين الطيور، وأول مِنْ يستيقظ، إنّه يخجل أو يخاف مِنْ نظرة، مثلما هي المرأة قبل أن تعرف الرجل».

ومثلما كان اليوم السابق بطيئاً، كان يوم الأربعاء أيضاً. ولأن لدى قادر الكثير ليفعله فِي ذلك اليوم: تحضير الحطب والفحم، جلب فرش إضافية مِنْ الخان الكبير، بعد أن أبلغه الأسطة رضوان، وفقاً لما نقله الطارش الذي وصل قبل القافلة، عن عدد الضيوف المرافقين للعروس، وبناء لرغبة بدري أن ينزل أغلب الضيوف فِي بيته، وافق الأسطة أن يعيره الفرش اللازمة؛ ثم انشغال قادر أيضاً بإعادة التوصية على ما يحتاجه الضيوف:

الحليب واللبن، الخبز والبيض، وحتى العسل، وقد أكد على العسل بصوت عالي ليسمع بدري، وأتبع ذلك بابتسامة ذات معنى!

لأن قادر كان مشغولاً بهذا المقدار، وقد بدا عصبياً نزقاً وهو يتعامل مع الذين جلبوا الحطب، والذين جلبوا العلف، ثم مع النسوة اللواتي رافقن زوجته لتحضير البامياء وأنواع أخرى مِنْ الخضرة، لتكون جاهزة للطبخ حين يصل المسافرون، فقد شعر بدري أن عليه القيام بعمل ما، ليتغلب على الزمن، ليجعله يتسرب كما تتسرب المياه مِنْ بين الأصابع، ليقنع نفسه أنّه نافع ويمكنه القيام بعمل ما. وإذا كان قد طلب مِنْ بعض النسوة أن يكنسن المداخل والباحة الخلفية، فقد اهتم بسقاية الزرع، فِي المداخل.

وعلى أطراف الشبابيك، ثم التفت إلى البستان.

كان، وهو يسقي الأشجار، وبعد أن قال الذي قاله لغايب، يحس نحو تلك الأشجار بمودة. إنها تعطي، تعطي كثيراً، دون أن تتكلم، دون أن تطلب مِنْ الآخرين شيئاً. حتى الماء الذي تحتاجه، تحاول أن تنتزعه مِنْ الضباب، مِنْ الندى، وتحتفظ به إلى أن يأتي المطر. أما إذا حن عليها الإنسان، ومنحها ما يكفيها مِنْ الماء، فإنها لا تتأخر كي ترد إليه التحية:

تنتعش الأوراق، تكبر، تخضر، وتتشبث بالأغصان كالأطفال الذين يرفضون الفطام. قال لنفسه، وهو يحمل الماء لشجرة سفرجل اعتلت تلة فِي البستان، وكان الماء لا يصلها عبر القناة: «الأشجار أكثر نبالة مِنْ الإنسان، لأن كُلّ واحدة منها لا تزاحم غيرها، فهي تنتظر، تحتمل، ومتأكدة أن الماء سيصلها فِي وقت ما، لكن إذا طال انتظارها، إذا عطشت، فتعرف كيف تحتج، إذ تخبئ نفسها داخل أغصانها، وبعض الأحيان داخل الجذور وقد تغادر نهائياً».

وفكر، وهو يسقي الأشجار، لو أنّه يعطيها أسماء مِنْ عنده. ابتسم.

نظر إلى الصف الطويل، المتتابع مِنْ أشجار الفاكهة. قال بصوت عالٍ، وقد التفت قبل أن يتكلم:

- لو ردت اسميها، اسميها بأسماء الولد أو البنات؟

وتذكر النخل. قال: «كركوك الحد الفاصل بين الشمال والجنوب، لأن النخل، حتى لو نما وكبر، يظل قليلاً وغير مثمر» وأضاف بحزم:

«التلقيح ضروري، لأن الأنثى، بشراً وحيواناً وشجراً، لا شيء لولا الذكر».

وتذكر ما كانت تقوله جدته حين كانوا يذهبون إلى بستان أبو حمودي، سليمان وداي، إذ كان فِي مقدمة البستان شجرة توت كبيرة. كانت الجدة تسأل: هذي بيها تكي لو ما تحمل؟ وحين تجاب انها ذكر، ترد، وهي تخفي ابتسامتها، بأن تضع يدها على فمها:

ـ حتى فحل التوت بالبستان هيبة!

لقد سألت جدته عن تلك الشجرة عدة مرات، ورددت المثل نفسه، فِي كُلّ مرة، وكأنها تريد أن تعطي درساً!

قال بدري، وهو يواصل سقي الأشجار: «حتى لا نختلف، إذا ردنا نسميها، نسميها سوا، آني شجرة، وزكية شجرة». وتذكر ما قاله لغايب، تابع بحدة: «خلي غيرنا يسميها، لأن قبل ما ينقضي أسبوع والثاني إلا ونقول لكركوك: فِي أمان الله، ومسلمين عليكم، يا جماعة».

وجرجر اليوم نفسه بصعوبة. أما عند أول المساء فقد زاره حامد. بدى أنيساً مجاملاً فِي هذه الزيارة. قال إنّه جاء ليسأل ويتأكد ما إذا كانت هناك حاجة لأية مساعدة يمكن أن يقوم بها أو تقدم مِنْ القلعة. وأشار إلى أن الآغا يعرض بيت طلعت باقة مكاناً لنزول الضيوف، إن كانوا بحاجة إليه.

وبدري الذي لام نفسه لأنه كان قاسياً جلفاً، مع غايب، شعر أن الآغا ليس بالسوء الذي تصوره أو افترضه. شكر حامد على عواطفه وما عرضه مِنْ مساعدة، وأبلغه أنّه رتب كُلّ شيء، بالاتفاق مع رضوان قره غولي، وفيما لو احتاج إلى مساعدة مِنْ أيّ نوع لن يتردد بطلبها.

وعند مدخل البيت، وفيما كان بدري يودع حامد، جاء رؤوف موفداً مِنْ رضوان قره غولي.

كان رؤوف، وهو يتكلم، يضج بالحيوية، إذ يتحرك جسده كله، كما تتحدث عيناه ويداه وتسبق كلماته أكثر الأحيان!

بعد أن هنأ بدري، وتمنى له حياة سعيدة، أبدى أسفه أنّه لم يكن موجوداَ أثناء زيارته للخان، وأكد له أنّه ما كان ليتركه قبل أن يزور الاسطبل ويتفقد الخيول، ثم أضاف بكثير مِنْ المرح:

- وما دام فاتك تشوف الأصايل اللي عدنا، دزني أبو شامل، وطلب مني أبلغك: الخيل كلها تحت تصرفك، يا هو منها تريد فنحن حاضرين. وحين شكره بدري، وأبلغه أن مهيوب، حصانه، يلبيه تماماً، وقد تعود عليه، ولا يفضل حصاناً آخر غيره، ردَّ رؤوف بيديه ووجهه، وبدا صوته مرحاً:

- كركوك كلها تعرف شنو مهيوب، والناس شافته بعيونها، بالسباقات، بالاستعراض، بكل مكان، وهذي ما ينراد لها شهادة، لكن....

وضج بالضحك قبل أن يتابع:

- بس كُلّ الناس تقول: الفرس مِنْ الفارس!

خفض بدري رأسه خجلاً لهذا المديح، ولم يعلق. أضاف رؤوف وقد تغيرت نبرة الصوت وارتجف الحاجبان:

- وآني قلت لأبو شامل: إذا بدري بك ركب واحد مِنْ خيلنا، وشافته الناس، تنطش بكركوك كلها، ولا بد توصل للآغوات، وبعدها الحصان اللي چان بمية ينباع بألف!

- بعد قدامنا أيام وأيام، وإذا ما صارت هالنوبة تصير نوبة ثانية...

وبعد قليل، وليخفف مِنْ مبالغة رؤوف ومن حماسه:

- وبعدين... الخيل ثمنها بيها، مو مِنْ غيرها، واللي يعرفون بالخيل يميزونها حتى لو شافوها بأرضها، بليا ركوب أو سباق!

- لكن إذا ركبها بدري بك غير شكل؛ كُلّ آغا يقول للثاني: باوع زين كاكا، هذي فرس ركبها بدري بك، اللي فاز بكل سباقات القلعة!

وبدعابة، وبأحاديث متنوعة، تمكن بدري مِنْ صرف النظر عن استبدال حصانه، ورؤوف الذي ظل مرحاً إلى نهاية الزيارة انتزع وعداً أن يزور بدري الإسطبل فِي وقت غير بعيد، ويفضل أن يكون فِي أحد أيام الجمع، وهو يوم السوق!

وإذا كانت لبدري سلوى خلال الشهور التي قضاها فِي كركوك، فالحصان الذي تسلمه مِنْ القلعة عهدة، على أن يصبح مالكه بعد سنة مِنْ استلامه، ويقتطع ثمنه مِنْ الراتب. ولأنه عرف كيف يختاره، ثم كيف يعتني به، فقد أصبح مهيوب، وكان هذا اسمه منذ البداية، أميز خيول القلعة ومضرب المثل لسرعته وطاعته، حتى أن بعض الضباط الكبار حاول انتزاعه، بل ووضع طلعت باقة يده عليه، وبقي عنده أسبوعاً لم يكتمل، لأن مهيوب بمقدار ما

كان يستجيب لبدري، وشديد الطاعة له، فقد تحول إلى حصان آخر خلال هذا الأسبوع، ما جعل طلعت باقة يعيده دون أسف. كان مهيوب ابن خمس سنوات، لونه رمادي محروق، يميل إلى الزرقة الضاربة على سواد ما إن يعرق أو حين يُغسل، ولولا البياض فِي الجبين وفِي الساقين الأماميتين، لبدا حالكاً ما إن تغيم السماء، أو إذا زحفت الظلمة، الأمر الذي يجعل كبار الضباط يفضلون خيولاً أقل قتاماً، كما يقولون، لكي يميزها الحراس، حين يعود الضباط متأخرين إلى القلعة!

ولأن الحصان كالمرأة، يحتاج إلى الحب أكثر مِنْ حاجته إلى الدلال، وتنشأ بين الاثنين صلات يصعب حصرها بكلمات أو قواعد معينة، فإن العلاقة بين الحصان وصاحبه تبدأ مِنْ طريقة الخطاب، مِنْ لمسة اليد، ومن نظرة العيون أيضاً.

خلال أسابيع قليلة تولدت اللغة الجديدة بين بدري ومهيوب، ووصل الإثنان معاً إلى حالة مِنْ التناغم والإنسجام قلما تنشأ بين حصان وصاحبه، فِي هذه الفترة القصيرة. بعد ذلك، ومع كُلّ يوم جديد، يزداد التفاهم بين الإثنين، وتتعزز العلاقة، حتى أن الكثيرين فِي القلعة كانوا يمازحون بدري، ويسألونه متى سيتكلم مهيوب! وتراهن بعض الضباط أن مهيوب، فِي يوم مِنْ الأيام، خاصة إذا خلف أمهاراً مثله، يمكن أن يحمل بمفرده، دون فارس، رسائل بالغة السرية، وكانوا يشيرون بذلك إلى طاعته وذكائه!

بدري وهو يسمع ما يقال عن مهيوب، وعادته أن يخاف مِنْ عيون الآخرين ومن حسدهم، كان يقلل مِنْ هذه الصفات، ويعتبر أكثر ما يقال عنه مبالغات لا أساس لها، وكان يختم أيّ حديث عن مهيوب بأن يقول:

ـ الحصان مثل الصديق، مثل المرأة، مثل الشجرة، شقد ما تعطي... تآخذ!

حين كان يعتذر مِنْ رؤوف عن استبدال مهيوب بأي حصان آخر، كان عازماً على أن يخصص صباح يوم وصول «أهل بغداد» للعناية به، إذ بالإضافة إلى تغسيله، فقد هيأ سرج الاستعراض واللجام اللامع، وجميع اللوازم التي تستعمل فِي مثل هذا اليوم. وكان فِي أعماقه يود أن تكون أمه أول مِنْ يراه، إذ لم يهدأ خوفها طوال السنوات السابقة، ومنذ أن دخل المدرسة العسكرية، حول أكله ومنامته، وما يتعرض له مِنْ تعب وشقاء!

الآن، حين تراه على ظهر حصانه، وهو يختال بالزينة، وكُلّ شيء يلمع ويوج، سوف تتسابق دمعتها مع الهلهولة التي ستنفجر مِنْ حنجرتها حتى لو لم ترد. قال لنفسه، بما يشبه اللوم: «هل يليق بي أن أستعرض أمام الأهل، أمام أقرب الناس إليّ؟ ألا يفترض أن أكون واقفاً على رجلي، وأن أبدي كُلّ التواضع أمام هؤلاء الذين قطعوا كُلّ هذه المسافات مِنْ أجل الوصول إلى هنا؟»!

اضطجع تلك الليلة على الأريكة المقابلة للسرير النحاسي، وجدها ضيقة أكثر مما ينبغي، أكثر مِنْ الليالي السابقة، تقلب مرات عديدة، فِي محاولة لأن ينام، لكنه لم يستطع. وفجأة وجد نفسه يقفز إلى السرير، تمدد، شعر براحة أكبر، قال لنفسه: «أعرض مِنْ اللازم، لكن غداً سيكون بالعرض المناسب، لأن فيه اثنين بدل واحد» مد يده إلى الناحية الفارغة مِنْ السرير. أحس ببرودة الأغطية والملاءة. قال، وهو يحاول أن يختصر غبطته: «الدفء يولد مِنْ الجسد الآخر، جسد الأنثى، والفراش يطيب برائحة الجسد».

وتحولت الغبطة التي حاول أن يختصرها إلى قهقهة، قال بصوت عالٍ:

- باچر كلنا نغسل: الأول مهيوب، وبعدين آني، وآخر شي زكية! ونام فِي وقت ما!

ولم يوقظه صباح اليوم التالي صوت الشحرور، بل ضجة قادر، داخل البيت أولاً، وهو يُدخل كميات إضافية مِنْ الفواكه والخضار، ثم فِي الجانب الخلفي مِنْ البستان، إذ كان يقدم للخراف والدجاج العلف، مع مجموعة كبيرة مِنْ الإرشادات والأوامر، وبعض الشتائم أيضاً!

تمنى بدري لو يسمع صوت الشحرور، حتى ولو لمرة واحدة. حاول أن يتسلل بين الأصوات لعل صوت الشحرور يأتيه، لكنه لم يأتِ. قال لنفسه، وهو يجلس فِي السرير، ويطل على الجانب الفارغ: «أوامر وشتائم قادر تفزع مفرزة عسكرية، فكيف حال هذا المسكين الذي يخاف مِنْ ابتسامة إنسان يحبه، يشتاق إليه وإلى صوته؟» أعاد ترتيب السرير باتقان، لعله يموه الأمر، لكن بعض الثنيات فضحته. وقال وهو يبتسم: «هذي آخر مرة تظل ممسد، وبعدها الله وأكبر».

عند الظهر تقريباً وصلت آخر وجبة مِنْ الفراش الذي بعث بها رضوان قره غولي، وبعث معها رسالة شفوية:

عند أذان العصر نكون بقهوة الطاحون، اللي يوصل قبل ينتظر.

مهيوب، فِي شمس الظهيرة، بعد أن اغتسل وجف شعره، يلمع كنصل، ويعب الهواء بشراهة، كأنه أحس بالرحلة التي تنتظره. ولأنه لم يربط، فقد أعطى لنفسه حرية إضافية، إذ كان يقترب مِنْ الباحة الأمامية، يتشمم الأشياء الجديدة، يرفع رأسه بين فترة وأخرى وهو يزفر لكي يطرد ذرات المياه التي علقت بأنفه، وتتطلع عيناه إلى بدري بتساؤل!

نادى بدري على قادر، الذي بدا مرتبكاً أكثر مِنْ أيّ وقت سابق، ربما لتراكم الأعمال التي يفترض أن يقوم بها، وسأله ما إذا كان راغباً بمرافقته، أم عليه أن يتابع الأعمال هنا والانتظار.

هز قادر رأسه بحيرة، وهو يتلفت، إشارة إلى أن لديه الكثير لينجزه هنا، ولم يجد فِي الأخير إلا أن يقول:

ـ والجماعة راح يوصلون عطشانين وجواعي، فأحضر الماي، والزبيب والرمان...

وأراد أن يتابع، لكن بدري قاطعه:

- زين.. أنت ابقَ...

وبعد قليل:

- اكو طريق للطاحون غير طريق كركوك الحويلة؟

- اكو طريق بستان الباشا. بس تعبر القنطرة، تروح قُبل، وما تغمض عين وتفتح عين، إلا وتشوف نفسك يم القهوة!

حين سأل بدري عن طريق آخر يمكن أن يسلكه، كان يرغب بتجنب الطريق الرئيسي، الطريق الذي يمتلئ عادة بالناس، خاصة فِي هذا الوقت، وفِي هذا الفصل بالتحديد، إذ يبدأ الكثيرون بملاحقة الشمس، لكي يتدفأوا، ولكي تقوى عظامهم على تحمل البيوت التي أخذت تميل إلى البرودة يوماً بعد آخر.

كان يريد ذلك بدافع التواضع أو ربما الخجل، رغم أن الأسطة رضوان قره غولي ومرافقيه سيسلكون الطريق الرئيسي، وسوف يراهم الكثيرون، ومعنى ذلك: أن القافلة على وشك الوصول، وفيها عروس بدري، ومع ذلك حاول، قدر ما يستطيع، ألا يظهر، ألا يكون تحت مراقبة العيون وتساؤلها.

ومن أجل ألا يظهر متفاخراً وملفتاً، فقد تجاوز بسرعة بذلة الاستعراض، ولم يتوقف طويلاً عند البذلة الجديدة التي جلبها معه مِنْ بغداد، إذ اختار واحدة قديمة نسبياً، ولا يعرف لماذا يحب هذه البذلة ويفضلها على غيرها، وهكذا اختارها دون تردد.

أما السوط الذي يحمله عادة أثناء مباريات الفروسية، ولا يتذكر أنّه استعمله إلا فِي الفترة الأولى، فقد استبعده هذه المرة، قال، وهو يرفعه ويضعه على حافة النافذة: «العصا لمن عصا، ومهيوب لا يستاهل الضرب حتى بوردة». أما البوط الذي احتذاه، فكان بلا مهاميز، والعادة أن يستعمله أثناء التدريب.

بدا مهيوب فخوراً حين وضع السرج المزخرف، سرج الاستعراض، وقد نفخ عدة مرات، وكان يفتح حلقه، كأنه يضحك! وحين طلب منه قادر أن يأكل شيئاً قبل أن يتحرك اكتفى ببضع حبات مِنْ التين المجفف، وتذكر الرمان، وتذكر مع الرمان الحصى، سأل قادر بدعابة:

ـ شنو رأيك، قادر تنيشن اليوم، لو البارحة عرفنا حظنا، وخلص؟

ـ القضية ما ينراد لها سؤال...

وفِي تلك اللحظة صاح ديك، قال قادر وهو يضحك:

- شفت؟ ما قلت لك!

وسأل قادر مِنْ جديد عن الزمن الذي يحتاجه مِنْ أجل الوصول إلى قهوة الطاحون، وما إذا عليه أن ينطلق الآن، او يمكن أن ينتظر بعض الوقت، ردَّ عليه بمرح:

ـ إذا مشيت هسه تنتظر الجماعة بالقهوة، وإذا مشيت بعد شوية تلقاهم بالطريق، وإذا تأخرت بعد، تلقاهم هناك ينتظرون!

لا يعرف بدري كيف عن له فِي تلك اللحظة بستان قادر، ربما وهو ينظر إلى المنحدر، حيث سيأخذ الطريق إلى بستان الباشا، أو ربما وهو يفكر كيف سيقدمه «لأهل بغداد» خاصة لسيفو، قبل أن يغرق الجميع فِي الضجة، قال لقادر بتردد:

- راح أشوف سيفو والجماعة، فتريد أسولف لهم قصة بستانك، أو أنت تسولفها.

- بعد وقت على القصة، نحچي بيها بعدين!

- راح نسولف على الطريق، وراح أقول لهم منو ينتظرنا، وانت منو؟

وهز بدري رأسه عدة مرات، وكأنه قرر أمراً، قال بحزم:

ـ إذا كلفت سيفو أن يشوف خلف، فما راح يفك عنه ياقة حتى يحصل كتاب مِنْ الباشا ويرجعوا لك البستان.

وبعد قليل، وكأنه يخاطب نفسه:

- إي نعم: سيفو وخلف، وإذا آني نسيت أنت ذكره. قول له خلف ابو السراي.

ـ لاحقين على هالمسائل، عمي؟

فِي وقت ما تحرك بدري. لم يكن يريد أن يسبقهم، لم يكن يريد أن يصل متأخراً. اختار الوقت الذي يرجح أن يلتقي معهم فِي اللحظة المناسبة.

ربت على رقبة مهيوب، وشد اللجام قليلاً، لكي يقوده نحو بستان الباشا، وقبل أن يغيب عنه قادر رفع يده والتفت. رأى قادر يرفع يده فِي نفس اللحظة، تبادلا التحية والابتسام، وغابت صورة الواحد عن الآخر.

لا يعرف قادر كم مر مِنْ الوقت حين فاجأه ذلك الإعصار، كان فِي تلك اللحظة يلاحق الدجاج الذي أصابه الفزع وأخذ بالهروب، بعد أن بدأت المعركة بين الكبش الذي أُرسل مِنْ القلعة وخروف رضوان قره غولي. كان الجرس المعلق برقبة الكبش يرن بطريقة صاخبة عنيفة، وقادر حائر بين ملاحقة الدجاج، الذي تجاوز بعضه البستان، وبين وقف المعركة التي دبت بين الخروفين. كان يركض هنا وهناك، وهو يوزع شتائمه، بالتساوي، بين الطرفين، ويحاول أن يضع حداً لهذا الجنون الذي لا يعرف لماذا حصل.

فِي هذا الوقت بالذات فاجأه أمر لا يصدق: مهيوب!

مهيوب الذي كان، إلى فترة قصيرة سابقة، أنيقاً مثل طفل يوم العيد، هادئاً كرجل مسن، وكان جميلاً لامعاً أنيساً، تحول فجأة إلى حصان آخر، كان يصهل بغضب؛ يرفع قائمتيه الأماميتين وكأنه اعتزم تسلق الهواء؛ يدور حول نفسه كما تدور الزوبعة؛ وكان يصرخ ويبكي ويحفر الأرض فِي آن واحد. أما لجامه فكان يتمرجح فِي الهواء كمقلاع، والزبد يتطاير مِنْ فمه وأنفه معاً، والعرق ينز مِنْ كُلّ موضع فِي جسده ويتناثر فِي جميع الأنحاء، أو ينسرب لجداول صغيرة عمياء.

حالة قد تقع مرة فِي العمر وقد لا تقع، فقد امتلأت ذرات الهواء بالفزع، وارتفعت نداءات الاستغاثة مِنْ داخل الحصان، وكأن طفلاً فِي داخله هو الذي يصرخ ويستغيث.

قادر الذي يبدو بنظر كُلّ مِنْ يعرفه شجاعاً كذئب، قوياً كصخرة، صبوراً كأرضٍ تنتظر المطر، الذي تحمل فِي هذه الحياة ما لم يستطع غيره تحمله، وعرفَ كيف يقوي كتفيه كُلّ يوم، وهو الذي عطش كثيراً فِي متاهات الدروب، ومشي وحيداً بين معارج الجبال الموحشة، الذي يعتبر الموت الوجه الآخر للحياة، ولا بد لكل مِنْ يعيش أن يموت، قادر نفسه، ربما، لأول مرة، يشعر أنّه خائف، خائف وعاجز. فمهيوب الذي جُن هكذا، والذي عاد وحيداً، جاء ليقول شيئاً، لينقل رسالة مِنْ بدري عن أمر نسيه أو حاجة يريدها، ولأن مهيوب لم يستطع أن يلبيه فقد جاء يطلب المساعدة والعون.

وإذا كان قادر لا يحب الكلام كالكثيرين، ويجيب فقط حين يُسأل.

ود، لأول مرة فِي حياته، لو أنّه يستطيع أن يتكلم مع مهيوب، أن يسأله أن يفهم منه!

ولأن حيرة قادر طالت، أو ربما صبر مهيوب قد نفذ، ومثلما جاء مهيوب فجأة، وبمثل ذلك الهياج والصخب، ترك قادر غارقاً فِي شتائمه وحيرته والأسئلة الكثيرة التي تضج فِي رأسه، وانفتل كحية راكضاً إلى مكان آخر.

انقذف مهيوب كصخرة إلى وسط كركوك. قطع شارع الجامع الكبير، وصعد باتجاه القلعة. أما محاولات الذين تصدوا لإيقافه، للقبض عليه، فقد ارتدت وهم يتراكضون مبتعدين، بعد أن تملكهم الفزع.

ومثلما هاج وصرخ وبكي وتوسل، وهو يواجه قادر، فعل الشيء ذاته فِي القلعة. ومثلما ترك قادراً وهو يسأل ويشتم، ترك جنود القلعة وهم حائرون.

قال بعض الذين رأوه يقطع شارع الجامع الكبير، هابطاً مِنْ القلعة، إنّه كان أسرع مِنْ البرق، وأكثر جموحاً مِنْ مهر ابن سنة، مما اضطر الكثيرين لأن يبتعدوا عن طريقه، ولا يحاولون، مجرد محاولة، التصدي له.

وإذا كان الشباب الذين رأوه هكذا، استغربوا وتساءلوا، فقد قال المسنون «الحقوا صاحبه قبل أن يقضي، إذ ربما قرصته حية أو طالته نار، أو ربما غرق فِي بئر مِنْ الآبار».

ما كاد يسمع عدد مِنْ الشباب ما قاله المسنون، حتى اندفعوا وراء مهيوب. كانوا متأكدين أنهم لن يدركوه، لكن يمكن أن يتبعوه، وأن يسلكوا الطريق الذي سكله، وهناك، فِي مكان ما، سوف يعرفون ما وراء هذا الهياج.

ومثلما لم يخطىء الذين رأوا الحصان أنّه مهيوب، لم يخطئوا أيضاً أن بدري هو صاحبه، لكنهم قالوا لأنفسهم، لبعضهم، أن جنوناً يصيب الخيل بعض الأحيان، نتيجة الشمس القوية أو ربما بسبب الحزن الشديد.

قال الذين تبعوا مهيوب أنهم مروا ببيت بدري فوجدوا عند الباب الدجاج وعدداً مِنْ الخراف، وحين لم يجدوا مهيوب تابعوا سيرهم.

أخذوا الطريق باتجاه بستان الباشا. عند القنطرة التقوا براعٍ، حين سألوه إن رأى حصاناً جامحاً ردَّ بالإيجاب، وقال إنّه أخذ طريق الطاحون. واصلوا السير، لما اقتربوا مِنْ بستان الباشا لمحوا مهيوب وإلى جانبه رجل أو اثنان.

قال الذين وصلوا قبل غيرهم إنهم رأوا قادر يحتضن بدري. كان يضع رأسه فِي حجره، وشيخ مسن يبلل قطعة مِنْ قماش فِي مطرة كان يحملها وينقط الماء فِي فم بدري. كان قادر إلى تلك اللحظة قوياً مثل ثور، وقد طلب أن يُحمل بدري ويؤخذ إلى كركوك، لكن الشيخ قال إنّه لا فائدة، الرجل انتهى، وأفضل شيء، فِي مثل هذه الحالة، أن يُرطب الحلق، ليعرف كيف يخاطب الملائكة الذين اصطفوا الآن لاستقباله.

عندما هدأ جسد بدري، ثم سكن، أنزله قادر. وضع الرأس، بهدوء، على الأرض، وقف، نظر إليه مِنْ فوق، نظر إلى الحصان، ثم فجأة صرخ كما لو أن سكيناً انغرزت فِي صدره، أو ناراً كوته. قال الذين كانوا، وأكد الذين وصلوا بعدهم، أن قادر مع الصرخة انتزع خصلات مِنْ شعره ملأت الكفين معاً. أما الدموع التي أخذت تتساقط مِنْ عينيه فلم يُسمع عن رجل أنّه بكى بهذا الشكل. هكذا قال الذين تجمعوا، وأخذوا يتكاثرون، ولم يستطع بعضهم أن يتمالك نفسه، فبكى.

الشيخ الذي نقط الماء فِي فم بدري، أغمض عينيه أيضاً. وطلب مِنْ الذين حوله أن يمسحوا الدماء التي كانت تسيل مِنْ الرقبة ومن الصدر، ثم أن يربطوا مكان الجرحين لئلا يتلف الجسد.

لما سئل الشيخ عمن قتل بدري، هز رأسه أنّه لا يعرف، لكنه أكد أنّه لمح اثنين، على حصانين، اتجها نحو القنطرة، ثم اختفيا بعد ذلك، ولأنه كان بعيداً لم يستطع أن يميز.

استغرب رضوان قره غولي تأخر وصول بدري، وحين استوضح الرسول الذي بعثه إليه ظهراً، أكد الرسول أنّه أبلغه بالموعد، وأن على مِنْ يصل قبل الآخر الانتظار. وحين تأخر بدري أكثر قال رضوان فِي محاولة لتبرير التأخر:

- الغايب عذره وياه!

أما حين بدأت تلوح القافلة، وأصبحت على مرأى العين، ولم يصل بدري، فقد اضطر الأسطة رضوان أن ينهض لملاقاتها. قال لنفسه: «بعض الناس يخجلون أن يراهم الغرباء يقبلون أمهاتهم وأخواتهم وزوجاتهم، لذلك يفضلون أن لايكون اللقاء أمام الآخرين، وهذا، ربما، ما دفع بدري لأن يبقى فِي البيت!».

ولأن بدري لم يظهر، فقد طلب رضوان أن يتوجه «أهل بغداد»، أيّ أهل بدري وضيوفهم، إلى البيت مباشرة، فِي الوقت الذي سيصطحب رؤوف الآخرين إلى الخان.

استمرت القافلة. كان استغراب الأسطة رضوان لغياب بدري لا يقل عن استغراب الكاكا محمود. تبادل الإثنان الأسئلة وبعض الكلمات، وبدا أنهما غير مرتاحين لهذا الغياب.

ود سيفو الذي كان يركب بغلاً عالياً أن يرفع صوته بالغناء، دلالة أنهم وصلوا ومعهم العروس، لكن عيون الناس، وهي ترقب القافلة بفضول، جعلته يتردد ثم يصرف النظر. النسوة اللواتي كن فِي مؤخرة القافلة نظرن

بجرأة إلى الرجال والصبية الذين يملأون الشارع، وتبادلن عدداً غير قليل مِنْ الملاحظات، خاصة حول الملابس التي يرتديها أهل كركوك.

حين انشطرت القافلة، عند بداية المرتفع، شطر صعد باتجاه بيت بدري، والآخر توجه للخان، كانت عيون الذين يرقبون الموكب تحمل التساؤل والصمت، وتختلف بمقدارٍ ما عن العيون التي ملأت الشارع قبل المرتفع.

مشى الموكب ببطء، هبت نسمات باردة، رفع الأسطة رضوان يده كلها، وهو يشير إلى بيت بدري، وكان يتحدث إلى الذين حوله.

على الجانب الآخر مِنْ المرتفع عدد غير قليل مِنْ الناس، كانوا يتقدمون ولا يتقدمون. حين عرف سيفو البيت، ورأى الذين يتجمعون حوله ويتحركون ببطء، قال فِي نفسه: «البدو فِي الأعراس، وعند المصالحات، يتقابلون فِي منتصف الطريق» زم عينيه قليلاً عله يرى بدري، لكنه لم يره.

فِي وقت ما، وكما يفلت عصفور مِنْ أسر، كما تهوي صخرة مِنْ جبل عالٍ، رأت القافلة الصاعدة واحداً يندفع نحوها رافعاً يديه بحركة غاضبة وحزينة، وقبل أن يصل، وهو يقترب، كان يردد كلمة واحدة:

- قتلوه.. قتلوه.. قتلوه... قتلوه...

ومثلما تهب العاصفة فجأة، أو يدوي الرعد، شمل القافلة كلها صمت قاسٍ، شملها كلها، طوقها كما يطوق حبل مبلول كيساً ليناً، حتى الحيوانات خافت مِنْ الصرخات التي تتوالى، أو ربما قدرت ما وراءها، فشملها الصمت أيضاً!

لكنه كان صمتاً هشاً مراوغاً، إذ ما كادت الكلمة التي رددها قادر تستقر فِي الأسماع ثم فِي القلوب حتى صرخ الأسطة رضوان يسأل قادر الذي كان ينشج كطفل:

- منو اللي انقتل؟ الحچ.. قول.

- قتلوه.. قتلوه، هو اللي انقتل!

قد تأتي لحظة رهيبة مثل هذه فِي وقت لاحق، بعد مائة سنة، مائة وبعدها عقود، قبل أن يقع فِي كركوك مثل ذاك الذي وقع فِي تشرين، وكان الوقت بين العصر والغروب.

لا يمكن لكلمات، كُلّ الكلمات؛ لا يمكن للغة، أية لغة، أن تحكي هذا الذي وقع فِي كركوك بين العصر والغروب، فِي ذاك الخريف الحزين.

البكاء يشير لكنه لا يقول. العويل بداية احتجاج وتسليم. النحيب بوابة حزن تنفتح لكن لا أحد يعرف كيف تغلق... اللطم على الخدود، على الصدور، أول المشهد، ثم تتوالى الفصول.

وادخل جسد بدري. وضع على السرير النحاسي وسط الغرفة. لا يعرف أن توقف البكاء، بكاء كُلّ إنسان كان موجوداً، لحظة واحدة فِي ذلك الليل. كان «أهل بغداد» ومعهم الكثيرون مِنْ أهل كركوك، لا يكتفون بظلمة الليل ليذرفوا الدموع، كانوا يبحثون عن زوايا أكثر ظلمة ليواصلوا هناك البكاء، فإذا اكتشفت الزوايا، إذا تزاحموا فيها، كان الواحد يتسلل بعد الآخر إلى البستان، تحت الأشجار، ليتوارى، ليواصل نحيباً فجرته أحزان لا نهاية لها!

بعد أن سُجيَ الجسد فوق ذاك السرير، فِي تلك الغرفة، وحين خيمت الظلمة التي لم يفطن لها أحد، وكانت ستاراً لبكاء الرجال قبل النسوة، أشعل الأسطة رضوان فانوساً ودخل إلى الغرفة. مع الضوء، نظر الناس إلى بعضهم، نظروا إلى الجسد، وانخرطوا جميعاً فِي موجة مجنونة مِنْ البكاء. فعلوا ذلك فجأة، دفعة واحدة، دون اتفاق، كانوا يبكون ويعانقون بعضهم كعشاق، كبشر يائسين.

متى استطاعت زكية أن تستخرج ملابس العرس البيضاء، وكيف استطاعت أن ترتديها، ولا يهم إن فعلت ذلك باتقان أم لا، ثم كيف تخطت الذين ارتموا على الأرض، حول السرير، و«صمدت» نفسها إلى جانب بدري؟

حين ذهب الأسطة رضوان ومعه عدد مِنْ أهل كركوك لإبلاغ القلعة، قيل لهم إن الآغا خارج كركوك. ولما سألوا عن حامد أو غايب، قيل لهم أنهما بصحبة الآغا، ولن يعودوا قبل يومين. وحين طلبوا الضابط المناوب، أو أحداً آخر، ليبلغوه بما وقع، قيل لهم أن يراجعوا القلعة، ليس غداً، باعتباره منتصف شعبان، يوم عطلة، وإنما فِي اليوم الذي يليه!

فِي وقت لاحق سوف يتذكر كثيرون أشياء رأوها، أو تراءى لهم أنهم رأوها. قد تختلف هذه الأشياء ببعض التفاصيل، لكن سوف يؤكد الجميع أنهم رأوا بدري يبتسم، وقد فعل ذلك أكثر مِنْ مرة، وسيقولون، باستغراب، إنهم لم يروا دمعة واحدة تسقط مِنْ عيني زكية! وسوف يؤكد اثنان أو ثلاثة مِنْ أهل كركوك الذين أطلوا على بدري فِي سريره، بدافع الفضول، وللتأكد أيضاً، أنهم رأوا العروس تضحك!

كيف انقضت تلك الليلة، ومتى تراجعت الظلمة ودخل النهار؟ وكيف استطاع الرجال، أو بعضهم على الأقل، أن ينفضوا عن النسوة، وأن يتصرفوا بطريقة مختلفة؟

أحد ما، ربما، تدخل فِي وقت مناسب مما جعل أكثر الرجال يتحركون. فما عدا الحاج صالح العلو، الذي أصابه الذهول، وكانت عيناه تنظران إلى كُلّ شيء ببلاهة، وكأنه ينظر ولا يرى، فقد تحرك الآخرون.

وأصبح نعيم وحده الذي يقرر ما يجب أن يُفعل.

حين اقترح بعض الرجال نقل الجثمان إلى بغداد، ليدفن فِي مقبرة الشيخ معروف، إلى جانب موتى العائلة، رفض نعيم الاقتراح بحدة. قال:

«يدفن بدري فِي المكان الذي استشهد فيه». وحين ألح عليه بعض الأقارب قدم تنازلاً جزئياً: «يودع بدري فِي أرض كركوك، ويبقى وديعة إلى أن يحول الحول، ينقل بعد ذلك لمدافن العائلة فِي بغداد». أما حين جرى التساؤل ما إذا يجب أن يغسل ويكفن، فقد أجمع الذين تداولوا فِي الأمر، أن عطر الجروح يجب أن ترافق بدري، أما ثيابه فهي أطهر الثياب، لأنها ثياب عريس، وإذا لم يتسن له أن يتزوج فِي هذه الدنيا، فإنه يُزف الآن إلى السماء، ولا بد أن يمنحه الرب فِي ملكوته حورية تليق بشبابه، وقد تكون زكية هي تلك الحورية.

ولما سُمعت أصوات الخِراف، وقيل إنها هدية للعرس، فقد أوعز نعيم بذبحها جميعاً دفعة واحدة، «لأن الضحية فِي اليوم الأول أبرك، وهي تذبح لروح شهيد» وأمر بتوزيعها على الذين يستحقون.

ضحى ذلك اليوم وصل الشيخ تقي الدين، وبعد أن قدم التعزية «بالشهيد»، هكذا قال، طلب أن ينقل إلى المسجد الكبير، وسوف يصلي عليه بعد صلاة العصر، واقترح الشيخ أن يكون قبر بدري إلى جانب مدفن عائلته، وإنه سوف يأمر بأن يهيَأ له القبر هناك.

سيفو وقادر، دون أن يطلب أحد، ودون أن يتعارفا، اندفعا للمساهمة بحفر القبر، وذكر أحد الذين شاركهم فِي العمل، أن كلمة واحدة لم يتم تبادلها طوال الوقت الذي استغرقه الحفر. وأن سيفو قاس الارتفاع والعرض بخيط، وأنه احتفظ بذلك الخيط فِي جيب داخلي. لم يكتف بذلك، حين تم الانتهاء مِنْ إعداد القبر، رقد فيه سيفو، وكان يسبل يديه فوق صدره، ولما تأكد مِنْ السعة ونعومة الأرض قفز خارجاً وكانت دموعه تنهمر.

أما أهل كركوك الذين شاركوا فِي تشييع بدري، فلم يجتمع مثل هذا العدد إلا حين تم تشييع شهداء القلعة قبل ثلاث سنين. هكذا قال الكثيرون. حتى الصبية الذين كانوا يتحركون بسرعة مِنْ مكان إلى آخر لم تصدر عنهم ضجة، كما لم يمنعهم الكبار.

أكدت زوجة قادر أن أحداً مِنْ «أهل بغداد» لم يمد يده إلى زاد ليلة الخميس وطوال يوم الجمعة. أما يوم السبت فقد أصرت العمة زاهدة على ضرورة أن يأكل كُلّ إنسان شيئاً، حتى لو كسرة خبز «لأن الصيام دون نية، دون نذر، حرام» وقد أكلت حبة مِنْ التمر مع قطعة مِنْ الخبز. وقالت، وهي

تأمر الجميع أن يمدوا أيديهم إلى الزاد: «الصوم لروح بدري بعد وصولنا إلى بغداد، والله يدري بالقلوب».

وإذا كان «أهل بغداد» قد استعدوا للعودة بعد ظهر السبت، ونعيم هو الذي أصر على ذلك، قرر هو أن يبقى وحده لمقابلة «أهل الحل والربط» بكركوك، كما قال، لمعرفة مِنْ قتل بدري، ولماذا قتل، وماذا يجب أن يفعل. وأصر سيفو على البقاء أيضاً، ليتولى الإشراف على تشييد القبر.

الكاكا محمود الذي سئل ما إذا كان مستعداً لقيادة قافلة العودة، لم يتردد أبداً فِي الموافقة.

زكية التي لبست ملابس العرس، تلك الليلة، أبت أن تنزعها، رغم محاولات أمها. ومهيوب الذي كاد يقتل، لأن لاأحد جدير بركوبه بعد بدري. لكن نعيم صرخ بحدة رافضاً مجرد التفكير بهذا الحل؛ وكان مهيوب ضمن القافلة العائدة إلى بغداد، لكن لم يركبه أحد طوال الطريق.

لم يحس سكان محلة الشيخ صندل بعودة المسافرين إلا فِي وقت متأخر مِنْ ذلك اليوم. إذ بالإضافة إلى عدم توقع مثل هذه العودة السريعة، فإن وصول القافلة عند الفجر، وذلك الهدوء، الأقرب إلى الصمت، الذي خيم عليها منذ أن غادرت كركوك، وإلى أن حطت رحالها فِي محلة الشيخ صندل، ثم التعب الذي هد كُلّ واحد مِنْ المسافرين، مما جعل النوم أمنية لأي منهم... هذه الأسباب، وغيرها، لم تدع أحداً يفطن إلى أن المسافرين قد عادوا حتى فطيم، زوجة سيفو، التي كلفت بالعناية بالزرع، وأن تضع الحب والماء لعدد مِنْ الطيور فِي بيت الحاج صالح العلو، لا تعرف كيف نسيت هذه المهمة طوال ذلك اليوم، ولم تتذكر الأمر إلا والشمس توشك على المغيب.

ركضت بسرعة، علها تتدارك هذا الخطأ. ما إن فتحت الباب، وقد حرصت على فتحه بهدوء، وتسللت، وكأنها بهذه الطريقة تعتذر مِنْ الطيور، حتى فوجئت بالعمة زاهدة. كانت تجلس على حصير فِي الركن الغربي مِنْ الباحة، وقد عصبت رأسها بفوطة سوداء عريضة انهدلت على جسدها كله بحيث بدت وكأنها كتلة مِنْ ليل.

للحظة خاطفة، لا يكاد يكون لها زمن، ومضت عين العمة زاهدة وبعد أن تأكدت أن أحداً دخل، عادت بسرعة إلى سبحتها، وإلى مواصلة التمتمة بالأوراد والأدعية.

مع تراجع صدمة المفاجأة، وإن حل مكانها الاستغراب، اندفعت فطيم نحو العمة لتسلم عليها، لتهنئها بسلامة العودة. وإذا كانت العادة أن تصافحها، فقد أرادت هذه المرة أن تقبلها لأنها عائدة مِنْ السفر، لكن العمة لم ترفع رأسها، لم تغير جلستها. وحين تتابعت كلمات الترحيب مِنْ فطيم، نظرت إليها العمة بصرامة أقرب إلى الزجر، ولما أرادت أن تتابع رفعت فِي وجهها سبابة يدها اليمنى وحركتها كصيغة حازمة للتنبيه، ثم وضعت السبابة على فمها طالبة منها السكوت تماماً!

ولما كانت فطيم لا تحفل بالمجاملات، وتقول ما تفكر به، ما يرد ببالها، كما لا تتردد باستعمال بعض الكلمات، وإن اتسمت بالبذاءة، إلا أن علاقتها بالحجية مزيج مِنْ الود والخوف معاً، وقد يكون السبب ما رسخ فِي ذهن فطيم مِنْ قناعة، لا يُعرف كيف تكونت، أن للحجية قدرات تمكنها مِنْ الاتصال بعالم الغيب، ربما لما تبديه الحجية مِنْ تقوى أقرب إلى الورع،

إضافة إلى ذلك الوسواس بالنظافة، والذي تطلق عليه أم قدوري «الطهارة»، ولا يعرف إن كانت تمتدحها أم تذمها!

كانت فطيم وهي تندفع نحوها، وكلماتها تسبقها، تريد أن تسألها عن الرحلة، عن العرس، ولكن حين وجدتها غارقة فِي الأدعية، وغير مستعدة لأن تنتهي منها بسرعة، إضافة إلى إشارات التنبية والتأنيب، فقد توجهت إلى الداخل باحثة عن غيرها مِنْ نسوة الدار.

ما كادت فطيم تخطو بضع خطوات، وتعبر المجاز، حتى رأت الحاج صالح. ورغم أنّه لا يكتفي الاثنان عادة حين يلتقيان بالتحية والسؤال عن الصحة، بل كان يمازحها معظم الأحيان، وغالباً حول أمر واحد: ما إذا وجدت عروساً لسيفو... هذه المرة، وبمقدار اللهفة التي ملأت فطيم، وجعلتها تتكلم بسرعة وتدفق مرحبة، إلا أن الحاج صالح نظر إليها للحظة ثم تجاوزها، وكأنه لم يرها، أو كأنه غاضب ولا يريد محادثتها!

لما تجاوزها، وبدا وكأنه غير متوازن فِي مشيته، ظنت فطيم لوهلة أن الحاج صالح مثل سيفو حين تداهمه سخونة الملاريا، إذ ينفصل عن كُلّ ما حوله، ويغرق فِي عالم مِنْ الهلوسات فلا يستطيع عندها أن يتحكم بكلامه أو بتصرفاته.

حين رأته هكذا، وبعد أن عبر المجاز نحو الباحة الخارجية، واصلت فطيم طريقها، لعلها ترى أم قدوري، أو واحدة مِنْ البنات، وعن طريق أية واحدة منهن يمكن أن تطمئن أن الحاج بخير، أولاً، ثم تسأل عن الرحلة والزواج، وغير ذلك مِنْ الأمور.

نعيمة أحست، أو ربما قدرت، خروج ابيها، وخشيت أن يواصل طريقه ويغادر البيت وهو فِي مثل هذه الحالة، لذلك اندفعت تبحث عنه لترده، كانت تتلفت، تنادي... وعند ذاك التقت بفطيم.

ما إن وقعت عيناها على فطيم حتى توقفت تماماً. تجمدت فِي مكانها.

وقبل أن تمر ثوان قليلة حتى تدفقت دموعها بغزارة وهي تهجم على فطيم وتغمر وجهها فِي صدرها وتنتحب.

لحظات جامحة، كاوية كاللهب، الدموع تنهمر بشكل متواصل، وهي بالتأكيد ليست دموع فرح، ولا تعبر عن الشوق، ماذا يمكن أن تكون إذن؟

احتارت فطيم حول ما يجب أن تفعله لتعيد الهدوء لنعيمة، لتسألها، لتعرف سر هذه الرائحة التي ملأت فجأة جنبات البيت بالحزن، ثم لتعرف ما وراء هذه الدموع.

فجأة أصبحت فطيم متأكدة مِنْ شيء واحد: لقد وقع مكروه لسيفو، وإلا كيف تفسر ما حصل منذ لحظة دخولها إلى البيت وحتى الآن؟ الحجية زاهدة، مهما غرقت فِي أورادها، وما إن ترى فطيم، حتى يتهلل وجهها تعبيراً عن الود، وإن كانت لا تقطع أورادها وتعبر بالكلمات، إلا حين تنتهي، لكن خلال ذلك عيناها تعبران عن المودة والترحيب. هذه المرة تقول وتفعل شيئاً آخر: «لا أريد أن أراك. اذهبي مِنْ وجهي»، وإلا ما معنى الأصبع تهزها فِي الهواء، وكأنها تؤنب فتاة صغيرة أخطأت بشكل لا يمكن مسامحتها على ذلك الخطأ، أو السكوت عليه!

والحاج صالح الذي يفيض رقة ووداً، حتى وهو يلتقيها فِي الشارع، وخلافاً لرجال كثيرين، يقف معها، يسألها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء، علاوة على أسئلته عن صحة سيفو وصحتها. الآن يمر وكأنه لم يرها، أو لا يريد رؤيتها. هل يخاف أن يكون أول مِنْ ينقل إليها الخبر السيىء عن سيفو؟ كان يمكن أن يفعل شيئاً آخر، غير أن يتجاهلها ويجرحها بهذه الطريقة التي لا تجد لها تفسيراً.

ثم هذه الموجة العارمة مِنْ البكاء، خاصة لحظة التقت نظراتها بنظرات نعيمة، وكأنها تنتظر هذه اللحظة، أن تراها بالذات، وقبل أن تنطق بلسانها، ها هي دموعها تسبقها، تتكلم نيابة عنها، وتهيىء، فِي نفس الوقت، لما ستشرحه فيما بعد الكلمات.

لو لم يكن الأمر متعلقاً بسيفو لعاد مثل الآخرين. كان يفترض أن يصل إلى بيته أول الأمر، أن تراه، وحتى لو لم يرد أن يبقى طويلاً فِي البيت، لا بد أن تعرف. أما الآن، وهي ترى الدموع، وسيفو لم يظهر، فالأمر متعلق به بكل تأكيد.

شعرت بحب جارف نحو سيفو، لا ليس الحب تماماً، إنّه الحب والحقد معاً. وإذا لم يكن الحقد على وجه التحديد فهو الغضب واللوم، لأن سيفو يتذكر جميع الناس ما عداها. كان يهملها، يغيب عنها أياماً، وحين تسأله، حين تستفسر منه يلجأ إلى الصمت أو إلى الغضب، فتضطر للسكوت. لكن الآن، وبعد هذه الدموع، لا تتذكر إلا سيفو الذي تحبه، تحب طريقته فِي الضحك، وحتى طريقته فِي الغناء أيضاً، رغم أن صوته خشن ومليء بالنشاز. لكنها تشعر، خاصة فِي هذه اللحظات، أنها تحب الصوت، وتحب سيفو، وهي أيضاً بحاجة إليه. كيف يتركها وحيدة هكذا ويمضي؟ ماذا لو ترك لها ولداً أو بنتاً؟ إن الأولاد، خاصة بعد غياب أحد الأبويين، يساعدون على السلوى، وربما يعوضون أيضاً. قد لا يكون تعويضاً كاملاً، لكنهم يملأون الفراغ، يساعدون على النسيان، كما أن الأولاد، بعد غياب الأب أو الأم، يصبحون مختلفين، وأفضل بكثير مما كانوا عليه مِنْ قبل!

ونعيمة تواصل البكاء، وتزيد. وعلى صوت بكائها وارتفاع الصوت، خرجت ام قدوري ورضية، لكن ما إن رأتا فطيم حتى انخرطتا هما أيضاً فِي البكاء!

فِي هذه اللحظة تراءى لها سيفو شبحاً، أو مثل غيوم بداية الخريف:

هشاً، سريع التبدد. بل وأخذت صورته تغيم وتتلاشى. لماذا لم تتمعن بوجهه، بملامحه، لفترات أطول كي تبقى صورته معها، ما دام قرر أن يخدعها ويمضي؟ كانت، فِي بعض الليالي، حين يأتي متعباً، ولا يريد سوى أن ينام، ترغب أن تبقي الفانوس مشتعلاً، ربما لتتأمل شكله، لتراه نائماً كالطفل، لكنه لم يدعها تفعل ذلك ولو لمرة واحدة، كان يجبرها على إطفاء الفانوس!

لو قدر لها أن تراه لفترة أطول، حتى على ضوء الفانوس، بعد أن تعذر عليها رؤيته فِي ضوء النهار، ما دام يواصل تلك الرحلة الأبدية: مِنْ الشط إلى بيوت المحلة وثقل القرية يجعله ينظر إلى الأسفل أغلب الأحيان، لو أنها رأته لفترة أطول لترسخت صورته فِي ذاكرتها، لانحفرت تماماً، لكنه عنيد، ولا يخلو مِنْ قسوة بعض الأحيان. عدا أنّه مستعجل دائماً، خاصة معها، أو ربما يخاف مِنْ عينيها، لأنه ما إن يراها تنظر إليه، حتى يخرج صوته غاضباً أو ساخراً:

- ها... فطيم.. أشوفك تباوعين علي غير شكل، شنو ما عاجبك؟ تريدين فد شي؟

وأياً كان جوابها، ومهما حاولت التفسير أو التبرير، لن يوافق، يرد عليها بسخرية:

- الواحد قبل ما يباوع على غيره خليه يباوع روحه، وبعدين يحچي؟

وتضطر فطيم للسكوت أو إلى تغيير الموضوع، وحين يمتد الصمت بينهما، يقول كأنه يحدث نفسه:

- ما أحب الناس تباوع علي، أحس العين مثل المخرز، حتى لو كانت عين ابن سنة أو سنتين!

وفطيم قدر ما تحتمل، ولا تريد أن تسبب النكد، إلا أنها فِي حالات معينة، تحس بالاختناق، وقد تموت إذا لم تتكلم، وهكذا تجد نفسها ترد:

- الله بسماه العالية ما يقبل شوفة الحال، والناس تباوع عليه، فعلى ويش شايف روحك؟ شباب؟ غنى؟ جاه؟

ما كانت تريد أن تتذكر كُلّ شيء الآن، ما يهمها استحضار صوته، أن تراه متجسداً أمامها، قبل أن تختلط الصورة مرة أخرى.

وهي تفكر بذلك، غابت الكلمات وتدفقت الدموع. أخذت تبكي بطريقة موجعة، وكأنها تتعرض لضرب قاس، لإهانة لا تحتمل، ولا يمكنها أن ترد إلا بهذه الطريقة. تمثلت لها كُلّ أحزان حياتها، كُلّ مواجعها القديمة، مذ كانت طفلة وحتى هذه اللحظة.

بكت فطيم بحرقة، بكت نفسها وبكت كُلّ الذين عرفتهم وأحبتهم، ثم غابوا، تركوها ومضوا بعيداً، وها هو سيفو يفعل مثلهم، يصبح واحداً حين انخرطت فِي هذه الموجة العارمة مِنْ البكاء، خاصة وهي ترى النسوة حولها يبكين، شعرت أن هذه الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تعبر مِنْ خلالها، وكانت هذه المرة تبكي سيفو بالذات!

فِي وقت ما، وكان التعب وحده هو الذي دفع البكاء خطوة إلى الوراء، قالت نعيمة، لتجعل البكاء مبرراً ومفهوماً، أو ربما لتبدأ موجة جديدة مِنْ النحيب:

- يا أم فلاح... تدرين لو ما تدرين..

لم تكن تسألها، لم تكن تخبرها، تابعت بإيقاع:

- قتلوه.. قتلوه.. بدري راح، بدري راح، بدري صار جوا التراب!

وانفجرت موجة صاخبة جديدة مِنْ البكاء.

وفطيم التي تجد فِي الحزن سلوى أقرب إلى المتعة، لا تستطيع منع نفسها مِنْ المشاركة فِي المآتم، ليس فِي المحلة وحدها، بل وفِي أيّ مأتم تسمع به. ولأنها تعرف الحزن إلى درجة الإدمان، فقد انحفر فِي وجدانها أكثر «الغناء» الذي يقال.

وفجأة ارتفع صوتها بحداء حزين كاوٍ:

بدري العريس حنوا بالدما غنوا للعريس لحامي الحمى بعد أن انحدر مِنْ الدموع مقدار كبير، وبعد أن تحول البكاء إلى نحيب متقطع، تساءلت فطيم: ولكن أين سيفو؟ خافت أن تسأل، أو وجدت أن السؤال عنه، خاصة بعد غياب بدري، لا يليق، أو على الأقل ليس هذا وقته، ومثلما تفسر غيابه دائماً، قالت فِي نفسها أنّه ينشغل بأمور الآخرين، ولا بد أن يكون الآن فِي القهوة يحدث الذين حوله عن موت بدري. شعرت بالغيظ، لماذا كُتب عليها أن تكون آخر مِنْ يعرف؟ هل يخسر شيئاً لو أنّه وصل إلى البيت، وأثناء وضع الثياب، وهو يغسل وجهه مِنْ آثار السفر، حدثها عن موت بدري، عما حصل! هل يفترض أن تسمع مِنْ الناس؟

أحست أن سيفو لا يكف عن الابتعاد عن الهروب منها، وكأنه لا يطيقها، أو على الأقل لا يودها كما توده. قالت فِي نفسها: «لن أسامحه، خاصة هذه

المرة. خجلني قدام الناس، الكل يحسبوني مخبلة، جاهلة، يا سواد وجهي، جيت على رسلي، أضحك، أسأل مثل الرعنة، ولا بالي موت وصخام الوجه، شلون ما أعرف؟ ما أحد يقولي؟ مو عيب، مو خزي؟ لو چنت أدري چان قلت لنسوان المحلة، چان لبست غير هذي الهدوم، لكن جاية على نيتي، جاية على مود عصفور وزرزور وتاري الدنيا غير شكل، يا سواد وجهك يا فطيم، والله يلعنك يا أبو فلاح لأن الصوج كله منك، ولا بد يوم مِنْ الأيام أقول لأم قدوري، أفهمها!».

وكانت فطيم تريد، إلى جانب البكاء والتساؤلات، أن تعرف ماذا حدث، كيف مات بدري، ولماذا، كما تريد أن تسمع مباشرة، لا أن تحدثها النسوة، بعد أن تتغير القصة ألف مرة على لسان كُلّ واحدة ترويها مِنْ جديد.

وبعد معرفة بعض التفاصيل تعود فطيم إلى الندب:

صدرك خازن علم الباري وتراب الميدان بعفرك وشلون بدمك تتحني شلون الخيل تهشم صدرك ربيتك وها اليوم يومك وحقي مِنْ أعتب ولومك يا وليدي مِنْ تعثر جسمك وما لقيت يمك حد يلمك جروحك عيوني ودموعي كيف تعيش بعدك أمك لكن على صوت البكاء، ولأن الخبر وصل إلى قهوة الشط، لا يعرف كيف، تحول بيت الحاج صالح العلو خلال وقت قصير إلى مزار يتدفق عليه الناس بالعشرات ودون توقف.

ولما كانت العادة فِي العزاء أن تأتي النسوة خلال النهار، وأن يخصص المساء للرجال، فإن محلة الشيخ صندل، ربما لأول مرة، تشهد أعداداً مِنْ النسوة المسنات يخترقن البوابة ثم الباحة، فِي طريقهن إلى القسم الخلفي مِنْ البيت. جاءت أعداد منهن، ومع دخولهن، أو مجرد تخطي الباحة، تبدأ الأصوات تعلو، أصوات البكاء والنحيب. ورغم أن الرجال، فِي مثل هذه الحالات، يبدون مِنْ الصلابة والقوة الكثير، إلا أن النحيب، وهو يسري فِي ذرات الهواء، جعل الكثيرين يمدون أيديهم إلى أعينهم كي يمسحوا الدموع التي سقطت دون إرادتهم.

ولأن الحاج صالح العلو لم يكن بوضع يمكنه مِنْ استقبال المعزين، فقد حُمل إلى غرفة بعيدة، وناب عنه، إضافة إلى قدوري، الكثيرون. أو بالأحرى أحس كُلّ واحد فِي المحلة أنّه أحق مِنْ غيره بتقبل العزاء.

ورغم أن بيت الحاج صالح العلو مِنْ أكبر بيوت محلة الشيخ صندل، وأكثرها اتساعاً، إلا أنّه ضاق بالمعزين، خاصة وأن كُلّ قادم جديد يفترض أن الطريقة الوحيدة للتعبير عن المشاركة، عن الحزن، البقاء أطول فترة، الأمر الذي جعل الأسطة عواد يقترح نقل مكان العزاء إلى قهوة الشط، لكن مسني المحلة لم يجدوا القهوة مكاناً لائقاً، واقترحوا الجامع، وهكذا أبلغ الناس أن العزاء فِي الأيام التالية سيكون فِي جامع الشيخ صندل.

مع كُلّ يوم يمر، وبمعرفة المزيد مِنْ التفاصيل، يشعر الناس بالحزن والغضب أكثر مِنْ قبل. صحيح أنهم لا يعرفون بالإسم مِنْ قتل بدري، أو لماذا قُتل، ولكن شعوراً بالمرارة ملأ كُلّ قلب، والإحساس بالظلم خيم على الجميع.

وإذا كان اليوم الأول بدا طويلاً فِي بيت الحاج صالح العلو، فقد أشفق القريبون ورغبوا لو يفعلون شيئاً للتخفيف عنهم، كأن يصطحبوا الحاج صالح إلى مكان آخر، إلى البقاء معهم، أو حتى النيابة عنهم فِي تقبل العزاء.

لكن قدوري بدا قوياً متماسكاً، وقد شكر الجميع، وقال إن النوم هو ما يحتاجه الذين عادوا مِنْ السفر، استعداداً للأيام الطويلة القادمة.

وهكذا بدأت أوائل الليالي فِي بغداد وبدري ميت، أو هكذا إحساس الذين عادوا مِنْ السفر، «ميت وبعيد» قالت أمه التي لم تتوقف دموعها منذ أن وصلت مِنْ كركوك. قالت ذلك وهي تقاوم المحاولات التي تريد حملها على النوم. وإذا كان قدوري بذل أقصى ما يستطيع، وبدا فِي لحظة عصبياً، فقد طلبت إليه نعيمة أن يذهب إلى النوم، وسوف تتولى هي إقناع الأم أن تنام.

نام قدوري متأخراً:

وإذا كان مِنْ طبيعة الإنسان أن يحب وأن يكره، فإن أكثر ما يكرهه قدوري: الكلاب. وربما هذه الكراهية بسبب الخوف، ولوجود الكراهية والخوف معاً بذل جهداً استثنائياً لإبعادها. أغرى أطفال المحلة بمطاردتها.

كافأ الحارس الليلي الذي لم يكتف بمنعها مِنْ الاقتراب، وإنما تولى قتل مِنْ يقترب منها، وهكذا أصبحت محلة الشيخ صندل مكاناً محرماً على الكلاب!

عند الفجر كانت الظلمة مستمرة وكثيفة، لكن نتيجة الصوت، وأيضاً بدافع التأكد أن أمه نامت، استيقظ قدوري.

«كلب يعوي بالمقلوب» هكذا قال لنفسه، وقد أيقظه ذلك الصوت.

وإذا كان الذين يحبون الكلاب، وأولئك الذين ليست لهم عواطف محددة تجاهها، يتشاءمون حين يسمعون الكلاب تعوي بتلك الطريقة، فقد عزم قدوري، حين سمع الصوت قريباً، وكأنه يعوي بأذنيه، أن ينفس عن حقده وحزنه، ليس فقط بطرد الكلب، بل وبضربه، بترك علامة فِي روحه، وليس فقط على جسده، لكي لا يقترب مرة أخرى.

تسلل قدوري، وقد حمل عصا، مستعيناً بالفانوس الذي تضعه العمة وراء الباب الداخلي، كان يتقدم بهدوء، بحذر، مستهدياً بالصوت، وقد إنشدت

أعصابه. عبر المجاز، فالباحة. فتح الباب، تقدم أكثر والفانوس بيده، فِي محاولة لأن تكون الضربة محكمة، مباشرة، وقوية إلى أقصى ما يستطيع.

الصوت لا يزال يصله واضحاً موصولاً، ومع كُلّ خطوة يقترب يتضح الصوت أكثر، لكن مع العواء المقلوب شيء يشبه الشخير.

حين أصبحت المسافة كافية لأن ينزل قدوري ضربته، وما أن رفع يده بالعصا لكي تهوي على رأس الكلب، حتى شعر أن قوة خفية تشده، تمنعه، وما كاد يستجيب لتلك القوة، وتبقى العصا معلقة فِي الهواء، حتى أمعن النظر بهذا الكلب الذي أيقظه مِنْ نومه وولد فِي قلبه ذلك الحزن، ولا يريد أن يتحرك أيضاً، وكأن كُلّ أمنيته أن يتلقى ضربة ماحقة نيابة عن جميع مخلوقات الأرض. فِي تلك اللحظة، ومن بقايا وميض العين، اكتشف قدوري أن الكلب الذي يعوي بهذا الشكل هو: حسون!

لا يُعرف أين كان حسون، ولماذا لم يصله الخبر إلا متأخراً. أما الآن، وبعد أن علم، فها هو مثل حيوان جريح ينتحب بهذه الطريقة، وحين يبلغ الألم حداً عالياً يصرخ فيخرج صراخه وكأنه عواء مقلوب.

قال له قدوري، وهو يساعده على دخول البيت:

- الموت نهاية كُلّ واحد منا، دادا حسون...

وبعد قليل، وبما يشبه التأنيب:

- ونحن الرجال لازم نكون عاقلين وقلوبنا قوية، وإلا الناس تضحك علينا!

- وبدري راح...؟ ما عاد نشوفه بعد؟

- كلنا رايحين عيني حسون، وماكو أحد باقي إلا رب العالمين!

ـ يعني بدري ما راح يجينا، ولو خطار، يوم، ساعة، شوفة عين؟

- خلص، بدري صار ملاك، انتقل للسما.

- وتريدني ما ابچي؟ هاي وين صارت؟ منو يرضى بيها؟

- شيفيد البكا، عيني حسون، ما دام الغالي راح!

ـ والدمعة زايدة عليه؟

- ولكن الرجال دمعتهم غالية، حسون، الرجال قلوبهم صخر جلمود، ويتحملون كُلّ شي.

- أريد أطلِع اللي بقلبي مهما قال الناس!

وبعد قليل وهو يواصل الانتحاب:

ـ قدوري، لخاطر الله، خليني ابچي، خليني أبرِد فوادي، لأن اللي راح مو قليل، ما يتعوض..

ودون إرادة، دون أن يقوى قدوري على منع نفسه، أخذ يبكي وهو يردد:

- اويلاخ... ليش سويتها بينا، بدري، ورحت؟

والعمة التي كانت ترقب وتسمع كُلّ ما يدور فِي الباحة، مِنْ غرفتها العالية، صاحت، وخرج صوتها مبحوحاً:

- ترى الموتى يضوجون بقبورهم إذا سمعوا الرجال يبچون!

قال حسون، بعد لحظات صمت، وقد فاجأه صوت العمة:

- حلفت يمين، بعد ما سمعت شنو اللي صار ببدري، يحرم علي الزواج بعده... مهما كان!

استمر العزاء، فِي جامع الشيخ صندل، أسبوعاً كاملاً. لم يبق أحد فِي المحلة إلا وجاء، وجاء كثيرون مِنْ محلات الكرخ الأخرى، ومن صوب الرصافة، وقرأ لثلاث ليال متوالية ملا مولود، شيخ مقام سيدي عبدالقادر، ولا يعرف إن جاء الملا مولود وحده أو طُلب منه ذلك. كما تناوب شيوخ آخرون على القراءة فِي الليالي الأخرى، بحيث لم تظهر للملا حمادي أية ميزة خاصة.

ومن الذين جاءوا لتقديم العزاء عدد مِنْ زملاء بدري فِي السراي.

صحيح أنهم لم يأتوا جميعاً فِي ليلة واحدة، لكن بدا مؤكداً أن الباشا أخذ علماً بقتل بدري، وقد وضح ذلك فِي اليوم الثالث، حين جاء خلف. وبعد أن قدم العزاء، قال إنّه جاء باسم الباشا، وإنه سيمر فِي اليوم التالي ليقدم العزاء باسمه شخصياً. الأمر الذي جعل البعض يفهم مِنْ كلامه أن الباشا هو الذي سيأتي فِي ذلك اليوم. وقد أثار الخبر الكثير مِنْ الاهتمام والترقب، خاصة لدى الصبية والفضوليين. كما أن الملا حمادي ارتدى ثياب العيد وتعطر، وحاول أن يتذكر بعض العبارات وعدداً مِنْ أبيات الشعر التي تردد عادة أمام الخلفاء والحكام، وقرر أن يطلب مِنْ الباشا الالتفات إلى جوامع الكرخ والقائمين عليها، لأنها بحاجة لإهتمامه، كما هو الحال فِي الصوب الثاني مِنْ المدينة!

وأتى خلف فِي اليوم التالي، ولم يأت الباشا! لكن فِي هذه الليلة اختلى خلف قدوري وببعض أقارب الأسرة، وأبلغهم أن دم بدري لن يذهب هدراً، ولا بد أن يعرف القاتل، وأن تنزل به العقوبة الرادعة، وإن تطلب الأمر بعض الوقت.

ولم يقل أكثر مِنْ ذلك حول الموضوع، وسأل، ربما مجاملة، ما إذا كانت العائلة تطالب بدية، وأن الباشا مستعد شخصياً لدفع المبلغ الذي تحدده العائلة، وقدوري الذي شكر واعتذر عن قبول أيّ مبلغ مِنْ المال، قال وسمعه الكثيرون:

- بدري ما له أعداء، وكركوك يوم التشييع كلها قالت: بدري انقتل بصوج غيره...

أخذ نفساً عميقاً، وتغيرت نبرة الصوت:

- تسلم على الباشا وتقول له: صوب الكرخ ما راح ينام قبل ما ينأخذ بشار بدري!

وإذا كان عددٍ مِنْ المسنين الذين سمعوا ما قاله قدوري لاموه بعد ذلك، وقالوا إن كلاماً مثل هذا لا يوجه إلى الوالي، إلا أن الكثيرين فِي صوب الكرخ قالوا وبصوت عالٍ: «لازم أهل السراي يعرفون: دم الآدمي بهذا الصوب وبذاك الصوب فد قيمة، وما يفرق واحد عن اللاخ، وإذا ما أخذوا بثار بدري، فكل واحد له حق يعرف شلون يحصله».

حسون الذي لم يترك مكان العزاء ساعة واحدة، وكان يدور على الناس بالماء، يقدمه ويقول: اشربوا وترحموا على روح الغالي، متعمداً أن لا يذكر الإسم، لأن مجرد ذكره، وأنه مات، يشعره بالفزع.

كان حسون ينام فِي الجامع، ويساعد فِي التنظيف وجلب الماء واستقبال المعزين. أما بعد أن انتهى الأسبوع فقد انتقل إلى قهوة الشط.

جلب ثلاثة أعلام سود علق الأول على الباب، أما الاثنان الآخران فقد وضعهما فِي زاويتي القهوة، عند طرف الماء، وقال للذين حوله وهو يثبت الأعلام:

ـ اللي يفوت بالجادة، وذاك الصاعد بالنهر إلى الموصل، ومثله النازل إلى البصرة، لازم كُلّ واحد يمر يعرف: صوب الكرخ هوايه مقهور، ودم الغالي مو شلون ما چان، ومن هذا اليوم إلى ذاك اللي تنزل بيه الأعلام السود شقد بغداد راح تسمع وشقد راح تشوف!

ولما كان حسون قد اتخذ قراراً بعدم الزواج، ولئلا يبقى الأمر مجرد كلام، فقد نفذ القرار: تطلع إلى الصوب الثاني مِنْ المدينة، إلى صوب الرصافة، وتطلع تحديداً إلى الباليوز وقال كلمة سمعها الكثيرون:

- هذا حدنا وياكم!

وفكر حسون فِي العودة لعمله السابق، أيّ بيع الفريرات، بعد أن أهمل هذا العمل خلال الفترة الماضية، لكن حين بدأ مرة اخرى لم يعد قادراً على

صنع فريرات إلا باللون الأسود، وكان أطفال صوب الكرخ يشترون الفريرات السوداء!، ثم فجأة توقف لأنه وجد عملاً جديداً: العناية بالحصان!

شكل الموت نهاية لحياة بدري القصيرة، لكنه كان البداية لأشياء كثيرة: بداية الحزن والتغير والأسئلة، بالنسبة لأشخاص عديدين، وفِي أمكنة مختلفة.

أم قدوري التي كانت تطفو على بركة مِنْ الحزن، وكانت تبذل جهداً محدوداً لكي تؤجل الغرق، وجدت بموت بدري النتيجة لتبحر نحو الأعماق القصية فِي البركة التي كانت تطفو عليها.

خلال أيام قلائل، وبعد أن انتهى أسبوع العزاء، حولت غرفتها إلى قطعة مِنْ السواد، خاصة وأن أبا قدوري آثر، أو جاء مِنْ اقترح، أن يكون فِي الطابق العلوي، بعيداً عن الزوار، وعن الضجيج، خاصة وأن الغرفة التي تم اختيارها له جنوبية، وهذا يعني أنها دافئة فِي مثل هذا الفصل مِنْ السنة.

لا يُعرف أين كانت أم قدوري تخبيء هذه الكمية مِنْ الأقمشة السوداء، إذ فجأة غابت جميع الالوان، ولم يبق إلا اللون الأسود: أغطية الفراش، الوسائد، الستائر، حتى البساط المغزول مِنْ شعر الماعز، والذي وصل منه اثنان قبل سنين طويلة هدية مِنْ سوق الشيوخ، وقد ظهرا فِي البيت فِي الفترة الأولى ثم غابا، وصلت يد أم قدوري إلى واحد وفرشته فِي أرض الغرفة، وأبقت فِي الزوايا جلود جديان سود.

ولأن الصمت أصبح سيداً فِي بيت الحاج صالح العلو، بعد أن استنفذ البكاء بصوت عالٍ طاقة الجميع، إضافة إلى ضرورة الهدوء مراعاة لصحة الحاج، كما اقترح الطبيب الهندي الذي جيء به مِنْ محلة راس القرية، فقد تحول الكلام فِي البيت إلى همس، وبعض الأحيان إلى إشارات، الأمر الذي جعل أم قدوري تحدث هذا الانقلاب فِي غرفتها دون أن تناقش أحداً، ودون أن يتدخل أو يعترض أحد. قالت فطيم لأم قدوري بعد أسابيع، ولما دخلت الغرفة أول مرة:

- هاي شمسويه بروحك يا أم قدوري؟ ظلمة القبور أنفه وأرحم مِنْ هاي الظلمة!

ولما نظرت إليها أم قدوري نظرة عتاب أقرب إلى اللوم، ردت فطيم:

- حتى المرحوم ما يقبل، لأنك تعرفين: روح الميت تصير فراشة، وكُلّ يوم تزور، فإذا لقت كُلّ شي ظلمة، بالقبر وهنا، هوايه تنقهر وتقول سودت حياتي وحياة غيري؛ وهذي لا الله يرضاها ولا الناس!

ولأن الدموع تنوب عن الكلام عند أم قدوري، فلا يمكن لأي نقاش أن يصل إلى نتيجة. لذلك يحاول مِنْ يريد إقناعها اختيار وقت أفضل.

وهكذا مرت الأيام دون أن يأتي ذلك الوقت. فتعود الناس على السواد، وأصبحت أية محاولة متأخرة أو غير مجدية لتغييره أو التخفيف منه. الحجية، العمة زاهدة، تعتبر أن الخطيئة التي دخلت فِي قلوب الناس هي السبب، إذ لا يوجد فرد واحد فِي بغداد كلها لم تدخل الخطيئة إلى قلبه.

فإذا تركت ذاك الصوب، والذين يسكنون بعيداً، فإن صوب الكرخ يعج بالخطايا، حتى الناس فِي محلة الشيخ صندل فإنهم يغرقون فِي الخطيئة.

«تمر أيام جمع هوايه والواحد لا يتصدق ولا يزور موتاه؛ وبغير رمضان ما يصومون؛ وتجي ليالي المحيا وشعبان وتروح ما يقدمون النذور، ولا يتفطنون لزيارة الأوليا». وتسمع العمة زاهدة أن الكثيرين يذهبون إلى المقاهي ويسمعون الغناء، ورغم أنها سمعت عن أناسٍ يشربون الخمر، إلا أنها، حتى الآن، ترفض أن تصدق! «ومن شوكت صار الناس يجمعون الصلوات بدل أن يقيموا كُلّ صلاة بوقتها، وبالجامع مع أهل الإيمان؟ هذول اللي ما يطلعون الزكاة بوقتها، ولا يتصدقون على الفقرا، شلون تريدون ما يهتز عرش السما ويزعل عليهم الرحمان»؟

تقول ذلك العمة زاهدة لنفسها، لغيرها، حين يجري الحديث عن المصائب التي حلت بالناس، وما نشهده الآن ليس أكثر مِنْ تنبيه وإنذار.

وتقول إن الله يختبر عبيده، يمتحنهم بأولادهم، بأموالهم، ليتأكد مِنْ صدق إيمانهم، وليقول لمن لا يعتبر إن الآتي أعظم!

لا تريد أن تقول إن موت بدري بسبب خطاياه، أو خطايا الذين حوله، لأنها ليست متأكدة مِنْ ذلك، لكنها تحس أن شيئاً ما تغير فِي حياة الناس وفِي سلوكهم. قد لا يفطنون لذلك، وربما لا يقصدون، ولكن هذا ما يحصل. وإلا كيف تفسر أن أياً مِنْ أولاد الحاج صالح لما يسمع الآذان لا ينتفض ويهب إلى الصلاة؟ فإذا سألت أياً منهم يرد أنّه سيصلي بعد أن يفرغ مِنْ الطعام أو مِنْ مداعبة الأطفال، ولا تعرف إن كان يفعل أم يقشمرها بكلمة!

حتى بدري... قبل أن يذهب إلى العسكرية لم يكن يصلي، ولأنه لم يعد يحفل بأسئلتها، بما تطلب منه، كانت أمه تتولى الدفاع عنه: «جاهل، حجية، زغير»؛ «خليه هسه، آني أقنعه، آني أحچي ويا أبوه» أما بعد أن أنهى العسكرية، وأصبح يجيء بزيارات إلى البيت، وصادف أكثر مِنْ مرة أن جاء فِي رمضان، وحين تكتشف أنّه غير صائم، وتسأل بغل إن كان صائماً أم لا، مع أنها تعرف، يرد عليها مازحاً «إنّه على سفر، وإنه سيعوض الأول والتالي» ويضيف، وهو يضحك: إن الله غفور رحيم!

لم يقتصر الأمر على ذلك، فالعلاقة بين أم قدوري والحجية أخذت تتدهور يوماً بعد آخر، إذ لم يعد الهدف كسب رضي الحاج صالح، خاصة بعد أن دخل ملكوت عالم جديد، نتيجة الأدوية التي وصفها الطبيب الهندي، أصبح ينام فترات طويلة، وحين يستيقظ يكون فِي حالة مِنْ الذهول أقرب إلى الغياب. وأم قدوري التي فقدت، فِي غمرة الحزن، قدرتها على مساعدته، ما لبثت أن حلت مكانها نعيمة، المتعلقة بأبيها. والقادرة بنفس الوقت على التعامل معه.

بدأت فِي المرحلة الجديدة حرب مختلفة بين الحجية وأم قدوري. وإذا كان لهذه الحرب هدف راهن، فإن مادتها مِنْ الماضي.

تقول العمة للواتي يزرنها، دون أن تسمي، لكن يُعرف أو يُفهم مِنْ تعني:

- «الله، سبحانه وتعالى، ما عنده حجارة يضرب بيها، لكن يعرف شلون ينتقم: فإذا الواحدة تغسل يوم الاربعاء؛ إذا ما تصوم نص شعبان؛ وتمر ليلة المحيا مثل غيرها مِنْ الليالي، وإذا ماكو عندها كلمة إلا تقشب على الناس، شلون الله ما يقرمها؟ شلون ما تنعمي عيونها مِنْ البچا؟». ينتقل شيء مما قالته العمة زاهدة، ينتقل محرفاً وعلى شكل أسئلة، لكن أم قدوري تعرف مِنْ قاله، ولذلك ترد على العمة بالطريقة نفسها:

ـ «الدين بالقلب مو بالسبحة الطويلة؛ الدين باللي يحب الناس، اللي يساعدهم، مو بس: قال الله وقال رسوله! والواحد لمن ينذر، لمن يتصدق، مو يوقف على المنارة ويقول يا ناس.. يا عالم، ترى فلان شي سويت! وإذا زار قبر أو لزم شباچ ولي ما يقول: تعالوا يا ناس، تعالوا وشوفوا شمسوي آني».

ولأن أحداً لا تستهويه مثل هذه الحرب، أو يجد لها مسوغاً، لا تلبث أن تهدأ أو تتراجع إلا إذا جاء مِنْ يشعلها مِنْ جديد، وحول أمور لم تكن فِي البال.

مدحت النعمة، خال زكية، وصاحب العلوة فِي الشورجة، والذي كان معارضاً منذ البداية للمصاهرة بين الأسرتين، إذ كان يريد زكية لابنه نجم، ورفض أبوها لأنه لا يريدها زوجة ثانية لنجم، مدحت الذي قدم العزاء، وكان بصحبة الملا نوري، ما لبث أن ظهر مِنْ جديد، وهذه المرة مِنْ باب الشرع، كما قال، إذ طلب، عن طريق الملا نوري، أن يلتقي بالحاج صالح، «لمعرفة ما يستحق لزكية مِنْ ميراث المرحوم بدري».

ولأن الجرح ما زال ساخناً، ولم يكن أحد مستعداً للبحث بأمر التركة والميراث فقد أبلغ الرسول الذي أوفد مِنْ أجل تحديد موعد للاجتماع وبحث الأمر، أن الحاج صالح مريض، وحالما يتعافى سيتم هذا اللقاء. ما كان لمثل هذا الأمر أن يثار، أن يصبح مجالاً للأخذ والرد، لولا رغبة مدحت النعمة أن

يحقق هدفاَ مزدوجاَ: أن يرغم الحاج نعمان المتولي على قبول ما رفضه سابقاً: أن يزوج زكية لنجم؛ وأن يضعف مركز الحاج صالح العلو فِي السوق، خاصة وقد تزايدت الإشاعات عن مرضه، ليس مِنْ حيث الخطورة، وإنما لأن الذهول تحول إلى حالة مِنْ الغياب أو ربما الخبل.

ومدحت الذي لم يكن يتردد على قهوة الشط إلا نادراً، أصبح لا يغيب عن القهوة ليلة واحدة، ولا بد أن يتطرق إلى موضوع الميراث: «... وتعرفون، يا جماعة الخير، آني خلالة ما توصلني. ويجوز لحصر الإرث أحط مِنْ جيبي، لكن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وهذا اللي يقول به الشرع، وهذا اللازم يصير» ولأن الكثيرين يمكن أن يعترضوا، أو يحاججوا فِي أمور عديدة، إلا أنهم يقفون حائرين بل وعاجزين عندما تتردد كلمة الشرع. وقد عزز هذا الوضع موقع مدحت النعمة، وجعله يثيره فِي كُلّ مجلس. بعث إليه قدوري يبلغه أن الموضوع لن يبحث قبل أربعين بدري، وإلى أن يعود نعيم مِنْ كركوك، «وبعد أن يتم لقاء الوالد بالحاج نعمان المتولي» وطلب مِنْ الذي حمل الرسالة أن يذكره بالمثل الذي يقول: العم متولي والخال متخلي، دلالة أن ليس له علاقة، وإذا جرى بحث فسوف يتم مع الحاج نعمان وليس معه.

الأسطة عواد الذي سمع ما يقوله مدحت، ونُقل إليه ما يردده فِي بعض المجالس الخاصة، قال له ذات مساء، وقد بلغ غضبه حداً لم يستطع أن يخفيه:

- ما أعرف شلون أصيحك: حجي لو سيد، لكن قلت لروحي: هذا الرجال لا طاف بالكعبة ولا زار قبر النبي العربي، لأن اللي يطوفون ويزورون يصير بوجوهم نور وبقلوبهم رحمة...

ومدحت الذي لم يتوقع مثل هذا الكلام، أسقط بيده، إذ لا يعرف كيف يرد أو كيف يجيب، ولكي يعطي لنفسه فرصة إضافية سأل بسخرية:

- إي... وشكو عندك بعد، أسطة؟

- والسادة يبينون، لأن كلمة الواحد منهم قنطار ذهب وزود. يعرفون شوكت يحچون وشوكت يسكتون!

ـ شنو قصدك؟

- قصدي بالمختصر المفيد، الكلام اللي تحچيه، وانطش بالمحلة كلها، مو هسه وقته!

- الحق والشرع كُلّ وقت وقته، أسطه، وما لازم أحد يزعل مِنْ الحق ويهرب مِنْ الشرع، إلا إذا...

- إلا إذا.. شنو؟

- إلا إذا يريد ياكل حقوق الناس!

جرى ذلك دون أن يعلم الحاج نعمان، دون أن يستشار، لأنه بالإضافة إلى حزنه على بدري، وقد لام نفسه كثيراً إنّه لم يذهب إلى كركوك، ربما خجلاً، فإن ما أصاب ابنته زكية، والمرض الذي حل بالحاج صالح، جعلاه شديد القلق والاضطراب. فزكية التي آثرت الذهاب فوراً إلى بيت الحاج صالح العلو، لأن هناك بيت زوجها، كما أخذت تردد، لم يستطع إقناعها بالعودة إلى بيتها إلا بصعوبة، فقد أصبحت، منذ عودتها، فتاة أخرى: استخرجت مِنْ الصناديق الملابس التي أعدتها للعرس، وأصبحت لا تفعل شيئاً طوال النهار، وقسماً مِنْ الليل، إلا أن تبدل ثوباً بعد آخر، وتتزين، وتقف عند الباب بانتظار وصول بدري!

بذلت أمها وأخواتها، ومعظم نساء العائلة، جهوداً كبيرة لمحاولة إقناعها أن بدري مات، إنتهى، وعليها أن تفكر وتتصرف بطريقة مختلفة.

وحين لم تجدي هذه المحاولات تدخل أبوها برقة ومحبة، وتدخل أخوتها بنزق وقسوة، وبكلمات خشنة أيضاً، إلى أن وافقت على مغادرة الباب والباحة الأمامية، لتنتظر فِي غرفتها. وأثناء الانتظار، مع تغيير الملابس كُلّ ساعة، أصبحت هوايتها أن تغني بصوت عال، وتختار مِنْ الأغاني تلك التي تعبر عن الشوق والانتظار، ولا تتردد فِي أن تستبدل الأسماء التي قد ترد فِي بعض الأغاني باسم بدري.

أما فكرة أن تتزوج رجلاً آخر، كما قالت لها أمها فِي محاولة لإخراجها مِنْ هذا الجو «وإن أيّ رجل يقتل روحه عليك، وباچر يبوسون الإيدين والرجلين بس أنت تقبلين وتوافقين» فكانت تقابلها بضحكات ساخرة أقرب إلى الهزء، مما حمل الأم على أن تكون حازمة، وبعض الأحيان قاسية، لكن الحاج نعمان قال فِي إحدى الليالي، وكان الجميع قلقين حائرين لهذا الوضع:

- الزمن هو الدوا، يا جماعة الخير، ولولا هذا الدوا ما ظل أحد!

وحين احتج الابن الأصغر، وقال إن المحلة ليس لها حديث إلا زكية، ردَّ الحاج نعمان، وكان صوته مسالماً وراجياً:

- شكو عند الناس غير السوالف!

وبعد قليل:

- فإذا نحن ما رحمنا روحنا ترى ماكو أحد يرحمنا، وكلام الناس أبد ما يخلص!

وحين وجد الصمت مخيماً أضاف:

ـ هل هلا الله بأختكم، ترى مصيبتها چبيرة، وما لها أحد غيرنا.

أما حين وصل إلى علم الحاج نعمان ما قاله مدحت فِي قهوة الشط، وكيف لجأ إلى الملا نوري، فقال، وكان يريد أن تسمع زوجته بشكل خاص:

- الزواج قسمة مِنْ الله، وإذا ظل بعمري يوم واحد، نجم ما راح يفرح بزكية...

هز رأسه عدة مرات، وتابع، وكأنه يريد أن يوصل رسالة إلى مدحت:

- وهذي السالفة لازم أخوك يشيلها مِنْ دماغه...

واحتد فجأة، أصبح غاضباً:

- وبعدين.. إذا إلنا حق عند أحد نحن مو قاصرين، فما نريد أحد يدق أبواب الناس وينوب عنا أو يكدي باسمنا...

وتغير صوته تماماً، كأنه يكلم نفسه:

- بمثل هالوقت، وبعد المصايب اللي صارت، وين اكو واحد صاحب مروة، عنده نخوة، يقول: آني، يا جماعة الخير، حاضر، شتردون، شاقدر أسوي، مو يصير مثل البزون: يفرح بعمى أهله!

قال درويش، الابن الأوسط للحاج نعمان:

ـ وقال خالي مدحت بالسوق إنّه راح يشتري علوة الحاج صالح، وراح يكتبها باسم نجم.

- لو كتب بغداد مِنْ الباب للباب باسم نجم، زكية ما راح تطب بيته! هكذا ردَّ الحاج نعمان بتحدٍ، فردت زوجته:

ـ إنت بس تريد حجة حتى تسب أهلي، حتى تقول عليهم فلاني وتركاني!

- إسمعي، نعيمة، وإنت تعرفيني كلش زين، آني ما أريد أتحارش بالناس، لكن ما أريد أحد يتحارش بي؛ اللي يقول لي مرحبا أقول له مرحبا وألف هلا، واللي يندق بي ويريد يبيعني كلاوات أشعل صفاح موتاه.

وانتهت قصة مدحت، على الأقل مؤقتاً، لأن فِي نفس الليلة ذهب الحاج نعمان لزيارة الحاج صالح، للقاء قدوري. ورغم أنّه لم ير الحاج صالح، إذ كان نائماً، فقد أبلغ قدوري أن مدحت بمقدار ما أساء إلى المرحوم بدري أساء إليه شخصياً، وأنه يرفض الحديث فِي هذا الموضوع، «لأن الزواج قسمة، ويحتمل أكثر مِنْ نتيجة، يجوز يستمر ويجوز ينتهي، فإذا استمر الواحد يخلف أو ما يخلف، هذا كله مِنْ الله، أما الموت فهذا ما بيه إن. إذا الواحد مات راح، وإذا راح ما يتعرض بمال، حتى لو كان أكوام ذهب».

وفُهم مِنْ هذه الزيارة، ومن هذا الكلام، أن الحاج نعمان المتولي فِي مناخ آخر، وقد تأكد ذلك مِنْ خلال الإشاعات التي أخذت تنتشر بالسوق حول عرض علوة الحاج صالح للبيع، مع إن إحتمالاً مِنْ هذا النوع لم يرد حتى بالبال.

فِي اليوم الثالث، بعد عودة نعيم مِنْ كركوك، وقد عاد معه أيضاً سيفو، وجاء زائر آخر اسمه قادر، وأنزل هذا الأخير فِي مسافرخانة قهوة الشط، تجدد أسبوع العزاء، وقيل إنّه بمناسبة الأربعين. وتقاطر أهل المحلة مجدداً على بيت صالح العلو، وقد استمع الكثيرون إلى ما رواه نعيم حول مقتل بدري، وأضاف سيفو بعض التفاصيل التي سمعها مِنْ الناس فِي كركوك، فِي الخان الكبير، وفِي بعض المقاهي، وطلب مِنْ قادر أن يؤكد بعض الوقائع التي يعرفها أكثر مِنْ غيره، وقد روي قادر وقائع الأيام الأخيرة.

فِي اليوم الثالث جاء خلف، ومثلما أحدث مجيئه فِي المرة الأولى ضجة وتساؤلات، أحدث هذه المرة. ورغم أنّه التقى بنعيم على انفراد، قبل نهاية الزيارة، وكان لقاء سريعاً، لم يدم أكثر مِنْ دقائق، إلا أن ما قيل بعد ذلك كثير. قيل إن الباشا كان يود أن يأتي بنفسه، غير أن سفراً طارئاً، وضرورياً، منعه مِنْ ذلك. وقيل إن خلف حمل معه مبلغاً مِنْ المال، دية لدم بدري، لكن نعيم لم يشأ أن يسمع، أن يناقش، وانه ردَّ المبلغ قبل أن يخرجه خلف مِنْ جيبه. وقيل إن الباشا، وبعد أن أوفد ثلاثة أشخاص للتحقيق، توصل إلى معرفة القاتل، لكن مِنْ الأفضل تأجيل إعلان الاسم والتفاصيل إلى وقت لاحق، وإلى حين الاقتصاص مِنْ القاتل أو القتلة. وقيل إن الباشا منح رتبة إضافية لبدري، وإن شهادة سوف تكتب بذلك وقد كلف خطاط السراي بكتابتها، وحالما تنجز مع التواقيع والأختام، سوف يجري احتفال فِي السراي مِنْ أجل تسليمها للعائلة.

وقيلت أشياء كثيرة أيضاً. أما نعيم، حين سئل، فقد اكتفى بالتأكيد على أن بدري قتل نتيجة الكبد، ومن أجل تبليغ رسالة إلى جهة ما، ولا يعرف إن كانت هذه الرسالة موجهة إلى باشا بغداد أو إلى اسطنبول، أو ربما إلى باشوات الشمال، وقد تكون عبرت الحدود إلى كرمنشاه. هكذا قال نعيم، وقد بدت له المسافات والأماكن، وحتى الأشخاص الموجهة لهم تلك الرسالة، غير واضحة، أو ربما لا تعني له شيئاً محدداً.

الأسطة إسماعيل الذي بدا غاضباً أقرب إلى الثورة، منذ أن بلغه خبر مقتل بدري، كان متأكداً مِنْ أمرين، ولم يتوقف وهو يتحدث عنهما: إن قاتل بدري أكبر مما يبدو فِي الظاهر؛ وإنه أرسل إلى كركوك كي يُقتل هناك!

وكان يروق له، أن يذكر قصة يوسف والذئب، ويؤكد أن الحاج صالح العلو لن يشفيه الطبيب الهندي أو غيره مِنْ الأطباء، ما يشفيه قميص يوسف!

الأمر الآخر الذي لا يمل الأسطة إسماعيل مِنْ الحديث عنه: إنّه لو كان فِي كركوك مع الذين ذهبوا، لو أنّه يذهب الآن، ولمدة أسبوع أو أسبوعين، لا بد أن يعرف القاتل، «لأن المهم شلون تزلق الواحد، تخليه يطلع اللي بقلبه، ولا بد مِنْ هنا.. مِنْ هنا ويبين فد شي، وهذا هو راس الشليلة، فإذا الواحد لزمه يوصل».

ولأنه بهذه القناعة، ولما أبلغه سيفو أن القاتل لم يُعرف، وقد لا يعرف، أصبح يردد كلمة لا يغيرها: «إذا ما انلاصت ما تصفى»، وكان يقصد ويطالب أن تكبر القضية، حتى لو اقتضى الأمر الوصول إلى اسطنبول، وأن تعرض على السلطان شخصياً، عله يفعل شيئاً، خاصة وأن الباشا لم يفعل أكثر مِنْ إرسال أحد رجاله، خلف، ليقدم العزاء، «ويعرض فلسين ثلاثة، وكأن دماء الأوادم بلاش، قوتره».

وإذا كان مقتل بدري ولد الحزن فِي قلوب أقربائه والذين يعرفونه، فإن القصص التي أخذت تنتقل عما أصاب أباه وخطيبته ولدت أحزاناً إضافية حتى عند الناس الذين لا يعرفونهم، ومع الحزن بدأت التساؤلات عما يمكن أن يكون وراء ذلك.

حتى الباليوز لم يشأ أن يبقى بعيداً، ففي إحدى الأمسيات جاء ميناس بزيارة إلى قهوة الشط، والتقى بنعيم والأسطة عواد.

صحيح أن الكثيرين لم يلتفتوا لهذا الغريب، ولم يميزه أحد، رغم أن عدداً غير قليل رأى هذا الوجه بصحبة القنصل فِي وقت سابق، إلا أن العيون فِي كُلّ مرة عبر فيها الموكب كانت تتركز على القنصل بالذات، وغالباً ما يفوتها التدقيق فِي الوجوه التي ترافقه. وهكذا كان اسم ميناس، والأهمية التي يتمتع بها فِي الباليوز، أكبر مِنْ شكله، الأمر الذي جعل الكثيرين لا يحفلون بهذه الزيارة إلا بعد أن انقضت.

نعيم، حين سئل عن زيارة ميناس، اكتفى بكلمات قليلة، قال إنها للتعزية، ولم يشأ أن يقول أكثر مِنْ ذلك. وقد استغرب الذين يستمعون هذا الرد، لأن الباليوز الذي يعرف كُلّ ما يجري فِي المدينة قبل أن تعرف حتى السراي، لا يعقل أن يكون الخبر وصله بعد أسابيع، وبعث لكي يعزي بوفاة بدري!

الأسطة عواد، ودون أن يُسأل، قال بعد أن ودع ميناس:

ـ ما ينعرف إذا أبو عيون الزرق يشتغل لله أو لعبد الله!

وحين بدت كلماته غامضة للذين يستمعون إليه، أضاف باستغراب:

- يوم الموتة ما أحد منهم بين. اليوم: ها... شلونكم، تريدون فد شي؟

رفع الأسطة يديه الاثنتين بحيرة، وقال يكلم نفسه:

- اكو ناس يزرعون اليوم ويحصدون بعد سنين وسنين!

فِي الأيام التالية قيلت أشياء كثيرة حول زيارة ميناس. قيل عن استعداد الباليوز لمعالجة الحاج صالح العلو، وأن طبيب القنصل يمكن أن يشرف شخصياً على معالجته، لكن نعيم طلب مهلة ليستشير أباه، وسوف يرد عليهم الخبر.

وقيل إن ميناس همس لنعيم بكلمات، لم يسمعها غيره، وهي بالتأكيد تتعلق باسم القاتل وأسباب القتل. وإذا لم يكن الأمر كذلك لماذا اكتفى نعيم بكلمة واحدة وهو يرد على الذين سألوه عن الزيارة؟ قال للتعزية ولم يقل أيّ شيء آخر. حتى ما ذكره الأسطة عواد فِي اليوم التالي عن استعداد الباليوز لمعالجة الحاج صالح، لم يشر إليه نعيم مجرد إشارة!

وقيلت أشياء أخرى أيضاً، لكن فِي لحظة ما، ربما لمقاومة الحزن، لأن الأمر صدر عن الأسطة إسماعيل الذي كان مملوءاً بالحقد والغضب معاً، فقد قال ذات أمسية ليغير الجو:

- يا جماعة الخير اسألوا أبو حقي شنو وراء هذي السالفة! وحين تعلقت به العيون، خاصة وأنها المرة الأولى التي يبدو فيها مرحاً، تابع بسخرية:

ـ العباس على عيني وراسي، أما الميناس فواي... واي!

توقف قليلاً، نظر إلى الوجوه وهو يهز رأسه، وأضاف:

ـ العباس صاحبنا، راسه حار ويجيب الدعا ويحقق المراد، الكل يعرف والكل يحلف. أما الميناس، هذا، فالله أعلم أنّه ما جاء إلا حتى يكسر رقبة الفقير حسون!

وإذا لم يفكر أحد حتى تلك اللحظة، بأية صلة بين زيارة ميناس وحسون، فقد انفجرت تلك القصة مِنْ جديد، ولأن ليس لدى الناس الكثير ليقولوه، وربما للترويح على النفس، فقد بدأت تُغزل الإشاعات والقصص حول حسون!

«القنصل لم يرسل ميناس، الزوجة هي التي أرسلته، خاصة بعد أن انقطع حسون عن الباليوز، ولم تعد تشاهده هناك».

«... وطلب ميناس مِنْ الأسطة عواد أن يتوسط لدى حسون، بعد أن وصل لعلم الباليوز القَسَم الذي أعلنه حسون أن لايتزوج بعد موت بدري، والأسطة عواد وافق أن يكون وسيطاً وأن يقنع حسون بالتراجع عن قسمه، وأفتي الملا حمادي بجواز الرجوع عن القسم شريطة أن يُذبح ديك أسود».

«... ولما سئل حسون عن رأيه فيما عرضه ميناس، ردَّ، وكانت دموعه تنفجر مِنْ العينين وتنحدر على الخدين: تحرم علي وهي طالق، وردد الكلمة

الأخيرة ثلاث مرات ليقطع الطريق على الذين يريدون منه التراجع!».

ولأن الأسطة عواد استعاد بذاكرته ما حصل قبل شهور، وكيف تحولت قهوة الشط، وحسون بالذات، إلى مسرح للسخرية والمقالب، فقد وضع حداً للإشاعات والقصص التي أخذت تزداد يوماً بعد يوم. قال لناشد العبَلي الذي يغزل الإشاعات وينشرها:

- ناشد، يرحم والديك، إما تخلصنا مِنْ اللقلقة؛ أو تدور قهوة ثانية، وبغداد كلها قهاوي!

ولأن الأسطة إسماعيل هو الذي فتح هذا الباب، فإنه الأقدر على إغلاقه، وهكذا لم تمض أيام حتى انطوى الموضوع! قال الكثيرون إن حسون لم يدر بما حصل، لأنه لم يعد يأبه بما يجري فِي المدينة، كما كف الناس عن سؤاله.

الملا حمادي الذي كان يراقب ما يحدث فِي قهوة الشط، وما يحدث فِي المحلة، وتصله الأخبار، وإن كانت مشوشة متباعدة، كان ينتظر الوقت المناسب لكي يرد على خصومه، على الذين يشيعون عنه الأخبار التي لا تسر، وكان يستغرب أن يوجد إنسان لا يحبه، أو يمكن أن يقول عنه كلمة سيئة.

حين سئل إن كان أفتى بذبح ديك أسود ليتحرر حسون مِنْ قسمه، ردَّ بسخرية:

- آني مِنْ المنارة للمحراب، وما علي بغير شي!

ولما نظر إليه السائلون باستغراب، تابع، وبنفس اللهجة الساخرة:

- ملا حمادي ما ينفع لقطع المهر؛ الملا حمادي ما يعرف بقضايا الميراث، هذي خليناها لغيرنا؟

وفهم الذين يسألون أنّه يعني الملا نوري الذي قطع مهر بدري، والذي يفتي الآن لمدحت النعمة حول ما يستحق لزكية مِنْ ميراث. وحين لمح الملا حمادي ما يشبه التأييد فِي وجوه الذين يسألونه، تابع وقد شعر بالثقة:

ـ أكو ناس قصتهم مو زينة لا بمهر ولا بغير مهر!

وبعد قليل لينهي هذا النقاش:

- لكن على مِنْ تتلو مزاميرك يا داود!

وبدأ موسم البرد فِي بغداد.

عبر حصان بدري فِي موكب الحزن بصمت، لم يفطن له، خلال الأيام الأولى، الكثيرون، لكن حسون تعهده بالاهتمام والرعاية؛ فعل ذلك دون أن يكلفه أحد، فاعتبر هذا الحل مناسباً، إلى أن يُعرف كيف سيتم لاحقاً التصرف بهذا الحصان.

انكسرت الرتابة بوصول الحصان، وشكل محطة جديدة وهامة فِي حياة حسون، وفِي حياة صوب الكرخ وناسه، فقد اعتبره الكثيرون أنّه لا يشبه غيره مِنْ الخيول الكثيرة الموجودة فِي هذا الصوب، لأنه يعني بدري أولاً وما رافق غيابه المفاجيء والحزين، وبالتالي فهو ذكرى للأسرة المفجوعة.

ثم لارتباطه بحسون، وما يتولد نتيجة ذلك مِنْ اهتمام وفضول، وما سوف يُنسج مِنْ أحاديث وقصص تملأ ليالي بغداد الطويلة!

فمع الأيام الأولى لوصول الحصان تكونت عادات وطقوس، بدت غريبة أول الأومر، ثم ما لبثت أن أصبحت جزءاً مما ينتظره الناس: رحلتان يومياً إلى الشط، فِي أوقات تكاد تكون ثابتة. وما يرتبط بذلك مِنْ انتظار وهرج، إضافة إلى مرافقة الأطفال. الرحلة الأولى فِي الصباح الباكر، حين يكون الطقس حاراً، ثم فِي المساء المتأخر بعد أن مال الطقس إلى البرودة، «لأن الحر يؤذي، والبرد انجس» كما قال حسون شارحاً التأخير حين غير التوقيت. فِي رحلة الصباح يكون الحصان دون سرج، كما يصاحبه الأطفال الذين يبدون ضروباً عديدة مِنْ المساعدة، ويمتثلون لكل ما يُطلب منهم. يفعلون ذلك لقاء أن يسمح لهم حسون بالتمسيد على رقبة الحصان وعلى كفليه. كانوا يقومون بهذه الحركة فرحين وبكثير مِنْ الهدوء والمودة، لأن أيّ خطأ يرتكبه أحدهم، كأن يصرخ بصوت عالٍ، أو يتحرك برعونة، يمكن أن يحرمه مِنْ هذه الرحلة البهيجة، إذ مِنْ شأن خطأ كهذا أن يهيج الحصان أو يحزنه، كما يؤكد حسون وهو يقسم أغلظ الإيمان!

أما رحلة المساء، وإن بدت للسقاية، فيكون حسون قد زين الحصان بالسرج واللجام الفضي، وغالباً ما يمتطيه أيضاً. أما الأطفال فيكتفون بالوقوف على جانبي الطريق، رافعين أيديهم الصغيرة لتحية الحصان والفارس، وقد يمشون بموازاته بضع خطوات، لكن دون صخب. أما الرجال الذين يكونون عائدين إلى بيوتهم، أو ذاهبين إلى قهوة الشط، فتبدر منهم، إضافة إلى تحية الفارس، كلمات الإعجاب والزهو، ولا يعرف إن كان أكثرها للحصان أو لراكبه! وحسون الذي يكون قد ارتدى لهذه المناسبة ملابس تليق بها، يرد على التحيات بمودة وجدية معاً. ويربت، بين فترة وأخرى، على

رقبة الحصان وكأنه ينبهه إلى شخص أو بادرة يجدر به أن يرد عليها، فيرفع الحصان رقبته وتلتمع عيناه بالفرح، ويكون حسون عند ذاك فِي حالة مِنْ النشوة قل أن يرى فِي مثلها.

قدَر الكثيرون هذا الموقف لحسون، وأثنوا عليه. قالوا إنّه يملك قلباً مِنْ ذهب، وأن لديه مِنْ الحنية ما يكفي صوب الكرخ كله. وقال غيرهم أنّه ما كان ليشفى مِنْ حب زوجة القنصل لولا هذه المصيبة، التي ألمت فجأة، وشغلت الكثيرين عما كانوا فيه. ويضيف سيد منعم الذي تربطه بحسون قرابة بعيدة، يؤكدها وينكرها حسب الظروف، يقول، وهو يراه على ظهر الحصان، والأطفال يتراكضون حوله، مخاطباً مِنْ يحيطون به:

ـ ما أدري منو خال منو، آني خاله أو هو خالي...

وحين يسمع كلمات المودة والتأييد لحسون، يتابع بانفعال:

- مِنْ يوم ما الله خلق الدنيا وآني اقول لهم: ماكو غير النساء والخيل تداوي؛ فإذا ردتم إبنكم يبقى يمكم ووياكم ما يشده إلا حصان أو مرية بنت أصل!

ويُغير اللهجة قليلاً، يبدو وكأنه يكلم نفسه:

ـ رب ضارة نافعة... وهاي هي جَتُ مِنْ كيفها! الأسطة اسماعيل الذي أغلق محل الحلاقة متعمداً لأيام عديدة متواصلة، حزناً على بدري، ولكي يجبر الآخرين على المشاركة فِي الحزن، بقي ذاهلاً وغير مصدق ما حصل، لكن ما إن رأى حسون، وقد التفت إلى الحصان، تكريماً لذكرى بدري، وأيضاً حرصاً على هذا الحيوان الذي يمكن أن يُهان ويتعرض للأذى إذا لم يجد أحداً يعتني به، ما كاد الأسطة يرى ذلك حتى استعاد ثقته بنفسه وبكل ما حوله. أما وهو يشهد حسون يقود الحصان فِي الصباح إلى النهر، ثم يقوده مرة أخرى فِي المساء، فقد قال وهو يقف على باب دكانه، وكان يخاطب حسون بمودة فائقة، ويريد للآخرين أن يسمعوا:

- لك حسون.. تسوى مو بطن، تسوى بطون! وكان يرفع إليه يديه الاثنتين مضمومتين تحية، ويتابع بانفعال:

ـ صحيح أن الغالي راح، لكن يبقى هذا مِنْ ريحته وأثره، فألف رحمة على والديك يا حسون!

أما الأسطة عواد الذي رأى الأطفال أول مرة وهم يتراكضون حول الحصان وحول حسون، وكانوا فِي طريقهم إلى الشط، فقد دمعت عيناه، وقال لنفسه، دون أن يقوى على الخروج إلى الشارع، والحديث مع حسون: «هاي الدنيا، وهاي بغدادنا: الواحد للثاني، ولولا حسون وأمثال حسون چان

خربت، چان فنيت، لكن الدنيا أبد ما تخلى، فيرحم البطن اللي جاب هالابن الحلال.. حسون».

وقال رؤوف أبو الحب، الذي أصبح سقاء بعد سيفو فِي محلة الشيخ صندل، وهو يرى الأطفال حول حسون والحصان:

- يواش.. يواش وِلدي، أنتم وحسون، وهذا الأزرق اللي يسوي ديرة وعشيرة على راسي، بس لا تخبطوا الماي، قولوا وين يوالمكم حتى أشيل الماي مِنْ صفحة ثانية! وبطريقة ودية هادئة تم الاتفاق بين الطرفين. أكثر مِنْ ذلك كان يروق لرؤوف أن يتملى هذا المشهد، فيتوقف عن العمل لفترة، يدخن خلالها ويتابع الحركة النشيطة، وتلك الجدية التي تبدر مِنْ الأطفال وهم يساعدو حسون، لكن ذلك لا يدوم طويلاً، إذ على رؤوف أن لا يطيل المكوث وهكذا ينهض فجأة، وهو يخب مهرولاً نحو أبعد مكان، لكي يسقي ماء نظيفاً، يحمله إلى بيوت المحلة التي يزداد طلبها يوماً بعد يوم، كان يقول وهو يهرول:

- مو مِنْ قليلة سيفو شيل ومشى وخلى الحمل كله علي.

لقد تغير حسون خلال أسابيع قليلة، إذ لم يعد يتحدث إلا عن «شلال». ولا يُعرف إن كان هذا هو اسم الحصان حين كان لدي بدري، أو أن حسون أطلقه عليه! حتى لما عاد سيفو ونعيم مِنْ كركوك، وجرى الحديث عن الحصان فِي قهوة الشط، وسئل سيفو هل كان هذا هو اسمه أم لا، ردَّ بطريقة حزينة:

- يا معودين إذا الغالي راح، فهسه ظلت على اسم الحصان؟

وبعد قليل كأنه يكلم نفسه:

- وحسون أبو خيل، يعرف شنو اللي يلوق له مِنْ أسامي!

أما حسون الذي لم يكن يجيب إذا كان «شلال» اسمه منذ البداية أم هو الذي منحه الاسم، فقد أصبح أكثر جرأة فِي الإجابة حين تحاصره الأسئلة حول الاسم، إذا كان يرد بغضب:

- بابا.. لازم تتعلمون: الخيل عند اللي يفتهمون ما تنطي الأسامي قوترة، لازم تتجرب ولازم ينحزر عليها مِنْ اللي يعرفونها زين.

وحين تنظر إليه العيون إما مستنكرة أو يبدو فيها عدم الاقتناع، يتابع بلهجة حازمة:

- لأن الخيل، مثل النبات، إما ترفع الرأس أو تطمسه بالوحل!

وتظل العيون تتابعه طالبة المزيد، فيشعر أنّه محاصر أكثر مِنْ قبل، يتحرك، يتطلع إلى أكثر مِنْ اتجاه، حتى إذا راقته الفكرة أو الكلمة التي

يريدها، يُضيف بنزق:

- وين رايحين... البنية تنعرف ليلة العرس، أما الفرس أو الحصان فربي كما خلقتني: كُلّ العيون عليه، وبكل سباق يبين: ابن أصل، وبعد بيه حيل؛ ومثل ما يقولون: الطبل ما يندق جوا اللحاف!

ولأن هناك كثيرين يروق لهم أن يخرجوه عن طوره، أن يعاكسوه، تتوالى التعليقات:

ـ لا تاخذنا شاطي باطي.. حسون، سألناك عن اسم الحصان، هذا چان اسمه أو أنت سميته؟

- ويظل الحصان بليا اسم حتى يجي واحد مثلك ويسميه؟

- وصاحبه، اللي دفع بيه هالكثر، يظل فاتح حلقه، وما يقدر يسميه، إلى أن يجي واحد هيتلي، وما دافع بين بارة، ويقول هذا لازم يتسمى فلاني وتركاني؟

فِي مواجهة الأسئلة التي تتوالى، يصرخ حسون متحدياً:

- هذا اسمه شلال، وما يلوق له غير هذا الاسم، فلا تتعبوا أرواحكم!

ولأن الكثيرين أحبوا الحصان، وقدروا عناية حسون به، ولأن حالة الحزن ما تزال قوية على غياب بدري، فلم يكن أحد يسرف فِي المناكدة أو فِي الإلحاح على حسون، كما كان الأمر مِنْ قبل، خاصة لما وقع فِي حب زوجة القنصل. كما أصبح المسنون يلومون الشباب إذا تجاوزوا حداً معيناً فِي المزاح.

لكن حسون، مثل عادته كُلّ مرة، لا يعرف الاعتدال ولا يقوى على تجنب الآخرين، إذ لا بد أن يخلق ضجة أينما ذهب، وأن يولد الخلاف حيث يكون. فنعيم الذي لم يعترض على أن يكون حسون مسؤولا عن شلال، ووعد بتلبية كُلّ ما يطلب، اشترط أن يُبعد الحصان عن السباقات والمراهنات، وأن لا يسرف حسون بالزينة والاستعراض، لأن بمجرد الموافقة على انتقال الحصان مِنْ كركوك إلى بغداد، ثم الاحتفاظ به، إكراماً للذكرى، وربما هي الوحيدة مِنْ بدري، الأمر الذي توجب أن تبقى مصانة مهابة دون مبالغة، وأن لا تصبح مجالاً للمباهاة أو كلام الناس.

حسون الذي كان يهز رأسه موافقاً على كُلّ ما قاله نعيم، خشي أن يتم التصرف بالحصان. خاصة وقد انتشرت الأخبار فِي قهوة الشط أن قدوري وهب كُلّ الأشياء التي تعود لبدري، فِي محاولة للتخلص مِنْ كُلّ ما يولد الحزن والذكرى فِي البيت، وكطريقة للنسيان أيضاً. حتى الملابس العسكرية، خاصة تلك التي تُلبس أيام الاستعراضات، قيل إنّه تمت إعادتها

إلى السراي. أما الحصان فلم يشأ قدوري أن يتصرف قبل عودة نعيم مِنْ كركوك. وهذا ما جعل حسون يوافق على شروط نعيم، لكنه لم يكن ينوي الالتزام بها إلى النهاية!

أما حين جاء أحد سماسرة الدواب، لمعرفة ما إذا الحاج صالح العلو أو أحد أبنائه مستعد للتنازل عن الحصان، وكيف رُد السمسار على أعقابه، فقد أصبح «شلال» أكثر أهمية بنظر الذين سمعوا بما جرى، وقدروا كثيراً موقف الأسطة عواد، وقدروا أكثر أن الأمر لم يصل إلى مسامع أسرة الحاج صالح، إذ لو وصلهم لتسبب بالأذى، خاصة وأن ذكرى بدري لا تقاس بمال.

لما وصلت الأخبار لحسون، وعرف بجواب الأسطة عواد، وطريقته فِي ردَّ السمسار، قال، وهو يتوجه بانفعال وباندفاع نحو الأسطة:

- رفعت رأس الكرخ كله عمي.

والأسطة عواد الذي كان فرحاً لفرح حسون، وكُلّ مِنْ سمع بما جرى، قال بغيظ لم يستطع أن يخفيه:

- هذول السماسرة لازم يعرفون: الفلوس مو كُلّ شي بالدنيا، أكو قبل الفلوس، وأهم مِنْ الفلوس، النخوة، الغيرة...

وبعد قليل وقد تغير صوته:

- أيّ نعم الناس قبل الفلوس، شنو عبالهم هذول السرسرية، الأدب سيزية، صارت الدنيا قوترة؟ بيش عمي؟ شيل وامشي! قال سيفو الذي كان يتحرق غيظاً، وكان لا يقوى على الجلوس أو الوقوف:

- آني مو بس حظي خرا، وهمين توقيتي انجس...

وأضاف بعد قليل، وكانت الكلمات تخرج مِنْ بين أسنانه.

- كُلّ يوم، كُلّ صبحية، آني وأبو نجم مثل الفخاتي، راسي براسه، نسولف، نحچي، إلا ذاك اليوم، جاني مِنْ غبشة الصبح جواد وقال:

- وينك أبو فلاح؟ أكو بلم ما تلقى مثله لا بالسند ولا بالهند، وهذا البلم مو بس للصيد، للصيد والونسه، وما ردته لغيرك. ادهدينا آني وجواد الأعور.

وصلنا البلم اللي يحچي عليه. باوعنا. صعدنا. قلبنا البلم. قلنا هذا مو زين، لكن ما يخالف. قلنا هالصفحة تتعدل. قلنا الشراع يتبدل. ضربنا أخماس بأسداس، وقلنا أولها وتاليها يتوقف على السعر. سألنا شقد تريد بيه مولانا؟ يباوع علينا وما يجاوب، يباوع وبس يباوع بعد مشوار قال:

سوموا، قلنا تبيعه بهالكثر؟ قال: انطونا، قبلكم، أكثر بمرتين وما بعت.

قلنا المخلص؟ قال: شكلكم ما تريدون تشترون. منا كلمة ومنه كلمة، لكن يبين الرجال ما يريد يبيع. قلت لجواد: ها يابا.. هذا صاحبك يريد يبيع لو يريد ياكل حلاوة برأسنا؟ تشاور وياه، وآني اباوع مِنْ بعيد. ساعة، وبعدين جا جواد وهو يهز راسه، قال: خلي الشغلة علي، آني اقنعه. قلنا على خيرة الله. خليت ومشيت، وظل جواد يتدانش وياه، والنتيجة:

بوش...

تعب سيفو مِنْ هذا الحديث الطويل. تغيرت لهجته خلال ذلك أكثر مِنْ مرة. اعتدل فجأة وقال، وكأنه يريد أن يهين نفسه:

ـ أيّ نعم حظي خرا وتوقيتي أنجس...

وأضاف بسخرية:

- بغيبتي هذي جا ابن الزفرة، اللي دزه ساسون، يريد يشتري شلال، ولولا أن أبو نجم رجال، ويعرف، لانلاصت علينا...

التفت إلى الأسطة عواد، وهو يبتسم، وتابع:

ـ البوسة بين العيون ما تكفي، يا ابو نجم، لازم فوقها بوسة على الراس وعلى القصة وعلى...

ردَّ الأسطة عواد، وكان محرجاً:

- لا تطوخها أبو فلاح، خاف الناس تسمع وتصدق!

- بعد ألف سنة، إذا فد واحد مر ببغداد، وعرف شنو اللي صار بهالأيام، راح يقول: هيچ ديرة ما بنخاف عليها مِنْ الغُرب، ينخاف عليها مِنْ نفسها ومن ناسها...

هكذا قال الأسطة اسماعيل، وقد تدخل بين الاثنين، وأضاف بمرح:

ـ أيّ نعم، صوبنا، بغداد بالصوبين، العراق كله والشام، مصر والبحرين، مكة والمدينة وما جاورها، وديرة الإسلام كلها، وما أدري بعد شنو، بيها نخوة، ولازم بيوم مِنْ الأيام تصير مثل قبل...

قال سيفو الذي لم يعجبه هذا الحديث:

- ما قلت لي، أبو نجم، هذا اللي جاك، طويل؟ قصير؟ سمين؟

ضعيف؟ خشمه انچم؟ على خده اخت؟

وعض على شفتيه:

- أتمنى بس لو أعرفه!

ردَّ حسون بمرح:

- شنو تقدر تسوي له أكثر مِنْ رزالة أبو نجم، عمي أبو فلاح؟

ـ ما أريد أقول شنو، بس، الله أعلم، ما يطلع مِنْ بين أيدي حي، ولازم اراويه إحنا منو وإحنا شنو...

وكاد يكمل، لكن الأسطة اسماعيل قاطعه مداعباً:

- على كيفك أبو فلاح، ولازم تدير بالك، لأن والينا داود ماكو أحد بتشاقي وياه، وباچر إذا شفت الروس تتطاير، فلازم تتلمس راسك مِنْ هالساعة، ولازم تتعوذ مِنْ الشيطان!

قال حسون، وكان سارحاً فِي مكان بعيد:

- شلال، مثل ما قال عمي أبو نجم، مو للبيع. هذا وقف، ما ينشرى وما ينباع!

ردَّ الأسطة بمداعبة واستغراب:

- آه يا حسون، مخبى بقشورك، وماكو أحد يدري...

وتغيرت النبرة، أصبحت أكثر جدية:

- صرت تعرف بالوقف، وباللي ينباع واللي ما ينباع، هاي منين لك حسون؟ مِنْ علمك؟ منو اللي قال لك؟

ـ ذاك اليوم، بالسوق، سمعتهم يقولون: وقف عادلة خاتون ما ينباع؛ وقف أبو حنيفة ما ينباع؛ ووقف سيدي عبد القادر...

وكاد يُضيف أسماء أخرى، لكن الأسطة اسماعيل فتح عينيه باندهاش وهو يقول مخاطباً الجماعة:

ـ وي.. وي، سمعتم يا جماعة الخير...؟ وأضاف يكلم نفسه: ما تخوف إلا المية السنطة! والتفت إلى حسون:

- صرت تتختل وتسأل، مو هالشكل حسون؟

ولم يتركه يجيب:

- صرت تعرف الوقف، اللي ينباع واللي ما ينباع، وهسه تريد تسوي الحصان وقف؟

- آني ما علي عمي، آني كُلّ شي ما أريد، هم بالسوق هالشكل يسولفون ويقولون...

وبعد قليل وبخوف:

- آني كُلّ ما أريده أن أنام بصف الحصان؛ احچي وياه؛ أسأله إذا يحتاج فرد شي، إذا يشتكي مِنْ فرد شي... وغير هذا كُلّ شي ما أريد! سأله

الأسطة عواد بمداعبة:

- وإذا أصحابه رادوا يبيعوه؟

- شحدهم؟ منو يقدر يبيعه وآني حي؟ دمي قبل ما يطلع مِنْ صوب الكرخ!

ـ عفية، هالشكل أريدك، إبني حسون. ودير بالك أحد يقشمرك، يقول لك: انطيك، أبادلك. لأن اللي يبيع حصانه أو فرسه طمع، باچر يبيع كُلّ شي، فدير بالك إبني حسون!

قال الأسطة عواد مواصلاً الدعابة:

- شلال أنت تنفصل بيه، حسون؛ وأبو حقي: منو يريد زيان: الراس اللحية، أهلاً آغاتي، وآني بعد اليوم ما علي إذا جا سمسير، إذا جا أحد مِنْ ذاك الصوب، باليوز ماليوز، ما شفت، ما سمعت...

ردَّ سيفو بحدة:

- هاي شنو أبو نجم؟ شنو راح توقع كلها براسي؟

ـ أستغفر الله، أبو فلاح، آني شنو بلياك وبليا الناس اللي مثلك، لكنها كلمة تنقال!

تدخل الأسطة اسماعيل:

ـ أهل صوب الكرخ إذا ما لقوا أحد يتعاركون وياه يتعاركون ويا رواحهم، ويا بعضهم، فالله يستر!

- آني ما علي، آني وشلال وكُلّ شي غيره ما علي بيه.

هكذا قال حسون، وهو ينقل نظراته فِي الوجوه، ويبدو فرحاً الاختلافهم، فرد سيفو:

- لك لا تصير أثوَل. هسه قلنا عليك سبع وخوش آدمي، لأن هذي الدنيا ما تسوى إذا الواحد وحده، وإذا الواحد ما صار سبع، ولحمه قاسي ما ينكال!

- شتريد مني، عمي أبو فلاح؟ تريدني أروح لمقبرة الشيخ معروف بالليل وأقطعها بالطول والعرض؟ تريدني أنام بين القبور؟ تريدني أصوم صوم زكريا حتى يحيل الحول؟ تريدني ما أنام سبعة أيام وسبع ليالي؟

ـ على كيفك يا معود، لا تروح زايد، وبعدين تكسر بوط!

و هكذا قال الأسطة اسماعيل رداً على الإثنين، لكن سيفو قاطعه بحدة:

ـ مولانا.. إذا الواحد خاف أكثر مِنْ اللازم، إذا حسب زايد، ما يصير براسه خير، وأولاد الحرام ياكلون ويباوعون، فإذا شافوا بعين الواحد خوف راح

سحق، يقتلوه وبعدين يذبوه ذبة چلب...

استراح قليلاً ثم أضاف، وكان صوته بعيداً وعميقاً:

ـ صحيح أن الدنيا ما تسوى، لكن الواحد ما لازم يروح غدر، أو يقول: زغيرة وما يخالف، لأن وحدة تجر اللخ، واللي يريد يغدر ويقتل ما يفرق، وما عنده وقت حتى يسأل: أنت شنو، أنت منو؛ أول نوبة يقتل وبعدين يسأل!

قال الأسطة عواد، وكأنه يكلم نفسه:

ـ لا إله إلا الله، ما أغدر الإنسان وما أصلفه، لكن لكل ظلم نهاية، ولكل غادر نقرة يوقع بيها، أما اللي يمشي على الأرض مرحاً وشايل خشمه وما شايف أحد غيره، فبشره بالخراب والذل... وبعدين بالنسيان!

وغرق الجميع فِي الصمت، وتاهوا فِي أمكنة بعيدة. وفجأة نهض حسون كالمرعوب. وهو يقول:

- شلال ما يقدر ينام إذا ظليت بعيد عنه، لازم أغني له حتى ينام!

ابتسموا وهم يرونه يغادر القهوة، وفجأة بدأوا يسمعون دوي الناس الذين كانوا حولهم يملأون المكان!

كعادتها، هي الأيام، لا تتوقف. الصغير يكبر والجديد يصبح قديماً، والحزن الذي كان كاوياً يهدأ ويتطامن، إلا حزن بين الحاج صالح العلو، فإنه يزيد ويتكاثف يوماً بعد آخر.

فمهيبة، أم قدوري، التي كانت تريد، بغريزة الأنثى والأم، أن تحول الدنيا كلها إلى كتلة مِنْ السواد، وقد شاركتها البنات فِي ذلك أول الأمر، وجدت اعتراضاً، بدأ كملاحظة، مِنْ كبار العائلة، ثم مِنْ أولادها، إلى أن أصبح رفضاً، وتحول الرفض إلى تحدٍ، مِنْ أكثر الذين حولها. حتى أخوها نعمان، الذي بكي، أو بالأحرى سقطت دموعه دون أن يقوى على منعها أو إخفائها، وهو يستقبل العائلة بعد أن عادت مِنْ كركوك، وظل أول مِنْ يستقبل المعزين، باعتباره أكبر المسنين، بعد أن احتجب الحاج صالح العلو، وكانت تربطه ببدري علاقة حميمة، زادها، كما يقال، الشبه بين الإثنين، وهذا ما تؤكده مسنات العائلة، خاصة مِنْ ناحية الأم، أن «بدري ونعمان حباية ومقسومة، لا راح ولا جا: العيون، القصة، الخشم، حتى الضحكة، سبحان الله، وكأنها ضحكة خاله، الفرق بينهم أن واحد زغير والثاني چبير!».

حتى نعمان الذي بدا شيخاً وطفلاً فِي آن واحد، إذ كان شديد الارتباك وهو يستقبل المعزين، تحول فجأة إلى طفل ضخم وهو يرى أخته تذوب حزناً والتياعاً. كان، بعد أن ينفض جمع الرجال، يمر ليقضي معها وقتاً، لعله يخفف عنها الدموع واللوعة، لكن ما يكاد يراها حتى يصبح بحاجة إلى أن يكفكف دموعه، وكثيراً ما سحبه قدوري، وهو يحتضنه بكلتا يديه، ليغادر القسم الداخلي مِنْ البيت، وأن يخرجا معاً إلى الحديقة، «ليشتم الهوا» كما يقول قدوري، حائلاً بينه وبين الأسوأ، إذ يمكن، وهو يقابل مهيبة، وقد تحولت إلى تمثال مِنْ الشمع بعيونها الجاحظة، وصدرها نصف المكشوف، والذي احمر إلى درجة يثير الخوف، بسبب اللطم، إذا استطاعت أن تلطم، أو وهي تقرص نفسها فِي أماكن عديدة مِنْ جسدها، علها تستحضر الألم، الذي يمكن مِنْ خلاله أن تشعر ببعض الراحة...

لكن نعمان الذي بدر منه ما لم يكن متوقعاً، أو مألوفاً مِنْ الرجال، ما لبث أن تماسك بعد بضعة أيام، وعاد مثلما كان قبل الفاجعة. أما وهو يرى أخته تغرق يوماً بعد آخر فِي الحزن، ويرى فِي عينيها ما يشبه الفرح واللذة، وهي تحاول أن تجعل كُلّ مِنْ حولها يغرق أيضاً، فقد شعر بالارتباك أول الأمر ثم بالخوف. ذكرها بالأعزاء الذين ماتوا: الأخوة والأخوات، ثم كيف مات الأب حين لم يكن أحد يتوقع موته. قال والآخرون يسمعون: جاء عند أول المساء،

أكل، شرب الشاي، وبدا لكل مِنْ رآه أنّه لا يختلف عن أيّ يوم سابق. نظر بإمعان وما يقارب الشغف إلى كُلّ فرد مِنْ العائلة. كانت نظراته عميقة، متأملة، ثم أمسك بالقطة ووضعها فِي حضنه، كان يمسد على ظهرها وهو يقول: «... ويجي يوم، وتنتظرين ساعة.. ثنتين، وهسه يجي، وبعد شوي يجي، وينقضي الليل كله وما يجي، يا هل ترى سافر؟ يبطي؟ يرجع؟ لكن هالمرة سفرة طويلة وما منها ردة، فلا تزعلي؛ لا تقولي ليش.. هذه هي الدنيا».

هذا ما حصل فِي تلك الليلة التي مات فيها الأب. لم يقل لأحد، سوى القطة، أنّه سيسافر، وأنه لن يعود. والأم التي كانت تغطي بضحكاتها كلماته الأخيرة، فِي محاولة لئلا يسمعها غيرها، لامته كثيراً، «لأنه يفاول»، لكنه ضحك بحزن، هكذا قالت الأم، وقبل أن يغمض عينيه للمرة الأخيرة، أيقظها، وقال لها: مسلم عليچ، وردت: نام.. نام ويا معود والصباح رباح، ونام فعلاً، لكن لم ير أيّ صباح بعد ذلك.

ذكرها نعمان بذلك، ولا يدري إن سمعته أو لم تسمع.

وذكرها أيضاً بعدد مِنْ الذين أحبوهم وماتوا بعد مرض أو فجأة، مِنْ النساء والرجال، مِنْ الأقرباء ومن سكان المحلة، وكيف أن الحزن على كُلّ واحد دام أياماً ثم انتهى، وعليها إن تفعل الشيء ذاته الآن. كانت تسمع، لكن لا تجيب. وحين يسألها ما إذا فهمت أم لا، كانت تنظر إليه بعينين فارغتين وكأنها تراه لأول مرة، وإذا ألح عليها بضرورة الامتثال لما يقول، كانت تسأله:

- ها نعمان، شقلت؟ ويردد نفس الكلمات، وبإلحاح يزداد، لكن ما إن تستمتع إليه قليلاً حتى تغيب مرة أخرى. قال نعمان لقدوري بعد أيام مِنْ محاولة إقناعها أن تكف عن الغرق فِي الحزن والسواد:

- حتى الأنبياء والأولياء ماتوا، ماتوا قتل، صلب، وأكو منهم مِنْ مات بالخازوق. انقهر عليهم الناس، وأهلهم انقهروا أزيد، لكن ما مر أسبوع أو شهر، وإذا طالت للأربعين، إلا وكُلّ واحد قال للثاني: يبزى، كافي. الله يرحمهم والله يرحمنا لمن نموت.

- هذا الصحيح، يا خالي، وهذا اللازم يصير!

- وأختي، وأني أعرفها كلش زين: ولا تزعل مني، يا خالي، رعنة، كلمة تاخذها والثانية تردها.. ومو بس هي انقهرت على بدري، كلنا انقهرنا، لكن كُلّ شي اله حد...

وتتغير لهجة الخال:

- ومو بس بدري شهيد، حِتى الحسين وجعفر...

لكنه لم يتابع، إذ شعر أن هذا الطريق غير آمن. توقف. تنحنح. وتغير صوته:

ـ حتى محمد مات، فشنو... خلصت الدنيا؟

تلفت قدوري إلى أكثر مِنْ جهة قبل أن يسأل:

- بالقرآن مكتوب، مثل ما قال الملا حمادي، إن عيسى ما قتلوه وما صلبوه، لكن شبه لهم، فشنو القصد: مات لو ما مات؟

- خليهم، يا خالي، يقولون اللي يريدونه. خليهم بكيفهم. بس لازم تعرف، يا خالي، كُلّ مِنْ عاش بذاك الزمان، وحتى آدم مات، تعرف لو ما تعرف؟

- بلي.. بلي، شلون ما أعرف!

- وهسه ما علينا مِنْ موتى ذاك الزمان، علينا مِنْ موتانا، علينا مِنْ الناس اللي راح يموتون قهر وحسرة، علينا أبوك وأمك، فأريدك، وأنت تفهمني كلش زين، تقول لهم: كافي؟

وهكذا وقف قدوري بحزم، لكن بمحبة كبيرة، فِي وجه السواد، وفِي وجه الحزن أيضاً، الذي تحاول أمه فرضه على البيت وعلى الآخرين. وزع ثياب المرحوم، وكُلّ الأشياء التي يمكن أن تنقل، على الفقراء. فعل ذلك دون تردد، وقد استعان بأشخاص بعيدين مِنْ طرف المحلة، لكن الأمر وصل سريعاً إلى قهوة الشط. كما طلب مِنْ حكمت داري، زميل بدري فِي العسكرية، وقد بعث إليه أحد شبان المحلة يطلب منه أن يوافيه دون تأخير، وحين توجس حكمت مِنْ هذه الدعوة، وحاول أن يعرف السبب، أبلغه الرسول أن الأمر هام ولكن لا يعرفه. وجاء فِي اليوم التالي، وإن حرص على أن يصطحب أحد أقربائه معه ليكون شاهداً! رجاه قدوري أن يأخذ معه ملابس بدري العسكرية، ويعيدها إلى السراي، «لأن المرحوم أوصى بذلك». وقد امتثل حكمت للطلب، لكنه أكد، فِي نفس الوقت، أن الملابس لم تكن عهدة، إذ اقتطع ثمنها خلال الشهور الستة الأولى بعد التخرج مِنْ المدرسة العسكرية!

أما طلبات الأم، وأيدتها الخالة بكرية بحماس، شراء مجموعة مِنْ الأقمشة السوداء، بأطوال وأنواع متعددة، وبكميات كبيرة، لكي تستعمل كملابس وأغطية للرأس، وأيضاً كستائر للنوافذ، واقترحت فضيلة سوادي، العدادة، أن تُشترى «أطوال» مِنْ قماش المناشف، يتم التصدق بقسم منها، وأن تصبغ بالسواد، أو بالأزرق القاتم، حتى إذا تنشفت بها الوجوه، أو تم الإئتزار بها فِي الحمام، تحول الوجه إلى القبلة، وتجعله يحس بيوم القيامة والحساب، ومن شأن ذلك المشاركة فِي تحمل خطايا الميت، وأن تجعله يصل إلى أيدي الملائكة بريئاً وكأنه مات ساعة مولده...

... هذه الأمور، وغيرها، قابلها قدوري بكثير مِنْ الرفض والتحدي، وساعده وقوف أخوته معه، لكن بعض الأمور لا تتوقف على ما يمليه العقل، فنظرة كسيرة مِنْ أم قدوري تقلب أو تزعزع كُلّ ما اتفق عليه.

يحصل ذلك ليس نتيجة الخوف، وإنما بسبب الإحساس بالعطف والمشاركة. فحين يطلب قدوري مِنْ خالته بكرية أن تحاول إقناعها لكي تكف أو أن تخفف مِنْ هذا السواد الذي لا يملأ البيت وحده، بل ويغلف الروح أيضاً، ترد بآيات وأقوال حول ضرورة كسب رضا الوالدين وتحذره أن يكسر بخاطر الحجية، التي أصبحت على حافة القبر، فيرد قدوري، ويكون صوته مزيجاً مِنْ التوسل والغضب:

- إلى مكة أشيلها على كتافي، ولقبر النبي أوديها، بس تطلب وتقول.

أما أن تتلحف بالسواد، وتقول هاي سُنة، فلا الله يقبل ولا النبي.

وحين ترد عليه خالة بكرية أن الجنة تحت أقدام الأمهات، يرد وهو يهتز:

ـ ما أقول لا، بس خلها ترحمنا وترحم نفسها...

يتلفت حواليه ويتابع بنبرة جديدة:

- وذاك المسكين، الحجي، اللي ما ينعرف هو حي أو ميت، ما ينراد له أحد يحن عليه؟ يحچي وياه؟ ما لازم يشوف ضحكة على وجه واحد منا آخر حياته؟.

تجيبه الخالة بكرية بطريقة لا تخلو مِنْ سخرية:

- بعد هذي البلوى، أكو أحد يقدر يطلع سنه أو يفك حلقه بضحكة؟

هاي وين صارت.. أنت ما تقبلها!

ويصمت قدوري، مؤجلاً المعركة لوقت آخر، ويصمم ألا يستجيب لطلبات أمه أو لبعض النسوة اللواتي التففن حولها. وإذا كانت أمه توعز ولا تطلب فبكرية تتولى الأمور كلها. وتبدأ العواصف بالهبوب بين أجنحة البيت. الحجية زاهدة فِي جانب، وقد كانت وحيدة أول الأمر، ثم أخذ يتعاطف معها الأخوة، لكن بشكل سري، ودون مبالغة، تبعهم الخال نعمان. وفِي الجانب الآخر الأم وبكرية، وبعض القريبات أيضاً. وفطيم، وجة سيفو، المرسال بين الطرفين، والتي يتولد عن طريقتها فِي نقل الأخبار والطلبات، وبعض الأحيان الأوامر، الكثير مِنْ سوء التفاهم، بحيث يتسني لكل طرف أن ينكر بعض الأخبار والطلبات «لأن هذه الثولة، فطيم، ما تعرف كوعها مِنْ بوعها، ومن قبة للثانية تاهت، انلاصت عليها، وصارت تسقط حچي وسوالف مِنْ تحت ابطها» كان يحصل هذا إذا بلغ الخلاف بين الطرفين حداً يقتضي تدخل الرجال. والمرات التي كانت تستدعى فيها فطيم، لسؤالها عما قالت أو

نقلت مِنْ أحاديث أو طلبات، كان يتحول البيت إلى حالة مِنْ الحزن الضاحك، أو إلى ضحك مأساوي لا يدري الإنسان كيف يتعامل معه.

وفِي الطابق العلوي ينعزل الحاج صالح العلو، متوحداً، غائباً، لا يعرف أنّه موجود وحي إلا حين تنقل إليه نعيمة الأكل، أو حين تُسمع دقات قدمه، وكأنها أصداء بعيدة، لكنها موجعة، بعد أن تبلغ مسامعه أصوات زاهدة وبكرية، وهما تتبادلان النقاش بطريقة غير مباشرة، إذ تقف كُلّ منهما فِي زاوية، وتتظاهر أنها تتحدث لنفسها، لكن بصوت عالٍ وساخر، وفِي «الحديث» تكال التهم. وتعير الواحدة الأخرى، ولا يخلو الأمر، بعض الأحيان، مِنْ الفضائح والشتائم. يتم ذلك بإتقان وبراعة، وبصوت يرتفع بين لحظة وأخرى. فإذا بلغ الصوت حداً معيناً مِنْ العلو، أو تخلل الحديث ما يجرح ويسيء، تُسمع دقات الحاج، وكأنها إنذار أخير، إذ فجأة يحل الصمت، وكأن ريحاً خفية حملته مِنْ الطابق العلوي.

تنظر المرأتان الواحدة للأخرى، وربما تكون هي المرة الأولى التي تتلاقى خلالها النظرات، وتقول العينان الكلمات الأخيرة، وهي كلمات التشفي والتهديد، وإن المعركة لا يمكن أن تنتهي بهذه السهولة!

امتناع قدوري، باعتباره المسؤول عن تأمين حاجات البيت، عن الاستجابة لطلبات أمه، التي تبلغ بوساطة الخالة بكرية، لا يحول دون زحف السواد. فقد أخذت أم قدوري تستخرج مقتنياتها الذهبية، وعن طريق فضيلة سوادي تشتري ما تعتبره ضرورياً لاستكمال مراسم الحزن، مِنْ القماش، إلى أنواع مِنْ المساحيق والبخور والعطور والكافور، وأصبح هذا الأمر مصدراً جديداً للخلاف. فالكل يعرف، أو على الأقل يقدر، أن الذهب الذي يباع يعادل أضعاف ثمن الخرق التي تحملها فضيلة بشكل سري، وتلك المواد التي تجلبها. وإذا كان مِنْ السهل إخفاء الخرق، فإن الروائح التي تملأ البيت لا تخفى، ومثلها تلك المواد التي أخذت تعلق على الأشجار أو فوق حافات الأبواب والشبابيك.

قال قدوري لخالته:

ـ مو على مود الفلوس؛ الفلوس بألف جهنم، لكن هالعيشة ما عادت تنراد!

نظرت إليه بكرية بطرف عينها، خاصة وأنه رفض قبل أيام إعطاءها ما طلبته مِنْ نقود، وكأنها تلومه وتوبخه، قالت، ولم تخل لهجتها مِنْ سخرية:

ـ عايزة بعد، وباچر، يعلم الله، إذا طلبنا قرصة خبز، آني أو الحجية، يجوز نسمع الجواب: ماكو!

ـ على كيفك.. خالة، لأنه مثل هذا الحچي ما ينقال ببيت الحاج صالح؛ وأنت بعينك تشوفين: الأكل اللي ينذب أكثر مِنْ الأكل اللي بنوكل، لكن

هذي القشمريات اللي ما يقبل بيها لا دين أو ناموس، ما نريدها...

وبعد قليل:

ـ هذي المرية، بنت السوادي، إذا طبت البيت أكسر رجلها، أشعل أمواتها؟

- آني ما علي...

وتغير صوتها تماماً.

- حسافا إن الخير هالشكل يتجازى، فضيلة ذلت روحها على مود الحجية، تركت بيتها وولدها وقابلت أمك، وبعدين هالشكل؟

أخذت نفساً عميقاً وأضافت بحدة:

- وتاليها... مثل ما قالوا: خير لا تسوي، شر ما تلقى!

وقف قدوري بغضب، دق الأرض بقدميه، مرة بعد مرة، وقال بحدة:

- هذا اللي فوق.. علمني فد شي كلش زين، وأبد ما أنساه: اللي يكون وياك زين، كون وياه أحسن، أما اللئيم اللي ما عنده وفا فانساه، لا تكلف روحك تقول له مرحبا...

وكاد يتابع بنفس الوتيرة، أو ربما بوتيرة أعلى، لكن الدقات التي هبطت مِنْ فوق، وضعت حداً لهذا النقاش. لا يعرف إن كانت الدقات تأييداً أو اعتراضاً، أو ربما كانت إنذاراً أخيراً بضرورة أن تنتهي هذه اللعبة، وأن تتوقف. قال قدوري، وهو يهبط على مقعده:

ـ العدادة تعلي صوتها حتى تزيد كروتها، أما قلبها فصخر جلمود، ما يحركه طوب أبو خزامه...

وبعد أن استقر فِي المقعد، قال، كأنه يكلم نفسه:

ـ إذا ما انقطعت وحدها، والله لأخلي سيفو يهزمها مِنْ صوب الكرخ كله!

قامت الخالة بكرية وهي تقول:

- آني شعلي؟ آني ياهو مالتي؟

وأضافت وهي تبتعد:

- وهذول بيت علو ما بيهم إلا شوفة الحال، وراسهم يابس، وألف مرة قلت هذا الكلام لمهيبة، لكن...

لما تأكد داود باشا أنّه سيطر على معظم خصومه، بالحصار أو بإشعارهم بالأمان، وبعد أن وصل إلى علمه أن رجال الباليوز اتصلوا بصادق أفندي ابن سليمان الكبير، كما أن رسالة وصلته مِنْ قاسم الشاوي، مع حصان وسيف، وأن صادق بعث إليه بندقية فرنسية، استيقظت فِي قلب الباشا الظنون والمخاوف، وأخذت تزداد يوماً بعد آخر.

ولأن داود يريد أن يطوي مرة واحدة، وإلى الأبد، المشاعر نتيجة ما لحق بأغلب أفراد أسرة سليمان الكبير، فقد أحاط مِنْ بقي منهم بالرعاية والاهتمام، كما أغدق على الكثيرين وطيب خواطرهم. ورغم ما نقل إليه عن صادق، فقد قرر أن يغض النظر، وأن يطوقه ويستميله قبل أن يقع فِي أحضان الآخرين. ولذلك خصه بعناية مميزة، وأكرمه أيما إكرام، إذ حرص أن يكون إلى جانبه أثناء استقبال الوفود، وأحله فِي مكان الصدارة فِي المآدب والحفلات.

كما انطلق رجال الباشا، الذين أكدوا منذ البداية براءته مِنْ دم سعيد، للإشادة بصادق، وقالوا بكلمات واضحة، مع مظاهر الفرح، إن العناية التي تولى لآخر أبناء سليمان تدل على تسامح الباشا، ورغبته فِي أن يقترح على الباب العالي تسميته والياً لحلب، مع أن صادق لا يزال يمانع ويعلن رغبته فِي أن يبقى بعيداً.

وصادق أفندي بادل الباشا وداً بود، وكان يردد أمام الكثيرين أن الذين كانوا حول سعيد هم السبب بقتله، بل أكثر مِنْ ذلك هم الذين قتلوه. وكان يختم مثل هذا الحديث بأن يقول: «عفا الله عما مضى، ونحن أولاد اليوم» فِي اشارة واضحة أنّه تجاوز هذا الحادث، ولا بد مِنْ طيه، والبدء مِنْ جديد.

قدر داود باشا كثيراً هذا الموقف لصادق، وأخذت المودة تزداد بين الاثنين. وتأكدت أكثر لما أبدى صادق عزوفه عن شغل أيّ منصب رسمي، مع أن الباشا عرض عليه مناصب عديدة، لكن فِي كُلّ مرة يرد، وابتسامة حزينة تغشى وجهه:

ـ فِي حياته، الله يرحمه، ما أراد لاحد أبنائه أن يكون والياً بعده، وتذكر وصيته يا باشا، لكن القدر... ثم أبناء السوء، وحصل ما حصل!

يأخذ نفساً عميقاً ويضيف:

- وأنت يا باشا تكفي وتوفي، فكل رجائي أن تعفيني مِنْ أية وظيفة.

وحين يتطلع إليه الباشا بعتاب، يرد صادق:

- وبعدين... حلفت مِنْ ذاك اليوم، وما تريدني أكسر يميني.

وداود باشا يعرف أن «ذاك اليوم» هو يوم مقتل سعيد، فقد نقل عن صادق، حين بلغه الخبر، أنّه صرخ أمام عدد مِنْ الذين كانوا حوله: «ألف مرة قلت لهذا الأرعن أترك ابن الخايبة، المأبون، حمادي، لكن سعيد كان يسمع بغير آذانه» وبعد أن سقطت دمعة لم يستطع صادق أن يمنعها، أضاف كأنه يحدث نفسه: «.. إذا كان الغراب دليل قوم فبشرهم بالخراب، وهذي هي النهاية» وما أن هدأ قليلاً حتى قال: «وبعدين.. داود ما هو غريب، داود منا وفينا»..

لقد نقل هذا الحديث، ونقل غيره، مما قاله صادق، إلى داود، فاكبر موقفه وقرر أن يكسب ثقته، رغم كُلّ ما حصل، وأن يصبحا أصدقاء بعد تفكير وتحرٍ، اعتبر الباشا أن المدخل إلى الثقة ثم الصداقة، أن يقترب مِنْ صادق أكثر، وأن يقربه، وكانت البداية: لعبة الشطرنج.

فهذه الهواية التي استبدت بصادق منذ زمن مبكر، كانت تشغله وإن بدت للباشا أنها لا تليق بالرجال الوقورين، لأنها تلهي عن ذكر الله، وتأخذ الكثير مِنْ الوقت، ما لبث أن وجدها الوسيلة المناسبة للتعامل مع صادق وعليه فقد طلب مِنْ أحد ضباطه، شوقي آزوغلي، أن يعلمه هذه اللعبة وكان شوقي معلماً بارعاً، ويلم بعدد كبير مِنْ الخطط، بحيث لم يمر أسبوع إلا وأصبح الباشا يستسيغ اللعبة، ويقدر ما فيها مِنْ ذكاء، وما تتطلبه مِنْ تركيز ومهارة، وصار مستعداً لمنازلة صادق.

فِي الحديقة المطلة على النهر، وبعد الانتهاء مِنْ صلاة العصر، فاجأ الباشا صادق، إذ تحداه وطلب أن ينازله فِي الشطرنج! وصادق الذي فوجيء اعتبر الأمر دعابة، لكن حين رأى الباشا يطلب الرقعة، ويصف الأحجار، ويشير إليه أن يجلس مقابله للنزال، قال بارتباك:

- تفضل.. سيدي.. تفضل!

لا شعورياً هبط صادق على المقعد المقابل، وأخذ يتلفت هنا وهناك، غير مصدق لما يحصل، لاعتقاده أن الباشا ما برح يمزح، وأن شخصاً ما سيظهر فِي اللحظة التالية لينازله. قال له الباشا، وهو يميل على الرقعة:

- راح العب قبلك، لأن الأبيض لي، ولأني مبتدىء!

ولما هز صادق أفندي رأسه مقراً وموافقاً، أضاف الباشا:

. لكن عندي شروط...

لم ينبس صادق بأية كلمة، اكتفى بأن هز رأسه مرتين، دلالة الموافقة، فتابع الباشا:

- بعد كُلّ شوط، ولا يهم مِنْ يكون الغالب ومن يكون المغلوب، نغسل قلوبنا حتى تصير مثل الحليب، لأن خصومة الرقعة لا يجوز أن تنتقل للقلوب، موافق؟

وحين تهللت أسارير صادق أفندي دلالة الموافقة الكاملة على هذا الشرط، أضاف الباشا، وبطريقة أقرب إلى الدعابة:

- والشرط الثاني: أن الحد لكل لعبة، والحكم بيننا، هو الأذان، ولا يهم أين وصلنا أو مِنْ غلب مِنْ، فإذا وافقت.. نبدأ؟

ويوافق صادق بحماس، لأنه متأكد أنّه سيغلبه خلال وقت قصير، وقبل حلول صلاة المغرب، خلافاً لتوقعات الباشا... وهكذا بدأ الشوط الأول فِي هذه اللعبة التي ستمتد بينهما وقتاً طويلاً!

ورغم أن داود باشا تعود منذ زمن مبكر على إلقاء الدروس، واستمر يقوم بهذه المهمة، حتى بعد أن أصبح والياً، ومع تزايد الأعباء، فقد رسخ فِي قناعته، بعد تجربة طويلة، أن ما يبقى فِي ذاكرة الناس مِنْ الكلام الكثير الذي يسمعونه، أو الذي يقال لهم، هو ما يأتي بشكل عفوي، ولا يأخذ صبغة الوعظ والتعليم، وهذا ما أصبح مجالاً لاتباعه مع أولاده، ومع عدد مِنْ أفراد حاشيته، وهذا ما قرر أن يتبعه مع صادق.

كان مع نقل البيادق، وأثناء التفكير بين نقلة وأخرى، يترنم ببيت مِنْ الشعر، بحكمة، أو بقول. وكان يروي، بعض الأحيان، القصص والطرائف. يفعل ذلك ليمد جسراً متيناً بينه وبين صادق، ولكي يخلق جواً يولد ثقة تتجاوز فارق السن والشكوك، وحتى هيبة المنصب، وكان، بين لحظة وأخرى، يسترق النظر إلى وجه صادق، ليرى وقع ما يقول. وصادق الذي مارس دور المستمع، أو دور السائل فِي أحيان قليلة، كان فِي مجالسه الخاصة يردد بعض ما يقوله الباشا؛ صحيح أن الكثير مما كان يردده يتغير، أو يُستعمل فِي غير مكانه أو فِي غير وقته، لكن ما أن تصل مثل هذه الأخبار إلى الباشا حتى يشعر بالفرح، وكثيراً ما فرك يديه وهو يقول: «كثرة الدق تذوب الصخر، وصادق راح يصير محبس باصبعي!» حين لا يستطيع الباشا ممارسة هوايته الجديدة مع صادق، لأنه لا يتحمل أن يُغلب دائماً! ولانشغالاته الكثيرة أيضاً، فقد انتدب عدداً مِنْ المهووسين بهذه اللعبة، كان على رأسهم عباس اسطنبول، وكلفهم بمرافقة صادق، وأكد عليهم أن يكونوا قريبين منه باستمرار، قبل اللعب وبعده.

ولم يتأخر هؤلاء عن أداء المهمة التي أنيطت بهم على أحسن وجه.

وعباس اسطنبول، اكتسب كنيته مِنْ إقامته الطويلة فِي اسطنبول، إذ عاش هناك سنيناً عديدة، بعد أن غادر بغداد. كانت كنيته، أو بالأحرى اللقب

الذي يطلق عليه: عباس الحجية، لفقره وليُتمه، وأيضاً لتمييزه عن عباس آخر كان يحمل نفس اسم أبيه. وقد ظل يكني هكذا إلى أن جاء فِي إحدى زياراته إلى بغداد، وأخذ يتحدث بإسهاب عن تلك المدينة العجيبة، اسطنبول، ولم يكن يكف عن ترديد اسمها بمناسبة أو دون مناسبة، فلحق اسمها باسمه، وأصبح الذين لا يعرفونه باسم عباس الحجية يعرفونه باسم عباس اسطنبول!

كان الاسم، حين يسمع أول مرة، يثير الاستغراب بل والسخرية، لأن عباس كان غليظ الملامح، قاتم البشرة، كأنه قُد مِنْ نحاس قديم مستهلك، خلافاً لما تثيره كلمة اسطنبول فِي أذهان الكثيرين، مِنْ الرقة والبياض ودقة الملامح، حتى أن سلمان المطيرجي كان إذا رأى بعض الجنود الأتراك، ببياض البشرة وزرقة العيون والشعر الأشقر، يردد، ويريد للآخرين أن يسمعوا، وكان يخاطب عباس بعد أن لبسه الاسم الجديد:

- موت يكرف هالخلقة، وسليمى تاخذك، أنت اسطنبول وهذول اسطنبول؟

ولا يترك لأحد أن يعلق أو يجيب، يتابع والزفرات تصعد مِنْ صدره:

ـ إذا رجالهم بيض شقر هالشكل، فنسوانهم شلون؟ ما تقولوا لي يا معودين، يا أصحاب النظر يا أهل المروة؟

ولأنه لا يريد إجابة مِنْ عباس أو مِنْ غيره، يهز رأسه مرات عديدة، ويتابع كأنه يكلم نفسه:

- هذا يلوق له اسمه: عقره أو عقرقوف، وإذا تساهلنا نسميه عباس تلعفر، أما اسطنبول فتصلخ، ما ترهم!

ويتوجه إلى عباس:

- لك بابا... بدل اسمك، لأنه، والله العظيم، السلطان إذا عرف يصلبك، يعلقك مِنْ خصاويك!

ويلتفت إلى الذين حوله ويقول بلهجة محذرة:

- وأنتو يا معودين وين رايحين؟ لا تورطوا الرجال، لأن هذي بيها قص راس، وأبد ما تخلصون مِنْ الحجية!

ولأن سلمان يعود إلى الغزل ببياض أهل اسطنبول ورقتهم، ويستعمل كلمات فاحشة، فلا أحد، حتى عباس، بغضب مما يقوله، بل تتوالى القهقهات والتعليقات، وينتهي الحديث عن الاسم الملائم أكثر لعباس، خاصة وأن الإقامة فِي اسطنبول أكسبت عباس شعوراً بالرفعة، فقد رأى ما لم يروه، ويعرف أكثر مما يعرفون، ولذلك لا يقيم وزناً لما يقولون!

كان عباس قد بلغ مِنْ البراعة فِي لعبة الشطرنج حداً أن بامكانه منازلة عدد مِنْ اللاعبين، قد يصل إلى خمسة، فِي آن واحد، وأن يهزمهم جميعاً. وقد اكتسبت هذه المهارة عن طريق بحار مالطي نسيته السفينة التي كان يعمل عليها فِي اسطنبول، أو نسي نفسه وهو يلعب الشطرنج فِي أحد مقاهي الميناء. لما سافرت السفينة، قضى هذا البحار سنيناً ينتظر عودتها، أو مجيء سفينة مالطية تحمله إلى بيته مرة أخرى! وخلال انتظاره لم يفعل شيئاً سوى لعب الشطرنج على رهان، وكان عباس، بعد أن تعلم منه، ينازله، ويؤكد انه تفوق عليه وخسره كُلّ ما يملك!

بعد إقامة طويلة فِي اسطنبول قرر عباس العودة إلى بغداد ليتزوج، وربما للإقامة الدائمة إذا وجد عملاً يلائمه، وإذا أصبحت بغداد أحسن مما تركها! ولقد صادفت عودته أن جيش داود جند الكثيرين على الطريق، وكان عباس الحجية أحدهم. ولقدرته على إقامة الصلات، وخدمة الآخرين، ما لبث أن اختير ليكون ضمن الحرس الخاص لداود، فتكونت له علاقات بالرجال المحيطين بالباشا. أما بعد أن اكتُشفت براعته فِي الشطرنج، ولمؤهلاته الأخرى، فتم اختياره ليكون قريباً مِنْ صادق أفندي.

قال له خلف، وهو يبلغه بالمهمة الجديدة:

- الباشا يسلم عليك ويقول: عباس مِنْ اليوم يتحول مِنْ جندي إلى رخ..

وابتسم خلف ابتسامة كبيرة، وتابع بلهجة مرحة:

- نيالك.. راح تخلص مِنْ الحراسات، ومن الاكو والماكو، وتصير مِنْ مرافقي أفندينا، صادق، وما لك شغل إلا: كش.. ومات.

- شلون يا معود.. بشر.

ـ هالشكل يريد الباشا!

وبعد أن شرح له طبيعة المهمة الجديدة، والعلاوات التي سيتلقاها، ثم الإكراميات التي سيحصل عليها حين يوافيه بكل ما يقوله صادق، ويبلغ عن كُلّ مِنْ يلتقيه، أضاف خلف، وهو يفخر بعينه:

- وتعرف.. الزواج ينراد له هز كتاف، ينراد له كومة فلوس.

ولم يتأخر عباس عن لقاء خلف كُلّ ليلة، أو بين ليلة وأخرى، وأصبح ما يتلقاه لقاء الكلام الذي ينقله عما رأى وعما سمع مبالغ غير قليلة مِنْ المال. وكان يغلب صادق فِي اللعب أيضاً، إلا إذا أراد مزيداً مِنْ المال، فعند ذاك يعرف كيف يخطىء، كيف يسهو، ولئلا يحس صادق بالتواطؤ، كان عباس يعنف نفسه، يقول، وهو يوالي لطم جبهته:

- يا حيف أيام اسطنبول، ويا حيف تعليمك يا مالطي!

فإذا تزايدت أخطاؤه، وبدت تلوح الهزيمة، يقول برجاء:

- أبوس إيدك، أفندينا، إذا وافقت على أن أرجع.

وحين يرفض صادق أفندي، «وأن اللعب له أصولها»، يقول ليشجع نفسه:

- زين.. زين أخسر هالنوبة، لكن عندي خطة ما يفكها الجان، والرقعة بينا!

وحين يخسر يطيب صادق أفندي خاطره بإكرامية، وكأنه يطلب منه، بهذه الإكرامية، أن ينسى تهديده، وأن يكون رحيماً فِي اللعبة التالية! أما عباس فيعطي الحجية ما تجمع لديه مِنْ أموال، ويسأل برجاء وعذاب:

- شلون، حجية، اللي جمعناه يكفي لو بعد؟

فترد، وهي تبتسم، وينفتح حلقها عن بقايا الأسنان:

- بعد شويونه، عبوسي، يا بعد عيني!

يتطلع إليها مستشاراً، ويقول بتهديد:

ـ ترى آني متوازي، فإذا ما قلت: خلص، وبنت الأوادم صارت باليد، ترى أشيل روحي وبوجهي لاسطنبول!

وتخفف عنه الحجية، تعده أن تبيع الخلخال، لكي يصبح المال كافياً، وحين يرفض أن تبيع خلخالها، لأنه يفيد فِي أيام الشدة، يقرر أن يلتقي خلف كُلّ ليلة، وأن يخسر أكثر فِي مواجهة الأفندي!

قال له خلف، وهو يقدم له هدية مِنْ الباشا:

- يسلم عليك الباشا، ويقول بالرفاه والبنين، بس ما يريدك تغط وتغيب، لأن صادق أفندي هوايه يضوج إذا ما شافك قدامه كُلّ يوم.

أما صادق أفندي الذي قدم له هدية ثمينة بهذه المناسبة، فقد قال له وهو يودعه:

ـ المرية بعد الليلة الأولى تنكشف، تصير صفحة بيضا، وما ينراد لها حيلة أو تشغيل دماغ، أما الرقعة، بالأسود والأبيض، فتظل تنغل، وما بنعرف شنو اللي راح يصير بعد هذي النقلة أو ذيك، ويبقى حرامها أطيب مِنْ حلالها، فلا تطول!

وهكذا أصبح عباس اسطنبول مثل ظل لصادق أفندي، لا تفصل بينهما إلا الرقعة فِي النهار، أما فِي الليل، وبعد أن انقضت أسابيع على زواج عباس، فقد قال لأمه التي أخذت تلومه على تأخره:

ـ ترى اسطنبول بمكانها، لا تغور ولا تطير، وإذا لحيتوا أهج، أرجع للفي والمي، وهناك لا دادا ولا أوي!

وامتثلت المرأتان، أصبح غياب عباس يطول، فإذا سئل يرد بنزق:

- آني عبد مأمور، وأفندينا وحده هو اللي يقول روح وهو اللي يقول تعال، فما أريدكم تزيدون فوق همي هموم.

وحين تتطلع إليه الحجية باستغراب، لأنه تغير كثيراً، يُضيف:

ـ الحق علي لأني تركت اسطنبول!

لم تقتصر هواية صادق افندي على اللعب، فقد تعدتها أيضاً إلى جمع رقع الشطرنج بأحجام وألوان كانت تتوزع وتزداد فترة بعد أخرى، بحيث أصبح مِنْ يريد التقرب منه، باعتباره ابن سليمان الكبير، وقد يصل الآن أو لاحقاً إلى السراي، عدا عن جو المرح والكرم ولقاء الكثيرين، فإن مِنْ يريد كسب ود صادق أفندي، عليه أن يحمل رقعة جديدة، أو يذكر له واحدة ثمينة أو نادرة عند أحد الباعة، أو لدى أسرة مِنْ الأسر اليهودية، التي كانت تحتفظ بالكثير مِنْ التحف النادرة، ولا تمانع ببيعها إذا تلقت مقابلاً مجزياً، وهذا المقابل يتفاوت تبعاً للمشتري ومدى حماسته ورغبته بالتحفة، والعادة أن تكون معروضة للبيع، وغير معروضة فِي نفس الوقت!

كان صادق أفندي يوصي أصدقاءه أن يبحثوا له عن مثل هذه التحف، وقد تعود أن يبذل لقاءها بسخاء. كما أخذ يوصي المسافرين، خاصة الذين تكون وجهتهم الهند، وليضمن أنهم سيقومون بجلبها يريهم ما لديه مِنْ مجموعات، ويدفع قسماً مِنْ الثمن مقدماً. ولأن بعض هؤلاء لا يميز بين رقعة وأخرى، بين أحجار وأخرى، فقد أخذت تتجمع لدى صادق أفندي مجموعات مِنْ ذات النوع، كما تعرض بعض مِنْ أوصاهم إلى خدع أثناء الشراء، أو أثناء المبادلة، خاصة حين يتصدى مِنْ ينبه أو ينصح أن لدى الأفندي مثل هذه أو مثل تلك.

وإذا كان للعب طقوسه ورقعه، فقد استقر فِي قناعة صادق أفندي أن رقعاً تجلب له الحظ، وأخرى تعاكسه. وأن أياماً مِنْ الأسبوع تكون خيراً وأياماً مشؤومة. وأن أشخاصاً يغلبون أو يُغلبون ليس لأنهم أكثر أو أقل مهارة مِنْ غيرهم، وإنما لأن طريقتهم فِي اللعب تختلف عما تعود، أو خلافاً لما يحب. كما أن ملامح الشخص الذي يقابله، أو طريقته فِي الجلوس، وحتى الأسلوب الذي يحرك به الأحجار، كلها تؤثر على النتائج!

ولأن اللعب مع شخص بذاته، وباستمرار، يقلل مِنْ المتعة، نتيجة الحركات السريعة، الآلية، خاصة فِي البداية، كما يؤدي إلى تراجع مهارة اللاعب، فقد كان صادق يغير لاعبيه مثلما يغير الرقع، وهكذا لم يعد عباس اسطنبول اللاعب الوحيد الذي ينازله، إذ كان اللاعبون يتغيرون بين لعبة وأخرى، وإن بقي عباس مِنْ الذين استمروا، لأنه أراد وطُلب منه أن يبقى، ولأن «طريقته تختلف عن أهل بغداد» كما كان يؤكد صادق أفندي، وهذا ما جعل العلاقة بين الاثنين تستمر ثم تتحول إلى صداقة.

يقول بعض الذين يعرفون عباس الحجية، أو عباس اسطنبول، أكثر مِنْ غيرهم، أن إقامته الطويلة فِي اسطنبول، خاصة بين البحارة، والذين تقذف

بهم السفن، علمته، بالإضافة إلى الشطرنج، المكر وذرابة اللسان.

ويعترض على هذا الكلام مِنْ يعرفون عباس، قبل السفر: كان أمكر رجال محلة الفحامة، كان قادراً أن «يوصل الواحد للشط ويرجعه عطشان» لبراعته فِي الحديث والتمثيل، وأيضاً لأنه يحفظ عدداً غير قليل مِنْ الأغاني، وهذه وغيرها جعلته مميزاً على الذين حوله. أما بعد أن ذهب إلى اسطنبول، وأقام فيها فترة طويلة، «فقد ختم الصنايع» كما يقول الذين يحبونه، أو على الأقل الذين يقدرون مواهبه. أما مبغضوه، وهم كثر، وحين تتردد على مسامعهم القصص عن براعته، ومعرفته للتركية كأحد الأتراك، وأنه «افتر العالم حتى إنّه وصل إلى الهند» حين يسمع هؤلاء ما يقال عنه، يهزون رؤوسهم سخرية ويعلقون: «خلوكم مِنْ هذا الهتيلي لأنه مثل ما تشوفه عيونكم اليوم: يدق حجر بالجادة».

أما كيف يدق الحجر فِي الشوارع فقد جاء مِنْ اقترح على صادق أفندي، ومن أجل استكمال جميع أشكال الرقع وأحجار الشطرنج، أن يوصي على أحجار مِنْ الخشب بأحجام كبيرة، وأن يكون أحد ميادين صراع الديوك الرقعة التي تجري فيها المنازلة. ولدت الفكرة لأن الحظ عاكس صادق أفندي مع لاعب مِنْ مشهد، على مدى أيام متوالية، وبعد أن فكر أصدقاء الأفندي بسبب الخسارات المتلاحقة، قيل إن طريقة تنفس ذلك الرجل هي السبب فِي هزيمة الأفندي، وهكذا انتهوا إلى اقتراح مِنْ هذا النوع، إذ يمكن أن يتلاقى اللاعبان، لكن المسافة بينهما كبيرة!

قيل إن ابن الحجية كان وراء الاقتراح، وقيل إن جسام المبدر، وهو مِنْ شيوخ الخزاعل، وقد أدمن الشطرنج منذ وقت مبكر، وأصبحت هواية متحكمة به، هو الذي اقترح الفكرة، لأنه كان مصاباً بقصر النظر، ولا تلائمه الرقع الصغيرة!

المهم أن عباس اسطنبول قضى أياماً طويلة فِي سوق باب الآغا ليشرف بنفسه على إنجاز الحجارة، وما يكاد النجارون ينتهون مِنْ إتمام واحد منها، حتى يبدأ عباس بوضعه على الأرض ليتأكد مِنْ توازنه ومن حجمه قياساً للأحجار التي تماثله أو التي تختلف عنه. ولفرط ما تردد على السوق خلال تلك الفترة، وبدا الأمر غير مألوف، فقد أصبح الذين يبغضونه يقولون: عباس يدق حجر بالجادة!

كان يوماً مشهوداً فِي بغداد حين تم صنع هذا الشطرنج. ورغم أن ابن الحجية هو الذي لعب، وكان مقابله المشهدي، فقد قيل إن تجربةً سبقت «يوم الميدان» كما أطلق على هذا النزال، وقد جرت التجربة بين صادق أفندي وعباس، لكن لم تنته نهاية واضحة، إذ حصل أكثر مِنْ خطأ أثناء نقل الحجارة، الأمر الذي أدى إلى اعتبار اللعب قائم! أما يوم النزال فقد خُطط

الميدان بشكل واضح، خطط بالفحم وبالنورة، وطلب المشهدي أن تنصب مقاعد عالية لطرفي اللعب، ليشرف، مِنْ علٍ، على الرقعة. وكان كُلّ ينزل عن كرسيه كي ينقل الحجر، مما أحدث الكثير مِنْ الهرج والأمازيح مِنْ قبل المتفرجين، الذين تجمهروا ليشهدوا هذا النزال الذي لم تألف مثله بغداد، والذي لم يكن مفهوماً لأغلب الذين يتابعون اللعب، إذ كان كُلّ مِنْ حضر يسأل الآخرين عن أية حركة، ماذا تعني وإلام ستؤدي، وكان لا يتردد أيّ واحد فِي الإجابة، وكأنه أحد اللاعبين، ويعرف مسار اللعبة ونتائجها الذين تابعوا اللعبة مِنْ العارفين أكدوا أن «عباس دمر المشهدي ورزله وخشش (...) خازوق» وقد تم استنتاج ذلك مِنْ انسحاب المشهدي قبل نهاية اللعب، لأن الجمهور كان ضده ومنحازاً لعباس اسطنبول، الأمر الذي شوشه تماماً. وقد قال، كما نقل بعض الذين سمعوه: «يجي يوم يصير أهل بغداد مخابيل ويلعبون بين هذا الصوب وذاك الصوب. حجر هنا وحجر هناك، وتعال إلحق!».

حين تصل الأخبار إلى داود باشا يهز كتفيه ورأسه، فتبدو حركات غير مفهومة، حتى لفيروز، والذي لا يعرف هل ينقل المزيد مِنْ أخبار أفندينا، أم أن الأمر لم يعد يهم الباشا. حتى اللقاءات التي كانت تجري بين خلف وعباس اسطنبول، وكانت، فِي البداية، تتم كُلّ ليلة تقريباً، أخذت تتباعد، لأن ليس فيها أيّ جديد، كما لا تستحق تلك الثرثرات أن تُنقل، خاصة وأن أغلب اللقاءات لم تعد تنتهي بأعطيات.

ورغم أن الباشا ظل حريصاً على لقاء صادق أفندي بين فترة وأخرى، إلا أن الشطرنج لم يعد الرفيق الثالث لهما. قال له الباشا، بعد أن لاعبه على مدى عدة أسابيع ـ الشطرنج، يا صادق أفندي، يحتاج لبال طويل وصفاء ذهن...

ابتسم ابتسامة واسعة وتابع:

- ومثل ما سمعت أن الواحد إذا لعب مع الأضعف منه يتراجع...

وبعد قليل، وهو يربت على كتف صادق أفندي مشجعاً:

- وما أريدك تتراجع، أريدك تعميه لابن الحجية، ما تخليه يشوف دربه!

كان هذا اعتذاراً مِنْ الباشا، وقد تقبله الأفندي. أصبحت اللقاءات بين الاثنين تتباعد، وحين تجري تأخذ طابع المجاملة، ولا تدوم طويلاً. كما أصبح الباشا لا يسأل عن أخباره، ولم يعد الآخرون ينقلون إليه تلك الأخبار، إلا فِي حالات نادرة.

عباس اسطنبول الذي تعود على الأعطيات، وكان يتلقاها مِنْ الطرفين.

شعر بعد أن قلت أعطيات السراي، وتباعدت، بضرورة تأمين مصادر جديدة، خاصة وأن صادق أفندي أخذ يلاحظ، وهو يراقب عباس حين يلعب مع الآخرين فإنه شديد البراعة والمكر فِي آن واحد، وكان دائماً يتغلب على خصومه، أما معه فالأمر يختلف، ولا يمكن تفسير تفوقه بقوته وضعف عباس، مما دفع عباس، بعد أن أحس أن «ينزع قرون الطين» كما قال لنفسه. وهكذا أصبح اللعب بين الاثنين متعادلاً، ويميل بعض الأحيان لصالح عباس، مما يجعل الأفندي يزيد فِي عطاياه، لكن ابن الحجية كان يطمع بأكثر، وهكذا بدأ يتفتق ذهنه عن طرق جديدة لمصادر إضافية:

- ولازم نوصي الصاغة على رقع وأحجار مِنْ ذهب وفضة. صحيح أنها زغيرة، ما تناسب ابن المبدر، لكن أفندينا، وبالفراش، قبل ما يغفو، يجرب حاله بشوط أو اثنين!

وعن هذا الطريق، ولأن الخيارات فِي هذا المجال عديدة وواسعة، أخذت تتجمع عند الأفندي أنواع جديدة مِنْ الرقع كان عباس يوصي عليها، ويشرف، وبعض الأحيان يشارك فِي اعدادها، وفهم عليه الذين يتعامل معهم مِنْ الصاغة، وكان هذا مورداً جديداً!

أما المورد الآخر فعن طريق اقتناء المسابح:

-... وتعرف، يا أفندينا، السبحة. فِي اللعب، تصفي الدماغ مثل ما الحب يصفي الماي...

ومد إليه يده مقلوبة، أشار إلى عطب قديم فِي الإبهام، وقال:

ـ قبل ما أتعلم على السبح، ولما أنحصر بلعبة، وبليا ما أحس، أقرض إصبعي مثل، ما الفار يقرض خبزة يابسة، وهذا العيب مِنْ ذاك اليوم...

وتغيرت النبرة، أصبحت مرحة:

- لكن مِنْ يوم ما تعودت على السبحة صفا الدماغ...

وتغيرت النبرة مرة أخرى، أصبحت أكثر مرحاً:

- وبعدين، يا أفندينا، السبحة هيبة، وإذا انهدت يشعر اللي توصل لأيده بقيمتها، وبكل مجلس يقعد بيه، ولما الناس تشوف السبحة تلمع يسألهم: تعرفون هذي منين؟ ويتحزرون، هذا يقول مِنْ فلان، وذاك يقول مِنْ فلان، ولما يعجزون يرعد صوته: هذي السبحة اللي تشوفها عيونكم مِنْ... ويطلع سنه ويتهلل وجهه، والناس تباوع وتنتظر، وبالأخير يقول:

- هذي مِنْ أفندينا صادق! صادق أفندي لم يكن بحاجة إلى كُلّ هذا الإغراء ليقتنع، ولكن الآفاق التي فتحها عباس اسطنبول بدت مرغوبة وأنه يحبها، كما تعني له شيئاً، قال بانفعال:

- وبالسبحة يقدر الواحد يبيت خيرة، ويشوف: يربح لو يخسر! وهكذا أصبح اقتناء المسابح هواية جديدة لأفندينا صادق، فِي الوقت الذي لم يكن قبل يحفل بهذه الهواية، رغم أن الكثيرين حوله يحرصون على جمع عدد منها، ويحرصون أكثر ألا تضيع وأن لا تُلص، مع أن عدداً غير قليل مِنْ كبار الموظفين والتجار لا يترددون فِي أن يسطوا على مسابح اشتهوا أن تكون لهم أو بين أيديهم! صحيح أن السطو كان يأخذ شكل المبادلة فِي أغلب الأحيان، لكن كان يحيطه الكثير مِنْ الضغط النفسي، أقرب إلى المؤامرة! إذ بعد أن يطلب احدهم رؤية المسبحة، وكان يفعل ذلك بسرعة أو بعدم اهتمام، يبدأ بإظهار عيوب هذا النوع، والغش الذي يحصل فيه، وتذكر أصناف أجود وأكثر أهمية مِنْ النوع ذاته، ثم يسأله مِنْ أين حصل عليها، ومتى، وقد يسأل عن ثمنها، ثم يعرج على السبحة التي يملكها مبيناً مزاياها وارتفاع سعرها، وإن هذا النوع أصبح شديد الندرة، غالي الثمن. يقول ذلك وهو ما يزال يحتفظ بالسبحة بين يديه، وهنا يتدخل صديق مقترحاً المبادلة «ما دام عين أبو فلان بيها» وكثيراً ما يتنازل صاحبها عنها، أو يقبل بالمبادلة! تجري عمليات كهذه، كما تجري العمليات التجارية فِي السوق، وتتطلب الكثير مِنْ الدهاء وكتم العواطف وتوقيت تدخل «الأصدقاء». وكان صادق أفندي، إلى اللحظة التي لفت عباس اسطنبول نظره، لا يقبل أن تهدى إليه مسبحة: «تضيع مني، وداعتك، وبأيدك أحسن»، وإذا وصلت إليه واحدة، ورغم أهميتها، كما يذكر مِنْ يصر على أن يهديها إليه، وبعد أن يقلبها، ويثني على جمالها وأهميتها، تبقى معه يوماً أو بعض يوم، إذ ينساها، أو يقدمها إلى أحد الذين حوله.

الآن، أصبحت النظرة إلى السبحة مختلفة. وكالأطفال طلب مِنْ الذين حوله أن يأتوه بعدد مِنْ المسابح، لكي يجربها، «ها... شلون.. راح نشوف الخير على قصتها؟» وقد تبرع هؤلاء ببعض المسابح، لكن بعد أيام أصبح الممون الوحيد لصادق أفندي: ابن الحجية.

كان أكثر ما يهم صادق أفندي: «أن تكون قصتها خير». ويتأكد مِنْ ذلك حين يلعب مع أحد الخصوم ويربح.

ومع كُلّ سبحة جديدة، خاصة إذا كان ثمنها مرتفعاً، أو تقاضى عباس عمولة مجزية عنها، كان يربح صادق شوطاً، وعند ذاك يضعها ناحية اليمين، كفأل حسن، أما إذا كانت بيده سبحة، خاصة إذا كانت جديدة، وخسر، فلا يمكن لأحد أن يقنعه بشرائها، أو أن تبقى لديه ضمن المجموعة، التي أخذت تكبر يوماً بعد يوم.

ولأن الباشا أوعز لنادر أن يلبي، دون مراجعة ودون تأخير، كُلّ ما يطلبه صادق أفندي، فقد أصبحت المبالغ التي يسحبها تزيد شهراً بعد آخر، وكان

عباس اسطنبول هو الذي يحمل الأوراق الموقعة بطلب تلك المبالغ. ورغم أن الدفع كان يجري بأقل قدر مِنْ التأخير، لكن لا تخفى المرارة التي تظهر على نادر أفندي، والنظرات الحاقدة، وذلك الغيظ الذي يوجهه إلى مراجعين آخرين، ويريد بل يقصد ابن الحجية بالذات، وعباس، بمكر، يقف إلى جانب نادر، ويشارك فِي توجيه اللوم إلى هؤلاء المسرفين اللي لا يخافون الله، وكأن المال قوترة أو لامينه مِنْ الجادة.

لكن مثل هذه الرشوة لا تنطلي على نادر، إذ بعد أن يكون لومه موجهاً لأحد هؤلاء المراجعين، يبدأ باستعمال ألفاظ وعبارات يمكن أن تنسحب على آخرين، ويعني عباس على وجه التحديد، إلا أن عباس تعلم منذ قت مبكر أن يسمع الكلام الذي يريد، ويغفل عما عداه، كأن يحادث أحداً، أو يظهر تأففه مِنْ حرارة الجو، وقد يخرج قليلاً مِنْ الغرفة، ريثما ينتهي نادر مِنْ إنجاز معاملة غيره، ومعها اللوم والشتائم، وأن الحساب الحقيقي مو بهذي الدنيا، وإنما بالآخرة، وهناك ما يخلص مِنْ نار جهنم لا الأمين الصادق و...» ويستعين بآيات مِنْ القرآن، لكن بطريقة ناقصة أو خاطئة، للدلالة على العذاب الذي يلاقيه مِنْ يأكل المال الحرام!

لم تطل فترة تسامح نادر، وإذعانه لطلبات صادق أفندي، خاصة حين بلغه أن الأموال التي تسحب منه تصرف على شراء «الملاعيب الذهبية» و«سبح الشيطان مو سبح الرحمان» ولأنه عاجز عن التوقف لصرف هذه الأموال، توجه إلى خلف:

- خلف... أبوس إيدك خلصني، وأريدها منك!

- خير أبو يقظان؟

- حتى الصرف على القحاب نلقي له تدبير، نقول: بشر مساكين، وهذي صدقة، أما ملاعيب صادق أفندي فما نزلت بكتاب ولا يقبلها عقل!

وبلهاث ومشقة وحزن يشرح له كيف أن فلوس الولاية انمردت، راحت، ضاعت، لأن صادق أبله، ولأن ابن الحجية ليس له قلب، وهو مثل البشر لا يمتلئ ولا يشبع. ومع أن خلف يعرف الكثير عما يجري، إلا أنّه لا يقدر حجم الأموال التي تم سحبها، يسأل باستغراب:

ـ متأكد مِنْ الكلام اللي تقوله نادر أفندي؟

- مستعد أحلف على ألف قرآن!

- هذا كفر... هذا ما يصير!

- راح أقتل نفسي. راح أموت مِنْ القهر، ومالي غيرك، خلف، أخوي!

- زين... زين، خلي المسألة سنطة، آني أراجع الباشا وأشوف شيقول!

- أبوس إيدك، خلف؛ واليوم قبل باچر!

وبعد أيام، ولأن خلف لم يبلغه بأية إجابة، يذهب نادر إليه مجدداً:

- ها... خلف شفت الباشا؟ بلغته؟

- اكو مسائل، يا أبو يقظان، ما نقدر عليها أنا وأنت!

- شلون عيني خلف؟ شلون نشوف الفلوس تحترق قدام عيونَا، تاكلها النيران، وما نقدر نسوي فد شي؟

وحين يرى خلف صامتاً، وكأنه غير راغب فِي الخوض فِي الموضوع، يصرخ نادر، فيخرج صوته مخنوقاً:

- العن أبو الساعة اللي وافقت بيها أصير محاسب لهذي الولاية المهجومة، ولو بأيدي هسه أذب الاستعفاء، وأقول لنفسي: لا عين تشوف ولا قلب يحزن، أما هالشكل فلا الله يرضاها ولا العبد!

وتخرز عينان متوسلتان حزينتان وجه خلف، تضرع إليه أن يتكلم، أن يوضح ما حصل أثناء لقاء الباشا. يهز خلف رأسه عدة مرات ويقول بصوت خافت:

- بصادق أفندي، أبو يقظان، أبد لا تتحارش كُلّ ما يريده تسويه، هذي: تعليمات الباشا!

- ويعرف شقد سحب، شقد أخذ؟

ـ يعرف وأزيد!

- والنتيجة؟

ابتسم خلف، بدت ابتسامته شاحبة، وقال، كأنه يخاطب نفسه:

- هذا ابن باشا، وأخوه باشا، وأنت مو غريب، تعرف كُلّ شي!

ـ يعني أدفع والجزمة فوق راسي؟

ـ أيّ نعم!

- ماكو منها چارة؟

- هذي تعليماته، وتعرف.. ماكو أحد يقدر يخالف.

- زين.. أقدر أشوف الباشا وأشرح له بالقلم العريض، وأقول له كُلّ شي؟

- لا تطوخها... أبو يقظان، أحسن ما تسمع كلام ما يعجبك!

وهو يخرج مِنْ غرفة خلف، كان يرفع يديه الاثنتين إلى الأعلى وهو يردد:

- يا رب.. يا رحيم: إذا تحب عبدك، نادر بن موسى، أمه عسلة، تاخذه لعندك، تموته، تخفيه، تفنيه، هاي تبقى يمك، بكيفك، لأنك تشوف كُلّ شي،

وتعرف كُلّ شي!

ولم تمض فترة إلا واستجاب الله لدعاء نادر أفندي، ليس بأن يسترد وديعته، أيّ يمينه أو يغنيه، وإنما أزاح مِنْ طريقه صادق أفندي، فقد أفاقت بغداد ذات صباح على خبر ملأ الأرجاء: هروب صادق أفندي إلى الفرات الأوسط، وتحالفه مع ابن الشاوي، وقد اصطحب صادق أفندي معه عدداً مِنْ رجاله، كان ضمنهم عباس اسطنبول، الأمر الذي جعل الباشا يتحسب كثيراً، ويضع خططاً جديدة لمواجهة الموقف.

مقتل بدري ثم هروب صادق كانا الدافع، وإن لم يكونا السبب الوحيد، كي يتحرك الباشا بشكل أسرع. فجميلة التي رافقت روجينا أثناء زيارة كركوك، أسرت لأحد رجال الباشا أن الزيارة لم تكن للترفيه عن الضباط فقط، أو بهدف استعادة الذهب والأشياء التي كانت لنجمة، وإنما لنقل رسالة مِنْ الباليوز إلى الآغا. وما اصطحاب روجينا للفتيات إلا لتبقى بنظر كُلّ الذين يعرفونها أن حركتها ضمن إطار المهنة!

لا تعرف جميلة مضمون الرسالة، لكن مِنْ بعض الكلمات التي سمعتها، تقدر أنها تتعلق بأغوات الشمال. وما يرجح ذلك أن الأموال التي حملتها روجينا معها، وقد وزعتها على الفتيات عند توقفهن فِي الحويلة، عادت واستردتها ما إن وصلت إلى كركوك. ولأن هذه الأموال لم تعد فلا بد أن تكون سُلمت إلى الآغا، أو إلى أحد آخر.

كُلّ ذلك مجرد تقدير، لأن جميلة كانت خائفة طوال هذه الرحلة، وقد بذلت جهداً استثنائياً كي ترضي روجينا وتجعلها تحتفظ بها، لأن أحد الأغوات، وكان ضمن مسافري القافلة، لم يرفع عينيه عنها، وطلب مِنْ روجينا، فِي خان بني سعد، أن يصطحب جميلة معه إلى حرير، لكي تنضم إلى حريمه، وتبقى هناك بقية عمرها. روجينا لم تعط جواباً نهائياً، لكنها ردت عليه، وهي تضحك، أنها لا تستطيع أن تبت بالموضوع وتقرر إلا بعد وصولها إلى كركوك، الأمر الذي أفزع جميلة، وجعلها شديدة الطاعة والامتثال، علها تتمكن مِنْ إفشال هذه الصفقة! ولقد كان هذا سبباً فِي خوفها وتشتت أفكارها، الأمر الذي فوت عليها الكثير مِنْ التفاصيل.

أما بعد أن جاء معظم الأغوات إلى كركوك، فقد بذلت القلعة طاقتها لإرضائهم بكل الوسائل، الحفلات تقام كُلّ ليلة، والبنات ينتقلن مِنْ مكان إلى آخر لتلبية رغبات الأغوات. وتتذكر جميلة أنّه مر عليها أكثر مِنْ ليلة لم تستطع أن تنام خلالها، لأن حيوية هؤلاء الثيران ومرحهم جعلهم لا يعرفون التعب أو الملل. أما الأموال التي كانوا يرمونها على صدور البنات وبين سيقانهن، ودون طلب، فكانت لا تصدق!

مثل هذا السخاء كان مألوفاً مِنْ الآغا وضباطه، وقد مارسه فِي حرب الفرات الأعلى، ثم بعد ذلك، ولم يكن ليثير الباشا، لكن الظنون حول وجود آخرين يدفعون أصبحت قوية، بل مؤكدة، خاصة وأن ما كانت ترسله بغداد مِنْ أموال، وتلك التي تحصل مِنْ المناطق، لا تكفي لتفسير هذا السخاء المفاجيء الذي وصلت أخباره إلى بغداد وإلى الموصل.

كان يمكن لهذه الأمور أن تمر، أن يُغض عنها النظر، لولا الزيارة التي قام بها الآغا إلى كرمنشاه، فقد تيقن داود باشا أن الوضع بلغ حداً مِنْ الخطورة، بحيث يمكن أن ينقلب عليه، خاصة إذا تحالف الآغا مع كرمنشاه، ودعمه آغوات الشمال، فكان عليه أن يتحرك قبل فوات الأوان.

وإذا كانت نية الباشا، حين استدعى الضباط، أن يبقيهم فِي بغداد، إلا أنّه، وبدافع الإلهام، لم يضمن كتاب الاستدعاء أية اشارة لنقلهم، خاصة مِنْ حيث ضرورة تسليم المهمات واللوازم. كان ينوي أن يمنحهم إجازات طويلة، يراقبهم خلالها، وبعد ذلك تجري تسمية بعضهم لمواقع ثانوية، ويتم الاستغناء عن آخرين.

هذه المرة، وبعد الأخبار التي وصلت إلى بغداد مِنْ مصادر عديدة، لم يلجأ الباشا إلى الأسلوب ذاته، إذ ما إن انقضى الوقت الذي يعتبر كافياً للراحة حتى أمر باستدعاء الضباط. صحيح أنّه لم تجر دعوتهم جميعاً دفعة واحدة، فقد تمت دعوة طلعت باقة أولاً، باعتباره أعلى الضباط رتبة، ثم جرى استدعاء الآخرين، وعلى دفعتين.

قابلهم الباشا، وتم فِي اللقاءات الثلاثة التطرق إلى مواضيع عديدة، وإن تركز البحث حول ما يجب عمله لمواجهة القبائل الثائرة فِي منطقة الفرات الأوسط. وقد أشار الباشا إلى ثقته الكبيرة بكفاءتهم العسكرية، واخلاصهم، وأيضاً معرفة أكثرهم بالمنطقة الوسطى، الأمر الذي يجعل لرأيهم أهمية استثنائية فيما يجب عمله لمواجهة التمرد.

تعمد الباشا أن يترك فرصة كافية بين لقاء وآخر، لتقديره أن ما سوف يتم تداوله فِي أيّ اجتماع لا بد أن ينتقل إلى الآخرين، مما يولد بينهم الثقة أن الموضوع ذاته هو ما يشغل الباشا، وأيضاً تزول الرهبة أو الشك بما يريده منهم، إذ يعرف الجميع حول أيّ الأمور تجري اللقاءات، وأيضاً لنفي الشك حول استدعائهم.

كانت اللقاءات بعد ذلك. مع ضباط السراي، وقد اتسمت، أول الأمر، بالحذر ورغبة الاكتشاف، مِنْ الطرفين. أما واللقاءات تتوالى، ويتركز البحث حول أفضل الوسائل والخطط لمواجهة القبائل الثائرة، فإن الثقة تزداد بين الطرفين، ويبذل ضباط كركوك جهداً إضافياً مِنْ أجل توثيق علاقاتهم بضباط السراي، ومحاولة كسب ثقتهم ومودتهم.

ما إن انقضت أسابيع قليلة حتى طلب الباشا الاجتماع، مرة أخرى، بضباط كركوك، كما أصبحت التسمية الدارجة لهذه المجموعة.

التقى بهم مجتمعين. كان يوماً شتائياً بارداً، وبغداد فِي الشتاء تصبح مدينة أخرى، ويصبح ناسها وكأنهم ليسوا هم الذين كانوا فِي الفصول الأخرى: أكثر

عذوبة ورقة، وأكثر احتفاء بالآخرين، ربما نتيجة الحاجة إلى القرب، والذي بدوره يولد الدفء، كما أن الحديث يصبح همساً أو أقرب إلى الهمس، وكأنه يخرج مِنْ القلب مباشرة. ورغم غلاظة الثياب وتعدد طبقاتها، إلا أن الإنسان داخلها يتحول إلى طيف، إلى قطعة مِنْ الوهج... أو هكذا أحس الضباط الثمانية وهم مجتمعون مع الباشا!

لأول مرة يبدو الوالي، بنظر الضباط المتحلقين حوله، إنساناً بسيطاً ومحباً. كان بسيطاً بملابسه وبتصرفاته، إذ بدل أن يرتدي ملابس الاستقبال، كما فِي المرة السابقة، وبدل جو الرهبة، خاصة بما يشيعه رجال السراي مِنْ خلال الصمت القاسي، أو مِنْ خلال وقوفهم بطريقة متأهبة متوجسة، أو حركتهم المحاذرة وكأنهم يمشون على رؤوس أصابعهم، فإن اللقاء فِي هذا اليوم اتسم بالعفوية وبمقدار غير قليل مِنْ البساطة، وزاد فِي ذلك حين أبلغ الباشا خلف، وقد فعل ذلك بصوت عالٍ، أن تلغي جميع المواعيد، وأن تُقدم الغلايين.

تذكر طلعت باقة الصورة ذاتها للباشا حين كانوا فِي الجبال، وهم يستعدون للزحف نحو بغداد، خاصة وأن الطريقة التي أدار بها الباشا الحديث بدت له أقرب ما تكون إلى اجتماعات بعقوبة، فقد تزايدت خلال تلك الفترة اللقاءات، إذ كانوا يلتقون، جميعاً، مرتين فِي اليوم، فِي الصباح الباكر وعند أول المساء، للتداول بالواجبات اليومية. وخلال تلك الاجتماعات كانت تجري الأحاديث ببساطة وعفوية، وكان يشارك فيها الجميع، وكُلّ واحد يعبر عن رأيه بصراحة وجرأة، أو كما قال الباشا، ذات يوم، وهو يحرص على ابداء الرأي «تكلموا كما لو أن الإنسان يكلم نفسه».

ليس ذلك فقط، كان يتخلل تلك الاجتماعات الكثير مِنْ الطرائف والاستطرادات. ورغم أن القرار الأخير والحاسم للباشا، خاصة فِي القضايا الأساسية، إلا أن كُلّ واحد مِنْ المشاركين يشعر بمساهمته فِي اتخاذ القرار.

أما حرص الباشا على ضباطه وجنوده، وتلك الطريقة فِي التعامل، والتي تقع عند تخوم الأبوة والأخوة والصداقة، فكانت تشعر كُلَّ واحد أنّه الأقرب إليه، وبإمكانه أن يتصرف دون خوف، وبشكل مفهوم أيضاً. حتى الأخطاء التي يمكن أن تقع، فلقد كان يريد لها أن تكون دروساً أكثر منها سبباً للعقاب، تماماً كالأب الذي يريد أن يُضيف معرفة جديدة لأبنائه مِنْ خلال تبصيرهم بالأخطاء.

ولما كان الضباط الثمانية قد عرفوا الباشا مِنْ قبل، وإن يكن بنسب مختلفة، ثم سمعوا عنه الكثير، فإنهم فِي هذا اليوم وكأنهم يكتشفونه أو يتعرفون عليه مِنْ جديد. إذ بقدر ما يتكلم بوضوح، ويعرف ماذا يريد، فإنه

أقدر على الإصغاء. كان يصغي وهو ينظر إلى عيني محدثه، والنظرة يمكن أن تكون إطلالة إلى الداخل، وجسراً مِنْ المودة والثقة، ويمكن أن تكون، فِي أحيان أخرى، رقيباً يلعثم الكلمات ويبعثرها. الباشا وهو يتحدث، وهو يصغي، ومن خلال الكلمات والنظرات معاً، كان يوحي بالثقة ولا يخفي المودة.

حتى الطرائف التي رواها، وقد ساق إليها الحديث، أو رتب الحديث لكي تأتي ضمنه، فقد رواها بعفوية، وكأنه يسار مجموعة مِنْ الأصدقاء، مما رطب الجو وشجع الآخرين على أن يتبسطوا. أما حين روى طلعت باقة نكتة فقد ضحك لها الباشا، وكانت ضحكته أقرب إلى القهقهة، الأمر الذي كسر حاجز التهيب، وجعل الانتقال مِنْ حديث إلى آخر يسيراً.

لما تطرق الباشا إلى الهم الذي تعاني منه البلاد نتيجة ثورة القبائل الدائمة، أكد أنّه لا يمكن للعراق أن يعرف الراحة، أو أن يهدأ له بال، ما لم تتوطن القبائل وتستقر، وأن تكف عن الغزو وتبدأ بالزراعة. كما أثنى على الخطط التي تم تداولها، وإنه يشعر بالثقة، وبصواب الرأي الذي دفعه لاستدعائهم والتشاور معهم. وقد أشار أنّه كان يود لو أن الآغا معهم فِي هذا اللقاء، لأن معرفته بالمنطقة، وخبرته بمقاتلة البدو تتجاوزان أيّ قائد عسكري، ولكنه فضل، فِي هذه المرحلة، أن يبقى الآغا فِي الشمال «لأن مجرد وجوده هناك، يشكل سداً أمام الرياح الشرقية، بحيث لا يجرؤ أيّ طامع أن يفكر باجتياز الحدود».

ابتسم الباشا وهو يؤكد على أهمية دور الآغا، وقال كأنه يستدرك:

ـ لا أريد أن أنتقص مِنْ أهمية أيّ واحد منكم، لأن أهمية القائد، أيّ قائد، تعتمد، بالدرجة الأولى، على الضباط الذين يعملون معه، مدى قدرتهم على ترجمة الخطة إلى أعمال فعلية على الأرض؛ مدى البراعة والابتكار بتنفيذ الخطة؛ وأخيراً مدى الإخلاص للهدف الذي تمثله الخطة.

وتذكر الباشا بعض الأحداث، خاصة تلك التي وقعت فِي كركوك، حين كان يستعد للوصول إلى بغداد، وأشار بشكل خاص إلى شجاعة طلعت باقة أثناء اقتحام القلعة بعد أن حصل التمرد، قال بعد أن خفض صوته:

- يجوز ما يليق الحديث عن العزيز طلعت بوجهه وبوجوده، لكن، والشهادة لله، إني ما أترك مناسبة إلا وأتحدث عن شجاعة رجالنا، وأذكرهم بالاسم، لأن الحق... حق...

ابتسم، وعاود الكلام بنبرة جديدة:

- قبل أيام كنت أتحدث مع أولادي، ومن جملة ما قلته لهم: إنّه لولا نجاحنا فِي كركوك، وشجاعة الرجال فِي تلك الأيام، لاختلفت النتائج.

وبخجل وارتباك ردَّ طلعت، وخرجت كلماته سريعة:

ـِ استغفر الله... يا باشا، آني ما سويت إلا واجبي ونفذت الأوامر، سيدي!

- اكو فرق بين تنفيذ وتنفيذ، واكو فرق بين رجل والثاني!

- هذا مِنْ حسن ظنكم، سيدي..

التفت الباشا إلى الضباط الآخرين، هز رأسه وهو ينقل نظراته بينهم وأضاف:

. وأيام الحصار.. وشجاعة رأفت وسليمان؛ وليلة المطر وهجوم ابن ثامر، لولا شجاعة نجيب ومحمود وأمجد، كان أخذونا، مثل ما يقول أهل بغداد، فلاحة، لكن الله ستر، لأن شجاعة الشباب هي التي أنقذت الموقف كله.

خيمت لحظات صمت طويلة، جاء بعدها صوت الباشا، وكان لا يخلو مِنْ أسف:

- لولا حاجتنا الماسة إليكم فِي الشمال لطلبت منكم البقاء هنا ومعاونتنا فِي مواجهة قبائل المنطقة الوسطى...

وتغيرت النبرة:

- وتعرفون: إذا واجه الإنسان خطرين يعطي الأولوية للأكبر منهما، وبعد أن ينتهي منه يلتفت إلى الخطر الثاني. وفِي هذه المرحلة تعتبر جبهة الشمال لها أولوية، ويجب أن تُحشد فيها أكبر القوى وأهم الكفاءات، لأننا فِي الشمال نواجه عدواً خارجياً، وهذا العدو إذا تمكن منا لا يميز بين واحد وآخر، إنّه يريد إذلالنا جميعاً. أما البدو فيمكن مشاغلتهم، يمكن تأجيل معركتنا معهم إلى أن ينتهي الخطر الأكبر.

وأفاض الباشا فِي الحديث عما ينتظر العراق مِنْ ازدهار، إذا نجا مِنْ الخطر الخارجي، وحالفه الاستقرار الداخلي، فهذا البلد الذي كان قبلة العالم خلال قرون متوالية، وكانت كلمته تدوي فِي جميع أنحاء المعمورة، يمكن أن يعود إلى نفس المكانة إذا تضامن أبناؤه وأحبوه وأخلصوا له.

وختم أحلامه بأن قال:

- ولي كُلّ الثقة أن العراق الذي نريد أن نبنيه بسواعدكم وبسواعد أمثالكم سوف يُدهش العالم، وسوف تتحدث عنه الأجيال.

ورغم أنّه كان لدى الباشا الكثير أيضاً ليقوله، إلا أن رغبته بسماع ضباط كركوك، ومعرفة ما يدور فِي عقولهم، وكيف يفكرون، لم تكن أقل مِنْ رغبته بالكلام. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية دعاهم إلى تناول الغداء

على مائدته، وطلب مِنْ خلف أن يستدعي عدداَ مِنْ ضباط السراي وبعض كبار الموظفين.

وفِي حفلة الغداء، التي بدأت مُبكراً فِي ذلك اليوم الشتائي، وطالت أكثر مما قدر أيّ مِنْ الضيوف، تولد جو حميم مِنْ خلال الأحاديث التي دارت، وكانت فِي الغالب ذكريات عن أيام ماضية، وعن أحلام تنتظر هذا البلد، إذا تضافرت الجهود وصفت القلوب، وإذا منعنا الأجنبي مِنْ التدخل. وقد شارك فِي الحديث أغلب الضيوف، وكان الباشا ودوداً، خاصة وهو يستمع إلى إجابات ضباط كركوك.

وفِي نهاية حفلة الغداء، التي استمرت إلى ما بعد العصر، منح الباشا كُلّ واحد مِنْ ضباط كركوك خلعة ثمينة، وترك لهم حرية تحديد الوقت الذي يختارونه للعودة إلى مقر عملهم، وإن أشار، وهو يبتسم «إن خير البر عاجله». كما أبلغهم أنّه سيوفد مبعوثاً خاصاً، وفِي أقرب فرصة، لكي يحمل للآغا الخلعة والفرمان بالترقية، اعترافاً بجهوده، وتقديراً لخدماته ودوره، وختم اللقاء بأن قال:

- رغم برودة الطقس، إلا أن دماء الشباب سوف تجعل رحلة العودة ممتعة، ولا بد أن تتذكروها بعد سنوات وسنوات! وبعد أن ودعهم الباشا بكثير مِنْ الود، متمنياً لهم سفراً موفقاً، فقد رجاهم خلف، وهم يخرجون، أن يتكرموا بالمرور إلى مكتبه، ولفترة قصيرة، لاستلام الهدايا الرمزية التي أمر بها الباشا لكل واحد منهم!

عن طريق رجاله فِي بغداد، بدأت تصل إلى الآغا أخبار متلاحقة، لكن مشوشة، وكلها تؤكد أن الباشا التقى الضباط؛ وأن اجتماعات عديدة عقدت فِي السراي وفِي الثكنات. ورغم وصول هذه الأخبار، إلا أنها لا تتضمن أية معلومات عما دار خلال تلك الاجتماعات. ومما زاد فِي تشوش الآغا أن الرسائل التي كان ينتظرها مِنْ ضباطه وقد اتفق معهم على مواعيد، وعلى طريقة لإيصالها، تأخرت، تأخرت كثيراً.

قال لهم قبل السفر وبطريقة لا تقبل الخطأ:

.... وإذا واجهتكم صعوبة فِي إرسالها، يزرق فد واحد يم روجينا ويقول لها: أمانة للآغا، والباقي عليها.

الآن، والأسابيع تمر وتتلاحق دون أن تصل منهم أية إشارة، فلا بد أن يكون فِي الأمر مصاعب لم تخطر بالبال.

ثم لماذا تأخر إرسال ضباط عوضاً عن الذين نقلوا؟ ألا يريد الباشا أن يعزز مواقعه ويرسل رجاله بعد أن تخلص منه أولاً، ثم ها هو الآن ينقل الضباط، دون خشية مِنْ ردَّ الفعل.

كانت الأيام ثقيلة، موجعة، فالآغا وهو يحس بالحصار والعجز يتحول قلقه إلى حالة مِنْ الغضب الحانق، يريد أن يصرخ، أن يتعارك، وإلا سيختنق. لماذا صمت رجاله؟ هل اعتقلوا، أو تعرضوا إلى التهديد والتعذيب بحيث تعذر عليهم أن يرسلوا كلمة، مجرد كلمة؟ هل يدبرون أمراً يتطلب وقتاً ولا يريدون أن يبعثوا إليه بشيء قبل أن يتأكدوا؟

ولما كانت عادة الآغا أن يتطلع إلى نفسه فِي المرآة، لكي يقرأ، مِنْ خلال التجاعيد، آثار العمر وبقايا الوسامة، وكان يدقق فِي الملامح ليعرف كيف يصبح الزمن أكبر عدو للإنسان، إلا أنّه فِي حالات معينة لا يتردد، خاصة إذا واجه بعض المصاعب، أن يتطلع إلى المرآة بنوع مِنْ القسوة، ويصرخ: لأكن طعاماً لسمك الكوسج؛ ليكن قبري مجهولاً؛ لأمت مِنْ العطش، إذا لم أنتصر عليه! وبعد أن يكون قد حدد موعداً اعتبره نهائياً، يتخذ بعده القرار، يقف أمام المرآة، وقد اتخذ هيئة صارمة. يتطلع إلى عينيه، ثم يقول، وتخرج الكلمات مبعثرة، متباعدة، وكأنها حجارة تتناثر:

ـ أنت البداية والمنتهى؛ أنت الأمل والمرتجى؛ يا مِنْ يعين الولاة، ويهب الموت والحياة، أنت الذي بسيفه تشق الطريق إلى بغداد، وسمى داود والياً على العباد؛ أنت الذي دخلت القلعة مثل أسد الجبال، ولم يجرؤ أحد على

الوقوف أو النزال، وأنت الذي قلت: عهد جديد لا مكان فيه لحمادي وسعيد، أما بعد أن جاءك الغدر مِنْ الذي تصور نفسه ولي الأمر، فعليك أن تحزم وتحسم، لأن الجميع ينتظرون الإشارة، فإلى العمل لتُحي الأمل... والله على ما أقول شهيد!

لقد ردد الآغا هذا الدرس طويلاً وكثيراً إلى أن استقام بهذا الشكل، وهو مزيج مما كتبه له نافق خليل أبرز الضليعين بالعربية فِي كركوك، ومما يرغب هو أن يحفظه، ويرغب فيه. ولم يكن يخفي لذته وفخره حين يردده ليلة بعد أخرى، إلى أن حفظه. يتذكر ليلة القلعة ثم اليوم التالي: رأس سعيد يتدحرج كالكرة ليصل قدمي داود، وكيف أجفل الباشا وربما خاف، وبدل أن يشكره، أن يقبل يديه أخذ يحكي له عن افضال سلمان عليه! وللحظات بدا يتصور أن رأس داود يتدحرج بين الأقدام، وقد انغلقت إحدى عينيه، أما الأخرى فتبدو منطفئة، وكأنها قطعة زجاج استخرجت للتو مِنْ أعماق التراب، قال وقد شعر بالألم:

- ابن الزفرة بدل ما يقول لنا: الله يعطيكم العافية، وقع براسنا دق عبالك أيتام!

ولأن الآغا لا يحب أن يعيش فِي الماضي، أو أن يستسلم للذكريات، فقد انزعج إلى أبعد حد بعد أن صمت ضباطه هذه الفترة الطويلة، قال لنفسه «جماعتي وآني أعرفهم، إذا غبت عنهم تاهوا، ما بيهم راس، وما يعرفون شلون يتصرفون: تنابل، ويغرقون بشبر ماي، وكُلّ شي إلا الموت».

ولأنه أعطى مواعيد ومهلاً لكرمنشاه، أصبح محرجاً وهو يؤجل المرة بعد الأخرى. ماذا يقول لهم الآن؟ خلال الشهور الماضية، بعث إلى كرمنشاه يقول: «يجب أن ننتظر لاستكمال الاتصالات»؛ «يجب أن نرتب بعض الأمور لكي نضمن النتائج؛» أما حين تمادي الوقت فأخذ يتذرع بالطقس: الأمطار التي تحول دون الحركة؛ الثلوج التي سدت أغلب الطرق؛ قلة الأموال والأعلاف، ولا بد أن تتحرك كرمنشاه لتأمين حاجات الأغوات وطلباتهم!

وإذا كان الأغا قادراً على إقناع نفسه، على تأجيل المواعيد والتماس الأعذار، فإنه لا يكتفي بالقسم فِي بعض الليالي، يقف أمام المرآة، ويصرخ:

- لتقطع خصيتي اليمني، ولتتابعني البراغيث حتى فِي الماء، إذا لم أقطف رأسك يا داود، لا كما تقطف الورود، وإنما كما تلوى الحبال!

أما بعد أن تعاقب ظهور الهلال، ثم صار بدراً، مرة بعد مرة، وقد حدد مواعيد اعتبرها نهائية، وامر الرجال الذين حوله أن يكونوا جاهزين، لأن أشياء كثيرة يمكن أن تقع فِي هذا الشهر، أو فِي الشهر الذي يليه، وبعد أن تنقضي تلك المواعيد دون أن يستطيع خلالها عمل شيء، فكان ضيقه يتحول

إلى غضب، وتصبح الشتيمة وحدها تتردد على لسانه، وعند ذاك لا يوفر أحداً: يشتم الأغوات والبرد والذين يعملون معه، وأخيراً يشتم نفسه بصوت عال:

ـ لا تباوع علي هالشكل، لا تفنجر عيونك مثل الحرامية، عبالك أخاف؟ آني أخوف ديرة وعشيرة، لكن رب العالمين ذبني بين ناس ما تعرف كوعها مِنْ بوعها، وبس تقول هات، وهات، فشلون أقدر أتحرك يا أوادم هالشكل؟

حالة مِنْ القلق لم يعرفها مِنْ قبل. وفِي أحيان كثيرة مجرد الإحساس بالقلق يضاعفه، يحوله إلى هم. لم يكن هكذا فِي يوم سابق، ولا يحتمل أن يكون كذلك. ماذا حصل له بحيث أصبح عاجزاً عن اتخاذ قرار؟ وماذا سيكون الأمر إذا تأخر أكثر؟

يقول وهو يحرض نفسه على الجندي أن يسحق التردد كما يسحق الحشرة، أما إذا استسلم له فاقرأ عليه السلام.

يقف أمام المرآة ويردد:

ـ الطلقة الأولى هي أصعب الطلقات.

وتعن بباله أمور نسيها أو حاول نسيانها. يبتسم لوجهه، تتغير هيأته، وتخرج الكلمات مِنْ بين أسنانه:

- حتى المرأة، رغم شوقها الذي لا تستطيع أن تخفيه، أن تموهه، فإن الضربة الأولى، الليلة الأولى، لا تخلو مِنْ خوف...

يبتسم، وقد تذكر أشياء كثيرة:

- المهم... الطلقة الأولى!

ولكي يشفي غليله لا بد أن يشم رائحة البارود. إن هذه الرائحة تعيد إليه التوازن، يصرخ بصوت يشبه صوت الملسوع فِي وجه الحاجب الذي لا يفارقه:

- حمودي... ابن الزفرة، ما تشوف روحي طاقة...؟ ما تعرف إن دمك ما يسوي بارة؟

وحمودي الذي يعرف لحظات غضب سيده، وما يمكن أن يفعل، يسأل، وتظهر على وجهه علامات الخوف:

- ها عمي تريد سنجة لو منجة؟

- أشعل صفاح موتاك إذا ما جمعت الثنتين!

وينصب حمودي الدريئة بسرعة، وبطريقة مسرحية، وإن شابها الانفعال الحقيقي، إذ يخاف أن يطلق الآغا عليه الرصاص، أو على الأقل يجعل

الرصاص يتناثر حوله. لذلك ينصب الدريئة ويهرب بسرعة نحو الحائط وقد أحنى قامته. وما أن يطلق الآغا رصاصة أو اثنتين، ويستخرج الرصاصات الفارغة، ويتنشق رائحة البارود، حتى يكون حمودي قد هيأ المنقلة.

يجلس الآغا، ويبدأ بنقل الحصيات مِنْ خانة إلى أخرى، ويكون قد نوى وضمر، وغالباً ما يكسب الرهان! يقول بصوت عال، وهو ينهض:

- يحرم على النوم، أو ليقرصني عقرب أسود مِنْ إليتي، ولتأكل الأفاعي لساني إذا مر هذا الشهر دون قرار.

لما وصل الأمر إلى درجة لم يعد معها يطيق الانتظار، خاصة وأن الأخبار التي أخذت تتزايد مِنْ بغداد، زادته تشوشاً وحيرة، فقد قرر أن يبعث بناهي زبانة إلى بغداد.

وناهي أحد أقرب الرجال إليه: قصير، نحيف، صوته أجش. تجاوز الثلاثين لكنه لم يصل الأربعين، ليس له مهنة سوى أنّه حاجب الآغا، وكأن هذي الصفة أعطيت إليه كوسيلة للعيش والتمويه. مهمته الظاهرية أن يُضحك الآغا وضيوفه، بالأدوار التي يقوم بها، بالنكت التي يحفظها، والتي لا تروى إلا مع الحركة والتمثيل، وغالباً ما تتضمن الإشارات والكلمات البذيئة. هذه هي صفة ناهي زبانة الظاهرية، لكن المهمة الحقيقية أنّه عين الآغا، خاصة وأن الكثيرين يحبون سماع نكاته. ومع أنهم سمعوها مِنْ قبل مرات عديدة، لكن حين يرويها تبدو لهم جديدة فيضحكون لها كأنهم يسمعونها لأول مرة، وخلال ذلك يرددون نكاتاً حفظوها، أحداثاً وقعت لهم، ولا يترددون فِي تبادل الأخبار وبعض المعلومات، أو السؤال عن بعض الأشخاص، وفِي أحيان كثيرة ينسى الذين استدعوا ناهي أو استوقفوه لكي يروي النكات وجوده، ويعودون إلى ما كانوا فيه مِنْ أخبار وأسرار. يلتقط ناهي كُلّ ما يسمعه ويحمله فوراً إلى الآغا. وهكذا أصبح عين الآغا وأذنه، وصاحب المهمات أيضاً.

قال الآغا بعد أن اتخذ هيئة صارمة لئلا يظن ناهي أن الأمر مزاح، كما فِي مرات كثيرة سابقة:

- كُلّ اللي چان بينا كوم والشغلة اللي أريدها منك هسه كوم ثاني.

ابتسم ناهي قليلاً، لكن وجه الآغا أشعره أن الأمر أكثر جدية مما قدر، قال بحذر:

ـ أؤمر بك، وآني حاضر!

- الجماعة اللي راحوا لبغداد عبالهم الروحة تسيار، كُلّ واحد منهم قعد بمكانه مثل الطابوقة، لا خط ولا خبر، وصار لهم ما أدري شقد سنطة، مثل الموتى، ونحن مذهبنا انسلق، ورجلينا بالشمس، فأريد منك تروح وتشوف شنو صاير بالدنيا.

تهلل وجه ناهي، فقد انقضت فترة طويلة وهو يطلب الذهاب إلى بغداد، ليزور أهله هناك، والآغا لا يوافق على طلبه، ردَّ بانفعال:

ـ إذا وصلت بغداد، بك، أفلح الدنيا فلاحة، وبيومين ثلاثة أعرف الاكو والماكو وبالعجل أرد لك الخبر.

ردَّ الآغا بحزم:

ـ أعرفك ما تتقشمر، واللي تقوله تسويه، بس خاف يصير بينا مثل ما يقولون: دزينا سعد ورا مسعود، فلا رجع الأول ولا الثاني ردَّ الخبر!

ـ على بختك بك، وأنت تعرفني كلش زين!

- وأهم شيء توصل للباليوز... حتى نعرف دربنا، ونعرف الراي...

واستدرك الآغا، بسرعة:

- مو شرط تروح براسك، خاف أحد يشوفك فنكون بسالفة نصير بسالفة ثانية.

- ما عليك... بك، آني أعرف شلون أوصل.

- وبنت الحرام روجينا، وأنت تعرفها وهي تعرفك كلش زين، هذي تقدر تبرق الكحل مِنْ العين. بوجهك عليها، وبليا ما يحس أحد، تقول لها: أريد فد واحد مِنْ الباليوز، وهي إلها دروبها، تجيب لك أكبر راس.

إذا مو أول يوم... ثاني يوم.

وسافر ناهي زبانة إلى بغداد، وبدأ الآغا الانتظار مِنْ جديد!

وفِي فترة الانتظار، تذكر الآغا أن داود باشا كان يستعين بالمنجمير خاصة فِي الأوقات الصعبة، وكان لا يقدم على خطوة كبيرة إلا إذا أشار عليه. ويتذكر كيف أنّه غضب منه لتأخره فِي دخول بغداد، لأن المنجمير طلبوا منه الانتظار!

ورغم غضب الآغا، وسخريته أيضاً، مِنْ هؤلاء الذين يحكمون دون فرمانات وبلا أختام، إذ لا شيء يمكن أن يحصل دون موافقاتهم وبركاتهم، والحكام يطيعونهم كما يطيعون زوجاتهم! قال لنفسه: «شنو خسرانين إذا قلنا لهم تعالوا، لكن أبد ما راح نخليهم ياكلون براسنا حلاوة»، لقد سبق والتقى ببعض المنجمين، وسمع ما قالوا له أو لغيره، لكن قابل كُلّ ذلك بسخرية مُرة، وبتعريض. أما الآن، وهو ينتظر، فقد راق له أن يسمع ما يقولون، لن يقدم إليهم تنازلاً، بل ولن يخدع بما سيقولون، لكن لا ضرر أن يسمعهم!

الشيخ إدريس، أو آغا إدريس، كما يسميه العامة، نظراً لعلاقته بالأغوات، يرافقهم، ويقرأ لهم الطالع، «ويعرف» كيف سيصبح أبناؤهم، وما إذا

لزوجاتهم عشاق مِنْ العفاريت يأتون أثناء غيابهم. كان الشيخ إدريس أول الذين وصلوا إلى القلعة، بناء لطلب حامد.

قال له حامد بحزم، وكأنه يعلمه:

ـ الآغا صدره ضيق، ووقته أضيق، ما يحب: قال وقلنا؛ ما يحب اللي صار، يحب يعرف شنو اللي راح يصير، فإذا قلت له بكلمتين شنو اللي راح يصير ترى إيدك بالدهن!

ردَّ الشيخ إدريس، أو آغا إدريس، بحدة:

- يا مولانا، آني لا فتاح فال، ولا قسام ودع. آني أقول اللي سبحانه وتعالى يلهمني... يقول لي: قول أقول، يقول لا تقول ما أقول...

إنتظر قليلاً. وقد احتار حامد كيف يرد على كلامه، فتابع:

- وبعدين آني ما قلت لروحي تعال، إنتو قلتو: شيخ إدريس نريدك، تعالى هنا، فإذا ما تريدوني ما يخالف!

- آغا... لا تفهم كلامي غلط؛ إحنا دزينا وراك، واحنا نريدك، بس أنت تدري البك...

- آني ما علي، آني أقول اللي القدر يكشف، اللي القدر يقول...

ـ أدري... أدري يا شيخنا، لكن أنت تعرف البك...

- آني ما علي، تقبل لو ما تقبل!

ـ عفوك، آغاتي، بس...

- ماكو بس... تقبل لو ما تقبل؟

- نقبل مولانا، نقبل!

قال الشيخ إدريس للآغا بعد أن تمعن بالكفين وقتاً غير قصير:

ـ الكف مو بس كف، والطالع مو بس طالع، البني آدم مِنْ يوم ما يقول آي، مِنْ الدقيقة اللي يشوف بيها الشمس، يُنعرف مين هو، وشنو اللي راح يصير...

وبحزم أقرب إلى الأمر، طلب مِنْ الآغا أن يمد يده اليسرى. أخذها بيديه الاثنتين، أمعن فيها النظر طويلاً، وتطلع إلى عيني الأغا بتحديد.

لأول مرة شعر الآغا بالقلق، إذا لم يكن الخوف. حاول أن يمزح، أن يسخر، لكن عيني الشيخ إدريس كانتا حازمتين إلى درجة لم تدع له أن يواصل، أو أن يتمادي.

وقرأ له الشيخ إدريس طالعه، كانت القراءة، وهي تتتابع ككلمات، واضحة. لكن ما إن غادر الشيخ إدريس القلعة وغاب، حتى تحولت الكلمات التي قالها إلى ألغاز، إلى رؤى غير مترابطة وبعضها دون معنى.

يتذكر الآغا أن الشيخ إدريس قال له أشياء كثيرة، لكن ما علق بباله منها أن «طربقة كبير راح يوقع: حرب وضرب، قتل ومقتول: وإن هذا الحرب فيه انتصار للآغا. أول قمر مو تمام، ثاني قمر مو تمام، لكن الثالث كلش زين».

ولما سأله الآغا عن أطراف هذه الحرب ومتى يمكن أن تقع وأين.

أغمض الشيخ إدريس عينيه قليلاً، وظل ممسكاً باليد اليسرى للآغا، وحين فتح العينين بدا كأنه آت مِنْ سفر بعيد. طلب أن يرى اليد اليمنى أيضاً. مد الآغا اليد بتسليم. أمعن الشيخ النظر إلى اليدين، قارن الخطوط، ويتذكر الآغا أنّه قال: «حرب أول نوبة بعيد، بعدين يصير قريب. حرب أول نوبة يم ماي، بعدين يصير يم شجر. حرب أول نوبة زغير بعدين يصير كبر الجبل» وترك الشيخ إدريس اليد اليمنى ودقق باليسرى. كان يفعل ذلك وهو يهز رأسه. والآغا الذي لزم الصمت، كان شغوفاً لسماع بقية ما سيقوله الشيخ إدريس. عرقت يده قليلاً، تابع «ولأن خط الحياة عند الأغا طويل... طويل، فكل واحد تكون وياه منصور، وشمسته عالية، وخبزه يكفي أيام ودهور».

لم يكن الآغا حريصاً على أن يدقق، كما يفعل غيره، لئلا يبدو مهتماً أو موافقاً، وربما لأنه لم يزل فِي شك مِنْ كُلّ ما قيل، ولا يثق بمثل هؤلاء العرافين. لكن بعض الكلمات لاقت هوى فِي نفسه، رغم ما شابها مِنْ غموض، خاصة وأن الشيخ إدريس استعمل عدداً غير قليل مِنْ الكلمات الغريبة، وكان يرددها بانفعال، وكأنه مِنْ خلالها يستحضر أرواحاً بعيدة، أو يقرأ ما هو مكتوب على صفحة الماء أو على أطراف الغمام حتى لما استفسر حامد مِنْ الآغا ما إذا كان يرغب ببقاء الشيخ إدريس فِي كركوك، أم يسمح له بالعودة إلى أربيل، ردَّ الآغا بنوع مِنْ السخرية:

ـ لا... خليه يدور أهله، ويجوز غيرنا يحتاجه أكثر!

ولما بدا له أن الإجابة لم ترق لحامد، تابع بنبرة جديدة:

- وبعدين إذا ردناه نوبة ثانية نصيحه...

وتغيرت النبرة مِنْ جديد:

ومثل ما شفنا هذا نشوف غيره، لأن اثنين أخير مِنْ واحد!

وإذا كان الآغا ترك الشيخ إدريس يمضي إلى أربيل، ولم يكن ميالاً لتصديق ما قاله، فقد شعر بالقلق، وبشيء مِنْ الانزعاج: حرب؟ بعيدة تكون

ثم تقترب؟ صغيرة ثم تكبر؟ وخطوط الحياة والمستقبل، التي تحدث عنها الشيخ إدريس، بمقدار ما طمأنته فقد أثارت لديه المخاوف بنفس الوقت، لأنه حين تحدث عن ذلك كان صوته يرتجف، وكانت مسافة تفصل بين كلمة وأخرى، كأنه ليس متأكداً أو غير حاسم. لماذا لم يمتحنه بأمور قديمة وقعت ليختبر مدى معرفته، وليقدر بعد ذلك ما إذا كان يعني النبوءات والكلمات التي قالها؟ قال فِي نفسه ليحسم الأمر «لو يعرفون هالكثر لصاروا أغنياء وما ظلوا مكادي» ارتاح قليلاً لهذه النتيجة، لكن لم يطمئن تماماً.

ومثلما تذكر الآغا منجمي داود تذكر أيضاً قدرته على تنميق الكلام، وكيف يستطيع أن يتحدث لفترة طويلة. وأمام عدد كبير مِنْ الناس، دون توقف، دون تردد، وبطريقة جميلة. وتذكر كيف أن داود يردد كثيراً: قال الله، وقال الرسول، ويستعمل أبياتاً مِنْ الشعر، والناس يستمعون إلى ما يقوله باهتمام، يهزون رؤوسهم دلالة الاقتناع والإعجاب معاً. ويعرف أيضاً أن يخاطب الجنود، أن يخاطب البدو والحضر، فلماذا لا يكون مثله!

لقد فكر الآغا طويلاً بهذا الأمر. صحيح انه يختلف عن داود. لا يحب أن تتعلق به العيون. أن يراقبه الناس. إذا تركزت عليه الأنظار، إذا ساد الصمت وأخذ الناس يصغون إلى ما سيقوله يشعر بالارتباك، تتداخل الأفكار والكلمات فِي رأسه، بل وتزدحم، بحيث لا يعرف أيها يجب أن يخرج قبل الآخر، أو كيف يقولها. أكثر مِنْ ذلك لا يعرف كيف يكون حين يواجه الناس. يحس أن حلقه جف، ودقات قلبه تتسارع، بل يحس أكثر مِنْ ذلك أنّه محاصر. حتى حامد يبدو غير مرتاح وهو يسمعه يتكلم.

حين سأله ذات مرة عن رأيه بما قاله أمام رهط مِنْ ضباط الميدان قبل معركة الفرات الأعلى، تردد حامد فِي الإجابة أول الأمر، ثم قال إن الكلمات كانت سريعة بحيث لم تكن واضحة، وبالتالي لم تفهم كما يجب! أما ناهي زبانة الذي يسمع الآغا يعيد، بعض الأحيان، نكتة أو يروي حادثة، فيقول له إذا كانا وحيدين:

ـ ما أدري ليش تريد تخلص مِنْ النكتة أو السالفة بالعجل، يا بك، واللي يسمعك يقول لروحه كأن الآغا شايل على ظهره كيس ملح، بس يريد يشمره ويخلص منه!

ويعيد ناهي رواية النكتة أو الحادثة، فتبدو ممتلئة، تضج بالحيوية والجمال، ويضحك لها الآغا مجدداً، ويقول مِنْ بين أسنانه:

- الواحد منكم لبلبان، ويعرف شلون يصفط الكلام، آني مالي خلق، ما أحب اللقلقة والأخذ والرد...

وبعد قليل، بصوت مختلف، كأنه يبرر لنفسه:

- تعلمنا بالعسكرية نصدر الأوامر. تعلمنا نقول: نفذ؛ تقدم؛ قف. أما إذا ردنا نقنع كُلّ واحد على صفحة فهذي مو عسكرية، هذي شغلة ملا أو قصخون.

لكن استطاع الآغا أن يقنع نفسه، ولذلك ظل لا يحمل الود للذين يتصفون بطلاقة اللسان، ولأولئك الذين يسيطرون على الآخرين مِنْ خلال الأحاديث التي يروونها أو الاشعار التي يحفظونها. أما رجال الدين فكان عداء الآغا نحوهم لا يخفى. كان يسميهم اللقامة، وإنهم مثل البراغيث يعيشون على دماء الآخرين. رجال الدين لم يبادلوه هذا العداء. كانوا يقولون، إذا ورد ذكره: إن الله يهدي مِنْ يشاء، وما دام الموت ختام رحلة الإنسان فلا بد أن ينصلح فِي يوم مِنْ الأيام... ويهتدي!

الآن يشعر الآغا بضرورة أن يتعلم كيف يخاطب الناس، كيف يتحدث إليهم، كما يفعل داود. صحيح أنّه لا يحب ذلك، لكن يشعر بضرورته وتأثيره وأهميته. فإذا بذل جهداً، ولو محدوداً، إذا تدرب على ذلك أمام المرأة أولاً، ثم أمام عدد مِنْ مساعديه، فسوف يصبح خلال فترة قصيرة خطيباً مثل داود. أما حين يحفظ مجموعة مِنْ أبيات الشعر وعدداً مِنْ الأمثال، وأن يتكلم مثل الذين يقرأون على الحسين، أو حتى لو تكلم بطريقة جلفية، كما يتكلم الناس فِي الشوارع، فسوف يتفوق عند ذاك على داود نفسه، لأن لغة داود لغة الأفندية، وهؤلاء حتى لو هزوا رؤوسهم وهم يستمعون إليه لا يفهمون تماماً ما يقول، أو يفهمه كُلّ واحد بطريقته. لن يكون مثله، لن يتوجه فِي خطاباته إلى الأفندية، سوف يتكلم إلى الناس مباشرة، وبالطريقة التي يفهمونها، وإلى هؤلاء يجب أن يتوجه، وعليهم يجب أن يعتمد!

ولكن كيف يبدأ هذه الرحلة؟ إنّه الآن قلق، مشتت الأفكار، وليس لديه الميل لأن يشرع فوراً. ومع ذلك لا بد مِنْ وضع خطة لذلك. سوف يكلف عدداً مِنْ الأشخاص كي يهيئوا له الأشعار التي يحتاجها، ومن الضروري أن يرددوها أمامه عدة مرات، ثم يرددها بنفسه مرة بعد أخرى إلى أن يتقنها، وعند ذاك سيعرف كيف يجعل صوته يهدر أمام الجموع. وسيتغلب على داود أيضاً مِنْ خلال كرمه. «داود أبخل مِنْ كلب، قد لا يظهر عليه ذلك بوضوح، لكن مِنْ يعاشره، مِنْ يعرفه عن قرب، يكتشف حرصه الذي يصل إلى حد البخل. إنّه يشتهي كُلّ ما لدي الآخرين، ولا يحب أن يعطي شيئاً مِنْ عنده لأحد»..

واستعاد فِي ذاكرته وقائع كثيرة، كان على يقين أن الناس يمكن أن يتعلقوا بوالٍ أو بإنسان نتيجة قدرته على الكلام، أو بسبب شجاعته، لكن هذا التعلق لا يدوم طويلاً، ولا يكون قوياً، إذا لم يدعمه بالكرم، لأن الناس لا يعيشون على الكلام أو الأشعار، كما أن الشجاعة إذا راقت لهم وقدروها،

فإنها لا تكفي. وداود الذي استهوى الكثيرين، واستطاع أن يخرج الناس مِنْ بيوتهم ليقفوا ضد سعيد، فلأن الأخير بدل أن يعطيهم، بدل أن يؤمن التجارة ويوفر الأعمال، أخذ يزيد الضرائب، ويرهق الناس.

أما داود الذي أعطى فِي البداية، وقال كلاماً كثيراً، فما لبث أن تغير، أصبح إنساناً آخر: صحيح أن التجارة عادت إلى النشاط، والمال يتوفر بأيدي الناس، لكن داود بدل أن يقلل الضرائب زادها، والتجارة بين أصدقائه. ذهب ساسون ورجاله، جاء عزرا ورجاله بدلاً عنه.

وتصور الآغا نفسه والياً: «... لا ضرائب جديدة؛ الضرائب القديمة تسقط عن الناس كافة عدا الذين يعارضون الوالي الجديد؛ لن أطالب براتب؛ ثم لماذا هذا الجنون بملابس الحرس والتشريفات والذين يحيطون بالوالي؟ سوف أصبح بسيطاً مثل أيّ إنسان آخر، بالملبس، بالمأكل، ولا بد مِنْ إقامة الولائم للفقراء...». وكاد يذهب بعيداً وهو يتصور ماذا سيفعل حين يصبح والياً، لكنه قال وهو ينظر بطرف عينه إلى المرأة:

ـ الآغا لا يشبه غيره مِنْ الولاة، وسوف يتأكد الناس مِنْ ذلك!

وتغيرت نبرة الصوت قليلاً وهو يسأل:

- لو راح تصير مثلهم، آغا؟

غمز بعينه، ابتسم وهو ينهض، وأخذ يردد بنغم:

- على الوالي أن يتفقد الرعية، وأن يتأكد مِنْ كُلّ شيء بنفسه، وإلا راح تمشي الماي مِنْ جواه وهو ما يدري.

وقرر أن يقضي ذلك اليوم بين ضباطه وجنوده فِي القلعة، وأن يزور المدينة.

واستغرب الكثيرون فِي كركوك أن الآغا قضى ساعات وهو يتجول المدينة، وشعر الذين تحدث معهم بنوع مِنْ الاعتزاز!

عرف داود باشا بوصول ناهي زبانة إلى بغداد، وبلقائه روجينا. جميلة نقلت الخبر، لكنها لم تذكر أكثر مِنْ ذلك.

طلب الباشا مراقبة ناهي، وشدد على ضرورة أن تكون الرقابة محكمة، شريطة ألا يشعر بها. ولأن ناهي يمتلك مِنْ المكر الكثير، فقد ابتعد عن الأماكن الخطرة، حيث يكون رجال الباشا، خاصة وأن مظهره يساعده فِي التخفي.

فِي الأيام الأولى جمع ناهي أخباراً، لكنها كانت أقرب إلى الإشاعات والتكهنات، وقد بدت له هزيلة، بحيث لا تستحق أن ترسل إلى الآغا، فقرر أن يلجأ إلى روجينا.

فوجئت روجينا بالزيارة. وفوجئت أكثر وهو يسألها عن أخبار البلد، وما وقع مِنْ أحداث! فطوال الفترة التي قضتها فِي كركوك، ورغم أنها رأت ناهي مرات عديدة، وتأكدت مِنْ قوة علاقته بالآغا، إلا أنها اعتبرته إنساناً بسيطاً وربما خادماً أو نديماً، ليس أكثر، وإن مهمته إضحاك الجميع بنكاته وحركاته، فلماذا يسأل الآن عن الأخبار السياسية والأحداث؟

أما حين طلب منها أن تؤمن له لقاء مع أحد مسؤولي الباليوز، والأفضل أن يكون مع القنصل نفسه، فقد بلغت المفاجأة حد الذهول.

ظنت أن الرجل مختل العقل، أو ربما يكون مخموراً. ولما واصل الطلب والإلحاح، وروجينا تتهرب، بحجة أنها لا تعرف أحداً هناك، أخرج لها الرسالة التي جلبتها معها إلى الآغا، ليقطع الشك، ويدفعها إلى القيام بهذه

المهمة.

قالت، وكان صوتها يرتجف:

- هاي شلون حصلتها؟ ما تعرف أن بيها قص راس؟

- راس غيري!

ردَّ عليها هكذا، وهو ينظر إليها ويبتسم. ولئلا يذهب بها الخوف بعيداً، تابع بلهجة لا تخلو مِنْ سخرية:

منين أقدر أحصل عليها، يا معودة، لوما الآغا سلمها لي ومعها همين صوغة!- وبسرعة، وبإتقان، استخرج مِنْ جيب داخلي شيئاً ملفوفاً بمنديل.

أبيض، ودفعه إلى روجينا. فتحت المنديل على مهل، وبحذر، وما كادت ترى ما فِي داخله حتى شهقت: قلادة ثمينة يتوسطها حجر مِنْ العقيق.

نظرت طويلاً إلى القلادة ونظرت إليه. كانت النظرة، هذه المرة، مختلفة:

ودية وفيها امتنان. لما اطمأنت تماماً، سألته عما يجب أن تقوله أو أن تفعله، فرد بمرح:

- بس قولي للباليوز: «رمان بعقوبة لاحه المطر». وما عليك!

أخذت تنظر إليه باهتمام، كأنها تحاول اكتشافه مِنْ جديد. فهذا الرجل والقصير، الكثير الحركة، والذي اعتبرته قليل الأهمية، أو ربما لا يعرف سوى المزاح، يتبدى لها الآن شخصاً مختلفاً، خاصة وهو يطلب لقاء القنصل بالذات. قالت فِي نفسها: «المرية بحسنها وجمالها تفتح أكبر باب، وتقدر على أوكح رجال. لكن هذا شكو عنده حتى صار هالشكل؟» تطلعت إليه مِنْ جديد، توقفت عند الوسط وهزت رأسها!

ولتوقعه أن يكون رجال الباليوز مراقبين، ولئلا تتعرض روجينا للشبهة أو المراقبة فيما لو تم الاجتماع فِي بيتها، فقد أضاف ناهي بحذر:

- راح أفوت يومين ثلاثة وبعدها أمر وألقى الجواب، اتفقنا؟

ـ إنشاء الله يصير خير!

وكان ردَّ الباليوز واضحاً: «مع الموافقة، بطرس يعقوب يمثل الباليوز، ويعرف ناهي زبانه، المطلوب تحديد المكان والزمان» وجاء ردَّ ناهي فورياً: «الخميس، بين المغرب والعشاء، فِي قهوة الشط».

ناهي وهو يختار قهوة الشط مكاناً للاجتماع لأن لا أحد يعرفه هناك.

وبطرس الذي وافق على المكان اعتبره مناسباً لاتساعه، وبالتالي يمكن التحدث بحرية، دون أن يضايقه أحد مِنْ معارفه الذين يترددون على مقاه أخرى، أغلبها فِي صوب الرصافة.

كان مِنْ السهل أن يلتقي الرجلان فِي مكان آخر غير قهوة الشط، وأن يبحثا ما يشاءان مِنْ الأمور، دون أن يراقبهما أحد، دون أن يزعجهما أحد.

أما فِي قهوة الشط، أو أيّ مقهى فِي صوب الكرخ، فإن وصول الغرباء يثير الفضول، وقد يصبح الفضول اهتماماً أو ربما قلقًا، إذا ترافق ذلك مع حركات، أو طريقة تصرف تستدعي الانتباه. فإن يصل اثنان، مثلاً، مِنْ الرصافة، أو حتى مِنْ أمكنة بعيدة، ويجلسان ويتحدثان بتلقائية، ويتبادلان السلام أو بعض الكلمات مع الذين حولهم، فالأمر عادي، وقد لا ينتبه له أحد. أما أن يأتي واحد قبل الآخر، ويجلس وحيداً، ويأتي الآخر ويذرع المقهى مِنْ أقصاه إلى أقصاه، دون أن يتعرف بيسر على صديقه، فقد أثار الأمر إنتباه

ساقي الماء، مطشر، إذ بدا الرجلان وهما يتعرفان على بعضهما، وكأنهما يلتقيان لأول مرة. وحين تقارب الرأسان، وأصبح كلامهما أقرب إلى الهمس، فقد لفت أنظار الذين حولهم. أما حين دخل ذنون بصحبة الأسطة اسماعيل، ورأى بطرس، فقد قال بسخرية لا تخلو مِنْ قسوة، وبصوت عال:

- واي... واي، أبو زليخا... أشوفك بديرتنا، شنو لهنا لاحقنا؟

وبطرس الذي فوجيء بذنون، وبدا محرجاً، نظراً لما حصل بينهما قبل بضع سنين، حين تآمر عليه وطُرد، وحل مكانه مترجماً فِي البعثة الأثرية الإنكليزية، فقد حاول أن يكون دمثاً، إذ قال وهو ينهض مبتسماً:

- رب صدفة خير مِنْ ميعاد، يا أبو عمر، لأني مِنْ ذاك اليوم أريد أقول لك: آني ما علي، ما لي علاقة، لكن ما صار لي فرصة أشوفك.

وإنشاء الله تعنيت وجيت مِنْ تلفات الدنيا، بعد كُلّ هذي السنين، حتى تقول هذا الكلام؟- ـ أكون جذاب إذا قلت لك إني جيت قصداً، لكن ما دمنا تشاوفنا بعد هذي السنين، فلازم أبري ذمتي وأقول لك عن اللي صار واللي جرى!

التفت ذنون للأسطة اسماعيل. وقال بسخرية:

- باوع شقد خاست الدنيا يا أبو حقي: الواحد يحفر النقرة ويدفع الثاني حتى يوقع بيها، وبعدها يقول له: آني ما علي...

وسحب نظره نحو بطرس، وتابع:

- بابا روح، وابد لا تراويني وجهك.

والتفت إلى الأسطة اسماعيل: سبحانه لما خلق مثل هالشكول كان ضايج، لزم كومة تراب تفل عليها وذبها، فصارت هيج أوادم!

وهبط بطرس يعقوب على المقعد مثل الشوال، فقد أحس أن أية كلمة إضافية يمكن أن تُخرج ذنون عن طوره، وقد يلجأ إلى العنف. قال لينهي..

الأمر:

. ما يخالف، أبو عمر، آني غلطان!

ردَّ ذنون، وهو يتحرك، وكان يخاطب الأسطة اسماعيل.

- تنجست قهوة الشط يا أبو حقي، ولازم ندور على قهوة غيرها!

- قهوة الشط، يا معود، مثل مية دجلة، أبد ما تتنجِس، يمر بيها أشكال وألوان، لكنها تعرف ناسها، وإذا جاها فد يوم الغربتلية، ثاني يوم ما يجون، وحدهم يسحسلون، ينهزمون لأن ما إلهم خبزة بقهوتنا!

وخلال دقائق قليلة عُرف أن بطرس يعقوب، العامل فِي الباليوز، هو ذاك الذي يجلس فِي الركن، ولا يُعرف جاء لرؤية مِنْ، أو ماذا يريد، كما لا يُعرف ذاك الجالس معه. وقد أثار الأمر التساؤل والقلق. هل جاء بطرس ليلتقي بأحد مِنْ عائلة الحاج صالح العلو ويبحث أمر المعالجة مرة أخرى، خاصة وأن صحة الحاج لم تتحسن؟ هل جاء لامر يتعلق بحسون؟

لأمر ثالث؟

انفتل ذنون بسرعة وجلس بالقرب مِنْ الأسطة عواد، فِي الوقت الذي ذهب أبو حقي للسلام على بعض الأصدقاء، وأيضاً للسؤال عن هذا الغريب الذي يجلس مع «زلمة الباليوز» مشيراً بطرف وجهه، مع غمزات، إلى بطرس وإلى مكان جلوسه.

ولأن أهل الكرخ يتميزون بقدر غير محدود مِنْ الفضول، وأكثرهم فضولاً الذين يقضون ساعات طويلة فِي قهوة الشط، فقد بدأت الرقاب تمتد نحو الركن الذي يجلس فيه الرجلان، وحين لا تسعف العيون فِي تحديد أو معرفة ذلك الغريب الجالس مع بطرس، لا يتردد بعضهم فِي النهوض، والدوران حول ذلك الركن. صحيح أنهم كانوا يفعلون ذلك متظاهرين بالعفوية، إذ يوسعون دائرة حركتهم، ينظرون فِي اتجاهات متعددة، ثم يقتربون تدريجياً، وتتركز النظرات على الركن والجالسين لكن محاولات الاكتشاف انتهت إلى الفشل. قال أبو حقي، وهو ينضم إلى المجموعة التي تحيط بالأسطة عواد:

- هذا الوجه شايفه... ومو شايفه... يا جماعة الخير!

كان واضحاً أنّه يقصد الغريب الذي يجلس مع بطرس، ردَّ ذنون بسخرية:

ـ لا تتعب روحك يا معود، يبين وجه أكَشر، وما دام جا ويا أبو زليخا فالجلب أخو السلوقي!

-وهذا الراس أبد ما مر مِنْ تحت أيدي، لأني إذا لزمت راس ما أنساه أبد!

ـ أنت تحجي على ايام قَبل يا أبو حقي؛ أما بهذي الأيام فصارت أكثر الروس مثل روس البصل: تتقشر وتتغير، حتى إنك ما تعرف الواحد قرعة أبوه منين!

قال ذنون ذلك، وحدث الذين حوله عما فعله بطرس يعقوب معه، وكيف أنّه ساعد الإنكليز فِي استخراج الذهب والفضة والتماثيل مِنْ الأرض، ثم ركب السفينة التي حملت كُلّ ذلك، وسافر إلى البصرة، وكيف ظل البحارة يرفعون الأحمال والأثقال إلى سفينة أكبر مِنْ سفينة نوح، وسافروا بها. وختم حديثه بالقول:

. وما كفاه هذا، صار يفتر الولاية مِنْ أولها لتاليها، مثل يهودي أبو بيع: منوعنده حاجات قديمة للبيع؛ منو لقى أصنام دفنها الكفار حتى نخلص ديرة الإسلام منها؛ منو يعرف زاغور بيه طابوق وخرز ولو ليرة ذهب، ما خلى شي إلا وقال للإنكليز: تعالوا، خذوا، شيلوا...

ابتسم بحزن، هز رأسه عدة مرات، ثم ختم كلامه:

- وبعد ما حملوا وشالوا، وحتى أبو زليخا ما يظل عطال بطال، قالوا له: تعال صير ترجمان بالباليوز، وهسه باوعوا عليه: وجهه متفح وإيده بالدهن!

قال الأسطة إسماعيل:

- هذول الإنكليز ما ينسون جماعتهم، وما يخلونهم، مثل غير جماعة، يكَدون.

ـ قال الأسطة عواد الذي ظل صامتاً مهموماً طوال الفترة السابقة:

. هذا الباليوز مصيبة مِنْ الله، وما جانا مِنْ وراه إلا دوخة الراس وشلعان القلب!

قال ذلك، وكان يفكر بما حصل خلال الشهور الماضية، واعتبر أن مجيء بطرس لا يبشر بخير، لأن رجال الباليوز عندما يتحركون، عندما ينتشرون فِي الأسواق والمقاهي، فلا بد أن يكون وراء ذلك أمر جديد.

الأسطة اسماعيل ظل يحك ذاكرته فِي محاولة لأن يستعيد أين رأى هذا الوجه، وهل مر ذلك الرأس بين يديه، وحين لم يستطع أن يصل إلى نتيجة واضحة، قال كأنه يخاطب نفسه، وبدا صوته مليئاً بالغيظ:

- هذا الوجه ما ينشاف بمرقد أو مقام، هذا وجه ينشاف بميخانة أو يم القحاب...

ضحك بصوت عالٍ وأضاف:

- كأني شايفه فد يوم: بايده إبريق وعلى كتفه خاولي!

فِي هذه الأثناء اقترب مِنْ المجموعة حسون. كان مخطوف الوجه، أقرب إلى الارتباك، بعد أن قال له الكثيرون أن زيارة بطرس يعقوب تتعلق به مباشرة، إذ أرسله الباليوز لكي يتوسط، لأن زوجة القنصل مريضة، وهي بين الحياة والموت، وتطلب فقط أن ترى حسون، ولو عن بعد! وإن الأسطة عواد رفض تماماًمجرد الحديث فِي الموضوع.

سأل حسون، وخرج صوته متوسلاً، وكان يخاطب الأسطة عواد:

ـ صحيح عمي اللي قالوه الجماعة؟

- شنو الصحيح؟ ويا جماعة؟

-هم اللي قالوا، عمي، وأني ما أدري!

- على ويش تسأل، ابني؟

ـ على هذا القاعد بالركن!

ـ شبيه؟ احجي، قول ـِ بس آني ما اريد. آني قلت كلمتي!

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم جيبك يا طولة الروح...

وبعد قليل والأسطة عواد يهز رأسه بأسف:

- تعال يمي، تعال اقعد وفهمني شنو القصة.

- بس آني حلفت وقلت آخر كلام، عمي!

قال هذه الكلمات وهو يقترب مِنْ الأسطة عواد، وكان خوفه يزداد كلما اقترب. نادي الأسطة عواد، فِي محاولة لتبديد خوف حسون:

- مطشر... يا مطشر، صيح على فد حامض لحسون.

والتفت إلى حسون، وقد زايله الغضب، وخاطبه بلهجة أبوية:

ـ لا تخلي الناس يقشمروك، ابني، وإذا حجيت احجي عدل، فهم.

وهسه تعال وفهمني، شنو: قلت كلمتي، وما أريد؟

- آني حلفت بالثلاثة، عمي، والواحد إذا خان يمينه يتشور؛ وبعدين الله ما يرضى!

قال الأسطة اسماعيل لحسون بغضب:

ـ لك ما تصير آدمي؟ ما تعقل؟

التفت حسون نحوه وقد أجفل وتراجع، فتابع الأسطة اسماعيل بغضب أقل:

ـ لك هذا مو عليك، وجيته على مود غير قضية!

-هم قالوا لي، عمي، وآني شمدريني!

قال الأسطة عواد يخاطبه بشفقة:

-حسون، ابني، إشرب الحامض مالك، خاف يبرد...

وبعد قليل:

ـ وهذا جاي على مود غير قضية، مثل ما قال أبو حقي، فلا تدير بال، " ومالك لزوم، إفتهمت؟

ـ أيّ نعم، عمي، آني ما علي!

قال الأسطة اسماعيل بمرح، يختم هذا الفصل:

. عفاريم حسون؛ والليلة حط راسك على المخدة ونام مرتاح، اتفقنا؟

ـ أيّ نعم، عمي اسماعيل، اتفقنا!

وأضاف حسون بعد قليل، وقد زايله الخوف تماماً:

. وصار ينراد لي زيان، عمي اسماعين، فشركت أمر حتى تزيني؟

- أنت قول وآني حاضر. بس أؤمر، حسون الورد.

ـ أستغفر الله، عمي...

رفع صدره، أخذ نفساً عميقاً، وقد شعر بالفخر، وأضاف بمرح:

-بس أباوع أنّه ماكو عندك أحد، ومو تعبان، مو ضايج، أزرق وتزيني!

-صار، تعال شوكت ما تريد!

وجاء سيفو وقادر معاً، فِي هذه الأثناء، وكأنهما جاءا بطلب. كان سيفو متوتراً، خاصة وأن إشاعة قوية انتشرت بعد أن جاء ميناس بزيارة إلى قهوة الشط، تؤكد أن طبيب الباليوز ينوي قتل الحاج صالح العلو، والوسيلة إلى ذلك أن يتولى معالجته. أما السبب وراء ذلك، كما تضيف، الإشاعة، فلأن أحد أبناء كركوك أبلغ الحاج صالح باسم القاتل، وعن علاقته بالإنكليز!

لا يُعرف مِنْ وراء هذه الإشاعة، أو كيف وصلت إلى سيفو، لكن لكثيرين فِي قهوة الشط أكدوا أنهم سمعوا سيفو يشتم ميناس والباليوز، هذا ما يفسر أن عائلة الحاج صالح العلو لم تشأ أن ترد، مجرد ردَّ، على عرض الباليوز.

سأل سيفو، وهو ينظر إلى الوجوه بغضب:

-ها... شنو صاير بالدنيا؟

ردَّ الأسطة اسماعيل، وقد تظاهر بالمزاح والغضب معاً، فِي محاولة تهدئة سيفو:

-هاي مِنْ شوكت تحجي ويانا هالشكل، أبو فلاح؟ الناس أول ما توصل تقول: السلام عليكم، شلونكم؟ شلون كيفكم؟ شنو إنت متحزم بالشر وحاط الغضب بين عيونك وتريد تتعارك؛ على كيفك يا معود!

- وبعدين... الدنيا بألف خير، يا أبو فلاح، قال الأسطة عواد، وأنت شنو اللي سمعته، حتى هاد علينا هالهدة؟

- المحلة كلها تحجي وتقول إن جماعة الباليوز يردون يجرون الحجي لذاك الصوب وهناك يداووه.

ردَّ الأسطة اسماعيل، وهو يغالب الابتسامة:

ـ شنو سيفو عبالك الدنيا قوتره؟ بعدين... شنو الحاج صالح العلو سخل حتى يجروه وياخذوه؟ هاي وين صارت؟ شنو ما عادت برو وسنا غبرة؟

- يا أبو فلاح... أنت عاقل وتفهم، قال الأسطة عواد، والمداواة مو بالقوة ولا بالغصب، هاي ما تصير إلا بالرضى، وبموافقة الوجعان وأهله، وبمشاورة القريب والصديق، والواحد ما يروح للغريب إلا إذا ماكو منها جارة.

-قلت لروحي، لكن الله يلعن الشيطان!

هكذا ردَّ سيفو، وهو يرتمي إلى جانب ذنون. الذي ردَّ بمودة وعتاب:

- الله بالخير، يا أبو فلاح.

وإذا كان الرد، فِي العادة، على مثل هذه التحية، آلياً، وقد لا تلتقي العيون إلا لماماً وبسرعة، إلا أن الصوت الذي رن فِي أذن سيفو، وبدا له ودوداً ويعرفه دون أن يألفه، جعله يلتفت وهو يجيب. حين اكتشف أنّه ذنون. نهض مِنْ جديد، قبله بحرارة، وفجأة تحول إلى إنسان مختلف.

أخذ يمازحه، بعد أن سأله عن صحته وأحواله، وما إذا كان مستمراً بخلق الأشياء الجميلة. وكاد يواصل لولا أن همساً تحول إلى لغط، انتشر حواليه!

فقادر الذي دخل مع سيفو، ووقف إلي جانبه خلال الفترة الأولى، وقد فهم جزءاً مما دار حوله النقاش، ولم يفهم أجزاء أخرى، وكان خلال ذلك يتلفت هنا وهناك، لمح ناهي!

كان فِي شكٍ أول الأمر، تقدم نحو الركن الذي يجلس فيه. تطلع إليه بإمعان، وكأنه يدقق بشجرة تنوس بين الحياة والموت، أو بحشرة يراها لأول مرة. ما إن تأكد وعرف أنّه ناهي الذي وسطه مرات كثيرة لدى الأغا، كي يحل مشكلته، وقد وعده ناهي بعدد المرات التي التقاه، لكن دون جدوى، حتى وقف قادر فوق رأسه، فِي الوقت الذي ظل ناهي جالساً ويتطلع إليه.

قال الأسطة اسماعيل لسيفو:

-صار إلنا ساعة ونحن نريد نعرف، هالابن الحرام القاعد ويا الباليوز منو هو، شنو هو، وما لزمنا طرف خيط...

توقف قليلاً، وأضاف، بعد أن تغيرت نبرة الصوت:

-أتاري صاحبك يعرفه، ويجوز...

وقبل أن يواصل، وكأن الأمر كان غائباً عن سيفو، تساءل بدهشة:

ـ قلت الباليوز، أبو حقي؟ منو؟ وينه؟

ولئلا يندفع سيفو لارتكاب حماقة فِي المقهى، قال الأسطة عواد بتعقل وهدوء:

ـ على كيفك، أبو فلاح، ولا تاخذنا بحيل صدر...

طبطب على فخذ سيفو، وكأنه يريد منه أن ينتبه جيداً:

-هذا اللي قاعد ويا صاحب صاحبك ترجمان الباليوز، ونحن عرفناه، الساعة اللي طب بيها القهوة، عرفناه بليا ما يقول؛ لكن اللي حيرنا، شمغل بالنا، هذا الثاني، منو هو؟

قال سيفو، وهو ينهض:

- خلوها علي، فد دقيقة وأرجع لكم بالخبر اليقين!

وقف سيفو فوق رأسيهما. سأل، وكان لا يخفي تحديه:

ـ ها، قادر، الأخوان منين؟

- هذا ناهي، ناهي زبانه، مِنْ جماعة الآغا!

- يا آغا؟

ولم يتركه ليجيب، تابع بسخرية:

ـ بهذي الديرة ماكو أكثر مِنْ الأغوات، فيا هو منهم؟

ردَّ. ناهي بتحدٍ:

- بالولاية كلها ماكو إلا آغا واحد، سيد عليوي، لو ما تعرفه؟

- منو ما يعرفه...

وبعد قليل:

- أهلاً وسهلاً، والأخ منين؟

توجه بالسؤال إلى بطرس يعقوب مباشرة. نظر إليه بطرس، كأنه يقيسه، ورد:

- وحضرتك منو حتى تسأل عن الأوادم؟

أجاب سيفو بنوع مِنْ السخرية: - لانا نشوفكم هنا أول نوبة، وما دام قادر يعرف زلمة الآغا، فأنتم ضيوفنا، ولازم تشربون فد شي على حسابنا!

ردَّ بطرس بنوع مِنْ الرفض:

- شربنا، وما نريد فد شي بعد!

استنفر سيفو. بدا له انه يواجه خصماً عنيداً، قال بحدة:

-على كيفك، مولانا. تشرب ما تشرب، هاي بكيفك، بس لازم تعرف، وهذا الشيء تقوله للباليوز: الحاج صالح العلو انولد بمحلة الشيخ صندل، وبمحلة الشيخ صندل يموت، وإذا ابنه بدري انقتل واندفن بكركوك، فيوم مِنْ الأيام لازم يرجع للشيخ صندل، وقبره راح يصير بالشيخ معروف...

وكاد يواصل، لكن بطرس قاطعه:

ـ على كيفك آغاتي، الباليوز بذاك الصوب، وإذا عندك فد شي تريد تقوله، تريد توصله، فذاك الطريق، آني ما علي.

- أشوفك حمقان هوايه، شنو صار بالدنيا؟

- بابا الحق مو عليك، الحق علينا، قلنا لروحنا قهوة الشط خوش مكان، وأهل الكرخ خوش أوادم، وأن الواحد يقدر يقعد فد ساعة زمان بليا قال وقلنا. أتاري القهوة وناسها يتعاركون ويا رواحهم إذا ما لقوا أحد يتعاركون وياه!

-خلي ببالك، مولانا، أهل الكرخ يحطون الخوش آدمي ببطن عينهم، أما المو خوش فمكانه مو هنا...

- بابا امشي، أحسن لك!

ـ لك إنت منو، إنت شنو، حتى تتكلم وياي هالشكل؟

- آني احجي لأنك ما تعرف الأوادم، روح أول نوبة اسأل وبعدين تعال واحجي!

لم يصدق سيفو ما تسمع أذناه. لأول مرة يقابل أحداً يجرؤ أن يتكلم معه بهذه الطريقة. فكر أن يضرب، أن يشتم، لكن دافعاً غير الخوف جعله يتردد ثم يتوقف. قال لبطرس، وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

-نطلع مِنْ القهوة وهناك نتحاسب!

بصعوبة تمكن الأسطة عواد أن يستوقف سيفو، وأن يعرف مِنْ هو لرجل الآخر، وماذا جرى مِنْ نقاش، إذ ردَّ سيفو ليختصر كُلّ شيء:

ـ لا تخمسون ولا تسدسون: جذر ولقى غطاه؛ وهذا ابن الزفرة، أبو لباليوز، إذا ما أكسر راسه، وأسويه كلاش، فلا آني سيفو ولا أكون رجال!

وبذل الكثيرون جهداً كي يتغلبوا على غضب سيفو، إذ أجبروه على لجلوس، وقالوا إن شيئاً لو حصل لا بد أن يسيء إلى المحلة وإلى صوب لكرخ كله، ولا يستبعد أن تستغل الحكومة الأمر وتنزل العقوبة بالكثيرين، خاصة وأن السراي لا تنظر برضى لأهل الكرخ.

ولأن سيفو ظل متوتراَ، وإنْ تظاهر بالهدوء والموافقة على ما قيل، فقد سئل قادر عن الرجل الجالس مع بطرس يعقوب، فذكر أنّه مِنْ أقرب الناس لى الآغا عليوي، وأنه يلازمه مثل ظله، وربما يعرف شيئاً عن مقتل مدري!

لا يُعرف متى أو كيف خرج سيفو مِنْ قهوة الشط، وقد تحسب الأسطة اسماعيل، إذ قال، بعد أن افتقده:

- وينه، هذا المخبل... سيفو؟

وأخذ يتلفت ويتساءل، وحين قيل إنّه خرج قبل قليل ضرب على ساقه وهو يقول:

ـ مِنْ كُلّ بد راح يسوي لنا مكسورة... إذا ما لحقناه وجلبنا بيه!

قال ذنون، فِي محاولة لأن يتبرع أحد بالعثور على سيفو وإرجاعه:

-ما دام آني بايت هنا، فأريد واحد نشمي يلقى لنا سيفو، ويقول له:

نون بالمسافر خانة ويريده!

قال حسون بمرح:

- آني ألقاه، عمي، بس بشرط!

- شرطك مقبول، حسون، بس صيحه وتعال!

- شرطي أتعلل وياكم!

قال الأسطة اسماعيل، وهو يقهقه:

ـ لا بالله كملت، جبت الأقرع يونسني، كشف راسه وخر عني!

وهب حسون للبحث عن سيفو. التفت الأسطة عواد عله يجد أحداً غيره يمكن أن يقوم بهذه المهمة، قال مخاطباً أكثر مِنْ واحد:

- يرحم والديكم... شوفوا لنا سيفو وين صار، خاف تجي براسه ويلوصها!

ورغم البحث لم يعثر على سيفو. ولأن بطرس يعقوب صمم على التحدي فقد أطال جلوسه فِي المقهى، وحين هم بالمغادرة حاول الأسطة عواد أن يوضح، لا أن يعتذر، وكتعبير عن حسن النية رفض أن يتقاضى ثمن المشروب، لكن بطرس ردَّ بخشونة، وكان ينظر إلى ذنون وهو يهز رأسه:

حسبنا قهوة الشط مكان ينقعد بيه، أتاريه كورة مال زنابير!

قال الأسطة اسماعيل بسخرية:

ـ على كيفك، مولانا، لأن الزنابير ما تخرى عسل، وماكو أكثر مِنْ القهاوي ببغداد، وبذاك الصوب أكثر مِنْ هالصوب، فلا تتعني نوبة ثانية... وتجي!

أما حين حاول الأسطة عواد أن يرسل بعض الشباب لمرافقة بطرس وناهي، ليأمن شر سيفو، ولما اكتشف بطرس أن الشباب يتبعونه، فقد وقف بتحلي، وسأل:

-خير... إنشاء الله؟

ولما سمع همهمات غير واضحة، أضاف:

- قهوة الشط... خليناها ومشينا، أكو بعد فد شي لاخ؟

ورد أحد الشباب بحدة:

ـ شنو... المشي بالجادة صار حرام؟ ممنوع؟

قال آخر، وكان صوته ساخراً:

ـ لا تعمل خير شر ما تلقيى والحق مو عليك، بس ما يخالف!

عند الشريعة، انبثق واحد فِي الظلمة. كان طويلاً، نحيلاً، لاتبين ملامحه، إذ لم تكن تظهر إلا عيناه. قال بطرس يعقوب، وهو يعيد وصف ما حدث: «كانت عيونه تقدح مثل الشرر، وكان لازم مقوار بإيد، وخنجر بالثانية، وما أشوفه إلا واقع بينا دق، جان ناوي على قتلنا، ولولا الملاح واثنين وياه جان رحنا خلاص».

ولفترة غير قصيرة لم يشاهد سيفو فِي قهوة الشط. أما رجال الأمنية ورجال الجندرمة، الذين ترددوا كثيراً على قهوة الشط لمعرفة مِنْ الذي قام بالاعتداء، فلم يتوصلوا إلى نتيجة. كتبوا فِي محضر التحقيق «أن لصوصاً تعرضوا لترجمان الباليوز بطرس يعقوب، ولناهي زبانة، وكانت غاية اللصوص السرقة لا التعدي، غير أن مقاومة المغدورين وتدخل أولاد الحلال، منع تحقيق المرام. أما الفاعلين فالتعقيبات لا تزال جارية للقبض عليهم. لأخذ العلم والتوجيه»..

وقدم أحد الموظفين مِنْ السراي الاعتذار للباليوز. أما ناهي فقد حل ضيفاً على السراي، وعومل معاملة كريمة، وحين استأذن بالسفر، قدمت له هدية باسم الباشا، وطلب إليه أن ينقل أزكى التحيات إلى الأغا!

برد بغداد جارح، فِي ذلك الصباح مِنْ كانون، حين بدأت القافلة سيرها نحو الشمال، نحو كركوك. فالرياح الباردة ما إن تلامس الوجه واليدين حتى تسري إلى باقي الجسد، فتولد رجفة وحنيناً لأيام الدفء، وتجعل الإنسان مشدوداً متحفزاً، خاصة وأن الدواب تبذل جهداً غير قليل لكي تتوازن بعد أمطار الأيام الماضية، إذ أصبحت الأرض رخوة، زلقة، ولولا البطء فِي السير، وتلك الملابس الثقيلة التي تدثر بها مسافرو القافلة، لأصبحت البرودة أشد وأقسى.

كانت أفكار الضباط وعواطفهم فِي القافلة تتموج، تصعد وتهبط، أو تترجع مثل أغانٍ قديمة نصف منسية. فما إن تلمع ذكرى حتى تنطفىء، تماماً مثل السحب الصغيرة مِنْ الدخان، إذ تبني، وهي ترتفع قليلاً قليلاً، صوراً وأشكالاً، لكن وهي تواصل صعودها تتبدد الصور وتترنح الأشكال إلى أن تنتهي.

وما عدا حوافر الدواب التي تجرح الصمت، فقد كانت السكينة تتمدد كما لو أنها لحاف مبلول، ومع تمددها كانت الأفكار والأحلام تتوالى بسرعة، ومعها الذكريات التي ارتسمت بشكل معين وهم قادمون إلى بغداد قبل بضعة شهور، وترتسم الآن بشكل مختلف تماماً فِي رحلة العودة.

وإذا كان للأحلام والرغبات وقت آخر، فإن أفكار الضباط الثمانية، وعواطفهم أيضاً، تغيرت خلال هذه الفترة القصيرة، بحيث لا يمكن لأي واحد منهم أن يصدق ما حصل، أو كيف حصل.

ففي طريقهم إلى بغداد، قبل شهور قليلة، كان كُلّ واحد منهم متحسباً، أقرب إلى التخفي، لا يعرف ماذا ينتظره، أو كيف يواجه الباشا ورجاله. ورغم مشاعر الخوف وعلامات المجهول، فقد كانت الرغبة لدى كُلّ منهم أن يواجه، أن يحارب، مع قناعته بالخسارة ثم الهزيمة، لأن المعركة غير متكافئة، ومع ذلك لا يسلم، دفاعاً عن النفس، إثباتاً لوجودٍ مِنْ نوع ما، بغض النظر عن النتائج، لأن فِي داخله شيئاً يدفعه ويحرضه على المقاومة.

الآن، فِي طريق العودة، والقافلة تخب فِي الوصول، وخلال تلك النهارات القصيرة التي لا تكاد تبدأ حتى تنتهي، فإن القلق الأقرب إلى الحيرة، وتلك الأسئلة التي بدأت منذ اللقاء الأول مع الباشا، ثم ما تلا ذلك مِنْ لقاءات مع ضباط السراي، وانتهاء بالغداء الذي يشبه الوداع، وما جرى خلاله، وقبله الحديث الأخير مع الباشا، تتوالد الأسئلة التي لا تخلف الحيرة وحدها بل والقلق، ولا تخلو مِنْ الخوف أيضاً، لأن كلاً منهم يقف، ربما لأول مرة فِي حياته، عند المفارق الخطرة، التي يترتب على اختيار أيّ منها نتائج لا يعرف حجمها ومداها.

‹‹ماصولة»، كما يقول أترابه، إذ كان يروق له، منذ أن كان طفلاً فِي محلة باب الشيخ، أن يجمع الصغار لكي يصبح قائداً عليهم، وكانت وسيلته، وربما ميزته، الصافرة التي يعلقها برقبته، إذ عن طريقها يصدر الأوامر بالتحرك والوقوف، ويشير إلى الخطأ أيضاً، لأن الصافرة حين تنطلق بتلك القوة، وتكون طويلة وحادة، فمعنى ذلك أن خطأ وقع، ولا بد أن تتبعه شتيمة، ولكن بالصافرة أيضاً!

طلعت بك الذي ولد هكذا، وبدأ يمارس العسكرية منذ وقت مبكر، لم يتأخر فِي الوصول إلى المدرسة العسكرية، ثم إلى مدرسة أعلى فِي اسطنبول. وبعدما شارك فِي معارك عديدة فِي القرم واليونان وفِي

الأحساء، عاد إلى بغداد مِنْ جديد ليستقر فِي محلة باب الشيخ، وليصبح أحد الرموز فِي المحلة ومن معالمها الثابتة والمستمرة، ولأنه سافر ورأى، وتعرض للخطر أيضاً، فقد توصل إلى مجموعة مِنْ القيم البسيطة، لكن الأساسية: ‹‹مِنْ اختار العسكرية اختار الموت، وما دام الموت قريباً هكذا فعلى الإنسان أن ينظر إليه وهو يضحك، ولأن الضحك مع المرأة والشراب يخرج مِنْ القلب، فلا بد أن نتدرب، هنا، ومبكراً، على ما سيمنحنا الله فِي جناته مِنْ حوريات وأنهار مِنْ خمر».

يقول ذلك فِي لحظات الصفاء، حين يجد لوماً أو عتباً ممن يلومونه على إسرافه فِي حب النساء والخمر. وفِي لحظات الصفاء، إذا لم ينغص سهراته أحد ولا يتلو عليه الدروس، فإنه لا يتردد فِي أن يكلم نفسه، وبصوت عالٍ، لا لكي يعطي دروساً لغيره، وإنما ليؤكد ما يعتبره أساسياً وأكثر أهمية فِي هذه الحياة: ‹‹لأن الموت بالمرصاد، ولن يفلت منه أحدة وحين يكون الموت مشغولاً فِي بعض الأحيان، علينا أن نغافله: أن نختفي، وأن نتخفى، عله ينسانا بعض الوقت، فإذا تذكرنا، إذا جاء دورنا، نمضي معه دون أسف، وليس فِي النفس شهوة لأي شيء».

هذه الفلسفة هي التي جعلته لا يتزوج، إذ لا يطيق أن يكون أسير امرأة واحدة، كما لا يطيق أن يكون له أولاد، مما دفعه لأن يعيش كُلّ يوم بيومه، وأن لا ينظر إلى ما مضى بأسف.

كما أن هذه الفلسفة جعلته مزيجاً مِنْ الشجاع والمغامر معاً، ولذلك يُقدم دون أن يأبه للنتائج، الأمر الذي دعا الآخرين إلى الالتفات لهذه الصفة فيه، واستغلالها فِي الكثير مِنْ الأحيان. كان يقول عنه الباشا، همساً، إذا جاء ذكره: «طلعت لا يعرف الخوف أبداً، ولولا أن الفم فِي القسم العلوي مِنْ الجسد، لأعطى هذا القسم إجازة دائمة واكتفى بالقسم السفلي››، أما الآغا فيقول عنه، ولا يخفي ما فِي الكلام مِنْ تعريض: «شيم البدوي وخذ عباته».

فِي اللقاء الأول مع الباشا، تركز الحديث حول محلة باب الشيخ، وحول الدور الذي لعبته فِي تاريخ هذه المدينة. والباشا إذا بدأ حديثاً مثل هذا يعرف كيف يستثير فِي القلب أحلاماً غافية، وذكريات تولد فِي النفس حنيناً للأيام التي مضت. يفعل ذلك مِنْ خلال الوقائع التي يوردها، الأسماء التي يتردد صداها حتى فِي الحلم. أما الطفولة والشباب وكيف عُجنا بتراب المحلة ومياهها، وأيام الزيارة والمواكب، ثم الأمجاد التي تحققت فيما بعد، خاصة فِي مناصرة الذين يجب أن تقف إلى جانبهم، فإن ذلك جزء مِنْ تاريخ المحلة الذي يجب أن يستمر معها إلى الأبد.

هكذا أدار الباشا الحديث مع طلعت بك، لم يكتف بذلك، أشار إلى أنّه فِي اليوم الذي يشعر أنّه لم يعد مقبولاً بنظر المحلة، أو لم تعد المحلة تريده،

فسوف لن يبقى يوماً واحداً والياً، لأنه لا يقبل، بل ويخجل، أن يستمر فِي الوقت الذي تريد المحلة واحداً غيره!

وطلعت بك الذي حملته الذكريات بعيداً، إذ استعاد أيامه الماضية فِي المحلة، وعلاقته بالناس والأزقة ورائحة الخبز، وتذكر أشخاصاً كثيرين وأحداثاً حميمة، شعر بتأنيب الضمير أنّه يتخلى عن داود باشا، لم يقل ذلك صراحة أو تلميحاً، لكن الارتباك الذي ظهر عليه فضحه، ثم تلعثمه وهو يحاول أن يشارك الباشا ذكرياته، فقد كان خلال ذلك الوقت مشغولاً بقضية واحدة، إذ قال، فِي لحظة صمت، بشكل مفاجيء، ودون أيّ تمهيد:

ـ هل النقل عقوبة يا باشا، وهل تغير فكرك بطلعت باقة؟

التقط الباشا الكرة الملتهبة التي تؤرق طلعت والضباط الذين تم استدعاؤهم. خاصة بعد أن قال له عيونه، والذين تحركوا بسرعة، إن الضباط يتوجسون مِنْ الاستدعاء ثم مِنْ النتائج التي قد تترتب عليه. ولقد أكد له العيون أيضاً، وكان ضمنهم بعض النساء، أن أغلب الضباط مع أنفسهم أكثر مما هم مع الآغا.

الآن، وطلعت بك بطرح السؤال بصيغته البسيطة والعادية، أحس الباشا بالخطأ، إذ كان يفترض أن يستدعي الضباط على دفعات أو مِنْ خلال مؤتمر عام، وأن تكون الدعوة محددة الهدف. لو أن ذلك حصل لوفر الباشا على نفسه الشكوك وسوء الظن، خاصة وأن الأجواء تنغير بسرعة، مما يتطلب الانتباه للقوى التي تتربص به.

قال الباشا، وهو ينظر بمودة إلى عيني طلعت اللتين بدتا حمراوين مِنْ الغضب والسهر:

ـ أحمد الله أني سمعت السؤال منك، وأحمده وأشكره لأنك ستسمع الجواب مني، لأني لو سمعت السؤال مِنْ غيرك لما كلفت نفسي الجواب، ولأنك ستسمع الجواب مِنْ لساني، ومباشرة، فما أظن أنك تشك بما أقوله، أو تفسره خطأً!

وكانت مناسبة لأن يفيض الباشا فِي الحديث عن قضايا ماضية، ودور طلعت فيها، وكيف أن الثقة التي تملأ قلبه تجاهه لا تعادلها ثقة، وأنه مستعد لأن يبدأ مِنْ الصفر، مرة أخرى، كما حصل فِي مواجهة سعيد باشا، إذا ضمن أن طلعت وعدداً آخر مِنْ الضباط معه. أما النقل أو العقوبة، وهو لم يفكر بأي منهما، فيشبه حديث جحا حين أصبح نجاراً، إذ صعد إلى شجرة وأراد أن يقطع غصناً، فركب على ذلك الغصن وأخذ ينشره!

وبجو عاطفي مليء بالدفء، تمكن الباشا ليس فقط أن ينتزع الشكوك، بل أن يكسب، مِنْ جديد، ثقة طلعت، وأن يجعله، مثل طفل، يتمنى إرضاءه.

وداود باشا بخبرته، ومعرفته كيف يتعامل مع رجاله، لم يُرد، فِي هذه المرحلة، أكثر مِنْ ذلك، إذ انتقل إلى الحديث عن أحلامه ببناء دولة جديدة، كيف يجب أن تكون، وكيف أن للكثيرين أدواراً. لم يسم أحداً، لكنه ابتسم وهو ينظر إلى طلعت، وكأنه يعنيه.

وتركز الحديث، فِي مرحلته الأخيرة، حول أمرين: القبائل، وما يحتمل أن تخلق مِنْ المتاعب؛ وعن مخاوفه أن يستغل الجيران الظروف ليتدخلوا، إذا لم يكن مِنْ أجل إسقاطه، فمن أجل خلق الاضطرابات له وإشغاله عن بناء الدولة التي يحلم بها. ولئلا يظن طلعت أن هناك مطالب مباشرة فِي الشمال الآن، ركز الباشا على موضوع القبائل، وما يجب أن ينهبأ لمواجهة هذا الخطر، وأنه انتدب عدداً مِنْ الضباط العاملين فِي السراي، والمناطق الوسطى والجنوبية، كي يلتقوا بزملائهم ضباط الشمال، ووضع الخطط المناسبة.

فِي اجتماعه مع الضباط الآخرين، لم يشر الباشا إلى موضوع النقل، فقد كان على يقين أن طلعت بك أبلغهم بعدم وجود نية مِنْ هذا النوع، وإنما ركز على ما يجب عمله لمواجهة القبائل. ولأن الباشا يعرف أغلب هؤلاء الضباط بشكل مباشر، فقد أولى الجوانب الشخصية مساحة غير قليلة، حين تحدث عن ذكريات الشمال، ومعركة الفرات الأعلى. وذكر أغلبهم بوقائع ومواقف شخصية لهم رسخت فِي عقله وقلبه. وكان الباشا فِي لقائه ودوداً، لكن ضمن حدود لم يتجاوزها، كما فعل مع طلعت باقة.

وفِي اللقاءات المتعددة مع ضباط السراي احتل موضوع القبائل معظم الوقت، وبدا لكل مِنْ حضر تلك اللقاءات، أن لها طابعاًعسكرياً خالصاً، بحيث كانت أقرب إلى اجتماعات الميدان التي يعقدها الضباط لوضع خطة وبدائلها، أو لمراجعة معركة واستخلاص الدروس منها. حتى الأفكار التي راودت عدد اًمن ضباط كركوك بعقد صلات شخصية، والاستفادة مِنْ تلك الصلات فِي وقت لاحق، لم تجد تلك الأفكار الوقت أو المزاج الملائم، إذ ظلت بحدود ضيقة!

ولأن اللقاءات التي ضمت الضباط وحدهم فِي بغداد اقتصرت على تبادل الأخبار والمعلومات العامة، فقد قرر الجميع، خاصة طلعت بك، أن يتاح لهم أثناء السفر الوقت الكافي لتبادل الرأي والاتفاق على موقف.

لكن الرأي فِي مثل هذه القضايا مجهد مكلف، وليس مِنْ السهل إبداؤه، أما الموقف، أياً كان، فيرتب نتائج لا يقوى على تحملها إلا الأقوياء.

ورغم أن لدى طلعت بك والآخرين ما يقولونه قبل الوصول إلى كركوك، إلا أن التهيب، وما يشبه الحرج، أو حتى احتمال الاختلاف، ما جعل الجميع يترددون فِي فتح الموضوع خلال المرحلة الأولى مِنْ السفر.

صحيح أنهم كانوا يتكلمون، ويسرفون فِي الكلام، لكنهم بهذه الطريقة كانوا يحاولون الهرب، أو على الأقل تأجيل الحديث حول ما يجب أن يتحدثوا فيه.

انقضى يومان، واستراحت القافلة فِي محطتين، ومع أن الموضوع يخيم كالثقل على الصدر، أو كالقشة فِي العين، فقد تم احتماله أو تجاوزه، وبأعذار يختلقها كُلّ واحد لنفسه؛ أما فِي اليوم الثالث، وما كادت القافلة تستريح فِي محطتها الجديدة، حتى أبلغ طلعت بك زملاءه الضباط بأن لديه ما يقوله لهم فِي هذا المساء، وقبل لقاء الأغا.

ذكر اسم الآغا متعمداً لكي يهيئهم لما سيقوله، لما سيدور فِي هذا المساء، وكما يحصل فِي مثل هذه الحالات: الكلمة الأولى هي الأصعب، إنها بمثابة المفتاح الذي يشق الصندوق إلى نصفين، يجعله مكشوفاً إلى الحد الأقصى، أو ربما مباحاً.

ما إن بدأ طلعت بك، وقد هيأ جيداً لما سيقوله، حتى اكتشف أن لدى الآخرين أكثر مما لديه: لام الجميع أنفسهم أنهم انساقوا وراء الآغا، وأنهم ضُللوا نتيجة المعلومات الخاطئة والتقدير السيئ. وشكر الجميع القدر، وإن بكلمات متفاوتة، ولا تخلو مِنْ بدائية، لأنه أتاح لهم الوصول إلى بغداد ولقاء الباشا، وبالتالي انكشاف الحق وسقوط الأباطيل كما قالوا.

وتبارى طلعت بك وضباطه فِي امتداح صفات الباشا وسلوكه وطريقته فِي الكلام والتصرف، إضافة إلى تفانيه فِي محاولة بناء دولة قوية، وما يبذله مِنْ جهد ووقت فِي سبيل ذلك. وكيف أن هالات زرق حول عينيه دلالة التعب، فِي الوقت الذي لا يفكر الآخرون، وكانوا يقصدون الآغا دون تسميته، إلا بأنفسهم، ومن أجل ذلك يمكن أن يحرقوا الأخضر واليابس، دون أن يرف لهم جفن، ودون أن يشعروا بالذنب.

قال طلعت بك، فِي محاولة لأن يخلق جواً مِنْ المصالحة:

- الله أعلم أن أولاد الحرام وشوشوا الآغا، قالوا له إن الباشا ما يريدك، يغار منك، ويقول عليك كلام مو زين، فانحمق الآغا، وقال لروحه:

اتغدى بيه قبل ما يتعشى بي، وصار اللي صار!

- شغلة نسوان، قال محمود، شغلة روجينا وأمثالها، وباجر إذا وصلته الخلعة والنيشان ووياهم الفرمان، راح يلوم روحه، وباكل أصابعه اندامة!

- ولا تنسوا، يا جماعة الخير، أن الآغا بشر، قال أمجد، البشر مِنْ أيام آدم ونوح، قتل ومقتول، الواحد يقتل الثاني على اللي تسوي واللي ما تسوي!

قال طلعت بك، وبدا صوته حزيناً:

- والمشكلة أن الوالي كُلّ همه أن شلون تصير الولاية أحسن، أقوى؛ وشلون نواجه المشاكل والمصايب، وغيره يفكر غير شكل!

-قلبي على قلب ولدي وقلب ولدي على الصخر، هكذا قال نجيب، وهو يترنم، كأنه يغني. وتابع بمرح:

- رأيي، يا جماعة، أنْ نسامح، ونقول: عفا الله عما مضى؛ وما دام الباشا راضي على الأغا، وبين يوم والثاني راح يدز له الفرمان، فالمهم هسه أن نحنن القلوب على بعضها، ونبدأ مِنْ جديد.

- هذا اللي راح نسويه وهذا اللازم يصير، قال طلعت، فإذا بقي الآغا معاند نقول له نحن ما علينا وما لنا لازم!

ونام الضباط تلك الليلة، وقد شعروا بالراحة لأنهم توصلوا إلى قرار.

وحين واصلوا سيرهم فِي اليوم التالي، كانت البرودة أقسى مِنْ الأيام السابقة، فغرقوا أكثر فِي ملابسهم الثقيلة، وغرقوا فِي الصمت.

العودة الجماعية للضباط أفزعت الآغا، وجعلته يحار ويضطرب. كيف حصل الأمر، ولماذا؟ هل ندم الباشا ويحاول أن يصلح خطأه؟ هل خاف مِنْ ردات الفعل فتراجع؟ ألا يحتمل أن يكون هذا الإجراء مجرد فخ ليوقع به؟

تطايرت الأسئلة والمخاوف حين رأى الضباط يدخلون إلى القلعة.

كان الوقت بعد العصر وقبل الغروب. لم يصدق عينيه أول الأمر، لكن الهرج الذي رافق وصولهم، ثم أصوات الترحيب والضحكات العالية. لم تترك له مجالاً للشك. كانت الوجوه فِي بداية العتمة، ومن تلك المسافة، غير واضحة بالمقدار الكافي، لكن ميز طلعت باقة، ميزه بالشكل والهيئة، ثم مِنْ حصانه، وكانت وراءه المجموعة تسير بالتتابع، وحسب الرتب.

ما إن توقفت الخيل فِي الساحة، حتى دخل عليه غايب، وكان بادي الارتباك:

- أبشرك... سيدي، ضباطنا رجعوا!

- كلهم؟

ـ أيّ نعم، سيدي!

- ووجوههم تتكلم؟ تقول فد شي؟

- علمي علمك، سيدي، لكن يبين عليهم فرحانين!

وسُمعت الخطوات تتتابع وتقترب، كان الصمت، فِي الممر الطويل الذي يفضي إلى ديوان الآغا، قوياً شاملاً إلى ما قبل لحظات. أما الآن فلا يُسمع فِي هذا الصمت سوى وقع الأقدام وهي تتقدم، وكأنها أقدام سَرية مكلفة

بالقبض عليه وسوقه إلى الساحة لكي ينفذ فيه الإعدام. نظر إلى غايب ونظر حواليه، وكأنه تذكر تلك اللحظات حين كان يقطع الممر إلى غرفة سعيد، ثم فاحت رائحة الدم، وانتهى الأمر بسرعة لم يصدقها. حتى الآن، رغم مرور الأيام، لايزال يعجب كيف أنجز تلك المهمة بسرعة خارقة، وبصمت أيضاً. لولا الذهول الذي أخرس نابي خاتون، وجعلها لا تقوى على رفع صوتها لانفضح الأمر، ووقعت معركة. إن ذلك لو حصل: صرخة أو طلقة، لتغيرت أمور كثيرة!

الصمت الذي يخيم الآن يشبه ذلك الصمت، لكن الفرق أن الرجال الذين يتقدمون الآن هم رجاله، وقد كانوا إلى ما قبل ساعة ضحايا داود، فهل يمكن أن يتحولوا إلى جلادين خلال تلك الفترة القصيرة؟

قالت عيناه، وحركة يده، طالبة مِنْ غايب أن يرى، أن يتأكد، ما إن فتح غايب الباب وأطل برأسه، حتى تراجع، وهو يقول:

- الجماعة وصلوا، سيدي!

ورغم التحية العسكرية، وقد بادر كُلّ واحد بأدائها، وهو يدخل إلى ديوان الآغا، إلا أن الشوق والرغبة فِي معرفة ما حصل، هنا وهناك، ثم الأسباب التي دعت إلى عودتهم، هذه الأمور، وغيرها، حولت الجو بسرعة إلى لقاء أصدقاء، إذ تراجعت الرتب، وزالت الكلفة، كما أخذت تتطاير الكلمات والتحيات، ومعها الابتسامات، التي سرعان ما تحولت إلى قهقهات عالية.

تظاهر الآغا أنّه لم يفاجأ كثيراً، لكنه لم يخف عتبه أنّه لم يسمع منهم خبراً طوال أربعة شهور وتزيد قليلاً. قال حين بدرت أول فترة صمت:

- ترى آني هوايه عتبان عليكم، لأنْ نشفت حلوقنا وطقت مرارتنا ونحن ننتظر منكم خبر، وأنتو، الله يسلمكم، لا خط، لا طارش ولا كأنه اكو أحد وراكم!

ورد طلعت باقة، وقد حمل صوته مقداراً كبيراً مِنْ المرح:

- الحق وياك، سيدي، وأعترف، والجماعة يعترفون، إننا قصرنا، لكن...

قال الآغا ليبقى مسيطراً:

-هسه مو وقت العتاب، المهم شلونكم؟ شلون بغداد! وشلون الجماعة هناك؟

وتداخلت الأصوات والإجابات، ورغم الجرس العالي والكلمات الكبيرة، إلا أن كُلّ ما قيل لا يعدو أن يكون مجرد تأجيل لما يجب أن يقال. فالآغا لا يريد أن يسأل قبل أن يحيط بالجو، والضباط يخشون، إذا تكلموا، أن تكون لغتهم

الآن مختلفة، أو بالأحرى نقيض اللغة التي تكلموا بها حين اجتمعوا مع الآغا آخر مرة قبل السفر.

قال الآغا ليخلق جواً مِنْ الثقة:

ـ العادة أن لا يسألوا الضيف إلا بعد ثلاثة أيام مِنْ وصوله، فلاحقين على الأسئلة. وبعدين... صار لكم أيام وليالي وأنتم: دي... دي...

دي ماشين بالتشول، ويعلم الله ما ذقتم لقمة زينة ولا بلّيتوا حلوقكم بقطرة مِنْ ماء الحياة، فرأي، هسه، تروحوا تغسلوا وتستريحوا فد ساعة...

ثنتين وبعدها نتلاقى على العشاء ونسولف!

كان الآغا يريد أن يكسب بعض الوقت، لكي يمتص عنصر المفاجأة، وأن يتمالك نفسه، وأيضاً ليعرف اتجاه الريح. قدر أنّه لا يمكن أن يصل إلى ذلك إلا بتقصي الأخبار، بالاستفراد ببعض الذين يثق بهم أكثر مِنْ غيرهم، بتكليف عناصره لقاء العائدين كُلّ على حدة لمعرفة ما جرى فِي بغداد.

لقد توصل إلى هذا القرار لأن العيون التي كانت تنظر إليه بدت غريبة، مختلفة عن الفترة السابقة. فيها المرح وشيء مِنْ المكر. أنّه يعرف ذلك مِنْ رفة الأجفان، مِنْ طريقة الكلام، ومن هذه الثقة التي تنبع مِنْ الرضا عن النفس. لم يكن ضباطه هكذا عندما غادروا، كانت عيونهم خابية، وفيها شيء مِنْ الانكسار. كانت أصواتهم، رغم الغضب الذي يميزها، تشوبها رنة الخوف، إذ تبدو قصيرة، حادة، ولا تخلو مِنْ رجفة، خاصة عند نهاية مقاطع الكلمات.

قال لنفسه، وهو يودعهم ليستريحوا قليلاً قبل أن يلتقوا على العشاء:

‹‹السكران الكزلي يبين مِنْ حمرة عينه ومن ريحته، وهذول، أولاد الحرام، راحوا بيادة رجعوا فرسان، فلا بد أن داود حسب وضرب وقال لروحه مو اليوم... اللي عقبه، والزمان بينا طويل، لكن ما راح أخليه يتهنا، ونشوف».

وتراءت له صورة داود مِنْ جديد: «يتحمل مثل جمل، يصمت، ينتظر، لكن إذا ظفر بخصمه لايعرف الرحمة، ولا يقبل أية شفاعة».

وعادت الصور تتداعى منذ أن مات سليمان الكبير: كيف ذهب داود إلى البصرة، عازفاً عن أية مشاركة بالسلطة، منصرفاً إِلى الدراسة. ثم لما عاد إلى بغداد، تحول إلى مجاور لسيدي عبد القادر، وتغير بملابسه وطعامه وسلوكه، أصبح واحداً مِنْ رجال الدين، لكن حين شعر أن ساعته قد جاءت ترك المقام وهجر الدفاتر وعاد كما كان أيام سليمان الكبير: لا يفكر إلا بالسياسة، ولا يعرف غير القوة لتنفيذ ما يريد! وتوهم أنّه وصل أو اقترب مِنْ الوصول، إلا أن نابي خاتون كانت له بالمرصاد. والمرأة دائماً قوى، وهكذا هزمته. ولأن لذة السلطة والحكم لم تفارق حلقه، فلم بفعل مثل

المرة السابقة: مجاورة سيدي عبد القادر، والغرق فِي الكتب والدفاتر. ذهب إلى محلة باب الشيخ، جمع مِنْ يستطيع جمعه مِنْ الرجال الأموال وصعد إلى الجبال، وهكذا بدأ معركته مع سعيد!

مرت هذه الصور والمحطات فِي ذهن الآغا، قال بصوت عالٍ، وهو ينظر إلى المرأة، وقد أمن أنّه الوحيد فِي الغرفة:

-لا يمكن للواحد أن يصير والياً وحاكماً، إلا مرة واحدة فِي العمر، فِي تلك المرة إما أن يقبض على الولاية بأسنانه، ويبقى إلى أن يموت، أو ن يصلب ويعلق على شجرة أو يدخل فيه الخازوق!

وعاد ليفكر بداود: ‹‹كان بإمكانه أن يتقدم وأن يتراجع قبل أن يصير والياً، أما بعد أن أصبح الوالي، ويريد أن يبقى فِي الولاية إلى أن يموت، فلا يمكن أن يتراجع، سيبقى يتقدم إلى الأمام. وفِي محطة مِنْ محطات الطريق لا بد مِنْ القضاء عليه، بالقتل، بالسم، بالخديعة أو بالبلطة التي لا تحز الرقبة فقط، بل وتقطعها بضربة واحدة». وهز الأغا يده فِي الفضاء، كانت اليد كبيرة، سميكة، وقوية أيضاً،قال للمرأة بمرح:

- ورقبته تختلف عن رقبة سعيد: رقبة سعيد ثخينة، مليئة بالشحم والقوة والشباب، أما رقبة داود فإنها أشبه برقبة اللقلق: طويلة، مخشبة، والضرية زائدة عليها.

وغايب وحامد اللذان كانا يتحركان مثل الفراشات التائهة، بعد أن اوعز إليهما الآغا بترتيب كُلّ شيء، وقد ابتسم بطريقة معينة، وهو يوجه إليهما الأوامر، بدءاً مِنْ التحضير والإشراف على العشاء، وانتهاء بضرورة التحرك واستراق السمع ومعرفة الأخبار، فقد استمرا يتنقلان بين الأباء وأجنحة الضباط، والتردد على ديوان. الآغا لم يكن الآغا يريد أخباراً سريعة، الأكثر أهمية أن يعرف المناخ العام، أن يتحرى ما إذا الضباط لا يزالون على ولائهم له، يحبونه، أو بكلمة أدق: رجاله، أم أن رحلة بغداد غيرتهم، جعلتهم بشراً مختلفين، ولا بد أن يحتاط ويحذر، إلى أن تأتيه الأخبار مِنْ بغداد؟ ناهي زبانه سيكتب إليه، سيكتب بوضوح وتحديد، وخلال فترة قصيرة، بعد أن خذله هؤلاء الرجال. وسوف تأتيه الأخبار مِنْ مصادر أخرى، وما يعتبر اليوم سراً سوف ينكشف، سوف يُعرف بعد أيام!

قال له حامد، وقال له غايب، أشياء سريعة، أخباراً التقطوها مِنْ أفواه الحرس والمرافقين، لكن الآغا، فِي هذه المرحلة لم يكن مستعداً لأن يرهق نفسه، لأن ينشغل بالأخبار الصغيرة. إنها لا تعني شيئاً مهماً، على الأقل الآن، وقد تشوشه أكثر مما تفيده، قال لحامد بحدة، وكان غايب يسمع:

ـ لا تخبص حالك وتخبصنا وياك، قال فلان وسمعت فلان شي، هذي كلها لاحقين عليها، المهم هسه نعرف شلون نفرزن الصدق مِنْ الكذب، منو بعده ويانا ومنو اللي عبر الشط لذاك الصوب!

ولئلا يساء فهم كلامه، أضاف:

ـ الليلة، ويجوز باجر واللي عقبه، ما أريد أخبار أبد، لأنْ اللي انتظر شهور وأيام يقدر ينتظر كم يوم زايد، فخلونا هسه نشوف دربنا!

ومر يوم ثانٍ والآغا لا يبدي اهتماماً لسماع ما جرى فِي بغداد، طلعت باقة الذي أراد وقتاً ملائماً ليتحدث فِي الموضوع، وجد أن الآغا لا يرغب، أو بالأحرى يشغل نفسه. ويشغل الآخرين بأمور مختلفة.

فِي اليوم الثالث التقى، هو وطلعت، منفردين:

ـ ما أريد أخفي عليك، سيدي، آني رحت لبغداد براي، ورديت مِنْ هناك براي ثاني.

هكذا بدأ طلعت، وقد شاب صوته التأثر. وأضاف، وكانت عيناه تهربان مِنْ عيني الأغا:

وإذاحسيت بالغيرة فد يوم مِنْ الأيام، فما تتصور شقد غرت لما الباشا صار يتكلم عنك...- ابتسم طلعت باقة وهو يحاول أن يتذكر:

- وأصلاً ما يحلف إلا براس الآغا، وماكو عنده بالدنيا أغلى مِنْ الأغا، وما أدري شلون قادر على فراقك!

الآغا يتطلع إليه، رسم ابتسامة وقورة على شفتيه. لا يعرف هل يصدق الكلام الذي يسمعه، أم أن شخصاً آخر غير طلعت هو الذي يتكلم. ماذا جرى للرجل؟ كيف حصل هذا الانقلاب وبهذه السرعة؟ ولئلا يقطع الطريق على نفسه، سأله:

- أيّ... وشنو بعد؟

- وحلف براس يوسف أنّه لو كان عنده بنية بعمر الزواج ما يتزوجها إلا الأغا...

وخلال ساعتين أو أكثر لم يترك طلعت قضية اعتبرها هامة إلا وحدث الآغا عنها. كان يتحدث بانفعال، بتدفق، وكيف أن الباشا أشاد بكفاءاته، بجرأته، بانتصاراته، وانه يشعر بحزن لا يمكن أن يخفيه لبُعد بعض رجاله عنه، وكان يقصد الآغا تحديداً «لكن الشمال يحتاج إلى رجال كالأسود:

شجعان ومجربين، يخافهم القريب والبعيد، وبمجرد أن تُذكر أسماؤهم يدخل الرعب إلى قلوب الأعداء، وهذا ما استدعى اتخاذ قرارات صعبة

وبقاء بعض القادة خارج بغداد».

ظل الآغا يسمع، ولا يكاد يسأل، إذ بهذه الطريقة يمكن أن يفهم كيف حصلت الأمور، وما قد تؤدي إليه. أما لو تدخل، وأشار إلى عيوب داود، أو طريقته فِي التصرف مع الخصوم، فقد يجفل طلعت، وربما تصدى للدفاع عنه، الأمر الذي قد يفتح معركة قبل الأوان. كان يستمع، يهز رأسه، يتذكر، يتساءل، يحاول أن يبتسم، ويحس فِي نفس الوقت أن جروحا فِي داخله تنزف، وأنه فقد الصلة مع أقرب الناس إليه. فها هو طلعت باقة الذي لم يفارقه طوال السنوات الماضية، وكان يحاول أن يقلده فِي كُلّ شيء: طريقة الكلام، الملابس، وحتى الشتائم، ما إن غاب عنه بضعة شهور حتى تغير، أصبح إنساناً آخر. قال لنفسه، وقد خيم الصمت اللحظات: «داود ساحر ولا يبطل سحره إلا السيف».

وطلعت الذي تحدث وأفاض فِي الحديث، كان يخبيء أهم مفاجآته إلى الأخير، إذ ما كاد يجد أن الوقت قد حان، حتى قال، وبطريقة احتفالية:

-... وكان يتمنى لو أنك في بغداد لينعم عليك بالنيشان الأسمى، وبفرمان الترقية، وكنت أتمنى لو أحمل إليك، على الأقل، الخلعة، لكنه قال: كُلّ شيء سيصل للآغا بالطريقة التي تليق بمقامه...

وتغيرت اللهجة، أصبحت مرحة، وهو يُضيف:

- ولا تستغرب، سيدي، أن يصل الكيخيا بين يوم وثاني ليحمل إليك النيشان والخلعة والفرمان!

- ينعم الله عليه ويكثر مِنْ أمثاله!

هكذا ردَّ الآغا، وكان صوته بارداً محايداً، وتابع بنبرة جديدة ذات ووجهين:

ا - منو إلنا غيره يا معود، إنشاء الله نقدر نجازيه!

وسمع الآغا مِنْ الضباط الآخرين تفاصيل عديدة، وان تركز أكثرها حول الخطط التي تمت مناقشتها لمواجهة البدو فِي الفرات الأوسط، وكيف أن الباشا ينتظر الوقت المناسب، ولا بد أن يكون عقب فيضان الأنهار وقبل دخول الصيف، وأن الانتصار فِي الفرات الأوسط سيعقب توطين البدو فِي أكثر المناطق، وبالتالي تتغير الأوضاع فِي كُلّ أنحاء البلاد!

ولأن الآغا لم يشأ أن يناقش هذه الأمور، فقد اكتفى بالاستماع وبأسئلة جانبية حول إقامتهم فِي بغداد، وعن الأسعار وتوفر المواد. وسأل أيضاً عن جو السراي وما إذا حصل تغير فِي مراسيم الاستقبال وملابس الحرس.

ولم ينس السؤال عما إذا قضوا فترة ممتعة فِي بغداد. قال الكلمات الأخيرة وابتسم، وقد فهمت كلماته ما إذا تسنى لهم زيارة روجينا أو رؤية

البنات اللواتي كن معها. وإذا اكتفى الضباط بنظرات تبادلوها، فقد عادوا للتأكيد مِنْ جديد أن معظم الوقت انقضى فِي دراسة الخطط، ولم تتح لهم الفرصة حتى لزيارة الأصدقاء وبعض الأهل!

لم يعش الآغا فترة قاسية مريرة كما هي الآن. لقد تداخلت الأمور واختلطت إلى درجة لا يعرف كيف يتصرف، أو ماذا يجب أن يفعل.

صحيح أنّه أخذ بترتيب أوضاعه العسكرية وكأن هؤلاء الضباط لم يعودوا معه. لكن أن يتحولوا ضده، أن يكونوا مع داود، فهذا شيء لا يحتمل مجرد تصوره أو وقوعه. لقد كان إلى قبل شهور قليلة يحاول التغلب على غضبهم وردات أفعالهم، لأن بعضهم فكر برفض الانصياع لأوامر الاستدعاء، وطالب أكثرهم بإعلان العصيان على داود، وظل يبذل جهده ويحاول إقناعهم، «لأن ساعة التحرك يجب أن نحددها بأنفسنا لا أن يفرضها علينا داود»، إلى أن اتفقوا على صيغة للتحرك والعصيان، حتى لو نُقلوا بطريقة تتلاءم والتحرك العام الذي سيقوده الآغا فِي الوقت المناسب.

وتذكر الآغا الأيام الصعبة التي عاشها، بعد أن أصدر الوالي سعيد حكماً بإعدامه، وكيف تدخل الباليوز لتخفيف الحكم، ثم هربه إلى كرمنشاه. وكيف مرت عليه فترة ظن خلالها أن كُلّ شيء انتهى، وعليه أن يفكر بطريقة مختلفة عن السابق، كأن يعيش مثل أيّ إنسان عادي، دون أن يفكر بالعسكرية أو السلطة. ولكن الأيام لا تتوقف أبداً، إنها تواصل دورانها، وتوزع الفرص والحظوظ، وعلى الإنسان الذكي أن يدرك اللحظة المناسبة كي يتحرك، كي يغادر موقعه السابق، ويلتحق بصيغة قد لا تبدو أول الأمر براقة أو مشجعة، لكن حدساً داخلياً يدفعه لأن يواصل. وهكذا تتألف الأشياء، تلتقي، حيث لم يكن أحد يقدر ذلك مِنْ قبل، وبهذه الطريقة تكتمل الحلقة ويواتي الحظ، وهذا ما حصل معه حين التحق بداورد، ودخلا معاً إلى بغداد.

وعاد يتذكر كيف انتقم مِنْ سعيد، لم يدع أحداً ليقوم بهذه المهمة، كان يريد أن يشفي غليله، أن يقول لسعيد، حتى بلا كلمات، بلا صوت، مِنْ هو الآغا! التقت النظرات لثوان قليلة، لكنها كانت كافية ليدرك سعيد مِنْ هو الآغا، وكيف أنّه قادر على الانتقام!

لا يريد أن يبدد الآن ما راكمه وجمعه خلال الفترة الماضية كلها. يجب أن يكون أذكى مِنْ داود وأشد مكراً، ليوقعه، ليتغلب عليه. قد لا يقتله مثلما قتل سعيد، لكنه سيضعه فِي إحدى التكايا ليقضي ما تبقى له مِنْ عمر هناك.

لن يدعه يفلت كما أفلت مِنْ سعيد، ولن يدع أحداًيراه. ليناجي ربه قدر ما يشتهي، قدر ما يستطيع لكن لن يمكنه مِنْ الاتصال بأحد!

لما تداخلت الأمور إلى هذه الدرجة، ولئلا يتخذ الآغا قراراً يندم عليه فيما بعد، أعطى نفسه فرصة إضافية للتفكير، لإعادة ترتيب الأوراق، وأيضاً مِنْ أجل الاتصال مع كرمنشاه والتشاور حول ما يجب عمله ومتى.

قال لنفسه، وهو يزفر بهم: ‹‹صارت القضية ينراد لها صفنة، لأنْ أيّ خطأ بيه كسران رقبة، ولأن بعد الغرق ما يفيد القياس».

تطلع إلى المرأة، وجد ملامح وجهه مشدودة، أقرب إلى القسوة، ربما دلالة الهم والتفكير معاً، قال بمرح، فِي محاولة لأن يخرج مِنْ هذا الجو:.

- قلنا: فكر زين، بس لا تصفن صفنة زمال، وتحرق الأول والتالي، إفتهمت لو أكرر؟

نهض وهو يبتسم، وقد قرر أن يشهد آخر سباق للخيل فِي هذا الموسم.

ما إن أصبحت الطرق بين بغداد وكركوك سالكة، بعد أن توقفت الأمطار الغزيرة عن الهطول، حتى أمر الباشا بتجهيز موكب على رأسه كبخياه، يحيي بك، للسفر إلى الشمال، لتفقد هذا الجزء مِنْ الولاية، ولتقليد الآغا النيشان الكبير، تقديراً لخدماته!

كان الحرص شديداً كي يأخذ موكب الكيخيا مظهراً كبيراً مهيباً إلى أقصى حد، إذ أراد الباشا أن يُبلغ مِنْ خلاله قوة الدولة وما وصلت إليه مِنْ إمكانية وجبروت، لذلك منح نائبه صلاحيات كبيرة، وزُوده بالمال والخيول والهدايا. كما طلب منه أن يتوقف فِي محطات الطريق الرئيسية، وفِي كُلّ مدينة كبيرة يمر فيها، ليرى الناس بأعينهم قوة الدولة، وكيف أنها قادرة على أن تمنح وأن تمنع، مِنْ يواليها يحصل على الكثير، ومن يعاديها يلحق به الكثير، لذلك على يحيى بك أن يتصرف بطريقة تقول ما هي الدولة.

ولئلا تُترك الأمور للصدف أو للاجتهاد، طلب الباشا استدعاء ناطق أفندي:

-.... وأريدك، يا ناطق أفندي، تخلي حتى الولد ببطن أمه يحس شنو هي الدولة... ومنو هو الوالي داود!

ابتسم قليلاً، لكي يزيل أو يخفف مِنْ خوف ناطق، وتابع:

- وهيبة الدولة، مثل ما تعرف، يا ناطق أفندي، خد وعين، نوبة تظهر وينشاف كُلّ شي، والثانية تعبر مثل برق السما، حتى الأول ما ينسى اللي شافه، وحتى الخيال يظل يشتغل بقلب الثاني. بالليل وبالنهار!

وناطق أفندي الذي سمع، ورغم وضوح كلمات الباشا، لا يعرف كيف يمكن تجسيد هذه الطلبات. فما لم يقله لسانه قالته العينان، لاحظ الباشا ذلك، سأله بمداعبة.

-ها... ناطق أفندي، افتهمنا لو نعيد؟

- مفهوم باشا، وما يصير إلا اللي يرضيكم، سيدي.

-وهذي ينراد لها فلوس، مو هالشكل؟

بليا فلوس، باشا، كُلّ شي ما يصير!

- وشلونك إنت ومكَدي اليهود؟

تطلع ناطق أفندي بعينين متسائلتين إلى الباشا، وظهرت ابتسامة تقع بين الود والتساؤل. تابع الباشا:

ـ ما عرفت منو هو مكَدي اليهود؟

-...

- نادر، نادر أفندي قندقجي، لو أنت وياه موخوش؟

- نادر أفندي، يا باشا، يخاف مِنْ ردَّ السلام، لأن بباله ورا كُلّ سلام جر فلوس، ولهذا السبب يقول: ما أريد مِنْ أحد حتى المرحبا!

- زين... زين، الفلوس خلف يتكفل بيها، بس أريدك أنت تتكفل كُلّ شي بالسفرة: شوكت الكيخيا يقوم، وشوكت يقعد. المن يستقبل قبل اللاخ، شنو اللازم يتسوى اليوم وثاني يوم. متى تعرض الخيول. متى تقدم الهدايا، لأن الناس بعيونهم يفتهمون ويقتنعون. ولهذا السبب لازم كُلّ شي يكون محسوب ومعلوم، أفتهمت كلامي؟

مرت صور كثيرة فِي مخيلة ناطق أفندي، ولأنها بهذا المقدار فقد شعر بالرهبة، قال وخرجت كلماته مضطربة:

ـ أريد فد أسبوع، يا باشا، حتى أضع خطة الحركة، وأريد كوكبة للطليعة، وهذي تكون قبل الموكب، حتى نتحضر زين. وتعرَف الأوادم اللي راح نلقاهم.

وأوعز الباشا بأن تتحرك «كوكبة المقدمة» قبل ثلاثة أيام مِنْ الموكب.

كما قام التاتار بإبلاغ كُلّ نقطة على الطريق بقرب قدوم الموكب، وضرورة الاستعداد للقائه. وفِي حديقة السراي المطلة على دجلة، كان الاجتماع الأخير بين الوالي ونائبه، وقد قام الباشا بإعطاء آخر توصياته:

.... وهذول البدو، وأنت تعرفهم كلش زين، نفسهم حامضة.

الكلمة بالنسبة لهم تعني الكثير، فطول بالكم عليهم، إسمع منهم، إسمع الكثير، وهذا يفرحهم، ودائماً اسألهم ولا تعلمهم، لأن الواحد منهم يظن روحه لقمان زمانه... ويجوز أعلم...

وبعد قليل: وبهذه الديرة أكثر مِنْ أيّ مكان: الجماعة ينتخون، ويتشيمون، فإذا تريد تكرم واحد تنظر لعيونه وتبتسم، وتخاطبه باسمه: يا أبو فلان.

هز رأسه أكثر مِنْ مرة وكأنه يتذكر:

-أما الخيول بالنسبة لهم فهي مثل أولادهم وأعز، ولازم تعرف هذي الخيول مِنْ أيّ صلب، مِنْ هي الأم ومن هو الأب. وإذا أهديت أحدهم فرس أو حصان تعرف شلون تختار، وتتأكد أن هذا اللي أعطيته كان يتمنى هذه العطية.

شرب مقداراً كبيراً مِنْ عصير التوت، الذي يفضله، وتابع، فبدا صوته مختلفاً:

-وطلبت مِنْ الجماعة بالسراي أن يخصصوا لك عدداً مِنْ الخيول، ومعها سواسها، ومعك وقت طويل تعرف أحسابها وأنسابها، وقلت الجاسر الروضان يكون قريباً منك، وهذا بالخيل مثل مالك بالخمر، يعرف كُلّ شي عنها. وقلت لكوكبة المقدمة أن يوافوك بالمعلومات كُلّ يوم بيومه، وتتشاور مع الجماعة: أيّ حصان يقدم لفلان، وأي حصان يقدم لفليتان!

وتغيرت اللهجة مرة أخرى:

- وتعرف يا يحيى بك: الشمال مثل كورة الزنابير، ومثل سوق هرج، كُلّ واحد ناصب للثاني نوجة، وكُلّ واحد يريد يبيع ويشتري قبل غيره، حتى يحصل أكثر مِنْ غيره، ونحن، بهذي الأيام لا نريد نبيع ولا نريد نشتري، وبدا ما يشبه القلق فِي صوت الباشا، وفِي ملامحه، وهو ينقر على طرف الكرسي الذي يجلس عليه، ويريد مِنْ نائبه أن يدرك بعمق ما ينتظره مِنْ مصاعب:

- والأغوات، وهذا راح تشوفه بنفسك، ينقسمون إلى قسمين: جماعة ينحطون ببطن العين، خوش أوادم، يخافون الله، ويعرفون الرحمة والشفقة؛ وجماعة يسرقون الكحل مِنْ العين، الواحد منهم يريد المال ولو مِنْ إبليس، وما يفكر إلا باليوم العايش فيه، وهذول يتكلمون بلسان العصفور: يشقشقون، يضحكون وما تريده بالكلام يصير، لكن إذا درت ظهرك: هذا حدنا وياك، ينسون ما قالوه مِنْ كلام، ويدورون على مِنْ يدفع أكثر!

فِي لحظة ما أحس الباشا أن كلاماً كهذا لا يقال لواحد مثل يحيي بك، إذ بالإضافة إلى موقعه، فقد خبر الحياة، وعرف الكثير. صحيح أنّه لم يمكث طويلاً فِي الشمال، لكنه اهتم بعدد غير قليل مِنْ الأغوات، وعرف طبائعهم ومشاكلهم، كما عرف الظروف والعوامل التي تؤثر بهذه المنطقة.

قال، وقد لاحظ جو الصمت الذي خيم فجأة:

- أكثر اللي تقوله ببالي يا باشا، ودائماً أقول لروحي: مثل أهل الشمال بالدنيا كلها ما تلقى: ناس طيبين، على باب الله، عندهم نخوة وسباع، وبالشغل مشغولين، لكن حظهم مو زين، والحق مو عليهم، الحق على الأغوات وبغداد، فلو كان آغواتهم غير آغوات، ولو بغداد غير شكل، كانت الدنيا بألف خير.

كان الباشا ينظر إليه ويهز رأسه، ولا تُعرف هذه الهزات إن كانت موافقة وتأييداً أم شيئاً آخر، ولئلا يساء فهم الكلمات الأخيرة التي قالها، أضاف يحيى بك بسرعة:

- بغداد مِنْ أيام أبو ليلة، واللي جوا بعده، وحتى أيام المرحوم سليمان الكبير، وإلى أيامنا هذي، ما تتذكر الشمال إلا: دزوا لنا ألف خيال؛ صار عليكم هالقد ألف كيس مال متأخر؛ حضروا حالكم لفلان شي...

وتغيرت النبرة، صارت قاسية:

- وإذا بغداد ما تذكرت هم يذكرون بحالهم: ما نريد. ما ندفع. مالكم شغل بينا، وبعدها يعلنون العصيان، وتعال أخلص: إما ما تقدر توصلهم أو إذا وصلت: انهزموا، عبروا الجبل، وطفروا النهر، وهناك ينتظرون، حتى تدير وجهك، أو يجي البرد، ورجعوا نوبة ثانية، ورجعت المشاكل مِنْ جديد!

قال داود بلهجة أبوية:

ـ ما قلته، يا يحيي بك، حقيقة، والعاقل لازم يواجه الحقيقة فِي يوم مِنْ الأيام، وأنا ببالي هذي المسألة، ولازم نحلها فِي يوم ما هو بعيد، لكن البدو، والناس وراء الحدود، مِنْ هذه الجهة ومن الجهة الثانية، ما تركوا لنا فرصة...

كاد يتابع، لكن يحيى بك قال بطريقة فخمة:

- وآني، إنشاء الله، بهذه الزيارة، أتعرف أكثر، أسأل وأتقصى، وبرجعتي أبسط قدامك الكبيرة والزغيرة، وبعدها الله يقدرك على فعل الخير!

- فعل الخير فرض عين، وما هو فرض كفاية يا يحيى بك، وبقدر ما مطلوب مني مطلوب مِنْ غيري. صحيح أن الوالي مسؤوليته أكبر، لكن الوالي بلا رجاله ومساعديه، بلا الناس العقلاء والموثوقين، ما يقدر يحل كُلّ المشاكل.

بعد قليل، وبعد أن شرب ما بقي فِي كأسه مِنْ شراب التوت، وكأنه أراد أن يمنح نفسه فسحة مِنْ الوقت، أضاف. وهو يبتسم:

-المهم فِي هذا الوقت، يا يحيى بك، أن تكون بغداد هي المرجع، وهي صاحبة الشور والقول، وأية قضية لها حل مع بغداد، لأن بدون بغداد @@@ لا يمكن الوصول إلى نتيجة. والشي الثاني: لازم العقلاء، هنا وهناك، يعرفون

أن مِنْ يبيع مرة يبيع كُلّ مرة، فكل ما نريده الوقت، أيّ نعم الوقت وحسن النية.

ردَّ يحيي بك، وكان نزقاً:

-لكن الجماعة هناك، يا باشا، ملوعين، سمعوا هوايه، لكن قبض ماكو!

-مو بس وحدهم الملوعين. منو ما تلوع؟ منو ما طلعت روحه ألف مرة؟

أخذ الباشا نفساً عميقاً، ونادي، كان فيروز يقف فِي الزاوية البعيدة، وعيناه تنتظران إشارة مِنْ الباشا، ومثل البرق أصبح بين يديه:

ـ هنا بالسراي، ومن أيام المرحوم سليمان الكبير: إذا راح الشربت تجي القهوة، وإذا راحت القهوة يجي الشاي، حتى الواحد يقول: بس؛ فشنو لازم نكَدي، نطلب بلساناتنا القهوة والشاي والشربت؟

ـ اللي تريده حاضر، باشا، بس أنت أؤمر!

- ها... يحيي بك، شنشرب؟

ـ اللي تأمره، باشا.

- هاتوا شربت وهاتوا قهوة!

كانت هذه الاستراحة القصيرة كي يستجمع الباشا نفسه، وكي يقول ما يجب قوله الآن، ومن أجل هذه الرحلة تحديداً. قال ليخلق جواً جديداً:

ـ إذا الله مذ بعمرنا، وأعطانا الصحة والعافية، وإذا أولاد الحلال أعطونا الفرصة والوقت الكافي، وما دام الشمال بجهودك، وبتوفيق مِنْ الله، راح يخلص مِنْ المشاكل، فما تمر سنة والثانية إلا ونشوف عراق غير شكل!

- شكراً على الثقة يا باشا، والله يقدرنا...

وبعد قليل، وقد شعر بالعبء:

- روحة الشمال، يا باشا، استطلاعية، رحلة تعرف، وإذا عدنا بالسلامة، إنشاء الله، الصورة تكون أكمل وأوضح. أحط بين أيديكم كُلّ المعلومات وأنتم تقررون!

- ولازم تعرف، يا يحيى بك، أنت بهذي الرحلة: الوالي والولاية، أنت الحاكم الناهي، وماكو أحد أكبر منك...

ابتسم، هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

ـ يعني أنت الأول والأكبر، أنت مِنْ تمنح النيشان فِي كركوك، ولا حاجة لأن أقول أكثر!

نادر أفندي، مثل عادته، عندما توالت عليه الطلبات، سقط مريضاً.

فإذا كان للحرب ما يبررها، ويضطر للصرف بعد المماطلة والتأجيل، ومحاولة اختصار بعض التكاليف، لأن الغنائم سترد عليه أضعاف ما دفع، فإن هذه الزيارات، بالإضافة إلى عدم جدواها، ترتب أعباء لا يقرها عقل ولا يقبل بها صاحب ضمير، كما يقول، ولذلك فإن رفضه يكون صارماً، مزاجه يكون حاداً. فإذا لم يستطع منع هذا «الجنون» مِنْ خلال الرفض، إنّه يلجأ إلى الغياب، إذ يغادر السراي لأسباب واهية أو يحبس نفسه فِي نرفته لا يغادرها، ولا يجيب على النداءات أو على طرق الباب، وقد مرض فعلاً!

الوحيد الذي يعرف كيف يتعامل مع نادر حين يبلغ هذه الحالة:

خلف. يقف فِي مواجهة غرفة نادر، وبعد ثلاث طرقات، بإيقاع معين، وقد اتفقا عليها، وهذه كافية فِي الأحوال العادية لأن يفتح الباب، فِي الوقت الذي يتعب الآخرون مِنْ الدق والنداء دون أن يحفل نادر، أو أن يكلف نفسه مجرد معرفة الذي يقف على بابه، لأنه على يقين أن لا أحد يريد أن يزوره، أن يتجاذب معه أطراف الحديث، ناهيك عن الاطمئنان على صحته، بل كُلّ واحد يطالب بالمال، ولكل واحد أسبابه، ولديه الحجة أو السند بطلب المال. ونادر يكون فِي حالة مِنْ الفرح، وقد يصل الفرح إلى حدود الغبطة، عندما يرغم الآخرين على تأجيل المطالبة أو نسيان الديون!

فِي الأحوال العادية، تكفي طرقات خَلَفْ المنعَمة لأن يفتح الباب، أما عندما يحس أن الطلبات تزايدت أو بلغت حداً كبيراً، فإن الطرقات لا تجدي، ويحاول خلف بصبر ومداعبة أن تبقى الصلات بينهما ودية، قدر الإمكان، فيمهله، لكي يفسح له المجال أن يفكر بهدوء، بروية، وبالتالي أن يدفع ما أمر به الباشا. فإذا جاءه المرة الثالثة، الأخيرة، ولم يفتح بعد تلك الطرقات، يضع خلف فمه فِي فتحة الباب الصغيرة ويصيح:

ـ مِنْ خلف إلى نادر، وخلف ما هو خلف، خلف اللي دزه الباشا...

يستريح قليلاً، ويتابع بصوت جديد، ولا يخلو مِنْ حدة:

ـ إعلم يا نادر أنّه ما على الرسول إلا البلاغ، فإذا ما انفتح الباب راح يتصخم وجهك، وأُعذِر مِنْ أنذَر...

يظهر فِي إطار الباب وجه غير حليق، شديد الانهاك، والهالات الزرق حول العينين. وكُلّ مِنْ يرى نادر فِي تلك الحالة يشعر نحوه بالشفقة فعلامات الإعياء واضحة، وربما يكون مريضاً فعلاً، خاصة حين يخرِج الصوت ضعيفاً مسكيناً:

ـ ليش ما تخلوني أموت وأخلص، عيني خلف، لو تردون تحرموني حتى مِنْ راحة الموت؟

يبتسم خلف، يضحك، وبعض الأحيان يقهقه، كصيغة للمواساة، وبعد أن يتملى وجه نادر أفندي، يقول له بغل:

ـ لك ما تصير آدمي؟ ما تبطل هالمكسرات؟

ـ ما تشوفني وجعان، دادا خلف، ما تقول خطية؟

- موتة أبوي، لأنك أنت تحب ترزل روحك، وما تجي إلا بالعصا!

- هاي آخرة الخبز والملح... خلف؟

ـ عاب هالخبز اللي أكلناه سوية، لأن ما بيه ملح!

. وهسه... شتريد مني؟

- لنفسي، كُلّ شي ما أريد، مسامحك بالأول والتالي، لكن سودت وجوهنا قدام الباشا: كُلّ دقيقة يسأل: وينو نادر؟ خلص اللي طلبناه منه؟

كُلّ شي تمام مثل ما ردنا؟

وتتغير لهجة خلف:

ـ وما دام أولها وتاليها راح تدفع، فليش ما تجي بالهلا والمرحبا بدل الكفخة وجرة الأذن؟

ـ أنت توافق على كُلّ هذي الطلبات اللي ما يقبلها عقل، دادا خلف؟

ـ لك أنت دافع مِنْ جيبك فد شي؟ إدفع وما عليك!

- قلبي ما ينطيني، عيني خلف...

وحين يبتسم خلف هزءاً وسخرية، يتابع نادر، وتكاد تخنقه العبرة:

ـ بالقرعان ما أقدر. أتمرض، أسخن، أموت، تريدني، أموت؟ هاي الله يقبلها؟ أنت تقبلها؟

، يزفر خلف بغضب. يتطلع إليه ملياً، وتخرج الكلمات أقرب إلى شتائم:

ـ لك مية نوبة قلت لك: تشاقى ويا كُلّ الناس، ويا الباشا لا تشاقى...

وتتغير النبرة، تصبح ناصحة:

- شلون الله يقول كن فيكون، هالشكل الباشا، ماكو أحد يقدر يقول له لا، ماكو أحد يقدر يقول أقبل وما أقبل...

وتتغير النبرة مرة أخرى:

- وأنت، يا نادر أفندي، مو جديد بهالشغلة، وتعرف الباشا كلش زين، فليش تريد ترزل حالك: تتمرض، تغيب مِنْ الوجه، ما تريد تشوف أحد،

وبعدين تزوع الأول والتالي، وهمين تاخذ تمني؟ ما تفهمني؟ ما تقول لي ليش هالشكل تسوي؟

- وهسه... شنو لازم اسوي؟ شنو المطلوب؟

- عندك مِنْ هسه للظهر، القايمة اللي وصلتك مِنْ ديوان الباشا تكون حاضرة لآخر بارة!

- راح أسوي اللي الله يقدرني عليه، بس أريد موافقة عزرا أفندي، أريده يكون كفيل!

- رجعت حليمة لعوايدها...؟

وبغضب أقرب إلى الحقد، أضاف خلف:

- يا معود، يا ابن الأوادم، لا تخليني أقول عليك كلام تزعل منه وبعدين تنلاص بيني وبينك.

- زين... زين مِنْ هسه للظهر تنقلب ألف عمامة!

ـ الحق علي، آني أبو العقلين، احجي ويا أوادم عبالي يفتهمون، يقدرون، لكن...

استدار خلف، تاركاً فِي إطار الباب شبحاً لا يقوى على الدخول، ولا على الخروج، قال وهو يتحرك:

ـ إذا قال الله أكبر، وما جيت على رجليك للديوان فلا تلوم إلا نفسك!

قبل الظهر بقليل، كان نادر أفندي يمشي وراء عزرا، وهما يدلفان إلى ديوان الباشا. كانت الأنظار مركزة، بالدرجة الأساسية، على نادر، بعد أن عُرف كيف ادعى المرض، وغاب عن الأنظار خلال الأيام الماضية، فِي محاولة لأن يختصر جزءاً مِنْ القائمة التي وصلته مِنْ ديوان الباشا، وكانت تلك القائمة تحمل الختم والتوقيع، وقد سلمها خلف بنفسه.

كان نادر أفندي أصفر الوجه، يمشي كحزمة حطب رخوة، عيناه تحاولان تجنب نظرات الآخرين، ويداه تحملان كيساً كبيراً مِنْ الخام الخشن.

ما إن أبلغ الديوان أن عزرا أفندي يود رؤية الباشا، وخلال دقائق الانتظار، وحين قيل لعزرا أن الباشا بانتظاره، سلم نادر أفندي الكيس إلى خلف، واستدار عائداً إلى الجزء الآخر مِنْ السراي!

خلال اللقاء القصير الذي تم بين الباشا وعزرا، كان الحديث يدور، بعد أن أشير لتأمين كافة طلبات الديوان، حول ضرورة أن يرافق موكب الشمال عزرا أفندي، أو أحد كبار مساعديه، ليحصل الضرائب المتأخرة المستحقة على هذه المنطقة، خاصة وأن اسطنبول بعثت عدة رسائل تطالب فيها

بضرورة دفع ما يستحق لها قبل انتهاء السنة، وأن التجار الذين تتعامل معهم بغداد فِي مقر السلطنة رفضوا الدفع ما لم يتم التحويل الرسمي.

كان الباشا حاسماً فِي رفضه لاقتراحات عزرا. ولئلا يغضبه، قال وهو يودعه:

-ومثل ما تعرف، يا أبو يوسف، بالعرس الناس يهنون، وبالعزا الناس يعزون، وعرس وعزا ما يجتمعون سوا...

وطبطب على كتفه، وكان يبتسم، وأضاف:

- وبعدين نريد لروحتك هرجة ولازم كُلّ الناس تدري أن عزرا أفندي جايهم. أما إذا رحت مع يحيى بك فما راح ينعرف عرس أو عزا، واللي عمدهم فلوس مثل الطير النكري، قبل ما توصلهم، توصلهم الأخبار وينهزمون!

وقبل أن ينتصف نيسان تحركت ‹‹كوكبة المقدمة»، وبعد ثلاثة أيام بدأ الموكب مسيرته نحو الشمال، وكان أشد الناس قلقاً فِي هذا الموكب هو ناطق أفندي، الذي كتب أوراقاً كثيرة تتضمن التعليمات الواجب التقيد بها.

أما أشد الناس حزناً فِي السراي، وربما فِي الولاية كلها، فكان نادر أفندي، الذي وقع مريضاً منذ أن غادر ديوان الباشا، واشتد المرض وامتد بعد أن عرف كيف رفض الباشا اقتراح عزرا أفندي أن يكون ضمن الوفد أحد له صلاحية تحصيل الضرائب المتأخرة!

كان قد مضى شهران على عودة ناهي زبانه إلى كركوك، حين وصلها يحيى بك، كيخيا داود باشا، لكي يقلد الآغا الوسام الأكبر الذي أنعم به عليه الباشا، وليسلمه الفرمان مع الهدية؛ وكانت الهدية عبارة عن خلعة مِنْ جلد السمور، وهي فِي العادة لا تمنح إلا نادراً، والذي يمنحها فِي الغالب هو السلطان، يمنحها للولاة، أو لكبار الموظفين والقادة العسكريين.

وإذا كان الآغا وصله خبر النيشان، عن طريق الضباط الذين عادوا مِنْ بغداد، وما قيل عن الحفاوة التي سترافق تقليده لهذا النيشان، فإن السؤال الذي لم يجد له جواباً: لماذا يقوم الباشا بهذه الالتفاتة الآن؟ هل حل عليه الكرم فجأة أم أنّه لام نفسه نتيجة الإجراء بنقله إلى الشمال؟

وناهي زبانة الذي رجع إلى كركوك، بعد شهر قضاه فِي بغداد يبحث ويتحرى ماذا وراء عودة الضباط، ولماذا منحوا الأوسمة، وحقيقة موقف الباشا تجاه الآغا، ثم رأي الباليوز فيما يجب عمله ومتى... عاد ناهي بحصيلة شوشت الآغا أكثر مما ساعدته على اتخاذ موقف ثم الشروع بتنفيذه.

فبعد ليلة الاعتداء على بطرس يعقوب، طَلب مِنْ ناهي أن يكون ضيف السراي، تكريماً له أولاً، وثانياً لتأمين سلامته، خاصة وقد اعتبر أن ما حصل يحمل دلالات أمر خطير، وربما يحمل رسالة مِنْ رجال سعيد إلى الأغا. وقد مال ناهي لهذا التفسير ووافق عليه، لأن الرجال الذين خرجوا فجأة فِي الظلمة قالوا، وهم ينهالون عليه بالضرب: اليوم أنت وباجر سيدك وراح تشوف عينك! وهكذا عاد ناهي برأي حائر رجراج. فالباليوز الذي بعث ببطرس أبلغه، بعد لقاءين، الأول فِي قهوة الشط، والثاني عند روجينا:‹‹ ضرورة التفاهم مع كرمنشاه، وضرورة مشاركة أغوات الشمال، خاصة الآغا واصف عثمان. وسيبذل الباليوز كُلّ قوته وتأييده لأن تكون بغداد معكم».

أما سبب إعادة الضباط إلى كركوك كما قرر ناهي فلأن الباشا لا يستطيع أن يفتح جبهتين فِي آن واحد. خاصة أن عصيان قبائل الفرات الأوسط أصبح أمراً مؤكداً، وقد يمتد العصيان إلى الجنوب كله. ومما يرجح ذلك أن أعداداً مِنْ قبيلة لام انتقلت إلى الفرات الأوسط، ورغم ما قيل عن أن وصولها مرتبط بالزرع والمرعى، فقد فُهم الأمر على أنّه رسائل تأييد، ودعم ومشاركة فِي ما تنوي قبائل الفرات القيام به.

لهذا السبب أعاد الباشا الضباط، ويتوقع أن يكون الرد تأييداً له.

بعد أن سمع الآغا القصص التي جاء بها ناهي مِنْ بغداد ازداد حيرة واضطراباً. فالباليوز الذي كان يدفعه للثورة على الباشا، يطلب منه الآن أن يتفق مع كرمنشاه والأغوات، ويكتفي بالإشارة أن الذين معه سيساندون الثورة بعد أن تقوم. لماذا تغير موقف الباليوز؟ وماذا تعني هذه المساندة إذا كان داود باشا مسيطراً على السراي والقلعة وأبواب بغداد؟ أما الشارع الذي وقف ضد سعيد باشا، وساهم بإسقاطه، فلا يزال موالياً لداود، فهل يستطيع الباليوز شيئاً؟

حتى الأموال التي بادر الباليوز إلى إرسالها مع روجينا، وكان يفترض أن تُرسل مبالغ إضافية، لم يجر التطرق لأمرها البتة خلال اللقاءين اللذين عقدا مع ناهي.

لما أبلغ الآغا بتحرك موكب الكيخيا، يحيى بك فِي طريقه إلى الشمال، وأنه سيكون فِي كركوك مطلع شهر مايس، قال لنفسه: «إذا كان داود باشا ماكراً، وأرسل لي النيشان مع الكيخيا، فيجب أن أكون أكثر مكراً منه›› ولمعت فِي ذهن الآغا فكرة استمالة يحيى بك إلى جانبه «صحيح أنّه ما يقدر يحل رجل دجاجة، لكن المهم أن يكون ويانا، لأنه يفيد باسمه وموقعه، فالتحالف مع القوي يجر الجميع لموقفه، ويسخر الكل لمصلحته، فداود لم يترك لغيره أيّ شيء» وتذكر أموراً كثيرة «حتى أنا لعبني وذبني قشر، أما هذا الطلي فيجوز بكلمتين نجره، وبعدما نخلص، نخليه صورة أو نقول له:

فِي أمان الله» وهكذا قرر الآغا أن يُهيئ ليحيى بك استقبالاً فخماً واحتفالات استثنائية.

قرر الآغا أن يلعب اللعبة بطريقته الخاصة: أن يمد الحبل إلى أقصى حد ممكن، أن يخلق لدى الذين يخافونه الطمأنينة والشعور بالرضى، وأن يزيل مِنْ ذهن داود بشكل خاص أيّ شعور بالخطر، وحتى يتحقق ذلك يضرب، والعادة أن تكون الضربات القاتلة هي الضربات المفاجئة، حيث لا يتوقعها الإنسان، ولا يكون مستعداً لتحملها.

والبداية كذلك: طريقة التعامل مع يحيى بك، ثم إشعار داود، عن طريق رجاله، الموجودين فِي كركوك، بما يجب أن يشعر به!

لقد كان الآغا على قناعة أكيدة أن لداود رجالاً فِي كركوك، وبعضهم داخل القلعة، وربما فِي جميع الثكنات، وهؤلاء ينقلون إليه كُلّ ما يجري، وكُلّ ما يسمعون. هذه قناعة الآغا، وقد ترسخت نتيجة التجربة أثناء حصار بغداد، ثم بعد ذلك. كانت تصل لداود الأخبار لا أحد يعرف كيف أو مِنْ أين. حتى أنّه فِي أحيان كثيرة فجأة يبدل الخطط ويبادر للقيام بأعمال كان إلى الأمس القريب يرفضها، وحين يُسأل لماذا ينفذ الآن ما رفضه بالأمس، يشير إلى أن معلومات وصلته تستدعي ذلك!

قال الآغا لنفسه بنوع مِنْ الحسرة: «داود لعنة، أمكر مِنْ إبليس، ثعلب فِي جلد خروف وما ينصاد إلا مِنْ منقاره. ››وتذكر جملة رددها مرات عديدة الآغا محمود زهاو قبل أيام حين كان يتحدث عن أحد خصومه الأشداء، ومن صفاته الحذر الشديد، أما كيف استطاع التغلب عليه: «مِنْ مأمنه يؤتي الحذر» هكذا قال، وقد وصل إليه عن طريق خادمه الذي كان أقرب الناس إليه!

الآن، وبعد أن تبلورت الخطة الجديدة فِي ذهن الآغا، أبلغ ضباطه وكبار الموظفين ووجهاء كركوك والمناطق المجاورة بقرب وصول الكيخيا. صحيح أن الأخبار بدأت تصل عن طريق المسافرين، لكنها كانت مشوشة فِي البداية، لتعدد الروايات وتضاربها، خاصة وأن التاتار الذين أبلغوا حامد، وسلموه الرسالة، استبقاهم فِي الخان، وطلب منهم أن لا يتحدثوا لأحد حول الموضوع، إلى أن أبلغ الآغا، فأوعز له الأخير، بعد تردد، أن يتابع رجال البريد سفرهم، دون أن يلتقوا أحداً، حتى صاحب الخان الكبير الأسطة رضوان قره غولي الذي كان يريد أن يوصل رسالة لواصف عثمان، لم يتسن له مقابلة التاتار!

حين توصل الآغا للخطة التي قرر اعتمادها، وكطريقة لاستمالة الضباط إلى جانبه بشكلٍ كامل ونهائياً، أذاع خبر وصول الكيخيا، وضرورة الاستعداد

لاستقباله. وتعبيراً عن حسن النية. زار طلعت باقة فِي بيته:

- أبشر يا أبو رامز، قال الآغا، وهسه آمنت وتيقنت!

- الله يبشرك بالخير، آغا، ردَّ، لكن ما تقول لي على شنو؟

ـ الكيخيا والنيشان والخلعة والفرمان... كلهم سوا.

- صدق؟

- وقبل ما يوصل الخبر چنت أقول لروحي: الباشا إذا يريد يفرح واحد چان يقول له: تذكر يوم عرسك!

توقف الآغا قليلاً، وتابع بمرح:

- أما بعد أن وصلت الأخبار، فلازم نسوي استقبال، ونفرح ونغني، حتى يعرف الباشا أن انعاماته تغزر بالعين، وأن الواحد إذا قال لك مرحباً، ترد عليه: مرحبتين!

إلى ذلك الوقت كان طلعت باقة فِي شك، ويحس أنّه محبط، أو كما قال لضباطه، بعد أن قرر مغادرة القلعة إلى بيته فِي المدينة:

- راح افارقكم، يا جماعة الخير، حتى لا العين تشوف ولا القلب يحزن.

ولما نظر إليه الأصدقاء باستغراب وحيرة أضاف:

- صرت مثل معايد القريتين: لا مع سيدي بخير، ولا مع ستي بخير، والأحسن أغيب عن الوجه، لأنها انلاصت علي: نروح لبغداد يقول الباشا كلام نصدقه، ونجي كركوك... اليوم يتذكرنا الباشا، باچر يتذكر، ومثل ما أنتم شايفين: لا خط... لا خبر.

استراح، خيم الصمت على المجموعة التي تتابع كلامه. وبعد أن انقضى وقت غير قصير عاد طلعت للكلام، كأنه يخاطب نفسه:

- أسد الباب على نفسي، أشرب إلى أن أدوخ، وبعدها أحط راسي على المخدة وأروح بسابع نومة، وخلي أهل علي يلطمون على علي!

- وتعوفنا وتمشي، أبو رامز؟

هكذا سأل نجيب نور الدين، الضابط الذي يلي طلعت رتبة، ولم يكن أقل منه حماسة لاتخاذ موقف حازم مِنْ الباشا رداً على النقل.

نظر طلعت ملياً إلى الوجوه، ورد:

ـ حتى ما أخدع أحد، حلفت يمين بيني وبين نفسي: إذا الباشا ما دز النيشان، مثل ما وعدنا، فآني بحل مِنْ كُلّ عهد، ومن كُلّ وعد؛ ويجوز ما يمر شهر والثاني إلا وأذب استعفاء وادور على فد شغلة ثانية!

ورغم شعور المرارة الذي أحس به الضباط، فقد شعروا، وإن يكن بنسب متباينة، أنهم أكثر حرية، وأكثر استقلالاً، إذ يمكن لأي منهم أن يتخذ الموقف الذي يلائمه، الذي يتفق ومصالحه، وقناعاته.

لم يعترض الآغا على مغادرة طلعت باقة القلعة، بل اعتبر الأمر أكثر جدوى، إذ سيتمكن مِنْ التعامل مع كُلّ ضابط على انفراد، حتى مع طلعت باقة ذاته، الذي يعتبر رأس هذه المجموعة، وكان الضباط يلتفون حوله.

فما أن يغيب فترات طويلة حتى يتحرر الضباط، وبالتالي يمكن استعادتهم بطريقة جديدة. وهكذا نشط غايب بشكل خاص فِي لقاءاته مع أفراد هذه المجموعة، وقدم لهم مزايا، على شكل هبات وطلب ترفيع استثنائي. فعل غايب ذلك بكثير مِنْ اللباقة وبشيء مِنْ السرية، لئلا يظن أن فِي الأمر رشوة أو محاباة على حساب الآخرين!

مرت هذه الصور، وغيرها، فِي ذهن الآغا، وهو يزف البشرى لطلعت باقة.

ما كاد طلعت يستوعب ما سمع حتى اندفع يقول للآغا بنوع مِنْ المرح:

ـ مثل ما قال أهل قبل: كُلّ واحد يرده حليبه، وهذا الباشا باشا مِنْ صدق، أعطى كلمة ولازم يوفي بيها، فالله يخلف عليه!

- وأقول لك الصدق يا أبو رامز... كُلّ الأيام اللي مرت، مِنْ يوم رجعتكم إلى أن وصلني الخبر، وآني حاير وخجلان مِنْ نفسي: العيون تباوع علي، وتسأل: وين النيشان؟ شنو نسوك أهل بغداد؟ اشو كُلّ الضباط حصلوا على ترفيع ونواط وأنت ما أحد تذكرك؟

- خلص... فرجت... آغا!

- ولازم بهذي المناسبة نقول للغريب والبعيد، لجماعتنا واللي يعادونا، منو إحنا.

كان الاستقبال الذي أُعِد للكيخيا، فِي بستان الباشا، حافلاً إلى درجة أن كركوك لم تشهد له مثيلاً منذ فترة طويلة. وخلال الأيام الثلاثة التي قضاها الكيخيا فِي المدينة، وزار أيضاً بعض الضواحي، بما فِي ذلك المكان الذي يطلق عليه حديقة إبليس فِي بابا كركر، حيث كانت الأرض ننفث اللهب بشكل دائم. خلال هذه الأيام كانت الحفاوة التي قوبل بها الكيخيا فِي كُلّ وقت، وفِي كُلّ مكان، لا توصف. بل ولام الكيخيا نفسه لأنه لم يكن حسن الظن بالآغا، وكان يأخذ عليه بذاءة اللسان، والسلوك الفظ الذي لا يتناسب مع رجال الدولة. خاصة الكبار منهم!

فِي اليوم الثاني، عند العصر، حين جرت مراسيم تقليد النيشان وتقديم الخلعة والفرمان، لم يصدق الكيخيا ما رأت عيناه: لقد بدا الآغا إنساناً بالغ

الرقة والتهذيب، إذ بالإضافة إلى الدموع التي ترقرقت فِي عينه، وقد رآها الكثيرون، بعد أن تم توسيمه، فإن الطريقة التي استلم بها الخلعة كانت بالغة الاحترام والتقدير، إذ ارتدى الخلعة، وقبل الفرمان ووضعه على رأسه، والتفت إلى الكيخيا وقال:

- يوم لا يُنسى، وتكريم هو الأسمى، لنفتخر أن والينا داود، وأننا نحن له الجنود، الشكر لمن منح ولمن قدم، وطول العمر لمن أعطى ولمن سلم، والعافية لوالينا داود ولكيخياه يحيى، وأنعم وأكرم.

وإذا كان بعض الذين يعرفون الآغا فِي أوقات سابقة قد فوجئوا حين رأوه يخطب هكذا، فإنه شرح بكثير مِنْ المرح والتواضع أن الأيام تجبر الإنسان على أن يتعلم أشياء لم يكن مقدراً فِي البداية أنّه يحتاج إليها، لكن «للضرورة أحكام» كما قال، لينهي هذا الموضوع، وكان يبتسم!

أما أثناء الاحتفال الذي جرى بعد تقليد النيشان، فقد كان الآغا مضيفاً عذباً، ورغم أنّه تحادث بسرعة مع الكثيرين، إلا أنّه خص الكيخيا بالكثير مِنْ الوقت والاهتمام، وشرح أحوال المنطقة، وضرورة أن يلتفت لحل مشاكلها ومساعدة الناس، والذين يشبهون الذهب، كما وصفهم!

استغرب الكيخيا كثيراً ما ترى عيناه مِنْ ود حقيقي يبديه الآغا تجاه الباشا، وهذا التقدير الذي لم يكن يتوقعه أو يتصور وجوده، فالعلاقة بين الاثنين هي مزيج مِنْ الحب والكراهية، الإعجاب والحسد المتبادل، وكان شعور لدى كُلّ منهما أنّه يفتقد شيئاً يجده لدى الآخر، الأمر الذي جعل هذه العلاقة ملتبسة، أو لها وجوه كثيرة متناقضة!

فالباشا حين يتحدث عن الآغا يستعمل أسلوباً زلقاً، يحتمل تفسيرات متعددة، ولا يُعرف بالتالي هل يمدحه أم يذمه، إذ يمكن أن تفهم الكلمات على الوجهين. فهو بقدر ما يشيد بشجاعته، وما يتصف به مِنْ إقدام، إلا أنّه ينهي حديثه بالتأكيد على أهمية العقل، وأنه الهبة الكبرى التي منحها الله للإنسان، وميزه بها عن باقي المخلوقات. أما إذا جرى الحديث عن الرئيس والمرؤوسين، فيلح الباشا على ضرورة التواضع والبساطة مِنْ الرئيس تجاه مِنْ هم دونه، لكنه يستدرك بسرعة أن التواضع لا يعني أن ينجر الرئيس إلى المزاح أو السخرية أمام المرؤوسين، الأمر الذي يحصل بعض الأحيان. أما حين يكون الرئيس بذيء اللسان، ولا يكف عن الشتيمة، فعندئذٍ يسقط بعيون مرؤوسيه أولاً، ثم بعيون الناس!

يقول الباشا ذلك دون أن يشير إلى الآغا مجرد إشارة، لكن يترك لمن يسمع أن يقارن، وأن يدقق. وغالباً ما يتراءى الآغا كنموذج فِي أذهان الكثيرين.

أما الآغا حين كان فِي بغداد، فكثيراَ ما نقل عن لسانه كلام يفهم منه أنّه يعني الباشا، وان يكن بشكل غير مباشر. كان يقول وهو لا يخفي هزأه:

- هذول اللي لاوين رقابهم، ويتظاهرون بالتقوى والمسكنة، وكلمة الله ما توقع مِنْ حلوقهم، ويخافون، أو يخجلون إذا شافهم أحد يضحكون... هذول خاف منهم، وأحسب حسابهم أكثر مِنْ اللي ما يصلون وما يصومون!

وإذا جرى الحديث عن التغيرات التي أجراها الباشا فِي تنظيم السراي، بما فِي ذلك ملابس الحرس، ومظاهر الاستقبال، فالآغا يقول، وهو يغالب الضحك:

ـ ترى يجي يوم، يا جماعة الخير، ما نقدر نطب السراي، إلا إذا قال الواحد منا للحارس كلمة السر...

ويتحول ضحكه إلى قهقهة، وبعد أن يهدأ:

- وكلمة السر مو مثل حجة الفرس... ترى هذي تتغير كُلّ ليلة وكُلّ يوم، ولازم الواحد يثبت أنّه أبو الحصيني وإلا جلده راح للدباغ...

وتتغير لهجته:

ـ إذا كان القصد أن يهابنا الغُرب، فالغرب يعرفونا على البطانة، والحارس والحاجب والبواب كلهم قشمرة، وعلى منو؟ علينا مو على الغريب!

وما يقوله رجال أحدهم يصل إلى الآخر، عن طريق رجاله وعيونه، إذ يتولى هؤلاء نقل ما يسمعون، ويضيفون مِنْ عندهم الشيء الكثير، لتصبح القصص التي تُنقل جديرة بأن تُسمع! ولكي تتزايد وتتراكم الأحقاد.

هكذا يقول الذين يراقبون، لكنهم لا يجرأون على قول ذلك أو تأكيده. حين يرون الاثنين كيف يتعاملان، كيف يتصرف أحدهم فِي مواجهة الآخر، وأية كلمات يتبادلان. إنهما يفعلان ذلك بعفوية، بل وبصدق وحرارة ظاهرين، وحين يصادف أن يكونا مع الآخرين، فإن الباشا والآغا يتصرفان وكأنهما وحيدان: الأسرار التي يتبادلانها، الهمسات التي تتكرر لأن أحدهما تذكر أمراً فاته أن يبلغ به الآخر، ثم العيون التي يقرأ فيها مِنْ يراهما الكثير مِنْ الود.

فُسِر الأمر أن الباشا يكنُ للآغا مودة خاصة. وهي بمثابة الاعتراف بالجميل، ويعزون ذلك لسببين: أن الآغا ترك كرمنشاه بسرعة، ما أن عرف بخروج داود باشا إلى الشمال، وكان له دوره العسكري فِي حصار بغداد ثم فِي دخولها. أما السبب الثاني، وهو الأهم، والذي لا يذكر إلا همساً، فهو قضاء الآغا على سعيد باشا.

أما الآغا الذي طال غيابه عن بغداد، حتى ظن فِي بعض الفترات أنّه لن يراها مرة أخرى، فإن الحقد الذي يملأ صدره على سعيد باشا، لا بد أن يرتد

عليه، وقد يقتله فِي الغربة. لذلك لم يتردد فِي الالتحاق بداود الذي ثار على سعيد، وكان يعتبره الشخص الوحيد الذي يمكن أن ينازل سعيداً والقادر على هزيمته، لذلك عندما جاءت الفرصة ليعود إلى بغداد، عاد، للشوق، ولخدمة الوالي داود!

يقول الآغا ذلك لمن يسأله، إذا جرى الحديث عن الأيام الماضية، ويقوله للكثيرين. لكن الذي يقوله لبعض خلصائه، أن داود، وبعد أيام مِنْ دخول بغداد، بدأ يتغير، وهذا ما يجعله يستغرب ويتساءل. أما الذي لا يقوله لأحد فهو أن الرحلة مع داود انتهت، ولم يعد مستعداً لأن يعمل لحساب أحد، لأن الإنسان، وبعد التجربة، يتغير فجأة ما إن يصبح حاكماً، تماماً مثل الفتاة حين تنتقل مِنْ المراهقة إلى سن النضوج، إذ تتحول بسرعة، تصبح راغبة أن تحمل وتنجب الأولاد بنفسها، لا أن تبقى مربية لأولاد الآخرين، حتى لو كانوا الأخوة، مهما كانت علاقتها أو محبتها لهؤلاء!

قد يكون ذلك حديث بعض الناس، وحديث بعض المجالس، وقد يختلف مِنْ مكان لآخر، مِنْ وقت لآخر، لكن الذي حز فِي نفس يحيى بك: التجاهل الذي أبداه الاثنان تجاهه! صحيح أن كلاً منهما يظهر له الاحترام، إن كان موجوداً، ويقدمه الباشا بحفاوة ظاهرة فِي المآدب وأثناء استقبال الوفود، وقد خصص له جناحاً كبيراً فِي السراي، مع الحراسات والمرافقين، كما أحال إليه عدداً مِنْ الأعمال والمهمات، إضافة إلى الخيول وصلاحيات الصرف، لكن الأمر لم يتعد هذه الحدود.

هكذا تكونت الصورة لدى يحيى عن الاثنين، لكن بعد أن التقى الباشا، ومنذ أن غادر بغداد، تبدو له الصورة مختلفة، وها هي تتأكد أكثر هنا فِي كركوك، خاصة وهو يسمع الآغا ويرى تصرفاته. قال الكيخيا لنفسه: «الواحد بين ناكر ونكير ما لازمه يتدخل أبداً، لأنه إذا فلت مِنْ الأول ما يفلت مِنْ الثاني». ابتسم وأضاف وهو يبتسم: «لأن الحجاز بين المخابيل تصيبه الدفرات مِنْ الصفحتين».

وإذا كان الآغا قد أبدى هذا الاهتمام وهذه الحفاوة بالكيخيا، فإن الضباط الثمانية تجاوزت فرحتهم كُلّ الحدود، خاصة وأن توقعهم وصول النيشان ومعه الخلعة طال أكثر مما ينبغي، حتى لظن بعضهم. أو ربما الجميع، أن الباشا خدعهم، وأنه لم يكن يعني الكلام الذي قاله عن الآغا، عن شجاعته، وضرورة أن يكون معه فِي بغداد، والود الذي يخصه به أكثر مِنْ أيّ واحد آخر.

وقد رافق التأخير الود الكبير الذي أبداه نحوهم الآغا، ومحاولة كسبهم مِنْ جديد، خاصة وأن طريقته فِي الحديث عن الباشا تغيرت، أصبح لها طابع النقد أكثر مِنْ طابع الهجوم. وأشار مراتٍ عديدة أن الباشا لا يتذكر إلا

الناس الذين حوله، أما الذين يرسلون بعيداَ، فبالإضافة إلى الرغبة بتجاهلهم، فإنهم، فِي أغلب الأحيان، يُتركون فِي المنافي إلى أن يموتوا قهراً، أو بسبب النسيان.

وكان الآغا ينتهي مِنْ هذا الحديث بأن يقول:

- والواحد إذا ما رجع لبغداد بذراعه ماكو أحد يقول له: تفضل!

مثل هذه الطريقة فِي التعامل، والإلحاح فِي الكلام إذا لم تلاق قبولاً، فلا بد أن تترك أثراً، أن تدفع إلى التساؤل. وقد استطاع الآغا أن يصل إلى هذه النتيجة، حتى أن طلعت باقة الذي بدا حاسماً ومتحمساً مِنْ أجل «تصفية القلوب» بين الآغا والباشا، كما كان يردد، ما لبث أن شعر بالإحباط، ثم تخلى عن هذه المهمة، وانتقل مرة أخرى مِنْ القلعة إلى بيته فِي المدينة. وقيل إنّه غرق فِي السكر، وبدأ يهذي ويشير فِي سكره إلى مقتل نجمة وبدري، وأن هناك مؤامرة كبرى تستهدف الكثيرين، وسيكون هو فِي مقدمة هؤلاء!

أما الضباط السبعة الآخرون فقد تفاوتت عواطفهم ومواقفهم، غايب الذي نصب الشراك حولهم بإيعاز مِنْ الآغا، وجد أن إمكانية كسبهم مِنْ جديد مسألة وقت لا غير، خاصة بعد أن غادر طلعت باقة القلعة.

قال كبار السن مِنْ أهل كركوك، إن المدينة لم تشهد احتفالاً، كهذا الذي أقيم للكيخيا، إلا يوم وصلها سليمان الكبير بزيارة، وكان فِي طريقه إلى الموصل، بعد أن وافقت اسطنبول على اتباع هذه الولاية لبغداد. وقال هؤلاء المسنون إن احتفالاً كهذا أقيم أيضاً يوم تولى السلطان محمود!

ولم يتأخر طلعت بك فِي العودة إلى القلعة، بعد أن أبلغه الآغا بقرب وصول الكيخيا. قال للضباط الذين جاءوا للسلام عليه:

- يجوز أن الباشا يتأخر، لكنه أبد ما ينسى!

ولما بدت كلماته غير واضحة بالمقدار الكافي:

- مِنْ حلقه لأذني: الآغا مستحق أعلى نيشان بالولاية، ولو كان مِنْ صلاحيتي إعطائه نيشان أكبر، ما كان وقفت دقيقة واحدة!

ولأن الخبر كان قد انتشر، وعرف به الكثيرون، ومنذ فترة طويلة، فقد انصب الحديث حول أسباب التأخر: قيل الأمطار التي قطعت الطرق؛ قيل سفر الباشا إلى الحلة لتفقد القوات المرابطة هناك؛ وقيل إن الباشا كان ينتظر الوقت المناسب لكي يقوم بزيارة إلى مناطق الشمال، وإلى كركوك بالذات، ليقلد الآغا النيشان الكبير، لكن مشاغله وهمومه حالت دون ذلك،

وهذا ما دعاه للتأجيل مرة بعد أخرى، إلى أن اضطر لإرسال نائبه كي يقوم بهذه المهمة نيابة عنه. الذين قالوا ذلك أضافوا بحسرة.

- لو واتته الظروف لجاء بنفسه، لأنه يحب الشمال، ولهذه المنطقة ذكريات فِي قلبه لا ينساها، وأيضاً ليتولى لقاء الصديق الذي له منزلة خاصة عنده: الآغا. لكن...

ويفيد أحدهم، وهو يترنم:

- ما كُلّ ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

لما عاد نائب الوالي، الكيخيا يحيى، مِنْ رحلة الشمال، أبلغ الباشا أن الأوضاع هناك ليست بالسوء الذي افترضه أو توقعه، وأن الأغوات لا يهمهم إلا اليوم الذي يعيشون فيه. وإذا كانت كرمنشاه قد وعدتهم وأمدتهم بالمال، إلا أن المخاوف التي تساورهم، خاصة بعد تجارب كثيرة سابقة، تجعلهم مترددين وشديدي الحذر، الأمر الذي يمكن مِنْ كسبهم وكسب ولائهم مرة أخرى.

أما حين جرى الحديث عن سيد عليوي، والاستقبال الذي أعده له، والحفاوة التي قابله بها، ثم الخطاب الذي ألقاه فِي الاحتفال الكبير، فقد ظهرت على وجه الباشا ابتسامة ساخرة أقرب إلى الاستهجان، مما جعل الكيخيا يتوقف قليلاً ويتلفت، إذ بدت له تلك الابتسامة غريبة، وتحمل أكثر مِنْ دلالة. سأله الباشا مستوضحاً:

- قلت لي أن عليوي وقف قدام الناس وخطب؟

ـ أيّ نعم باشا، وقال خوش كلام!

- وأنت سمعته؟

ـ أيّ نعم، باشا!

- بالعربي خطب أو بالكردي؟

تطلع الكيخيا إلى الباشا بإمعان ليكتشف ما إذا كانت أسئلته جادة أم تخفي شيئاً وراءها، خاصة وأن الابتسامة الساخرة لم تفارق وجهه، وترافقت أيضاً مع هزات رأسه المستغربة، تابع بنبرة جديدة:

- والكلام اللي قاله عنك يا باشا بالخطاب، وبعدين ما قاله بيني وبينه، ما يقوله أخ عن أخوه: محبة وتقدير، وكله احترام، حتى صوته كان يرجف لما يذكر اسمك!

- بارك الله فيه، لكن أتعجب أنّه صار خطيب..

توقف لحظة، عدل جلسته قليلاً، وأضاف بلهجة تذكر:

- تعبنا وياه، ومو يوم واثنين، سنين، ونحن نقول له: لازم تتعود الحديث ويا الأوادم يا آغا؛ لازم تحفظ بعض الآيات ومثلين ثلاثة؛ وإذا حفظت بيتين مِنْ الشعر عال العال، لأن الناس تفتهم وتقتنع بعيونها وآذانها، والكلام مرة بعد مرة يؤثر، يوصل للعقل والقلب، والكلمة إذا دخلت للراس أبد ما تطلع منه...

استراح لحظة، وقد تذكر أحداثاً كثيرة، فتابع:

- قلنا هذا الكلام مرات ومرات، وكان يرد: الله سبحانه لما خلق البشر ما سوى الواحد مثل اللاخ، كُلّ واحد خلقه شكل. وآني مثل نبي الله زكريا: صايم عن الكلام، لي حلق ياكل ومالي حلق يحچي، فخلوني!

- ولأن البني آدم يسها وينسى يا باشا، فأنا كلفت كاتبي، عارف آغا، أن ينقش كُلّ ما ينقال وكُلّ ما يجري، ولا بد يكون بدفاتره ما قاله الآغا، وراح تشوفه بعينك يا أفندينا وتتأكد.

- كلامك يكفي وزود... يا أبو فيضي.

وبعد قليل، وكان يهز رأسه بثقة:

ـ الحاجة تعلم، وللضرورة أحكام، فإذا فاته هذا الدرس هنا لا بد أنّه تعلمه هناك!

ورغم أن الحديث أخذ مجرى آخر ثم تشعب، إذ كان الكيخيا مأخوذاً بجمال تلك الديار: الخضرة التي تنتشر فِي كُلّ مكان؛ المياه الباردة التي تتساقط مِنْ قمم الجبال؛ ثم طيبة الناس هناك وبساطتهم، إلا أنهم يجهلون البلاد التي وراء جبالهم، فلم يسمعوا ببغداد واسطنبول إلا كما تُسمع القصص. ولا يحلم أحد منهم بالوصول إلى أبعد مِنْ أربيل وكركوك، ويذكرون مكة بحنين ونشوة، لكن لا يتصور أيّ منهم أنّه قادر على زيارتها، اللهم إلا إذا انفتحت له أبواب السماء فِي ليلة القدر!

وعاد الحديث إلى الآغا، كيف ينظر إليه الناس فِي كركوك، وكيف يتعامل هو مع الناس، وماذا قال عنه الأغوات فِي الأماكن التي زارها.

وكان الكيخيا يعاود ذكر الاستقبال الذي لقيه فِي كركوك: كيف احتشد الناس لرؤية موكبه، الفرح، الخراف التي ذبحت أمام الموكب. ويؤكد مجدداً أن الأغوات سريعي التقلب، دائمي الشكوى، وأنهم يحبون مِنْ يعطيهم، ويكرهون مِنْ يطالبهم بضريبة أو بدين، كما أنهم مستعدون لإنفاق ما لديهم فِي يوم وليلة، دون خوف مِنْ الأيام التالية، شريطة أن تبقى أسلحتهم بين أيديهم، لأنهم على قناعة أن السلاح قادر على جلب المال، أو على الأقل يحميهم مِنْ الذين يأتون لمطالبتهم بالضرائب.

كان الباشا يسمع ويهز رأسه، فهو يعرف أكثر مما يقوله نائبه، وقد خبر الأمور بنفسه، لكن كان يهمه بالدرجة الأولى أن يعرف مزاج الناس، وأن يقدر بالتالي ما إذا حان الوقت لكي يصفي حسابه مع الآغا.

وفجأة سأل الباشا عن الهدايا والخيول، لمن أعطيت، وكيف كان وقعها على الذين أعطيت لهم.

تهلل الكيخيا لهذا السؤال، تحرك بحيوية، ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة، قال وهو يمد آخر الكلمات:

- روحة ابن الروضان وياي بالسفرة، يا باشا، كوم، والباقين كوم!

وأفاض الكيخيا بمعرفة ابن الروضان بالخيول، أحسابها وأنسابها، وما يميز فصائلها، والفرق بين الذكور والإناث، وأيُها يجب أن تعد للسباق وأيها للنسل. كما أشاد بما يحفظ مِنْ قصص الخيل، عن وفائها وذكائها وتحملها، وكيف كان يثير الإعجاب حين يروي هذه القصص، وكيف كان يستعيده رواية هذه القصة أو تلك، ومدى الدهشة والإعجاب فِي نفوس الذين يسمعون! وروى الكيخيا أيضاً كيف أن الآغا أخر سفر الموكب يوماً إضافياً لكي يستعين بابن الروضان فِي معالجة أحد خيوله، ثم محاولاته أن يستبقيه وقتاً آخر، أو على الأقل، أن يأتيه بزيارة فِي زمن لاحق، وتمني لو يبقى عنده بصورة دائمة.

أما عندما أهدى الآغا الحصان مقدام وهو مِنْ أطيب خيول الباشا، فقد كانت فرحته لا توصف، إذ كان شديد الانفعال، بالغ التأثر، وقال إن هذه الهدية أثمن ما تلقى فِي حياته. وتعبيراً عن فرحه وتقديره ركب ذلك الحصان أثناء وداع الموكب، وأصر على مرافقتهم مرحلة إضافية، وكان لا يخفي إعجابه بالحصان وتقديره للباشا الذي خصه به.

وتحدث الكيخيا أيضاً عن الخيول التي أهديت إلى عددٍ مِنْ الأغوات، ومدى الإعجاب والتقدير لهدية الباشا، وكيف أُحلت هذه الخيول بالأماكن التي تليق بها، وأضاف بمرح. وقد مر شريط الذكريات أمام عينيه:

- وما يروح يوم ويجي يوم، يا باشا، وإذا الله سلم الخيل اللي راحت، إلا ونشوف خيلهم صارت مثل خيلنا!

ردَّ الباشا، وقد هزته القصص التي سمعها:

ـ الخيل مثل الطير، يا أبو فيضي، وهذا العراق ما يصير وما يرتفع ويطير إلا إذا توالمت الجناحات، شمال وجنوب، فعسى تكون قُصة خيلنا خير علينا!

ومع أن الكيخيا واصل الحديث عن رحلته، إلا أن أفكار الباشا واصلت رحلتها إلى مكان آخر: ما دام الآغا أصبح أكثر اطمئناناً، وأخذ يقترب تدريجياً مِنْ الفخ، فإن اصطياده أصبح أيسر وأسرع، وهذا ما يجب أن يحصل.

والباشا الذي كلف كيخياه أن يستدرج الآغا بأكثر مِنْ أسلوب، عله يقول ما يفكر فيه. فقد أشار، عرضاً، إلى أن الخمرة يمكن أن تحمله على الكلام والبوح، ولا بد مِنْ أحد لكي يتبرع بمشاركته فِي الشراب، أو على الأقل، استدراجه للحديث وهو شارب. تطلع الكيخيا إلى عيني الباشا بامعان،

ليعرف ما إذا وصل إلى علمه ما يؤكد له أنّه يشرب فِي بعض الليالي، أو أن الأمر لا يتعدى أن يكون طلباً بريئاً!

ردَّ الكيخيا بطريقة تحتمل أكثر مِنْ تفسير:

ـ ما أظنه يشرب قدامي، يا باشا، ومع ذلك راح نشوف طريقة تخليه يزوع اللي ببطنه، ويقول الأول والتالي!

وأوعز الكيخيا لبعض رجاله، خاصة مِنْ الضباط الذين رافقوه فِي الرحلة، ومن الذين خدموا مع الآغا، أن يسايروه، «وان يذبوا بطريقه قشرة لعله يزلق، ويقول اللي بدماغه». ولم يتأخر هؤلاء الضباط فِي نقل كُلّ ما دار مِنْ أحاديث وتصرفات. كان الآغا ميالاً لأن تبقى السهرة فِي جو المرح، لقد كان يضحك بعربدة ويطلب مِنْ بعض رجاله أن يرووا نكات بذيئة، ولم يترد فِي شتم بعض الذين حوله، وان بطريقة تبدو أقرب إلى المزاح! لكن ما ان جاء ذكر الباشا حتى تغير الجو تماماً. صحا الآغا بسرعة، وكأن أصابع مدربه قرصته فِي مواضع حساسة، إذ اكتسب وجهه فجأة ملامح جدية، وتيقظت حواسه، حتى العينان الذابلتان، واللتان كانتا مغمضتين أغلب الوقت، انفتحتا فجأة، ورغم الحمرة الطاغية فيهما، فقد أصبحتا ماكرتين، وهما تتنقلان مِنْ وجه إلى آخر. أكثر مِنْ ذلك، ذكر مدحت صفا، وهو مِنْ الضباط الذين شاركوه الشراب، وحين سأله ما إذا كان راضياً عن نقله إلى كركوك، وهل يحن لبغداد، كانت إجابته ان أوامر الباشا فوق الرغبات، وأنه مستعد للذهاب إلى أيّ مكان يريده أن يكون فيه. وزيادة فِي التأكيد وقف، أحكم تزرير سترته العسكرية، وقال، وكأنه يرد على أمرٍ مِنْ الباشا نفسه:

أمرك سيدي، بس انت تؤمر أفندينا، ثم رفع يده بالتحية!

وتذكر الكيخيا كيف كانت إجابة الآغا حين سأله عن إقامته فِي الشمال. قال له، وهو يرفع يديه فِي الهواء:

ـ الحمد لله والشكر، خلصنا مِنْ السراي وطربقاتها...

أخذ نفساً عميقاً، وأضاف بلهجة مختلفة:

- يوم السراي بسنة يا بك، هنا راسنا مرتاح: أكل وونسة، وشغل ماكو...

وابتسم ابتسامة عريضة قبل أن يُضيف:

ـ على الأقل خلصنا مِنْ البدو وسوالفهم وطلايبهم... كُلّ يوم جايين يهفون، نريد ونريد وتعال اخلص مِنْ هذي الطلايب!

وحين سأله عن أغوات الشمال، ردَّ بمرح:

- هذول.. جماعة على باب الله، إذا ما تحارشت بيهم هم ما يتحارشون. كُلّ واحد منهم ناصب له خيمة مِنْ شجر براس جبل مِنْ الجبال ويغني: يا

ليل.. يا عين، وإذا تعب يصيح أوف، وربعه يردون وراه: أمان.. أمان!

كان الكيخيا على يقين أن الآغا يواسي نفسه، يتظاهر أن نقله إلى الشمال أمر عادي، ربما لاخفاء ما يعتمل فِي داخله، كما لا يريد أن يظهر انه مهزوم أو معاقب.

بعد أن نقل يحيى بك أخبار الشمال، خاصة أخبار الآغا، بدا الباشا مسروراً، فقد أصبح على يقين أنّه يستطيع الآن أن يفعل كُلّ ما يريد، ويتخذ أيّ اجراء، دون أن يقوى الآغا على الاعتراض، أو يبدر منه أيّ ردَّ فعل. وللاطمئنان أكثر، ولمعرفة كيف تصرف أثناء سهرة الشراب، طلب مِنْ الكيخيا أن يأتي فِي اليوم التالي، ومعه مدحت صفا، كبير الضباط المرافقين فِي الرحلة، للاستفسار حول ما تحتاجه الحاميات، فيما لو وقعت معارك عسكرية.

ورغم ان الحديث تركز فِي اليوم التالي حول هذه الحاميات، وما تحتاجه مِنْ عتاد وتموين، فقد سأل الباشا فِي نهاية اللقاء، وبدا سؤاله عارضاً، أو كأنه تذكره فِي آخر لحظة، كيف تصرف الآغا فِي تلك السهرة، والتفت نحو الكيخيا، وهو يقول ويبتسم:

- سهرة الشرب، يا بك واللي قلت ان مدحت أفندي حضرها!

ومدحت صفا الذي احمر وجهه، وتملكه الحرج، إذ نظر إلى الباشا بحيرة، وإلى الكيخيا بعتاب، ولم يكن متوقعاً أن تنقل إلى الباشا مثل هذه التفاصيل الثانوية، ردَّ بعد فترة تردد وارتباك:

- ماكو شي يستاهل، يا باشا، ومثل ما تعرفون: الخمرة، الله يخزيها، تطلق اللسان، تخلي الواحد يهذرف..

صمت قليلاً ثم أضاف:

- وصاحبنا لما شرب صار يفشر ويهذي!

ولم يتأخر الباشا، سأل بانفعال:

ـ أيّ شقال؟

ـ مثل ما قلت لجنابكم، باشا، ما قال فد شي له أهمية، لكن..

وتطلع إلى الكيخيا بحيرة، وكأنه يستأذنه أيضاً، فلما وجده يهز رأسه بالحاح، أضاف:

ـ الشي الوحيد اللي استغربته، يا باشا، أنّه لما كان يتذكر اسم جنابكم كان الآغا يوقف استعداد ويؤدي التحية!

- وصدق لو قشمرة.. تحيته؟

ـ ما يندرى، يا باشا، لكن اللي يشوف عروق رقبته شلون تزرق وايده شلون ترجف بالتمني، يقول: تحية صدق!

قال الباشا، وكأنه يكلم نفسه:

ـ لا بد أنّه تعلم، والبني آدم ما يتعلم إلا مِنْ كيسه!

حين تأكد الباشا أن الطريدة لم تعد تخاف، ولئلا تصبح الملاحقة سبباً لنفورها مِنْ جديد، فقد قرر أن يتظاهر بنسيانها، وأن يلتفت إلى مكان آخر، وهكذا أصدر أمراً بتسمية يحيى بك القرملي قائداً لحملة الجنوب، وأخذ يعد كُلّ ما يلزم مِنْ أجل تحقيق نصر سريع وساحق، وليكون هذا النصر العنوان الكبير لما سيأتي مِنْ الأيام.

وبغداد حين تحس بالحرب، حتى قبل أن تقع، تعتريها حالة مِنْ الترقب والانتظار، ويداخل تصرفات الكثيرين القلق، رغم الثرثرة التي يحاولون إشغال أنفسهم بها، كما أن حزناً شفيفاً يصيب القلب ثم ينتقل إلى باقي الجسد، فيصبح الكبار أكثر تجهماً وصمتاً، وقد يمرضون، إذ تتبدى لهم، مِنْ جديد، الحياة التي عاشوها، وكيف كانت مليئة بالأحزان والخسارات المتتالية، فإذا كانوا قد اضطروا للصبر والتحمل، فكان يراودهم الأمل أن تكون حياة الذين سيأتون بعدهم أكثر يسراً. أما أن يتوالى الموت، وتتوالى الأحزان يوماً بعد آخر، ودون توقف، فلا يستطيعون أن يجدوا لكل هذا سبباً أو ضرورة. إنهم لا يخافون على حياتهم التي تكاد تنقضي، وما تخللها مِنْ تحديات وصعوبات وآلام، وإنما كُلّ خوفهم على الأصغر منهم سناً، بعد أن وعدوهم كثيراً بأيام سعيدة سوف تأتي، وبآمال يتوقعون أن يراها الأبناء والأحفاد بعد أن فاتتهم رؤيتها.

ومع الحزن والترقب، والنزق أيضاً، تظهر محاولات الحرص الشديد، خاصة مِنْ النساء المسنات، وأكثر ما تظهر فِي المأكل واللباس، وكأنها استعداد أو تهيئة النفس للأيام الآتية، وهكذا يلجأن إلى التقليل مِنْ الأكل والشراب، ولا يترددون فِي رفع بعض المؤونة وخزنها فِي أمكنة بعيدة، بل أكثر مِنْ ذلك يملن إلى نسيانها، علها تكون ذخراً للأيام الأكثر صعوبة.

يفعلن ذلك بحرص يزيد بالتدريج، وبحساب يدق مع تزايد الأخبار عن الحرب.

يتوافق كُلّ هذا مع جموح فِي القول والتصرف تجاه الصغار الذين ينظرون بعيون مدهوشة لما يجري، ولا يجدون له سبباً أو تفسيراً. ورغم أن الصغار لا يسلمون بسهولة، ولا يقفون أمام العقبات التي يصادفونها، فيزداد الحاحهم، إلا أن الحزن الخفي الذي يسيطر على الكبار لا يلبث أن ينتقل إليهم يوماً بعد آخر، فيجدون أنفسهم، دون إرادة، وقد امتثلوا للجو الذي فُرض ثم سيطر، لكنهم يزدادون إصراراً لمراقبة ما حولهم، وتتنبه حواسهم لمعرفة ما يجري، ويتساءلون لماذا أصبح الكبار هكذا، ثم لا يلبثون أن يخترعوا لأنفسهم

ألعاباَ تكون الحرب أبرز مظاهرها. وفِي هذه الألعاب يسقط القتلى وتتزايد الضحايا، فيتشاءم الكبار أكثر مِنْ قبل، ويحسون أن الحرب قد اقتربت أكثر مما ينبغي وأكثر مما يحتملون، فتتعالى صرخاتهم، ومعها الشتائم، لمنع الصغار مِنْ مواصلة هذا الفأل السيئ.

أما السوق التجاري الذي كان يمتلئ بالمواد والحركة، وكان يرافق ذلك الود والمرح، وتطغى عليه المساومات، وكثيراً ما تكون مقصودة لذاتها، لاختبار الكفاءة وقوة الاحتمال، فإن أيّ حديث عن حرب وشيكة يغير مزاج السوق، بل فِي أحيان كثيرة يقلبه رأساً على عقب. يصبح التجار شديدي الحذر فِي البيع والشراء، كما تصبح كلماتهم قليلة وخالية مِنْ أيّ ود، ويميلون إلى الحزم والاختصار، وتختفي الابتسامات مِنْ الوجوه، ويحل مكانها الحزم الأقرب إلى العداء: «اشترِ أو امشِ يا معود، خلينا نشوف دربنا».

ويوماً بعد آخر ترتفع الأسعار، وتنفقد المواد، وتتحول الحركة مِنْ النهار إلى الليل، إذ كثيراً ما تنتقل البضائع مِنْ المتاجر إلى المخازن، وقد تُستعمل البيوت مخازن إضافية. كُلّ ذلك يجري بحرص، وبكثير مِنْ السرية والحذر، وغالباً تحت جنح الظلام، لكي لا يرى أحد ما يجري، ولئلا يعرف أحد ما يُدبر.

بل أكثر مِنْ ذلك، بدأ عدد كبير مِنْ التجار يلبس ثياباً قديمة، استخرجوها لا يعرف مِنْ أين، بدل الملابس الجديدة الفاخرة، الزاهية الألوان، التي تعودوا ارتداءها فِي أوقات سابقة، وكانوا يفاخرون بها.

فعلوا ذلك لكي لا يُطمع بهم، كما قالوا لأنفسهم، وكذا قالوا للأقارب والأصدقاء. كا عزفوا عن ارتياد مقاهي السوق أول الأمر، ثم ما لبثوا أن أدمنوا على الجلوس فيها، خاصة بعد أن فرغت المتاجر مِنْ مواد كثيرة، وقل البيع والشراء. جلسوا فِي المقاهي، مع مسابحهم الطويلة، ليتسقطوا الأخبار، وليعرفوا ما يدور فِي السراي، كي يوازنوا البيع مع توقعات الأحداث، وما يمكن أن تحمل مِنْ مفاجآت واحتمالات.

ساسون الذي غاب عن الأنظار فترة طويلة، ثم ظهر بعد المصالحة التي تمت بينه وبين عزرا، وما أثير حول ذلك مِنْ إشاعات ولغط، خاصة المبالغ التي دفعها للوالي، وما تنازل عنه لعزرا... ظهر ساسون مجدداً فِي السوق، وبدا أقوى مِنْ أيّ وقت سابق. قال الذين يعرفونه: «ساسون بربوق، أبد ما يغرق، وعظمه كله ذهب؛ وهو مو بس أغنى مِنْ قارون، حيال ويعرف شلون يخطف العظمة مِنْ حلق السبع.» وقال بعض الذين تعاملوا معه:

«ساسون مثل حية التبن، يعرف شوكت يضم راسه وشوكت يطلعه، فالله يستر» ونُقل عن أحد موظفي السراي أن الوالي التقى بساسون أكثر مِنْ أيّ شخص آخر فِي الأسابيع الأخيرة، وكلفه بتأمين كُلّ ما يلزم الجيش مِنْ

مؤن» وما أكد هذه الأخبار أن ساسون اشترى مطحنة صادق الدجيلي، وأخذت هذه المطحنة تعمل، دون توقف، ليل نهار، لتأمين احتياجات العسكر، بعد أن كانت متوقفة. قال صادق الدجيلي، بعد شهرين مِنْ هذه الصفقة:

ـ الدنيا مو بس حظ، حظ وشطارة، وهذا ابن الحرام، ساسون، ما اشترى إلا بعد ما شافني واقع. وآني، لأني زمال، وبدل ما أثقل روحي، وأقول أريد وما أريد، ذبيت نفسي: يا معودين.. تعالوا، اشتروا، بس أريد أخلص، وهالشكل راحت المطحنة، وهمين فلوسها راحت بول بشط!

أخذ نفساً عميقاً، وأضاف محدثاً سلمان البياتي الذي نصحه ببيع المطحنة:

ـ إحنا الإسلام، أبو ثامر، عقولنا مثل العصافير، ما نفكر إلا بيومنا:

آني ضجت مِنْ المطحنة وأنت قلت: بيع؛ آني خسرت، وأنت قلت پيزي خسارة. أني قلت هالكثر وتعالوا شيلوا، وابن اليهودية يقول هواية ما أريد؛ وبعدين بعناها برخص التراب، ومثل ما يريد، وفوقها قلنا له:

تشوف الخير، ورب العالمين صدق الكلمة اللي قلناها مِنْ طرف اللسان، وقال لساسون: خذ يا عبدي، بس أحمد واشكر!

قال سلمان البياتي بحسرة:

- كُلّ شي بالدنيا، يا أبو عبد الله، قسمة ونصيب، والواحد ما ياكل إلا الخبزة اللي قسمها الله، فلا تدير بال، ولا تخلي الندم ياكل فؤادك.

- هسه كُلّ شي راح، لكن ليش ما سألت روحي: أكو بالدنيا يهودي يدور على فد شي طايح حظه ويشتريه؟ ليش ما قلت له: أبيع النص وأخلي النص ونصير شراكة؟ ليش ما قلته له: أكريها كروة، سنة، خمسة، وبعد ما تخلص المدة نشوف؟

وبعد أن هز رأسه عدة مرات تابع بانفعال وحِدة:

- يا أبو ثامر: آني مو بس حظ سز، آني عقل سز، آني زمال، لأن هيچ سواية ما يسويها غيري!

- على كيفك، أبو عبد الله.. الدنيا ما تخلص بيوم واثنين، فإذا فاتتك هذي النوبة، ربك يعوض نوبة ثانية!

ـ تمام، مولانا، وعيش يا كديش إلى أن يجيك الحشيش!

وتزايد خوف الكثيرين، خاصة فِي السوق، لأن ساسون، عن طريق وسطاء، أخذ يشتري أشياء كثيرة وبكميات كبيرة. كان يشتري المؤن بأنواعها، وقطعان الغنم والماعز والبغال، وبلغ الحال أن اشترى أيضاً عدداً

غير قليل مِنْ الحمير الصغيرة الشهباء اللون والأخرى الرمادية، التي كانت تثير الشفقة لهزالها، بحيث لم يكن أحد يفكر مِنْ قبل بمجرد سومها، لكن وجدت مِنْ يشتريها الآن، وبأسعار لم يحلم بها.

لما بلغ الأمر مسامع رواد قهوة الشط، وبعد أن توثقوا مما يسمعون، قالوا باستغراب أقرب إلى الدهشة:

- ما باقي على ساسون إلا يشتري الچلاب ويشد على ظهورها سروج، حتى يحمل عليها البلايا اللي جمعها بمخازنه.

أكثر مِنْ ذلك، بعث ساسون رجاله إلى صوب الكرخ لشراء ما يستطيعون شراءه مِنْ الدواب، ووصل الأمر أن جاء هؤلاء إلى قهوة الشط للسؤال مِنْ جديد عن الحاج صالح العلو أو أحد أبنائه. ولما استوضحه الأسطة عواد عما يريد، ردَّ، وكان لا يخفي فرحه:

- ذكروا لنا، بذاك الصوب، أن الحاج صالح عنده حصان ويريد يخلص منه، فجينا نشتريه.

ـ خاف تكون غلطان، آغاتي؟

- أنت ما عليك، بس قول شوكت يجي الحجي، والباقي علينا!

وبعد قليل، وهو يفرك يديه بنشوة:

- وشقد ما يريد إحنا حاضرين!

- بس ما قلت لي منو جنابك، ومنو دزك لهنا؟

ـ المهم، هسه، الحصان. بس نشتريه تعرف إحنا منو. إحنا شنو!

- يبين عليك، مولانا، وبليا سؤال، لأن الدهن يخر مِنْ عكوسك، ومتوازي بس تريد تشتري!

وبعد قليل وبغيظ لا يخفى:

- بابا.. روح على اللي دزك، وقل له: الحاج صالح ما عنده خيل للبيع!

والرجل الذي فوجيء بالجواب، فوجىء أكثر باللهجة الرافضة المغتاظة، ردَّ بمزاح أقرب إلى التعريض:

ـ ماكو أحد بالدنيا إذا جته الرزقة يقول ما أريد...

وغمز بعينه، وهو يُضيف:

- وحلوانك ما راح ننساه!

وقف الأسطة عواد، وقد بدا عليه الغضب الشديد، دق على الطاولة بجمع يده، وخرجت الكِلمات مِنْ بين شفتيه بطيئة، لكن بالغة الحزم:

- بابا.. روح، أحسن لك، والكلام اللي قلته إنساه، شيله مِنْ دماغك، لأن بكل هالصوب ما تلقى خيل للبيع، لا عند الحجي ولا عند غيره. افتهمت لو بعد؟

- ليش حمقان، آغاتي؟ الدنيا كلها بيع وشرا، أخذ وعطا، فشنو إنتو أحسن مِنْ غيركم؟

- قلت لك إمشِ، ولا تراويني وجهك نوبة ثانية، أحسن ما ألعب بخلقتك وأقلب الدنيا فوق راسك.

ـ على كيفك مولانا، شنو صار بالدنيا، وليش شايفين حالكم وما تتحاچون؟

وبعد قليل، وهو يستدير ويتحرك:

- اكو ناس يحبون الفقر، ويحبون يظلون طامسين بالسيانات!

ثم تناهت إلى سمع الأسطة عواد الكلمات الأخيرة، والرجل يغادر المقهى:

- وأنتو يا أهل صوب الكرخ راح تظلون مفاليس إلى قيام الساعة!

ردَّ الأسطة عواد، وكان صوته أقرب إلى الصياح:

ـ تنشب وتاكل خرا يا ابن الزفرة، يا سمسير اليهود، يا قواد!

ما كان الأسطة عواد ليتصرف بهذه الطريقة الخشنة لولا المعلومات التي انتشرت، ووصلت إلى الكثيرين، حول ما يلجأ إليه بعض التجار مِنْ تكليف عدد مِنْ السماسرة لشراء الدواب، والمواد، وكيف وصلوا إلى جميع الاحياء، وبلغوا القرى أيضاً، مِنْ أجل تأمين وسائل النقل، وكيف يتظاهر هؤلاء السماسرة أنهم يشترون لأنفسهم، وهم فِي الحقيقة يشترون لغيرهم ونيابة عنهم.

وما زاد فِي غضب الأسطة عواد، أن الحاج صالح الذي تعرض لتلك الصدمة، بفقد ولده، وجد فِي الأسابيع الأخيرة نوعاً مِنْ السلوى، بل وأخذ يتعافى، وإن ببطء، مِنْ خلال العناية بالحصان الذي تركه بدري، وكيف أخذ ذلك الحصان يستحوذ على وقتٍ يزيد يوماً بعد آخر مِنْ اهتمام الحاج، حتى قال كثيرون إنّه إذا قُدر شفاء هذا المريض، فلا بد أن يكون الحصان السبب.

أما أن يأتي أحد السماسرة، ويتحدد مطلبه بشراء ذلك الحصان، فلا بد أن يكون خصماً، وهدفه الوحيد قتل الحاج صالح العلو، ليس بشراء الحصان، لأن لا أحد يفكر، مجرد تفكير، بالتخلي عنه، إنما بتعكير الجو بإثارة النكد، مِنْ خلال طرح الفكرة.

فِي المساء ذاته، ورغم أن الأسطة عواد لم يشأ أن يثير الأمر، ويخلق منه مشكلة، إلا أن مِنْ صفات قهوة الشط أنها تمتلك مقاييس متناقضة، إذ بمقدار ما تقوى على إخفاء أدق الأسرار، وحماية أخطر القضايا، فإن للعيون المدققة، ولمن يتشمم الهواء ويميزه، إمكانية كشف الأخبار والأسرار، يستطيع ذلك مِنْ خلال الصمت، مِنْ طريقة ردَّ التحية، وأيضاً مِنْ خلال هروب العيون.

فِي هذا المساء، وما كاد الأسطة اسماعيل وسيفو يصلان ويجلسان حول طاولة الأسطة عواد، وما كادا يحسان بتلك الرائحة المختلفة، حتى سأل الأسطة اسماعيل، وقد بدأ بلهجة مازحة:

- تدري يا أبو فلاح...

ولما تطلعت إليه عينا سيفو تابع:

- جتني اليوم حمامة، چنت أزين راس سيد منعم، حطت الحمامة على الحِب، شربت، رفعت راسها للسما، شكرت ربها وقالت: «حِمل سم ولا مثقال هم». قلت لسيد منعم: سمعت؟ قال: قرقرت وطارت. قلت للحمامة: شنو بعد؟، ردت وقالت: خش بضيق تعرف العدو مِنْ الصديق، قلت لسيد منعم: سمعت؟ قال: ما افتهمت فد شي، كله قرقرة التفت على الحمامة وسألتها: وشنو بعد؟ ردت وقالت: روح على القهوة وخذ زعوط أو تتن!

استراح قليلاً، وتابع بمرح:

- تركنا سيد منعم نص زيان، قلنا له ترجع ثاني يوم، قال يخلف الله وشلنا روحنا على القهوة، ومثل ما تشوف عينك: لا قوجه ولا مرحبا، لا قهوة ولا تتن!

ردَّ سيفو:

- صدق، أبو نجم، شنو القصة؟ أشوفك مدلغم وما لك واهس تحچى ويا الأوادم؟

قال الأسطة عواد، وهو ينقل عينيه بين الاثنين:

ـ شأحچي، شاقول إذا مِنْ الصبح انغثيت وانكسر واهسي؟

ودون تحريض، دون انتظار، أخذ يروي للاثنين ما جرى له مع السمسار الذي جاء يسأل عن حصان بدري، وما إذا العائلة تريد بيعه، وكيف تلاسن معه ثم طرده. ولولا خشيته أن تكبر القضية، وتصل إلى الحاج صالح، لما تردد بضربه.

بعد أن انتهى مِنْ رواية ما جرى، قال الأسطة اسماعيل، وهو يهز رأسه غيظاً، ويقلب شفتيه بعصبية:

- لازم تعرف، أبو فلاح، الحمامة مو بس نجت سيدنا نوح، هذي ما تقول إلا الصدق، تقول الاكو والماكو، ولهذا السبب يحرم قتلها وأكلها، ولهذا السبب تشوفها توكر بالجوامع، بالمقامات، لأنها تريد تعرف هموم الناس، شيقولون، المن يدعون ويشكون، وتحمل ما تسمع وتفتر بالولايات تخبر وتنذر وتبشر...

وكاد يستمر، إلا أن ضحكة سيفو العالية استوقفته، أما حين سأله ما إذا الحمامة تحكي أم وحده الذي يفسر هديلها، ويفهم منه ما يشاء، فقد ردَّ بعصبية:

- هذا اللي أقوله، يا أبو فلاح، مو قشمرة، ولا قال عن قيل، بإذني سمعته، وعندي شاهد: سيد منعم!

واتفق الثلاثة على طي الموضوع، «لأن صحة الحجي بالدنيا كلها» هكذا قال أبو حقي، أما سيفو الذي وافق على هذا الرأي، فقد كان متحرقاً لمعرفة هذا السمسار، ولتصفية الحساب معه.

ـِ ابن الحرام هذا ما يحچي مِنْ راسه، لا بد فد واحد دازه، فإذا لزمناه، وراشدي والثاني يعترف وبعدين نقول له: شنو صوب الكرخ، ومنو الحاج صالح العلو.

لكن الأسطة عواد امتص غضب سيفو، إذ قال، لكي ينهي الموضوع:

ـ على بختك أبو فلاح، لأن ابن الحرام بعد الرزالة اللي ترزلها سلحب مثل الچلب. حتى الدرب ما له عين تشوفه، وظني أنّه ما يحط رجله بصوب الكرخ نوبة ثانية!

ناطق أفندي الذي رافق الكيخيا برحلة الشمال رجع حانقاً كان، حين يُسأل عن الرحلة، لا يخفي انزعاجه وغيظه، وبعض الأحيان يتجرأ فيشتم، «لأن لا أحد يعرف الأصول، لا أحد يتقيد بنظام»، وشر يلتقي الباشا ليشرح له كُلّ شيء، وكيف أن الكيخيا ذاته، ورغم ما شرح له حول الطريقة التي يجب أن يستقبل بها الأغوات والشيوخ، وما يحسن ان يقوله ولا يقوله، حتى الكيخيا نفسه لم يتذكر شيئاً مما قاله له، الأمر الذي جعل الرحلة فوضى مِنْ البداية إلى النهاية، ولم تحقق الغرض ويخشى أن تتكرر الأخطاء مرة أخرى فِي حملة الجنوب، إذا لم يبادر إلى وضع نظام يتقيد به الجميع.

كان هذا سبب حنق واضطراب ناطق أفندي، رغم أن الكثيرين الذين رافقوا الكيخيا عادوا راضين ومحملين بالهدايا. فقد شعر ناطق أفندي بالفشل والخيبة، مما سبب له آلاماً مبرحة، خاصة فِي المعدة، وجعله لا يرى إلا الجانب السيئ، وربما الضارِ فِي هذه الرحلة، الأمر الذي دفعه مضطراً

الآن للتباحث مع الباشا مِنْ أجل وضع حد لهذه الفوضى، الفوضى فِي الملابس، فِي التعامل، فِي استقبال الوفود، والفوضى فِي الأكل أيضاً، حتى ليجرؤ على القول، إنّه لم يتذوق طعاماً على أية مائدة مِنْ الموائد الكثيرة التي أقيمت لنائب الوالي.

هكذا كانت انطباعات ناطق أفندي، وهكذا كان رأيه. وإذا كانت شجاعته لم تواته فِي مرة سابقة، لكي يضع نظاماً كاملاً للسراي، فلن يغفر لنفسه إنْ تقاعس هذه المرة، لأن وضعاً مثل هذا، إذا استمر، فلا بد أن ينعكس على هيبة الوالي، وقد يضعفه، وهو لن يسمح بذلك. ولا بد أن يوافقه الوالي بكل تأكيد. لكن كيف الوصول إلى الوالي.

قال ناطق أفندي لنفسه بنوع مِنْ التحدي: «النظام الذي يجب أن يسود فِي السراي لا يخضع لرغبات أيّ انسان، لأن النظام وحده الذي سينقذ الولاية، وهذا ما سوف أكتبه برسالة للباشا، وسوف أشير بكثير مِنْ الحرص إلى أخطاء الرحلة، أما حين نتواجه فسوف أقول له كُلّ شيء».

استقر على هذا الرأي لبضع ليالٍ، لكن أعطى نفسه فسحة إضافية للتفكير، «لأن الخطأ فِي مثل هذه القضايا يصعب إصلاحه، ثم إن الباشا ليس لديه الوقت الطويل لقراءة كُلّ ما يرفع إليه مِنْ أوراق».

فكر أن يقضي أطول وقت ممكن متجولاً فِي أنحاء السراي، إذ لا بد أن يلتقي بالباشا، وعند ذاك سوف يتحدث معه، أو على الأقل يطلب موعداً، «لأن رحلة الشمال تستحق انتباهكم يا أفندينا، ولدي الكثير لأقوله حول الرحلة» سوف يكون الباشا سعيداً لأن يستمع إليه، وإذا لم يكن أثناء تلك المقابلة، فلا بد أن يحدد له موعداً، وعندذاك سيسعد نفسه، ولكن لماذا لا يعد نفسه منذ الآن؟

ظل ناطق أفندي يتنقل مِنْ مكان إلى آخر فِي السراي انتظاراً ليوم الحظ ولقاء الباشا. كان يفعل ذلك طوال النهار وقسماً مِنْ الليل، حتى إذا تأكد أن الباشا انتقل إلى السلاملك، وأغلقت الأبواب وراءه، كان ناطق أفندي يعود إلى جناحه، وهناك ينصرف إلى تدوين الملاحظات. كان يعمل بكثير مِنْ الحرص والتدقيق، لأن الأمر مِنْ الخطورة إلى درجة تستوجب ذلك.

كان يكتب ويمزق، يكتب ويمزق. وحين ينهض ليأوي إلى فراشه كانت تعاوده آلام المعدة، وتعصف به مشاعر الإحباط. لكن مثل عادته، يقول وهو يطفىء النور: «بناء النظام ليس أمراً سهلاً، خاصة مع بشر لا يعرفون معنى النظام، لكن المسألة هامة جداً. إلى درجة تتطلب أن يتقدم أحد ليفعل ذلك» يشعر بغبطة أنّه توصل لهذه القناعة، يهتف ليشجع نفسه:

«إنطق يا ناطق، لأن لا أحد سواك قادر على القيام بهذا العمل الجليل» وينام على أمل أن يجد حلاً فِي اليوم التالي.

بعد أسابيع عديدة، صدف أن جاء عدد مِنْ شيوخ عشائر الجنوب لزيارة الباشا، كان الوقت بين العصر والغروب، وقد ارتأى الباشا أن يستقبلهم فِي الحديقة المطلة على النهر. أحدث وصولهم الكثير مِنْ الهرج، وكانوا وهم يتقدمون نحو المكان الذي أعد لهم يتكلمون بصوت عالٍ، ويتبادلون الأخبار والمواعيد، فِي الوقت الذي افترض ناطق أفندي أن يكون الجو أقل ضجة وأكثر هيبة، خاصة وأن مِنْ المتوقع فِي كُلّ لحظة أن يطل ثم يصل الباشا. فِي لحظة ما، ورغم الضجيج والفوضى، وصل الباشا. تقدم ناطق أفندي ليكون قريباً منه، ليساهم فِي خلق الجو المهيب، ويسيطر الصمت.

رآه الباشا، ابتسم له، قال له: ما شفناك ناطق أفندي؟

ارتبك ناطق، احمر وجهه. آلمته معدته، وبصعوبة خرج صوته:

- بين الأيادي، سيدي!

ولأن الباشا اقترب أكثر نحو جمع الشيوخ، وتداخل الحرس مع الضيوف، ولم يشأ ناطق أفندي أن يترك المناسبة تمر دون أن يتفق والباشا على موعد، فقد قال، وكان صوته خفيضاً مبحوحاً:

- سيدي.. لدي الكثير عن رحلة الشمال!

التفت الباشا بطرف وجهه، وقال بسرعة:

- شوف خلف!

وانتبه الشيوخ لوصول الباشا، فالتفتوا نحوه وعم الصمت!

لم تنقضِ فترة مِنْ الزمن حتى بدأت حملة الجنوب.

وبغداد التي قدرت، منذ أول الربيع، أن الوالي يحضر لأمر ما، وإن لم يكن هذا الأمر واضحاً أو محدداً، فقد أحست بذلك نتيجة ارتفاع الأسعار، وشراء دواب الحمولة والنقل، ثم حركة رجال التجنيد على مخاتير المحلات طالبين منهم، بسرية مفضوحة، إعداد قوائم بأسماء الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين. قال رجال التجنيد فِي تبرير إعداد تلك القوائم أن السلطان أمر بإحصاء الرجال، ليصار إلى توزيع أراضي الإدارة السنية عليهم، بعد أن جاءه صبي فِي أعقاب عدد لا يحصى مِنْ البنات!

استمع المخاتير إلى الكلام الذي قيل لهم، وصمتوا. لم يكلفوا أنفسهم عناء السؤال عن هذه الأراضي، أين هي أو متى ستوزع، وما إذا كان الذين ستوزع عليهم راغبين أو قادرين على القيام بأمرها. أما حين نقل المخاتير ما سمعوه، فقد فعلوا ذلك بكلمات مليئة بالحزن والتعريض، وأضافوا، لكي يبرروا اضطرارهم إلى إعداد مثل تلك القوائم، انهم مأمورون وغير قادرين على المخالفة.

بدران عمشة، مختار الدهدوانة، قال لأعيان المحلة، وقد قصد قهوة الشط لإبلاغهم:

- آني عبد مأمور، يا جماعة الخير. ويعلم الله، ما ردت أجيكم يوم مِنْ الأيام بوجه أسود، أو حامل أخبار مو زينة...

إنتظر قليلاً، وهو يتطلع إلى وجوه الرجال الذين التفوا حوله، وقد فاجأهم مجيئه إلى القهوة أولاً، إذ لم يتعود المجيء، ثم ذلك التجهم الذي رافق كلماته الأولى. كانوا يستمعون إليه بقلق. تابع بعد أن جلا صوته:

- كُلّ ما قلنا خلصنا، وصارت الدنيا بخير، نفك عينا على مصيبة جديدة، وكأن المصايب تتدردب فوق روسنا مِنْ عين حاسد أو مِنْ غضب رب العالمين، وما يندرى نستاهل أم لا.

بعد أن خلق هذا الجو الحافل بالخطر والتوقع، أبلغهم أن رجال التجنيد، ومعهم واحد مِنْ السراي، طلبوا منه إعداد قوائم بأسماء رجال المحلة، وأضاف بسخرية أن الأمر يتعلق بتوزيع أراضي الإدارة السنية عليهم! وفهم، وفهموا، ما تعني تلك القوائم!

ناجي البكري، الذي دخل قهوة الشط مع ارتفاع صوت الملا حمادي منادياً لصلاة المغرب، وبعد أن سمع ما قاله بدران المختار، ورأى القلق، وما يشبه

الخوف، على وجوه الرجال الذين كانوا يصغون ويهزون رؤوسهم. قال والابتسامة الساخرة تملأ وجهه:

ـ اللي ما يلزم الجدح بيده ما يرتوي...

وحين تطلعت إليه العيون، وقد بدت كلماته غريبة، أو لا تتناسب والكلام الذي قاله بدران عمشة، تابع بذات اللهجة:

- إذا مالك البر والبحر، مولانا السلطان، جاءه ولي للعهد ويريد يوزع القاع على الفقرا، وينطي مِنْ كيسه الذهب والفضة، فلازم بالعجل تكتبون، تباركون وتشكرون، بدل الصفنة وهزات الراس؟

- جوز يا معود، وين أكو قاع وذهب، شنو السلطان ما عنده شغل حتى يتفطن بالفقرا، الطايح حظهم، ويقول لهم وينكم؟

هكذا ردَّ الأسطة اسماعيل، وكان صوته مزيجاً مِنْ الغيظ والسخرية، وتابع بنفس الحدة:

- وبعدين الكتابة للسلطان ينراد لها واحد دارس، متعلم، شايف الدنيا، وماكو غيرك يقدرعليها، آغاتي!

- آني، مولانا، زنادي ما بيه نار، وما باقي لي بالدنيا إلا القليل، وولي العهد راح يصير سلطان بزمن غيري، فشوفوا لكم واحد بعد حيله بظهره حتى ينقش لكم عرضحال للسلطان!

- آني مو بس سنوني واقعة، وهمين خلاخيل طيزي، فما أقدر أزرع وأحصد، فمنو منكم يشتري مني القاع اللي راح تجيني مِنْ السلطان بنص قيمتها؟

بهذه الطريقة تدخل سيفو ليمنع الاحتكاك بين ناجي والأسطة اسماعيل، فقاطعه الأسطة عواد:

- خلونا مِنْ الأعمار، يا جماعة، فإذا الأستاذ ناجي جاز السبعين، وأبو فلاح مثل ما يقول عن روحه، فالمسألة ما لها علاقة بالعمر، المسألة الها علاقة بشي ثاني، وسالفة القاع سمعنا مثلها مِنْ قبل، فلا بد يكون وراها فد شي!

- شلون الآدمي يصيد السمچ يا أبو نجم؟

حين التفتت العيون نحو سيفو، وقد بدا سؤاله غريباً، وقف، وهو يقول:

ـ السمچة ما تنجر إلا بشص أو بطعم، وسالفة القاع شيلوها مِنْ بالكم، لأن والينا بباله سالفة ثانية، غير سالفة السلطان! وتشعب النقاش وطال، لكن الاتفاق بين الجميع كان مؤكداً أن توزيع الأراضي مجرد خدعة لسوق الرجال إلى الجندية.

ناجي البكري الذي طالب الكثيرين وحرضهم فِي وقت سابق حول ضرورة الكتابة إلى السلطان، وإرسال الوفود، إذا اقتضى الأمر، مِنْ أجل إقناعه أن يُترك لأبناء كُلّ ولاية اختيار الوالي، لئلا تحدث ثورة مثل التي حصلت فِي فرنسا، لكن أحداً لم يجرؤ ويستجيب لهذا الاقتراح، مما جعل ناجي يشتم ويقاطع قهوة الشط فترة مِنْ الزمن، أما بعد أن سقط نابليون فقد أصبح أكثر يأساً وأكثر سخرية.

أما الآن، وهو يسمع ما يقوله ابن عمشة، وذلك الخوف الذي يلمسه لدى الكثيرين، فقال بتشفٍ:

- مية نوبة قلنا: اللي يحكمون أول ما يوصلون ماكو عندهم إلا قولة:

حلت البركة، ومع طالع كُلّ شمس وعد جديد، وعيني وآغاتي؛ لكن ما يحول الحول إلا وينسون كُلّ اللي قالوه، يتغيرون، وما تسمع منهم إلا قولة: هات. وتتجمع تحت أيديهم الفلوس، وما ينشاف الواحد منهم إلا بألف ويلاه. وينشغلون ببناء القصور والعلالي؛ وبدل المرية عشر، ويقولون على سنة الله ورسوله! وبعد ما يشبعون، يتلفتون هنا.. هنا، وكُلّ واحد يقول: راح أسوي فد شي ما سواه أحد قبلي، ولازم ذكري تسير بيه الركبان... وبهذي عيوني الثنتين، وباذني هذي، وأمسك أذنه اليمنى، ياما شفت وياما سمعت...

استراح قليلاً، هز رأسه عدة مرات، وأضاف:

- ومثل ما قال أبو فلاح: سالفة القاع شيلوها مِنْ بالكم، وولي العهد إذا ما جا يخلقه خلقة، أما اللي نشوفه اليوم، إذا الله ما كذبني، فالاستعداد للحرب...

وتغير صوته، أصبح بطيئاً ومتآمراً:

ـ لازم تحضروا أرواحكم للأيام السودا اللي جايه: الشباب لازم يغيبون مِنْ الوجه، هنا.. هنا، عند قرايب، عند معارف، حتى إذا الزبانية جوا ما يلقون أحد. واللي يقدر منكم يضم فليساته وتمراته للأيام اللي راح تجي، أحسن ما يمد إيده للناس، ويقول: حسنة يا أولاد الحلال، لأن الفلس الأبيض، مثل ما يقولون، لليوم الأسود، وديرتنا وأنتو تعرفوها كلش زين.

كان ناجي البكري يتكلم باسمهم، يعبر عما يجول فِي خواطرهم مِنْ قلق وخوف، لأن الحرب، أية حرب، تغير حياة الناس، تقلبها، وقد خبروا ذلك بأنفسهم مرات عديدة. فما إن ترتفع الأسعار، وتختفي المواد، ويبدأ التجار بالجلوس فِي المقاهي لفترات طويلة، ثم يظهر رجال النفير، حتى يتحسب الناس وتمتلىء قلوبهم بالهموم.

قال سيفو، الذي ظل واقفاً حين كان ناجي البكري يتكلم:

- قلبي مِنْ الصقعات تعلم، وهذا الخد مِنْ لطمات إيدي تدمي، ما راح يجي أنجس مِنْ اللي شفناه، فعلى ويش الخوف؟

ـ الخوف مات بقلوبنا، يا أبو فلاح، وأنت تعرف هذا كلش زين، بلا الواحد خاف يترزل بآخر أيامه!

هكذا ردَّ الأسطة اسماعيل، وقد شاب صوته غيظ ظاهر، وكأنه يعاتب سيفو، أو يعتبره مسؤولاً. ردَّ سيفو بسخرية مُرة:

ـ على كيفك أبو حقي. آني وأنت بايعين ومخلصين، ما راح يسوقونا عسكر، وقاع ما راح نحصل، لكن كُلّ الخوف على هالشباب، اللي الواحد منهم يسوي ديرة وعشيرة. هذول اللي يمردون القلب إذا جاهم السَوْق، ويعلم الله أنّه ما لنا عيشة إذا أخذوهم وما رجعوا.

تدخل الأسطة عواد، وبدا كأنه يكلم نفسه:

- وجماعة السراي مِنْ يوم سليمان الكبير وإلى اليوم، ما يشوفون واحد مِنْ وِلدنا إلا وتتدهدي مِنْ حلوقهم نفس الكلمة: سالم، مسلح، مشاة، والولد اللي راحوا جوا التراب أكثر مِنْ اللي تزوجوا وخلفوا،.. هذي القصة ما لها تالي؟

قال ناجي البكري، وخرج صوته عميقاً:

ـ لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم...

وأضاف، وهو يهز رأسه:

ـ أيّ نعم لا يغير الله، لأن سبحانه يقول: يا عبدي عين نفسك حتى أعينك، أما أن نفتح حلوقنا وننتظر، ونقول الله قادر على تغيير كُلّ شي وحقنا راح يوصلنا على البارد المستريح، فهذي شيلوها مِنْ بالكم، لا تحلموا بيها.

ـ شنو قصدك، أستاذ، نورنا!

سأل الأسطة اسماعيل، وبدت فِي لهجته السخرية، فرَدَ ناجي البكري بعصبية:

- مولانا، إحنا مو خوش أوادم؛ الواحد منا يا نفسي؛ ما نحب بعضنا؛ ما نشغل دماغنا؛ ما نعرف شنو اللي نريده. وبعد كُلّ دقة، بعد كُلّ كفخة، نشمرها على الله: نقعد وندعي: يا رب، يا أبو الخيمة الزرقا، أنت مالك الملك، أنت القادر، يا مُنتقم يا جبار اقتص لنا مِنْ اللي ظلمونا، إهلك زرعهم واقطع نسلهم وقل لهم منو إنت وشنو إنت...

ولأن الصمت خيم، وقد زاده تدفق الكلمات السريعة، وكأن ناجي هيأ نفسه لها، وحين رأى التأثر، وما يشبه الموافقة، على وجوه الذين يتابعونه

أضاف بلهجة ابوية:

ـ أيّ نعم، الحق علينا، إحنا المسؤولين عن كُلّ اللي صار وجرى، والجاي أعظم، لأنه ماكو واحد منا شال راسه وقال: يا جماعة.. هي موتة موتة، والبني آدم ما يعيش بهذي الدنيا إلا نوبة وحدة، فاما يعيش معزز مكرم أو يموت موتة تسوى. كُلّ واحد منا يقول: آني ما علي، آني مالي لازم، أو يقول: الدنيا قسمة ونصيب، والمكتوب لازم يصير، والله صاحب التدبير، وتاليها مثل ما تشوف عيونكم: وِلدكم، كُلّ واحد منهم:

سالم، مسلح، مشاة، وينجرون مثل الغنم لتلفات الدنيا، واللي يرجع مكتوب له ألف سلامة...

قال حسون الذي انزلق بين الجمع دون أن يحس به أحد:

- آني ما اخاف، والعن أبو الخوف، واذا تريدون مني هسه أروح لمقبرة الشيخ معروف، وأنام بين القبور، وإذا ما تصدقون مِنْ هناك أجيب نيشان.

ابتسم الذين يستمعون بحزن لكلمات حسون، وقد اتجهت نحوه العيون، الأمر الذي جعل ناجي البكري يدرك أنّه يكلم نفسه، أو أن كلماته بعيدة، غامضة إلى درجة لا تُفهم، أو لا تصل مثلما يريد. أما حين قال سيفو لحسون:

- عفية حسون، العن أبو الخوف، واللي يخافون، أريدك مثل ما أعرفك دوم: سبع والموت يخاف منك!

- على بختك، عمي أبو فلاح، وهسه، بعدما جا شلال، وين ما تريدني أروح، وأحارب اللي تقول لي عليه موخوش آدمي، وإذا بيه خير خليه يوقف بوجهي.

نهض ناجي البكري. تطلع بحزن إلى العيون التي كانت تتحرك برتابة وقلق، وتنتقل بين حسون وأضواء المقهى والفراغ، قال وهو يهم بالمغادرة:

- ينراد بعد لبغداد سنين وسنين!

وفِي كُلّ المقاهي والبيوت، وفِي الأزقة والسوق التجاري، دارت أحاديث مثل ذاك الذي دار فِي قهوة الشط. ومع كُلّ يوم يمر تزداد المخاوف وتكبر الهموم، لأن الأسعار لا تتوقف عن الارتفاع، والمواد تختفي لأيام ثم تظهر مِنْ جديد، وقد تضاعفت أسعارها عدة مرات.

ذنون الذي انتقل أخيراً إلى بيت العائلة الصيفي فِي الأعظمية، وما كاد يمر اليوم الأول على إقامته الجديدة، حتى جاءه شمسي زيدان، مختار الأعظمية، والمقيم حالياً مع زوجته الجديدة فِي الكاظم، وبعد كلمات

المجاملة سأله عن عمره. وذنون الذي فوجيء بالزيارة والسؤال، وبدا له الأمر غريباً، ابتسم قبل أن يقول:

- الله وكيلك، مختارنا، لا أريد أتزوج والعافية مِنْ الله!

وحين ظل المختار صامتاً ومنتظراً الجواب، تابع بسخرية:

ـ العادة أن ربات الحجال هن اللي يضمن أعمارهن، أما أعمار الرجال فعلى سن ورمح، فشنو القصة مختارنا؟

- ماكو كُلّ قصة، مولانا، بس الجماعة سألوني عن عمرك؟

- عن عمري؟ ويا جماعة؟

- جماعة التعداد؟

وأضاف ذنون بعد قليل باستغراب:

- كُلّ ظني أن جماعة التعداد يسألون عن الغنم والخيل...

وابتسم بسخرية وتابع:

- وتكرم.. يسألون نوبات عن الحمير والبغال، حتى يحصلوا الباج، فشنو صار الباج همين على الأوادم؟

- يا ذنون أفندي، جماعة السراي مروا قبل أيام، وطلبوا تسجيل الرجال بين العشرين والخمسين.

ـ شنو.. يريدونهم عسكر؟

- علمي علمك، يا ذنون أفندي، لكن اللي قالوه أن السلطان والوالي يريدون يباهون الولايات الثانية، ويريدون يقولون لهم: نحن أزيد!

قهقه ذنون قبل أن يرد:

- خوش سالفة: القرعة تتباهى بشعر بنت خالتها...

وبعد قليل:

- شنو.. الأقل مِنْ العشرين واللي فوق الخمسين ما ينحسبون؟ والنسا؟

- آني ما علي، ذنون أفندي، قالوا لي سوي فلان شي أسويه، لا تسوي فلان شي ما أسويه!

- زين.. زين مختارنا، بس بربك، بدينك، هذي قصة المباهاة تقنع جاهل؟ واحد عنده عقل؟

- يا ذنون أفندي.. قلبنا ذاب مِنْ سوالف السراي، لكن شنقدر نسوي؟

هزِ ذنون رأسه دلالة الأسي، ورد:

ـ أريد أقلبها شقا وياك مختارنا، فلا تزعل مني، شتقول؟

ـ قول، مولانا...

وبعد قليل، وبمرح:

- وأنت مو أول واحد يضحك على قصة المباهاة. كلهم قالوا لي: أترك كلام الهزل واحكِ كلام الجد يا مختارنا، نورنا حتى نعرف شلون نتصرف!

ـ اتفقنا.. وقبل ما أقول لك شقد عمري، قدر أنت!

ـ اللي يباوعك يقول فوق الخمسين، واللي يسمع عنك، يقول ما جاز الثلاثين أو الأربعين...

- لازم سامع عني هوايه، مختارنا، ومن عدوين!

- استغفر الله يا ذنون أفندي، لأن طاريك ما يجي إلا بالخير، وكُلّ مِنْ عرفك يقول: ذنون أفندي على الراس والعين. رِجال ماله حرشة بالناس.

وكُلّ واهسه بالقراية. ويقولون، مولانا، إنك تنظم الشعر. صحيح؟

- ويقولون همين يشرب العرق ويحب الطرب، مو هالشكل؟

ـ ما سمعت، وما أحط بذمتي!

- زين.. زين، شتقدر عمري؟

- أكيد فوق الخمسين، لو آني غلطان؟

ـ إذا على مود الجندية قول جوا الخمسين، مولانا، حتى يباهي والينا والسلطان، وإذا على مود الدنيا والصدق فيا الله وصلت الأربعين!

- نقول فوق الخمسين ونسد حلوق العدا، شنو رأيك؟ موافق؟

هز ذنون رأسه عدة مرات قبل أن يجيب:

ـ الجنة بليا ناس ما تنداس، مختارنا، وآني شنو إذا راح ربعي، إذا انقتلوا؟

وبعد قليل، كأنه يكلم نفسه:

- الموت مع الناس رحمة؛ وآني مثل غيري.

تطلع إلى المختار وقال بلهجة حازمة:

- أكتب يا شمسي زيدان، يا مختار أبو حنيفة وذاك الصوب: ذنون بن الحاج حسين: سالم، مسلح، مشاة،ووين ما راح ربعه وياهم يروح!

قال المختار، وهو يودعه:

- أنت، مولانا، قلت كلمتك: سالم. مسلح، مشاة، لكن آني الي رأي وعندي كلمتي!

أما بعد أيام، حين ذهب ذنون إلى صوب الكرخ، والتقى بالأسطة اسماعيل، فكان أول سؤال وجهه إليه:

- قل لي، بربك، أبو حقي، سواد شعرك خلقة الله لو سواية العبد؟

نظر إليه الأسطة بتساؤل أقرب إلى الاستغراب، التفت إلى أكثر مِنْ جهة، قبل أن يجيب:

ـ ما أدري.. منو المزين آني لو أنت؟ لو تريد تتعلم الصنعة؟

وبعد قليل:

- سواد الشعر، مولانا، مو دليل، تعال.. شوف شنو بالقلب!

ضحك بسخرية وتابع:

- قلبي صاير عطابة، يا ذنون أفندي، وما أدري ليش راسي ما يشيب!

ضرب على كتفه، وقال بلهجة جديدة:

- يقولون على اللي يكبر ويشوف هموم هوايه وما يشيب بشعره: غيرة سز، فشنو رأيك؟

- حاشاك أبو حقي، مثلك بالدنيا ماكو!

- زين.. نرجع مرجوعنا لسؤالك، ليش سألتني؟

- قبل أيام جاني مختار الأعظمية...

وروى له ما جرى فِي ذلك اللقاء. حين انتهى قال الأسطة اسماعيل بحرارة:

- هذول المخاتير، يا ذنون أفندي، ما يندرى، يقشمرون روحهم أو يقشمرون الناس لما يقولون توزيع القاع والذهب أو مباهاة الأمم الثانية..

ابتسم بحزن، وأضاف بصوت خفيض:

- عمية تحف مجنونة وتقول لها حواجبك مقرونة!

- ويقولون بعد، يا أبو حقي؛ تساوت القرعة وأم الشعر!

ومع أن ذنون جاء ليقص شعر رأسه، إلا أن الأسطة اسماعيل اقترح تأجيل الأمر إلى يوم آخر. قال له، وهو يهم بارتداء ملابس الخروج:

ـ لاحقين على الزيان، ذنون أفندي، مو اليوم، باچر، عقبه. هسه خلينا نسير على القهوة، ننفه عن روحنا شوية، لأن روحي طاقة، وخاف أزينك زيان

أيتام!

- يا معود.. تعنيت مِنْ ذاك الصوب حتى أزين.

ـ لاحقين على الزيان.. يا الله، خلينا نمشي!

قبل أن تتحرك القوات نحو الفرات الاوسط بفترة قصيرة، طلب ناطق افندي بإلحاح مقابلة الباشا، وأكد لخلف، بأكثر مِنْ طريقة، أن لديه امراً هاماً يريد أن يعرضه شخصياً على المقام العالي، وان هذا الأمر لا يحتمل الانتظار او التأجيل.

وخلف الذي يحاول اختصار الكثير مِنْ الطلبات، باجابات مِنْ عنده لكن يضعها بصيغة وكأنه عرض الأمر على الباشا، أو على الاقل اشار اليها امامه، وباعتبار ان وقت الباشا لا يسمح، خاصة فِي الظروف الراهنة، لذلك امام صاحب الطلب أحد خيارين: اما أن يصرف النظر عن طلبه، خاصة الآن، لعل الوقت يسعفه بعد شهر او شهرين، او ان يبلغ خلف ما يريده ويتولى خلف بنفسه عرض الأمر على الباشا «فِي ساعة صفاء، وعسى ان تكون النتيجة خيراً».

ناطق افندي رفض باصرار اياً مِنْ الخيارين، رفض التأجيل، ورفض أن يتولى غيره عرض الامر على الباشا. وفِي محاولة للضغط، لجأ إلى التهديد الخفي:

- لعلمك، خلف، لا أريد علاوة ولا زيادة معاش، والامر اوله وتاليه متعلق بالحملة، فاذا ما سهلت لي المقابلة راح تاكل اصابعك ندامة!

- يا معود الباشا مخبوص، ليله ونهاره اجتماعات وخطط وخرائط...

وبعد قليل، وفِي محاولة للتأثير:

- الله يساعده، نوم ما يقدر ينام، ياخذ غفوة مثل الكركي بين اجتماع واللاخ...

وتغيرت النبرة:

- وآني مثل اخوك، انوب عنك بالزغيرة والچبيرة، وكُلّ ما تريد تقوله له انقله بالحرف، فلا تخف!

- اكو مسائل، خلف، ما يفيد بيها قيل عن قال. لازم اشوف الباشا!

- زين، انتظر عسى ولعل!

فِي اليوم نفسه، او فِي اليوم التالي:

- ها خلف شنو اللي صار وياك؟ شفت الباشا؟ قلت له؟

ـ ناطق افندي سوفت فوادي، على الطالعة والنازلة: شفته؟ قلت له؟

قابل آني عيسى او موسى: اجترح المعجزات؟ يصمت قليلاً ثم يُضيف:

- طولة البال ماكو مثلها ناطق افندي. طول بالك. ثقل نفسك، يمكن الله يفك لنا درب، ونقدر نشوفه ونقوله!.

ـ ما أريد اوصيك خلف، لأن المسألة تتعلق بأرواح الناس!

بعد أيام مِنْ الالحاح المتواصل، استطاع خلف أن يبلغ الباشا برغبة ناطق أفندي، وان لديه أموراً هامة يريد أن يعرضها.

قال الباشا، وهو يهز رأسه ويبتسم بحزن مشوب بالسخرية:

- شكو عنده هذا الفطير، الباش بزغ؟

ـ ما ادري، سيدي، لكنه يصر على المقابلة، ويؤكد أن الامر يتعلق بالحملة وبأرواح البشر!

- واي واي.. صار يفتهم بالعسكرية، همين!

ـ ما أعرف، سيدي، بس هذا اللي قاله!

- دز عليه، خلي يجي، بس وصيه، لقلقة ما اريد. مقدمات وحواشي ما اريد، رأساً يدخل بالموضوع!

لما مثل ناطق أفندي بين يدي الباشا، خاصة بعد هذا الانتظار الطويل الشاق، ارتج عليه، كان فِي منتهى الارتباك والاضطراب. ورغم أنّه حضر نفسه بعناية لما يجب أن يقوله وكيف يقوله، وادي الدور امام المرآة اكثر مِنْ مرة، بصوت عالٍ مع نغم يتناسب مع المقاطع والكلمات، وكيف يجب ان يتوقف فِي بعض اللحظات، ويترك للصمت ان يمتد قليلاً، كي يتيح لمن يسمعه الفرصة مِنْ اجل التمعن، وربما، استعادة، الافكار والكلمات التي قالها، فان اللحظات الاولى للمقابلة كانت مشحونة بالتوتر والاضطراب إلى درجة أنّه بدا كالمشلول.

قال له الباشا ليخرجه مِنْ هذا المأزق، وقد لاحظ ارتجافه:

- صار زمان ماشفناك يا ناطق افندي؟

- بين الأيادي سيدي!

ـ قال لي خلف ان عندك امور هامة تريد تعرضها!

- بلى سيدي!

ـ حاضرة لو تحضرها وتعرضها بعدين؟

ـ اللي تشوفه سيدي!

- وأرواح الناس اللي يقول عليها خلف وتريد تنقذها!

ـ الارواح بيد رب العالمين، سيدي!

- وانت، شكو بايدك، ماتقول لي وتخلصني؟

- سوف اكتب لك كتاباً حول الأمر يا سيدي، لأن عقلي اضطرب، وسوف يصلك الكتاب قبل طلوع الفجر!

ضحك الباشا باشفاق، وهو يرد:

ـ لا... بعد طلوع الشمس احسن، يا ناطق افندي!

هز رأسه بانحناءة كبيرة موافقة، قال الباشا كي يصرفه:

وكُلّ ما كان الكتاب مختصر أقوى وأحسن، يا ناطق أفندي!

وقبل أن يستأذن ليغادر، مد يده إلى جيبه، أخرج ورقة وقال:

ـ قرأت هذا فِي كتاب هام، واذا سمحتم اقرأه على مسامعكم!

- اقرأ... يا ناطق افندي - وقالوا: ينبغي للقائد العظيم ان يكون فيه عشر خصال مِنْ ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحنن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحملة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب، وحراسة الكركي، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسمن بعروا، وهذه دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

- لم تترك حيواناً، الا الضفدع، ان يعتب عليك، يا ناطق افندي!

وبعد قليل وهو يهز رأسه:

ـ أفادنا الله بعلم امثالك، وبورك فيك!

لما خرج مِنْ ديوان الباشا، كان خلف بانتظاره. سأله بلهفة:

- ها... بشر، انشاء الله صار خير ومشت الأمور زين؟

- اسكت خلف، انلاصت علي فد مرة. قبطت. وكُلّ اللي كنت أفظه، محضره، امحي مِنْ رأسي بقدرة قادر!

- شلون يا معود؟ شنو اللي صار؟

ـ اسكت وخليها سنطة...

وبعد قليل:

- شلون واحد يحلم حلم، وبعد ما يقعد مِنْ نومه ينساه كله؟ شلون واحد يكون محضر روحه وفجأة يوقف، يشكل، لا لقدام ولا لورا؟ هذا اللي صار وياي يا خلف وازود...

ثم بحزن أقرب إلى الأسى:

مثل ماي وانطشت، يا خلف، لا تنلم ولا تنجمع. اريد احچي، اريد اقول. ابد. الله ما فتح علي. والباشا ينتظر يباوع، وآني فاك حلقي، لكن بليا كلام، وما اعرف آني بحلم لو بعلم!

- وتاليها؟

- يخلف عليه الرجال، طلع آدمي وابن حلال. قال لي اكتب، وهسه فِي بوجهي رايح مو بس اكتب اللي نسيته. راح انقشه نقش!

الله.. الله يا دنيا - ثبرتنا، ما خليت لنا درب: أريد اشوفه، مِنْ راسي لراسه. اليوم قبل باچر، ولما وصلت ضاع الأول والتالي... هالشكل؟

ومع أن ناطق افندي قضى الليل بطوله ساهراً، وسمع اصوات الكلاب فِي البداية، ثم اصوات الديكة لما انتصف الليل، ثم سمع اصوات المؤذنين يدعون الناس لصلاة الفجر، وقد كتب خلال ذلك ومزق اوراقاً كثيرة، ورغم أن الافكار كانت قريبة مِنْ الوضوح فِي ذهنه، الا انها تغمض تتلاشى ما ان يبدأ بوضعها على الورق! ليس ذلك فقط، كانت تبدو له مضحكة، صبيانية، هذا عدا عن كونها غير قابلة للتنفيذ.

قال لنفسه، وهو يطوي الأوراق ويدخلها فِي الدرج وقد رأى انوار النهار: «لا يكفي أن يكون لدى الانسان افكار كثيرة، الاكثر اهمية ان يعرف كيف يعرضها، ومتى وامام مِنْ. وهذا يتطلب ان افكر بكل شيء مِنْ جديد!» فِي اليوم التالي، ثم فِي الايام اللاحقة، نسي خلف الموضوع، ولم يعد الباشا يتذكره، اما ناطق افندي فقد صمم على مواجهة هذا التحدي:

أوصى احد الخطاطين فِي بغداد لتجهيز مجلد بمائتين وخمسين صفحة بيضاء وبغلاف اخضر، وطلب أن يكتب على غلافه، وبماء الذهب، عنوان: «هيأة المقاتل». وقرر ان ينتهي منه قبل ان يحول الحول، «لأن جميع ما يجب أن يدون فيه واضح وضوح الشمس فِي رابعة النهار».

خلال الليل، وكان يفكر بعنوان الكتاب، اعتبر أن الصيغة التي طلب ان تخط على الكتاب غير واضحة وغير كافية، مما اضطره لمراجعة الخطاط فِي اليوم التالي، طالباً أن يكون العنوان كما يلي: «هيأة المقاتل واحسن الشمائل لقهر العدو المتطاول».

قبل يوم مِنْ حملة الجنوب. وقد التقى الباشا بقادة الحرس والمسؤولين عن ابواب بغداد، قال خلف الذي سيرافق الباشا، لناطق أفندي:

ـ لا تخاف، ناطق افندي، اللي ما صار بذاك اليوم، بذيك السنة، ترى يصير بيوم تاني، بسنة غيرها، لان الهوا مو دائماً غربي، واكو اشجار إذا ما اعطت هذي السنة تعطي بالسنة اللي بعدها!

وناطق افندي المتحسب، المتطير، سأل بعصبية:

- شنو قصدك، لبلبان آغا؟

ـ لازم تعرف، آغاتي، اللبلبان واحد غيري. آني مسهل الحاجات، كُلّ واحد يريد فد شي مِنْ الباشا، كُلّ واحد ما له درب عليه، يترجى ويقول:

- لف، ايدي بحزامك، يمكن تقول للباشا، يمكن تترجي الباشا، لأنك تشوفه كُلّ يوم...

وضحك بسخرية، وأضاف:

ـ ما يخالف، الدنيا ما تخلص بيوم او اثنين، ويجي يوم تقول: اريد شوف الباشا، وبذاك اليوم راح اقول لك: ذاك ديوانه. شوف الياروان. شوف المرافقين، شوف رجال الديوان، آني ما علي!

- أشوفك زعلت - ما زعلت، لكن... كان بالدنيا خير... وطار!

- خلف...

ـ أيّ نعم... ناطق أفندي.

عند الباب الشرقي، جرى للكيخيا يحيى وداع مهيب. كان على رأس المودعين الباشا، ورجال الدين والوجهاء وعدد مِنْ الأغوات، الذين جاءوا مِنْ الشمال مع فرسانهم، إضافة إلى مجموعة مِنْ شيوخ البدو، خاصة مِنْ الفرات الأعلى، زيادة على خلق كثير، جُمعوا أو تجمعوا. وأصر حسون أن يعبر إلى صوب الرصافة مع شلال، إذا لم يكن مِنْ أجل الوداع، فلكي يراقب كُلّ شيء بنفسه كما قال للذين رافقوه مِنْ الصبية حتى طرف النهر.

وينقل بعد ذلك إلى «الجماعة» فِي الكرخ، خاصة فِي قهوة الشط، كُلّ شيء، وبأدق التفاصيل!

قال الخبثاء فِي قهوة الشط، بعد أن عرفوا بعبور حسون إلى الرصافة، أن الأمر متعلق بزوجة القنصل، ولا شيء غير ذلك! وبمرور الوقت أقسموا أن حسون لم يصل إلى الباب الشرقي، إذ ظل مرابطاً فِي رأس القرية، فِي مكان لا يبعد إلا قليلاً عن الباليوز. ولتأكيد وجهة نظرهم، استشهدوا بما اعترف به حسون، قبل أيام، لصائب الدغش، مالك مصبغة الحق، إذ قال له أنّه تعمد اختيار هذا المكان بالذات مِنْ النهر لغسل الحصان كُلّ يوم فقط ليتاح له رؤية الباليوز، ولكي تراه زوجة القنصل! وما أكد ذلك أكثر المنديل الأبيض الذي كان يحمله حسون، وكان يلوح به بين فترة وأخرى، ولم يُعرف سبب لذلك خلال فترة طويلة!

واعترف حسون لصائب أيضاً، كما يقول الخبثاء، أنّه لا يقوى على التخلي عن زوجة القنصل. صحيح أنّه حاول النسيان؛ وصحيح أنّه انشغل عنها بأمور كثيرة، لكنه لم يستطع أن ينسى كما لم تدعه ينسى! إذ كانت تظهر له كُلّ ليلة ما ان يضع رأسه على الوسادة. أما حين يخيم الصمت وتعم الظلمة، فكان يراها بوضوح أكبر: قريبة، شهية، وتناديه باستمرار.

وكان فِي أحيان كثيرة يسمع أنفاسها، وقد رآها مرة تبكي!

هكذا اعترف لصائب، وهو يضحك بمكر. أما تظاهره بالتخلي عنها، وحتى القسم بأنه طلقها ثلاثاً، كما فعل ذات ليلة أمام الكثيرين فِي قهوة الشط فلكي يبعد عن نفسه المراقبة، وليصبح بالتالي أكثر حرية! وأكد الصائب، فِي إحدى المرات، ان أهم سبب منعه مِنْ الوصول إليها حتى الآن: خجله، ثم هيأته. أما بعد أن أصبح «مالك» حصان، وأخذ يعتني بهدومه، فقد اختلف الأمر، إذ لن تستطيع أن تكتم حبها أكثر مما فعلت، ولن تتردد الآن فِي مواجهة زوجها، بل وستتركه بكل تأكيد!

لولا الأحداث التي توالت، وطغت على قصة حب حسون، وكان آخرها سوْق عدد غير قليل مِنْ صوب الكرخ إلى العسكرية، ما كان الكثيرون ليتركوا ممازحته فِي قهوة الشط، بل وترتيب المكائد له، لكن هذا النسيان أتاح له أن يُهيئ نفسه لأمر خطير: ان ينتقل وشلال إلى صوب الرصافة، مِنْ أجل أن يحسم أمره مع تلك المرأة!

صائب أبلغ بعض الأصدقاء أن حسون فِي الأيام الأخيرة، قبل أن يعبر لذاك الصوب، كان فِي حالة اضطراب ظاهر. أكثر مِنْ ذلك استدان منه بعض النقود، وأبلغه أن لا يقلق عليه إذا تأخر!

وأهل بغداد، فِي الصوبين، الذين غرقوا فِي الحزن والهموم، ولديهم أسباب لذلك لا تحصى، لم يكونوا مستعدين لأن ينشغلوا بأمور ثانوية.

حتى الذين كانوا يروحون عن أنفسهم فِي صوب الكرخ بمراقبة حسون، وهو يقود شلال مرتين يومياً إلى الشط، كفوا عن ذلك. إذ صار مروره عادياً ولا يعني لهم شيئاً. حتى الأطفال الذين تعودوا مرافقته، وكانوا يمتثلون لكل ما يأمرهم به، تغيروا. قل عددهم أولاً، ثم أصبحوا أقل استجابة لما يطلب منهم، بل ومُنع عدد مِنْ الصبية مِنْ مرافقته لأن جماعة

النفير يتعمدون عدم التمييز بين الأعمار! المهم أن يساق أكبر عدد، ثم بعد ذلك يمكن أن يُفرج عمن هم دون السن، إذا لاحق أهلوهم الأمر، وتوفر مِنْ يساعدهم.

حتى المزاح البريء الذي كان يملأ قهوة الشط، لتزجية الوقت، والتغلب على الرتابة التي تلف الحياة، وكان حسون أبرز الذين يتوجه إليهم هذا المزاح، توقف أو كاد، وحل مكانه نوع مِنْ الوجوم، رافقه الصمت الحزين، أغلب الأحيان.

الآن، وبعد أن نادى المنادون، طالبين مِنْ الأهالي أن يودعوا جنود الحملة، وان يدعوا لهم بالتوفيق والنصر، واشترك مع المنادين الطبالون، وأوعز إلى أئمة المساجد ان يرفعوا الدعاء أيضاً، فإن الناس الذين سمعوا هذه الدعوات، وقد مازجنها الضوضاء والفوضى، كانوا غير مستعدين للمشاركة فِي هذه «الجنازة» كما سماها الأسطة عواد. أما سيفو الذي وصل إلى علمه، لا يُعرف كيف، أن الملا حمادي سيرفع الدعاء ذلك المساء، وسيطلب مِنْ الناس المشاركة بالوداع يوم الخميس، فقد ذهب إليه. رغم القطيعة بينهما، ذهب ومعه اثنان مِنْ قهوة الشط. قال له، وكان حول الملا عدد مِنْ الرجال يستمعون إليه فِي درس مِنْ الدروس التي يلقيها فِي أيام محددة مِنْ الأسبوع:

- اسمع ملا: هذا البيت بيت الله، وما ينذكر فيه غير اسمه، سمعت؟ والملا حمادي الذي بدا منشرحاً إلى قبل لحظات، خاصة وهو يحدث الرجال عن الخلوة الصحيحة، فوجىء وهو يرى سيفو. لم يعرف كيف يتصرف، هل يبتسم ويرحب به؟ هل يستحضر الخصومة بينهما، وما سمعه مِنْ سيفو، ثم ما نقله إليه الآخرون؟

لما استوعب ما قاله سيفو، وأكدته وقفته وتعابير وجهه، ردَّ بصوت لا يكاد يسمع:

- اللهم جيبك يا طولة الروح..

التفت إلى أكثر مِنْ جهة، وكأنه يقدر كُلّ خطوة، كُلّ كلمة، لعله يصل إلى صيغة تجنبه الاصطدام دون تنازل. قال فِي محاولة لامتصاص غضب سيفو وشره:

- شاركنا يا أبو فلاح بذكره، لا إله إلا هو.

- يا رب أخافك، وأخاف مِنْ اللي ما يخافك...

وكاد يتابع، إلا أن الملا حمادي قاطعه بحدة، وهو ينظر إليه لحظة، وإلى الذين حوله لحظات، فِي محاولة لأن يدفعهم للوقوف معه:

ـ تعوذ مِنْ الشيطان يا أبو فلاح، وإذا بينا سالفة فلا هذا وقتها ولا هنا مكانها، يرحم والديك يا أبو فلاح!

ردَّ سيفو، وهو يتقدم نحوه خطوة:

ـ ترى وصلت السچين للعظم: وِلدنا وأخذوهم عسكر: بيوتنا وانهجمت؛ وبكل محلة ببغداد مناحة، فما أريدك تصعد على المنارة، تلقلق مثل ما قالوا لك جماعة السراي، سمعت؟ افتهمت؟

- آني ما ألقلق، سيفو، آني أدعو الناس لذكر الله، وأقول لهم شنو الحلال والحرام، مو مثل غيري...

وتقدم سيفو خطوة أخرى، أصبح فوقه تقريباً. تراجع الملا حمادي قليلاً، انكمش وزعق بصوت أقرب إلى المواء:

- وبعدين.. آني أقول اللي الله يلهمني، وماكو أحد بالدنيا يأمرني، يقول لي شنو اللازم أسويه؟

ابتسم سيفو وهو يمد يده لينتزع الملا حمادي، وخرج صوته مِنْ الحنجرة، بطيئاً عميقاً، وكأنه يكلم طفلاً:

- تعال وياي، ملا، حتى نتفاهم زين!

يقول بعض الذين تواجدوا هناك أن الملا نهض استجابة لطلب سيفو. ويقول غيرهم أن سيفو انتزعه كما تنتزع الخسة مِنْ الأرض، إذ لوي ذراعه وأنهضه، ورغم أن عديدين حالوا بينهما، إلا أن قوة سيفو، ثم غضبه، جعلهم يتراجعون. ولولا وصول الأسطة عواد فِي تلك اللحظة، ولا يعرف مِنْ ناداه، لاخذت الأمور مساراً لا تحمد عقباه.

فِي ذلك المساء، حين نادي الملا حمادي لصلاة المغرب، قيل إن صوته بدا ضعيفاً مشروخاً لا يكاد يُسمع، وقيل إنّه كان يغالب الألم مِنْ ملخ يده، علاوة على الحزن الذي ملأ صدره نتيجة ما حدث، وهذا ما يفسر الحشرجة التي بدت واضحة فِي نهاية الأذان. وقيل إن الأسطة عواد أخذ الرجلين إلى زاوية فِي المسجد، وأسمعهما كلاماً قاسياً، لأن كلاً منهما، بعد أن سمع ذلك الكلام، أخذ طريقه بصمت، ومضى.

وفِي ذلك المساء لم يدع الملا حمادي الناس للمشاركة فِي وداع الحملة، ولا يعرف ما إذا كان ذلك بسبب تهديد سيفو، أو لأنه كان ضعيفاً منهكاً، بحيث لم يتذكر أو لم يكن قادراً. أما فِي الأيام التالية، وإلى أن غادرت الحملة، فقد لازم الملا حمادي الفراش، وناب عنه ابن أخته، مزهر، حارس مقبرة الشيخ معروف، فِي الأذان. أما الذي أم المصلين خلال تلك الأيام فكان خضير ملا نوري، وقد طلب منه الأسطة عواد، وبطريقة أقرب إلى الرجاء، أن يفعل ذلك.

سيفو بعد تلك الحادثة غاب عن قهوة الشط لأيام عديدة متوالية. لم يُعرف إن فعل ذلك توقياً مِنْ جندرمة السراي، أو أن الأسطة عواد، وربما بسبب الكلمات الخشنة، وكانت تتجاوز اللوم، التي أسمعه إياها، جعله يفعل ذلك، الأمر الذي دفع حسون، مستفيداً أو مستغلاً غياب سيفو، لأن يسرج الحصان ويذهب إلى صوب الرصافة، ليرى كُلّ شيء بنفسه ثم ينقله إلى قهوة الشط.

الأمر المؤكد أن حسون انتقل إلى الرصافة، انتقل وشلال، وكان الاثنان فِي أبهى الحلل. شلال بسرجه الجميل المزين بالخرز الملون، وباللجام الفضي، وريشات نعام وضعها حسون على الوجنتين، وعلى رأس الحصان، فوق العرف، أما هو فارتدى ثياباً جديدة، أو بدت جديدة لكل مِنْ رآها. وعبرا فِي الصباح الباكر.

ولأن بغداد، ذلك اليوم، كانت تحت وطأة همٍ ثقيل، فان التحركات اللاحقة لعبور حسونٍ إلى صوب الرصافة مِنْ الاضطراب والتداخل، واختلاف الروايات أيضاً، بحيث لم يُعرف ما حصل.

قال أناس ان حسون ما أن نزل والحصان مِنْ المركب حتى توجه فوراً لمقام سيدنا عبدِ القادر، لكي يصلي ويطلب البركة لشلال. ولا يعرف إن

وصل المقام فعلاً وحصل على البركة، أو انضم قبل وصوله إلى واحدة مِنْ التجمعات التي كانت تجوب باب الشيخ، محتجة على سوْق الشباب إلى العسكرية، وكان صوت بكاء النسوة يفتت الصخر، ويمنع أيّ إنسان أن يمر دون أن يشارك، وربما هذا ما دفع حسون لأن يكون فِي واحدة مِنْ هذه التجمعات أو على رأسها، مما أدى إلى الإصابات التي لحقت برأسه ووجهه، وإلى تمزق ثيابه أيضاً. ويضيف هؤلاء، أنّه لولا قوة حسون فِي مواجهة الجندرمة لأخذ منه شلال، وربما لحقته إصابات أخرى.

ويقول غير هؤلاء أن حسون توجه فور نزوله مِنْ المركب إلى الباب الشرقي، ليرى بأم عينه كُلّ شيء ومنذ البداية، كي يتسنى له بعد ذلك أن ينقل «للجماعة» كُلّ التفاصيل. ولأنه اقتحم الكثير مِنْ الصفوف، وهو يتقدم إلى الأمام، وتجاوز بعض الأماكن المخصصة للمودعين، فقد تعرض له الحرس، وحين رفض الاستجابة لأوامرهم، اشتبكوا معه واوقعوا به الإصابات التي ظلت ظاهرة بوضوح لأيام، بل لأسابيع، لاحقة.

ويضيف بعض هؤلاء، أن حسون حين منع مِنْ الوصول إلى حيث كان يريد مِنْ هذه الناحية، اتجه إلى ناحية أخرى، مخترقاً الكثير مِنْ الحواجز، وكان رافعاً منديله الأبيض، دليل المسالمة، وأنه يحمل رسالة عاجلة لا تحتمل التأخير، مما أدى إلى إفساح المجال أمامه، بحيث وصل بالقرب مِنْ طليعة القوات المتوجهة إلى الجنوب، والتقى هناك بعدد مِنْ أبناء محلات الكرخ، وتحدث معهم، وأعطاهم ما كان يحمل مِنْ دراهم، وقيل إنّه هوس وغنى، مما أثار حميتهم، وكادت تقع أحداث لا تحمد عقباها، الأمر الذي أدى إلى إبعاد حسون، بل وقيل إنّه حجز والحصان، وهذا ما يفسر الإصابات التي لحقت به، ثم تأخر عودته إلى صوب الكرخ بضعة أيام.

أما خبثاء قهوة الشط، الذين أنكروا، منذ البداية، أن يكون حسون وصل إلى الباب الشرقي، وإنما اتجه فوراً إلى الباليوز، فإنهم يعتمدون فِي تأكيد ما يقولون على بعض الصبية الذين عبروا النهر سباحة، ولم يعودوا إلا بعد الغروب. إذ حين سئل هؤلاء ما إذا رأوا حسون، أو سمعوا شيئاً عنه، هزوا رؤوسهم بالنفي، وقال ثلاثة أو أربعة منهم أنهم رأوا أشياء كثيرة، وهم ينتقلون مِنْ مكان إلى آخر، وشاهدوا الباشا أيضاً، أما حسون فلم يكن له أيّ أثر!

ولكي تكتمل رواية خبثاء قهوة الشط، وقد تمت على مراحل، خاصة بعد أن أنقضى اليوم الأول دون أن يعود حسون، فقد أضيف إليها الكثير ساعة بعد أخرى، وتعدلت، ثم تأكدت أكثر مِنْ قبل. بل وصارت الرواية الوحيدة، بعد أن عاد حسون، وهذه الرواية تؤكد انه تعرض للضرب على أيدي حراس الباليوز.

ثلاثة أيام بلياليها امتدت غيبة حسون، وبعد هذه الأيام والليالي عاد.

أين كان؟ ماذا حصل له خلال هذه المدة؟ وإذا كان على الجزء الظاهر مِنْ جسده أثار الكدمات وبقايا الدم فماذا عن الأجزاء الأخرى غير الظاهرة مِنْ الجسد؟

لم يكن لمثل هذه الأسئلة إجابات، لأن صمت حسون، بعد أن عاد، أقوى مِنْ الصخر، هكذا قال الأسطة عواد وهو يستجوبه لمعرفة ما حصل. كما لم يكن هناك شهود، حتى ولو عن طريق النقل، ليوضحوا الأمر.

سيفو الذي ظهر مجدداً عصر اليوم التالي لسفر الحملة، وحين سمع الهمس الذي يدور عن حسون، ولا يُعرف هل ما زال حياً أم وقع له مكروه. ورغم الحزن والهموم الكثيرة، فقد قرر أن يعبر فجر اليوم التالي لذاك الصوب، ويبحث «عن هذا الأثول اللي ما يرتاح ولا يخلي غيره يرتاح» الملاح الذي نقل حسون أكد أنّه انزله فِي شريعة الكمرك. وحين سئل عن وضعه، وما إذا تكلم معه، وهل يعرف أين كان مقصده، أو أين يحتمل أن يكون ذهب، هز كتفيه دلالة أنّه يجهل كُلّ شيء، لكنه أشار أن حسون كان صامتاً وهم يعبرون، وبدا عليه شيء مِنْ النزق، أو ربما الخوف، وقد فسر الأمر أنّه خوف على الحصان، خاصة أثناء النزول إلى المركب أو الصعود منه إلى الشاطىء.

أما المعارف، وبعض الأقرباء، الذين يحتمل أن يكون حسون زارهم أو بات عندهم، فقد أجابوا بالنفي حين سألهم سيفو عنه، وأكد بعضهم أنّه يصعب أن يصل حسون إلى الرصافة دون أن يمر بهم، واستغربوا أكثر ان يكون معه حصان أيضاً! قال سيفو أنّه لم يترك مكاناً أو أحداً إلا ومر به وسأل عنه، وكانت الإجابات، بعد الاستغراب، واحدة: لم نره، ولم نسمع أنّه جاء إلى هذا الصوب.

وإذا كان سيفو بدأ رحلة البحث وهو متأكد أنّه سيعثر عليه، «... يجوز نسي روحه بفد زاغور، أو ظل مسحسل وهو مخيل ومترهي بالدرابين حتى الناس تشوف شلون تحول أبو الفريرات وصار خيال الشقرا، لكن لازم أعظه والزمه مثل ما يلزم الجريدى...» هكذا فكر سيفو، وانقضى اليوم كله دون أن يعثر له على اثر. قال سيفو للذين سألوه فِي قهوة الشط، وقد عاد بعد الغروب بقليل:

- هذا حسون عمره عمر تفكة، يموتنا وما يموت!

ولما بدا جوابه غامضاً، تابع بنزق:

- آني أبو عقلين، قلت لروحي وجع الكتف ولا وجع القلب، شلت نفسي لذاك الصوب، وما خليت زاغور يمكن يروح عليه هالمخبل الا ودورت

ونشدت لكن أبد، لا أحد شاف، ولا أحد سمع!

وحين سئل ماذا يمكن أن يحصل له، أجاب سيفو وقد قطب وجهه:

- يطبه مرض، وروحة بليياردة...

وبعد قليل وقد تغير صوته تماماً:

- والله كُلّ روحتي على مود الحصان، لأن هذا وحده اللي يستاهل، أما هذا الخبل، حسون، فلوعنا مو نوبة، ألف نوبة؛ يغيب.. يغيب، وبعدين ينبت مِنْ جوا القاع، ولا كأنه غاب...

وعاد لصوته الغضب:

- سوينا سبايات لما جا فد واحد يسأل إذا شلال للبيع أم لا، فما أدري شنو هسه نقول لقدوري، لنعيم، للحاج صالح إذا سألونا عن شلال!

قال له الأسطة اسماعيل:

ـ الحق اللي قلته يا أبو فلاح، حسون وين ما غابت شمسه ينام، وهذي عادته مِنْ قبل؛ أما بعد ما جا شلال، والشهادة لله، فصار عليه أغلى مِنْ روحه، وظني أنّه يموت قبل ما يهد رسنه، فخلنا ننتظر يوم، اثنين، عسى ولعل!

قال الأسطة عواد، الذي شابت صوته المرارة:

- غصباً علينا راح ننتظر. شنقدر نسوي؟

وتغير صوته:

- وأبو فلاح، يخلف عليه، تعنى وعبر لذاك الصوب، وما خلى مكان الا ودور بيه، وما خلى آدمي يعرف حسون إلا ونشده عنه، ورجع الرجال إيد مِنْ ورا وايد مِنْ قدام. فشنو نقدر أزود مِنْ هذا؟

ضحك سيفو بسخرية قبل أن يقول:

- حتى لمكانات صراع الديوك رحت أنشد عنه؛ وما خليت طولة، حتى مال كدش، إلا وسألت: يابا شفتو حسون؟ واللي ما يعرفون حسون أوصفه الهم، وأوصف الحصان. ورحت يم اللي يبيعون الباجلة واللبلبي، واللي يبيعون الباچه، وكُلّ واحد يهز راسه وما يكلف روحه حتى الكلام...

والتفت إلى الأسطة اسماعيل:

- حتى وقفت يم مزين، يا أبو حقي، وسألته: بابا، يامعود، شفت حسون؟

باوع على الرجال وفر راسه، عباله مخبل يسأله، وقال: حسون اللي تسأل عليه: جاهل؟ چبير؟ طير؟ مطي؟ ضحكت وقلت له: فارس، واله

شوارب ولا أبو زيد، وجواه حصان ولا برق الوالي! ردَّ وقال: اسأل التكان اللي بصفي، لأن صاحبها يبيع شعير!

قال الأسطة عواد بصوت خفيض:

- الغايب عذره وياه، وهذا حسون إله كُلّ دقة وحدة أنجس مِنْ اللخ.

وبعد قليل وكأنه يحدث نفسه:

- والله إذا شافتك عيني يا حسون لأودي جلدك للدباغ، وأسوي بيك سوايات ما صارت... بسيطة.. تجي ونتواجه!

- خلي يجي هسه، وبعدها الله كريم!

هكذا ردَّ الاسطة اسماعيل، وأضاف وهو يدير وجهه بعيداً عن الأسطة عواد:

- ويعلم الله إن ماكو أحد فسده إلا أبو نجم، هو اللي حماه ودلله... وتغيرت النبرة، كأنه يقلد صوت الأسطة عواد:

- حرام. خطية. هل هلله بحسون. ديروا بالكم على حسون. كُلّ الناس كوم وحسون كوم...

والتفت إليه وعاد إلى لهجته:

- صدق، أبو نجم، لو آني غلطان؟ مو أنت اللي حميته ودافعت عنه؟

- شنو تريدني اسوي؟ فوق غضب الله غضب العبد؟

هكذا، بنزق، تساءل الأسطة عواد، وأضاف بحدة أقل:

- كلنا نعرف حسون: رِجال على باب الله، فطير وفقير، هالشكل خلقه الخالق. هذا ما علينا بيه؛ اللي علينا بيه ان ما يؤذيه الناس، ما يثرمون براسه بصل لأن بعدها نبتلش!

- زين.. زين، خلينا ننتظر ونشوف شنو تاليها؛ هكذا قال الأسطة اسماعيل وهو ينهض. أما سيفو، الحزين، الحائر، الذي لا يعرف هل يذهب إلى بيته ليستريح بعد تعب هذا اليوم الطويل، ليواصل البحث فِي هذا الصوب، بعد أن لم يجد له أثراً فِي الصوب الآخر، عن له أن يذهب مِنْ جديد إلى الملا حمادي، أن يتعارك معه، إذ يعتبره المسؤول، بشكل ما، عما حصل، لكن وجد نفسه يقول: «حرام ضرب الميت» وبدا له وجه الملا حمادي حزيناً مهموماً، وتبدت فِي عينيه دموع أيضاً. قال لنفسه: «شنو ذنب هذا المسكين، وليش ما أطلع مراجلي إلا عليه؟» هز رأسه بأسى: «هو.. أيّ نعم، هو اللي يتحارش بالناس، هو اللي يتعيقل، وقاعد للناس سكينة خاصرة: حلال، حرام، جهنم ونار الله الكبرى، ديروا بالكم، الموت ينتظر

والله والملائكة يحاسبون.. شنو ما عنده غير هالسالفة؟ خلينا يا معود، فك عنا ياقة».

وفكر لو أن ذنون قريب، ليتحدث إليه «أحب كُلّ كلمة يقولها، لأنها تطلع مِنْ القلب، وتركض للروح مثل الغزال. وبعدين مع الكلمة رفة عين وبسمة. وحتى لما يصفن تباوع عيونه تقدح وكأنه يدور على غيمة أو نجمة، وأبد ما يخليك تضوج أو تروح لمكان بعيد» هكذا تراءت له صورة ذنون، لكنه أضاف بحزن «لكنه، هسه، بعيد، بآخر تلفات الدنيا، والواحد ينوش القمر وما ينوشه» قال له الأسطة عواد، ليخرجه مِنْ متاهاته:

ـ اللي يصفن هوايه، يا أبو فلاح، يتعب... وهذا المقرود مهما طالت غيبته يرجع، إذا مو اليوم، عقبه، فوكل الله يا ابن الحلال، ومثل ما قالوا: تفاءلوا بالخير تجدوه.

- مثل ما تقول يا أبو نجم...

وبعد قليل:

- لكن هذي الدنيا تعبتنا، وما شفنا يوم راحة. إذا راحت مصيبة تجي غيرها، أكبر منها، وما يندرى لشوكت، وشقد نقدر نحمل.

- أيّ والله.. نقضنا يا أبو فلاح، وتاليها خبز شعير!

وزفر الأسطة عواد، كانت زفرة كاوية صعدت مِنْ أعماق قلبه، وكأنه يلوم الحياة والقدر. هز رأسه مرات عديدة، وخرج صوته مسكيناً:

- قوم، تيسر، يا أبو فلاح، لان بعد تعب هاليوم ينراد لك أسبوع راحة، والصباح رباح...

وأضاف فِي محاولة لأن يطمئن نفسه وسيفو:

- وباچر ما تشوفه الا جاي يهفي: ضحكته شبر، ولا كأنه مسوي فد شي! وإذا أحد سأله: ها مولانا وين هالغيبة؟ وين سيرت والمن شفت؟ يجاوب ويرد: آني ما علي؛ آني كُلّ شيء ما مسوي، وتنقضي المسألة كلها شقا، أو ما أعرف وما أدري، وأبوك الله يرحمه!

- آني، أبو نجم، حسون شلته مِنْ دماغي نهائياً. هسه كُلّ همي الحصان وأهل الحصان، هاي شلون راح تدبر؟

- يا أبو فلاح، بدري ومات، وحتى محمد، عليه ألف صلاة، مات، فشنو ظلت هسه على الحصان؟ قابل نخلقه مِنْ جديد؟

وأضاف يكلم نفسه:

- شاب راسنا مِنْ كثر ما شفنا، وما أدري ليش الله شاد ويانا؟ شنو ماكو بالدنيا إلا العراق وأهل العراق؟

ردَّ سيفو وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيه:

- وهذا مو مِنْ اليوم ولا البارحة، أبو نجم، لأن الكبارية يسولفون، وسوالفهم أباً عن جد، انه، سبحانه، شاد عداوة ويا أهل العراق، وما مخلي لهم سچة او درب: كفخات ودفرات، وإذا تعب يسلط عليهم الطوفان، وبعد الطوفان الجراد والمحل، وهذا كله، أبو نجم، حتى يمتحنهم، حتى يشوفهم شيقولون، فإذا قالوا: الحمد لله والشكر، وهذي إرادتك يا خالق الخلق ويا مالك الملك، يشيل عنهم غضبه، ويقول لهم: خلص، رضيت عليكم، وصرتم خوش أوادم، أما إذا ظلوا يكذبون، مثل هسه، ويفنجرون عيونهم بالسماء، ويقولون ما نقبل، وهذا ما يصير ومو عدل، فسبحانه يعرف ويسمع، حتى النملة يسمع دبيبها، يا أبو نجم، فما راح يقبل، وتعرفه أنت، ما يقبل يسكت، ومثل ما تشوف عينك: مصيبة بطيز اللخ، كفخة ورا الثانية، وما يندرى بعد شنو اللي راح يصير!

الأسطة عواد الذي كان يسمع، ويهز رأسه، لم يكن يتوقع أن سيفو يمتلك هذا القدر مِنْ الإيمان أو الحجة على الاقناع، وقد استغرب لما يسمعه الآن، قال، وخرج صوته ودوداً ومازحاً معاً:

ـ اللي يسمع كلامك، يا أبو فلاح، يسأل روحه: على ويش العداوة بينك وبين ملا حمادي؟ وليش مو انت تلزم الجامع وتعلم الناس شنو الدين. وشنو اللازم يصير وما يصير!

- أنت وين... واحنا وين، يا أبو نجم؟

هز سيفو رأسه وهو يرد، ثم تابع بسخرية:

الدين، يا أبو نجم، مو بس صوم وصلاة، الدين، مثل ما يقولون، المعاملة، الدين القلب، الدين الحنية، وان يكون الواحد خوش آدمي، ما يزاغل على الناس ولا ياكل أموالهم ولا يتعدى عليهم. أما أن الواحد يحني الحيته، ويطول سبحته، ويحوقل بالطالعة والنازلة. وبس ديروا بالكم. وهذا حرام.. وهذا حرام، فهذا ما هو دين، هذا قشمرة، باب رزق...

وابتسم فجأة، وتطلع إلى عيني الأسطة عواد وسأله:

- شقد عندك فلوس، مولانا؟

ولأن الأسطة فوجىء بالسؤال، ولم يدرك المغزى الذي يرمي إليه سيفو، قلب شفته وسأله بدوره:

- ليش تسأل على الفلوس؟ محتاج فد شي؟

- سؤالي يا أبو نجم: شقد تملك بهذي الدنيا؟

- الله عاطي وكافي، يا سيفو!

- كُلّ اللي تملكه، مولانا، ما يساوي عشر معشار اللي يملكه الملا حمادي...

وتحولت ابتسامة سيفو إلى ضحكة صغيرة، قبل أن يتابع:

- دين الملا حمادي هو اللي يسوي الفلوس، اللي يلقف الطير بكبد السما والسمچة جوا المي، ودائماً عنده الحجة: قال الله وقال الرسول. ولازم تقول أيّ نعم، تمام. وإذا قلت لا، أو ليش، انت كافر، إنت فاسق، إنت مو خوش آدمي...

استراح لحظة وسأل:

- صحيح اللي أقوله، يا أبو نجم، لو آني غلطان؟

- يقولون، وأنت تعرف كلش زين: مِنْ الملا بالك بالك، وآني اقول.. وحتى سيفو إذا حب صار عمك وخالك، وإذا عادى صار مثل ملك جهنم: مالك، فالله يستر اللي تعاديه!

وابتسم الاثنان فِي محاولة لأن يبددا الحزن الكثيف الذي ينبع مِنْ كُلّ مكان، وما هذه المحاورة إلا طريقة للنسيان، أو للابتعاد عن اللهب الذي خلفته الحملة، وسوق الشباب لا يعرف إلى أين، وما إذا سيرجعون أم لا، ثم جاءت دقة حسون، كما أخذ الأسطة اسماعيل يردد حين يذكر اسم حسون.

قام الأسطة عواد. تمطى. قال لسيفو، فِي محاولة أخيرة ليدفعه إلى الذهاب إلى بيته:

ـ انت قلبك مِنْ حديد، لا تتعب ولا ترتاح، فاذا ما تريد تدور اهلك وتروح فآني ما عاد بي حيل، لازم آخذ لي غفوة قبل ما يفززني ملا حمادي مِنْ غبشة الصبح!

وهو يتحزم، ويسوي ثيابه، وسيفو حائر لا يعرف هل يذهب أم يبقى، قال له، وبدا كأنه يكلم نفسه، لكن يريد سيفو أن يسمع:

- يقولون عن الرحمة والحنية، وذيك المسكينة، فطيم، ما تدري عندها رجال لو ما عندها، واذا عندها هسه يجي، بعد شوي يجي. واذا جاء هسه...

وبغضب مدبر، وقد تغيرت لهجة الأسطة عواد، أصبحت أقرب إلى الأمر:

- لك قوم، امشِ، قول عندي مرية واكو عين تسهر علي.

ونهض الاثنان، وما ان توادعا حتى غيبت الظلمة سيفو الذي كان يتجه بخطى مترددة نحو بيته فِي الدهنوانة!

بعد انتظار طويل، مرير وقاسٍ، جاءت الفرصة أخيراً ليحيى بك القرملي، فقد صدر الفرمان بتعيينه قائداً لحملة الجنوب.

أما زيارة الشمال التي كلفه بها الباشا قبل ذلك، فكانت بمثابة اختبار، إذ لم يعهد له خلالها بمهمة واضحة أو محددة، فقط طلب منه الاطلاع وتفقد الأحوال، لذلك كانت الزيارة أشبه بالرحلة. أو كمن يرسل مِنْ ينوب عنه فِي فرح أو عزاء. أكثر مِنْ ذلك، ظن الكيخيا أن مصيره، بعد أن يغادر، وفِي إحدى محطات الطريق، سيحدده رسول مِنْ الباشا مع كتاب قصير: «ابق حيث أنت إلى أن نبلغك بأوامر جديدة». لكن الأمور سارت باتجاه آخر، إذ كانت تلك الزيارة بداية الصعود، وهذا ما أكده للكيخيا المنجمون الذين استشارهم، ثم جاءه ملاك بملابس بيضاء، أيقظه مِنْ النوم وقال له: «السعد جاء، السعد جاء»، وفِي ذات اليوم صدر الفرمان!

قبل هذه الزيارة كان يحيى بك ضيق الصدر، بالغ الاضطراب، بل وكان يشعر أنّه كالحيوان الحبيس فِي القسم الغربي مِنْ السراي، فهو لا يعرف ان كان كيخيا الولاية فعلاً أو مجرد رهينة أو سجين، وهل الباشا راضٍ عنه أو غاضب عليه. كان قلقاً مملوءاً بالظنون. حين يلتقيه الباشا، وغالباً فِي المناسبات أو أثناء استقبال الوفود. تملأ وجهه ابتسامة عريضة، ويعامله بود ظاهر، ويحرص على أن يرى ذلك الآخرون، للتدليل على المودة والانسجام بينهما، كما يهمس فِي أذنه: «انت ذخرنا وعليك الاعتماد فِي الأيام الصعبة، يا يحيى بك». ورغم الغيظ الذي كان يموج فِي صدر الكيخيا بسبب تجاهله وعدم إسناد أية مهمات جدية له، يبادل الباشا وداً بود، ويبالغ أمام الآخرين فِي إظهار الاحترام والتقدير. فإذا انتهى اللقاء، وعاد الكيخيا إلى جناحه، يقول لنفسه فِي محاولة لإزالة كُلّ الظنون: «... لا.. لا.. هذي النوبة تأكدت بنفسي، مو قال عن قيل، لان قلبي حچى وقال: مثل داود باشا بالدنيا أبد ما تلقى واذا سها أو نسي فالله يساعده، لأن الناس خابصينه، ما مخلين له وقت حتى يشوف دربه، لكن يجي يوم.. ويتفطن».

وبعد كُلّ لقاء، وخلال الأيام التالية، وغالباً ما تمتد تلك الأيام لتصبح أسابيع، يتغير مزاج الكيخيا. يكف عن ذرع الديوان الطويل، ويجلس بأبهة باذخة وراء مكتبه هادئاً مفكراً فيما يجب أن يعمله! ويقدر الرجال الذين حوله، مِنْ الهدوء المسيطر، ان مزاجه قد راق، خلافاً للأيام السابقة، والتي لم يكن يسمع خلالها سوى وقع أقدامه تضرب أرض الديوان، خاصة حين يستدير، الأمر الذي يجعلهم لا يقتربون أبداً. حتى نظمي، خادمه الخاص، الذي يحمل

إليه القهوة والغليون، يشق باب الديوان بحذر شديد ويطل برأسه، فإذا رآه البك وأمره أن يأتيه بشيء لباه فوراً. أما إذا تجاهله، أو لم يفطن لحركته، فانه يغلق الباب بحذر أكبر وينسحب. وحين يُسأل نظمي عن الجو، يرد، وهو يضع إصبعه على شفتيه، بكلمة أصبحت اصطلاحاً بين المجموعة المحيطة بالبك «مسافر». ومعنى ذلك أن لا يقترب أحد، وأن لا يُزعج البك بطلب أو سؤال، لأن غيظه فِي ذلك الوقت يكون بالغاً ذروته، الأمر الذي يحمله على شتم، وربما ضرب، أيّ إنسان يقطع عليه أفكاره وأحلامه، أو يعيده مِنْ ذلك «السفر».

بعد كُلّ لقاء بالباشا يعود الكيخيا وحده مِنْ أسفاره البعيدة. يصبح إنساناً متواضعاً، يتبسط بالحديث مع الذين حوله، يميل إلى البشاشة، وقد يمزح، كما يغدق على مساعديه، ويستجيب لكثير مِنْ المطالب المؤجلة. أما حواسه خلال ذلك فتتيقظ، وتتركز بشكل خاص على زوار الباشا. يستقصي أخبار كُلّ زائر جديد، كم قضى لديه مِنْ الوقت، وما إذا خرج راضياً أم غاضباً، وهل مر على نادر أفندي أو لم يمر. هذه الأخبار، أو ما يشابهها، تعني له الكثير، لأن أهم شيء أن يروق مزاج الباشا، وان يعود إلى طبيعته، إذ عندها سيتذكر رجاله الأقربين، وما يجب أن يفعله مِنْ أجلهم، لأن الخشية، بل وحتى الخوف، كما يقول الكيخيا لنفسه مِنْ «هذول الحبربشية، اللقامة، أولاد الزفرة، اللي يحملون الأخبار الرديئة ويركضون للباشا: قالوا.. وقالوا، وعندها ينكسر واهسه وتروح هذي بذيك!» كان الكيخيا يبقى متحفزاً منتظراً استدعاء الباشا له فِي أية لحظة، إذ لابد ان يصل خلف، ويطلب منه، والارتباك بادٍ عليه، أن يتفضل للقاء الباشا. وفِي اللقاء الذي سيضمهما على انفراد، وبعد كلمات المجاملة، لابد أن يفضي إليه بما يفكر فيه، بما يجب ان تكون عليه العلاقة بينهما، خاصة وانه الكيخيا، أيّ الرجل الثاني فِي الولاية، ولا بد أن يفوضه بكل الصلاحيات المخولة للكيخيا، كما جرت العادة، سيقول له: «... لازم نذبحها على قبلة يا باشا، لاني ما عدت قادر على الصبر. إذا تريدني، ولك ثقة بي، فاني على العهد، يمكن أن أنوب عنك بأمور كثيرة، أما إذا لك رأي ثاني فأطلب الاستعفاء أو النقل» وسير فض الباشا بكل تأكيد، ولابد أن يسترضيه، ليس بالكلمات وحدها، وإنما باصدار الفرمان. وسوف يقول له: لقد تعبت وآن لي أن أستريح، وانت ستتولى: أمور الجيش، وشؤون البدو.. وكُلّ ما تراه ضرورياً.

لكن خلف لا يأتي. تمر الأيام ولا يأتي. وتزداد حيرة الكيخيا فِي تفسير هذا الغياب، أو إلى متى سيستمر النسيان؟ لكن الباشا لا ينسى تماماً، فما أن يصل وفد إلا ويبعث وراءه، ويكرر الترحيب ويظهر المودة، ويعيد الكلمات ذاتها التي قالها فِي مرة سابقة! وتزداد حيرة الكيخيا ويزداد قلقه.

إذا تأخرت الوفود عن السراي، أو لم يكن لدى الباشا الوقت لاستقبالها، لابد أن يطل خلف، لا ليرى البك أو ليطلب إليه الحضور، وإنما بزيارة خاطفة لأقرب رجال الكيخيا. كان يأتي بين فترة وأخرى، لكن بسرعة، ليهمس ببضع كلمات، وهذه الكلمات تُفهم أو تفسر بأشكال عديدة، وكلها تؤكد الثقة والمودة التي يكنها الباشا لكيخياه، ويضيف خلف، وهو يتلفت، لئلا يسمعه أحد، أن أشياء هامة سوف تحصل فِي وقت قريب.

يحيى بك الذي يعرف بسرعة أن خلف فِي ديوانه، ونظمي ينقل إليه ذلك، يجد أنّه مِنْ غير اللائق، بحكم موقعه والسن، استدعاء خلف ليسمع منه. بل ويجد أنّه مِنْ غير اللائق أن يسأل رجال ديوانه بشكل مباشر عما قاله خلف. يترك الأخبار تتسرب إليه على شكل نتف، على مراحل، قدر ما يسمع نظمي أو قدر ما يستوعب! لكنه فِي داخله بتحرق لمعرفة أدق التفاصيل، ويتمنى لو سمعها مباشرة!

وتنقضي أيام كثيرة والتوقعات لا تنتهي. فإذا امتد الوقت دون أن يحصل شيء، وأكثر مما يطيق الكيخيا، يبدأ «السفر». وبين رحلة واخرى، ولئلا ينفجر، لا بد أن يفعل شيئاً. وقد وصل إلى حلول كانت تمتص جزءاً مِنْ الغيظ: الطعام والزواج. كان يهتم بالأكل إلى أقصى حد، وكان لديه طباخ فارسي، جمشيد برهاني، يعرف كيف يلبي رغباته بإعداد أنواع مِنْ الأطعمة لا يحسنها غيره مِنْ طباخي السراي. فإذا لم تشبعه أطباق اللحم المطبوخ، لابد أن يبحث عن اللحم الحي، شرط أن يكون على سنة الله ورسوله، كما يقول، ومعنى ذلك أن يتزوج امرأة جديدة، بعد أن يطلق واحدة مِنْ الزوجات القديمات، لئلا يزيد ما عنده على أربع! لكن كثيراً ما يخطىء الكيخيا فِي الحساب، وكان شمسي أميني، نائب المفتي، يجد له فتوى مناسبة، تكون أغلب الأحيان بإطعام عدد مِنْ المساكين!

الباشا يعرف كيخياه معرفة جيدة، ويحسن التعامل معه، إذ بالإضافة إلى مظاهر الفخامة التي وفرها له، والأموال التي وضعها تحت تصرفه، كان يتذكره بين فترة وأخرى بخلعة جديدة، أو مجموعة مِنْ الهدايا. ولا ينسى أن يخصه بأعداد كبيرة مِنْ الطيور والغزلان التي تصل إلى السراي. كما تفقده مرات عديدة بكميات مِنْ العسل الذي كان يوصي عليه مِنْ الشمال! أما الهدية الخاصة، الثمينة، وكانت مِنْ روح العسل، التي وصلته ذات يوم مِنْ أحد أصدقائه العسكريين فِي اليمن، فقد بعث فوراً بها إلى نائبه، مع كلمة قصيرة خطها بنفسه «... ويقول صديقي وجدي بك أن هذا النوع مِنْ العسل الملوكي لايعيد القوة والحياة فقط، بل ويجعل ابن السبعين أقوى مِنْ رجل فِي العشرين!».

أما زيجات يحيي بك، وكان يحرص على أن تتم دون جلبة، أو بأقل جلبة ممكنة، فقد حضر الباشا، على غير توقع، اثنتين أو ثلاثاً منها، وقدم فيها هدايا تليق بالمناسبة، الأمر الذي أحرج الكيخيا كثيراً، إذ لم يكن يتوقع أن يصل إلى علم الباشا مثل هذه الأخبار بتلك السرعة، أو أن يحضر خصيصاً للتهنئة والتبريك!

وعقب أية لفتة كريمة، أو تصرف غير منتظر مِنْ الباشا، يزداد يحيى بك حيرة، كيف يجب أن يتعامل مع الوالي، أو كيف يحدد موقفه منه. إنّه يحبه ويكرهه فِي آن واحد. وإذا كانت الكراهية لا تعبر عن حقيقة مشاعره تماماً، فإن ما يحس به تجاهه هو الغيظ.

لقد اختلف الباشا كثيراً عما كان فِي السابق. انه الآن أشد تحفظاً وأكثر صمتاً. لكن ليس تجاهه وحده، بل تجاه الآخرين أيضاً. كان يحيى بك يسأل نفسه. ويتساءل أمام عدد مِنْ أصدقائه المقربين «... يا جماعة الخير.. داود باشا اللي نشوفه هذي الأيام غير داود اللي كنا نعرفه، غيره أيام سعيد، وغيره وهو فِي الحضرة الكيلانية. أما أيام الشمال، وتذكرون، فكان يباوع بوجوهنا ويقول: إذا الله يسر ومكنا، راح تصير الولاية غير ولاية. وبعيونكم راح تشوفون. وكُلّ واحد حارب ويانا، كُلّ واحد مِنْ «الجماعة» راح ينال حقه وزود، ويبقى رافع راسه إلى ان يموت. وحتى ولِده راح يكونون معززين مكرمين. فشنو اللي صار بالدنيا؟ منو تغير احنا أو هو، ام الدنيا تغيرت وما عاد أحد لأحد؟» حين يتساءل يحيى بك هكذا، لا يتوقع، أو لا يريد، جواباً، لأنه بمقدار ما يخاف الإجابة على مثل هذا السؤال، أمام الآخرين، يحدس ما يفكر فيه الآخرون. ولا ينتظر منهم أيّ جواب، لكن فِي قرارة كُلّ واحد منهم ان داود تغير، تغير كثيراً، وضع مسافة بينه وبين أغلب رجاله السابقين. وهذه المسافة تبدو لمن يراقب ويتابع، تتسع وتكبر، لأن الباشا، بالإضافة إلى العزلة التي فرضها على نفسه، لم يعد يلتقي إلا بعدد محدود مِنْ رجاله، ولا يُعرف متى يفعل ذلك، لأن جو التكتم التي فرضه على السراي أضحى شديداً لدرجة أن لا أحد يجرؤ على نقل ما سمع أو ما رأى للآخرين. وإذا صدف ان التقى الباشا بأحد فإنه يستمع أكثر مما يتكلم، وينظر إلى عيون مِنْ يحدثه، وكأنه يريد قراءة الأفكار والنوايا أكثر مما يريد سماع الكلمات التي تقال له. فاذا تحدث تخرج الكلمات مِنْ بين شفتيه زلقة، محاذرة، خلافاً لطريقته عندما كان فِي الشمال. كان ذلك الوقت، يتكلم كثيراً، ورغم ما كان يشوب كلامه مِنْ انفعال، فهو شديد الوضوح، بالغ الصراحة، أو هكذا كان يبدو. الآن لا يُعرف بماذا يفكر، أو ماذا يريد. فكلماته تشير ولا تقول، وحين يقرر أمراً يبلغه عن طريق رجال الديوان، وغالباً ما تكون أوامره قصيرة، سريعة، وغير قابلة لأي نقاش؟

حين تشكل الأمور هكذا على يحيى بك، وفِي محاولة لتخفيف مشاعر النقمة على الباشا، كان يقول لنفسه: «... يظل الباشا مثل أب. أشغاله كثيرة، ما تخلص، وسبحان مِنْ لا ينسى. لكن إذا هناك أحد دمر الأول والتالي فهو الآغا، هو السبب وهو العدو». ويتذكر كيف دخل الآغا إلى السراي كالزوبعة، إذ بعد أن استولى على القلعة وأبواب بغداد، ووضع رجاله هناك، أصبح الآمر الناهي. حتى الباشا كان يخشاه، بل وصار أسيراً بيده، وقد اكتسب تلك القوة حين حز رأس سعيد وقدمه هدية إلى الباشا. أما بعد معارك الفرات الأعلى، فلم تعد الأرض تحمله، أصبح مغروراً مثل طاووس، وأصبح يقول، دون كلمات: أنا ربكم الأعلى. ويا ويل مِنْ يقف فِي وجهه.

احتمل الباشا الكثير. كان يتظاهر أنّه لا يرى. ولا تصله أخبار الأغا. لكن لما جاءت الفرصة المناسبة، قال للآغا: «يا آغا... أهل الشمال يسألون عنك، وبينهم نزاعات ومشاكل لا يحلها إلا أنت، وهم لا يقبلون غيرك يحكم بينهم، فاريدك فِي الشمال!» وأرسله إلى الشمال، وذاك يوم وهذا يوم وهو هناك!

وأخذ يستعيد لقاءاته الأخيرة بالآغا فِي كركوك:

كان الآغا، خلافاً لما عرفه مِنْ قبل، ودوداً هادئاً فِي أحاديثه وبتصرفاته. أما حين تحدث عن الباشا فقد فعل ذلك باحترام شديد. وكأنه فِي حضرته. كان يريد أن تصل إلى مسامعه لا الكلمات وحدها، بل والطريقة التي قيلت بها، رغم تأكده أن الباشا وضع حوله العيون، وهؤلاء لا يتوقفون عن نقل كُلّ شيء، حتى التفاصيل الصغيرة. مع ذلك كان حريصاً على أن يسمع الكيخيا أيضاً، وان يدلل على نواياه الحسنة أمامه!

قال الباشا ليحيي بك، وهو يوفده لتفقد أحوال الشمال: «... والآغا ما ينباق لسانه، ما يقول اللي بقلبه، إلا إذا تعمر راسه، إذا كروع وشرب مثل عقرق. وعندما يفك حزامه ويمد رجليه، إعرف أنّه خلص وراح يطلع اللي ببطنه، وبذاك الوقت نعرف شلون نداويه. فكل ما أريده منك ان تحوفه مِنْ هنا لهنا حتى يقول، حتى يتكلم، وبعدها الله كريم».

والكيخيا الذي ظل فترة طويلة مِنْ شبابه وأول كهولته لا يقرب الخمر، اكتشف متأخراً أن الخمرة ليست سيئة، كما يقولون. كان هذا الاكتشاف حين دعاه أحد أصدقائه الأرمن، وقدم له طبقاً مِنْ البط المطبوخ. كان الطبق لذيذة إلى درجة أن طلب الكيخيا إرسال طباخه، جمشيد، لتعلم طريقة اعداده. وأخذ جمولي، كما يسميه الكيخيا، يعد الطبق بنفس الطريقة التي تعلمها. ولما امتدح عدد مِنْ ضيوف الكيخيا الأكل، وقالوا وهم يتلمظون «... هذا مو بط، مولانا، هذا فستق، أطيب مِنْ الفستق» وكان هؤلاء مِنْ رجال الدين الذين يعرفون، «طعم حلقهم» كما قال الكيخيا، فقد شعر بالفخر لهذا المديح! جمولي لم يستطع أن يخفي عن سيده، بعد أن وصله

المديح والثناء، أن ما يعطي طبق البط هذا المذاق، الخاص واللذيذ، الخمر الذي تنقع فيه الطيور ليلة بكاملها، ثم الخمر، وهو مِنْ نوع ثانٍ، الذي يضاف قبل أن ينضج بقليل! والكيخيا الذي أجفل أول الأمر، وتطلع حواليه، ما لبث أن هز رأسه وقال لجمولي بطريقة لا تخلو مِنْ مكر:

- لو خليتها سنطة، يا ابن الحرام، لو ما قلت، چان الله غفر لنا، لكن هسه شلون؟

وجمشيد الذي يعرف سيده جيداً، وقد عمل لديه منذ وقت طويل، ردَّ بمكر لا يقل عن مكر الكيخيا:

- إحنا ما علينا، عمي، نحطها برقبة الأرمن، خلي الله يحاسبهم ويفتصل وياهم!

ولان الكيخيا خلال تلك الفترة لم يكن بمزاج رائق، فقد ردَّ مغضباً:

- أنت مثل عادتك ما تجوز مِنْ المكسرات: وين اكو سالفة تغث، تشوط الفؤاد، تشيلها حارة وتذبها بشليلي!

- لكن يقولون، عمي، أن النار إذا لاحت أيّ أكل تطهره، يصير حلال!

ـ اش ما قلت، الشهادة لله، أخبث منك ماكو. تقول للحرامي بوق.. ولأبو البيت دير بالك!

- آني ما علي، عمي، هم هالشكل يقولون؟

زين... زين، نوبة ثانية تركب الأكل بليا ما تقول لي حطيت فلان شي وفلان شي. سمعت؟

ـ أمرك عمي؟

ولم يتأخر الكيخيا ليطلب تذوق النبيذ، ثم الشراب الأقوى، الذي يضاف إلى طبق البط، واكتشف أن مذاق الأول خفيف مستساغ، أما الشراب الآخر، والذي لم يكن جمشيد نفسه يعرف اسمه، فقد كان ثقيلاً، كاوياً، «وينوم بالعجل» كما وصفه الكيخيا، وهكذا أخذ يحتسي مقداراً مِنْ النبيذ. وهذا المقدار يتوقف ويتناسب مع برودة الجو، ومع الحالة النفسية التي تسيطر عليه. كان يفعل ذلك بتكتم شديد، وأمر أن يتولى جمولي وحده تقديمه له، وبسرية كاملة، كما أمره أن يجيب، فيما لو سئل، أن ما يقدم حساء أو دواء، وزيادة فِي التمويه أخذ جمشيد يقدمه بأطباق الحساء!

تذكر الكيخيا احداثاً كثيرة، ومرت أمام عينيه مشاهد اكثر، وهو يقطع الطريق إلى الحلة، حيث سيكون هناك مقر قيادته فِي هذه الحملة التي انتظرها منذ وقت طويل.

لقد جاءت الفرصة أخيراَ. فتحت أمرته الآن أحسن القطع العسكرية الموجودة فِي الولاية كلها. قال له الباشا وهو يودعه: «... وإذا لزم الأمر، يا يحيى بك، سوف نرسل إليك المزيد مِنْ الجنود والعتاد. المهم إخماد العصيان، وتلقين هؤلاء البدو درساً قاسياً ليعرفوا مِنْ هي الدولة ومن هو الوالي، وحتى يقولوا: أن الله حق» ولأن الفرصة جاءت، يجب أن يقبض الكيخيا عليها بأسنانه، سوف ينفض عن روحه الغبار الذي تكدس خلال السنين الأخيرة، وسوف يثبت لدواد، لكل الآخرين، مِنْ هو يحيى القرملي، وماذا يمكن أن يفعل، خاصة وان الكثيرين لم يعودوا يحسون بوجوده، أو يتذكرونه، قال لنفسه، وقد أصبح قريباً مِنْ الرضوانية، حيث يستريح ليومين قبل أن يواصل سفره: «داود لا يتحمل أن يكون إلى جانبه أحد قوي، ولا يريد لغيره أن يظهر، وهو يختلف عن الولاة الذين سبقوه: السلطة بالنسبة له أهم وأغلى مِنْ كُلّ العواطف، وهي فوق القرابة والصداقة، لأنه يخشى أن يكون مصيره مثل مصير سعيد أو التوتونجي وأغلب الذين سبقوه».

قال لجمولي الذي سبقه إلى معسكر الرضوانية:

- مِنْ هنا إلى أن نوصل الحلة: كُلّ يوم بط، لان بعد الحلة ما يندرى شنو اللي يصير، سمعت؟

ـ أمرك - سيدي!

ولما رأى الكيخيا على وجهه ابتسامة استغراب، سأله بتحدٍ:

ـ شنو.. أشوفك مسوي روحك أعرج.. وهمين لابس قبقاب!

والعياذ بالله، سيدي، لكن اللي أعرفه ان البط مِنْ الحلة وانت نازل...

وابتسم جمولي، وهو يُضيف:

- حتى البدو اللي ما ياكلون اللحم الا بالعيد، واقعين دق بالطيور. واللي يوصلنا لبغداد أقل القليل!

ـ تظل اثول شقد ما نعلمك، لك البط ينراد له زردوم طري حتى ينبلع!

وصاح الكيخيا على نظمي، الذي لم يكن بعيداً:

- لك.. تعال، اسطر لي هالمطي سطرتين حتى يتعلم!

وبطريقة تمثيلية، ولكي يضحك الكيخيا وضع جمولي يديه حول رأسه، وكأنه يحاول تجنب الضربات التي ينهال بها نظمي عليه، وهرول وهو يردد:

ـ التوبة.. سيدي، وما يصير الا اللي تريده!

ولم يتأخر لكي يحمل اليه، بآنية الحساء، شراباً يرطب به حلقه بعد عناء يوم طويل!

رغم أن الأخبار تأتي لداود باشا مِنْ مصادر عديدة، الا أنّه لا يعمل إلا بعد أن يتأكد، وتكون الخطوة الأخيرة، قبل الاقدام على اتخاذ قرار كبير، استشارة محب الدين المرادي، كبير المنجمين، والملازم له فِي السراي.

ومحب الدين المرادي، لأنه رافق الباشا منذ وقت طويل، يعرف متى يصمت ومتى يتكلم، خاصة وان له عيونه فِي السراي، فِي الجناحين، ينقلون إليه الكثير، وهذا ما يجعل مخاطبته للنجوم، أو مراجعته للكتب، مختلفة عن منجمين آخرين، ويجعل كلمته عند الباشا محل اعتبار وثقة. كان يروق له، بعض الأحيان، رغم ميله إلى الصمت فِي حضرة الوالي، أن يحدثه عن الخدع التي يلجأ إليها المنجمون، ولإثبات رأيه يطلب أن تُجرى الاختبارات، ليتأكد الباشا بنفسه! وقد نجح مرات عديدة، بحيث أصبح مركزه فِي السراي قوياً إلى درجة لا يمكن لأحد أن يزاحمه. كما كان موضع خوف الكثيرين، لأنه إذا لم يعرف الأسرار، يمكن أن يشور، حسب رأي مرافقه معين.

ولأن سمنته المفرطة كانت تعيقه عن الحركة النشيطة، وتحد انتقاله مِنْ مكان إلى آخر بسهولة، فقد أصبح ولداه معتز وصائب لا يفارقانه، وينوبان عنه، بعض الأحيان، فِي استقبال كبار موظفي السراي. وبمرور الوقت أصبحا يقومان ببعض الأعمال التي كان يقوم بها سابقاً، وتخصص هو فِي تلبية الواجبات المتعلقة بالباشا، وببعض الذين يطلب الباشا أن يقرأ لهم الطالع. ومع الولدين كان مرافق الظل، معين، وهو رجل متين الجسد، بالغ القوة، مهمته ان يساعده على الحركة والانتقال، إضافة إلى تلبية مطالبه وتقصي الأخبار والأسرار، خاصة وأن له علاقات واسعة، ويعرف كيف يستدرج الكثيرين للكلام.

كان معين بالإضافة إلى صفاته الجسدية التي لا غنى عنها، يعرف كيف يشيع جواً مِنْ الرهبة حول سيده: نبوءاته الخارقة؛ معرفته بأسرار ما حصل وما يمكن أن يحصل؛ الأذى الذي يمكن أن يلحقه بمن يخالفه أو يشكك بمقدرته. يقول ذلك وهو يروي الكثير مِنْ الحوادث.

مقابل الخدمات التي يطلبها معين ممن يتصلون به، لعل الشيخ يشفيهم مِنْ مرض أو يعيد لهم غائباً، أو يكشف عما ينتظرهم، كان يجمع أسراراً جديدة تنقل فِي نفس اليوم، وأحياناً فِي نفس الساعة، إلى الشيخ محب الدين، ويتلقى أيضاً مبالغ سخية لقاء ذلك.

وإذا كان الشيخ محب الدين حريصاً على الأسرار التي ينقلها إليه معين. فان حرصه على الأموال التي وصلت إليه لا يقل عن ذلك. كان يتطلع إليه،

وهو يحدثه عما سمع، فيحرك أصبعي يده اليسرى، الابهام والسبابة، بطريقة لا يمكن لأحد أن يخطىء فِي الفهم أين هي أموال ذلك اليوم؟ فاذا تغاضي معين عن رؤية الاصبعين، أو تردد فِي وضع المبالغ التي تجمعت لديه على طرف الفراش الذي يجلس فوقه الشيخ، يقول له ببرودة وبحزم معاً:

- طلع... طلع قبل كُلّ شي، ولا تدوخني بقال وقلنا!

ومثل عادته معين، يتظاهر أنّه سها، ويبدأ يبحث فِي جيوبه، وكأنه نسي أين وضع النقود، لكن يجدها بسرعة، لأن أيّ خطأ مع الشيخ يرتب نتائج خطيرة، أقلها أن يسمع شتائم لا يظن أحد أن الشيخ محب الدين يعرفها، أو يمكن أن يتفوه بها.

يقول، وابتسامة ماكرة ترتسم على شفتيه:

- بلاع (...) تعلمت القسمة؟ صار براسك غيرة وصرت تقول هذا الي وهذا لغيري؟

ويقف معين، وهو ينفض ملابسه، دلالة أنّه أعطاه كُلّ شيء، ويقسم الايمان انه لم يبق لديه بارة واحدة، وينتهي بان يقول:

ـ إذا ما تصدقني انزع هدومي حتى تتأكد!

- تنزع هدومك؟ تتصلخ؟ هذي العايزة!

ويعود الشيخ إلى سبحته أولاً، وبحركة يده يطلب منه أن يواصل ابلاغه بما رأى وبما سمع. وحين يجلس معين بين يديه مجدداً، يقول له قبل أن يدعه يتكلم:

- مية مرة قلت لك: هذي الفلوس للأيتام والقُصر، وللناس اللي طايح حظهم، ويحرم علي أكل فلس منها!

ويروي معين الكثير مِنْ الأخبار والأسرار فتتغير معاملة الشيخ له، يضحك لما يسمع، يهز رأسه، يضرب على فخذه دلالة الأهمية ولئلا ينسى، ويمد يده إلى جيبه، يخرج قطعة نقود، وهو يقول:

- هذا مِنْ جيبي، مو مِنْ أموال الايتام، مصروف هذا اليوم، وبس تتجمع عندك فلوس كافية راح ازوجك خوش بنية!

ومع ان معين متزوج، ولديه عدد غير قليل مِنْ الأولاد، إلا أنّه المرض الذي أصاب الشيخ محب الدين أصيب بعدوى: الرغبة فِي التغير!

كان الشيخ محب الدين خلال الليالي التي يقضيها فِي السراي، وهي كُلّ الليالي عدا الاثنين والخميس، يعوض عن لقاء نسائه بالحديث عن جميع

النساء. وأكثر ما يروق له ذلك مع يحيى بك ومع شمسي أميني نائب المفتي.

تعود أن يلتقي الثلاثة عند الشيخ محب الدين، باعتبار أن حركته ثقيلة. ولأن زوجاته يعشن خارج السراي، مما يتح أن يجري الحديث، وما يرافقه مِنْ ضحكات عالية، دون تحفظ، وبلا رقابة. ورغم أن الثلاثة كانوا يشاركون فِي الحديث بنشاط وحيوية، الا أن الشيخ محب الدين كان السيد، نظراً لتجاربه، ولما لديه مِنْ مراجع يمكن الاستعانة بها فِي بعض الأحيان.

ومع أن الشيخ محب الدين حازم فِي قبول أو رفض مِنْ يكون فِي مجلسه، خاصة فِي البداية، فان الموقف لا يلبث أن يلين بمرور الوقت، ولكن إلى حد لا يتجاوزه. إذ مثلما يحرص الشيخ على وجود ابنه معتز، باعتباره كبيراً ومتزوجاً، ويجب ان يلم بما يعرفه الكبار والمتزوجون، فان صائب الذي يدفعه حب الاستطلاع أن يكون موجوداً، أو أن يسمع ما يقال، يلجأ الأب، ليعطي درساً للآخرين، لنهرِه طالباً منه أن يترك المجلس، وقد يكلفه بأمور تقضي بمغادرته للسراي، لكن صائب يعرف كيف يحتال على الأمر، ويبقى حاضراً، إذا لم يكن كُلّ الوقت، فالقسم الأكبر منه، بحجة خدمة الضيوف، أو تلبية بعض الطلبات. كما ينيب عنه آخرين لتأدية ما طلبه منه أبوه!

يحيى بك، الذي يصل المجلس فِي العادة متأخراً، ويبدو متجهماً مهموماً، وغالباً ما يعطي للقاء طابعاً جدياً فِي البداية، مِنْ خلال الأحاديث التي يخوض فيها، إلا أن شمسي أميني يعرف الوقت المناسب كي يوجه الحديث وجهة أخرى. يفعل ذلك بسؤال الشيخ ما إذا وصل الدواء الذي وعده به، لأنه لم يعد قادراً على الانتظار أكثر مما فعل، ويتبع ذلك برجاء وتهديد. يجري الحديث برموز لا تخفى على أيّ منهم، ولا تخفى على بعض الذين يكون وجودهم ضرورياً فِي المجلس مِنْ أجل تلبية الطلبات، خاصة جلب الماء وبعض الأشربة، إلى تعمير الغلايين، أو تقديم القهوة وإمرار المباخر والعطور.

حالما يأخذ الحديث ايقاعاً، وكان الشيخ محب الدين يحسن الحركات والاشارات مثلما يحسن الكلام، يتحول يحيى بك إلى طفل كبير: يتحرك جسده بسرعة وخفة، وينزع جزءاً مِنْ ملابسه بمثل السرعة التي ينزع التجهم عن وجهه، كما تعلو ضحكاته وكان أحداً يكركره. فإذا أخذ الحديث منحى متعلقاً بالطعام والشراب، فلا بد أن يستدعي هذا «العجمي الملعون» جمشيد، أو جمولي كما يسميه، لكي يتعلم كيفية اعداد تلك الأطعمة والأشربة. وشمسي أميني الذي لا يمانع، لا يحب أن ينقطع الحديث أو يتباطأ إلى أن يأتي جمولي. يقول بطريقة لا تخلو مِنْ تعريض:

- بابا خلونا نسمع باقي السالفة، ولاحقين على القراية والكتبة!

فيرد يحيى بك بمرح:

- يا شيخنا، هذي المسائل ما يكفي بها الكلام، نريد الشي اللي يعبي الدماغ، نريد الفعل، أيّ نعم، الفعل، مولانا!

ويستمر الشيخ بالحديث، لكن بتمهل وبطء، لأن إرضاء يحيى بك أمر هام بالنسبة له، ولكي يجعله أكثر اقتناعاً، يُضيف:

- وآني راح أملي على معتز الوصفة، وهو يعلمها لمن تريدون.

ويتغير صوت محب الدين وهو يتابع:

- «... تؤخذ ألسنة العصافير، وبزر الجراجير، وبزر اللفت مِنْ كُلّ واحد مثقال، ويدق الجميع ويستف منه مثقال ويشرب عليه شراب حلو، وعقيد العنب فانه جيد.

«واعلم أن الخواص لها فِي هذا الباب فعل عظيم، فمن ذلك أن خصي العجل الأصفر إذا مُلحت وجففت وسُحقت واستفت أعانت على الباه، وذكر الثور إذا مُلح وجفف ثم يسحق ويشرب منه قدر حمصة مع شراب أو لبن أو بيض نيمرشت فانه يفعل فعلاً عجيباً. وكذلك انفحة الفصيل المجففة تفعل فِي الزيادة فِي الباه فعلاً عجيباً حسناً إذا أخذ مقدار الحمصة، وقيل ان خصية الثعلب اليمنى إذا جففت وسحقت وشرب منها درهم بماء التمر قدر كأس فعل فعلاً عجيباً مِنْ الزيادة فِي الباه.

«وقال جبرئيل الطبيب: ينبغي لكل مِنْ فرغ مِنْ الجماع أن يشرب عقيبه قدحاً مِنْ ماء العسل، فانه يرد الصلب إلى حالته ان شاء الله».

ويكون جمولي قد وصل فِي أحد مقاطع الحديث فيدخل أول الأمر متهيباً خائفاً، إذ يظن أن البك غاضب عليه لأمر ما، لكن حين يسمع فيفهم ولا يفهم، يهدأ، يجلس فِي الركن، وقد فغر فاه، ويتابع. فإذا انتهى الشيخ محب الدين يسأل يحيى بك طباخه:

ـ ها، شلون، أسطة، افتهمت لو لا؟

وحين يرفع جمولي كتفيه، دلالة أنّه لم يفهم جيداً، يقول يحيى بك بأسى:

ـ لا بالله حصلنا، فاذا اهل الصنعة تاهت عليهم شلون غيرهم؟

يهز رأسه عدة مرات ويقول، كأنه يخاطب نفسه:

- الله بيم بلا ويرسون ويتغير صوته، يصبح ودوداً وهو يسأل جمولي مِنْ جديد:

- شِنو اللي افتهمته، ابني؟

- كُلّ اللي افتهمته، عمي، خصوة أبو الحصيني إذا اندقت زين وانخبطت ويا التمر تفيد!

ويسأله شمسي أميني بمداعبة:

- تفيد شنو.. جمولي؟

يتلفت جمولي إلى أكثر مِنْ جهة، وكأنه يتوقع مساعدة مِنْ أحد، وحين لا تأتيه تلك المساعدة، يرد بحيرة:

- آني، بعمري، ما مركب خصاوي واويات، عمي، وبعمري ما ذايقها، فما ادري!

ويحسم معتز المسألة، يخاطب جمولي، ويريد للآخرين أن يكفوا عنه:

- تمر علي باچر وآني أفهمك كُلّ شي!

ـ مِنْ صياح الديك، مِنْ ساعة ما يقول الموذن: الله أكبر، تشيل روحك وتجي يم معتز، افتهمت؟

يقول شمسي أميني بمرح:

- خلوا معتز ينام ويشبع نوم، مولانا، ليش مستعجلين؟ شنو صاير بالدنيا؟

- باوعوا الفسقان، مترهي ويقسم، ولا كأن الناس متوازين، وينتظرون رحمة الله اليوم قبل باچر!

ولأن لا أحد فطن لمعين طوال الوقت السابق، يقول، وهو ينظر إلى الشيخ، كأنه يستأذنه:

آني، مِنْ الغبشة، أوصل الخط بنفسي.

يرد يحيى بنزق:

ـ أنت ما عليك، لأن المسألة ما تنحل بنقش كلمة والثانية!

وفِي خضم انتقال الكلام مِنْ جهة إلى أخرى، ولأن معين اشترك فِي الحديث، يتشجع جمولي فيسأل:

- وخصاوي أبو الحصيني والذيب، وما ادري بعد شنو، منين نجيبها؟

يرد عليه يحيى بك بغضب:

- هذا مو شغلك، انت عليك تركب. تعلم شلون تتسوى المسائل، وما عليك بغير شي!

حين ينقل ما دار مِنْ أحاديث إلى الباشا، يبتسم بحزن، يهز رأسه، ويقول لنفسه بصوت عالٍ.

ـ أيّ بالله الدنيا بألف خير: بغداد مبنية بتمر، فلس واكل..
وبعد قليل، وهو يبتسم:
- لكن النوى بعبي... وتاليها الحساب!

الحاج صالح العلو، الذي كان طويلاً مثل رمح، وله شاربان مشذبان يدلان على الاعتداد بالنفس، لكن دون غرور، وتميزه لحية صغيرة يختلط فيها البياض بالسواد، أصبح خلال فترة قصيرة، أو منذ اللحظة التي رأى فيها ابنه قتيلاً، شخصاً آخر، مختلفاً. لفه الصمت فِي كركوك، ثم أثناء رحلة العودة، وما لبث الصمت أن تحول إلى شرود، إذ لم يعد يسمع الأحاديث التي تدور حوله، كما لم تعد له رغبة بالكلام أو أن يكون بين الناس. أما عيناه المتألقتان، وكانتا تضحكان باستمرار، فقد أصبحتا مليتين بالأسى، وبدتا وكأنهما تحدقان فِي الفراغ. وانحنى جسده قليلاً وضمر، كما ابيض الشاربان واللحية بسرعة فبدت كأنها لم تعرف السواد فِي يوم مِنْ الأيام!

صحيح أن هذه التغيرات لم تقع فجأة، أو دفعة واحدة، لكن تتابعت بسرعة كبيرة، حتى أن الذين جاءوا لتعزيته او للتخفيف عنه فترة لاحظوا صمته وشروده، بل بدا لهم كأنهم لا يعرفونه، أما حين رأوا عضلات وجهه تتمدد وتتقلص دون إرادته، ورأوا يده اليسرى تنتفض كما لو انها تقاوم ضغطاً، او شداً، فقد تظاهروا انهم لم يروا شيئاً، لئلا تفسر نظراتهم شفقة أو عطفاً، الأمر الذي حمل ابنه قدوري على أن يريحه ويبقيه بعيداً، وما عاد الناس يرونه بعد ذلك إلا نادراً.

لم يبق أحد ممن يعرف الحاج صالح، أو سمع بما وقع له، الا وأبدى أسفاً وصل إلى درجة الحزن لهذا المصاب. ورغم المحاولات الكثيرة التي بُذلت فِي معالجته الا انها لم تسفر عن نتائج مرضية. ولأن الاجابات أصبحت هي ذاتها التي تتكرر حين يُسأل أحد أبنائه أو أقاربه عن حاله، فقد كف الكثيرون عن السؤال، أو كانوا يقرأون الإجابة فِي وجوه اولاده والأقارب حتى لو لم يسألوا. وشعرت محلة الشيخ صندل، وشعر رواد قهوة الشط على وجه الخصوص، بنوع مِنْ الأسى لم يمر مثله، لأن الرجل «لا هو حي فيرجى ولا هو ميت فينسى». كما قال الملا نوري بعد أن زاره، وأضاف بكثير مِنْ الحسرة: «يتمنى الإنسان أن يسمع بموت بعض الناس عن أن يراهم هكذا».

بمرور الأيام بدأت تتراجع صورة الحاج صالح العلو، لكنها لا تغيب تماماً. فالأمور التي تذكر به كثيرة: رائحة الزهور التي تنبعث مِنْ الدار، وكذلك ألوانها، وكانت تعلن عن نفسها لكل مِنْ مر بالجوار، فِي الليل أو النهار؛ صوت الطاووس يتردد مرات عديدة كُلّ يوم، ويتجاوز الصوت البيوت القريبة ليصل إلى قهوة الشط؛ الصدقات التي كانت توزع فِي السابق لم تتوقف،

بل تزايدت، مع فارق وحيد: أصبحت فطيم، زوجة سيفو، هي التي تقف عند الباب لتوزع الصدقات، نيابة عن أم قدوري. وقيل إن أخوات بدري كن وراء ذلك، لشفاء الأب، ولروح بدري بشكل خاص، فِي الوقت الذي كانت توزع فِي السابق حسنة ولأرواح موتى المسلمين.

ومثلما غادر الحاج صالح ملكوت القهوة وأزقة الكرخ، وذلك المشوار اليومي إلى متجره، تاركاً لأبنائه أمور الحياة، وغارقاً فِي عالم مِنْ الذهول لا يعرف الذين حوله مساره أو نهايته، فان أم قدوري التي كانت تشرف على كُلّ شيء دون أن تمل، دون أن تعرف التعب، وكانت تجد فِي ذلك غبطة تعوضها عن الركض اليومي، وتجعلها أقدر على تحمل المصاعب والخسارات، بما فِي ذلك ذكرى خسارة عدد مِنْ الأبناء الذين انجبتهم، ولم يقدر لهم ان يبقوا على قيد الحياة. فجأة تحولت أم قدوري إلى عالمها الداخلي: أصبحت لا تعبأ بكل الذين حولها، تنام فِي الوقت الذي تشاء، وتأكل وحيدة، وفِي أوقات تحددها بنفسها، ولا تحفل بمواعيد الآخرين، ولا يعنيها الذين يأتون للعزاء أو الزيارة.

ولأن الحزن كسر الظهر، كما قال نعيم، وهو يحدث خاله عن أمه وأبيه، ولا يعرف كيف يتصرف، فقد تولت نعيمة العناية بأبيها، فِي الوقت الذي رفضت الأم أيّ تدخل فِي شؤونها، بل وقالت كلمات قاسية، وهي تمنع أيّ انسان يتقدم إلى مساعدتها، أو يبحث معها التصرفات التي لجأت إليها.

العمة زاهدة، بعد أن رأت السواد يزحف متجاوزاً غرفة مهيبة، أم قدوري، لينتقل إلى أنحاء البيت الأخرى سألت فطيم ذات يوم:

- فطيم.. شلون تعرفين إذا البني آدم بعده بعقله أو جن.

ولما بدت الدهشة على وجه فطيم، ولا تعرف بماذا تجيب، تابعت العمة زاهدة:

ـ إذا قلنا ان الله، سبحانه، أخذ وديعته، فشنو اللازم تسويه؟

ردت فطيم بسؤال:

- عمتي زاهدة ما افتهمت، شنو قصدك؟

- راح أشبه تشبيه حتى تفتهمي زين...

مسحت بالسبابة والإبهام حول حلقها، واستمرت:

ـ لو قلنا، الله لا يقدر، أن رب العالمين أخذ رجلك، أبو فلاح، فشنو اللى راح تسويه؟

ردت فطيم بعصبية حادة:

ـ فال الشيطان ولا فالك، عمتي...

وبعد قليل:

- شنو اللي صار بالدنيا، حجية؟ شنو اللي سويته أو سواه أبو فلاح حتى تفاولين عليه؟

ردت العمة زاهدة بقوة:

- لچ.. لا تصيرين ثولة، هذي كلها تشابيه، إنشاء الله يعيش أبو فلاح مية سنة وأزيد، لكن... استراحت، مسحت مجدداً حول حلقها، وأضافت بصوت مختلف الجرس:

- آني ما محيرني إلا أم قدوري!

استدارت فطيم إلى أكثر مِنْ اتجاه قبل أن تسأل مِنْ جديد:

ـ ها.. شبيها أم قدوري؟

- شنو.. ما تشوفين بعينك؟ ما تشوفين شلون ثابرة الدنيا، وتريد تسود عشيتنا؟

ـ ما أدري على ويش تحچين، عمتي!

ـ الحق علي... عيني فطيم،...

وبعد قليل، وكأنها تحدث نفسها:

- جبت الأقرع يونسني كشف راسه وخرعني!

ردت فطيم بحدة:

- حجية - صحيح آني فقيرة، على باب الله، ولساني قصير، لكن مثل قلبي ماكو، فحرام تقولين علي هالشكل!

تطلعت إليها الحجية زاهدة طويلاً، قبل أن تقول:

- يا أم حسين.. كنتِ بواحد صرتِ باثنين!

واضطرب الحديث بين المرأتين وتشعب، ورغم إنّه لم يكن يهدف إلى نتيجة، إلا أن ما أرادت الحجية زاهدة أن تؤكده: إنها كانت ضد هذا الزواج وأن سبحتها الألفية، مِنْ كُلّ المرات التي استخارتها، كانت تحرف عند السبعة، وتقف عند الأربعين، لا تتجاوز ذلك.. وكأن السبحة تقول: باب سيدي عبد القادر مقفول.

قالت السبحة ذلك، وأضافت العمة زاهدة، أن سيدي عبد القادر ظهر لها مرتين، لكن فِي المرتين ظهر حافياً، صامتاً. وفِي المرة الثانية رأت فِي عينيه دمعة كبيرة، ولقد سقطت الدمعة بصمت، ثم صارت تلكِ الدمعة نهراً،

وهذا ما قالته للحاج صالح، لكن نظر إليها وابتسم، دون أن يقول كلمة واحدة. ولو أنّه طاوعها، وحال دون هذا الزواج لأخذت الأمور مساراً مختلفاً، ولم تقع كُلّ هذه المصائب.

معنى ذلك أن أم قدوري هي المسؤولة عما حدث، وبالتالي لا يجوز لها أن تحزن أكثر مِنْ الآخرين أو أن تتظاهر بذلك، وكأنها تحاول أن تبرىء نفسها. ليس هذا فقط، بل أن ما حل بأخيها، الحاج صالح، مهيبة مسؤولة عنه أيضاً، لأنها لم تتوقف ليل نهار وهي تزن بأذنه: «زكية ماكو مثلها» «زكية مكملة: حُسن واصل وأخلاق، وهمين ما تباوع على اللي يحچي وياها، فمنين نلاقي مثلها» «والحجي يسكت، يسمع ويسكت، إلى أن قال: زين زين.. إذا هذا اللي تريدونه، وهذا رأيكم، على بركة الله» وكلامي وكلام نعيم، وهم كلام قدوري، كله راح. وبعدها صار اللي صار».

تقول الحجية زاهدة هذا لنفسها، وقالته مرات عديدة لفطيم. وقالته، لكن بطريقة مختلفة، لبعض النسوة، وقصدها مِنْ ذلك أن تضع اللوم والمسؤولية على لهيبة، وتتعمد أن تخطىء فِي اسمها، لكن نيتها لا تخفى، إذ تقول، ويخالط صوتها شيء مِنْ اللذة:

ـ ما أدري شلون يستنقون الأسامي، وكأن الأسامي بفلوس!

تقول ذلك فِي محاولة اعتذار، لأنها أخطأت باسم أم قدوري، فِي الوقت الذي ظلت تحكي مع أخيها، ولسنوات طويلة، بصيغة الغائب حين تتحدث عنها: قالت؛ سوت؛ رادت، دون أن تذكر اسمها، وكأنها بهذه الطريقة تؤنبها أو تنتقص منها.

أن ذلك جزء مِنْ تاريخ قديم، مرت بعده أجزاء تصالحت خلاله المرأتان، خاصة لما تولت العمة تربية الأولاد، أو العناية بهم، لكن ما أن يكبر ولد بعد آخر حتى يبدأوا التفكير ثم السلوك بطريقة خاصة بهم، الأمر الذي تعتبره الحجية زاهدة تنكراً لها بشكل خاص، فِي الوقت الذي تتغاضى مهيبة كثيراً عن أفعالهم أو عما يقولون، ونتيجة الملاحقة والإلحاح أصبح الأولاد أكثر رغبة فِي الاستقلال، وبالتالي أكثر بعداً عن ما تريده المرأتان.

الآن، وبعد الذي جرى، بدت الفرصة سانحة للعمة زاهدة أن تعوض ما فاتها، خاصة وأن الحاج صالح انعزل فِي الطابق العلوي، لا يغادره إلا قليلاً، وأم قدوري دخلت فِي حالة مِنْ الحزن، أو مظاهر الحزن، كما تقول العمة، وفقدت سيطرتها على البيت وشؤونه، لكن الأمور تغيرت، أو أخذت مساراً غير الذي تريده العمة. فالأبناء الذين أصبحوا أكثر هماً، وأكثر نزقاً أيضاً، لم يعودوا راغبين أو قادرين على تحمل «لغو النساء» كما ردَّ قدوري ذات مساء حين طلبت خالة فضيلة أن يشتري، بناء لرغبة أم قدوري، طُولاً مِنْ القماش الأسود، مِنْ أجل صنع أغطية للوسائد.

قال، وكان أقرب إلى الغضب:

ـ الحزن بالقلب مو بالخرق السودا والبيضا، فيرحم والديكم خلصونا مِنْ هالمكسرات!

وحين ردت الخالة فضيلة أن أمه تريد ذلك، أجاب بحدة أكبر:

ـ انتو، بدل ما تثقلوها، بدل ما تخلوها تصير عاقلة، مالكم شغل إلا: ها حجية، أكو فد شي لاخ تريدين؟ نقدر نسوي فد شي حتى تنسين القهر؟ بس اطلبي وقولي، حتى لبن العصفور نقدر نجيبه، بس ترضين!

تريث قليلاً ثم أضاف وكأنه يطلب المساعدة.

- خلصونا، لانْ هذه السالفة ما لها تالي!

أمور كثيرة مثل هذه جرت. لكن الأبناء، والبنات أيضاً، وضعوا حداً لها. حتى محاولات العمة فِي أن تبدو محايدة، لكي تستغل الأمور فيما بعد، وقفوا فِي وجهها، مما أدى لأن يصبح الصراع له طرف واحد!

وبدأ بيت الحاج صالح العلو يعيش فِي حالة مِنْ الحزن الصامت.

احتاج نادر أفندي إلى وقت غير قليل، وبذل جهداً كبيراً، لكي يتعافى بعد رحلة الكيخيا إلى الشمال، أما بعد أن أبلغ بالاستعداد للحرب، فقد أصيب بالذعر، وأصبحت تصرفاته وحركاته غير موزونة.

وإذا كانت عادته فِي مثل هذه الحالات أن يلتزم «وكره». كما يقول ناطق أفندي حين يسأل عنه، أو حين يرد ذكره، ويمتنع عن لقاء الآخرين، كما لا يستجيب للدقات التي تتوالى على باب غرفته، فقد أصبح هذه المرة شخصاً آخر، أخذ يتجول فِي أنحاء السراي بملابس خلقة وعيون زائغة، وقد طالت لحيته وكانت بلا تشذيب، وهو يكلم نفسه، ويرفض الكلام مع الآخرين أو حتى الرد على تحياتهم، ويبدو بنظر كُلّ مِنْ يراه وكأن مساً أصابه، تحول يوماً بعد يوم إلى حالة مِنْ الضياع تصل حد الغياب. فإذا استوقفه أحد وحاصره بالأسئلة، كان ينظر باستغراب إلى سائله، مع حركات مِنْ رأسه ويديه تدل على الأسف وبوار الحال. وحين يضطر إلى الكلام كان يقول وابتسامة بلهاء ترتسم على وجهه:

ـ اللي يدري يدري، واللي ما يدري يحسبها چف عدس!

وحين يراد الاستسفار منه عما يقصد، ولماذا يتكلم بهذه الطريقة، ولا يجرؤ على ذلك الا القليلون، يجيب وهو يغالب دموعه:

- يا عباد الله، يا أهل العقل، اتقوا الله، لأن النعمة لا تدوم، والقرش الأبيض لازم ينضم لليوم الأسود. وهذا أبو الخيمة الزرقا شايف وعارف، وكُلّ شي عنده مكتوب اليوم الحساب.

ولأن الذين يسألون لا يكتفون، ولا يريدون جواباً مِنْ هذا النوع، تتوالى عليه اسئلتهم:

هذا الكلام ما ينصرف، يا نادر أفندي، هذا الجواب ما يسوى فلس، فنفه عن اللي بصدرك وقول شنو صاير بالدنيا.

ـ اللي ما يتعب بالفلوس ما يقدرها. يمردها، يذهبها، وهذا اللي صاير وياي!

أسبوع وراء آخر ينقضي على حملة الجنوب، لكن دون أن تبدأ الحرب فعلاً، لأن البدو، نتيجة تجارب سابقة، وبحس غريزي لا يفارقهم، يعتبرون أن أكثر الأمكنة ملاءمة لهم، لكي يخوضوا الحرب: أطراف الماء أو قرب الصحراء. ففي احد هذين المكانين يشعرون بالثقة والقوة، حيث يستطيعون

الحركة بسهولة، ويكونون أقدر على الكر والفر دون خشية مِنْ هزيمة تلحق بهم، ودون أن يضطروا لتقديم خسائر كبيرة.

الكيخيا أراد أن ينازلهم قبل أن يصلوا الأهوار، وقبل أن يدركوا الصحراء، وهذا ما جعله يأمر قوته بالزحف السريع، عله يسبقهم ويقطع عليهم الطريق، لكن البدو أمعنوا فِي التوجه غرباً وجنوباً دون الاشتباك بالقوات النظامية. وحين قدر الكيخيا أنّه لن يدركهم طلب مِنْ قواته ان تتباطأ. وفِي مرحلة أخرى أن تتوقف، إذ ربما بهذه الوسيلة يوحي لهم بزوال الخطر، وبالتالي يسترخون ويزايلهم الخوف، فإذا حصل هذا يمكن ان يشد عليهم، وهناك، قبل الاهوار، تكون معركته الحاسمة معهم.

داود باشا لا يريد للحرب أن تطول، أو أن تتحول إلى مناوشات، لأن هذا ما يتمناه البدو، إذ يجعلهم يتوهمون أنهم قادرون على منازلة الحكومة، بل وهزيمتها، وبالتالي يشجع القبائل الأخرى على التمرد. لذلك لم يتوقف عن ايفاد الرسل طالباً ضرورة حسم المعركة بسرعة.

وتذكر الباشا كم تحدث مع كيخياه حول هذه النقطة بالذات، وكيف أوصاه أن يلتف حول البدو، وان يمنعهم مِنْ الوصول إلى الأهوار، او إلى الصحراء، لكن الكيخيا، وهو يطيل استراحاته فِي المحطات، ويتردد فِي اتخاذ القرارات، ويترك أخباره تسبقه، أفسد كُلّ شيء. والآن، مِنْ خلال الرسل والتوصيات، لا يعرف الباشا كيف ستنفذ أوامره، أو ماذا يجب عليه لتدارك الأسوأ.

طلب داود باشا مِنْ خلال موفديه ان يسألوا الكيخيا، وان يتأكدوا بأنفسهم، ما إذا كان بحاجة إلى قوات إضافية، أو إلى أسلحة. والكيخيا الذي يجيب بتردد، ما يكاد يقول شيئاً محدداً اليوم، وقبل أن يسمح للموفدين بالعودة، مع الطلبات والخطة، حتى يعدل ويغير فيما يجب أن يقال للباشا.

بعد مرور شهور عديدة، ولخشية الكيخيا مِنْ الهزيمة، أصدر أوامره بالتوقف، بل وبالتراجع فِي عدة مناطق، كما أشعر الباشا أن المعركة ستطول، ولا بد مِنْ الانتظار إلى أن يعتدل الجو، وانه سيفاجىء البدو فِي مطلع الخريف ليصفي معهم حساباته كلها!

حين بلغت هذه الأخبار الآغا فرح واستاء فِي آن واحد، فقد شعر بالفرق بينه وبين الكيخيا، والذي «لا يفرق بين الدجاجة والديك» واستاء لأن الباشا استبعده وأوكل هذه المهمة «لليد اليسرى، العوجة». كما أخذ يفيض الآغا فِي الحديث عن معارك الفرات الأعلى، والخطة التي اتبعها هناك، وقد حققت النصر خلال فترة قياسية، أما «أن تُترك الحرية للبدو فِي تحديد مكان المعركة أو توقيتها، فهذا معناه: ترى يا معودين نحن جاهزين اللهزيمة!» لم يترك الآغا اِلأمور هِكذا، فقد قدر ان زِمنه أزف، ولاِبد أن

يتحرك، ولكي يجنب نفسه أيّ خطأ، ولئلا يستمر فِي التأجيل مرة بعد أخرى، قرر ايفاد ناهي زبانة إلى بغداد لاستطلاع الجو، ولكي يطلب مِنْ الباليوز ايفاد أحد رجاله المفوضين مِنْ أجل بحث ما يجب اتخاذه مِنْ خطوات لحسم الموقف.

ولأنه سمع الكثيرين يتحدثون عن ذكاء داود، حين قرر مغادرة مركز الولاية نحو الشمال، ليبدأ مِنْ هناك الثورة، ثم الزحف نحو بغداد ومحاصرتها، تمهيداً لدخولها، فقد شعر ان الله إلى جانبه هذه المرة، حين جعله فِي الشمال، وعلى صلة بكل أعداء داود، والذين سيقفون معه حالما يتخذ القرار.

لم يكن ناهي يتمنى الا مهمة مِنْ هذا النوع، وكي يختصر الكثير مِنْ توصيات الآغا، بعد أن عرف ما يريده منه، قال بثقة زائدة:

- خليها علي، سيدي، مسافة الطريق، وفوقها يوم والثاني واجيك بالخبر اليقين.

ردَّ عليه الآغا، فِي محاولة لئلا يثير أية شبهة:

- وإذا صادف ورجعت، ومعك بنفس الكروان زلمة الباليوز، فلا تعرفه ولا يعرفك...

وتغيرت اللهجة:

ـ ماكو مانع تتشاقى مع الجميع، أما زلمة الباليوز فتعطيه العين الحمرا حتى المرحبا ما تطلع منك الا بألف ويلاه، لانا ما نريد أحد يظن ان لك علاقة، سمعت؟

ردَّ ناهي بمرح، وبطريقة غنائية:

فاذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا لكي يحسبوا أن الهوى حيث تنظر هذا ما قاله شاعر قديم، ومثل ما قال راح أسوي. سيدي!

أما حول الطريقة للاتصال بالباليوز، ولاحتمال أن تكون روجينا مراقبة، فان عارف زنجاري هو المفتاح. وعارف زنجاري، وكيل الشركة الشرقية للبواخر بين البصرة وبغداد، لا يُعرف أن بقي موظفاً عند ساسون ام تحول إلى شريك منذ ان دخل داود باشا إلى بغداد واختفى ساسون، إذ أصبح فجأة الآمر الناهي بكل ما يتعلق بأمور الشركة، مِنْ حيث أجور السفر، وتحديد مواعيد نقل الأفراد والمواد، وحتى طريقة التعامل مع المسافرين. كما أصبح على دراية بأمور السوق التجاري، متى تصل البضائع، وما يمكن أن يطرأ على الأسعار، وهذا ما جعل له علاقة بالكثيرين.

الآغا وهو يختار عارف زنجاري وسيلة للاتصال بالباليوز، أراد أقصى درجات التمويه والسرية، إذ سيكون ناهي واحداً مِنْ عشرات يراجعون

الشركة، ولذلك لن يثير شكوك أحد حتى لو شوهد هناك. أما كلمة السر بين الاثنين فلها علاقة بالبواخر أيضاً. «متى تصل باخرة الركاب مِنْ مرسين إلى البصرة؟» وسيكون الجواب: «هذا الخط انقطع» «رأيك خط البر أحسن؟» فإذا جاء الرد «بالتأكيد... بالتأكيد» مرتين، يمكن عن طريقه ابلاغ الباليوز «رمان بعقوبة عطشان، وما ينتظر، واليوم أحسن مِنْ غير يوم».

ولم يتأخر ناهي زبانة فِي الوصول إلى بغداد، لكن وجد أن معرفة مزاج الناس يحتاج إلى وقت، ويتطلب الكثير مِنْ الجهد. وان الاتصال بعارف زنجاري قدر ما هو ضروري، فانه يحتمل التأجيل، إذ لا فائدة مِنْ سفر موفد مِنْ الباليوز قبل معرفة المزاج الشعبي، وهكذا تأجلت الأمور أياماً امتدت إلى أسابيع.

حين التقى ناهي بعارف زنجاري، وسأله عن باخرة مرسين متي تصل إلى البصرة، تطلع اليه عارف ملياً، ورد عليه بعدم اهتمام:

- بابا.. سفينة هالشكل ماكو...

ولما أعاد عليه ناهي السؤال، وأكد له أن أقرباء سيصلون على هذه السفينة.

أجابه عارف بعصبية:

- وجماعتك ما قالوا لك: هذا الخط انقطع؟

- قالوا.. وما قالوا، وهسه أريد أسألك: رأيك خط البر أحسن؟

وقبل أن يجيب عارف على هذا السؤال، قام بنفسه، أغلق الباب، والتفت إلى ناهي ليقرأه مِنْ جديد، إذ ربما يكون هناك خطأ مِنْ نوع ما، وقد يكون الحوار جرى هكذا بالصدفة. سأله، وكانت لهجته محايدة:

ما تقول لي أنت منو، وشنو اللي رايده؟

وافهم ناهي أنّه يعمل مع الآغا. وأنه كلفه أن يلتقيه لابلاغ رسالة. فرد عارف، وقد انبسطت أساريره:

ـ إذا هالشكل.. فخط البر أحسن بالتأكيد!

وجلس مِنْ جديد، وهو يردد:

- بالتأكيد.. أيّ نعم بالتأكيد!

ورغم أن عارف أحس بغريزته أن الحديث لم ينته، لكنه لم يكن مستعجلاً، إذ بدأ يسأل عن أحوال الآغا وكركوك والشمال، كما تطرق إلى ارهاق العمل اليومي، خاصة وأن رجال الباشا بدأوا يتحركون ويسألون عن امكانية أن تكون للولاية بواخرها، واحتمال أن يخلقوا مشاكل وعراقيل للشركة

الشرقية للملاحة. وأفاض فِي الحديث عن عظمة هذه الشركة وسفنها الكبيرة التي تصل إلى أقصى أنحاء المعمورة، وإن مصير العراق وبلدان كثيرة يتوقف على خدمات هذه الشركة، والتي وحدها يمكن ان تقوم بهذا الدور.

بعد هذه الجولة حول هموم العمل، سأل عارف، وبدا ودوداً:

ـ أيّ مولانا... شنو نقدر نخدمك؟

- استغفر الله.. مولانا، بس كلفني الآغا ان يتبلغ الباليوز عن طريقكم ان «رمان بعقوبة عشطان، وما ينتظر، واليوم أحسن مِنْ غير يوم».

ورغم أن الرسالة قصيرة. ولا تتطلب جواباً، الا أن عارف زنجاري أصر على ناهي أن يراه مرة أخرى قبل السفر، قال بطريقة احتفالية:

ـ لا بد يجي يوم توصل بواخرنا لفوق فوق، واللي ما نقدر نقوله للآغا اليوم الا عن طريق الأجاويد، أمثالكم، راح صفرة الباخرة لما توصل الموصل تفزز حيات الشتا، وعسى ما يكون ذاك اليوم بعيد...

استراح قليلاً، وتابع بلهجة جديدة:

- فإذا شفناك نوبة ثانية نحملك سلامات للآغا؛ ويجوز الجماعة همين عندهم فد شي، فلازم نشوفك!

قال بطرس يعقوب للذين جاؤوا لوداع أقرباء لهم مسافرين فِي القافلة:

- ابعد مِنْ ماردين ما لي نية بهذي السفرة، فإذا لأحد منكم غرض او وصية بماردين يقول، ومن هالعين....

وتابع بعد قليل فِي محاولة للتمويه:

ـ الرجعة سهلة: الكلك مِنْ الموصل ونسير ويا الماي، لا وقفة ولا دوخة راس!

قال ناهي للآغا، وهو لا يقوى على كتم فرحه:

-.. والناس ببغداد، سيدي، مثل الأيام الأخيرة لسعيد: ماكو أحد راضي. غلاء وخبز شعير. ورجال الوالي ما يعرفون الا كلمة: هات. والناس حايرة وضايجة، تدفع وتقول: الله لا يبارك. وراح يجي يوم، وهذا اليوم مو بعيد، الناس تموت بالجادة مِنْ الجوع والقهر، وماكو أحد الا ويتحسر على أيام قبل. حتى أيام سعيد صار يترحم عليها الناس...

استراح قليلاً، وهو يحاول أن يتذكر، وتابع فجاء صوته مختلفاً:

- وبالقهاوي، سيدي، شتيمة الوالي بفلس وفلسين، والغريب أنهم يشتمون بدون خوف، أشكرا. والواحد يذكر مخازي الوالي وكأنه يتكلم عن

الحجاج او عن الشِمر، يسولف ويقول فلان شي وفلان شي بليا ما ايهاب أحد.

والآغا الذي يستمع ويهز رأسه، يريد أن يسمع المزيد. يتطلع بفرح إلى ناهي ويردد كلمات لا يغيرها:

- أيّ.. وبعد؟

- والناس اللي يعرفون اني بكركوك، واني بخدمة الآغا، يقولون بقهر: ليش الآغا تركنا للظلام وراح؟ لو كان هسه ببغداد وشاف هذا اللي صاير واللي يجري، كان ثار الدم براسه وطفر الدمع مِنْ عينه، وكان طربق الدنيا فوق راس داود، لكن الرجَال بعيد، وما يندرى توصله الأخبار أو الباشا ضام كُلّ شيء تحت عباته وما يريد أحد يعرف أو يسمع..

- أيّ.. وبعد؟

- وما ادري بعد شنو اللي لازم ينقال لان الدنيا مليوصة، وكُلّ واحد يجر القرصة لصفحته، والباشا لاطي بالسراي، لا احد يشوفه ولا أحد يعرف شنو اللي بباله، والبدو إذا ما وصلوا بغداد اليوم يوصلون ثاني يوم، والله يستر!

وقف الأغا. تمطى. باعد بين يديه فِي محاولة للتريض، قال كأنه يكلم نفسه:

- غريب أمر داود. كُلّ ما لزمناه الجادة، وقلنا له: هذا هو الطريق، مال عن الجادة وتعربش بالوعر.. وبعدها تعال خلص هالزمال مِنْ هالوحلة!

والتفت إلى ناهي، يخاطبه وهو واقف:

- أيّ.. وبعد، سولف عن بغداد وعن أحوال الناس هناك!

- والله لو كتبنا كتب ما تخلص هذي السوالف، سيدي، وبعدين: الشوف غير السمع! ومهما قلت، ومهما حكيت، تظل القضية اكبر!

وتغيرت لهجة ناهي، أصبحت منخفضة الجرس، كأنه يكلم نفسه:

- وإذا الله ما يسر ابن حلال، يعرف الداء والدواء، ويتولى المسألة، ويفك عن الناس الغمة، ما يندرى شلون راح تنقلب الأمور!

وانتشرت إشاعات فِي كركوك، لا يعرف كيف، أن حملة الجنوب تعرضت لهزائم قاسية، وأن القوات تراجعت فِي عدة مواضع، وما لم تُعزز بقوات إضافية، وربما تطلب الأمر تغيير القيادة، فالهزيمة مؤكدة، وقد يصل البدو إلى بغداد، كما حصل أكثر مِنْ مرة قبل أن يصبح داود والياً. وما قد يترتب على ذلك مِنْ نتائج!

ما كاد يمر أسبوع على هذه الاشاعات حتى وصل خلف إلى كركوك. اختلف ضباط القلعة حول مضمون الرسالة التي حملها خلف إلى الآغا، وما نقله شفوياً. قيل أن خلف سلم الرسالة، وقبل أن ينهي الآغا قراءتها، وقع خلف على قدمي الآغا يقبلهما ويرجوه أن يبادر فوراً إلى نجدة الباشا. وقيل ان الرسالة الشفوية رافقها الكثير مِنْ الدموع والتوسل، لأن كُلّ ساعة تمر تقرب البدو مِنْ بغداد، وقد تصبح النجدة متأخرة أو غير ذات جدوى، وان الباشا يعتمد على اثنين لانقاذ الموقف: الله والآغا.

ووجد مِنْ قال ان خلف سلم الرسالة بطريقة رسمية، دون بكاء أو رجاء، «لأن الباشا يأمر ولا يتوسل، يطلب ولا يترجى، وهذا ما يفسر الاحترام الذي قوبل به خلف، وانزاله فِي الجناح الغربي مِنْ القلعة، وهو جناح كبار الضيوف» وقيل أن الآغا بعد أن قرأ الرسالة واستمع إلى شرح خلف غرق فِي صمت عميق، وقد طال الصمت إلى درجة لم يعرف خلف كيف يتصرف أو ماذا يقول، إلى أن طلب منه الآغا ان يستريح تلك الليلة، بعد مشقة السفر، وسوف يواصلان بحث الأمر فِي اليوم التالي. وهذا ما يفسر عدم لقائه بأي مِنْ الضباط؛ حتى وجبة العشاء حُملت إلى الجناح الغربي، وقيل ان «ضيف الآغا شديد الارهاق ويفضل ان يرتاح فِي جناحه».

ورغم الاجتماع المنفرد الذي عقده خلف صباح اليوم التالي مع الآغا، ثم بوجود الضباط القادة، خاصة الذين قاموا بزيارة إلى بغداد قبل بضعة شهور، فان خلف سافر صباح اليوم الثالث فجأة، كما جاء فجأة. ولم يعرف خلال الأيام الأولى على أيّ شيء تم الاتفاق، الا أن الوضع فِي القلعة والثكنات اختلف تماماً، إذ بالإضافة إلى الحركة وتوالي الاستعداد، فقد ارسلت وفود إلى أمكنة متعددة، وبدا كأن أمراً ما يُرتب، ولا بد أن تظهر آثاره!

مع الحركة التي لها طابع عسكري، وصل فجأة إلى القلعة الشيخ ادريس.

قال له حامد بنوع مِنْ اللوم الضمني:

ـ وينك يا شيخنا... صار لنا أيام ندور عليك وإنت ماكو؟

- بابا.. شيخ ادريس هوايه مشغول، مِنْ مكان لمكان، حتى نوم ما يقدر ينام، شنو عبالك؟

ـ ما خلينا مكان الا ونشدنا عنك، وكُلّ واحد يقول: الشيخ إدريس البارحة چان هنا، وبعدها ما ندري وين صار وين راح!

ابتسم الشيخ ادريس قبل أن يجيب:

- لوشيخ ادريس يريد يجاوب كُلّ سؤال، يروح عند كُلّ مِنْ يقول له تعال، ينراد له يعيش ألف سنة، الفين...

وبعد قليل، ليضفي على استجابته منة وشرفاً:

ـ ولولا الآغا عزيز، ما تشوف الشيخ ادريس قبل شهر شهرين!

قال حامد، فِي محاولة للسيطرة.

- يا شيخنا.. الآغا يقول: شيخ ادريس قوي، ويعرف كلش زين، بس كلام النوبة اللي فاتت صار وما صار!

- يعني شنو؟

- قصدي: تفسر، تقول كلام ينفهم!

ـ يعني ما يصدق كلام شيخ ادريس؟

- معاذ الله يا شيخنا، بس يريدك تقول: راح يصير فلان شي وفلان شي، والأحسن تسوي هذا الشي وما تسوي هذا الشي!

ـ يعني تريد تعلم الشيخ ادريس شنو لازم يقول، شنو لازم يسوي؟

ولم يتركه ليجيب، تابع بانفعال:

- هذا ما يقبله شيخ ادريس، وهذا ما يصير.

ـ على كيفك شيخنا، ولازم تفهم كلامي زين، لان الآغا بعد ما رحت النوبة الماضية أكل قلوبنا: شنو يقصد الشيخ ادريس بهذي الكلمة.. وبهذي الكلمة، وانت مثل ما تعرف، يا شيخنا: علومك بحر وينراد لها غواص مِنْ البحرين حتى يعرف ويفرزن، فخذنا على قد معرفتنا.. والا تهنا!

ارتاح الشيخ ادريس لهذا التفسير، ورغم أن ابتسامة متحفظة ظهرت على وجهه للحظات، الا أنّه لم يتخل عن صرامته. قال فِي محاولة لتجاوز ما قاله حامد:

- مولانا... عالم الغيب بحر كبير كبير، والواحد منا كأنه ماشي بالظلمة ما يعرف شنو هنا منو هنا، وشنو اللي راح بصير بعد شهر.. بعد سنة، ومو بس تك نفر بروحه، الآلاف؛ ولولا إلهام ربنا، سبحانه وتعالى،

وهذي ما تحصل لكل واحد، كانت الدنيا انقلبت، وكان كُلّ واحد صبغ لحيته وطول سبحته وقال للناس: تعالوا حتى أشوف لكم حظكم اليوم، ورزقكم اليوم واللي عقبه، والناس تدفع وتسأل، والنتيجة قبض ماكو، وهو يقش الفلوس ويمشي، وما له لازم باللي يصير...

وانفعل فجأة، وهو يُضيف:

- وهذي أبد شيخ ادريس ما يقبلها....

ثم بلهجة مرحة:

- وانت بنفسك: شقد تعبت حتى لقيت شيخ ادريس؟ غير شيخ يدور القمل بهدومه ويلعب بخصيانه، لان ماكو أحد يقول له مرحباً!

ومع ان الآغا كان ينوي ان يبقي بعض رجاله إلى جانبه أثناء استقبال الشيخ ادريس، عله يستطيع ان يستعين بهم لاحقاً لتفسير ما سيقوله، الا ان الشيخ أصر على الرفض، وحين وجد ثلاثة أو أربعة مِنْ الرجال حوله، قال للآغا، وبطريقة حازمة:

- راسي لراسك، آغا، لأن الملائكة ما تقبل، ما تجي.

- الجماعة يقعدون سنطة، وانت اشتغل براحتك، شيخ ادريس!

- شيخ ادريس ما يقدر. شيخ ادريس ما يوافق!

ورغم محاولاتٍ مِنْ الآغا ثم مِنْ خلف، وتدخل ناهي، لكن الشيخ ادريس هز رأسه رافضاً بشكل كامل، وغرق فِي الصمت، الأمر الذي اضطر الآغا لأن يطلب مِنْ رجاله مغادرة المكان. أما ما جرى بعد ذلك فظل سراً، وان بدت مظاهر الارتياح والتفاؤل على الآغا بعد انتهاء اللقاء. ثم جاءت الخطوات اللاحقة فِي الأيام التالية لتؤكد ان الشيخ ادريس أبلغ الآغا ان أيام العز قد أقبلت، وهذا ما يجعله يرسل عدداً مِنْ ضباطه إلى بغداد على جناح السرعة، وأبلغهم وهم يغادرون انه لن تمر أيام قليلة الا ويكون هناك، وغمز بعينه دلالة الفرح والتفاؤل، لكن دون ان يقول ما ينويه، وما سوف يحصل خلال هذه الزيارة.

مع بداية حملة الجنوب تزايد ظهور ريتش، وكأنه يتعمد ان يراه الناس وان يتحدثوا عن تحركاته وأخباره. فإذا لم يظهر فِي السوق التجاري، عند بائعي السجاد أو الكتب القديمة، لابد ان يظهر فِي إحدى زياراته للمعالم الأثرية، أو وهو فِي طريقه إلى الصيد. أما حين اشتدت الحرارة وزادت عن الحد الذي يطيقه أو يحتمله أجنبي جاء مِنْ الشمال البارد، فقد أصبحت أكثر جولات ريتش بعد ان ينقضي النهار، عند الغروب وأول المساء. كان يمتطي أحد خيوله، ومعه عدد قليل مِنْ حرسه، وينطلق إلى ضفة النهر. كان هناك يمارس رياضته. وبعض الأحيان يطيل مشاويره، وكأنه يكتشف كُلّ ما حوله بعيون جديدة.

وزيادة فِي التأكيد على حضوره، لم يتردد فِي القيام ببعض الجولات على قدميه. صحيح ان أغلب هذه الجولات ظلت فِي محيط الباليوز، لكن كان يرافقها الكثير مِنْ الطرافة والجدة، إذ يصطحب عدداً مِنْ كلابه المفضلة، وهي مختلفة عن الكلاب التي يعرفها الناس: أكبر حجماً مِنْ الكلاب العادية، او أنها أصغر منها بكثير. وهي مدربة، مطيعة، تتصرف وفقاً لما يصدره لها مِنْ أوامر، وكأنها تفهم كُلّ ما يقال لها.

الصبية الذين يتقنون إلى درجة المكر التحرش وخلق المتاعب، ما ان وصل إلى سمعهم ان القنصل يتجول على ضفاف النهر، حتى منوا أنفسهم بأوقات ممتعة وهم يراقبونه أو يتبعونه، وربما سخروا منه أو ضحكوا للهجته الغريبة، لكن حين رأوا الكلاب ترافقه، وتأكدوا مِنْ شراسة هذه الكلاب وقوتها، وقد تعمد ريتش ان يطلق بعضها عليهم لإخافتهم، فقد أصبحوا يضعون بينهم وبينها مسافة أمن كافية، ثم أخذوا يتجنبونها تماماً، الأمر الذي جعل ريتش يواصل جولاته دون انزعاج.

أما وهو يوالي مداعبة هذه الكلاب أو تدريبها، فقد أثار اهتمام الكبار والصغار. كان يحمل معه عدداً مِنْ الكرات، ولا يتردد بعض الأحيان فِي التقاط حجر أو عصا مِنْ الأرض، وبمكر لا يخفى، وبقوة، كان يقذف الكرة أو العصا، فتنطلق الكلاب لالتقاطها واعادتها إليه. الكبار الذين رأوا ذلك لم يخفوا دهشتهم مِنْ ذكاء الكلاب وطاعتها، أما الصغار فأخذوا يجربون حظوظهم فِي ان يفعلوا الشيء ذاته مع كلاب لا يُعرف كيف تسنى لهم القبض عليها، وبعض الأحيان مع كلاب القنصل، لكن مِنْ بعيد. وفِي جميع الحالات كانت النتائج سلبية تماماً. فكلاب القنصل لا تحس بهم، وبالتالي لا ينتظر ان تستجيب لهم، والكلاب البائسة التي تسنى لهم جرها، وأجبروها

على مرافقتهم، بعد ان شدوا حبالاً برقابها، ما ان ترى الحجارة أو العصي تتطاير حولها، وما ان تُطلق حتى تواصل هربها إلى ابعد مكان يمكن ان تصله، لتأمن إزعاجات الصغار!

وفِي كُلّ يوم جديد تروي قصة أو أكثر عما فعله ريتش وأين ذهب. فوقوفه عند عدد مِنْ صيادي السمك، وشراؤه لكل صيدهم دون مساومة، وبالمبلغ الذي حددوه، ثم ان يطلب منهم توزيع السمك على فقراء المدينة.. قصة تروى؟

وأن يحمل بندقية الصيد، ويكمن عند طرف النهر، وما ان تبدأ الطيور تتساقط بين الزرع أو وسط الماء، وتتراكض الكلاب لالتقاطها، فيما الناس يتفرجون قصة تروي أيضاً.

وان يصطحب معه فِي إحدى الأماسي قرداً صغيراً، ويطعمه الفستق بيده.. ولا يتردد القرد، فِي لحظة، بالقفز على كتفه، ويأخذ بالتصفيق. مشهد كان يتمنى الكثيرون رؤيته، بعد ان روى القصة مِنْ رآها!

أما الأمسية التي جاء فيها إلى قهوة مراد، وكانت غير بعيدة عن السراي، فلم يبق أحد فِي بغداد إلا وتحدث عن ذلك! وقد فُسرت الزيارة بأشكال وأسباب عديدة ومتناقضة، مع ان الزيارة كانت قصيرة، أو ربما عابرة، ولم تتعد احتساء القهوة والرد على تحيات الجالسين. وقد تكاثر المارون والصبية ليروا القنصل وليتأكدوا بأنفسهم. وبعد أن تركزت الأنظار عليه، مما سبب له الحرج، سقط كوب القهوة مِنْ يده، وتحطم، فصرخ الأسطة مراد بمبالغة ظاهرة:

- فدوة.. فدوة مولانا، المهم أنت سلامات، لا تعورت ولا توسخت!

وقد اضطر ريتش للانسحاب، بسبب الضيق الذي شعر به، وبسبب تدافع الصبية وتصايحهم، وهم يشيرون إليه، لتمييزه عن بعض مرافقيه؛ وكوب القهوة الجديد الذي حمله الأسطة مراد بنفسه، عوضاً عن ذاك، وصل متأخراً، بعد ان غادر ريتش القهوة!

حين بلغ الباشا ان القنصل جلس فِي قهوة مراد، سأل فيروز بمداعبة، وكانا يتمشيان فِي الحديقة المطلة على النهر:

- وإن شاء الله ترس خشمه بالبرنوطي وعرت بنركيله نربيجها طويل وجر نفس مِنْ كُلّ قلبه؟

- ما باقي عليه، سيدي، الا يروح لحمام كجو، فإذا وصل لهناك يكون ختم الصنايع كلها!

- وهناك يصبح: حار الشمندر، استوى الشمندر، وهسه جا مِنْ طمة حمام كجو!

كان الباشا يتساءل عن هذه الحركة النشيطة للقنصل، وما يحتمل ان يكون وراءها، خاصة وأنه فِي ظروف مماثلة كان يكرس وقته كله لتقصي الأخبار، والاتصال بمن يمكن ان يؤثروا سياسياً أو عسكرياً. أما الآن فهو يريد تمويه تحركاته، وكأن لا شيء لديه سوى ملاعبة الكلاب وتدليل السعادين!

لقد تحسب الباشا كثيراً مِنْ حركات ريتش، خاصة بعد ان توفرت لديه معلومات كثيرة عن علاقاته واتصالاته، مع الآغا تحديداً، لكن هناك أموراً لم يحن وقتها بعد، لذلك يمكن ان ينتظر.

وإذا كانت عادة نساء السراي ألا يصلن إلى هذا الجانب مِنْ الحديقة سوى فِي الأوقات التي يحددها الباشا، وبعد ان يُغلق الباب الكبير المفضي إلى الديوان، فإن المرأة الوحيدة التي تستطيع ذلك، وفِي أغلب الأوقات: نائلة خاتون.

فجأة، والباشا يواصل تمشيه، وفيروز غير بعيد الا خطوة منه، ظهرت نائلة خاتون، وعلى كتفها، خلافاً لمرات كثيرة سابقة، محسنة. كانت الصغيرة، بصوتها الذي يسبقها، تريد ان تصل لأبيها بأسرع وقت ممكن. كان جسدها يهودج على الكتف، يكاد يتحول إلى غيمة صغيرة، بالحركة، بالضياء، باللهفة التي تتزايد مع الضحك والزقزقة ورغبة الوصول.

قال الباشا لفيروز، وهما يتجهان لملاقاة الصغيرة:

- كُلّ الوِلد كوم، وهذي المسكينة كوم.

ومع كُلّ خطوة تقربها، ومع كُلّ خطوة يخطوها ليتقرب منها، كان صوته يتردد منغماً:

- هلا.. هلا.. بالوردة، بالحبابة، هلا بقلبي وبعد عيني، تعاي..

تعاي.. تعاي؟

ومحسنة كعصفورة على وشك الطيران: تصرخ، تدق بيدها الصغيرة على رأس نائلة خاتون كي تسرع، ان توصلها كالبرق، ونائلة خاتون تحاول بذل أقصى جهدها لأن تسرع، وان تتحكم بخطواتها فِي نفس الوقت.

ما ان اقتربت، وأصبحت يدا الباشا قادرتين على تلقيها واستقبالها، حتى رمت بنفسها. احتضنها. قبلها مرات عديدة. غمر وجهه فِي شعرها، وتوالت كلمات الشوق والمداعبة. وخرج صوتها فرحاً وقوياً معاً:

- أريد أمشي.. شوكت أمشي.. بابا؟

- باذن الله راح تمشين، قالت نائلة خاتون لتخفف عن الباشا.

- كُلّ يوم تقولين هالشكل، بيبي، وما صار شي، قالت محسنة، والتفتت نحو أبيها، وهي تواصل السؤال: شوكت امشي، بابا؟

ردَّ فيروز على خلف، حين سأله لماذا هو حزين هكذا:

- الي يشوف الباشا شقد هو مقهور على مود هالزغيرة، محسنة، يتفتت كبده..

وبعد ان عب مقداراً كبيراً مِنْ الهواء، جاء صوته أكثر حزناً:

- تسأل الباشا شوكت تقدر تمشي، وهو، مسكين، حاير، ما يعرف شلون يجاوب، شيقول. والزغيرة تلح وتسأل، وهو يفر براسه، زفراته نار تحرق، ودموعه مِنْ العيون تسخ، وما يدري شلون يتصرف؟

- سبحانه، له فِي خلقه شؤون!

ولأن فيروز لم يجب، لم يعلق، تابع خلف، وكأنه يحدث نفسه:

- وسبحان الله، الباشا متعلق بها أكثر مِنْ كُلّ أولاده، ويحبها أزيد، وهي، مسكينة، عيونها تذبح، وما بها الا السؤال الي يقطع القلب: شوكت؟ هذا السؤال ما يقدر يجاوب عليه الا خالق الخلق ومالك الملك، فشنو اللي يقدر عليه الباشا؟

حين وصل ناطق أفندي، سكت الاثنان، وكأن لا رغبة لديهما لمواصلة الحديث.

ولأن ناطق أفندي، مثل الكثيرين، بلغه ان القنصل جاء بزيارة لقهوة مراد، لكنه لم يصدق، ولما سخر الذين نقلوا إليه الخبر مِنْ رفضه وعناده، وتزايد تأكيده ان القنصل لا يمكن ان يزور مثل هذه الأماكن، ردَّ عليه واحد وصل إلى القهوة مباشرة بعد مغادرة القنصل، وسمع الناس يتحدثون عن ذلك باهتمام، قال له بتحدٍ:

- قهوة مراد خطوة مِنْ هنا، فإذا ما تصدق تخطى للقهوة، وأنشد الناس هناك!

ولم يتأخر ناطق، ذهب بنفسه إلى القهوة. سأل الأسطة مراد، وسأل آخرين، وحين تأكد تماماً، رجع إلى السراي متوتر الأعصاب مملوءاً بالحنق. ولم يتأخر فِي نقل انطباعاته لفيروز وخلف، لعل الاثنين، أو واحداً منهما على الأقل، ينقل كلامه للباشا:

- صحيح ان مِنْ حق القنصل يروح وين ما يريد، لكن مو مِنْ حقه يباوع بكل زرف ويدور، حتى يشوف كُلّ مخازينا...

تغيرت اللهجة، أصبحت أكثر غضباَ:

- قهوة مراد مثل خان جغان، وسخة، تلعي النفس، كُلّ شي بيها طايح حظه: تفال بكل مكان، وشلون تفال... مال تتن سنون؛ وريحة البرنوطي مالية الدنيا، والنراكيل وقامجياتها، تكرمون، سيان. استكانات الشاي كأنها مال محابيس، والناس تسولف مع بعضها مثل الطرشان، وإذا طلع أبو اللبلبي يطب أبو الباجلا. واحد يصيح والثاني يجاوب: مالح وطيب هالبلبي؛ خس.. أبو الطوبة يا خس. هذي قهوة مراد..

ولأن الاثنين يعرفان القهوة، وهي ليست بالصورة التي يصورها ناطق أفندي، لكن ليس لديهما ما يقولانه له، فقد واصل:

-... وانت، يا قنصل الملك، تفتهم وتقدر الأصول، وتعرف شنو اللي يصير وشنو اللي ما يصير.. حامل روحك.. وطُرق.. طُرق.. ووين؟ على قهوة مراد!

هدأ نفسه، فهدأت اللهجة قليلاً:

احكِ، قول، لان الواحد، حتى ببيته إذا تحرك يقول: احم... ودستور، حتى الناس تعرف، تتحضر، أما هالشكل فلا يقبلها لا عقل ولا دين.

- هذا كله نعرفه، قال خلف، وسمعنا بيه، فإذا عندك سالفة ثانية، يا ناطق أفندي، فقولها، يرحم والديك، وخلصنا، لأن قلوبنا مِنْ الهم سايفة...

- يا خلف، يا ابن الأوادم، هذي ماصارت مِنْ قبل، والعوجا ما يرضى بها أحد ولا ينسكت عليها!

- شنو اللي ما صارت مِنْ قبل؟ وشنو اللي ما ترضى بيه، ناطق أفندي؟

- مولانا.. إذا القنصل يريد يزور فد مكان لازم يقول لنا، لازم نعرف!

- لكنه سواها بليا ما نعرف، بليا ما يقول، والنتيجة؟

- بس أشوف الباشا راح أقول له كُلّ شي.. مِنْ الألف إلى الياء!

- على خيرة الله.. هذا ديوان الباشا، كُلّ اللي تريده قوله.. وانجاز انت وياه!

ردَّ ناطق أفندي، وكان يحمل لهجته مقداراً مِنْ الرجاء:

- أريد عونك، اخوي خلف، وهذي أريدها منك!

تطلع خلف إلى فيروز، وكأنه يوعز له ان يجيب بنفس الجواب، إذا طلب ناطق مساعدته، والتفت اليه، وخرج صوته مزهواً:

- آني ما علي ناطق أفندي لأني ما اقدر على القضايا اللي هالكبر!

نهض ناطق أفندي، وقد عاد إليه غضب اللحظات الأولى:

- زين.. زين.. خلف، الدنيا ما تخلص بيوم واثنين!

حسون الذي عرف بزيارة القنصل فِي اليوم التالي، خاف وتحسب، وربما هذا السبب جعله يعود مُبكراً لقهوة الشط، إذ لابد ان يفكر ملياً وبعمق «إذا اليوم بقهوة مراد، يجوز ثاني يوم بقهوة الشط، ومن هنا سالفة، ومن هنا سالفة ثانية، وتنلاص، وبعدها شلون نخلص؟ شلون تمر على خير؟ وأولاد الحلال قاعدين لي ركبة ونص، واذا لساناتهم ما قالت راح عيونهم تغزل، وكلها تباوع علي، وبعدها تشتغل رحمة الله، وما يندرى شنو اللي يصير» رغم ان كثيرين فِي صوب الكرخ، وفِي قهوة الشط، عرفوا بأمر الزيارة، فان عودة حسون المبكرة لم ترق للأسطة عواد الذي سأل ليختبره:

- ها حسون، شنو سمعت اليوم؟ شنو اللي صاير بذاك الصوب؟

- كُلّ شي ما ادري، عمي، واحلف بالقرآن!

- ما ينراد لها حلفان، يا معود، وكلها، مِنْ أولها لتاليها، سؤال؛ قول ما سمعت فد شي، وأبوك الله يرحمه!

- آني ما شفت فد شي، لكن الناس تسولف، عمي!

- عن هذا نسألك، يا ابن الحلال!

وبطريقة مشوشة متداخلة، أخذ حسون يروي ما سمعه، ما نقله اليه عدد مِنْ معارفه، وقد وصل خلال ذلك سيفو والاسطة اسماعيل، وصلا معاً، وكانا يبتسمان لنكتة رواها أبو حقي. ما كاد سيفو يسمع أطراف الحديث، وقد فهم انه يتعلق بالقنصل، حتى أصبح كله اصغاءً، عله يستنتج ما فاته مِنْ حديث. وحسون الذي لاحظ هذا الاهتمام فِي عيون سيفو أخذ يفصل ويجود. ما ان انتهى حتى سأله:

- طب القهوة.. وطلع منها.. سلامات؟

- هذا ضيف يا أبو فلاح، قال الأسطة اسماعيل، وانت تعرف الأصول، ماكو أحد بالدنيا يقدر يتحارش بيه، لو نسيت انه ضيف؟

- ونسيت الأصول، همين، يا أبو حقي، لأنه ضيوف هالشكل ما ينرادون!

الأسطة عواد، الذي سمع خبر الزيارة قبل ان ينقلها اليه حسون، قال بغيظ:

- الباليوز يسرح ويمرح، هذي مو يمنا؛ وانه ضيف، مثل ما قال أبو حقي، على العين والراس، لكن اللي حارق فوادي مراد...

توقف قليلاً. أخذ نفساً عميقاً، وأضاف:

- قالوا لي ان مراد طول الوقت اللي قعده القنصل بالقهوة، صار مثل الدجاجة اللي بطيزها بيضة: يقوقي، يصيح، يمش الميز نوبة ونوبة ثانية، ويباوع على القنصل وعيونه ما مصدقة: «الف هلا ومرحبا، زارتنا البركة، هذا يوم مو مثل كُلّ الأيام، والقهوة راح تتذكر هذا اليوم لقيام الساعة.. يا الف مرحبا، ويا مية هلا» وهذا الزعطوط يهز راسه، ويضحك.

- مية نوبة قلت لك يا أبو نجم: مراد وقهوة مراد اغسل ايدك منهم، قال الأسطة اسماعيل، لأنه وين اكو مخنث، طايح حظه، تلقاه هناك، ومراد يدلل، وعيني وآغاتي، وما يندري شنو ورا هذا الدلال!

- الله العليم إذا ابن هالحرام طب قهوة الشط لابد اسوي له مكسورة، قال سيفو، وبعدها زعل أبو نجم، رضي، هاي يمه، هاي بكيفه.

- يكفينا شره، يا معود، ما نريد نحط ايدينا بالنار وبعدها نصيح يا غريب الفرج قال حسون الذي ظل صامتاً:

- ويقولون، بذاك الصوب، انه وهو راكب حصانه يبين هيبة، طويل عريض، لكن لما شافوه بقهوة مراد بين زعطوط، يا الله طاره شواربه، وعيونه زرق مثل عيون البزون، وإذا حكى، إذا قال، ما ينفهم كلامه، عبالك جاهل... ابن سنتين!

قال الأسطة اسماعيل:

- هذا هو السبب اللي دلاه على قهوة مراد، مثل ما الجلب يندل درب القصاب، فنيال اللي يدورون فروخ!

ردَّ سيفو بحنق:

- خلينا مِنْ هذي السوالف، أبو حقي، مراد وأكو مِنْ يفتصل وياه، بس شلون إذا جا لهذا الصوب، إلى قهوة الشط؟

- قال الشيطان ولا فالك، يا أبو فلاح، قال الاسطة عواد، شنو مِنْ الصبح شارب لبن حامض؟

- ويقولون كان شايل عصا بيها شعر حصان، وما عنده شغل الا يحركها يمنة ويسرى!

هكذا أضاف حسون، وبعد قليل وبمرح:

- ويقولون ان مراد قدم الماي بنفسه، وقال له: ماي بارد، أفندينا، لكن لا مد ايده ولا قال فد كلام.. هز راسه، وباوع على صفحة ثانية. وما ظل أحد بالقهوة الا وصارت ضحكته شبر!

قال سيفو، وخرجت الكلمات مِنْ بين أسنانه:

- هذي بغدادنا تحمل هوايه، لكن ابد ماتنسى؛ واذا مو اليوم ثاني يوم!

وإذا كان الباشا قد تحسب مِنْ حركات القنصل، ومحاولات التمويه التي لجأ إليها، فقد أمر ان تحكم عليه الرقابة، وان تنقل إليه فوراً كافة التفاصيل المتعلقة بتحركاته واتصالاته.

أما بعد ان وصل طلعت باقة مِنْ كركوك، ومعه رجاله، فقد التقاه الباشا. كان يريد ان يتأكد ما إذا طلعت، كما عهده، حين سافر، ام تغير. قال له، وكانا وحدهما فِي الحديقة المطلة على النهر:

- هذي الولاية، يا طلعت بيك، خيرها كثير، وهذا ما يطمع الغير بها، فإذا الغُرب ما قدروا يحصلون على هذا الخير فما عندهم مانع ان يدمروا كُلّ شيء!

طلعت هز رأسه موافقاً، لكن الباشا أحس ان هذا الكلام العام لا يعني شيئاً، كمن يشير مِنْ بعيد إلى شجرة فِي غابة كبيرة، تابع فِي محاولة للاقتراب:

- لو الله خلصنا مِنْ هؤلاء القناصل، كان هسه نحن بالف خير...

انتفض طلعت قليلاً، وكأنه تذكر شيئاً. هكذا قالت ملامحه، وهكذا قالت تحديداً عيناه. فجأة اعتدل أكثر مِنْ قبل فِي جلسته، وتطلع باهتمام إلى الباشا.

قال داود باشا، وقد ظهر الحزم على وجهه:

- القنصل الانكليزي يظن الأمور مثل أيام سعيد: يأمر فيطاع. يشاور بأصبعه فيقول له الكبير والصغير، أمرك سيدي، واللي تريده يصير. لأنه كان يفرض الولاة على اسطنبول، هو وغيره، وانت تعرف السالفة مِنْ أولها لتاليها، يا طلعت بك.

- الحق اللي تقوله، يا باشا، وكُلّ الناس تعرف.

- وبعد ماشاف بغداد اليوم غير أيام زمان، أخذ على خاطره، وصار اللي ما يقدر يسويه بالعلن يسويه بالسر، وهذه هي الخطورة يا طلعت بك!

- الحق اللي تقوله، يا باشا، وهذول الأجانب ابد ما يتأمنون!

أخذ الباشا نفساً عميقاً، تماماً مثل الغواص الذي يستعد للنزول تحت الماء، تطلع إلى طلعت باقة، وتساءل همساً:

- كُلّ ما أخاف منه، يا طلعت بك، ان يكون ذاب لقط لصاحبنا، الآغا، يريد يصيده، فشنو رأيك؟

- ما احط بذمتي، يا باشا، لأن بهذي الدنيا كُلّ شي يصير!

- أتمنى ان يكون رجالنا مثل ما عرفناهم: لا ينباعون ولا ينشرون. والواحد منهم كرامته بالدنيا كلها، لا تغريه فلوس، ولا يجر رجله واحد غريب.

- كرامة الانسان وشرفه، يا باشا، رأس مال الواحد بهذي الدنيا، فاذا تنازل عن كرامته او باع شرفه، شنو اللي يبقى منه؟ شلون يقدر يباوع بوجوه الناس؟

- هذا الكلام الزين، يا طلعت بك، وهذا اللي يرفع الراس؛ والله اعلم ان رجالنا على العهد، لا يخونون، ولا يرخصون أنفسهم؛ وما اظن ان أحداً منهم مد أيده للغريب وقال: حسنة، او اعطوني لاني أقدر أسوي فلان شي وفلان شي، وإذا أكو مثل هذا فهو الاستثناء، ولا بد ينكشف!

تلفت طلعت باقة حواليه، ربما ليتأكد ان لا أحد يسمعه سوى الباشا، وقبل ان يقول شيئاً جديداً، أو ان يعلق على ما دار ابتسم. كانت ابتسامته تقع عند الحدود المتداخلة للود ورغبة الاعتراف، ولقول شيء مختلف. نظر إليه الباشا ملياً، وابتسم ليشجعه. قال، وخرجت كلمته بطيئة:

- لا بد سمعت عني هوايه يا باشا، ويجوز انقالت لك أشياء مو زينة: يشرب، يحب الونسة، هذي اعترف بها، وان كنت الوم نفسي، وكُلّ مرة بعد ما اشرب، أقول لروحي: هذي آخر مرة.. لكن...

تطلع بامعان إلى الباشا ليقرأ ردود أفعاله، فلما وجد ان ابتسامته متسامحة، أقرب إلى التفهم، أضاف، وقد توتر صوته:

- يجوز أكو مبالغة بالكلام اللي انقال، هذي نحطها على صفحة، لكن ان يدني الواحد نفسه للغريب، للأجنبي، ويبيع ربعه، فهذا موبس يكون بليا ناموس، بليا شرف، هذا لازم ينقص راسه مو بالفجر مع صياح الديك، وانما والدنيا ضو، حتى ما يظل أحد الا ويشوفه!

ومثلما تنفس الباشا حين بدأ الحديث، فعل هذه المرة أيضاً، قبل ان يقول:

- بارك الله فيك، يا طلعت بك، وهذا اللي كنت اتوقعه منك...

وتوالت هزات رأسه وهو يُضيف بأريحية:

- أما ان الواحد يشرب، أو يتونس، فهذي بنجاز هو وربه عليها، يمكن يسامحه إذا كانت نيته زينة، ويمكن غير شي!

ابتسم قليلاً، وأضاف:

- وانت، يا طلعت بك، تعرف تديني وتمسكي بالشعائر، لكني قادر على التفريق بين التصرفات الشخصية، التي تخص الانسان وحده، وبين الأفعال التي لها علاقة بالآخرين، وهذه ما تهمني كوالي، كمسؤول عن الرعية...

ازدادت ابتسامته:

- طبيعي لازم انبهك ان الخمرة مو زينة، مو بس حرام، لكن لاحظت انك تحس بهذا الشيء مثلي، أحسن مني، لانك كُلّ مرة، بعد ما تشرب، تقول لنفسك: هذه آخر مرة...

وابتسم أكثر مِنْ قبل، أصبح وجهه ضاحكاً:

- ولا بد يجي يوم، يا طلعت بك، نقنعك تبطل هذي المكسرات كلها، نحن نريدك تكون بالجنة، ويانا، فشنو رأيك؟

الله كريم، يا باشا، ولازم يجي يوم واترك!

- عفاريم.. عفاريم؛ طلعت بك

قصر الريحان، فِي الأعظمية، الذي لا يُفتح الا لكبار زوار الولاية الآتين مِنْ ناحية الشمال، خاصة مِنْ اسطنبول، فُتح للآغا، الذي وصل إلى بغداد بعد ضباطه بأسابيع قليلة، ومعنى ذلك تكريم استثنائي لزائر كبير، ومعناه أيضاً استراحة قصيرة قبل الدخول إلى المدينة.

كان ردَّ فعل الآغا مزيجاً مِنْ المشاعر المتناقضة: قدر انه يستحق مثل هذا التكريم، رغم ان الباشا تأخر فيه. وقدر ان الباشا يخشاه، وهذا ما دعاه لان يخصه بهذا التكريم، فِي محاولة لازالة خطأ نقله إلى الشمال، وربما للاعتذار أيضاً. وقدر ان الوضع فِي بغداد وصل إلى درجة مِنْ التردي، وبلغت النقمة على الباشا حدها الأقصى، كما نقل إليه ناهي زبانة، الأمر الذي يضطر الباشا لبذل كُلّ جهد مِنْ أجل كسبه مجدداً.

وقدر أموراً كثيرة أيضاً، وهذا ما جعله مضطرباً، قلقاً، بعض الشيء. أما حين زاره، أو بالأحرى كان فِي استقباله، عدد مِنْ ضباطه، ولمس الاهتمام الذي رافق وصوله، ثم الحفاوة التي خُص بها، ولما بلغ الاستقبال ذروته، فقد وجد مِنْ يهمس بأذنه بضرورة قول بضع كلمات، فوقف وسط الجمع، وقال كلاماً ما كان ليقوله فِي الأحوال العادية. قال، وهو ينظر إلى وجوه المستقبلين «أنا جندي لدى الباشا، وأنا رهن السمع والطاعة» وقال «لا يُعرف الرجال الا وقت الشدة والضيق، وقد جئت امتثالاً للأوامر».

وامتثالاً للعادة الجارية قام فِي اليوم التالي بزيارة مقام الإمام أبي حنيفة، وقد طلب منه مرافقوه، تنفيذاً لتعليمات سادن المقام، بكري الدده، ان يصلي ركعتين تحية للمسجد، ومثلها لروح الإمام الأعظم. ورغم الحرج، أو ربما الضيق، الذي شعر به فِي البداية، فقد قام بما طلب منه. وحين عاد إلى قصر الريحان بعد الظهر، وكان يتوقع ان تكون الترتيبات قد تمت كي يدخل بغداد بين العصر والغروب، الا ان النداء الرسمي تأخر، ثم وصل رسول مِنْ بغداد، عند العصر تماماً، يحمل تحيات الباشا، والتهنئة بسلامة الوصول، وأبلغ أيضاً ان ترتيبات السفر ستصل فِي اليوم التالي.

كان معنى الرسالة ان السفر لن يتم ذلك اليوم.

وفِي اليوم التالي أبلغ بوجوب الانتظار، لان زيارة سوف يقوم بها مسؤول كبير. لم يُذكر مِنْ، ولم يذكر متى.

ورغم الضيق الذي سيطر على الآغا، فقد شعر ببعض التعويض، لأن مسؤولاً كبيراً، ولابد ان يكون الباشا نفسه، هو الذي سيقوم بالزيارة، وقد

يدخلان بغداد معاً، فِي محاولة للايحاء ان العلاقة بينهما تتسم بالود البالغ وهذا هو الدليل. صحيح أنّه لم يرد اثناء التبليغ بالزيارة اسم الباشا، لكن هكذا قدر، وهكذا قدر رجاله، وهم الذين أشاعو الخبر!

وتأخر الدخول إلى بغداد يوماً آخر.

وانقضى ذلك اليوم دون ان يظهر الباشا، أو أيّ مِنْ رجال السراي الكبار، ولم تصل مِنْ بغداد أية إشارة جديدة. شعر الآغا بالضيق أكثر مِنْ قبل، وراودته أفكار كثيرة. ماذا لو دخل إلى بغداد دون هذه المراسيم؟ وحتى لو تمت.. هل تخدمه أم تضر به؟ هل هو ضيف، مثل الضيوف الغرباء، ويحتاج إلى هذه المظاهر؟ ورجاله، والذين ينتظرونه، هل سيكونون راضين أو مرتابين لهذه الصيغة؟

قال لنفسه، فِي محاولة لان يفتح ثغرة فِي هذا الجدار الكتيم: «لو لم يكن الباشا فِي وضع صعب، وبحاجة ماسة لان يستغل مثل هذه العودة، ويريد ان يرتب لها صيغة تعطيها كُلّ القوة والتأثير، ما أجل الدخول إلى هذا الحد» شعر بأهميته البالغة وتأثيره، وانه قادر على فرض الشروط، وهذا ما يجعله فِي مركز قوي، لذلك لا داعي للتحسب، سوف يعرف كيف يفرض شروطه، وسيرغم داود على الاذعان.

فِي اليوم التالي أوعز للضباط الذين كانوا فِي استقباله، وكان عدد منهم يرغب ان يكون فِي موكبه أثناء دخول بغداد، طُلب لهؤلاء ان يلتحقوا بمراكز أعمالهم فوراً؛ ترافق ذلك مع رسالة وصلت إلى قصر الريحان، تقول، لكن بكلمات غائمة، ان تعليماتٍ جديدة سوف تصل مِنْ السراي، وتطلب مِنْ الآغا ان يكون على أهبة الاستعداد بين العصر والغروب. ولم تقل الرسالة أكثر مِنْ ذلك.

حتى غائب، الساعد الأيمن للآغا، طُلب منه منذ اليوم الأول لوصول الآغا ان يرافق مجموعة مِنْ الضباط، لكي يتم الاتفاق معه على التفاصيل المتعلقة بموكب الدخول، وأمور أخرى، كما قيل. لم يُشر لتلك الأمور، كما لم يعد غائب. وحين سأل الآغا عنه، أو متى سيعود، كان الرد ان غائب، وبناء لرغبته، فضل ان ينتظره عند باب المعظم، لان هناك سيكون الاستقبال الكبير!

كان الآغا يريد الاستفادة مِنْ كُلّ لحظة، ومن كُلّ شخص، لكنه الآن يشعر بالعجز، فبين الانتظار، وبين اختيار أشخاص يكلفهم بمهمات محددة، وذلك الشعور الطاغي أنّه المنقذ، وقد حان وقته، وجد نفسه مرتبكاً، حائراً، بل وغير قادر على الحركة. حتى حامد، الذي أبدى استعداداً متحمساً لان يذهب إلى بغداد، لمعرفة العوائق التي أخرت الدخول، وما إذا هناك أسباب أو

ملابسات تحول دون ذلك، لم يقابلها الآغا بالرضا أو الحماسة الكافية. قال لحامد الذي كان يلح فِي الذهاب، لمعرفة الأسباب، والتأكد.

- خليك يا معود، كنا بواحد، خاف هسه نصير باثنين...

وأضاف بعد قليل وبحزن:

- قال لي غايب: مشوار الطريق، وهسه، مثل ما تشوف عينك، صار له أيام؛ وبعدين دز خبر، ما يندرى صدقه مِنْ كذبه: انتظرك بباب المعظم، لان هناك راح يكون الاستقبال الكبير!

وحين خيم الصمت وامتد، أضاف الآغا، وكانت لهجته حانقة:

- يا استقبال.. يا عزا...

وبعد قليل:

- كنا بسالفة وهسه نحن بسالفة ثانية، وما يندرى بعد شنو؟

فِي اليوم السادس وصلت كوكبة مِنْ حراسة السراي. وصلت قبل الفجر، وطلبت ايقاظ الآغا للضرورة القصوى، وعلى الفور. حاول حامد مع قائد الكوكبة تأجيل الأمر إلى الصباح، الصباح الباكر، لكن القائد كان مِنْ العناد إلى درجة لا يقبل ولا يحتمل أيّ تأخير أو أية مناقشة، وقد امتزجت كلماته بالحزم والخوف معاً، الأمر الذي جعل حامد يقدر آن خطراً يهدد الآغا، نتيجة اضطرابات حصلت ببغداد، مما يستوجب انتقاله إلى مكان آمن، وبالسرعة الكلية، خوفاً على حياته، وليكون قادراً على ان يتحرك فِي الوقت المناسب.

هذا ما نقله حامد للآغا، وهو يوقظه. وقد استجاب الآغا دون ان يعرف الكثير مِنْ التفاصيل، لكنه قدر ان شيئاً ما يجري فِي بغداد، وقدر ان كُلّ لحظة لها قيمة، إذ يمكن ان يفعل شيئاً فِي اللحظة الأخيرة، وهذا ما جعل الأمور تأخذ هذا الشكل.

فِي العربة التي كانت تحمله إلى بغداد. سأل قائد المجموعة الذي جاء لاصطحابه:

- الباشا بعده بالسراي؟

- ما ادري، سيدي!

- وين نحن رايحين؟

- إذا لم نُبلَغ بمعلومات جديدة، عند باب المعظم، فإلى القلعة!

- والباشا هناك؟

- ما ادري، سيدي!

- وانت منو اللي دزك؟
- تبلغت الأوامر مِنْ خلف، سيدي.
- وشنو اللي قال لك بعد؟
- قال لي: لازم قبل أذان الصبح يكون الآغا فِي القلعة!
- وبعد؟
- هذي هي الأوامر، سيدي؟

وحاول الآغا مرة أخرى، لكن لم يستطع ان يصل إلى نتيجة. قال لنفسه، فِي محاولة لأن يحرض ما فِي داخله مِنْ القوة والتفاؤل: «القلعة أكثر حصانة مِنْ السراي، ولابد ان يكون الباشا هناك، وبالتأكيد هو الآن بحاجة إلى الدعم وإلى المشورة، ويعرف عند مِنْ يجدهما!» كان الفجر يتراجع، وبداية أضواء النهار تبين وتتضح لما وصل الآغا إلى القلعة.

وهو يصعد الأدراج، فِي الطريق إلى الطابق الثاني، شعر الآغا ان الجو، رغم بعض البرودة، خانق ولا يخلو مِنْ رائحة عفونة، وشعر أنّه لا يحب هذا الجو ولا يطيقه. ولا يعرف لماذا أخذ يدقق بعيون الحرس الذين كانوا يؤدون التحية، وينظرون إليه بطريقة لم تعجبه. أما بعد ان اتجه قائد الحرس الذي كان يرافقه نحو الجناح الجنوبي، الجناح الذي كان يحتله سعيد باشا، وهناك كانت نهايته، فقد انقبض صدره، وشعر أنّه لا يحب هذا المكان؟

إنها المرة الأولى، بعد تلك الليلة الحافلة، التي يصل فيها إلى هذا الجزء مِنْ القلعة. لم يقرر ذلك على نحو واعٍ أو جلي، لكن شيئاً فِي داخله كان ينفره ويمنعه مِنْ الوصول إلى هذا المكان. لذلك كان يعقد اجتماعاته فِي ثكنة الفرسان، فِي السراي، فِي أية قطعة عسكرية، ولم يفكر أبداً ان تكون القلعة مكاناً له، وهذا ما جعلها تبتعد عن تفكيره ثم تغيب.

الآن، فِي اللحظات التي يتوجه فيها نحو الجناح الجنوبي، تهاجمه الذكريات والرائحة، وتلك اللحظات المجنونة. شعر أنّه قوي، أنّه لا يخاف ولا يبالي، ولكن لماذا اختار الباشا هذا المكان وهذا الجناح بالذات ليتحصن فيه؟

كان لديه عشرات الأسئلة والأفكار والتوقعات، وكان واثقاً أنّه بعد لحظات سيصل إلى إجابة، إذا لم يكن عن كُلّ ما يدور فِي رأسه، فعلى القسم الأكبر منها، كما ستتضح له الصورة بكل ملامحها. وإذا كان الباشا يعرف مِنْ صفاته انه قادر على اجتراح المعجزات، وفِي اللحظة المناسبة، فسوف يثبت له الآن مِنْ هو الآغا وماذا يستطيع ان يفعل. وتذكر الكلمة التي كان يرددها، حين يسأل عن الخطة التي سيعتمدها لمواجهة مشكلة مِنْ

المشاكل، كان يقول رداً على مثل هذه الأسئلة، والابتسامة تملأ وجهه: «الشهر اللي مالك فيه، لا تعد أيامه».

حين وصل إلى الجناح المقابل لجناح سعيد وجد ثلاثة ضباط مِنْ السراي فِي استقباله. أدوا له التحية بطريقة رسمية ومختصرة، وقال له المتوسط بينهم فِي العمر، وكان صوته صلباً، وان شابته رجفة صغيرة فِي النهاية:

- بأمر الباشا.. أنت موقوف، إلى ان تأتي تعليمات أخرى!

صرخ. حاول أن يفعل شيئاً، لكن لما التفت حواليه ووجد ان عدداً مِنْ الجنود اقتادوا حامد بعيداً، ووجد ان مِنْ العبث، فِي تلك اللحظة، ان يقاوم، ان يصل إلى نتيجة ترضيه، قال، وهو يصطنع الهدوء، فِي محاولة لانكار هزيمته، ولاظهار عدم مسؤولية هؤلاء الضباط:

- ما يخالف، ولدي، انتو عسكر مأمورين، مالكم غاية وما عليكم ذنب، والحساب بيني وبين الباشا!

قال بعض الحرس، ان الآغا ما كاد يجرَد مِنْ سلاحه الفردي، ويغلق عليه باب الغرفة مِنْ الخارج، وقبل ان تغيب أصوات الضباط فِي الممر الطويل، حتى انفجر صوته بالصياح والشتائم، وقد استمر ذلك بعض الوقت، أعقبته لحظات صمت قصيرة، ثم بدأ البكاء فالنحيب.

أكد أكثر مِنْ حارس ان صوت البكاء كان قوياً إلى درجة أنّه اخترق الجدران وعبر الممر الطويل، ووصل إلى الطابق السفلي. وما يرجح مثل هذه الرواية ان عدداً مِنْ الموجودين فِي أمكنة بعيدة هرعوا نحو مصدر الصوت، ظناً منهم ان مكروهاً وقع، مما يتطلب المبادرة إلى تقديم المساعدة، لكن حين وصلوا وعرفوا، تبادل الكثيرون النظرات سخرية واستغراباً، ورفع واحد يديه إلى السماء وقال:

- بشر القاتل بالقتل، ولو بعد حين!

لم يعرف مِنْ يقصد أو ماذا يعني. وقال آخر بتشف ظاهر:

- صحيح ان الله ما عنده حجارة يضرب بها، لكن يعرف شلون ينتقم!

وعقب ثانٍ وهو يستدير للعودة مِنْ حيث أتى:

- ابو هالدنيا، ما لها أمان، وماكو أكبر مِنْ الله...

وحين وجد ان بعض زملائه ما زال راغباً بالوقوف فترة أطول، والاستماع إلى بكاء الآغا، الذي كان رتيباً أول الأمر، ثم أخذ يتغير، قال بحدة:

- يا الله يا معودين، خاف يباوعنا مِنْ زرف الباب ويعرفنا، فإذا ولانا نوبة ثانية والله وبالله وتالله راح يعلقنا مِنْ خصاوينا، لأن أصعب شيء «للكبير»

ان يشوفه الزغار، أمثالنا، يبكي وينوح!

ولان الحرس المولجين بالآغا خشوا مِنْ العاقبة، أو ان يرى الرؤساء هذا التجمع عند باب الآغا، ويظنوا الظنون، فقد لجأوا إلى الخشونة فِي ابعادهم أولاً. ثم الطلب منهم ان يغادروا المكان.

- لا يعرف متى كف الآغا عن الكباء أو النحيب، لكن واحداً مِنْ وجبة الحرس الثانية، قال إنّه سمع صوت البكاء قبل ان يدخل القلعة! ربما بسبب اختياره للباب الشرقي، والمطل على الباحة الداخلية، وهذا ما يفسر ان لا أحد فِي السوق القريب، مِنْ الجهتين الشمالية والغربية، سمع صوت البكاء.

أما وجبة الغداء التي جيء بها مِنْ مطعم ابن عجينة، القريب مِنْ القلعة، وكان يفترض ان يتناولها الآغا، فقد تناثرت ولطخت وجوه الحرس وملابسهم، ولطخت الباب وجزءاً مِنْ الجدار المقابل، مع ان الحرس قدموها بكثير مِنْ التهذيب، لكن ما كاد يراها الآغا حتى فعل ذلك، الأمر الذي اضطر الآمر إلى اغلاق الباب بسرعة، خشية ان يحصل شيء أكبر. وقد أعقب ذلك فترة صمت، تلاها بكاء مكتوم!

فِي تلك الليلة شددت الحراسات، وتضاعف عدد الحرس عند غرفة الآغا، كما منع الدخول إلى القلعة أو الخروج منها.

بكاء الآغا ونواحه خلال الليل، رغم الوهن الذي أصاب الصوت، كانا واضحين ويسمعان لمسافات أبعد مِنْ النهار. وقد أقسم اثنان مِنْ الصيادين لم يكونا بعيدين عن القلعة، أنهما سمعا بكاء أشبه بالاستغاثة كان يتوالى وقد تشاءما مِنْ الصوت، خاصة حين أصبح فِي مرحلة معينة عواء مقلوباً، الأمر الذي جعل احدهما يطوي الشباك بسرعة، «لان حتى السمك جوا الماي يتسودن، ولحمه يصير فطيس».

الأمر ذاته أكده حراس وجبة منتصف الليل، إذ بعد ان تعب الآغا مِنْ البكاء، ولم تعد حنجرته تسعفه، ليستمر فِي الاحتجاج، أخذ نواحه يتباعد ويأخذ هذه النغمة المشؤومة، وكان أحد الحراس الذي جاء مِنْ جهة السماوة، ما ان يسمع ذلك الصوت، حتى يضع يده على عينيه ويردد: عوذة، عوذة، فال الخير ولا فالك!

أغلب المقيمين فِي القلعة كان نومهم، تلك الليلة مضطرباً، أو ربما لم يناموا، إذ بالإضافة إلى صوت البكاء والنواح، فقد هاجت الذكريات، وهجمت الأسئلة، هذا عدا عن الحرارة الخانقة والبعوض. وقد تبادل الجنود فِي المهاجع، وعند البوابات، واينما التقوا، التعليقات ونتف الأخبار. وحتى لو أرادوا الهروب مِنْ موضوع الآغا، والانشغال بموضوعات أخرى، لا يلبث الآغا ان يعود، وبقوة، مِنْ خلال صوته، أو مِنْ خلال تذكر حادثة له علاقة بها، أو

استحضار شكله وكلامه حين كان يزهو كالطاووس، وهو يوزع شتائمه، أو حين يمازح بعض الجنود بالنكات البذيئة!

ليلة لا تشبه غيرها مِنْ الليالي فِي القلعة.

ما كادت شمس اليوم التالي ترتفع مقدار ذراع أو ذراعين، حتى وصل إلى القلعة طلعت باقة ومعه عدد مِنْ الضباط. وكان قد سبقه فِي الوصول مجموعة مِنْ الناس، لم تعرف أسماؤهم وصفاتهم الا فِي وقت متأخر.

وخلال أقل مِنْ ساعة تحول الجناح الذي شغله فِي يوم ما سعيد باشا إلى قاعة للمحكمة التي يرأسها طلعت باقة!

كان الشهود فِي المحكمة، بعد ان اقسموا اليمين، أربعة: ناهي زبانة، رستم قاورد، جميلة ساهي وروجينا حزقيل، الملقبة بروجينا مراد.

حين فتح باب غرفة الآغا، وطلب منه ان يرافق الحرس، بدا شاحباً زائغ النظرات. رفض بحدة ان يمسكه أحد، وتطلع إلى الوجوه بامعان، وكأنه يحاول ان يتذكرها أو ان يحفظها، وقبل ان يتحرك مع حرسه، سأل بغضب إلى اين يأخذونه، قال له آمر المفرزة، وهو يحاول الابتسام: «قريب، قريب، لا تخاف» ولم يضف أكثر مِنْ ذلك، ولما تأكد ان الجنود مسالمون، لكنهم حازمون، سار معهم.

أدخل إلى الجناح المقابل، الجناح الذي أقام فيه سعيد باشا. ورغم الخطوات القليلة، الا ان توتره كان يزداد ويعنف مع كُلّ خطوة، ولابد ان تكون أفكار كثيرة مرت فِي ذهنه خلال تلك الخطوات، لكن عدد جنود الحراسة، والجو، وتلك الرائحة التي عبقت فجأة، كُلّ ذلك جعله يمتثل ثم يخضع.

يمكن لمشاعر كثيرة ان تثور، ان تتطاير فِي كُلّ الأنحاء. يمكن ان تتفاوت وتتضارب وتصطدم، لكن لا يمكن ان يحدث مثل هذا الذي حدث، وتبقى الأشياء والأفكار والذكريات كما كانت.

بعد ان أُدخل الآغا إلى الغرفة الكبيرة، الملحقة بغرفة نوم سعيد، وترك وحيداً، بدت له الوحدة غولاً، وتمثل له ذلك المكان قبراً كبيراً. حتى الصمت الذي امتد تحول إلى حبل مبلول يلتف حول عنقه.

ولا يعرف أية مشاعر أخرى انتابته خلال تلك اللحظات، لكن أياً منها كان شاقاً ثقيلاً قاسياً. أما حين دخلت هيئة المحكمة، وكان على رأسها طلعت باقة، فلم يصدق الآغا عينيه. صرخ كالملدوغ:

- طلعت.... انت؟

طلعت لم يجب. كان وجهه حازماً كتيماً كالجلد الرطب، وكانت العينان تقدحان شرراً.

خلال فترة قصيرة أبلغ الآغا انه خان العهد والأمانة، وانه تلقى أموالاً مِنْ الأجانب ليقوم ضد الوالي، وطلب منه ان يؤكد هذه التهمة او ان ينفيها. لم يجب الآغا، كان صامتاً، وعيناه فقط اللتان تتكلمان. كان ينقل نظراته بين الوجوه. يتملاها. وإذا لم تقل العينان كُلّ شيء فكان كُلّ جزء مِنْ الوجه يتحرك ويتكلم.

بعد ان مضى وقت طويل على صمته، أو بالأحرى رفضه الكلام، قال طلعت باقة:

- الآن نستمع إلى الشهود.

كان رستم قاورد أول الشهود.

هل يعقل ان يكون طباخه، أقرب الناس إليه، والذي يأتمنه على حياته، شاهداً عليه؟ سألت المحكمة رستم أسئلة عديدة، خاصة عن زياراته لكرمنشاه، وأجاب رستم على الأسئلة. كان يتجنب النظر إلى الآغا، كما يتجنب التلميذ أستاذه، لكن لم ينس تفصيلاً أو تاريخاً، ولئلا يُظن انه يتجنى، ذكر الدعوات التي أقامها الآغا لمضيفيه ومدى الثناء الذي تلقاه، الأمر الذي جعل الآغا يستدعيه ليسمع الثناء بأذنيه. وكيف تعلم تحضير أطباقٍ جديدة خلال تلك الزيارات. ثم الهدايا التي قدمت اليه. وانه باع واحدة مِنْ هذه الهدايا لبدري، لا بقصد الربح، وانما ليقول له أين كان الآغا.

كان الآغا يستمع ويضرب على ساقه، يعض على شفتيه. يهز رأسه يمنة ويسرى، وحين انتهى رستم مِنْ شهادته، أكد ان لديه مِنْ الاثباتات ما يكفي لتصديقه، وإذا اعطته المحكمة الفرصة سوف يأتي بها كلها.

سئل الآغا إذا كان لديه ما يثبت العكس، وهل لديه ما يقوله حول شهادة رستم قاورد، فلم يجب بكلمة. كان يسحب نفساً وراء آخر، ويهز رأسه بلوعة.

أما حين استدعيت جميلة ساهي، فكانت مضطربة، اقرب إلى الخوف. قالت إنها حملت أموالاً، سلمتها لها روجينا، وقد جرى ذلك فِي الحويلة، قبل الوصول إلى كركوك، ثم استردتها منها ما ان وصلت، وتعتقد ان الأموال سُلمت للآغا. أما مِنْ اين هذه الأموال أو لماذا، فلا تعرف شيئاً.

والآغا الذي لم يقل كلمة، حين كان طباخه، رستم قاورد، يدلي بشهادته، ما ان انتهت جميلة مِنْ شهادتها، حتى هاج وصرخ، وقد خرج صوته مخنوقاً، وفيه بحة ظاهرة:

- إذا كان كُلّ شهود الباشا هالشكل لا بالله حصلنا، وحقوقنا وصلتنا!

وحين سأله طلعت باقة ما إذا لديه اسئلة يمكن ان يوجهها للشاهدة، ردَّ بسخرية:

- مثل ها لعذارى مالنا شغل وياهن، يجوز لغيرنا شغل أزيد!

ولما جاءت روجينا ضرب الآغا، لا شعورياً، على جبهته، وهو يراها تدرج مثل بطة: سمينة، مرتبكة، ومليئة بالأسى. جلست، أول الأمر، على كرسي طلب منها ان تجلس عليه. سأل طلعت باقة الآغا ما إذا كان يعرفها أو له علاقة بها، والآغا الذي رفض الاجابة، ركز نظراته على روجينا، يريد ان تلتقي عيناه بعينيها، لكن روجينا ظلت مطرقة. أما حين سألها طلعت باقة ما إذا كانت تعرفه، فقد وقفت وهي ترد:

- منو ما يعرف الآغا؟

ولما كرر عليها السؤال كيف عرفته وأين، وماذا تعرف عنه، ردت:

- شغلتنا، يا بك، عرفتنا عليه وعلى غيره؟

ورغم ان الآغا لزم الصمت، رافضاً الاجابة على الأسئلة التي توجه إليه، وبعد ان قالت روجينا كلماتها، صرخ بانفعال:

- سمعت، يا طلعت، شنو اللي قالته روجينا؟

سألها طلعت مِنْ جديد ما إذا حملت مالاً للآغا. وما مقداره، ولماذا.

وردت بالتفصيل كيف حملت مالاً مِنْ الباليوز لتسلمه إلى الآغا، وانها كانت مجرد رسول. وتقدر ان شيئاً ما كان مطلوباً، لكن لا تعرف ما هو هذا الشيء!

بكت أكثر مِنْ مرة وهي تدلي بشهادتها. ولطمت على خدها أكثر مِنْ مرة. ووصفت نفسها انها امرأة شقية، وما كانت لتفعل ذلك لولا خوفها مِنْ انتقام الآخرين. وقالت انها نادمة لأنها لم تبلغ السراي، ولم تقل ذلك لأحد. كما أكدت انها استعانت بالفتيات اللواتي يعملن معها، بمن فيهن جميلة ساهي.

وقالت أخيراً، وهي ترفع يديها للسماء:

- واشهد يا ربي اني ما عصيت، وانت تعرف ما فِي القلوب!

وطلب مِنْ الآغا ان يقول شيئاً، ان يسأل، لكنه هز رأسه مرات عديدة، ولم تفهم دلالة هذه الهزات؛ وحين خيم صمت طويل وقاسٍ، طلب طلعت باقة ان يؤتى بالشاهد الأخير.

وناهي زبانه شيطان أزرق، له حدقتا صقر، ولسان حرباء، أما ذاكرته فانها تشبه الحفر على الصخر، تسجل الأحداث دفعة واحدة لتبقى إلى الأبد.

ما كان الآغا بحاجة لأن يتكلم، لأن يعلق، وهو يرى ناهي زبانة داخلاً للشهادة. يمكن ان يتصور أيّ إنسان عدا ناهي. يمكن ان يكذب أيّ انسان عدا ناهي. وناهي مثل أيّ عفريت يدخل تحت الجلد؛ قد لا يحب الانسان شكله، أو بعضاً مِنْ تصرفاته، لكن لا يملك الا الاعجاب به وتقدير مواهبه.

حين دخل ناهي، ولما رأى الآغا، ابتسم وقال بسرعة:

- مرحباً سيدي. شلونك؟ شلون كيفك؟

لم يكن ناهي ينتظر جواباً، والآغا لم يرد!

حين بدأ ناهي يدلي بشهادته، وما كاد يقول بضع كلمات، حتى هدر صوت الآغا:

- سويتها يا داود، وفاتت علي. هذه لازم اعترف بها، لأنها أكثر مِنْ ضربة فالة، هذي ضربة ما يطلع بعدها شعر، لكن الحق علي، آني المغرور المخبل، وهذا الصيد اللي كنت تنتظره يا باشا.. وصدت.. وصدت.. وصدت.

وخلال شهادة ناهي كان الآغا بهز رأسه، وكأنه يؤكد كُلّ كلمة، أو يندم على كُلّ لحظة قضاها معه. وحين انتهى مِنْ الشهادة، بما فيها المهمات التي كلفه بها الآغا، والأموال التي استلمها، ولمن سلمها، وماذا حصل فِي كُلّ قضية صغيرة أو كبيرة، ومتى وأين، ومن قام بها، اكتفى بكلمات ظل يرددها وهو ذاهل:

- تقتل بدم بارد، يا ابن الحرام.. أيّ نعم تقتل، تقتل وتمشي بالجنازة يا ابن الزفرة، وما أقدر أقول ان هذي النوبة، وحدها، فاتتني، لأني أكبر مخبل بهذي الدنيا، المية تسري وتسرح، وآني مثل أيّ مخبل ما ادري!

بعد ان انتهت الشهادات، سأل طلعت باقة الآغا ما إذا لديه ما يقوله.

فهز الآغا رأسه بالنفي، ولم يقل كلمة واحدة.

وعند الغروب أصدرت المحكمة حكمها بإعدام الخائن سيد عليوي.

وسُحب الآغا إلى الغرفة المقابلة، لأنه لم يستطع ان يمشي. ولم يُسمع خلال تلك الليلة بكاء أو نواح. وحين عرض عليه ان يأكل شيئاً طلب كوباً مِنْ الماء وكسرة خبز.

أما فِي صباح اليوم التالي، حين فتح عليه الباب، وطلب منه الحرس ان يرافقهم، فقد رجا ان يقابل الباشا، لان لديه ما يقوله، ولابد ان يسمعه. لكن محيي الدين رمضان، المكلف بالتنفيذ، قال له كلمة ظلت تتردد زمناً طويلاً. قال له، وهو يرجوه ان يمشي معه:

- إذا فاتتك مقابلة الباشا هذي النوبة، فلا بد نؤمن لك مقابلة بوقت ثاني.. حلت البركة!

وهو يحاول الوقوف أمام البنادق لم يتمالك نفسه. بكى. صرخ. ترجي. بال على ملابسه ثم تهاوى. أوقفه محيي الدين لكي لا تذهب الطلقات فِي الهواء. أوقف، بعد ان ربط، وقبل ان ترتفع الشمس ذراعين أو ثلاثة أذرع فِي السماء، كانت الرصاصات تخترق جسده، وتستقر اثنتان منها فِي الجمجمة.

قيل إنّه دفن؛ وقيل انه رمي فِي النهر؛ وقيل ان قبراً حفر على عجل قريباً مِنْ الباليوز، والقيت فيه جثة، أو شيء مشابه، وقد جرى ذلك بصمت، ودون ان يعرف الكثيرون!

منذ الصباح الباكر، وصل بطرس يعقوب إلى السراي، طالباً لقاء صفوت قرداغ لأمر مستعجل، وحين أبلغ ان صفوت لم يصل بعد، طلب لقاء أيّ مسؤول آخر يمكن ان ينوب عنه، لأن الأمر فِي غاية الأهمية ولا يحتمل التأجيل، فأبلغ مجدداً، بعد ان استشار الحرس رؤساءهم، ان ليس هناك مِنْ يستقبله فِي هذه الساعة المبكرة، وعليه الذهاب الآن والعودة فِي وقت آخر.

ولأن ريتش أكد عليه بضرورة ألا يعود قبل تحديد موعد زيارة القنصل للباشا، فقد قدر ان انتظاره فِي قهوة مراد أفضل مِنْ عودته إلى الباليوز، إذ ربما يتعرض هناك للتوبيخ، لأنه لم ينجز المهمة التي كلف بها، خاصة وان مِنْ صفات ريتش، وقد كرر عبارة بالذات لتدل عليها، وليجعل موظفيه ملتزمين بها: «لا أعرف كلمة اسمها: مستحيل، لان الانسان إذا وضع هذه الكلمة أمامه لا يمكن ان يحقق النتائج الكبيرة التي يطمح اليها».

الانتظار اذن فِي قهوة مراد أسلم، فمن هناك يستطيع ان يرقب العربات والخيول التي تصل السراي، ولابد ان يكون أول زائر لصفوت، تمهيداً للاتفاق معه على الموعد الذي ينتظره القنصل.

قال له مراد، فِي محاولة تزلف ظاهرة:

- مِنْ ذاك اليوم، خاطري مكسور، يا بطرس أفندي!

ولان بطرس يعرف ما يقصد، ومن يعني، فقد ردَّ عليه دون اهتمام:

- لا تدير بال يا معود، وهذي تحصل بكل وقت وبكل مكان!

- ردنا نبيض وجه، يا بطرس أفندي، لان ضيف مثل صاحبنا ما يحصل كُلّ يوم، لكن ما رهمت، وصار اللي صار.

- نجيك بزيارة ثانية، وثالثة، والخير بالجايات.

- ومن ذاك اليوم نبهت وقلت: تفال بالقاع ماكو؛ وكرزات بالقهوة ماكو؛ وقشور رقي وبرتقال بالقهوة ماكو...

ولأنه غير قادر على تذكر كُلّ ما يريد منعه فِي القهوة، وقف، وهو يجيل نظراته فِي جميع الأنحاء، وجاء صوته مليئاً بالاعتزاز:

- وأريدك تتلفت وتباوع شلون كانت القهوة وشلون صارت!

وجامله بطرس يعقوب، الذي كان يراقب الشارع بانتباه لئلا تفوته عربة صفوت، والتفت بسرعة إلى حيث أشار، وخرجت كلماته بطيئة ودون حماس:

- تسلم ايدك يا أسطة.. هه صارت القهوة تفتح النفس.

- بعد ينراد لها صبغ ومسائل مِنْ هنا.. ومن هنا.

وحين هز بطرس رأسه دلالة الفهم والرضى، فرك الاسطة يديه، وسأل:

- هذي خلصنا منها، وأبد ما راح انسى وعدك بزيارة ثانية وثالثة. وهسه.. شتريد تتريق مولانا؟

- ريوق ما أريد أسطة. أريد فد استكان شاي، يرحم والديك!

- هاي وين صارت، بطرس أفندي؟ انت ما تقبلها!

وصفق بيديه طالباً مِنْ أحد صناعه ان يوافيه، لكي يأمره بجلب ريوق يناسب الضيف الجليل، والى ان يصل الصانع، ولكي يتفق مع بطرس، بدأ يعدد:

- أكو هريسة كلش طيبة، وهذي مكانها قريب، مِنْ عند الزيبق؛ واكو كباب سلطان، كباب ابن شهدة؛ وأكو باچه، وانت تعرف باچه قدوري، هذي ما ينراد لها سؤال؛ وأكو مولانا صحون حار ويا القيمر والعسل، فقول، شنو تشتهي، وبدقيقة يصير حاضر!

- وداعتك، أسطة، ما أريد غير استكان شاي.

- مولانا، وانت سيد العارفين، ما تتصور شقد آني مقهور على سواية ذاك اليوم، فلازم نعوِض...

- خبرها بغيرها أسطة مراد، وبس نجيك نوبة ثانية نطلع القصور!

- هذا وعد بطرس أفندي.

- خلص.. خذها مِنْ هالشوارب!

- صرت مديون بوعدين، بطرس أفندي، ان نتمالح فد يوم؛ وان تجيب صاحبنا وتجي، تمام؟

قبل ان ينتهي مِنْ احتساء استكان الشاي، لمح صفوت قرداغ داخل عربة متجهة إلى السراي، ففز واقفاً كمن لدغته حية أو كوته نار. انطلق دون ان يودع مراد. امتطى حضانه بسرعة واتجه إلى السراي.

قال الحارس، حين وقف أمامه مجدداً، وبدا الضيق فِي صوته!

- يا فتاح.. يا رزاق، شنو صاير بالدينا؟

تظاهر بطرس انه لم يسمع، أو ان الكلام غير موجه اليه، وطلب ان يرى صفوت.

استُمهل وقتاً إضافياً لكي يسأل الحارس رئيسه، وليسأل الرئيس مركز الحراسة المتقدم. وبعد انتظار، والتأكد مِنْ الصفة، ومن يريد ان يقابل، وما إذا كان الأمر عاجلاً إلى هذا الحد. وقد أجاب على هذه الأسئلة بأناة وصبر، وحين سُمح له. طُلب منه ان يبقي حصانه فِي الباحة الخارجية، وهناك سوف يرافقه أحد الحراس إلى ديوان صفوت بيك.

لم يبد عليه الضيق اثناء الانتظار، ولم يعترض على ان يكون الوصول إلى ديوان صفوت بيك مشياً على الأقدام. فقط يريد ان يصل، وان ينجز المهمة المكلف بها.

ورغم أنّه اضطر لانتظار إضافي فِي ديوان صفوت، إذ تأخر الموظف المختص فِي الابلاغ عن وصوله، ثم تأخر هذا الموظف أيضاً لدى صفوت بك، وحين خرج مِنْ لدنه ابتسم له ابتسامة قصيرة متحفظة، وقال له: بضع دقائق!

لما رآه صفوت قرداغ، وقد نهض لاستقباله بصعوبة، نتيجة داء المفاصل الذي يشكو منه، قال بمرح:

- لو كنت مسلم وتقي، كان قلنا لروحنا: بعد ما صلى الصبح طارت النومة مِنْ عينه، وقال لنفسه: فلان ما شفته مِنْ شهور، فلازم نزوره ونطمئن عليه؛ وفلان نال ترفيع وما زرناه ولا هنيناه، فخاف ياخذ على خاطره ويزعل، ولازم نمر بيه نهني ونعتذر عن التأخير..

كاد يستمر صفوت بالعتاب، وكان يعني تحديداً ان لا أحد مِنْ الباليوز هنأه بالترفيع والموقع الجديد الذي حصل عليه، وكان بطرس يعقوب يدرك معنى هذه الاشارة، فرد، وقد شاب صوته شيء مِنْ الحرج:

- هذي لك حق بيها، يا صفوت بك، لكن لو تعرف أشغالنا، وشقد مطلوب منا...

- أدري.. أدري، شلون ما أدري، يا بطرس أفندي!

- وبالليل وبالنهار، يا صفوت بك!

نظر إليه صفوت بخبث، وخرج صوته الجاد والساخر معاً:

- ما يجوز تتعب نفسك ازيد مِنْ اللازم، خاصة بالليل، يا بطرس، لان بعدين يبين التعب، وتصير مثل حالتنا!

وضحك الاثنان، وصمت الاثنان قليلاً، تمهيداً للدخول فِي الموضوع الذي جاء مِنْ أجله بطرس يعقوب، خاصة فِي هذه الساعة المبكرة.

سأله، بعد ان زحف قليلاً فِي كرسيه:

- ان شاء الله جماعة الباليوز بخير وعافية، وماكو أحد منهم وجعان أو متأذي؟

- كلهم بخير، وكلهم يسلمون.

- وانشاء الله ماكو سفر، أقصد القنصل أو أهله؟

- لا هالفترة باقين ببغداد.

تراجع صفوت قرداغ فِي كرسيه، وقال كأنه يكلم نفسه:

- بغداد بالصيف ما تنحمل، تصير نار، فالله يساعد الناس اللي ما متعودين على هذي الحرارة، خاصة القنصل وأهله.

- الحق اللي تقوله يا بك، ومع ذلك الواحد يتعود!

ردَّ صفوت بمرح:

- أكو أشياء، مولانا، ما يقدر البني آدم يتعود عليها، حتى لو حاول...

وضحك ضحكة طويلة، وأضاف ليثبت وجهة نظره.

- جهنم، مثلاً، شلون الواحد يقدر يتعود عليها؟

كان صفوت قرداغ يلعب مع بطرس لعبة ماكرة، فهو يعرف ان لديه ما يقوله، خاصة وهو يجيء فِي هذا الوقت المبكر، لكن لا يريد ان يبدي لهفة او اهتماماً، تاركاً لبطرس ان يدخل فِي الموضوع الذي جاء مِنْ أجله. وبطرس، رغم تأكيد القنصل عليه بضرورة انجاز المهمة بسرعة، يعرف ان أقصر الطرق للوصول، ذلك الطريق الذي لا يتوقعه الطرف الآخر، والذي قد يأتي عرضاً، ولا يحاط بأهمية استثنائية.

لما خيم الصمت وطال، سأل صفوت بتهذيب مصطنع.

- لا اعرف إذا كان لديك يا بطرس أفندي، طلب أو رسالة؟

ومع ان بطرس يعقوب هيأ نفسه هذه المرة، كما فِي كُلّ مرة، ان يكون بارداً ومترفعاً، مثلما طلب القنصل مِنْ موظفيه فِي علاقاتهم مع السراي، فقد وجد نفسه يرد باندفاع:

- سعادة القنصل يطلب موعداً مستعجلاً مع الباشا...

هز رأسه صفوت فرداغ، وقلب شفته السفلى، وكأنه يعني قبل ان يقول، ان موعداً مثل هذا لن يكون قريباً. ولئلا يبدو متعجلاً، سأل:

- شنو قصدك بالمستعجل، يا بطرس أفندي؟

- الآن، فوراَ، أفضل مِنْ الظهر أو العصر.

- اف.. أف... انت تطلب المستحيل!

- ولكن هناك أمور بالغة الأهمية يريد سعادة القنصل ان ينقلها للباشا.

- ويجب ان تتم بهذه السرعة؟

- كما ذكرت لك، يا صفوت بيك، السرعة بالغة الضرورة والأهمية!

وليعطي صفوت قرداغ نفسه فرصة التفكير والتقدير، وما إذا يستطيع شيئاً، فتح الدفتر الكبير أمامه ليتأكد مِنْ مواعيد الباشا. تأمله طويلاً. هز رأسه مرات عديدة، وبأشكال مختلفة. تطلع إلى بطرس وكأنه يقرأه مِنْ جديد. قال كما لو أنّه يخاطب نفسه!

- ما زال الوقت مُبكراً لمراجعة ديوان الباشا...

وبعد قليل، وبصوت له رنين:

- انت متأكد ان الأمر لا يحتمل التأجيل لبضعة أيام؟

- صفوت بك. نحن نتكلم عن الساعات لا عن الأيام!

استأذن صفوت لكي يجري اتصالاته مع ديوان الباشا، وأشار أنّه إذا تسنى له لقاء الباشا شخصياً فسوف يبذل قصارى جهده لتأمين موعد مبكر.

غاب صفوت وطال غيابه، وحين عاد بدا متعباً. جلس مجدداً وراء طاولته، أغمض عينيه، تمطى. وبعد ان استراح بما يكفي، قال بصوت له وقع الظفر:

- حظك يا بطرس أفندي مِنْ السماء...

قال ذلك وصمت، صمت طويلاً، وكأنه يستعيد مشاهد كثيرة رآها خلال فترة انتقاله مِنْ مكتبه إلى المكاتب الأخرى. ورغم ان بطرس استرخى للكلمات القليلة التي سمعها، الا أنّه يريد شيئاً واضحاً ومحدداً.

سأل يستعجله:

- أيّ.. يا بك، شلون صار الاتفاق؟

- اسمع، مولانا، وانت قرر...

وفجأة انتبه إلى ان ضيفه لم يشرب شيئاً جديداً، خاصة أثناء غيابه، ضرب بعنف على الجرس الموضوع على الطاولة أمامه، وقال، بعد ان اخذ نفساً عميقاً.

- هؤلاء الخدم يسودون الوجه..

وتغيرت النبرة:

- أمرتهم ان يحملوا اليك ماء بارداً، وأن يأتوا بالشاي.

حين دخل الخادم خاطبه بهدوء:

- ابني.. جيب شاي ومي بارد.

وعاد إلى الموضوع الذي ينتظره بطرس بلهفة:

- اسمع، مولانا، وانت قرر..

زحف قليلاً على كرسيه، ليكون أقرب إلى بطرس، وقال:

- إذا رغب القنصل بموعد عاجل وقصير يمكنه ان يأتي قبل ساعة مِنْ صلاة الظهر، أما إذا رغب بموعد طويل لتبادل الأحاديث والأفكار، فيمكن ان يأتي بين العصر والغروب.

ولم ينتظر بطرس يعقوب وصول الشاي والماء البارد، استأذن بسرعة، وكان راضياً عن نفسه، وعن النتائج التي توصل لها. قال، فِي محاولة لتأكيد الموعد الأول:

- سنكون فِي السراي قبل صلاة الظهر بساعة، وسوف تبلغون البوابة الرئيسية والحرس بالموعد!

- كان الباشا متأكداً ان موضوع المقابلة متعلق بالآغا، وسوف تكون فرصة لان يختبر احتمالات عديدة. كما سيلقن القنصل درساً، ويقول له مِنْ هو داود باشا بالمقارنة مع الولاة السابقين.

وخلافاً لزيارات سابقة قام بها القنصل للسراي، جاء هذه المرة بموكب مهيب، لكنه مختصر، إذ اقتصر على عدد محدود مِنْ رجاله. أما تعليمات الباشا التي أصدرها فور الموافقة على لقاء القنصل، فكانت صارمة بضرورة اتخاذ أقصى الاستعدادات لاظهار عظمة السراي وقوة الوالي وخلال الساعات الباقية دب النشاط، وتم ارتداء ملابس الاستقبالات، وغسلت الباحات ومسحت الأبواب الخارجية، بحيث بدت السراي وناسها فِي وضع قلما تكون بهذا الشكل المتألق الزاهي.

فِي بداية اللقاء تعمد الباشا ان يتحدث عن الحرارة الشديدة، والتي جاءت هذه السنة قبل الأوان؛ وقال ان مِنْ شأن هذه الحرارة ان تنضج الفواكه فِي وقت مبكر، وحالما تنضج الفواكه يقل استهلاك الانسان مِنْ اللحوم، وفِي ذلك فائدة للجسد بكل تأكيد. وهذا ما يجعل الناس قادرين على تحمل الطقس الحار. وتمنى الباشا، فِي نهاية هذه الفقرة، ان تكون شهور تموز وآب وأيلول رحيمة، لأن سكان البلاد إذا كانوا قد تعودوا على احتمالها، ولانها تعجل بانضاج التمور، وهي الغذاء الرئيسي لأكثر السكان، فلا يعرف كيف سيتحمل الضيوف هذه الحرارة!

ورغم ما يتصف به الأجانب عادة، والأوربيون منهم بوجه خاص، مِنْ تهذيب وحسن المجاملة الا ان المستر ريتش، مع اتقانه ذلك حين يريد، يرغب فِي أحيان كثيرة ان يتخلى عن هذه الصفة، لقناعته ان سلوكاً مثل هذا يمكن ان يحدث صدمة للعقل الشرقي المغلق، وبالتالي يجعله أكثر قدرة على الفهم، وكان ذلك يضطره لخوض مناقشات لا تخلو مِنْ صعوبة، حتى مع الباشا ومع كبار الموظفين.

فِي هذه الزيارة كان حائراً، ويواجه موقفاً صعباً، فهو لا يحب الحذلقة أو الأحاديث التي لا تتعدى ان تكون كلاماً معاداً، لتمرين اللسان أو لمحاربة الصمت، كما لا يقوى على الرفض، لان المهم ما بعد هذا الحديث.

التزم الصمت، لم يعلق، لم يضف شيئاً، ولم يسأل عن أيّ شيء متعلق بالطقس. أما حين توقف الباشا قليلاً، فقد اعتبر ان الوقت أصبح مناسباً لان يبدأ:

- ان طلبي لموعد عاجل مع فخامتكم فمن أجل موضوع محدد...

- تفضل.. تفضل، سعادة القنصل، قاطعه الباشا.

- وارجو الا يفهم ان بحث هذا الموضوع يعتبر تعدياً على صلاحياتكم أو تدخلاً فِي أمور السياسة الخاصة بكم.

- نرجو ذلك يا سعادة القنصل، ونحن متشوقون وكلنا آذان صاغية لآرائكم الحكيمة!

- فخامة الوالي...

وابتسم قليلاً، فِي محاولة لان يمتلك جرأة إضافية مِنْ أجل الدخول فِي الموضوع:

- لقد جئت مِنْ أجل التماس شفاعتكم وسعة صدركم...

تغيرت ملامح الوالي. تحرك قليلاً لتصبح جلسته أكثر راحة، وجاء صوته يحمل مقداراً مِنْ الود:

- يجب ان تعرف، سعادة القنصل، أنّه لا يُرد لكم طلب، وسوف أبذل كُلّ جهدي لتلبية رغباتكم.

- لقد جئت يا صاحب الفخامة مِنْ أجل سيد عليوي!

رفع داود باشا يده فِي الهواء ثم اسقطها على فخذه، فسمع لسقوطها وقعاً مكتوماً، دلالة الأسف، وما يشبه الندم. ترافق ذلك مع هزات متوالية مِنْ رأسه، وخرجت كلماته بطيئة، ولا تخلو مِنْ أسى:

- لقد وصلت متأخراً يا سعادة القنصل!

وخيم صمت ثقيل. فالباشا لا يريد، بعد، ان يدخل فِي التفاصيل، وريتش لا يقوى على السؤال عن معنى وصوله متأخراً.

ولان الصدمة أحدثت تأثيرها، وفِي اعقاب هذا الصمت القاسي، أضاف الباشا، بعد ان أضفى على صوته أسى شفيفاً:

- لو عرفت رغبتكم هذه، لو وصلتني قبل ساعات، لتغيرت أمور كثيرة.

- أرجو ان أتلقى منكم المزيد مِنْ التوضيح، يا فخامة الباشا.

أخذ الباشا نفساً عميقاً قبل ان يجيب:

- كان الآغا مِنْ أحسن رجالي، وكنت اعتمد عليه فِي الأمور الأساسية. خاصة العسكرية، وكنت أهيئه لمناصب أعلى. لكن...

توقف الباشا متعمداً، ليرى ردود الفعل بسبب الكلمة الأخيرة التي قالها، لأن الكثيرين، حتى تلك اللحظة، لا يعرفون ما حصل ذلك اليوم. ومن خلال الكلمة الأخيرة يريد الباشا ان يقدر كيف وصلت المعلومات للباليوز قبل ان تصل لمعظم رجال السراي. بعد ان جال بنظراته فِي الوجوه، وتوقف برهة أطول مِنْ المعتاد، وهو يقرأ ردود الفعل فِي وجه ريتش، أضاف بلهجة هي مزيج مِنْ الأسف والحقد معاً:

- كان يمكن ان أسامحه، ان أعفو عنه، لو لم تمتد يده إلى خارج حدود، ولدي مِنْ الأدلة الكثير!

أحس ريتش انه معني بالموضوع بمقدار ما، ولابد ان يكون أمر الأموال التي أرسلها إليه، وصل خبر بعضها أو كلها إلى الباشا. قال فِي محاولة للتوضيح:

- أريد ان أوضح نقطة قد تكون خافية على فخامتكم، ومن المفيد ان تقفوا عليها..

عدل جلسته قبل ان يتابع:

- لقد أرسلت، يا فخامة الباشا، إلى عدد مِنْ الاغوات فِي الشمال بعض المبالغ ثمناً لخيول اشتريتها منهم، ولان مِنْ عادة هؤلاء الأغوات ان يغيروا أماكنهم بين الصيف والشتاء، فقد ارتأيت ان أرسلها إلى الآغا ليتم ايصالها اليهم بمعرفته، وهو الأقدر على الوصول إليهم.

- مسألة الأموال التي ارسلت ثمناً للخيول أعرفها، يا سعادة القنصل، وليس لي اعتراض عليها، لكن المسألة أكبر مِنْ ذلك ومختلفة!

هكذا ردَّ الباشا ليترك ظلالاً مِنْ الشك على أكثر مِنْ جهة، وليشعر القنصل انه يعرف بالأموال التي أرسلها. وريتش الذي اكتفي بهذا التوضيح، كان

يريد الوصول إلى الهدف الأساسي الذي يعنيه الآن: انقاذ الآغا، وبعد ذلك يمكن ان يعيد ترتيب أوراقه بشكل أفضل.

قال للباشا، وقد حمل لهجته مقداراً مِنْ الود:

- ربما حصلت أخطاء أو بعض التجاوزات، يا فخامة الباشا، لكن كما حصلتُ على عفو عنه مِنْ سعيد باشا، وتتذكرون ذلك، أطمح ان تكونوا كرماء معي هذه المرة أيضاً!

فر الباشا يده اليسرى بحركة نصف دائرية، وقال بأسف ظاهر:

- لو كنت أدري ان هذه رغبتكم، يا سعادة القنصل، ولو تبلغت بهذه الرغبة فِي الوقت المناسب، لأخذت الأمور مساراً آخر...

ولم يترك القنصل ينتظر طويلاً، أضاف، وهو ينظر بتحديد إلى عينيه:

- لقد تم تنفيذ حكم الإعدام فجر هذا اليوم، يا سعادة القنصل، ويؤسفني أشد الأسف ان أبلغكم بهذا الخبر، وأعجز عن تلبية الرغبة التي جئتم مِنْ أجلها!

كان معنى ذلك انتهاء المقابلة، ولا شيء يمكن ان يُفعل أو يضاف.

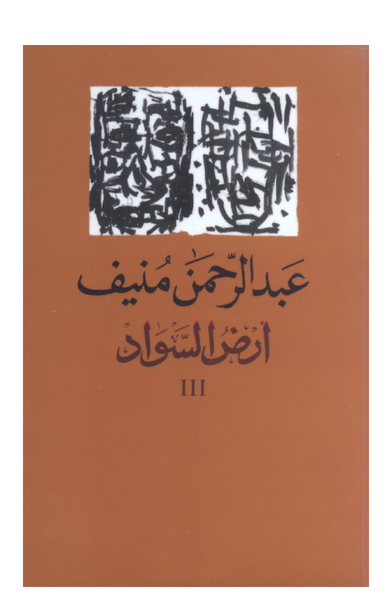
لم يكن القنصل قادراً على اخفاء انفعاله وتأثره. حاول ان يتماسك، ان يبدو قوياً. قال للباشا، الذي حرص على توديعه بمودة ومجاملة زائدة:

- مِنْ المؤسف ان يصل الإنسان متأخراً، خاصة فِي الأمور التي لها علاقة بالحياة والموت، لأن الموت إذا حل تنتفي الحاجة إلى الكلمات، أية كلمات، ويصبح كُلّ شيء زائداً أو لا ضرورة له.

هز الباشا رأسه موافقاً، وقال:

- لقد جاء فِي الكتاب الكريم: «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» وكانت هذه مشيئة الله!

أرض السواد
III


عبد الرحمن منيف
أرض السواد
III

الطبعة الأولى، 1999

الناشران

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص. ب: 5460 ـ 11
تلفاكس: 807900/ 807901
التوزيع في الأردن:
دار الفارس للنشر والتوزيع:
عمّان، ص. ب: 9157، هاتف: 5605432، فاكس: 5685501

المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع

المملكة المغربية.
الدار البيضاء: 42 الشارع الملكي (الأحباس) ص. ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 303339 ـ فاكس: 305726
لبنان
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي. ص. ب: 5158/ 113
هاتف/ فاكس: 343701/ 352826

لم يحزن إلا القليلون لإعدام سيد عليوي، بعض رجاله، إضافة إلى الباليوز، ريتش بشكل خاص، وكرمنشاه. وإذا كان مفهوماً حزن الأقرباء، فان ريتش راهن على الآغا، ولم يتوقف عن دعمه، وكان متأكداً ان قوى الباشا سوف تُستنزف مِنْ خلال معاركه مع البدو، ولابد ان يحين الوقت ليصبح الآغا كُلّ شيء، أما شعوره الآن فأقرب إلى العجز والضياع. إذ بالإضافة إلى الخسارة التي يشكلها غياب الآغا، والتي لن تعوض بسهولة أو خلال فترة قصيرة، فان هذا الإعدام رسالة مباشرة بالغة الدلالة، وموجهة إليه شخصياً.

إلى ما قبل هذه اللحظة، ظن ريتش ان داود لن يختلف عن غيره مِنْ الولاة. يمكن ان تكون لديه أفكار او رغبات، وقد يحلم أيضاً، وربما يتوهم انه قادر على منازلة ممثل أقوى دولة فِي العالم، لكن حين يصطدم بالوقائع الصلبة، حين يمر الزمن، سيدرك مدى قوته مقارنة بقوى الآخرين. وإذا أراد ان يستمر لابد ان تتغير أفكاره ورغباته، ولابد ان يتخلى عن أوهامه أيضاً، أيّ يجب ان يصبح عاقلاً، كما صار كُلّ الذين سبقوه، وكما سيكون حال كُلّ الذين سيأتون مِنْ بعده. وهذا ما دعا ريتش لان يحتمل بعضاً مِنْ تصرفات داود، دون ان يصطدم به أو ان يواجهه مباشرة.

الآن، نتيجة هذه الخسارة، ومن خلال هذه الرسالة، على ريتش ان يتصرف بطريقة مختلفة، فقد بدأ داود المعركة، وعليه ان يُهيئ نفسه لخوضها.

وكرمنشاه كانت تعتبر ان مسألة الوصول إلى بغداد مسألة وقت ليس إلا، وسيد عليوي، الرجل الموثوق والقوي، سوف يكون، فِي المرحلة الأولى، رجلها فِي بغداد، ثم ستكون هي، ومباشرة، كُلّ شيء هناك. لذلك على كرمنشاه ان تفكر الآن، بعد اعدام سيد عليوي، بشكل مختلف، وان تعرف كيف تتصرف.

ولما كان هذان الطرفان، وان بتوقيت مختلف، قد أمضهما الأسى لاعدام الآغا، فان رجال الباشا لم يتأخروا فِي نشر الخبر فِي الأسواق والمقاهي، وكانت زيارة خلف إلى بيت الحاج صالح العلو، ثم إلى قهوة الشط، وما أبلغه للأسرة، ثم الذي قاله أمام الكثيرين فِي القهوة، تأكيداً لنهاية الآغا، والذي كان وراء مقتل بدري، وقد اعترف بذلك الرجل الذي يعتمد عليه، وقريبه، غائب المحمود، إذ أقر أمام الباشا، ان الآغا هو الذي أصدر الأمر بقتل بدري، وقد نفذ القتل اثنان مِنْ رجال الحماية، ولكي لا يعرف أحد، وليطوي الموضوع نهائياً، استدعى الآغا هذين العنصرين، وبعد ان اثني

عليهما وامتدح شجاعتهما، وعد ان يكافئهما. وما ان أدارا ظهريهما، بعد ان أديا التحية، حتى سحب الآغا مسدسه واطلق أربعة أو خمسة طلقات أردتهما قتيلين، وقال بتشفٍ، وهو ينفخ فوهة المسدس، ليزيل آثار البارود:

- اقطع راس تموت خبر!

وبعد قليل، وهو ينظر إلى غائب وحامد نظرات أخافتهما:

- وإذا اكو ابن قحبة يقدر يعرف منو اللي قتل الثلاثة.. أقص ايدي!

هذا جزء مما نقله خلف للذين التفوا حوله فِي قهوة الشط. وقيل إنّه نقل أشياء أخرى أيضاً، بما فِي ذلك دعوة الحاج صالح العلو للسراي. والحاج صالح الذي لم يرد، قيل ان دموعه اختلطت بالابتسام وهو يستمع لخلف، وكيف ان الباشا أكد أمام كثيرين، وبعد سماعه لاعترافات غائب وحامد، ان أحد أهم الأسباب لاعدام الآغا هو مسؤوليته عن قتل بدري.

ومرة أخرى تفجرت الأحزان والتساؤلات حول مقتل بدري، الذي راح ضحية لصراع بين الباشا وسيد عليوي، دون أن يكون طرفاً فيه. بل أكثر مِنْ ذلك، كان بدري ضحية للطرفين معاً، إذ نقل إلى كركوك دون وجه حق، ووضع فِي مواجهة الآغا بلا مبرر. وكيف ان الصغار يسقطون باستمرار نتيجة صراع الكبار؟

أما بخصوص الدعوة للسراي، فقد اعتذر نعيم بسبب مرض أبيه، وقال ان تلبية مثل هذه الدعوة ستتم بعد شفائه، ولما سئل عن ذلك فِي قهوة الشط ردَّ بنزق:

- أصلاً وجود المرحوم بالسراي كان أكبر غلط، وماكو أحد منا چان موافق، أما بعد استشهاده فهذا حدنا ويا السراي، لا نريد نصلها ومالنا شغل وياها!

الحصان الذي أرسل مِنْ السراي بعد ثلاثة أيام مِنْ زيارة خلف، وهو مِنْ أكرم الخيول وأجملها، لم يكن مِنْ اللائق رفضه، كما جرى رفض النقود التي حملها اثنان مِنْ زملاء بدري، لأن ذلك لو حصل، كما قال قدوري، لاعتبر الباشا الأمر إهانة وعداوة. وهكذا بقي الحصان وأعيدت النقود، تمهيداً لتحديد كيفية التصرف. وبوصول الحصان وُجد شغل جديد لحسون!

سيفو الذي هاجت شجونه أخذ يفكر ويطرح ضرورة نقل رفات بدري إلى بغداد، لاعادة دفنها فِي مقبرة الشيخ معروف، بالقرب مِنْ مدافن العائلة والأصدقاء، لكن نعيم حين بلغه الخبر قال لسيفو، وكانت لهجته تقع بين الود والحزم والرجاء:

- يرحم والديك يا أبو فلاح لا تجيب طاري هالقضية على لسانك، لان الحجي، مثل ما تعرف: مِنْ ذاك اليوم وهو وجعان، ويا الله.. يا الله نريد

نسيه؛ والحجية ما عندها شغل الا تبكي وتنوح، وفوقها السواد والبخور والقرايات، فخلينا نخلص مِنْ هذي السوالف أول وبعدها الله كريم؟

ولما أراد سيفو التوضيح ان زيارة القبور تبرد القلب، وتخلص الانسان مِنْ قهره بدموع يذرفها على الميت وينتهي الأمر، ردَّ نعيم بصوت مثقل بالحزن:

- يا أبو فلاح.. أكثر مِنْ القبور حولنا ماكو، وحتى القاع اللي تمشي عليها كلها قبور، مثل ما يقولون؛ وبعدين: الميت هو الروح مو العظام، والروح، مثل ما تعرف: طير، أو مثل الفراشة، ودوم الدوم ترفرف فوق روسنا... لو آني غلطان؟

- حاشاك، مولانا، لكن مثل ما يقولون: القرب رحمة وسلوى!

- يا أبو فلاح، تراب كركوك مثل تراب بغداد، والماي اللي يشربها الناس هناك نفس الماي هنا، فإذا الواحد كان قلبه كبير يوسع، وإذا كان عقله كبير يوصل.

وهكذا طوي موضوع نقل الرفات، مؤقتاً على الأقل.

أما الأسطة عواد، الذي كان يراقب كُلّ شيء باستغراب، وكأنه لا يصدق، فقد قال بعد ان غادر خلف القهوة:

- اللي يحيرني، يا جماعة الخير، ان الناس تتغير بالعجل!

وحين تعلقت به العيون، وقد كان قريباً مِنْ خلف، وسمع حتى الهمسات التي تبادلها مع نعيم وقدوري، وما قاله لذنون الذي كان موجوداً فِي القهوة أثناء الزيارة، وحين لم تفهم بدقة مقاصد الأسطة عواد بالكلمات التي قالها، تابع، وبدت مخارج الحروف ممدودة:

- قبل سنة، أقل شوية مِنْ سنة، لما جانا خلف، وتذكرون، كان وجهه ثقيل مثل القربة، لا يحچي ولا يبچي. قال كلمة والثانية، وبعدها: فِي أمان الله. اليوم يحچي، يسولف، يتلفت ويقول: عيني وآغاتي، فما أدري شنو اللي صار بالدنيا، ومنو اللي تغير؟

ولما سرح كُلّ واحد مِنْ الذين يستمعون اليه فِي عالمه الخاص وذكرياته، قال سيد ذنون:

- أغرب شي، يا جماعة، ان الدنيا بالعجل تتغير وتنقلب.

ابتسم ابتسامة واسعة قبل ان يُضيف:

- صدف ذاك اليوم، يا جماعة الخير، كنت قاعد بالقهوة براس السفينة، سوالف وحچي، وفجأة الدنيا انقلبت. خير؟ شنو القصة يا جماعة؟ بعد التي واللتيا: عرفنا ان الآغا وصل لجامع أبو حنيفة، طب لهناك حتى يصلي ركعة..

ثنتين، وما يندرى: متوضي ما متوضي.. هاي نخليها على صفحة، بنجاز هو وربه، لكن ليش هالهرجة؟ ليش هالمظاهر؟

نقر على الطاولة أمامه نقرتين أو ثلاثاً، وكأنها طريقة تغيير النبرة:

- إذا راد الواحد يصلي، يطب للمسجد خاشع، متواضع، وحتى إذا لابس عقال ينصبه، ويقف أمام الله بذل، ايديه مكتفة، وكأنه يقول لرب العالمين: جيتك يا ربي خاضع، فاقبل توبتي وتقبل طاعتي، واجعلني تحت رحمتك، لانك انت الذي يعفو ومن يغفر. أما إذا جاء مع الحرس وخشمه مرفوع، فرب العالمين ما يقبل ولا يشفع...

وتغير صوته تماماً - وما مر يوم والثاني، الا وذاك اللي خشمه بالسماء صار جوا القاع، ومو موته ربنا، بفراشه وقرايبه حواليه، وانما موتة چلب، وكخائن...

وضحك بسخرية:

- ومثل ما قلنا: شلون الدنيا تنقلب بين غمضة عين وانتباهتها، لكن سبحانه الله، الانسان ما يتعلم، ما يعتبر...

توقف قليلاً، تطلع بفضول إلى الوجوه التي تتابعه، وأردف:

- وأبو نجم معه كُلّ الحق، وهو يقول شلون خلف ذاك اليوم وشلونه هذا اليوم!

أبو حقي، الذي كان لا يزال تحت وطأة الصدمة، وعدم تصديق توالي الأحداث بهذه السرعة او بهذا الشكل، وبعد ان استمع إلى الكثير مما يقال، ولما تضايق الأسطة عواد مِنْ صمته، خلافاً للعادة، سأله باستفزاز:

- شايفك، يا أبو حقي، صايم صوم زكريا، شنو القصة، ما عاجبك؟

ماعندك فد. رأي، فد شي تقوله؟

- قبل أيام، يا أبو نجم، حيرني فد شي: الحمامة التي تجي كُلّ يوم نوبة... ثنتين، وتشرب مِنْ الحب، جت أول نوبة، رفرفت بجناحاتها وكأن صقر لاحقها، كانت خايفة. رفرفت وطارت بعيد، مو مثل عادتها. لا شربت، لا لقطت. حطت وطارت بالعجل. قلت لروحي: أكو سالفة. لكن تعرف: الزيان يعمي، وسوالف الناس ما تخلص. وآني ازين وأسولف، راحت مِنْ بالي. ما خلصت مِنْ أول راس، وبلشت بالثاني، إلا وأشوفها جاية. حطت وطارت. لا شربت، لا لقطت حَب. قلت لروحي: شنو السالفة؟ ليش هالشكل؟ خلصت الزيان بالعجل، وقلت: لازم أعرف. طشيت حَب، وقعدت انتظر. ما مر مشوار الا والحمامة جاية: ها، يا بنت الحلال، شنو الأخبار؟ باوعت علي

وقالت: بشر القاتل بالقتل. قالت هالكلمة وطارت، وكان بي عقل وطار، يا أبو نجم!

الأسطة عواد الذي كان يتابع، ويهز رأسه، لا يعرف هل عليه ان يكذب ام يصدق، ولا يدري المغزى والنتائج التي يريد الأسطة اسماعيل الوصول إليها، وربما امتد به الخيال أو التذكر إلى أمكنة بعيدة. فجأة وجد نفسه يسأل:

- الحمام اللي تحچي عليه، أبو حقي، مثل حمامنا لو غير شكل؟

- مثل حمامنا أبو نجم. الشكل نفس الشكل، لكن، الله العليم، ان هذا الحمام مِنْ نسل حمام سيدنا نوح، وهذا اللي يخليه يشوف ازيد منا، ويعرف شنو الصاير بالدنيا.

- أيّ.. أبو حقي، وهذي الحمامة اللي جت يمك، شقالت بعد؟

- فِي المرة التالتة، جت الحمامة وقالت: يا اهل بغداد، الله سبحانه، نجاكم مِنْ حريق، ونجاكم مِنْ غريق، لكن لا تناموا على حرير، خلوا عيونكم مفتحة!

استراح، تنفس ملء رئتيه، وأضاف، كأنه يكلم نفسه:

- ومن ذاك اليوم، يا أبو نجم، وراسي يفتر. لا أعرف أنام، لا أعرف اسولف ويا الناس، وما أدري شنو اللي صار بي، إلى ان جا زلمة السراي، خلف، وقال اللي قاله.

يعني هسه استرحت؟ صفا بالك؟

- قول الله، يا أبو نجم، وخلينا نباوع ونتنصت زين!

ولم يبق أحد إلا وكان له رأي.

زينب كوشان التي تعبت مِنْ مراجعة السراي، أصبحت أشد حزناً مِنْ قبل، خاصة بعد ان كف الكثيرون عن حسون، وبدؤوا يبحثون عن تسلية أخرى، وقد وجد بعضهم فِي زينب هذه التسلية. ما كاد يُعرف باعدام الآغا، حتى أوحى لها بعض الخبثاء ان خصمها قد انتهى، ولا بد ان تحصل على حقوقها، ما دامت الأوراق معها، وعليها ان تجد الآن فِي الملاحقة والمطالبة. وأخذ الأطفال يرددون حين يرونها: تهني.. تهني يا طيرة.. مات واشتعل صيادچ!

لم تكن زينب بحاجة إلى إلحاح أو تحريض، أصبحت تقضي معظم أوقاتها مقابل السراي، علها تحظى بالباشا، وتشرح له ظلامتها، خاصة وقد قيل لها ان الباشا يخرج بجولات فِي الصباح الباكر، وبعض الأحيان فِي الليل المتأخر، وعليها، ان أرادت مقابلته لتعرض عليه مشكلتها، ان تتواجد فِي الصباح الباكر أو الليل المتأِخر، إذ ربما تلتقيه فِي أحد هذين الوقتين.

لكنها تصل دائماَ، كما يقال لها، متأخرة، رغم ان صاحب المركب هوبي الأسود يحاول ان يبكر فِي رحلته الأولى ليعبر إلى الرصافة.

ولأن بعض الخبثاء أوحى لها ان الباشا يتخفى عندما ينطلق فِي جولاته، ولا بد ان تبذل جهداً للتعرف عليه، فقد كانت، وهي تسير فِي الشوارع المحيطة بالسراي، تتفرس فِي الوجوه، تتطلع بامعان إلى كُلّ شخص تراه، إذ ربما يكون الباشا. وكثيراً ما استوقفت بعض الأشخاص وسألتهم، وسألت كُلّ واحد، ما إذا رأوا الباشا، أو أن واحداً منهم هو الباشا! وإذا كانت الاجابات فِي البداية انهم لم يروه، وليس أيّ واحد منهم هو، فقد تعود عليها الناس. وفِي محاولة لممازحتها، وأن يبدؤوا يومهم بالابتسام، فقد انضم الكثيرون مِنْ صوب الرصافة إلى خبثاء صوب

الكرخ، وأخذوا يتفننون فِي إثارتها، كأن يقول أحدهم أنّه رأى الباشا يمر مِنْ هنا، وآخر يشير إلى اتجاه معاكس وقد رآه بأم العين، وأنه مستعد لأن يقسم على ذلك. وكان بعض الذين يميلون للدعابة يتظاهرون للحظات أن الواحد منهم هو الباشا، فيقف معها ويسألها عما تريد، وماذا يستطيع أن يفعل مِنْ أجلها. وبكثير مِنْ السذاجة تبدأ زينب بفرد أوراقها لتؤكد ملكيتها المنطقة الشيخ بشار، وضرورة أن يحسم لها هذه المشكلة. وعلى أوراقها أو أوراق جديدة، يتم وضع التواقيع والأختام الإضافية وتحدد مواعيد للمراجعة أو مقابلة بعض الأشخاص! وهكذا أصبحت زينب فِي بغداد علماً مِنْ الأعلام، الكل يعرفها والكل مهتمٌ بقضيتها، وهذه القضية إذا لم تحل اليوم لابد أن تُحل غداً بكل تأكيد!

وباعتبار أن هناك مِنْ أقنعها أن الآغا كان خصمها وهو الذي حال دون البت بقضيتها، فقد أصبحت بعد أن أعلِن خبر إعدامه امرأة أخرى:

تلبس ملابس زاهية وإن افتقدت التناسق والأناقة، وتصطحب غلاماً صغيراً ليحمل لها الكواشين، وتتكلم برصانة زائدة مع الحرس، طالبة أن يحدد لها موعد مع الباشا لأن لديها ما تعرضه عليه، ويجب أن يتم ذلك بسرعة خشية فوات الوقت!

ولأن الحرس تعودوا عليها، وكانت مشاعرهم مزيج مِنْ الشفقة والود ولا تخلو مِنْ المداعبة، فإن ساعات الصباح الأولى، قبل وصول الموظفين وقبل أن تبدأ زيارات السراي، هي ساعات مِنْ الطرافة والمتعة ولا تخلو مِنْ الخوف أيضاً، لأن التعليمات الأخيرة مِنْ الرؤساء تفرض الكثير مِنْ الانتباه والحزم فِي التعامل مع واجبات الحراسة، وفِي التعامل مع الذين يترددون أو يقتربون مِنْ السراي.

بعد أن تأكدت مِنْ إعدام «العدو اللئيم» كما أطلق على الآغا، أصبحت تقيم فترات أطول قريباً مِنْ بوابات السراي. ولولا القطِط التي كانت تأويها

فِي بيتها خاصة الصغار منها، كان يمكن أن تقضي أوقاتاً أطول، ولا مانع مِنْ أن تقضي الليل ساهرة إلى أن يخرج الخضر، كما كانت تسمي الذي سوف يحل لها مشكلة ملكية الشيخ بشار.

أشفق كثيراً الحرس، ورثي رؤساء الحرس، وهم يرون زينب كوشان منذ الصباح الباكر تفعل الشيء ذاته؛ أما ذنون الحاج حسن لما عرف بما تفعله زينب كوشان فقال بحزن:

ـ الطيور والحيوانات وكُلّ المخلوقات عدا الإنسان، تدافع عن صغارها والأمكنة التي تبات فيها، ولا يهمها بعد ذلك شيء آخر. أما الانسان فانه ينسى فِي أحيان كثيرة صغاره وبيته، ويدافع عن شيء يتوهم أنّه له المال، لكن هذا الشيء أكبر مِنْ الإنسان وأقوى منه وهو الذي يحكم الإنسان، فِي الوقت الذي يتوهم الإنسان أنّه الحاكم. ولا تظهر الحقيقة إلا لحظة الموت. يترك الإنسان كُلّ شيء ويمضي، ولا يعرف ماذا سيحصل بهذا الذي تركه، لكنه يذهب إلى آخر وهذا الآخر يبدأ اللعبة ذاتها، لينتهي إلى النتيجة ذاتها. لذلك فإن كُلَّ المخلوقات تتعلم وتصبح أكثر حكمة إلا الإنسان، الذي ولد مِنْ العماء والطين. وبعد رحلة مِنْ المشقة والعذاب، سيذهب إلى العماء والطين مرة أخرى. وما يقال عن ذكاء الإنسان بالمقارنة مع المخلوقات الأخرى، مجرد وهم اخترعه الإنسان ويحاول أن يقنع نفسه به، لذلك فان حماقات الذين ولدوا قبل فترة طويلة انتقلت إلى الأجيال اللاحقة. وهذه الحماقات تزيد وتتكاثف لتصبح فِي النهاية قيوداً على هذا الإنسان، فِي الوقت الذي تصبح الحيوانات أكثر حرية وأكثر قدرة على التحرك والتمتع بالحياة.

كان ذنون يكلم نفسه، كان يحدس بهذه الأفكار أكثر مما يقولها.

وحتى لو قالها فهي مشوشة، متداخلة، أقرب إلى المناجاة، وكأنه يقول ولا يقول فِي نفس الوقت.

الحاج شبلي الذي تعود أن يستيقظ مُبكراً، حز فِي نفسه أن تتردى حالة زينب وتصبح أضحوكة لصوب الرصافة، وكان ناس هذا الصوب يعلمون على الصوب الآخر. أوعَـزَ لبعض معارفه فِي قهوة الشط أن يتولى أحد أمر هذه المرأة، سواء بمنعها مِنْ العبور إلى الرصافة، أو يكون ذلك خلال النهار لتتجنب الإساءة والسخرية. أما مسألة جولات الوالي فِي الصباح الباكر فمجرد أكاذيب اخترعها بعض الخبثاء ليسلوا أنفسهم!

طلب سيفو مِنْ زوجته أن تتولى أمرها، وطلبت فطيم مِنْ بعض نسوة المحلة مساعدتها فِي إقناع زينب كوشان لكي تكف عن الرحلة المبكرة لذلك الصوب، لكن هذه المحاولات انتهت إلى الفشل، بل وزادت ارتياب زينب أن المؤامرة تطبق عليها، وقد اشترك فيها أقرب الناس إليها!

كانت ترد على محاولات إقناعها، والدموع تتساقط على خديها:

- بعد ما وصلت اللقمة للحلق، وبعد ما اشتعلت صفاح ذاك اللئيم، الآغا أبو سنون الذهب، منين انتو طلعتولي مثل سجينة الخاصرة؟

تمسح دموعها بعصبية، وكأنها نادمة أن ترى النسوة ضعفها، وترد بعدوانية:

- لو ظل بعمري يوم واحد ما راح أتنازل، وأخلي حقي يضيع.

تقول لها فطيم فِي محاولة لاسترضائها:

- لو تتركين المسألة على الرياجيل، يا معودة، لأنهم أقوى مني ومنك.

ـ على منو؟ تسأل بسخرية، على تنابل قهوة الشط؟

ـ البارحة أبو فلاح دق على صدره وقال: إذا زينب توكلني، آني أخلص القضية.

ـ إذا أبو فلاح عطش المحلة كلها يمه، وما دار بال، تريدين تقنعيني إنّه يقدر يخلص شغلتي؟

ولا تتركها لتجيب، تضيف وهي تنهض:

- شيليها هذي مِنْ دماغك، فطيم، لأن الرياجيل ما عندهم إلا السوالف بالقهاوي!

وظلت زينب كوشان توالي زيارتها للسراي صباح كُلّ يوم، وظل هوبي الأسود ينقلها بمركبه، لأنه يتفاءل إذا تصبح بوجهها. أما حمودي أبو الليل، الذي احمرت عيناه على خبثاء قهوة الشط فِي محاولة للحد مِنْ الأذى الذي يلحق زينب، وحين طلب منه أن يفعل شيئاً بذاك الصوب، فقد ردَّ ساخراً:

- آني حدي هذا الصوب، أما إذا عبرت لذاك الصوب فنكون بقضية، نصير بغير قضية!

وأضاف بصوتٍ خفيض، كأنه يكلم نفسه:

- حتى رب العالمين ما حط الحمل كله على كتاف فد ملاك واحد؛ سخر إسرافيل للمطر، ورضوان للجنة، وقال لمالك: أنت عليك جهنم، ومالك شغل بغيرها، فشنو اللي تريدون مني أصير؟

ما كادت بضعة أيام تنقضي على إعدام سيد عليوي، وبدأت الأخبار تنتشر حول الأسباب التي دعت لإعدامه، حتى ظهرت المخاوف والحسابات الخفية.

ساسون كان مِنْ أوائل الناس الذين عرفوا الخبر. نقلته إليه سلطانة يوسف رغم ما بينهما مِنْ عدواة. حصل ذلك أثناء زواج موشي ابن حاييم، إذ ما كاد يسألها مجاملةً عن أحوالها حتى قالت، وكان صوتها أقرب إلى اللهاث:

- لو تدري شنو صاير بالدنيا يا أفندينا!

وحين ابتسم لها مجاملة، وكأنه لا يريد أن يسمع أية أخبار جديدة أضافت:

- الله يساعدها روجينا!

ـ شبيها روجينا؟

- يجوز ما تدري يا أفندينا...

قالت ذلك، وأعطت نفسها مدى، كي تزيد توتره ورغبته فِي أن يعرف الجديد، سأل وهو يقترب منها، وكأنه يستعجلها كي تتكلم:

- شوشتيني.. اكو فد شي؟

- ليش ما تعرف؟

ـ قولي يا معودة، وخلينا إذا غنينا يطلع الغنا مِنْ جوا الصدر.

- وين اكو مِنْ هذا يا أفندينا!

ـ خلصيني قولي، لأني راح أتوازى وأكسر بوط وياج!

- اسمع يا أفندينا..

تمهلت مرة أخرى، وهي تتلفت كي تتأكد أن لا أحد يسمع، وتابعت بصوت خفيض:

- يقولون شهادة روجينا، الكلام اللي قالته، هو اللي أعدم الآغا...

وبعد قليل، وفِي محاولة لأن تثبت براءتها:

- هذا اللي سمعته يا أفندينا، آني ما أعرف ولا أحط بذمتي.

واقترب منها أكثر وهي تروي له ما سمعت عن المحاكمة التي جرت للآغا، وكيف أن روجينا كانت الشاهدة الوحيدة أو ربما الأساسية، إذ اعترفت بأشياء كثيرة وكانت هذه الأشياء هي السبب فِي إعدام الآغا ومنذ أن أطلق سراحها أمس الأول، أيّ فِي اليوم التالي للإعدام وهي تلازم بيتها، ولا شغل لها سوى البكاء!

ورغم أن عرس موشي بكل ما حفل به مِنْ غناء ورقص، استمر يتألق ويزداد بهجة، ورغم أن سلطانة غنت كما لم تغن منذ وقت طويل وشاركت فرق أخِرى فِي الغناء والرقص تلك الليلة، إلا أن ساسون ظل فِي عِالم آخر.

صحيح أن لا صلة له بالآغا ولم يحبه فِي يوم مِنْ الأيام، لكن يريد أن يعرف أو يقدر ماذا يمكن أن يترك هذا الإعدام على عزرا، وبالتالي كيف يجب أن يتصرف ليرد الصاع صاعين، وينتقم مِنْ عزرا أو مِنْ أولئك الذين شمتوا به او تخلوا عنه أيام محنته. قال لنفسه فِي لحظة ارتفع خلالها صوت سلطانة وكانت تنظر نحوه «الدنيا دولاب، وعزرا اللي صعد فوق فوق لابد ينزل، والأيام بينا». ما كاد يصل إلى هذه النتيجة حتى بدأ يعود إلي جو الغناء والطرب، وكأنه لم يسمع بما حصل لروجينا أو لغيرها، «لأن كُلّ شيء له وقته».

روجينا التي جيء بها إلى السراي فِي اليوم الأول لوصول الآغا إلى قصر الريحان، سئلت إذا كانت قد حملت أموالاً مِنْ الباليوز إلى الآغا. فوجئت بالسؤال وأنكرت أن تكون قد فعلت ذلك. كانت تقسم وتبكي وتصر على الإنكار، إلى أن أدخل عليها ناهي زبانة.

وناهي الذي ارتبط بالسراي منذ زيارته الأولى لبغداد، بعد أن تعرض هو وبطرس يعقوب لاعتداء إثر خروجهما مِنْ قهوة الشط، تخلى بالكامل عن الآغا وأخذ يعمل مع السراي، وقد أبلغ عن كُلّ شيء وبالتفصيل.

حتى فِي زيارته الثانية وقبل أن يتصل بعارف زنجاري، اتصل بالسراي وأوضح المهمات المكلف بها وبمن سيتصل، كما لم يتوقف عن إبلاغ السراي بكل صغيرة وكبيرة.

حين دخل ناهي، ورأى روجينا غارقة بدموعها، قال لها بطريقة تقريرية باردة:

ـ ترى الجماعة يعرفون كُلّ شي، وقلت لهم عنك وعن بطرس وعن أيام كركوك...

وتظاهر أنّه يريد أن يسر لها بشيء لكنه قال بصوت مسموع، وكان المحققون موجودين:

ـ وشقد ما أنكرنا.. ترى الجماعة يعرفون!

ودون مشقة كبيرة وخلال وقت قصير، ثم الاتفاق مع روجينا انها إذا شهدت على الآغا، إذا قالت كُلّ شيء فسوف تعفى مِنْ أية مسؤولية، وسوف يطلق سراحها فوراً لأنها لم تكن أكثر مِنْ واسطة، وقد اضطرت إلى ذلك! أما إذا استمرت على إنكارها فإنها لن تخرج مِنْ السراي الا إلى القبر! وهكذا وافقت روجينا وقالت كُلّ شيء، رغم الألم الذي لم يفارقها لحظة واحدة.

إذ بعد أن قضت روجينا الأيام الستة فِي السراي وقد عوملت بشكل لائق، إذ خُصص لها ِمكاِن فسيح وقدم لها غذاء جيد، نُقلت فِي اليوم السادس إلى

القلعة، وبعد أن أوضحت علاقتها بالآغا، والمواعيد التي رتبتها له مع الباليوز، والأموال التي حملتها إليه فِي كركوك، ولقد اعترفت بذلك مع الدموع والحسرة وقضت تلك الليلة فِي القلعة بعد أن صدر الحكم على الآغا، ثم تُركت فِي اليوم التالي لتذهب إلى بيتها. ومنذ أن ركبت العربة فِي طريقها إلى البيت بدأت البكاء واستمرت فيه بعد أن وصلت ثم فِي اليوم الثاني كله، الأمر الذي جعل «البنات» فِي حالة مِنْ الرعب لغيابها أولاً، ثم لهذه العودة الحزينة.

قيل أنها مرضت مرضاً شديداً بعد الاعتراف، ومما فاقم فِي المرض بكاؤها المتواصل وامتناعها عن تناول الطعام، إضافة إلى السهر، لكن بعد بضعة أيام غرقت فِي نوم عميق، خاصة بعد أن تم استدعاء الطبيب الهندي لمعالجتها.

ما كادت تشفى وتستعيد جزءاً مِنْ قوتها ووعيها، حتى أبلغت «البنات» أنها تابت وسوف تتوقف عن هذه «المهنة»، وخيرت «البنات»: مِنْ ترغب منهن بالتوبة وتريد أن تبقى معها، فإنها لا تمانع بذلك، ومن تختار شيئاً آخر فالأمر يعود لها.

رستم قاورد انضم إلى قسم التموين فِي السراي وبقي بضعة شهور، ثم أرسل محملاً بالعسل إلى يحيى بيك فِي الحلة وكتب الباشا إلى كيخياه رسالة قصيرة لا تخلو مِنْ الدعابة، كتب إليه «الصوغة المرسلة مع رستم هي الروح للروح، وحاملها صانع للطبخ بارع، والذوق للسان راجع، فإياك ثم إياك مِنْ فلفله اللاذع، وبعد أن تجرب وتذوق اكتب لنا ما تروق، وادع لنا بالتوفيق، لأن هذه التفاتة الصديق للصديق، ولا تطيل الحملة، احسمها، لأن بغداد مشتاقة والسلام». ولم يتردد الكيخيا فِي أن يستبقي رستم إلى جانبه فِي الحلة وأن يشيد بمهارته أولاً ثم بتهذيبه، خاصة وهو يقارنه بجمولي، الذي يحسن الطبخ أيضاً لكن تنقصه روح الفكاهة ولباقة التصرف.

ريتش الذي ساءه إعدام الآغا، واعتبر أن المعركة بينه وبين الوالي قد بدأت، ما لبث أن شعر بالخوف خاصة بعد أن بلغته اعترافات الشهود، وبالتالي الأسباب التي دعت إلى سرعة التخلص مِنْ الآغا. أصبح همه الأكبر بعد أن انكشفت علاقاته وتحركاته، أن يعيد ترتيب أوضاعه الداخلية. فأن تنكشف روجينا وأن تعترف، وأن يكون ناهي زبانة الذي كان واسطة فِي الاتصال بالباليوز، هو المفتاح الذي استخدمه داود فِي فتح هذه البوابة والإطلال على ما فِي الداخل، لا يجعل بطرس يعقوب وحده مكشوفاً، ويفقد صفة المترجم ليصبح شيئاً آخر، ثم أن ينكشف عارف زنجاري أيضاً، ولا يعرف ماذا تبادل مع الاثنين مِنْ معلومات وأخبار، فقد شعر ريتش أنّه عار

أو أقرب إلى العري، الأمر الذي يحتم عليه أن يعيد النظر برجاله ومواقعهم وأن يعتمد أسلوباً آخر فِي الاتصال وترتيب علاقاته، خاصة مع الشمال.

كانت أياماً قاسية تلك التي مرت على ريتش، الأمر الذي اضطره إلى ملازمة القنصلية لا يبارحها إلا نادراً، ويقلل مِنْ استقبال الضيوف وإحالة الراغبين بلقائه إلى مساعديه بحجة أنّه متوعك. أما فكرة السفر إلى الشمال، وتخصيص هذه الرحلة للآثار وحدها كما وعد ماري، التي كانت تطالبه بين فترة وأخرى ألا ينسى الوعد، فقد استبدلها بمراسلات حثيثة إلى سفارته فِي اسطنبول وإلى وزارة الخارجية فِي لندن، يطلب منهما أن يعطيا لموضوع الآثار أهمية خاصة وضرورة إيفاد البعثات للبحث والتنقيب، خاصة فِي الشمال. وكمحاولة لإرضاء العزيزة ماري فقد أطلعها على هذه الرسائل، واقترحت هي أن تضاف بعض الفقرات خاصة فِي وصف تلك الآثار وأهميتها وأن الفرنسيين يكادون يضعون أيديهم على كُلِّ شيء!

وفِي محاولة لأن تبدو الأمور طبيعية ولئلا يقع تحت تأثير ردود الفعل، قرر ترك العاصفة تمر. ولكي يعطي نفسه فرصة للتفكير وإعادة النظر، رأى أن مِنْ المناسب الابتعاد عن بغداد لبعض الوقت، ليهرب مِنْ الحر أولاً ولكي يضع خطة تناسب المرحلة الجديدة. بعد ذلك وفجأة وجد نفسه يقترح على ماري أن يذهبا إلى اسطنبول، إذ مِنْ خلال هذه الرحلة يجددان ذكرى لقائهما الأول ويهربان مِنْ الحر، كما ستتاح له الفرصة فِي اسطنبول لأن يقرأ الموقف كله، خاصة النظرة إلى هذا الوالي الذي يبدو متعباً ومختلفاً عن الولاة الذين سبقوه، وسوف يكون صديقه خالد بك خيرعونٍ لمعرفة أمور كثيرة.

وقبل أن يبلغ السراي برغبته فِي السفر، التقى عزرا.

كان عزرا، لما وصل الآغا إلى قصر الريحان يتنقل بين بساتينه الموزعة بين الجعيفر والمحمودية، وقد قضى فِي هذه الجولة أسبوعاً وفاوض خلال الجولة على شراء أو استئجار عدد مِنْ البساتين، خاصة فِي منطقة المحمودية بعد أن هجرها أصحابها، لأن جنود الحملة فِي مسيرتهم نحو الجنوب لم يُبقوا شيئاً مِنْ الثمار، الأمر الذي اضطر الفلاحين لهجرها خوفاً مِنْ أن يساقوا إلى العسكرية، ولأنه لا يتوقع أن ترد لهم شيئاً مِنْ تعبهم، وقد وجد عزرا الفرصة مؤاتية لأن يضع يده عليها، وهذا ما جعله يقضي فترة غير قصيرة بعيداً عن بغداد، مما فوت عليه معرفة وصول الأغا.. ثم إعدامه!

أما بعد أن عاد وعرف ما حصل خلال غيابه، فقد أصابه الهلع. لأن أمراً كهذا يجعل الكثيرين يخافون خاصةً مِنْ التجار، ولا بد أن ينعكس على حركة السوق. ثم إن الإعدام سيحرك الأحقاد وربما الاضطرابات ولا بد أن تظهر آثار ذلك.

ومثل عادته، سوف يلجأ الباشا إلى الإغداق على الكثيرين ليكسب تأييدهم أو على الأقل سكوتهم، وعلى عزرا أن يؤمن الموارد وأن يدفع! أما حين عرف أن روجينا باعترافاتها وما قالته أثناء التحقيق ثم أمام المحكمة، هي السبب فِي إعدام الآغا، فقد خاف وتحسب نتيجة ذلك، إذ بالإضافة إلى أحقاد مؤيدي الآغا فسوف تنفتح العيون وتثور الأسئلة حول الطائفة كلها، وإذا بدأت الأسئلة تتبعها الشكوك والمخاوف، وربما لا تنتهي.

حين التقى عزرا بريتش، قال له بجسده كله:

ـ ترى هذا الوالي راح يهجم بيتنا، وآني، بدالك، ما عرفت باللي صار إلا بعد ما صار وانتهى.

وأخذ يشرح للقنصل أن أشغاله التجارية اقتضته أن يكون خارج بغداد خلال هذه الفترة، ولو كان موجوداً وعرف لحاول منعه أوعلى الأقل تأجيله، لكن الباشا مثل العريس ليلة العرس لا بد أن يفعل شيئاً ليخيف الذين حوله، وأن الآغا أعطاه الفرصة ومكنه نتيجة الرعونة وإطلاق الكلام، وكاد يستمر فِي تعداد الأخطاء والنواقص، لكن القنصل قاطعه:

ـ ما حصل قد حصل يا عزرا أفندي، المهم الآن: كيف ستكون انعكاسات مثل هذا العمل على الوضع الاقتصادي والمالي؟ وماذا تقترح مِنْ خطوات لمنع استمرار مثل هذه الحماقات مستقبلاً؟

بعد استعراض عدد مِنْ الأفكار والاحتمالات، وحين عرف عزرا بنية القنصل للسفر إلى اسطنبول، قال وكأنه يكشف سراً:

ـ اللي ما يقدر عليه حسقيل هناك يدبره خالد أفندي، ونحن هنا اللي الله يقدرنا عليه!

وقبل أن ينتصف الصيف أبلغ ريتش السراي بنيته على السفر وطلب أن تُبلغ الجهات الرسمية على الطريق لاتخاذ ما يلزم لتسهيل مرور القافلة وتقديم العون لها، خاصة وأن القنصل سيصطحب معه فِي هذه الرحلة زوجته وعدداً مِنْ المرافقين.

وكان ضمن القافلة التي اتجهت إلى اسطنبول بطرس يعقوب، لأن القنصل اعتبر مغادرة بطرس أضمن لكل الأطراف.

كتب ناطق أفندي فِي التقرير الذي رفعه إلى الباشا، بعد أن قام بوداع القنصل عند باب المعظم بناءً لتكليف تلقاه مِنْ الديوان. كتب فِي التقرير: "عند منتصف الليل كنت فِي المكان المتفق عليه بالقرب مِنْ باب المعظم. وعلى ضوء الفوانيس والمشاعل، فِي الساعة والمكان المحددين، كانت الفرقة الموسيقية للباليوز تعزف الألحان الشجية وكانت تلك الألحان تتصاعد فِي ظلمة الليل وكأنها أنغام سِماوية، وكان الحشد فِي غاية الصمت

والاكتمال، وملابس رجال الباليوز أقرب إلى ملابس الاحتفال، آلات الموسيقى تتلامع وسيوف الحرس تتقاطع، العيون مشدودة إلى الغرب والأجساد متوترة كأنها ذاهبة إلى الحرب والضرب، بانتظار وصول القنصل. وما أن مضت دقائق على صياح ديكة آخر الليل، حتى سُمعت طبول تتقدم كالسيل ومعها المشاعل تمزق الظلمة، وتحول المكان إلى شعلة، فِي المقدمة القنصل وحرمه وعلى مراتب ودرجات أتباعه وحرسه، والكل على خيول مطهمة وبحللٍ زاهية وبأنغام مفعمة.

كنت يا صاحب الفخامة متحفظا، أرقب دون تدخل، لم أتبادل إلا أقل الكلام مع المودعين. لما وصل القنصل وترجل، تحول الكثيرون نحوه ولم أتحول، فالواجب أن يكون المودعون فِي رتل ويتقدم باتجاههم المسافر صاحب الحفل، وهذا ما حصل، قلت له: مولانا يتمنى لك طيب السفر والمقام، ويرجو حسن الرحيل والختام وتقبلوا التحية والسلام. ورجاني أن أحمل لأفندينا عظيم الإجلال والاحترام.

وتجنباً لأي كلامٍ زائد ودعت ومشيت، وأخذت طريق الشط فِي العودة، وكان وصولي إلى السراي مع أذان الصبح، وأرفع لمقامكم هذا الكتاب لتكونوا على علم وبينة وتقبلوا جليل الاحترام".

خادمكم، ناطق القزويني.

لم يتأخر داود باشا فِي إعادة تنظيم قواته لكي يضمن عدم بروز واحد مثل سيد عليوي، ومن أجل حسم المعركة العسكرية التي بدأت.

أرسل طلعت باقة ليلتحق بحملة الجنوب، كما أرسل قوات إضافية مع تعليمات مشددة بأن تُعزل قبائل الوسط عن قبائل الجنوب، وأن تُستغل فترة انحسار المياه وقبل قدوم الأمطار لإنهاء المعارك.

كما بعث بهدايا قيمة لعدد مِنْ أغوات الشمال، مع رسائل توضح أن جملة مِنْ القضايا كان يفترض أن تُعَالج، إلا أن ظروف الجنوب وأعباء الحرب، وأخيراً وصول المعلومات أو عدم وصولها، إذ كانت تتأخر فِي كركوك أو تصبح محطتها الأخيرة هناك؛ كُلّ هذه الأسباب لم تمكن بغداد مِنْ المساعدة. أما الآن وبعد أن لم يعد بين بغداد والشمال حاجز مثل الآغا، فقد أصبحت الظروف مواتية لعلاقات إيجابية ومباشرة.

وإذا كان الباشا قد بدا واثقاً بعد أن تخلص مِنْ هذا الخصم، فإن رجاله أخذوا يستعيدون أخطاء الآغا ومباذله والقسوة التي كان يتصف بها، كما تصدى عدد مِنْ الشعراء لنظم قصائد هجاء بحق هذا السفاح الذي مضي دون أسف، لكن الباشا تحسب مِنْ هذه الجرأة المفاجئة لدى هؤلاء الشعراء! صحيح أنهم يهجون الآن هذا الذي مضى مباشرة إلى جهنم، لكن ماذا يمنع أن يقولوا شيئاً مشابهاً بحق غيره غداً؟ هكذا فكر داود باشا، ولم يتأخر فِي أن يقول للشاعر الصفوي مازحاً:

- صحيح أن الآغا مثل كافور أو أنجس مِنْ كافور، لكن هذا لا يظهر إلا إذا قارنه الواحد بسيف الدولة؛ وجماعتك هجموا مثل الزنابير، ولو انتظروا كم شهر وبعد ما نخلص مِنْ بدو الفرات الأوسط، كان لقوا قضايا تملي الدماغ! وعندها هات يا شعر، وتباروا يا شعراء!

وهكذا انكسرت هذه الموجه مِنْ الشعر أو تحولت إلى شكل سري، إذ كانت تتردد أصداؤها فِي بعض المقاهي، وكثيراً ما كانت تحور الأسماء والصفات وتستمر فِي الانتشار!

وأخذ الصفوي يستعد مِنْ أجل نظم قصيدة «تتناقلها الركبان، وتصل إلى أبعد مكان،» كما قال لخلف، حين جاء فِي زيارة جديدة للسراي.

أما عارف زنجاري، فلم تتأخر السراي فِي إرسال أحد رجالها لكي يمازحه قبل أن يصطحبه إلى ثكنة الفرسان.

سأله عبد الفتاح وجدي، وهو يمثل دور ناهي تماماً:

- باخرة مرسين متى تصل إلى البصرة؟

- بابا.. سفينة هالشكل ماكو!

ولما أعاد عليه السؤال مرة أخرى، وأشار إلى أن أقرباء له سيصلون على هذه الباخرة، ردَّ عارف بحدة:

- بابا قلت لك سفينة هالشكل ماكو!

ـ يعني هذا الخط انقطع؟

- شنو.. جاي تتعيقل براسي؟ ردَّ عارف بغضب، أصلاً مثل هذا الخط ماكو مِنْ يوم ما ربنا خلق الدنيا!

ـ يعني خط البر أحسن؟

- خط جهنم أحسن مِنْ الكل، عيني، فاتركنا بهمنا وخلينا نشوف دربنا، يرحم والديك.

- زين.. زين مولانا، لا تصير عصبي...

وبعد قليل وقد تغيرت اللهجة تماماً، أصبحت ساخرة - وإذا رمان بعقوبة عطش.. شنو اللي تنصحنا نسوي؟

أصبح عارف زنجاري عصبياً وخائفاً، فقد أحس أن شيئاً يراد به، وأن الرجل الذي يقف أمامه ليس بريئاً. وفِي محاولة لأن يحمي نفسه، أراد تغيير الموضوع:

- يا ابن الحلال، خاف أنت غلطان بجيتك على، وإذا عندك سالفة لها علاقة بزرع أو سفر فلازم تكون عند غيري، وإذا تريد أخدمك، أساعدك فِي شي أقدر عليه، فأنا حاضر..

- زين.. إذا أنت حاضر.. تفضل وياي!

وفِي ثكنة الفرسان ومثل أيّ متهم آخر يحاول أن يفلت مِنْ التهمة الموجهة إليه، أنكر عارف أية معرفة بالباليوز، وأن الشخص الوحيد الذي يراجعه لأمور تتعلق بالقنصلية، خاصة لاستلام البضائع التي تأتي على مراكب شركة الملاحة الشرقية هو جميل عقراوي، ولا يعرف أحداً غيره.

أما عندما أدخل إلى الغرفة المجاورة، فقد رأى وراء مكتب عريض: ناهي زبانة! قال له ناهي، وبطريقة جدية تصل حدود الصدمة:

ـ ينقضي العمر يا سيد عارف، وما أنسى مساعدتك!

ولأن عارف زنجاري نظر طويلاً إلى ناهي وصمت، فقد سأله ناهي:

- نسيت لو تتذكر؟

-...

- هسه آني وأنت مكشوفين.. ربي كما خلقتني، لو عندك كلام ثاني؟

ولما صمت عارف، وبدا حائراً وخائفاً، قال له ناهي مازحاً:

- الله يلعن الشيطان، لأنه أصل النسيان.

وبعد قليل، فِي محاولة اعتذار:

- تفضل مولانا، استريح، أقعد وخلينا نسولف!

وقبل أن يستقر عارف على الكرسي المقابل لناهي، وقد ارتمى عليه مثل قربة نصف ممتلئة، حتى قال ناهي بفخامة:

- زارتنا البركة يا سيد عارف.. شنو تحب تشرب؟

عصر ذلك اليوم وبعد مناقشات لم تخل مِنْ حِدة، إذ ظل عارف يصر على أن علاقته بالباليوز لا تتعدى ترتيب شؤون النقل النهري، وهذا ما يجعله مضطراً لمراجعة أو الاتصال بالذين ترسلهم القنصلية، إلا أنّه وافق فِي النهاية على أن يبلغ السراي بكل ما يصل الباليوز مِنْ مواد على بواخر الشركة، وأن يبلغ بأسماء الأشخاص الذين تسدد القنصلية أجور سفرهم أو توصي بهم، واتفق أن يكون عبد الفتاح وجدي واسطة الاتصال.

ورغم أن السراي لم تشر إلى علاقة الآغا بالباليوز، إلا أن المعلومات التي أخذت تتسرب وتشيع حول هذه العلاقة ولدت قناعة أكيدة أن الآغا مِنْ رجال الباليوز، وهذا ما دعا القنصل للسفر خجلاً مِنْ الباشا، وربما لن يعود إلى بغداد مرة أخرى! قال ذلك عدد مِنْ الناس، وقال غيرهم: خلوا الصيف، أول نوبة، يخلص وبعدها تبين القرعة مِنْ اللي عندها شعر!

ناجي البكري فِي قهوة الشط، وهو يستمع إلى الأسئلة تتناثر حوله ما إذا الآغا مِنْ رجال الباليوز، وما إذا القنصل سيعود أم لا؟ قال وهزات رأسه تتوالى دلالة الأسف:

ـ أهل بغداد، مثل ما يقولون، يقرون الممحي ويلقفونها وهي طايرة، هذي ما ينراد لها سين جيم، لكن ما أعرف شلون فاتهم أن الآغا رضع الحليب مِنْ ذاك الزاغور، مو مِنْ البارحة واليوم، مِنْ سنين...

ولأن الجميع ينظرون إلى «الأستاذ» بتقدير وإن مازجه شيء مِنْ الأسف، لأن كلام ناجي البكري يروق لهم، يحبونه، لكن لا يعرفون كيف يمكن أن يتحقق عملياً، وهذا ما يجعلهم يسمعون بانتباه، ويجعلهم حائرين، فِي نفس الوقت، ومشككين فِي إمكانية تحقيق هذه الأفكار.

الآن وهم يسمعون ما يقوله، يكتشفون أنهم نسوا علاقة الآغا بالقنصل فِي الفترة الأولى مِنْ حكم سعيد، إذ كان على وشك أن يعدم بسبب تآمره لولا أن القنصل، هذا القنصل بالذات، هو الذي شفع له عند سعيد وتعهد أن يسجنه فِي الباليوز، ثم اتفق وسعيد أن يسفر للبصرة للتخلص منه، وكيف ذهب مِنْ الشرق وجاء بعد رحلة طويلة مِنْ الشمال!

بعد فترة صمت، وقد بدت الصور بمخيلة الكثيرين مشوشة متداخلة، أضاف ناجي وبدا صوته مثقلاً:

ـ أما اللي يقولون أن القنصل خجل وانهزم مِنْ وجه الباشا وما له عين يشوفه، فهذا يصير بين صديق وصديقه فِي القهوة، بين الرجال وحرمته ببيته وبليا ما يحس الناس، أما بين الاكبارية، بين الدول، فالعلاقات بينهم غير شكل.

ابتسم، وكأنه تذكر أشياء كثيرة، ثم أكمل:

- لو اكو حياء بين هذول، كان شفنا الدنيا غير شكل، كان صارت دهن وعسل.. لكن...

وحين ظل الذين حوله يسمعون ويهزون رؤوسهم بين فترة وأخرى تأييداً، ختم كلامه:

- وظني أنّه ما ينقضي الصيف إلا ونشوفه جاي يهفي!

ولأن حسون دخل القهوة فِي تلك الأثناء متعجلاً وألقي نظرة واسعة مكتشفة وكأنه يبحث عن أحد، فقد علق هوبي، وكان فِي طرف الحلقة المحيطة بالأستاذ ناجي:

- الله العليم يا جماعة الخير، إن حسون مولود بليلة القدر...

ولأن العبارة بدت غريبة ومفاجئة، فقد التفتت الرؤوس بحثاً عن حسون، واستمر هوبي:

ـ لأن المسعدة زوجة القنصل، ما تقدر على فراق حسون!

ابتسم ناجي البكري ابتسامة حزينة وهو يرى أن أغلب الذين حوله أسعدتهم النكتة أكثر مما أقنعهم كلامه، ودفعهم حب الاستطلاع لمعرفة ما وراء لهفة حسون ونظراته المستطلعة، وهكذا وجد «الأستاذ» نفسه ينهض ويقول وهو يبدأ أولى خطواته الثقيلة:

- مو بس الحريمة ما تقدر على الفراق، رجلها أزيد... وتشوفون؟

تبين أن لهفة حسون ونظراته المستطلعة وهو يدخل، أنّه يبحث عن خميس النعجلي حذاء الخيل، لا ليتفق معه على حذو الحصانين، فقد جرى

الاتفاق على ذلك عصر اليوم ذاته وإنما يريده أن يزيد انتباهه إلى أقصى حد وهو يقوم بالعمل، وما إذا مِنْ المناسب أن يأتي بالحصانين معاً أم بكل واحد على انفراد، وهل مساميره جديدة ومضبوطة الأطوال، وقال له أخيراً وقد تجمع حولهما بعض الأصدقاء:

-.... وأريد يا خميس وافهمني زين، أن يكون بقلبك رحمة وحنية وأنت تشتغل، لأن الخيل «همين» إلها روح مثلنا، تحس وتفتهم وتتوجع، فأريدك ما تقول لنفسك: هذي حواوين وما لازم ندير بال.

وخميس الذي يهز رأسه موافقاً ويبتسم، كان يوزع نظراته بين الوجوه التي تتابع الحديث الذي يدور، قال ليطمئن حسون:

- راح أتعامل معها يا حسون الورد، مثل ما يتعامل الواحد مع العين الرمدة: يواش.. يواش، بحيث تنحذي بليا ما تحس، وبعينك راح تشوف!

- زين.. زين وعلى بركة الله!

سأل أحد الذين تابعوا الحوار:

- بس ما قلت لنا حسون، أيّ مِنْ الاثنين أغلى عندك؟

نظر للسائل وفر يده بسخرية، وكأن مثل هذا لا يُسأل؛ ردَّ كأنه يكلم أطفالاً:

- شنو اللي جاب لجاب، وين إنتو رايحين؟

قال آخر فِي إشارة غير بعيدة لما يرمي إليه:

- يجوز اكو أغلى مِنْ الاثنين، لكن حسون ما يريد يقر ويعترف!

ابتسم حسون بحزن، وجاء رده بحرقة:

ـ ما علينا مِنْ أيام قبل؛ نحن أولاد اليوم وما دامت هذي الأصايل برقبتنا لازم نداريها.

ومر الأسطة اسماعيل وأدرك أن الطوق يكاد يحكم على حسون، سأل بدعابة:

- ها.. شنو جمعة الخير هذي؟

ردَّ خميس بمكر:

- جا حسون يا أبو حقي حتى نتفق على حذو الخيل، واتفقنا؛ والجماعة ما فاكين عنه ياقة: تحب شلال أزيد لو تحب حصان السراي أزيد...

وكاد خميس يتابع إلا أن الذي سأل عن وجود أغلى مِنْ الاثنين، قاطعه:

ـ إنت يا أبو حقي تعرف أسرار أكثر مِنْ اللي بين الأم وبنتها فشنو رأيك، حسون يحب أحد أكثر مِنْ الخيل؟

- حسون قلبه قلب جمل يحب كُلّ الناس، بس بهذي الأيام والشهادة لله، ما عنده غير شلال.. وقبل أيام جا الضيف الجديد، حصان السراي.

- هذا كُلّ شيء، لو اكو فِي شي لاخ؟

هكذا سأل الذي يريد أن يثير شجون حسون؛ وحسون ينقل نظراته بين هؤلاء الذين يتحدثون نيابة عنه ولا يعرف كيف يجيب أو ماذا يقول.

ردَّ الأسطة اسماعيل بمرح، ولينهي الموضوع أيضاً:

- اكو ناس تدور بالدفاتر العتيقة وهذا شغل المفاليس؛ وهسه لو تخيروا حسون بين ملك ربنا كله وبين شلال، يقول لكم: شلال، شعرة مِنْ عرفه، نظرة مِنْ عينه، تسوى الأول والتالي...

والتفت إلى حسون يسأله:

- شتقول حسون؟

- آني شنو.. آني منو يا أبو حقي، لو ما شلال؟

التفت حسون بنظرة واسعة للذين حوله، وكان جذلاً لأن الأسطة اسماعيل قال ما كان يريد أن يقوله. هكذا وشت عيناه وهكذا أكدت ابتسامته، وقبل أن يتحرك قال لخميس ليؤكد الاتفاق:

ـ نحن على اتفاقنا، ومن الغبشة ما تشوفني إلا وأني يمك، وراح أجيب الثنين سوا...

- خلص، وآني بانتظارك!

قال سيفو وهو يرى حسون مغادراً قهوة الشط:

- ها... حسون.. أشوفك رايح مِنْ وقت؟

- صار لي كومات بالقهوة، عمي أبو فلاح، ولازم أروح - وين؟ على الخيل؟

ـ الخيل تريدني، تطلبني، ومنو إلها غيري عمي أبو فلاح؟

ـ عفيه، وما تريد مِنْ يوصيك!

وأضاف سيفو لكن حسون لم يسمع، لأن ظلمة أول المساء غيبته:

- لو أكو بكل محلة ببغداد واحد مثل حسون لصارت الدنيا بألف خير، لكن مقابل حسون أكو كُلّ واحد مثل الصل، يبرم شواربه ويمسد لحيته وما يعرف إلا قولة: يا نفسي وما تهمه إلا روحه، وهذا سبب البلاء.

قال سيفو ذلك وفِي ذهنه المُلا حمادي الذي بدا مختلفاً عن الكثيرين، إذ كان يشير إلى الصدقات التي تعود الآغا تقديمها للفقراء والمساكين، وكيف كان يبعث برجاله إلى أئمة المساجد وإلى وجهاء الأحياء، الملا حمادي أكد على ذلك ليس قناعة بما فعله الآغا وإنما نكاية بأولئك الشامتين ومحاولة للكيد بهم، خاصة بعد أن عرف بالحفلة التي أقامها الأسطة عواد بالمسافر خانة. وأنشد فيها بعض الشعراء قصائد فِي هجاء الآغا، وغنى أحد المغنين مقاطع محورة مِنْ أغنية شعبية كلها شتيمة وسخرية مِنْ الأغا!

نادر أفندي الذي وصل فرحه إلى حدود النشوة بعد أن عرف بإعدام الآغا، وكأنه بهذا الفرح ينتقم لنفسه نتيجة الإذلال الذي كان يمارسه عليه الآغا ورجاله، ليس فقط بالمبالغ الكبيرة مِنْ الأموال التي كان يتم سحبها وإنما بطريقة التعامل، إذ كان يروق لهم ويتعمدون إيذاءه، الأمر الذي لم يقو على احتماله وكان يسبب له ألماً يصل حدود المرض، ولا أحد يقف إلى جانبه حتى خلف كان يتخلى عنه، ربما خوفاً مِنْ الأغا أو نكايةً به.

وقد ذهبت كُلّ محاولات التنبيه والاحتجاج أدراج الرياح!

الآن بإعدام الآغا، هبط الفرح كله على نادر أفندي، وتعبيراً عن هذا الفرح لم يفتح أبوابه فقط بل واشترى كمية مِنْ السكاكر ووضعها على الطاولة أمام أنظار الجميع، عارضاً على المهنئين والمراجعين «أن يحلوا سنونهم!» وإذ لم يبق أحد إلا واستغرب هذا الكرم المفاجيء والاستثنائي مِنْ نادر أفندي، فقد لجأ الكثيرون إلى ممازحته، ليس فقط بالكلام الذي يقولونه وإنما بأخذ كميات كبيرة مِنْ هذه السكاكر، مع تعريض لا يخفى:

- هذا المصقول يا أبو يقظان مو بس طيب وصنف أول، هذا يعيد القوة والشباب.

- هذا يوم يتأرخ يا أبو يقظان!

- هذا أزيد مِنْ مصقول يا نادر أفندي، هذا دوا يشفي مِنْ كُلّ الأمراض!

وعينا نادر أفندي وحدهما اللتان تعملان فِي تلك اللحظات، لأن مزح الأصدقاء إذا تجاوز حداً معيناً، ليس بالكلمات وإنما بتناول كمشة كبيرة مِنْ المصقول، يصرخ نادر أفندي:

- خلي بقلبك إنصاف يا ابن الحلال، قلنا: تفضل، ما قلنا: اكرف كرف!

وعلى ضوء ردَّ الفعل يكون موقف نادر. إذا استجاب مِنْ يُنَبه للملاحظة تمر الأمور بسلام، أما إذا أصر وبالغ بمزاحه فيهدر صوت نادر أفندي بوجع:

- شفتوا؟ أكبر غلط أن الواحد ينطيكم وجه!

فإذا واصلوا المزاح يصرخ غاضباً:

- يا عباد الله.. هذا ينوكل وحدة.. وحدة، يواش.. يواش، مو مثل التمن والمرق!

وبعد قليل، وهو يجر الطبق الذي كان على طرف الطاولة قريباً مِنْ الأيدي، وهو يقول:

- قلنا حلوا سنونكم؛ كلوا مما قسم الله؛ ما قلنا هذا مال حرام وتعالوا دمروه أو احرقوه فد نوبة...

طبيعي لم يستمر احتفال نادر أفندي إلا وقتاً قصيراً، لأنه لا يحتمل مزاحاً مثل الذي شهده بنفسه، ولأن الآخرين فوجئوا بهذا التغير، وبالغوا بمداعبته أو مناكدته، فانتهز أول فرصة ليغضب ثم ليخفي طبق السكاكر!

والمهنئون الذين وصلوا بعد الوجبات الأولى، سألت أعينهم أو تساءلوا عن الحلويات التي يوزعها نادر أفندي، فكان رده عليهم عصبياً:

- جماعة السراي ما تلوق لهم النزاكة ولا يعرفون الأصول...

فإذا بدت كلماته غامضة، أو لا تكفي للإجابة على تساؤلاتهم، كان يتابع حانقاً:

- قلنا للي جوا قبلكم: على كيفكم يا جماعة الخير، لأن أكو بعد جماعة راح يمرون، لكنهم مثل الجراد.. أكلوا الأول والتالي...

وحين يطيلون وقوفهم عله يخرج كمية إضافية مِنْ السكاكر ولا يستجيب، تتوالى تعليقاتهم:

- قشمرونا.. قالوا: مِنْ السما ومصقول وراحة الحلقوم، ومثل ما تشوف عيونكم.. كُلّ شي ماكو!

- حتى حبة حامض حلو.. ماكو!

- مو بس هالشكل.. الطاولة نظيفة مثل طيز الحنبلي.. حتى أثر أو ريحة شكرات ماكو!

ويصبر نادر أفندي على هذه التعليقات، يحاول التصرف كما لو أن الذين أمامه يتحدثون فيما بينهم وأن كلماتهم لا تعنيه. فإذا أسرفوا وزاد الأمر عن حد معين، يقول وتخرج الكلمات مِنْ بين أسنانه: - تمشوا آغاتي، دوروا على برمكي غيري، لأن نادر أبو يقظان عزل؛ باع وخلص!

فإذا تباطؤوا، إذا لم يعجبهم كلامه، يقول:

- بديوان الباشا راح يوزعون مو بس شربت، وراحة اسطنبول وشكر لمه، فخفوا رجلكم حتى ما يصير بيكم مثل ما صار بمعايد القريتين!

كان شعور نادر أفندي بالفرح غامراَ، ولا يقل عن شعور الباشا لأنه تخلص مِنْ خصم عاتٍ ومسرف، والإسراف كما قال لنفسه، مثل النارتأكل نفسها وما حولها، ولا بد أن تصبح الأمور منذ الآن أفضل مِنْ السابق بكثير. لكن لم تمر أيام ويلتقي بعزرا أفندي، وما كاد يقدم له بضع حبات مِنْ السكاكر احتفظ بها له خصيصاً، حتى وجد عزرا ينفعل ولا يرفض حبات السكر فقط، بل ويرد بحدة:

- لا تغرك الأشياء اللي تسمعها نادر أفندي، لأن القتل والمقتول إذا بلش بالسراي ما يخلص، فالله يستر!

وتغيرت لهجة عزرا:

- مو بس هالشكل.. السوق راح يوقف، لأن الخوف أكل قلوب التجار، والجنوب ياكل الأخضر واليابس، وقبض ماكو، وأنت بعينك تشوف: الجماعة ما يعرفون إلا قولة هات؛ وباجر راح يطالبون أزيد مِنْ اليوم، وما يندري شلون نقدر نتحمل، وشنو اللي راح يصير!

نادر أفندي الذي بدا له كلام عزرا منطقياً ولا يخلو مِنْ وجاهة، لا يريد أن يبدد فرحه بغياب سيد عليوي بهذه السرعة. قال لنفسه: عزرا بير، بير ما ينحزر على اللي بيه!

ما كادت تنقضي أسابيع قليلة حتى أبلغ الباشا عزرا، وأبلغ عزرا نادر بضرورة تخصيص مبلغ، وبدا لهما كبيراً جداً للبدء بتشييد السراي الجديدة، كما أخذت تتوالى أوامر العطايا، خاصة لأغوات الشمال ولعدد مِنْ شيوخ القبائل.

وفرح نادر أفندي الذي ظنه سيمتد، كان قصيراً وعابراً، وهو يطفىء النور فِي الليلة التي أبلغه عزرا بالمبالغ التي يطالب بها الباشا للسراي الجديدة، قال لنفسه وزفراته تتوالى: «عجيب أمر هذول الحكام، يشوفونا طامسين بالدين، ويا الله.. يا الله تتدبر معنا خبزة يومنا ويريدون يبنون السرايات والقصور، منين نجيب فلوس، قابل نخلقها خلقة؟» وفِي محاولة لأن يخادع النوم ويستدعيه بدأ يعد غرف القسم الجنوبي مِنْ السراي، تعب وهو يعد وهو يتذكر الغرف بأسماء شاغليها، ولأن عدداً مِنْ الغرف لا يشغله أحد قرر فِي اليوم التالي أن يعود إلى جدول الرواتب وأن يعد الغرف بنفسه.. ليتأكد! وقد داهمته كوابيس كثيرة فِي تلك الليلة.

ناطق أفندي الذي كان مشغولاً أو بكلمات أدق، شغل نفسه باقتراح زي جديد للحرس الخاص، وللفرقة الموسيقية التابعة للسراي، وقد طلب معونة خطاط الباشا ربحي مِنْ أجل تحضير النماذج والألوان، لأنه توصل إلى أفكارٍ

اطمأن اليها، وكان بصدد الشروع بكتابة الاقتراحات، حين بلغه خبر إعدام الآغا، وكان ردَّ فعله المباشر وقد سمعه الكثيرون:

- الآغا لازم يتحاكم، ويجوز ينعدم، على مود الهرقلة، لأنه مو بس رزل الملابس العسكرية، رزل السلك كله. كان هو وربعه عبالك مكادي بالخلقان اللي يلبسونها، بينما كان لازم الواحد يبهر الدنيا ويملي العين بالقيافة والهيبة...

استراح قليلاً، وقد عادت إلى ذاكرته صور الآغا فِي مراحل وأماكن عديدة، فأضاف:

- الناس يشوفون ويقدرون، فإذا كان الأعلى رتبة عسكرية بعد الباشا هالشكل، شلون نقدر نفرض الاحترام؟ وشلون الناس تهابنا؟

واشتعلت الرغبة فِي صدر ناطق أفندي أن لا تقتصر اقتراحاته على السراي، وإنما أن تشمل القوات العسكرية كلها، وشط به الخيال فِي لحظات معينة لو يقترح على الباشا أن يتوحد زي الموظفين أيضاً، وقد يأتي يوم يتوحد فيه زي الشعب كله!

أما حين سمع أن نادر أفندي يوزع السكاكر والحلويات بهذه المناسبة، فقال للذين نقلوا إليه الخبر:

- شكرات نادر أفندي مو بس دوا، هذي حرز ولازم تنضم لولد الولد، ومجنون اللي ياكلها!

وبعد قليل وكانت لهجته ساخرة:

- ولو صحت بأيدي واحدة أحطها بقوطية، وأحط القوطية بصندوق، وأحط الصندوق بقبة، وأقفل القبة وأرمي المفتاح بالشط، حتى إذا جا يوم وطلع المفتاح ببطن سمكة صادها صياد فقير، يقول لنفسه هذا مفتاح قصر الملك وجواه لازم ألقى الكنوز!

ولما سئل لماذا لا يحاول الحصول على حبة مِنْ هذه الحلويات، ردَّ وهو يبتسم:

- غيري أولى مني... وبعد قليل:

- والكنوز ما تطلع على كُلّ وجه!

كان بكلامه هذا يرد على نادر أفندي الذي يمتدح جميع صفاته:

الاستقامة والصدق والتفاني فِي العمل، ويأخذ عليه اثنتين: المبالغة فِي الأفكار والاقتراحات المتعلقة بالتحسينات التي يجب أن تجري على الملابس والأبنية والحدائق لأنها تكلف مالاً، وأيضاً لأنه يشرب العرق، وإن يكن بشكل

سري، ويعتبر أن القسم الأكبر مِنْ تلك الأفكار والاقتراحات نتيجة الخراب الذي تحدثه الخمرة فِي عقل شاربها.

لما بلغ نادر أفندي ما قاله ناطق ردَّ بمكر:

ـ سهمه موجود حتى لو ما جا، وراح يوصله...

تنفس ملء رئتيه وتابع، فجاء صوته مسكيناً:

- ومثل ما قال غيره: يجوز هذا الدوا ينفعه ويشفيه!

وظل الكثيرون يتذكرون اليوم الذي وزع فيه نادر الحلويات بحيث أصبح يُسمى بمرور الوقت «يوم الشكرات». حتى الباشا الذي نقل إليه فيروز أحداث ذلك اليوم بكل التفاصيل، علق بمرح:

- بعد الدنيا بها خير، بس لازم نعرف: شكرات نادر أفندي مِنْ فلوسنا أو مِنْ فلوسه، مِنْ جيبنا وقشمرنا، أم فك كيسه.. وقال: تفضلوا يا جماعة الخير؟

قبل أن ينتهي الخريف عاد ريتش إلى بغداد، عاد دون أن يحس به الكثيرون، خلافاً لأسفاره السابقة، فقد وصل عند الغروب فِي عربة مسدلة الستائر. وما عدا الاستقبال السريع مِنْ كبار موظفي القنصلية، لم يكن هناك أحد آخر، إذ لم تبلغ السراي بقدومه، كما ولم تخرج فرقة موسيقي الباليوز لاستقباله. أما وهو يقطع الطريق المتعرجة بين الباب الشرقي وراس القرية، فقد ظن الذين رأوا العربة أنها لساسون، إذ لديه واحدة تشبهها تماماً لولا الخيول العديدة التي ترافقها، وقد بدا بعضها آتياً مِنْ سفر بعيد، بسبب الغبار الذي كان يجلل راكبيها.

لم يتوقع الكثيرون عودته، لأن غيابه طال وامتد أكثر مِنْ أية سفرة سابقة، خاصة وأن رجال السراي أشاعوا بعد أسابيع قليلة مِنْ سفره أن القنصل لن يعود، وأكد بعضهم أنّه قام بوداع الباشا الوداع الأخير، وكذلك فعل تجاه كبار موظفي الولاية الكبار. أما السبب الذي اذعاه لهذا الانتقال فهو انحراف صحة زوجته، التي لم تستطع أن تتكيف مع طقس هذه البلاد، ولم يشر إلى أيّ سبب آخر.

أما بعد أن طال غيابه، كما حصل لقنصل فرنسا، فقد تبرع عدد مِنْ رجال السراي، الذين يرتادون السوق التجاري، وتعودوا الجلوس فِي المقاهي، لإيراد أسباب غير التي ادعاها القنصل. قالوا إن الأمر لا علاقة له البتة بزوجة القنصل، فقد مضى عليها أكثر مِنْ عشر سنين فِي بغداد ولم يُسمع أنها لم تتكيف مع الجو! كما أنها اعتادت أن تقضي معظم الأصياف فِي شمال البلاد، أو تسافر إلى خارجها، ويمكن أن تعتبر سفرة هذه السنة مثل سفرات الأعوام الماضية، خاصة وأنها أمرت فِي الفترة الأخيرة بإقامة أبنية جديدة لتضاف إلى البناء الرئيسي، ثم العناية بالحيوانات والطيور، هذا عدا عن الحدائق التي تكبر وتتسع سنة بعد أخرى بناء لطلبها، كما أشار العمال الذين استعانت بهم.

بعد أن يقدم رجال السراي هذه الأسباب، يتوقعون أن يسألهم الذين يستمعون عما دفع القنصل لمغادرة بغداد بصورة نهائية. إذا سئلوا فالجواب جاهز، أما إذا لم يواجهوا مثل هذا السؤال، فإنهم لا يتأخرون فِي تقديم الجواب أيضاً:

- ولما انكشفت الأمور، بعد اعتراف الآغا وإفادات الشهود، انحمق الباشا، وقال بصوت عالٍ، وأمام كثيرين: مثل هذا القنصل ما أريد، واكسر رجله إذا طب بغداد نوبة ثانية. وما انتظر الباشا: بعث رسول الاسطنبول ومعه

رسالة، والرسول بوجهه للسلطان، قابله وقال له كُلّ شي، تعجب السلطان، وقال: هذا ما يصير، وما أقبله بالسلطنة كلها. ومن ساعته كتب للندره، وقال بالرسالة: خذوا قنصلكم أنا مثل هيج قنصل ما نريد. وكتبوا رداً وجاوب السلطان، وكتبوا نوبة ثانية وجاوب السلطان، وقال لهم بعد هذا الكلام ماكو كلام، ولما تيقنوا أنّه ماكو نتيجة، قالوا:

زين، ندزه لحلب، ردَّ السلطان وقال: لا. قالوا ندزه لولاية عكا، ردَّ السلطان وقال لا. ورادوا يقولون مكان ثالث، لكن السلطان قال: بكل سلطنتي الشريفة، بكل ديرة الإسلام، هيج قنصل ما أريد، ولا تراجعوني نوبة ثانية...

يستريح مِنْ يروي كيف حصلت الأمور، وبعد أن يرى الإعجاب فِي وجوه الذين يستمعون إليه، يُضيف بلهجة الظفر:

- ومثل ما تشوف عيونكم، الشهور مرت، وراح تلحقها السنين، وذاك القنصل صار أثراً بعد عين، أو مثل ما يقول أهل بغداد: اللي يعيش بالحيلة لا بد يموت بالقهر!

الآن، بعد أن عاد القنصل، وبعد أن أخذ رجاله يؤكدون هذه العودة، لم يجد رجال السراي الكثير ليقولوه. غمغموا بكلمات حائرة أن الأمر مجرد إشاعات، ولم يضيفوا شيئاً آخر. وحين حاصرتهم الأسئلة والعيون المرتابة، ردوا أنهم ليسوا متأكدين. وقالوا أيضاً إن مِنْ صفات أهل بغداد العجلة، وأنهم مِنْ البساطة بحيث يصدقون كُلّ ما يقال لهم! ولما تحولت الأسئلة إلى لجاجة، وجرى التذكير بما قيل سابقاً عن الرسائل التي راحت بصورة مستعجلة مِنْ بغداد، وما قاله السلطان للندرة، فقد ردَّ الذين قالوا مثل هذا الكلام بحدة:

- بس تريدون عزا حتى تلطموا بيه، فعلى كيفكم ليش مستعجلين؟

ولما رأوا الابتسامات فِي وجوه الذين يسألون، وكانت دلالة هذه الابتسامات لا تخفى، أضافوا بغضب:

- خلونا نشوف وجهه أول نوبة، وبعدها، لكل حادث حديث!

كان يمكن لهذا الحديث، أو ما يشابهه، أن يأخذ مدى أوسع فِي قهوة الشط، لأن لذلك أسباباً أكثر مِنْ الأمكنة الأخرى، لولا التغير الذي حصل للحاج صالح العلو، وانشغال معظم رواد القهوة بمتابعته.

فبعد صدمة الحزن التي بدأت فِي كركوك، تحول الحزن إلى مرض، إذ خيم جو ثقيل على بيت الحاج صالح العلو، خاصة وأن أم قدوري حولت الحزن إلى طقس يومي بالسواد الذي فردته، حتى توقع الكثيرون أن يخطف الموت الحاج صالح بعد أن أصبح كالشبح نتيجة الهزال الذي ألم به،

وحوله إلى كتلة مِنْ البياض الشمعي، بالبشرة ولون اللحية والشعر، وبهذه النظرات الساهمة والبطء بالحركة، مما جعل الأسى والترقب يخيمان على المحلة والقهوة انتظاراً للموت الذي سيأتي لا محالة، إذا لم يكن خلال هذا الفصل، فلا بد أن يكون فِي الفصل الذي يليه؛ لكن ما حدث هو العكس تماماً.

إذ بعد زيارة خلف، وما رواه حول مقتل بدري وأن الآغا كان هو المسؤول، وقد اعترف بذلك أقرب رجاله، فإن الحاج صالح الذي استعاد أولاده ما قال خلف مرة واثنتين، ثم كرر السؤال مرة أخرى فِي اليوم التالي، وفِي اليوم الذي يليه، ما لبث أن ظهر عليه التغير فِي الأيام اللاحقة، وبطريقة أثارت الإعجاب والتساؤل.

صحيح أن التغير كان قليلاً وبطيئاً، لكن أول مِنْ لاحظه حسون ثم سيفو، وأول إشارة كانت تجاه شلال. فالحاج صالح الذي لم يكن يرغب فِي الاقتراب مِنْ حصان بدري، وكان إذا وقعت عليه عينه ولو صدفة أو اللحظات، تنتهي تلك النظرة أغلب الأحيان بدمعةٍ تنحدر مِنْ العينين لتتخلل اللحية البيضاء ثم تغيب فيها، الأمر الذي جعل قدوري يفكر بالتخلص مِنْ شلال، إلا أن إصرار نعيم على الرفض، وتلك العناية التي يوليها له، أدى إلى اتفاق بين الاثنين: أن يُرفع جدار الحديقة الخلفية، وأن يكون خروج شلال مِنْ باب فِي نهاية الحديقة، يوصل إلى الشارع مباشرة، وقد أدى هذا الحل إلى تجنيب الحاج صالح رؤية الحصان إلا فِي أحوال قليلة.

الآن، بعد زيارة خلف، وما كادت تنقضي أيام على وصول حصان السراي، حتى جاء الحاج صالح إلى القسم الخلفي مِنْ الحديقة لرؤية الحصان الجديد، هكذا كانت البداية.

حسون يروي ما حصل بطريقة مشوشة، إذ بالإضافة إلى أنّه فوجيء برؤية الحاج صالح، ولم يصدق عينيه خلال اللحظات الأولى، إلا أن المشية البطيئة والتقدم الثابت نحو الخيل، ثم وقوفه الطويل وهو يتأمل الحصانين، وأخيراً رؤيته للحاج وهو يبكي، وكان بكاؤه أقرب إلى النشيج، جعل حسون ذاته ينخرط فِي موجة مِنْ البكاء. لقد فاجأه حزن كثيف سيطر عليه، ويشبه ذلك الحزن الذي شعر به فِي الأيام الأولى لمقتل بدري، الأمر الذي لم يمكنه مِنْ مراقبة أو ملاحظة انسحاب الحاج صالح، مما سبب له حيرة شديدة، إذ لم يكن متأكداً: هل ما وقع حقيقة أم وهماً، وبالتالي لم يخبر سوى سيفو.

فِي اليوم التالي جاء الحاج صالح مرة أخرى، وفِي هذه المرة كان سيفو أيضاً. تحدث الحاج مع الاثنين، وتحدث مع الخيل، مع شلال بشكل خاص. صحيح أن صوته كان بطيئاً لا يكاد يسمع إلا بصعوبة، إلا أنّه استعاض عن

الكلام بإطعام الخيل قطعات مِنْ السكر. وقد ظهر الفرح على سيفو بحيث أنّه لم يسمع ما قاله حسون، بعد أن غادر الحاج صالح.

عبر سيفو، كالبرق، إلى الرصافة، إلى الشورجه، دون أن يمر بقهوة الشط، ودون أن يستجيب لدعوات عديدة وجهت إليه. قال لنعيم بانفعال لم يستطع أن يخفيه:

- أبشرك: ترى الحجي جا اليوم يم الخيل، وقف ويانا وسولف.

طبطب على ظهر شلال وسأله: شلونك.. والعلامة أنّه طعمه فص شكر، ونعيم الذي لم يصدق ما تسمعه أذناه، وقد ظهر عليه الانفعال، لم يتوقف عن السؤال:

- متأكد أبو فلاح؟ أنت شفته؟ وشقال بعد؟ متأكد؟ أكو أحد غيرك شافه؟

كان نعيم يسأل وهو يبدل ملابسه، وكان لا يقوى على الانتظار إذ يريد أن يرى، أن يتأكد بنفسه.

فِي اليوم الثالث، وكان الثلاثة فِي حظيرة الخيل، جاء الحاج صالح وهو يحمل طاسة متوسطة الحجم مليئة بالشعير. كانت مشيته بطيئة، لكن ثابتة. تطلع إليهم وابتسم، ثم توجه إلى الحصانين. أطعم شلال مقداراً مِنْ الشعير، ثم سحب الطاسة وأخذ يطعم حصان السراي. وفجأة التفت نحوهم، وسأل حسون:

- شسمه هذا الحصان؟

وسط الفرح، والذي بلغ حد الذهول وهم يحيطون به، قال نعيم وكان يطوق كتف أبيه:

- ماكو غيرك.. يسميه!

كانوا يتطلعون إلى وجوه بعض، ويتطلعون إلى الحاج صالح، غير مصدقين، وغير قادرين على كتمان الفرح الذي اشتعل فِي قلوبهم. وأبو قدوري الذي يضيء وجهه بابتسامة دون أن تنفرج شفتاه، شعر أنّه أمام تحدٍ غير سهل، لما طلب منه ابنه أن يطلق اسماً على الحصان. مرت لحظات صمت، وجاء بعدها صوته خافتاً:

ـ شنو رأيكم لو نسميه: عايد؟

ورغم أنّه كان لحصان السراي اسم، وقد اختلف حوله كما اختلف على اسم شلال، فإن الاسم الجديد لاءمه إلى درجة لم يعد الحصان يستجيب إلا إذا نودي بهذا الإسم، خاصة إذا ناداه الحاج صالح!

فرح الكثيرون، الأقرباء والأصدقاء والجوار، ثم فِي قهوة الشط، ومحلات الكرخ كلها، ثم فِي الصوب الآخر، خاصة فِي السوق التجاري، أن الحاج صالح أخذ يتعافى ويستعيد قوته، ولا بد أن يعود إلى حالته الطبيعية. هذا الفرح انتقل كالعدوى إلى الآخرين. ومثلما توقع الذين يرتادون قهوة الشط أن يروا الحاج صالح بينهم، ولا بد أن يحصل ذلك بين يوم وآخر، خاصة بعد أن أصبح حسون يقدم «نشرة» كُلّ مساء فِي القهوة حول ما قاله الحاج للخيل وكيف عاملها، وماذا اقترح بشأن مشاويرها اليومية وغسلها، فإن الكثيرين فِي السوق التجاري لم يملوا مِنْ توجيه الأسئلة لنعيم أو قدوري ما إذا آن الأوان لكي يروا الحاج فِي السوق، كانوا يسألون بعبارات تطفح بالشوق والود الحقيقي.

سيفو الذي كان حائراً طوال الفترة الماضية حول العمل الذي يناسبه بعد أن هجر مهنته السابقة، تبين أن المبلغ الذي جمعه أو الذي جُمع له دون أن يدري عند المختار الحاج علاوي، كبيراً إلى درجة لم يصدقه عقله، أعطى قسماً لفطيم، وجعله هذا يؤجل اتخاذ القرار. أما الآن، وبعد أن جاء الحصان الثاني ثم تحسُن صحة الحاج صالح، فلم يعد قادراً على أن يفارق الحاج، كما أصبحت الحاجة إليه ماسة، خاصة بعد أن جاء مِنْ اقترح على نعيم شراء بستان توفيق المدرس المعروض للبيع والقريب مِنْ المحلة، إذ يمكن أن يصبح سلوى للحاج، الذي له سابق اهتمام بالورد والزرع، كما يمكن أن تنقل الخيول إلى هناك. وقد لاقى الاقتراح قبولاً، وتم إنجاز عملية الشراء فِي جلسة واحدة ودون مساومات، وأصبح سيفو المسؤول الأول عن إدارة العمل!

هذه التطورات شغلت قهوة الشط تماماً، حتى أن الكثيرين وجهوا نقداً أقرب إلى اللوم، لا يُعرف لمن، لأن أياً منهم لم يفكر بحلول كهذه مِنْ قبل، إذ لو وُجدت لوفرت جهداً ووقتاً، كما كان مِنْ شأنها أن تجنب أو تقلل الأحزان التي خيمت منذ مقتل بدري. ولما دار الحديث حول الأمر مرة وثانية فِي قهوة الشط، وقال الأسطة اسماعيل أن أهل بغداد أذكياء لكن ينقصهم شيء لا يعرف بالضبط ما هو.

ذنون، الذي كان يقف صامتاً، ردَّ بطريقة لا تخلو مِنْ عتاب:

ـ لو قايلين مِنْ قبل، الله يصلحكم، كان خلصنا مِنْ كُلّ هالمشاكل!

ولما بدا كلامه غامضاً، أو لا يعرف الذين يسمعون وجه الخطأ، تابع موضحاً:

- بستان الأعظمية يلعب فيه الخيال، وطول أيام السنة فارغ...

وبعد قليل وبحزن:

- البستان والحوش ببطنه، وعلى بعد خطوتين الشط، وهمين أبو البستان، كلها كانت على حسابكم، بس لو قايلين يا أولاد الحلال!

تطلع الأسطة عواد إلى وجوه الذين حوله، وكان يهز رأسه أسفاً، استقرت نظرته على وجه الأسطة اسماعيل، وخرجت كلماته بطيئة:

- صدق.. أبو حقي، ليش هذي فاتتنا؟

- مو بس هذي فاتنا أبو نجم، فاتتنا أشياء وأشياء!

ورغم أن بعض الموجودين أشار إلى استحالة هذا الحل فِي وقت سابق، ليس فقط لبعد الأعظمية، بل ولأن الحاج صالح كان فِي وضع صعب، ولم يتجاوزه إلا بعد تأكده أن دم ابنه «بدري» لم يذهب هدراً، فقد عرف القاتل، الذي هو الآغا ونال جزاؤه، وهذا هو السبب الذي عجل بشفائه.

ولم يترك ذنون هذه الفرصة تفوته، قال بعد أن أراح نفسه على المقعد، ليبدأ حديثاً طويلاً:

- الصحة والمرض يا جماعة الخير بالعقل مو بالجسد؛ صحيح أن الجسد هو اللي يمرض، أو يبين عليه المرض، لكن الدماغ هو السبب.

ورغم أن العيون كانت تتابعه، إلا أن الموجودين تبادلوا النظرات فيما بينهم وكأنهم رغم الموافقة على ما يقول، يعتبرون كلامه ناقصاً أو يحتمل شيئاً مِنْ الخطأ، وقد أحس ذنون بالأمر فتابع بلهجةٍ جديدة:

- البني آدم يزعل، ينقهر، يحصر، وهذي وين تروح؟ وين تصير؟

بالدماغ، وهناك، بالدماغ، تبدأ الحسبة، وإذا بدأت الحسبة يتخربط كُلّ شي: النفس تعاف الأكل؛ العين ما تعرف النوم؛ وساعة بعد ساعة، يوم بعد يوم، يشوف البني آدم إن كُلّ شي صار يوجعه، فإذا ما تلاحق روحه يجوز يخلص.

بدا كلامه للذين يتابعونه أكثر وضوحاً وربما مفهوماً لكن لم يكن كافياً؛ أضاف:

- مكتوب بالكتب أن الإنسان يقدر على كُلّ شي. يقدر يطيب مِنْ المرض إذا أراد، ويقدر يتحمل الوجع والعطش والجوع، إذا أراد وصمم.

أما إذا خاف، أو قال ما أقدر أو ماكو جاره، فيتكوم وبعدها يخلص، ولا كأنه كان.

استراح قليلاً، ثم ختم كلامه بطريقةٍ حازمة:

- المهم الإرادة. أيّ نعم، الإرادة كُلّ شي، هي اللي ترفع الإنسان وهي اللي تنصيه، وهذا الكلام اللي أقوله مو بس بالكتب مكتوب، كُلّ واحد منا

يعرفه ويجوز عاشه أو سمع به، وإذا ما كذبني ربي، هذا اللي قاله الحاج صالح لروحه، وهذا اللي سواه!

لاقي الكلام الذي قاله سيد ذنون قبولاً بل إعجاباً مِنْ الذين يستمعون، وكاد أن يُضيف أشياء أخرى، لكن وجد أنّه ليس لديه أمثلة أكثر إقناعاً مِنْ المثل الذي قدمه ويعرفه الجميع، فقال لينهي كلامه:

- ولازم نعرف أن قوة الواحد مِنْ قوة ربعه.

توالت هزات الرؤوس دلالة الاقتناع والموافقة، وتاه كُلّ واحد فِي عالمه الخاص يفكر ويتذكر ويستدعي الأمثلة التي تؤكد ما سمع.

وهكذا طغت هذه القضية على ما عداها فِي قهوة الشط. أما عندما وصل الحاج صالح العلو ذات مساء أواخر الخريف إلى قهوة الشط، فكان لوصوله بهجة لم تشهد مثلها القهوة منذ وقت طويل، وإن امتزج ذلك بمسحة حزن ذكرت بتلك الليلة التي أقيم فيها الاحتفال بخطوبة «بدري».

وصل الحاج صالح بصحبة سيفو. كان يتوكأ على عصا أو بالأحرى ينقلها نقلاً هادئاً موزوناً دون أن يكون بحاجة ماسة لها، ولكنها تجعله أكثر اطمئناناً. وكان حسون يريد أن يحول هذه المناسبة إلى فرح كبير، إذ كان لا ينفك يتقدم الاثنين ويشير بيديه، بوجهه، إلى قدوم الحاج صالح ويريد أن ينبه الجميع لذلك، فِي الوقت الذي يريد سيفو أن يعتبر الأمر عادياً، ولا يستدعي خلق ضجة أو إثارة الذين يمرون.

فِي لحظة معينة وحسون يبالغ فِي الحركة، صرخ سيفو عليه بغضب:

- الزم القاع لك حسون، لا تخبصنا ولا تهرج الدنيا!

وحسون الذي استغرب اللهجة، نظر إلى الحاج صالح وكأنه يريد أن يستعين به على سيفو، فجاءه صوته بطيئاً لكنه حازم:

- مثل ما قال لك أبو فلاح، على كيفك، يواش يواش...

وحين بدا الاستغراب على وجه حسون، كأنه لا يوافق، تابع الحاج صالح:

- وإلا أرجع، ما أطب القهوة!

قال بعض الذين رأوا الحاج صالح يدلف إلى قهوة الشط، إنهم لم يصدقوا أعينهم. وقال الذين أمعنوا النظر إلى وجهه وهو يجلس وسط مجموعة الأصدقاء، إنهم كانوا يرون كتلة مِنْ البياض كأنها النور. وأكد هؤلاء وغيرهم أن الهيئة لم تتغير عدا البياض الناصع للحية، وقد أضفى على الوجه والملامح لوناً جديداً ومختلفاً عن السابق؛ وقالوا أيضاً إن النحافة والصوت الخافت جعلا الحاج صالح شخصاً يستثير الحب والشفقة معاً.

الكثيرون كانت تجتاحهم الرغبة فِي أن يحتضنوا الضيف، أن يعبروا عن شوقهم وسرورهم بعودته، وأن يكون بينهم مِنْ جديد لكن الطوق الذي أحاط به، وقد صنعه سيفو بمهارة لا تخلو مِنْ مكر ثم تلك الهشاشة التي تتبدى بالحركات والنظرة، جعلت الكثيرين يعبرون بالكلمات، بنظرات العيون، عما يكنون لهذا العائد الذي طال غيابه. أكثر مِنْ ذلك، كان الأسطة عواد يريد لهذه العودة أن تتكرر، أن تصبح يومية، لذلك كان يبادر حين يقبل المعارف والأصدقاء للسلام إلى التنبيه بصوت عال:

ـ على كيفكم يا معودين، لأن الحجي تعب مِنْ ردَّ السلام...

ولئلا يساء فهم كلامه، يُضيف بمرح:

ـ ومن الليلة راح نقيد بسجل التفقد: الحجي تأخر: حسم راتب، الحجي ماجا: حسم وجزا...

والتفت إلى الحاج صالح وسأله:

- مو هالشكل، حجي؟ موافق؟

ـ تمون.. أبو نجم، يرد الحاج صالح، وشكو عندنا غير ربعنا وقهوة الشط؟

ولأن عودة الحاج صالح العلو إلى قهوة الشط، صادفت نفس الفترة التي عاد خلالها ريتش إلى بغداد، فإن عودة الأخير لم يفطن لها الكثيرون.

وحين عرفوا هزوا رؤوسهم وقد أثقلهم الهم وتوقعوا أشياء كثيرة، خاصة بعد أن أخذت تترجع فِي العقول والقلوب ذكريات أيام سابقة، وكانت أبرز هذه الذكريات: الآغا، وما عرف عن علاقته بالقنصل!

عاد ريتش إلى بغداد هذه المرة إنساناً آخر. فبعد رحلته الأوروبية أو خلالها، والتي استمرت أربعة شهور وبضعة أيام، تقدم فِي العمر أعواماً عديدة أو هكذا بدا لمن يعرفه. هذا التغير لم يكن مِنْ حيث الشكل وحده وإنما بطريقة التصرف أيضاً. أصبح أقل ميلاً للسخرية مِنْ السراي، وأكثر تحفظاً فِي الحديث عن معظم الأمور، كما بدا أقل انفعالاً حين يصدر الأوامر أو وهو يكلف رجاله بأعمال معينة.

ما كادت أيام قليلة تنقضي على وصوله حتى بعث بمترجمه جوزيف ديراني، لإبلاغ السراي أنّه عاد ويطلب تحديد موعد لمقابلة الوالي.

وإذا كانت العادة أن يتولى بطرس يعقوب القيام بمثل هذه المهمة، فإنه بعد أن سافر مع ريتش لم يعد، إذ بقي فِي إحدى محطات الطريق أو أرسل إلى مكان آمن، ريثما تتهيأ الفرصة لاستدعائه إلى بغداد مِنْ جديد.

ورغم أن أياً مِنْ المترجمين يمكنه أن يقوم بمثل هذه المهمة، غير «أن بطرس أنسب لعلاقات الخارج»، كما يقول ريتش لنفسه، فِي الوقت الذي كان يتولى الديراني ترجمة الكتب والرسائل. وهذا الاختيار بسبب أن بطرس يعرف كيف يحمل الآخرين على الكلام، لأنه مطلع على معلومات تخص هؤلاء، كما يجيد المزاح مما يساعده فِي الحصول على معلومات تمكن ريتش مِنْ التأكد حول صحة ما يصله مِنْ أخبار وتعليقات. أما الديراني فإنه «رجل مكاتب وليس رجل علاقات».

بأقل الكلمات، ودون أية مجاملات أو أحاديث جانبية، أبلغ الديراني بوصول القنصل أولاً، ثم طلب موعداً مع الباشا للتحية وتقديم الاحترام.

ولأن السراي كانت على معرفة بقدوم القنصل، عن طريق مسؤولي محطات الطريق والقائمين على البوابة التي دخل منها، وقد وصلت تلك الأخبار بسرعة مع تفاصيل تتعلق بعدد المرافقين والخيول والأحمال، إضافة إلى معلومات تم الحصول عليها مِنْ المرافقين، وأيضاً بالفراسة والتقدير، فإن صفوت قرداغ وهو يستقبل الديراني، أبدى استغرابه لوصول القنصل، إذ لو أبلغت السراي لأوفدت ممثلاً عنها لاستقباله كما جرت العادة فِي أوقات سابقة. أما وإن هذا لم يحصل ولأن أوقات الباشا مزدحمة، فسوف يتم إيفاد موظف مِنْ السراي لتقديم التحية والتهنئة بسلامة الوصول وسيتولى إبلاغ القنصل بالموعد.

ناطق أفندي الذي قام بهذه الزيارة إلى الباليوز، رفع إلى الباشا تقريراَ، حاول وهو يكتبه أن يختصر الكثير مِنْ مظاهر الإعجاب. كتب: «...

وكان الجميع على معرفة بموعد وصولي، وقد تم استقبالي كممثل لفخامة الباشا بشكلٍ رسمي لائق، إذ صدح البوق معلناً الوصول، وعند البوابة الكبيرة، وقد فتحت على اتساعها للدخول، أدت مجموعة الحراسة التحية بكثير مِنْ الوقار، وما إن وقفت العربة حتى وجدت كبير موظفي المقيمية «ميناس» فِي استقبالي، وكان جميع مِنْ مررت بهم فِي أبهى الحلل وأعلى درجات النظام. وحالما ترجلت شنفت الموسيقى أذني ثم طلب إليّ أن أتفقد حرس الشرف، وكانت ملابس هؤلاء تختلف عن الذين مررت بهم، فهي أقرب إلى السواد مع قبعات عالية مزينة، ولولا الرهبة أو ربما الخجل، لدققت بالهيئة والملابس والشارات أكثر مما فعلت، لكن المشاعر التي انتابتني فِي تلك اللحظات جعلتني لا أفعل ذلك، وهذا ما ألوم نفسي عليه كثيراً.

أما و«ميناس» يطلب مني أن أتوجه إلى الداخل، فقد شعرت بالرغبة أن ألقي نظرة على الحديقة والزهور لأنها فِي غاية الفتنة والكمال، لكن حركته النظامية لم تمهل بالمقدار الكافي؛ أما المجاز الطويل الذي يقود إلى الداخل فإنه أشبه بالمجازات التي تقود إلى المدافن، خاصة مِنْ حيث الضوء الخافت والرائحة الثقيلة وتلك الأشياء الموضوعة على الجوانب أو فِي الزوايا. المجاز يقود إلى غرفة فسيحة للتوقف قليلاً ريثما يتخفف الزائر مِنْ الأشياء الزائدة: العباءات أو الفوانيس والعصي غير المزخرفة، وحتى الهدايا الثقيلة التي يأتي بها بعض الزوار، كما أسر لي أحد المرافقين حين استأذن ميناس لإبلاغ القنصل بوصولي.

«فِي القاعة الكبيرة التي تم فيها استقبالي، كان القنصل وأركانه. جرى اللقاء فِي منتصف المسافة وأكاد أجزم بذلك، إذ كان القنصل وأنا أدخل فِي أقصى القاعة، تقدم نحوي فِي الوقت الذي بدأت أولى خطواتي باتجاهه، وقد التقينا فِي الوسط تماماً. سلم مع ابتسامةٍ صغيرة وتعمد أن يخاطبني بالعربية، إذ قال: أرحب بممثل فخامة الوالي. وبعد المصافحة قدم لي رجاله بالترتيب واحداً بعد آخر، وكانوا جميعاً يلبسون أزياء سوداء على الطريقة الأوروباوية حتى ليصعب التمييز بين واحد وآخر».

«نقلت إليه تحيات والينا أطال الله بقاءه، وأفدت أن الزيارة جاءت لهذه الغاية وأعلمته أن الموعد الذي رامه سيكون قبل ظهر الخميس، ولم أجد مناسباً أن نتحدث فِي أمور أخرى».

سوف نرفع لوالينا المؤيد ببركات السماء كتاباً لاحقاً حول الأزياء التي يرتديها الحرس والموظفون وأعوان الباليوز، لكن ما لفت نظرنا أن القاعة

الكبرى كانت تزدان بالطنافس الفخمة وبالتصاوير على الجدران، وبموقد محفور داخل الحائط، وكان الحطب مكوماً لكن بطريقة بالغة التنظيم».

«وواجب الأمانة يقتضي أن أشير إلى أمر أثار استنكاري وعدم ارتياحي وربما لاحظ القنصل ومساعدوه ذلك، وهو وجود كلب صغير كان ينتقل على رسله بين الحضور، وقد اقترب مني وتشمم حذائي وملابسي أكثر مما فعل تجاه الآخرين، الأمر الذي لم أرتح له، وقد صددته أكثر مِنْ مرة، مما جعل القنصل يخاطبه بلغة أجنبية، فاتجه نحوه وجلس ما تبقى مِنْ الوقت عند قدميه».

لم أشأ أن أخوض فِي أية موضوعات، وكنت أكتفي بكلمات قليلة جواباً على الأسئلة التي وجهت إليّ وكلها تتناول الطقس والمسافات بين المدن. وقد وجه إليّ نائب القنصل سؤالاً ما إذا هناك كتاب حول الأغاني البغدادية، وهل هي نفس الأغاني التي يرددها الناس فِي المدن الأخرى، فأجبته أن هذه الأغاني تُحفظ ولا تدون، ولكل مدينة أغانيها! أما وهو يسألني حول الأزياء التي يرتديها الناس خاصة فِي بغداد، هل تغيرت حسب ما أتذكر أم هي ذاتها لم يلحقها التغيير، فكان لدي ما أقوله حول الموضوع لكن تمنعت، إذ يمكن أن يؤدي الخوض فيه إلى موضوعات أخرى، وهذا أمر لا أرغب فيه. وبعد أن خيم الصمت وتعمدت أن يكون واضحاً إعلاناً أن ليس لدي ما أضيفه، استأذنت بالانصراف، وقد وُدعت بالطريقة التي استُقبلت بها.

«فخامة والينا أدام الله عزه، سوف أدون لكم فِي وقت لاحق مشاهدات موسعة حول هذه الزيارة، وإذا طاب لكم الاستفسار حول أمر مِنْ الأمور فخادمكم فِي حالة جاهزية كاملة.

ويجب أن أبادر للتأكيد أن سعادة القنصل طلب مني أن أحمل لكم عميق التحيات وبالغ التقدير، راجياً لكم كُلّ الصحة ووافر السعادة».

حين سأل ناطق أفندي خلف عن تقرير الزيارة وما إذا لاقى قبولاً مِنْ الباشا، ردَّ خلف مازحاً:

- قال: عفاريم، ومثل ناطق بالدنيا ما نلقى، لأنه يعرف منو بزر النغل ومنو حفر النهر؟

ولما تحولت ابتسامته إلى قهقهة، ولم يستطع ناطق أفندي أن يفسرها، تابع خلف وهو يطبطب على كتفه ويقول:

- كلامك جواهر وكتابتك كلش راقية، لكن لو تختصر لأن الباشا ماكو عنده وقت يقرا معلقات!

- يعني عجبه اللي قلته؟

- هذي ما ينراد لها سؤال ناطق أفندي، بس أنت تعرف: وقت الباشا ضيق، ولو راد يقرا كُلّ شي تنعمي عيونه قبل ما يخلص قراية، فعلى كيفك، ومثل ما قال: إذا كان الكلام مِنْ فضة فإن الاختصار مِنْ ذهب!

وفِي يوم الخميس توجه موكب القنصل لزيارة السراي.

رغم حرص ريتش أن يكون موكبه فخماً، مثل ذاك الذي كان فيه حين زار السراي للقاء الباشا أول مرة، وما خلفه مِنْ فضول لدى الكثيرين الذين اصطفوا على جانبي الطريق الذي سلكه، ففي هذه المرة ومع أن الموسيقى النحاسية الصادحة كانت تعلن قدومه مِنْ مسافة كبيرة، وترافقها موسيقى القرب الناعمة، ظل أغلب الناس ومعظم الدكاكين وحتى رواد المقاهي، ظلوا جميعاً على حالهم، لم يتحركوا، سمعوا وتساءلوا اللحظات ثم عادوا إلى ما كانوا فيه مِنْ أحاديث وانشغالات. وما عدا أشخاص قليلين مِنْ المتسكعين والأطفال وبعض العاطلين، لم يكن هناك فضول أو رغبة بالتفرج والمتابعة. حتى مراد الذي وقف فِي باب قهوته حين عبر الموكب، وقال بصوت سمعه الكثيرون: «تفضلوا مولانا، تفضلوا» وقد سمعه القنصل وابتسم، فإن رواد القهوة ظلوا على حالهم وربما تشاغلوا أكثر مِنْ قبل لئلا يبدو عليهم الاهتمام.

قال ريتش لنفسه وقال لرجاله، بعد أن عاد مِنْ لقاء الباشا:

- عجيب أمر أهل بغداد: يحبون بإسراف، ويكرهون بإسراف، ولا أعرف لماذا تغيروا بهذا المقدار، خلال هذه الفترة القصيرة.

ولأن صمتاً ثقيلاً خيم على الذين يتحدث إليهم، إذ ليس لديهم ما يقولونه، فقد أضاف:

- ربما يخافون أكثر مما ينبغي؛ وقد يكون انقطاعنا الطويل عنهم جعلهم ينسون ماذا تعني المقيمية.

وتذكر ريتش الوصايا التي أوصى بها هايني ورجال القنصلية قبل أن يسافر:

- يجب أن ننتبه لفورة الدم التي تصيب هؤلاء الناس، فما أن تقع أحداث يرافقها القتل حتى يصابوا بحالة مِنْ الهياج يفقدون معها وعيهم ويتحولون إلى وحوش، وفِي هذه الحالة لا بد أن نبتعد عن طريقهم، أن لا نظهر أمامهم وإلا تحولنا إلى أهداف سهلة لهم، وعندها يصبون علينا كُلّ غضبهم». ورغم أنّه كان لميناس رأي مختلف، إذ أن التحفظ الزائد يولد قناعة لدى الطرف الآخر أننا خائفون أو مقرون بالذنب الذي ينسب إلينا، لذلك فمن الأفضل بقاء كُلّ شيء كما هو خاصة وأن هذه البلاد تعودت على أحداث مشابهة،

وغالباً ما يعتبر الخائف أو المتواري مسؤولاً ولو لم يكن كذلك لما خاف ولما توارى.

لم يوافق ريتش على هذا الرأي، لأن الجميع يعتبرون الآغا صديقاً للمقيمية وللقنصل بالذات، وهذا ما جعل الباشا يصر على إعدامه. وتذكر ريتش كيف كان الباشا مراوغاً، إذ بدا مهذباً أكثر مِنْ أية مرة سابقة، وكان ميالاً للخوض فِي مواضيع عديدة، كُلّ ذلك كي لا يتطرق إلى موضوع الآغا. أما عبارات الأسف التي أبداها؛ أما الادعاء أنّه لو طلب منه لعفا عنه، فلم تكن لتفوت ريتش أو تخدعه. لقد نفذ حكم الإعدام قبل أن يجف حبر الحكم عليه لئلا يراجعه أحد، لئلا يقع تحت ضغط أحد حتى لو كان السلطان نفسه.

يشعر ريتش الآن بعد أن التقى الباشا مجدداً أن ميناس كان على حق، فخلال غيابه تسنى للسراي أن تقنع الجميع بمسؤولية القنصلية، ولا يُعرف ماذا لفقت أيضاً لكي يبدو الباشا بنظر مواطنيه ضحية الأجانب الذين يتآمرون عليه، وأنهم استطاعوا الوصول إلى أقرب رجاله، الآغا، ودفعوه للتآمر ومحاولة التخلص منه، خاصة وأن رجال المقيمية ظلوا صامتين طوال الفترة الماضية. لم يقولوا كلمة واحدة لدحض أكاذيب السراي، وكأنهم بهذا السلوك يؤكدون صحة كُلّ ما يشاع أو ينسب إليهم.

لقد تركزت مخاوف ريتش، حين أعطى تلك الوصايا وكانت أقرب إلى الأوامر، لأن العناصر التي اعتمد عليها انكشفت، ولا بد له مِنْ إعادة التنظيم مجدداً واتباع سياسة مختلفة. كما تولدت لديه شكوك أن مواطني هذه البلاد لا يؤتمنون بالمقدار الكافي، إذ بالإضافة إلى خوفهم فإنهم مهددون دوماً إذا لم يكن بأشخاصهم مباشرة فمن خلال أقاربهم وأصدقائهم، وهذا ما يجعلهم هشين فِي مواجهة السراي، وإلا كيف يمكن تفسير اعترافات روجينا وربما غيرها؟ وهل هناك اختراقات أخرى لا تظهر له الآن، ولكن ستنفجر فِي وجهه خلال فترة لاحقة؟

صحيح أن خسارة الآغا كبيرة، لكن الذي جعل ريتش متشائماً أكثر هو سقوط الرهان على مَن افترضه بداية الإنقاذ: خالد أفندي، ثعلب الصحراء الأغبر.

فهذا الرجل الموكلة إليه شؤون العراق فِي اسطنبول وكان على دراية بأمور هذه الولاية، وقد تعود أثناء زياراته أن يكون الضيف الشخصي لريتش، بحيث توثقت بينهما العلاقة إلى درجة أن يقول له خالد أفندي ليس فقط ما يعرفه بل وما يفكر فيه مِنْ خطوات قادمة أيضاً، خاصة بعد أن يتناول كأساً مِنْ هذا المشروب الذي كان يقول عنه مازحاً «لو لم تكن البريطانيا أية ميزة وفيها كُلّ العيوب، فإن ما يشفع لها أنها صنعت الويسكي، وهذا ما يجعلها أمة عظيمة إلى قيام الساعة».

رهان ريتش وهو يزور اسطنبول، أن يقنع خالد أفندي بالتخلي عن داود. ومما جعل هذا الرهان أكثر إمكانية، أن عزرا كتب لأخيه حسقيل رسالة ببذل كُلّ الجهود لدى خالد أفندي «كي يجعل صديقه عاقلاً، لأنه بدأ يلعب بذيله». كما أشار فِي الرسالة ذاتها «أن سعادة القنصل سوف يطلعكم على وقائع كثيرة»..

إذا لم يشأ خالد أفندي أن يتخلى عن داود باشا تماماً فيمكن أن تدخل الشكوك إلى قلبه، يمكن أن يُضغط عليه انتظاراً لفرصة قادمة. ولا بد أن يصبح داود عندها متحسباً أو ربما خائفاً أن تنقلب عليه اسطنبول وعند ذاك يستطيع ريتش أن يتدخل بصورة أو أخرى، إما بترويض داود وجعله مثل الولاة السابقين أو بإسقاطه. وهذا ما سوف يساعد خالد أفندي على تحقيقه. وهذا ما جعل ريتش يجمد اتصالاته وتحركاته فِي بغداد انتظاراً للوصول إلى مثل هذا الاتفاق فِي اسطنبول مع خالد أفندي.

لكن المفاجأة الكبرى التي واجهته ولم يكن يريدها خاصة فِي هذا الوقت، أن اسطنبول سبقته إلى موقف حسمت فيه الشكوك والتساؤلات حول خالد أفندي!

فقبل أسابيع قليلة مِنْ وصول ريتش إلى اسطنبول، اضطرب رجال الحكم فِي دار السلطنة بعد أن توفرت معلومات أثبتها الشهود وأكدتها الوقائع، أن خالد أفندي عميل إنكليزي وأن له علاقات بلندره، ثم بالسفارة فِي اسطنبول منذ وقت طويل. ولأنه كان كذلك فقد أساء إلى أقصى حد، سواء بالمعلومات التي قدمها أو بالآثار التي خلفها، مما ألحق أضراراً بالغة بسمعة السلطان وبمصالح الدولة السنية، خاصة فِي علاقتها بفرنسا. وقد تقاضي لقاء ذلك مبالغ كبيرة، مما شكل خيانة عظمى. وبعد اعتراف خالد أفندي أثناء المحاكمة، وتأييد ذلك بشهادات الشهود، فقد صادق السلطان على حكم الإعدام الذي أصدرته المحكمة ونفذ فيه الحكم بعد فترة مِنْ صدوره.

كان لإعدام خالد أفندي وقع الصاعقة على ريتش. فقد أمل الكثير مِنْ علاقته بهذا الصديق، والذي يمكن أن يقدم خدمات جُلى؛ ولطالما فكر ريتش وخطط طوال أيام السفر بالاقتراحات التي مِنْ شأنها أن تعيد الأمور إلى حالة تساعده على تحقيق أفكاره. فماذا يستطيع الآن؟ ولماذا تعاكسه الأقدار بهذا الشكل وتجعله يفقد أقوى ركيزتين فِي بغداد أولاً بغياب الآغا ثم بغياب خالد أفندي هنا فِي اسطنبول؟

هل أصبحت بريطانيا العظمى ورجالها هدفاً لهذا النمط مِنْ الرجال المتوحشين، ولهذه العقلية التي تسيطر فِي اسطنبول؟

يتذكر سفرته السابقة قبل ثلاث سنوات إلى اسطنبول وكان فِي طريقه إلى لندن؛ كانت اسطنبول لا تخفي فرحها حين عرفت بهروب نابليون مِنْ

منفاه، إذ فجأة كشرت عن أنيابها وأظهرت كُلّ عدائها لبريطانيا، ظناً منها أن الفرصة قد واتت وأن نابليون سيستعيد قوته ومجده ويقلب الأمور رأساً على عقب، ونابليون كأي مغامر أعطى الانطباع أنّه جاء ليبقى، لكن ما كادت المائة يوم تنقضي ويتم اصطياده مرة أخرى ويرسل إلى سانت هيلانة، حتى تنفست بريطانيا الصعداء، وتأكد أن القبض عليه هذه المرة لن يتيح له حتى فرصة الحلم، ولا بد أن ينتهي فِي تلك الجزيرة المعزولة الموحشة.

كيف تفكر اسطنبول هذه المرة بعد أن أعدمت خالد أفندي وشددت رقابتها على السفارة، هل تظن وتتأمل بعودة جديدة لنابليون؟ هل حان الوقت لتصفي حساباتها مع بريطانيا؟ ومحمود الثاني، هذا السلطان الحاكم والحالم، هل يظن أن تغيير قبعات الجنود يغير عقولهم؟ يجعلهم نمطاً آخر مِنْ البشر ومن المحاربين؟

تختلط الأفكار فِي ذهن ريتش وتتداخل، ويكتشف أن السفير فِي اسطنبول أشد منه حيرة وضياعاً.

حسقيل، بعد أن قرأ رسالة عزرا، وبعد أن استمع إليه يستعرض أمامه تصرفات داود، قال وخرج صوته مِنْ أعماق بعيدة:

- لا أهتم بالسياسة إلا بقدر تأثيرها على الأوضاع الاقتصادية والمالية. عدا ذلك لا تعني لي السياسة شيئاً ولا أحب أن أصدع رأسي بخصومات هؤلاء الحمقى!

- ولكن تصرفات وخصومات هؤلاء الحمقى تنعكس على كُلّ شيء خاصة على التجارة، هذه حقيقة لا يمكن أن يهرب منها الإنسان.

- كُلّ ما ابتعدنا عن حماقاتهم كان ذلك أفضل.

- ولكن حماقاتهم تلاحقنا حتى لو أردنا أن نبتعد!

- ماذا تظن يا مستر ريتش مشاكلكم إزاء المشاكل التي تواجهنا هنا؟

ولم يترك له حسقيل أن يشرح، فقد اندفع يوضح كيف أن السلطنة تواجه فِي المرحلة الحالية وضعاً مضطرباً وتتنازعها تيارات متضاربة، فالسلطان القليل التجربة، يفترِض أن تغيير شكل الدولة سيؤدي إلى تغيرها فِي العمق، ولذلك اندفع إلى الصراع دون حيطة ودخل فِي معارك لا يعرف أحدٌ نتائجها. إنّه يتعارك مع وزرائه، مع رجال الدين، مع قادة الجند، ويريد أن تتغير السلطنة بين يوم وآخر. وإذا كان الآخرون يهزون رؤوسهم دلالة الموافقة فإنهم غير راضين، ويحاولون ما وسعهم أن يمنعوا تحقيق ما يفكر فيه السلطان. وفِي ظل هذا الاضطراب وقد وصل إلى حد الفوضى، مِنْ الهام جداً أن نفكر كيف نحمي رؤوسنا أولاً ثم أن نحمي مصالحنا.

ريتش الذي لم يكن له اعتراض على ما يقوله حسقيل، كان يريد أن يصل إلى اقتراحاتٍ عملية مِنْ أجل دعم وضعه فِي بغداد. قال ليعطي الحديث مساراً محدداً:

- التغيير لكي يحصل يحتاج إلى إمكانيات، وهذه لا توفرها إلا الأموال، ومن أجل تأمين تلك الأموال لا بد مِنْ الاتفاق على صيغة بين الدولة والذين يملكون المال، وهنا يأتي دوركم!

ارتاب حسقيل. نظر مِنْ جديد إلى هذا القنصل الذي يبدو ذكياً وذا إرادة قوية، لكن تنقصه الخبرة وقد تنقصه أيضاً معرفة طبيعة هذه البلاد، قال فِي نفسه وقد تذكر أياماً قديمة: «إذا كانت مغامرة عزرا قد نجحت سابقاً فإن نجاح المغامرات استثناء فِي العادة، وهذا ما يهمله صغار السن، وعلى الأكبر منهم أن لا يتعبوا مِنْ تنبيههم حتى لو أغضبوهم فِي بعض الأحيان»..

بعد هذه النظرة الطويلة، سأل، وحمل لهجته مقداراً مِنْ الشك:

- ألا تعتقد، يا مستر ريتش، أن هؤلاء الحكام مِنْ الشراهة إلى درجة لا يمكن إرضاؤهم أبداً؟

- إنهم دوماً يطالبون بالمزيد، ومالك المال وحده يستطيع أن يقول لا أو نعم، وهذا ما يجعل رجال السلطة لا يسرفون كثيراً فِي أحلامهم.

- ولكن أصحاب السلطة قد يرغمون مالكي المال، ويضطرونهم للدفع.

- يمكن أن يفعلوا ذلك لبعض الوقت وليس لكل الوقت.

- ومن هم أصحاب المال الذين يستطيعون أن يقولوا: لا.

- وما هي السلطة دون مال، دون قوة مادية؟

لم تطل المناقشة بين الاثنين، قال حسقيل وقد شابت صوته بحة خفيفة:

- سوف أبلغ عزرا أننا لم نعد قادرين على تسديد ما يستحق للسلطنة على بغداد إلا إذا جرى تحويل الأموال فعلاً، وعليكم أن تتدبروا أموركم هناك.

- هذا ما أريده منك يا حسقيل أفندي، وهذا يكفيني الآن.

أما فِي مباحثات ريتش مع سفيره فِي اسطنبول، فقد أكد على ضرورة أن تفهم السفارة طموحات داود ومحاولاته فِي أن يبتعد عن اسطنبول، فإذا تُرك ليمضي فِي هذا الطريق لا بد أن يسبب متاعب كبيرة لأطراف عديدة، وعلى السفارة وعلى السفير بالذات، الإدراك أن السلطنة دون بغداد ستكون عرجاء وسوف تواجه متاعب لا نهاية لها، ولذلك يجب أن تبذل الجهود مِنْ أجل إزاحة داود... قبل فوات الأوان.

اكتفى ريتش بهذه الحصيلة التي توصل إليها على أن يتابع الأمر فِي لندن، ويمكن بعدها أن يبلور خطة لمواجهة داود، إما باخضاعه أو بالتخلص منه وسوف تكون لندن أكثر قدرة على فهم أفكاره ودوافعه، وهذا ما توصل إليه فعلاً.

«بغداد مدينة خادعة» هكذا قال ريتش لنفسه، وهو عائد مِنْ ديوان الباشا. فالعيون الصادة، والوجوه الكتيمة التي يمر بها لا تقول شيئاً واضحاً، ومع ذلك تعبرعن الكثير. وإذا افترض سابقاً أنّه أصبح على دراية بهذه المدينة وناسها نتيجة إقامته الطويلة، ومن خلال المعلومات التي تصله، يكتشف الآن أنّه لا يعرف إلا القليل. يكتشف أن أفكار الناس وعواطفهم تغلفها طبقات سميكة مِنْ البعد والانكار والمجهول، حتى لكأنه لم يعش قط هنا طوال هذه المدة.

هل كان الناس هكذا مِنْ قبل أم تغيروا؟ والتغير.. إذا حصل، هل يقع بهذه السرعة وبهذا المقدار أم أن داود سيطر عليهم كالمرض، فجعلهم لا ينظرون إلا إليه، ولا يتوقعون أن يحصل شيء إلا إذا أراد؟

وتذكر هو وتذكر الكثيرون، كيف أن ديوان السراي لم يكن شيئاً مقارنة بديوان القنصل، وأن كبار موظفي الدولة قبل أن يتوجهوا إلى مكاتبهم، كانوا يمرون بديوان القنصل، للسلام، للتشاور حول القضايا الهامة، وهناك كانت تتخذ القرارات ويتم تلقي التوجيهات.

حتى الأغوات وشيوخ القبائل، كانوا إذا جاؤوا بزيارة إلى بغداد، يمرون بالباليوز قبل أو بعد زيارة الباشا، ومن ريتش ورجاله كانوا يتلقون العطايا والهدايا، ومعها يُطلب منهم، سرياً، وكُلّ على انفراد، أشياء كثيرة!

دار القنصلية التي كانت هكذا خلال حكم عدة ولاة سبقوا داود، تلقت أول رسالة مختلفة بعد شهور قليلة مِنْ استلام داود باشا للسلطة. كانت الرسالة غير مباشرة، لكن واضحة. فالاعدامات التي طالت عدداً مِنْ المناوئين، الذين كانوا مع سعيد، وكان لأغلبهم علاقة بالباليوز، استثنت أبرز اثنين كانا لاجئين لدى القنصل، استثنت عبد الله بك ودرويش آغا.

صحيح أنهما دفعا فدية لقاء تحريرهما، وكانت تلك الفدية كبيرة، لكن ما كانا ليستطيعان ذلك لولا استعداد الباشا لقبولها، خاصة وأنها لم تُطلب مِنْ غيرهما، وكانت هذه بمثابة رسالة لريتش تعبر عن الرغبة بعلاقة مِنْ نمط جديد مختلف.

استلم ريتش الرسالة، لكنه كان على يقين أن داود مهما حاول ليبدو مختلفاً عن الولاة الذين سبقوه لا بد أن يصبح مثلهم أو شبيهاً بهم. قد يحتاج الأمر لبعض الوقت، أو لتجارب إضافية، لكنه سيصل. أما بعد الاعدامات فقد أصبح ريتش أكثر حذراً: «لأن هذا الوالي جمع مِنْ الصفات الشرقية مقداراً

مضاعفاَ، فقد حمل مِنْ الشرق البعيد، مِنْ جورجيا، روح المغامرة ورغبة الاقتحام، ومن الشرق القريب المكر والمجاملة والصبر، مما يقتضي أن يصطدم مرة وثانية بالحقائق، وأن يتأكد مِنْ قوة الامبراطورية البريطانية، قبل أن يصبح إنساناً سوياً كاملاً، أو أن يتحطم رأسه كالماعز الجبلي إذا أراد أن يستمر فِي العناد».

ولئلا تقع المعارك قبل الأوان، فقد حول ريتش ديوان القنصلية إلى لقاءات فِي بعض المناسبات، وكان يدعو إليها عدداً غير قليل مِنْ رجال السراي، كي يروا، ثم لينقلوا إلى الباشا، أن القنصل، بالحفلات التي يقيمها أو باللقاءات التي تجري فِي دار القنصلية، ليس لديه أية نوايا سيئة تجاه الوالي أو تجاه الولاية.

وزيادة فِي الحيطة تحولت العلاقات والاتصالات مِنْ العلن إلى السر، ومن النهار إلى الليل. ولجا ريتش إلى تشجيع الطامحين والمنافسين ليكونوا أداة فِي يده للضغط على داود عند الضرورة، فإذا استجاب يمكن أن تبقى الأمور عند هذا الحد، أما إذا عاند وركبه الغرور فعندئذ ستكون لديه خيارات أخرى يمكن أن يلجأ إليها.

لكن بعد إعدام الآغا، اكتشف ريتش أنّه خسر أوراقاً كثيرة دفعة واحدة، إذ بالإضافة إلى خسارة الآغا ذاته، والتي لن تعوض خلال فترة قصيرة، فإن انكشاف عدد مِنْ عناصره، بطرس أولاً، ثم روجينا، وعارف زنجاري، لا تعتبر خسائر فقط، بل تدلل على مدى اختراق الباشا العلاقاته، الأمر الذي يقتضي أن يعيد النظر بخطته كلها.

ولأنه عاد، بعد هذه الزيارة الطويلة لأوروبا، والمشاورات التي أجراها فِي لندن، بتصور أكثر وضوحاً لما يجب أن يقوم به، فلم يكن فِي عجلة مِنْ أمره. سوف يترك بعض الوقت يمر، لأن الزمن دواء للأمراض المجهولة أو المستعصية، إذ وحده يتدبر أمرها، إما بنسيانها، أو بأن يجعلها تقضي على المرض والمريض معاً!

لو أن الظروف واتت كان بمقدور الآغا أن يجهز على داود، أن يجعله أثراً بعد عين، كما فعل مع سعيد، لكن داود، هذه المرة، كان أسرع، كان أكثر مكراً. إذ بعد أن أبعد الآغا إلى الشمال، جرده مِنْ قواه، وجعله ألعوبة حين استدرجه إلى بغداد وحيداً ثم أجهز عليه. ولأن الآغا كان شديد الثقة بنفسه، ويتصور أنّه قادر على اجتراح المعجزات، فقد جاء تحت وهم أن مجرد وجوده فِي بغداد سوف يجعله فِي مركز قوي، ومن ثم سينقض على داود، وكان الأمر مبارزة، أو عراكاً بالأيدي بين اثنين، يتقرر بنتيجته الفائز!

لم يفطن الآغا لمكر داود، ولم يقدر أن بعده الطويل جعل الناس ينسونه. ثم إن صراعاً مثل هذا تقرره موازين القوى، والظروف التي تحيط بكِل

واحد مِنْ المتصارعين، وليس الشجاعة الفردية، أو روح المغامرة؛ ولو أنّه استشار أحداً لأخذت الأمور مساراً مختلفاً. وتذكر ريتش كيف أنّه أشار عليه بالانتظار إلى حين انتهاء معارك الجنوب. لقد أوفد إليه بطرس يعقوب ليقول له كلمات محددة: «إذا لم تضمن ثورة الشمال، وأنه كله معك، فالأفضل انتظار فرصة أخرى، وقت أفضل» وكان الآغا، كما أكد له بطرس، موافقاً، فما الذي جعله يغير رأيه، ويستجيب، بهذه السهولة، لدعوة داود باشا مِنْ أجل التشاور، ثم الوصول إلى هذه النهاية البائسة؟

أصبح ريتش الآن أكثر قناعة أن داود لن يلين ويخضع إلا إذا واجه خطراً حقيقياً، وهذا لن يتأتى عن طريق البدو، فالبدو يزعجون، يخلقون المتاعب، لكنهم غير قادرين وحدهم على إسقاط الوالي، لأن الولاة أشد ما يخشون أن يموتوا اختناقاً مِنْ خلال الحصار الذي يفرض عليهم، مِنْ خلال القوات المنظمة التي تملك القدرة على الاقتحام. أما المناوشات، أما التهديد مِنْ بعيد، فإن ذلك قد يولد القلق، ويسبب بعض المضايقات، لكنه لا يؤدي إلى التسليم وتغيير الذين يحكمون.

ليس هذا فقط، إن استمرار الحروب مع البدو مِنْ شأنه أن يستنزف الوالي، لكنه لا يسقطه، وهذا ما أكد عليه ريتش مِنْ خلال الرسالة التي بعث بها مع بطرس يعقوب إلى الآغا. قال له بوضوح: «لتطل الحرب فِي الجنوب ولتمتد. هذا يُهيئ مناخاً مناسباً، لأنه بالإضافة إلى خسارة الأموال الطائلة، فإن القوات المحاربة حين تعجز عن تحقيق النصر، ويحل بها التعب والملل، زيادة على الخسائر، سوف تصبح قوات مرشحة للنقمة والارتداد، وعند ذاك يأتي دورك،» لكن حسابات الآغا، كما يبدو، كانت مختلفة.

الآن، مِنْ خلال الاتفاق الذي جرى مع حسقيل؛ وبتحريض الشمال، وليس بالاعتماد على قائد كان فِي الشمال؛ ثم الاتفاق مع كرمنشاه، يمكن أن تتهيأ الفرص مِنْ أجل مواجهة هذا الوالي الذي يريد أن يذهب بعيداً إذا لم يجد أحداً يقف فِي وجهه.

بعد أن انتهى مِنْ الأغا، التفت داود باشا إلى إعادة تنظيم أمور الدولة. أجرى مناقلات واسعة، كما بعث عدداً مِنْ ضباطه إلى الجنوب، وكان على رأس هؤلاء طلعت باقة.

كانت الصفة التي أعطيت لطلعت أنّه المستشار العسكري للكيخيا، وقد طلب منه الباشا أن يتولى الأمور الأساسية «لأن يحيى بك برأسه الف شغلة» وأضاف مداعباً: «وهو بالعسكرية مثل ما انت بالصوم والصلاة!».

فعل الباشا ذلك لان حملة الجنوب طالت، وتولد شعور لدى القبائل المتمردة أن قوات الحكومة عاجزة، وقد أدى هذا لأن تعلن قبائل اخرى العصيان، إذا لم يكن بحمل السلاح، فبالامتناع عن أداء ما يستحق عليها مِنْ التزامات مالية، مما استدعى ضرورة التعجيل بانهاء المعركة، واللجوء إلى كُلّ الوسائل.

طلعت لم يكن بحاجة إلى وصايا كثيرة، فقد شعر بالإهانة لأن الآغا خدعه طوال الفترة الماضية، كما قدر أن الظروف أصبحت مؤاتية الآن لاثبات جدارته فِي الأمور العسكرية مِنْ جديد، لان ما كان يقال عن شجاعته وكفاءته، خاصة حين قاتل إلى جانب داود فِي الشمال، تحديداً فِي كركوك، وكيف أصبح اسمه على كُلّ شفة ولسان... ان هذه الصورة تراجعت او تلاشت مِنْ ذاكرة الكثيرين، بعد أن أبعد إلى الشمال، وزاد فِي غيابه أسلوب الآغا فِي التعامل مع رجاله، خاصة معه.

الآن تتاح له الفرصة مِنْ جديد، وهذا ما جعله يندفع بحماسة مِنْ أجل إعادة تنظيم قوات الحملة التي تواجه البدو، وأن يضع خططاً ومواعيد جديدة لكي يحسم المعركة، مستفيداً مِنْ تعب وضجر عدة قبائل حليفة مجاورة، هبت أول الأمر لنجدة قبائل الفرات الأوسط، أما وقد طال انتظار المعركة، ولا يبدو فِي الأفق أنها وشيكة، فقد بدأت هذه القبائل بالعودة إلى مساكنها الصيفية، معلنة، لتبرير الانسحاب، أنها مستعدة للمجيء مِنْ جديد «إذا باشا بغداد يريد يحارب مِنْ صدق!».

الكيخيا الذي طاب له المقام فِي قيادته الجديدة بالقرب مِنْ الحلة، لم يكن فِي عجلة مِنْ أمره، بعد أن دخل الصيف الكبير، فهو على قناعة أكيدة أن البدو لا يحسنون الحرب بشكل نظامي، وان أفضل طريقة لإلحاق الهزيمة بهم أن تجعلهم فِي حالة خوف وانتظار، دون الدخول معهم فِي مواجهة عسكرية، وبإشعارهم أيضاً أن الحرب على الأبواب. هذه الطريقة مِنْ شأنها أن تحطم أعصابهم، وأن تجعلهم حائرين، إذ لا يستطيعون العودة

بسهولة إلى حياتهم العادية السابقة، كما لا يعرفون متى أو أين يمكن أن تقع المعركة، «وعند ذاك يحومون، كما قال الكيخيا لمرافقه العسكري، كالفراش الذي يحوم حول النار، يحومون.. يحومون وبعدين يطبون على وجوههم جوا النار... ويحترقون!» ليس هذا فقط، فالكيخيا الذي طال الحجر عليه فِي الجناح الغربي مِنْ السراي، حتى أنّه شعر بالتعفن هناك، كان بحاجة، لاستعادة الثقة بنفسه، أن يتأكد أن له وحده الحق باصدار الأوامر، ووحده الآمر الناهي، فهو الذي يمنح الترقيات ويعاقب، وله وحده تدق الطبول حين يأتي، وله وحده ينفخ فِي البوق حين يستعرض الجنود! ولأن كُلّ هذا تحقق له فِي موقعه الجديد، فلا حاجة للاستعجال بالعودة إلى بغداد قبل أن يشبع هذه الرغبات، ولا بد أن يعود على رأس جيش منتصر حقق الكثير، ليعرف الناس مِنْ هو الكيخيا يحيى.

طلعت باقة، حين التحق بالحملة، قدم تحياته واحترامه، وهو يضع نفسه تحت تصرف الكيخيا، وأبلغه أنّه جاء ليكون فِي خدمته ورهن إشارته، ولم يطل الوقت ليصبح صديقاً له، خاصة وقد اكتشف الأثنان أن لهما هوايات مشتركة، وكان أول مِنْ نبه طلعت بك إلى ذلك رستم قاورد.

ففي العشاء الأول الذي ضمهما وحدهما، بعد أن قدم رستم «الشوربة الخاصة»، ليحيى بك، غمز بعينه سائلاً طلعت بك إذا كان يفضل هذا النوع مِنْ الشوربة، فرد عليه طلعت بمداعبة:

ـ الزينة ما ينراد لها سؤال يا معود...

وبعد قليل، فِي محاولة لتسويغ مثل هذه الموافقة:

ـ بهذا الحر ماكو أحسن مِنْ الشوربة، أو اللبن.

أما بعد أن تذوق مقداراً قليلاً مِنْ هذا الحساء الخاص، فقد رفع عينيه بسرعة إلى الكيخيا ثم إلى رستم، فوجدهما ينظران إليه. ابتسم، وقال الرستم:

- سبحانه، ما يقطع عباده، ومثل ما رب العالمين سخر الهدهد لسليمان سخرك إلنا بهذا التشول!

ومع أن معرفة سابقة كانت تجمع بين الكيخيا وطلعت باقة، إلا أن هذه الرابطة الجديدة جعلت الاثنين أكثر قدرة على التفاهم، وسهلت لطلعت بك التصرف بكل شيء له علاقة بالأمور العسكرية للحملة، وقد تنازل الكيخيا عن هذه المهام بطيب خاطر، وإن ظلت له الكلمة الأساسية أمام الجميع!

ولأن الصيف ثقيل غامر، ووهج الضوء، وهو ينصب مِنْ السماء المكشوفة، يغشي العيون، فقد حول الكيخيا ليله إلى نهار، إذ فِي قسم مِنْ هذا الليل يتذاكر وضباطه، ويستقبل وجهاء وشيوخ المنطقِة، وما تبقى مِنْ الليل يقضيه

فِي الأكل والسمر، وبعض الأحيان فِي سماع ألوان مِنْ الغناء الريفي الذي يفضله على غناء بغداد، كما قال لطلعت فِي تبرير ذلك. أما القسم الأكبر مِنْ النهار فإنه يمضي وهو نائم، أو متلبث فِي غرفته التي تملؤها رائحة العاقول الرطب، لفرط ما تتدفق المياه على الشبابيك. ولا يبدأ اليوم الجديد إلا بعد غداء يتبارى رستم وجمولي فِي التفنن بإعداده.

هذا النمط مِنْ الحياة إذا كان يروق لطلعت فِي وقت سابق، ربما لأنه لا يجد شيئاً يفعله، خاصة حين كان مبعداً فِي الشمال، فإنه الآن، وفِي مواجهة الحرب والتحدي، ولكي يعود إلى صورته القديمة، فلا بد أن يُهيئ نفسه وقواته لعمل كبير، وأن يحقق نصراً يمكن تحت ظلاله أن يعود إلى بغداد. لذلك فإن إقامته فِي الحلة، إلى جانب الكيخيا، لم تستمر طويلاً، فقد كان مضطراً لتفقد القطعات المنتشرة، وأن يتدبرأمورالتموين والتدريب، وأن يناقش التفاصيل مع القادة الميدانيين، وكان مصمماً قبل أن ينتصف الخريف، على حسم المعركة.

كانت العلاقة مع بغداد، ومع الباشا بالذات، فِي بداية الأمر، تتم عن طريق الكيخيا، لكن أصبحت الضرورة الآن تقضي أن تكون هناك صلة مباشرة. وهكذا أصبحت الرسائل تتوالى وأصبح الموفدون بين طلعت بك وبغداد يجدون بعض الصعوبة فِي معرفة مكانه أوالوصول إليه، بل وأصبح عدد مِنْ ضباطه يستغرب هذه الحركة النشيطة، وهذا التغير الذي طرأ عليه!

قال الباشا لخلف حين عرف أن نادر أفندي امتنع عن دفع كامل المبلغ الذي طلب منه لشراء مستلزمات إضافية للحملة:

-هذا الجراب نادر، ما يتوب، لكن الحق مو عليه، لأن الثلم الأعوج مِنْ الثور الكبير، مِنْ عزرا. فصيح عليه حتى نشوف شنو السالفة ونخصمها وياه.

وقبل أن يغادر خلف لاستدعاء عزرا أفندي تابع الباشا وابتسامة حزينة ترتسم على شفتيه:

- هذا الأثول، نادر أفندي، لا بد يكون به عرق يهودي، لأن مثل هذا الحرص مو شغلة عادة تعودها، هذا شيء يسري بالدم، لكن قبل ما نعاقبه ونلزمه الباب، خلنا نشوف معلمه، عزرا، شنو براسه!

لما مثل عزرا بين يدي الباشا، كان بادي الانشراح، أقرب إلى المرح، وقبل أن يسأله الباشا انطلق فِي الحديث:

ـ أهل بغداد، يا باشا، ما عندهم هالأيام إلا سالفة ساسون، واحد يسر للثاني: عرفت أن ساسون راح يتزوج بنت سلطانة؟ عرفت أن ساسون ترك الأول والتالي وقاعد مقابل سلطانة وبنتها، نصف سكران، وثلاثة أرباع مغروم، وبإيده الدف وكُلّ ساعة يصيح: أوف وأمان!

والباشا الذي سمع أطرافاً مِنْ الأحاديث التي تدور حول ساسون، ولم يشأ أن يسمع التفاصيل، أو أن يتابع ما جرى بعد ذلك، معتبراً الأمر عادياً، ولا يستحق السؤال، يجد أن وزير ماليته شديد الاهتمام بهذا الأمر وسعيد وهو يروي ذلك.

لما لاحظ عزرا أن الباشا استمع إليه لكنه لم يحفل بالأمر، ولم يسأله عن أية تفاصيل إضافية، صمت. أحس أن لدى الباشا هموماً أخرى. فرك يديه مرات عديدة، مثل عادته حين يكون متحسباً، وانتظر.

قال الباشا، بعد أن ترك للصمت مساحة تتيح البدء بحديث جديد:

ـ لا بد مِنْ الشهادة، يا عزرا أفندي، أن الفضل لك أنت وجماعتك، فِي ترتيب الأمور المالية، ولولا حرصكم واهتمامكم يجوز واجهنا مصاعب كبيرة، لكن تعرف أن الحرب تحتاج، والدولة تحتاج، وما نريد بين يوم والثاني نقول لنادر أفندي، وغير نادر أفندي، أعطونا مِنْ مال الله، ما نريد نشحذ...

توقف الباشا قليلاً. أخذ نفساً عميقاً وبدا الهم على قسماته، نظر إلى عزرا نظرة عتاب، وأضاف:

ـ الحرص إذا زاد عن حده، يا عزرا أفندي، ينقلب إلى ضده. يصير تأخير لاشغالنا، وخطر علينا، وهذا ما أريده وما أقبل به...

وارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة مشفقة وهو يُضيف:

- وهذا المسيكين، نادر، نقول له: صير آدمي، افهم وتعلم، إدفع بليا إهانة، بليا دوخة راس، لكن أبد: ما أدفع إلا إذا وافق عزرا أفندي، فاريد منك تفهمه، تقول له شلون يتصرف، وإلا!

- لكن بناء على أوامركم، يا باشا، قلنا له: لا تدفع إلا بعد ما تتأكد، ولازم تكون حريص، وأنتم تعرفون مدى أمانته واستقامته، وتعرفون طمع الناس وشلون ما يشبعون، فإذا اخطأ او قصر فاطلب منكم السماح، يا باشا!

- هذي مو أول نوبة يا عزرا أفندي، وبالأيام الأخيرة زاد عن قبل، وتجاوز حده، فإذا يعجبك اليوم قبل باجر نلزمه الباب، نقول له يا حريص دور ربعك، شوف لك مكان ثاني، لكن لثقتنا به، ولأنه ابن حلال، وأنت تعتمد عليه، ردنا نعطيه فرصة جديدة، وهذي لخاطرك مو لخاطر أحد! ومثلما ترك الباشا للصمت أن يخلق جواً لحديث جديد، فعل عزرا. إذ بعد أن لم يجد رداً مباشراً لإقناع الباشا صمت، وحين امتد الصمت ثقيلاً مديداً، بدأ بعده حديث جديد:

- كنت، يا باشا، انتظر الوقت المناسب لأبحث معكم القضايا المالية...

حاول أن يبتسم قبل أن يواصل فِي نفس الاتجاه، فجاءت ابتسامته فجة، أقرب إلى التكشير، فأضاف ليربط الأمور ببعضها:

- ومثل ما قلتم فخامتكم، نادر مسكين، ومع أنّه يعاند ويتعيقل، لكن بالأخير يدفع، والمسألة أكبر وأخطر مِنْ هذه التصرفات...

تطلع إليه الباشا باهتمام، فقد أحس أن لديه أمراً يريد أن يبلغه به، سأل دون أن يظهر عليه الإنفعال:

ـ خير، عزرا أفندي، وأنت تعرف: ماكو بينا حاجز وبواب، فإذا عندك فد شي قول.

- جاءت أكثر مِنْ رسالة مِنْ اسطنبول، وكلها طلبات ومواعيد، والجماعة اللي اعتمدنا عليهم هناك قالوا: نحن بضيق ما نقدر ندفع، ومن اليوم لازم تدبروا حالكم بنفسكم، ومن الساعة اللي استلمت الرسالة، يا باشا، راسي دايخ، ما أدري شنو اللازم نسويه وشنو اللي نقدر عليه.

أخذ الباشا نفساً عميقاً دل على ما يواجهه مِنْ هموم وتحديات، ولم يتركه عزرا، تابع:

ـ ولو أن جماعتنا، هنا وهنا، يصدقون بمواعيدهم، ويعرفون اللي بذمتهم، لهانت المسألة، ناخذ مِنْ هنا ونعطي لهنا، لكن شكاوي رجال المالية اللي أسمعها مية نوبة باليوم: «ماكو». «ماكو أحد يريد يدفع». وإذا الواحد يريد يدفع يدفع الربع أو الخمس وبشلعان القلب. وكلهم يرددون نفس البستة: لو بعنا اللي فوقانا واللي جوانا ما نقدر نوفي، فنريد مهلة، نريد نقسط، وما أعرف شلون نتصرف وياهم!

وتوالت هزات رأس الباشا، دون أن يتكلم وقد استغل عزرا هذا الصمت ليواصل:

- وبعدين الحرب، يا باشا، ومصاريفها، وانقطاع الولايات الجنوبية، لان ماكو هناك ابن حلال يقول: لكم بذمتي هالقد، وهذا اللي أقدرعليه هسه، وبينا الحساب.

- والرأي؟

- وضعنا، يا باشا، مخوطر، وإذا بعدنا واقفين اليوم، ما يندرى شنو اللي يحصل ثاني يوم..

وتغيرت لهجة عزرا:

- ويجوز هذا الأثول، نادر، بعد ما قريت على رأسه الدرس مية نوبة، ولأن ما دخل صندوقه بارة، خاف وتحسب، وبدل ما يشد حزامه هناك سود وجهنا وياكم يا باشا، وصار ما يعرف إلا قولة: ماكو!

ولأن الباشا ليس بالبساطة التي يمكن أن يخدع، أو يفوته ما يرد إلى الخزينة، وما يصرف، فقد ردَّ على عزرا، بعد أن تنحنح وعدل جلسته:

ـ مسألة اسطنبول، يا عزرا، اتركها، أنا أتفاهم ويا اسطنبول. واذا الحرب يندفع عليها اليوم، فتعوض ثاني يوم. ولخاطرك راح أمدد فترة بناء السراي الجديدة، راح أخليها بدل سنتين ثلاث سنين. لكن بعد الساعة، وبدءاً مِنْ هذا اليوم، كُلّ أمر صرف مِنْ الديوان، عليه الختم والتوقيع ينصرف دون تأخير، دون سؤال، وهذا الكلام تبلغه لكل مِنْ يلزم، وما أعيده نوبة ثانية!

بهذا الإتفاق شعر كُلّ واحد مِنْ الأثنين أنّه انتزع مكسباً مِنْ الآخر.

ونادر افندي الذي تلقى تعليمات واضحة مِنْ عزرا، قبل أن يغادر السراي، وبحضور خلف، قال والدموع تنسكب مِنْ عينيه دون أن يقوى على منعها:

ـ إذا ظلت الحال هالشكل، راح نكدي، يا عزرا افندي؟

ـ ما عليك يا أبو يقظان، إنت ادفع وآني المسؤول!

- واذا خلصت الفلوس؟

- بجهنم، قابل نحن نقدر نحيي الموتى؟ قابل الواحد منا يقدر يصير مثل نبي الله موسى، يقول للعصا تغيري فإذا هي حية تسعى؟

- أبوس ايدك، يا عزرا أفندي، أريد أستعفي، حتى لا عين تشوف ولا قلب يحزن، لأني ما أقدر أشوف الفلوس تحترق، وآني أباوع.

ابتسم عزرا، ثم تحولت الابتسامة إلى ضحكة صغيرة أقرب إلى القهقهة المصطنعة، وتابع:

- يا أبو يقظان.. انت بحنيتك على الفلوس، وبعيونك اللي تشبه عيون الصقر، تقدر تمنع اللقامة والطامعين، وتقدر تباوع الآغا والشيخ، وإذا ما قال لسانك، عينك تقول: سم! وبعدين أن تكون أنت أحسن ما يجي واحد غيرك عينه مالحة وما يعرف الحلال مِنْ الحرام، ويدمر الأول والتالي. فرأيي تبقى، ورأيي تصرف، وتسكت، لأن هذا قدرنا، وهذا اللي الله كتبه علينا!

- لخاطرك يا عزرا أفندي، أوافق وأقبل، لكن الفلس اللي ينصرف بغير مكانه، بدون استحقاقه، راح أنفسه، يمكن الله يحرقه قبل ما يوصل لجيب ابن الحرام!

ـ عفارم، يا أبو يقظان، وهذا اللي أريده منك.

لقد جرى هذا الحوار بين الاثنين، وخلف يتابع، دون أن يتدخل لكن بدا له أن لوثة أصابت الإثنين، أو أنهما يمثلان دوراً.

كان خلف ينوي نقل ما دار بين عزرا ونادر إلى الباشا، لكن حين حدث فيروز، ردَّ عليه بمرح:

. خليك يا معود، لأن واحدهم أنجس مِنْ الثاني، مثل بركان الجامع!

وبعد قليل، وقد تغيرت لهجته:

- والباشا عنده كُلّ هم أكبر مِنْ كُلّ سوالفهم.

وخلال أسابيع، وصلت لطلعت باقة معظم الحاجات التي طلبها، وأصبح الهجوم الكبير وشيكاً. ولأن الكيخيا لا بد أن يفعل شيئاً كبيراً، أو ربما خارقاً، لتحقيق النصر، فقد بعث وراء صديقه عثمان الهاجري.

كان المطلوب مِنْ عثمان أن يفاوض ويتوسط بين الكيخيا ومجموعة مِنْ شيوخ القبائل المتمردة، فقد بلغ الكيخيا أن عدداً مِنْ الشيوخ الذين هبوا لمساندة القبائل الثائرة، ولأن الحرب طالت أو لن تقع، ندموا لتسرعهم، وأنهم مستعدون الآن لاعلان الطاعة، والعودة مِنْ حيث أتوا، شرط أن تعفو الحكومة عنهم، وأن لا تطالبهم بشيء. ورغم أن الكيخيا أرسل لهم أكثر مِنْ رسول إلا أن الريبة لم تزايلهم، وظلوا مترددين. وحين عرف الكيخيا أن بين هؤلاء وعثمان الهاجري علاقة عمل وصداقة بعث وراءه ليكون المفاوض والوسيط.

بعد مفاوضات استمرت أسابيع وكانت مضنية، وقد تنقل الهاجري بين الطرفين عدة مرات، وأبدى استعداده أن يتبرع بمائة رأس مِنْ الجمال ثمناً لهذا الصلح، تم الإتفاق أن يأتي وفد مِنْ هؤلاء الشيوخ لمقر الكيخيا لإعلان الندم ثم الطاعة، وبعد ذلك يعلن الكيخيا العفو وتعود الأمور إلى سابق عهدها.

تم الاتفاق وجاء الوفد، وكان عثمان الهاجري فِي قمة الفرح وهو يستقبل الشيوخ على مشارف الحلة، ومعه عدد مِنْ الضباط ورجال الكيخيا. ما أن حل الوفد فِي معسكر الرحبة، حيث كان الكيخيا فِي انتظارهم، حتى تغير فجأة كُلّ شيء، إذ أمر الكيخيا بالقبض على هؤلاء الشيوخ وتقييدهم، ثم جعلهم وسط مجموعة مِنْ جنده، وأخذ الجند يهزؤون بهم ويشتمونهم، ولم يترددوا بضرب عدد منهم.

كان الهاجري لا يصدق ما ترى عيناه، كان يصرخ ويشتم ويبكي، وكان يريد أن يصل إلى الكيخيا، لكن رجال الكيخيا حالوا بينه وبين الوصول، ثم أخذوه عنوة إلى مكان آخر. وقبل أن ينقضي ذلك اليوم، كانت قافلة تضم هؤلاء الشيوخ فِي طريقها إلى بغداد. وبعد بضعة أيام سمح للهاجري أن يغادر المعسكر. كان فِي حالة يرثى لها، إذ بدا ذاهلاً منفوش الشعر، بعد أن رمى

عقاله لحظة القبض على الرهائن، وأقسم أن لا يضعه على رأسه مرة أخرى، ما لم ترد كرامة هؤلاء الذين أهينوا بسببه.

قال أهل صوب الكرخ، وقال الناس فِي قهوة الشط، أن أحداً لم يعرف الهاجري حين عاد. تحول إلى شبح لفرط النحول، وأصبح يهذي ولا يكف عن الشتيمة. كان يشتم الوالي والكيخيا، وكان يشتم نفسه أكثر مِنْ الجميع، لأنه قبل، لبلاهته، القيام بهذه المهمة القذرة. وكانت الكلمة التي لا يمل مِنْ تردادها: تخسا يا هاجري، عساك ما تلقى قبر يحويك، ولا صدر يلفيك، لأن وجهك وجه النحس، وحملت العار لولد الولد.

حزن الكثيرون فِي قهوة الشط لما رأوا عثمان الهاجري هكذا، خاصة وأنه كان يمد المساعدة لمعدومي الحال. وقالوا: مجنون مِنْ يصدق الحكومة أو يثق بها، ومجنون أكثر مِنْ يقبل أن يتوسط بينها وبين أعدائها.

ولأن الكثيرين فِي صوب الكرخ كان لهم أبناء فِي الحملة فقد تزايدت مخاوفهم «لأن البدو يفقدون عقولهم تماماً إذا أحسوا أو عرفوا أنهم تعرضوا للغدر، وعند ذاك يمكن أن يفعلوا أيّ شيء».

قال الأسطة عواد لما بلغت الأمور هذا الحد:

- هذي، يا جماعة، شغلة ما تتسوى، ولا صارت مِنْ قبل: دخيل يجيك، لا بيده سلاح، ولا وجهه عابس، وبدل ما تتلقاه بالهلا والمرحبا، تغدره؟ تطيح بيه؟ هذي لا الله يقبلها ولا العبد؟

قال سيفو، وكان غاضباً:

- هذي ولية مخانيث، هذي ما يسويها إلا واحد ماعنده شرف أو ناموس!

- والهاجري.. شنو علاقته، سأل الاسطة اسماعيل، ما تفهموني يا جماعة الخير؟

- يا غافل الك الله، ردَّ الاسطة عواد، الرجال قاعد بسوق حماده يبيع ويشتري، ديوانه مفتوح ليل نهار، وكُلّ الناس تحبه وتريده، والله بسماواته راضي عنه وفاتح عليه، وماكو أحد محتاج، ماكو أحد مديون، إلا: خذ ابني، واذا تريد بعد، قول. وبعدها هالشكل يتسوى بيه؟ له له له، يا غيرة الدنيا!

قال الحاج شبلي:

- الله أعلم أن الباشا ما يقبل هيج دقة، ولا بد أنها صارت دون علمه، دون موافقته!

ـ لا تشد إيدك زايد بالباشا، قال سيفو، لأن والينا بس يشاور مِنْ بعيد، ويترك التنفيذ لغيره!

ردَّ الحاج شبلي وهو ينهض:

ـ ماكو أمان بالدنيا يا أبو فلاح، وكُلّ شيء يصير. وهسه مِنْ رخصتكم، راح أدهدى على قهوة الكمرك حتى أسمع الناس هناك شيسولفون، لأن الرأيين أحسن مِنْ رأي واحد، يا جماعة الخير!

أما فِي قهوة مراد، فلا يعرف كيف او مِنْ نشر أخباراً أن عثمان الهاجري هو الذي استدرج الشيوخ. أكثر مِنْ ذلك، قيل أن الكيخيا لم يطلب منه المجيء، وإنما تبرع بنفسه أن يقوم بهذه الوساطة، مع أنّه حُذر، وقيل مُدد، لكن لديون له على بعض الشيوخ، وبرغبة الايقاع بهم، فقد ادعى الوساطة بينهم وبين الكيخيا، وهكذا سلمهم، ولن يمر بعض الوقت إلا ويستلم ديونه، وفوقها إكراميات مِنْ الكيخيا، وربما مِنْ الباشا أيضاً! وتسربت أخبار، تزايدت مع الوقت، أن خلافاً كبيراً وقع بين الكيخيا وطلعت باقة، لأن القبائل التي كانت غير مشتركة فِي التمرد، وكانت تراقب الطرفين، ما إن وصلت إلى علمها أخبار «دقة الغدر» كما أصبح يطلق على هذه الواقعة، حتى ثارت الدماء فِي العروق، وأعلنت أكثرية القبائل فِي الوسط والجنوب، وقيل فِي أماكن أخرى أيضاً، عصيانها، وبدأ الشعراء يدورون مِنْ مكان إلى آخر منددين بما حصل، وداعين إلى الانتقام.

وانتشرت أخبار مِنْ السراي أن طلعت باقة وصل إلى بغداد، دون علم الكيخيا، وقابل الباشا عدة مرات. أما أخبار ما دار بينهما فقد تضاربت إلى أقصى حد. قيل أن طلعت باقة طلب إعفاءه مِنْ القيادة، وقيل أنّه طلب إطلاق سراح الشيوخ بأسرع وقت، مع استرضائهم وتقديم الهدايا لهم.

وقيل أن طلعت بك طلب استدعاء الكيخيا إلى بغداد، إذا تعذرت إقالته، لأنه بفعلته تلك عقد الأمور، وحشد أعداء الوالي، الأمر الذي لا يفعله إلا خائن.

وانتشرت أخبار أيضاً أن الوالي وعد طلعت بأمور كثيرة، لكن طلب منه أن يصمت الآن وأن ينضبط. أما محاسبة المخطئين والمسيئين فسوف تتم بعد انتهاء الحملة، كما فوضه بصلاحيات إضافية واتخاذ مايراه مناسباً مِنْ الاجراءات دون الرجوع إلى الكيخيا. ولتأكيد رضاه عنه أنعم عليه بخلعة وبواحد مِنْ خيوله الممتازة. وقيل أنّه رافقه فِي السفر إلى المحمودية وهناك ودعه. أما عن الرهائن فأكد الباشا أنهم ضيوفه، وقد التقى بهم أكثر مِنْ مرة، وهم أحرار طلقاء، لكن رجاهم البقاء فِي بغداد ريثما يزول الغضب وتصفى النفوس، ولهم بعد ذلك أن يقرروا البقاء أو الرحيل.

إنها أخبار يتم تداولها فِي المقاهي وفِي السوق التجاري، ولا يعرف مقدار الصحة فيها، كما أنها تتغير مِنْ قهوة لأخرى، بين يوم وثانِ، يحصل ذلك دون أن يُعرف كيف أو مِنْ.

عثمان الهاجري الذي أصابه الغم، وأصبح أقرب إلى اللوثة، هجر أعماله كلها، وتفرغ لمكاتبة اسطنبول. كتب إلى السلطان، وكتب إلى الباب العالي، ولشيخ الاسلام، وما كان يمر يوم جديد إلا ويكتشف أن هناك مِنْ يجب ان يطلعهم على ما حصل، ويبدأ بإملاء الرسائل على كاتبه أحمد الرضوان.

«اكتب وجود يا أحمد، اكتب مِنْ كُلّ قلبك، قول الأول والتالي، وانت تعرف كُلّ شيء، وما أريد أوصيك. اكتب وقول: ابن الحرام يحيى، كيخيا باشا بغداد، دز علينا مرسال، وكان يوم خميس، منتصف جمادي الآخرة، وقال لنا: مِنْ كُلّ بد ولازم البك يريدك، سألنا منو البك؟ قال يحيى بك، الكيخيا. قلنا خير؟ قال ما على الرسول إلا البلاغ. وتركنا شغلنا كله وتوجهنا، وبعده صار اللي صار، وانت، يا أحمد، تعرف كُلّ شيء، فاكتب وجود، ولا تنس الآيات والأحاديث، وإذا لقيت أشعار توالم وبمكانها فاكتبها ولا تخاف، لأن الشاة ما يهمها السلخ بعد الذبح. ومثل ما قلت لك، يا أحمد اكتب وجود، حتى اللي له قلب يحن، واللي عنده ضمير يون، وتعرف اسطنبول، شنو اللي صاير بالدنيا. اكتب يا أحمد، ولا تخاف».

ويبعث الرسائل إلى اسطنبول مع التاتار وينتظر.

قال عبد الله غبيشان فِي قهوة الشط:

- ماكو مثلك، يا ابو نجم، يمون على الشيخ عثمان، ونصيحة أخ الأخوه يلزم تقول له: الفلوس اللي يحصلها التاتار منه، حتى يوصلوا مكاتيبه لاسطنبول، ترى يحصلون على مثلها أو أكثر لأن اسطنبولهم صارت السراي، وهناك يسلمون الرسائل لخلف بيد ويحصلون عليها باليد الثانية، فلا يتعب روحه!

والاسطة عواد الذي فتح عينيه دهشة لما يسمع، خاصة وأنه يسمعه مِنْ عبد الله غبيشان، الذي لا يخفي محبته للوالي، ومنذ وقت طويل، فقد ردَّ وخرجت كلماته متفرقة:

- كلامك، يا عبد الله، قيل عن قال، أم له أساس؟

ـ ما جنت اقول الكلام اللي قلته، يا ابو نجم، لولا «دقة الغدره»، هذي جرحت قلبي مِنْ جوا، وسوتني مثل المجنون، خاصة وأن المغدور الشيخ عثمان...

يستريح قليلاً، يهز رأسه اسفاً ويضيف:

- لولا أن أبو محسن، الشيخ عثمان، غالي، ومن جماعتنا، لا أتدخل، لكن العوجا، يا أبو نجم، ما ينسكت عليها، وهذا الكيخيا، مشعول الصفحة، كان الواحد يحسب أن البزون ياكل عشاء: يبين عليه فقير، مسكين، لكن طلع ذيب، أنجس مِنْ ذيب، فالله يستر!

قال الاسطة اسماعيل الذي وصل للتو، وسمع ما يقال عن الكيخيا:

ـ وقال لي اسطة غالب، مزين السراي، أن الكيخيا يشلع قلبه وقت الزيان: الحاجب اسطة، أريده مثل القلم، وهذي الشعرة على الآذان شيلها، لانها تشوك الخاتون؛ والشارب، ما أريد أوصيك غلوبي، أريدك ترجعني شاب ابن عشرين، تسمعني زين اسطه؟ وكُلّ ما يقول له غالب عوافي، يرد عليه ويقول: وهمين هالشعرة.. وهالشعرة، وبعد كُلّ هالتعب لا إكرامية ولا حامض حلو، ينفض روحه مثل الديك، ويقول له: حاسب نادر أفندي!

وظلت القصص والحوادث تتوالى، وظل رواد المقاهي يتابعون ويتساءلون. وفِي كُلّ يوم جديد تسمع قصة جديدة، إذا لم تكن عن عثمان الهاجري، فعن أحمد الرضوان الذي كتب رسالة تضمنت قصيدةً مِنْ مائة بيت، وكلها تتناول الخديعة والغدر ودورات الفلك. وقيل أن تهديداً وصل إليه بعد هذه الرسالة، لكن الهاجري حمل القصيدة ودار على مقاهي بغداد، وقال لهم، قبل أن ينشد طالب شرف الدين القصيدة: إسمعوا يا أهل بغداد إلى أيّ درك وصلتم، مع أن هذه القصيدة نظمها شاعر أعمى قبل مئات السنين! وقد أكد اثنان مِنْ مدرسي اللغة فِي مدرسة الإمام الأعظم أن الأبيات الأولى وحدها للشاعر القديم، اما ما تلاها مِنْ الأبيات فإنها لطالب شرف الدين، لكن خوفه مِنْ الانتقام نسبها لذلك الشاعر!

وبغداد التي ظلت تتسقط أخبار المنطقة الوسطى، وما قد يحصل فيها، خوفاً على الأبناء الذين جندوا فِي الحملة، سمعت أن طلعت باقة، زحف بقواته قبل نهاية رجب، واخترق قوات البدو، لكن البدو كانوا أسرع منه فِي الانسحاب، وما عدا بعض المعارك المتفرقة، وقد هزم خلالها البدو، فإن الهدف الأساسي للمعركة، والذي أذيع فِي وقت لاحق، هو القبض على قاسم الشاوي، وصادق ابن سليمان الكبير، فإن الاثنين قد فرا قبل بدء المعركة الأخيرة، انحدرا إلى الجنوب، ولا يعرف ما إذا دخلا إلى الأهوار، أم سارا مع النهر نحو أقصى الجنوب ليلتحقا بقبيلة لام، هذه القبيلة التي لا يعرف إن كانت ضمن ولاية الباشا أم أنها ضده ولا تعترف به.

ومع ذلك، فقد رجع الكيخيا إلى بغداد منتصراً، بعد أن وصل إلى أطراف الاهوار، وهزم القبائل. وقد أقيم احتفال مهيب للعائدين، وأنعم على الكيخيا بالخلعة والنيشان، وظلت الوفود تتوالى إلى السراي لأيام عديدة، للتهنئة بالنصر. وقيل أن الكيخيا ظل يستقبل المهنئين طوال شهر شعبان، وقد أقام عدة ولائم، ولم يعرف إن كانت احتفالاً بالنصر وحده أم اختلطت بمناسبات دينية.

الباشا كان مسروراً بالنتائج، وأكد فِي الاحتفال الكبير الذي أقامه فِي منتصف شعبان، إن الله مِنْ بهذا النصر الكبير، وأن الولاية مِنْ أقصاها إلى

أقصاها تعيش الآن فترة مِنْ أزهى فتراتها، وأن الآتي سيكون أعظم، وسوف يرى الناس بأعينهم!

ورغم أن الكثيرين، ولأسباب مختلفة، سمعوا ما قيل، وهزوا رؤوسهم بالموافقة، وببعض الرضى، فإن عثمان الهاجري لم يتوقف عن الشتيمة والتعريض، وما أن يتذكر، أو يأتي مِنْ يذكره، بضرورة كتابة رسالة للاحتجاج على تصرفات الكيخيا، حتى يأمر كاتبه، أحمد الرضوان، أن يفعل ذلك.

وزينب كوشان، التي جاء مِنْ قال لها أن قضيتها كلها أحيلت إلى الكيخيا، ووحده الذي سيبت بها، ولأنها كانت تدفع عن السراي إلى أن يعود الكيخيا، فقد أصبحت شكواها علنية وتعرضها أمام الكثيرين، طالبة المساعدة.

أما المعونة التي كانت تتلقاها شهرياً مِنْ الشيخ عثمان الهاجري طوال الفترات الماضية، فقد اضطربت، وانقطعت خلال بعض الشهور، لأن الشيخ مشغول بأمور هامة. ولولا بعض الخيرين لجاعت وتعرضت للأذى.

قالت وهي ترى موكب النصر، وكان على رأسه الكيخيا:

- الله أعلم أنها كلها قشمرة، لأن اللي يزعل أبو محسن، ما يرضي أحد...

وبعد قليل وهي ترفع يديها للسماء:

ـ إنت يا أبو الخيمة الزرقا، انت اللي تعرف كُلّ شي، والقادر على كُلّ شي، لا تخلي غريمي حاكمي، وما عندي أكثر مِنْ هذا أقوله!

ليس المهم حجم الانتصار الذي تم إحرازه فِي الفرات الأوسط، كان الأكثر أهمية لداود باشا كيفية إبراز هذا الانتصار، وإقناع الناس أنّه تحقق فعلاً، ثم استثماره بعد أن يصبح جزءاً مِنْ «الحقائق» الثابتة.

صحيح أن البدو انكفؤوا إلى الجنوب، إلى الأهوار بشكل خاص، بعد أن لحقت بهم خسائر كبيرة، والذين لم يستطيعوا الهروب، أو فضلوا البقاء فِي أماكنهم، أو لم يجدوا أماكن غيرها، اضطروا لإعلان الخضوع والطاعة، ودفعوا، مرغمين، ما استحق عليهم مِنْ مستحقات للحكومة، إضافة إلى الغرامات، لكن هذا كله تم دون قناعة، بل ودون اعتراف بأن الأمور انتهت بهذا الشكل، وظلوا ينتظرون الوقت المناسب ليعلنوا ذلك، ليقولوه بطريقتهم الخاصة، والتي يفهمها باشا بغداد أيضاً.

ورغم أن هدف الحملة، منذ أن تحركت، القبض على قاسم الشاوي وصادق أفندي، لأنهما رأس الفتنة، ولأنهما الخصمان الحقيقيان للباشا، وعن طريقهما يأتي الخطر، وقد نبه داود باشا على كيخياه، ثم على طلعت باقة، أن يبذلا أقصى الجهود لا مِنْ أجل إلحاق الهزيمة بهما وبالذين يناصرونهما فقط، بل الأكثر أهمية أن يقبضا عليهما أحياء، وأن يُجلبا إلى بغداد، وفِي بغداد يتم الحساب، فالباشا يعرف كيف ينتقم، وكيف يجعلهما أمثولة للأحياء والموتى، وعبرة لكل مِنْ تسول له نفسه أن يتمرد أو يقف فِي وجه الحكومة.

هذا كان الهدف، وهكذا رسمت الخطة. لكن الكيخيا، بعد «دقة الغدر» أفسد كُلّ شيء. لذلك وقعت المعارك الأخيرة قبل أوانها، وأفلت الخصمان الأساسيان، بحيث بدت أو أصبحت القطعات العسكرية تتحرك فِي أرض خاوية، احترقت أجزاء كبيرة منها، وما تبقى مِنْ القبائل، وبعد أن تجرب حظها فِي المقاومة يوماً أو يومين، تستسلم.

ولم يتأخر الباشا فِي الإيعاز إلى خلف أن يأتيه بشاعر السراي:

الصفوي.

قال الصفوي لعدد مِنْ الشعراء، بعد أن التقى بالباشا، وامتد بينهما اللقاء إلى ساعة متأخرة، قال، وكان لا يزال منفعلاً:

- ما أخفي عليكم، يا جماعة الخير، دخلت عليه شكل وخرجت مِنْ عنده شكل ثاني..

تعمد أن يبدأ بهذه الطريقة المثيرة، وحين تعلقت به العيون تحثه على أن يتابع، لم يتأخر، وإن جاءت نبرة الصوت مختلفة:

ـ نحن الشعراء طايح حظنا، لأنا ما مقدرين قيمة حالنا؛ نحن مدمرين أنفسنا بالقيل والقال، وتاركين القضايا الكبيرة التي تستحق منا أن نفني حياتنا بيها...

بدا كلامه غير مألوف، بل أقرب إلى الغرابة. فالانفعال يسيطر عليه، وحركاته عصبية، أما وهو ينقل عينيه بين الوجوه التي تراقبه وتنتظره، فكان حائراً كيف ينقل إليهم، ليس فقط ما سمعه مِنْ الباشا، وما توصل إليه مِنْ قناعة، بل يريد أن ينقل أيضاً المشاعر التي تهزه هزاً قوياً.

تابع بعد أن أخذ نفساً عميقاً:

- ما خلينا قصيدة مِنْ عيون الشعر إلا وتذكرناها؛ تذكرنا الأبيات التي اخترقت الأزمان والأكوان ووصلت إلينا، وبعد أن تعيش معنا عمرنا كله سوف تنتقل إلى الأجيال التي تأتي بعدنا... ومنها إلى الأجيال التي تليها، وتبقى كذلك إلى آخر الزمان!

كلام جميل، يدل أن الباشا ليس والياً فقط، بل وذواقة للشعر، ومن المقدرين لأهميته. لكن، مع ذلك، لم يصلوا بعد إلى ما يقصده شاعرهم الفحل: الصفوي. ولئلا يفسدوا عليه انفعالاته تركوه لكي يواصل دون أن يقاطعوه.

- قال لي الباشا: ما هي الحياة دون الشعر؟ ماذا يبقى مِنْ حياة الإنسان غير تلك الجواهر اللامعة مِنْ الذكر الطيب، والأقوال التي تصبح حكماً على ألسنة الناس؟ وقال أيضاً: الحياة دون الشعر لا تستحق الذكر أو حتى أن تعاش!

تهللت أسارير الذين يسمعون، وقد شعر كُلّ واحد منهم أن ما قاله الباشا رسالة شخصية مباشرة موجهة إليه. وحين اطمئن الصفوي أن جزءاً مِنْ الرسالة قد وصل، تابع بانفعال أقل:

ـ مِنْ كان سيتذكر المعارك لولا الشعراء؟ هذا ما سألني عنه الباشا.

وسأل: ماذا كنا سنعرف عن سيف الدولة لولا المتنبي؟ وسأل.. وسأل، بحيث حرت جواباً، لأن الأمثلة التي أتى بها مِنْ القوة والوضوح إلى درجة شعرت بالفخر لأني ولدت شاعراً!

وتغير الجو حين أصبح كُلّ اثنين أو ثلاثة يتبادلون كلمات الإطراء والإعجاب حول ما قاله الباشا. ولأن الصفوي كان فِي حالة مِنْ النشوة، ويريد أن يلتذ

بما سمعه مِنْ الباشا وما يسمعه الآن، فقد ترك لهذه التعليقات أن تتوالى قبل أن يتابع، بعد أن مشد لحيته وشاربيه، وكأنه تذكر أشياء كثيرة:

- واللي يزيد الإعجاب بالباشا: المعرفة والتواضع...

تطلع إلى الوجوه، كأنه يبحث عن أحد، وتابع:

. واللي كانوا حاضرين بليلة الباجة، فِي أول لقاء بالباشا، يتذكرون شلون احمر وجهه عندما سئل عن أبيات رواها مِنْ هو قائلها. قال، لتواضعه: ما اتذكر القائل، مع إنا كلنا عرفنا انه هو الشاعر.. لكن ما اعترف.. وما اعترف، وهذا يدل على تواضعه!

استراح الصفوي قليلاً. اهتز رأسه خلال ذلك مرات عديدة، ثم أضاف:

- أما معرفته بالشعر العربي والفارسي، فهذي ما ينراد لها شهادة، وما بها إن!

وحين سأل مصطفى حب الله، وهو شويعر يرافق الشعراء، ويقرزم بين فترة وأخرى عدداً مِنْ الأبيات، عن معرفة الباشا بالشعر التركي، ردَّ عليه الصفوي بطريقة تهكمية.

ـ ليش عند الأتراك أكو شعر... مولانا؟

ولم يتركه يجيب، تابع:

- أكو عندهم كم قرادية وكم بستة، هذا كُلّ رأس مالهم...

ولكي لا يفهم كلامه خطأ، أو يُحمل على غير ما يريد، أضاف وقد تغير صوته:

- أما بالغناء، والشهادة لله، فغناهم برنجي، غناهم به شجن، ويطلع مِنْ جوا الصدر، والواحد حتى لو ما افتهم الكلمات يحس بها ويحبها! ولئلا يتفرع النقاش، وتضيع الغاية مِنْ هذا اللقاء، قال الصفوي بعد أن تنحنح:

ـ المهم؛ وحتى الواحد يبري ضميره، قبل ما أتوادع مع الباشا سألني:

مِنْ فترة قال لي خلف إن شيطان الشعر يحوم حواليك، ولك نية لنظم قصيدة تسير بذكرها الركبان، فوين وصلت وشنو اللي صار بيها؟ وما تعرفوا يا جماعة شقد خجلت، لأني ما أدري شلون أجاوبه، شقول. لكن باللحظة الأخيرة، الله فتح علي، وقلت: لعيونك يا باشا، ما يروح يوم ويجي الثاني إلا ويأتيك الخبر...

استراح الصفوي قليلاً. بدا حزيناً مثقل الضمير، وقد تذكر الكلمات الأخيرة التي قالها الباشا. تطلع إلى الوجوه التي تتابعه وهدر صوته:

.-وأكثرِ ما أثرِ بي، يا جماعة الخيرِ، الكلمات اللي قالها قبل ما أمِشي:

قال: أعرف أن الشعر واهس، وأنه يجي وحده، لكن على قدر أهل العزم تأتي العزائم، فأتركك يا شاعر الفراتين لوجدانك، ولشيطان الشعر الذي طالما دوخته حتى أسلس قياده لك. أما الكلمة الأخيرة اللي قالها، والابتسامة على وجهه شبر، فهي: لا تنس تسلم لي على كُلّ واحد مِنْ الربع، واحداً... واحداً! وخلال أسابيع قليلة امتلأت بغداد برنين الكلمات. لم تبق ساحة، لم تبق قهوة، ولم يبق صحن جامع مِنْ الجوامع الكبيرة، إلا وانعقدت الاحتفالات، وتوالى الشعراء، وضجت الأجواء بأبيات الشعر مِنْ كُلّ الأوزان.

ولأن جزءاً مِنْ هذه الاحتفالات أقيم فِي شهر رمضان، وقد اختلطت تلك الليالي بالدعاء والشعر معاً، فقد تحولت إلى مهرجانات لا تخلو مِنْ المنافسة والتحدي، كما أصبحت فرصة للسهر والسمر والذكريات، وأخذت تستقطب الناس الذين يأتون إليها مِنْ أمكنة بعيدة، لتبادل الزيارات، لتبادل الأخبار، وأيضاً لتمضية الوقت، كي يذهبوا بعد ذلك لتناول السحور فِي بيوتهم، ثم ليستيقظوا متأخرين فِي اليوم التالي!

ذنون الذي راق له أن يتجول فِي هذه الأماسي، انتهت جولته أكثر مِنْ مرة فِي قهوة الشط. وإذا كان الناس فِي صوب الرصافة قد أبدوا صنوفاً مِنْ البراعة والجدة فِي الاحتفالات التي كانوا يقيمونها، وشارك فِي معظمها الجنود العائدون، والكثيرون مِنْ العاملين فِي السراي، وقد حضر عدداً منها الكيخيا وبعض الضباط، فإن الحال كان مختلفاً فِي صوب الكرخ، إذ غلب على هذه الاحتفالات الطابع الديني، وكانت تقتصر على الأدعية، وتتسم بالجدية، عدا مرة أقيم احتفال شعري فِي قهوة سبع. أما الاحتفال الذي كان يهيأ فِي قهوة الشط، فقد صادف أن مات والد القارىء لسيرة عنترة فِي نفس اليوم، مما أدى إلى إلغاء الاحتفال. وأكد الكثيرون أن حزناً خيم على القهوة طوال تلك الليلة!

حين انتهت جولات ذنون فِي قهوة الشط، وحين رأى الكثيرين يقابلون الراوي، الذي كان يحدثهم عن الزير سالم بدل عنترة فِي ليلته قبل الأخيرة، قال للذين يلتفون حول الأسطة عواد فِي مدخل القهوة:

ـ كانت بغداد، وراح تظل، صوبين، واحد للمسعدين، والثاني الغيرهم.

- هات، سولف لنا، شكو بذاك الصوب، هكذا سأل الأسطة عواد.

ـ الدنيا هناك مقلوبة يا أبو نجم، وماكو أكثر مِنْ الشعراء، ولو طشيت حمص ما يوقع إلا على روسهم!

ـ الجنازة كبيرة والميت ما ينعرف منين قرعة أبوه!

هكذا قال سيفو، وهو ينهض لكي ينضم إلى الذين يتابعون الراوي، وأضاف وهو يمشي:

ـ مِنْ سوالف اللي جوا قبلنا يمكن نتعلم فد شي؛ أما القراديات اللي تنقال هذي الأيام فنحن عايشين مصايبها وما ينراد أحد يقول لنا عليها!

- صحيح أنهم قالوا مِنْ قبل إن الحرب خدعة، بهذه العبارة بدأ الأسطة إسماعيل، لكن خدعة عن الثانية تفرق؛ والله يوجه له الخير، أبو محسن، لا حامل تفكة ولا شايل سيف، وما له صوج أو ذنب، وأنت، يا كيخيا، بدل ما تندار على اللي يحاربون، على العاصين، ما تجرب سلاحك إلا بهذا الآدمي؟ يا سواد وجهك يا يحيى، وعساك ما تحيا، ولا تشوف يوم أبيض...

وكاد يستمر لولا تدخل الأسطة عواد:

-وحتى هذول اللي قالوا إنهم انتصروا عليهم، وعلى مود هذا النصر رفعوا رايات ودقوا طبول، جماعة فقرا، والله أعلم مسخرين؛ أما قاسم... أما صادق، فما يندرى وين الواحد منهم صار.

وقاطع ذنون:

- ومعنى ذلك، يا أبو نجم، أن الحرب ما انتهت؛ ووالينا مثل الجمل، يصبر، يتحمل، لكنه حقود وأبد ما ينسى، فإذا فلت منه العصفور هذي المرة لا بد يحاول نوبة ثانية وثالثة، ودائما يمني نفسه: يمكن نقدر عليهم هذي النوبة؛ وراح يحضر ويستعد حتى يظفر بيهم، أو تنقلب عليه!

- وحضروا روسكم يا قرعان!

هكذا علق الأسطة إسماعيل، فرد عليه الأسطة عواد بمرح، عله يغير الجو:

- روس القرعان ما تفيدك يا أبو حقي، أنت تريد تلعب المقص، وتجز راس بعد الثاني، حتى تبل فوادك وتحلل خبزتك!

- لو كان غيري مثلي، الكيخيا والوالي وأشباههم، كانت الدنيا بألف خير، يا أبو نجم، لكن مثل ما تشوف عينك! وظلت الأحاديث، كالطاحونة، تدور، حتى إذا انتصف الليل أو كاد، تفرق الناس انتظاراً ليوم جديد، لأخبار جديدة.

ريتش الذي تغير بعد سفرته الأخيرة، أخذ يقر خطواته، لكي يعيد النظر برجاله وخططه، وقد فعل ذلك بتكتم شديد، لئلا تحس به السراي، وتستغل تراجعه وضعفه.

أولى الخطوات التي أقدم عليها، إثر زيارته الأولى للسراي ولقاء الباشا، أن بعث بهدية رمزية، كانت عبارة عن بندقية حربية جديدة، وسيف دمشقي بالغ المضاء والزخرفة، وأرفق بالهدية رسالة يلتمس فيها... «أن يكون لدى الباشا متسع مِنْ الوقت لاستقبال أحد كبار ضباط الأسطول البريطاني، والمتوقع وصوله إلى بغداد فِي بحر الأسبوعين القادمين، والآتي مِنْ الهند، لأن لدى الضابط المذكور ما يقوله للباشا».

أما بعد أن تأخر وصول الضابط، ولأن الاحتفالات بالنصر الذي تحقق فِي الفرات الأوسط قد بدأت، فارتأى ريتش أن مِنْ المناسب تقديم تهانيه بهذه المناسبة، الأمر الذي جعله يوفد مترجمه مِنْ جديد لتحديد الموعد الملائم للطرفين، وللتأكيد، مرة أخرى، أن قدوم الضابط الكبير أصبح وشيكاً.

كان ريتش مضطراً أن يفعل ذلك، رغم مشاعره المتناقضة. فمن ناحية اعتبر فرار قاسم وصادق، وتوجههما إلى قبيلة لام، فِي أقصى الجنوب، هزيمة للباشا، لأن مجرد نجاة هذين الخصمين الخطرين، واللذين يهددان الباشا، مِنْ حيث الكفاءة والشرعية معاً، استمرار للتهديد، ومن شأنه أن يستنزف قوى الحكومة. كما أن استقبال هذين الخصمين مِنْ قبل هذه القبيلة القوية، والبعيدة، والتي كانت إلى وقت قريب لا تحفل كثيراً بالمعارك التي تدور، بمثابة تغير كبير فِي موازين القوى ومراكز التهديد، مما يجعل الباشا مضطراً لاستخدام قوى أكبر وأموالاً أكثر فِي حالة عصيان هذه القبيلة.

مشاعر الفرح بهذه النتيجة، قابلها الإحساس أن الباشا يعزز مواقعه وقواه معركة بعد أخرى، بغض النظر عن حقيقة حجم النصر الذي يدعيه فِي معركة الفرات الأوسط، وأن غياب الآغا لا يغير شيئاً فِي الكفاءات العسكرية. ولعل فِي هذا أول إشارة، أو ربما رسالة، توجه لريتش أن عهداً جديد قد بدأ.

لو تُرك لصفوت قرداغ أن يقرر موعد الزيارة، لما تردد فِي التأجيل إلى ما بعد العيد، كما فعل أو حاول فِي السابق، لكن التعليمات التي تلقاها مِنْ ديوان الباشا كانت واضحة، وتؤكد على تسهيل مثل هذه المقابلات، وأيضاً

التشاور مع الديوان، فيما إذا كانت المواعيد مزدحمة. لذلك حُدد موعد مبكر لأن يستقبل الباشا قنصل ملك بريطانيا.

بعد أن قدم ريتش التهنئة بالنصر الذي تم إحرازه فِي الفرات الأوسط، أكد على أهمية هذا النصر، خاصة بالنسبة للملاحة النهرية، وأن لذلك انعكاسات كبيرة فِي المستقبل. ثم انتقل مباشرة إلى تبرير اختياره للهدية التي أرسلت إلى السراي، إذ أشار إلى أن البندقية الجديدة تتمتع بمزايا تفوق أية بندقية مماثلة، وأن بريطانيا مستعدة لتزويد قوات الوالي بهذا النوع مِنْ السلاح، وربما أسلحة أخرى، وسوف يبحث ضابط الأسطول اقتراحاً أوسع حول التسليح، شرط أن تكون بريطانيا وحدها التي تؤمن السلاح والتدريب عليه.

ولم ينس ريتش أن يتظرف قليلاً وهو يتحدث عن السيف الدمشقي، قال وقد زم عينيه:

-أتذكر، يا فخامة الباشا، أننا قرأنا فِي الكتب المدرسية عن السيوف التي تصنع فِي دمشق، قرأنا عن جودتها وحسن صنعها، وأنها للزينة وللقتال معاً، والآباء هناك يقدمونها لأبنائهم عندما يبلغون مبلغ الرجال، ويجري ذلك فِي احتفالات مهيبة، دلالة الأهمية والاحترام، لما يعنيه هذا السلاح بالنسبة لهم.

توقف قليلاً، والباشا استمع دون تعليق، لكن بدا له أن ضيفه يجامل أو يضمر معنى غير مباشر، لأن مثل هذا الذي يقوله الآن يعرفه، وربما أحسن منه؛ وقد يكون المغزى البعيد لما يقوله تذكيراً بما بين البلدين مِنْ تاريخ ملتبس ومليء بالسخرية السوداء.

بعد هذا الصمت تابع ريتش:

- لم أكن أصدق ما يقال عن هذه السيوف إلا حين مررت بحلب، ورأيت نماذج منها، وقد افترضت أن أجمل هدية يمكن أن تقدم لفخامتكم واحد مِنْ هذه السيوف، وأتمنى أن يكون قد نال رضاكم!

أثنى الباشا بكلمات كبيرة على الهدية؛ وإذا كان قد بدأ بالسيف الدمشقي، وأشار إلى أنّه احتفظ بواحد مِنْ هذه السيوف، حين كان فِي الشمال، وقد أهداه إلى عبيد الله بابان، تعبيراً عن الثقة والود؛ وأن تذكر سعادة القنصل أن يحمل له هذه الهدية مِنْ حلب، فموضع تقدير واعتزاز!

ثم عرج الباشا على الموضوع الأكثر أهمية بالنسبة له: أن تتولى بريطانيا تقديم أنواع حديثة مِنْ الأسلحة، ويقوم ضباطها بالتدريب عليها.

ريتش بالرسالة التي بعث بها، وفيها إشارة إلى الأسلحة والتدريب، ثم وهو يطرح الموضوع مِنْ جديد، لم يكن ميالاً، على الأقل فِي هذه المرحلة، للخوض فِي التفاصِيل، قال فِي محاولة لأن يعطي الأمر مساراً محدداً:

ـ لقد حصلت أثناء إقامتي فِي لندن على الموافقة المبدئية لأن أعرض على فخامتكم الفكرة، أما التفاصيل فقد فُوض نكلسون، المسؤول عن الأسطول البريطاني، ببحثها مع فخامتكم، وأتوقع وصوله قريباً.

الباشا الذي كان متلهفاً لأن يسمع أكثر عن الاقتراح، شعر أن فِي الأمر شيئاً لا يفهمه، أو ربما يكون جديداً. فريتش الذي لم يكن يخفي سلبيته، وربما عداءه تجاهه، وقد تأكد مِنْ ذلك، ولديه أدلة لا تحصى، يبدو، بعد عودته مِنْ هذه السفرة، إنساناً آخر. ماذا حصل، ولماذا تغير؟ قال له الباشا ليخلق جواً مِنْ الثقة:

ـ لقد جربت البندقية التي أرسلتها إليّ، فلم تخب مرة واحدة، إضافة إلى أن وزنها الخفيف يزيد قدرة التحكم بها.

ـ إنها مِنْ أحدث البنادق التي صنعتها المعامل البريطانية، يا باشا، ودخلت الخدمة قبل شهور قليلة فقط، وجاء الثناء عليها مِنْ القوات البرية والأسطول.

- وأعتقد أن مداها أبعد مِنْ البنادق الأخرى.

- وسهلة الفك والتركيب، ما يجعل صيانتها يسيرة، وبإمكان الجنود أن يقوموا بذلك، دون أن تعاد إلى معامل السلاح أو تقتصر على الاختصاصيين.

. هذه مزايا بالغة الأهمية، يا سعادة القنصل، ولا بد أن نتحدث فِي التفاصيل.

ـ أشارككم الرأي، يا فخامة الباشا، وسوف يكون بحث الأمر مع الكابتن نكلسون مفيداً للطرفين!

لم ينس الباشا تحضير هدية ملائمة، وكانت عبارة عن ثلاثة صقور مدربة لصيد الحباري والأرانب.

قال له وهو يقدمها:

- هذا مِنْ الرحيبة، وسُمي فوزان. وهذا مِنْ عقرقوف وسُمي كاسر، أما الثالث، وهو مِنْ طور العراق، واسمه باقي، فانه مِنْ أحب الصقور إليّ، ولا بد أن تتمتع كثيراً أثناء اصطحابها للصيد، ولقد كلفت حامليها ومروضيها أن يكونوا تحت تصرفكم الوقت الذي تحددونه بأنفسكم.

ريتش الذي لم يستطع أن يخفى غبطته لهذه الهدية الثمينة، كان يتوق إلى أن يكون ماهراً فِي الصيد بالصقور أيضاً، بعد أن أصبح مضرب المثل المهارته بصيد البنادق، وبواسطة الكلاب. وإذا كان قد فكر باقتناء بعض الصقور، إلا أن مشاغله الكثيرة، حالت دون الحصول على الصقور الملائمة. الآن، وهو يتلقى هذه الهدية، يشعر أنّه امتلك عدته كلها، وسوف يبرع هنا

وهناك، فِي هذا النوع مِنْ الصيد، وفِي الأنواع الأخرى! وإذا كان الباشا قد شغلته هدية ريتش، مِنْ حيث دلالتها، وما يرمي إليه مِنْ ورائها، فإن أسماء الصقور لفتت نظر ريتش ثم جعلته يتساءل ما إذا كانت هذه رسالة جديدة مِنْ الباشا، لكن لم يتوقف طويلاً عند ذاك، إذ ما دامت الصقور أصبحت ملكه، يمكن أن يطلق عليها الأسماء التي يشاء، وسوف يختار لها أسماء تلائمها أكثر، وقد يعيد فراخها، ذات يوم، للباشا، لكن بأسماء جديدة، وستكون رداً على هذه الرسالة التي أراد داود باشا أن يبلغه بها!

ولم يتأخر الكابتن نكلسون فِي الوصول إلى بغداد. وصل على قطعة بحرية معدة للأنهار والقنوات، وكان برفقته عدد غير قليل مِنْ الضباط والجنود. كانت الباخرة مثل سمكة عملاقة بشكلها وبلونها، ولا تشبه أية مِنْ البواخر التي وصلت مِنْ قبل، بمدافعها المنصوبة فِي المقدمة والمؤخرة، وبهيكلها الحديدي المتين، وبتلك المساحات الرحبة على ظهرها، خاصة حين يقف الجنود، بملابسهم البيضاء، إذ يبدون مثل الطيور، نظراً لتشابههم مِنْ حيث الطول والملامح، وكأنهم نسخة واحدة تكررت عشرات المرات!

كان وصول الباخرة حدثاً استثنائياً لكل مِنْ رآها على طول ضفاف دجلة. أما حين وقفت إلى جانب باخرة الباليوز، وكانت المدافع مصوبة إلى السراي مِنْ ناحية، وإلى صوب الكرخ فِي مواجهة الشواكة، مِنْ ناحية أخرى، فقد أثارت الفزع والتساؤل: «هذي البلية التي لم تر بغداد مثلها.. جاءت بزيارة؟جاءت لتبقى إلى جانب تلك التي سبقتها، باخرة الباليوز؟ وهل هي سفينة أصدقاء أم أعداء؟».

الذين سافروا إلى البصرة، ورأوا البواخر هناك؛ وأولئك الذين وصلوا إلى سواحل المتوسط أو اسطنبول، ورأوا البواخر الكبيرة تقف فِي الموانىء أو تمخر البحر العريض، لم يستغربوا حجم الباخرة التي وصلت، لكنهم استغربوا شكلها ثم الأسلحة المنصوبة عليها، وقد تبرع هؤلاء فِي شرح ووصف ما رأوا، وكيف أن بعض البواخر يصل حجمها إلى حجم المحلة، وتحمل عشرات ومئات مِنْ المسافرين، إضافة إلى الأمتعة، عدا عن الكميات الكبيرة مِنْ القمح والشعير والسكر، ويمكن أن تحمل أيضاً الحيوانات، إذ تنقلها مِنْ مكان إلى آخر، لكن لم يروا عليها هذه الكمية مِنْ الأسلحة.

الباليوز الذي كان مستعداً لهذه الزيارة، كان يريدها استعراضاً للقوة، لكن دون استفزاز. إذ لا بد أن يرى الباشا بنفسه واحدة مِنْ أصغر قطع الأسطول البريطاني التي شاركت فِي هزيمة نابليون، ولا بد مِنْ أن يُوضح له أنّه كان مِنْ المرغوب وصول قطع أكبر، لكن وضع النهر، فِي هذه المرحلة، لا يتيح ذلك، وإن كان فِي وقت لاحق، حين يعمق المجرى، وتعدل بعض الزوايا

سيكون بإمكان بواخر أضخم مِنْ الوصول. ولا بد أن يتطرق البحث إلى الفوائد التي تعود على كلا الطرفين مِنْ جراء اعتماد الطريق النهري فِي النقل والبريد، خاصة إذا تم تعميق المجرى حتى أعالي النهر.

حين يرى الباشا بعينه هذه القطعة البحرية، ويرى مدافعها وتجهيزاتها، سوف يخاف مِنْ ناحية، وسوف يبذل أقصى جهده مِنْ أجل الوصول إلى اتفاق حول التسليح، ولا بد أن يوافق على الكثير مما يعرض عليه!

بمقدار براعة ريتش فِي إخراج الكثير مِنْ القضايا، وإبراز أهميتها، فإن نكلسون الذي قضى سنوات طويلة فِي الهند، لا يقل عنه براعة، وهذا ما تأكد خلال الأسبوعين اللذين قضتهما السفينة فِي بغداد.

فبعد أن استقرت القطعة البحرية خلال اليوم الأول، واستراح بحارتها، جرى استقبال ضخم للبحارة أثناء نزولهم مِنْ السفينة إلى حدائق الباليوز، وقد بذل ريتش أقصى جهده لإظهار النظام والقوة معاً، فِي المظهر، بنوعية الأسلحة التي تقلدها حرسه، بالاستعراض الذي جرى أثناء الاستقبال، وبالأنغام الموسيقية التي صدحت طوال فترة قبل الظهر.

رأي الكثيرون فِي صوب الكرخ، رغم اتساع المسافة عبر النهر، حركة البحارة على ظهر السفينة. كانوا مثل النوارس بالحركات الرشيقة التي بدأوا بها صباحاً، أما عندما صدحت الموسيقى، فقد اندفع الصبية وبينهم بعض الفضوليين لاستطلاع الأمر، خاصة وأنه لم يبق أحد فِي اليوم السابق إلا ورأى «السلعوة»، كما أطلق الحاج شبلي على السفينة، التي صعدت النهر ببطء متوجهة نحو الباليوز.

كانت عادة رجال القنصل أن ينطلقوا بقوة إلى الأسواق، وأن يتوقفوا فِي المقاهي، لإعلان الأخبار الخاصة بالباليوز، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك هذه المرة، ربما نتيجة السياسة الجديدة لريتش، أو لأن حدثاً مِنْ هذا النوع يعلن بنفسه عن نفسه، ولا حاجة لحفز الناس لمشاهدته أو دعوتهم إليه.

قال بعض الصبية إنهم لم يتوقعوا أن يكون حرس الباليوز بهذا الشكل مِنْ التسامح والتساهل، إذ لم يعترضوا طريقهم وهم يصلون إلى الأسوار، ثم وهم يتسلقونها، ليشاهدوا الاستعراض! كما التفت إليهم، أثناء الاستراحات، الحرس والبحارة، ولوحوا لهم بأيديهم وابتسموا، وقد فسر الصبية الابتسامات وتلويحات الأيدي تفسيرات شتى، لم يخل بعضها مِنْ سوء النية! أما الأكبر سناً فإن نظراتهم واهتماماتهم انصبت على الأسلحة والخيول، إذ ميزوا الخيول التي كان يمتطيها القنصل عن الخيول الأخرى؛ وسموا أنواعاً مِنْ الأسلحة، وان اختلفوا على أخرى، كما تراهنوا حول أوزانها والمسافات التي تصل إليها رماياتها، وكيفية التصويب بالأسلحة الكبيرة.

ومع أن النقاش كان يحتد بين الكبار، وتتضاعف المبالغ التي يتراهنون عليها، وتتداخل ادعاءات المعرفة بالأكاذيب، فقد كان الجميع على قناعة أكيدة أن لا أحد سوف يكسب، ولن يخسر أحد، لأن ليس هناك مِنْ يُستشار أو يحكم فِي هذه الخلافات!

ولأنه تحدد اليوم الثالث، بعد وصول السفينة، لاستقبال قائدها فِي السراي، فقد انقضى اليوم التالي للاستعراض الداخلي، وفِي التدريب صباحاً، وفِي تلميع جوانب السفينة، أما فِي الليل فقد أقيم احتفال فِي حدائق الباليوز، تخلله استقبال دعي إليه عدد غير قليل مِنْ كبار الموظفين والوجهاء، وكان ريتش ونكلسون فِي مقدمة المستقبلين للضيوف، وقد تم تبادل الأحاديث الودية، وكان أغلبها يدور عن الطقس والقطعة البحرية، عن سرعتها وعدد الجنود الذين تنقلهم، وأسلحتها وتموينها، وأيضاً حجمها بالمقارنة مع قطع الأسطول الأخرى، وقد قام ريتش بالترجمة بين نكلسون والضيوف الذين كانوا يسألون. ولم تتوقف الفرقة الموسيقية التابعة للباليوز عن العزف، وقدمت ألحاناً لاقت استحسان الكثيرين، خاصة وهي تعزف بعض الألحان المحلية.

فِي اليوم الثالث اتجه موكب القنصل وضيفه إلى السراي.

قال الكثيرون، وكان منهم مِنْ يكره القنصل ويكن له العداء، بل ويعتبره فأل سوء، قالوا إنهم لم يروا فِي حياتهم موكباً على هذا القدر مِنْ المهابة والنظام. ومما زاد فِي إظهار رونقه البحارة بملابسهم البيضاء، وقبعاتهم الزرقاء، وقد كانوا فِي مقدمة الموكب، بعد الفرقة الموسيقية.

كانت الخطوات منتظمة، على وقع الطبول، والنظرات مصوبة باستقامة إلى الأمام، أما الأسلحة اللامعة التي كانوا يتنكبونها فقد بدت جديدة، تثير الإعجاب.

بعد البحارة صف مِنْ الفرسان، وهم مِنْ حراس القنصل، ورغم أن وجوههم مألوفة لكثيرين، إلا إنهم بدوا وكأنهم لم يُروا مِنْ قبل.

ولكي يظهر القنصل وضيفه ملء الأبصار، فقد تُركت مسافة أمتار فارغة؛ وخلافاً لجميع المواكب السابقة، كان القنصل وضيفه وحدهما فِي المقدمة، أما نائبه والمسؤول العسكري ثم طبيب الباليوز فكانوا فِي نسق واحد بعدهما، ثم عدد مِنْ كبار موظفي الباليوز فالحرس.

كان القنصل بملابس عسكرية جميلة، وإن اختلفت عن مرات سابقة، وكان يحاول أن يبقي قدميه مشدودتين فِي الركاب ليرتفع قليلاً، مِنْ أجل أن يظهر بقامة مقاربة لضيفه الضخم، والذي اختار حصاناً يلائم الجسد الكبير الممتلىء.

تعلقت عيون الذين خرجوا مِنْ دكاكينهم، والمارة الذين توقفوا، حين مر الموكب، بالضيف أكثر مِنْ أيّ شخص آخر، إذ بدا لهم، بالإضافة إلى ضخامته، مهيباً وملفتاً للنظر، خاصة بالوجه المستدير المشرب بالحمرة، وبتلك اللحية الكثة، والمشذبة أيضاً، ثم بالملابس البيضاء التي تبرق فِي الشمس هي والأوسمة التي تملأ الصدر. كان، خلافاً للقنصل، ينظر إلى كُلّ شيء يمر به باهتمام وتدقيق، وكانت الابتسامة لا تفارق شفتيه.

قال كثيرون، وهم يرون نكلسون، أنّه يشبه الطبيب النمساوي الذي وصل مِنْ اسطنبول قبل بضع سنوات لمعالجة والي بغداد، عبد الله التوتونجي، حين سقط عن الفرس وانكسر حوضه. كان ذلك الطبيب بضخامته ولحيته وابتسامته حديث بغداد لأيام وأيام، خاصة وأنه كان يروق له أن يتبسط مع الناس، وان يتجول فِي الأسواق ويجلس فِي المقاهي، ولم يمانع فِي مشاركة الكثيرين الطعام والشراب، كما وزع أدوية كثيرة أثناء إقامته، ولم يتوقف الناس عن مراقبته وتقصي كُلّ تفاصيل حياته. ولأنه كان يتمتع بقوة هائلة، وتأكد ذلك مِنْ مشاركته فِي منازلات الكسار ثم حمل الأوزان، فقد قال كثيرون إن مثل هذه البنية قادرة على أن تعيش مئات السنين، وليس مثل أهل هذه البلاد ذوي البنيات الصغيرة والضعيفة. وقال آخرون بتساؤل أقرب إلى العجب: كيف يمكن لامرأة أن تحتمل مثل هذا الجسد؟!

الآن، والناس يرون ضيف القنصل بقامته الطويلة المتينة، تذكروا، مِنْ جديد الطبيب النمساوي، والذي حمل أكثر مِنْ اسم، إذ سمي هانز وهانس، وجاء مِنْ أطلق عليه حنس ثم نمس، وسُمي أيضاً نمش نظراً للنمش فِي وجهه، ثم تحول إلى نماش، إلى أن أصبح اسمه فِي النهاية خماس! ولأنه أحب الناس والمدينة، ولم يتوقف عن التردد على المحلات والأسواق، فقد أحب الاسم الذي أطلق عليه، حتى بلغ الأمر فِي آخر أيام إقامته فِي بغداد، بأن يعرف نفسه لمن لا يعرفه: بخماس!

تذكر الناس خماس وهم يرون هذا الضيف.

قال بعض حراس السراي، إن القنصل حين ترجل عن الحصان، ومشى إلى جانب ضيفه، كان يمشي على رؤوس أصابع رجليه ليبدو أطول قليلاً. وقال آخرون، بدا القنصل مثل طفل يسير إلى جانب أبيه! أما الباشا حين رآه فقد اهتز رأسه دون إرادته، وكأنه شك بضخامة هذه القامة.

خلف الذي كان قريباً وبعيداً بنفس المقدار، ذكر أن الباشا أجل أداء صلاة الظهر، وهذه مِنْ الحالات النادرة، لكي يستكمل المباحثات مع القنصل وضيفه.

أما طلعت باقة الذي شارك فِي هذا اللقاء، فذكر أن القنصل كان يترجم أغلبِ الوقت بين الطرفين، وكانت مشاركته، أو الآراء التي أبداها قليلة،

وغالباً ما كان يتبادل الكلام مع الضيف باللغة الإنكليزية، وقد أسف الباشا أسفاً كبيراً لأنه لم يكن حواليه مِنْ يفهم هذه اللغة، ليعرف ما تم تبادله بين الاثنين مِنْ أحاديث!

قبل أن يجري بحث أمر السلاح، وكان الباشا معنياً بهذا الموضوع، بدا نكلسون حريصاً على أن يستعرض جزءاً مِنْ تاريخ الأسطول البريطاني، باعتبار أنّه جزء مِنْ هذا الأسطول، وكان الموضوع الأثير بالنسبة له: كيف تمت هزيمة نابليون.

قال طلعت باقة إن «الرجل كان يسمع درسه» إذ لم يترك شاردة أو واردة عن مساوىء نابليون إلا وذكرها، وأكد أن هذا ليس رأيه فقط، بل ورأي المفكرين الفرنسيين أنفسهم، واستخرج مِنْ جيبه ورقة، وأخذ يقرأ، والقنصل يترجم: «كان نابليون يغار مِنْ أية شهرة، ويعتبرها اغتصاباً لحق خاص باسمه وحده، كان لا بد أن يكون اسم نابليون الاسم الوحيد فِي العالم» هذا ما قاله أعظم كتاب فرنسا، شاتوبريان، وهذا رأي جميع العقلاء فِي العالم، إذ لو ترك هذا الكورسيكي يسرح ويمرح دون أن يقف أحد بوجهه، فما كانت لتمر بضع سنوات إلا ويدمر العالم بأسره. وهكذا كانت بريطانيا مضطرة، نيابة عن العالم المتحضر، أن تتصدى له، وأن تهزمه أيضاً، والآن حين يقبع هذا الكورسيكي فِي المنفى، فإنها أخف العقوبات، بل أتفهها، قياساً بالجرائم التي ارتكبها.

بعد أن أنهى الضيف «تسميع» القسم الأكبر مِنْ الدرس، تولى القنصل التمهيد للقسم الباقي، إذ أشار إلى الحب الذي يكنه لهذا البلد ولأهله، ومدى الاحترام الذي يكنه للوالي، مما جعله يبحث فِي لندن إمكانية أن تتولى بريطانيا تزويده بالسلاح الذي يحتاج إليه، وأن الكابتن نكلسون مفوض مِنْ الحكومة البريطانية بالوصول إلى النتائج التي يرغبها الطرفان.

الخص طلعت باقة لعدد مِنْ الضباط ما عرضه نكلسون، إذ بعد أن أشار إلى تفوق الأسلحة البريطانية فِي مجالات البر والبحر، فإن الحكومة الإنكليزية ترغب بحماية الملاحة البحرية مِنْ أية تعديات، وأن تزدهر التجارة بين البلدان؛ ولأن لبريطانيا مصالح كبيرة فِي الهند، وتريد أن يصل الأفراد والبريد والبضائع إلى هناك بأسرع وقت ممكن، فهي تفضل أن يكون لها طريق آمن مِنْ مصر إلى الهند، عبر الفرات وصولاً إلى البصره، ولكون حكومة اسطنبول مشغولة الآن بقضايا البلقان، فقد ارتأينا أن يتم بحث الأمر مع السلطات المعنية فِي الولايات التي يمر فيها هذا الطريق، وهذا ما طلبت مني حكومة جلالة الملك أن أبحثه مع باشا بغداد.

استمع الباشا باهتمام وانتباه شديدين إلى كُلّ كلمة قالها نكلسون.

ورغم أنّه كان لديه رأي آخر بنابليون، فلم يشأ أن يدخل بنقاش حول الموضوع، إذ استسفر عن الخسائر التي تكبدها الطرفان، والوقت الذي استغرقته المعارك البحرية، وكيف تسنى لنابليون الفرار، وكيف كان ردَّ الفعل فِي بريطانيا والممالك الأوروبية الأخرى، ثم كيف هزم مِنْ جديد وألقي القبض عليه. أما حين سأل ما إذا تسنى لنابليون أن يفر مرة أخرى، أو أن يظهر نابليون آخر فِي إحدى الممالك الأوروبية، فقد تبادل القنصل والضيف نظرات فيها مِنْ الحنق والهم ما لا يمكن إخفاؤه، لكن نكلسون عاد للتأكيد أن أمراً مثل هذا مستحيل تماماً، نظراً لقوة بريطانيا المتفوقة فِي البر والبحر، وبالتالي لا يمكن لأحد أن يقف فِي وجهها.

وحين أثنى الباشا على السلطان محمود، وقد أطال فِي ذلك، وأظهر أن بعض المصاعب التي تواجه اسطنبول مؤقتة، وسوف تتغلب عليها، وافقه القنصل على ذلك، وأكد أن ليس هناك أيّ تعارض بين الصداقة التي تربط اسطنبول بلندن، وبين بحث مشروع اعتماد الطريق البري، وأن يصبح الفرات شرياناً أساسياً للنقل والتجارة والبريد، إذ مِنْ شأن ذلك أن يعود بالنفع المباشر على ولاية بغداد، وهذا ما يجعل بحث الأمر مع الوالي أساسياً.

انتهى اللقاء فِي السراي بالاتفاق على أن يتم لقاء آخر. أما الدعوة التي وجهها القنصل باسمه وباسم ضيفه للباشا أن يقوم بزيارة الباليوز، ومشاهدة السفينة، فقد اعتذر عنها لأنه خلال شهر رمضان يكرس كُلّ وقته للعبادة ولإلقاء الدروس، لكن سيوفد عدداً مِنْ ضباطه وموظفي السراي للقيام بهذه الزيارة، كما سيتبلغ الضيف الكريم بموعد لاحق للقاء.

فِي ليالي رمضان الطويلة، بعد أن يودع الباشا زواره، ولئلا يضطر للاستيقاظ مِنْ جديد لتناول السحور، كان يبقى ساهراً، وأغلب الأحيان وحيداً، حتى ساعة متأخرة مِنْ الليل، وخلال ذلك يقرأ الأوراد ويصلي، وبعض الأحيان يرجع إلى عدد مِنْ الكتب يطالعها، أو يلتفت إلى فيروز، الذي يبقى على كرسي عند باب القاعة الجنوبية المطلة على النهر، فإذا شعر الباشا بالتعب أو الجوع تناول طعاماً خفيفاً، ثم يذهب إلى النوم.

خلال الساعات الطويلة التي يقضيها وحيداً أو مع فيروز، كانت أفكاره تطوف فِي أماكن لا حصر لها، وفِي هذا الطواف الذي لا ينتهي، يستغرب كيف تنتقل أفكاره وذاكرته مِنْ مكان إلى آخر، إذ يستعيد وقائع ووجوهاً وأمكنة لا رابط بينها. فهو بمقدار ما تستوقفه حادثة أو كلمة فِي ذات اليوم يجد نفسه متذكراً حوادث وأزمنة بعيدة، حين كان طفلاً، ثم فجأة يجد نفسه فِي الشمال، فيعود مِنْ جديد إلى تذكر ملامح سليمان الكبير، خاصة ساعاته الأخيرة، ومعها يتذكر نابي خاتون، كيف كانت مثل ملكة فِي مرحلة، ثم امرأة معتوهة فِي مرحلة أخرى. أما وجه سعيد فإنه لا يغيب، إذ يعاوده مرة بعد أخرى، فِي الصحو والمنام، ومع أنّه يحاول، وبقوة، إبعاده، إلا أنّه، بمكر لم يستطع أن يفسره، يظهر مِنْ جديد.

كانت تفلت منه، بعض الأحيان، كلمة، أو ترتسم على شفتيه ابتسامة.

وفيروز، وبطريقة فذة، يعرف متى يتدخل، ومتى يواصل الصمت. حتى إذا سأله الباشا عن أمر أو شخص، لا يتأخر فِي الإجابة، لكن باختصار معظم الأحيان، إذ كان يقدر أن الباشا يرغب بمواصلة الرحلة أكثر مما يعنيه التدقيق فِي الجواب.

بعد الزيارة التي قام بها ريتش وضيفه، ابتعدت الأطياف والوقائع كلها، وحل مكانها ريتش. يتذكره الباشا حين وصل إلى بغداد أول مرة. كان شاباً، وكان لا يتوقف عن النشاط والحركة، يريد أن يرى وأن يلم بكل شيء فِي أقصر فترة زمنية ممكنة. فهو ينتقل مِنْ مكان إلى آخر، مِنْ عمل إلى آخر، وكأنه يحاول إقناع نفسه قبل أن يقنع الآخرين، أنّه قادر على استيعاب كُلّ شيءِ بسرعة خارقة، وهذا ما جعله شديد الثقة بنفسه، متعجلاً، حاسماً، تماماً مثل أيّ فتى غادر الصبا على عجل وافترض أنّه بلغ مبلغ الرجال! كان يظهر ذلك بالكلام، بالتصرفات، وبذلك الذهول الذي يلفه بعض الأحيان، وكأن هماً يثقل كاهله، ولا يمكن مواجهته إلا بالعبوس أو بما يشبه الاستغراق فِي تفكيرعميق! حتى إجاباته، فِي مثل هذه الحالات، تراوح بين البلاهة

والحكمة، أو مثل الطالب المجد الذي نسي مقاطع مِنْ درسه فاستبدلها بغيرها ليبدو ذكياً!

لكن والأيام تمر، يكتسب فِي كُلّ يوم تجربة، ولا تلبث التجربة أن تتحول إلى معرفة، لتصبح المعرفة مكراً يغلف بالابتسامات حيناً، وبالغضب أحياناً، أو بتلك المداورة التي تعبر عن نفسها بالتصرفات لا بالكلمات.

ظل ريتش يراوح بين حدين متباعدين، فالقنصل الفرنسي جاثم على صدره مثل الكابوس، والاثنان يلعبان اللعبة ذاتها، وبمكر يتفاوت تبعاً لقوة الشخصية وقوة الدولة التي يمثلها. أما بعد أن هزم الوالي سليمان الصغير، وتأكد أنّه قضى عليه تماماً، وجاء بالوالي الجديد، تعثر القنصل الفرنسي، ثم لم يلبث أن غاب نهائياً، فأصبح ريتش على ثقة كلية وأكيدة أنّه الأقوى، ووحده القادر على فرض كُلّ ما يريد.

كان هذا الانتصار لريتش صدى لانتصار بريطانيا على فرنسا، وكانت ذروة هذا الانتصار هزيمة نابليون ثم أسره. ومذ ذاك تحول ديوان ريتش إلى المقر الحقيقي للسلطة، ولم يتردد ريتش أن يوسع حمايته لتشمل جميع الطوائف المسيحية واليهود، وأخذ يلجأ إليه الملاحقون والمتنافسون طلباً للحماية، أو لأن يحكم بينهم.

خلال فترة طويلة مِنْ حكم سعيد باشا، أصبح ريتش كُلّ شيء فِي بغداد، أما حين دب الخلاف بين سعيد ورجاله، ولما اضطربت أحوال الولاية، وأصبح ثامر بن حمود أولاً، ثم حمادي بعد ذلك، مِنْ يسير شؤون الولاية، فقد شعر ريتش أن هذا النمط مِنْ الرجال لم يعد مناسباً أو صالحاً، لذلك مِنْ الأفضل أن يسحب حمايته، وأن يترك المتصارعين يتبارون، حتى إذا جاء الأقوى، والقادر على أن يسيطر على الأمور، يمكن الريتش أن يمسك القضايا الأساسية، ويلتفت إلى المشاريع التي يجب أن تنفذ، تاركاً القضايا الصغيرة، اليومية، للذين يحبون أن ينشغلوا بها!

ويتذكر داود حين وصل إلى بغداد، وأصبح والياً، كان ريتش يتفرج ويراقب، لم يدعم ولم يمنع. بل أكثر مِنْ ذلك أعطى نفسه إجازة طويلة.

صحيح أنّه لم يغادر بغداد، لكنه انشغل بتوسيع الباليوز، وانشغل أكثر بالحيوانات والطيور، وكأنه يعد نفسه لمرحلة جديدة. بعث ببعض الرسائل مِنْ خلال الاستعراضات التي أقامها، وعن طريق رجاله، ولكن داود تظاهر أنّه لم ير ولم يسمع، وكان يريد للقنصل أن يستريح، والعودة إلى الوظيفة التي أقيمت القنصلية مِنْ أجلها: أن تسهل وأن تساعد فِي وصول البضائع، وأن يجري مِنْ خلالها المراسلة والاتصال مع بريطانيا لتأمين عدد مِنْ المواد، خاصة التجارية، وأن ينتظم وصول السفن إلى البصرة، ثم تسهيل نقل ما تحمل إلى بغداد. أما أن ينشغل القنصل بالكبيرة والصغيرة، أن يحرص

القبائل، أو أن يدفع لها لكي تثور على الوالي، فإن كُلّ ذلك يجب أن يتوقف، وأن يصبح جزءاً مِنْ تاريخ مضى.

لم يشأ داود باشا أن يصطدم بريتش، لم يشأ أن يعاديه. أما كيف حصلت الأمور بعد ذلك، فالباشا نفسه يستغرب. فها هو ريتش الآن، بعد أن خسر الرهان الكبير، بغياب الأغا، يأتيه عارضاً عليه السلاح والطريق النهري. لم يكتف بذلك، فقد جاء بخماس جديد، لكنه مختلف، ليلقى عليه الدروس، خاصة درس هزيمة نابليون!

ما كان الباشا ليتذكر خماس لو لم يذكره فيروز، إذ قال له، بعد تلك الزيارة:

- لو هذا الكبير المتين جا وحده كنت قلت لروحي إنّه خماس!

- والله جبتها، يا ابن الحلال...

وبعد قليل، وكان الباشا يحدث نفسه:

- سبحانه يخلق مِنْ الشبه أربعين، وقلت لنفسي أكثر مِنْ مرة: هذا الوجه شايفه، لكن لما سمعت صوته قلت: لا، ما شفناه ولا عرفناه!

وغرق الباشا فِي صمته مِنْ جديد، وهو يستعرض ما سمعه مِنْ الاثنين.

قال فِي نفسه: لو أن اقتراحاً مِنْ هذا النوع قدم فِي وقت سابق، على الأقل قبل إعدام الآغا، لاعتبرته دليلاً على حسن النية، وربما تكفيراً عن إساءات وأخطاء سابقة، لكن أن يأتي فِي هذا الوقت، فلا بد أن يكون فخاً للإيقاع بيني وبين إسطنبول، ومع السلطان بالذات، ومعنى ذلك: أن يقدم رأسي سلفاً ومجاناً، وهو بمثابة ردَّ سريع على إعدام الأغا. السلاح، مباشرة مِنْ لندره إلى بغداد، دون موافقة السلطان، بل ودون علمه؟ لماذا؟ لقد ظل هذا السؤال يشغل بال الوالي منذ اللقاء الأول بعد أن عاد ريتش مِنْ السفر. هل يريد أن يكافئه؟ أن يبدأ مرحلة جديدة؟

لا يمكن أن يقتنع أو أن يقنعه. لا بد أن يكون هناك أمر آخر يضمره، يريد أن يصل إليه.

يقول: إن محمد علي باشا اتفق مع الإنكليز دون علم السلطان، وهو ماض فِي هذا الطريق، فلماذا لا يفعل دواد باشا الأمر نفسه؟ هكذا سأل ريتش، وتوقف طويلاً عند نموذج مصر ومحمد علي، لكن هذا الأمر زاد مخاوف الباشا، جعله يفكر بأمور كثيرة، ويستعيد وجوه أصدقائه فِي اسطنبول، وقال لنفسه بحزم أقرب إلى اللوم: «لا تكن مغفلاً، فإذا كان محمد علي قد اتفق على السلاح والأسطول وأمور أخرى كثيرة، فإن محمد علي هو الذي طلب ثم فرض ذلك، أما أن يأتي الإنكليز وحدهم، وأن

يقترحوا مثل هذا الاقتراح، فإن الإنكليز ليسوا مِنْ النبالة والصدق إلى حد أن يفعلوا ذلك دون مقابل، وإنما يريدون أن يورطوه، أن يخلقوا له مشكلة مع السلطان غير قابلة للحل، ولا يمكن أن تمر دون عقاب، وكأنه العقاب الذي خططوا له لكي ينتقموا للآغا، ليقولوا له ماذا يحل بمن يعادي بريطانيا، وبريطانيا هنا تتمثل بالقنصل.

والطريق البري بين بريطانيا والهند، عبر مصر ثم بلاد الشام، وصولاً إلى الفرات فالبصرة، هل يمكن أن يوافق على ذلك؟ خاصة بعد أن أصبحت اسطنبول تتقي، بل وتخاف مِنْ بريطانيا.

إن مجرد الإقدام على أمر مثل هذا، خاصة فِي هذه المرحلة، يعني أن يدخل فِي خصومة كاملة مع اسطنبول. وإذا كان له، فِي السابق، أصدقاء يحمونه، يمكن أن يبرروا أفعاله لدى السلطان والباب العالي، فإنه بعد إعدام خالد أفندي، الصديق الذي يعتمد عليه أكثر مِنْ غيره، ثم بعد كلام عزرا أن الجماعة الذين كانوا يتولون الأمور المالية لم يعودوا قادرين، وعلى بغداد أن تجد وسيلة أخرى لتسديد ما يستحق عليها لاسطنبول، فإن مِنْ شأن طرح الأمر الآن، أن يعتبر داود متمرداً ولا بد مِنْ تأديبه.

قال الباشا، وهو يفكر بهذه الأمور:

- اسطنبول ملدوغة، وتخاف مِنْ جرة الحبل، وإذا كان لدواد أصدقاء هناك فإن أعداءه أكثر.. ما تقول يا فيروز؟

وفيروز الذي يحدس بهذه الأمور، دون أن يعرفها، يعرف أن رضى اسطنبول، على الأقل فِي هذه المرحلة ضروري، ردَّ، وقد شابت صوته رنة حزن:

- يا أفندينا، اسطنبول ملدوغة، والملدوغ يخاف مِنْ جرة الحبل، مثل ما قلت، فخلي الأمور هته تمر سلامات، ونحن بألف خير.

- لكن اسطنبول اللي ببالك تغيرت، هه صارت ألف ملة، وكُلّ وحدة تجر لصفحة.

- لكن على الغريب يتجمعون، يا أفندينا!

لم يشأ الباشا أن يناقش فيروز، أو أن يعانده، فقد كان يدرك مثله أن الوقت لم يحن بعد لأن يفكر بهذه الطريقة، أو أن يقدم على مثل هذه الخطوات. وتذكر ما قاله خماس، وكيف كان يشعر باللذة وهو يتحدث عن هزيمة نابليون. لم يكتف بذلك، أخرج مِنْ جيبه أوراقاً وبدأ يقرأها، والقنصل يترجم، وكأنه يريد أن يلقن درساً، ليحمل كُلّ مِنْ يعاند بريطانيا على التفكير قبل أن يخطو خطوة واحدة.

حسم الباشا الأمر. قال لفيروز، وهو يدق الجرس الموجود إلى جانبه بقوة:

. لازم نتحزم للواوي بحزام أسد، لأن هذي دنيا، وكُلّ شي يمكن أن يحصل، وما دام صبرنا وانتظرنا، يمكن نصبر بعد، فخلنا ما نصدقهم، ونحن بديرتنا وهم غرب!

وهكذا قرر الباشا أن يتريث، ثم أن يعتذر، على الأقل فِي هذه المرحلة، بحجة أن الاقتراح يتطلب المزيد مِنْ التفكير والدراسة قبل البت فيه.

الما توصل الباشا إلى هذا القرار شعر بالراحة، ولاحظ أن القلق زايله، كما أصبح أكثر ميلاً إلى إطالة السهر مع ضيوفه، والتطرق إلى موضوعات متعددة، بما فيها سير بعض المتصوفة وأشعارهم. أكثر مِنْ ذلك شعر الباشا أن صلواته والأوراد التي يرددها أخذت تدخل الطمأنينة إلى قلبه، وأنه خلال ذلك يدخل فِي عالم مِنْ النور يجعله خفيفاً يكاد يطير.

قال لفيروز، ذات ليلة، بعد أن ودع ضيوفه:

ـ إذا صدقنا القنصل وخماس، راح يصير بينا مثل ما صار بقصة كليلة ودمنة لما راحوا للقرد حتى يقسم الجبنة!

ظل فيروز ينتظر على الباشا يروي القصة، لكنه سمعه يقول:

- ذكرني فد يوم وراح أحكي لك القصة!

- صار عليك ديون كثيرة، يا أفندينا!

ـ الحق عليك لأنك ما ذكرتني، لكن يجي يوم ونسولف!

ولم ينس الباشا أن يوعز لعدد مِنْ ضباطه، على رأسهم طلعت باقة، بزيارة الباليوز ولقاء القنصل وخماس، لتفقد السفينة والإطلاع على أسلحتها، وأن يحاولوا، جهدهم، معرفة ما وراء العرض الذي تقدما به، لكن هذه المحاولات انتهت إلى نتيجة واحدة: انبهار الضباط بما رأوا، خاصة بعد أن قام بحارة السفينة ببعض الاستعراضات، بما فيها إدارة المدافع، وقوة النيران، وما يمكن أن تلحق بالعدو!

قال الباشا لطلعت باقة، بعد أن قدم له تقريراً عن الزيارة:

- ظني، يا طلعت بك، أن الإنكليز ما يعطون السلاح لله، لا بد يكون وراء هذا الكلام سالفة، فخلنا ننتظر ونشوف!

وحين وجد طلعت صامتاً، وكأنه لا يزال واقعاً تحت تأثير ما رأى، أضاف:

- يجي يوم، يا طلعت بك، نقدر نسوي فد شيء، إذا ما كان مثل اللي شفته، فقريب منه.

ردَّ طلعت بتسليم على قول الباشا:

- الله كريم، وعسى هذا اليوم ما يكون بعيد!

واندفع الباشا يعرض بعض تجاربه وأحلامه:

ـ إنت كنت رئيس المحكمة، وسمعت أقوال الشهود واعترافات الآغا، وشلون القنصل يخطط ويدفع فلوس حتى تنقص روسنا، فشنو اللي غيره بين يوم وليلة؟ مِنْ ذاك العداء إلى: هذا هو السلاح.. تفضلوا، خذوا.

شنو اللي صار بالدنيا؟

هز رأسه عدة مرات، وأضاف بلهجة حانقة:

- حتى زيارة السفينة يريدون أن تكون لنا درساً: اللي ما يجي بعيني وآغاتي، يجي غصباً عليه، فاختاروا؟

ـ اللي تقوله كلش صحيح، يا باشا، بس الواحد يتمنى يكون عندنا سلاح مثل سلاحهم!

ـ إذا الله راضي علينا، وخلصنا مِنْ طلايب البدو وغيرهم، وارتاح راسنا مِنْ المشاكل، راح يتحول العراق إلى جنة، ومثل ما سوَى والي مصر راح نسوي: الجيش، السلاح، المعامل، المدارس، الجوامع؛ بس نريد نخلص مِنْ دوخة الراس، مِنْ هذي المصايب اللي تتدردب علينا مِنْ كُلّ صفحة، وكُلّ واحد يقول هات.. أو ما عندي!

وطال الحديث بين الاثنين وتشعَب، لكن حين ودَع طلعت بك الباشا صافحه بقوة، وبأكثر حرارة مِنْ مرات سابقة، وقال:

ـ الله يقويك يا باشا؛ وربنا سبحانه وتعالى يرزق الناس على نياتهم، فعسى أن يفتحها بوجهنا، ويحقق آمالنا.

ردَّ الباشا بمرح:

- وبهذي الليلة مو بس اتفقنا، يا طلعت بك، وكسبنا واحداً جديداً للجنة...

وسمع طلعت، وهو يستدير ليغادر السراي، الباشا يقول:

- تفاءلوا بالخير تجدوه!

يوماً بعد آخر، أخذ الكيخيا يحيى بك يصدق أنّه خاض معركة لا تماثلها أية معركة سابقة، وأنه انتصر. فعندما استقبله الباشا قبل دخوله إلى بغداد، ثم الاحتفالات التي أقيمت بهذه المناسبة، إضافة إلى الخلعة والنيشان، كُلّ هذه الأمور، زيادة على أحاديث الذين حوله، جعلته يتأكد أن معارك الفرات الأوسط بالغة الأهمية، وربما تكون خارقة. وكان كُلّ يوم يجد سبباً جديداً يؤيد ذلك، خاصة وأن موجة الشعر التي رافقت النصر استمرت وتطاولت لأسابيع، وقد ورد اسمه أكثر مِنْ مرة فِي القصائد التي نظمت تمجيداً بالنصر الذي تم إحرازه، الأمر الذي زاده اقتناعاً بأهميته وبالإنجاز الذي حققه.

الباشا، نكاية بالباليوز، وليغيب ذكر الآغا نهائياً، لم يجد غضاصة فِي أن يردد الشعراء اسم الكيخيا، خاصة وأن رجال السراي بالغوا فِي الحديث عن النصر الذي تحقق. كما أراد الباشا أيضاً أن تُمسح مِنْ الذاكرة «دقة الغدر»، لأنها تعرض سمعة الوالي نفسه إلى الإساءة، وهذا ما دعاه إلى التعامل مع الشيوخ بكرم زائد، كطريقة للاعتذار، ولإرضاء الكثيرين، بمن فيهم طلعت باقة وضباطه. وقد خُير هؤلاء الشيوخ بين استمرار إقامتهم فِي بغداد، مع الرعاية وتلبية جميع الطلبات، وبين العودة إلى قبائلهم، «.... ورجاء أن يطوى الحديث عما حصل، لأن الحرب تعمي، كما قال لهم خلف، وتحصل خلالها أغلاط غير مقصودة». أما البيوت التي تم تخصيصها لهم، أما العطايا التي قدمت، بما فيها الخيول التي جلبت مِنْ كركوك، وكانت ضمن اسطبلات الآغا، ووزعت عليهم، وعلى كبار الضباط الذين شاركوا فِي معارك الفرات الأوسط، فقد جعلت عدداً مِنْ الشيوخ يستجيب إلى ما طلب منه، وهكذا أخذت الصورة تتغير، خاصة بعدما هدأت النفوس، وأصبح الاحتكام إلى لغة العقل ممكناً فِي أعقاب فورة الدم التي سادت خلال المرحلة السابقة.

حتى نادر أفندي الذي كان يضيق، ولا يخفي ذلك، مِنْ أوامر الصرف التي تصدر عن ديوان الباشا، وعليها الختم والتوقيع، لم يعد يبالي، ظاهرياً، وهو يصرف ما يطلب منه. فقد ظهر عليه تبدل مِنْ نوع جديد:

أطال لحيته أكثر مِنْ السابق، وتركها دون تهذيب؛ لجأ إلى ارتداء ملابس قديمة أقرب إلى الرثاثة؛ وأصبح يلتذ بالصمت حين يصرف النقود، خلافاً لفترات سابقة، إذ كان، وهو يوافق على الدفع، يعد النقود بصوت عالٍ وكأنه

بهذه الطريقة يشتم، يثير حسد الآخرين، ويقول، دون كلمات، عسى أن الله ما يحط فيها البركة!

الآن، وبعد هذه التغيرات التي طرأت على الهيئة والتصرفات، ولأنه أخذ يصرف باستهتار أقرب إلى التحدي، فقد قال له خلف ذات مرة، وهو يعيد له مبلغاً صرف إلى فيروز، وقد كتب فِي أمر الصرف: «يمنح المبلغ التالي لفيروز سيد قادر بمناسبة طهور ابنه. ويجدد منحه، كُلّ سنة، بذات التاريخ ولنفس السبب»، وقد خلا الأمر مِنْ التوقيع والختم. أعاد خلف المبلغ، وهو يطلب استرداد أمر الصرف، ليقول لنادر أنّه أصبح أعمى العين والقلب. ونادر الذي استغرب أن يُرد له مال، وحين سحب أمر الصرف ليعيده إلى خلف، اكتشف فجأة أن الأمر لا يحمل لا التوقيع ولا الختم، وتذكر أيضاً أن ليس لفيروز أولاد، فقال والعبرة تكاد تخنقه:

- الله، بسماه العالية، حرم ضرب الميت، وآني هسه، يا خلف، ميت، فحرام تجربون سكاكينكم برقبتي!

أما حين انحدرت دموعه، دون أن يستطيع مقاومتها، فقد أضاف:

- حرام عليكم، هم أنا بشر مثلكم، عندي قلب، وبي دم، وأعبد الله...

وأخذ ينتف، وبقوة، شعرات مِنْ لحيته، وهو يردد:

- ماكو أكثر مِنْ المكادي ببغداد، وماكو أكثر مِنْ اللي ينامون بليا عشا، وأنتم طايحين بهذه النعمة، تمردونها، تحرقونها، ولا ببالكم أن أكو أحد بعازتها، فحرام.. والله حرام!

وتغيرت النبرة، ظلت حزينة، لكن بحزم:

- وآني مِنْ ذاك اليوم ما علي، احترق كُلّ شي، بقي فد شي، آني مالي لازم، وأتمنى أموت اليوم قبل باجر.

قال خلف، وهو يحتضنه ويواسيه:

ـ على كيفك أبو يقظان، وكلها، مِنْ أولها لتاليها، ما تسوى، فلا تسويها مناحة، ولا تدير بال...

ولما ظل نادر أفندي صامتاً، تابع خلف:

ـ احترقت قلوبنا مِنْ العطايا للشعراء وأصحاب العُقل، فقلنا لروحنا خلنا نتشاقى ويا نادر أفندي: فما لقينا إلا نطهر ابن فيروز، وإنت، الله يسامحك، أخذتها جد، ففتحت القاصة وقلت: تعالوا، خذوا الأول والتالي، آني ما علي، وعساها تروح حريق أو غريق، يطبها مرض!

وامتد الصمت، إيذاناً أن حديثاً انتهى، ويمكن أن يبدأ آخر. حين وجد نادر أفندي أن بإمكانه أن يتكلم اندفع بتوسل يخاطب خلف، وهو يقترب منه، ويقبض على ساعده، عند الكتف:

- خلف، وأتمنى لو تنقَّط بحلقي آخر نقطة قبل ما أموت، أتوسل لله ولأنبيائه، وأتوسل للباشا، وقول على لساني آني مستعد أدفع لكل ابن أنثى، للي يسوى واللي ما يسوى، وحتى للقحاب مستعد أدفع، بس يخلصني مِنْ هذول الشيوخ!

ولما رأى ابتسامة حزينة على شفتي خلف، تابع بغضب:

- الله أعلم أن هذول الشيوخ، مو بس ما يعرفون قيمة الفلوس، ما يعرفون يعدونها، وما يعرفون شقد التعب لتحصيلها؛ وبالنسبة لهم ليرة الذهب والبارة نفس الشيء، وهذا اللي يقتلني...

وارتسمت على وجهه ابتسامة حزينة:

ـ اليهودي، الفلوس وهي جوا الكيس، بالظلمة، ما يمد الإبهام والسبابة ويلمسها، يطخ بها، إلا ويعرفها، ويعرف شنو يطلع وشوكت؛ أما هذول البدو، وإذا الواحد منهم مد إيده لجيبه، يجر الفلوس كلها، ويقول: خذوا. وثمن الرغيف والعباية الإبريسم فد شي، فهاي وين تصير، شلون ربنا يقبلها؟

قال خلف ليطيب خاطره، وينهي هذا الموال الحزين:

- خلص، أبو يقظان، وخذها مِنْ هذا الشارب: راح أقول للباشا عن السالفة مِنْ الأول للتالي، وإن شاء الله ما يصير إلا الخير!

- وأبو البستوقة، يحيى بك؟

- شبيه؟

- كُلّ يوم والثاني وجمولي بخلقتي: «نريد نشتري دوا للبك». وأسأله:

خير؟ شبيه؟ يقول: «وجعان، والدوا عند الأرمن». وآني، يا غافل لك الله، ادفع، وأدفع، وبعدين زهقت روحي، قلت: شنو.. البك، بعد كُلّ هذا الدوا ما طاب؟ ما يريد يطيب؟ ردَّ جمولي وقال: «ما أدري». وبليا ما يدري جمولي دزيت على الأرمن وسألت عن الدوا. ضحكوا وقالوا: «مِنْ الدوا اللي يندز للبك ما ينشبع». وعرفت السالفة مِنْ أولها لتاليها، ويجوز مثل ما تعلم هو، علم البدو، وقاعدين الليل كله يكروعون! ردَّ خلف باستغراب:

- قول غير شي يا معود!

- شاقول، عيني خلف، قلبي حبل مِنْ هذي السوالف...

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت غاضبة:

- مية نوبة قلت لعزرا أفندي: أريد استعفي، أريد أترك الأول والتالي، يضحك، يطلع سنه الذهب، ويرد: طول بالك، أبو يقظان، باجر كُلّ الأمور تنصلح، تصير زينة، وهذا الحجي مو البارحة أو اليوم، صار له سنين، وقبض ماكو، وآني حاير ما أعرف شنو اللازم أسويه!

أما حين تدفقت الغنائم على بغداد، فنسي نادر أفندي همومه وأوجاعه، واندفع، كما فعل أثناء استلام غنائم حملة الفرات الأعلى، لحصر هذه الغنائم، لتصنيفها، قبل أن يتم التصرف بأي شيء، حتى الخيول التي أمر الكيخيا صرفها إلى بعض رجاله، رفض نادر أن يفعل قبل أن تدخل السجلات!

قال فيروز يرد على سؤال للباشا، حين استفسر منه على أحوال الربع:

- ما دامت سن الذهب لعزرا تبرق، وما دامت ضحكة نادر أفندي شبر، فالربع بألف خير!

- ضحكتهم مثل غيوم الصيف، يا فيروز، كذابة ما تمطر، وبالعجل تروح وكأنها ما كانت!

ولئلا تذهب زهوة النصر بسرعة، ويعود الكيخيا إلى الجناح الغربي فِي السراي، ليغرق فِي الصمت مِنْ جديد، ومن أجل أن يتفرغ لمعالجة آثار الحملة، فقد اقترح على الباشا أن تُجرى مناقلة بين جناحه والجناح الذي يشغله عزرا فِي القسم الشرقي مِنْ السراي، أو أن يختص بقلعة الفرسان، نظراً لتزايد عدد الموظفين التابعين له، ولتزايد عدد المراجعين. والباشا الذي لم يخف عليه ما وراء ذلك، ولكي يبقي على تألق كيخياه، ردَّ بمرح:

- هذي بينك وبين عزرا أفندي، وما أظنكم تختلفون؛ ورغبتي أن تكون إلى جانبنا، قريباً منا، لأنا نحتاجك فِي الصغيرة والكبيرة!

وتسبب هذا الانتقال بنكسة جديدة لنادر أفندي، أطارت النشوة التي عاش فيها خلال الأسابيع التي أعقبت استلام الغنائم. قال لعزرا محتجاً على عملية الانتقال:

- وشلون نراقب الاسطبل وقسم التموين؟ ومنو ما يقول إن الأبواب تنفتح توالي الليل ويطلع منها كُلّ شيء؟ وشلون نرد الشيوخ وهم بطريقهم إلى الديوان؟

وحين أكد له عزرا أفندي أن شيئاً مِنْ هذا لن يحصل، لوجود الحراسات المشددة والمراقبة الدائمة، إذا لم يكن مِنْ أجل الأموال، فمن أجل حماية الباشا، لذلك فإن جميع هذه المخاوف لا مبرر لها، فرد عليها نادر أفندي بحرقة:

- وبعدين تعودنا على هذه الصفحة، يا أفندينا، نعرف منين تطلع الشمس ومنين تغيب. وشلون نتوقى الشرقي بليا ما نشعل حطب زايد، وشوكت نشعل الضو بليا ما نباوع الساعة، فإذا جا هنا أبو دوا الأرمن، وصرنا نحن بمكانه، راح تنلاص علينا!

ـ لا تخاف يا معود، والمسألة، أولها وتاليها، مِنْ هذا الجيب لهذا الجيب، فلا تدير بال!

كان الكيخيا، باختياره هذا الجناح، يريد أن يختص بالبوابة الشرقية للسراي، إذا لم يستطع أن يستقل، وهذا ما جعل الباشا يوعز إلى عزرا أفندي أن تجري عملية الانتقال دون ممانعة أو تأخير، لأنه يريد أن يبقي الكيخيا قريباً منه.

وإذا كانت بضع هوايات قد سيطرت على الكيخيا فِي أوقات سابقة: أن يبدل لحم المائدة ولحم الفراش بين فترة وأخرى؛ وأن لا ينقطع عن ذاك الحساء المغشوش، أو دوا الأرمن، كما يسميه جمولي؛ ثم السهرات الممتعة التي يقضيها بصحبة محب الدين وشمسي أميني؛ فقد أضاف إليها هوايات جديدة: أن يولم لكثيرين مِنْ الوجهاء ورجال الدين، وأن يوثِق علاقاته بالشعراء؛ كما كانت لديه الرغبة أن تكون له بوابة خاصة فِي الدخول والخروج، ولا بد أن يفرض، ذات يوم، وجود فرقة موسيقية تدق له الطبل والبوق أثناء وصوله أو مغادرته!

قال محب الدين المرادي للكيخيا، وهو يقرأ له طالعه:

- ويروح يوم ويجي الثاني، وتصير لك ذرية تحسدك الناس على عددها، لكن بمشيئة الله ترتد عين الحسود، شرط الإيمان والتقوى. أما النصر فراح يصير لك عنوان، وكذلك المجد ورفعة الشان، وهذا مو ليوم وإنما لآخر الزمان!

ومع كُلّ سهرة جديدة تضاف إلى قائمة جمولي وصفة جديدة تلائم الكيخيا. ولا تمر بضعة شهور إلا ويأتي شمسي أميني إلى الجناح الشرقي فِي السراي، وفِي غير مواعيد العمل أو السهر، لكي يعقد للكيخيا على امرأة. وإذا اكتشف بعد أيام أنها تجاوزت العدد الذي يجيزه الشرع، يبحث له شمسي فِي كتبه العتيقة عن فتوى ملائمة، ولا يتأخر فِي اكتشافها: إطعام المزيد مِنْ المساكين!

أما رستم قاورد فإنه لا يتأخر فِي إبلاغ خلف بكل أمر يحصل فِي الجناح الشرقي مِنْ السراي. يقول الباشا حين تصله هذه الأخبار، يقول ذلك لخلف رداً على ما ينقل مِنْ أخبار، أو يقوله لفيروز، وهما يتمشيان فِي الحديقة المطلة على النهر:

- بغداد داها منها وبيها، ودواها الترياق، وهذا دربه طويل!

ولم يفهم أيّ مِنْ الاثنين ماذا يقصد لكي يجيب أيّ منهما على السؤال!

ودخل الشتاء، تلك السنة مُبكراً، وامتد أكثر مِنْ المعتاد. أما حين بدأ الربيع فقد استبشر الناس. ومثلما خرجت النباتات مِنْ الأرض، خجولة أول الأيام ثم صريحة بعد ذلك، وقوية، فقد أخرجت النسوة إلى الشمس الألحفة الثقيلة، وأغطية الصوف، ثم الفراش، وكانت كُلّ امرأة تقول لبناتها، للجارات: مثل هذا الشتا ما شفنا مِنْ قبل. والرجال المسنون قالوا فِي القهاوي: جاءت الطيور هذه السنة قبل أوانها، وقلنا: راح يكون مطر هذه السنة أزيد مِنْ غير سنين، ومثل ما شافت عيونكم، الأمطار، تبارك وتعالى، وصلت لكل مكان ورب العالمين قال لكل عاقل: شوف بعينك كرمي، وتوقَي مِنْ عذابي، ومثل ما سويت ذاك الطوفان، أقدر أسوي مثله وأزيد!

وإذا كان العقلاء قد هزوا رؤوسهم بالموافقة، فإن الشباب سمعوا، لكن لم يقيموا وزناً لهذا الكلام، ضحكوا فِي سرهم، ثم ضحكوا بقهقهات مجنونة حين كانوا وحدهم وكانوا يتذكرون كلام المسنين! لكن بعد النصف الثاني مِنْ آذار، ورغم الشمس الدافئة خلال النهار، ولسعات البرد فِي المساء المتقدم، ثم آخر الليل، فقد بدأ الخوف يدخل إلى القلوب، لأن مياه النهر زادت، وأخذت تستمر فِي الزيادة يوماً بعد آخر، وتوقع الكثيرون أموراً أقرب إلى الشر!

بعد ذاك الشتاء الطويل المضني، جاء آذار، ومعه أول نسائم الربيع.

المسنون الذين حشدوا كُلّ قواهم مِنْ أجل مقاومة البرد، واستطاعوا، على تفاوت فيما بينهم، أن يجتازوا ذلك الامتحان القاسي، ما إن بدأت بوادر الدفء، ودبت الحياة فِي جسد الأرض، حتى اضطربت أحوالهم، وأخذوا يترنحون. استطاع بعضهم المقاومة وواصل الحياة، وكثيرون غيرهم حاولوا، لكن لم تسعفهم قواهم فماتوا بهدوء. لم تطل أمراضهم، ولم يولدوا الصخب وهم يغادرون. ماتوا فِي بداية الربيع، وكأن الحياة فِي دورتها الأزلية بمقدار ما تعطي تأخذ، وبمقدار ما تفسح مجالاً للقادمين، لا بد أن تستعيد إلى باطن الأرض مِنْ لم يعد لهم مكان فوقها.

كان يمكن لحوادث الموت التي وقعت فِي الكثير مِنْ محلات بغداد، والتي تزايدت مع مطلع الربيع، أن تطحن بحزنها الكثيرين، وأن تدخلهم فِي دوامة الأسئلة التي شغلت الإنسان مذ أن وجد على هذه الأرض، لكن تدفق الحياة المتواصل، إذا سمح بطرح الأسئلة، فإنه لا ينتظر لتلقي الإجابات. ثم إن ما حدث بعد ذلك غير الهموم ثم غير الإهتمامات.

فالدفء الذي حرك الأرض، وجعل الهواء رضياً رخياً، ثم مد النهارات ووسعها، دفع الكثيرين إلى الحركة، وإلى الانتقال مِنْ مكان إلى آخر، تماماً كما تنتقل الطيور. بدت الأسواق تضيق بالمترددين عليها، وأخذت الأزقة تمتلىء بالصغار والكبار، حتى النسوة اللواتي غبن طوال أيام الشتاء بدأن بالظهور.

ومع البشر، وقبلهم، أخذت الطبيعة تتفجر، وتعلن عن كنوزها.

الخضرة البرَاقة تملأ جنبات الكون. الألوان تتزايد وتتغير كُلّ يوم. الطيور التي صمتت طويلاً، فجأة اكتشفت أنها تمتلك أصواتاً عذبة فلم تعد تتوقف عن الغناء. أما قطعان الغنم التي غابت فِي الأرياف القريبة طوال فصل الشتاء، فقد وصلت أعداد كبيرة منها مع الحملان التي لا تعرف كيف تستقر على الأرض، ولا يُعرف إن كانت فزعة أم فرحة وهي تتقافز، نافرة مِنْ الأيدي، ورافضة حتى نظرات العيون.

قال بعض المسنين، مذكرين بكلام قالوه مِنْ قبل، إن الشتاء إذا جاء مُبكراً وبارداً، فلا بد أن يكون صيف تلك السنة حاراً طويلاً. وقالوا أيضاً:

المهم أن يمر الفيضان! وفجأة اكتشف الناس أن الإمتحان الأكبر الذي يواجهونه كُلّ سنة لم يأت بعد.

ومع أن الفيضان يأتي كُلّ سنة، وتكون أيامه أصعب الأيام وأقساها، إلا أن الكثيرين يحاولون نسيانه، وكأنهم بهذه الطريقة يبعدونه أو لا يريدون قدومه، لكنه كالموت، مهما ابتعد فإنه بالغ القرب، شديد الحضور، وقد يأتي أبكر مما يقدر الكثيرون.

هذه السنة لم يتأخر الفيضان إلا قليلاً، أتي فِي القسم الثاني مِنْ آذار.

وإذا كانت عادته، فِي سنين كثيرة، أن لا يعلن عن قدومه سلفاً، مثل عودة المسافرين الذين طال غيابهم، أو مثل مجيء ضيوف غير منتظرين، قد يأتي عاصفاً، خاصة إذا رافقته أمطار وقعت فِي أمكنة قريبة. هذه السنة جاء بشكل غير متوقع، جاء على شكل هجمات متتالية. إذ ما تكاد المياه تصل إلى حد معين، إنذاراً بأن ما سيأتي سيكون أكبر، حتى تتراجع، ويظن الكثيرون أن ذلك آخر الفيضان، فيندفعون إلى لملمة ما خلفته المياه، وإلى إحصاء الخسائر، والتأكد مِنْ النتائج، لكن قبل أن ينتهوا مِنْ ذلك تندفع المياه مهاجمة، وتأخذ فِي طريقها ما تجده أمامها. ومع الهجمة الجديدة يزداد الخوف، ويتزايد معها الركض مِنْ مكان إلى آخر، لاتقاء المياه، لوضع الحواجز فِي وجهها، لمنع وصولها إلى البيوت. والمياه مجنونة دائماً، إذ لا يُعرف مِنْ أين ستأتي، أو متى، لكنها دائماً تأتي، تكتشف طريقاً جديداً أو تصنع لنفسها هذا الطريق. تفعل ذلك بمكر ملعون، وكأنها تملك غريزة تتكون لها وتتجدد فِي كُلّ لحظة. إنها تتفوق على عقل البشر وقوة الحيوانات، وهذا ما يجعل التعامل معها بالغ الصعوبة، شديد العسر، وغير مضمون النتائج أغلب الأحيان.

الكثيرون مِنْ الذين يسكنون بمحاذاة النهر، غادروا مساكنهم بعد أن هجمت المياه، خاصة حين بلغ ارتفاعها أقصاه خلال الليل، ولا يعرفون كيف قُدرت لهم النجاة، تاركين فِي البيوت معظم الأشياء. ثم رأوا أن عودتهم ضرورية بعد أن تطامنت المياه. وحين اكتشفوا الأضرار التي لحقت بكل ما تركوه مِنْ فرش وأثاث ومؤونة، شعروا بالحزن وهم يخوضون فِي المياه والوحول، لمعرفة إلى أين وصلت، وما خلفته مِنْ آثار. كما انشغلت أفكارهم كيف يمكن أن يعالجوا أو يتغلبوا على تلك الآثار، وكم يحتاجون مِنْ الوقت والمال. ما كاد ينشغل هؤلاء بهذه الأمور، وقبل أن ينقضي اليوم الثالث على هجمة المياه الأولى، حتى جاءت الهجمة الجديدة، فتركوا كُلّ شيء وراءهم وهربوا مسرعين مذعورين، وقد شعروا أن حياة جديدة تُكتب لهم.

ومثلما هرب الذين يسكنون بمحاذاة النهر، هرب الذين يبعدون قليلاً فِي المرة الثانية، لأن هذه الهجمة، بالإضافة إلى ارتفاعها وقوتها، وجدت سهولة فِي اختراق الأماكن الضعيفة، لتتسرب منها إلى أماكن جديدة.

فعلت ذلك بمكر ألعن مِنْ المرة السابقة. وما افترضه الذين سكنوا على مسافة مِنْ النهر فِي أنفسهم مِنْ ذكاء أو حُسن حظ، اكتشفوا أنهم واهمون، لأن المياه يمكن أن تلاحقهم، وقد تصلهم، تماماً كما يفعل الموت، إذ لا يفرق بين غني وفقير، ولا بين قريب وبعيد.

حتى سكان صوب الكرخ الذين طالما حُسدوا لموقعهم المرتفع، قياساً للصوب الآخر، ولما يحيط بهم مِنْ أماكن، شعروا بالحزن، إن لم يكن بالخوف، لما يعانيه الكثيرون فِي صوب الرصافة، وهبوا لتقديم العون.

كان كُلّ فرد ينظر إلى الفيضان، أول الأمر، مِنْ زاويته الشخصية، إذ احتاط لعتبة بيته، ثم للمؤونة، كما وضعت الأشياء الضرورية أو الثمينة تحت العين واليد معاً، ثم التفت الكثيرون، بعد ذلك، إلى تحصين مداخل المحلات بالأتربة يجمعونها ويعلونها، ثم بالأكياس التي هيئت لتستعمل عند الضرورة، وحيث تكون الحاجة إليها. وتبرع عدد غير قليل مِنْ الشباب لمراقبة النهر، خاصة خلال الليل، لئَلا تأتيهم المياه فجأة وعلى حين غرة. إلا أن العقلاء، والأكثر تجربة، قالوا إن المياه لا تُواجَه إلا بعمل يشترك فيه الجميع، والفرد مهما كانت قوته، وحتى لو بلغ أعلى درجات الذكاء، لا يستطيع شيئاً لوحده فِي مواجهة الفيضان. وهكذا اندفع الكثيرون إلى أطراف النهر، لا ليرقبوا المياه، وإنما لرفع السداد وتقويتها.

ولم تتأخر الحكومة فِي أن توجه عن طريق المخاتير ووجهاء الأحياء الطلب إلى القادرين مِنْ الرجال والصبية إلى مساعدة الجنود مِنْ أجل رفع السداد فِي أماكن حددتها، كما أمر الباشا كيخياه أن يكون على رأس الحملة.

كانت هجمة المياه الثانية عمياء جامحة، لكنها كانت سريعة أيضاً، وقد تسببت بأضرار كبيرة، خاصة بالمزارع المحيطة بالمدينة. أما فِي بغداد نفسها فكانت أضرارها أقل مِنْ الهجمة الأولى، إذ كانت للتحصينات التي أقامها الناس أهمية كبيرة، فما عدا القسم الشرقي القريب مِنْ بغداد، وقد غمرته المياه التي فاضت مِنْ ديالى، فان باقي أجزاء المدينة لم تتعرض إلا إلى أضرار قليلة نسبياً، لكنها تعرضت إلى خوف أكبر!

تراجعت المياه قليلاً لكن لم تنته. وخلال تراجعها، ولئلا يظن الناس أنها انتهت، نبه المسنون، بأسلوب لا يخلو مِنْ الحزم والغضب، إلى أن المياه غدارة، ويجب الانتباه أكثر مِنْ السابق، لأن الحواجز أصبحت هشة، ويمكن للمياه أن تجتاحها بسهولة، بعد أن أضعفت الهجمات السابقة كُلّ شيء، الأمر الذي يستدعي أن يندفع الجميع لتقوية السداد مِنْ ديد، وأن يضاعفوا انتباههم. وجاء مِنْ قال أيضاً: الثالثة ثابتة، فإما أن يتمكن الناس مِنْ مقاومة

المياه وصدها، أو أن المياه ستكون أقوى مِنْ البشر، وقد تقضي على كُلّ شيء.

لم ينتظر الناس لكي يسمعوا كُلّ هذا الكلام، إذ اندفعوا بحمية لا تعرف التردد أو الخوف، وكان الشباب فِي المقدمة. كانوا يتقدون حماسة، وكأنهم يخوضون حرباً. كانوا يعملون ليل نهار، فِي رفع السداد، فِي تقويتها، فِي ملء الأكياس وتوزيعها فِي أماكن عديدة، ليصار إلى استعمالها عند الحاجة وفِي المكان المناسب. كانوا يعملون بهمة لا تعرف التعب، ولا تتطلب أيّ حث أو مراقبة. ورغم صرامة الجو، وجهامة الوجوه، فإن الأغاني الحماسية التي انطلقت بخجل أول الأمر، لاقت تجاوباً سريعاً، وولدت قوة إضافية، بحيث أخذت تتردد أصداؤها مِنْ مكان إلى آخر، وأخذت عدواها تمتد حتى للأكبر سناً. أما حين ترافق مع الأغاني بعض التعليقات وغير قليل مِنْ النكات، فقد سُمعت، هنا وهناك، تحفظات أو ما يشبه اللوم، لكن ذلك لم يؤخر العمل، ولم يضعف الحماس.

كان الناس، حتى الذين لا يعرفون بعضهم، ولم يلتقوا مِنْ قبل، يتعاونون ويساعد بعضهم بعضاً بهمة ومودة، وينوب الواحد عن الآخر بأقل الكلمات، ودون كلمات فِي بعض الأحيان.

وإذا كان الكثيرون قد اندفعوا لمواجهة المياه، وإلى تحديها، وهم ينظرون إليها، فإن آخرين اعتبروا تأمين الطعام لهؤلاء الذين يعملون لا يقل أهمية عن مواجهة المياه، وهكذا جرى تقسيم العمل دون أوامر أو بأقل الأوامر، فقد طُلب مِنْ الصبية الصغار تعبئة التراب فِي الأكياس، ثم طلب مِنْ عدد منهم أن يؤمنوا ماء الشرب، وطلب مِنْ آخرين أن يأتوا بالمزيد مِنْ الفؤوس والمساحي، بحيث انتظم العمل بسرعة وبنشاط.

حتى الجنود الذين كانوا يعملون، اعتبر الكثيرون منهم هذا العمل سخرة، ولا يختلف عن الأعمال التي تعودوا القيام بها أثناء خدمتهم، وإذا اتصفت حركاتهم، فِي البداية، بالرخاوة، بالبطء وغير قليل مِنْ الملل، كما يفعل الإنسان فِي مواجهة عمل رتيب أو واجب ثقيل، إلا أن الحماسة التي اكتشفوها فِي الذين حولهم، وذلك الاندفاع الجامح الذي ميز الحركات والتصرفات، ثم وجبات الطعام الكثيرة التي أخذت تتوالى، وكانت تتوزع على الجميع بالتساوي، وما أعقبها مِنْ المرح والتعليقات... ما ان جرى كُلّ هذا ورأوه، حتى أصبحوا جزءاً مِنْ المجموع. واستغرب الطرفان أن ما يجمع بينهم الكثير، وأن الواحد منهم لا يختلف عن الذين حوله.

أكثر مِنْ ذلك، اختلط الليل بالنهار. ومع أن ذوي التجربة، وهم ينبهون ويحذرون، طلبوا أن يُبذل أقصى الجهد، إلا أنهم أضافوا ضرورة أن يجري ذلك بعِقل، مما يقتضي أن يتناوب الناس العمل، وأن يعطوا أجسادهم

مقداراً معقولاً مِنْ الراحة كي يستطيعوا أن يواصلوا، لكن أمراً مثل هذا، مهما بلغ الحرص فِي التنبيه إليه، فإنه لا ينتظم إلا بمقدار، ولا يأخذ شكلاً واحداً أو محدداً على الدوام.

كان الكثيرون إذا تعبوا، إذا شعروا بالنعاس، انتحوا جانباً ليستريحوا أو ليأخذوا غفوة صغيرة، ليعودوا إلى العمل مِنْ جديد. فإذا بلغ الإرهاق حداً معيناً، وشعروا انهم بحاجة إلى العودة للبيوت، فقد اكتشف الكثيرون أن البيوت فرغت مِنْ ساكنيها أو تكاد، إذ كان لدى كُلّ واحد ما يفعله، ما يساهم فيه. الصبية لا يتوقفون عن المشاركة، وإن كانت مراقبة المياه أكثر ما يشغلهم. النسوة تجمعن فِي أماكن محددة لتهيئة الوجبات السريعة.

الكبار تولوا تأمين المواد الأولية للطعام، والإشراف على إرسال الأكياس والماء الذي يمكن أن يُشرب، ولا ينسون إرسال التمر، «لأنه يقوي» كما يقولون، مع كميات قليلة نسبياً مِنْ فواكه الموسم.

الذين يعودون إلى البيوت للنوم، لأخذ قسط مِنْ الراحة، يجدون أنفسهم وقد اشتبكوا مع الكثيرين فِي أحاديث حول ما كان وما يجب أن يكون. وكان هؤلاء لا يترددون فِي طمأنة النسوة، يفعلون ذلك بصوت عالٍ، وبكلمات كبيرة، وكأنهم بذلك يطمئنون أنفسهم أيضاً. الكيخيا الذي شوهد مرة على السداد، بان على وجهه الهم، كما أعطى توجيهات، حاول أن تكون قصيرة، محددة، ثم مضى.

وحين تعالت همسات بأن مياه النهر ارتفعت بهذا المقدار تعبيراً عن غضب الرب على عباده، لأن الناس أوغلوا فِي الفساد! لم تلبث أن تحولت هذه الهمسات إلى دوي فِي أذني الكيخيا، ولما استفسر مِنْ الذين يعرفون بأمور الدنيا والآخرة، وقد سأل أول الأمر شمسي أميني، نائب المفتي، أكد هذا الأخير صحة ما نقل إلى الكيخيا، وأن الله عندما يغضب يبعث محذراً ومنذراً، ولأن زمن الأنبياء قد انتهى، فإن تحذير الله وإنذاره يكون مِنْ خلال ظواهر الطبيعة: أن يحبس الأمطار؛ أن يبعث الصواعق؛ أن يرسل الجراد. أما إذا بلغ غضب الله حده الأقصى، فإنه يُحدث الطوفان! الكيخيا الذي كان يسمع بانتباه، وكان وجهه يتقلص ويتغير، تبعاً لحجم الانتقام الذي يمكن أن يلجأ إليه الله، وحين ذكر شمسي أميني، الطوفان، سأل الكيخيا بذعر:

- وتعتقد أن الأمور وصلت إلى هذا الحد، يا مولانا؟

ـ كانت الأيام الماضية إنذاراً، وكُلّ مبتغانا مِنْ الله أن يكتفي بهذا الحد ولا يزيد!

- وماذا نفعل لكي يرضى عنا ولا يعرضنا لامتحان أكبر؟

ـ أن نوصل الليل بالنهار، عبادة وتهجداً ودعاء، عسى أن يستجيب!

وقيل إن الكيخيا قضى الأيام اللاحقة فِي مسجدي عبد القادر الكيلاني وأبي حنيفة، كما زار مقام الكاظم، وقيل إنّه اجتاز الطريق إلى الكاظم ببعض الصعوبة وبغير قليل مِنْ المخاطرة، فعل ذلك ليلتمس مِنْ هؤلاء الأئمة الشفاعة للناس.

الباشا بعد أن سمع بما يفعله كيخياه، إذ بدل أن يحشد كُلّ رجاله مِنْ أجل مواجهة الفيضان، وأن يشرف على ذلك بنفسه، أخذ يستدعي رجال الدين، أو يذهب إليهم، لكي يستعين بهم لوقف تقدم المياه.

استدعى الباشا طلعت باقة على عجل، كما استدعى عدداً مِنْ الرجال الذين يعتمد عليهم، وطلب إليهم أن يتوزعوا، مع الناس الذين يستطيعون جمعهم، على المناطق التي يحتمل أن يدهم منها الفيضان مدينة بغداد، وأن يبذلوا أقصى الجهود لعمل أيّ شيء لمنع ذلك.

قال لطلعت الذي استقبله قبل الآخرين:

- ابن القرملي ابد ما يجوز مِنْ مكسراته؛ ردناه بهذي المصيبة عون طلع لنا كاهن فرعون...

هز الباشا رأسه آسفاً، وأضاف بحنق:

ـ بدل ما يقضي ليله ونهاره على السداد، وينخي الناس ليقفوا بوجه الفيضان، يقضي وقته يفتر مِنْ جامع الثاني، وتعالوا يا أولياء خلصونا...

وتغيرت النبرة:

- حتى رب العالمين يقول ويعيد: عِن نفسك يا عبدي حتى أعينك، وهذا الفيضان ينراد له زنود قوية حتى توقف بوجهه، ما يريد دعاء هذول اللي ما ينعرف يستجاب دعاهم أم لا!

وتوالت هزات رأسه بأسف وضيق. تطلع طويلاً إلى طلعت، خرجت الكلمات آمرة:

- مثل ما اعتمدت عليك فِي الحملة، اعتمد عليك اليوم، وما ينراد أوصيك أكثر.

أما فِي ذلك المساء، وكان يطل مِنْ نافذة الغرفة الجنوبية على حديقة السراي المليئة بالأوحال، وكان القمر المتأخر ينير جوانب واسعة مِنْ الحديقة، وليس معه سوى فيروز، فقال كأنه يخاطب نفسه:

- يريد البك يصير دين براسنا؟ يريد يعلمنا الدين؟ هذي العايزة!

وبعد أن صمت طويلاً، بانتظار آخر الأخبار التي يفترض أن تصله مِنْ طلعت ومن الرجال الذين أوفدهم، قال لفيروز بسخرية:

ـ تقص أخبار ابن القرملي يجوز تلقاه باجر أو عقبه شاد لفة مثل لفة شيخ الإسلام أو أكبر، وقاعد يفتي!

وحين لاحظ ابتسامة واسعة على شفتي فيروز، ولديه ما يقوله، سأله:

- ها.. قول!

ـ جا ببالي ذاك المثل، يا أفندينا!

ـ قول!

- بعد الكبرة جبة حمرا!

وظلت المياه مداً وجزراً. ترتفع وتتراجع. تزمجر أو تتراخى. ظلت هكذا بضعة أيام، ثم جاءت الهجمة الثالثة.

قال الكثيرون، وقد تجمعوا فِي الأماكن المرتفعة، على سطوح المنازل، على أكوام الأتربة العالية التي تسد مداخل المحلات، على أطراف قباب المساجد، قالوا إن الأمواج كانت كالجبال، كانت ترى مِنْ بعيد، وكان يُسمع لقدومها دوي هائل، وكانت تبدو مترابطة متعانقة مثل سلسلة لا نهاية لها، وما أن تصطدم بحواف المجرى حتى تصطفق بأكوام التراب والحصر والأخشاب التي وضعها الناس، ويكون لاصطفاقها زمجرة تهز الأرض وتخلع القلوب، ومع هذه الحركة الجبارة كانت أكوام التراب المرتفعة تذوب كما يذوب الملح فِي الماء، إذ تكون فِي لحظة ثم تتلاشى فِي اللحظة التالية، وتنخلع معها الأخشاب القوية، وتتطاير الحصر كما لو أنها أوراق فِي ريح!

مِنْ أين أتت هذه المياه، وماذا ستفعل؟ لا أحد، فِي تلك اللحظات، يجرؤ على السؤال، ولا أحد يريد أن يجيب، فقد تجمعت كُلّ الحواس فِي العيون، تراقب، تتابع، وبمقدار ما كانت تتركز حول أقرب الأشياء كانت تذهب إلى البعيد.

ظلت المياه هكذا لساعات وساعات، وكُلّ لحظة مِنْ هذه الساعات دهر بأكمله، امتداد لا نهاية له، وخوف ينغرز فِي العظام. وكُلّ لحظة مِنْ هذه الساعات عجز وعي، وكأن الإنسان لم يعرف مِنْ قبل الحركة أو الكلام، وليس هناك أية رغبة سوى النجاة، فإذا لم يُستطع فأن يأتي الموت سريعاً وينهي دهر العذاب الطويل.

ولما كان عدد غير قليل مِنْ الذين لاذوا بحواف القباب، واعتلى بعضهم درجات المآذن، قد التمسوا النجاة بأدعية يتوجهون بها للسماء، وكانت فِي البداية استجابة لما يقوله الشيوخ وأئمة المساجد، وبدت تلك الأدعية واضحة كاملة وتُردد بصوت متضرع وبخشوع، فما لبثت أن أصبحت مجرد أصوات، بعد أن رأى هؤلاء، قبل غيرهم، جبال المياه وهي تتقدم. كانت

الأصوات تتردد برتابة، تتداخل، تتصادم لتصبح فِي النهاية نشيداً حزيناً له بداية لكنه لا ينتهي، وكله رجاء وتوسل، وكله عهد أن يصبح الإنسان شفافاً مثل أجنحة الفراش، صافياً كعيون الديوك، نقياً كمطر السماء، محباً ودوداً مثل يمام المساجد، فقط أن يفك الله الكرب، وأن ينقذ هؤلاء المحصورين بين المياه والسماء.

ومثلما يحصل فِي كُلّ مرة، تعرف المياه كيف تجد طريقها، كيف تصنع هذا الطريق إذا لم يبادر الإنسان إلى صناعته. وداود باشا الذي طلب مِنْ طلعت باقة أن يكون آخر الدواء الكي، وأن تكسر السدود فِي مكانين، الأول بالقرب مِنْ الطارمية، قبل أن يدخل النهر إلى بغداد، والثانية فِي تل محمد وما جاورها، بعد أن يخرج النهر مِنْ المدينة، وقد انتظر طلعت الوقت المناسب، وعض على جرحه إلى اللحظة الأخيرة، إلى أن أعطى الإشارة بإطلاق أحد مدافع القلعة، وكان قد اتفق على هذه الإشارة، إذ ما كاد يُسمع صوت مدفع القلعة، حتى ترددت أصوات الطلقات مِنْ منارة إلى التي تليها إعلاناً بتنفيذ الأوامر، وكسر السدود فِي هذين الموضعين.

وخلال ساعة، تزيد قليلاً أو تنقص، أخذت تتكسر جبال المياه، أخذت تتراجع. كانت تفعل ذلك بحنق ظاهر، بعربدة يمازجها الغضب، تماماً كحالة الجند حين يطلب منهم قائدهم الإنسحاب وقد أصبحوا على أبواب النصر، إنهم يمتثلون لما يريد، لكن يشعرون بلوعة الخيبة والوجع، ويتمنون لو أن ذلك لم يقع.

كانت الأمواج تتراخى، تضعف، وكانت المياه التي امتدت واتسعت تنحسر ساعة بعد أخرى، وكأنه طلب إليها ذلك، وكانت تتجمع مِنْ جديد فِي المجرى العريض الذي خلقه الفيضان لنفسه.

مع تراخي الموج كانت تتراخي أجساد البشر. ومع انسحاب المياه كان ينتشر الناس ويعودون مِنْ حيث أتوا. أما ذلك العي الذي شل الألسنة، فقد تحول إلى دوي مِنْ الأسئلة والصراخ والكلام المجنون. وما أن أطمئن الناس قليلاً حتى انسحبت العيون عن مجرى النهر لتنظر إلى ما خلفه الفيضان مِنْ آثار وأضرار، لتبدأ رحلة أخرى، أو نمط مِنْ الحياة مختلف:

كيف يمكن ترميم ما تخرب، وإصلاح الدمار، ومداواة الجروح، والتخلص مِنْ الحيوانات النافقة، وردم البرك التي خلفها الفيضان؟

قهوة الشط التي أصبحت كالسلحفاة خلال فترة الفيضان، لانها طوقت نفسها مِنْ نواحٍ ثلاث بأكياس التراب والحصير، وقد ساهم فِي ذلك جميع روادها، علاوةً على الكثيرين مِنْ أبناء المحلة والمحلات المجاورة، رغم احتجاج الأسطة عواد، الذي كان يقول وهو يرى الأكياس تتزايد:

ـ على كيفكم، يا جماعة الخير، لأنكم راح تدفنونا ونحن طيبين...

وحين يجد أن لا أحد يسمع، وتظل الأكياس ترتفع وترص، يتابع، كأنه يكلم نفسه:

ـ شنو فايدة القهوة إذا المحلة غرقت؟ إذا الناس ماتت؟

أما بعد أن انحسر الفيضان، وظلت الأكياس أياماً فقال للذين يتحلقون حوله، ولم تخل لهجته مِنْ المداعبة:

- صار بينا مثل ذاك اللي كان يبيع النومي، نشتري بدرهم ونبيع بقران...

ولأن المثل يعرفه الكثيرون، وكُلّ يفسره بالطريقة التي يشاء، فقد انتظر الجميع أن يفصح الأسطة عما يريد. حين وجد العيون منصبة عليه، أضاف:

ـ كُلّ واحد مِنْ نشامى القهوة والمحلة كان يشيل بدل الكيس ثنين؛ هسه، عونكم يا معودين، لكن كُلّ واحد حاط رِجل على الثانية، وأذن بها طين والثانية عجين، ولا أحد بباله أو يمه، وتعال خلص هالزمال مِنْ هالوحلة!

الملا حمادي الذي تغير صوته خلال فترة الفيضان، ثم بعد ذلك، ولأيام، قيل إن هذا التغير حصل نتيجة التضرع والبكاء، فقد انصقل صوته لأنه لم يتوقف عن الدعاء. كان يرفع يديه، وهو واقف وسط صحن الجامع يطلب مِنْ الله أن يفك الكرب، وأن ينجينا مِنْ الأعظم. كان يجأر بالدعاء والتوسل. أما فِي هجمة الفيضان الثالثة، فقد أكد الذين ترددوا على الجامع أنّه لازم المئذنة لا يغادرها، ومن هناك كان يتوجه بالدعاء والرجاء، وسمعه عدد مِنْ رواد القهوة، فِي لحظة الفيضان القصوى، وربما كان يرى أكثر مِنْ الآخرين وأبعد، يقول بصوت عالٍ: «يا رب السماء والأرض، يا شفيق يا رؤوف يا رحيم، الطف بعبادك، ونجهم مِنْ العذاب، ومثلما نجيت نوح وقومه نجنا، ونذراً علي، واسمع يا مالك الملك، إذا كتبت الحياة، أن أهب للفقراء كُلّ ما أملك، وأن أطيعك وأعبدك ما حييت».

وفى الملا حمادي ببعض النذر وأصبح صوته فِي الآذان والتمجيد حنوناً وفيه ضراعة! كما أولم لثلاثة مِنْ فقراء المحلة، وكان يلح عليهم أن يأكلوا قدر ما يستطيعون، وأشار قبل أن ينتهوا مِنْ الطعام، أن لديه مِنْ التمر البرحي مقداراً يريدهم أن يتذوقوه، وهذا ما جعلهم يتوقفون عن الأكل، خاصة وقد رأوا أولاد ملا حمادي يراقبون وينتظرون!

الأستاذ ناجي الذي وصل إلى القهوة عند الآذان فِي يومين متتاليين، وما أن سمع الصوت حتى سأل نفسه وسأل الآخرين ما إن كان الملا حمادي هو الذي يرفع الآذان، وحين أكد الذين سألهم أنّه هو، قال باستغراب:

ـ ظلمنا الرِجال وقلنا صوته خشن، وما به خشوع وحنية، لكن اللي يسمعه هسه يقول: خوش صوت، وطالع مِنْ الصدر!

سيفو الذي لم يره أحد بعد الفيضان، وبعد أن مر يومان دون أن يظهر فِي قهوة الشط، قلق عليه الكثيرون وتساءلوا، مما دعا الأسطة عواد أن يبعث أحد الصبية للسؤال عنه. ما كاد يدق الصبي الباب حتى فتحت له فطوم، وهي تشير بيد مزمومة أن يتكلم بهدوء، لأن أبا الوِلد نائم، ولما أبلغها أن الجماعة فِي القهوة يسألون عن سيفو ردت بسخرية:

- بابا روح وقول للي دزوك: أبو فلاح لازمه كومة نوم، لأن صار له أيامات ما نايم!

أما فِي اليوم الرابع، وحين جاء إلى قهوة الشط، فقد سأل:

ـ نحن بيا يوم؟

ولما أجابوا أنّه الخميس، بدا عليه الاستغراب، فابتسم دون أن يقول شيئاً. أما وهو يسمع الذين حوله يتحدثون عما طرأ على صوت الملا حمادي، وأصبح يشبه صوت ملا مهدي، فلم يصدق، لكن لم يعلق. أما حين سمعه فعلاً فقال باستغراب:

- سبحان الله، ما يجود إلا وقت المصايب!

وبعد قليل، كأنه يكلم نفسه:

ـ لو يلاقي له مكان بكربلا وما يقرا إلا مقتل الحسين! بعد أن مرت أسابيع على الفيضان، بدأت تُسمع قصص مِنْ نوع غريب: قيل إن الكيخيا بعد أن قضى أياماً فِي مراقد الأئمة، واشترك فِي رفع الصلوات والابتهالات، رأى رؤى عديدة، بعضها صالح والآخر يدعو إلى الخوف والتشاؤم، وقد فُسرت بضرورة أن يلتزم أحد الأمكنة المقدسة لا يغادره، ولا بد مِنْ مواصلة الدعاء هناك، لأن «بعد الشدة الفرج»، إذ سوف يستجيب الله ويرفع الكرب عن الناس. وقد احتار الكيخيا فِي اختبار المكان، حتى فكر بالذهاب إلى سامراء، وقال أحدهم فِي تبرير هذا الاختيار إن هناك «جب الغيبة» وربما حان وقت ظهور المهدي المنتظر!

لكن واحداً لا يكن الود للكيخيا قال إن السبب فِي اختيار سامراء أن فيها الملوية، فإذا صعد الكيخيا إلى أعلاها لا يمكن أن تدركه مياه الفيضان مهما ارتفعت! أما العقلاء الذين كانوا يسمعون فقالوا إن الكيخيا ظل فِي بغداد ولم يغادرها!

الباليوز الذي لحقته أضرار بسيطة مِنْ الفيضان، لم تتجاوز غرق الحديقة المطلة على النهر، وقد فُسر الأمر أن الباخرة المرابطة مقابله، وقد سحبت

عشرات الأمتار لمواجهة المياه، صدت عنه الأمواج القوية، إذ امتصت، ثم دفعت بعيداً تلك الأمواج؛ وما ساعد على حمايته أكثر ارتفاعه عما حوله، إذ كانت المياه بمقدار ما تصله تندفع خارجة منه إلى الأماكن الأقل ارتفاعاً، وقد أدرك الكثيرون الآن أن زوجة القنصل، حين كانت تشرف على إعادة ترتيب الحديقة، وتجعل لها ميولاً بشكل معين، لم ترق فِي حينها للبنائين والعمال، ووصفها الأسطة حنون وقتها بالخبل، وسمع حول ذلك أكثر مِنْ تعليق فِي قهوة مراد، حتى قيل إنها تريد إعادة بناء جنائن بابل، أدرك الكثيرون الآن أن تصميم الحديقة بهذا الشكل يساعد على تدفق المياه خارجها بسرعة.

هذه الأضرار القليلة التي أصابت الباليوز، لم تمنع مِنْ ظهور مشكلة ثانية، وهي الفزع الذي أصاب الحيوانات، إذ أكد الذين يسكنون فِي الجوار، أن أصوات الحيوانات لم تنقطع ليل نهار، وكانت تُسمع مِنْ مسافات بعيدة. ولقد رويت حول الموضوع قصص كثيرة، بل وأصبحت مجالاً للتندر فِي مقاهي الرصافة. لكن بعد أن التقطها خبثاء محلات ذاك الصوب مِنْ أفواه الخدم والحراس، ومن جمعة، الذي كان سائساً فِي الباليوز ثم تم الاستغناء عنه، حوروها. روى هؤلاء قصص الفزع والاضطراب، وما أصاب الحيوانات مِنْ هياج، بحيث فكر القنصل أن يطلق عليها النار، أو أن يلقي بها فِي مجرى النهر، نظراً لما تسببت به مِنْ إزعاج وصخب. ولقد أدى هذا، أو ربما غيره، إلى أن تستبد بزوجة القنصل حالة مِنْ الخوف ترافقت مع البكاء، بحيث رفضت الأكل، ولم تستطع أن تنام، وظل الأمر كذلك إلى أن انتهى الفيضان، وقد قال كُلّ مِنْ رآها إنها أصبحت امرأة ثانية بشكلها وتصرفاتها!

القصة الأخيرة، ما كادت تعبر النهر إلى صوب الكرخ، حتى تلخصت بكلمة واحدة: حسون، فلا بد أن يكون وحده المسؤول! إذ بعد أن أشعل فِي صدرها ذلك الحب الذي لم تستطع أن تنساه، رغم الهجران والسفر الطويل، ولخشيتها أن تقضي فِي هذا الفيضان المدمر، لم تعد المرأة قادرة على الصبر أو على الكتمان! ولأن الموت أصبح قريباً هكذا، ولم تعد تخشى شيئاً أو أحداً، فإن أمنيتها الوحيدة أن تصل إلى هذا الذي عذَبها، الذي شغل ليلها ونهارها، ولعل ما يؤكد ذلك رفضها القاطع للأكل والنوم.

ونظراً لأحزان الفيضان، وما تركه مِنْ آثار، فإن الخبثاء الذين أرادوا اشعال هذا الحريق فِي قهوة الشط، إذ نشروا القصة، وحوروا فيها، لم يجدوا آذانا صاغية، أو اهتماماً يمكنهم مِنْ مواصلة اللعبة.

قال الأسطة إسماعيل لما بلغته الأخبار:

- صدق اكو ناس بالدنيا ما عندهم وجدان؛ حسون وين وزوجة القنصل وين. خلوا الرجال بهمة، وخلونا مِنْ هالسوالف!

أما حين استوقفوا حسون ليسألوه عن الأمر، فقد ردَّ باستعجال:

- هالأيام آني هواية مشغول، ما أقدر أحك راسي، بس هذي يجي وقتها!

ولما استوضحوا عما يشغله، وكيف يطاوعه قلبه أن يترك المرأة تذوب دون أن يحرك ساكناً، ردَّ بمكر:

- إذا خلصنا مِنْ بناء الطولة الجديدة، يصفي دماغنا، وبعدها: الله كريم!

ودخل نيسان تلك السنة ثقيلاً، ببخار الماء الذي ملأ المدينة، وبتلك الحرارة الكثيفة التي تسبب الضيق فِي الصدور، وبذلك الدوي الذي لا يزال يولد الأحزان نتيجة الأيام الصعبة التي مرت.

استغرب ريتش ردَّ فعل الباشا إزاء العرض الذي قُدِم لتسليح جيش الولاية، قال لنكلسون فِي الليلة التي وصل فيها ردَّ السراي بالاعتذار، وتأجيل الأمر إلى وقت لاحق، قال له:

- مِنْ الصعب فهم ردود فعل هؤلاء الشرقيين، إذ بالاضافة إلى أنهم لا يفصحون عن رأيهم بصراحة، فإن وجوههم كتيمة، وأغلب الأحيان مضللة، وبالتالي لا تعبِر عن شيء واضح أو محدد، بحيث لا تستطيع أن تقدر ما إذا كانوا موافقين أم لا، هل هم سعداء أم لا؟

- ولكنه كان يبتسم على الدوام!

- هذا جزء مِنْ المكر الذي يلجؤون إليه، يسمعون ما تقوله لهم، لكن لا تعرف ماذا سيفعلون، بل وفِي أحيان كثيرة يفعلون عكس ما تتوقع!

وحين هز نكلسون رأسه باستغراب، أضاف ريتش وقد شاب صوته شيء مِنْ الحنق:

ـ إنهم أقرب إلى الحيوانات غير المدربة، ناهيك عن البشر المتحضرين، ودائماً لديهم ما يقولونه لتبرير ذلك!

أما بعد أن خيم الصمت، فقد قال ريتش لنفسه: «داود جرز مسن، لذلك تجنب التقاط الطُعم، عرف أنّه لا يواتيه، فابتعد عنه، تركه، وهذا يستدعي استخدام طعم ثانٍ لاصطياده»، وأخذ يستعيد ملامح داود، وردود أفعاله إزاء الأحاديث التي جرت. كان وجهه ينبسط ويتقلص تبعاً للحديث الذي يدور. حين جرى ذكر محمد علي باشا، بان عليه السرور، لكن لم يدم طويلاً، ربما لإدراكه أن الفرق بينه وبين باشا مصر كبير، ليس فقط مِنْ حيث القوة والسبق، بل ومن حيث الموقع الجغرافي. إذ فِي الوقت الذي تنعم مصر بحماية طبيعية مِنْ ناحية الصحراء، التي تشكل حاجزاً يمنع تقدم الأعداء، فإن البحر الذي يقابلها يشكل رئة إضافية لها، إذ تتنفس مِنْ خلاله. هذا علاوة على النسيج الموحد للناس الذين يعيشون هناك، فِي حين أن العراق مطوق بالأعداء، وممر للقوات وميدان للغزاة، إضافة إلى ما يعانيه مِنْ مرض البداوة الفتاك، ثم ذلك التنوع لساكنيه، والذي لا يشابهه سوى سكان أميركا!

ربما مرت هذه الفروق فِي ذهن داود، وهو يقارن بين مصر والعراق، بينه وبين باشا مصر، لذلك لم يستهوه أن يسأل عما قدمته بريطانيا لمصر، أو كيف تم الاتفاق مع محمد علي باشا.

أما الباخرة الحربية التي توقفت لمدة أسبوعين فِي بغداد، وملأً بحارتها جنبات المدينة ضجيجاً وطرافة، فإن الباشا لم يكلف نفسه زيارتها.

صحيح أنّه أوفد عدداً مِنْ رجاله، خاصة مِنْ العسكريين لتفقدها، وقد فعلوا ذلك أكثر مِنْ مرة، وسألوا نكلسون عن مزاياها وثمنها، وما إذا تستطيع الولاية شراء سفن تماثلها؛ ولا بد أن يكون رجاله قد حدثوه عن كُلّ شيء، حتى أدق التفاصيل! لأن نكلسون كان بارعاً ليس فقط حين عرض مزايا الباخرة، بل وهو يتحدث عن مزايا السلاح الانكليزي، وبالغ فِي إيراد التفاصيل، وأكد أنّه لن تمر سنة، وأقصى حد سنتان، إلا ويكتسب جنود الباشا مزايا الجنود الهنود، وربما يصلون، فِي وقت لاحق، إلى مستوى الجنود البريطانيين! ولم ينس نكلسون الإشارة إلى استعداده لإجراء مناورة بالذخيرة فيما لو رغب الباشا بذلك، لكن الباشا لم يأت ولم يرد!

ولما جرى الحديث عن الطريق البري، عبر الفرات، بدا الباشا أكثر مرونة. سأل بتدقيق، واستوضح وتوقف عند عدد مِنْ النقاط. ولو كانت ملامح الوجه تكفي للحكم على الاحتمالات، فيمكن القول إن الباشا بدا مسروراً، وأكثر استعداداً لمواصلة البحث فِي هذا الموضوع.

قال ريتش لنفسه، وكان يهز رأسه بغيظ: «لقد أدرك هذا الخلد الأعمى، وبغريزة الشرقي الحذر، أن للسلاح ثمناً سياسياً ومالياً لا يملكه الآن، ولهذا لم يشأ أن يخوض فِي هذا الأمر، لئلا يحرج نفسه، كما أدرك انعكاس ذلك على اسطنبول، إذ ربما اعتبرته تحدياً، أو أنّه يقتفي خطوات باشا مصر، وقد يفعل مثله، وكلا الطرفين غير مستعد لذلك الآن.

«أما موضوع دجلة والفرات فإنه أكثر أمناً، ويمكن الوصول فيه إلى نتائج عملية، دون اغضاب السلطان. فهذان النهران منذ أن شقا طريقهما قبل مئات آلاف السنين، لم يخلقا الحياة على ضفافهما وحسب، بل وأصبحا موضع اهتمام الكثيرين، لأنهما خير دائم. أما إذا تحولا الآن إلى طريق للتجارة والنقل، فلا بد أن يجلبا المزيد مِنْ الخير، إذ يمكن تقاضي الرسوم على البواخر التي تمر، وستكون مورداً إضافياً لخزينة الدولة، واسطنبول ضعيفة إزاء أيّ مشروع يأتي بموارد جديدة، ولا بد أن يوافق السلطان على اقتراح مِنْ هذا النوع، بل سيكون مسروراً».

هكذا مرت الأفكار والاحتمالات فِي رأس ريتش، بعد الأحاديث التي دارت مع الباشا. ولأن معركة مِنْ نمط جديد لا بد واقعة بين الاثنين فِي وقت مِنْ الأوقات، فيجب الاستعداد بكثير مِنْ الدقة والبراعة، «وإذا أفلت الجرذ هذه المرة، ولم يقترب مِنْ قطعة الجبن، فلن يتأخر كثيراً حين يحس بالجوع».

داود الذي انتهى مِنْ معركة الفرات الأوسط، ورغم أن الصيد أفلت مِنْ يده هذه المرة، بهروب الشاوي وصادِق، إلا أن الرسالة التي بعث بها إلى

البدو، وصلت إلى مِنْ يعنيهم الأمر، وأصبح هؤلاء فِي حيرة حقيقية، فهم غير مستعدين للامتثال لما يريده الباشا، ولا يطيقون محاربته فِي نفس الوقت. لا يمكن أن يصادقوه ويوافقوا على ما يريده منهم، كما لا يستطيعون الرفض، وهكذا وجدوا أنفسهم فِي مأزق حقيقي!

ثامر بن حمود الذي كان ملء السمع والبصر، طوال الفترة التي حكم خلالها سعيد باشا، أدرك قبل غيره، أنّه لا يستطيع مواجهة داود باشا، كما قدر أن وقت ذلك لم يحن بعد، فآثر السلامة، وانزوى.

والباشا حين رأى حمود بنزوي تركه، لم يتحارش به، فقد كانت لديه مهمات أكثر إلحاحاً. أما الذين حاولوا اختبار قوى الباشا، وهذا ما يلجا إليه البدو عادة إذا جاء والٍ جديد، بالامتناع عن دفع ما يستحق عليهم للدولة، فقد انتهى بهم الأمر إلى العصيان، ثم لخوض معارك كلفتهم غالياً.

الآن، بعد أن استقر الوضع لداود باشا، بدأ يفكر بما يجب أن يفعله، وأخذت الأحلام الكبيرة تعاوده فِي الليل والنهار.

صحيح أنّه لا يثق بأكثر الذين حوله، إذ يعتبرهم غير أكفاء، إضافة إلى كسلهم، فإنهم أقرب إلى البلادة، كما يفتقدون ذلك الجنون المحرض لبناء الدولة التي يحلم هو بها، لكن ليس لديه الآن غيرهم، مما يضطره لإسناد مهمات محددة لهم، مع الكثير مِنْ التوصيات والمراقبة، لعل بعضهم يتغير، أو تتهيأ الظروف لأن يستبدلهم بآخرين أكثر حماسة وأكثر نشاطاً، وقد يتغاضى عن أخطاء بعضهم، ولكن لن ينساها!

قال لخلف بطريقة لا تخلو مِنْ تعريض:

- أريدك تفتح عينك زين على البك، حتى ما نتخلَف، يا خلف، عن التهنئة والتبريك، إذا جاءه ولد، إذا تزوج، لأن سلالة مِنْ هذا النوع يتدور عليها بسراج وفتيل!

قال الباشا هذا الكلام، لأنه لم ينقض على الفيضان إلا أيام قليلة حتى تزوج الكيخيا؛ تزوج مِنْ فتاة صغيرة رآها فِي صحن الكاظم، أثناء إحدى جولاته على المراقد المقدسة، وكانت آتية مع أسرتها مِنْ كرمنشاه للزيارة.

إذ ما كادت نظراته تقع عليها، حتى خفق لها قلبه وأحبها! بعث أحد رجاله إلى هذه الأسرة ليقدم تحياته ويعرض المساعدة، كما بعث بآخر إلى المشرف على المقام يبلغه أن هذه الفتاة استهوته، ويطلب منه أن يتفق وأهلها، لأنه يريد الزواج منها على سنة الله ورسوله!

جرى هذا الزواج، ولم يعلم به الباشا إلا بعد أيام، الأمر الذي جعله ينبه على خلف بتلك الطريقة. فيروز الذي كان يستمع صامتاً، قال بلهجة أقرب إلى الغمغمة:

ـ لو ظلت على هذي لهانت، لكن لو تعرف شنو اللي صار بذيك الليلة، يا أفندينا!

والباشا الذي لم يفطن لوجود فيروز، أو على الأقل معرفته بهذا الزواج، التفت نحوه وهو يسأل:

ـ يعني آني الوحيد اللي فاته عرس المسعد والمسعدة؟

- براسك، يا أفندينا، مسائل وهموم أكبر مِنْ هذي السوالف!

ـ أيّ.. شنو اللي صار بذيك الليلة؟

فيروز وهو يتبادل النظرات مع خلف، كان يحرضه لأن يتكلم، لأن يروي للباشا ما حصل. حين وجده صامتاً، كأنه يتهرب مِنْ هذه المهمة، قال:

ـ عند العصر قطع الشيخ شمسي المهر، وقبل ما ينتهي الحفل طبت مريم الشركسية، آخر زوجاته قبل الجديدة، على المجلس، ودبت الصوت: منها كلمة ومنه كلمة، وانلاصت: بكا، وشق هدوم وهلاهل وكُلّ واحد يجر مِنْ صفحة، عبالك طهور كاولية، وما خلصت القضية إلا بألف ويلاه!

ردَّ الباشا، وهو يهز رأسه هزات لوم وتأنيب:

- كُلّ هذا يحصل وآني ما أدري؟

قال خلف فِي محاولة للتبرير:

ـ ما ردنا ندوخ رأسك بهذه المكسرات يا باشا!

- يخلف عليك يا خلف، فإذا كان مثل هذا الشي يحصل بأقرب مكان إليّ، ومع نائبي، وما أدري، فلا بالله نحن بألف خير!

وبعد قليل، وكي يسمع خلف وغيره، أضاف:

- هسه هذي فاتت، لكن بعد اليوم إذا طير مر لازم أعرف، لازم أحد يقول لي!

لما توالت هزات رأس خلف أنّه سيمتثل، وليعطي الموضوع طابعاً مرحاً، عقب الباشا:

ـ تجمع هسه، مِنْ هنا.. مِنْ هنا، أربعين خمسين فرخ حمام، وتوصلها بنفسك للبك، ومعها قرابة عسل، وتقول له: تبريكات الباشا وبالرفاه والبنين!

فِي تلك الليلة، وفِي ليالٍ كثيرة غيرها، كان السؤال الذي يعني الباشا، ويجعله حائراً: كيف يمكن أن يبني دولة جديدة وقوية مِنْ خلال هؤلاء البشر الذين لا يحسنون سوى التثاؤب وبعض الأحيان الثرثرة؟

قد يكون الذين حوله يكنون له المحبة والاحترام، وربما لا يفكر أحد منهم بخيانته أو أن يكون أداة فِي يد أعدائه، لكن هذه الصفات وحدها لا تكفي. يريد بشراً مِنْ نوع جديد، يفهمون عليه بالإشارة ما يريد، ويمتلكون الطاقة والرغبة فِي أن تتحول الأفكار والأحلام إلى وقائع على الأرض، وأن تشتعل فِي داخل كُلّ واحد منهم جمرة مقدسة تدفعه لأن يعمل ليل نهار.

كان يقول لنفسه، وهو يستعرض حياته منذ أن دخل السراي صغيراً، وحتى اللحظة الراهنة، بعد أن أصبح قادراً على أن يترجم أفكاره وأحلامه:

«مشكلة ناس هذي البلاد: قلة الصبر، دائماً يصرخون، يهرولون، لكن لا يعرفون بالضبط وين رايحين، أو كيف يصلون، ومعنى ذلك أن تنوب عنهم فِي كُلّ شيء: أن تفكر نيابة عنهم، أن تقول ما يجب أن يعملوا وكيف، أن تبقى ساهراً على كُلّ خطوة، ومراقباً لكل تصرف، لأنهم مثل الغنم، إذا غفلت عنهم لحظة واحدة تاهوا، احتاروا بأمرهم، ثم يبدأ بعد ذلك جنونهم الخاص، إذ تستهويهم فكرة التدمير، ورغبة الاعتراض على كُلّ شيء، فإذا لم يجد واحدهم شخصاً يعاديه، يحاربه، فإنه يحارب نفسه، ويمكن أن يموت دون أن يعرف لماذا أو!» ومثلما استغرب الباشا العروض التي قدمه تواريه خلال الفترة الأخيرة إذ بعد أن كان يثير اهتمام اه. التي كان يقوم بها فِي الأسواق، وبالاستعراضات التي كان يقيمها لحيواناته، ثم تلك الضجة التي يحدثها أثناء ذهابه إلى الصيد، أو العودة منه، انتهت كلها بعد أن غادرت السفينة الحربية بغداد. لم يعد يُشاهد إلا نادراً، كما توقف عن استقبال الكثير مِنْ الأصدقاء فِي الباليوز، أو تلبية دعواتهم فِي المزارع المحيطة بالمدينة، أو حتى فِي بيوتهم.

سأل الباشا عزرا الذي تعود زيارة ريتش أسبوعياً:

- صار أيام طويلة لا شفنا القنصل ولا سمعنا أخباره، يا عزرا أفندي، فعسى أن يكون المانع خيراً؟

ردَّ عزرا، وكان يتحاشى أن ينظر إلى عيني الباشا:

- علمي علمك، يا باشا...

وبعد قليل وبنبرة محددة:

- واللي سمعته مِنْ بعض الأخوان، يا باشا، أن زوجته مريضة، ويجوز هذا اللي يشغله.

- هم زين أنك قلت: لازم نسأل عنه وعن أهل بيته، لأنه غالي علينا...

وبعد قليل وبأريحية فياضة:

- وإذا كان محتاج فد شي، يمكن الله يقدرنا ونسوي زينة ويا الرجال!

ـ قالوا إن حرمته ظهرها ضعيف، وبعد حمل شهور، الله ما كتب أن يجيه وليد، ويجوز هذا غاثه، وجاعل الدنيا سودة بعيونه.

ـ ما يستاهل، لأنه خوش آدمي!

بعد أن خيم الصمت، وطال، قال الباشا:

ـ إذا لك روحة يمه بلغه تحياتنا، وقل له إن الباشا هواية انقهر، وإذا يحتاجنا بفد شي نحن حاضرين؛ وإذا ما راح تشوفه بأيام قريبة، يمكن ندز أحد مِنْ تشريفات السراي.

ردَّ عزرا بارتباك:

- يجوز تتأخر زيارتي، يا باشا، والأحسن أن تبعثوا بواحد مِنْ التشريفات..

وبعد قليل:

- وإذا زرته، هم راح أبلغه تحياتكم، واستفسر إذا كان يحتاج إلى مساعدة!

بعد أيام قليلة أوفد الباشا ناطق أفندي وصفوت قرداغ. وإذا كان صفوت اكتفى بتقرير شفوي قصير عن هذه الزيارة، فإن ناطق أفندي كتب تقريراً طويلاً، «لأن دماغي ما يصفا إلا إذا حطيت أسود على أبيض، وبعدما أقرا الكتابة مرة وثنتين، واتأكد، ترفع إلى الباشا» هكذا قال ناطق أفندي لصفوت، الذي طلب إليه أن يقدم تقريره الشفوي بمفرده.

كتب ناطق أفندي:

«... وأرجح، يا فخامة الباشا، أن خطأ حصل فِي تحديد الموعد، وقد لاحظت ذلك مِنْ ارتباك الحراس وعدم وجود الموسيقى والأفراس، ومع أن ميناس هب للاستقبال، لكن الاستعداد لم يكن كافياً، والتحضير لم يكن وافياً. ومما زاد فِي صحة التقدير، دون سابق تبرير، أني لمحت القنصل مِنْ الشباك، وكان بملابس عمال التنباك: عمرة بلون البهار، فِي وضح النهار، تغطي الرأس حتى القذال، المقص فِي يد والغبار على الوجه كالسد، وأغلب الظن أنّه كان يتعامل مع الأشجار، دون حيطة أو ستار.

«جالسنا ميناس وقتاً غير قصير، وهو فِي حيرة وهم كبير، إذ لا يعرف متى يصل القنصل، وفِي الأحاديث يُدْبر ويقبل، لأنه كان دائم الالتفات، وينظر إلى الساعة المعلقة على الجدار لمعرفة الميقات. القلق يرتسم فِي عينيه والابتسامة تهرب مِنْ شفتيه، يقعد ويقوم، كأنه زيت على ماء يعوم، إلى أن جاء القنصل فتركنا وانصرف، وبدا أن الاضطراب عن كتفيه خف أو انخطف.

«... وأبلغنا القنصل تحيات فخامة والينا، وقد استعملنا صيغة الجمع فِي توجيه التحية والسلام، عله يدرك المرام، ويفهم أن حرمه ضمن المقصود، لكن لم نصلِ إلى يقينٍ ثابت مشدودِ، الأمر الذي أَوقعنا فِي حيصِ بيِص، لأِنه

لم يحر جواباَ حاسماَ، ولا بدا عليه أنّه كان فاهماَ، ولم نر مناسباَ أن نسأل عن حرمه تخصيصاً، إذ ربما يعتبر ذلك تدخلاً وتلويصاً، إلى أن ضاقت الروح، وحان وقت الاستئذان، فتجرأت وقلت:

يا سعادة القنصل إن حرم والينا تخص حرمكم السلام، وتتمنى لها سرعة القيام، فرد وقال: بلغ فخامة الوالي الاحترام، وحرمنا تبلغ حرم الوالي السلام، وغادرنا دون أن نتأكد، لكن الملامح، مهما تستر الإنسان تفضح، وزلات اللسان تقدح، فالقلق عليه بادي، وبين السؤال والجواب وادي، أما العينان فزلقتان، وكلماته لها دربان، النظرة نقائض والابتسامات فوائض، وبين النظرة والابتسامة صحراء غبراء، وهمهمة عمياء، فلا يُعرف إن كان يعني ما يقول، أم أنها مجرد كلمات فِي البال والخاطر تدور وتجول.

فخامة أفندينا المعظم، أدام الله عزه ونصره قمنا بالواجب على أكمل صورة وخير وجه، لكن النوايا شائكة، والأفكار سالكة هالكة، وهكذا ذهبنا وعدنا دون الوقوف على المقصود، أو الوصول إلى الغرض المنشود، الأمر الذي يستوجب زيارة ثانية وربما ثالثة، علنا نصل إلى المراد، ويجعل خطواتنا أقرب إلى السداد، والله الموفق فِي البدء والختام، وتقبلوا يا فخامة الوالي المقدر جزيل الاحترام.

خادمكم المخلص دائماً» وبعد ذلك توقيع لا يمكن لأحد أن يميز حرفاً مِنْ حروفه، ويختلف مرة عن أخرى!

الباشا الذي ألقي نظرة سريعة على تقرير ناطق أفندي، كتب عليه حاشية تقول: «الفطارة صفة تخلق مع الإنسان وتلازمه طوال حياته، والمصيبة أن الفطير لا يعرف أنّه فطير.

يُحفظ، ويعاد عرضه علينا إذا طلب ناطق أفندي الترفيع».

والتفت الباشا مِنْ جديد، إلى القوات العسكرية، يعيد تنظيمها، ويطلب زيادة تدريبها واستعدادها، ويحاول أن يؤمن لها ما تحتاج. أما الجهاز الإداري «فإننا نحتاج إلى تغييره، لأن الجهاز الحالي ميؤوس منه، ولا تجدي محاولة إصلاحه، ولو حاولنا فإننا نكون كمن ينفخ فِي قربة مثقوبة».

ونام الباشا تلك الليلة، وقد حلم أحلاماً كثيرة، لكن أوضحها كان لقاؤه بباشا مصر، محمد علي، وقد تحدثا طويلاً، وفِي لحظة معينة شد محمد علي كتفه، وقال له: لا تخف. ولم يتأخر داود باشا فِي استدعاء محب الدين لكي يفسر له المنام!

الذين عرفوا ذنون الحاج حسن مِنْ قبل، أنكروه تماماً حين رأوه بعد الفيضان. لقد تغير بالكامل مِنْ حيث الشكل والتصرفات. فخلال أسابيع قليلة تحول شعره الرمادي إلى كتلة مِنْ البياض الناصع، وزيادة فِي عقاب النفس أطلق للحيته العنان أيضاً، ولم تتأخر لتظهر بيضاء كثة فِي وجه مشرب قليلاً بالحمرة. أما الهدوء الذي ميز تصرفاته خلال الفترة الماضية، فقد تحول إلى نزق أقرب إلى التحدي، وكأنه لم يعد مبالية بالمجاملات أو بردَات الفعل.

كان إذا سئل عن الشيب الذي هجم بسرعة وبهذه الكثافة يرد:

ـ الهم مو بس يشيب؛ الهم، يا جماعة الخير، يهد جبال!

وحين يسمعه الأسطه اسماعيل، يعلق بسخرية:

ـ صحيح إن الهم يهد جبال، لكنه ما يهد الرجال.

فيرد عليه بمرح:

ـ قول اللي تقوله يا أبو حقي، لكن الصدق، ولازم أعترف: هذا الفيضان كسر ظهري!

ولئلا ينصرف الذهن إلى الأضرار التي لحقت ببستانه، وبالبيت فِي الأعظمية، ويعتقد الذين يسمعون أن الخسائر المادية هي التي هدته وشيبت شعره، لا يتأخر فِي التوضيح:

ـ المال، يا أبو حقي، ومن يوم ما الله خلق الدنيا، يجي ويروح. حتى فرعون اللي حكم الدنيا وكدس مِنْ الأموال أكوام، جت النار على غفلة وأكلت الأول والتالي، ومثله أمثال، هاي ما لنا بيها. ومثل ما النار تأكل الأخضر واليابس هالشكل الفيضان. وإذا سألتني هسه عن البستان اللي تدمر، وعن البيت اللي وقع، أقول لك: قَدَر، قسمة ونصيب، وحالي حال غيري، لكن اللي ما يتعوض، وهذا اللي قاهرني: الأعمال الجميلة اللي سويتها وأخذها الفيضان...

يتوقف قليلاً، يأخذ نفساً يكفي لنجاة غريق، ويأتي صوته مختلفاً:

ـ كُلّ أيام الصيف والشتاء بطوله، وآني أشتغل. ما أعرف منين جاني هذا الواهس. مِنْ الفجر إلى أن تغيب الشمس، اشتغل بالطين، بالخشب، بالحجر. والأشكال اللي طلعت مِنْ بين إيدي ما يسويها بشر، جبيرة، زغيرة، شي مفخور وشي ملون، أما الخشب، يا أبو حقي، فصار بين إيدي يحكي

ويبكي، وآني نفسي متعجب وما أدري شلون هذي الأشياء الحلوة تصير! الله، سبحانه، خلى دماغي مو بس يشتغل، سواه يطير ويشتعل. إذا خلصت مِنْ الطين اندار على الخشب، وإذا تعبت مِنْ الخشب، أشوف الحجر بوجهي يناديني، يقول لي: إنت وين؟ أريد أشتعل، أريد أطير، وما أفشله ولا أخليه ينتظر، أقع به دق، وكُلّ دقة يا جماعة الخير كأنها العتابا، وحدها تغني وترقص...

توقف فجأة، وربما مرت صور التماثيل التي أنجزها فِي مخيلته، فقال بحزن:

- يجوز أحد منكم يقول: تتعوض، تقدر تسوي غيرها، لكن كُلّ ظني أن مثل هذي الأشياء ما تتسوى إلا نوبة وحدة، مثل طلقة الصياد إذا طلعت ما ترجع، وهذا اللي قاهرني، هذا اللي هد حيلي، وشيب شعري؛ وهسه عرفت، يا أبو حقي، ليش صار بي هالشكل؟

قال أبو حقي فِي محاولة لمواساته:

ـ اللي سوى ذيك الأشياء الحلوة يقدر يسوي غيرها، يا سيد ذنون، وبعدين اللي يشوف مصيبة غيره تهون عليه مصيبته!

- شغلتنا، يا أبو حقي، تختلف عن شغلات هوايه: تصير أو ما تصير. وإذا صارت نوبة يجوز ما تتكرر.

قال الأسطه عواد الذي التقط طرف الخيط:

- افتهمت عليك كلش زين يا أبو عمر، لأن المسألة مِنْ الأول للتالي مسألة واهس...

وحين لاحظ أن كلامه لم يرق لأسطه اسماعيل، تابع موضحاً:

- مثل اللي يغني، يا أبو حقي، إذا عنده واهس يسلطن ويجود، يطلع الغنا مِنْ جوا الصدر، مو بس لسانه يغني، أعصابه كلها تغني وياه، وروحه ترفرف مع كُلّ كلمة يقولها. أما إذا ما عنده واهس فتشوف الكلمات مسطرة، مثل الحطب، يجوز تقرقع، لكن بالنتيجة ما تقول فد شي!

- بس سيد ذنون صاحب صنعة، مثل اللي يعرف يقرا المقام، بكل وقت يعرف شلون تكون اللزمة، فلا تخاف هوايه، أبو نجم!

ردَّ الأسطة إسماعيل.

- والعمر منين؟ والواهس شلون يجي؟ وبعدين الشي اللي صار فد يوم يصير مثله نوبة ثانية؟

هكذا سأل ذنون بمرح، وكان يوزع نظراته على الذين حوله.

الأستاذ ناجي الذي جاء متأخراَ، وقد تسلل إلى المجموعة بحذر، كي لا يقطع الحديث الذي يدور، سمع قسماً مما قيل، فتدخل حين سمع أسئلة ذنون المرحة:

- يجوز ما لي حق أتدخل، لأني جيت متأخر، وما عرفت شلون بدت السالفة، لكن والشهادة لله، ومن خلال معرفتي بكم شاعر، ومعرفتي بقاري المقام الملا عبود، وانتو تعرفونه، إن أهم شي للشاعر الشاعر:

الواهس، وهذا، مثل ما قالوا: يجي وحده، بسكوت، بليا ما الواحد يدري، فإذا لزمه الشاعر طلع منه شي يسوى، وإذا فلت منه راح. ونفس الشي لقاري المقام، أما إذا الواحد راد يصفِط حجي، فيسمونه نظام مو شاعر، ويجوز هذا اللي يقصده الأستاذ ذنون.

- تمام، ويسلم حلقك، يا أستاذ ناجي، هذا هو قصدي.

بهذه الطريقة الفرحة ردَّ ذنون، وأضاف:

- ومثل ما قلت للجماعة: خسارة المال تتعوض، مو اليوم باجر، بس شلون تتعوض خسارة الأفكار اللي مرت مثل المنام؟ الأفكار اللي جت وحدها بدون ما تدري، واللي كانت تشغل مو بس الإيدين، كانت تشغل الروح كلها؟

قال الأسطة اسماعيل بنبرة لا تخلو مِنْ دعابة:

ـ لأن بينا ميانة، سيد ذنون، أقدر أقول أنك سديتها بوجهنا، ورحت بيها زايد، فما دام الواحد منا قوي ورايد، كُلّ شي سهل، كُلّ شي ممكن، فسهلها تسهل، لأن قلوبنا، الله يرحم والديك، صارت عطابة سودا!

سيفو الذي أصبح لا يأتي إلى قهوة الشط إلا متأخراً، وبعد أن يطمئن على الخيل، ويطمئن على الحاج صالح العلو قبل ذلك، وصل حين بلغ الحديث هذا الحد، وقد وجد الأسطة إسماعيل مناسبة لأن يغير اتجاه الحديث، سأل سيفو:

- جيت والله جابك، يا أبو فلاح، ومثل ما قلت فد يوم: إذا سيد ذنون يريد أحد يساعده بشغله، فإنت مستعد؟ بعدك عند قولك أم لا؟

مرت عينا سيفو على الوجوه تمسحها، تتساءل ما إذا جاء ذكره مِنْ قبل، وما إذا كان الأسطة إسماعيل يدبر له فخاً. سأل، وجاءت كلماته بطيئة:

- سيد ذنون مِنْ يوم ما عرفناه فرداوي، لا يتدخل بشغل أحد، ولا يريد أحد يتدخل بشغله، فشنو صار وشنو اللي جرى، حتى تقول هذا الكلام، أبو حقي؟

ـ الملاعيب اللي يسويها، أخذها كلها الفيضان، فانكسر واهسه، وشقد ما حاولنا هسه وياه يرجع ويسوي مثلها، كُلّ ساعة يطلع لنا حجة:

تصير وما تصير، أقدر وما أقدر، الي واهس ومالي واهس، فقلت لروحي ماكو إلا سيفو، أبو فلاح، يقدر يقنعه، فشنو رأيك؟

- هاي تبقى يمه، يا أبو حقي، وبمثل هذي الشغلات ما يقدر الواحد يقول: كن فيكون! قال ذنون، موجهاً الكلام للأسطة إسماعيل:

- وبعدين.. هذي المسائل، يا أبو حقي، ما تتسمى ملاعيب، هذي حشاشة الروح، هذي خلاصة سهر الليالي وتعب الأيام.

ابتسم بحزن ساخر، وتابع كأنه يكلم نفسه:

- مثل هذي الأشياء سوَاها الناس اللي قبلنا مِنْ ألوف السنين، وعبدوها، مو لأنها أصنام تنعبد، وإنما لأنها حلوة تفرح القلب، وحتى اللي يباوعها اليوم يشوفها حية وقوية، كأنها تريد تنطق، تريد تمشي، وهذا سرها!

قال الأستاذ ناجي:

- الجمال، يا جماعة الخير، ما يخبي نفسه، وكُلّ واحد يحبه، وكنت أتمنى لو شفت الأشياء اللي سواها الأستاذ ذنون مِنْ قبل، لكن إذا فاتنا ذاك يمكن الله يكتب لنا ونشوف الجديد، أو مثل ما قالوا: إذا فاتكم اللحم فعليكم بالمرق!

ردَّ ذنون بصوت خافت:

ـ العمر انقضى، وما يندرى بالباقي يتسوى فد شي أم صار كله تاريخ، أو أثراً بعد عين، مثل ما يقولون!

- وكُلّ الله يا رجال، العمر بعد بأوله، قال الأسطة عواد بحزم، وهاي بغدادنا مر عليها آلاف مؤلفة مِنْ الفيضانات والأغراب والظلام، وظلت، وبقيت؛ أما إذا الواحد قال: هاي آخر الدنيا، وبعدها ماكو شي، فهو غلطان، أيّ نعم، غلطان، ومثل ما تروح عليه، تروح على غيره، وهذي الخسارة اللي ما تتعرض.

وتشعب الحديث بعد ذلك، وتغير الذين يجلسون حول طاولة الأسطة عواد.

سيفو ظل صامتاً، إلا أن فكرة مجنونة سيطرت عليه، وقد طرأت له فجأة: لماذا لا ينتقل للعمل مع ذنون؟ لقد أحب الأشياء التي كان يصنعها، صحيح أنّه لم ير منها إلا القليل، لكنها كانت جميلة رقيقة، وكأنها تريد أن تتكلم، أن تركض. والتمثال الذي أهداه إلى بدري، أين أصبح؟ لماذا لم يجلبه معه كذكرى؟ شعر بالحزن وقد تذكر موت بدري، وشعر بحزن أكبر لأنه بدأ ينساه. لم ينسه تماماً، ولكن طيفه أخذ يبتعد، وكأن حرارة الحياة، حرارة الجسد، ما تجمع الناس، فإذا انطفأت تلك الحرارة، إذا ابتعدت، يبتعد معها

كُلّ شيء. قال فِي نفسه: «لولا حصان بدري يجوز نسيه الكثيرون، لكن الحصان يرمح كُلَّ يوم، ويراه الناس فيتذكرون بدري، ويقولون: ألف رحمة على روحه».

فِي خضم هذه الرحلة القصيرة، وحين بدأ الجمع ينفض، قال سيفو لذنون:

ـ قبل ما تمشي أبو عمر أريد أشوفك، لي كلمة وياك.

ـ تؤمر أبو فلاح، ومن هسه آني حاضر!

- لا.. فد شوي أحسن، لأن براسي موال وأريد أشوف شنو رأيك بيه!

قال ذلك وقد اختلطت فِي ذهنه أفكار عديدة، فهو مِنْ ناحية لا يمكن أن يتخلى عن الحاج صالح، وعن الخيل التي أصبحت جزءاً مِنْ عالمه الأثير؛ كما أن فكرة أن يكون قريباً مِنْ ذنون، وأن يشاركه فِي صناعة التماثيل، راودته منذ اللقاء الأول، ولا يعرف إن كان يصلح لهذا العمل أو قادراً عليه، فهو لم يجرب نفسه، لكن رغبة مِنْ هذا النوع تستبد به فِي الكثير مِنْ الأحيان.

بعد أن فرغ ذنون مِنْ الإجابة عن بعض الأسئلة التي وجهت إليه، وكان أغلبها متعلقاً بالأضرار التي لحقت بيته والبستان، وبعد أن انفض عدد مِنْ الذين كانوا متحلقين حوله، زحف مقترباً مِنْ سيفو. قال له بمودة لا تخفى:

- أيّ.. أبو فلاح، شايف بوجهك كلام هوايه، قول، مولانا، سولف.

- ما عاد بينا حيل للسوالف، بعد المصايب اللي صارت، يا سيد ذنون، لكن قلت لروحي، بعد الكلام اللي قلته وقالوه الجماعة، وما دام بستان الأعظمية ينراد له شغل هوايه، ويجوز ما يخلص بشهور، فشو رأيك تشيل وتجي يمنا ببستان الحجي!

- ما وصلت الأمور بعد لهذا الحد يا أبو فلاح! الله عاطي، مكفي وموفي، وإنت تعرف: بيت الأعظمية كان للونسة، وبالصيف. أما باقي وقتي، وكُلّ عيشتي بقنبر علي، ومن هذي الناحية ماكو مشكلة أبد، وبعدين إنت أخ وصديق، ولو أكو مشكلة كان أول ما أجي عليك. أجي بحيل صدر وأقول.

ابتسم سيفو بحزن، لأنه لم يكن بحاجة إلى كُلّ هذه الايضاحات التي قدمها ذنون الذي ربما أساء فهمه، فقد كان يقصد شيئاً مختلفاً. قال فِي محاولة للتوضيح:

- سلامة خيرك يا أبو عمر، وكُلّ ما قلته أعرفه، لكن كان قصدي غير شي!

- قول.. أبو فلاح.

- تتذكر لما سألتك بذاك اليوم البعيد: شلون تتسوى هذي المسائل، وقلت لك إن نفسي تشتهي؟ والليلة، ومثل ما قال أبو حقي: ليش ما تشتغل ويا سيد ذنون؟

ـ أتذكر كلش زين.

- بعد هذا الكلام، صفنت، وقلت لروحي: إذا ما تقدر إنت، يا سيفو، تروح يم سيد ذنون، ليش ما سيد ذنون يجي هنا ونشتغل سوية؟

كانت الابتسامة التي ارتسمت على وجه سيد ذنون مزيجاً مِنْ التساؤل والاستغراب وقليل مِنْ الفرح، إذ لم يتبين بعد بوضوح ماذا يطلب منه سيفو أن يشتغل، ولماذا يجب أن يأتي إلى هنا. سأل بارتباك:

ـ يرحم والديك، أبو فلاح، ترى تاهت علي وما افتهمت قصدك، فقل لي شنو اللي رايده مني، حتى أقول لك: إي أو لا؟

ابتسم سيفو ابتسامة عريضة، كبداية لإزالة سوء الفهم، ونظر إلى ذنون نظرة طويلة مع هزات مِنْ رأسه، وكأنه يعتب عليه لأنه لم يدرك ما يقصده.

قال، وكان صوته ودوداً:

- كنت أتمنى لو أقدر أروح وياك للأعظمية، إنت الخَلْفة وآني اشتغل جوا ايدك. اللي تقول لي عليه أسويه، بس لأني ما أقدر أترك الخيل، وما تطاوعني نفسي أفارق أبو قدوري، قلت لنفسي: يجوز سيد ذنون، لأنه وحده، فرداوي، يقدر يجي يمنا. وببستان الحجي، والشط منا قريب، والطين هنا خيرات رب العالمين، وأنت تعرف: أكثر مِنْ الطين بهذي الديره ماكو، فإذا جيت نشتغل سوية، ونسولف، وتشوف الخيل! وبعدها يجوز تسوي فد شي يعوض اللي أخذه الفيضان!

أصبحت الصورة أقل غموضاً، لكنها ليست واضحة بعد. سأل ذنون، وقد شاب صوته القلق:

- يا أبو فلاح.. إنت ملتهي بشغلات هوايه، والطين ينراد له شغل وفخر، ويحتاج واحد فسقان مثلي، ما عنده شغل ثاني، ما عنده دادا وماما، وكُلّ وقته صافن: شلون هذه الصفحة تتسوى؟ شلون هذي الايد تكون أعلى أو أنصى؟ شلون العين مو بس تباوع وإنما تقول فد شي؛ وأنت، الله يسلمك ويقويك، بدماغك ألف شغلة، وما تقدر تفتل لي خيوط!

- هذا رأيك، لأنك تباوع مِنْ بعيد، لكن لو عرفت سيفو زين، لو جربته، كان قلت غير هذا الكلام!

قال ذنون ليبقي كُلّ الخيارات قائمة:

ـ إذا عندك مثل هذا الواهس لا بد نلاقي فد طريقة ونشتغل سوية، يا أبو فلاح، إذا مو اليوم باجر، وإذا مو بالأعظمية بمكان ثاني!

لم تنقض عدة أيام إلا وجاء ذنون إلى صوب الكرخ، وقبل أن يأتي إلى قهوة الشط، ذهب إلى أسطة اسماعيل.

كان الأسطة اسماعيل منهمكاً بتحضير بعض الأدوية، لإزالة التآليل التي انتشرت على يدي ملا حمادي، والملا حمادي لابد مثل قط مذعور فِي الزاوية، يراقب تحضير الدواء، ويتطلع بين لحظة وأخرى إلى أصابعه بحزن ممزوج بالخوف، وتتوالى أسئلته التي لا ينتظر جواباً لها: «وهذا الدوا، أبو حقي، نوبة لو أكثر؟» «والإيدتين سوا لو كُلّ يوم وحدة» «والواحد يتوجع هوايه؟ مثل مسمار محمي؟ مثل نقطة زيت حار؟» والأسطة الذي يجيب ولا يجيب، كان يدندن بألحان مختلطة، وينظر بضيق إلى هذا المريض اللجوج.

حين أطل ذنون، ورآه الأسطة إسماعيل قال ليخلق جواً مِنْ المرح، وليخيف الملا حمادي:

- ابن حلال، جيت بوقتك، والله جابك!

توجس الاثنان، تطلع الملا حمادي إلى سيد ذنون بهيئته المخيفة، فِي الوقت الذي توزعت نظرات ذنون بين هذا اللابد فِي الزاوية، ورائحة الأبخرة تتصاعد، ووجه الأسطة إسماعيل الذي تتبدى فيه الفرحة والشماتة معاً، وسأل:

ـ شنو الصاير بالدنيا، أبو حقي؟

- الملا حمادي هوايه وجعان؛ ينراد له جراحة، ووحدي ما أقدر عليه؛ فأريد منك تلزمه زين حتى أعرف شلون اشتغل!

وفجأة انتفض الملا حمادي. هب واقفاً، كأن ناراً كوته، وصرخ:

- كُلّ شي ما بي، منين جبت لنا قصة الجراحة يا معود؟

ـ على كيفك ملا ومثل ما إنت ما تقبل أن يتدخل بشغلك أحد، لا تسأل شنو اللي راح أسويه، شلون راح أداويك، هذا شغلي...

والتفت الأسطة إسماعيل نحو ذنون وتابع:

- لحم الملا صاير خايس: الحبابي تارسه إيديه، ويجوز باجر تنتقل لوجهه، فينراد له جراحة، حتى نقطع الخياسة مِنْ منبتها، مِنْ جذرها، وصار لي ساعة أحضر الدوا اللي ينحط بعد الجراحة، فأريد منك تلزمه زين، حتى نخلص شغلنا بالعجل! قال الملا، وخرج صوته متلجلجاً:

- خاف مِنْ الله، أبو حقي، لأن مثل هذه المسائل أبسط منها ماكو، لا تحتاج جراحة ولا مِنْ يحزنون، حتى الدوا زايد عليها، فإذا ببالك تقصبني فآني بطلت، ما أريد أتداوى!

وشرع يلملم نفسه يريد المغادرة، ومستعداً لأن يتعارك فيما لو حاول الأسطة إسماعيل مداواته بالقوة، لكن الضحكة الصاخبة التي صدرت مِنْ الأسطة إسماعيل غيَرت الجو، وجعلت الملا حمادي يرتخي. تبادل بحيرة النظرات مع ذنون، قال الأسطة إسماعيل بمرح:

- الفيضان خلاك تخاف أزيد مِنْ قبل، ملا! أو مثل ما يقولون:

المقروص مِنْ الحبل يخاف!

ولما ارتمى الملا على الكرسي مِنْ جديد، وأخذ نفساً عميقاً، تابع الأسطة إسماعيل:

- وين اكو بينا نذبح دجاجة يا معود، فتريدنا هسه نسخى بك ونقصبك؟

ـ الناس صاروا قُطع يا أبو حقي، ما يخافون مِنْ الله، والواحد صار يخاف مِنْ كُلّ كلمة يسمعها!

قال ذنون الذي ظل طوال هذه الفترة صامتاً، موجهاً الكلام إلى الملا حمادي:

- على كيفك مولانا، بعدها القاع جوا رجلينا ما يبست، ولولا تعاون الناس ومحبتهم كان بغداد هسه ماكو!

- خلونا هسه مِنْ هذا الكلام، واعطيني، ملا، ايدك، وإذا توجعت قول!

ومد الملا حمادي يده. نقط عليها الأسطة الدواء، وقال:

ـ تنقط عليها ثلاث نوبات يومياً، وباليوم الرابع تجي، وبدقيقة نشيل التالول، وأبوك الله يرحمه!

واقترب فم الملا حمادي مِنْ أذن الأسطة إسماعيل يسأله وشوشة، فرد الأسطة بحزم وبصوت عالٍ:

- استغفر الله... ملا، كُلّ شي ما أريد، وانت مُنعم ومفضل...

وبعد قليل:

- بيها العافية ملا، وشايف الخير.

ومثل ديك لم الملا نفسه، وقبل أن ينزلق مغادرة، قال بفخامة:

ـ اترخص هسه، لأن أخاف أتأخر على أذان المغرب، وآني ممنونك، أبو حقي!

- الله وياك، ملا، وعوافي!

ذنون الذي لم يحفل بالمحاورة التي جرت، واعتبرها تزجية للوقت، كان لديه ما يقوله للأسطة إسماعيل. كان لديه هموم ورغبات، لكن بدا له أن الجو غير مواتٍ، أو لم يجد لديه الحماس الكافي، ولذلك أخرج كرسياً صغيرة إلى خارج دكان الحلاقة، وقال:

ـ يعجبني أقعد برا، أبو حقي، أباوع على الرايح والجاي.

- شكو بيها، ويجوز القعدة برا أروح، لأن ريحة الدوا ترست التكان؟

وجلسا على كرسيين متباعدين. أحس الأسطة إسماعيل أن لدي ذنون ما يقوله، لكن تعمد أن لا يسأل، أن يتركه وحده يتكلم. وذنون الذي كان مغتاظاً، والغيظ هو الذي جاء به مِنْ صوب الرصافة إلى الكرخ، لا يعرف كيف يبدأ الحديث. صمت، وطال صمته، وأبو حقي يوزع تحياته على المارة، ينشغل بحد الموسى، يدندن. وكان يعرف أنّه بهذه الطريقة يحمل ذنون على أن يبوح بما فِي صدره.

فجأة، ضرب ذنون الأرض بقدمه، وخرج صوته مِنْ بين أسنانه:

- تعرف يا أبو حقي، مثل ما اكو بالدنيا ناس خوش أوادم، أكو ناس أولاد قحاب!

وزيادة فِي الاستفراز لم يتدخل الأسطة إسماعيل، لم يسأل. أكثر مِنْ ذلك التفت إلى جهة ثم أخرى، وكأنه يُشعر ذنون أنّه غير مهتم ولا يصغي. وذنون الذي أثير بهذا الصمت ثم بتلك الحركات، لم يستطع الصبر:

- ابن الزفرة ميناس شافني اليوم بالميدان. باوع علي وكأنه يباوع شادي، وقال: الله.. الله يا دنيا شقد تغير الناس، وأنا أسمع وساكت، لأن ما عندي وياه فد شي أقوله. لما شافني هالشكل طلع مِنْ جيبه كم بارة وقال: تخرج بهذي إلى أن أشوف القنصل، يمكن الله يلقى لك وظيفة تؤمن خبزتك. دفعت ايده، وكانت الفلوس بيها، فوقعت على القاع، وقلت له: هذي خليها على (...) أمك مع كمشة ماش يمكن الله يدزلها عريس! أما الوظيفة اللي تقول عليها فما اشتريها بكلاش، لأنها تلوق لك ولأمثالك! وقبل ما اتركه تفلت على القاع ومشيت!

استمع الأسطة إسماعيل باهتمام، ومع كُلّ مقطع جديد كان يزحف بكرسيه نحو ذنون، وكان يهز رأسه عجباً وأسفاً. بعد أن انتهى، ردَّ عليه بطريقة ساخرة:

- خاس الزمان يا أبو عمر. صارت المظاهر وحدها تغرز الناس. مِنْ قبل كان الآدمي ينقاس بفعله، بأصله، بمروته. هالأيام بهدومه، بالسبحة اللي شايلها، وإذا شنشل روحه بمحبس ذهب صار أكبر وأكبر...

توقف فجأة الأسطة إسماعيل، نظر بإمعان إلى ذنون، وكأنه يعيد اكتشافه. نظر إلى ملابسه وحذائه، وتوقف أخيراً عند شعره المنفوش ولحيته الكثة. ابتسم ابتسامة صغيرة، وخرج صوته مسالماً:

- وانت يا أبو عمر أعطيت للعدوين الحجة والسبب: تارك روحك مهرقل، كأنك تريد تؤذي نفسك واسمك و...

ولم يتركه ذنون، قاطعه بحدة:

- ردناك عون، يا أبو حقي، طلعت لنا فرعون؟

واستغل ذنون قهقهة الأسطة، فتابع بمكر:

- لو صرت مِنْ جماعة الباليوز؟

- يخسون، هذول كلهم بكلاش ما اشتريهم، لأنهم أصل العلة، وهم السبب.

شعر الاثنان بالتعادل، فقد سجل كُلّ واحد على الآخر نقطة، ولذلك لم يشأ أيّ منهما أن يواصل فِي نفس الاتجاه. بعد أن خيم الصمت فترة كافية، قال الأسطة إسماعيل:

ـ إذا تثق بي يا أبو عمر، وتسمع رأيي، تقوم مِنْ ساعتك، وبوجهك على كرسي الزيان، ازين شعر راسك، وأقصقص الزائد مِنْ اللحية والشوارب، وبعدها شخده واحد ابن أمه وابوه يقدر يقول كلمة!

ـ مالي واهس يا أبو حقي!

ـ آني أخوك واسمع مني.

وقام ذنون بتثاقل إلى كرسي الحلاقة. ولم يكن ذنون وحده فناناً، فقد كان الأسطة إسماعيل فناناً مِنْ نوع آخر، إذ قبل أن يرفع الملا حمادي أذان المغرب، أنجز الأسطة القسم الأكبر مِنْ الرأس، وقد أبقاه كثيفاً لكن مهيباً. أما حين أنجز تشذيب اللحية، فقد أصبح ذنون شخصاً آخر: مليئاً بالمهابة، مضيئاً كأنه ملاك، وجميلاً.

ورغم أن الأسطة إسماعيل بذل جهداً وهو يقوم بهذه المهمة، إلا أن الأكثر أهمية ما قاله إجابة على الأسئلة التي وجهها ذنون أثناء الحلاقة.

حين سأله ما إذا كانت العلاقة بين سيفو والحاج صالح العلو مِنْ المتانة والثقة، بحيث إذا لبي الدعوة التي وجهها اليه سيفو لا تغضب ولا تزعج الحاج صالح. قال أبو حقي بانفعال:

ـ العلاقة أكثر مِنْ الأخوة، ولا تظن أن الحاج مان على سيفو بفلوسه أو بغير شي، لكن الرب، مِنْ فوق، هو اللي يرهم العلاقات، يخليها هالشكل، ويجوز بالكرخ كله ماكو اثنين يحبون بعضهم مثل هالاثنين.

أما حين سأله ما إذا كان الحاج صالح متعصباً، وقد يمانع، لأسباب دينية، أن يصنع ذنون بعض التماثيل فِي بستانه، فقد ردَّ أبو حقي بدعابة:

- لعلمك، ويجوز ما تعرف، الهدية اللي أعطيتها لسيفو بذيك الزيارة، قدمها سيفو صوغة بزواج بدري، وأتذكر أن الحاج قال لي: صوغة سيفو ما ينراد لها إلا روح حتى تقوم تمشي. مو بس هالشي، لفها بنفسه داخل لحاف العرس، ووصي الزغير والجبير، وقال: «لحاف العرس، يواش، يواش... يواش، حتى أنفاس أم قدري ما تطير منه، وحتى لغابة سيفو توصل سلامات».

- يعني إذا جيت ضبف بستان الحجي، إلى أن يخلص بستان الأعظمية، ماكو أحد يعترض؟

- وبيك حيل بعدها تطلع مِنْ بستان الحجي!

ـ هالشكل؟

- ويجوز مو بس سيفو يشتغل وياك، يجوز قبله الحجي يشتغل، وتعال بعدها اخلص!

وقبل أن تنتهي حلاقة ذنون، قال له الأسطة:

- هسه، إذا خلصت مِنْ زيانك بوجهك لحمام عبد، وبعد ما تغسل وترتاح، وبعد ليلة تنام بليا هز، اعبر وتعال، وراح تلاقي كُلّ شي حاضر.

كان ذنون يوزع نظراته بين المرأة وبين وجه الأسطة إسماعيل وهو ينظر إليه مباشرة، معجباً مقدراً. ولكي يؤكد أبو حقي وعوده، يخرج صوته حنوناً أقرب إلى الوشوشة:

- خليها علي. الليلة أشوف سيفو بالقهوة، واتفق وياه، وباجر أتخطى يم الحاج صالح وما يصير إلا الخير، فاترك هذي المسائل يمي آني أعقبها، وما ينراد أحد يوصيني وحين انتهى مِنْ الحلاقة، قال بلهجة ودودة:

- عوافي.. مولانا. وأقدر أقول لنفسي، قبل ما أقول لك: عفاريم أسطة، لأنك رجعت سيد ذنون مو عشر سنين، عشرين سنة. وتسلم ايدك!

أما وسيد ذنون ينفض عن كتفه ما يفترض أنّه بقايا شعر، وينظر إلى المرأة بإمعان، فقال، وبدا مرحاً:

- هذا زيان أخ لأخوه... سلمت إيدك يا أبو حقي، والله يقدرنا على مجازاتك!

وأضاف وهو يودعه، وخرج صوته عميقاَ:
ـ إن غداً لناظره قريب!

بعد الاجابات السلبية التي تلقاها ريتش مِنْ داود باشا حول التسليح والطريق البري، تأكد له أن هذا الوالي لا يمكن التفاهم معه، خاصة وأن نشوة النصر التي لعبت برأسه جعلته مغروراً، أقرب إلى الاستخفاف، وربما إلى الاستهانة، بقوة بريطانيا العظمى ونواياها، كما أصبح أكثر استعداداً للتحدي. صحيح أن كُلّ ذلك يجري بتكتم، وبأسلوب ناعم، لكن لا تخفي مراميه.

وزوجة القنصل التي انشغلت منذ أن عادت مِنْ السفر، وبعد أن لاحظت بنفسها أثناء إقامتها فِي لندن الأهمية الفائقة التي تحظى بها المخطوطات القديمة، والعروض السخية التي قدمت لهما بخصوص ما يمتلكانه مِنْ تحف ومخطوطات وآثار، جعلتها تنكب على ما لديهما مِنْ مجموعات، تصفها وتعيد ترتيبها، وتبذل أقصى الجهود مِنْ أجل زيادتها، الأمر الذي شغلها تماماً. لكن مجيء الفيضان على هذا الشكل فِي هذه السنة، والقلق الذي انتابهما جراء ذلك، دفعها لأن تطلب «ترحيل هذه الثروة التي لا تقدر بثمن إلى بريطانيا، قبل أن تبتلعها المياه العمياء فِي فيضان لاحق»، خاصة وأن مرض الشقيقة عاودها مِنْ جديد، هذا المرض غير الخطر، لكن الشديد الازعاج للمريض وللذين حوله»، كما قال طبيب الباليوز، وهذا ما دفع ريتش لأن يعجل باتخاذ قرار السفر إلى الشمال.

قال ريتش لنفسه، ليزداد اقتناعاً بضرورة السفرة، وعدم تأخيرها: «... ولا بد مِنْ تجنب الشرقيين فِي حالتين: حين يكونون منتصرين، أو يظنون ذلك، ووقت الهزيمة؛ لأنهم إذا انتصروا يتملكهم غرور يتوهمون معه أن لا أحد يوازيهم فِي القوة والذكاء، مما يجعل التفاهم معهم صعباً إلى أقصى حد، إن لم يكن مستحيلاً. أما إذا هزموا فإنهم يصبحون كالحيوانات الجريحة، لا يمكن أبداً تقدير أفعالهم، أو ردود أفعالهم، إزاء العدو والصديق، إذ يمكن أن يرتكبوا عنفاً دموياً لا يخطر ببال»، وهذا ما جعله لا يتردد فِي تجنب المواجهة، وإبلاغ السراي بسفره.

إذ ما كادت مجاري الأنهار والجداول تعود إلى حالتها السابقة، وما أن يبست الأرض قليلاً، حتى شرع ريتش فِي رحلته إلى الشمال، وقد تعمد أن يسلك هذه المرة طرقاً فرعية، حيث يحتمل أن توجد آثار، لم يتسن له الاطلاع عليها سابقاً، وليستكمل أيضاً التعرف على أنحاء جديدة، مِنْ أجل إنجاز الخرائط، لتتخذ لندن القرارات المناسبة بخصوص الطريق البري الذي سيُعتمد.

بدأت الرحلة فِي النصف الثاني مِنْ نيسان. ولان ريتش أراد منها أن تكون رسالة لجهات عديدة، حول قوة بريطانيا وما تمثله، فقد حشد فيها عدداً كبيراً مِنْ حرس الباليوز والموظفين والمرافقين والخدم. وكانت آمنة، ام ميناس، أقرب المرافقات الزوجة القنصل، كما كانت فيها وهيبة، تلك الفتاة التي تشبه الطيف، والتي جيء بها مِنْ البنجاب لتكون مربية للابن الذي تأخرت زوجة القنصل بإنجابه، ثم لتصبح بمرور الوقت مِنْ اللواتي لا يفارقن ماري. كانت أول مشكلة، وربما أطرفها طوال الرحلة، ومنذ اللحظة الأولى: كيفية موازنة التختر وان الذي يتبع مباشرة هودج زوجة القنصل، وفيه أم ميناس ووهيبة.

ففي الوقت الذي تزداد أم ميناس سمنة كُلّ يوم، كانت وهيبة الصغيرة الحجم الضامرة، تضعف وترق يوماً بعد آخر. ولأن كلاً منهما تحتل جانباً فِي التختر وان، فيجب أن يبقى متوازناً. وإذا كانت المشكلة قد حُلت منذ البداية، بأن وضعت مجموعة مِنْ الأثقال فِي الجانب الذي تحتله وهيبة، فإن التغير فِي وزن أم ميناس، أو طريقة جلوسها أو حركتها، اقتضت أن يعاد النظر يومياً أو عدة مرات فِي اليوم الواحد للحفاظ على التوازن، علاوة على ما يحصل مِنْ مصاعب وطرائف أثناء الصعود والنزول!

كان الجو فِي اليوم الأول مِنْ الرحلة صافياً، ورغم الدفء، إلا أن الرطوبة كانت مرتفعة. لكن ما كادت الليلة الأولى تنقضي، وتأتي الليلة التالية، حتى تلبدت الغيوم مساء، وبدأ البرق بعد الغروب مِنْ الشمال والشمال الغربي، وسرعان ما هب نسيم عليل مِنْ ذينك الاتجاهين، لكن ما إن هب الا وتغلب على ريح قوية مِنْ الجنوب الشرقي، ثم غدا الأفق أسود يحاكي جناح الغراب فِي لونه، وعاد البرق يومض فِي جميع الأفاق وميضاً متتابعاً لا أذكر له مثيلاً، ولكن الرعد لا زال بعيداً عنا. أما الأفق فِي الغرب فكان حالكاً، وانعدام الضوء كان يضاهي ما يتخيله اللورد بايرون فِي حلمه الرهيب عن انطفاء الشمس!» هكذا كتب ريتش فِي مذكراته عن بداية الرحلة!

أما فِي الأيام التالية، ونتيجة الأمطار التي وقعت فِي أمكنة عديدة، فقد أصبح الجو منعشاً، الأمر الذي شجع ريتش أن يقارب بين المحطات، وان يلتفت إلى قياس الارتفاعات، وتحديد طبيعة التربة وميول الأرض. وإذا لم يكن هدفه هذه المرة التوقف طويلاً عند التلال الأثرية للتنقيب، فلم ينس أن يدون حتى التفاصيل الصغيرة المتعلقة بقياس الحرارة والهيئة والمسافات، وأن يسأل سكان القرى القريبة مِنْ التلال الأثرية عن معلوماتهم حول كُلّ شيء، وأن يشتري منهم القطع الأثرية التي عثروا عليها. وكان يدفع بعض الأحيان بسخاء، ليس لقاء اللقى وحدها، بل وللتعبير عن الود أيضاً.

ولأن حجم الموكب الذي يرافقه كبير، وبعض الأحيان ثقيل الحركة، فلم يكن مضطراً أن يبقى دائماً على رأس الموكب، إذ كثيراً ما انطلق مع عدد قليل مِنْ الخيالة، قبل أن يتهيأ الآخرون للرحيل، وكان ذلك يشعره بالارتياح لأنه يخلصه «مِنْ ضوضاء عدة لغات متباينة. فالضوضاء وصهيل الخيل ورنين أجراس البغال ونباح الكلاب، كلها مِنْ متممات المخيمات الشرقية عادة» كما كتب فِي يومياته.

بعد أن تجاوز ريتش دلي عباس، وأخذ يتسلق جبال حمرين، بدأت الأمطار الغزيرة ومعها الصواعق، وقد تسببت هذه الأمطار للقافلة بالبلل والخوف، انعكست على كُلّ مِنْ كان ضمن هذا الموكب الثقيل، خاصة وأنه لم تتخذ كافة الاستعدادات لمواجهة مثل هذا الجو «ما كنا لنشعر برهبة ذلك الظلام إلا حين يومض البرق، حيث كان يظهر لنا ساطعاً بنوره فِي ذلك المكان الحالك، وكنا نرى أسهم النور تصيب الأرض بين آونة وأخرى. وكان وهج البرق كلما أنار الأصقاع، يظهر لنا حارساً هندياً متكئاً على بندقية أو خيمة احتمت بها جماعة مِنْ المكارية. لقد كان المنظر مِنْ المناظر التي يعتز بها الشعراء».

ومع كُلّ يوم يمر، وحين يأتيه القرويون بقطع النقود القديمة، أو بالحلي، وحين يشاهد قطع الفخار منثورة فوق التلال، أو مع مسايل المياه، لا يستطيع أن يقاوم الرغبة الحارقة فِي داخله لكي يتوقف، لأن يبحث بنفسه عن الآثار، خاصة وهو يرى ماري، وقد استعادت الكثير مِنْ العافية، ومعها ذلك الحماس الذي رافقها فِي رحلة سابقة، حين تشاهد الحلي الفضية والخرز الملون، فيندفع دون قدرة على المقاومة، لإجراء بعض الحفريات، فيتوقف بالقرب مِنْ كفري «على بعد نصف ميل إلى الجنوب الشرقي مِنْ كفري، وفِي قاع المسيل، معالم جدران واطئة، أو أسس جدران كشفت عنها الأمطار التي هطلت أخيراً. وجدتُ فِي أحد الجدران قطعة مِنْ معجون المرمر المطلي المنقوش، وكنت حريصاً على الحفر كثيراً فِي هذه الخرائب، لأقف على حقيقة الأثر وتاريخه، وبنتيجة الحفر كشفنا عن غرفة صغيرة، أو بالأحرى عن بقاياها، وهي جدار ارتفاعه أربعة أقدام تقريباً ومدخل. فالغرفة صغيرة لا تتجاوز سعتها الاثني عشر قدماً مربعاً، والجدار مبني مِنْ أحجار جبسية غير منحوتة، واستخرجنا بعض القطع مِنْ الجبس وعليها نقوش مِنْ الورد أو نقوش عربية الطراز، وكان لون النقوش أحمر براقاً، أما لون خطوطها الأساسية فأسود»، «واستخرج العمال عدداً مِنْ الفخارات وجاؤوا بقطع منها، وكانت مِنْ خزف خشن طلي داخلها بطلاء أسود تشبه ما عثر عليه فِي سلوقية وبابل تمام الشبه. ولدي سراج خزفي صغير عثر عليه هنالك، وهو يشبه الأسرجة التي يستعملها القرويون فِي هذه الأيام».

كان ريتش يجري هذه الحفريات بسرعة ليومين أو ثلاثة، ليتأكد، بصورة مبدئية، مِنْ أهمية الموقع، ولأية حضارة يعود، وبعد أن يدفع للمتنفذين فِي المنطقة بعض المبالغ، لقاء حماية الموقع، وللابلاغ عما إذا جاءت بعثات أثرية، خاصة فرنسية، للبحث والتنقيب، ثم يواصل سفره نحو السليمانية.

الرحلة تسير برضى، وما عدا تسجيل المعلومات الضرورية، وقياس الارتفاعات ودرجات الحرارة عدة مرات فِي اليوم الواحد، وأيضاً اتجاهات الريح، خاصة حين تهب تلك الريح الشرقية اللعينة، وما تحمله مِنْ حرارة وغبار، وأعداداً لا تحصى مِنْ البعوض، مما يولد خلافات مزعجة يتولى ميناس قمعها بكل قسوة، دون علم ريتش خوف إزعاجه. إلا أن تغير المناظر، مِنْ حيث التضاريس والتربة، ثم النباتات والطيور، يجعل ماري تغرق فِي حالة مِنْ الانفعال اللذيذ، كما يصفه ريتش، مما دفعها لأن تكتب بعض الخواطر، ليس فقط عما شاهدته، بل وعما يعتمل فِي داخلها مِنْ مشاعر ورغبات، ولا تنسى أن تذكر، وإن بكلمات مقتضبة، ما يواجه ريتش مِنْ اكتشافات ومشاق، وبعض الهموم أيضاً، فِي عمله وعلاقاته مع رفاق الرحلة ومع الناس الذين يلتقيهم. وكانت تلك الكتابات تشي بعواطفها والحالة النفسية التي تعيشها. أما حين تلتقي بريتش فِي المخيم، فكانا يتبادلان الأخبار والطرائف، ولا بد مِنْ شيء عن أم ميناس، وما نتج عن إصعادها إلى التختر وان أو انزالها منه.

وإذا كان ريتش قد ترك عدداً كافياً مِنْ الموظفين والحرس فِي بغداد لمتابعة العمل، ولموافاته بالأخبار والبريد بين فترة وأخرى، فقد حملت الجرائد التي وصلت مِنْ لندن، وكان موكب رينش متوجهاً نحو السليمانية، خبر وفاة ملك بريطانيا، هذا الخبر الذي وقع على ماري وقع الصاعقة، وجعلها تذرف دموعاً غزيرة، وتتذكر طفولتها والأيام السعيدة الماضية. كما جعلها تطيل التفكير بمسني العائلة، وما يمكن أن يكون قد حل بهم، وقد تسبب الحزن، ثم القلق، بحالة مِنْ الاحباط سيطرت عليها، وهي فِي ذلك الموقع، حتى تمنت لو أنها لم تأت.

قالت وهي تشرق بالدموع:

ـ لقد حدثني قلبي، منذ البداية، أن مكروهاً سيقع، وكنت أنوي زيارة الكنيسة فِي بغداد وإشعال عدد مِنْ الشموع، لكن النسوة اللواتي جئن الوداعي، ثم الثرثرة والانشغالات الأخرى، جعلتني أنسى. لذلك أرجوك يا كلود أن تبعث رسولاً وبسرعة، لأن يفعل ذلك، لكي يحفظنا الله، والراحة نفس الراحل العظيم الذي لن أنساه مدى الحياة!

لم يتأخر ريتش فِي أن يلبي هذه الرغبة، لتعود ماري بسرعة إلى وضع طبيعي قبل دخول السليمانية، ولئلا تستفحل الحالة السوداوية التي تستبد

بها بعض الأحيان. كما قرر أن يصرف بضعة أيام إضافية يجوس خلالها، بجولات حرة، المنطقة، للترويح عن النفس، ومن أجل الحصول على معلومات أدق حول الزراعة والأصول القبلية والأمراض السارية، وما شابه ذلك مِنْ معلومات تساعده على معرفة أكمل للمنطقة وسكانها.

ومع أن الطريق الذي سلكه ريتش مذ غادر بغداد يعتبر ثانوياً، ولا يخلو مِنْ بعض الصعوبات، إلا أن المشهد الذي رأته عيناه لا يصدق وهو يقترب مِنْ السليمانية، فقد رأى ما لا يقل عن ألف مِنْ العمال يمهدون الطريق. كانوا يعملون بهمة وسرعة، وقد قدر لباشا السليمانية هذه الالتفاتة المؤثرة، وشعر بأهمية إضافية لموقعه، وما يمثل، واعتبر أن جزءاً مِنْ هذا الاهتمام يعود لشخصه ولأسلوبه فِي التعامل، وكاد يبعث ميناس على جناح السرعة إلى الباشا لتقديم الشكر، لكن فكر أن خطوة مثل هذه لا تخلو مِنْ خفة، إذ يفترض أن يبعث الباشا أولاً رسولاً للترحيب، قبل أن يقدم ريتش الشكر. وهكذا أرجا هذه المبادرة.

فِي اليوم التالي، ولأن العمال واصلوا اصلاح الطريق، متجاوزين موكب ريتش باتجاه بغداد، فقد اعتبر الأمر إجراء دورياً يتم تنفيذه فِي ربيع كُلّ سنة، بعد انتهاء فصل الشتاء، لإصلاح ما خلفته السيول مِنْ أضرار، فأثنى ريتش على حصانته لأنه لم يتسرع بإيفاد ميناس، إذ لو فعل للام نفسه، ومع ذلك قدر للباشا هذا العمل، وتوقيته أيضاً، فهو لا يخلو مِنْ دلالة تؤكد اهتمامه.

واصل موكب ريتش المسير، وقد التقى فِي إحدى مراحل الطريق بوالدة باشا السليمانية وهي فِي طريقها إلى بغداد للقاء داود باشا. ولم يتأخر ريتش فِي أن يقدم احترامه للسيدة الوالدة، وان تتناول ماري معها القهوة. صحيح أن اللقاء كان قصيراً، وكانت السيدة الكبيرة، رغم تهذيبها وحسن تصرفها، بادية القلق، مشغولة البال، وأكدت لزوجة القنصل أنها ستلتقي بها مجدداً فِي السليمانية، إذا لم تتأخر فِي بغداد، وإذا طالت زيارة سعادة القنصل للشمال، كما أكدت أن ولدها الباشا ينتظر هذه الزيارة بفارغ الصبر.

ما كادت والدة الباشا تواصل سفرها، وبعد أن غادر ريتش طوزخورماتو، وعند عبور نهر طاووق جاي، استقبله أحد ضباط محمود باشا، وبرفقته اكثر مِنْ خمسين رجلاً بطبولهم ومزاميرهم، وعبروا به النهر، وقد أبلغه الضابط أنّه بتصرفه، وفِي خدمته، ويمكن أن يكون دليلاً له.

خلال الأيام التالية طاف ريتش فِي أماكن عديدة، وتعرف على مواقع أثرية هامة، إلى أن وصل سرجنار، وهو نبع غزير بالقرب مِنْ الطريق يتدفق مِنْ خمسين عين ماء صغيرة، تؤلف جدولاً كبيراً، وكان لخرير الماء فوق

الحصى وقع جميل. ونزولا عند رغبة باشا السلمانية أقيم المخيم هناك، للاستراحة، وتمهيداً لدخول المدينة.

بعد إقامة المخيم بقليل، وردت المؤن الكثيرة العديدة الأنواع مِنْ الباشا، وقد أوفد الباشا عدداً مِنْ رجاله للبحث فيما يحتاجه القنصل أثناء إقامته فِي السلمانية. وبعد هذه الاستراحة، التي استمرت حتى عصر اليوم التالي، جاء مِنْ يخبر القنصل أن الباشا سيقوم بالزيارة للترحيب. كتب ريش فِي يومياته «... قمت بخير الاستعدادات التي استطعت القيام بها فِي موقعي هذا لاستقبال محمود باشا، وبعد العصر بقليل أعلن عن قدومه. كان منظر موكبه بدائياً مفرحاً. لقد كان وحده ممتطيا جواداً، ولما كان رجلاً صغير الجسم جداً فقد كاد يخفى عن الأنظار لجمهور مِنْ الأكراد الطويلي القامة، وقد ارتدوا ملابس ألوانها ألوان قوس قزح كلها، وردي وأصفر وقرمزي، وكانت هذه الألوان هي الغالبة فِي شراشيب أغطية رؤوسهم، وكان الموكب صامتاً، ووقع أقدامهم يسمع مِنْ بعيد. وعندما أدى حرسي التحية ردها الباشا بوضع يده فوق صدره بوقار عظيم. وقد أرسلت عرفائي للقياه، وخرجت شخصياً بعيداً عن باب الخيمة لاستقباله. وما أن رآني حتى ترجل بين هتاف عرفائه، فصافحني بكلتا يديه، ودخلنا الخيمة وجلسنا سوية على بساط أحضرته خصيصاً لهذه المناسبة. وقد تمكنت بصعوبة مِنْ اقناعه بأن يتخذ جلسة مريحة، إذ كان مصراً على أن يتجشم صعوبة الجلوس ليظهر الاحترام الزائد» «وبعد أن سلمته رسالة باشا بغداد، ولما كانت رسالة رقيقة جداً فقد عنيت العناية كلها بتسليمها على مشهد مِنْ حاشيته وملازميه، وقد ظهر لي أنّه أدرك اهتمامي، وقد تكلم عن حالة البلاد، مبدياً لي الصعوبات التي يكابدها بسبب وضعه على حدود سلطتين متنافستين، لا تنفك الأولى عن اضطهاده فِي طلب الجزيات والضرائب، والثانية، وهي السلطة المنقاد إليها حكماً، أيّ سلطة الاتراك، الذين كانوا يلحقون عليه أن لا يخدم الايرانيين».

(... ولم يكن لمحمود باشا ما يميزه فِي شخصيته وحديثه، ذلك أنّه رجل بسيط رشيد، وهو فِي الوقت ذاته رقيق الحاشية دمث الطبع، ويقال إن اخلاقه الفردية كاملة لا شائبة فيها؛ وذلك أمر لم يكن مِنْ الأمور الاعتيادية بين الأكراد» «وأردف الباشا زيارته بهدية كبيرة مِنْ الأغنام والمؤن الأخرى لجميع حاشيتي، إلا أنني معتزم أن أضع حداً لذلك، حالما ينتهي استقبالي الرسمي».

بعد أن غادر الباشا، نُقل ريتش إلى مخيم جديد، على مشارف السليمانية، وكان مِنْ المفترض أن يواصل سيره ليدخل إلى المدينة، إلا إن رجال الباشا طلبوا بإلحاح شديد التريث، وقد فسر الأمر بضرورة زيادة الاستعداد ليكون

الاحتفال بدخوله كبيراً ولائقاً، مما جعل ماري، رغم القلق والحزن، تطير فرحاً، وقد عبرت عن ذلك بكثير مِنْ الانفعال:

ـ الناس هنا شديدو الأدب والتهذيب، إذ ينظرون إلى الغريب أو الضيف، بطريقة مختلفة عن أهل بغداد، فالود هنا ينبع مِنْ العيون، والكرم يزيد عن الحد المعقول، كأنهم بهذه الطريقة يعبرون، دون كلمات، عما يكونه مِنْ عواطف.

ريتش الذي وافقها الرأي، أضاف كأنه يحدث نفسه:

- ولديهم القدرة على التمييز بين الأعداء والأصدقاء، وفِي جلسة الباشا أمس دليل يؤكد ذلك!

ونام ريتش تلك الليلة وهو يشعر بنشوة، لأن القتامة التي طؤقته فِي بغداد، بعد حملة الفرات الأوسط، يجد نقيضها فِي الشمال. لقد بدا الباشا أكثر تفهماً وانفتاحاً، فهو غير واقع فِي دائرة الهوس المجنون الذي خلقه داود؛ وليس أقل مِنْ ذلك الزيارة المؤثرة، حيث جاء بنفسه ليقدم تحياته وترحيبه، وليقول بوضوح إن بريطانيا العظمى لا يضيرها فيما لو تصرف باشا بغداد بتلك الطريقة.

فِي صباح اليوم التالي، وحين سمع ريتش أصوات الطبول القادمة، ثم رأي بمنظاره المقرب الحشود التي تزحف باتجاه استراحته قبل دخول السليمانية، ووصول رسل متعاقبين مِنْ قبل الباشا يطلبون إليه، بخشوع أقرب إلى الذل، أن ينهيا بسرعة لدخول المدينة، فقد أحس أن باشا هذه المنطقة يعرف اللياقة وكيفية التصرف، وأحس بأهمية مضاعفة للمنصب الذي يشغله. ولم يتأخر فِي الاستعداد، خاصة وأن الحشود تقترب، ومعها بالإضافة إلى أصوات الطبول المزامير والفرسان، وذلك الفرح الذي يندلع مِنْ العيون والقلوب معاً.

ماري، التي تأكدت مِنْ حسن قيافته، ومن أنّه يضع فِي خنصر يده اليمني الخاتم الذي قدمته إليه هدية فِي فترة خطوبتهما، قالت بانفعال، وهي تودعه، لأن العادات المتبعة أن يدخل المدينة دون اصطحابها:

ـ سوف يكتب التاريخ انك أول قنصل أوروبي يدخل إلى هذه المنطقة باحتفال الملوك؟

قالت الكلمة الأخيرة بطريقة لذيذة، هكذا قال ريتش لنفسه، وهو يقبلها بسرعة ليلتحق بموكب الرجال.

ظلت النشوة تسيطر على ريتش طوال الطريق، ثم وهو يدخل المدينة، وأثناء لقاء الباشا، وأثناء حفلة الغداء الرسمية التي أقيمت له، وبعد ذلك، وهو يتناول القهوة، ثم بعد أن ودعه الباشا، «لينال قسطاً مِنْ الراحة، بعد

هذه المشقة». وقد رافقه الحرس الخاص للباشا حتى المنزل الذي خصص له فِي السليمانية. أما بعد أن ودع الذين رافقوه، واستدعى ميناس، لكي يأخذ النشرة اليومية للناس» كما تعود أن يسمي هذه اللقاءات، خاصة أثناء السفر، فقد سمع، ولم يسمع، كلمات قالها ميناس، وكان ينقل اليه ما سمعه أو نقل إليه عن الموكب، وما قاله الكثيرون، وكيف كان وقع كُلّ ذلك على الجميع، حتى الذين سمعوا بوصول موكب قنصل بريطانيا إلى السليمانية، دون أن يروه.

قال له ميناس، بكلمات سريعة:

ـ لقد أخر الباشا دخول موكب سعادة القنصل، لأن المنجمين هم الذين حددوا الوقت والساعة التي يحسن أن تكون لحظة الوصول.

وخلافاً لعادته، لم يتوقف ريتش، ولم يستوضح عن سبب تأخيره فِي دخول المدينة، ولم يسأل عما قاله المنجمون.

أما فِي الليل المتأخر، وحين تبادل ريتش وماري الأخبار والملاحظات عما جرى لكل منهما أثناء الاستقبال والحفلات التي جرت، فلم يشأ أن يتوقف عند الملاحظة التي قالها له منياس، قال بطريقة غامضة:

- هذا الشرق مليء بالعجائب، وقد يقضي الإنسان عمره كله دون أن يستوعب ما يجري فِي عقول هؤلاء البشر!

كان استقبال محمود باشا لرينش حافلاً، إذ بالإضافة إلى وجود عدد مِنْ أقربائه ومساعديه، فإن الحديث كان ودياً، وقد تركز فِي القسم الأكبر منه على العشائر والأسر الحاكمة، والعلاقة بين القبائل واللهجات، إضافة إلى الطقس. وحين تلفت ريتش فِي أنحاء البهو الكبير، وتأمل الزخرفة الجميلة، لكن الحائلة اللون، أوضح الباشا:

ـ الوالد، رحمه الله، هو الذي أشرف على البناء، وأمر بهذه الزخرفة، التي تحتاج الآن إلى التجديد والترميم، وكان يمكن أن أعتني بذلك، لكن...

ابتسم بحزن، وأضاف بلهجة تتسم بالألم:

- لكن مِنْ ذا الذي يرمم شيئاً وهو غير متأكد مِنْ استمتاعه به؟ قد يقوضه، فجأة، الأتراك أو الإيرانيون بعد أيام معدودات!

لم يشأ ريتش أن يخوض فِي هذا الموضوع الآن، إذ استمر فِي الاستفسار حول الأسر، خاصة الأسرة البابانية، وقدم الباشا ورجاله إيضاحات كثيرة، لا يخلو بعضها مِنْ التشويش. أما حين غادر ريتش القصر فقد وجد جواداً جميلاً عليه عدة مزركشة جميلة مهيأ له كهدية، «فلم أستطع إلا القبول» كما دون باختصار فِي يومياته.

ورغم أن البيت الذي أعد لريتش يولد الكآبة فِي النفس، وقد ظهر عليه ذلك، إلا أنّه رفض بإصرار تغييره «لأن الفرق بين المساكن فِي المدينة لا بد أن يكون ضئيلاً على كُلّ حال، وقد شعر أن إصراره على البقاء «قوبل بارتياح عام»، «وحالما وصلت الأمتعة نصبت خيمة بعمودين فجعلتها ديواناً أو غرفة استقبال، وبعد أن زودتها بأسلحتي وفرشتها بسجادة جميلة، ومدات تلطف الباشا بإرسالها إليّ، أصبحت غرفة استقبال غربية لا يزدرى بمظهرها، بل أصبحت أحسن مِنْ أية غرفة فِي المدينة. ونصب السباهيون خيامهم فِي ساحة الدار».

وبدءاً مِنْ اليوم التالي، ومن أجل إدخال المتعة لقلب ريتش ومرافقيه، بدأ المضيفون يتفنون فِي إقامة الاحتفالات لسباقات الخيل وعراك الحجل والكباش والكلاب. وإذا كان ريتش قد رأى فِي بغداد، وأماكن أخرى، عدداً مِنْ هذه السباقات، فإن أكثر ما لفت نظره عراك الحجل، ثم الكلاب.

لقد وصف لماري مشهد عراك الحجل، حين رآه أول مرة، ثم كتب هذا الوصف فِي يومياته: «تقدمت مجموعة مِنْ الأكراد الأقوياء تحمل على اكتافها اثنين وثلاثين قفصاً، فِي كُلّ قفص حجل فحل، وقد أثارت أصوات

هذه الطيور الاجماعية المتواصلة ضجة غريبة أشبه بأصوات دقات ألف ساعة جسيمة، ولم يخلدوا إلى الصمت لحظة إلا عند العراك، وأعقب الأقفاص جماعة مِنْ المتهوسين، وكلهم شوق لمشاهدة المنظر. ولو لم أوعز بغلق الأبواب الأوفر الأذى على مِنْ لا يقف عند حده إلا بضربه بالهراوات والعصي، لاندفع إلى داخل الدار كثير غيرهم. ثم صفت الأقفاص على شكل دائرة، ووقف المشاهدون مِنْ ورائها، وأنا ومصرف وأولاده نتمم المحيط عند الخيمة، وكان المنظر جديراً بالرسم، إلا أن ذلك كان مستحيلاً علي، إن لم أره عدة مرات لتتكون عندي فكرة لوضع خطوط الرسم الأساسية.

«فتح أحد المعاونين باب أحد الأقفاص وأطلق أحد الطيور، فانتفض هذا فِي الهواء كالمتحدي، ثم شرع يتبختر بانتظار غريمه. وبعد أن أفرج عن الطير الثاني بدأ العراك، وكان المنظر مؤنساً، لم يكن فيه أية قسوة مطلقاً. وكان مِنْ المبهج جداً رؤية هذه الطيور الصغيرة تتبختر على رؤوس أصابعها متحدية، تقفز وتنقر بعضها بعضاً، وتتحايل لتنال ممسكاً ملائماً، وتتحاذر الوقوع بما لا تريد. وقد لاحظت أن البراعة كلها كانت فِي نوال الغريم مِنْ قفا رقبته، فإذا نال الطير غريمه على ذلك النحو تمسك به كالكلب الأفطس، وقد يدور به أحياناً مرتين أو ثلاث مرات حول الدائرة، وقد يرتاع أحد الغريمين أحياناً فيهرب خارج ساحة العراك، وعندئذ ترجح الكفة وينتهي النضال بينهما حقاً، أما الطير المغلوب فلا يعود ميالاً إلى عراك آخر قبل مضي شهرين أو ثلاثة أشهر. ولكل طير مِنْ الطيور اسمه. أما أجنحتها فلا تقص. وهذه الطيور مروضة إلى حد لا تمانع فِي مسكها. وإذا انتهى العراك تراها ترجع إلى أقفاصها مِنْ تلقاء نفسها، ولا تتنافر مطلقاً، ولا تهجم إلا للسعي وراء مسك الغريم».

هذا النوع مِنْ العراك ولد مشاعر متناقضة لدى ريتش، فقد أحبه، واعتبره شيئاً صبيانياً فِي نفس الوقت. أما وهو يرى عراك الكلاب، فقد قال له أحد مضيفيه:

ـ إنك أول انكليزي رأيناه هنا، وإنك ستكون مدار حديث أحفادنا، وإننا لمغتبطون بوجودك بيننا فِي هذا الاحتفال.

ورغم المشاعر المتناقضة، وهو يرى حفلات عراك الحجل تتكرر مرة بعد أخرى، فقد كان حريصاً على أن يستكمل المعلومات حول طريقة القبض على الحجل ثم تدريبه. قيل له يجب أن يتم اصطياد الحجل مِنْ العش، وأن يدرب مِنْ قبل محترفين، ولا بد أن يجوع يوم العراك، أما أيام الصيف فيلزم أخذه إلى الجبال.. وإلا ضاعت مزايا هذه الطيور.

ولما كان ريتش قد أبدى حرصاً بالغاً لمعرفة كُلّ شيء، فلم يتأخر فِي زيارة عدد مِنْ حمامات المدينة، فاكتشف أن واحداً منها يضاهي ما رآه فِي القاهرة وحلب ودمشق، ولم يشاهد مثله فِي بغداد!

وفِي إطار هذا الحرص، ومن أجل استمرار الحوار، فقد كان مضطراً للإجابة على الأسئلة التي تطرح عليه، وكان أكثرها يوجه مِنْ قبل الباشا محمود وأحد مساعديه عثمان آغا. كانت الأسئلة حول انكلترا وفرنسا وروسيا، وعن مراسيم البلاط الانكليزي والجيش. ومن عادة الباشا أن يتوقف عند القضايا الطريفة، كأن يسأل عن وجود القبائل فِي انكلترا؛ وما إذا كان أحد غيره مِنْ الانكليز يعرف العربية والتركية، وحول دور النساء، وما إذا كان لهن تأثير أو أهمية. أما عثمان آغا فقد سأل عن تفاصيل معركة واترلو، وربما سمع بأخبارها مِنْ الإيرانيين، وإن لم يتذكر اسمها. وسمع أيضاً عن بونابارت، أو كما سماه: الامبراطول. ثم جاء على ذكر الصين، وقد عجب لأن لبريطانيا قنصلاً هناك. ونفس الأسئلة التي وجهها عثمان آغا وجهها آخرون، ولا بد أن يكون قد جرى تداولها فيما بينهم، إذ سألوها مِنْ جديد ليتأكدوا ما إذا كانت الإجابات التي نقلت إليهم واضحة، وهي ذاتها!

أما هندستان فكانت تشغل بال عدد منهم، وقد سأل عثمان آغا كيف أن فتوحات بريطانيا تتوسع سنة بعد سنة هناك. وريتش الذي استفاض فِي شرح الأمر، قال فِي إحدى الليالي، عندما وجه إليه ذلك السؤال:

ـ إن فتوحات بريطانيا فِي الهند، إنما ترجع إلى أن الأروبيين الذين فتحوا تلك الأصقاع تغلبت عليهم بريطانيا، كما أن قسماً آخر مِنْ الهند شلم مِنْ قبل الهنود أنفسهم، كما اشترت بريطانيا بعض الأقسام، ثم إن المعاهدات التي أبرمت مع أهل البلاد، لقاء الخدمات والمنافع، أعطت بريطانيا المزيد مِنْ الأراضي والاحترام!

وحين بدا الأمر واضحاً وغير واضح بنفس المقدار، أضاف ريتش شارحاً:

ـ ان الانكليز مسالمون بالطبع حيال مِنْ هم على غرارهم، وهم أيضاً شعب لا يخضع لإرادة الغير، وأن ضرورة الدفاع عن حقوقنا، وصيانة شرفنا، كثيراً ما أدت بنا إلى الحروب، وكان الله وله الحمد، فِي عوننا، ولم نكن فِي أيّ مِنْ هذه الفتوحات البادئين فِي العدوان.

وغالباً ما تتشعب الأحاديث بعد ذلك، إذ كان يروق للكثيرين أن يسألوا كيف تم اختراع البندقية، وكيف أن المسدس الصغير قادر على قتل ثور كبير؛ وكانوا يسألون عن المناظير المقربة، وهل يستطيع الإنسان فِي يوم مِنْ الأيام أن يخترع مناظير تمكن مِنْ رؤية ما تحت الأرض، ومعرفة أين توجد الكنوز؟ وهل يستطاع معرفة ما يمكن أن يحدث غداً، أو محادثة الموتى؟ وإذا حصل شيء مثل هذا، فهل يبطل عمل المنجمين؟

كان الأغوات يسألون عن هذه الأمور العلمية الدقيقة، وينصتون بانتباه لكل ما يقوله ريتش، ولا يترددون فِي طلب المزيد مِنْ الايضاحات! أما عندما جرى الحديث عن المناطيد، فقد اعتبر الكثيرون أن الأمر تعدٍ على إرادة الله، وأنه لا يليق بالإنسان أن يفعل ذلك، لأن الأرض إذا سُخرت للإنسان، وكذا المياه، وكُلّ ما هو على الأرض، فإن السماء مِنْ اختصاص الله وحده، وعلى الإنسان أن يبقى قانعاً ومتواضعاً، فلا يفكر بأكثر مِنْ ذلك، وإلا فإن السخط ينتظر البشر جميعاً، وإلا كيف نفسر أن شعوباً كثيرة أبيدت مِنْ قبل، ولم يبق أحد مِنْ أفرادها، مع أن آثار أولئك الناس ما زالت باقية؟ ألا تكفي هذه عبرة لكل مِنْ يعتبر؟

وريتش الذي كان يروق له أن يخوض فِي مثل هذه الموضوعات، وكان يفيض فِي الشرح والتوضيح، يعتبر أن الثقة، ثم التبسط، وبعض الأحيان الأمثلة الملموسة، مِنْ شأنها أن تزيل جميع العوائق، وأن تولد ثقة متزايدة، وهذا ما جعله أكثر معرفة ودراية بأمور عديدة، بما فِي ذلك أسعار المحاصيل، وكيفية قطع الأخشاب وارسالها إلى بغداد، إضافة إلى طبيعة العلاقة بين الرجال والنساء، خاصة الرجل وزوجته.

ما كادت بضعة أسابيع تمر على إقامته فِي السليمانية حتى عرف ريتش أن أم محمود باشا قابلت داود باشا، وكان استقبالها رائعاً وإيجابياً، ومن المحتمل أن يوافق على الاقتراحات التي تقدمت بها، فضاً للنزاعات التي كانت تقع بين أفراد الأسرة البابانية، كما وعد أن يسلم حسن بك إلى محمود باشا، ليؤكد أنّه لا يلتزم أحداً مِنْ أفراد الأسرة فِي مواجهة الآخرين، مع أن حسن بك التحق ببغداد قبل فترة ليست قصيرة، احتجاجاً على سلوك الآغا عليوي حين كان القائد العسكري فِي الشمال، وأراد أن يدفع محمود باشا للارتباط بكرمنشاه.

هذه الأخبار والمعلومات مِنْ داخل الأسرة، ما كانت لتصل إلى ريتش لولا الثقة التي محضها له بعض المقربين مِنْ محمود باشا، ولأن هذه المعلومات أصبحت تحت يديه، لا بد أن يقيم اساساً الخطة التي سيتبعها فِي مواجهة داود، والأفضل أن لا يندفع ويلجأ إلى التحريض الآن، كما أن مِنْ الأفضل الابتعاد عن النزاعات المباشرة، وربما الأحقاد، التي دفعت الأخوة لمعاداة بعضهم.

أكثر مِنْ ذلك، وكي يبدو أنّه لم يأت لهدف أو غرض سياسي، لا بد أن يواصل الحديث عن التاريخ واللهجات والقبائل، وأن يحضر عراك الحجل. ومن المفيد أيضاً أن يخلق اهتمامات وألعاباً لا يعرفونها، وهذا ما دعاه، وهو يتحدث عن تاريخ المنطقة، وحين عرف أن هناك مخطوطات تتناول هذا التاريخ أن يطلب بإلحاح الاطلاع عليها، ويفضل أكثر مِنْ ذلك لو يحصل على

هذه المخطوطات. والباشا الذي وعد ببذل جهد كبير مِنْ أجل تجميع الكتب التي تتناول هذه الموضوعات، وعد أن يقدم هدية الريتش كتاباً قديماً حول تاريخ الأكراد. وعثمان آغا، أكد أن لديه كتاباً تاريخياً هاماً، لكن لا يعرف أين أصبح، ولا بد أن يجده، وسوف يطلع ريتش عليه!

أما لعبة المبارزة بالسيف التي اتقنها ريتش فِي وقت سابق، فقد أصبحت رغبة عدد غير قليل مِنْ الأغوات، لو يتكرم القنصل أن يعلمهم أصولها، إذ قد تصبح لعبة الشمال كله، خاصة وأن سكان الجبال يعتبرون السيف أول سلاح مِنْ به الله على عبيده، لذلك فهو سلاح مقدس، ويجدر بالإنسان مهما تقدم، الا يتخلى عنه. وتأكيداً لهذا الاعتزاز والتعلق أقيمت الريتش عدة سباقات لقطع اللباد بالسيوف، وقد شارك فِي هذه السباقات خيرة سيافي المنطقة مِنْ حيث البراعة والقوة.

ومثلما السيف يستثير خيال الأكراد، فإن الرماية بالبنادق لا تقل أهمية، وقد أقام الباشا لضيفه عدة سباقات للرماية، وكان عثمان آغا أمهر الرماة، ين أصبح، وشمان آغا، مع أن يقدم مِنْ الكتب التي تتناول الأكراد. وعثمان آغا، وسوف يطلع وقد سجل ريتش فِي يومياته متسائلا ما إذا كان عثمان آغا أحسن الرماة فعلاً، أم أن الآخرين أفسحوا له المجال لكي يبدو كذلك؟ وأشار أيضاً: «إن الرماية، ومدى المهارة فيها، تتناسب مع الموقع الذي يشغله الإنسان، وبمدى قرابته مع الباشا!» عثمان آغا الذي أصبح أكثر قرباً مِنْ ريتش، كان يريد شهادة منه أنّه أحسن الرماة! كما رغب أن يعلمه المبارزة بالسيف، ورمي الهدف بالمسدس، إلا أن ارتفاع الحرارة، وتلك الرياح الشرقية اللافحة جعلت ريتش يحس بالتعب الأقرب إلى التوعك، مما اضطره إلى إرجاء الاستجابة المثل هذه الرغبات.

وبحدس فطري، وفِي محاولة لأن يدخل عثمان السرور إلى قلب ريتش، أخذ يحدثه ويفيض عن الآثار الموجودة فِي هذه الأنحاء، وعن المخطوطات التي يمكن الظفر بها فِي البيوت أو فِي المساجد، وانه سيتولى تجميعها. ولأن ريتش بدا ضيق الصدر مِنْ غبار الخماسين ورياحها، وما تجلبه مِنْ البعوض والحرارة واعتكار المزاج، فقد أقام عثمان آغا حفلاً موسيقياً غنائياً، جلب إليه عدداً مِنْ المغنين. كتب ريتش عن تلك الأمسية فِي يومياته: «كانت الألحان حزينة رتيبة، ومملة أيضاً، وكانت أحسن الألحان أغنية اسمها ليلى جان، أما حين غني قائد الجوق الموسيقي أبياتاً مِنْ الشعر، فكان يصل بين شطري البيت الواحد بنحيب وينهيه بشهيق، أما الأغنية ذاتها فكانت كمثل العويل تماماً، وليس فيها شيء مِنْ الفرح».

ولا ينقضي يوم دون أن يحصل جديد، فإذا لم يُقم احتفال أو سباق، كان ريتش يقوم بجولات فِي الأسواق، وفِي المناطق المجاورة للسليمانية،

وخلال تلك الجولات يسأل ويدون المعلومات، وبعض الكلمات الجديدة. يسأل عن الأسعار والمواسم وأجور النقل، وما يستحق للفلاح حين يعمل فِي أرض الآغا، ويسأل عن مواسم البذار والحصاد ومواعيد جني الثمار. كما يدقق فِي المعلومات التي حصل عليها سابقاً، خاصة عن العشائر والقرابات والمصاهرات، وكان يتذكر مساعده هايني، وكثيراً ما كان يبتسم وهو يدقق فِي كلمات بعض الأغاني، ويقول فِي نفسه: «مِنْ الصعب اتخاذ مواقف سياسية صائبة دون معرفة ردود الفعل لدى الناس الذين تعنيهم هذه المواقف. أما ردود الفعل فتعتمد على العقل، والعقل نفسه يستند إلى مجموعة كبيرة مِنْ العادات والأساليب وطريقة التفكير...وهذه ما يجب معرفتها».

فِي اليوم الأخير مِنْ أيار جاء الباشا بزيارة لريتش، وقد بدا فِي حالة مِنْ التألق، إذ وصلته الأخبار مِنْ بغداد أن رستم أفندي، أو الريح السوداء، كما سماه محمود باشا، سوف يصل فِي اليوم التالي، وسيكون معه هديتان: الخلعة التي بعثها إليه داود باشا، والآبق حسن بعد أن تخلى عنه باشا بغداد.

كانت فرصة لان يخوض ريتش فِي الأمور السياسية، فعل ذلك على شكل أسئلة أو تعليقات قصيرة، إذ لا يريد التدخل فِي قضايا شائكة قبل أن يعرف ردَّ فعل الباشا تجاه أخيه، وأيضاً تجاه دفتردار بغداد السابق، رسول داود باشا، رستم أفندي. وقد استطاع ريتش الالمام مِنْ خلال الأحاديث السريعة، ومن بعض الإجابات المتحفظة، أن الباشا شديد الحذر تجاه بغداد، فهو لا يستطيع أن يعاديها، خوفاً مِنْ بطش داود، وامكانية أن يحرك عليه عدداً مِنْ أفراد الأسرة. كما لا يستطيع أن يعادي كرمنشاه التي يهدد حاكمها بأخذ رهينة ثمينة: ابن محمود باشا!

قال الباشا لريتش الذي يحاصره بالأسئلة:

ـ أريد أن أراك كثيراً. وأريد منك وعداً: أن تأتي لزيارتي كُلّ سنة.

ولما رأى ريتش يبتسم ويهز رأسه، دون أن يعني ذلك موافقة، أضاف بانفعال:

ـ إذا وعدتني بالمجيء كُلّ سنة فسوف ابني لك هنا داراً أجمل مِنْ كُلّ دور السليمانية!

وكطريقة غير مباشرة للاعتذار قال ريتش أنّه سيفكر بالأمر.

أما حين وصل رستم أفندي فِي صباح اليوم التالي، وقد دخل السليمانية دخولاً رسمياً، ومع حسن بك، فقد خرج الباشا مِنْ المدينة مسافة ميل لكي يستقبله، باعتباره ممثلاً لداود باشا. وحين ذهب ريتش فِي اليوم التالي لتهنئة الباشا بالخلعة، وجد لديه حسن بك، الذي بدا فِي وضع طبيعي. ومن

خلال الأحاديث المتفرقة والمتباعدة، تُكر أن الأم، حين توسطت مِنْ أجل حل الخلاف مع الشمال، وبين أفراد الأسرة البابانية، اقسم داود باشا بالله وبراس ابنه يوسف أنّه لمحمود كالوالد لولده، وأنه يحبه ويقدره، كما ينوي أن يحافظ على وضعه ومصالحه!

ولم ينس ريتش أن يقوم بزيارة رستم أفندي للترحيب، وان لم تستمر الزيارة أكثر مِنْ الوقت الذي يستغرقه تدخين الغليون وشرب القهوة، كما لم ينس أن يطلب منه إبلاغ الوالي احترامه وتحياته!

ومع زيادة الحرارة، بدا أن جو السليمانية لا يلائم ريتش، بل أكثر مِنْ ذلك بدأت تعاوده نوبات الحمى، نتيجة إصابة مبكرة بالملاريا، الأمر الذي اضطره إلى ملازمة الدار وقتاً غير قصير. وفِي هذه الفترة اتيحت له الفرصة أن يقضي وقتاً أطول مع ماري، التي أخذت تضيق بتلك الزيارات النسائية، وبتكرار الإجابة على أسئلة بذاتها، خاصة فيما يتعلق بالانجاب. كما أن أم منياس التي حرصت على مرافقة زوجة القنصل فِي زياراتها خلال الفترة الأولى، أو أثناء استقبال الزائرات اللواتي دفعهن الفضول لرؤية امرأة أجنبية، فقد تعرفت على عدد مِنْ العائلات المسيحية فِي المدينة، مما جعلها تتباطأ فِي مرافقة ماري، أو تعتذر بالمرض، وأن تقضي وقتاً طويلاً خارج البيت.

أما وهيبة التي كانت ترافق سيدتها، دون أن تعرف كلمة مِنْ اللغتين التركية أو العربية، وكانت تبقى فِي كُلّ لقاء صامتة وحزينة معاً، جعل ماري لا تتحمس لاصطحابها، مفضلة عليها عدة نسوة طلب الباشا أن يكن فِي خدمتها.

خلال بقاء وهيبة فِي الدار، ولأن فاكهة الصيف تتنوع ولا تنتهي، وكانت تصل إلى ريتش بكميات وفيرة، وتسلم إلى رئيس الحرس، مهاد غلامي، كان رئيس الحرس يسلمها بدوره إلى المسؤول عن المطبخ، لكن فِي الدخول والخروج كان يصطدم بوهيبة، وهكذا اصبحت حبات الفاكهة فراشات تنقل الرائحة الزكية، واللذة وبعض الكلمات، إلى أن تحولت، مع ساعات الصباح المبكرة، ثم خلال كُلّ النهار، وفِي قسم مِنْ الليل إلى رسائل عشق لم تتأخر وهيبة فِي استلامها، ثم الرد عليها، بحيث لم تمض أسابيع قليلة حتى تحولت هذه الرسائل إلى حب جارف، وكانت أم ميناس أول مِنْ اكتشف هذا الحب. قالت فِي أحد العصاري لوهيبة بنوع مِنْ التساؤل الذي لا يخلو مِنْ تأنيب، وبإنكليزية تشبه الوقوقة:

- مهاد غلامي راح يخرب شغل أيام وليالي إذا ما درت بالك.

ولما ظلت وهيبة صامتة، وتنظر إلى حيث تشير أم منياس، أضافت المرأة المجربة:

- زوجة القنصل تحرق الدنيا إذا أحد طخ الشرف!

قالت ذلك، وهي تنظر إلى الخطوات المضطربة لمهاد الذي كان يحمل الفواكه ويدخل بها إلى المطبخ، لكن عينيه لا تفارقان وهيبة، وكان يصطدم بالجدران، بالأبواب، مدعياً أن الحمل ثقيل، فِي الوقت الذي لا ينظر إلى الطريق!

ولم تتأخر وهيبة فِي الاعتراف انها تعلقت برئيس الحرس. ولم تتأخر أم ميناس فِي نقل ما رأت وما قدرت أنّه الصحيح إلى زوجة القنصل. وماري التي فرحت وتهللت لم تتأخر بنقل ما قيل لها لريتش. ولم يتأخر ريتش فِي أن يسأل الاثنين، وهيبة أولا، ثم مهاد غلامي، فيما إذا كانا يحبان بعضهما، وأن هذا الحب يمكن أن يفضي إلى الزواج.

وهيبة قالت انها لا تعرف كيف تفسر عواطفها. قالت ان مهاد رجل شهم، يحب الآخرين وقد لمست هذا الشيء بنفسها. وقالت انه قوي وشجاع، لكن صوته، وهو يصرخ على الجنود السباهيين، يثير الخوف. أما وهو ينقل الخضار والفواكه فيصبح شخصاً آخر، لا تعرف كيف!

حين سأل ريتش مهاد غلامي عن علاقته بوهيبة، كان أكثر صراحة، قال، وهو يلتفت، لئلا يسمعه أحد:

- لو كان الأمر هناك لعرفت كيف أتصرف، أما هنا فلا أعرف ماذا أفعل أو ماذا أقول؟

وحين استسفر ريتش أكثر مِنْ ذلك، ردَّ مهاد بحيرة:

ـ فِي الأماكن البعيدة والغريبة يفقد الإنسان قدرته على التصرف، يصبح محتارة وعاجزاً، ولذلك أترك لك، يا مستر ريتش أن تتصرف.

وقبل أن ينتهي حزيران أقيم حفل كبير فِي السليمانية: زواج وهيبة مِنْ مهاد غلامي. وقد عقد هذا الزواج الشيخ خالد وباركه الباشا، إذ بعث عشرة رؤوس مِنْ الخراف هدية زواج، إضافة إلى مجموعة أزياء للعروسين، وأهدي مهاد ثلاثة أزواج مِنْ الحجل، وقال سعدو الذي قدمها:

- ديك الحجل مثل ديك الدجاج، والباشا يريد أن تكون قوياً وأن تخلف كثيراً!

أما ريتش فقد منح مهاد غلامي رتبة إضافية، وقدم له مسدساً، قال له وهو يقدم المسدس:

ـ أرواحنا بين يديك، وحياتنا، ماري وأنا، بين يدي وهيبة، فإذا كنت أقدم إليك هذا المسدس عنواناً للثقة، وشعوراً أن حياتي اليوم أكثر أمناً، فإن وهيبة تعرف كيف تشيع الرقة والحنان على كُلّ مِنْ حولها!

والأماكن تدفع الضرائب.. أيضاً!

فمن يُقدر عليه أن يعيش فِي أماكن معينة يجب أن يتحمل نتائجها، وأن يشارك فِي دفع الضرائب المترتبة عليها، سواء فِي مواجهة الطقس أو تجاه الجوار.

فالسليمانية خلال فصل الصيف يسود الهدوء جوها عند الفجر، لكن ما أن ترتفع الشمس فوق التلال، حتى تهب ريح تظل خفيفة إلى الظهر، أما بعد ذلك، وحتى الغروب، فتتحول هذه الريح لتصبح قوية، ويكون اتجاهها غربياً. فإذا أتت الريح مِنْ ناحية الشرق، وعادة تأتي فِي الليل، وغالباً ما تختلط برياح آتية مِنْ ناحية الشمال، فتحمل معها الحرارة اللافحة والبعوض، كما تحرك الحشرات والزواحف، وتكون شديدة السرعة معظم الأحيان، فتترك آثارها فِي الجسد والروح. أما إذا أصبحت الريح شرفية تماماً، فعندئذ يتشاءم الكثيرون، وتخرج مِنْ أفواههم كلمة واحدة، أقرب إلى الشتيمة: الشرقي.

هكذا يكون الطقس فِي السليمانية خلال أيام وليال كثيرة. ولو اقتصر الأمر على الطقس وحده لعرف الإنسان كيف يتعامل معه. يمكن أن يهرب منه إلى الجبال العالية خلال شهري تموز وآب؛ يمكن أن يحتال عليه بوسائل ابتكرها الأجداد وطورها الأحفاد؛ ويمكن أن يتحمل هذا الطقس ويتعود عليه كضريبة للمكان. أما أن يترافق هذا الطقس بتلك الحالة مِنْ الريبة والانتظار، لأن مكروهاً لا بد أن يقع، فلا يمكن التعامل مع هذه الحالة بسهولة، أو الاحتيال عليها فِي كُلّ الأوقات. إنها ضريبة القدر، أو هكذا تحولت بمرور الأيام، ولا بد عندئذ مِنْ وجود الكثير مِنْ العقل والشجاعة، أو ربما ابتكار حلول هي بين العبقرية والجنون!

محمود باشا حصيلة هذا المكان، وتجسيد له. فمنذ أن كان صغيراً، أخذ رهينة لكرمنشاه، ليبقى عند الشاهزاده، ضمانة لاستمرار ولاء أبيه. أما بعد أن أصبح باشا السليمانية فأخذ يواجه المصاعب والتحديات، والتي تشبه المآسي، مِنْ البعيد والقريب. وإذا كان قادراً على فهم مطالب بغداد، وما تحاول فرضه كرمنشاه، فإن أكثر ما يؤرقه هذا الذي يحصل داخل الأسرة بالذات، وآخر هذه المآسي: أخوه حسن. إذ بعد أن التحق ببغداد، تعبيراً عن موقف مناويء للآغا عليوي، أصبح طامحاً ومطالباً أن يكون باشا السليمانية، «لأن محمود مِنْ الضعف إلى درجة يعجز عن الوقوف فِي وجه كرمنشاه» كما أخذ يعلِن. وقد استفاد الوالي داود مِنْ نزاع الأخوة، فأغدق على حسن،

وجعله قريباً منه، وأخذ يلوح به كباشا محتمل إذا لم يستجب محمود لما يريد.

أما بعد أن ذهبت ناظرة خاتون، الوالدة، إلى بغداد، ولما يكنه داود لزوجها، عبد الرحمن باشا، مِنْ الود والاعتراف بالجميل، حين كان فِي الشمال، والمساعدات التي قدمها له، فقد وافق داود على الاقتراحات التي قدمت كتسوية، وبعد أن أخذ العهد أن لا يؤذى حسن، وأن يُدفع ما يستحق على الشمال، عاد الأخ المتمرد معتذراً وراضياً أن يكون تحت لواء أخيه، محمود باشا.

كان يمكن بطي هذه الصفحة، أن تبدأ مرحلة جديدة مِنْ الصفاء وهدوء البال، خاصة بعد أن انتهى النزاع السابق داخل الأسرة، بالاتفاق الذي جري، بحضور مولانا الشيخ خالد، بين محمود وعمه عبد الله، وبين محمود وأخويه، عثمان وسليمان، وقد أقسم الجميع على السيف والقرآن، وبالطلاق أيضاً، أن يعترفوا بباشوية محمود أولاً، وأن يؤازر بعضهم بعضاً ما داموا أحياء؛ كما اتفقوا أن لا يتخذ أيّ موقف إلا بعد التشاور. أما الرسائل التي تأتي مِنْ كرمنشاه لأي واحد منهم، أو حتى مِنْ بغداد، فلا تفتح إلا بحضورهم جميعاً، وفِي دار الشيخ خالد.

بعودة حسن افترض الجميع أن عهداً جديداً قد بدأ، إذ تبادل أفراد الأسرة الزيارات وتبادلوا الهدايا. كما أن الذين ناصروا أحد أفراد الأسرة، وعادوا الآخرين، تنازلوا عن عداواتهم، ولاموا أنفسهم كثيراً لأنهم تصرفوا بهذه الطريقة الخرقاء. وفِي محاولة للتكفير عن الأخطاء السابقة، ونسيان الماضي، ولأن موسم هذه السنة كان خيراً، فقد أقيمت ولائم أكثر مِنْ سنوات أخرى، وتبايعوا أكثر مِنْ السنوات السابقة، كما عقدت زيجات فيما بينهم ما كانت لتتم فِي ظل الأجواء التي سادت مِنْ قبل؛ قال الكثيرون إن فترة مِنْ الرخاء لا بد أن تعم الشمال كله.

إذا كان هذا قد حصل داخل أسرة الباشا، وكان موضع رضي الكثيرين، فإنه لم يرض غيرهم.

فالعم، عبد الله باشا، الذي لم يسلم بسهولة أن يكون ابن أخيه، الأصغر منه سناً، والذي يفتقر إلى التجربة والحنكة، حاكماً للشمال، وقد ذهب إلى بغداد أكثر مِنْ مرة عله يقنع داود باشا أنّه الأصلح وهو الذي يجب أن يكون، لكن لم يجد آذاناً صاغية فِي بغداد. ولما ألح أكثر مما ينبغي، وهدد وتوعد، فقد خيره داود باشا بين السجن، أو العودة طائعاً إلى الشمال، وبأمرة محمود باشا. فعاد بغل وعدم اقتناع، لكنه اضطر مرغماً للذهاب إلى دار الشيخ خالد، وهناك أقسم على السيف والقرآن، وبالطلاق أيضاً، أن لا يخون، وأن يسري عليهِ ما يسري على الآخرين بخصوص الرسائل التي تأتي مِنْ

كرمنشاه تحديداَ. وفِي محاولة مِنْ محمود باشا الاسترضائه، وإزالة الغل مِنْ صدره، أغدق عليه الكثير، وقربه، وكان يشاوره بالكبيرة والصغيرة.

ظلت الأمور هكذا إلى أن أوصل داود باشا مع رستم أفندي: الخلعة وحسن بك، وأيضاً همسة صغيرة فِي أذن محمود باشا: «عبد الله باشا تلقى رسالة مِنْ كرمنشاه، وهو يعد العدة للذهاب إلى هناك، تمهيداً لعمل كبير!».

محمود باشا الذي فرح بتوبة حسن وعودته، ولبس الخلعة فِي الاحتفال الذي أقيم، أقلقته الهمسة التي همسها بأذنه رستم أفندي، ثم أزعجته، بل اعتبر أن ما يعطيه داود بيده اليمني ينتزعه باليسرى، وأن الاتفاق الذي يوشك أن يكتمل داخل الأسرة يجري الآن تخريبه أو الانتقاص منه، وربما تكون هذه الهمسة هي البداية.

ولما كانت تجارب الفترة الماضية قد أكدت تماسك العائلة ووحدتها، ولعل أبرز مظاهر التماسك أن الأخوة الثلاثة كانوا يطلبون مِنْ حامل أية رسالة إلى أيّ واحد منهم أن يذهب مِنْ فوره إلى الشيخ خالد، ولديه يودع الرسالة، وأنهم سيأتون فيما بعد، عصراً أو خلال الليل، لكي تفتح بحضورهم وتقرأ. فإن عبد الله باشا كان يفعل شيئاً قريباً، لكي لا يثير الشكوك، إذ يستلم الرسالة بنفسه، ويذهب مِنْ فوره إلى الشيخ خالد، ليبعث مِنْ يستدعي الآخرين، «لأن الصغار يجب أن يأتوا عند الكبار» رافضاً أن يذهب شخصياً إلى محمود باشا أو أحد أخويه، وغالباً ما يخف الثلاثة، دون تأخير، استجابة لطلب الشيخ خالد. وتقديراً للعم «الذي أصبح مثل أب بعد أن توفي الوالد».. هذه التجارب أكدت الثقة، وأزالت الكثير مِنْ الشكوك.

حتى الرسالة التي بعث بها الشاهزاده إلى عثمان، والذي يدعوه فيها إلى زيارة كرمنشاه، ويعده أن يقلده منصب باشوية السليمانية، قرئت مِنْ قبل الشيخ خالد بحضورهم جميعاً، وقال عبد الله باشا، بعد فترة الصمت التي رانت على الجميع ـ الجماعة هناك ما يعرفون أهل السليمانية زين، ولازم لهم أيام ودروس حتى يتعلموا؟

أما الأخوة الثلاثة فقد تلاقت نظراتهم، وحين قالت العيون ما يجب أن يقال، وكثيراً ما تكون العيون أبلغ مِنْ أيّ كلام، فقد آثروا الصمت. وكان لدى كُلّ واحد منهم ما يفعله، فلم يتأخروا فِي الاستئذان ثم الانصراف.

بعد هذا الدرس، وكانت دلالاته واضحة وقوية، تعززت الثقة داخل الأسرة، وكانت ناظرة خاتون، بما تملك مِنْ حنان وتجارب الأيام، تبذل جهداً لا ينقطع مِنْ أجل ترسيخ هذه الثقة، وإشاعة الحنان فِي القلوب، كما لا تتعب مِنْ ترديد الأمثال التي تؤكد أن القوة فِي وحدة الجماعة، وأن هزيمة أيّ واحد منهم هزيمة للجميع. أما إذا تدخل الغرباء، مهما حسنت النوايا، فبداية الخراب. حين لا تكفي ِالأمثال، أو تجد أن كلامها لم يصل، كانت تستعين

بالحوادث التي عاشتها أو سمعت بها، وبالقصص التي تروي. ولم تكن تتردد فِي اللجوء إلى الأغاني، إذ تردد بعضها بنغم. صحيح أن صوتها لم يكن جميلاً، لكنه شجي، وفيه تلك البحة التي تجعله محبوباً، وفِي أحيان ساخراً، وهي تردد ما ورد فِي ليلي جان، أو فِي أغان أخرى قديمة، انحدرت مِنْ قمم الجبال لتستوطن العقول والقلوب فِي أعماق الأودية.

الآن، بهمسة الريح السوداء، كما يطلق محمود باشا على الدفتردار القديم الماكر، رستم أفندي، لا يعرف هل يصدق أو لا يصدق. هل جاء هذا مِنْ أجل الوفاق أم ليبذر شقاقاً جديداً فِي العائلة؟ وإذا كان فِي كلامه شيء مِنْ الحقيقة، فإن عمه، عبد الله باشا، فِي هذه الأيام بالذات، يبدو أكثر وداً، وقليل المشاكل، قياساً لأيام سابقة، فهل يروق لداود باشا أن يبقى الخصام داخل العائلة، لكي يتحكم فِي النتيجة، بالجميع؟

ترك محمود باشا الهمسة تمر، لكن فتح عينيه إلى أقصى حد، فهو يريد أن يتأكد. أصبح كالذئب المتربص وراء صخرة انتظاراً لمعرفة نوايا الراعي، ولاختيار الوقت المناسب للانقضاض.

قال لرستم أفندي، وهو يودعه:

.... وتسلم لي على الباشا كثير السلام، وتقول له نحن ممنونين أكثر مما يتصور، على الخلعة، وعلى الثقة، وكُلّ ما وضاه صار معلوم!

لم يقل له انه سيتخذ اجراء بحق عمه عبد الله، ولم يقل أن له به كُلّ الثقة، ترك لنفسه كُلّ الخيارات، انتظاراً لفترة لاحقة، وبعد أن يتأكد.

ريتش الذي ظن أن جو السليمانية أرحم مِنْ جو بغداد، وافترض أنّه بمجرد وصوله إلى الشمال سينعم بالبرودة وراحة البال، اكتشف كماً غير قليل مِنْ المزعجات، بدءاً مِنْ الريح الشرقية التي تجعل الإنسان عصبياً، مروراً بالحمى التي أخذت تعاوده بين فترة وأخرى، ثم المرض الذي أصاب عينه اليمنى، وما يسببه مِنْ ألم، ومن عجز عن القراءة والكتابة، نتيجة الغبار والشمس الحادة، وربما رائحة بعض النباتات!

هذه المنغصات كان بالامكان احتمالها لو أن الجو مؤات البحث الأمور الكبيرة، التي يعتبرها أساسية وتستحق التضحية وتحمل المشاق، لكن ما يكاد يُهيئ الجو للخوض فِي هذه الموضوعات حتى تبدأ «ذكريات الأبالسة» كما يسمي تلك الأسئلة التي يوجهها إليه محمود باشا. كان يسأله عن اخوانه وأسرته؛ عن أسعار الخضار والفواكه فِي لندن؛ وما إذا البغال فِي انكلترا أكبر أو أصغر حجماً، وعن مدى احتمالها، وهل تتسلق الجبال بكفاءة! ويسأله عن السن التي يتزوج فيها الرجال والنساء، ومقدار المهر الذي

يدفع، وما إذا المرأة تعمل فِي الحقول وفِي قطف الثمار، وعشرات الأسئلة، بحيث تنقضي السهرات فِي أحاديث مِنْ هذا النوع.

صحيح أن تلك الأسئلة كانت توجه بتهذيب، وبشيء مِنْ الخجل، مع كلمات الاعتذار أن لا يكون بتوجيهها أيّ ازعاج. وريتش الذي يلمس الصدق، ورغبة المعرفة، لا يتردد فِي الإجابة. ويسترسل بعض الأحيان، ثم لا يجد الطريقة المناسبة لينتقل إلى موضوعات أخرى، مؤملاً أن تكون الفرصة فِي الأيام التالية أفضل.

ولأن شمعون جاء خلال إقامة ريتش فِي السليمانية مرتين، فقد حمل فِي كُلّ مرة أشياء ثمينة مِنْ القطع الأثرية الصغيرة والمخطوطات. وكان يوم وصوله مِنْ نواحي الموصل عيداً حقيقياً لماري. فما كان يحمله مِنْ قطع أثرية، بين أكوام التبن، يشغلها لأيام، إذ تغرق فِي تأمل هذه القطع، والمقارنة بينها، ثم تبدأ بتصنيفها، واعادة التصنيف، خاصة وأنها جلبت معها خلال سفرتها الأخيرة عدداً مِنْ الكتب المتخصصة، وفيها تعليمات حول الطرق المناسبة للتعامل مع الآثار.

وشمعون الذي كلفه ريتش الطواف بالقرى الشمالية، خاصة منطقة الموصل، وشراء الآثار، كان يعرف كيف يغري البائعين بالتخلي عن البضاعة المزنجرة» لقاء بضائع جديدة، ومتنوعة، وحسب ما يرغب البائع! أو لقاء مبالغ بسيطة، ويعرف أكثر كيف يسوقها لريتش، أو بالأحرى الماري، التي أصبحت أكثر افتناناً مِنْ زوجها بهذه القطع «لأن ليس لها مثيل فِي أيّ مكان آخر مِنْ العالم، كما يقول شمعون، ومشيراً إلى ما تكلف مِنْ مال ومشقة مِنْ أجل الحصول عليها. لا يكتفي شمعون بذلك «فالأشياء التي تركتها فِي الموصل، لثقلها، أو للخوف عليها، أكثر مِنْ هذه».

لولا هذا العالم السحري الرائع الذي فتن ماري، ولاقى اهتماماً جدياً مِنْ ريتش، لربما وقعت ماري فِي نوبة مِنْ تلك النوبات السوداوية التي تعاودها بين فترة وأخرى، نتيجة الجو، أو بسبب الحنين الذي يستبد بها، خاصة وهي تتذكر مسني العائلة، وما يمكن أن يكون قد حل بهم خلال غيابها، ويزيد شعورها بالذنب أنها لم تستطع أن تقدم لهم أية خدمة، أو أن تكون إلى جانبهم فِي اللحظات الضرورية.

ثم هناك شعور غامض لدى ماري يجعلها تحارب مرضها، وتتغلب عليه، حين تجد أن كلود مريض أو يحتمل أن يقع فِي المرض، إذ كثيراً ما وجدت أن تلك «الشقيقة الملعونة» تغادرها إذا لمحت فِي عيني كلود التعب أو الحزن، والذي أحدهما أو كلاهما يؤدي إلى المرض. كانت تقول، وبنعومة آسرة:

ـ إنني أصح الآن؛ أشعر بتحسن، وكأن تلك الروح الشريرة، والتي اسمها المرض تغادرني...

فإذا لمحت ابتسامة غبطة فِي عينيه، على وجهه، تتابع برقة أبهى، وان شابها شيء مِنْ الحزن:

- يجب أن يبقى أحدنا، على الأقل، فِي صحة جيدة، كي يساعد الآخر على تحمل الحياة فِي هذا المكان الحزين.. والبعيد.. البعيد جداً.

ويهز ريتش رأسه موافقاً ومقدرة، فتضيف:

- الموت فِي الأمكنة البعيدة شديد الوحشة، ولا أريد أن يقع لأي منا!

ـ لا زلنا فِي بداية الحياة، يا ماري، وحرام أن نفكر بالموت، لأن أمامنا أشياء كثيرة نفعلها؟

هكذا يرد ريتش، ويتخلل صوته شيء مِنْ التحدي، فيتابع:

- ثم ان ما أشعر به الآن وعكة خفيفة، ولا بد أن تنتهي اليوم أو غداً.

حصلت الأمور بهذا الشكل أكثر مِنْ مرة، وتغلب الاثنان، بوسائل شتى، على وحشة المكان، على البعد، وأيضاً على المنغصات الصغيرة، بل الكبيرة أحياناً، التي واجهتهما خلال السنين السابقة. والآن، ورغم قسوة الحياة ورتابتها، وتلك الريح الشرقية، فإن الآثار كانت سلوى رائعة الماري شغلتها وانشغلت بها، مما أفسح مجالاً واسعاً أمام ريتش لكي يستكمل المهمة. فإذا وجدت ماري فراغاً، بعد أن أصبحت تعتذر عن استقبال النساء، أو عن تلبية دعواتهن، متذرعة بالتعب أو المرض، وبعد أن تفرغ مِنْ التصنيف وترتيب ما لديها، ولا تعرف هل مِنْ الأصوب أن تستبقي هذه الأشياء أم تبعث بها إلى بغداد، تمهيداً لإرسالها إلى حيث يجب أن تكون، إلى المكان الجدير بها... بعد أن تقرر ما يجب عمله، وجدت أن كتابة الرسائل، خاصة لمسني العائلة، أمر لا يخلو مِنْ متعة وفائدة، ما جعلها تضع قائمة تدون فيها أسماء الذين يجب أن تكتب لهم، والموضوعات التي يجب أن تكتبها، وهذا ما شغل ماري وقتاً غير قصير.

أما بعد أن اكتشف ريتش أمر «المقناكارتا الصفراء»، كما سمى الاتفاق الذي جرى بين الباشا محمود وأخوته وعمه، وأن الشيخ خالد هو العراب لهذا الاتفاق، فقد شعر بالمرض الحقيقي، وشعر أن الرياح الشرقية أثرت جدياً على صحته، كما أصبحت عينه اليمنى تؤلمه أكثر مِنْ السابق.

وحين وجد أن حسن بك، وخلال أسابيع قليلة، عاد بقوة إلى حضن العائلة، وأنه بدأ يمارس الهوايات التي تستغرق الكثيرين فِي الشمال، فقد قال ريتش لنفسه «عبقرية الشرقيين تتجلى فِي حالة واحدة: يحتربون ويريقون

الدماء بسخاء، ثم يتصالحون، ولا تعرف لماذا تحاربوا وكيف تصالحوا، وهذا ما يجعل اعتماد المنطق فِي تفسير هذه الحالة يقود تماماً إلى الموقف الخاطيء».

أما وهو يستعيد ملامح الشيخ خالد، خاصة حين يجيب على الأسئلة التي توجه إليه، إذ يبقى محدقاً إلى الأسفل، لا يتطلع إلى سائله، فيبدو صوته كأنه صاعد مِنْ بئر عميق، أو آت مِنْ مكان بعيد، فقد اعتبر ريتش أن الرجل يتخفي وراء هذه المظاهر، ولا بد أن يكون شديد المكر، وربما مرتبطاً بالاتراك ارتباطاً وثيقاً. وقرر أن يكتب رسالتين، الأولى رسمية إلى وزارة المستعمرات فِي الهند، والثانية لصديق عسكري هناك يستفسر فيهما عن الصوفي سلطان عبد الله، الذي كان الشيخ خالد مِنْ مريديه. وتساءل ريتش باستغراب: ولكن ما الذي أرسل الشيخ خالد إلى الهند؟ وكيف ذهب، وكم بقي هناك وماذا فعل؟

وعن له لو يكلف مهاد غلامي بمحادثته والتقرب منه، لعله يصل إلى بعض المعلومات، لكنه ابتسم لهذه الفكرة الساذجة وقال فِي نفسه: «إذا كان مهاد غلامي إلى الآن يقظاً وموثوقاً فِي الحراسة، فإنه بعد أن فقد نصف عقله بحب وهيبة، فلا بد أن يفقد النصف الثاني مِنْ خلال علاقته مع هذا العراب، الذي عقد له الزواج».

لما بلغت الأخبار الجديدة ريتش، وكان يستعد لمغادرة السليمانية إلى مصيف جبلي بارد، فقد اعتبر أن التعجيل بالسفر أمر ضروري، «لأن التدخل بين المتخاصمين غير مجد أثناء فورات الغضب، وإذا لم يطلب أحد منك ذلك، أو حين لا يجدي التدخل. أما بعد أن يتعب المقاتلون، وحين تتأرجح الكفة فِي هذا الاتجاه، وفِي الاتجاه المعاكس، وكلا الطرفين خائف مِنْ نتائج أسوأ، وإذا طلب الطرفان، وبإلحاح، أن تتدخل، فعندئذ يمكن أن تصل إلى نتائج، أن تفرضها، وقد تكون أنت الأقوى، خاصة إذا اعتبر كُلّ طرف أنك فِي جانبه».

قال ريتش ذلك بعد أن اضطربت السليمانية فِي إحدى الليالي، بحثاً عن بعض رجال عبد الله باشا المقربين، بعد أن تم اعتقاله وعدد مِنْ أقربائه، وكان السبب أن الشاهزاده بعث إليه سراً برسالة يطلب إليه أن يأتي بسرعة إلى كرمنشاه، ولم يطلع أحداً على هذه الرسالة، كما أخذ يستعد، سراً، للسفر، إلا أن خزنداره تسلل فِي الليلة السابقة على مغادرته، ومعه الرسالة ذاتها، وأبلغ محمود باشا، الذي أبلغ بدوره أخوته والشيخ خالد بهذه الخيانة، واتفق الجميع على اعتقاله، تمهيداً لتحديد الطريقة التي يجب أن يعامل بها.

لم يستطع محمود باشا أن يودع ريتش، وهو يسافر إلى الجبال. لذا كلف أحد معاونيه، عثمان بك، القيام بهذه المهمة، نظراً للصداقة التي نشأت بين الاثنين. وعثمان الذي لم يتردد فِي القيام بهذه المهمة، وحمل معه هدايا الباشا، واعتذاره، ورغبته فِي أن تكون السليمانية محطة أساسية فِي طريق العودة. كما أضاف عثمان بك عواطفه وإلحاحه بضرورة أن يعود ريتش إلى السليمانية، وأكد له أن كتاب التاريخ الذي وعد باطلاعه عليه سيكون جاهزاً. أما حول الخصومة التي نشأت بين الباشا وعمه، فقد اعتبرها سحابة صيف، وسوف تنتهي بكل تأكيد خلال فترة قصيرة.

قال ريتش لنفسه: «الأكراد بدو أيضاً، فإذا كان بدو العرب يسكنون الصحاري فإن بدو الأكراد يسكنون الجبال، وكُلّ زعيم منهم يفترض أنّه الأجدر، ويجب أن يطيعه الآخرون، والطرفان لم يصلا بعد إلى درجة يمكن أن يتحدث معهم بالقضايا السياسية، لأن السياسة بالنسبة لأي منهما مجموعة مِنْ الطرائف والأمثال والحكم الميتة. وإذا كان مِنْ البلاهة الاعتماد عليهم كقوى أساسية، فإن وجود قيادة مركزية تستطيع أن تسيرهم، أن تجعلهم مجرد محاربين». وقرر ريتش أن يواصل رحلته إلى حيث يمكن الوصول إلى نتيجة، وإرغام داود على الامتثال أو الرحيل.

وهكذا قرر ريتش أن يواصل رحلته متوغلاً فِي الشمال... وكانت أصداء المشاكل تتابعه فِي هذه الرحلة.

وبدأ ريتش يصعد فِي الجبال، نحو المصيف الذي اقترح عليه.

كانت المسالك وعرة، وفِي بعض المناطق بالغة الخطورة، مما دفع ميناس لإعادة ترتيب سير القافلة. تخلى عن التختر وان، وأصبحت البغال الوسيلة الأساسية للنقل، إضافة إلى عدد مِنْ الخيول المروضة والمجربة. وإذا كان قد اختار حصاناً صغير الحجم لركوب ماري، فإن واحداً مِنْ أقوى البغال، وأكثرها رصانة، اختاره لأمه، خاصة بعد أن زاد وزنها بشكل ملفت، نظراً لقلة الحركة والأكل الدسم، ثم لجلوسها فترة طويلة وهي تحيك الصوف لأحفادها. كما وعدت، وهي تغمز، بحياكة أشياء جميلة اللذين سيأتون، وكانت تشير إلى ماري ووهيبة، طالبة منهما، وبالإشارات، أن ترتفع البطون بسرعة، لتبدأ العمل!

كانت أم ميناس، السمينة كبطة، البطيئة كسلحفاة، ضرورية لهذه القافلة، إذ لولاها لخيم جو مِنْ الكآبة، فهي تعرف كيف تجعل كُلّ الذين حولها يبتسمون ثم يقهقهون، حتى لو لم يفهموا كُلّ ما تقول! فالحركات التي تقوم بها، والأخطاء التي تتعمد ارتكابها، ثم الأنغام التي تنفجر فجأة، خاصة حين يخيم الصمت، تجعل تلك المرأة، بوجهها الطفولي، وطريقة نطقها للكلمات، حاجة ضرورية لمغالبة الجو الحارة والسفر الطويل. أما مهارتها فِي صناعة الحلوى، وبعض الأطباق الأخرى، فربما كانت السبب فِي إصرار ماري على اصطحابها.

وإذا كان ميناس لجا إلى هذا التنظيم الجديد للقافلة، فقد اقتضى الأمر أن يتحرك الخدم وعدد مِنْ المسؤولين عن التموين ونصب الخيام قبل الآخرين، وهذا ما جعل ريتش يتجنب مرافقة القافلة كلها، وبالتالي خلصه مِنْ الضوضاء التي تتولد مِنْ الكثافة والعدد الكبير.

كتب فِي يومياته بعد هذا الإجراء الذي اتخذه منياس: «لا يمكن فِي هذه البلاد إنجاز عمل ما دون ضوضاء وصراخ لا يتناسبان مطلقاً مع العمل الذي يراد إنجازه. ويظهر أنّه حتى الحيوانات تتهيج فتساهم فِي الضوضاء بنهيقها وزعيقها، فِي الوقت الذي يتشاتم أصحابها».

ولا ينسى ريتش أن يدون الملاحظات حول كُلّ ما يمر به: «مسيرنا فِي هذا اليوم كان باتجاه شمال شرقي بخمسين درجة. وبعد أن اجتزنا ممراً ضيقاً بلغنا قرية بناويلا، وهي إلى جانب نبع رائع، وقد رأينا فِي النبع عدداً كبيراً مِنْ أسماك الشبوط. كان السمك أليفاً، لأن القرويين لا يزعجونه وبعد أن يقطع مسافة غير قصيرة يكتب «وصلنا إلى قمة أحد الجبال وجدنا

أنفسنا فِي جو يختلف تمام الاختلاف عما كان مِنْ قبل»، ويكتب فِي يوم ثاني «كان الطريق جميلاً، تتخلله أشجار البلوط والكروم، وقد التقينا بفتح الله آغا، رئيس تشريفات محمود باشا، وكان عائداً مِنْ سنه. ثم بعد قليل التقينا بضابط أرسله كبير المنطقة، خالد بك، وكان هذا الضابط لا يتكلم التركية، وان حفظ بعض الإجابات على أسئلة توقع أن توجه إليه، فحين سألته كم بقي فِي الطريق، أجابني أن سيده ذهب بالأمس إلى السليمانية!».

ولأن المصيف الذي اقترح على ريتش فِي منطقة قزلجة، فعند قاعدة الجبل التقينا بولدي خالد، وهما على رأس حرسه، وعددهم مئتا فارس بكامل سلاحهم». وعند التقاء هذه الكتيبة مع جماعتنا قامت جلبة وضوضاء وأصوات لا يدرك مغزاها إلا مِنْ نال شرف الاستقبال! أما الخيل فحيوانات لا تعرف للاستقبال معنى، إذ استاءت جيادنا مِنْ تلك الخيول الغريبة التي اختلطت بها، واغتاظت هذه بدورها، والخيول الكردية كلها شرسة سريعة الاهتياج، وذلك مما جعل المشهد كله شهيق وصهيل وصراخ وخبط ولبط وعراك».

«وفِي السابعة والنصف بلغنا مضاربنا عند التلال، وعلى مسافة ميل واحد فِي الشمال الغربي مِنْ كلوان، وكانت مساكننا التي أقامها لنا خالد بك واقعة عند نبع جميل، وهي مصنوعة باتقان مِنْ الأغصان، وكان إلى جانب الحرم والديوان حقول القمح، لم يزل الحاصدون يحصدونها وهم يتغنون بقصة فرهاد وشيرين!» بعد بضعة أيام قضاها ريتش فِي هذا المكان قرر مواصلة السفر، إلى بيستان، حيث يقيم خالد بك، مفوض الباشا. وقد لاحظ ريتش، وهو يجتاز الجبال والمنحدرات «أن معظم القرى الكردية تقع فِي مخابيء مستورة، وفِي وديان بعيدة عن النظر، وقد يكون ذلك تخلصاً مِنْ زيارات قطعات الجيش التي تمر بجوارها»، أما عندما بلغ بيستان وجد أن القرية تقع فِي أسفل التلال، وفِي مكان عجيب، ولم تكن فِي موضع له محاسنه، إذ أنها تحت صخرة كبيرة منعزلة يبلغ ارتفاعها مائتي قدم، تعزلها عن الوادي الذي يسيل فيه النهر، وتجعل مكانها مستتراً دافئاً».

ولأن المنطقة مليئة بالآثار، فقد قضى ريتش فيها أياماً، استطاع خلالها أن يحصل على مجموعة مِنْ اللقى الثمينة. اشتري قسماً منها مِنْ اليهود المقيمين فِي القرية، وعثر على القسم الآخر فِي التلال القريبة. كانت هذه اللقى مصدر فرح لا يوصف لماري، التي انشغلت بتنظيفها وترتيبها. واتفق ريتش مع خالد بك، ومع أحد التجار اليهود، أن يرسل لهم بين فترة وأخرى رسولاً مِنْ عنده، لشراء «الأشياء القديمة التي تصل لأيديهم، لأنها تروق لزوجته، ولأنه يريد أن يقدم بعضها الأصدقاء فِي لندن، إذ طلب هؤلاء أن

يحتفظوا بتذكارات مِنْ الشرق، الشرق الرائع، مهد الحضارات ومهبط الأديان»..

لكن تلك الأيام التي قضاها فِي بيستان لم تكن كلها متعة، فالحمى الصفراء أصابته وعدداً كبيراً مِنْ حاشيته ومرافقيه، الأمر الذي حول المخيم إلى مستشفى فِي الهواء الطلق، وجعل خالد بك يحار كيف يواجه هذه المشكلة، خاصة لو توفي أحد هؤلاء الضيوف؟

أم ميناس التي وقعت فريسة لهذه الحمى، أخذت تهذي، ثم أصبحت تدور فِي أنحاء المخيم وهي تتمايل كالسكري! وإذا كانت حركاتها وإشاراتها تثير الضحك دون أن تكون محمومة، فإنها الآن وهي تترنح وتهذي جعلت الجميع فِي حالة مِنْ المرح الحزين، إذ لا يعرف مِنْ يراها أيضحك أم يأسي أو أن يشاركها الألم!

ولما كانت لكل مريض بالحمى لازمة تستبد به وتسيطر عليه، وتجعله لا يرى غيرها، فإن تلك الشجرة العملاقة، التي استراحت القافلة عندها، وهي فِي طريقها إلى بيستان، على ضفاف نهر قزلجة، وبالقرب مِنْ بقايا قلعة يطلق عليها حصن الفتاة، كانت شجرة الحور تلك هي اللازمة لأم ميناس.

كانت تدور فِي المخيم وهي تهذي «أنا وذيك الحورة أخوة مِنْ زمان زمان، نعيش سوا ونموت سوا، وأنت يا ميناس لا أعرفك ولا أتعرف عليك إذا ما أخذتني لهناك»..

لقد فسرت ماري هذيان أم ميناس بأن الإنسان، حين يفقد القدرة على التحكم، نتيجة السكر أو الحمى، تسيطر عليه الأشياء التي يحبها أو يكرهها، ويظل يرددها. ولأن شجرة الحور الضخمة أثارت استغراب وإعجاب الجميع، حين توقفت القافلة هناك فترة طويلة، وبعد أن قاس كلود محيط ساقها ووجده يزيد قليلاً عن ستة عشر قدماً، فقد أخذ أكثر مِنْ فِي القافلة يضع رقماً لارتفاعها، إلى أن صرخت أم منياس، لإشاعة جو مِنْ المرح، انها مستعدة لتسلقها، وستأخذ معها حبلاً تدليه مِنْ أعلاها، وتترك لهم أن يقيسوا! إذا كانت الفكرة قد راقت لعدد مِنْ المرافقين، وأخذوا يلحون على أم ميناس أن تفعل، فإن كلود، جرياً مع جو المرح، استبدل الصعود، بأن يطوق عدد مِنْ الرجال ساق الشجرة، وأصرت أم منياس أن تكون بين هؤلاء!

أشارت ماري لهذه الحادثة، وكانت تجلس تحت صفصافة مع بوليني، ذلك الألماني الذي رافقهم فِي الرحلة مِنْ السليمانية، وكان فِي طريقه إلى ايران. قالت وهما يرقبان أم ميناس، وكانت تتمايل وتصرخ مطالبة ابنها بإلحاح أن يأخذها إلى شجرة الحور!

ولم يُطل ريتش اقامته فِي هذا المكان الموبوء، إذ ما كاد يبل قليلاً، ويقوى على التحرك حتى طلب إعادة أغلب القافلة إلى السليمانية، خاصة مِنْ الذين أرهقهم المرض، وان يتحرك هو نحو مكان آخر. وهكذا، وبعد محطات قصيرة، وصل إلى بنجوين، فِي طريقه إلى سنه، للوصول إلى ايران. وبعد أن استراح أياماً تابع سفره إلى سنه، فلما وصلها «فاجاتنا المناظر الجميلة مفاجأة سارة. ولجنا ممرات تكتنفها أشجار الحور الباسقة الجميلة مِنْ الجانبين إلى قصر فخم، تحيط به الحدائق، وأحواض مربعة جميلة تعلوها النافورات، وهي أمام القصر وخلفه. وكان القصر شامخاً وقد زُيُن بالنقوش المذهبة على الطراز الايراني». «واستقبلني عند مدخل الحديقة ميرزا فرج» باعتبار أن والي سنه كان غائباً. وقد أنزل ريتش فِي هذا القصر، وما كاد يستقر قليلاً حتى جاءته أول هدية، ستة بغال محملة بالفواكه، وحمل بغل مِنْ الثلج، ووصل رسول مِنْ الوالي يرجوه أن يكون طريقه أثناء العودة إلى السليمانية بالمكان الذي هو فيه الآن.

لقد كان والي سنه فِي جولة على مناطق نفوذه لكي يجمع الأموال اللازمة، لتكون مهراً لابنة الشاه التي سيتزوجها ابنه فِي الربيع القادم، وفِي عيد النوروز تحديداً. ورغم ما لديه مِنْ أموال، «لا تأكلها النيران» كما همس أحد الرجال، الذين لا يكون له الود فِي أذن ميناس، والذي نقل ما سمع إلى ريتش، فإن قسوته تبلغ حداً أن يصبح فقء عيون أعدائه، أو الذين يمتنعون عن أداء الأموال المقررة عليهم، إحدى هواياته! يكتب ريتش حين أدخل إلى الغرفة الخاصة فِي القصر: «قاعة أنيقة عُلقت على جدرانها صور نساء، قيل إن إحداهن كانت جارية أهداها الشاه عباس الكبير إلى أحد أجداد الوالي. دخلنا الغرفة قبل أن تهيا لنا، وحالما فتحت لنا أبوابها فاحت رائحة خمور شديدة. لقد شاهدنا على الرفوف بعض الزجاجات، الأمر الذي دلنا بوضوح أن الوالي لم يكن مِنْ المسلمين الشديدي التمسك بدينهم».

بعد أن أوفد ريتش عدة رسل إلى كرمنشاه وطهران، وبعد أن تجول فِي المناطق المحيطة، وسجل المعلومات التي تعنيه، لم يشأ أن يتوغل أكثر مِنْ ذلك، كما رأيى أن مقابلة الوالي بالمكان الذي حدده، ستصل أخبارها الداود، وربما مِنْ أكثر مِنْ مصدر، ولا بد أن تحتدم بينهما الخصومة قبل الأوان، أيّ قبل أن يرتب أوراقه وخططه، لذلك فكر أن يصرف النظر عن هذا اللقاء.

ما كاد يبلغ رجال الوالي بعزمه على العودة إلى السليمانية مباشرة، دون المرور بالوالي، لضيق وقته، ولأن الجو أخذ يميل إلى البرودة، حتى جئ رجال الوالي، لأن مخالفة رغبته سوف تؤدي إلى إنزال أقسى العقوبات بهم، وأخذوا يتوسلون، ويبذلون جهدهم مباشرة، وعن طريق المرافقين، ليغير ريتش رأيه، فيوافق على المرور، ولو لوقت قصير، وحين وجدوه متصلباً رافضاً، وبعد مفاوضات واقتراحات، بما فيها أن يهرب رجال الوالي

إلى السليمانية لعدم قدرتهم على مواجهة غضبه، وبعد أن ذرفوا دموعاً غزيرة، أرسلوا نساءهم فِي محاولة لاقناع ماري، وقد أعولت النسوة ونزلت دموعهن مدراراً، ما جعل ريتش يوافق مكرهاً على المرور.

قال ميناس أن رجال الوالي، فِي الليلة التي قرر فيها ريتش أن يعطي كلمته الأخيرة، لازموا مقام مولاي حافظ الشيرازي يستنجدون به، بدعاء أقرب إلى النشيج، أن يهدي الله ريتش ويوافق على زيارة الوالي. أما حين وصلوا إلى عتبة غرفة ريتش، قبل منتصف الليل بقليل، فكانت عيونهم متورمة حمراء مِنْ البكاء. ما كاد يراهم ريتش هكذا حتى أعلن موافقته. حين تأكدوا مِنْ هذه الموافقة، جثوا على ركبهم يريدون أن يقبلوا قدميه!

بعد أيام مِنْ السفر، وصل ريتش إلى المكان الذي يقيم فيه الوالي. وبعد أن التقى به كتب فِي يومياته دوجدته جالساً فِي إيوانه تحيط به كمية مِنْ البطيخ، فنهض ليستقبلني ماداً يده. وجدته ايرانياً اعتيادياً، خشن المظهر، أو بالأحرى مستهجناً. لا تلمس الطلاوة فِي حديثه الذي يقتصر على توجيه الأسئلة المقتضبة وابداء الملاحظات القصيرة» «خاطبني بالتركية، وقد أصبحت لغة الطبقة الراقية فِي إيران. كان يكرر توجيه الأسئلة التافهة. سألني عن عمري، وحين أجبته أنّه الثالثة والثلاثون، أبدى ملاحظة بالكردية أنني أبدو وكأني ابن الأربعين. ثم سألني عن مرضي بسيل مِنْ المصطلحات الطبية الشرقية. ثم سألني عما تكون واجبات المقيم البريطاني فِي بغداد، وتمادي فسألني عن راتبي! ثم جيء إليه بخمسين بطيخة تقريباً، فاستل سكينة برمنكهامية مِنْ جيبه وذاق كُلّ واحدة مِنْ البطيخ، وقدم لي. ثم سألني كثيراً عن بونابارت. وسأل عن أتباعه فِي سنه، وما إذا أكرموا وفادتي، أو أساء أحدهم سلوكه.

فِي اليوم التالي زار الوالي ريتش، ويذكر ميناس أن موكبه حين وصل كان رثاً فقيراً، خلافاً لمواكب الولاة الأتراك. وفِي هذه الزيارة ذكر لريتش أن الشاه وعده بعدة مدافع، وأنه سيكون مدفعياً جيداً، إذ حالما يستلم المدافع سوف يتمرن عليها كُلّ يوم. سيضع ثيراناً مقابل قصره، ولا بد أن تكون هذه أهدافاً جيدة! وفِي لحظة مفاجئة التفت إلى أحد رجاله وخاطبه باللغة الكردية وقال له: «لقد جذبني هذا الرجل وأريد مؤاخاته» ثم أخذ يتحدث عن نيته بالسفر إلى مكة وأداء فريضة الحج. وفجأة سأل أحد مرافقيه عن الوقت، فلما أخبره تناول حبة صغيرة مِنْ الأفيون، وأردفها بقطعة مِنْ السكر، وبعد أن خنت الغلايين استأذن وغادر.

ولما كان ريتش مقرراً السفر فِي اليوم الذي أعقب الزيارة، فقد قام بزيارة وداعية للوالي، لكن الوالي كان قد سافر لقضاء بعض الأمور، تاركاً خبراً لريتش أن يتأخر ليوم آخر، وسيرافقه مسافة مِنْ الطريق. وحين اعتذر

ريتش، مؤكداً تصميمه على السفر، وقبل أن يأوي تلك الليلة إلى فراشه جاء رجال الوالي لتقويض الخيام، ولما احتج ريتش على ذلك، وبعد مشاورات واتصالات، أعيد نصب الخيام، وكتب ريتش فِي يومياته: «أن الأمر صدر مِنْ الوالي فِي نوبة سكر شديد».

فِي صباح اليوم التالي، موعد السفر، وجد ريتش أن البغال قد شحبت بأمر الوالي. وبعد جهد واتصالات متوالية أعيد عدد منها، وسافر أغلب المرافقين. وحين قابل ريتش الوالي اعتذر الأخير عن هذا الخطأ، وأهداه رهواناً، لكن طلب مقابله مقداراً مِنْ البارود! ووعد أن يرسل إليه بعض الكتب القديمة. وجرى الوداع بكثير مِنْ الود، على أمل اللقاء مجدداً!

لقد تعرض ريتش إلى السرقة فِي طريق عودته إلى السليمانية، وحالما وصل إلى المنطقة الخاضعة لمحمود باشا كتب فِي يومياته «شعرت بغبطة قلبية لنجاتي مِنْ أرض المشاكل والشحاذين، ودخولي بلاد الضيافة الحقة، وشعرت أيضاً كأنني عدت إلى داري»..

كانت أم ميناس فِي السليمانية بالانتظار، لكن بعد أن خسرت مقداراً غير قليل مِنْ وزنها، وكان بطن وهيبة قد ارتفع، اعلاناً أنها حامل. ماري التي فرحت بهذا اللقاء، بعد أن افترقت عنهما طوال الفترة الماضية، وجدت أيضاً أن شمعون قد وصل إلى السليمانية، ومعه كمية مِنْ الأواني الفخارية، إضافة إلى عدد مِنْ الأختام والأسرجة، ويحمل خبراً مدوياً: مكتبة كاملة مِنْ المخطوطات اشتراها مِنْ ورثة أحد الباشوات السابقين، ونظراً لأهميتها، ولعدد ما تحويه، لم ير مناسباً أن ينقلها، الأمر الذي يستدعي أن تكون عودة ريتش إلى بغداد عن طريق الموصل.

هذه الأخبار السارة كانت بانتظار ريتش وهو متوجه إلى السليمانية، وكان يتوقع أيضاً أن تكون قضية عبد الله باشا وصلت إلى حل يمكن أن يكون وسيطاً مناسباً، بل ضرورياً، تمهيداً لأن يتحدث فِي الأمور التي يجب أن يبحثها، وأن يصل إلى نتائج فيها، قبل عودته إلى بغداد.

لكن أمراً ليس فِي الحسبان كان ينتظره فِي السليمانية أيضاً. فمرض الجدري الذي كان يجتاح المنطقة، وقد تسبب بوفيات كثيرة، خاصة للأطفال، أثار حزنه وحزن ماري، وكمحاولة لوضع حد له، فقد طلبت ماري أن يُرسل لها اللقاح مِنْ طبيب الباليوز، مع ممرض، لكي يتولى معالجة المرضى. وكان الابن الأصغر لمحمود باشا تعرض لهذا المرض، وصدف أن يموت فِي اليوم التالي لوصول ماري، وبعد أيام يصل ريتش، فيجد أن جو السليمانية لا يحتمل أيّ حديث، غير المواساة والعزاء، مع محمود باشا.

قال ريتش لنفسه، بعد أن قام بتعزية محمود باشا بوفاة ابنه: «فقد الأعزاء أليم، لا يناقش أحد فِي هذه المسألة، وهي حالة انسانية فِي كُلّ

مكان، لكن ما يثير تساؤلي هو موقف الشرقيين تجاه الموت، إذ بمقدار ما يبدون قدريين، وإلى الحد الأقصى، حيث يعتبرون الموت جزءاً مِنْ الحياة، هكذا يقولون بصوت عال، فإنه حين يموت لأحدهم قريب أو عزيز، يتحول إلى إنسان آخر، وكان الموت شيء مفاجيء وغريب، أو بمقدار ما كان يفهمه حين يقع للآخرين، يرفض أن يعتبره ممكناً بالنسبة له، ولا يتصور أو لا يحتمل أن يحل به، مما يجعله في وضع مأساوي إلى أقصى حد، وهذا ما يجعلني عاجزاً عن الخوض فِي أيّ موضوع مع محمود باشا سوى موضوع ابنه!».

حتى أم ميناس التي كان لديها ما تقوله، وبمرح، عن مرضها، عن شجرة الحور، عن نساء بيستان، وأيضاً الأشياء الصغيرة التي اكتشفتها فِي هذه السفرة، وجدت أن أيّ حديث عن هذه الأمور لن يُسمع، بل سيكون غريباً إن لم يكن نابياً.

أما مهاد غلامي الذي ظل مرافقاً لريتش طوال الرحلة، وكان يروق له أن يعلن فرحه بفخر وكبرياء، خاصة وهو يرى زوجته قد صحت وامتلأت ولن يكون محرجاً وهو يراها تصعد إلى التختر وان، وجد مِنْ غير المناسب أن يعلن الفرح، أو أن يظهر الكبرياء فِي جو القتام الذي بدأ فِي السليمانية، ثم سرى إلى الآخرين، ولم يبق أحد مِنْ القافلة إلا وشارك فِي ذلك، وهكذا ابتلع مهاد فرحه، واعتبر حمل زوجته أمراً عادياً، لا يستحق الحديث. بل أكثر مِنْ ذلك قال لميناس، فِي الليلة التالية لوصولهما إلى السليمانية:

ـ يحزن الإنسان لكثرة الأولاد فِي هذه المدينة، ويحزن أكثر أن أولاد الفقراء يولدون بصمت ويموتون بصمت. أما أولاد الحكام فحالما ترتفع حرارة الواحد منهم، فإن كُلّ مِنْ فِي المدينة، الصغار والكبار، يجب أن يمرض؟

وميناس الذي نظر إليه بطرف عينه، ردَّ بسخرية:

- ليس صغارهم فقط... بل وبغالهم؟

وحين لم يفهم مهاد، أضاف ميناس:

ـ ولادة الصغار وموت الكبار، فِي كُلّ مكان، يتعلقان بالمواقع التي فيها أو تنتظر هؤلاء وأولئك!

وفهم مهاد غلامي ولم يفهم!

لو اقتصر الأمر على وفاة الابن الأصغر لمحمود باشا لأمكن فهم مجريات القدر، فِي امتحان إرادة الأفراد وإمكانيتهم على الاحتمال، فالزمن كفيل بتدبر مثل هذه المصائب. لكن لم تمر أيام على هذه الوفاة حتى جاء رسول مِنْ الشاهزاده، لا لتقديم العزاء، بل ولم يتطرق لهذه المسألة بكلمة واحدة،

وإنما حمل رسالة شفوية مختصرة لمحمود باشا: إما أن يرسل ابنه عبد الرحمن إلى كرمنشاه، ليكون ضيفاً عند الشاهزاده، أو الحرب.

لم يجد الباشا بُداً مِنْ الاستجابة لهذا الطلب. وإذا كان قد بكى على وفاة ابنه الصغير سراً، وقد فعل ذلك عدة ليالي قبل أن يأوي إلى فراشه، فإن الكثيرين رأوه يبكي وهو يودع ابنه عبد الرحمن، الذي لم يبلغ السنين السبع بعد. حاول أن يتماسك. تذكر عندما أرسله أبوه إلى كرمنشاه، كان قوياً وحاول أن يبتسم، وقال له: اذهب، اكتشف العالم، وتعلم، ولا بد أن تعود فِي وقت غير بعيد. الآن، وهو يودع ابنه، لا يجد لديه ما يقوله. تطلع إليه كثيراً، وفِي لحظة وجد نفسه يبكي. بكي بصمت، والرجال الذين كانوا حوله رأوا دموعه فالتفتوا أو نظروا إلى الأرض، كي لا يتابعوا سقوط الدمعات الصغيرة. وحين قال عثمان بك ان وقت السفر قد حان، انتبه محمود باشا فجأة. نهض. فك الحزام واستخرج خنجره وأعطاه للصغير. وقبل الصغير يد أبيه وأعمامه، ومضى مع مرافقيه، ذهب إلى

كرمنشاه، ولا يعرف ان كان سيعود أم لا.

مولاي الشيخ خالد، الذي أكد لمحمود باشا أن مرض الصغير عابر، ولن يصيبه مكروه، وزيادة فِي الحيطة كتب له حجاباً عُلق فِي عنقه، ثم قام بزيارته عدة مرات، وأكد فِي كُلّ مرة أن الابنين ينتظرهما مستقبل زاهر.

وربما الصغير أكثر مِنْ أخيه الأكبر، وسوف يعيشان فِي كنف الوالد عمراً مديداً! لكن ما إن قضى الصغير، وقبل أن يشيَع إلى مثواه الأخير، كان الشيخ خالد قد غادر وزوجاته الأربع، وجميع أفراد أسرته، السليمانية، لا يعرف إلى أين!

ولكي تكتمل لعبة القدر اعتزل محمود باشا الناس، لازم قصره لا يغادره. وجاء عثمان بك إلى ريتش يبلغه بهذه الأمور، ويطلب منه أن يفعل شيئاً، خاصة وأن محمود باشا لم يعتزل الناس بسبب الحزن وحده، وإنما نتيجة الخلاف بين الأخوة أيضاً، وأنه الآن لا يريد شيئاً سوى ترك السلطة.

وقد بعث إلى داود باشا يبلغه بهذه الرغبة وبهذا القرار، ولا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحصل بعد ذلك!

ولأن البريد وصل إلى ريتش مِنْ بومبي، وطُلب منه أن يرسله بصورة مستعجلة إلى اسطنبول، فقد وجد أنّه لا يستطيع عمل شيء الآن، لذلك انهمك بإرسال البريد، وكتب عدة رسائل لسفارته فِي اسطنبول، ورسالة إلى الوزارة فِي لندن، وقد ضمَن رسائله العديد مِنْ الانطباعات والأفكار والاقتراحات. كما أبلغ رجال محمود باشا أن ضرورات وظيفته تلزمه

بالمغادرة، ورجاهم أن يبلَغوا الباشا شكره وتحياته، مع وعد أكيد بزيارة قريبة قادمة.

قال لعثمان آغا الذي رافقه قسماً مِنْ الطريق:

ـ المهم أن يبقى الباشا فِي موقعه. يجب أن تفعلوا أقصى ما تستطيعون مِنْ أجل هذا الهدف، أما الحزن الذي يغرقه الآن فإن الزمن وحده كفيل بمعالجته، ولا بد أن يفعل!

ولم ينس عثمان آغا أن تكون هديته الأخيرة لريتش، وقد قدمها بطريقة احتفالية، تعبيراً عن الود: لفافة طويلة مكتوبة بالفارسية، قال ان فيها مِنْ المعلومات ما تعتبر حلقة متممة لتاريخ الأكراد، كما قدم كتاباً قديماً يحتوي على مجموعة مِنْ الشعر الديني.

واتجه ريتش إلى الموصل، لتكون محطته الأخيرة فِي هذه الرحلة.

خلال الطريق، وفِي المحطات التي كان يتوقف فيها، صار يستعيد الكثير مما رأي، وكي لا ينسى شيئاً، أخذ يدون بعض الأفكار والانطباعات، لتكون مادة للتقارير التي سيكتبها للندن، وربما أصبحت ذات يوم سجلاً، حين تخرج فِي كتاب أو مجموعة كتب، خاصة وأنه مِنْ المكتشفين الأوائل المنطقة ظلت مجهولة وقتاً طويلاً بالنسبة للغربيين.

وهو يقارن بين ما تطبعه لندن مِنْ كتب، وما يطبع فِي اسطنبول، كتب:

طبعت اسطنبول بعض الكتب الجيدة، لكن الغريب أن القليلين يطلبونها، وهؤلاء إذا وصلت لأيديهم لا يطالعونها! أن ما يتهافت عليه الذين يعرفون القراءة: القواميس؛ وحتى القواميس تكون للتباهي أو لأن يحزر بعضهم بعضاً حول بعض الكلمات الطريفة»..

فِي يوم آخر، وحين استعرض وجوه الولاة والحكام الذين رآهم فِي هذه السفرة، أو حتى الذين عرفهم فِي بغداد، وقارن بين النظام السائد هنا وذاك الموجود فِي انكلترا، كتب: «... الأمة لا تتقدم بالقوة أو بالاكراه، كما لا تتقدم بجهود فرد، مهما كان، ومع ذلك فإن للايرانيين كفاية أوسع مِنْ الأتراك، ولو كانت اسطنبول عاصمتهم لتمكنوا منذ أمد بعيد مِنْ الوقوف فِي صف الأمم الأوروبية. ذلك لأن الدين الاسلامي هو الذي يحول دون الرقي،... ويعيق التقدم ويشجع على الجمود....

أما حين استعاد صورة محمود باشا فكتب: «الخطأ الكبير لمحمود باشا هو ضعفه أو احترامه للأتراك الاحترام الكلي، المنبعث فِي الحقيقة عن الشعور الديني، وكثيراً ما استغربت ضعف الباشا النفساني فِي هذا الشأن ---.

* الفقرات بين المزدوجين، مأخوذة مِنْ مذكرات القنصل البريطاني آنذاك.

ومن المؤسف أن يلاحظ المرء شدة انخداعه بباشا بغداد».

وتذكَر ريتش الورقة التي دسها أحد رجال الدين فِي يده، ولا يعرف لماذا غفل عنها، إذ وضعها مع أوراق أخرى.. حين استخرجها مجدداً، قرا الرسالة التالية: «إلى كبير قومه، باليوز بك السلام على مِنْ اتبع الهدى. الذي أباركه وأرجو مِنْ الله هدايته إلى الصراط المستقيم فِي بدني طفح جلدي مستديم منذ عدة أشهر، فأملي أن تكتبوا لي وصفة قد أشفى باستعمالها فادعو لكم بالخير.

(ولدي صديق حميم، وهو الآن مثقل بالضعف البدني الحاد، فإذا كان لهذا الذاء مِنْ دواء فارجو أن تبينوا لنا خصائصه فيعود مريضنا مسروراً إلى حالته السابقة. وأرجو أن لا تقطع الرجاء للاهتداء إلى عبادة الله وإلى نوال السعادة التامة. الفقير: معروف).

طوى ريتش الرسالة. ابتسم. كتب فِي يومياته: «لو كنت أعرف أين أصبح ذلك العرًاب، الشيخ خالد، لكلفته أن يكتب لهذا العبد الفقير حجابا عله يشفيه.. أو ربما يقضي عليه!».

حين بدت الموصل لأنظار ريتش توقف قليلاً عند بئر(يعتقد الأهلون أن فِي مياهها شفاء لكثير مِنْ الأمراض، ليس لخصائصها الطبية، بل لبعض الأمور الخرافية المنسوبة إلى البئر، وكلهم يعتقدون أنها مسكونة مِنْ الجان، ولا يجرؤ أحد على التقرب منها بعد حلول الظلام، وقد أخبرني حسين آغا أنّه مر فِي ظلام ليلة مِنْ الليالي بالبئر فسمع دقات طبول وضجيجاً صاخباً مِنْ داخلها، فحث جواده هرباً، ذلك لأن الرجل الذي يجرؤ، ولو بغير قصد، على الوقوف لمشاهدة الجان، فإنه إما أن يموت الساعته، وإما أن يفقد صوابه. لقد ذقت الماء فوجدته عذباً، وكان صافياً ونقياً»..

وأقام ريتش خارج الموصل، فِي بيت هيأه له أحد الأصدقاء، وهناك استقبل عدداً مِنْ معارفه، إضافة إلى شمعون، الذي أطلعه على نماذج مِنْ محتويات المكتبة التي اشتراها، وكمية غير قليلة مِنْ القطع الأثرية. ولأن تلقى رسالة مِنْ سفارته فِي اسطنبول بضرورة العودة السريعة إلى بغداد، لأن ممثلاً مِنْ لندن سيصل قريباً إلى اسطنبول، ويواصل سفره إلى بغداد فالهند، وهناك أمور عديدة يريد بحثها، فقد قرر ريتش أن يلتحق بمقر عمله بسرعة. ولأن الطقس لا زال مساعداً، ومياه النهر هادئة، وتلبية الوعد سابق قدُمه لماري أن يأخذا طريق النهر فِي العودة، فقد تهيأت الأمور بسرعة، إذ أمر منياس بعودة الكثيرين عن طريق البر، وركب ريتش وماري وعدد مِنْ المساعدين والحرس فِي اكلاك أعدت بأمر باشا الموصل، وغادر بعد أيام،

بعد أن ودع الباشا بطريقة لا تخلو مِنْ مرح. إذ بعد أن زار الباشا، وقدم احترامه، حتى ردد ذلك البيت مِنْ الشعر، كمدخل للاستئذان بالسفر، قال له:

يا مِنْ تحوَل عنا وهو يألفنا بعدت عنا، أبعد الآن تلقانا؟

فاعلم بأنك قد فارقت جيرتنا بدلت جاراً وما بدلت جيرانا والباشا الذي كان يريد أن يجري أحاديث واسعة مع ريتش، تلقى وعداً بأن تتم زيارة تخصص للموصل بالذات فِي الربيع القادم، أو كما قال ريتش بطريقة فخمة، وهو ينطق بالكلمات على مهله:

ـ قبل أن يصفر الشعير، سأكون فِي أم الربيعين، سأكون فِي حضرتكم!

ولان ريتش أخذ طريق النهر، وكان الموج هو الذي يقوده منحدراً مع التيار، فلم يشأ أن يبلغ بغداد بموعد وصوله، خاصة وأن الأكلاك سوف تقف مقابل الباليوز، وسوف يكون فِي استقباله الرجال الذين يعرفهم، «لا ذلك الذي يتكلم مِنْ أنفه، ولا أعرف كيف امتلك أبوه تلك الفراسة الهائلة لكي يسميه: ناطق»..

وهكذا عاد ريتش إلى بغداد مع أول أمطار الشتاء، ولم تعرف بغداد بعودته إلا بعد بضعة أيام، أما السراي فقد وصلها الخبر فِي نفس الليلة، ومن أكثر مِنْ مصدر!

لم يصدق ريتش أن كُلّ هذا التغٌير قد حصل أثناء غيابه، فبناء السراي يرتفع يومياً، لأن العمل فيه يتواصل منذ ساعات الصباح الأولى ولا يتوقف إلا بحلول الظلام. بوابات بغداد جددت وأعيد تنظيم الحراسات عليها.

الجسر الخشبي وُسع ودُعمت جوانبه، بحيث أصبح قادراً على استيعاب عربتين واحدة فِي الذهاب وأخرى فِي الإياب. عدا الجانب الأيمن الذي خصص للمشاة. أما الأسواق، أما عدد مِنْ الميادين، فقد أصبحت أكثر نظافة وتنظيماً مِنْ قبل.

كانت هذه البداية، وكان رجال الباشا يواصلون العمل دون انقطاع.

ورغم الضرائب التي فرضت على التجار وأصحاب الأملاك، خاصة الكبيرة، فإن الشكاوى كانت خافتة، وتقتصر على أفراد، لأن حركة البيع والتجارة نشيطة وفِي ازدياد. أكثر مِنْ ذلك، بدأ التجار يسافرون إلى أماكن بعيدة، ويأتون بأشياء جديدة لم يسمع بها أهل بغداد مِنْ قبل. كما أصبح يصل إلى المدينة عدد مِنْ التجار الأجانب يزيد شهراً بعد آخر. وهؤلاء بالإضافة إلى الأشياء التي يبيعونها، كانوا يبحثون عن وكلاء لهم أو عن شركاء، وبمقدار ما كانوا يجلبون مِنْ السلع الجديدة، لم يكونوا يترددون فِي شراء سلع كثيرة مِنْ أسواق بغداد والمدن الأخرى. اشتروا الجلود، والعباءات والفضة، اشتروا الصمغ وعرق السوس، وكميات غير قليلة مِنْ البهارات والأشياء المجلوبة مِنْ الهند. أما السجاد بأنواعه، فكان له أربابه، وغالباً ما تجري عمليات تبادل واسعة فِي هذا المجال.

أما الشيء الذي لم يصدقه ريتش فذلك الانتظام الصارم أثناء زيارته للسراي، بدءاً مِنْ حراس البوابات وانتهاء بالذين يقدمون الغلايين. لقد تغيرت الأشكال والهيئات، ملابس موحدة للمجموعات حسب مواقعها أو حسب الوظائف، وكلها فِي غاية الاتقان واللياقة، وكأن هؤلاء ادخلوا دورات أو استبدلوا بغيرهم أكثر كفاءة.

زيارة ريتش للسراي كانت للمجاملة، وليرى بعينه كيف أصبح الباشا بعد هذه الفترة الطويلة مِنْ الانقطاع.

أبلغ قسم التشريفات برغبة القنصل زيارة الباشا. جوزيف الديراني الذي قام بنقل الرغبة وطلب تحديد الموعد، ولأنه لا يعرف المجاملة مثل بطرس يعقوب، اكتشف أيضاً أن صفوت قرداغ رسمي ومحايد مثله، إذ بعد كلمات مجاملة قليلة، سأل بوجهه قبل أن يسأل بلسانه عن سبب الزيارة، وما كاد

يُبلغ حتى فتح سجلاً كبيراً، كان موضوعاً على طاولة جانبية، وبعد أن دقق فيه ملياً، قال وخرج صوته محايداً:

- الثلاثاء الساعة الرابعة بعد الظهر.

ولم يزد كلمة واحدة. الديراني هز رأسه موافقاً وغادر.

وإذا كانت نية ريتش أن يحول الزيارة إلى حدث، خاصة وأن الاستقبالات التي جرت له فِي الشمال لا تزال تضج فِي رأسه، فقد عزم أن يكون موكبه حافلاً أوعز لرجاله بنشر الخبر، طلب مِنْ ميناس أن يُهيئ المرافقين وأن يجري لهم تدريباً وثانياً، طلب أن تُعد أفضل خيول الاسطبل. أما الفرقة الموسيقية التي ظلت أنغامها تصدح فِي محيط الباليوز فقد قُصد مِنْ ذلك التنبيه، وأيضاً للتغلب على الضجة التي يحدثها العاملون فِي بناء السراي الجديدة، فالأصوات خليط مِنْ الهوسات والنداءات، وتُسمع مِنْ مسافة بعيدة، خاصة فِي الصباح الباكر وعند الغروب.

ورغم أن أهل بغداد لم يروا موكب القنصل منذ فترة طويلة، أو على وجه التحديد منذ أن زار السراي ومعه قائد السفينة، خماس أو خميس، كما أصبح الكثيرون يطلقون عليه حين يتذكرون تلك «البلية» وزيارتها قبل شهور طويلة، فإن الفضول الذي لمسه ريتش وهو ينظر إلى الناس فِي الشوارع، دونما توقع، إذ التفت الذين سمعوا دوي الطبل أولاً، ثم حين اقتربت الفرقة الموسيقية، وعادوا بسرعة إلى ما كانوا فيه. ومما زاد فِي الفتور الذي خيم على الطريق الذي مر فيه، أن رجال الباشا زجروا الصبية عن متابعة الموكب، بل وضُرب عدد منهم، مما أخاف الآخرين، وجعل غيرهم يرقبون الموكب عن بُعد.

كان وجه الباشا وهو يلتقي القنصل، محايداً، هكذا أراده الباشا، أما ريتش فقد رأى فِي ذلك الوجه مكراً مخاتلاً وكأنه يرتدي أكثر مِنْ قناع.

بادره الباشا بكلمات تحمل معانٍ كثيرة. قال له وهو يشد على يده:

ـ لقد افتقدناك كثيراً طوال الفترة الماضية، يا سعادة القنصل!

شكره ريتش على هذه العاطفة، ولم يجد كلمات كثيرة يقولها، فابتسم.

تابع الباشا بذات النبرة:

ـ أقدر أن طقس بغداد خلال الصيف قاسٍ، خاصة على مِنْ لم يتعود...

واصل ابتسامته الصغيرة، وهو يُضيف:

ـ حتى الذين تعودوا على طقس بغداد، فقد كان هذا الصيف أشد حرارة مِنْ سنوات سابقة، ولولا مشاغلي الكثيرة لفعلت مثلك، يا سعادة القنصل، وذهبت إلى الشمال!

لا يعرف ريتش كيف يجيبه، فهو ليس متأكداً ان كان جاداً ويعني ما يقول، أم أنّه يعرض به، وكأنه يتهمه أن ليس لديه عمل إلا الذهاب إلى الشمال ليثيره عليه، ويخلق له المشاكل.

ردَّ ريتش بكلمات زلقة: ـ لم يكن الشمال بارداً كما افترضت، يا فخامة الباشا، وربما كانت أيام كثيرة لا تقل بحرها عن بغداد، خاصة فِي السليمانية!

. فقط خلال ساعات الظهيرة، يا سعادة القنصل، ثم إن هواء الجبال منعش، ويصبح الجو أطيب وأكثر برودة كلما اتجهت نحو الشمال الشرقي!

أحس ريتش أن الباشا يقول له، بطريقة غير مباشرة، أنّه يعرف أين ذهب، وأين وصل، وبمن التقى. أكثر مِنْ ذلك، قدر أن للباشا عيونه فِي كُلّ مكان، وهؤلاء لا ينقلون إليه الأخبار فقط، بل ويختلقون الكثير. لكن ماذا لو أن بين رجاله بالذات جواسيساً ينقلون للسراي كُلّ الأخبار؟

مرت هذه الأفكار والهواجس فِي رأسه، وكان يستمع إلى الباشا يحدثه عن جمال الشمال وبرودته ومياهه العذبة وشلالاته التي تتساقط مِنْ أعالي الجبال. وريتش يعلق، يذكر بعض الأماكن، فيبتسم الباشا حين يسمع طريقة لفظه، وكانت طريقة أهل الشمال فِي نطق الحروف، بالترقيق أو الإمالة، ولا يترك الباشا أن يساء فهم تلك الابتسامة، إذ يقول، وهو يصحح بعض الكلمات، أو كما يرددها أهل وسط العراق:.

- لقد اتقنت أكثر مني، يا سعادة القنصل، لفظ بعض الأسماء والكلمات على طريقة أهل الشمال!

ويقارن الباشا كيف يقول أهل بغداد بعض الحروف وبعض الأسماء، وكيف ينطقها أهل الشمال، ويضيف بمداعبة ماكرة:

. وربما مِنْ الأخطاء التي لا أغفرها لنفسي أنني لم أتعلم اللغة الكردية بطريقة منظمة، كما أن الإقامة الدائمة فِي بغداد، ما عدا فترات قصيرة فِي الشمال، لم تتح لي أن أعطيها ما تستحقه مِنْ اهتمام لكي أتقنها مثلك!

قد يكون فِي هذه المرة، أكثر مِنْ كُلّ المرات السابقة، يكتشف ريتش أن الباشا ليس ماكراً فقط، بل وبالغ الدهاء وشديد الكتمان. ماذا يريد أن يقول له الآن؟ وكيف يجب أن يرد على هذا القدر مِنْ الوخزات التي يوجهها إليه؟ قال لنفسه، وقد صمم أن يلعب معه بذات الطريقة «هؤلاء الشرقيون كثيراً ما يتصورون أن كسب المعارك الكلامية كسب للحرب، وبالتالي يخطئون فِي فهم الآخره.

قال للباشا، فِي محاولة للرد:

أعرف أنكم، يا فخامة الوالي، قضيتم وقتاً فِي الشمال، لكن لا أدري ماذا تسنى لكم أن تشاهدوا هناك؟

ـ لقد قضيت وقتاً قصيراً، نسبياً، هناك، ثم إنك تعرف فِي أية ظروف، وبالتالي لم أرَ إلا القليل!

. لكن ما مررت بمكان، وما التقيت أحداً، إلا والجميع يلهج باسم داود باشا!

ومع أن ريتش أراد مِنْ هذا اللقاء أن يكون للمجاملة، وأن يبقى كذلك، إلا أن الباشا، وقد استغل لحظة صمت ليسأله بعدها حول التكاليف التي يقدرها كي يصبح النهران صالحين للملاحة حتى الأعالي القصية، وفِي تبرير ذلك أشار إلى أن هذا المشروع إذا تم يُسهل وصول البريد والبضائع مِنْ اسطنبول إلى بغداد والبصرة.. وربما أبعد مِنْ ذلك.

وريتش الذي لم يكن مهيئاً للإجابة، ردَّ أن الأمر يحتاج إلى دراسة ميدانية، وحالما يوافق الباشا على الفكرة يمكن أن يُطلب مِنْ لندن إرسال فريق متخصص لدراسة المشروع، وأكد أيضاً أن بريطانيا العظمى مهتمة بالأمر.

وانقضى اللقاء دون أن يتطرق الباشا الموضوع السلاح، مع أن ريتش رغب لو أن الحديث تناوله، إذ عن طريقه يمكن أن تكون بداية لإحكام الطوق، والوصول إلى نتائج محددة.

قال ريتش للباشا، وهو يودعه:

- سوف يقوم أحد موظفي الخارجية بزيارة بغداد خلال فترة قريبة، ولديه رغبة أن يلتقي فخامتكم، واعتقد أنّه ستتاح لنا فِي هذا اللقاء مناقشة أمور تهم بلدينا، وآمل وأتوقع، أن تكون النتائج ايجابية.

تعمد أن يقول الكلمة الأخيرة ليشعر الباشا أنّه فوت على نفسه فرصة ثمينة ولا بد أن يحاول استدراكها فِي مرة قادمة.

الباشا الذي ودعه حتى الردهة الخارجية مِنْ السراي، تعمد أن يسير معه هذه المسافة، خلافاً لمرات سابقة، لكي يشعره بالثقة، وليقول له انه مِنْ النبالة والقوة بحيث لا يخاف مما حصل، وأن ما يعنيه هو الآتي!

أما ريتش، الذي رافقه صفوت قرداغ حتى البوابة الخارجية، فقد بدا مستغرباً أن أموراً كثيرة حصلت أثناء غيَابه: الحدائق الغاء؛ النظافة؛ الحرس المنظم؛ حتى المكان الذي وقفت عنده الخيول أُعد بطريقة لا تخلو مِنْ اتقان وجمال؛ بما فِي ذلك الفسحة الواسعة التي خصصت للمرافقين والحرس. أثناء العودة، كان الوقت غروباً. بدأت الأسواق تقفر، وأغلب المتاجر أغلقت أبوابها. الهواء البارد يهب، الظلال ترتخي فوق الأشياء،

الصور فِي ذهن ريتش تتداخل وهو يعتلي صهوة جواده الأسود. قال لنفسه وهو يعبر البوابة الرئيسية للسراي: «الشرقيون مغرمون بأمرين: الماضي والكلمات الكبيرة، ثم بالتدريج يصبحون عبيداً لهما. قد يقرؤون التاريخ أكثر مِنْ غيرهم، لكن بسرعة يحولونه إلى كلمات ضاجة، ويستريحون فِي ظلال تلك الكلمات. لا يعرفون أن الماضي ذهب إلى الأبد ولن يعود. كما لا يدركون أن الزمن الذي يعيشونه حالياً يختلف، وهذا ما يجعلهم سكارى تائهين، فلا هم فِي الماضي ولا هم فِي الحاضر، وإن ما كان صحيحاً أو قوياً فِي الماضي لم يعد كذلك الآن. ومن هذا الطريق يمكن أن نصل إلى تحقيق ما نريد. إذ فِي الوقت الذي يعتبرون أنفسهم ورثة أكثر مِنْ حضارة وأكبر امبراطورية، إلا أن الحضارة كالنهر لا تعرف التوقف، ولا تثبت على حال، وهذا سر قوتنا الآن!».

وإذا كانت الشكوك قد سيطرت على ريتش منذ أن عرف بتفاصيل محاكمة الآغا عليوي، وكيف أن الباشا وظف عدداً لمراقبته، ونقل كُلّ حركاته وسكناته، فقد أصبح ميالاً إلى عدم الاعتماد على العناصر المحلية إلا فِي أضيق الحدود، وأخذ يفكر بالاستعانة بقوى لا يملك الباشا عليها أيّ سلطان. فكر بكرمنشاه وتوثيق العلاقة معها، ثم تشجيعها لأن تفعل شيئاً. فكر بباشا مصر، وإغرائه ليكون العراق مجالاً لطموحاته وفتوحاته.

فكر بالاستعانة بالإدارة فِي الهند، إذا لم تتحمس لندن بالمقدار الكافي، خاصة وأن الضباط الذين كانوا يأتون مِنْ الهند لا يخفون رغبتهم أن تواصل بريطانيا فتوحاتها، وأن تعبر عن قوتها، عملياً، بعد أن تخلصت مِنْ نابليون.

ولئلا يبقى متردداً، باشر الاتصال لمعرفة مدى استعداد هذه الجهات.

كتب رسائل عديدة إلى الإدارة البريطانية فِي الهند، وقد ضمن هذه الرسائل معلومات واسعة عما يزخر به العراق مِنْ الخيرات، إضافة إلى ما يشكُله مِنْ أهمية للامبراطورية. وأشار إلى الطريق البري الذي يختصر الوقت والجهد مِنْ أجل الوصول إلى الهند. كما لم ينس الحديث عن الآثار التي تملأ البلد مِنْ أقصاه إلى أقصاه، وبالتالي الثروة التي تشكلها البريطانيا فيما إذا نقلت إلى هناك.

وكتب إلى سفارته فِي اسطنبول كيف أن داود باشا ليس له مِنْ همَ سوى مراقبة دار المقيمية، ومنع الوصول إليها، مِنْ خلال التضييق والتهديد، وأن عدداً مِنْ الموظفين يتعرضون إلى الأذى، وهذا ما جعله يصطحب بطرس يعقوب، لئلا يتعرض للاضطهاد على أيدي رجال الوالي، وأن الأمر قد يطال الآخرين مستقبلاً. كما أشار إلى أن داود باشا يحمل الضغينة لكل مِنْ يخالفه فِي العقيدة الدينية أو فِي الموقف السياسي. وقد أسر للقنصل زعماء الطوائف بذلك، خاصة فِي منطقة الموصل. لذلك يطلب مِنْ السفارة فِي

اسطنبول أن تفعل شيئاَ كي تضع حداَ لمواقف التمييز، ولا بد مِنْ شرح كُلّ هذه الأمور لأصحاب القرار هناك، علهم يغيرون هذا الوالي، أو يضعون حداً لطموحاته، والتي قد تطال اسطنبول ذاتها فِي وقت لاحق. وأشار مجدداً إلى عدد مِنْ التقارير التي أرسلها سابقاً، إضافة إلى التوضيحات التي قدمها أثناء زيارته الأخيرة لاسطنبول.

ولأن ريتش ليس مِنْ رجال الدواوين الذين يكتفون برسائل يدبجونها الرؤسائهم، فقد قرر إيفاد منياس والديراني، كلٍ فِي اتجاه. أوفد ميناس إلى كرمنشاه، ومنها إلى طهران لمقابلة السفير، وأوفد الديراني إلى مصر.

كان يتمنى لو يذهب بنفسه، لكن غيابه الطويل عن بغداد، ثم أن قيامه بهذه الأسفار بنفسه يثير الشكوك، خاصة وأن الباشا لا يتركه لحظة واحدة.

أما الرجال الذين سوف يوفدهم فيمكن أن يفلتوا مِنْ الرقابة، ثم أن مهمتهم حمل رسائل، وإيضاح بعض الأمور. وهكذا أُعلن أن ميناس يرافق أمه الزيارة أختها فِي بوشهر، هذه الأخت التي شارفت على الموت، وقد انقضت عشرون سنة لم ترها خلالها. لم يكن منياس راغباً بهذه الرحلة، لكن الجنة تحت أقدام الأمهات» هكذا قال، وهو يفسر سفره، حين سئل فِي قهوة الكًمرك، التي تردد عليها أياماً متوالية قبل السفر.

أما الديراني الذي تعمد أن يلتقي بعدد مِنْ الأصدقاء فِي قهوة مراد، فقد تكلم بوجد واستفاضة عن الملاك الذي جاءه فِي عدة ليال متوالية، وطلب منه أن يزور كنيسة القيامة، وأن يقدم قرباناً هناك، لعل الله يمن عليه بذرية، ولا يهم أن تكون مِنْ الإناث أو الذكور! وهذا ما جعله يحزم أمره ويقرر السفر، بغض النظر عن رضا القنصل أو غضبه، لأن «الأولاد فِي هذه الدنيا هم قرة العين، وهم الاستمرار والذكر الطيب!».

قال ريتش لميناس يوصيه:

-.... وتقول للشاهزاده: كُلّ يوم إضافي خسارة جديدة؛ وإذا كان له، حتى الآن، كلمة فِي الشمال، فإن داوود يسعى للسيطرة على الأول والتالي. وداود إذا تمكن لا يُعرف ماذا يفعل وإلى أين يمكن أن يصل!

ميناس الذي هز رأسه موافقاً على كُلّ كلمة قالها ريتش، سأل:

- وإذا سألني الشاهزاده عن صادق أفندي والشاوي وثامر بن حمود؟

ـ تقول له: البدو كلهم مستعدين، بس البدو، وحتى جماعة الشمال، لا يتجرؤون على الثورة وإعلان العصيان إلا إذا تأكدوا أن الشاهزاده أعلن الحرب على داود، عندها، هم وغيرهم، وحتى الناس العاديين فِي بغداد يمكن أن يكونوا ضد داود.

ووافق ميناس مجدداً على ما قاله ريتش، لكن بوادر الحيرة، وربما الشك، ظهرت على وجهه. حين رآه ريتش هكذا أضاف بانفعال:

. وأنت تعرف تفاصيل كثيرة، ورأيت بعينك أثناء رحلة الشمال. الناس ضد داود، لكن أكثرهم خايف، غير متأكد، فإذا لم يجدوا سنداً قوياً قد يخمد حماسهم، ويجوز مع الأيام ما تكون عندهم قدرة على المقاومة. وهكذا اتفق الاثنان على تفاصيل كثيرة، وضرورة اقناع الشاهزاده أن يبادر إلى عمل ما، وبسرعة.

أما وقد استعد ميناس للسفر، فقد قال له ريتش وهو يودعه:

ـ لا تنسَ تسلم على الخالة، ولا تنسَ تداري «العجوز»، لأنه خلال غيابها ما راح نأكل حلويات مثل ما تعودنا...

وأضاف ريتش بعد قليل وبمرح:

. ويَجوز تعرف يا ميناس أفندي أن مثل الايرانيين بصناعة الحلويات ما تلقى بالدنيا كلها، ومثل ما تنتظر ماري أنواعاً جديدة مِنْ الحلويات، فأنا انتظر حلويات مِنْ نوع آخر، فارجو أن لا تتأخر علينا، وأن تأتينا بحلويات كثيرة!

أما بالنسبة لجوزيف ديراني، وقد أوصاه أن يتصل هناك بهنري دايتون، الذي سيصله بالأشخاص الذين لهم علاقة بباشا مصر، أو بأحد أبنائه، فقد قال له ريتش فِي محاولة للاستمرار بالتمويه:

- ولا تنس أن تكثر الهدايا مِنْ القدس وبيت لحم، لأن الناس لا يصدقون إلا بأعينهم، فحين يرون الصدف وخشب الزيتون، وإذا جلبت عدداً مِنْ الأزياء النسائية المشغولة باليد، فإن الجميع سوف يصدقون أنك كنت هناك، وانك تمتلىء بعبق بخور الأديرة المقدسة، والنساء اللواتي ستصل إليهن هذه الأزياء سوف يكن البرهان الحاسم أين كنت، وماذا فعلت، فالملابس حين تُرتدي وحدها تتكلم بصوت عالٍ!

وسافر ميناس؛ وبعد ثلاثة أيام سافر الديراني. وقال الناس فِي قهوة الكَمرك أن ميناس سيرجع مِنْ بوشهر بالحلويات والسجاد. أما فِي قهوة مراد، فقد قال الأسطة:

- زيارة بيت المقدس الأمل والمنتهى، ونياله اللي يزور!

صادق أفندي، ابن سليمان الكبير، بعد أن ترك بغداد خلسة، وتحالف مع ابن الشاوي، كان يراهن على صمود البدو فِي الفرات الأوسط، وقد حاول الكثير أثناء المعارك لتحريض القبائل الأخرى ودفعها إلى مواجهة قوات الباشا، مع وعود كثيرة بالأموال والخيول والأراضي فيما إذا عاونوه ليصبح والياً لبغداد، لكن بعد الهزيمة التي منيت بها القبائل، أسقط بيد صادق، واضطر أن يلتجيء إلى الأهوار أولاً، ثم واصل طريقه نحو الجنوب.

قال الذين عرفوا أن صادق يواصل طريقه نحو الجنوب، وربما يلتحق بقبيلة لام:

- أولاد سليمان أصابهم النحس مِنْ يوم ما عادوا داود، وإذا سعيد انقص راسه، وصار أثراً بعد عين، فمصير صادق ما راح يكون أحسن! قالوا هذا، وأفاضوا بذكر الحوادث التي مرَت، وأكدوا أن داود يمكن أن يغفر لكثيرين، وقد ينسى أشياء كثيرة، لكنه لن يغفر لأي مِنْ أبناء سليمان، لأن هؤلاء هم المنافسون الفعليون، كما لا ينسى مِنْ يخونه، لذلك إذا ظفر بصادق فسوف يجعله أمثولة، لأن صادق ينافسه، ولأن صادق بعد العناية والرعاية، خانه وتنكر لكل أفضاله.

هذا ما قيل فِي أعقاب معركة الفرات الأوسط، لكن بمرور الأيام نسي الناس صادق وانقطعت أخباره، وما كان أحد ليتذكره لولا الظهور المفاجيء لعباس اسطنبول فِي بغداد.

لم يصدق أحد الخبر فِي البداية، خاصة فِي صوب الكرخ. وفِي محاولة لنفي احتمال مثل هذا تصدى أكثر مِنْ واحد ليقول:

- لو ابن الحجية داس بغداد، أول ما يدوس قهوة الشط؛ والله يخلق الشبه أربعين مِنْ يؤكد أن ع قد قال سيفو أما بعد أن جاء مِنْ يؤكد أن عباس اسطنبول شوهد أكثر مِنْ مرة وهو يدخل إلى السراي، أو يخرج منها، فقد قال سيفو، وهو يقلب شفتيه:

- عباس سر ببير يا جماعة الخير، وهذا مو مِنْ اليوم، صار له سنين، وإذا فد شي فاته تعلمه بقعدته الطويلة باسطنبول؟

ولما ذكر أحد الذين يسمعون أن الحجية رابطت خلال شهر شعبان فِي مقام الشيخ عبد القادر، لمعرفتها أن الباشا سيزور المقام، وما أن رأته حتى وقعت على رجليه تبكي وتتوسل ليعفو عن ابنها، وبعد أن عرف، قال، وسمعه الذين حوله:

. مِنْ تلفات الدنيا جبناه وقلنا له: تعال وصير آدمي. أعطيناه ودللناه، لكن ما صفى ويانا النية.

ولما ارتفع صوت بكائها، وألحت بالرجاء، التفت الباشا إلى خلف وقال له:

ـ لخاطر العجيزة عفينا عنه، سجل اسمه يا خلف، ودزوا عليه خليه يجي ورغم العفو، وإذا جاء، فلا يمكن تفسير تردده على السراي إلا بعمليات التحقيق والاستنطاق التي خضع لها، الأمر الذي لم يمكنه مِنْ رؤية أمه أو الوصول إلى صوب الكرخ.

مرت بضعة أيام، والإشاعة عن وصول عباس اسطنبول تتردد، إلى أن قبضت عليه خارجاً مِنْ السراي زينب كوشان! كان مع اثنين مِنْ الضباط، يتكلم ويضحك. وإذا كانت زينب لم تميز ملامحه بدقة، فقد عرفته مِنْ صوته وإشارته، ومن ذلك الهرج الذي يخلقه أينما ذهب. هجمت عليه وأمسكته مِنْ ثيابه، الأمر الذي أدى إلى تناثر الأوراق التي كانت تحملها، قالت بصوت مرتجف:

ـ إذا ما كذبني ربي أنت ابن الحجية، صدق لو لا؟

وعباس الذي فوجيء، نظر إليها بإمعان ليتأكد. ما أن عرفها حتى صرخ:

ـ هلا.. ومية هلا بالخالة زينب، شلونك؟ شلون كيفك؟ شلون الجماعة كلهم؟

وانكب عباس وأحد زملائه يجمعون الأوراق التي تطايرت، وزينب التي كانت فرحة ومرتبكة ومستغربة، قالت، وخرج صوتها كالصراخ:

. جيت والله جابك، يا عباس الورد، وهسه صارت قضيتي يمك، فأريد مروتك، وايدي بحزامك!

ولأن عباس يعرف مشكلة زينب كوشان، ولا يعرفها، قال، بعد أن جمع الأوراق:.

ـ تؤمرين خالة، وكُلّ شي تريدينه يصير؟

. وهذول ربعك، النشامة، أولاد الحلال، يعاونوك.

وتطلعت بإمعان إلى الأول ثم إلى الثاني، علها ترسخ الملامح فِي الذاكرة، على أمل أن يساعد أحدهما أو كلاهما فِي حل مشكلتها! بعد أن وعدها عباس خيراً، وأكد لها أنّه سيهتم بحل المشكلة، سألته:

. صار لي أيام وشهور لا شفتك ولا شفت الحجية؛ ما تقول لي وين صرت؟ جاك ولد لو بعد؟ صار عندك بيت ملك؟

ولم تنتظر أن يجيبها، تدفقت مِنْ جديد:

.- وانت، يا ابن أختي، تعرف القضية مِنْ الأول للتالي، فما أريد أوصيك، وآني إذا شفت الباشا، بصايتك وبصاية ربعك، وما أن يسمع الكلام اللي أقوله حتى يطلَع مِنْ حزامه المهر ويدمغ الأوراق كلها مِنْ الأول للتالي، ويصيح على مختار المحلة ويقوله: ترجعوا القاع لأصحابها، وبعد اليوم ظلم ما أريد. سمعت؟

ووعد عباس أنّه سيساعدها بكل تأكيد، لكن يريد أن تمهله بضعة أيام، وأنه سيمر عليها ويراها فِي الكرخ، ولا حاجة لأن تتردد على السراي، كُلّ يوم. ردت باستغراب:

- بابا.. عباس، ترى صار لي شهور وسنين أريد اشوف الباشا، وكُلّ يوم يقولون لي باجر، فلا تجذب علي مثلهم وتقشمرني. لا تقول لي:

اقعدي بيتك وحقك يوصلك، لأن مثل هذا الكلام هوايه سمعته، وقلبي خزن مِنْ هذي السوالف...

واستعادت بعصبية الأوراق مِنْ يده ويد زميله، وقالت، وبدا صوتها مختلفاً:

- مْن هسه قول لي: تقدر لو ما تقدر؟ إذا تقدر قول، وإذا ما تقدر قول، لأن الله ما يسد باب إلا ويفتح ألف باب!

- خلص.. خالة زينب، وكَلي الله، وما يصير إلا كُلّ خير؟

- وشوكت أشوف الباشا وأقول له عن الأول والتالي؟

ردَّ أحد زميلي عباس:

ـ إذا سألت عني بعد أيام، حجية، آني أتولى المسألة.

- بابا.. إنت منو؟ إنت شنو؟

- آني صديق عباس، واسمي طاهر متولي، وانشاء الله أقدر أساعدك!

وتحرك الثلاثة، لأن وقوفهم قد طال، وبدا لهم أن النقاش دون جدوى. وسُمعت كلمات وأسئلة كثيرة، لكن لم تكن واضحة.

كانت زينب كوشان أول مِنْ أكد وصول عباس الحجية إلى بغداد، لأنها رأته بنفسها. ولم تتأخر فِي العبور إلى جانب الكرخ، وقد بدت متهللة أقرب إلى الفرح. أما عندما توقفت عند قهوة الشط، لتشرب، خلافاً المعظم النسوة، فقد قالت للأسطة عواد:

ـ ترى ابن المحلة، عباس، ابن الحجية، صار يحكم ويرسم بذاك الصوب!

- شلون، يا معودة، قولي!

ـ لو تعرف شلون تلقاني، يا أبو نجم! تلقاني بالهلا والمرحبا، ووياه عسكر داود، وقال لي: قضيتك خالصة، وبين يوم والثاني راح تصيرين زنقينة.

وبعد قليل وبمرح يمازجه الحزن:

ـ إنت تعرف يا أبو نجم.. الفلوس مو بعيني، لكن ما أحب الظلم والقشمرة. والفلوس اللي راح تجيني راح انطيها للي يستاهلها، للفقرا واللي ما عندهم خبز يومهم!

ـ عفية يا خيرة، يا بنت الأصل!

وترك لحظة صمت، وكانت زينب تبتسم وتحلم، ثم سألها:

. وليش عباس شامر خشمه وما قال لجماعته: مرحبا؟

ـِ علمي علمك، يا أبو نجم...

وبعد قليل:

- ليش ما جا؟ ما مر وقال مرحبا؟

ولما رأت هزات رأس الأسطة عِواد، دلالة الأسف، ولتأكيد أنّه لم يمر ولم يره أحد، قالت وخرج صوتها عميقاً:

. مِنْ يومي أقول: هذول جماعة السراي أبد ما يتصدقون، يسولفون هواية، يضحكون، يواعدون، لكن قبض ماكو!

بعد هذا الحديث السريع، قامت زينب كوشان مذعورة، قالت، وهي تتعثر بخطواتها:

- مِنْ رخصتك، أبو نجم، ترى البزازين هسه ميتة مِنْ الجوع!

فِي اليوم التالي جاء عباس اسطنبول إلى صوب الكرخ. مر على قهوة الشط. سلم بسرعة وغادر. قال للذين طلبوا منه البقاء:

ـ ما لي وجه يا جماعة الخير، لأن الحجية إذا عرفت اني قاعد بالقهوة، قبل ما أشوفها، تخبص الدنيا، فخلوني أشوفها أول نوبة، وبعدين أجيكم!

وجاء فِي اليوم التالي، مع أن كثيرين توقعوا مجيئه فِي الليلة السابقة، وقد انتظروا لكن الأسطة اسماعيل قال للذين ينتظرون، وهو يهم بالمغادرة:

.

هذا عباس، وأنا أعرفه كلش زين، إذا قعد بفد مكان ينسى معسه، تاخذه الهرجة، حتى روحته لاسطنبول، وانتو تعرفون، وهو بروحه قال:

زيارة عزا: الفاتحة وقهوة مُرة، وأبوكم الله يرحمه، وأجيكم، وانقضت سنين قبل ما يرجع، فلا تنتظروا!

قال عباس، وقد وصل إلى القهوة بين العصر والمغرب، حين سئل متى وصل بغداد:

- بغداد مثل الأفيون، يا جماعة الخير، ما تغيب مِنْ البال... وأبد ما تُنسى!

وبمكر خفي أخذ يحدث الذين سألوه كيف تورط بمشاركة بعض البدو بصفقة غنم، مما اضطره للذهاب إلى الحلة لمعرفة مصير هذه الغنم، ولما نشبت الحرب لم يستطع أن يعود، فبقي هناك، ثم مدد إقامته مرة بعد أخرى إلى أن تخلف الغنم، وحين وجد الفرصة مناسبة عاد!

وبطريقته الماكرة أخذ يسأل عن الأصدقاء، ماذا حل بهم، وأين أصبحوا كان يسأل عن كُلّ فرد، ويتذكر، وروي، ويستعيد أيام اسطنبول، بحيث لم يستطع الكثيرون أن يعرفوا أين كان على وجه اليقين، وكيف أو لماذا عاد.

ولما سئل مِنْ جديد عن السراي وزينب كوشان، ردَّ وهو يضحك:

ـ ما تقولوا لي يا جماعة شنو راح تسوي بالفلوس إذا حصلتها؟

وانطلق يتحدث عن زينب كوشان، كيف كانت وكيف هي الآن، وقال انها امرأة حزينة. وذكر أنّه التقى برجل فِي اسطنبول كان يربي القطط أيضاً، وكان رجلاً حزيناً، لأنه فقد زوجته وثلاثة مِنْ أولاده، إذ غرق بهم المركب، ومنذ أن صحا مِنْ الغيبوبة التي وقع فيها نتيجة صدمة الحادث، أقسم أن يربي عدداً كبيراً مِنْ الكائنات التي خلقها الله، ولم يجد سوى القطط، وهكذا صرف حياته وثروته فِي العناية بالقطط، وكان لا يدعها تغادر البيت، إلى أن جاء يوم ومرض، ولما جاعت القطط أكلته!

وفِي آخر سهرة المقهى، قال للذين حوله، أنّه مضطر للعودة إلى الحلة لكي يحاسب شركاءه، مالكي الغنم، ويعود نهائياً إلى بغداد.

وبعد فترة لم تطل عرف أن رسائل عديدة تم تبادلها عن طريق عباس اسطنبول بين داود باشا وصادق بك. وقبل أن يبدأ ربيع السنة التالية عاد صادق إلى بغداد، بعد أن عفا عنه داود. وقيل إن عباس اسطنبول كان الوسيط فِي هذه العودة.

بعودة صادق قال الناس: أعداء داود سلموا أو صاروا تحت التراب، ومن اليوم راح تصير بغداد درة الدنيا، ومن يعش ير!

وأقبل الشتاء مُبكراً هذه السنة، هطلت الأمطار بغزارة، لكن ما أن صحا الجو حتى اندفع الفلاحون للزراعة، وخرجت القطعان إلى البراري، وزادت التوقعات أن تكون هذه السنة مِنْ سنوات الخير. ومع أن الأمطار كسرت حدة البرد، إلا أن الفقراء استمروا يرددون أن برودة بغداد قاسية إلى درجة لا يوجد لها مثيل فِي مكان آخر! قالوا هذا وتذكروا لسعات المياه الباردة وهي تلامس وجوههم صباحاً، أو عدوانية الفراش أول ما يدخلون فيه. كما عاودهم ذلك الشعور بالكمد وهم يستقبلون الصباحات الشتوية.

أما حين تذكروا الأمطار الغزيرة وهي تتوالى، فقالوا إنها تشبه انصباب القرب، مع ما تخلفه مِنْ أوحال وزلق وصعوبة الانتقال مِنْ مكان إلى آخر، وقد تأتي أيضاً بزودات للنهر قبل أوانها، مع ما تحمله مِنْ أضرار وخوف.

لكن رغم المشقة والذكريات لم يتخلَ الناس عن تفاؤلهم. وما زاد التفاؤل أكثر أن التجار، خلافاً لعادتهم فِي مطلع كُلّ شتاء، لم يرفعوا أسعارهم، ولم يلبسوا ثيابهم القديمة، كما ظلت الابتسامات تملأ الوجوه!

وأهل بغداد يعرفون الأخبار عن طريق التجار أكثر مما يعرفونها عن طريق غيرهم، ليس مِنْ خلال الكلام الذي يقولونه، وإنما بطريقة التصرف. إذا ابتسموا بتحفظ فإن الأسعار على حالها لم تتغير. إذا ابتسموا وبانت أسنانهم الذهبية، فمعنى ذلك أن الأسعار تغيرت وقد تميل إلى الهبوط. أما إذا أرفقوا الابتسامات بالسؤال عن الأهل والأصدقاء، وببعض الأمازيح، فالأسعار هبطت بكل تأكيد، لكنهم يريدون أن يتكتموا على ذلك، فيبتسمون ويفيضون بالود ليغروا بالشراء، والأفضل أن تتم الصفقة دون مساومة، أو حتى دون سؤال، لأن ذلك يريح الطرفين، أو كما يجيب التاجر رداً على سؤال، للتغلب على التردد والممانعة:

-. على بختك يا معود، سعرنا مثل قبل، ونحن معاميل مو مِنْ البارحة، واليوم، صار لنا سنين.

أما إذا تلبدت وجوه التجار مثلما تتلبد صفحة السماء بالغيوم، وبدوا غير مستعدين لأي حديث، حتى لو كان سؤالاً عن الصحة، وحين تبدو المتاجر فارغة، أو أقرب ما تكون إلى الفراغ، فهذا يعني أن الأسعار ارتفعت، وقد ترتفع غداً أكثر، مما يجعل التجار نزقين، وعلى مِنْ يريد الشراء أن يفعل ذلك فوراً أو أن يمشي.

هذه السنة بقي التجار يوزعون ابتساماتهم مع تحياتهم على كُلّ قادم جديد. كانوا يضعون كراسيهم عند أبواب المتاجر، وكانوا يتبادلون الأحاديث بأصوات مرتفعة، ولا يترددون فِي إطالة الحديث مع الذين يشترون أو الذين يساومون.

ولأن الرصافة، أو أسواق محددة فيها، هي التي تتحكم بالأسعار، فإن تجار الكرخ لا تصلهم الأصداء إلا متأخرة، وقد لا يستجيبون إلا بعد أن يمر وقت طويل، الأمر الذي يدفع أعداداً متزايدة مِنْ الكرخيين لعبور النهر مِنْ أجل شراء الحاجات بسعر أرخص. كانوا يفعلون ذلك بنوع مِنْ التكتم، وبغير قليل مِنْ المكر، لئلا يغضبوا تجار الكرخ، وبحجة أنهم يشترون لمن أوصوهم مِنْ خارج المدينة، أو يشترون تموينًا للسنة كلها! مِنْ جملة الذين عبروا النهر، بعد أن عرف بفارق الأسعار، الأسطه عواد، وقد أقنع سيفو أن يرافقه بهذه التجرة»، كما أطلق على ما ينوي شراءه مِنْ السكر والقهوة والشاي والتنباك. ومع أن الأسطة ارتدي ثياباً جديدة، أقرب ما تكون إلى ثياب العيد أو مقابلة الحكام، فقد تعمد التظاهر أنّه آتٍ للسوق للزيارة وليس مِنْ أجل الشراء! وحين توقف عند بعض معارفه مِنْ التجار، وبعد أن خاض فِي أحاديث متنوعة، سأل، عرضاً، عن الأسعار، بحجة المعرفة والمقارنة بين أسعار السنة الحالية والسنين التي مضت! كان يفعل ذلك، ويغمز لسيفو منبهاً للفرق بين واحد وآخر. وسيفو الذي كان بعيداً عن هذا الجو، ولا يعرف التفاصيل، لم يستطع أن يخفي استغرابه، وبعض الأحيان دهشته، مع أن التجار يبدون مهارة فائقة لتبرير الأسعار المرتفعة التي يطالبون بها، مرة لجودة البضاعة، ومرة لطريقة حفظها كي لا تلحق بها الرطوبة، وبالتالي يزداد وزنها؛ مع التعريض أن تجاراً آخرين لا يفعلون ذلك، وهذا ما يجعلهم يوافقون على سعر أدني (لكن ما يعطونه بيد يلقفونه باليد الثانية، وهذا لا يقبله دين ولا ناموس)!.

سيفو طوال الجولة كان مراقباً، كان يسمع دون أن يتكلم، ومع كُلّ وقفة عند تاجر جديد يزداد عجباً.

حين جلسا عند أبو ساره، وكيل عزرا، وقد تعمد الأسطه عواد المرور عليه، ولما ذكر الأسعار التي يطلبها للشاي والقهوة، وكانت أعلى مِنْ الآخرين، داس الأسطه عواد على رجل سيفو، فِي محاولة للتنبيه، لكنه أخطأ وداس رجل أبو ساره، وحين تكرر الأمر أكثر مِنْ مرة، انفعل أبو ساره، وقال بحدة:

- ترى الرِجل التي تدوس عليها، أبو نجم، هي رِجلي، مو رجل غيري!

حاول الأسطه عواد الاعتذار، وأوضح أنّه أصيب خلال الفترة الأخيرة بداء النقرس، ولم يعد يتحكم بحركة رجله اليسرى، (وإذا طخت رجلي برجلك،

أبو ساره، فبليا قصد، وماكو غاية». وفهم أبو ساره الإشارة بأكثر مِنْ معنى؟

الما رجع الاثنان إلى صوب الكرخ ببضاعة قليلة، لا تعادل مشقة الرحلة، قال الأسطه عواد فِي محاولة للتبرير:

.- تجار الشورجة كلهم يضحكون، وضحكة الواحد منهم شبر، فقلت الروحي: مجنون اللي يشتري اليوم، لأن الأسعار راح تنزل أكثر وأكثر.

ولما رأى الشك والاستغراب على وجه سيفو، استطرد:

ـ إذا شفت اليهودي مدلغم، وما يضحك لخبز التنور، فاعرف أنّه خايف، وخوفه مِنْ الخسارة اللي صارت أو مِنْ الخسارة اللي راح تصير!

سال سيفو بطريقة استنكارية:

ـ ما تقول لي، أبو نجم، هذي تجارة لو نهب؟

وبعد قليل، كأنه يحدث نفسه:

- والقواويد كلهم يحلفون ويتكفرون!

- والشريف بيهم ماكل الأخضر واليابس!

التفت سيفو إلى أكثر مِنْ جهة، وقال، وهو يغالب ابتسامة ماكرة:

- تري أبو ساره خاف على روحه. قال لنفسه: بعد طخة الرِجل هذي ما يندري شنو اللي يصير!

ـ لا تخاف عليه، يا معود، لأن كُلّ شي يجر فلوس زين وما يخالف!

وغرق الاثنان فِي استعادة المشاهد التي مرت بهما، لكن فجأة نهض سيفو وهو يقول:

ـ لازم أمشي يا أبو نجم، لأن صار وقت أكل الخيل...

وقبل أن يحكم شد حزامه، قال، وقد تذكر شيئاً:

ـ الحمد لله والشكر لأن الحاج صالح بطل التجارة!

ابتسم الأسطه عواد، ورد بمرح:

ـ تيسر على شغلك أبو فلاح، وآني راح أشتري سكر وشاي يوم بيومه، أحسن ما أشتري وأكوم، لأن الواحد ما يدري شنو اللي يصير باجر وعقبه!

- وتنفع جماعتنا بهذا الصوب أحسن، يا أبو نجم، لأن واحدهم ينشلع قلبه حتى يحصل فلس انقص مِنْ هذول الظلاّم.

واتجه سيفو إلى بستان المتولي.

و بستان المتولي تحول خلال الشهور الأخيرة إلى جنة صغيرة، إذ بعد أن أقيم إسطبل الخيل فِي الجهة الشمالية، بُني مشتمل فِي الجهة الجنوبية المقابلة، وقد قُصد منه في البداية أن يكون استراحة للحاج صالح حين يأتي إلى البستان، ثم ما لبث أن أصبح مكان إقامته الدائم.

بعد مضي عدة أشهر على إقامته هناك، لا يُعرف كيف أمكن إقناع أم قدوري بزيارة البستان، ترويحاً عن النفس، وهرباً مِنْ المشاحنات التي أخذت تتزايد فِي البيت خلال الفترة الأخيرة.

ما أن وصلت أم قدوري، وحين رأت البستان والمشتمل والحديقة، أحست أنّه لا ينقص هذا المكان إلا المرأة، كي تهتم به وتزيل عنه تلك المسحة الخشنة التي تميز الأماكن التي يقيم فيها الرجال بمفردهم، وتضع حداً للفوضى التي تغيب عن الرجال أغلب الأحيان، لأنهم يعالجونها بطريقة بدائية سريعة، أو لا يعتبرون وجودها ذا بال. ما أن رأت أم قدوري الوضع هكذا، وفِي لحظة تيقظ فيها حس المرأة ومسؤوليتها، حتى قررت أن تبقى مع الحاج صالح.

قالت فطيم التي جاءت مع أم قدوري فِي هذه الزيارة:

ـ قبل ما نطب البستان هفت ريحة الرازقي، ريحة تحيي القلب، ومعها ريحة الورد والريحان، والخضرة شلون خضرة.. ما يندار الآدمي إلا ويشوف الخضرة كأنها عرق النعناع، تفوح وتضوي مِنْ كُلّ صفحة، والجهنميات معربشة على الحياطين، على الشجر، توج. شفت هذي الشوفة، وبعد ما امتلا صدري بهذي الريحة، قلت: صلوات على محمد.

وحتى أبو فلاح، يا جماعة الخير، بذاك البستان صار غير آدمي. حاط دشداشته بحزامه، ولازم المسحاة بإيد وبالثانية السطل يرش الزرع. باوعت وسألت روحي: هذا سيفو لو واحد غيره؟ وقبل ما يشرفنا، سمعت صوته، كان يغني، وهو يفتر ويندار على الزرع عبالك شاب ابن عشرين! ولأن الصور متداخلة وسريعة لم تستطع فطيم أن تواصل رسم المشهد، خاصة حين رأت الحاج صالح جالساً على كرسي واطيء أمام ذلك الساحر، الذي لا يُعرف إن كان ملاكاً أم عفريتاً، بشعره الأبيض ولحيته الكثيفة، وهو يُعجن الطين كما يُعجن الطحين. كان الحاج صالح يضع ذقنه على يديه، وقد جعل عصاه متكأً لهما، ويتابع ما يفعله ذنون.

نعيم الذي كان يقود المجموعة، أمه وأخته نعيمة وفطيم، وقد تعمد أن يمر بهن على أغلب جوانب البستان، لتكون المحطة الأخيرة عند أبيه وذنون، وقد دخل بهن إلى المشتمل أيضاً، وكان يشير أكثر مما يشرح، ويحاول أن يقرأ الانطباع فِي حدقات العيون.

حسون أول مِنْ انتبه للحركة غير العادية، كان فِي الإسطبل، وربما الخيل هي التي نبهته، إذ ما كادت ترفع رؤوسها وتتشمم الهواء، ثم تتلفت، حتى أحس أن أحداً أو شيئاً حواليه، لما خرج وسار خطوات رأي الجمع، صرخ مرحباً وكي ينبه الآخرين:

ـ هلا ومية مرحبا.. هذا يوم مبارك.

كان حسون حائراً لا يعرف هل يتقدم نحو الضيوف ليرحب بهم أم يبلغ الآخرين بوصولهم، فوجد نفسه ينادي:

- عمي أبو قدوري، أبو فلاح، وينكم يا جماعة!

لأول مرة منذ وقت طويل أحس الجميع أن شيئاً ما قد حدث، ولا بد أن يكون كبيراً أو مختلفاً، وإلا لما صرخ حسون بهذه الطريقة. وأطلوا.

ابتسامة الحاج صالح كانت كبيرة. تطلع إلى الوجوه واحداً بعد آخر ولم يتكلم، لكن عينيه وهما تتركزان على أم قدوري شعر أن مقداراً غير قليل مِنْ الحزن الذي استبد بها خلال الفترة الماضية بدأ يتراجع. صحيح أنّه لم يسقط، لكنه لم يعد كما كان مِنْ قبل.

نعيمة ونعيم كانا يوزعان نظراتهما بين أمهما والأب، وقد عاد إلى أيام قديمة، إلى الأيام التي سبقت الحزن وذلك السواد الذي لم يلف البيت وحده بل ولف الأرواح كلها وجعلها كامدة، أقرب إلى الضياع.

سيفو الذي أنزل دشداشته، ترك المسحاة، والتقط غصناً صغيراً يابساً، وجاء على مهله. قال فِي محاولة ليخلق جواً مِنْ الألفة والود:

- زارتنا البركة يا أم قدوري...

والتفت إلى نعيم وتابع بمرح:

ـ اللي يطول الغيبات يرجع بالغنايم يا أبو صالح!

- أكبر غنيمة زيارة أم قدوري، لو تريد أكثر، عمي سيفو؟

الوحيد الذي بدا غريباً ضمن هذه المجموعة هو ذنون. كان محرجاً، أقرب إلى الخجل، فلا يعرف هل يواصل عمله أم يتوقف، خاصة وأن شكله، وقد امتلات ملابسه بالطين، بدا معفراً ولا يخلو مِنْ غرابة. كان نعيم يريد أن يقول لأمه مِنْ يكون ذنون، ولعل أقرب صورة خطرت له التمثال الذي لفته بلحاف العرس، لكنه أبعد الفكرة بسرعة، قال مخاطباً سيفون.- لازم فد يوم، عمي أبو فلاح، ناخذ بلم ونسير على بستان سيد ذنون...

والتفت إلى أمه، وتابع بدعابة:

- بستان سيد ذنون بالأعظمية، بستان ياخذ العقل، ولازم فد يوم ناخذك ونروح، تزورين أبو حنيفة والكاظم، وهمين نتونس، وتكون هم زيارة وهم ونسة!

والتفت مِنْ جديد نحو ذنون يسأله:

- شتقول أبو عمر؟

. مو على عيني، هاي أمنية أتمناها، واليوم قبل باجر!

أم قدوري كانت تسمع، لكن عقلها فِي مكان آخر، فقد أقلقتها فوضى البيت وقلة النظافة، وهذه الخشونة التي تتبدى فِي الكثير مِنْ الزوايا.

ما إن حلت لحظة صمت حتى قالت لنعيمة بطريقة أقرب إلى الأمر:

.- خفي رِجلك بنتي، خلينا نتعاون وننظف البيت، حتى يقدر الحجي يقعد ويرتاح.

- إنت ما عليك، حجية، قالت فطيم، آني ونعيمة نساوي كُلّ شي.

وقبل أن يتحرك أحد جاء حسون حاملاً الشاي، ومع الرشفات المتمهلة التي تتذوق باستمتاع الطعم والرائحة، ومع نظرات أم قدوري المستطلعة المشفقة، وفِي لحظة صمت قالت، وكأنها تخاطب نفسها، لكنها تريد للآخرين أن يسمعوان - نزول علي، لأن مثل سوايتي ماكو أحد يسوي...

لما تعلقت بها الأنظار مستطلعة ما سوف تضيف أيضاً، قالت بأسى:

ـ الحجي قاعد بوحده، وما يندري شلون ياكل، شلون يغسل، وعلى أيا جنب ينام، وآني كأنْ ما علي... ولا دايرة بال...

وتغيرت اللهجة تماماً، أصبحت حازمة، ولا تخلو مِنْ ود:

ـ يحرم علي بعد اليوم أن أترك الحجي...

وبالغت أكثر وهي تضيف:

- راح اشيل غراضي وأجي على البستان، شتقول حجي؟

ـ الزينة ما ينراد لها سؤال يا بنت الحلال؟

وبعد قليل وبمرح:

- واليوم قبل باجر! ربما ندمت مهيبة، أم قدوري، على هذا التسرع، إذ يمكن أن تفعل ذلك على مدى أطول، ريثما تهيىء نفسها هنا وهناك، لكي تخرج مِنْ حالة إلى أخرى بهدوء، خلال فترة، لكنها وجدت نفسها تعطي هذا الوعد، ووجدت أنها تحب أن تفعل، لكن بعد أيام وليس فوراً، قالت وهي تحاول منح نفسها هذا المدى:

ـ اليوم نخلص مِنْ تحضير البيت، وباجر، إذا الله أعطانا العمر، أجيب هدومي وأجي!

حصل هذا فِي منتصف الخريف، أو ربما فِي أواخره. وذنون الذي وجد أن مِنْ غير اللائق الاستمرار فِي بستان الحاج صالح، برقت فِي ذهنه، لا يعرف كيف، اللحظة التي يعتبرها مناسبة كي ينسحب بهدوء، خاصة بعد أن ترك بستان الأعظمية فترة طويلة، اضطر خلالها تكليف أحد مِنْ أجل أن يعتني به، بعد أن قرر تأجيل ترميم البيت إلى وقت لاحق.

ما كادت النسوة تغادرن إلى المشتمل، حتى قال ذنون، بعد أن التقط العود مِنْ يد سيفو:

ـ بهذي الدنيا، يا جماعة الخير، أكو أشياء تجي وحدها، تصير وحدها، أو مثل ما يقولون: العبد بالتدبير والله بالتقدير.

صمت وطال صمته، حتى ظن سيفو أن سيد ذنون يشير إلى التحول الذي حصل لأم قدوري بإعلانها الرغبة فِي العودة إلى البستان. أما الحاج صالح فقد ذهب إلى أبعد مِنْ ذلك، وهو يتذكر كتل الطين بعد أن تُعجن جيداً، إذ ما كان ذنون يرفع الكتلة، يرميها فِي الهواء، ويردد سؤالاً بذاته:

(ها، حجي، هذا الطين الأعمى، اللي تشوفه هسه، شنو اللي راح يصير بيه؟» لم يكن سيد ذنون يريد جواباً، ولم يكن أيّ منهما يملك الجواب، ولكنها العادة. حتى إذا صمت الحاج صالح يتابع ذنون: «خلنا نبلش، وبعدها نشوف شنو اللي يصير». ظن الحاج أنّه سؤال مِنْ تلك الأسئلة، لكنه يبدو أن ما يقوله سيد ذنون الآن مختلفاً:

- ردت أقول فد شي قبل كم يوم، لكن شفت نفسي ضعيف وعاجز.

تركزت عليه العيون، حتى حسون الذي كان يهم بجمع معدات الشاي ويمضي إلى غسلها تباطأ ثم توقف. تابع ذنون بلهجة مختلفة وحازمة:

.- وحق هذا العود والرب المعبود، كانت الكلمة على طارف لساني، لكن ما أعرف شلون أقولها...

هجم صمت واسع سُمعت خلاله الأنفاس، تابع ذنون:

- ردت أقول يا جماعة، مثل ما يقول ربعنا، بدو الموصل؛ البل حنت. ردت أترخص منكم وأبلغكم أن بستان الأعظمية ما له أحد غيري، ولازم أروح، لكن قلبي ما طاوعني، والكلمة مثل ما قلت كانت على طارف لساني، لكن هسه، وبعد ما سمعتم أن أم قدوري راح تجي، وبعدما انحدرت الشمس، وصار الطين ما ينشف بالعجل، لازم نوقف، وسبحانه خلق لكل شي أجل وميعاد؛ وهسه طب الشتاء ولا بد مِنْ زرع وتقليم، ولازم استعد!

خيم صمت ثقيل، ولم يكن لدي أيّ مِنْ الذين يسمعون توقع أو تصور لما قد يفعله ذنون، وفِي محاولة لأن يخلق جواً بعيداً عن الحزن، أضاف:

ـ وأنت، يا أبو صالح، وبلسانك، وعدتني بزيارة قريبة، ومو وحدك، راح تجي وكُلّ الربع، فلازم أتحضر، لازم أبيض الوجه!

قال الحاج صالح، وجاء صوته حزيناً:

- بعد هذي العِشرة الطويلة، وبعد الخبز والملح، ينطيك قلبك، يا أبو عمر، تتركنا وتمشي؟ هاي شلون تصير؟ شلون تقبلها؟

- آني وين رايح حجي؟ كلها خطوتين، وكُلّ يوم والثاني ما تشوفني إلا يمك!

- وهذي المسائل اللي سويتها، وقسم منها بعده على النص، تتركها وتمشي؟

قال نعيم فِي محاولة للوصول إلى تسوية، وبطريقة لا تخلو مِنْ دعابة:

- شحده يتركها، شنو الدنيا صارت قوترة؟ لازم عليه يخلصها ويسوي غيرها...

وبعد قليل وبمرح:

- هذي خليها يمي، حجي، والشي اللي ما كمل لازم يكمله، مو هالشكل أبو عمر؟

- تؤمر مولانا، والشي اللي تريده يصير!

سيفو الذي ظل صامتاً، وكأن ما يقال لا يسمعه أو لا يعنيه، كان غارقاً فِي حالة مِنْ الحزن، فقد أصبحت علاقته بالخيل غير قابلة للانفصام، أما التماثيل التي يصنعها سيد ذنون فهو ليس مفتوناً بطريقة تشكيلها فقط، بل عاشق لها. كان يساعد فِي إعداد الطين، فِي حمل الأعمال لوضعها فِي الفرن. أما وهو يخرجها فإن فرحه بها كان يصل إلى درجة الزهو. أكثر مِنْ ذلك كان يتفنن فِي إعطائها الأسماء والأوصاف، ويبدو بعضها طريفاً، وقد لا يخطر ببال. أسماء أناس يعرفهم، وصفات يخشى مِنْ زعل الذين قد تشي بهم!

الآن، وذنون يعلن هذه الرغبة، تبدأ مرحلة جديدة لا يعرف خلالها كيف يتصرف، أو كيف يملأ الفراغ. قال بصوت تخنقه اللوعة:

- بعدما تعودنا عليك، يا أبو عمر، وبعدما تولعنا بالمسائل التي تسويها، ما أدري نقدر على فرقاك أم لا؟ نقدر نتحمل الطين يظل طين، ما يتحول إلى عرق أخضر أو فد شي يحكي ويبكي ويقول سبحان ما خلق!

ردَّ ذنون وهو يتظاهر بالمرح:

ـ لا تسويها فراقيات يا أبو فلاح، يرحم والديك؛ لأن الله ما يرضي بعد ما شفت بعينك وسمعت بإذنك، وبدل ما ترقص بجفية على جية أم قدوري، تريد تسويها عزا...

توقف قليلاً، تماسك، وجاء صوته حازماً:

. حتى لو بقيت، حتى لو ما راح تجي أم قدوري، وإنت تعرف:

بالشتاء بهذا البرد اللي يقص المسمار، ما ينفخر الطين، يتفطر وينكسر، ومن كُلّ بد لازم نوقف.

ـ آني ما أقصد اليوم وباجر، يا أبو عمر، أقصد الأيام اللي راح تجي بعدين.

ـ مِنْ هذي الناحية طمن بالك، يا أبو فلاح، لأن عمرنا يخلص وهذا الشغل ما يخلص، فأريدك تشد حيلك وتلحقني!

. والخيل؟ الخيل منو إلها غيرنا؟

ـ لا تخاف، نلقى ألف طريقة، يا معود!

قال حسون بانفعال:

. عمي سيفو... الخيل خليها علي، آني أطلع لها راس، وما تكون إلا راضي!

وقف نعيم، وقال بمرح:

- يا جماعة.. القضية ما وصلت لهذا الحد، أبو عمر بدل البستان الواحد صار عنده بستانين، والله بسماواته يحب العدل والإنصاف؛ وهذا الفرن اللي سويناه هنا ما راح نخبز بيه كليجة وخبز عروق، هذا سويناه مثل ما راده أبو عمر، حتى يفخر المسائل الحلوة اللي تطلع مِنْ بين إيديه، وراح يبقى هالشكل، فلا تحسب هوايه، عمي سيفو..

وضحك، وهو يتطلع إلى مجموعة مِنْ التماثيل والأواني التي وضعت على طاولة قريبا مِنْ الجدار، وتابع:

.- وهذي راح تبقى يمنا رهن، وظني أن سيد ذنون إذا أنطاه قلبه وتركنا، ما راح يترك هذي المسائل اللي حط بيها دم قلبه، وقال: ما أبيعها لو أعطوني مال الدنيا.

ـ على بختك يا أبو صالح، هذي المسائل، واللي راح تجي همين، على حسابكم، ويحرم علي أبيعها، لأن القضية مِنْ الأول للتالي قضية واهس مو قضية بيع وشرا!

قال الحاج صالح العلو، وخرج صوته مسكيناً:

ـ ما ينراد أحد يوصيك، يا أبو عمر، لكن لازم تعرف فد شي...

خيَم الصمت انتظاراً لما سيقوله الحاج صالح، وجاء صوته بنفس الوقع:

- وإنت تعرف.. والجماعة يعرفون، لولا الخيل، ولولا القعدة الحلوة وياكم، ولولا المسائل الحلوة اللي يسويها سيد ذنون، وصرت أحبها مثل الأولاد والخيل، يجوز انقطعت خبزتي، ويجوز ما شفتوني قاعد بينكم اليوم!

أحس نعيم أن أباه قال كلاماً خطيراً، وربما يبعث على الخوف، فعلَق بود وبحزم:

-. وكُل الله حجي، وكُلّ شي راح يصير مثل ما تريد!؟

مِنْ مصادر عديدة، وكان ريتش لا يزال فِي الشمال، أخذت تتوالى إلى السراي تفاصيل الرحلة إلى الشمال. كان بعض هذه التفاصيل دقيقاً، ما قاله ريتش وما قيل له؛ وبعضه مشوشاً، لكن إذا جمعت التفاصيل إلى بعضها، ثم ذلك الود الذي بدر مِنْ ريتش أثناء زيارته للباشا، وما قاله عن استعداد بريطانيا أن تستقدم فنيين لدراسة مجاري النهرين لتصبح الملاحة فيهما ممكنة حتى الأعالي القصية، كُلّ ذلك أقنع الباشا أن القنصل تأكد بنفسه أن مصادقة الوالي أحسن له وأسلم مِنْ معاداته، خاصة وأن رهانه على عليوي سقط، وعصيان بدو الفرات انتهى فِي أعقاب الحملة. حتى صادق بك، ابن سليمان الكبير، وكان المنافس الوحيد والأخير للباشا، وبعد مفاوضات لم تطل، عاد إلى بغداد نادماً مستسلماً، حين منحه الباشا الأمان والعفو. أما الشاوي الذي فرُ بعد الحملة، فقد غيَبته الأهوار، وربما تاه هناك، ولو فكر بالعصيان مجدداً لن يجد مِنْ يستجيب له أو يعاونه، ولا بد أن يأتي يوم يقبض عليه، وسيكون أمثولة.

الباشا إثر كُلّ انتصار يحكم قبضته على الجيش والإدارة، فبعد أن تخلَص مِنْ الآغا عليوي، أجرى تغييرات كبيرة، إذ سلم الرجال الذين يعتمد عليهم المواقع والقيادات، ثم التفت إلى الإدارة والدواوين، كما سمى حكاماً للمدن والمناطق، وقد اختارهم بعناية ودقة، وكان ضمنهم بعض الذين عملوا مع الولاة السابقين، نظراً لخبرتهم، ولأن الكثيرين عرضوا خدماتهم لما تأكدوا أن داود جاء ليبقى، وأنه يختلف عن غيره مِنْ الولاة.

وإذا كان الباشا قد أولى أكثر الشؤون اهتمامه، فلم ينس التجارة وطرق القوافل «لأن أهل العراق يصدقون أعينهم أكثر مما يصدقون الكلمات التي تقال لهم كما قال لنفسه، الأمر الذي يقتضي توفير الحاجات الضرورية، وأن تبقى أسعارها دون ارتفاع، وقد اضطر لهذا الاعتبار أن يقرب شيوخ القبائل الذين تمر القوافل التجارية فِي مناطقهم، وأن يجزل لهم العطاء، وكلَفهم بحماية الطرق وحراسة التجار. كما بذل جهداً مِنْ أجل إغراء هذه القبائل أن تعتمد على التجارة، ووعد الشيوخ أن يشتري الجيش معظم المواد التي تأتي عن طريق هذه القبائل، وأن يدفع لقاءها سعراً مغرياً.

أما الحاكم الذي اختاره الباشا ليتولى إدارة البصرة، فكان مِنْ أقرب الرجال إليه، وقد منحه الثقة والصلاحيات «لأن البصرة عين العراق وأذنه، كما قال له، ومنها، أو عن طريقها، تأتي أكثر التجارة، وعن طريقها قد تأتي

البلايا» وناظم أفندي الذي وافقه على هذا الرأي، ووعد أن يكون عند حسن ظنه، قال بصوت مرتبك:

ـ إنشاء الله ما تشوف إلا الخير يا باشا، أما البلايا فأنا كفيل بها!

وكاد يُضيف، إلا أن الباشا قاطعه بغيظ ساخر:

-. ويجوز الله يلهم ابن الشاوي ويصل إلى هناك، وإنت تكون ناصب له الشرك.. وينصاد!

توالت هزات رأس داود باشا، وهو يستعيد مواقف وملامح عبد الله الشاوي، وتابع:

ـ إذا ظفرت بك يا ابن الشاوي راح أسويك عجبة وعبرة لكل مِنْ يريد أن يقف فِي وجه داود!

بعد هذه الترتيبات التي اتخذها داود باشا بدا واثقاً ومتفائلاً. أما حين جاءت الأمطار مبكرة هذه السنة، واستمرت الأسعار على حالها دون أن ترتفع، فقد اعتبر بوادر الخير وأيام العز أقبلت، خاصة بعد التعب، الذي وصل حدود الإجهاد، خلال الفترة الماضية.

قال لفيروز فِي ضحى أحد أيام شباط المشمسة، وكانا يسيران فِي الحديقة:

ـ إذا الله أعطانا العمر والعافية، وبعد ما انتهت المشاكل، ترى هذه الولاية راح تصير جنة!

ابتسم فيروز، ورفع يديه إلى السماء متضرعاً:

- يا مالك الملك، يا معطي يا مجيب، استجب لعبدك داود ومكنه فِي الأرض وحقق أمانيه!

تشجع الباشا واسترسل، كأنه يحدث نفسه:

ـ أهْل العراق خوش أوادم، يا فيروز، شرط أن الواحد ما ينطخ برزقهم أو كرامتهم. إذا أعطوا يعطون بلا حدود، وإذا حاربوا سباع؛ ومع أن وجوههم عابسة، وبعض الأحيان كلامهم نتر، إلا أنهم مِنْ جوا مثل الأطفال بحبهم وضحكهم. إذا أحبوا يحبون بصدق وبلا حدود، وإذا كرهوا... الله يستر!

- نسيت فد شي يا أفندينا!

توقف الباشا فجأة ونظر إليه، ولم تخل نظرته مِنْ حدة وتساؤل.

تابع فيروز، وقد حاول أن يعطي كلامه مقداراً مِنْ التسامح:

ـ ما ينطون ثقتهم إلا نقطة.. نقطة، حباية وراء حباية، أما إذا انلدغوا فالله أكبر!

ـ تمام، لأن الملدوغ يخاف ويحسب ألف حساب!

- وليلهم غير النهار يا أفندينا!

- شلون؟

- بالليل يا أفندينا يمكن تتفاهم وياهم، يسمعون أحسن، يسمعون أكثر، ويجبهم عقل الرحمان. أما بالنهار فتشوف الواحد منهم مدلغم، ضايج، ويريد يتكاون ويا ذبان وجهه، وبعد العيني والأغاني يا الله يرد السلام!

الباشا الذي هز رأسه متفكَراً، وربما موافقاً، قال كأنه يحدث نفسه:

- الواحد منهم مثل الجوزة، باطنه غير ظاهره، وأبد ما ينحزر عليه! اعترضت الشمسَ غيمةٌ فِي السماء فحجبتها، وتبدد الدفء قليلاً. رفع الباشا رأسه نحو السماء ليرى مقدار الغيمة. رآها مثقلة بظلال تتراوح بين البياض المشع والسواد القاتم.

قال ليغير الموضوع:

. والبك.. شنو أخباره؟

- يترس دماغه بدوا الأرمن وعلى الشجر يعلق خلقان، يا أفندينا، لأنه خايف مِنْ الفيضان الجديد؟

ضحك الباشا وسأل: ـ دوا الأرمن افتهمنا ليش، بس قضية الخلقان هاي شنو؟

وشرح فيروز للباشا أن واحدة مِنْ القضايا الهامة التي شغلت الكيخيا خلال الفترة الأخيرة، أو بالأحرى منذ دخول الشتاء، أنّه وشمسي أميني يحضران ثياباً خلقة، وبعد أن يُقرأ عليها وتبخر، تعطي لرسل مكلفين بسلوك طريق النهر، صعوداً حتى الموصل، وعند أماكن سُميت لهم، وعند منعطفات النهر، هناك تعلق الثياب والخرق على الأشجار، لتمنع جنون الماء وتحد مِنْ الفيضان، لأن شمسي أميني أكد للكيخيا أن أعداداً مِنْ الجن غافلت الملائكة حارسة المياه ودخلت إلى النهر، وهي التي تجعل المياه تجن وتسبب الفيضان، ومن شأن الثياب المقدسة أن تخيفها، وتمنعها مِنْ تجاوز حد معين؟

كان الباشا يستمع لما يفعله كيخياه وهو يهز رأسه حزناً وأسفاً، وما أن انتهى فيروز، وبعد أن مرت لحظة صمت، خرج صوته مِنْ أعماق صدره:

- غلطنا بزمانَا وكلفناه...

وبعد قليل ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهه:

ـ أفندينا بأول غزواته انكسرت عصاته؛ فقلنا لروحنا إذا ما يفيد للحرب يجوز يفيد لرد الفيضان، لكن تساوت هذي مع ذلك، تساوت القرعة مع أم الشعر، فالله يستر!

وكانت السحابة كبيرة فظلت حاجبة للشمس، ومع احتجابها سرت فِي الجو برودة قارصة، وبينما هو متوجه للداخل، قال لفيروز:

ـ تقول لخلف يصيح الشاعر التميمي، خليه يوافيني الليلة، بعد صلاة العشاء!

كانت مِنْ عادة الباشا، إذا ضاق صدره، أن يستدعي عدداً مِنْ الشعراء ليتطارح وإياهم الأشعار والحكايات، وليدخل معهم فِي تلك المباريات حول إعراب بعض الكلمات، والمناسبات التي قيلت خلالها قصائد معينة، وما أعقبها مِنْ تعليقات وطرائف، وقد يطلب منهم إسماعه آخر ما نظموه مِنْ قصائد!

فِي هذه الليلة التي وافاه التميمي، وبعد أن تحدثا فِي أمور عديدة، وتوقفا عند عدد مِنْ الشعراء، والقصائد التي قيلت فِي أعقاب حملة الفرات الأوسط، كان الباشا يرغب بلقاء عدد مِنْ الشعراء، خاصة وأنه لم يلتق بهم منذ وقت طويل، مع أن عطاياه لهم لم تتوقف، ليقول لهم إن المرحلة الجديدة تقتضي إسهاماً مِنْ الشعراء لكي يحرِّضوا الناس على المشاركة فِي مساعدة الدولة مِنْ أجل البناء والتنظيم، خاصة وأن الولاية مقبلة على عهد مِنْ السلم والالتفات إلى الإعمار بحيث تصبح بغداد، مِنْ جديد، عاصمة الدنيا، وقبلة العلماء والشعراء، ومركزاً للتجارة، ومحجَاً للسواح والزائرين. ولكي تصبح بغداد هكذا لا بد أن يبذل الصغير والكبير، الغني والفقير، الجهد والدم والعرق، والشعراء قبل غيرهم هم الذين يستطيعون أن يخلقوا مثل هذا الحماس عند الجميع.

قال الباشا للتميمي وهو يودعه:

- والشعراء ليسوا هم أول مِنْ يرفع راية الحرب فقط، بل وأن مهمتهم أيضاً: إعادة بناء روح الإنسان؟

حين يتذكر الشعراء الذين حضروا اللقاء القديم بداود باشا، بعد أن أصبح والياً، ويقارنون ذاك اللقاء بما يشهدونه الآن يأخذهم العجب، لأن كُلّ شيء تغير... عدا داود باشا! يقولون ذلك وقد تملكتهم الدهشة بعد أن رأوا الحدائق الغنَاء، التنظيم المتقن، الجمال الذي يحيط بهم، وأيضاً الهيبة التي تجلل المكان.

فداود باشا الذي التقاهم فِي المرة الأولى بديوانه، وكان بانتظارهم، وقد بدا خجولاً أقرب إلى الارتباك، لم يزايله الخجل هذه المرة أيضاً، لكن استطاع أن يتغلب عليه بعد دقائق مِنْ اللقاء، وقد استقبلهم فِي «قاعة القناصل»، كما يطلق على القاعة الكبيرة التي يستقبل فيها كبار موظفيه وضيوفه، خاصة الأجانب. إذ بعد أن أدخل الشعراء إلى تلك القاعة، ومكثوا هناك وقتاً غير قصير، تغنَوا خلاله بجلال وجمال ذلك المكان الذي تميز بجدرانه وأثاثه واتساعه، وبعد أن تبادلوا فيما بينهم الأحاديث القصيرة، همساً، فُتح أحد الأبواب الجانبية بحركة سريعة، لكن متقنة، ودخل الحرس والمرافقون، وتبعهم على التو الباشا!

قال الشعراء للذين سألوهم بعد هذا اللقاء، وقالوا فيما بينهم إن داود باشا، يعرف كيف يصغي، إذا أصغي بدا كأنه فِي محراب، مرهف كالسيف، يشتعل ذكاء كالجمرة التي لا تنطفىء، فيضيء كله ويضيء ما حوله. أما إذا تكلم فيحار الإنسان كيف استطاع أن يكتشف تلك الكلمات التي يعرفها الجميع، لكن تختبيء أو تضيع حين تمس الحاجة إليها، والتي وحدها الجميلة والمعبرة، أو وحدها التي تفي بالغرض. يتكلم بهدوء كأنه يقرأ فِي كتاب، أو كأنه حفظ الجواب على سؤال توقعه أو قرأه فِي وجوه الذين يجلسون أمامه أو حواليه. أما الشواهد الشعرية التي أتى بها فطالما رددها الكثيرون ثم غابت مِنْ الذاكرة. صحيح أن المرء يحس بها تهوم حوله، تقبل وتدبر معاً، لكنها عصية كالخيول قبل أن تروض، وقد تأتي مفاجئة كالفيضان، وتظل محومة مدومة!

هكذا قال الشعراء مسحورين بما سمعوا. أما التحيات التي تبادلوها مع الباشا، وتلك التعليقات التي سمعوها منه أو قالوها له، فسوف ينقضي العمر دون أن ينسوها، ولا بد أن تتغير، بالإضافة والتهذيب؛ وهم يروونها مرة بعد مرة، إلى أن تصبح بالقوام الذي يرضيهم، ويرضي، فيما بعد، مِنْ يسمعها تتردد مرة بعد أخرى!

أما ما قيل عن المرحلة الجديدة، ودور الشعر فيها، فهذا ما كان يفكر فيه الشعراء تماماً، هكذا قالوا، وكان عدد منهم، بل كُلّ واحد فيهم، يريد أن يقول هذا للباشا، لكنه سبقهم وقاله قبلهم!

قال واحد مِنْ الشعراء فِي اليوم التالي، وبعد أن عرف بالاسم الذي يطلق على القاعة التي تم فيها استقبالهم:

- والله لو كنت أعرف، لطلبت مِنْ الباشا أن يسميها بدل قاعة القناصل بديوان الشعراء.

وضحك بسخرية، وهو يُضيف:

- منو هذول القناصل اللي الواحد ما ينعرف منو قرعة أبوه إذا تقارنوا مع الشعراء؟

ردَّ آخر، وكانوا يجلسون فِي قهوة الجسر:

ـ القنصل، مولانا، مثل دلاَل بسوق الهرج؛ صوته عالي، وعروق رقبته منفوخة مثل الحبال، ينادي ويصيح وكان اللي يبيعه ملكه، فإذا تمت البيعة يطلع له مِنْ الجمل إذنه، وأبوك الله يرحمه!

.- مو بس هالشكل، مولانا، هذا اللي تشوفه منفوش مثل الديك، الله أعلم أنّه ببلاده ما يسوى بارة، أما إذا استعفى أو مات فهذا، مثل ما قال شيخنا، بالفلسين مردود.

وسُمع واحد مِنْ بعيد يقول بحدة:

.- اتركونا يا جماعة مِنْ هذول الخرندعية، لأن اللي يظل يهجس بالطنطل ترى يطلع له!

وعاد الحديث مجدداً إلى اللقاء الذي جرى مع الباشا، وكيف أن الملابس التي كان يرتديها بسيطة أقرب إلى التقشف، خلافاً لسعيد باشا وحمادي، وأما الجمال الذي ميز السراي والحرس فمن أجل هيبة الدولة، وحتى يحترمها الصديق ويخشاها العدو. أما حين أخذوا بالحديث حول ما يجب أن ينظمه الشعراء، ورغم وضوح الكلمات التي قالها الباشا، فلم يعرفوا كيف يمكن التعبير عن هذه الأفكار، أو ماذا يقولون. وإزاء هذه الحيرة، الأقرب إلى الاستحالة، قال أحد الشعراء وهو ينهض:

ـ الشعر يا جماعة يجي وحده، وبليا ما يحس الواحد، وكلكم تعرفون هذا الشيء؛ أما إذا صار بأمر وفرمان فيطلع مثل طيز الشادي، فخلونا هسه بالطاس والكاس، وبعدها ما ينعرف شنو اللي يصير بتوالي الليل!

والباشا الذي تعود أن يقضي لياليه مع صفوة مِنْ رجاله، كان يبدأ نهاراته مع محسنة. فقد تعودت الصغيرة أن تستيقظ مبكرة، وتسبقه إلى الغرفة الجنوبية المطلة على الحديقة، حيث يشرب هناك قهوة الصباح.

صحيح أنّه ينهض مع الفجر لأداء الصلاة، لكنه غالباً ما يعود إلى النوم مِنْ جديد، إذا لم تثقله الأفكار والهموم، حتى إذا شعشع الضوء يتجه إلى الغرفة الجنوبية، وتكون محسنة قد سبقته بقليل، أو تلحق به بعد قليل، ومعها، فِي أكثر الصباحات، نائلة خاتون.

خلال فترة القهوة، وقد تمتد لساعة أو تزيد، هو يشرب قهوته على مهل، وهي تشرب الحليب، تبدأ رحلات لها أول لكن لا تنتهي، وكلها حكايا مِنْ حوادث اليوم والأفكار والأحلام، مما تفكر فيه الصغيرة، أو ما حلمت به، أو

سمعته، وهو ما اختزنته ذاكرته وما قرأه فِي الكتب وما علَمته تجارب الأيام. وإذا كان الكثير مِنْ الذي تقوله الصغيرة أسئلة خطرت ببالها فِي التو، أو أسئلة اكتنزت بفكرها، فإن أسئلتها أخذت تكبر مع الأيام، وتصبح أكثر إحراجاً.

فِي الصباح التالي للقاء الباشا بالشعراء، وربما لأنه توسم، أو لعله رغب، أن تكون محسنة شاعرة ذات يوم، فقد كانت بداية حديثة معها عن الشعر والشعراء، قال لها إنهم أناس عظماء، يقولون أشياء جميلة لا يستطيع غيرهم أن يأتي بمثلها. إنهم يسهرون الليل كله بحثاً عن كلمة، وهم يكتبون ويمزقون، إلى أن تستقيم لهم الأمور، وما يصلون إليه يبلغ حد الخلق والإعجاز.

ربما استعمل الباشا فِي حميا الانفعال والإعجاب كلمة «الخلق» أكثر مِنْ مرة، والتقطت الصغيرة هذه الكلمة، وبدأت تسأل:

- بابا.. آني منو خلقني؟

- ربنا سبحانه وتعالى، خلقك يا بنتي؟

- وأختي زكية؟

- ربنا يا بنتي! - وليش خلقني مقرمة وهي تمشي؟

- راح تمشين، يا بنتي، بس اصبري، كلها كم شهر وتمشين!

. لكن هي أصغر مني وتمشي!

ـ إنت تمرضت لما كنت صغيرة، والمرض أثر عليك، وربنا راح يخليك تمشين فد يوم.

.- وإنت منو خلقك، بابا؟

.- همين ربنا خلقني.

.- وأمي وباجي نائلة وخدوج؟

- ربنا خلق كُلّ الناس، يا عيني؟

- والبزونة مالتي منو خلقها؟

.- همين ربنا يا حبيبتي..

.- وربنا، بابا، منو خلقه؟

مع أن الباشا تجاوز الخمسين ببضع سنوات، ورغم التجارب القاسية التي تعرض لها فِي حياته، والإحراجات التي كانت تواجهه، خاصة حين كان مجاوراً فِي مرقد الشيخ عبد القادر، وكان يلقي دروساً هناك، وحين يسأل أحد

البسطاء أسئلة ساذجة، لا يخلو بعضها مِنْ إحراج، كان يجد لها الأجوبة المناسبة ويقنع الذين يسمعون. الآن لا يعرف ماذا يقول لمحسنة، أو كيف يقوله.

الما خيم الصمت، وعيون الصغيرة متعلقة به، تنتظر أن يجيب، قال وهو يحتضنها:

- بس تكبرين، يا بنتي، راح أشرح لك كُلّ شي، وراح تفتهمين!

ـ صرت كبيرة، بابا، وأعرف أعد مِنْ الواحد للمية بليا غلط، وبالعجل.

وأخذت محسنة تعد. عصر الحزن قلب داود باشا، وهو يسمع الأرقام تتردد. كانت تتتابع واضحة فِي البداية ثم أخذت تتداخل، وحماس الصغيرة يزداد.

وفجأة، ولا يعرف داود باشا كيف تذكَر أنّه لما كان صغيراً شاهد قريبة للعائلة تحمل طفلاً كان يبدو كبيراً، لكن رغم ذلك لا يمشي مثل بقية الصغار، والأم تحمله مِنْ مكان إلى آخر. ويتذكر داود حين سأل أمه عن ذلك الطفل أجابته أنّه مريض ويعجز عن المشي، لكن لم تمض فترة حتى شفي الطفل. لم يره يمشي، لكن أمه قالت هكذا، أو ربما لم تقله، وإنما تخيله، وقد يكون توهمه الآن فقط، وهذا ما جعله يرتد إلى زمن قديم، قديم جداً، بحيث تبدو الصور والملامح غائمة، متداخلة، ومليئة بالعتمة، كأنها حلم.

سألت محسنة أباها، وقد تجاوزت أرقاماً كثيرة لتصل إلى المائة:

ـ صدقت بابا أني صرت كبيرة؟

استعادته مِنْ مكان بعيد، وهي تسأله. ردَّ وكأنه يكلم غيرها:

ـ صدقت، وباجر أو عقبه راح تعدين حتى الألف!

لأول مرة، منذ سنوات طويلة، شعر داود باشا بالحنين لأيام قديمة، الأهله، للأماكن التي رآها صغيراً. صحيح أن مشاعر مِنْ هذا النوع كانت تعاوده بين فترة وأخرى، لكنه كان حازماً فِي طيها، فِي إبعادها عن مخيلته، إذ كثيراً ما يلجأ لأن يشغل نفسه بأمور راهنة، بوقائع تثير مشاعر مضادة، كأن يتذكر خصومه الحاليين، القضايا التي تتحداه الآن، وكان مِنْ شأن هذه المشاعر أن تطغى على غيرها، وأن تحرض فِي داخله مشاعر مختلفة.

هذه المرة، ورغم أنّه فكر بأمور كثيرة، وجد نفسه يعود مرة بعد أخرى إلى الأيام القديمة، وربما يكون سبب ذلك قصة الطفل الذي رآه عاجزاً عن المشي ثم مشى.

لم يجد صعوبة فِي الإيعاز لنائلة خاتون أن تأخذ الصغيرة وتمضي، عل المشاعر التي سيطرت عليه تِنتهي. ومع أنّه شغل نفسه بأمور كثيرة ذلك

اليوم، وحاول أن يتذكر خصوماً عديدين، وتوقف طويلاً عند سعيد وحمادي، تذكر تصرفاتهما وطريقتهما فِي إثارة الكثيرين ضده، وتلك الإشاعات السوداء التي يطلقانها، خاصة عن طفولته، إلا أن مشاعر الحقد تصل إلى حد معين ثم تتوقف. حتى الآغا، سيد عليوي، الذي خلق له مِنْ المشاكل الكثير، لم يستطع أن يثيره الآن، أو يطغى على المشاعر الأخرى.

فِي تلك الليلة وجد نفسه محاصرا بقضية واحدة: أن يكتب لأمه.

يجب أن تأتي لزيارته، ولو ليوم واحد. فقط يريد أن يراها، أن يسمع صوتها. سوف يقبل وجهها ورأسها، سوف يمازحها، ويروي لها كيف عاش منذ أن وصل إلى بغداد. لكن فجأة شعر أنّه عاجز ومليء بالخيبة، فالمرأة التي أحبها أكثر مِنْ أيّ إنسان آخر، ويحمل لها هذا القدر مِنْ الاعتراف والامتنان، لأنها حملته فِي بطنها تسعة شهور، وأرضعنه، وعلَمته أولى الكلمات، وسهرت عليه الليالي، وقالت له، بالهمس والعيون، كيف تحبه؛ هذه المرأة التي يحمل لها كُلّ هذا الحب، لا يعرف الآن كيف يخاطبها، كيف يقول لها ما يشعر به، بعد أن نسي لغته، لغتها، وأصبحا غريبين؟

لقد سبق أن كتب لأمه، وتلقى منها أجوبة على رسائله، وكانت مليئة بالشوق، لكنها لم تقل له، ولو مِنْ بعيد، أو بكلمات واضحة، أنها ستأتي. قالت إنها لا تزال تتذكره وتحبه، وتأسف لبعده، وتأسف أكثر لأنه غير دينه، وأنها، رغم البعد، مستمرة فِي إشعال الشموع فِي كنيسة القرية، طالبة مِنْ الله أن ينقذ روحه، وأن يجعله كما تريد.

وداود الذي استلم رسائلها، وبعث إليها، وإلى إخوته، بعض الهدايا، أكد لها أن مشاغله تمنعه مِنْ السفر لرؤيتها، لكن سيبذل أقصى جهده لتلبية كُلّ ما تطلب، وألح عليها مجدداً أن تبذل جهدها لكي تأتي لزيارته.

بعد ذلك، ولفترة طويلة، لم يكتب ولم يتلق أية رسائل. كانت هاراته، وكذلك الليالي، مليئة بالمشاغل والهموم، مما اضطره إلى تأجيل الكتابة، خاصة وأن المسافرين الذين يتوجهون إلى جورجيا قليلون، ويريد مسافرين يمكن أن يسلموا الرسائل باليد، وأن يحملوا معهم الهدايا، ولم يتوفر له أحد مِنْ هؤلاء، واستمر يؤجل مرة بعد أخرى.

أما فِي هذه الليلة، وبعد أن استبدت به حالة مِنْ الجموح، وتذكَر كُلّ شيء، فلم يستطع أن يستمر فِي التأجيل. لا يزال يتمنى حضورها، وإذا خانته الكلمات فِي التعبير عما يريد أن يقول لها، حين يلتقيها، فسوف يترك العينيه، لدموعه، أن تنوب عنه، وأن تقول كُلّ شيء.

وهكذا وجد نفسه فِي تلك الليلة يكتب لها الرسالة التالية:

(مِنْ ملك بابل السعيدة، مِنْ ابنك داود باشا أهديك، يا أمي مريم وافر التحيات، والأمل، كُلّ الأمل فِي مشاهدتك، يا أمي..

أما بعد:

فقد تسلمت رسائلك جميعها التي كتبتها إليّ، والمرسلة عن طريق أرضروم، أو عن طريق رجل مِنْ بيت زوبالا شويلي. وسمعنا كُلّ ما كتبت، والآن أكتب رسالة إلى والي القفقاس ليجعلكم مِنْ طبقة النبلاء، وأبلغت كاتبي السابق بيتر بكل شيء، ولذلك يمكن أن تصطحبوه معكم أثناء زيارتكم لوالي القفقاس، وأن تقولوا له، وتطلبوا، كُلّ ما تريدون.

وأكتب الآن إلى أندريه زوبالا شويلي بهذا الصدد ليساعدكم.

أرجو أن لا تهملي، يا أمي، رغبتي فِي مشاهدتك، فتعالي إلى بغداد، لأني أريد أن أراك. ولا تفكري بأي شيء آخر. أقيمي حيثما تشائين، وسوف أحقق لك كُلّ رغبة، بما فِي ذلك عودتك إلى الوطن بالإكرام العظيم، ومتى ما تشائين.

وأما بعد:

فأهدي أخي شيو وأولاده وأخوتي جميعاً تحيات كثيرة. ثم أهدي أخواتي تحيات كثيرة، وأرجو أن أنال الدعوات مِنْ قلبك الرحيم. الإنسان يأتي إلى الدنيا ويغرس الكرْم لينال ثمره، فأنتم غرستم الكرم ولم تنالوا ثمره، وأنا أطلب مِنْ أمومتك الرحيمة أن تقدري على زيارتي، فلا تهمليها، وصلَ مِنْ أجلي يا أمي الرحيمة»..

ابنك ملك بغداد داود باشا كتب الرسالة بسرعة، وقد تذكر الطلب الذي بعثت به إليه أمه، وشعر أنّه تأخر وقصر كثيراً، لكن الأعباء التي تثقل كاهله، لا تترك له أن يفكر بأعز الناس إليه، وأن يحاول مساعدتهم. شعر، للحظات، أن السلطة عبء وقيد، وشعر، فِي لحظات تالية، أنّه مِنْ خلال السلطة يستطيع أن يفعل الكثير، وأن الكثيرين ينتظرون مثل هذه المساعدة.

ونام تلك الليلة، لكن نومه كان متقطعاً، مليئاً بالكوابيس. وقد تأخر كثيراً على محسنة فِي اليوم التالي، إذ كانت تنتظره، وقد حفظت أرقاماً إضافية، وكان لديها ما تسأله عنه. حين التقته، وقد لاحظت عينيه أكثر حمرة مِنْ أيام سابقة، نظرت إليه طويلاً، وسألت:

- بابا.. أكو أحد ضربك؟ أحد قهرك؟

وحين هزَ رأسه بالنفي، سألته مِنْ جديد:

- ليش عيونك حمرا؟

أخذها بين يديه، بطريقة أقرب إلى الخطف. دفن رأسه فٍي شعرها، وتذكر أشياء كثيرة، وحزينة، وظل هكذا، صامتاً وبعيداً، وقتاً طويلاً.

قبل أن ينقضي شتاء تلك السنة، ارتفعت الأسعار فجأة، واختفت بعض المواد الضرورية مِنْ الأسواق. قطب التجار وجوههم ولبسوا الثياب القديمة. المتاجر تغلق مُبكراً، وتخلو الشوارع مِنْ المارة، والريح الباردة تملأ جنبات المدينة.

الباشا يسأل رجاله عن سبب ارتفاع الأسعار، ورجال الباشا يسألون التجار، والتجار يغمغمون بكلمات غير واضحة، لكن يُفهم منها أن المواد التي كانوا ينتظرون وصولها مِنْ البصرة لم تصل، وقد يتأخر وصولها شهوراً، هكذا أبلغهم وكلاء السفر. فإذا ألح رجال الباشا فِي التدقيق والسؤال يسمعون جواباً مِنْ الجميع لا يتغير: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها؛ نحن نشتري البضائع مِنْ عزرا، ورجال عزرا يقولون إن الأسعار ارتفعت مِنْ بلادها، ولا يمكن أن نبيع بخسارة» وحين يسأل الباشا عزرا يرد أنّه لا يعرف عن الأمر إلا القليل، نظراً لانشغاله بمفاوضة اسطنبول على ما يستحق لها مِنْ أموال، وأن اسطنبول لم تكتف هذه المرة برسائل تبعث بها إليه وتنتظره لكي يجيب، فقد أرفقت الرسائل بالرسل، وهؤلاء لا يتركونه لحظة واحدة، وهم، بالإضافة إلى الإلحاح، أخذوا فِي الأيام الأخيرة يهددونه!

وإذا كان الناس قد تفاءلوا بسقوط الأمطار المبكرة، وتوقعوا أن تكون هذه السنة مِنْ سنوات الخير، فإنهم يستغربون كيف ترتفع الأسعار فِي مثل هذه الظروف. لكن التجار، حتى الذين يتعاملون بالمنتجات المحلية، يبررون رفع أسعارهم بأنهم يريدون شراء القهوة والشاي والسكر لقاء ما يبيعون، ولأن هذه المواد ارتفعت أسعارها، فلا بد أن يفعلوا. حتى باعة الباجلاء والشلغم، وكان أكثر هؤلاء يرابطون قريباً مِنْ المقاهي، أو عند الشرائع، وحيث يتجمع الناس، رفعوا أسعارهم، وكانوا إذا سئلوا عن السبب يجيبون أن كُلّ شيء ارتفع سعره، وهم ليسوا أقل مِنْ الآخرين!

ما كادت أسابيع قليلة تنقضي حتى بعث حاكم البصرة، ناظم أفندي، رسالة إلى الباشا يبلغه فيها أن المراكب انقطعت، وأن تايلور، وكيل ريتش فِي البصرة، هو السبب فِي انقطاعها. حتى المراكب التي وصلت، وكانت محمَلة بالمواد التي أوصى عليها التجار، بقيت رابضة مقابل الكمرك أياماً دون أن تفرغ حمولتها، ثم عادت وأبحرت مِنْ جديد بناء لأوامر مِنْ تايلور.

لم يصدِق داود باشا ما قرأه فِي رسالة ناظم أفندي. هل يمكن لتايلور أن يفعل ما فعله دون إيعاز مِنْ ريتش؟ وريتش إلامَ يهدف أو ماذا يريد أن يقول مِنْ خلال هذه الرسالة؟ هل بدأ حرباً مِنْ نوع جديد؟ أيريد أن يدخل

مِنْ الأبواب الخلفية بعد أن عجز عن اقتحام بوابة السراي بالاتفاق مع عليوي؟ ولماذا كان هادئاً بشوشاً فِي زيارته الأخيرة، وقال إن موظفاً إنكليزياً كبيراً سيزور بغداد ويمكن أن يبحث أموراً كثيرة، بما فيها توسيع مجاري الأنهار ومشتريات السلاح؟

مرت هذه الأسئلة وغيرها، فِي ذهن داود باشا، بعد أن أخذت تصل إلى مسامعه الكلمات التي يرددها الناس فِي المقاهي والأسواق.

الباليوز ظل غارقاً فِي صمته الطويل، والذي بدأ منذ غياب الآغا عليوي، إذ لا يُسمع له صوت ولا يظهر رجاله إلا نادراً، خلافاً للأيام القديمة. أكثر مِنْ ذلك، أخذ ريتش يتناسى المناسبات التي كان يقيم فيها الاحتفالات ويدعو إليها المئات، فقد مر عيد ميلاد الملك، ثم عيد ميلاد زوجته، ولم يقم احتفالاً بأي مِنْ هاتين المناسبتين. كما أخذ يغيب عن القنصلية فِي رحلات صيده الشتوي، وكان بعضها يستمر أياماً. كُلّ ذلك ليقول للباشا، بشكل غير مباشر، إنّه مثل قنصل فرنسا، لم يعد هناك ما يشغله مِنْ شؤون الولاية إلا القليل، وهذا ما يوفر له الوقت ليصطاد، ليداعب حيواناته، ليشارك ماري فِي تنظيم الحديقة، فإذا بقي له بعض الوقت يخرج بنزهات قصيرة حول مبنى الباليوز، وعند أطراف النهر، مع واحد أو اثنين مِنْ كلابه.

كانت هذه الرسائل كافية لإقناع الباشا أن ريتش تغيَر، لأن الظروف تغيرت، الأمر الذي يساعد لبدء علاقة مِنْ نوع جديد، وهذا ما كان ينوي الباشا أن يفعله.

الآن، ومن مكان بعيد، مِنْ البصرة، تأتي أولى الرسائل، والتي تقول شيئاً مختلفاً، فلماذا اختار ريتش هذا الوقت، ومن ذاك المكان؟

قال الباشا لعزرا بطريقة أقرب إلى الأمر:

- أريدك يا عزرا أفندي تترك كُلّ شيء، وتشوف التجار، وتتفق وياهم على الأسعار، لأن الناس صاروا يشكون.

- ولكن الأسعار ارتفعت مِنْ بلاد المنشأ، يا فخامة الباشا، ولا يمكننا أن نفعل أيّ شيء لتخفيضها.

ـ المسألة، يا عزرا أفندي، متعلقة بعدم وصول المواد، أكثر مما هي متعلقة بارتفاع الأسعار مِنْ بلاد المنشأ.

ـ لكني سألت يا فخامة الباشا عن الأسعار فقالوا لي ارتفعت قاطين...

وفِي محاولة ماكرة للإقناع، وبتفاصيل كثيرة فائضة، ذكر أنّه، بالقلم والورقة، ومع الوفد الذي جاء مِنْ اسطنبول للمطالبة بما يستحق مِنْ

عائدات، سأل عن أسعار عدة مواد، هنا وهناك، فتبين له أن الأسعار فِي بغداد أرحم مِنْ غير مكان!

ردَّ عليه الباشا بحنق ظاهر:

- يرحم والديك لا تدوخني بحساباتك يا عزرا أفندي. كُلّ ما أريده منك تجتمع بالتجار، مثل ما سويت يوم دخلنا بغداد، وتفهمهم: أيّ واحد يرفع الأسعار، أيّ واحد يخفي البضاعة، راح يتعاقب...

وبعد قليل، وهو يرفع يده فِي الهواء بنوع مِنْ الغضب:

- وهذول، أولها وتاليها، جماعتك وتعرف شلون تتفاهم وياهم.

- راح أبذل جهدي، يا باشا، لكن تعرف: هذول التجار قاتلهم الطمع، وما ينضمنون!

ـ مِنْ يجي منهم بالهلا والمرحبا ما لنا شغل وياه، لكن مِنْ يريد يخالف له عندنا الدواء.

وتظاهر عزرا أنّه امتثل، لكنه لم يفعل شيئاً، إذ ظلت الأسعار ترتفع، وزادت الشكوى. وما كان يقوله الناس همساً، أخذوا يقولونه بصوت عالٍ وأمام الجميع. وما كان يسمعه الباشا مِنْ رجاله خفية، أخذ يسمعه مِنْ زائريه،. حتى دون سؤال!

بعث الباشا إلى عزرا وسأله مِنْ جديد:

ـ ها، يا أفندينا، شنو اللي سويته، وشنو النتيجة؟

- صحت على التجار، يا فخامة الباشا، ورزلتهم، لعنت والد والديهم؛ قلت لهم هذا حرام، هذا ما يصير، ولازم يكون بقلبكم رأفة وحنية، لأن التجارة إذا حللها رب العالمين، ما قال اسرقوا وانهبوا...

استراح قليلاً، كان الباشا يقرأ ملامحه وطريقته فِي الكلام، وما لا تقوله الكلمات كانت تشي به العيون، تابع عزرا:

- وبلغتهم، يا أفندينا، ترى اللي ما يصير منكم آدمي، وتدخل لقلبه الشفقة، فالوالي عينه صارت حمرا عليكم، وما يندري شنو اللي يسويه.

وافترض أن ما قاله يفي بالغرض، إذ تحرك قليلاً فِي كرسيه، انتظاراً السؤال جديد، ولم يتأخر الباشا:

- هذا الكلام تقوله لغيري، يا عزرا أفندي، لأنه لا يعني لي شيئاً عملياً، فأنا أريد الأفعال، أريد النتائج.

- تعرف يا أفندينا: هذا سوق، أخذ وعطا، بيع وشرا، فإذا لحينا عليهم زايد يوقف السوق، وإذا أكو اليوم بضاعة، ولو غالية، باجر ما نلقى شي، أيدينا

والحصير، وعندها تاكلنا الندامة...

وبعد قليل، وبمرح، عله يجعل قلب الباشا يلين:

- وهذول التجار، ومن يوم ما الله خلق الدنيا، ملاعين ومثل النمل، يحفرون ويطمون، فإذا خافوا أزيد مِنْ اللازم، ترى قرصة الخبز ما تتحصل، فمن رأيي يا باشا أن نصبر عليهم، والربيع صار قريب، وباجر الناس تشبع مِنْ نبات الأرض وتسكت...

وتغيرت اللهجة، صارت أكثر ثقة:

ـ والتاجر إلى متى يقدر يضم البضاعة؟ شهر، شهرين، وبعدها؟ لا بد يبيع، ولو بخسارة، وهو اللي راح يندم!

- ورأيك، يا عزرا أفندي، ننتظر حتى يجي الربيع؟

- هذا رأيي يا أفندينا!

ابتسم الباشا بحزن وسخرية، وخرجت الكلمات دون إرادته:

- عيش يا كديش حتى يجيك الربيع، هالشكل تريد؟

صمت عزرا، فقد أحس أن موجة مِنْ الغضب تسيطر على الباشا، لأن الكلمات خرجت مِنْ بين أسنانه، وهو يعرف ماذا يمكن أن يترتب إذا واصل بهذه الطريقة. قال بمسكنة:

ـ أنا اللي أمرتني بيه سويته، يا أفندينا، وهسه إذا مطلوب مني فد شي فأنا جاهز ومستعد! وقف الباشا، وخرجت كلماته بطيئة، لكنها حازمة، شديدة الوضوح:

- جميع التجار قالوا لي: البضاعة كلها ناخذها مِنْ عزرا أفندي وربعه، وقبل ما تطلبوا منَا تنزيل أسعارنا خلوا عزرا ينزل أسعاره، لأنا ما نقدر نبيع بخسارة...

توقف الباشا قليلاً. بدا عزرا حائراً مرتبكاً، فهو لا يستطيع الإنكار أنّه أكبر التجار، والأسعار التي يحددها تُفرض على السوق كله، كما لا يريد أن يعتبر نفسه مسؤولاً، وقبل أن يرد ليبرىء نفسه، تابع الباشا:

- ومثل ما قلت لك مِنْ قبل: اسطنبول وحساباتها خليها علي؛ وهسه، بوجهك مِنْ الديوان إلى الشورجة، وإنت أول مِنْ ينزل الأسعار، ومن المخازن تطلَع مواد تكفي بغداد شهر، وبعدها نشوف!

فِي مواجهة هذا الطلب الواضح، ولأن كلمات الباشا كانت تتجاوز الحزم إلى نوع مِنْ الأمر، لم يستطع عزرا أن يعترض أو أن يرفض، إذ لو فعل يمكن أن يعامله الباشا بطريقة قاسية. قال وهو ينهض:

ـ لخاطرك يا أفندينا راح أتحمل الخسارة، وأسوي اللي أمرت بيه، وانشاء الله نتوفق.

ريتش الذي أمر بهذا الإجراء، كان يهدف إلى إرباك الباشا، أن يقول له، بطريقة غير مباشرة، إن وسائل الحرب لا تقتصر على القوات العسكرية، وإن لدى بريطانيا وسائل كثيرة يمكن أن تؤثر عليه، وقد تكون هذه الرسالة كافية الآن، قبل وصول الوفد الذي سيلتقيه ويبحث معه أموراً عديدة، كي يحمله على اتخاذ الموقف الصحيح، والذي يخدم الطرفين.

لم يُبلغ عزرا بكل ما يريد أن يفعله، قال له ريتش بطريقة هي مزيج مِنْ الجد والهزل:

- واليكم كبر بسرعة، يا عزرا أفندي، حتى السفينة التي ساهمت بإسقاط نابليون ما كلف نفسه أن يزورها وكانت على مسافة خطوتين مِنْ السراي، فما أدري متى يعرف حجمه ويتعلم!

عزرا الذي تظاهر أنّه لم ينتبه لتعريض القنصل، ردَّ ببراءة:

ـ كان ينوي زيارة السفينة، لكن أشغاله الكثيرة، ثم طريقة البدو لما يجوا للسلام، وبدل ما تكون الزيارة دقائق، تستمر ساعات وساعات، والباشا ما له عين أن يقطعها، وهذا ما جعله يؤجل الزيارة مرة بعد أخرى، إلى أن سافرت السفينة!

ابتسم ريتش، وهو ينظر إلى عزرا بمكر، وكأنه يقول: هذه التبريرات لا تنطلي على قنصل الامبراطورية البريطانية. يمكن أن تنطلي على قنصل فرنسا، وقد يصدِقها قنصل إيران، لكن لدى قنصل بريطانيا مِنْ الوسائل ما يجلعه يعرف كُلّ شيء!

قال لعزرا، وهو يبدأ موضوعاً جديداً:

- لست معنياً بالماضي إلا بمقدار ما يساعدني اليوم وغداً. فإذا لم يستطع الباشا أن يستوعب معنى زيارة السفينة، فيمكنه الآن أن يسمع الإشارات الخفية التي تبعث بها السفن مِنْ بعيد!

واتفق الاثنان على أن يستجيب تجار بغداد لرسالة السفن قبل غيرهم، ومن خلالها يمكن أن يفهم الباشا رسائل عديدة: ماذا تعنيه بريطانيا دون أن تطلق رصاصة واحدة؛ دور التجار والأهمية التي يمثلونها لبغداد، وللوالي بالذات، إذا صادقهم أو عاداهم؛ وسوف يربح التجار فِي كُلّ الأحوال! عزرا الذي فهم الرسالة جيداً، أبلغ ريتش أنّه لا يستطيع أن يقف فِي وجه الباشا، وأن التجار يمكن أن يضغطوا، لكنهم لا يستطيعون أن يحاربوا، لذلك سيتذرعون بعدم وصول البضائع لرفع الأسعار، وهذا أقصى ما يستطيعونه الآن، وعلى بريطانيا أن تتدبر الأمر، وأن تستعين بقوى أخرى، فإذا وصلت

الجيوش لحصار بغداد، فيمكن عندئذٍ أن يثور الناس، ويؤازرهم التجار، كما حصل لسعيد، وينتهي كُلّ شيء.

ريتش الذي قدر ما يدور فِي ذهن عزرا، قبل أن يسمع كلماته، قال فِي نفسه: «لا يوجد فِي الدنيا مِنْ هم أجبن مِنْ التجار، وأكثر ضيق أفقٍ منهم، والسبب أنهم يفتقرون إلى المخيلة ولا يجرؤون على المغامرة، فلو امتلكوا جزءاً مِنْ مخيَلة الشعراء، وجزءاً مِنْ مغامرة الأبطال، لضاعفوا ثرواتهم مرات ومرات، لكنهم لا يريدون!» وابتسم لعزرا، وقال كأنه يخاطب شخصاً آخر:

. مثل هذا الباشا لا يحتاج لأن تسير بريطانيا إليه الجيوش، على الأقل الآن، وقد يكون مِنْ الأفضل القضاء عليه خنقاً، أيّ أن يقتل مِنْ بُعد...

أخذ نفساً عميقاً وأضاف وتذكر أشياء عديدة، وقد تداخلت فِي ذهنه:

ـ قبل أن تُخترع البنادق، كان المحاربون مضطرين لأن يواجهوا بعضهم بعضاً بالرماح والسيوف، وبعض الأحيان يتشابكون بالأيدي؛ وحين يخيم الظلام يتوقفون عن القتال انتظاراً لليوم التالي. أما الآن فإن ما يحدد المسافة بين المتحاربين هو مدى البندقية؛ وإذا كانت وسائل الحصار القديمة أن تصل القوات إلى أسوار المدن، فالوسائل الحديثة أن تُحاصر المدن مِنْ بُعد، وهذا ما جعل بريطانيا تُولي الأسطول كُلّ اهتمامها، وهذا ما مكنها مِنْ هزيمة الآخرين، كُلّ الآخرين، ولقد عرضنا على واليكم سفينة تكون بداية الأسطول وبداية القوة، لكنه لم يكلف نفسه حتى رؤيتها!

واكتشف ريتش أنّه ذهب بعيداً، وهو يعرض أمام هذا التاجر اليهودي أفكاره وهذا الكم مِنْ المعلومات، قال فِي محاولة ليغير اتجاه الحديث:

ـ المهم، يا عزرا أفندي، أن نضيق عليه إلى أن نسمع صوت الألم، وعندذاك يمكن أن يكون للحديث جدوى.

- لكن التجار ضعفاء فِي مواجهة الوالي، يا سعادة القنصل.

ـ إنهم ضعفاء وأقوياء بنفس المقدار. ضعفاء حين يحاربون وحدهم؛ وأقوياء إذا كانوا حلفاء للقوة العظمى: لبريطانيا! وابتسم ابتسامة الواثق، وهو يُضيف:

ـ لا أريد أن أنتقص مِنْ أهمية ودور التجار، لكنهم وحدهم عاجزون، أما إذا تحالفوا مع بريطانيا، واستطاع الباشا أن يفتح المخازن بالقوة، ويأخذ كُلّ ما فيها، فلن يكفيه ذلك إلا لفترة محدودة، عندها سيصطدم بالقوة العظمى ولا بد أن يتحطم؟

وترك عزرا المواقف مواربة، سيبذل ما يستطيع مِنْ أجل إرضاء الباشا وريتش معاً!

لم ترتفع الأسعار لمدة أسبوعين، بعد أن أنزل عزرا وآخرون بضائع إلى الأسواق، بناء لأوامر الباشا، لكن فِي الأسبوع الثالث عادت إلى الارتفاع مِنْ جديد.

وجاءت رسائل، وجاء رسل مِنْ البصرة، مع تأكيدات متزايدة أن المراكب انقطعت عن المجيء. وإذا صدف ووصلت سفينة، فلكي تتمون بالغذاء والمياه! وبدل أن يزور قبطانها وكبار مساعديه مقر نائب القنصل فِي البصرة، أصبح تايلور هو الذي يزور السفينة، ولا يُعرف ما يدور على ظهرها. هكذا قالت الرسائل، وهكذا أكد الرسل.

داود باشا لم يترك الأمور تمضي إلى أن يُحكم عليه الحصار.

إذ بعد أن استدعى عزرا مجدداً، وقد بكى عزرا خلال هذا اللقاء، وأقسم أن الخسائر التي لحقت به لا يمكن أن «توفى لولد الولد» وهجم على يد الباشا يريد أن يقبلها، لكي يعفيه مِنْ منصب الصراف باشي، علَه يستطيع أن يعوض جزءاً مِنْ خسارته، لأنه لا يقوى على تحمل خسارتين فِي وقت واحد: خسارة ثقة الباشا، وبالتالي ثقة اسطنبول، والخسارة المادية التي تلحق به يومياً نتيجة محاولاته للحفاظ على الأسعار.

الباشا الذي طيب خاطره، طلب منه أن يستريح قليلاً، مع تأكيده رفض إعفائه مِنْ منصبه.

ولم يترك الباشا الأمور تحت رحمة عزرا بمفرده، فقد أرسل عدداً مِنْ التجار، برفقة بعض رجاله، إلى حلب وماردين ليتدبروا الأمر، كما بعث إلى الأحساء والبحرين وسنه، وأمر حكام المدن والمناطق أن يبذلوا أقصى الجهود مِنْ أجل تأمين حاجاتهم، وشراء المواد مِنْ الأسواق القريبة.

فعل الباشا ذلك بعد أن وصلته أخبار مؤكدة حول لقاءات تمت بين ريتش وعزرا، حصل بعضها فِي الباليوز، فِي ساعة متأخرة مِنْ الليل، وحصل بعضها فِي بيوت أصدقاء للطرفين. ومع أن الباشا أشار مِنْ بعيد، وعلى شكل تساؤل لا يبغي مِنْ ورائه جواباً، حول رأي ريتش، ولماذا ترك الأمور تصل إلى هذا الحد، إلا أن عزرا لم يُجب على أسئلة اعتبرها غير موجهة إليه، وسأل، بدوره، وببراءة، ما إذا كان الباشا يقترح عليه لقاء ريتش والاستفسار منه حول إمكانية المساعدة، لكن الباشا هز رأسه بعدم اهتمام، وكأنه يعتبر ريتش مسؤولاً، فرد عزرا بمسكنة:

- هذول الغُرب، يا أفندينا، يواعدون هوايه لكن ما يوفون، شايفين حالهم، وما عليهم بغيرهم.

- وبعدين المسألة مِنْ أولها لتاليها، أن الأسعار ارتفعت مِنْ بلاد المنشأ، وأن أسعارنا بعدها أقل مِنْ غير بلاد، مو هالشكل لو آني غلطان، يا عزرا أفندي؟

ـ أيّ نعم يا أفندينا.

ـ بهذي الحالة شيقدر القنصل يساعدنا؟

ـ ما أدري، يا أفندينا، بس يمكن نسأله، نستفسر منه!

. عنده ألف هم، فخليه بهمومه، يا معود!

ـ قولتك يا أفندينا، لأن ما حك جلدك مثل ظفرك!

ولم يتأخر الباشا لكي يستدعي ساسون، ولم يتأخر ساسون فِي تلبية الدعوة.

كان ساسون ينتظر أن يُرد له الاعتبار، كي يقول للباشا مِنْ هو وماذا يعني، وقد جاءت الفرصة الآن. لذلك لم يتردد فِي أن يخوض حرباً مع عزرا، والحرب بين الأقرباء تبدأ لكن لا تنتهي. يمكن أن تهدأ بعض الوقت، يمكن أن تختفي أو تموه، غير أن الحقد عميق الجذور، ويظل مؤثراً لفترة طويلة. وهذا ما جعل ساسون يركض فِي كُلّ الاتجاهات مِنْ أجل أن يفضح عزرا أولاً، ثم لأن يحل مكانه، الأمر الذي كلَفه الكثير مِنْ الجهد والتضحيات.

ولم ينس الباشا روجينا، وما يمكن أن تفعل!

كانت روجينا فِي واحدة مِنْ حالاتها الصعبة، إذ بعد أن اعتزلت، وعانت كثيراً نتيجة اعترافاتها فِي محاكمة سيد عليوي، ذهبت إلى الكنيس ملتمسة عفو طقو موشي، وأنها قررت أن تبدأ حياة جديدة. غير أن المحيط حولها رفض استقبالها أو قبول توبتها، وهكذا دخلت فِي «المجاز»، كما أصبحت تطلق على الحياة التي تعيشها، فلا أحد يقبل بها، أو يعترف لها بحقها فِي أن تبدأ مِنْ جديد. وهكذا ظلت عند الحافات الخطرة بين ما كانت وما يمكن أن تكون.

ورجال الباشا الذين عرفوا روجينا، وتابعوها، لم يتأخروا فِي الاتصال بها، فِي محاولة لأن يستفيدوا مِنْ علاقاتها، وما تعرف عن عزرا.

قالت روجينا لرجال الباشا حين سألوها عن عزرا:

- مِنْ عزرا وأمثاله ما جتني إلا المصايب، فلا تسألوني عنه.

ولما ألحُوا، يريدون أن يعرفوا ما إذا له علاقات نسائية يمكن أن تخبرهم بها، ردت وهي تبكي:

ـ لخاطر الله اتركوني بهمِي ودردي!

وألحُوا أكثر، فصرخت بألم:

- بابا.. آني عزلت، وبالقلم العريض: ذيك الشغلة بطلتها، وهسه طول الليل أصلي واندعي، يمكن الله يقبل توبتي، ويغفر لي!

ولم يستطع رجال الباشا أن يحصلوا على أية معلومات بشكل مباشر، فسلطوا عليها جميلة، والتي تمكَنت بالحيلة والمداورة أن تحصل مِنْ روجينا على أخبار مؤكدة أن لعزرا علاقات بلورا خليل، ولا تعرف ما إذا كانت هذه العلاقة مستمرة أم لا.

ولورا التي تعيش مع عارف زنجاري، ولا يُعرف إن كانت متزوجة أو مجرد عشيقة، لأنها لم تخلف، كما تعودت أن تترك البيت لأيام، بين فترة وأخرى، نتيجة خلافات بين الطرفين، تكون صغيرة ثم تكبر، فتغادر ذاهبة إلى أمها فِي محلة أبو سيفين، هكذا تقول، لكن لا يُعرف إلى أين تذهب.

فإذا جاء عارف بعد أيام ليصالحها، تدعي أمها أنها بزيارة لإحدى خالاتها، وتعده أن تبعث وراءها لتؤنِبها على تركها البيت، وفِي الغد سيجدها فِي انتظاره، وهكذا يذهب مِنْ يخبرها للعودة مِنْ بستان عزرا.

كانت هذه البداية للإمساك بخناق عزرا، مِنْ خلال علاقاته النسائية، خاصة وأن الباشا وافق على ترك عارف زنجاري كطعم، ما دام اضطر إلى التعاون.

ولم يتأخر خلف فِي لقاء عزرا، والتلويح له بهذه الورقة. صحيح أنّه فعل ذلك بطريقة عفوية، أقرب إلى البراءة، مدعياً أن أحد أقاربه يريد الزواج مِنْ زكية أخت لورا، وقد أشارت زكية أن أختها تعرف عزرا!

نفى عزرا بشدة معرفته بامرأة اسمها لورا، «وأن النساء كثيراً ما ادعين معرفة رجال فِي السراي مِنْ قبيل التباهي والتفاخر، والأمر كله ادعاء وكذب» لكنه قدر أن خبراً مثل هذا لو عُرف ثم انتشر يمكن أن يسيء إليه كثيراً لذلك بدأ يجامل خلف ويحاول استرضاءه.

فِي وقت لاحق لوَح له خلف أن أمر زواج قريبه يسير فِي طريقه، وقد التقى بزكية ولورا معاً، وأكدت لورا أنها تعرف عزرا! وأصرت الأختان أن يكون ضيف الشرف فِي حفلة الزواج: عزرا!

ومع أن عزرا نفى مجدداً معرفته بأي مِنْ هاتين المرأتين، ردَّ بحدة:

ـ يرحم والديك يا خلف تتركنا مِنْ هذي القضايا، لأن همومنا ما تحملها جبال!

وهكذا أصبحت بيد الباشا ورقة جديدة للضغط على عزرا، وإرغامه على الاستجابة لما يريد.

قال له الباشا بعد أيام مِنْ هذا اللقاء:

ـ ترى الناس ما عاد تتحمل، يا عزرا أفندي، لأن الأسعار صارت نار، فأريدك، نوبة ثانية تطلع البضائع مِنْ المخازن حتى تنزل الأسعار، وأريد منك تفكر معي شلون لازم نحل المشكلة بشكل دائم.

طلب عزرا أياماً كمهلة، عله يجد حلاً، ولم يتأخر فِي فتح المخازن وإنزال بضائع جديدة، كما أرغم التجار الآخرين أن يفعلوا مثله، خاصة وأن الموفدين الذين أُرسلوا إلى حلب وماردين ومنطقة الأحساء، وإلى أماكن أخرى، بعثوا يعلمون الباشا أنّه تم شراء كميات كبيرة مِنْ الشاي والسكر والقهوة، كما تعاقدوا على كميات إضافية لفترات لاحقة.

وما لم يقترحه عزرا كحل لهذه المشكلة التي يمكن أن تتكرر، اقترحه الحاج شبلي نيابة عن مجموعة مِنْ التجار: أن يتساوى تجار الولاية بالتجار الأجانب، وأغلب هؤلاء مقيم فِي البصرة، مِنْ حيث الرسوم الواجب دفعها إلى السراي، إذ إن التجار مِنْ رعايا الباب العالي يدفعون رسوماً تزيد ثلاثة أمثال ما يدفعه التجار المشمولون بحماية الباليوز، وهذا ما يضطر تجار الولاية للبقاء تحت رحمة التجار الأجانب، فتكون أسعارهم عالية.

لام الباشا نفسه لأنه غفل عن هذه القضية الهامة، إذ انشغل بأمور الجيش والإدارة، ولم يفطن للامتيازات التي حصل عليها الباليوز لرعاياه والذين تحت حمايته خلال ولاية الباشوات الذين سبقوه. كما أن عزرا لم يتطرق لهذا الأمر مِنْ قريب أو مِنْ بعيد، وهو يبحث عن حلول لاستمرار وصول المواد ولأسعارها.

قال الباشا لنفسه بعد أن التقى مجدداً بوفد التجار «يجب أن يكون الجزاء مِنْ نوع العمل، وإذا كانت هذه الولاية قد قدَمت الكثير للعالم عبر العصور، فلعل أول ما قدَمته شريعة حمورابي، ومن جملة ما أكدت عليه تلك الشريعة: العين بالعين والسن بالسن، ولذلك يجب أن تكون بداية الرد على ريتش: رعايا الباليوز، وأولئك الذين تهافتوا لكي يكونوا مشمولين بحمايته، ليسوا أفضل مِنْ تجار الولاية، ولن يحصلوا على مزايا خاصة بعد اليوم، وهذا الإجراء حين يطبق سيوجع الباليوز أكثر مِنْ أيّ إجراء آخر، كما سيقول له مِنْ هو داود مقارنة بالولاة الذين سبقوه».

وجاءه ساسون الذي كان يملك شركة للبواخر، وقد تراجعت الشركة بعد أن سافر ابنه، واضطر أن يبيع قسماً منها لعزرا ولشركاء آخرين، ولم يستطع خلال الفترة الماضية أن يجدد المراكب، إذ أخذت تتزايد أعطالها نتيجة القدم.. جاء ساسون ليعرض على الباشا إمكانية شراء مراكب جديدة، وأن تتولى السراي عن طريقه تأمين ما تحتاجه مِنْ مواد مباشرة مِنْ

البلدان التي تبيعها، وبهذه الطريقة لا تكون الولاية تحت رحمة الباليوز وتجاره والمراكب التي تحمل البضائع إلى البصرة.

بعد أن حسب الباشا ما يحتاجه مِنْ أموال لتنفيذ هذا الاقتراح، طلب أن يتعاون عدد مِنْ التجار لتأمين قسم مِنْ الأموال المطلوبة، على أن تتولى السراي تأمين القسم الآخر، مِنْ أجل شراء بعض المراكب «ولا يهم أن تكون قديمة، أن تكون صغيرة؛ المهم أن نؤمن حاجتنا، وأن لا نبقى تحت رحمة الغير». ولم يتأخر فِي إيفاد عارف زنجاري إلى عُمان، «وإذا اقتضى الأمر يمكن أن يذهب إلى أمكنة أخرى، إلى مصر وإلى مالطا، حيث نستطيع أن نحصل على الأرخص والملائم لحاجاتنا» هكذا أوصى خلف وهو يطلب منه تكليف عارف، وأضاف الباشا، وهو يبتسم ابتسامة تحمل أكثر مِنْ دلالة:

-... وعارف يسافر وحده؛ المسعدة، بنت الخليل، تبقى هنا، لأن هذا «الشريف» يجوز يلعب بذيله، وخاف تكون روحة بليا ردة!

كان الباشا يريد عودة عارف زنجاري، ولعل أقوى ما يشده: لورا، إذ لا يحتمل أن يبقى بعيداً عنها مهما فعلت.

ولئلا يقع خطأ مِنْ نوع ما، أضاف الباشا، وهو يوصي خلف:

- وتختار أشخاصاً تثق بهم حتى يرافقوا عارف، لأنا نريد نعرف حساب الدنيا والآخرة، نريد نعرف بمن يتصل، أو إذا أكو بيع وشرا مِنْ وراء ظهورنا!

عزرا أفندي الذي طلب منه الباشا، أن يُهيئ مبلغاً كبيراً، دون أن يقول له عن طريقة صرف هذا المبلغ، أو الغاية منه، تساءل باستغراب:

ـ إنشاء الله ماكو حرب جديدة؟

تطلع إليه الباشا طويلاً، وأجاب بمرح:

ـ هذي النوبة، يا عزرا أفندي، ما نريد نحارب، نريد نبني!

- غير السراي الجديدة يا أفندينا؟

- أيّ نعم، يا عزرا أفندي!

- وين.. وليش يا أفندينا؟

- لأن الدنيا تتغير يوم بعد يوم، يا عزرا أفندي، ولأنه مَنْ يزرع اليوم يحصد غداً أو بعد غد...

كاد يرد عزرا، وقد طوقته بهذا القدر مِنْ الغموض كلمات الباشا: «وقد لا يحصد أبداً» لكن وهو يرى ابتسامة الباشا الرحبة، الواثقة، والتي لا تخلو مِنْ تحدٍ، جعلته يقول:

- كُلّ شيء تبنيه يا أفندينا عساه يكون مبارك ومنزل خير وعز، لكن أخاف أقول لك يا باشا، أن فلوسنا على الحد، خاصة وأن رجال اسطنبول مثل ملك الموت لا يتعبون ولا يشبعون، وما عندهم إلا قولة هات!

ـ الظاهر أن اسطنبول حارقة قلبك.

- خليها على الله يا أفندينا، لأن المسألة مو بس المال، وإنما طريقةطلب المال، ولأن الواحد منهم يقعد مثل الهم على الصدر.

ترك الباشا فترة مِنْ الصمت تمر، ثم قال بلهجة جديدة:

ـ ما أخفيك، يا عزرا أفندي، آني ندمان هواية لأن راحتْ علي زيارة ذيك السفينة!

قطب عزرا عينيه فِي محاولة لتذكر ما يعنيه الباشا، وسأل بمكر:

ـ أية سفينة تقصد يا باشا؟

ـ السفينة التي أسقطت نابليون!

- أيّ.. أيّ السفينة اللي جت بزيارة للباليوز!

ـ لأن اللي عنده مثل هذي السفن يقدر يسوي كُلّ شي!

لم يشأ عزرا أن يعلِق، فقد أحس أن الباشا ينصب له كميناً. حين امتد الصمت وطال، قال الباشا:

ـ إنشاء الله ما يمر كم شهر، با عزرا أفندي، إلا وتصير لنا مراكبنا، ونقدر نوصل وين ما نريد.

- شلون يا باشا؟

- راح نشتري مراكب مِنْ هنا.. مِنْ هنا، وما نريد نظل تحت رحمة أحد.

تحرك عزرا فِي مقعده بعصبية، فقد أيقن أن الباشا يذهب بعيداً فِي المواجهة، إذ مِنْ شأن خطوة كهذه أن تعتبر رداً على ريتش، كما سترتب أعباء مالية قد لا يستطيع مواجهتها. قال، وخرج صوته ثقيلاً وفيه رجفة:

- يجوز هالحمل ما نقدر عليه، يا أفندينا، لأنه ثقيل وينراد له هز كتاف وعصب قوي!

- لا تدير بال يا معود، حيلنا بعده بظهورنا، نحمل ونتحمل، وعندنا هواية جماعة يعاونون ويفتهمون بهذي المسائل!

ـ واسطنبول يا أفندينا؟

ـ شبيها اسطنبول؟

- اسطنبول تطالبنا بكومات فلوس، يا باشا، وبعدين يجوز إسطنبول تاخذ على خاطرها، وتفكر غير تفكير.

- مثل ما قلت لك يا عزرا أفندي، خلي اسطنبول علي: نؤجل، نقسط، نلاقي طريقة للتفاهم؛ المهم أن تتحضر إنت ونادر أفندي، وبعدها كُلّ شيء سهل!

- والسراي الجديدة يا أفندينا؟

- شبيها السراي؟

- ينراد لها فلوس هواية، والمقاولين يطالبون!

وقف الباشا، وهذا يعني أنّه لم يعد يحتمل، فوقف عزرا. قال له الباشا بطريقة أبوية مازجها الغيظ:

- يا عزرا أفندي يسرها ولا تعسرها، ومثل ما قالوا: اصرف ما فِي الجيب يأتيك ما فِي الغيب! فأريد منك تسمعني زين: إذا وصلتك مني الأوامر بالصرف تصرف وما عليك مِنْ غير شي...

اقترب الباشا مِنْ عزرا وقال له، وهو ينظر إلى عينيه:

ـ ما نريد الفلوس اليوم أو عقبه، يجوز يحتاج الأمر شهور، لأنَا قررنا إيفاد عارف زنجاري إلى أماكن عديدة ليسأل ويتقصى، وبعدها نشوف! ذكر الباشا اسم عارف زنجاري بطريقة توحي بالإغراء والتهديد معاً، ولم يُطل وقوفه فِي هذه المحطة، إذ أضاف وهو يودع عزرا، وقد تعمد أن يشد على يده أكثر مِنْ مرات سابقة:

ـ طولة البال زينة يا عزرا أفندي، أمامنا بعد وقت طويل، ومن اليوم لذاك اليوم ألف باب ينفتح، وألف مشكلة تنحل، فشد حيلك، وقول الله!

حاول عزرا أفندي أن يبتسم وهو يقول:

ـ عليه توكلنا، لأن ما لنا غيره، يا باشا!

ما أن بدأت أولى القوافل بالوصول مِنْ حلب وماردين، حاملة السكر والقهوة والشاي، حتى شعر الناس بالارتياح، نظراً لهبوط الأسعار، ولأن الكلام الذي كان يردده رجال الباشا عن قرب وصول البضائع قد صدق، خلافاً لمرات كثيرة سابقة، حين كانوا يطلقون الوعود دون أن يُسألوا، او يلوذون بالصمت إذا وجهت إليهم الأسئلة.

التجار الذين ارتدوا وجوهاً جهمة، أقرب إلى الأقنعة اضطروا إلى نزعها مع الثياب القديمة، واخذت الابتسامات تملأ ملامحهم، اضافة إلى المرح فِي الأحاديث والتصرفات، فِي محاولة للتغلب على التردد، وعلى ذلك الحذر الذي يميز تصرفات المشترين.

الأسطة عواد رفض رفع الأسعار فِي قهوة الشط، خلافاً لما فعله اصحاب المقاهي الاخرى، قال للذين حوله فِي احدى الامسيات:

ـ لا بد انكم لاحظتم يا جماعة الخير: القهوة كانت تنترس مِنْ غبشة الصبح حتى آخر الليل، ومطشر وعبد الله وحمودي يركضون وما يلحقون، واللي تعود يشرب استكان شاي صار يشرب اثنين!

ابتسم إبتسامة صغيرة ثم أضاف:

- ويجوز بعضكم شاف بعيونه شلون جا عليَ أصحاب القهاوي وقالوا: «يا معود راح تخرب بيوتنا، الأسعار اشتعلت، صارت نار جهنم، وانت بعدك تبيع بالسعر القديم، ولا كأنك حاس شنو صاير بالدنيا، وهذا مو زين لا عليك ولا علينا» واسألهم: شنو اللي رايدين مني؟ فيقولون:

ترفع الأسعار، وأقول لهم: أعزل، أسد القهوة ولا آخذ فلس زايد، لأن اكثر اللي يجون للقهوة فقرا، على باب الله، وبعدين اولاد محلة، ومثل ما وقفوا ويانا أيام الشدة، وتحملوا، يلزم الواحد يقدر ويعترف، ويقدم القهوة بنفس هنية، ويقول عوافي..

ويهز رأسه بمرح، كأنه يعلن رضاه عن كُلّ ما فعله:

- واذا زاد البيع، يا جماعة الخير، يوفي، يجمع، واذا الواحد ما ربح ما يطلع خسران، وهذا اللي صار، فالحمد لله والشكر.

علَق الاسطة اسماعيل بمرح:

- اللهم لا شماتة، لكن ما أريد اقول لكم شقد فرحت لما مراد سد قهوته، لأنه ابن الحرام جان موكر بصف السراي، وكُلّ واحد له شغلة هناك، عنده

قضية، لازم ينتظر بقهوته، وهو يقص فلوس. رفع السعر اول نوبة، قال الناس: ما يخالف. رفع السعر نوبة ثانية قال الناس: أنا لله وانا اليه راجعون، أما النوبة الثالثة فقال الناس: هذا كفر وقلة دين. وقالوا:

حتى الشاي ينزل لبطونَا مثل الزقنبوت، فلا نريده ولا نريد الشاي ماله. ويا سبحان الله، كُلّ هذا الشي صار بدون اتفاق، بدون ما واحد يقول للثاني.

ويوم بعد يوم وماكو أحد يطب قهوته... وعزل.

قال سيفو بغيظ:

- حيل، لأن ابن الحرام، مراد، يستاهل أكثر، وكلكم تتذكرون شلون شاف روحه، وصار خشمه بالسما لما طب القنصل الانكليزي قهوته...

والتفت إلى الاسطة عواد، وسأله بمرارة:

- تتذكر يا ابو نجم شقال بعد زيارة القنصل؟

- شلون ما اتذكر يا ابو فلاح؟ ويجوز ينقضي العمر وما أنسى. قال النغل: «قهوة مراد للاكبارية، للناس اللي على وجوههم نور، اما قهوة الشط فلكل مفلس طايح حظه، والواحد إذا قعد بيها يدوخ راسه مِنْ اللغوة ومن الريحة!

قال سيفو وهو يمد يده بحركة بذيئة:

- أبو هالدنيا الخايسة اللي صار بيها مراد يفتي ويقول، وكأنه نسي الخاتون، أمه!

قال الاسطة اسماعيل لينهي هذا النقاش:

- خلونا مِنْ هذي السوالف، يا جماعة، لأنا ولد اليوم.

وتزايد الصخب فِي القهاوي والأسواق، وأخذ يتفاوت مِنْ يوم لثان، مِنْ مكان لآخر، ما عدا السراي، فقد خيم عليها صمت ثقيل، وكأن لا شيء يستدعي تحرك رجال الباشا، أو أن يقولوا خلاف ما يدور فِي كُلّ مكان، خاصة مع تزايد وصول قوافل المؤن، والتي أخذت تصل مِنْ الشمال ومن جهة الاحساء. لكن مقابل صمت السراي انتفض الباليوز ثم هاج، انتفض مثل حيَات الشتاء مع أول نسمات الربيع الدافئة.

القنصل الذي صمت ثم غاب منذ إعدام الآغا عليوي، عاد إلى التجوال فِي الأسواق، وكان يرافق تجواله الكثير مِنْ الهرج والتوقعات. أما بحارة السفينة، فقد انشغلوا بإعادة طلاء الجوانب، ثم فِي إجراء تمرينات على ظهرها. فإذا انتهوا مِنْ ذلك اندفعوا إلى الأسواق يمرحون ويمازحون الصبية بالإشارات البذيئة وبالكلمات. ولكن أغرب شيء رأته بغداد خلال تلك الفترة

فكان سباق الكلاب الذي يجريه الباليوز صبيحة كُلّ الأيام، عدا الآحاد، فِي الساحة المقابلة للمبنى الرئيسي.

هذا النوع مِنْ السباقات جلب عدداً كبيراً مِنْ الصبية والأطفال. واذا كان الكبار قد أبدوا ترفعاً ظاهراً فِي البداية، ولم يكلفوا أنفسهم الوصول إلى الباليوز، فإن الاشاعات التي نشرها رجال القنصل عن سباقات اخرى ستجري للأسود والنمور، وقيل للفيلة أيضاً، دفعت عدداً غير قليل مِنْ الرجال للذهاب إلى هناك حباً بالاستطلاع والتفرج!

كان احد الذين تحمسوا، ومنذ البداية، لسباق الكلاب: حسون!

أصبح يعبر راكباً حصانه كُلّ يوم إلى الرصافة، بعد أن يغسل الحصان ويزيِنه، ويرابط مقابل الباليوز.

قيل إن الحب عاود حسون كما تعاود الحمَى مريض الملاريا، إذ ما كاد الربيع يعلن عن قدومه، بالدفء وبالزهرات الأولى لأشجار النارنج حتى انتفض حسون، ومعه إلى جانب الحصان كلب، لا يعرف مِنْ أين أتي به او كيف حصل عليه، وقد سماه كاسر، وقال إنّه منع الثعالب مِنْ الاقتراب مِنْ البستان، أما اصطحابه الآن فلكي يتدرب ويتهذب ليصبح مثل كلاب القنصل! وقيل إن حسون نوى سرقة إحدى كلبات السباق، لتكون انثى لكاسر، وهذا ما جعله يأتي قبل الآخرين وينصرف بعدهم، عله يستطيع الوصول إلى واحدة مِنْ كلبات القنصل!

قال الذين عرفوا بالأمر فِي قهوة الشط: «حسون مثل ذنب الكلب، لو حطيته بالقصبة أربعين يوم يطلع اعوج». وقالوا «مرض حسون لا شفاء منه، ولا بد يسوي مكسورة!» أما رجال الباشا الذين كلفوا بمراقبة سباق الكلاب، وكانوا يأتون مع حسون، أو قبله ويبقون بعد أن ينصرف الجميع، فقد أبلغوا رؤساءهم «أن حسون أبو الخيل، والملقب بحسون الإنكليزي مشبوه، إذ لا يعقل أن يأتي كُلّ يوم قبل الآخرين وينصرف بعدهم، لوجه الله!» ومع كُلّ قافلة جديدة تزداد حركة رجال الباليوز، وتزداد الإشاعات التي ينشرونها: «هذه آخر القوافل، وبعدها راح ترتفع الأسعار» «الوالي مِنْ جيبه يشتري بالغالي ويبيع بالرخيص، حتى يرضي الناس، وبين يوم والثاني راح يصير الوالي بارة سز» «بعث الباب العالي مِنْ يحقق مع الوالي، والتحقيق بداية العزل، وبغداد تنام على خبر وتقوم على خبر غيره، وربما يأتي وال جديد».

الإشاعات تنتشر كما ينتشر المرض، وبلغت الإشاعات ذروتها حين عرف أن عارف زنجاري ذهب لشراء السفن. قال رجال الباليوز: «الواحد يشتري قهوة وشعير، يشتري حنطة وكركم، وإذا راد يلهِي الناس يشتري كحل

وديرم وشكرات، أما المراكب فغالية، وما تقدر عليها حتى الدول، والدول تطلِعها بروس الناس، فشدوا روسكم يا أهل بغداد».

لا تتوقف الإشاعات عند هذا الحد، تواصل رحلتها إلى الشمال وإلى الجنوب، تقول إن القبائل ثارت أو على وشك الثورة، وان الشمال أعلن العصيان، و«الباشا بدل ما يشتري المراكب عليه أن يشتري رضي الناس».

حالة مِنْ الخوف والانتظار. السراي صامتة. الباليوز لا يترك شخصاً واحداً إلا ويقول له ما يجب أن يسمعه ليخاف أو يتحسب. ومع الخوف والتحسب تتغير الأخبار والتوقعات.

وبغداد التي أدمنت الخوف والانتظار، أخذت تتساءل أيضاً عما تخبئه لها الأيام. المقاهي التي تغلق أبوابها مع صلاة العشاء، بسبب الأمطار والبرد، أخذت لياليها تمتد وتطول مع بداية الدفء والسهر. والسهر إذا امتد وطال يفتح القلوب، وعندذاك يظهر الفرح وتبرز الجروح، وتتداعى الأشياء التي كانت متوارية. إذ تركض مع الكلمات الحلوة والابتسامات المتفائلة.

قال الاسطة اسماعيل، وقد جاء إلى قهوة الشط متأخراً بسبب كثافة العمل:

ـ الظاهر، يا جماعة الخير، أن الربيع يطول الشعر، ومثل ما الأشجار ينراد لها تزبير قبل ما يدخل القيظ، البني آدم همين ينراد له تزبير!

سيفو الذي ضحك مثل تيس، وهو يستمع إلى الاسطة اسماعيل يردد كلمات معينة، علَق بصخب:

- بمثل هذي الأيام ينراد تزبير غير شي، يا أبو حقي، لأن الشعر وحده ما يكفي.

ردَّ الاسطة اسماعيل وهو يقهقه:

ـ لو كانت يمي، لو كان بإيدي، وما يزعل الناس، كان صرت قصَاب او زعرتي، وكُلّ واحد مو خوش آدمي، ما يحفظ العهد، ينقص منه فد شي! أجابه سيفو، وهو يقف:

- الله يسترنا منك، يا أبو حقي، لأني أشوفك متوازي!

- كُلّ ما تشوف عينك، وتريدني أبقى عاقل؟ هاي وين صارت، أبو فلاح!

قال ذنون فِي محاولة لإطالة المرح:

ـ أترخص يا جماعة، لان عيون ابو حقي ما فارقتني مِنْ ساعة أطب القهوة، بس يباوع علي، وما عنده الا كلمة: الشعر مخلوف، فاذا سلَمته

راسي كُلّ هذي السنين، فهسه لعب الفار بعبي وخاف يقص أزيد مِنْ اللازم او بغير مكان!

- على بختك ابو عمر، ردَّ الاسطة اسماعيل، لانك أخذت نص كلامي، آني قلت المو خوش آدمي، أما أنت فماكو احد يعلى عليك، مولانا!

- الله يديمك مولانا، بس مع ذلك ما راح أسلمك راسي الا بعد الفيضان، لان إذا الله قدر، وخلصت خبزتنا مِنْ الدنيا، فأريد إذا قابلت ملائكة جهنم يخترعون مني وينهزمون، لعل وعسى نلقى لنا مكان بالمجاز، إذا عجزنا عن الوصول إلى الجنة!

وفجأة تبدي الفيضان بجبروته، وطغيانه، وقد كان غائباً عن الأذهان حتى تلك اللحظة، إذ ارتسمت فِي مخيلة الجميع صورة جنون النهر السنة الفائتة، وما خلفه مِنْ آثار وخوف، قال سيفو بنزق:

- الله يمتحن عباده، لكن ما أدري ليش شاد ويا أهل العراق، وكأنهم اولاد الضرة، فشنو القصة، ما تفهموني؟

قال ذنون، كأن يكلم نفسه:

- هذا مو مِنْ البارحة واليوم، هذا مِنْ أيام نوح وطوفانه الأول، وسبحانه واقع بينا دق، ولا بد تكون له معنا سالفة!

- على كيفك ابو عمر، ردَّ الاسطة عواد، لأنه سبحانه ما يسوي فد شي إلا بيه حكمة وله غاية، ومثل ما قالوا مِنْ قبل: المصيبة اللي ما تكسر تقوي، فيجوز سبحانه وتعالى يريد يمتحن أهل العراق، يختبرهم شقد يتحملون، وبعد ما يتأكد يجازيهم.

قال سيفو بحدة:

- يا ابو نجم: كثر الدق يفك اللحيم، وخاف سبحانه وتعالى راح زايد، والناس ما عاد بيها حيل.

- استغفر ربك يا ابو فلاح، لان ما باقي بينا وبين الفيضان إلا أيام، وخاف كفرياتك هذي تنقلب علينا!

ـ استغفر الله واليه أنيب!

ولم يتأخر الفيضان هذه السنة، جاء فِي أواخر آذار. ومع أن الناس، استعدوا له اكثر مِنْ سنوات سابقة، واصبحت لديهم خبرة أوسع فِي مواجهته ومقاومته، فان يحيى بك، بدءاً مِنْ أول آذار تواردت الأخبار عن مرضه، وأشيع أنّه اصبح عاجزاً عن المشي، إذ انقطع عن عمله فِي السراي، وأخذ عدد مِنْ الأطباء يعودونه، ويحارون فِي تفسير مرضه، وبالتالي كيفية علاجه. فالشحوب يغطي جسده، ويداه ترتجفان، أما الصفرة

التي تتبدى فِي عينيه، فقد جعلت الطبيب الهندي يؤكد انه اليرقان، الأمر الذي اضطر الباشا إلى عدم إسناد أية مهمة له، خاصة فِي مواجهة الفيضان.

لكن الفيضان جاء هذه السنة رحيماً، إذ بعد أن ارتفعت المياه مقداراً معيناً، عادت إلى الهبوط. ومع أن التحسب استمر، خوفاً مِنْ «غدرة النهر»، الا أن الارتفاعات اللاحقة لم تبلغ ما وصلته أول مرة، وبدا أن الفيضان سينقضي هذه السنة على خير.

ما كادت أسابيع قليلة تمضي على الفيضان، ومع تزايد الدفء والخضرة، أخذ يحيى بك يتعافى، وشوهد يتمشى فِي الحديقة الشرقية للسراي، وقيل إن ما عجَل فِي شفائه ليس الدواء، الذي وصفه الطبيب الهندي، وانما دواء الأرمن. حتى شمسي أميني الذي سأله خلف ما إذا كان الدين يبيح، فِي حالات المرض والضرورة، أن ينقطع الانسان عن الصيام والصلاة، ردَّ على السؤال، وكانت نظرته مرتابة:

ـ الضرورات تبيح المحظورات...

واهتز رأسه بانفعال، مسح البياض حول شفتيه وتابع:

ـ الدين ييسر ولا يعسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها...

وتغير صوته:

- وإذا كان الدين قد جوز القصر والجمع فِي الصلوات، ما دام الانسان قادراً، فان حكم الصيام فِي المرض الكفَارة بإطعام المساكين، او بصوم المؤمن أياماً بديلة بعدد الأيام التي أفطر...

وكاد شمسي أميني يستمر، إلا أن ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتي خلف جعلته يرتاب اكثر، زم وجهه، فأصبح أشد صرامة مما بدا، وسأل:

- هذه الأسئلة، يا خلف افندي، لزيادة التفقه بالدين، ام لمعرفة الحكم الشرعي بالنسبة لأشخاص أو حالات محددة؟

- عمي الوجعان خابصني بهذي القضايا يا شيخنا، لأن كُلّ الفتاوي اللي قلناها حتى يفطر ويؤجل الصوم ما فادت، فقلت له: ماكو إلا شيخنا بالسراي، الحاج شمسي، فعنده الخبر اليقين وحكم الشرع، وراح أسأله.

ارتاح الشيخ شمسي، فقد بدا له خلف جاداً، ويسأل عن أمور محددة فقال كأنه يخاطب نفسه:

- كبار السن، والذين تمتلىء أفئدتهم بالايمان والخشية، لا يصدقون إلا إذا صدرت الفتوى عن مرجع ديني، كي تطمئن قلوبهم، وانا أفهم الوساوس التي يبديها عمك ولا شك يريد أن يتأكد!

استغل خلف حالة الثقة والارتياح التي برزت مِنْ شمسي أميني، وترك فترة مِنْ الصمت تمر، ثم سأل:

- قلت يا شيخنا: أن الضرورات تبيح المحظورات، وعندي سؤال متردد أن أسأله!

ـ قل يا ابني، يا خلف، ولا حياء فِي الدين.

- اكو عندي فد صديق ياخذ بين فترة والثانية قمع عرق، ولما اسأله يقول: دوا، الحكيم وصاني. فما ادري هذا الشي اللي يسويه، جائز لو لا؟

بدا الاحراج على شمسي أميني. تلفت إلى أكثر مِنْ جهة، تطلع بحقد إلى خلف، ظهر ذلك مِنْ زمة العينين، ومن انطباق الشفتين بطريقة حازمة.

مرت فترة صمت، جاءت بعدها كلمات مرتجفة:

- هذا صديقك، والحكيم اللي يداويه، ذمتهم واسعة، بفتهمون الدين ويفسرونه بكيفهم، حتى صار بالنسبة لهم مثل جراب المكادي، كُلّ شي جائز وتلاقيه!

وبعد قليل وبلهجة حازمة:

- الله يهديهم، ورحمة ربنا واسعة.

كان ذلك بمثابة قطع أية امكانية للاستمرار فِي الحوار، إذ تحرك الشيخ شمسي أميني، وهو يقول:

- لازم امشي حتى ما تفوتني الصلاة!

هذا الحوار ما كان ليأخذ هذا الشكل لولا الأخبار التي تسربت مِنْ الجناح الشرقي فِي السراي، ان الكيخيا يحيى بك، بعد أن وقع مريضاً، وعاده عدد مِنْ الأطباء، دون أن يشخِصوا مرضه، رفض أن يتناول الأدوية التي وصفوها له، ولانه استعان بخبرة شمسي أميني، الذي كتب له الأحجبة، وراجع الكتب القديمة لمداواته، وحاجج الطبيب الهندي فِي أعراض بعض الأمراض، وقال إنها فِي العراق تختلف عن أمكنة أخرى، خاصة الهند، وحين تأكد أن «دواء الأرمن» إذا تناوله الكيخيا، يهدأ وتتحسن احواله، ثم يخلد إلى النوم، فقد أفتى «أن دواء الأرمن، فِي حالات وبمقادير معقولة، إذا طلبته نفس المريض فلا يعتبر حراماً او معصية» وهكذا، بمرور الأيام، وزيادة الدفء تحسن الكيخيا! قال له الباشا بعد أن رآه إثر إبلاله مِنْ المرض:

- بالنا يمك يا بك، وهواية تأثرت لما سمعت بمرضك، لكن هسه أشوفك، استعدت صحتك وقوتك، ونحن نحتاجك ونحتاج عونك.

- الله يلعن المرض، يا باشا، لكن أكثر ما حز بنفسي يا أفندينا أني كنت بعيداً، خاصة أيام الفيضان.

- سبحانه رأف بنا هذه السنة، ومر الفيضان على خير وبالسلامة، ويجوز رب العالمين على قصتك وبفضل دعائك نجانا ورحمنا! مع انحسار مياه الفيضان وصل مركب مِنْ البصرة، وكان على ظهره عدد مِنْ جنود الامبراطورية، انكليز وهنود، إضافة إلى بضعة مسافرين آخرين، ولم يكن على ظهره مِنْ المؤونة إلا ما يكفي أيام السفر!

حتى الموظف الكبير الذي كان يتوقع وصوله، كما أبلغ القنصل، لم يصل.

لما استفسر رجال الباشا المسافرين عن الجنود الذين رافقوهم، لماذا جاؤوا، وإلى متى سيبقون لم يكن المسافرون يملكون أية اجابة، بل ذكروا أن الجنود كانوا مِنْ البذاءة وسوء التصرف إلى درجة لم يمكنوا المصلِين مِنْ أداء صلواتهم، وأنهم كانوا يشربون ويعربدون، وبلغ ببعضهم الحد انهم إذا رأوا صبية او نساء على ضفاف النهر أخذوا يلوحون بإشارات بذيئة لا تخفى دلالاتها، وقد نبَه عليهم القبطان أكثر مِنْ مرة لكن قابلوا تنبيهاته بالاستهزاء!

ساسون الذي تبرع لسؤال ميناس عن هؤلاء الجنود، وقال مازحاً إنّه كان يتوقع وصول بضائع على المركب إلى بغداد بدل إرسال أفواه جديدة تأكل ما هو موجود، ردَّ عليه ميناس بصوت بطيء وواثق:

- طمن روحك ابو نسيم، لأن الجنود الجدد راح يحلون مكان الموجودين!

ولما بدا الارتياب على وجه ساسون، تابع ميناس بلهجة جادة:

ـ البصرة أرحم لهذول المساكين، لان صار لهم سنين ما شافوا مرية، خاصة بعد ما عزلت روجينا، وانهجم بيتها!

- يعني أيام ويتغير حرس الباليوز!

- برجعة المركب، يا ابو نسيم، راح يرجع القدامى ويبقى الجدد.

وحين سافر المركب لم يحمل معه إلا ثلاثة مِنْ العاملين القدامى فِي الباليوز، أحدهم التهم الكوسج ساقه، وأصبح عاجزاً. أما الاثنان الآخران فقد أصيبا بأمراض عصبية عجز طبيب الباليوز عن معالجتها، الأمر الذي اضطر ريتش للاستغناء عن خدماتهما منذ بعض الوقت، وكتب إلى نائبه فِي البصرة ان يرسل صاحب الساق المقطوعة إلى أهله فِي زنجبار، وان يرسل الآخرين إلى الهند للمعالجة.

ومع أن ساسون نقل إلى السراي ما سمعه مِنْ ميناس، إلا أن الباشا تحسب وداخله الشك لمجيء الوجبة الكبيرة مِنْ العسكريين وكان اغلبهم مِنْ الانكليز، ثم لبقائهم مع الذين كانوا مِنْ قبل، بعد أن غادرت السفينة

عائدة إلى البصرة. وأخيراَ أصبح تحسُب الباشا حذراَ أقرب إلى الخوف، حين أخذ يشيع رجال الباليوز أن القنصل تعبيراً عن تقديره ومحبته لأهل بغداد، ينوي إقامة عدد مِنْ الاستعراضات للحيوانات، كما فعل خلال الشهور الأولى بعد أن استلم داود باشا السلطة، وقد يعقبها، استعراض لحامية الباليوز وبحَارة السفينة، بملابسهم الجديدة وأسلحتهم الكاملة «وسوف يعيش أهل بغداد ثلاثة أيام وثلاث ليال فِي جو مِنْ الاحتفالات والفرح لم يعيشوا مثلها طوال حياتهم، وسوف ينقل الذين شهدوا الاحتفالات للغائبين، ثم لأولادهم مِنْ بعد!».

بعث الباشا وراء محب الدين مرادي، يوم الثلاثاء، ليقرأ له طالعه مِنْ جديد، مع أنّه استقبله فِي اليوم السابق. أثناء انتظاره قال الباشا لنفسه:

«هذا الزعطوط ناوي الشر، ما نخلص مِنْ مكيدة إلا ويدبِر الثانية، وما نفلت مِنْ فخ الا وينصب الثاني، ولا بد أن نتغدى به قبل أن يتعشى بنا.

وإذا الله سلمنا حتى اليوم ما يندرى أيّ شيء يحصل غداً أو بعد غد!» ومحب الدين الذي استغرب دعوة الباشا، قدر أن أمراً جللاً ينتظره فِي هذا اللقاء. قال للباشا، وهو يتعثر بخطواته:

ـ خير... خير يا أفندينا؟

- الله يجعلك بخير...

وترك لفترة مِنْ الصمت تمر، كي تمهد لما سيقوله:

- جاءني طيف فِي المنام يا شيخنا، وكان يلبس طربوشاً أسود، ويعلِق فِي رقبته حية رقطاء، وقد اقترب مني بحذر، ظاناً أني نائم، لكني كنت واعياً أراقبه، وما أن أصبح على مسافة ذراع حتى أمسك الحية مِنْ رقبتها ودفع رأسها نحوي، لكن صرختي المهددة المتوعدة أفزعته، فترك الحية تسعى هاربة، وسقط هو، ولما دخل حرسي على سماع الصرخة، ورأوا الرجل، وجدوه ميتاً...

استراح الباشا قليلاً، أخذ نفساً عميقاً وسأل:

ـ ما تفسير هذه الرؤية يا شيخنا؟

ـ الحية حياة يا أفندينا، خاصة وهي لا تستجيب لما يطلب منها الرجل، وهو عدو. إما أن يموت الرجل دون ضربة سيف، دون أن يُمس، فهذا يؤكد أن أعداءك، يا باشا، سيحاولون لكنهم سيفشلون.

بدا الباشا مسروراً، لأن التفسير الذي قدَمه محب الدين مرادي للرؤية يتطابق مع رغباته، ولما انتوى أن يفعله.

قال الباشا، وخرج صوته مرحاً:

ـ إذا الله كتب لنا الحياة، والتقينا يوم الخميس، أريد منك، يا شيخنا، أن تقرأ الطوالع، وأن تتأكد مما تقوله النجوم...

وابتسم ابتسامة واسعة قبل أن يُضيف:

ـ ومن الكتب الزينة، المضمومة، ومن أهل المعرفة والكشف تسأل لتتأكد، لاني انتويت أمراً، وأريد أن يوافقني الطالع وأن تكون النجوم معي، فابذل أقصى ما تستطيع، يا شيخنا، وعسى أن تكون النتائج حسنة والريح مواتية!

الشيخ محب الدين، حين لاحظ سرور الباشا، مِنْ الكلمات التي قالها، ومن الملامح وطريقة التصرف، كان متأكداً أن الأمر متعلق بامرأة جديدة يريد الباشا أن يتزوجها، ومع ذلك، ولكي يكون أكثر اطمئناناً، سأل، وقد خفض صوته، فصار أقرب إلى الهمس:

- كتبنا كثيرة يا أفندينا، وأنت تعرفها، وأهل الكشف لهم اختصاصات، فهل تريدنا أن نبحث فِي الخاص أم بالعموم، فِي ما يتعلق بالقلب أم بالرعية؟

ردَّ الباشا بفخامة:

- بعد هذا العمر صرنا، يا شيخنا، نعرف كيف نداري شؤون القلب، لكن الباقي علينا: الكفار، خاصة أبو عيون الرزق، وهذا، وأنت تعرف، ناوي الشر، ولا بد كتبك تحكي وتقول، فاعتمادنا، كُلّ الاعتماد، عليك!

وظهر الخميس، بعد أن أكد له محب الدين مرادي حسن الطالع، أوفد الباشا ناطق أفندي إلى الباليوز، مع رسالة خطية، يبلغ القنصل، أنّه ابتداء مِنْ مطلع مايس، سيعامل التجار المشمولين بحماية دار المقيمية كباقي تجار الولاية، مِنْ حيث رسوم الجمارك، وأن المزايا التي كانوا يتمتعون بها، مِنْ حيث الأفضلية بالنقل والاستيراد ستنتهي. وطلب الباشا مِنْ ناطق أفندي أن لا يدخل مع القنصل، أو أياً مِنْ معاونيه، فِي حديث أو تفسير عما تتضمَنه الرسالة، وأن مهمته تنتهي بتسليمها.

كما أوفد الباشا إلى ناظم أفندي، حاكم البصرة، كتاباً يكلِفه فيه بتقاضي الرسوم مِنْ التجار المشمولين بالرعاية البريطانية مثل باقي التجار، وأن يبلغه على جناح السرعة، بالنتائج وردود الأفعال التي قد تبدر مِنْ نائب القنصل أو التجار.

ريتش الذي لم يكن ميالاً لاستقبال ناطق أفندي، ومن باب الحيطة، طلب مِنْ ميناس أن يستبقي موفد الباشا بعض الوقت، ليطلِع على مضمون الرسالة التي يحملها. وناطق افندي الذي كان حريصاً أشد الحرص على الصمت، ولم يكن لديه ما يقوله فِي أيّ شأن مِنْ الشؤون، أتعب ميناس بصمتِه، وحين لم يجد ميناس ما يضيفه، ولو على شكل سؤال، دخل ريتش

هائجاً مشعث الرأس والملامح، وكان يحمل بيده رسالة الباشا، وهو يهزها فِي الهواء، وتدفقت كلماته:

ـ أيعرف الوالي معنى هذه الرسالة؟

-...

ـ ويعرف إلى أين يمكن أن تؤدي؟

-...

ـ إذا لم يكن لديك ما تجيب، فأبلغ الوالي، أن ممثل ملك بريطانيا يرفض هذه الرسالة التي تخالف الاتفاقات الموقعة مع اسطنبول ومع ولاة بغداد منذ سنوات طويلة، أتفهم ما أقول؟

-...

ـ إنها الحرب، وسوف يندم الوالي كثيراً.

وعاد ريتش مِنْ حيث أتى، دون أن يكلف نفسه تحية ناطق أفندي، لا فِي الدخول ولا أثناء المغادرة!

نقل ناطق أفندي، بالحرف، ما قاله ريتش، وأشار إشارات سريعة إلى الهيئة وطريقة التصرف، وأكد للباشا أنّه على أتم استعداد لتقديم كتاب تفصيلي يتضمن كُلّ ما وقع منذ لحظة مغادرة السراي، فرد الباشا قائلاً، وكان يهز رأسه:

- اكتب كُلّ شيء يا ناطق أفندي، وما ستكتبه، وبعد أن اقرأه بعناية، سوف أبعث به إلى اسطنبول، لأقول لمولانا السلطان، وللباب العالي، كيف يتصرف قنصل بريطانيا، وكيف يقعد بحضننا وينتف لحيتنا! وخرج ناطق أفندي مِنْ ديوان الباشا، وقد أحس أن ثقل الدنيا كلها يربض على كتفيه، لأن المهمة المكلف بها لا يعرف كيف يواجهها، خاصة وأن عيني السلطان بالذات ستقع على كُلّ كلمة، ولا بد أن يتساءل ثم يسأل رجاله عمن كتب الرسالة، وقد تكون لها نتائج لا يمكن أن يقدرها كلها، ومنذ الآن!

ونام الكثيرون فِي السراي تلك الليلة، عدا الحرس وناطق أفندي، الذي ارتأى أن مِنْ جملة ما قد يساعده فِي إنجاز المهمة، أن يبقى فِي البذلة الرسمية التي قابل بها الباشا ثم القنصل، ثم الباشا مرة أخرى، وجمح به الخيال عدة مرات وهو يتصور أن اسطنبول قد تستدعيه ليشرح ظروف اللقاء، وما قاله القنصل، وتبرير ذلك، وتأكيده أيضاً. وظل يردد الكلمة التي قالها القنصل: إنها الحرب، نعم إنها الحرب، وهو المسؤول!

لم تتأخر الحرب لكي تُعلن، والقنصل هو الذي أعلنها.

إذ بعد وصول الرسالة اندفع رجال الباليوز لشراء كميات كبيرة مِنْ المؤن للبشر والحيوانات والطيور. اشتروا أعداداً مِنْ البقر وقطيعاً مِنْ الخراف، اشتروا الشعير والسمسم، وأكياساً مِنْ الرز والسكر والشاي، كما أوصوا على كميات مِنْ التمر والدبس والطحين. أما الفواكه والخضار التي نُقلت إلى الباليوز فكانت العربات لا تتعب ولا تتوقف خلال يومين وليلة وهي تنقلها.

قيل إن الباليوز، بعد أن عجز عن وقف قوافل المؤن مِنْ الوصول إلى بغداد، أراد أن يشتري المواد مِنْ السوق ليرفع الأسعار مِنْ جديد. وقيل إن الباليوز ينوي دعوة أهل بغداد جميعهم خلال أيام الاستعراض، وهو يتهيأ لذلك منذ الآن! وقيل إن شراء هذه الكميات بهدف توزيعها على الفقراء، لكي يثبت القنصل أنّه أكرم مِنْ الباشا!

وإذا كان المتبطلون هم الذين انشغلوا بالتفسير والتأويل، فإن أغلب الناس أصابهم الذعر. حتى التجار، وهم يبيعون، بأرباح أكبر، كانوا خائفين، إذ قد ترتفع الأسعار مِنْ جديد أكثر مما يقدِرون، وقد تنقطع القوافل مرة أخرى.

رجال الباشا راقبوا كُلّ حركة، وأحصوا كُلّ شيء دخل إلى الباليوز.

سجلوا المقادير والمواعيد، وعرفوا مِنْ الذي اشترى ومن الذي باع، ورفعوا المعلومات بسرعة إلى الديوان.

الباشا الذي وصلته المعلومات تباعاً قدَر أن القنصل ورجاله، بشرائهم هذه الكميات مِنْ المواد، يريدون إفراغ الأسواق ليثيروا الناس على السراي، لأن الأسعار سترتفع بكل تأكيد، وقد تُفقد بعض المواد، ومن شان ذلك خلق البلبلة ثم الخوف. لكن حين بلغ الباشا أن كثيرين فِي صوب الكرخ شاهدوا جنود الباليوز منهمكين فِي حفر الخنادق وبناء الاستحكامات، فقد داخلته الظنون، فأرسل على جناح السرعة خلف إلى صوب الكرخ، وطلب منه أن يصعد إلى أعلى مكان لمراقبة ما يجري فِي الباليوز، وقد أعطاه منظاره المقرب كي يتأكد مِنْ كُلّ حركة.

بعد أن استطلع خلف عدة أماكن، وجد أن منارة جامع الشراكة أكثرها ملاءمة، لأنها تقابل الباليوز، ولارتفاعها. ومن هناك، وخلال بضع ساعات، تأكد مِنْ التغيرات، فنقل للباشا، وبالتفصيل، كُلّ ما رآه: عدد الجنود الذين

يعملون فِي الحفر والبناء؛ انهماك بحَارة السفينة بتدريبات مستمرة؛ الخدم وهم يملؤون أكياس التراب، وزوجة القنصل تشرف على عمل هؤلاء، وكانت ترتدي قبعة كبيرة مِنْ القش. وأكد خلف أيضاً أن القنصل ظل ينتقل بين هذه المجموعات، وكان يشير ويعطي الأوامر والتعليمات. وختم خلف كلامه بنوع مِنْ الأسف، إذ قال للباشا لو أن هناك جهازاً مثل المنظار المقرب يمكن مِنْ سماع ما يقال فِي الباليوز لنقل إليه كُلّ شيء، بعد أن استمع الباشا إلى جميع التفاصيل، ووجَه بعض الأسئلة، ظل متسائلاً مستغرباً عما يدور فِي عقل هذا القنصل المغرور، وما يمكن أن يقدم عليه. صحيح أنّه قنصل دولة عظمى، وربما يفكر بطريقة مختلفة عن الآخرين اعتماداً على قوة دولته، ولكن ماذا يمكنه أن يفعل هنا؟

استعاد الباشا صورة القنصل وطريقته فِي التفكير والتصرف. قد يكون جريئاً، وتوحي عيناه بالذكاء الممزوج بالمكر، وقد يساعده شبابه على العمل وسرعة الحركة. لكن هل يكفي كُلّ هذا لأن يفكر بالحرب؟ ماذا يظن قوته وعدد رجاله مقارنة بما لدى الباشا؟ والمؤن التي كدسها هل تكفي لأكثر مِنْ فترة قصيرة يضطر بعدها إلى الاستسلام؟ ألا يتوقع أن يحاصره الباشا ويقضي عليه دون طلقة واحدة؟

مرت هذه الأسئلة فِي ذهن الباشا، وقدر أن الرجال فِي مثل هذا العمر قد تغريهم قوتهم، فيتصورون أنهم قادرون على الكثير، لكن حين يواجهون المصاعب والتحديات يكون تراجعهم سريعاً، أما إذا أصروا على أن يركبوا رؤوسهم، فِي محاولة لتبرير حماقاتهم، فسوف يدفعون ثمناً غالياً.

لكن هل يعقل أن يقدم ريتش على مثل هذه الحماقة منفرداً؟ وإذا لم يكن وحيداً فمن يحتمل أن يعاونه فِي هذه المعركة؟

وتتالت الاحتمالات فِي ذهن الباشا: البدو؟ ولكنهم الآن يلعقون جراحهم، ولا يقوون على تقديم أية مساعدة. كرمنشاه؟ حتى لو أراد الشاهزاده أن يتدخل، فإن إرسال القوات يتطلب وقتاً وجهداً يكون القنصل خلال ذلك قد انتهى؟ وماذا عن البحرية البريطانية؟ هكذا سأل الباشا نفسه، لكن المعلومات التي وردته مِنْ البصرة لا تشير إلى هذا الاحتمال. وحتى لو أرادت البحرية أن تتدخل فإن البصرة وما حولها ستكون الهدف، وقد يطالها الأذى، أما إذا حاولت هذه البحرية أن تصعد فِي دجلة إلى بغداد، أو أن تأخذ طريق الفرات إلى مكان قريب مِنْ بغداد، فإن المقاومة التي ستواجهها مِنْ الضفاف ستكون قاسية. يكفي قنص الليل لإلحاق خسائر كبيرة بها وإعاقتها، ثم هناك الجسور وإمكانية إغراق عدد مِنْ المراكب فِي النهر لتأخيرها وإشغالها. أما إذا وصلت إلى بغداد فسوف تتكبد خسائر لا تطيقها، وسيكون ريتش أول الضحايا.. وقبل أن تصل السفن.

ومع أن الأسطول ظل أقوى الاحتمالات، إلا أنّه غير قادر على الوصول بهذه السرعة. وفجأة لمعت فِي ذهن الباشا صور رجاله. هل يحتمل أن يكون قد تم الاتفاق مع واحد منهم، وأن ينقض فِي الوقت المناسب؟

سأل فيروز، وهما يسيران فِي الحديقة الجنوبية للسراي:

ـ ما هي أخبار البك؟

ـ البك، يا أفندينا، تخارب ويا شمسي أميني!

ـ خير؟ أنا أعرف أن الواحد تك للثاني، فعلى أيّ شيء، اختلفوا؟

ـ البك دز الشيخ شمسي حتى يخطب له بنت محب الدين، ومثل عادته الشيخ، قبل ما يطلب البنية سأل عنها، فقالوا له ماكو بحسنها وجمالها ببغداد كلها، والشيخ بدل ما يخطب البنية للبك خطبها لنفسه.. ووقعت بين الاثنين!

هز الباشا رأسه بحزن وسخرية، وقال:

ـ لا بالله حصلنا، لأن بمثل هؤلاء الرجال راح ننتصر على أبو عيون الزرق!

- باجر يتصالحون، يا أفندينا، لأن عركاتهم مثل القرباط ما يندري ليش تعاركوا وشوكت يتصالحون!

ـ الا بقضايا الحريم، يا فيروز.

ـ حتى بهذي القضايا، يا أفندينا، مثل هالشكول يلقون درب حتى يتصالحوا!

وحاول فيروز أن يبتسم، لكن بسرعة وضع يده على فمه لئلا يسيء الباشا فهم ابتسامته، وتابع:

ـ إذا كان الشيخ شمسي يلقى فتوى لكل قضية، ويعرف شلون يحلل ويحرم، وشلون يذبحها على القبلة، فلا بد يلقى فتوى لنفسه ولغيره!

- قول الله، ونحن ما علينا لأن الحجاز بمثل هذي القضايا يناله أكثر مِنْ صاحب القضية!

خيم صمت قصير، سأل الباشا مِنْ جديد:

- وشيخنا وكاتم أسرارنا، محب الدين، شقال؟

- مثل ما تعرف يا أفندينا: المال يعمي القلب والعيون، وشيخنا ما أعطى موافقته بزواج بنته إلا بعد ما حلب حتى النملة!

- شلون؟

ـ للشيخ محب الدين عيون هوايه، وقبل ما يوافق، ويقول أيّ عرف أن البك نفسه بالبنية، فوصل خبر أن اللي يدفع أكثر، البنية له! لكن غضب البك

مِنْ مكسورة الشيخ شمسي خربت الشغل، قال: البنية طلعت مِنْ نفسي، لا أريدها ولا أريد أسمع بطاريها!

قال الباشا وهو يتوجه إلى الداخل، وكان مهموماً:

- لا تنسَ، يا فيروز، تدز للبك، وللشيخ شمسي أميني قرابة عسل لكل واحد منهم، ومع القرَابة خمسين طير حمام، لأني بمثل هؤلاء الرجال أريد أن أفاخر الأعداء يوم المعركة! وبعد قليل - وتذكرني... لازم ندفي أيد شيخنا محب الدين بكم فلس، خاف الرجال يكون محتاج.. وما ندري!

ـ أمرك أفندينا.

رواد قهوة الشط الذين شهدوا خلف وبيده المنظار المقرب، لاحظوا مروره السريع على جامع سوق حماده، وتحدثه، للحظات، مع ملا حمادي، ثم عرفوا انه ذهب إلى جامع الشواكة، واعتلى المنارة، فقدروا أن شيئاً ما جعل خلف يعدل عن هذا الجامع ويذهب إلى ذاك. وجمح الخيال ببعضهم أن السبب وراء ذلك هو الملا وليس المنارة، الأمر الذي جعلهم يتندرون، مِنْ جديد، على الملا حمادي. ولو كان الوقت غير هذا الوقت لدُبرت المقالب ورويت القصص، ومع ذلك فإن رسالة وصلت بعد أيام إلى قهوة الشط باسم الملا، وقيل إنّه ورد فيها الكثير مِنْ التهديد والوعيد، كما وُصف صوت الملا إنّه يشبه ما ذُكر عن الصوت القبيح فِي القرآن! وورد فِي نهاية الرسالة «أن على الملا حمادي تحضير نفسه للعقاب، لأنه هزم أهل الكرخ مِنْ الصلاة والعبادة».

كان يمكن لمثل هذه الرسالة أن تحدث اضطراباً، قد يصل إلى حد الخصومة، كما حصل قبل سنين بالنسبة لرسالة حسون، غير أن الملا، بعد أن قرأ الرسالة، انحدرت مِنْ عينيه دمعتان، وقال للذين حوله إن مثل هذا الكلام لا يكتبه إلا عدو حاسد أو كافر فاسق. وبعد أن كفكف دموعه، وترك فترة مِنْ الصمت تمر، سأل الذين حوله:

- صحيح يا جماعة.. ما سألتكم عن أبو فلاح، شلونه وشلون أخباره؟

الذين لا يعرفون بالخصومة بينه وبين سيفو ردوا أن أبا فلاح بصحة جيدة، وأنه شديد الانشغال بالخيل، لكن سؤاله، وطريقة السؤال، أكدتا أن الملا حمادي يعتبر سيفو وحده وراء هذه الرسالة!

وحاول بعض رواد المقهى، ومن قبيل الدعابة، بعد أن رأوا المنظار المقرِب الذي يحمله خلف، وعرفوا مزايا هذا المنظار، أن يرتبوا مكيدة لحسون، خاصة بعد أن التهب قلبه مجدداً بحب زوجة القنصل، ومرابطته الطويلة أمام الباليوز علَه يراها. فقد فكر هؤلاء بإقناع أو إغراء حسون بشراء منظارِ مؤيد الصالحي المعروض للبيع، أما مسألة الثمن فيمكن رهن

الحصان مؤقتاَ، إلى حين جمع الثمن المطلوب، وكاد حسون يتورط بهذه المكيدة، لكن ما أن عرف الأسطة عواد حتى لعلع صوته، وهو يجر المنظار مِنْ يد حسون، ويقول له:

ـ لك بومة، لشوكت تخلي الناس يقشمروك؟

وحسون الذي فوجيء بغضب الأسطة عواد، ردَّ بخوف مشوب بالحزن:

- وداعتك، عمي، ما مسوي فد شيء مو زين!

وحين وضع الأسطة المنظار فِي مجر الطاولة وأقفل عليه، تابع حسون بنفس اللهجة:

ـ اللي ردته، عمي، أباوع للبعيد، لأنه بكل الداير منداري ما شايف فد شي يفرح، فحرام إذا فرحت؟ إذا شفت شنو اللي راح يصير باجر وعقبه؟

بعد أن هدأ الأسطة عواد، قال لحسون بأبوة:

- يا حسون، يا ابني، إنت بفكرك شي، وهذول الحبربش اللي يريدون بيع المنظار بفكرهم شي ثاني، فخليك عاقل ولا تدير لهم بال...

والتفت الأسطة إلى صالح الأعور، الذي كان وسيطاً لبيع المنظار:

ـ وإنت صالح، إذا ما تبطل مكسراتك أكسر راسك، سمعت لو لا؟

ـ على كيفك أبو نجم، ردَّ صالح بغضب، ولازم تعرف إن اللي يقدر يكسر راسي بعد الله ما خلقه!

وتوجه بحدة يريد الخروج، وهو يقول:

- يحرم علي أطب هالقهوة بعد اليوم! قال سيفو بمرح:

ـ تمشَ صالح، خذ لك قمع وثاني، وبعد ما تنام وتستراح نتفاهم!

طويت هذه القصة تماماً فِي اليوم التالي، لأن نقطة الحراسة التي خصصتها السراي للباليوز منذ وقت طويل، لم يُطلب رفعها بطريقة لبقة ورسمية، وإنما لجأ ريتش إلى طرد جنود الحراسة، وأبلغهم بعصبية أنّه لا يريد أن يرى وجوههم مرة أخرى، وأن بريطانيا العظمى تعرف كيف تحمي نفسها!

لم يكتف ريتش بذلك، فقد أقام نقطتي حراسة، واحدة فِي كُلّ طرف مِنْ الشارع الذي يقع فيه الباليوز، ومنع المرور فِي ذلك الشارع، حتى الذين يسكنون فيه ضيق عليهم إلى أقصى حد. كان الحرس مِنْ القسوة والفظاظة، وعدم معرفة اللغة، إلى درجة أن سكان الحي ضجوا بالشكوى بعد أن أشهر الحرس السلاح فِي وجوههم، ومنعوا بعضهم مِنْ الوصول إلى بيوتهم!

أما عندما بدأت سفينة الباليوز بتوجيه مدافعها نحو السراي، فقد أمر الباشا أن يُنقل أحد المدافع إلى جانب الكرخ، وأن يوضع بالقرب مِنْ جامع الشواكة، مقابل الباليوز تماماً.

كان انتقال المدفع مهرجاناً كبيراً، فقد رافقه أحد أبرز عسكريي قلعة الفرسان. وبعد أن عبر الميدان الكبير نُقل بالمركب الأخضر، وهو أحد أكبر المراكب التابعة للسراي. ورغم أن الكثيرين شعروا بالزهو أثناء مرافقتهم للمدفع، إلا أنهم لم يحافظوا على مسافة الأمن، كما أطلق ناطق أفندي على المسافة الواجبة بين الناس والمدفع، أو كما قال لهم: «هذا مثل البهيم: لا يفهم ولا يسمع، ويجوز يرفس. ومثل ما البني آدم يخلي بينه وبين البغل مسافة، حتى ما تلحقه اللبطة، ويجوز هذي تحصل مِنْ قرادة أو ذبانة، يمكن هذا العربيد يساوي نفس الشيء، وكان يشير إلى المدفع، ولهذا السبب، يرحم والديكم، خلوا بينكم وبينه مسافة الأمن» والناس الذين امتثلوا، وكانوا أشبه بمن يرافق عريساً، مِنْ حيث الزهو والمسافة، وبما يشبه الفخر، تم نقل المدفع إلى صوب الكرخ.

أصحاب البلام والقفف، وحتى بعض السباحين، رافقوا المدفع أثناء عبوره، أما الذين لم تتح لهم مثل هذه الفرصة، ولم يُهيئوا أنفسهم لعبور النهر سباحة، فقد ركضوا كالمجانين لعبور الجسر، ولا يُعرف كيف أبلغ الناس فِي جانب الكرخ، أو كيف أحسوا، أن حدثاً كبيراً ينتظرهم، ولذلك اندفعوا كالأمواج لملاقاة المدفع. فما إن توقف المركب الأخضر فِي شريعة السويدي، وبدأ الاستعداد لإنزاله، حتى ارتفعت أصوات التكبير والترحيب، ومعها هلاهل النسوة، وكانت بين هاته النسوة: زينب كوشان.

إنّه يوم مشهود مِنْ أيام الكرخ، ومع إنّه عرف، منذ وقت مبكر، أن بستان زيدان الملاصق لجامع الشواكة هو المكان الذي يقابل الباليوز على الضفة الأخرى مِنْ دجلة، وشوهد بعض العمال فِي اليوم السابق يهدمون السور الطيني القريب مِنْ البوابة الضيقة للبستان، ويمهدون الأرض إلى جانب النهر، وبالتالي سيكون المدفع فِي ذاك المكان، ومعه مجموعة مِنْ الجنود لمراقبة الباليوز، فإن الكثيرين حاولوا أن يكون المدفع قريباً منهم، قالوا ذلك بصوت عالٍ وهم يرافقون الموكب وكانوا يهزجون ويغنُون.

قال سيفو، وكان على رأس المستقبلين فِي شريعة السويدي:

- هذا الطوب طوبنا، علمونا عليه وبعدها ما عليكم. ما راح نخلي مِنْ هناك يطلع مخبر!

والذين رافقوا المدفع مِنْ المسؤولين لم يسمعوا كلام سيفو، ولم يكونوا ليهتموا حتى لو سمعوه، إذ واصلوا طريقهم نحو بستان زيدان. قال صالح الأعور الذي كان بين المستقبلين، وكأنه يرد على الأسطة عواد:

ـ لا تروح زايد أبو فلاح، هذا طوب مو استكان شاي!

ـ الطوب بإيدين أمينة وعند اللي يحبونه، يا صالح. وراح تشوف شلون يصيح وشلون يجاوب، لأن مثل أهل الكرخ ما يلقى. نحرسه بعيونا، ونسهر عليه الليل كله، وإذا برد نغطيه، وإذا ضاج نعرف شلون نونسه، مو مثل غير ناس: يبيعون ويمشون!

- لا تصجم أبو فلاح، والدلالة مو عيب!

- حاشاك، صالح، وسالفتنا هسة غير سالفة!

واستمر المدفع فِي طريقه إلى بستان زيدان. ما أن دخل عبر السور المهدوم، واستقر فِي مكانه، مقابل الباليوز، حتى سمع الكثيرون زينب تقول، فِي لحظة صمت:

- صار لي سنين ألوب على مِنْ يحصل لي حقي، ولا مِنْ يسمع ولا مِنْ يقول. ومن هذي الساعة، وبعد ما جانا واحد مِنْ نسل حيدر، بعد ما صار الطوب بصوبنا، ارتفع بيرقنا، وهسه بحيل صدر نقدر نحجي ونقدر نقول!

ولم تنتظر، طشت مقداراً مِنْ الملح على المدفع، وهي تهلهل، ثم تقول:

- ملح العباس يشفي ويعمي. كُلّ مِنْ يحب الفقرا، ويحمي الضعفا ويقول لا إله إلا الله، يشفيه ملح العباس. ويعمي كُلّ ظالم وابن حرام، وكُلّ واحد يأكل حقوق الناس...

الذين فوجئوا بكلام زينب كوشان، استمعوا بصمت لما تقول، فشجعها صمتهم فتابعت:

- بصاية أبو الخيمة الزرقا، وبصاية هذا الهداد الرداد، وكُلّ واحد عنده مروة، راح محلة الشيخ بشار ترجع لأصحابها، وإلكم علي سبعة أيام بلياليها، دق وغنا للفجر، فأريد مروتكم يا نشامى!

وألقى عدد مِنْ الشعراء قصائد تحية للمدفع، والملا شعبان باركه وقرأ عليه بعض الأدعية، أما أكثر مشهد مؤثر ومعبر فكان مشهد غالب، حفيد الحاج صالح العلو، وهو يحمل باقة مِنْ الزهور ويضعها على المدفع، ثم يقول بصوت صغير مرتجف:

- هذي مِنْ جدي وبيبتي.

كان فرح الناس، فِي تلك اللحظات، لا يوصف، وقد التفت أكثرهم بحثاً عن الحاج صالح العلو.

كان الحاج، فِي نهاية البستان، جالساً على حافة السور الواطىء وهو يتوكأ على عصاه. كان وجهه يضيء، خلافاً للفترة السابقة كلها، وإلى جانبه

الأسطة إسماعيل وسيفو.

قال الأسطة إسماعيل للذين حوله:

ـ مِنْ زمان ونحن ننتظر مثل هذا اليوم!

- والحمد لله صارت بغداد صوب واحد مو صوبين، قال الحاج صالح.

سيفو الذي كان فرحاً معتزاً كاد يقول: «هذا اليوم يومك يا بدري»، لكنه ابتلع كلماته فِي اللحظة الأخيرة حين التقت عيناه بعيني الحاج صالح الحانيتين، إذ هتف بنشوة:

- وين تروح مِنْ أهل بغداد يا أبو الدقايق، يا أبو عيون الزرق؟

قال ضابط القلعة المسؤول عن المدفع، وبدا فخوراً:

- بليا مطرود يا جماعة الخير، ومثل ما تعرفون: الطوب لازم يستراح ولازم يتحضر، حتى إذا جَت الساعة يعرف شلون يحجي!

ولما بدأت كتلة البشر تتفكك وتتحرك، امتثالاً لطلب ضابط القلعة، قال بمرح:

ـ وخلوا قلوبكم صخر جلمود إذا سمعتم صوت الطوب.

كانت مشاعر الناس، وهم يأوون إلى فراشهم تلك الليلة، مزيجاً مِنْ الفخر والترقب، إضافة إلى أسئلة لا تنتهي عما تخبئه لهم الأيام.

«مِنْ يضغط على الزناد قبل الآخر؟» هذا هو السؤال الذي كان يتردد على ألسنة الكثيرين فِي بغداد، وهم يرون وجوه حرس الباليوز تزداد قتامة يوماً بعد آخر، ويزداد معها منع المرور أو الاقتراب مِنْ الباليوز. أما حين قام ميناس بزيارة ساكني الجوار، وطلب منهم إخلاء مساكنهم قبل أن تقع فوق رؤوسهم، «لأن الباشا عمر المدافع ونشر الجنود، وقد يضرب اليوم قبل باجر»، فقد تأكد أن الحرب واقعة لا محالة.

فِي جانب الكرخ، بالقرب مِنْ بستان زيدان، أصبحت هوسات المدفع طقساً يومياً، إذ وجد الكثيرون أن الحمية تقتضيهم توجيه التحية للزائر الجديد ومرافقيه؛ وحمل الأكل والشموع والبخور إليه، ثم لعقد التجمعات، وإجراء المراهنات عن مدى المدفع، وما يمكن أن يفعله، ومواصفاته مِنْ حيث الدقة فِي التصويب. كان ذلك يجري فِي جو مِنْ الأخوة والمرح، وكان الجنود المكلَفون يجيبون على الأسئلة، ويبدون مقداراً مِنْ التسامح والمشاركة، إلى أن صدرت الأوامر بمنع اجتياز سور البستان، فكان ذلك دليلاً أن ساعة الحسم قد اقتربت، ويمكن أن تقع الحرب فِي أية لحظة.

الحاج صالح العلو، بعد أن انتهى الاحتفال باستقبال المدفع، طلب مِنْ ابنه نعيم وذنون إبلاغ ضابط قلعة الفرسان «أن يتفضل بالموافقة ويعتبر نفسه وجنده ضيوف صوب الكرخ، وأن الأكل سيصلهم ثلاث مرات يومياً، وكُلّ ما هو مطلوب أن يحدد الوقت والعدد التقريبي». وأضاف نعيم، فِي محاولة للتغلب على أية ممانعة أو تردد:

- وأهل صوب الكرخ حاضرين لأكثر مِنْ هذا، وما يرد الكريم إلا البخيل!

أما الأسطة عواد فقد ذهب بنفسه فِي اليوم التالي، وقال لضابط قلعة الفرسان:

- قهوتكم والشاي حسابها واصل، والجماعة فِي قهوة الشط يقولون:

هذا أضعف الإيمان، بس جيت اليوم حتى أسأل: تريدون واحد مِنْ وِلد القهوة يكون هنا بخدمتكم، أو تريدون ندز القوري والاستكانات ومعها السكر والشاي وانتو تخدرون؟

والضابط الذي ابتسم وهز رأسه ببطء دلالة الامتنان، ردَّ بارتباك:

ـ ما نريد نجربكم يا أهل هذا الصوب، شجاعتكم وكرمكم مضرب المثل، وهذا الشي مو مِنْ البارحة أو اليوم، فما نريد نسوي زحمة عليكم ونشغلكم بأكلنا وشربنا...

وزادت ابتسامته، وهو يمد يده ملاطفة إلى كتف الأسطة عواد، ويتابع:

- وبس نخلص مِنْ هذي القضية، ونكمل الواجب، لك علي أن أمر على قهوة الشط، والجماعة كلهم وياي، وبدل استكان الشاي نشرب ثنين وثلاثة.

- هذي، مولانا، سالفة ثانية. وبعدين جيتكم للقهوة شرف إلنا؛ أما سالفتنا هسه، وسؤالي: تريدون أحد يجي هنا للقهوة والشاي، أم ندزها مِنْ هناك؟

قال الأسطة عواد للذين حوله فِي القهوة:

- يبين ضابط الطوب شهم وخوش ولد، وإذا الله ما كذبني يجوز أعرف أبوه! لما سألته عن اسم العائلة، ردَّ بأدب وبصوت ناصي: العطا، ولما سألته عن اسم الأب قال: فاضل. قلت له: طلعنا قرايب، لأن أمي مِنْ الشيخ عمر!

قال الأسطة إسماعيل، وكان يهز رأسه فِي محاولة للتذكر:

ـ فاضل العطا... فاضل العطا...

وبعد قليل وقد التقط طرف الخيط:

ـ ليش تروح بعيد، أبو نجم، مو هذول بيت عطا اللي كانوا يتاجرون بالدهن؟

- جبتها يا أبو حقي. تمام. هسه تفطنت!

- وإذا أتذكر أزيد، يا أبو نجم، أبوه لهذا الضابط اللي تحجي عليه، أكثر وقته بالعرب، ويا العربان، حتى يحصل دهن زين!

قال سيفو بنزق:

- وآني تذكرته، فإذا نفس الشخص، فكان، الله يستر عليه، مغلواني، أسعاره نار!

- لكن دهنه زين وينضرب بيه المثل، ردَّ الأسطة إسماعيل.

بعد أن خيمت لحظة صمت، قال الأسطة إسماعيل ليغير الجو قليلاً:

ـ إذا إنت، يا أبو نجم، ووياك الحاج صالح، كسبتم الدنيا والآخرة:

واحد يدز الأكل والثاني يدز القهوة والشاي، فآني طلعت ملص...

وبعد قليل وهو يقهقه:

ـ لا خيل عندي أهديها ولا مال، فشنو اللازم أسويه؟

هدأ قليلاً، وكانت العيون لا تزال تتابعه وتنتظر ما سيقول، لم يتأخر:

ـ بلغوا ابن العطا: زيانه وزيان جماعته علي... وببلاش! قال سيفو، وهو ينهض:

- أبو فلاح ما عنده لا مال ولا صنعة، لكن يعرف شلون يحط الآدمي الزين ببطن عينه، وشلون يخدم اللي يستاهلون!

مثل هذه الأحاديث، أو ما يشابهها، دارت فِي المقاهي والأسواق، ثم انتقلت إلى المحلات، حتى البعيدة، وإلى الدرابين. وإذا كانت أحاديث الرجال اتسمت بالوقار، وقد خالطها الخوف والانتظار، فإن أحاديث النسوة اتخذت، ومنذ البداية، جانب التحدي والهزء مِنْ هذا «الزعطوط اللي يريد يرسم ويحكم وشواربه بعدها ما خطت، وحريمته كأنها بزونة يتيمة ما توزن مسواك... وهمين تركب خيل!» أما الصبية فكان لديهم كُلّ يوم أهزوجة جديدة، إذ كانوا يدورون فِي الشوارع وهم يرددون الأغاني، ولا بد أن يجتمعوا عند المدفع مرتين أو ثلاث مرات كُلّ يوم، إلى أن صدرت الأوامر بمنعهم مِنْ الاقتراب.

ظلت السراي تراقب وتنتظر. أما حين أرغم الباليوز، وبأشكال شتى، سكان الجوار على ترك مساكنهم، فقد قرر الباشا أن يتحرك. أوفد عزرا أفندي، صراف باشي، ومعه ناطق أفندي، للقاء القنصل، والتفاوض معه مِنْ أجل تهدئة الموقف والوصول إلى حلول مناسبة، خاصة بالنسبة للسكان الذين رُحلوا، وللمرور فِي شارع النهر، وأيضاً لاستمرار وصول المراكب الحاملة للمؤن.

قال الباشا لعزرا يوصيه:

-... وتقول له: الصلح سيد الأحكام، ونحن جماعة لا نريد الحرب أو الاختلاف؛ لازم ترجع المراكب مثل قبل، وترجع الناس لبيوتها وأشغالها، ومن يقول لنا مرحباً نقول له مرحبتين...

وبعد أن صمت قليلاً تابع، فجاءت لهجته ودودة وواثقة:

- وإنت، يا عزرا أفندي، تعرف القضية مِنْ الأول للتالي، فتقول «لصاحبنا»: إعقل، خلِ الرحمن، مو الشيطان، يقود خطواتك، وأكثر مِنْ هذا ما أريد أوصيك!

أما لناطق أفندي فقال الباشا:

ـ تصير لعزرا مثل ظله، تسمع كُلّ ما ينقال وتنقشه براسك، حتى اللفتة والضحكة لازم تبلِغني بها، أما الغمزة، يا ناطق أفندي، فتقول الكثير، وما أظنها تفوتك...

ابتسم الباشا ثم أضاف:

ـ إنت عيننا وإذننا بهذي القضايا الكبيرة، وعليك الاعتماد، وبعد ما نجتاز هذه المرحلة تنتظرك أشياء كثيرة.. يا ناطق أفندي!

رغم الموكب الرسمي الذي حمل عزرا وناطق، إلا أن حراس الباليوز لم يسمحوا له بالمرور إلا بعد مشاورات طويلة وانتظار، مع أن قائد مجموعة الحراسة عرف عزرا لكن قال بأسف:

ـ إنها أوامر سعادة القنصل، يا سيدي، ولا يمكن مخالفتها!

عزرا الذي بدا مرحاً خلال اللحظات الأولى، معتبراً الأمر عادياً ولا يستوجب الانفعال، بل وخرج مِنْ العربة وحرك جسده كأنه يتريض، إلا أن مرور وقت غير قصير دون أن ترد موافقة ريتش جعله يحتد ويتساءل. أما عندما بدأ حديثاً مع قائد مفرزة الحرس فقد اضطر ناطق أفندي للنزول مِنْ العربة أيضاً كي لا تفوته أية كلمة أو تصرف!

بعد انتظار طال كثيراً، كاد خلاله يقفل عزرا راجعاً، وصل ميناس.

وبعد أن سأل عن الغاية مِنْ الزيارة، سمح للموكب أن يواصل مسيرته نحو الباليوز.

لأول مرة فِي حياته يشعر عزرا أنّه صغير ومهان. أما الحرس الذين كانوا يرافقونه فقد تبادلوا فيما بينهم الهمسات وبعض الكلمات، ومع إنها لم تُسمع إلا أنها قالت الكثير حول موقف القنصل مِنْ رجال الباشا، بمن فيهم عزرا! كان القنصل فِي الحديقة، تحت عريشة مِنْ الجهنميات تفرد ظلها الوريف. لم يتوقع أحد وجوده هناك إلى أن ترجل عزرا وناطق أفندي، وبدل أن يقودهما ميناس إلى مبنى الباليوز توجه نحو تلك العريشة. على بعد خطوات مِنْ ذلك المكان برز ريتش. كان بملابسه العسكرية الكاملة، وقد وضع مجموعة مِنْ النياشين على صدره، وحمل عصا قصيرة، لكنها متينة ولها غلاف فضي فِي نهايتها.

ظل ريتش فِي مكانه وعزرا يتقدم نحوه. كان عابساً، محمر الوجنتين، وقال ناطق أفندي، وهو يصف للباشا منظر ريتش: «... وكان المنظار المكبِر معلقاً برقبته، وكانت شفتاه ترتجفان، وعيناه لا تستقران فِي مكان.

أما العصا فكان يحركها بطريقة عصبية، وكأنه يهش بها على غنم، وكان

بين لحظة وأخرى يخبط الأرض بقدمه اليسرى».

سأل ريتش، قبل أن يطلب مِنْ عزرا أفندي الجلوس:

ـ هل جئت بصفتك الشخصية أم مكلفاً مِنْ الوالي؟

ردَّ عزرا، فِي محاولة لأن يخلق جواً مِنْ الألفة:

- أول شيء، يا سعادة القنصل، يردون السلام، وبعد أن نقعد ونستريح يمكن توجيه مثل هذه الأسئلة.

ـ أريد أن أعرف الصفة أولاً، لكي نحدد طريقة التعامل.

- جئت، يا سعادة القنصل، بالصفتين، جئت بصفتي صراف باشي، وممثل لفخامة الوالي؛ ولأن معرفة أقرب إلى الصداقة تربطنا!

ـ إذا جئت ممثلاً للوالي فليس لدي ما أقوله لك، ولست على استعداد لسماع أية رسائل مِنْ جانبه، ويبدو لي أنك بهذه الصفة جئت، لأن السيد، لا أتذكر ما اسمه، جاء معك. أما الصداقة التي تشير إليها فليس هذا وقتها وهذا مكانها.

أخذ عزرا أفندي نفساً عميقاً، وكأنه مِنْ خلاله يستمد قوة، ورد:

ـ إن الغضب، يا سعادة القنصل، لا يحل المشاكل، كما يفسد العلاقات بين أناسٍ يمكن أن يتفاهموا.

- عزرا أفندي.. لا أريد أن أخوض فِي أيّ موضوع قبل أن أعرف صفة، وبأي شيء أنت مفوض...

ـ إنني مفوض بالتفاهم مع سعادة القنصل حول كُلّ الأمور.

- ليس هناك سوى أمر واحد: الرسالة التي جلبها السيد، وأشار إلى ناطق أفندي، لا تعتبر لاغية فقط، بل وأريد رسالة إعتذار عن كُلّ ما ورد فيها، فإذا كانت لديك مثل هذه الرسالة يمكن أن نواصل الحديث، أما غير ذلك...

وتحرك ريتش، وهو يشير بعصاه القصيرة إلى العربة التي أقلت عزرا وناطق، وإلى الخيول التي ترافقها، وخرجت الكلمات حادة:

- يمكن أن تركب العربة وتعود مِنْ حيث أتيت لتجلب الرسالة التي أريدها، وبعدها نتحدث.

قال عزرا، بعد أن عب نفساً عميقاً:

- يا سعادة القنصل...

- قلت لك شيئاً محدداً، ولست مستعداً أن أسمع أيّ شيء آخر.

فِي هذه الأثناء تقدم مِنْ مبنى الباليوز خمسة مِنْ العسكريين، وقدر ناطق أفندي أن هؤلاء مِنْ الدفعة التي وصلت أخيراً. تقدموا بخطوات متمهلة، واثقة، باتجاه القنصل. شعر القنصل بزهو كبير، قال دون تردد، وقد رفع صوته:

- عليك أن تذهب بعربتك إلى الوالي، وبعد أن تحمل منه كتاب الاعتذار، والتراجِع عما جاء فِي كتابه السابق، يمكن أن أستقبلك مجدداً، ليس اليوم

أو غداً، وإنما بعد الغد!

حاول عزرا أفندي أن يبتسم، أن يحيي القادمين، لكن القنصل لم يترك له أية فرصة، قال، وخرج صوته أقرب إلى الزعيق:

- قلت كلاماً واضحاً، وأي رجل يحترم نفسه، بعد أن سمع هذا الكلام، عليه أن ينسحب!

ـ سعادة القنصل...

- اسمع يا عزرا أفندي: لا أحتمل هذه المداهنات الشرقية، ولا أحب المراوغة، الأفضل أن تغادرنا الآن... وبعد أن تأتيني برسالة واليك، وبالشكل الذي ذكرته، يمكن أن نتحدث!

ابتسم عزرا أفندي، ونقل نظراته بين ميناس الذي يقف بموازاته، وبين الضباط الذين وصلوا للتو، وقد أدوا التحية للقنصل، وقال بطريقة ودية:

ـ سعادة القنصل، الأفضل أن نجلس ونتحدث.

ـ استغرب تماماً كيف تحاول الالتفاف على الموضوع، وتلجأ إلى المخادعة...

وبعد قليل، موجهاً الكلام إلى ميناس:

- يمكن أن تقود هؤلاء، وأشار بعصبية بعصاه، إلى طريق الخروج!

قال ناطق أفندي، وخرج صوته مرتجفاً:

ـ نحن نمثل السراي، يا سعادة القنصل، وعليك أن تستمع لما نقول!

ابتسم ريتش بسخرية، وخرج صوته بطيئاً:

ـ استغرب أن يبعث بك الوالي لتبلغ رسالة ونقيضها، ولا بد أن يكون أحدكما قليل التبصر.

قال عزرا بحدة:

ـ سعادة القنصل.

لكن المقاطعة كانت حادة وحاسمة:

ـ إذا لم تغادرا هذا المكان فسوف آمر بإعتقالكما فوراً.

وقال ناطق أفندي للباشا «وهز فِي وجوهنا عصاه، وكاد يقترب مِنْ عزرا، الذي تراجع فِي الوقت المناسب، وكانت الشفتان ترتجفان، والقدم اليسرى تخبط الأرض بعصبية، وفكرت أن أتدخل، يا أفندينا، لكن رأيت أن أصمت، امتثالاً لتعليمات جنابكم، وهكذا اضطررنا لمغادرة المكان.».

قال الباشا لطلعت باقة، وهو يطلب منه أن يعبر إلى جانب الكرخ:

ـ إنت عسكري ومجرَب. إذا رأيت حركة غير عادية، وقبل أن يضربوا السراي.. إضرب!

ابتسم ابتسامة صغيرة ومشفقة وأضاف:

- حرام ننجس أيدينا بدم هذا الثعلب، لأنه إذا تصوب أو مات، يصير قضية وبيرق، والأحسن نخليه يصوم صوم ذي الكفل.

سأل طلعت باقة بمكر:

ـ بقضايا الدين آني ما افتهم، يا أفندينا، فقل لي: شنو اللازم أسويه؟

ـ ما ينراد أقول شنو اللازم يسويه عسكري مثلك، لكن تعرف: الخنق أحسن مِنْ السكين، لأن الخنق يموت سنطة، بليا ما يحس أحد، أما الدم فيلحق البني آدم فِي المنام وإلى يوم القيامة!

ـ يعني نصبر على صاحبنا؟

- عفاريم...

وبعد قليل:

- ومع أول طلقة، وإذا تمكنت قبلها، تخليه أثراً بعد عين!

وقال الباشا لخلف:

- بعد اليوم، يا خلف، ما أريد يوصل للباليوز خِلالة، وأريد أشوف هالثعلب شقد يتحمل، وشوكت يصيح: آخ، وينكم يا عباد الله، وينكم يا أهل المروة.

انقضى أسبوع لم يخرج أحد مِنْ الباليوز، ولم يصل إليه أحد.

مدفع الكرخ يحمحم، خاصة بعد أن زاره طلعت باقة، وبعد أن صعد إلى منارة الشواكة، وراقب كُلّ شيء. أما حين اختار أمجد السامرائي ليراقب الباليوز، فقد كان مطمئناً أن أمجد يرى جيداً، ويستطيع أن يقدر الحركات وما يحتمل أن ينجم عنها، ولم يطل إقامته فِي الكرخ. قال للباشا، وهو يمتلئ بالزهو:

- مثل رأيك يا أفندينا: الخنق أحسن مِنْ الدم، والدنيا ينحزر عليها مِنْ مظاهرها!

لم يرد الباشا مباشرة، ولكنه استعاد بيتين مِنْ الشعر:

- وإنا لنلقى الحادثات بأنفسٍ كثير الرزايا عندهن قليل يهون علينا أن تصاب جسومنا وتسلم أعراض لنًا وعقول ومع أن الاستعدادت لم تتراخ فِي الباليوز، إذ استمرت التدريبات وحركة الجند، وكان ريتش يُشاهد مرات

عديدة فِي اليوم وهو يتفقد الاستحكامات، وهو يصعد إلى ظهر السفينة، وشوهد أيضاً وهو يستعمل منظاره المقرِب لمتابعة ما يجري فِي الضفة الأخرى مِنْ النهر. وحين أبلغ أمجد رجال المدفع أن القنصل يراقب تحركاتهم مِنْ خلال منظاره، فقد صفوا أحذيتهم عند طرف النهر ووجهوا أسفلها نحو الباليوز!

بعد أسبوعين والحالة لا تزال تراوح مكانها، شعر القنصل أنّه وضع نفسه فِي مأزق، إذ لا يقوى على مواجهة الوالي بما لديه مِنْ قوات، كما لا يستطيع أن يتصل بأحد لنجدته، وأن الباشا فِي وضع يمكنه مِنْ الانتظار.

وهكذا بدأ ريتش يفكِر بفك الحصار. جمع أركانه: الضباط الذين جاؤوا خلال الفترة الأخيرة، إضافة إلى نائبه وطبيب الباليوز، وطلب مِنْ ماري أن تكون حاضرة أيضاً «لدراسة الموقف وإتخاذ القرار» ومع أن ماري أشارت بضرورة حضور ميناس لهذا الاجتماع «لأنه أدرى بعقول الناس هنا وكيف يفكرون، وماذا يمكن أن يفعلوا» إلا أن ريتش رفض الاقتراح بحزم، إذ قال لها، وتعابير الاشمئزاز ظاهرة على وجهه:

- يجب أن تكوني على ثقة، يا عزيزتي، خاصة بعد اعترافات الخونة على الآغا عليوي، أنّه لا يمكن الثقة مطلقاً بأي إنسان شرقي...

وحين رأي الاستغراب على وجهها، ولديها ما تقول، تابع بحزم:

- حتى ميناس، يا ماري، لا يمكن أن نثق به كُلّ الثقة، أو كما نثق برجالنا، لأن لا أحد يعرف متى يتغير هؤلاء الشرقيون! دائماً لديهم ما يبررون به مواقفهم، إذ يتذرعون بالخوف، أو أنهم وقعوا تحت ضغوط لم يستطيعوا مقاومتها، وربما لأنهم يعتبروننا غرباء، ولا بد أن نرحل فِي يوم مِنْ الأيام، وهم سيبقون هنا للحفاظ على الثروات التي جمعوها، وعلى العلاقات التي تربطهم بالناس هنا.

ـ لكن أمه، يا كلود، قالت لي مرات عديدة: لا يمكن أن نبقى يوماً واحداً بعد رحيلكم، ولا بد أن نسافر معكم!

ـ إنهم يقولون أشياء كثيرة يا ماري، لكنهم لا يعنونها، ثم بسرعة ينسون أنهم قالوها!

- ولكنه أكثر منا خبرة بهؤلاء القوم، يا كلود!

- هكذا يدَعون...

وابتسم وهو يُضيف:

- ثم إنّه مضى على إقامتنا هنا ما يزيد على عشر سنين، وأصبحنا نعرف البلد أكثر مِنْ أهلها، فلا داعٍ لأن نتوهم بوجود أشياء لديهم لا نعرفها! سلمت

ماري، على مضض، برأي زوجها.

سأل ريتش رجاله، وقد تصدَر الطاولة البيضاوية:

ـ هل نستطيع، بما لدينا مِنْ رجال وعتاد ومؤونة، أن نفك الحصار؟

ومع أن الإجابات كانت متفاوتة، ولون بعضها الحماس والانفعال، إلا أن المحصلة الأخيرة للنقاش وتبادل الآراء والاقتراحات، دلت أن المشكلة لا تنتهي بفك الحصار عن الباليوز، وإنما تبدأ بعد ذلك، لأن الأهازيج التي يرددها الناس فِي الشوارع، وتلك الخرق التي تكتب ثم تربط على أجساد الكلاب وتطلق نحو الباليوز، وهي مليئة بالشتائم والتهديد، تدل على حقد الناس، وبالتالي فإن فك حصار الباليوز يعني الغرق وسط هذه الجموع المنفعلة الغاضبة التي لا تبالي بأي شيء، ويمكن أن تقتل وتنهب دون أن يرف لها جفن.

طبيب الباليوز، وهو فِي العادة قليل الكلام، لكنه إذا تكلم يعرف كيف يكون لاذعاً فِي سخريته، قال هذا الطبيب، وهو ينقل عينيه بين الوجوه الصارمة حوله:

- يجب أن نكون شاكرين لهذا الوالي لأنه جنبنا، حتى الآن، لقاء الجموع الغاضبة أو التعامل معها!

وحين تركزت عليه النظرات، تابع بمرح:

ـ حالنا الآن كمن يهرب مِنْ النهر الصغير ليرمي نفسه فِي البحر الهائج، ولذلك علينا أن نبقى فِي هذا النهر، أو أن نخرج منه إلى الضفاف القريبة.

ولما بدا الكلام الذي قاله غير مفهوم بالمقدار الكافي، أضاف بسخرية:

ـ إذا لم يكن سعادة القنصل ينتظر نجدة سريعة، ولا أدري مِنْ أين، اقترح أن نفك الحبال التي ربطنا أنفسنا بها، أيّ أن نتفاهم مع الوالي.

تصدى أكثر مِنْ عسكري للرد على الطبيب، وقد غمزت الردود مِنْ قناته لعدم إلمامه بشؤون الحرب، وظل القنصل يستمع ويدقق كي تكون كلمته الأخيرة والحاسمة.

قال ريتش فِي نهاية الاجتماع:

ـ إذا قدر لي أن أتصل برجالنا، وهم موجودون فِي أماكن عديدة، وطلبنا منهم المساعدة، فسوف لا يترددون لحظة واحدة، وقد ينقلب الموقف لصالحنا.

- هذا هو السؤال، قال الطبيب، لأن مِنْ كان داخل القفص لا يستطيع شيئاً!

وتم الاتفاق على أن يرسل ميناس إلى السراي، ويطلب إرسال وفد للتفاوض معه.

كاد يُمنع ميناس مِنْ مغادرة محيط الباليوز، فقد أوقفته نقطة الحراسة التابعة للسراي، والتي لا تبعد إلا قليلاً عن نقطة حراسة الباليوز، لكن بعد مشاورات واتصالات لم تطل، وبعد أن عُرف أنّه متوجه إلى السراي، طُلب منه أن يتابع.

كان يوماً مِنْ أيام نيسان العابقة برائحة الطبيعة، فالحرارة التي تملأ الجو تجعل للأشياء نكهة مميزة، وكأنها خارجة لتوها مِنْ وهج ولادتها الأولى:

الأشجار بالغة النضارة، الطيور، خاصة اليمام، تملا السماء، أما البخار الذي يتصاعد مِنْ أوعية الباعة فإنه يعطي للهواء مذاقاً لذيذاً. حتى أصوات الناس، بعد هذا الانقطاع عن سماعها، بدت فِي أذني ميناس جديدة، خاصة وقد فتح عينيه وأذنيه على اتساعهما، بعد أن طُلب منه مغادرة عربة الباليوز عند نقطة الحراسة، وأن يصعد إلى العربة التي وصلت تواً مِنْ السراي، «حفاظاً على روحك، ولأن مسؤولية حمايتك تقع علينا»، كما أبلغه مندوب السراي الذي اصطحبه!

بعد أن زايل الحذر، الأقرب إلى الخوف، نفس ميناس، أخذ يرقب كُلّ شيء فِي طريقه، وقد عرف الكثيرين الذين مر بهم، دون أن يميزه أحد منهم. أما عندما اقترب مِنْ السراي، ورأى أن الوضع يختلف عن كُلّ المرات التي وصل فيها إلى هنا، فقد استغرب، خاصة وهو يقارن ما يشهده بما كان يعيشه فِي الباليوز.

ومع أن عربة القنصل أو الخيول التي ترافقه تصل فِي العادة إلى حد معين لا تتجاوزه، فقد اقتيدت هذه العربة إلى طريق جانبية، وما لبثت أن وصلت إلى مكان شديد القرب مِنْ ديوان السراي، وبعد أن خطا ميناس بضع خطوات وجد نفسه أمام صفوت قرداغ.

بوجه محايد استقبله صفوت. والصمت، بعض الأحيان، شديد القسوة وينم عن التجاهل أو العداء. فقد عقد صفوت يديه فوق الطاولة، وتطلع، صامتاً، إلى ميناس، طالباً منه أن يتكلم. لم يسأله عن صحته، عن الباليوز، عن السبب لمجيئه. ترك الصمت وحده يسأل. قال ميناس، وقد تلفت، حذراً، إلى أكثر مِنْ مكان:

ـ سعادة القنصل يبلِغ تحياته ويطلب مجيء وفد مِنْ السراي للتباحث حول الإشكالات التي حصلت فِي الفترة الأخيرة.

- وفد مِنْ السراي؟

ـ أقصد إرسال شخص أو أكثر للتفاوض.

- دون كتاب اعتذار؟

ـ لم يشر سعادة القنصل إلى أيّ طلب خاص.

ودون استئذان، غادر صفوت الغرفة لبعض الوقت، وكان معنى ذلك مشاورة رؤسائه قبل أن يرد. خلال هذه الفترة تمعن ميناس بأثاث الغرفة، فبدا عليه الاستغراب لأن كُلّ شيء جديد، لامع، وبالغ النظافة والذوق، وكأنه وصل أو وضع للتو، انتظاراً لوصوله!

أما حين امتد بصره، عبر النافذة، فقد رأى جانباً مِنْ الحديقة. كانت ريانة مليئة بالزهور، ولما حمل الهواء نسمات إلى الداخل فقد تضوعت الغرفة كلها وبدت مثل مركب عطر فِي هذه المساحة الممتدة. قارن هذه الزيارة بزيارات سابقة، قال فِي نفسه: «داود باشا يختلف عن غيره مِنْ الولاة» وشعر أنّه يقدره ويخشاه فِي آن واحد!

لم يطل غياب صفوت قرداغ، عاد بعد بضع دقائق. لم يبد على وجهه أيّ جواب، سلباً أم إيجاباً. جلس وراء طاولته. عقد اليدين فوق الطاولة.

تطلع بإمعان إلى ميناس، إلى عينيه تماماً، وكأنه طُلب منه أن يقرأ الوجه قبل أن يعطي الجواب. ارتبك ميناس قليلاً، شعر أن العينين معاديتان، ونتيجة لذلك لا بد أن يكون الجواب سلبياً. وحين طال الصمت قليلاً، تحرك ميناس فِي مقعده. عند ذاك جاءت كلمات صفوت:

- السراي موافقة على التفاوض، وسوف يصل الوفد عصراً!

لم يقل صفوت كلمة واحدة إضافية. وقف تعبيراً عن انتهاء الزيارة. أما حين مد يده للمصافحة فكانت باردة ورخوة.

كان وفد السراي مِنْ أربعة: عزرا أفندي، ساسون أفندي، خلف، وناطق أفندي. قال الباشا لخلف:

- شروطنا بسيطة: ترجع المراكب محملة مثل قبل؛ تجَارنا مثل تجَاركم: أنتم ضيوفنا ونحن حراسكم، فترفعوا الحراسات إلى داخل السور؛ ومن رحل يرجع إلى مكانه، والشارع ملك لله ولكل عابر سبيل ونحن لكل شيء حاضرين!

قال خلف لساسون أفندي، وكانا فِي ذات العربة، وقد بدت نقطة حراسة الباليوز:

ـ ما نقبل الوقفة عند النقطة إلا رفة عين، إذا تأكدوا نعبر، وإلا ماكو أسهل مِنْ ردتنا، أسهل مِنْ شربة المي!

ـ تمام، وهذا اللازم يصير!

- وقفة بين يدي ملك الموت ماكو، هو يقعد ونحن قبله، وهذا شليلنا يا جماعة، وكُلّ كلمة ولها ردها وجوابها، فإذا رادوا الخير نحن معهم، وإذا رادوا الشر فعلي خيرة الله، ونشوف!

ـ تمام، وهذا اللي ببالي، وهذا اللازم يصير!

لم تتأخر العربتان والحراسة التي ترافقهما أكثر مِنْ ثوانٍ، إذ فتح الطريق. وكان ميناس عند البوابة ينتظر. بدا فرحاً وهو يرحب بالضيوف، وقادهم مباشرة إلى الداخل. وبعد أن استراح الضيوف قليلاً فِي الغرفة التي تفضي إلى ديوان القنصل فتح الباب مِنْ الداخل، وقال الخادم الذي فتحه بصوت عالٍ، لكنه مرتجف:

ـ سعادة القنصل بانتظاركم!

كان ريتش فِي نهاية القاعة، لكن مع خطوات الوفد كان يتقدم، وقد التقى الطرفان فِي منتصف القاعة تقريباً، إذ ظل ريتش يتطلع إلى الأمام، دون أن يوازن خطواته تماماً، لمعرفة مع مِنْ سيتفاوض.

كان القنصل لا يزال بملابسه العسكرية، وبيده العصا، ولم يستطع ناطق أفندي أن يتأكد ما إذا هي العصا ذاتها، فقد اختلطت عليه الألوان!

تم تبادل التحيات بسرعة، وإن تركزت نظرات القنصل على وجه ناطق أفندي أطول مما على الآخرين، أو هكذا قدَر ناطق.

كان إلى جانب القنصل نائبه وأحد العسكريين. وما أن أخذ الجميع مقاعدهم، وكانوا متقابلين، حتى بدأ القنصل:

ـ لقد مرت فِي الفترة الأخيرة أحداث ما كنا نريدها أن تقع، لكنها وقعت، ويجب أن نجد لها حلولاً.

ـ مِنْ أجل هذا الأمر جئنا، يا سعادة القنصل، ردَّ عزرا أفندي.

ـ وعلينا أن نعتبر ما حصل وكأنه لم يكن، قال القنصل.

- نحن موافقون يا سعادة القنصل، قال خلف، لكن بشروط.

ـ ما هي الشروط؟.

هكذا سأل ريتش، وهو ينقل نظراته بين الوجوه ليكتشف إلى أيّ حد يوافق الآخرون على هذا الكلام. تابع خلف:

- شروطنا بسيطة، يا سعادة القنصل: ترجع المراكب محمَلة مثل قبل. تجارنا مثل تجاركم. أنتم ضيوفنا ونحن حراسكم، فترفعوا الحراسات إلى داخل السور، ومن رحل يرجع لمكانه، والشارع ملك لله ولكل عابر سبيل، ونحن لكل شيء حاضرين!

ردَّ ريتش بحدة:

- ولكن المعاهدات والاتفاقات بين الدول هي الأساس للعلاقات، وهذه لا يمكن إلغاؤها أو تغييرها إلا بالتفاوض.

- الوالي مع المعاهدات والاتفاقات إلا المخالفة للشريعة...

هكذا ردَّ خلف، وأخذ يعدد الأسباب والدوافع التي تتطلب إعادة النظر فِي بعض الأحكام إذا تغيرت الظروف.

ورغم أنّه طُلب مِنْ ناطق أفندي أن يراقب ويحفظ، وأن لا يتدخل إلا عند الضرورة، فقد وجد فيما قاله خلف فرصة لإفحام ريتش:

- يجب أن تعرف، يا سعادة القنصل، أن الله سبحانه فِي كتابه الكريم لم يفرض على عباده بعض الأحكام إلا بالتدريج، لأنه يقدر ظروف هؤلاء العباد، وأعتقد أن لا أحد فوق أوامر الله!

ابتسم ريتش، وكانت الابتسامة أقرب إلى السخرية، قبل أن يسأل:

ـ لم أفهم ما تقصد إليه، أيها السيد!

- الخمر مثلاً، يا سعادة القنصل، لم يحرِمه الله فجأة ودفعة واحدة، بل بالتدريج وعلى دفعات!

- وما علاقتنا هنا بالخمر، أيها السيد الذي نسيت اسمه؟

حاول ناطق أفندي أن يجيب، لكن ساسون أفندي قاطعه:

- ليس المقصود أن ندخل فِي مناقشات دينية، ولكن ناطق أفندي يقصد أنّه فِي أحيان كثيرة تجري إعادة النظر بالاتفاقات بين الدول.

- هذا ما أقصده تماماً.

هكذا عقَب ناطق أفندي بعصبية، وكاد يُضيف أشياء أخرى، غير أن نظرة خلف جعلته يصمت ويكتفي بما قال.

فرك ساسون يديه، وارتسمت ابتسامة كبيرة على وجهه، وهو يقول:

- يا سعادة القنصل، إن تجار السوق يشعرون بالحيف، لأن الرسوم المفروضة عليهم أكبر مِنْ الرسوم المفروضة على غيرهم، وهذا يستدعي إعادة النظر بالاتفاقات.

بعد مناقشات طويلة، وقاسية فِي بعض مراحلها، قال ريتش، وكان يقف، تعبيراً عن انتهاء هذا اللقاء:

- دعونا نتوقف الآن، على أن نلتقي مرة أخرى، وفِي وقت قريب، لكي نناقش الأمور ونكون أكثر نشاطاً واستعداداً لسماع بعضنا.

قال عزرا للباشا بعد اللقاء الأول:

ـ القنصل الآن مستعد للتفاهم، ومن رأيي أن نتفاهم، أن نصل معه إلى منتصف الطريق.

أما ساسون الذي التقى به الباشا على إنفراد فقد قال:

- رغم أن صوته عالي وكأنه يتحدث ويا طرشان، لكنه محصور أو مراهن على فد شي!

خلف اختصر كُلّ شيء بكلمات:

ـ لو يلعلع صوت طوب الكرخ، حتى على غيره، ترتخي ركبه، وبعدها نتفاوض، يا أفندينا.

أما ناطق أفندي الذي كان لديه الكثير ليقوله للباشا، فقد اضطرب تماماً، إذ بدأ بنقطة الحراسة، ثم الاستقبال فالدخول إلى القاعة الكبرى، وقد تحدث عن الأثاث والملابس وملامح الوجوه، وحين أخذ يصف بداية الحديث ضرب على جبهته، وقال برجاء أقرب إلى التوسل:

ـ الموضوع ينراد له صفنة يا أفندينا، لأن الأمور بالنسبة لي، خاصة بهذي الساعة، صوف بشوك، فإذا تكرمتم وتركتم لي الفرصة، فسوف أقدم لكم تقريراً شاملاً يوفي بالمرام ويحقق المراد.

ردَّ الباشا. وهو يبتسم:

- ما مستعجلين يا ناطق أفندي، والتقرير إذا ما جهز باچر يجهز عقبه، وسالفتنا مع الجماعة طويلة.. ما تنتهي بيوم أو اثنين.

وقال الباشا لخلف:

ـ عزرا أفندي نَفَسه قصير، يريد المسألة تنتهي اليوم قبل باچر، أما أنا وإنت، ويجوز ساسون نتحمل أكثر.

وابتسم ابتسامة واسعة، وأضاف، كأنه يحدث نفسه:

- ولازم ننتظر تقرير ناطق أفندي، لأنْ الله بعده ما فتح عليه، والرجال طلب مهلة، فقلنا له: على كيفك، ومعك حتى صياح الديك بثالث يوم، ولازم نوفي الوعد!

قبل أن ينتهي اليوم الثالث، أرسل الباليوز ميناس مرة أخرى إلى السراي.

ومثلما استقبله صفوت قرداغ فِي المرة السابقة، استقبله هذه المرة: حياد بارد كأنه الجليد، والصمت وحده طريقة الكلام. كانت يدا صفوت ترتاحان متشابكتين على الطاولة، وعيناه فقط هما اللتان تسألان. ومع أن ميناس بذل جهداً كي يبدو طبيعياً، إلا أن مخاوف الباليوز التي انفجرت فجأة مع طغيان المياه فِي مستودع المؤن، وما ألحقته تلك المياه بالمواد المحفوظة، خاصة الطحين والسكر، هذه المخاوف التي حاول ميناس كبحها رافقته إلى السراي، وما كادت عينا صفوت تطلّان عليه بتلك الطريقة الكاوية، حتى قال بصوت شابته رجفة ظاهرة:

ـ سعادة القنصل يسأل عن موعد عودة المفاوضات.

ـ أيّ مفاوضات تقصد؟

ـ المفاوضات التي بدأت قبل أيام على أن تعاود مِنْ جديد.

- ولكن القنصل هو الذي طلب وقفها...

ولأول مرة تفتر شفتا صفوت، وهو يُضيف بتساؤل ساخر:

- وأظن أن القنصل أبلغ زوّاره أنّه مرهق، ويحتاج إلى بعض الوقت للراحة والتفكير، فهل أنا مخطىء؟

استغرب ميناس أن صفوت أفندي يملك هذه التفاصيل، فِي الوقت الذي لا يعرف هو ما دار مِنْ مباحثات. حتى لما رافق الوفد إلى ديوان القنصل، وبعد أن تم التعارف وتبادل التحيات السريعة، أشار إليه القنصل بالخروج، فاعتبر الأمر عادياً وخرج. الآن يكتشف أن الوالي يثق برجاله، ويطلعهم على أمور لا يفعل القنصل مثلها، ولذلك يجد نفسه محرجاً فِي مواجهة الأسئلة التي يوجهها صفوت، ردَّ ميناس بارتباك:

- أبلغني سعادة القنصل أن المباحثات لم تنته، ويطلب أن تستأنف مجدداً، وبأسرع وقت.

قال صفوت قرداغ بصوت بطيء:

ـ أخشى أن لا نستطيع ذلك بسرعة، نظراً للاحتفالات الدينية التي تصادف هذه الأيام...

وبعد قليل وبكيد ظاهر:

- حالما تنتهي هذه الاحتفالات سأكون مستعداً لاستقبالك مرة أخرى، وأرجو أن نتفق آنذاك على تحديد الموعد المناسب!

- ولكن الأمر لا يحتمل التأخير، يا صفوت أفندي!

- كُلّ الأمور تحتمل التأخير، يا ميناس أفندي، عدا الموت، أليس كذلك؟

هكذا سأل صفوت قرداغ، ويداه المتشابكتان تتحركان على الطاولة بطريقة تشعر مِنْ يرقبهما وكأنهما مخلوقان منفصلان عنه، إذا تتعانق الأصابع وتنفصل، تتشابك وتتداخل. وأبرز ما تتبدى تلك الحركة فِي الإبهامين، إذ يتحركان بلين مرة، بعصبية مرة، بعراك مرة، وبمودة ظاهرة مرة أخرى، ومن يراقب هذين الأصبعين يشعر بالإثارة الأقرب إلى الاستفزاز، وربما يدرك صفوت ما لهذه الحركة مِنْ تأثير فيلجأ إليها تبعاً لمن يتحدث إليه، وللحالة النفسية التي تسيطر عليه.

بعد أن ترك صفوت لميناس أن يراقب ويتملي حركة الإبهامين، فك يديه ونقر على الطاولة وهو ينهض إيذاناً بانتهاء المقابلة. وقف ميناس أيضاً، لكنه لم يتحرك، سأل ويد صفوت ممدودة نحوه:

ـ ان سعادة القنصل يلح على ضرورة الإسراع لإنهاء المشاكل المعلقة، ويريد تحديد موعد ثابت.

- سنبلغكم بهذا الموعد.

لم يجد ميناس بُداً مِنْ الحركة ثم المصافحة، استجابة للجو الذي خلقه صفوت قرداغ، وفِي محاولة أخيرة، وهو يفتح الباب ليغادر، قال، وكانت لهجته راجية:

- آمل أن يكون الموعد قريباً.

ما كاد ريتش يتبلَغ أن الموعد سيتأخر، وقد يكون ذلك متعمداً، بغض النظر عن الاحتفالات الدينية التي أشار لها ديوان الباشا، حتى قال لميناس بطريقة لا تخلو مِنْ غيظ:

ـ الوحيد الذي يعرف كيف يتفاهم مع هؤلاء: بطرس، فهو يداورهم ويلجأ إلى أساليب تطرب الشرقيين، لكي يصل فِي النتيجة إلى ما يريد! ميناس لا يعتبر الصفة التي يشير إليها رئيسه ميزة، لأن بطرس مع الجميع هكذا، الأمر الذي يجعل سلوكه منفراً، وهذا لا يرتضيه ميناس لنفسه. ولأنه لم يعلِق على ما سمعه، فقد تابع ريتش:

ـ إذا استمر الحصار أياماً أخرى، نتيجة تأخر المفاوضات، فكيف يمكن تأمين ما تحتاجه المقيمية مِنْ الخبز والسكر، بعد أن تلف معظم المخزون؟

ـ أرى يا سعادة القنصل أن نستعين بالشمس لتجفيف ما يمكن مِنْ السكر والطحين، وأن نوزع على الجنود التمر.

- وغير ذلك؟

ـ أن نقلل وجبات الطعام، وأن نباعد بين وجبة وأخرى.

- وماذا أيضاً؟

- يمكن أن نعتمد على الرز والأسماك، ونأمر رجال الحامية صيد أكبر كمية مِنْ الأسماك!

لم يكن ريتش فِي وضع نفسي يمكنه مِنْ مواصلة النقاش بهدوء، فترك الأمر كي يفكر فيه ومواصلة البحث مع ميناس وغيره عن حلول لهذا الإشكال الذي لم يخطر ببال أحد: أن تتلف المياه جزءاً كبيراً مِنْ المؤونة. ذهب الخيال بريتش أن أمراً كهذا ربما تم بتدبير مِنْ السراي، كأن تُفتح أنفاق جوفية لتسريب المياه، وقد يكون هناك عالم كامل تحت الأرض، كما هو الحال فِي مدينة النجف، أو ربما تم هذا بفعل بعض العاملين فِي دار المقيمية!

عصر اليوم التالي، الخميس، أوفد الديراني مجدداً للسراي، مع رسالة قصيرة: «... بعد أن شرعنا بالمباحثات مِنْ أجل الوصول إلى حلول للمشاكل التي وقعت فِي الفترة الأخيرة، يعرب قنصل امبراطورية بريطانيا العظمى، عن أسفه لتلكؤ السراي فِي مواصلة هذه المباحثات. ان مِنْ شأن ذلك تعقيد الأمور، وقد تترتب نتائج تسيء إلى العلاقات بين لندن واسطنبول، وعليه تطلب قنصلية الامبراطورية أخذ هذه الأمور بعين الاعتبار.. دون تأخير!» ولأن صفوت قرداغ كان غائباً عن السراي عصر ذلك اليوم، فقد استلم أحد مساعديه الرسالة، وقال للديراني:

- لن يكون صفوت أفندي على رأس عمله غداً، والرسالة سترفع عن طريقه إلى المقامات العليا بعد غد على أقرب تقدير!

قال الباشا لخلف فِي ذات الليلة:

ـ نحن الآن بيوم الخميس، وغداً علينا الصلاة بالكاظم، وعزرا وساسون ما يفوتون صلاة السبت ولو بقطع الراس، وما دام «صاحبنا» دب الصوت فالأحد يوالمه حتى لو كان يوم صلاته، فبلغ الإخوان وقابلوا القنصل يوم الأحد!

حين أبلغ الباليوز أن الموعد يوم الأحد، وقد تم هذا الإبلاغ عن طريق نقاط الحراسة، صبيحة يوم السبت، بدا بعيداً ولا يخلو مِنْ تحدٍ، خاصة وأن السراي لم يكلِف نفسه إرسال أحد رجاله الرسميين لتبليغ الموعد.

وما زاد فِي التحدي أكثر أن ماري هيأت نفسها للاحتفال بعيد الفصح، وأرادت أن تكرم العسكريين الجدد، وكان بظنها أن احتفالاً مثل هذا، وفِي تلك الأجواء، سيرفع معنويات الجميع، ولا بد أن يولد شجاعة إضافية فِي القلوب، خاصة حين ترتفع الابتهالات، ويعم جو مِنْ الفرح.

لقد شعر ريتش بحقد يغلي داخله، إذ بعد أن كان أيّ والٍ يبغى رضاه، وكان المتنافسون يتسابقون لنيل بركاته، لعل أحداً منهم يصل إلى الباشوية ويصبح والياً؛ وبعد أن كان الخائفون مِنْ انتقام الوالي يلجؤون إليه لحمايتهم، يجد نفسه الآن وحيداً، وحيداً ومحاصراً، لا أحد يقوى على أن يقدم له المساعدة، كما لا يعرف ما تخبئه له الأيام.

تراءت له صورة داود باشا فِي مراحل متعددة. صحيح أنّه لم يفرضه والياً، كما كان الأمر بالنسبة لسعيد، لكن كان بإمكانه أن يمنع وصوله. لو تحرك، لو اعترض، لما تمكن داود مِنْ الوصول. ولا يعرف لماذا ترك الأمور تجري بتلك الطريقة، وكأنه يراقب جريان المياه أو سباق الخيل، وكان يروق له أن يتمتع بمراقبة ذلك السباق الأعمى بين مجموعة مِنْ المتنافسين، وكُلّ ظنه أن الجميع سوف يلجؤون إليه. لكن داود، هذا الماكر، الذي بدا وديعاً فِي البداية، وقد لا يختلف عن الكثيرين الذين مروا قبله، بدأ يفلت خطوة بعد أخرى، يوماً بعد آخر، إلى أن كشف عن الأحقاد العميقة التي تترسب فِي صدر كُلّ واحد مِنْ الشرقيين، ولا تظهر إلا فِي الوقت المناسب: وقت ضعف الآخرين!

بعد مشاورات مع مساعديه، لم يجد ريتش مفراً مِنْ الموافقة على الموعد، وأن يستعد له. صحيح أن لحظات عديدة، وهو يبحث مع هؤلاء المساعدين، ومع ماري بشكل خاص، كانت صعبة، ولا تخلو مِنْ حرج، ومع ذلك احتملها برباطة جأش، وبمرح أيضاً، لكنَه شعر فِي الأعماق بالألم، كما لو أن فِي داخله جرحاً ينزف ولا يقوى على وقف هذا النزيف، خاصة وأن بعض خطواته كان متسرعاً، ولا يخلو مِنْ خفة، على الأقل مِنْ حيث التوقيت، لذلك يواجه الآن المصاعب كلها دفعة واحدة.

قال لنفسه، وهو ينتظر ذلك الأحد الحزين: «لا تظهر الشجاعة إلا فِي الأوقات الصعبة، ولا يبرز القادة الحقيقيون إلا مِنْ خلال التحديات الكبرى. وإذا كان الولاة السابقون قد أتاحوا لي الشعور بالتميُز والأهمية، فإن داود، العدو الوحيد الذي يجدر بي أن أنازله لأثبت لنفسي، قبل أن أثبت للآخرين، كيف يمكن أن أحتمل الجروح والمعاناة، وأن أحاول...

لست متأكداً مِنْ النصر، لكنني متأكد انني لن أسلِم، ولن أخضع لما يريد... وحالما أفلت مِنْ هذا الحصار، سأعرف كيف أرد عليه، وألقِنه درساً لن ينساه».

لقاء يوم الأحد، رغم مظاهر الهدوء التي حرص عليها الطرفان، وهما يلتقيان حول الطاولة البيضاوية فِي الباليوز، كان عاصفاً، ولم يخل مِنْ تحديات متبادلة. فريتش يعتبر أن المزايا التي حصل عليها التجار الذين يتمتعون بحماية بريطانيا هي حقوق ثابتة لا تقبل النقاش، لأنها تمت منذ وقت طويل، قبل أن يصبح داود باشا والياً، ولأنها حصلت بموافقة لندن واسطنبول. ووفد السراي يعتبر أن تجار الولاية متساوون، ويجب أن تطبَق عليهم جميعاً نفس الشروط. وإذا حصل تجار الباليوز فِي السابق على مزايا، أمنت لهم أرباحاً طائلة، فيكفيهم هذا، «ثم إننا أولاد اليوم والناس متساوون» كما قال خلف بحدة، وهو يشير إلى المصاعب التي واجهت الولاية خلال الشهور الأخيرة نتيجة انقطاع البواخر، ومحاربة القنصل للسراي، وختم كلامه، مؤكداً أنّه ليس مستعداً لأي تنازل:

- وإذا تحمَلنا طوال هذي السنين الخسائر والمهانات وسكتنا، فإن للصبر حدوداً، وللطمع حدوداً، ولأن الحق يعلو ولا يعلى عليه!

بعد الكثير مِنْ المداولات، وقد حاول عزرا تلطيف الجو أكثر مِنْ مرة بأن تدخَل حين احتدم النقاش بين ريتش وخلف، إلا أن ريتش بطريقة فخمة ولا تخلو مِنْ تحدٍ، قال:

ـ إذا تعذر علينا التفاهم، وإذا استمرت السراي فِي فرض القيود والحصار، فأعتبر أن لا فائدة لوجودي واستمراري فِي بغداد، ولذلك أطلب منكم، أيها السادة، أن تبلغوني بالموعد الذي استطيع فيه لقاء الباشا لأشعره بعدم قدرتي وعدم رغبتي فِي البقاء فترة أطول.

ونهض إيذاناً بإنتهاء اللقاء.

لما استقبل الباشا الوفد الذي أرسله للباليوز ليعرف ما حصل، قال عزرا يلخِص النتائج:

- عناد القنصل، يا أفندينا، مؤقت، وكان ردَّ فعل للكلام اللي سمعه منَا، فإذا تركناه كم يوم يهدأ ويمكن التفاهم معه، ومثل ما قلتم فخامتكم، وانتم توصونا: الصلح سيد الأحكام، فمن رأيي خطوة منا وخطوة منه ونصل إلى منتصف الطريق... ونتفق!

ساسون كان له رأي آخر:

- هذا القنصل لغير هذي الأيام، يا أفندينا، لأن كُلّ ما فتحنا باب يسده، وكأنه ما مصدق شنو صاير بالدنيا، عباله الدنيا مثل قبل؛ ومن رأيي إذا قابل جنابكم ترزلوه وتقولوا له: فتح عينك زين!

أما ناطق أفندي الذي ظل صامتاً خلال اللقاء الثاني فِي الباليوز، وظل صامتاً أثناء لقاء الباشا بالوفد، فقد طِلب مِنْ فيروز أن يلتقي بالباشا على

انفراد، لأن لديه ما يقوله. ولم يتأخر الباشا فِي استقباله. قال، وهو لا يستطيع أن يخفي فرحه:

-.... ولما كان ينذكر اسمكم، يا أفندينا، كنت اشوف وجهه يصير سم، أكثر مِنْ السم، والوحيد اللي قال كلام زين: خلف. حكي وياه بحيل صدر، وقال له: إنت وين رايح، هذا الوالي اسمه داود، وهذا اللي يريده لازم يصير. وقال له: فتح عينك زين، فهذي الأيام غير أيام، وتجار الولاية مثل سنان المشط كلهم مثل بعض وماكو ناس أحسن مِنْ ناس.

وكلام خلف، يا أفندينا، يطلع نتر، وهو يباوع بالعين، مو مثل عزرا اللي بس يفرك إيديه ويقول: تمام... تمام!

ولما وجد ناطق أفندي الباشا يصغي والابتسامة تملأ وجهه، تابع بانفعال:

- وتعرفون، يا أفندينا، آني ما علي بالسياسة والتجارة، ويجوز مو هالقد بهالمسائل، لكن اللي حسيت بيه، وشفته شوفة عين، أن القنصل ما يريد يصلِي على النبي، وما أظنه راح يحلب صافي، ويجوز ناوي على شر، لأنه ينقط سم، فإذا راد يمشي، وطلب موافقتكم، فأبوس إيدك يا أفندينا تقول له: الله وياك، ودرب الصد ما ردَّ، لأني هوايه خايف.

تحولت ابتسامة الباشا إلى قهقهة، وهو يستمع إلى ناطق أفندي، وهو يرى انفعاله، وبعد أن هدأ، قال له بمودة:

- كلامك، يا ناطق أفندي، واضح، وأحسن هوايه مِنْ الكتب اللي تسطرها، وبعد اليوم أريدك تقول لي كُلّ شيء، بدل مِنْ كتابنا وكتابكم، شنو رأيك؟

ـ آني بالخدمة سيدي، لكن بعض المرَات الكلام يشكل بالنسبة إليّ وأتوه، تنلاص علي!

- خلص... مِنْ اليوم صارت المسائل واضحة!

ولم يتأخر الباشا فِي استقبال ريتش.

كان موكب القنصل مختصراً حين وصل إلى السراي، كان معه نائبه وواحد مِنْ العسكريين، إضافة إلى خمسة مِنْ الفرسان. وحين استقبله الباشا لم يجدا الكثير ليقولاه، خلافاً للمرَات الكثيرة السابقة، ولما خيَم صمت ثقيل، قال الباشا، وخرج صوته صلباً:

- طلبتم مقابلتي، ولا بد أن يكون لديكم ما تقولونه، فأنا جاهز لسماعكم، يا سعادة القنصل!

أخذ ريتش نفساً عميقاً قبل أن يبدأ:

ـ ليس لدي الكثير لأقوله، يا فخامة الباشا، لكن أشعر أن الأجواء التي أعمل خلالها لم تعد مريحة أو مرضية، ولذلك أفترض انني إذا غادرت أفضل للطرفين.

- فيما يخصنا لا نجد أن هناك أسباباً تقتضي المغادرة، فقد تعودنا، خلال هذي السنين، على وجودك بيننا، أما إذا كُنتُم ترون العكس فهذا، يعود إليكم!

ـ لقد حصلت أمور عديدة فِي الفترة الأخيرة أشعرتني بالضيق وبالعجز عن مواصلة مهامي، وهذا ما جعلني أقرر المغادرة.

- وكيف كانت مشاعر الآخرين، يا سعادة القنصل، حين ارتفعت الأسعار، حين انقطعت المؤن؟

ـ هم أقدر على تحديد مشاعرهم والتعبير عنها!

- بالتأكيد هم أقدر على ذلك، وقد احتملوا هذه المصاعب وتجاوزوها!

ـ هل تطلب أن أبقى محاصراً فِي دار المقيمية، وعاجزاً عن فعل أيّ شيء؟

ـ السراي لم تطلب إلا أقل المطالب: أن تعود السفن حاملة المؤن، أن يعود أصحاب المساكن المحيطين بدار المقيمية، بعد أن تم ترحيلهم.

- والرسوم المتوجبة الدفع على تجارنا؟

ـ كما هي على الآخرين.

ـ إنني، بإسم حكومتي، أرفض ذلك، وأعتبر أن هذا الإجراء غير قانوني، ويخالف الاتفاقيات المعقودة بين لندن واسطنبول، وما لم يلغ هذا الإجراء، يبدو لي أن الأجواء ستبقى ملبَدة، ويصعب فِي ظلها العمل أو البقاء.

- كما أن لكم تحديد ما يناسبكم مِنْ صيغ وإجراءات، فإن السراي تملك تحديد ما يلائمها.

ـ افهم مِنْ ذلك، يا فخامة الباشا، أنكم غير مستعدين للتراجع عن الإجراء الذي اتخذتموه بخصوص الرسوم؟

ـ لقد اتخذنا الإجراء وهو يسري عليكم كما على غيركم.

ـ إذن أبلغكم بقراري مغادرة بغداد.

ـ تقصد العراق؟

- أيّ نعم، وسوف آخذ طريق النهر إلى البصرة.

- يمكن أن تأخذوا الطريق الذي يلائمكم، وسوف نبلِغ رجالنا لتسهيل مروركم، ولكن، ولئلا يساء فهم هذه المغادرة، نريد رسالة مِنْ قبلكم تؤكد

هذه الرغبة، وإنها تتم بناء لطلبكم دون ضغط أو إكراه.

ـ إعتبر كلامي، يا فخامة الباشا، بمثابة الرسالة التي تشيرون إليها.

ابتسم الباشا ابتسامة واسعة، تطلع إلى مرافقي القنصل، ثم إلى رجاله، وقال:

ـ لا أشك لحظة واحدة فِي أن الكلام الذي يعبر عن هذه الرغبة واضح وصريح، والسادة الذين يشاركوننا هذا اللقاء شهود على ذلك، لكن، وكما هو جارٍ بين الدول، أو حتى بين الأفراد العاديين، إن ما يجري الاتفاق عليه يدون، لأن المسألة، كما يقال، حياة وموت، ثم هناك النسيان، يا سعادة القنصل، أو ربما تغيُر الظروف!

- هذا يعني أن السراي لا تكتفي بهذا الكلام الواضح، بل تطالب بوثيقة خطية؟

ـ تماماً يا سعادة القنصل، لأن المسألة تتعدى أشخاصنا!

- سأغادر إلى مقر عملي الآن، وسوف أفكر بما طلبتوه، يا فخامة الباشا!

قال هذه العبارة بغيظ ظاهر، إذ عبق وجهه، واهتز رأسه ربما دون إرادة. ردَّ عليه الباشا ببطء وبما يشبه السخرية:

- لديك كُلّ الوقت، يا سعادة القنصل، وحالما استلم خطابكم سوف أوعز لرجالنا لتسهيل مروركم ومرافقيكم!

بعد يومين مِنْ هذا اللقاء، أرسل ريتش إلى السراي الخطاب الذي طلبه الباشا. أما خلال هذين اليومين فقد انشغل جميع العاملين فِي الباليوز بنقل أشياء لا يعرف ما هي إلى السفينة الحربية المرابطة، لأن ريتش قرر ركوبها، وبمرافقة مركب آخر، إلى البصرة.

قال سكان صوب الكرخ إنهم رأوا رجال الباليوز يقفون رتلاً، وكُلّ فرد يناول الآخر كيساً لا يعرف ما يحتوي عليه. وقالوا إن الرجال ظلوا يرفعون هذه الأكياس إلى السفينة طوال النهار. أما فِي الليل فشاهدوا حريقاً جانب السور، وربما كانت أوراق هي التي تحرق، لأن بعض الصيادين حملت إليهم الريح أوراقاً محروقة، ولا يعرف ما إذا استمر تحميل السفينة فِي الليل.

أمجد السامرائي، ومن خلال المنظار المقرِب، أكد أن كميات كبيرة مِنْ الكتب حملت إلى ظهر السفينة، كما حملت أحجار كثيرة لا يعرف طبيعتها أو لأي شيء تستعمل!

أما طلعت باقة، وبعد توارد الأنباء مِنْ رجاله، ومن الآخرين، أن أشياء غامضة تجري فِي الباليوز، فقد ذهب بنفسه إلى منارة جامع الشواكة ليتأكد،

وقد شاهد بوضوح أن كميات كبيرة مِنْ الأثاث تحمل على ظهر السفينة، وكان هذا دليلاً أن القنصل ينوي الرحيل.

صباح الأربعاء وصل ميناس إلى السراي ومعه الخطاب، وكان يتضمن بالإضافة إلى إشعار المغادرة، قائمة بأسماء الذين سيغادرون مع القنصل، وأسماء الذين سيبقون في دار المقيمية، ولقد لفت نظر الديوان فِي السراي أسماء: روجينا وأم ميناس ولورا خليل. وإذا كان الباشا قد وافق على سفر روجينا وأم ميناس، فقد ضرب باللون الأحمر على اسم لورا. قال لخلف الذي كان يطلعه على الخطاب والقوائم:

ـ لورا تبقى هنا، لأن خاف يروح الخيط والعصفور!

وابتسم بسخرية وهو يتابع بلهجة مختلفة:

- وتقولون لجماعة الباليوز إن المرية ما تقدر تسافر بليا موافقة الزوج، وبعودة عارف زنجاري، بالخير والسلامة، ندز لكم الصوغة!

ولأن الانفعال بلغ أقصاه، خاصة فِي صوب الكرخ، لما عرف الناس بقرب سفر القنصل، فإن الهوسات والتجمعات حول بستان زيدان زادت عن الحد، وكلها تحرِض على استعمال المدفع، ولو مِنْ قبيل التخويف.

وقد تفنن الصبية والأطفال، وعلى رأسهم زينب كوشان، فِي نظم الأهازيج والأغاني، وكلها تحرض على أن «يشتغل الطوب».

ذنون الذي هجر، مجدداً، قنبر علي وبستان الأعظمية، وأخذ يقضي معظم وقته فِي قهوة الشط، وينام فِي المسافرخانة التابعة لها، كي لا يفوته أيّ شيء، قلق لغياب الحاج صالح العلو، وحين سأل عنه قيل إن ألماً فِي ساقه حد مِنْ حركته، فقرر أن يزوره فِي بستان المتولي، ليطمئن عليه، وكي يبلِغه بالتطورات المتسارعة التي تجري.

ظهر الخميس غادرت سفينة الباليوز. وقف الكثيرون على ضفتي النهر يتفرجون على المغادرين؛ لم يكن على ظهر السفينة إلا مجموعة مِنْ الحراس الهنود، أما الآخرون فقد اختفوا داخلها.

المركب الأخضر رافق السفينة، لكن احتفظ بمسافة بعيدة نسبياً.

ذنون بعد أن شهد نهاية الرحلة، توجه إلى بستان المتولي وحده، وكان يستعيد فِي ذاكرته أحداثاً كثيرة، ولا يعرف هل ما شهده منذ البداية حتى تلك اللحظة حلماً أم حقيقة. كانت الأحداث تتراكض فِي رأسه، وكانت الوجوه والملامح والأسماء تتداخل وتختلط.

دفع باب البستان ودخل بهدوء. كان راغباً فِي أن يرى الحاج صالح وأن يرى تماثيله، وكان يود المرور على الخيول أيضاً.

اتجه إلى حيث التماثيل أولاً. رأى أم قدوري تهيىء عقوداً مِنْ الياسمين، وما أن تنتهي مِنْ خرزها، حتى تقول، وهي تناول الحاج عقداً جديداً:

- وهمين هذا خلص...

ويستدير الحاج نصف دورة ويلتقط العقد ويعلِقه على أحد التماثيل.

كانت التماثيل مطوَقة، معظمها، كلها، بعقود الياسمين!

حسون الذي رابط فِي البستان، بحجة إطعام الخيول، لم يقوَ على مشاهدة السفينة تغادر، وعليها زوجة القنصل، ربما أحس، أو قال له شلال، أن أحداً جاء. خرج على مهله، رأى ذنون يتقدم بخطوات صغيرة باتجاه المشتمل والدموع تتساقط مِنْ عينيه. قال له بهمس:

- عبالي الكبار ما يبكون، عمي ذنون!

- ماكو أحد ما يبكي، حسون، بس بكا عن بكا يفرق... وأنا اليوم فرحان!

دمشق / بيروت 1997 _ 1999

Contents

Notes

[←1]

270 صفحة

[←2]

صفحة 180

[←3]

135 صفحة

[←4]

[←5]

[←6]

[←7]

صفحة 90

[←8]